

هاري موليش

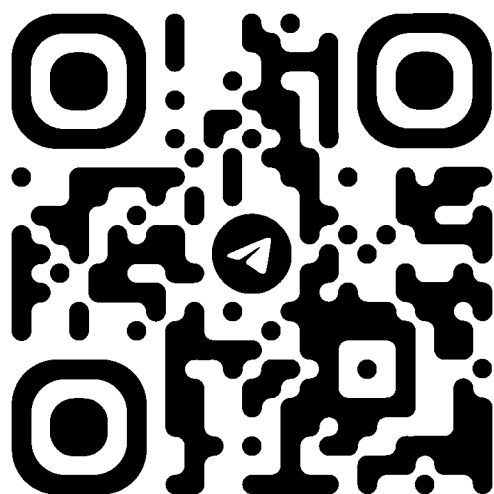
رواية
مكتبة

اكتشاف السماء

ترجمة: أمينة عابد



دار



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

اكتشاف السماء

De ontdekking van de hemel

Harry Mulisch

Vertaald door Amina Abed

اكتشاف السماء - رواية

تأليف: هاري موليش

ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد

مكتبة

t.me/soramnqraa

24 5 2025

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 701 - 21 - 5

الطبعة الأولى: 2024

سارد

دار سرد للنشر

جوال: +961 81756938

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing



دار مسدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة

الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

جوال: +971 557195187

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH

هاري موليش

اكتشاف السماء

رواية

ترجمتها عن الهولندية:

أمنية عابد

This book was published with the support of the
Dutch Foundation for Literature.

Nederlands
letterenfonds
dutch foundation
for literature

الجزء الأول

بداية البداية

مدخل

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لحظة من فضلك!
- ما الأمر؟
- لقد أنجزت المهمة. انتهت المسألة.
- أيُّ مسألة؟
- أجل، لا تؤاخذني! أهمّ المسائل. المسألة الرئيسية.
- المسألة الرئيسية؟ عمّ تتحدّث؟!
- عن الشهادة.
- أوه، طبعاً يا إلهي، كم هو شيء فظيع! تكرّس نفسك للأمور الجوهرية من دون هوادة، تبذل كلّ ما لديك من طاقات عليها، ثم تأتي لحظة تنساها ببساطة، أو تنهيها في طرفة عين.
- ربما كان ينبغي أن تعمل على التوسّع في التفويض.
- وربما كان ينبغي أن تعرف مكانك، عندما يأتى عليك أحدٌ على الأسرار. التوسّع في التفويض! يبدو أنك لا تعلم بعد ما الذي يلوح في الأفق. لماذا تظنّ أنه بُدئ بهذا المشروع؟ أخبرني، كم كرّست من الوقت للعمل على هذا الملف؟
- ما يزيد عن سبعين سنة بشرية.
- كلّ آذانٍ مُصغية.
- من أين أبدأ؟
- أنت خير من يعرف. زدني أولاً بموجز عن المقدّمة.
- لم يحدث كثيراً أن عملت على مثل هذا البرنامج المعقّد. أشكر الربّ أننا نترك

الأحداث تأخذ مجراها الطبيعي على العموم، وفي المهام السابقة كان لديّ مزيدٌ من الوقت لأتحرك في نطاقه. أما هذه القضية فقد كان يجب أن تنتهي قبل نهاية الألفية لسببٍ أو لآخر، لذلك كان لديّ من الوقت أربعة أجيال على أقصى تقدير كي أتوصل إلى شخص يستطيع تنفيذ المهمة. لو سارت الأمور مسارها الطبيعي على نحوٍ أقل أو أكثر، لما أعطت ثمارها في هذه المدة القصيرة بأيّ حال من الأحوال. طبعاً كان بوسعنا، من حيث المبدأ، أن نوكل المهمة إلى أيّ «شرارة» لا على التعيين، ولكن ذلك لم يكن ليعود بأيّ نفع. كانت المشكلة هي أنه لو أراد أن يكون مبعوثنا فعلاً، لوجب عليه تذكّر المهمة عندما يكون موجوداً في روح وجسد، أيّ كان يجب أن تخطر في باله تلك الفكرة الاستثنائية، ويضاف إلى ذلك أنه كان لا بدّ من امتلاكه من الإرادة والشجاعة ما يمكنه من تنفيذها. أتكلّم عن «هو» لأنّ «هي» لم تبدُ لي فكرة جيّدة. كانت هناك «شرارة» تستوفي تلك الشروط بطبيعة الحال، بين الاحتمالات الإنسانية اللانهائية، التي نمتلكها هنا، ولكن كيف كان لنا إيصالها إلى الأرض؟ لذلك كان علينا في أوّل الأمر تحديد تسلسل الحمض النووي الفريد ذاك، الذي يستطيع الظهور به. لا أحتاج إلى إخبارك بأنّ لولب الحمض النووي المزدوج الملفوف، المحتوي على المعلومات الخاصة بالإنسان، صولجان هرمس المحكم ذاك في نواة كلّ خلية من خلاياه البالغ عددها مئة ألف مليار، لا يزن أكثر من جزء من مئة ألف غرام، ولكنّ طوله، في حال بسطه، يكاد يبلغ طول الإنسان نفسه، لذلك فإنّ عدد التسلسلات الممكنة على المستوى الجزيئي ضخم غير قابل للتحمّل. لو كُتِب بالكلمات المكوّنة من ثلاثة حروف في الأبجدية المكوّنة من أربعة حروف، لتشكّلت حكاية جينات وراثية تحدّد كائناتاً بشرياً، حكاية تستطيع أخذ حيّز ما يعادل خمسمئة كتاب مقدّس. لقد توصل الناس أنفسهم في الفترة الماضية إلى هذه النتيجة.

- صحيح. لقد كشفوا النقاب عن مفهومنا الأكثر عمقاً، وهو أنّ الحياة قراءة في نهاية الأمر. إنهم هم أنفسهم كتاب الكتب. في عامهم 1869 اكتشفت تلك المخلوقات البائسة «الدي. إن. أي» في نواة الخلية، وأقنعتنا أنفسنا حينذاك بأنّ ذلك ليس بذّي أهمية، إذ لم نتوقّع أن يخطر في بالهم أنّ ذلك الحمض ينطوي على رمز، ومن ثمّ لن يستطيعوا كسره بأيّ حالٍ من الأحوال، لكنهم بعد مضيّ مئة عام بشريّ تمكّنوا من فكّ الشيفرة الجينية حتى أدقّ تفاصيلها. نحن الذين جعلناهم في منتهى الذكاء بذلك الرمز.

- ولكن بعد مئة عام بشريّ كنت أنا أيضاً قد تدبّرت الأمر. نجحنا في البدء في كتابة

الاسم السري الذي يُدعى به رجلنا - لكنّ ذلك لم يكن شيئاً، مقارنةً مع ما كان ينبغي فعله بعد ذلك. فقد كان علينا العثور على آباء الأجداد، والأجداد، والآباء الذين بوسعهم إنتاج التركيبة المطلوبة خلال ما يقارب خمسين سنة. بحكمته العصبية على الفهم، التي يمكن لها إدهاشه هو نفسه في بعض الأحيان، نظّم «الحاكم» الأمور بحيث تكون لدينا في نورنا اللانهائي «شرارة» لكلّ تركيبة قد تنشأ من نطفة وبويضة. يُطلق الرجل ثلاثمئة مليون نطفة في كلّ عملية قذف: بالاقتران مع بويضة أنثوية واحدة يساوي هذا العدد عدد الأشخاص المحتملين، ومن ثم عدد «الشرارات» المتوافقة معه. ولكن المطلوب أيضاً هو «شرارة» لكلّ تركيبة من كلّ نطفة من كلّ عملية قذف يقوم بها كلّ رجل في الزمن الحاضر والماضي والمستقبل مع كلّ بويضة من كلّ امرأة في الزمن الحاضر والماضي والمستقبل. كان هذا أمراً ضرورياً، إذ لم يستطع أحدٌ حتى هنا معرفة أنّ الإنسان عندما يكتشف شيئاً يستطيع إطالة عمره إلى مئات السنين أو آلاف السنين. هذا يعني أنّ هناك «شرارة» لكلّ تركيبة كان يمكنها النشوء من انصهار نطفة معيّنة من عملية قذف معيّنة ليوليوس قيصر، مع بويضة معيّنة من بويضات مارلين مونرو. وكذلك لكلّ تركيبة كان يمكنها أن تنشأ في وقتٍ لاحق من ارتباط كلّ نطفة من عمليات قذف لانهائية يقوم بها الابن المحتمل المولود في هذا الزواج غير المتكافئ مع كلّ بويضة من بويضات بنات محتملات لا حصر لهنّ من صلب جون كينيدي وكليوبترا، أو مع تلك المتأتية من صلب عامل بناء لا على التعيين في زمن الفرعون خوفو وحارسة مرحاض عمومي بعد عشرة آلاف سنة - وهذه الاحتمالات كلّها مع ذرياتها كان يمكنها الارتباط مع كلّ الاحتمالات الأخرى مع ذرياتها، المحتملة في الزمان والمكان، وإلى آخره، وإلى آخره إلى ما لا نهاية. هكذا إلى جانب «الشرارات» الخاصة بالتركيبة المؤلفة من النطاف كلّها - التي تُقذف بآلاف اللترات باستمرار قرناً بعد قرن - والبويضات كلّها في الأزمان كلّها، كان يمكن أن تكون هناك أيضاً «شرارات» خاصة بأجيال بديلة متشعبة ومتفرّعة إلى ما لانهاية مما يمكن أن يكون: راجع «لوغوس سبيرماتيكوس»^(٥) - النور اللانهائي المطلق!

- هل لي بسؤالك عمّا إذا كنت تخبرني بهذا كلّ من أجل أن تعلّمني شيئاً؟

- يا قدّوس، يا قدّوس، ويا قدّوس! أتحدّث لأنني لا أزال مذهولاً من التفكير في نورنا.

(٥) Logos Spermatikos: مفهوم لاهوتي مسيحي، ينصّ على أنّ الحدس المسيحي الأساسي موجود في عناصر مختلفة من الفلسفة الوثنية. [الترجمة].

- هذا يشرفك. لعلك تريد القول إن هناك الكثير منه.

- أجل، تستطيع صياغته على هذا النحو أيضاً.

- ولكن حالفك التوفيق.

- أجل، لكن لا تسألني كيف. فك شفرة الجينوم، الاسم السري الكامل لكائن بشري، إنما هي مسألة مال بالنسبة إلى الناس أنفسهم في الوقت الحاضر، دولار واحد لكل نكليوتيد على وجه الدقة، أي ما يعادل ثلاثة مليارات دولار، والآن يعملون على هذا المشروع في أرجاء الأرض كلها. ستمكّنهم التقنية الحيوية، في المستقبل المنظور، من تصنيع الجواهر الجيني لبويزة معينة ونواة خلية معينة ذات ذيل على نحو أسرع وأسهل بكثير مما يمكننا نظامنا التناسلي الرومانسي من الطراز القديم للغاية من انتقاؤه - ولكن كانت هناك حاجة ملحّة لأن يحدث هذا قبل عام ألفين.

- تماماً. هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين هذين الأمرين؟ هل رأيت بيت القصيد الآن يا ثري؟ نحن أيضاً لم نكتشف إلا قبل خمس وسبعين سنة بشرية، على رعبنا الشديد، مدى السرعة التي تتنامى بها المهارات التقنية هناك في الأسفل وما يفعله الناس بها، ليس في مجال التقنية الحيوية فحسب، وإنما في المجالات الأخرى كلها أيضاً. لن يبقى من منظمتنا في المستقبل المنظور سوى أطلال، وستطوى السماء في نهاية المطاف مثل كتاب. لكن أخبرني كيف تدبّرت الأمر؟

*

- رغم المشكلات كلها، رأيت قبل سبعين سنة بشرية أن هناك إمكانية لإدخال «الشرارة» المطلوبة في روح وجسد، ليس في أربعة أجيال وإنما في ثلاثة أجيال فحسب.

- أحسنت! موهبتك الإبداعية أعظم مما ظننت.

- ولكن هذا لم يكن ليحدث من دون ضرر. كان عليّ استخدام وسيلة مرعبة.

- ألا وهي؟

- الحرب العالمية الأولى.

- أجل، إنها مظهر من مظاهر هذه المسألة نفسها. ما كان يرادونا من قلق بشأن التحوّل

التقني، الذي اتخذ التاريخ البشري بوتيرة متزايدة، أكدته لنا هذه المذبحة الفظيعة تأكيداً قاطعاً.

- لذلك تمكّنتُ من إضفاء مغزى آخر عليها، وذلك على النحو التالي: بالرجوع إلى الوراء من التسلسل الضروري للأحماض الأمينية إلى الجدّ المحتمل من طرف الأب، تمكّن مرؤوسيّ البالغ عددهم 301655722، بناءً على توجيهاتي، من التوصل إلى نمساوي، يدعى فولفغانغ ديلوس، وُلِدَ من دون غايات استثنائية عام 1892. أما الجدّة من طرف الأب فقد تبين أنها لا يمكن إلا أن تكون امرأة تدعى إيفا فايس، وُلدت هي أيضاً من دون غايات استثنائية، ولكن في عام 1908، في بروكسل.

- «فايس» لا يبدو اسماً فلامندياً. ألا ينبغي أن يكون «ده فيته»؟

- كان والداها من اليهود المتحدثين بالألمانية من فرانكفورت وفيينا. عائلة من تجّار الألماس.

- متديّنة؟

- أغنوسية تماماً. كانت تضحك علينا.

- هممم.

- الإيمان ليس سهلاً بالنسبة إلى الناس، نكاد لا نستطيع تصوّر هذا الأمر. بالنسبة إلينا لا يوجد إيمان، بل معرفة.

- أجل، أجل، أستطيع ملاحظة أنك تعمل على الحافة القصوى من النور. لعلّك يجب أن تحترس بعض الشيء من التفهّم الزائد عن حدّه. تابع الحديث من فضلك!

- في نيسان عام 1914 تلقّيت توجيهاتك، وفي حزيران من العام نفسه قفز طالب، يدعى غافريلو برينسيب، إلى الأمام في سراييفو، وأطلق رصاصة على الأرشيدوق النمساوي. لن تستطيع كبح ما يتبابك من سعادة داخلية عند سماعك هذا الاسم وهذه النسبة. كان من أنصار نيتشه، أقطع الموجودين جميعهم.

- يُخيّل إليّ أن اسم «نيتشه» أيضاً لا يخلو من مدلول خاص. نيتشفو. ذلك العدمي الذي نشر إشاعة في ذلك الوقت بأنّ «الحاكم» قد مات. لا علينا، لم يكن قد ابتعد عن الحقيقة، ولكن واقع أنّ الزعيم لا يمكن أن يموت، يشكّل بالذات أقطع تحديد لقدرته المطلقة. إنه موجود بنعمة التناقض، ولكن بفضل هذه النعمة نفسها يجب أن يوجد إلى الأبد ويموت إلى الأبد.

- في غضون بضعة شهور كانت المذبحة تجري على قدم وساق. لم أستخدم ذلك

الحدث لأجعل فولفغانغ ديليوس وإيڤا فايس يلتقيان فحسب، وإنما لأموّر تتعلّق بالجيل اللاحق أيضاً، فقد كان من الضروري أن يدلي الهولنديون أيضاً بدلوهم.

- هولنديون؟ ألا يبعدنا هذا عن الهدف كثيرًا؟

- لم تكن هناك إمكانية أخرى. قامت الأركان العامة الألمانية والنمساوية بإخراج خطة شليفن القديمة من غياهب الأدرج، الخطة التي كان من شأنها انتهاك الحياد الهولندي والبلجيكي، لتستطيع بتلك الطريقة اجتياح فرنسا بحركة التفافية. أما بالنسبة إلى مشروعى فقد كان الحياد الهولندي يحظى بالأهمية الجوهرية نفسها التي كان يحظى بها الانتهاك البلجيكي، فاستطعت من خلال بثّ إحياءات رقيقة في دماغ مولتكه ضمان تنفيذ الخطة في الجزء المتعلّق ببلجيكا فحسب.

- أصبحت ذاكرتي عن القضايا الإنسانية مثل الغربال في الآونة الأخيرة. مولتكه؟

- الجنرال المارشال فون مولتكه، رئيس أركان الجيش الألماني. كان فولفغانغ ديليوس -أو كما اعتاد هو نفسه القول حسب عادة منطقته: ديليوس فولفغانغ- قد تخرّج حديثاً في كلية التجارة في فيينا، فصار عسكرياً محترفاً وانخرط في القتال على الجبهات الإيطالية والروسية والفرنسية. في بروكسل عُسكر عند عائلة فايس، حيث كانت زوجته المستقبلية لا تزال تجلس على الأرض تلعب بدمية. كانت تتدرّب على تلك الدمية إذا جاز التعبير. كان ديليوس ضابطاً في مقتبل العمر وسيم الهيئة في سلاح المدفعية المحمولة، بأوسمة من طراز رفيع ومهاميز فضية في حذائه العسكري، ولكن بنظرة شديدة الفتامة في عينيه، يعزوها الجميع إلى ما عاشه من تجارب الحرب وتمتّ أيضاً بشيء من الصلة إليها، ولكن ليس بكامل الصلة. كانت هناك فتامة متأصلة أعمق في كيانه. كان يحمل في جعبته، كما يسمّونها، كتاب شتينر «الأنا وذاتها». كان فايس، السعيد بأن يكون بين أبناء وطنه ولغته من جديد، يجلس في تلك الأثناء إلى جانب القائد العسكري في سيارة مفتوحة ويتجوّل في شارع أنسبش العريض، الأمر الذي لم يغفل عنه أهل بروكسل. قدّمت الحرب خدمتها، وعندما استسلمت ألمانيا والنمسا، واجه فايس، حسب خطّتي، صعوباتٍ جمّة. في اليوم التالي للهدنة صُودرت ممتلكاته كلّها، وكي يتفادى الاعتقال اضطرّ إلى الهروب مع عائلته على جناح السرعة، إلى هولندا، المكان الذي كنت أريدهم فيه، إذ لم تكن هناك إمكانية أخرى. في غضون ذلك كان ديليوس قد امتطى جواده وغادر على رأس مجموعته، باتجاه ألمانيا.

- لكنّ أحدهما كان يعرف الآخر في ذلك الوقت.

- كان قد وُضع الأساس. بعد عودة ديليوس إلى فيينا الجائعة الباردة، عمل في تدريس المحاسبة في مدرسة خاصة للبنات، لكنّه بقي يتبادل الرسائل مع فايس، الذي سرعان ما حقّق نجاحات في أمستردام، فاستقدم صديقه الشاب في بداية العشرينيات وشغّله محاسباً بشكلٍ مؤقتٍ في شركة الألباس الخاصة به. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أقام ديليوس نفسه، بدعمٍ من فايس، مشروعاً للوساطات التجارية مع ألمانيا والنمسا. كبر مشروعه في غضون سنوات قليلة وصار مكتباً ليس قليل الشأن، حصل على الجنسية الهولندية، وفي عام 1926 عقد فولفغانغ ديليوس قرانه على إيڤا فايس، ابنة صاحب الفضل عليه، التي تصغره بست عشرة سنة. كانت تلك الطفلة تبلغ الثامنة عشرة في ذلك الوقت، وما إن مضت سنة واحدة حتى أنجبت طفلاً، ولكن نتيجة خطأ إملائي في فرعي مات ذلك الصبي الملائكي في مهده بعد أسبوعين من ولادته. آل الزواج إلى مآلٍ فظيع، يؤسفني قول هذا. أدركت مرة أخرى ما نحظى به من امتياز بأننا لسنا من جنس الرجال ولا من جنس النساء. ولكنّ ذلك كان ضرورياً لابنهما الثاني، الذي وُلد عام 1933، والذي كنت أحتاجه لأن يكون والداً لرجلنا على الأرض.

- لماذا كان ذلك الزواج فظيلاً؟

- لولا توجيهاتك، لما كان ينبغي أن يحدث إطلاقاً. الجميع على الأرض يتزوّجون بالشخص الخاطئ على الدوام، هذا شيء معروف، ولكن قلّما كان هناك زوجان متنافرين في الطباع أكثر من هذين الشخصين. لا بدّ أنّ المرأة الشابة وزوجها الذي يكبرها بكثير قد جرح أحدهما الآخر جرحاً غير قابلٍ للالتئام بطريقة أو بأخرى - ليس بقول شيء معيّن أو فعله أو عدم فعله، ولكن بما جُبل كلّ منهما عليه. لقد تزوّج أحدهما الآخر في نهاية الأمر، لأننا أردنا ذلك، لكنهما هما نفسيهما لم يكونا طبعاً على دراية بهذا الأمر. لعلّ ما دفعها إلى ذلك كان تحديداً تلك النظرة القاتمة المثيرة للاهتمام في عينيه الزرقاوين اللامعتين، التي انقلبت عليها في نهاية المطاف؛ أما بالنسبة إليه فقد كان ذلك الإحساس الحرّ في داخلها، الذي لم يستطع تحمّله في آخر الأمر. كانت روحها أخفّ وأسرع من روحه بعشر مرّات. كانت روحه ثقيلة وملتوية، مثل حبل مرساةٍ عالقٍ في مروحة سفينة - مثل معظم النمساويين منذ سنة 1918، المختنقين بالكراهية وكراهية الذات في سادومازوخوية نظامهم الملكي المزدوج الممزّق شرّاً تمزيق، الذي آل إلى الفناء بفضل جنون نمساوي آخر بعد بضع سنوات من ذلك. في المساء كانت تريد الخروج للسهر، أما هو فكان يفضل التعمّق في فلسفة ماكس شتينر.

بينما تلهو مع أصدقائها وصديقاتها اليهود من عمرها في المدينة، كان الجرمني يقرأ بنظارة مفردة على عينه عن الفرد باعتباره الشخص المنقطع النظير، وعن العالم الذي يملكه. حسب رأي شتيرنر، لا ينبغي للشخص أن يسمح لأي أحد أو أي شيء أن يُملّي عليه تصرفاته: الأنا المنقطعة النظير ذات سيادة مطلقة، إلى حد ارتكاب الجريمة. كانت عندما تعود إلى البيت في الليل، تجده أحياناً يصرخ في نومه، يقاتل ضد الإيطاليين بوسادته. لعلها كانت تستطيع فعل شيء حيال هذا الأمر، قبل أن يؤدي به إلى الهلاك، لكنها لم تفعل. لعلها كانت صغيرة في العمر على هذا الفعل؛ لعل السبب أيضاً يعود إلى أنها كانت هي نفسها «منقطعة النظير» أكثر منه بكثير في آخر الأمر. في عام 1939، تركت إيفازوجها فولفغانغ، مصطحبةً معها ابنها البالغ ست سنوات من العمر.

*

- جميل! والآن أخبرني عمن ستصبح الأم!

- لم أحتج إلى العمل على هذا الأمر بشكلٍ موسّع من حسن الحظ. لم تتمخض عنه مشكلاتٌ تُذكر في الواقع، ولا سيما على الصعيد الدولي. كانت المسألة تتعلق بهولنديين، وعادةً ما تسير الأمور بعنفٍ أقلّ عند هؤلاء التجار المهذّبين. لا أنكر أنّ السبب في ذلك يعود أيضاً إلى نجاحي في إبقائهم خارج نطاق الحرب العالمية الأولى؛ الحقّ أنّ الحرب العالمية الثانية كانت حربهم الأولى منذ تلك التي خاضوها في القرن السادس عشر ضد إسبانيا، التي بهذه المناسبة قادها أيضاً نصف نمساوي. لو فاتهم الحرب العالمية الثانية أيضاً، لبلغوا من الاستياء ما بلغته العذارى من سكّان الوادي السويسري.

- لست على يقين من أنّ هذه المقاربة تُحدث انطباعاتاً جميلاً في نفسي.

- إذا أردت، سحبت كلامي وافترضت العكس.

- لا حاجة إلى ذلك.

- لم يكن ينبغي سوى أن أُجري بعض التعديلات لتجيء إلى الدنيا. انطلقنا مرة أخرى مما نريد الحصول عليه في نهاية الأمر، مقترناً مع المادة الوراثية لديليوس الابن، فاكشفنا أنّ الجد المحتمل من طرف الأم حارسٌ في المتحف الهولندي التاريخي للعلوم الطبيعية في مدينة لايدن: يُدعى أوسوالد برونس، وُلد من دون غايات استثنائية في 1921. تبين أنّ الجدة الضرورية من طرف الأم، صوفيا هاكن، تعيش بمصادفةٍ محض في الجوار، في مدينة دلفت،

حيث وُلدت في 1923، من دون غايات استثنائية أيضاً. اضطّر برونس في نهاية الحرب إلى التخفي على نحوٍ أقل أو أكثر في المتحف وذلك بسبب عمره؛ كان ينام هناك أيضاً في أغلب الأحيان، في الصالة المحتوية على ذلك الجهاز السريالي من إبداع كامرلينغ أونس، الذي يُستخدم لتسييل مادة الهيليوم، والذي يشبه حدّ التطابق وحشاً مرسوماً على الجزء الأيمن من لوحة «حديقة المباهج الأرضية» لهيرونيموس بوس، الجحيم الموسيقي، ويشبه أيضاً الشكل العلوي المرسوم في لوحة «الزجاجة الكبيرة» لمارسيل دوشامب.

- ما الذي تقوله؟

- لا تولِ الأمر أيَّ اهتمام. بسبب ذلك العبث الجيني كلّهُ، لا تزال هناك بكرة تندرج في كياني جيئةً وذهاباً، مثل نول حياكة. في نهاية 1944، في الشتاء الأخير من الحرب، اعتادت قوَّات الاحتلال الألماني أن تركز قطارات محمَّلة بصواريخ الفاو-2 في محطة لايدن، جنوب المستشفى الجامعي مباشرة، على أمل منع الإنكليز من القيام بهجمات جوية. كانت تُطلق الصواريخ من قاعدة عسكرية في الجوار على لندن. ولكن في ظهر يوم من أيام كانون الأول، في الساعة الثانية عشرة، تعرّضت المحطة مع ذلك لقصفٍ عنيف؛ ما لبث أن انتشر خبرٌ كاذب في دلفت بأنَّ المستشفى قد اضطرت النيران فيه. رغم الجوع الذي كان قد أخذ من صوفيا كلّ مأخذ ورغم البرد القارس، ركبت دراجتها الهوائية وذهبت إلى لايدن في الحال، لتطمئن على صديقتها الحميمة، زميلتها الممرضة، وتتأكد من أنها لم تتعرّض لسوء. بينما تمرّ من جانب المتحف، الواقع بضع مئات من الأمتار إلى جنوب المحطة، بدأت الغارة الثانية، فبحثت عن ملجأ في أحد المداخل. ولكن الإنكليز كانوا، تحت تأثيري الإيجابي، خائفين من إصابة المستشفى، لذلك أخذت القنابل تنهمر حولها بصورة مفاجئة. دمرت إحدى القنابل جناحاً في المتحف، الجناح الذي تُعرض فيه مناظير فلكية نحاسية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. في فوضى النيران، والضوضاء، والغبار، والصياح بالهولندية والألمانية، وسيارات الإطفاء والإسعاف والشرطة، التقت بأوسوالد برونس بمصادفةٍ محض. كان مذهولاً، ممزّق الملابس ومغطّى بالخدوش، يتجوّل بين الأنقاض بعدسة ضخمة بين ذراعيه، مثل طفل رضيع، فأشفقت عليه.

- تدخل بسيط. تأثير إيجابي. كم قتيلاً؟

- أربعة وخمسون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- بعض التعديلات، أليس كذلك؟

- أجل، أصغ إليّ، ما الذي تريده الآن؟ لم تكن تلك المناورات كلّها من بنات أفكارى، كنت أنفّذ إرادتك الملائكية فحسب. يضاف إلى ذلك أنني منعت تحوّل المستشفى إلى رماد. يبدو من السهل أن تؤثر في المسار الطبيعي للأمور، لكنّ الواقع مثل الماء: سائل ومتحرّك، لا تستطيع ضغط القليل منه إلا باستخدام عنف بالغ الشدّة. إذا وقع الإنسان عليه من علوّ شاهق، يكون قاسياً مثل الصخرة التي فجّر موسى الماء منها.

- أوه، موسانا.. وضعت يدك على الوتر الحساس.

- لا تؤاخذني!

- متى جاءت ابنتهما إلى الدنيا؟

- في 1946، أثناء موجة الولادات.

- ومتى تعرّفت إلى ديلبوس الشاب؟

- في أيار 1967.

- أخبرني الحكاية كلّها منذ تلك اللحظة فصاعداً. يُفضّل من دون تعليق. اسردها بإسهاب

ونفصيل، ليكون بوسعي الاختيار عندما أقدم التقرير.

- بغية الفهم الكامل، أفضّل البدء قبل ذلك بقليل.

- متى؟

- يوم الاثنين، 13 شباط 1967، في الثانية عشرة من منتصف الليل.

- يعني 14 شباط في الواقع.

- أجل، الزمن البشري ليس سوى تناقض كبير.

- في أيّ سنة يعيشون الآن هناك في الأسفل؟

- 1985.

- ابدأ الحكاية. كلّ آذان مصغية.

1. الحفلة العائلية

في تمام الثانية عشرة من منتصف الليل تكفّلتُ بحدوث تماس كهربائي. لو كان هناك شخصٌ يسير في الدرب الهادئ في لاهاي، غاطساً حتى أذنيه في ياقة معطفه من شدة البرد (ولكن لم يكن هناك شخصٌ من هذا القبيل في تلك اللحظة)، لرأى الأضواء كلّها تنطفئ بصورة مفاجئة في المنزل الفخم المعزول عن المنازل الأخرى، كما لو أنّ شمعةً ضخمة انطفأت هناك في الداخل. كان الساكنون في الجوار يرون أنّ القليل تنضح بشيء من الفخامة القاتمة: إذ يسكن فيها وزير الدولة الأسطوري، الكالفيني المتشدّد هيندريكوس كويست. في الغرف المزدحمة في الطابق الأرضي، حيث تُقام الحفلة، استُقبل الظلام المفاجئ وتلاشي الموسيقى في كهفٍ غير قابلٍ للسبر بالضحك.

صاح صوتٌ نسائي لم يعد يافعاً منذ وقت طويل: «ساعة للشباب!».

- مَنْ يفهم هنا بالتقنية؟

- سأتدبّر الأمر. أين المصاهر يا جدّتي؟

- فوق عدّاد الكهرباء، في الخزانة الصغيرة بجانب سلّم القبو.

- لا بدّ أنّ أحداً عبث بشيء ما، لا يحدث تماسٌ كهربائي من تلقاء نفسه.

- سأصعد إلى العليّة لألقي نظرة على الصغار.

- أوه!

- لا بدّ أنّ أحداً قد أشعل محمصة الخبز البائسة تلك. كوبي؟!

- نعم، سيّدي!

- هل أشعلت محمصة الخبز؟

- لا، يا سيّدي.

- انظري ما إذا كانت هناك شموع في خزانة البوفيه!

- حاضر، سيّدي!

كانت مصابيح الشارع وحدها لا تزال تلقي بعضاً من الضوء إلى الداخل. نهض رجلٌ ضخّم القامة عن مقعد خيزراني ذي ذراعين، في الجناح الزجاجي المظلم الواقع في الجهة الخلفية من المنزل. ألقى نظرة مستطلعة على عشرات الخيالات بينما يحمل الكأس في يده. هتف بصوت عالٍ مشدداً على كلّ كلمة من كلماته: «لا يا أمي! هذا لا يمتّ بأيّ صلة لمحمصة الخبز. لقد بدأ!».

- ما الذي بدأ؟

هتف وقد ألقى رأسه إلى الوراء، بانتهاء، مثل صوفيٍّ مستنير: «ال...!». فقال صوتٌ رجولي: «لقد بدأ من جديد. اجلس وتوقّف عن الشرب!». - ال...!

- نعم، نعم. ال... كلّ شيء على ما يرام.

- صحيح! كلّ شيء على ما يرام. الظلام يسود في الداخل أيضاً، والجوّ متجمّد في الخارج. كان الوقت قد حان لأن يبدأ أخيراً، وما قد بدأ حمداً للربّ. فليكن كذلك. آمين! - كي يفهم الكلاب المسيحيون أيضاً.

- أونو، أنت لا تُطاق!

لكنّه أخذ يستلهم المزيد من المعارضة التي أثارها. كان يعلم أنه يبالغ، لكنّه ترك نفسه ينجرّف مع كلماته:

- هل تسمع أذني الصوت النشاز لأخي الأكبر؟ أشدّ الكالفينيين تعصباً؟ أهنالك أفضع من أن تكون أختاً أكبر؟ سأتركها تفلت من بين أسناني المكزوزة: أن يكون لديك أخٌ أكبر! والدي، كمّم فم هذا التافه السخيف!

قالت امرأة في الظلام: «لست أدري ما إن كنت تتذكّر، لكننا هنا نحتفل بعيد ميلاد والدنا، عيد ميلاده الخامس والسبعين، هل تتذكّر؟ والقصد هو الاحتفال».

- أليست هذه أختي الصغرى؟ أو فيليا الجميلة؟ نعم، أتذكّر، أتذكّر. إنني أنا نفسي أبلغ

الثالثة والثلاثين - أيمن لهذا أن يذكر أحداً في هذا الجمع من المتعصّين والمتمزّتين بشيء ما؟ أتذكر كلّ شيء، لأنني لا أنسى أي شيء. أليست هذه المرة الثانية التي نحتفل فيها بعيد ميلاد والدنا خلال أسبوع واحد؟ أين أنت يا والدي؟ إنني أبحث عنك، لكنني أنظر في مرآة، في لغز^(*). كنت أول أمس جالساً إلى رأس الطاولة، هناك في قصر ده فيتنبورخ: الملكة إلى يمينك، وليّة العهد إلى يسارك؛ والدتنا المسكينة محشورة بين الأمير ورئيس الوزراء في النهاية الأخرى من الطاولة، التي تبعد عشر دقائق سيراً على الأقدام؛ وفي المسافة الفاصلة بينكم الائتلاف الحكومي بأكمله، ستة وثمانون وزيراً سابقاً، مئة وثمانية وستون ألفاً من الجنرالات والأساقفة والمصرفيين والسياسيين والصناعيين على مرمى البصر؛ وأنتم الحاضرون هنا أيضاً، أنتم الباشاوات والصدور الأعظم وأصهار الأباطرة والمرازبة جميعكم. هنا مكن الوحوش^(**). ليت أخي الأكبر الفظيع وحده لم يكن موجوداً، مفوّض الملكة في تلك المقاطعة المتخلّفة التي يظل اسمها يتملّص مني.

- لم أعد أطيع سماعه، سأذهب لأصفعه على وجهه!
- تحكّم بنفسك يا ديدرك. كم أنت رجل مزعج يا أونو! كنت أنت نفسك جالساً في بدلتك الرسمية تتكلّم في منتهى الخجل مع الأنسة الموقرة بوب.
- يا إلهي، الأنسة الموقرة بوب، الحبيبة الغالية. كنت أعطيها إرشادات جنسية. كان كلّ شيء جديداً بالنسبة إليها.

كان أونو في حالة استمتاع. فجيله على وجه الخصوص هو الذي يعارضه. لم يكن الجيل السابق يقول الشيء الكثير، أما الجيل اللاحق، الذي لا يزال في المدرسة الثانوية، فينصت إليه بابتهاج وإعجاب شديد. يجب أن تكون هكذا. يجب أن تتوفّر لديك الجرأة لأن تكون هكذا.
- لا أستطيع العثور على الشموع في أيّ مكان يا سيّدي.

دخل صبيّ بمصباح يدوي ينبعث منه ضوء أضعف من ضوء شمعة: «لقد نفذت المصاهر». وضع المصباح اليدوي على الطاولة، ما جعل وجوه بضع سيّدات مستات جالسات هناك، يقضمن بسكويات الفستق بنّي اللون مدوّر الشكل، ويشربن الخمر، تتحوّل إلى وجوه ساحرات ترانسيلفانيا. لكنّ العيون بدأت تألف الظلام، فبدا وكأنّ الضوء انتشر بصورة

(*) جزء من الآية 12 في الإصحاح 13، من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس. [م]

(**) يقولها باللاتينية: «Hic sunt monstra». [م]

تدريبية. أونو لا يزال واقفاً في وضعية القائد العسكري الذي يلقي نظرة استطلاع على ساحة المعركة.

قالت والدته: «ذهبي إلى الجارة يا كوبي، إلى السيّد فان بالانت. لعلّها تستطيع مساعدتنا. ولكن لا تطرقي الباب إلا إذا رأيت الضوء مشتعلًا».

- حاضر يا سيّدتني!

هتف أونو: «لم يمض شهران بعد على يوم ميلاد السيّد المسيح، ولم تعد هناك أي شمعة في هذا الحصن المناهض للثورة!».

سأل زوج أخته الكبرى: «هل يمكنك الكفّ عن هذه الثروة المزعجة؟ اغرب من هنا يا رجل! اذهب إلى أمستردام، إلى المكان الذي تنتمي إليه».

- نعم، حمداً للسما أعيش في أمستردام وليس في هولندا.

- كم كأساً من الروم بالكولا شربت يا أونو؟

قال أونو وهو يرفع كأسه في الهواء: «هذا السائل لا نسمّيه روم بكولا في أمستردام. نحن في أمستردام نسمّيه كوبا ليبره^(*)، لكنكم ستوصّلون إلى هذه النتيجة في هولندا ذات يوم. لذلك أرفعها نخب إيدر ماكسيمو. الوطن أو الموت - النصر لنا! ^(**)».

وجرع ما في كأسه دفعة واحدة.

هتف أحد الصبيان: «عاش تشي غيفارا!».

- ما هذا يا مارتن؟ هل جننت؟!

- ظهر القرد على حقيقته.

- احترس من هذا القرد! هذا القرد سيحسم الأمر معكم ومع بلدكم الفظيع هولندا. في الأجل القريب ستصبح كوبي صاحبة الأمر والنهي هنا، وسيكون المفوّض السابق للملكة السابقة هو الذي يجب أن يأتي بالشموع من بيت الجيران، الذين لن يُدعوا عندئذٍ فان بالانت، ولكن - ما أدراني - خورتراك، أو أي اسم شريف آخر من الطبقة العاملة. أنتم تشكّلون هولندا. لولا آل كويست لما وُجدت هولندا على الإطلاق، ولكان ذلك نعمة عظيمة تنزل على الإنسانية.

(*) تعني: كوبا الحرة. [م]

(**) يقولها بالإسبانية. أمّا إيدر ماكسيمو فتعني: القائد الأعلى، والإشارة هنا إلى فيدل كاسترو. [م]

- أونو...

- تجاهله! إذا تجاهلته، توقف من تلقاء نفسه.

- أنت أيضاً من آل كويست على كل حال.

فقال بوقار: «أنا؟ أنا من آل كويست؟ يا لها من إهانة لا تُغتفر! أنا ابن حرام، صغير وقواق - هذا هو أنا».

قالت إحدى خالاته الجالسات إلى الطاولة الموضوع عليها المصباح اليدوي الذي أخذ يضعف أكثر فأكثر: «ستصبح وقواقاً ذات يوم».

سألت أخته الكبرى: «ومن يكون الوقواق الأب يا ثرى؟».

- لن نبوح أنا وأمي بهذا السر إطلاقاً. إطلاقاً! أليس كذلك يا أمي. لقد أقسمنا على ذلك.
- على ماذا أقسمنا؟

- آه، الآن تتظاهرين بأنك لا تعلمين! ألا تتذكرين ذلك الأمير الوسيم من ذلك البلد البعيد، الذي جاء إلى هولندا على فرس أبيض؟

- عمّ يتحدث بحق السماء؟!

- أعتقد أنّ هذا الشخص ليس في كامل وعيه^(*).

وضع أونو يده على قلبه: «عن الوصية السابعة^(**) يا امرأة».

سأل أخوه الآخر، الذي كان أستاذ القانون الجنائي في جامعة خرونيغن:

- وهل كان لذلك الأمير لحية سوداء يا ثرى؟ وهل كان يرتدي بدلة رسمية خضراء مع مسدس؟

تلعثم أونو، وضع كأسه على الطاولة، استند بيديه الاثنتين إلى الحائط، وأخذ يرتج بالضحك.

- هذا ما يروق لهذا الثرثار.

هتف أونو بصوت مخنوق: «أمي! إنهم يعرفون. لقد ظهرت الحقيقة».

- أيّ حقيقة؟

(*) يقولها باللاتينية. [م]

(**) واحدة من الوصايا العشر في العهد القديم، والوصية هي «لا تزني». [م]

- حقيقة أنك خنت أبي مع فيدل كاسترو.

- أنا خنت أباك؟ من أين جئت بهذا الكلام؟ حتى إنني لا أعرف ذلك الرجل.

- أمزح، يا تو، أمزح.

- يا لها من مزحات غريبة! لم أُنْخِن أباك إطلاقاً.

اعتدل أونو في وقوفه ورفع سبابة مرتعشة مثل نبيّ، وصاح: «لقد خنتني أنا! خنتني مع أبي! عندما حبلت بي!».

في هذه اللحظة ظهرت أخته الصغرى أمامه، كانت أقصر منه بمقدار رأس، وأمسكت يده. استسلم لها مثل دبّ سيرك حامل ثقيل وهي تنتحى به جانباً. قالت له بخفوت: «هذا يكفي يا أونو، لكل شيء حدود!».

- من الذي أقنعك بهذا؟

- لا أمانع بتاتاً، أستطيع تحمّل ضربة صغيرة، لكنك تتسبّب في إحراج والدتك. إنها لا تستطيع فهم دعاياتك الغريبة.

ردّد: «دعاياتي الغريبة؟ أنا أعني كلّ ما أقول. ألا يفهم أحدٌ هذا؟ حتى أنت؟ إذا كنت أنت لا تفهميني، فمن سيفهمني إذا؟ أوه، أين ذلك الذي يفهمني؟».

- كُفّ عن هذا! أنت الذي تستفزّ الآخرين هنا، وتتلذّذ بذلك.

- طبعاً، طبعاً، لكنني أقصد هذا. أقصد أيضاً ما لا أقصده.

- نعم، أحب سماع المزيد.

فهتف بنبرة مثيرة للشفقة: «لا، أنت لا تحيّن سماع المزيد على الإطلاق. إذا كنتُ على فراش الموت، زحفتُ إليك على ركبتَي، لكنك أنت أيضاً لا تفهمين شيئاً».

ثم أضاف بأعلى صوته فجأة: «لا أحد يفهمني!».

قال زوج أخته الكبرى: «هذا صحيح. لذلك عد سريعاً إلى كلماتك المتقاطعة، ونحن هنا في هولندا ستتكلّف بأن تواصل حلّ الكلمات المتقاطعة بهدوء وسلام».

وضع أونو يده خلف أذنه: «هل أسمع نبرة حادة هناك؟ أهي متأتية من أن لا أحد يريد تصديق أنّ مدّعياً عاماً بائساً من الريف، هو صهر أونو كويست العظيم، الذي لا يُنسى، المتمتّع بشهرة عالمية؟!».

بينما يدقّ بقبضتيه الاثنتين على صدره، فُتح الباب ودخلت مجموعة من الأطفال، في مقدّمتهم فتاة صغيرة في نحو السابعة من العمر، في روب نوم أبيض طويل حتى قدميها الحافيتين، وهتفت: «من هذا الرجل السكران؟».

تفرّس فيهم أونو بنظرة ازدراء: «حضانة أفاعي! هل سيصبح هؤلاء أيضاً وزراء وقضاة وزوجات سفراء في المستقبل؟ أوه يا إلهي، خذ هؤلاء الصغار واقدفهم على الصخور ليتحوّلوا إلى أشلاء! وإلا فلن يتوقّف هذا أبداً».

- عمّي أونو! عمّي أونو!

- أنا لست عمّ أحد. كيف تجرّؤون؟ أنا عمّ نفسي حصراً. إنني مُساء الفهم، موضع استهزاء الجميع، ومركولٌ إلى زاوية، أحوم وحيداً وعظيماً في فضاءات الملكوت الأعلى الرهيفة.

قال مفوّض الملكة: «لقد أصابني هذا المهرّج بالإعياء. ألا تستطيع وضع حدّ له يا والدي؟!».

ساد الصمت. أمسك أونو أيضاً عن الكلام بصورة مفاجئة. كان كويست يجلس في مكان بعيد في الغرفة الأمامية، بالقرب من الستائر المنسوجة من القطيفة. لم يستطع أونو رؤيته، أجال عينيّن باحثتين في اتجاهه، مثل شخص يحاول العثور على نجم خافت الضياء. قال كويست: «أوه، ستعود أمور هذا الصبيّ إلى خير ما يرام».

عندما سمعه أونو يقول هذا، وضع كأسه على حافة النافذة، وأخذ يتلمّس طريقه بين قطع الأثاث الثقيلة والسيقان الممدودة صوب الغرفة الأمامية - مسير تزايد أثناءه معدل أعمار الضيوف بصورة تدريجية. كان والده جالساً، مثل صخرة سوداء، في مقعد وثير مجنّح في النهاية الأخرى من الجناح: حجر ضالّ آل إلى الركود بعد أن دحرجه ركام عصره الأخير.

تقوم إلى جانبه المنصّة المصنوعة من خشب البلوط الموضوع عليها الكتاب المقدّس الرسمي^(٥) الضخم، المنحدر من القرن السابع عشر، البالغ حجمه حجم حقيبة سفر، المزخرف بزخرفة فضيّة والمزوّد بقفلين ثقيلين. كان يجلس بظهره إلى مصابيح الشارع، فلم

(٥) بالهولندية «*Statenbijbel*»: أول ترجمة للكتاب المقدّس، من العبرية والآرامية والإغريقية إلى الهولندية، بتكليف من الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية وتمويل من حكومة جمهورية هولندا في القرن السابع عشر. [م]

يستطيع أونو رؤية وجهه. جلس على ركبتيه، وضغط شفتيه على حذاء والده العالي الأسود. كان الجلد دافئاً من القدم المغمدة فيه. نهض واقفاً وقال بنبرة مرحة مفاجئة: «إلى اللقاء جميعاً، أنا ذاهب إلى البيت!».

سألت أمه: «كم الساعة؟ لم تعد هناك قطارات في الخدمة».

- سأوقف سيارةً ما.

- هذا هراء، تستطيع النوم هنا.

ضحك صهره: «لن أفكر في اصطحاب مثل هذا الشخص المشؤوم في سيارتي، في منتصف الليل».

قالت أخته الكبرى: «لدينا سريرٌ إضافي. تعال معنا! سنذهب جميعنا إلى البيت، لقد جاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف».

- سأذهب إلى أمستردام، لديّ موعد.

- لا تبالغ، ليس لديك موعد.

فقال مفوّض الملكة: «دعيه وشأنه!».

هل نُسيّت الإهانات بهذه السرعة؟ يبدو أنّ عائلته تعتبره مثل ظاهرة طبيعية: ما إن تمضي العاصفة حتى تلملم الأغصان المتطايرة، وينتهي الأمر عند هذا الحدّ. بسط ذراعيه على سبيل الوداع، ثم ذهب إلى الردهة وهو يصفرّ بهدوء.

قالت أخته الصغرى، وفي يدها المصباح اليدوي شبه المطفأ: «لن ترى شيئاً في هذا الظلام المصري^(*)».

بينما يبحث بين أكداش المعاطف، انبعثت قرقة المفتاح في القفل.

قالت كوبي: «يا إلهي، إنك تخلط كلّ شيء بعضه مع بعض». وأخرجت معطفه من بين المعاطف أثناء عبورها.

سألته أخته وهي تفلّك أضرار معطفه من جديد وتعتقد أنها بشكل متناسق: «هل أوصلك بالسيارة إلى طريق فاسينارسه؟ يبعد ما يزيد عن نصف ساعة سيراً على الأقدام».

- أحبّ أن أمشي قليلاً.

(*) إشارة إلى الظلام الذي ساد في أرض مصر، كما هو مذكور في سفر الخروج. [م]

- لست مرتاح البال.

طبع قبلة على جبينها وخرج من البيت. عندما أغلق بؤابة الحديقة وراءه، اشتعلت الأضواء في كل أرجاء البيت.

*

كانت لاهاي راقدة بهدوء في الليل. تكاد لا توجد سيارات سائرة في الشوارع. البيوت فاتحة اللون أكثر منها في أمستردام، لكنّ النوافذ كلّها تقريباً مظلمة. المسؤولون نائمون - ويحلمون بقمع الاضطرابات الجارية في العاصمة، منذ سنوات طويلة، بالدبابات الواقفة في زوايا الشوارع والقاذفات الانقضاضية التي تطلق الصواريخ على المؤسسات الجامعية، ليُعيّنوا بعد ذلك مندوبين حكوميين في المدينة الآمنة.

كان أونو يسير، بمعطفه الشتوي الطويل الثقيل، صوب الطريق الرئيسي المؤدّي إلى لايدن. لا يرتدي قفازاً رغم الصقيع، لكنّه لا يضع يديه في جيبه؛ يضع واحدة فوق الأخرى خلف ظهره من الأسفل، فتصطبغان تدريجياً باللون البنفسجي من شدة البرد، دون أن يلاحظ ذلك. هنا، المكان الذي أمضى فيه طفولته كلّها، يعرف كلّ حجر، لكنّ هذا لا يثير فيه مشاعر الحنين. يضاف إلى هذا أنه لا ينظر حوله، ولا يسترجع في ذاكرته المساء الذي أمضاه قبل قليل. يسير عبر الشوارع المقفرة، منحنيّاً انحناءً طفيفاً إلى الأمام، متثاقلاً بخطواته بعض الشيء بحذاءه الغليظ الذي لا يُلمّع على الإطلاق، بينما يترأى لعينه، من دون توقّف، لوحٌ طينيٌّ دائريّ الشكل، تارةً من الجهة الأمامية، وتارةً من الجهة الخلفية.

يبدو وكأنّه صار إنساناً آخر بصورة مفاجئة. يضع لسانه في الجهة اليسرى من فمه، بين أضراسه، ويمضغ عليه برفق، مثلما يفعل على الدوام عندما يستغرق في التفكير. يلوح شيء من النعاس على وجهه، لكن ليس بسبب التعب ولا بسبب الخمر، فهو النعاس المتأتّي من التفكير. التفكير ليس نشاطاً على الإطلاق، ليس تقدّماً إلى الأمام، إقبالاً على الشيء، مثلما يعتقد الناس الذين لا يعرفون ما هو التفكير؛ ليس له طبيعة السائر في الغابة الذي يقطع النباتات المعترشة، بل طبيعة الشخص المستلقي باسترخاء في حوض حمامٍ دافئ.

اللوح يبلغ من الحجم ما يبلغه طبق حلوى. كلتا الجهتين تُبدي نموذجاً يشبه إلى حدّ بعيد رسمة الحجلة، مثل التي يرسمها الأطفال على أرض الشارع بالطباشير: مسارٌ حلزونيّ، يدور من الخط الخارجي إلى الداخل، مع اتجاه عقارب الساعة، وينتهي في نقطة المركز.

يشبه متاهة أيضاً، لكنّه ليس متاهة بأيّ حال من الأحوال، إذ من المستحيل أن يتيه الإنسان فيه؛ ليس هناك سوى طريق واحد وهو يؤدي إلى المركز. الرسمة مقسّمة إلى حجيرات ملأى بعلامات بدائية، مثل رأس مغمّد في خوذة، عدد من أشكال بشرية وحيوانية من الجانب، فأس، شيء مثل قفص محمول، وصور عديدة أخرى. أخذ أونو ينظر إلى اللغز المصنّور، المتضمّن 242 علامة و45 مقطعاً هجائياً في الحجيرات البالغ عددها 61 حجيرة، الذي يعرفه أفضل من جسمه، والذي يشكّل مع ذلك متاهة أيضاً بطريقة أو بأخرى، بينما تتشكّل باستمرار روابط جديدة في خياله، تختفي، تظهر مجدّداً في هيئة مختلفة، ترتبط بحقائق وعلامات لغوية أخرى، فلسيّة، ليكيّة، ساميّة...

أحاطت به في تلك اللحظة هالة عظيمة من الهدوء.

2. لقاءهما

عندما غادر أونو كويست منزل والديه، كان رجلٌ من عمره قد بلغ الذروة بأربع موجاتٍ أو خمس من التأوه الصاخب، في حيٍّ آخر أقلّ فخامة بكثير من أحياء لاهاي.

عندما غاض التأوه، لهث بمزيج من الدهشة والتقدير: «جميل! لك جزيل الشكر».

كان يرقد على الأرض وأخذ بعينين مغمضتين يداعب المرأة، التي تهاوت فوقه مثل بالون نصف مُفرَّغ من الهواء، وكان هناك شيء غير صحيح بطريقة أو بأخرى. أحسّ بساقي في مكان لا يمكن أن توجد فيه ساق في الواقع، وأحسّ برأسها في مكان توقع أن توجد فيه قدم. مرّر يده على تقوُّس يمكن أن يكون بداية نهد، ولكن يمكن أيضاً أن يكون بداية ردف، رفع حاجبيه باستسلام، تنهَّد بعمق، وراح في غفوة.

التقى بها في روتردام قبل بضعة ساعات من ذلك. لقد نظَّم طلاب كلية الاقتصاد «كرنفالاً ثورياً» هناك؛ قرأ الإعلان على لوحة إعلانات في لايدن، المدينة التي يعمل فيها. هو يسكن في أمستردام، ولكن لأنه لم يكن لديه ما يفعله بعد العمل، ركب سيارته في وقت لاحق من ذلك المساء وذهب إلى الحفلة. موسيقا صاخبة في صالات مزيّنة، رقص في كلّ الأرجاء، حتى السلالم مكتظة بالناس. أكل قطعةً من اللحم في مطعم كوبي مقام بشكلي ارتجالي، «مونكادا»، وطلب عصير برتقال في حانة فلامندية، «إن ده ريسبروك». كانت «سوق الكهانة» مقامة في صالة جانبية: وجد أشخاصاً من شتى الأصناف واقفين إلى بسطات، مرتكزة على دعائم، يقدّمون خدماتهم مجاناً في قراءة الطالع، ببطاقات التاروت، والأبراج، والبندولات، والكرات الزجاجية، وأدوات الإيجنج. بحث في الزحام عن فتيات يمكن له خوض مغامرة معهن، ولكنّ جميعهن كنّ في صحبة شخصٍ ما، والجميع يرتدي ملابس خاصة -عشرات الشباب بقبعات على غرار قبعة تشي غيفارا- ويستمتع بوقته؛ ما لبث أن ضاق ذرعاً بالجوّ الهادئ المفتقر إلى

الإثارة الجنسية. هو يرى أنّ الإنسان لم يأتِ إلى هذه الدنيا للاستمتاع بوقته، بل يجب عليه أن يضاجع - ما إن مضت ساعة واحدة حتى قرّر أن يمتّم وجهه صوب سيارته. كان يشعر بالتعب، لكنّه لا ينبغي أن يستسلم للتعب أيضاً؛ لعلّه يستطيع تدبّر أمره في أمستردام.

في الطريق إلى المخرج، عبر مجدّداً بالصالة التي يقف فيها السحرة والساحرات، لكنّها كانت شبه خالية في هذه الأثناء. المزاج العام أصبح عالياً بمرور الوقت، واختفى الاهتمام بالشيء الأسمى؛ بدأ معظمهم يحزم أدواته الخارقة للطبيعة. فقط عند بسطة سيّدة ترتدي كنزة بنفسجية اللون، تجلس فتاة واضعةً يدها براحتها إلى الأعلى في يد السيّدة، مثل قدّيسة تبدي ندياتها للعيان.

كانت فتاةً جذّابة، لا تتجاوز نحو التاسعة عشرة من العمر، رابطةً شعرها الأشقر في ذيل حصان. وقف متظاهراً بالاهتمام وأخذ ينصت إلى ما ستقوله قارئة الكفّ. رسمت بقلم رفيع خطوطاً، وصلباناً، ودوائر صغيرة على طول الخطوط الرئيسية المرسمة بمزاجية في راحة اليد، ما ذكره بالعلامات الموجودة في الصور الفلكية. تبيّن أنّ النموذج يعطي صورة جيّدة على العموم، ولكن تشعّبات جانبية معيّنة عن خطّ الحياة تبعث على القلق: تشير إلى مرض خطير في نحو الأربعين من العمر؛ كذلك من الأفضل ألا تكون لدى الإنسان قضبان على «تلة الشمس»^(*). الفتاة تنظر إلى يدها وتحني رأسها علامة الفهم.

قال بصورة مفاجئة: «أعتقد أنّ ما تفعلينه شيءٌ مخزٍ للغاية!».

رغب في المقام الأول تقديم نفسه إلى الفتاة، لكنّه يعني أيضاً ما يقول.

- آمل أن ترى هذه الأشياء كلّها ترّهات، لأنها ترّهات فعلاً، ولكن ذلك المرض الذي تنذرين به لن يفارق رأسها، طوال عشرين سنة.

نظرت المرأتان الاثنتان إليه: الفتاة بنظرة مبتهجة، العرافة بنظرة متجهّمة من فوق نظّارتها نصف الدائرية الخاصة بالقراءة. كانت من عمره، لعلّها أكبر قليلاً؛ شعرها السميك البنيّ الغامق ملفوف على شكل جدائل غريبة حول رأسها، وكأنّ سحلية ضخمة متعشّشة هناك، إغوانا. ثمة شيء في وجهها أسره بصورة مفاجئة. رأى نهديها الصغيرين البارزين تحت كنزتها، بينهما قلادة بيّدة صغيرة معدنية مسطّحة - علم في تلك اللحظة أنه لا يرغب في النوم مع زبونتها بل معها هي.

(*) تدلّ على البصر في قراءة الكف. [م]

قال وهو لا يزال يحدّق فيها: «يا للعار!».

لعلّ الفتاة رأت التغيّر الذي طرأ عليه، فقد نهضت عن مجلسها، ألقت تحية وداعٍ لطيفة، وغادرت.

قال بصرامة: «أعتقد أننا يجب أن نخوض في نقاش حارّ».

عندما نهضت من أجل حزم أدواتها، بدت رهيبة للغاية: حتى إنّ رأسها الحيواني لم يكن يبلغ كتفيه. ارتدت معطفها دون قول كلمة واحدة وخرجت من المبنى. بينما يتساءل كيف يمكنه كسر هذا الصمت، سار في أعقابها إلى مرأب السيارات. عندما أدخلت المفتاح في باب سيارتها الصغيرة، التفتت إليه بصورة مفاجئة وأومأت له إيماءة داعية. انفجر بالضحك: «لديّ سيارة أيضاً، سأسير وراءك».

بعد برهة قصيرة كان يسير ببطء، بسيارته الرياضية ذات اللون الأخضر الداكن والسقف القماشي الأبيض، المتلهّفة إلى مزيد من السرعة، على الطريق المؤدّي إلى لاهاي، بنصف انتصاب دائم بسبب الحالة.

عندما وصل إلى مقربة من دلفت، هتف وهو يدقّ على المقود الخشبي: «عرّافة! شيء ولا في الخيال!».

شعر بالسعادة وبدأ يغني أغنية من أغاني مالر^(*) بالألمانية: «عندما يقيم حبيبي حفل زفاف، أقيم حفل زفاف سعيداً...». طفرت الدموع إلى عينيه. غمره الحزن، والشهوة، والموسيقا، كلّ شيء، بصورة مفاجئة وهو ينظر إلى المصاييح الخلفية الحمراء.

هتف: «إنني حيّ! إنني حيّ!».

كانت تسكن في مبنى سكنيّ مفتقر إلى الإبداع، مزروع بخشونة في شارع تقوم فيه مساكن عمّال من القرن التاسع عشر. عندما سارا على الشرفة في الجهة الخلفية من المبنى، بقيت صامته أيضاً. في شقّة دافئة صغيرة، أشعلت الشموع وأعواد البخور، وأعطته زجاجة من النبيذ بعلامة تجارية لم تبعث الاطمئنان في نفسه. بينما يضع الزجاجة بين ركبتيه ويغرس المثقب في الفلين، امتلأت الغرفة بموسيقا السيّار. قال: «شيء بديهي. راڤي شانكار^(**)».

(*) Gustav Mahler (1860-1911): مؤلّف موسيقي وقائد أوركسترا لي نمساوي. [م]

(**) Ravi Shankar (1920-2012): موسيقار هندي ومؤلّف موسيقي، اشتهر خصوصاً بعزفه على آلة السيّار، وهي آلة موسيقية وترية هندية. [م]

طرقا الكأسين وشربا، بينما ينظر أحدهما إلى الآخر. لم يعجبه مذاق النبيذ فوضع كأسه على الطاولة. والآن؟ جلس في مقعد صغير ذي ذراعين، وجلست هي على الكنبه. نهض من مكانه، جلس أمامها على ركبتيه، ووضع يده اليمنى مفتوحة في حضنها: «حسناً، أريني ماذا تستطيعين فعله!».

شعر بدفء فخذيهما، لكنّها وضعت يده جانبا، مثل كتاب لا تريد قراءته، وأمسكت يده اليسرى. رقدت يده في يدها مثل شيء معثور عليه؛ يدها الصغيرة أدفاً من يده، ما أثاره مزيداً من الإثارة. لم تكن قد نظقت بكلمة واحدة بعد؛ حتى إنّ أحدهما لم يكن يعرف اسم الآخر. بعد إلقاء نظرة على إبهامه القصيرة، المشوّهة نوعاً ما، بدأت ترسم صلباناً ودوائر بقلم رفيع، لكنّها توقفت بصورة مفاجئة ونظرت إليه بارتياح. ارتاع هو أيضاً. هناك شيء مكتوب في نظرتها لن يصدقه، لكنّه مع ذلك لا يرغب في سماعه. سحب يده ووضعها على ردفها، وضع يده الأخرى على عنقها، اخترق شعرها السميكة بأصابعه، وجذب رأسها إليه بعض الشيء، الأمر الذي تركته يحدث عن طيب خاطر. همهم لحظة، ثم وثب فجأة إلى الأمام، من فوقها، فباعدت بين ساقيهما في الحال. بدأ في الوقت نفسه يلتويان ويعضّان مثل كلبين متصارعين، ينزعان اللباس أحدهما عن جسد الآخر، يغمغان، يصرخان، تمسك بهما دؤامة وتجرحهما باتجاه عميق، لا تبقى منه عادة أيّ ذكرى.

انتفض من غفوته. لم ينم ما يزيد عن دقيقة واحدة. أدار رأسه إلى جانب. فوق التوهج الآخذ في التضاؤل في رأس عود بخور، يميل مخروط صغير من رماد رفيع أبيض إلى الأمام شيئاً فشيئاً، وينكسر. قال: «يجب عليّ الذهاب».

تفحص حالة قارئة الكفّ الطبولوجية مرّة أخرى. تبدو إنسانة أفغانية أيضاً؛ هيئتها شيء مستحيل، مثل التي تراها على لوحات إيشر^(٩)، جدائلها مفكوكة وشعرها منسدل مثل حمم بركانية متجمّدة فوق كتفها وظهريها، ولكن يمكنهما أن يكونا صدرها أيضاً. لوى نفسه وخرج من تحتها دون أن تستيقظ، وفتح باباً افترض أن تكون وراءه غرفة النوم. حملها بين ذراعيه، كانت خفيفة الوزن مثل طفل صغير؛ أرقدها على السرير برفق وغطّاها باللحف. لم تستيقظ من نومها. ولأنه شعر بالاضطراب، وكأنه في عجالة من أمره، لم يأخذ حماماً؛ اغتسل

(٩) M. C. Escherr (1898-1972): رسّام هولندي يُعرف بمحاولة تمثيل المفارقات الرياضية عن طريق الفن، لذلك تظهر في لوحاته العديد من التركيبات المستحيلة، واستكشافات اللانهاية، والانعكاس، والتماثل وغيرها. [م]

بماء بارد في المطبخ، جفف نفسه بمنشفة أطباق دبكة، ارتدى ملابسه على جناح السرعة وأجال النظر في ما حوله. في خزانة الكتب المصنوعة من الخشب السويدي الشاحب، هناك بطاقة بريدية عليها لوحة زفاف أرنولفيني ليان فان آيك^(*): ربما بسبب يد العروس الحامل، الموضوعه براحتها إلى الأعلى، في يد العريس. كانت جهتها الخلفية خالية من الكتابة. أخرج قلم رصاص أصفر بممحاة في طرفه الخلفي من جيبه الداخلي، واستلّ مبراة صغيرة من جيب سترته الجانبي، برى القلم على المنفضة بإتقان وكتب: «لن أنسى هذا ما حييت! - ماكس.» خطر في باله كتابة رقم هاتفه، لكنّه لم يفعل. وضع البطاقة على مكتبها الصغير بعناية، مسنداً إياها على حجرٍ ورديٍّ، مُعَرِّق، مصقول، لعلّه مسكون بقوى سحرية، لعلّه ببساطة تذكّار من شاطئ من شواطئ الجنوب. بعد ذلك أطفأ الشموع، ترك البخور مشتعلًا، وأغلق الباب وراءه بهدوء.

كان الإشباع الجنسي قد غسله حتى أقصى ركنٍ من أركانه. حضرته رحلة استحمام في مدينة البندقية، عندما لاحت جبالٌ بنفسجية في الأفق بصورة مفاجئة عقب عاصفة رعدية. كان تعبهُ قد اختفى، وبينما تصدح سيمفونية شوبرت الأولى في الراديو -على الأرجح من عزف أوركسترا برلين الفيلهارمونية بقيادة بوهم- قاد سيارته عبر الشوارع الشتوية المقفرة دون وجهة محدّدة. إنه حرٌّ! لا يرغب في شيءٍ آخر! هذا لذيق مثل المضاجعة نفسها، أو اليقين الذي يسبقها بأنها ستحدث. أم يفوقها في اللذة حتى؟ هل يريد النوم مع امرأة كلّ يوم، امرأة مختلفة كلّ يوم، لا شيءٍ إلا ليلبلغ هذا الهدف في آخر الأمر: وهذا لا يريده لفترة قصيرة؟ كم سيكون رجلاً سعيداً في شيخوخته. ولكنّ الأمر ليس على هذا النحو بطبيعة الحال، فعندما يحين ذلك الوقت، سيرغب في أن يرغب في ما لا يستطيع فعله. السعادة لا تكمن في الحرية من القيود، بل في التحرّر من القيود. القيود جزء لا يتجزأ من السعادة!

لم يكن يعرف أين هو، ولكن إذا بقي يسير في خطٍّ مستقيم قدر المستطاع، فلا بدّ أن يصل إلى طرف المدينة. لاهاي ليست كبيرة إلى هذا الحدّ. تعرّف مفترق طرق بصورة مفاجئة. على الرصيف المهجور يقف رجلٌ ضخم البنية بمعطف شتويّ طويل، يرفع له يده.

*

(*) Jan van Eyck (1390-1441): رسّام فلامندي، وهو واحد من أوائل المبدعين لما أصبح يُعرف باسم الرسم الهولندي المبكر، وأحد أهم ممثلي فن عصر النهضة الشمالي المبكر. [م]

ناجى نفسه: لا يمكن أن يعمل لصٌ بهذه الطريقة، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في الجوّ القارس. أعطى إشارة ضوئية، وانحرف بحركة سريعة إلى الجانب، وتوقّف. رأى الرجل في المرأة يقترب بخطوات مهرولة؛ أطفأ الراديو، مال إلى جانب، وفتح الشباك على الطرف الآخر.

انحنى أونو بجذعه، ونظر في وجه ماكس المتطرّف النحيف. استدعى إلى ذهنه طائر أبي منجل، أبي منجل المقدّس المصري، ذا العنق الرفيع والمنقار المعقوف؛ ينبعث منه شيء خطير، مثلما من فأس. نظر ماكس من ناحيته في ملامح أونو الجبّارة الممتلئة. الجبين ينساب في الأنف المستقيم بشكلٍ تقليدي، من دون تقوّس؛ في أسفله يلوح الفم الصغير، التقليدي أيضاً، بالشفتين المقوّستين، الذي يكاد عرضه لا يتجاوز المنخارين. تولّاه إحساسٌ غامض بأنه يعرفه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إلى أين أنت ذاهب؟

- هل أنت ذاهب باتجاه أمستردام؟

- إركب!

تراجع أونو خطوة إلى الوراء وتفحص السيارة باستهجان: «لكنني أعترض!».

فقال ماكس بابتهاج: «أُتوسّل إليك أن تركب!».

عندما جلس فيها بشيء من الصعوبة، أو بالأحرى استلقى فيها، ضغط ماكس على دواسة البنزين بقوة، فانطلقت السيارة مثل حصان سباق.

قال أونو بوجهٍ يشي بأنه يرى المتفضّل عليه لا يتمتع بدرجة عالية من الذكاء: «عربة جميلة».

انفجر ماكس بالضحك: «آه، هذا ليس شيئاً. عندما أكبر في العمر، سأشتري رولز رويس بسقف مفتوح ولون أبيض. سأجلس عندئذٍ في المقعد الخلفي بمعطفٍ أبيض من الفرو، وامرأة جميلة خلف المقود».

لم يتمالك أونو أيضاً نفسه من الضحك بعض الشيء بفمٍ مائل، وأدار رأسه إلى جانب. كان قد بدأ يظهر له ذقنٌ مزدوج: «لماذا لا تشتري عربة أطفال في الحال؟».

نظر إليه ماكس نظرةً خاطفة. لقد وجد أحدهما الآخر - هذه هي اللحظة. أكان كلاهما يعرف ذلك؟ لقد بُني جسرٌ بينهما بتلك الكلمات القليلة. علم ماكس أنّ أونو قد سبر أعماقه،

مثلما لم يفعل أحدٌ من قبل، وأحسّ أونو أيضاً أنّ ماكس يفهمه، لأنّ سخريته العدوانية لم تصطدم بمعارضة، مثلما يحدث على الدوام، بل قوبلت بضحكة فيها شيء عصيّ على التأثير. لقد تعرّف أحدهما الآخر. لزما الصمت بضع دقائق، مأخوذين بخجل طفيف من الحالة. عندما اجتازا الشارع المهيّب في بلدة فاسينار، وبلغا الطريق السريع المظلم ذا السرعة المحدودة، زاد ماكس السرعة إلى مئة وستين كيلومتراً في الساعة وقال: «أشعر أنني أعرفك من مكانٍ ما. ألم تُنشر صورتك مؤخراً في الجريدة؟».

أجاب أونو بنبرة كما لو أنه سُئل عمّا إذا كان يستطيع القراءة: «طبعاً نُشرت صورتي مؤخراً في الجريدة».

- والسبب؟

- ألا تتذكّر؟ أنسيت بهذه السرعة؟

- أعترف بتقصيري.

قال أونو بنبرة البابا الذي يقيم قداساً: «نُشرت صورتي في الجريدة، لأنني حصلت على دكتوراه فخرية في أوبسالا».

- هل تسمح لي بتهتكك، وإن جاءت متأخرة؟! وما السبب في حصولك عليها؟

- ألا تتذكّر هذا أيضاً؟ قل لي ماذا تعرف إذا؟!

- لا شيء تقريباً.

- السبب هو أنني جعلت اللغة الإترورية مفهومة. أعظم العقول في العالم لم تكن قادرة على فعل ذلك، حتى البروفيسور ماسيمو بيليغريني في روما كان أغبى من أن يفعله، لذلك فعلته أنا.

أحنى ماكس رأسه. تذكّر الصورة في تلك اللحظة. الرجل الضخم بالزيّ التقليدي، الذي يستلم الشهادة من سيّدة بقلنسوة على رأسها، متظاهراً بالدهشة، كما لو أنه متفاجئ تماماً. نظر إليه أونو من الجانب وسأل: «وحضرتك؟ كيف تكسب قوت يومك؟ لا أستطيع تذكّر أنني رأيت صورتك في الجريدة ذات يوم».

ضحك ماكس: «كم حضرتك حقير! أعمل في علم الفلك»، وأشار برأسه إلى الجهة اليمنى: «هناك، في لايدن».

نظر أونو إلى المدينة الواقعة على طرف الحقول العارية: «ألا يجب أن تأخذ هذا المفرق إذا؟».

- أحمد الربّ أنني أعيش في أمستردام. لهذا السبب لديّ سيارة.

مدّ أونو يده باتجاهه وقال: «أونو كويست».

صافحه ماكس: «ديليوس ماكس».

3. الإيصال إلى البيت

لم يحدث أن أجاب أونو عن الأسئلة المهمة باكتشافه. اعتاد القول: «تستطيع قراءة الإجابة في جريدة دراسات الشرق الأدنى». فأنا لا أعمل ساعات إضافية». ولكن الآن، وإجابة عن سؤال ماكس كيف فكّ رموز تلك الكتابة، شرح بصبر أن الأمر لم يكن يتعلّق بفكّ رموز، لأنها مقروءة منذ زمن بعيد. إنها تتكوّن في الخطوط العامة من الأبجدية الإغريقية، لكنّها لم تكن اللغة الإغريقية، فهي غير مفهومة. كانت مثل حال شخص لا يعرف اللغة الإغريقية، فيتعلّم الأبجدية الإغريقية ثم يحاول قراءة الإلياذة. أخذ يحاضر بأنّ الإيتروسكانيين كانوا شعباً من شعوب إيطاليا، يعيشون في توسكانا الحالية: أطلق عليهم الغزاة الرومان اسم توسكي. اللاتينية تزخر بالكلمات المستعارة من الإيتروية، مثل بيرسونا التي تعني «قناع»، ولكن ما عدا ذلك لم تكن هناك سوى معاني بضع كلمات معروفة، مثل مرادفات «إله»، «امرأة»، «ابن». تكمن المشكلة في عدم وجود لغة مزدوجة طويلة، مثلما كان الحال مع حجر الرشيد الذي فكّ شامبليون رموز نصّه المكتوب باللغة الإيتروية ولغة أخرى معروفة. كانت لهم إذاً صلةٌ بالإغريق، ولم تكن لغتهم في الوقت نفسه تمتّ إلى الإغريقية بأيّ صلة. كانوا يكتبون لغتهم بالحروف الإغريقية على النحو الذي ينطقونه، مثلما يفعل طلاب السنة الأولى من الدراسة الثانوية عند كتابة أسمائهم، ومثلما يفعل الهولنديون بالأحرف اللاتينية. في نحو القرن التاسع قبل الميلاد كان هذا الشعب ينحدر إذاً من مكان يعيش فيه الإغريق أيضاً. ولكن طبعاً -وهذه هي الفكرة الحاسمة- هناك احتمالاً آخر، وهو أنّ الإغريق قد أخذوا أبجديتهم من الإيتروية، من أجل أن يكتبوا بها لغتهم حسبما ينطقونها: أي الإغريقية. تلك فكرة جنونية بطبيعة الحال؛ ولكن باتّباع هذا النهج، واستناداً إلى اعتبارات أثرية من شتى الأصناف، انتهى به المطاف عند اللغات الكريتية: الخط «ب» من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، الذي فكّ

رموزه زميله الراحل مايكل فينترس^(*) قبل خمس عشرة سنة، والخط «أ» من القرن الثامن عشر، الذي ينطوي أيضاً على أصول سامية...

قال وهما يمرّان من جانب مطار سخيهول: «باختصار يا عزيزي واطسون، اكتشفت ذلك عن طريق الجمع والاستنتاج وكثير من الحظّ والحكمة. صحيح أنّ البروفيسور بيليغريني لا يزال يعتبرني حالماً ودجّالاً، ولكنّ هذا يشير في المقام الأول إلى طبيعته التوحّدية».

- ماذا درست؟

- حقوق.

- حقوق؟

- هذه علّة في العائلة.

- ولكن هذه اللغات كلها...

- هواية. أنا هاوٍ، مثل العظيم فينترس، الذي كان مهندساً معمارياً بالأصل. إذا استدعت الحاجة، استطعت تعلّم لغة جديدة خلال شهر واحد. كنت أستطيع القراءة وأنا في الثالثة من العمر.

- كم لغة تتقن إذا؟

- أنا ضعيف في الحساب. يبدو لي أنك تجيده أكثر مني. كم عدد النجوم؟

- لم نحصى جميعها بعد. عددها ليس ثابتاً على كلّ حال. في مجرّتنا وحدها هناك نحو مئة مليار نجم، ما يساوي عدد الخلايا في دماغ الإنسان.

فقال أونو بالإنكليزية: «تكلم عن نفسك».

- إضافةً إلى ذلك، هناك نحو مئة مليار مجرّة معروفة، ما يساوي عدد خلايا دماغي، لذلك تستطيع أن تحسب. واحد وأمامه عشرون صفراً. كم عدد اللغات؟

- ضئيل. نحو خمسة آلاف ومئتين.

- هل تستطيع قراءة الهيروغليفية؟

- أيّ هيروغليفية؟

- المصرية.

(*) Michael Ventris (1922-1956): مهندس معماريّ، وعالم لغوي إنكليزي. [م]

- من دون شائبة. أستطيع التحدّث بها أيضاً. «باوت نيترو هير ريش سيب سين إني أشار سا هير و مين أب ما خير و سأست أوا أشار». إنها تعني، إذا ما تُرجمت: «باوت الآلهة يفرح بمجيء ابن أوزيريس، حورس، صالح القلب، صاحب الكلمة المطلقة، ابن إيزيس، وريث أوزيريس».

- مهلاً! ماذا يعني باوت؟

- أجل، هذا صعب قليلاً، شيء مزعج أن تطرح هذا السؤال. يعتقد معظم الخبراء أنه يشير إلى المادة الأولية التي صُنعت منها الآلهة؛ لكنّه أكثر تعقيداً في الواقع، لأنّ الإله الخالق يقول في كتاب الموتى: «خلقت نفسي من المادة الأولية التي صنعتها». لكنني لا أريد إزعاجك بهذه التناقضات القديمة.

- يُخيّل إليّ أنها حديثة إلى حدّ ما. أين تسكن؟ سأصل بك إلى باب بيتك.

تبيّن أنّ كليهما يسكن في المركز، أحدهما غير بعيد عن الآخر. بينما يدخلان المدينة، أخبره أونو بأنه كان يستطيع قراءة الهيروغليفية، في الحادية عشرة من عمره، وأنه تعلّمها بنفسه من كتاب إنكليزي مدرسي قديم، اشتراه بربع فلورين من السوق، فتعلّم في الوقت نفسه الإنكليزية أيضاً، باستخدام قاموس. حدث ذلك في الشتاء الأخير من الحرب، عندما كان الجوع والبرد قد أخذاً منه كلّ مأخذ - قال ذلك وتساءل من فوره لماذا يحكي مثل هذا الشيء لشخص غريب تماماً. عندما كان صبيّاً، لم يكن يتحدّث في البيت عن دراساته اللغوية. واعتقد أنّ الجميع يستطيعون فعل ذلك إذا ما بذلوا قليلاً من الجهد. هذا ما يحدث مع صاحب الموهبة على الدوام: الكاتب لا يستطيع تصوّر أنّ هناك شخصاً لا يستطيع الكتابة. لم يدرك أنّ هذا ليس من الأمور الطبيعية إلا بعد الحرب، عندما كانوا في رحلة استجمام في فنلندا في إحدى المرّات. نزلوا في فندق في مدينة هامينلينا، هناك في مكانٍ بين البحيرات والغابات الصنوبرية الكثيرة، وفي الليلة السابقة لمغادرتهم كان الطعام بارداً، أو بالأحرى دافئاً. استدعى والده مدير الفندق، الذي تظاهر على إثره بتوبيخ النادل؛ لكنّه في الواقع كان يقول له إنه لا ينبغي أن يلقي بالآ إلى هؤلاء الهولنديين الأغبياء البخلاء، لأنهم سينقلعون في اليوم التالي إلى بلدهم، إلى أزهار التوليب والطواحين الهوائية الغبية. ما جعل أونو يسأله هل فقد صوابه حتى يتحدّث عن نزلائه بهذه الطريقة، أم أنه يرغب ربما في أن يُكسر رأسه بقباب هولندي. انعقد لسان الجميع من الدهشة. إنّهُ يستطيع تحدّث اللغة الفنلندية! بعد ثلاثة أسابيع! لغة

أوغرية! وعندما رأى وجه والده المشدوه، قال في ما بينه وبين نفسه: تفوّقتُ عليك يا صاحب السعادة.

سأل ماكس بدهشة: «أأنت ابن المدعو كويست؟».

- أجل، المدعو كويست.

- ألم يكن رئيس وزراء أو شيئاً من هذا القبيل قبل الحرب؟

- هل يمكنك التحدّث عن والدي باستخفافٍ أقلّ، يا ديلوس ماكس؟ السنوات الأربع من حكومة كويست من أشدّ المراحل سواداً في الحضارة الإنسانية. كان الشعب الهولندي يثنّ تحت وطأة الحكم الديني المرعب بقيادة السيّد والدي، الذي لا أريد سماع كلمة سيّئة في حقّه، ولا سيما من فم شخص يملك مثل هذه العربة السخيفة.

فقال ماكس وهو يوقف السيارة: «لقد أوصلتنا إلى البيت على كلّ حال».

- حتى إنك لا تعرف أن تقود سيارة، إن سألت رأيي.

- طبعاً لا! ماذا تراني؟ سائقاً عموماً؟ هناك أشياء لا يجوز لك أن تكون قادراً على فعلها. ما لا يجوز لك أن تكون قادراً على فعله أيضاً، على سبيل المثال، هو سكب الطعام بشوكة وملعقة بأصابع يد واحدة، لأنك ستكون نادلاً في هذه الحالة. أنت تستطيع فعل هذا بطبيعة الحال، لكن سيّداً مثلي ليس معتاداً على سكب الطعام بنفسه. سيّد مثلي يسكب بشكلٍ آخرق للغاية بيديه الاثنتين، وحتى في هذه الحالة يوقع النصف منه على مفرش الطاولة، لأنّ هذا ما يجب أن يحدث.

في ضوء المصاييح في الشارع الضيق، استطاع أحدهما رؤية الآخر بشكلٍ أفضل. رأى أونو أنّ ماكس يبلغ من الثاقق أنه لا يستطيع أخذه على محمل الجدّ؛ يرتدي ذلك النوع من الزيّ الأنجلوسكسوني البرجوازي، بسترّة رسمية وقميص مخطّط بمكعبات، الذي يثير نفوره عند أخويه وصهره أيضاً. رأى ماكس أنّ أونو لن يكون شخصية سيئة الهيئة كعازف أرغن متجول؛ هناك بقع متعددة بالقرب من أذنيه وتحت ذقنه قد أهملها أثناء الحلاقة. لعلّه قصير النظر، لعلّه مصاب بالعمى من شدّة التحديق في الرموز التعبيرية.

اقترح أونو أن يذهبا بالسيارة إلى بيت ماكس، وسيعود أدراجه من هناك سيراً على الأقدام. لاحظا برضاً بالغ أنّ الناس لا يزالون يتجولون في الشارع، وأنّ الضوء لا يزال مشتعلًا في البيوت كلّها، في حين كانت الحياة في لاهاي قد تلاشت بصورة كاملة. أغلق ماكس سيارته

بالقرب من البوابة العالية المفضية إلى الحديقة العامة، وارتدى معطفه، فرأى أونو أنه يتعل إلى ذلك حذاءً بُني اللون من جلد الغزال. أراد استئذانه بالانصراف، لكنّ ماكس قال هذه المرّة: «تعال، سأمشي معك مسافة قصيرة».

انبعث صفارات الشرطة من جهة ساحة لايدسه: هناك شيء يحدث من جديد، لعلّها المخاضات الأخيرة من المظاهرة المناهضة للأميركيين في فيتنام. استعلم أونو: «هل أنت أيضاً دكتور فخري في جامعة أوبسالا؟ مثلي؟».

- لم أبلغ تلك الدرجة بعد.

صاح أونو مصعوقاً وهو يتوقّف عن السير: «لستَ دكتوراً فخرياً في جامعة أوبسالا؟ أليق بشخص مثلي التكلّم معك إذا؟».

وغير نبرة صوته بصورة مفاجئة، بينما لا يزال يحدّق في ماكس: «هل تعلم أنّ توليفة وجهك غير صحيحة إطلاقاً؟ عيناك زرقاوان قاسيتان قسوة الفولاذ، تفتقران إلى أدنى درجات التعاطف، ولكنّ فمك في الوقت نفسه ناعمٌ بما يبعث على السخرية، فم لا أريد الظهور به للعيان».

رفع إليه ماكس عينيه. أونو أطول منه بمقدار رأس تقريباً. قال بعد لحظة من التردّد: «هذا صحيح».

- لا، هذا غير صحيح.

- صحيح أنه غير صحيح.

- ومن الأفضل أن يُغطّى أنفك هذا بأكمله بعباءة الحب.

- كلاب الصيد لها أنوف طويلة على الدوام، لأنك تستطيع الشمّ بها على نحو أفضل. لا ينبغي أن تأخذه على محمل شخصي، لكنّ كلباً من سلالة البكيني لا يشمّ شيئاً. كما أنني لست دكتوراً مع رشّة من الملح^(٥)، كما هو حالك، لكنني دكتور حقيقي، بأطروحة وكل ما يلزم.

- إنني أسمع. أنت واحد من أولئك البائسين الذين يعتقدون أنّ التحصيل العلمي أهمّ من الموهبة. عمّاذا كانت أطروحتك؟!

- عن خطوط طيف الهيدروجين.

(٥) يقولها باللاتينية، وهذا التعبير يستخدم للدلالة على أنّ ما يقال ليس دقيقاً تماماً، أو مبالغ فيه. [م]

- وما هي بحق السماء؟

- لن تستطيع فهمها. يجب أن تكون على درجة عالية من الذكاء لتستطيع فهمها.

صرّح ماكس أنه عالم فلك في المرصد الفلكي في لايدن. حصل مؤخراً على عرض عمل في مرصد ماونت بالومار في كاليفورنيا، حيث يمسك زميلٌ له من لايدن زمام الأمور في الوقت الحاضر؛ الزميل الذي اكتشف الكويزارات^(٥)، لكنّ ما يستهويه هو علم الفلك الراديوي، الذي يمكنك من رؤية غير المرئي، حتى في وضوح النهار. علماء الفلك البصري حراسٌ لليون شاحبون، وعندما تظهر غيمة في السماء، يمكنهم أن يقودوا دراجاتهم الهوائية في الاتجاه المعاكس للريح صوب بيوتهم؛ يضاف إلى ذلك أنّ لديه أشياء أفضل يفعلها في الليل. يذهب على فترات منتظمة إلى قرية دفنغلو في مقاطعة دريته، إلى التلسكوب الراديوي هناك. يُشيد الآن بالقرب من فيستربورك تلسكوب راديوي توليفي عملاق، مكوّن من اثنتي عشرة مرآة، جُهّزت منها مرآة واحدة. سيصبح أكبر تلسكوب في العالم، وهو يعلّق آمالاً كبيرة عليه.

- على ذكر هذا الحديث، قلت قبل قليل إنّ كلّ شيء بدأ معك أثناء الحرب في الواقع - لعلّ هذا حالي أيضاً. كانت السماء في وسط المدينة حينذاك تبلغ من السطوع ما لا تبلغه الآن سوى فوق البحر أو فوق ماونت بالومار. أقمت في فترة معيّنة في نوع من المدارس الداخلية، عند الكهنة. كانوا عندما ينشدون التراتيل في المعبد في الليل، أستيظ من النوم في بعض الأحيان وأذهب إلى النافذة وأنحني منها. أظنّ أنّ تلك الليالي الهادئة وتلك النجوم وتلك الترانيم الغريغورية وتلك الحرب حينذاك وضعت الأساس لاختياري المهني، إذا جاز أن أعبر على هذا النحو. ربما بسبب تلك النجوم التي لم تكن تمتّ بأيّ صلة إلى الحرب. عند كلمة «النجوم» رفع عينيه إلى السماء برهة قصيرة، ولكن ما رآه هناك كان انعكاس المدينة على الغيوم الكثيفة الرمادية.

- معنى هذا أنك تلقّيت تربية رومانية كاثوليكية. أم أنك لا تزال متديّناً؟

- لم أتلّق شيئاً.

- كيف انتهى بك المطاف إذاً في تلك المدرسة الدينية؟

(٥) الكويزارات: النجوم الزائفة. [م]

لزم ماكس الصمت. رفع ياقة معطفه المنسوج من القماش البريطاني الأصفر صفرة الجمل، ضمّ ثنيتها إحداهما فوق الأخرى، وبقي ماسكاً بهما يديه المغمدتين بالقفاز. الكهنة في المعبد في الطابق الأرضي:

«كيريايسون، كيريايسون،

كريستياليسون، كريستياليسون!»^(١٠).

في السماء الدبّ الأكبر، ذات الكرسي، نجم الشمال - حيث يدور محور قبة السماء. أين كانت والدته؟

نظر إلى أونو: «هل أخبرك؟».

رأى أونو أنه وضع يده على عصب حسّاس: «إن لم يكن ينبغي أن تسمعه أذناي، فلا أريد سماعه».

اندهش ماكس من نفسه هذه المرّة، ليس لأنّ لديه ما يخفيه، لكنّه شيء لا يمكن أيضاً النقاش فيه. لم يتحدّث عنه قطّ مع زملائه وأصدقائه، فضلاً عن صاحباته، والحقّ أنه هو نفسه قلماً يفكر فيه. كان من مثيل الهواية التي تحدّث عنها أونو: كلّ إنسان منقطع النظير بطبيعة الحال، ولا يكتشف هذا الأمر إلا عندما يعيشه شخص آخر، أو عندما لا يعيشه أيّ شخص، - لكنّ الظروف الاستثنائية أيضاً يمكنها أن تبدو بديهية، لأنها ببساطة تكون على الحال الذي تكون عليه؛ وفي هذه الحالة أيضاً لا يتبلور الإدراك باستثنائيتها إلا عندما يراها الآخرون أنها استثنائية. فابن الملك أيضاً لا يستوعب إلا بعد حين أنّ الأعلام لا تُرفع في عرض البلاد وطولها لكلّ شخص في عيد ميلاده.

المياه متجمّدة في القنوات المائية، يتزلّج عليها الناس في الأعماق المظلمة؛ ينزلون بصمت واضعين أيديهم خلف ظهورهم، يفرملون بصريّ حادّ عند الجسور التي يكون الجليد تحتها غير موثوق به. بينما يمشيان في شوارع مدينتهما، من جانب متحف رايكز، فوق الجسور ذات الحجارة الرملية الغريبة والزخارف الحديدية المجسّدة كائنات بحرية زاحفة إلى فوق التلال الرملية، أخبره ماكس كيف انتهى المطاف بوالديه - بسبب الحرب العالمية الأولى - في أمستردام، كيف التقى أحدهما الآخر، كيف انفصل أحدهما عن الآخر، وذهب بعد ذلك مع

(١٠) يا رب ارحم، يا رب ارحم،

يا مسيح ارحم، يا مسيح ارحم. [م]

والدته ليعيش في المنطقة الجنوبية من أمستردام، خلف الكونسيرت خباو^(٥). لم يعد والده يرغب في رؤيتهما على الإطلاق، وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، لا بدَّ أن شيئاً مقدَّراً تحرَّك في داخله. عاد يتواصل مع أصدقائه النمساويين القدامى من الحرب العالمية الأولى، الذين أصبحوا في تلك الأثناء، بعد توحد الدولتين، من جنرالات ألمانيا العظمى وقادة في قوَّات الأمن الخاصة النازية. الحقَّ أن ماكس كان يعلم هذا كلَّه مما سمعه من أفواه الآخرين؛ لم يكن هو نفسه قد تعمَّق فيه إطلاقاً. لعلَّ والده اضطرَّ إلى تقديم دليل على ولائه للدولة الألمانية. كان لا يزال متزوجاً بامرأة يهودية، وقد ارتكب بزواجه منها «خيانة عرقية»، حتى لقد أنجب طفلاً منها: لعلَّه اضطرَّ إلى تصحيح ذلك أول الأمر. كان يلعب في تلك الأثناء دوراً بارزاً في العلاقات التجارية مع المحتلَّ الألماني، فكبر مكتبه وصار مؤسسة شبه حكومية، متخصصة في الحقيقة في عمليات النهب، ولا سيما ممتلكات اليهود، وأبلغ إيفاد ديليوس - فايس، عن طريق محامٍ، أنه يرغب في الانفصال، لكنَّها لم تستجب لطلبه: فزواجه من شخصٍ آريٍّ يمنحها حماية إضافية من الترحيل؛ ربما أكثر من الطفل الذي أنجبته منه. الحقَّ أن ذلك الإصرار على الانفصال تضمَّن محاولةً خفيةً لقتل زوجته، فمثلما تبيَّن بعد الحرب، كان قد استعان برفاقه القدامى في آخر الأمر.

في أحد الصباحات في عام 1942 - هكذا أخبره ماكس - في السنة التي بلغ فيها التاسعة من العمر، جاء حارس المدرسة وأخذه من الصف؛ في غرفة المدير وقف رجلٌ من الشرطة العسكرية، بقبعة عالية، وحذاء عسكري، وشريط مضفرَّ أبيض حول كتفه. أخبره بأنَّ والدته قد غادرت بصورة مفاجئة إلى وجهة غير معروفة، وبأنه يجب عليه الذهاب معه ولملمة أغراضه. عندما وصل إلى مقربة من بيته، رأى شاحنة نقل واقفة أمام الباب، كُتب عليها اسم بلُّس بأحرف ضخمة، لا يزال يتذكَّر ذلك بوضوح؛ كان بضعة من عمَّال النقل يحملون البيانو إلى خارج البيت. في الداخل ثمة رجالٌ آخرون يتجولون بقوائم في أيديهم، يسجلون فيها كلَّ شيء، طبعاً باستثناء الأشياء التي يضعونها في جيوبهم. لم يكن الألمان موجودين في أيِّ مكان، فقط رجلان من شرطة البلدية. كلَّ شيء مقلوبٌ رأساً على عقب، في غرفة نوم والدته الأدراج والخزانات كلّها مفتوحة، وملابسها متكومة على الأرض. مُنح خمس دقائق ليجمع أغراضه الشخصية، بعد ذلك أخذ إلى نوع من المدارس الرومانية-الكاثوليكية. قال

(٥) كونسيرت خباو: دار الأوبرا، ترجمتها الحرفية «مبنى الحفلات الموسيقية». [م]

ببراءته الطفولية إنه يريد الذهاب إلى والده: لم يكن يعلم بعد أنه سَمٌّ بالنسبة إلى والده. كان جدّه وجدّته، الوحيدان المتبقيان من عائلته في هولندا، متخفيين في مكانٍ ما، لم يعرف أين - ولا عرف أنّ والده قد وُشى بمكان وجودهما في تلك الأثناء، وأنهما سيقا مثل والدته إلى معسكر العبور في فيستربورك، ومن هناك إلى معسكر أوشفيتز، المكان الذي لم يرجع منه أيٌّ منهم. لقد تحوّل العميل الألماني إلى مجرم حرب. كلّ من يُدعى فايس يجب محوّه عن وجه الأرض، والرّب أعلم كم من آخرين من طيفهم. أخبره ماكس بأنّ الكهنة أسكنوه بعد بضعة أسابيع عند زوجين كاثوليكين كهلين، محرومين من الأولاد، لم يطلبوا منه حتى رسم إشارة الصليب قبل تناول الطعام. حدث عدّة مرّات أن عبر بدرّاجته الهوائية من جانب بيته السابق: رأى الباب الرئيسي والنوافذ مسدودة بالقرميد. لم يسمع شيئاً عن والده مرّة أخرى إلا بعد انتهاء الحرب، أثناء محاكمته، ومرّة واحدة بعد ذلك: خبر قصير في الجريدة عن إعدامه.

*

صاح أونو: «يا إلهي! أنت ابن المدعو ديلْيوس؟ أعتقد أنك تستحقّ المسامحة في كثير من الأشياء».

كانا قد بلغا شارع كيرك مرة أخرى. بيوت ضيّقة صغيرة بسلاّم خشبية صاعدة إلى باب الطابق الأول؛ درجات حجرية هابطة إلى أبواب الأقبية تحت الأرض.

قال ماكس: «كان جدّي عميلاً في الحرب العالمية الأولى، وأبي عميلاً في الحرب العالمية الثانية، ومن أجل الحفاظ على التقليد العائلي يجب أن أكون أنا أيضاً عميلاً في الحرب العالمية الثالثة».

وبينما يشعل سيجارة، أدار رأسه برهة قصيرة ليتفحص ساقَي امرأةٍ عابرة.

سأل أونو: «هل أنا محقّ في أنك تتكلّم عن موت والدتك، ثم تأتي بدعابة مريبة، ثم تنظر إلى امرأة؟ أيّ شخص أنت؟!».

- شخص ينظر إلى امرأة وهو يتكلّم عن موت والدته. لكنني تحدّثت أيضاً عن موت والدي.

أراد أونو قول شيء، لكنّه لم يفعل. لم يستطع استيعاب كيف يمكن لشخص أن يتكلّم بهذا البرود كلّه عن تجارب من هذا النوع. فكّر في والدته التي أُعدمت خنقاً بالغاز في معسكر

إبادة، وفي والده الذي أعدم رمياً بالرصاص بعد الحرب - ولكنّ هذا تصوّر لم يتجسّد في هيئة واضحة. في الواقع احتُجز والده رهينةً سنة ونصف في قسم الشخصيات البارزة في معسكر الاعتقال بوخينفالد، حيث ساهم مع شخصيات مرموقة أخرى في وضع الخطط المتعلقة بهولندا ما بعد الحرب، بدءاً من تشكيل «مجلس قضائي خاص» وإعادة العمل بعقوبة الإعدام في حقّ أسوأ الأوباش. كان أخواه الاثنان أيضاً منضمّين إلى المقاومة. نظر إلى ماكس وأحسّ أنه مأخوذ به. من المستبعد طبعاً أن يمدّ يده، يضافحه مصافحة الوداع، ويذهب إلى الداخل. قال: «سأعيدك إلى البيت».

مضت دقائق طويلة وهما يسيران بصمت، جنباً إلى جنب، في الليل الشتوي، محاطين بالعنف القديم الذي استدعاه ماكس، مثل لكمّة غير متوقّعة. شعر ماكس أيضاً أنه مأخوذ به. سرد حكاياته المتناقضة بطريقة مختلفة عمّا سرده في المرات القليلة الماضية. عندما يسرد شخص الحكاية نفسها على مسمع أناس مختلفين، فإنه يسردها بطرق مختلفة اختلاف هؤلاء الناس واحدهم عن الآخر - لكنّه الآن يحسّ وكأنه سرد القصة، قصته هو، لأوّل مرة على نفسه. ما جعل العباء يخفّ عن كاهله بالقدر نفسه الذي أثقل كاهل أونو. في رغبة منه أن يقول شيئاً، أشار إلى الخبز المنثور هنا وهناك عند جذوع الشجر.

- لا تزال هناك أرواحٌ طيّبة في العالم.

انتظر أونو أن يكسر ماكس الصمت، لكن راوده إحساس بأنه ليس من حقّه الاستعلام عن تفاصيل حكايته.

- هل أخبرك بشيء؟ حصل أبوك على الجنسية تحت مسؤولية أبي. حدث ذلك في فترة حكومته، في سنوات العشرينيات.

نظر ماكس ضاحكاً إلى أونو: «هذا يخلق رابطةً في غاية الجمال بيني وبينك. ألا يزال حيّاً؟».

- طبعاً لا يزال والدي حيّاً. لن يحدث ألا يكون والدي حيّاً.

- أبلغه إذاً بأنّ ذلك أكبر خطأ في حياته المهنية كلّها.

أراد أونو القول إنّ والده أيضاً كان يستحقّ رصاصة في الواقع، لكنّه تحكّم بنفسه؛ لم يكن على يقين من أنه يجوز له بلوغ هذا المبلغ من الاستهتار، إذ ما مدى سُمك الطبقة الجليدية المحيطة بهذا الرجل؟ أهنالك شيءٌ آخر مختلف كلّ الاختلاف تحت هذه الطبقة؟

قال: «إذا كانت أمك يهودية، فهذا يعني أنك يهودي أيضاً».

وأحسّ في الحال بأنه لم يستسغ سماع كلمة «يهودي» من فمه. لعلّ اليهود وحدهم يجوز لهم استخدامها، بعد كلّ ما حدث، لعلّها من المحرّمات - ولكن من ناحية أخرى، أوجب عليه بعد هذه الفترة كلّها أن يسمح للفاشيّين بتكميم فمه؟

- يرى الحاخامات أنني يهودي. كان النازيّون يرون أنني لم أكن سوى نصف يهودي - حمداً للربّ، وإلا لما نجوت أنا أيضاً. لكنّ الإنسان يتساءل: أيّ نصف؟ العلوي؟ السفلي؟ الأيسر؟ الأيمن؟

- كان النازيون اختصاصيين في علم الأحياء. بالنسبة إليهم كنّ يهودياً مخفّفاً من نوع معيّن؛ مكوّناً من خمسين بالمئة من الماء الآري مضافاً إلى النبيذ اليهودي.

سأل ماكس بضحكة: «ألا يدعى هذا "مغشوش"؟ أتعرف لماذا الأمر على هذا النحو، أي إنك حسب رأي اليهود الأرثوذكس لا تكون يهودياً إلا إذا كانت أمك يهودية، وإنك غير يهودي عندما يكون أبوك وحده يهودياً؟».

- أخبرني أنت!

- هذا أيضاً يمتّ بصلّة إلى علم الأحياء. لأنّ الرجل لا يستطيع الجزم مئة بالمئة أنه الأب الحقيقي لطفله. لعلّ الأم أيضاً لا تستطيع أن تعلم علم اليقين من يكون أبو الطفل، ولكن هناك شيء وحيد مؤكّد مئة بالمئة على الدوام: إنها هي الأم.

- هذا يدلّ على التبصّر العميق في الطبيعة الكاذبة للنساء من هذا النوع.

انفجر ماكس في الضحك: «أأنت متزوّج؟ هل عندك أولاد؟».

سرّاً أونوبزوال الغيمة الداكنة: «أولاد! أنا عندي أولاد! لست على هذا القدر من الوحشية. أعيش مع صديقة بين حينٍ وآخر، إن أردت أن تعرف. هي أيضاً من الأرواح الطيبة التي تنثر الخبز».

قرّر ألا يسأل ماكس عن حياته الغرامية، لأنه توقّع أن تكون فظيعة هي أيضاً.

- ألم تقل إنك بلغت التاسعة من العمر في 1942؟ هذا يعني أننا في العمر نفسه. متى عيد ميلادك؟

- في السابع والعشرين من تشرين الثاني.

قال أونو: «أنا في السادس من تشرين الثاني. سأعتبرك من الآن فصاعداً صديقي الأصغر سنًا، الذي لا يزال يستطيع تعلّم الكثير مني. أو انتظر قليلاً...».

وتوقّف عن السير: «لقد وُلدت قبل الأوان بثلاثة أسابيع: هذا يعني أنّ أمي وأمك حبلتا بنا في اليوم نفسه».

نظر أحدهما باندهاش إلى الآخر.

هتف ماكس: «في اللحظة نفسها!».

شعر كلّ منهما، السائق والراكب مجاناً على حدّ سواء، بأنه وجد التفسير لصدمة التعرّف - كأنما لم يحدث أنّ أحدهما لم يعرف الثاني. مدّ أحدهما يده إلى الآخر بوقار.

قال ماكس بنبرة مترقّعة ذكرّته بفينيتو وصديقه أولد شاترهاند في قصص كارل ماي^(*): «لا شيء يستطيع التفريق بيننا سوى الموت».

في تلك اللحظة أيضاً خطر في باله مزج الدم في كتب الهنود الحمر: جرح كلّ منهما إصبعه، ثم ضُغَط الجرحان أحدهما على الآخر. أوشك أن يقول: «كان علينا في الواقع أن...» لكنّه لم يفعل.

كانا واقفين أمام بيته في شارع فوسسيوس الراقي مرة أخرى، واتفقا أن يتصل أحدهما بالآخر بالهاتف في اليوم التالي. عرض عليه ماكس أن يوصله بالسيارة إلى بيته، لكنّ أونو رفض العرض. بينما يُخرج ماكس مفاتيحه، تبعه بعينه في حال إذا أراد الالتفات إلى الورااء والتلويح له بيده، لكنّ ذلك لم يحدث. وفيما يبحث عن مفتاح البيت بين حزمة المفاتيح، رأى الدوائر والصلبان مرسومة في راحة يده اليسرى.

(*) أولد شاترهاند هي شخصية خيالية في روايات الكاتب الألماني كارل ماي (1842-1912). وهو الصديق الألماني والشقيق بالدم لفينيتو، الزعيم الخيالي لقليلة ميسكاليرو من شعب الأباتشي. [م]

4. الصداقة

إن لم يكونا في مهمة عمل خارج البلاد، لم يكن يمضي يومٌ واحد في الأشهر التالية من دون أن يرى أحدهما الآخر. لم يحدث أن التقى ماكس بشخص مثل أونو، ولا حدث أن التقى أونو بشخص مثل ماكس - مثل شخصين يسميان نفسيهما توءمين لم يكن أحدهما يتوقّف عن السعادة بالآخر. كلّ منهما يشعر بأنه أقلّ شأنًا عند الآخر، خادماً وسيّد في الوقت نفسه، ما خلق نوعاً من اللانهاية، مثلما يحدث بين مرأتين تنعكس إحداهما في الأخرى. بسبب ظهورهما الدائم معاً في الشارع، وفي المقاهي، والحانات، بدأ الناس يتحدّثون عنهما في بعض الأحيان كما يتحدّثون عن «مُثقفين مثليّين». كانا محاطين بسوء الفهم والارتياب، لأنهما يشكّلان تهديداً: رجلاً بالغان، لا يبدو عليهما أنهما مثليّان، ولا يجمعها شيء مشترك، لكنهما لهذا السبب تحديداً متوحّدان بطريقة محيرة تكاد تكون تكافلية. لو أنّهما لوطيّان، لما كانت هناك مشكلة، لا عبثاً ببساطة عاشقين. لكنهما الآن يواجهان الجميع بفقدان، يولّد أحياناً مزيجاً غير مبهج من الحسد والعدوانية: أحدهما طالب لا يستطيع التخلّي عن دور المُهان، والآخر عن المتعجرف المُهين. من أجل تحييد هذا الأمر، اعترفا به جهاراً وأضافا عليه رشّة من البهارات. لم يتحدّثا عمّا يربطهما هما الاثنان إلا بعد حين - عندما لم يعد موجوداً، عندما اندمجت تلك الأيام كلّها في ذاكرتهما في يومٍ واحد أبديّ غير قابل للنسيان. الإغريق أيضاً، هذا ما يعرفه أونو، الذين وضعوا أساس الثقافة الغربية، لم تكن لديهم كلمة «ثقافة». لم تظهر الكلمات إلا بعد أن تلاشت المسألة.

كلّ منهما لديه حلقة أصدقاء بطبيعة الحال، أصبحوا هم أيضاً يعرفون بعضهم بعضاً، لكن في الوقت نفسه اغترب ماكس وأونو عنهم، ابتعدا عنهم، تركاهم وراءهما وهم يهزّون رؤوسهم هزّة واحدة مشتركة. كانا على العموم يلتقيان على طاولة قراءة في مقهى أميركان تحت مصابيح الأرت نوفو، تحيط بهما لوحاتٌ جدارية تجسّد مشاهد من أوبرا فاغنر. يكون

ماكس قد تناول الطعام في أغلب الأحيان في لايدن، أو وجبة سريعة أعدّها في البيت، بينما أونو لا يزال يتناول عشاءه - أي هناك طبق بجانب جريدته يحتوي دائماً، ومرة بعد مرة، على أربع قطع أو خمسٍ من كروكيت اللحم^(*)، يشرب معها أربع كاساتٍ أو خمساً من الحليب. لا يأكل الخضراوات على الإطلاق؛ اعتاد على القول: «الخس طعام الأرانب». كان يبدو أنه لا يمتّ بأيّ صلة إلى جسده، ربما لهذا السبب له حضورٌ هائل؛ وجباته تتسم بالقدر نفسه من الإهمال الذي تتسم به ملابسه وأسنانه غير المنظّفة. عندما كان وجهه يتصبّب عرقاً في إحدى المرات، قال له ماكس: «أنت محموم يا أونو» - ما جعل أونو يمسح جبينه، ينظر إلى راحة يده المتلاثلة بالعرق ويقول: «إنك على حق، اللعنة!». ثم ينسى الأمر في اللحظة التالية. من ناحية أخرى، يجلس ماكس في أوقات محدّدة في غرفة الانتظار في عيادة طبيب العائلة الشيوعي، يحدّق في صورة كبيرة لعمّال بلجيكيين بقبعات بيريه، مضربين عن العمل، واقفين وجهاً لوجه مع فرقة من رجال الشرطة المدجّجين بالسلاح الثقيل، رغم أنه لم يكن يعاني من أيّ علة، ما عدا داء السيلان بين حينٍ وآخر، ومهما تعاظم خوفه المتخيّل من الموت، لم يحدث أن تنافرت ربطة عنقه مع جوربه.

مرة واحدة بدأ ماكس يتكلّم عن الموت، ما أزعج أونو في الحال غاية الإزعاج: «التكلّم عن الموت تضييع للوقت. ما دمتَ على قيد الحياة فأنت لست ميتاً، وإذا لم تعد على قيد الحياة فأنت ميت بالنسبة إلى الآخرين فحسب».

لكن ماكس لم يكن يقصد هذا. قال إنه من ناحية مقتنعٌ بأنه سيموت ذات يوم بألم فظيع إثر نوبة قلبية، ولكن من ناحية أخرى يمكن أن يعيش حياةً أبدية. يستطيع الجميع تحديد عمره المتوقع، بشكلٍ علمي، عن طريق جمع العمر الذي عاشه والداه وتقسيم المجموع على اثنين. لكن كلاً من والديه لقي مصرعه بشكلٍ عنيف؛ لو لم يحدث ذلك، لربما عاشا حياةً أبدية. ولأننا، حسب كانتور^(**)، إذا جمعنا اللانهائي مع اللانهائي وقسمنا المجموع على اثنين حصلنا على اللانهائي أيضاً، تكون الفرضية بذلك قد تأكدت.

قال أونو: «مغالطة مؤلمة أشدّ الإيلام يقع فيها مختصّ في العلوم الدقيقة. في الواقع هناك احتمال: خمسون بالمئة أن تُقتل، وخمسون بالمئة أن تُعدم - أي إنّ الشيء المؤكّد منه بالمئة هو أنك ستلقى مصرعك بشكلٍ عنيف».

(*) قطع مكوّنة من لحم بقر وخضار مقليه بعد تغميسها في فتات الخبز. [م]

(**) Georg Cantor (1845-1918): عالم رياضيات ألماني، ساهم في وضع نظرية المجموعات. [م]

عندما ينفذ الكروكيت، سيران إلى مركز المدينة، حيث يكون البرد الشتوي قد تلاشى من الجو. أحياناً يذهبان أول الأمر إلى دار السينما، لحضور أحد أفلام جيمس بوند، أو أحدث أفلام ستانلي كوبريك، 2001: أوديسا الفضاء الذي يسيطر فيه حاسوب، يدعى «هال»، على سفينة الفضاء. عندما خرجا إلى الشارع - في الحالة المغسولة التي يصطدم فيها المرء بالواقع عند الخروج، مثلما يصطدم بمبرد رمادي اللون - سأل أونو ماكس لماذا يظن أنّ ذلك الحاسوب يُدعى «HAL» هال.

قال ماكس: «لأنه يستدعي إلى ذهنك هول الجحيم».

لم يخطر هذا في بال أونو، اللعنة. ولكن هل يستطيع ماكس ذكر الحروف الأبجدية التي تلي H، A و L.

قال ماكس: «M، B، I، ... IBM^(*)»، ثم هتف: «أرفع لك القُبعة!».

رسم أونو ملامح التواضع على وجهه: «هذه موهبة».

بينما يشربان فنجاناً من القهوة في محلّ، يزق في لبتل ريتشارد من صندوق الموسيقى، ادّعى أونو أنّ بصيرته في مثل هذه الأشياء متأتية من نشأته الكالفينية: ناتجة عن قراءة الكتاب المقدّس، «المتضمّن النصّ المقدّس بأكمله». يعتقد أنّ الحقيقة تكمن في الشيء المكتوب فحسب، ولا تُرى على سبيل المثال بالتلسكراب. هذه القراءة للشيء الأسمى هي العامل المشترك بين الكالفينيين واليهود؛ الكاثوليكيون لا يقرؤون الكتاب المقدّس إطلاقاً، ليس لديهم كتابٌ على العموم، الكاثوليكيون أميُّون لا يعرفون فكّ الحرف، كلّ ما يفهمونه هو التماثيل والصور. يضاف إلى ذلك أنّ الكالفينيين ينسجمون مع العهد القديم أكثر مما ينسجمون مع العهد الجديد، كما هو حال الروم الكاثوليك - الذين يرتلون تلك النصوص أيضاً بأقصى درجات البدائية. عندما كان اليهود يتعرّضون للاضطهاد، انضمّ الكالفينيون لهذا السبب إلى المقاومة بأعداد تفوق أعداد الكاثوليكين بكثير - الذين على ذكر هذا الحديث ابتكروا معاداة السامية - وتساوي أعداد الشيوعيين، الذين كانوا يستمدّون الحقيقة أيضاً من كتاب، أي من كتاب ماركس، الذي هو يهوديٌّ أيضاً.

خيّل إلى ماكس أنه يرى هذا النوع من حجج صديقه يتأرجح في الهواء، مثل سوط طويل في يد مروض حيوانات مفترسة، فأصبح مصدر إلهامه هو أيضاً. سأل: «هل حدث أن لفت

(*) IBM: هي شركة المؤسسة الدولية للحواسيب. [م]

انتباهك أن المنطقة البروتستانتية تتوافق مع المنطقة الجليدية في العصر الجليدي؟ في هولندا يسير الحدّ بين المنطقتين في الوسط تماماً: حيثما يكون الجليد تترامى أرض البروتستانت إلى أن تبلغ هامرست النرويجية، وحيثما تنبت الأعشاب تترامى أرض الكاثوليك إلى أن تبلغ باليرمو الإيطالية.

وخطر في باله بصورة مفاجئة: «وأيّن عاش كالفين؟ في سويسرا! الأرض البروتستانتية الوحيدة في المنطقة الكاثوليكية التي لا تزال فيها كتل جليدية!».

قال أونو: «إنني أرعد. تسري الرعدات على طول ظهري. فقط شخصٌ غير هولندي يستطيع الإتيان بمثل هذا الاكتشاف المخزي. اذهب عني يا شيطان! أنت لا تنتمي إلى هنا إطلاقاً».

- إلى أين أنتمي إذا؟

لوح أونو بذراعه: «إلى الفضاء. أنت تنظر إلى هولندا من الفضاء، مثل رائد فضاء؛ لكنني قابع في وسطها، متجمّد في الجليد الكاليفيني، مثل ماموث. لا تدعني أفتح فمي وأبدأ. هولندا لي، وليست لحارس غابة ضائع من أوروبا الوسطى، مثلك».

كان ذلك صحيحاً. ماكس لا يستطيع تصوّر كيف يشعر المرء عندما يكون فرداً من شعب، من أمة، من عرق، من دين - باختصار، عندما لا يكون وحيداً. إنه هولندي، نمساوي، يهودي، آري، هذا كلّه في الوقت نفسه، ولذلك لا شيء من هذا كلّه. إنه يتتمي حصراً إلى الذين لا ينتمون إلى أيّ شيء ولا أيّ مكان.

قال: «أشعر بأنني هولندي، مثلما أظنّ أنّ سبينوزا كان يشعر».

- ولماذا سبينوزا تحديدًا؟

- لعدد من الأسباب، من بينها أنه عمل في شحذ العدسات.

ولكنّ تيّارهما غير المنقطع من النظريات، والدعابات، ووجهات النظر، والحكايات، لم يكن نقاشهما الحقيقي. نقاشهما الحقيقي يتوارى تحت هذه المواضيع، من دون كلمات، ويدور عنهما هما الاثنان. يظهر أحياناً بطريقة غير مباشرة، على النحو الذي كان الصيادون في بحر الشمال، في العصور الماضية، يكتشفون مجموعة من أسماك الرنكة من انعكاسها الفضّي على الغيوم.

في مقهى واقع في حيّ الجرائد، مكتظّ بالصحافيين في الصحف الصباحية، وكذلك

الصحف المسائية، وحيث طلب أونو كأسه الأولى من روم بكولا، أخبره في إحدى المرات عن ملحمة جلجامش: أقدم حكاية عن البشرية، التي فكّ رموزها زميله رولينسون في القرن التاسع عشر، وكتبت قبل الميلاد في زمن يبلغ من الطول ما يبلغه الزمن الذي يعيشان فيه بعد الميلاد. كان هرم خوفو موجوداً حينذاك، هذا ما قاله أونو، لأنّ ذلك الهرم كان موجوداً على الدوام إذا جاز التعبير؛ أما موسى، حرب طروادة، كلّ ذلك، فقد جاء في ما بعد. كانت الحكاية الأولى تلك عن الصداقة. رأى الملك البابلي جلجامش مناماً عن فأس مرعب، يغرم به «يرقد عليه مثلما على امرأة». فسّرت والدته، التي بدت أنها متشبّعة بفلسفة فرويد، ذلك الفأس بأنه رجل، سيرقد عليه مثلما على امرأة. وبعد فترة قصيرة ظهر الرجل: إنكيديو، إنسان برّي مرّوض، ضرب معه في الأرض وقتل الوحش حواوا، ولكنّ ذلك الفعل أدّى إلى مقتل إنكيديو أيضاً في نهاية المطاف. ذهب جلجامش من شدة اليأس يبحث عن إكسير الخلود، ولكن عندما سرقت منه أفعى هذا الإكسير أيضاً في نهاية الأمر، استسلم للأمر المحتوم مثل متفائل^(*) قبل نشأة هذا المفهوم، ووجد رسالة حياته في بناء أسوار أوروك.

قال ماكس: «رائع! لماذا لا أعرف هذا كله؟ لماذا لا يقرؤه الجميع؟».

- لأنّ الجميع لا يعرفني.

- إنه قدّر فطّيع ألا يعرفك الجميع.

- يبدو لي أنّ مجرد الفكرة لا تطاق.

- عشت أنا أيضاً في ذلك الجحيم فترة طويلة.

تهالك رجلٌ على كرسي بجانب طاولتهما، بهيئة سكران حسب حركاته مسبقاً بدقّة متناهية: «هل يمكنني سماع ما يتحدّث عنه الصبيّان اللوطيّان؟».

نظر أونو باشمئزاز إلى وجه الصحافي الساخر: «طبعاً لا. هذا الحديث سيضعك في مواجهة قاتلة مع تفاهتك المنحطّة، يا مَنْ تعمل بأجرة يومية. وعيك التاريخي لا يبلغ أبعد من الصحيفة المسائية الصادرة يوم أمس، أما نحن - نحن نستعرض الأيونات^(**)!».

ثم نادى لاعب كمال الأجسام الذي هو النادل هنا: «يا معلّم! جُدّ علينا! كأس أخرى من كوبا ليبره وعصير برتقال طازج!».

(*) إشارة إلى رواية فولتير «كانديد أو التفاؤل». [م]

(**) أيون تعني «دهر»، وفي المعتقد الغنوصي تشير أيضاً إلى المخلوقات الأبدية. [م]

انحنى ماكس صوب الرجل الجالس قبالة، كأنما يريد ائتمانه على سرّ، وقال بهدوء: «أنا شخصياً أحبّك، ولكن ما السبب الذي يجعل الآخرين جميعهم يكرهونك إلى هذا الحد؟». بقي الرجل يحدّق فيه برهة قصيرة، حتى يتمكّن من استيعاب الإهانة، ثم اندفع إلى الأمام وأمسك ماكس من ياقته؛ لعلّه أراد جرّه من فوق الطاولة، ولكن وبينما ماكس مستسلم في قبضته، قفز أونو على قدميه، وفعل الشيء نفسه مع الصحفي، ما جعل ماكس يتهاوى من كرسيه. بينما يضغط أونو الرجل على الطاولة بيده اليسرى، رفع يده اليمنى في الهواء، وكأنه يريد توجيه ضربة كاراتهيه قاضية إلى عنقه، وأجال عينيه في المقهى الذي ساد فيه الصمت وقال: «تهجّم على صديقي. يجب أن يموت!».

لم يكن ماكس يعرف أيّ شيء عن جلجامش وإنكيدو، رغم أنّ علم الفلك نشأ في ذلك الزمان نفسه وذلك المكان ذاته؛ لكنّه كان يعرف شيئاً عن نوع آخر من الرجال، مثل ليوبولد ولويب. بعد أن خاضا النقاش مع ناشطين حُرّ في أحد المقاهي في ذلك اليوم -أو في يوم آخر- وأخذا يسيران في شوارع المدينة بعد منتصف الليل، عبر الساحة التي تقوم فيها الكُنس اليهودية المتداعية، أخبره عن الطالبين الأميركيين في كلّية الحقوق، الصديقين الحميمين، أحدهما في الثامنة عشرة والآخر في التاسعة عشرة من العمر، سليليّ عائلتين من العائلات الثرية في شيكاغو. قرأ نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، وما وراء الخير والشر، وتوصّلا إلى نتيجة: إنهما شخصان خارقان للطبيعة، وفوق القوانين البشرية جميعها. من أجل إثبات ذلك بالبرهان، قرّرا في عام 1924 ارتكاب جريمة كاملة الأركان، من دون أيّ دافع، باستثناء الدافع المذكور. قتلا صبيّاً في الرابعة عشرة من العمر، شوّها ملامح وجهه بحمض كلور الماء، وأخفيا جثّته في أنبوب صرف صحّي، ثم ذهبوا لتناول العشاء في مطعم فاخر. ولكنّ ليوبولد، وهو خبير طيور، كان قد ضيّع نظارته، فأنكشف كلّ شيء. حُكم على كلّ منهما بالسجن المؤبّد، مضافة إليه تسع وتسعون سنة. قُتل لويب، الفاتن بينهما، في ما بعد، أثناء عراك في السجن، أما ليوبولد، العقل المُدبّر، فقد أُطلق سراحه قبل نحو عشر سنوات، وبلغ الآن الثانية والستين إن كان لا يزال على قيد الحياة.

لم يعقّب أونو بأيّ شيء، فهم من فوره عمّا يتحدّث ماكس في الواقع. لم يعودا إلى الحديث عن والده، بعد ليلة لقائهما الأول؛ سيعود الحديث عنه إلى الواجهة في لحظة ما، لكنّ أونو رأى أنه ليس من مهمّته تحديد تلك اللحظة. فهم ماكس، من ناحيته، ما فهمه أونو، لكنّه لم يتطرّق إليه هو أيضاً. قال عوضاً عن ذلك: «مَن سنقتل يا أونو؟».

لم يحصل على جواب. استنشق أونو هواء الليل بعمق وقال: «أشمت بشائر الربيع».

أخذت عربية صقل تقترب على سكة الترام، الممتدة عبر الساحة المقفرة، محدثةً صريراً ومطلقةً شرارات. عندما وصلت إلى مقربة منهما، هتفا: «مرحى!»، وصفاً لهذا المشهد، فتوقفت العربية إثر ذلك ودعاهما أحد العاملين عليها للركوب. في داخل العربية الحديدية، المملأ بأدوات ثقيلة وقذرة، تبين أن هناك راكباً آخر: فتاة رثة الهيئة، متخمة بالشراب أو بشيء آخر، جالسة على صندوق تهمهم بكلمات غير مفهومة. عندما رأى أونو ماكس ينظر إليها، قال له بصرامة: «إياك أن تقترب منها، أيها المقرِف!».

بينما يراود ماكس شعور بأنه يقدم تضحية عن طيب خاطر، حُيِّل إليه أن هذا مستحسن في هذه الحالة.

هتف أونو للسائق: «انطلق أيها الحوذي!».

دبت الحركة في العربية وبدأت تصقل السكة وتطلق الشرارات. وقف أونو بساقين متباعدين، غرس يديه في خاصرته، رفع ذقنه، وصاح بنظرة بطولية في عينيه مثل نظرة بسمارك: «أنا إله المدينة!».

كان ماكس يفضل رؤيته على هذا النحو، لن ينسى مثل هذه اللحظات على الإطلاق. أما العاملون في شركة النقل فقد رأوه شخصاً غريب الأطوار بطبيعة الحال، شخصاً من أمثال أولئك الذين يتسكعون غالباً في الشوارع في الليل، لكنّ ماكس فهم أنه لا يلقي الكلام على عواهنه، إنما يجسد إلهاً في الواقع، بتلك النيران تحت قدميه، عرافاً بيثياً^(*) واقفاً على صندوق، ومحاطاً بثلاثة كنس يهودية أو أربعة - وعلم أونو أن ماكس هو الوحيد الذي يفهمه.

وتبين فجأة في الساعة الرابعة فجراً - في مقهى هت ستيرتية، وسط سائقي سيارات أجرة مشبوهين، وعاهرات، وقوادين، ولصوص، وقتلة - أن أونو لم يقرأ بعد رسالة إلى الوالد لكافكا، فذهبا إلى بيت ماكس من أجل تدارك هذا التقصير.

*

عندما صعد أونو الدرجات الثلاث لأول مرة، ورأى شقة ماكس، قال وهو لا يزال في فتحة الباب: «لقد أيقنت الآن أنك مجنون».

(*) إشارة إلى بيثيا، الوسيط الروحي وعرّاف الإله أبولو. [م]

- موافق. دعنا نوزّع الأدوار مرّة وإلى الأبد: أنا مجنون وأنت غبيّ.

- اتفقنا!

رأى أونو من النظرة الأولى أنه لم يكن هناك شيء قائماً أو موضوعاً بمصادفة محض. لم يكن المنزل خالياً من الناحية الجمالية أو مرتباً بصورة مرعبة؛ بل مليء بالكتب والملفات الموضوعية على الأرض وعلى البيانو الصغير، ولكن ليس هناك كتابٌ أكبر فوق كتاب أصغر، أو ملفّ فوق كتاب، وليس هناك أيُّ شيء يمكن أن يوضع في مكان آخر، كما هو الحال في لوحة. هذا الترتيب المتناسق ممتدّ بسلاسة إلى كلّ شيء في الشقة؛ كذلك ليس هناك طرازٌ محدّد، فهناك أشياء حديثة، وأشياء أثرية ونصف أثرية، ولكنّ هذه الأشياء كلّها متناغمة بعضها مع بعض ولا تصطدم العين بشيء مزعج في أيّ مكان، مثل بلاستيك ملوّن، أو منشور دعايات، أو حتى مجرد قلم حبر ناشف. طاولة الكتابة أيضاً مكتنّظة بالكتب والأوراق، ولكن كلّ شيء مرتّب بدقّة وعناية، بشكلٍ متوازٍ، بشكلٍ متقاطع، دون إثارة أيّ انطباع أحرق. ما أسماء أونو «جنونا» كان إعجاباً بشيء يفتقده كلياً في حياته اليومية.

الطبيعة البشرية محافظة إلى درجة أنّ الإنسان يجلس في بيت شخص في المكان نفسه على الدوام؛ في المكان الذي جلس فيه في المرة الأولى. هكذا تهالك أونو في مقعد من طراز تشيسترفيلد زيتونيّ الخضرة، ووُضعت إلى جانبه زجاجة من الباكاردي وزجاجة من الكولا، إضافةً إلى طبق من مكعبات الثلج، ومضى ماكس إلى «رفّ الشرف» الخاص به القائم على رفّ الموقد؛ بين دعامتيّ كتب من البرونز، تمثالتيّ ساتير^(*) مكلّلين بأوراق الغار ولهما قوائم الماعز، تقوم عشرة كتب أو خمسة عشر كتاباً كانت تمثل له الشيء السامي في زمن معيّن. تحدث تغيّرات بين حينٍ وآخر، لكنّ الثابت على الدوام هو نسخة والده من كتاب «الأنثا وذاتها» مزوّدة بتوقيعه «فولفغانغ ديلوس - في ساحة المعركة 1917»، التي أرسلت مع بعض ملابسه من السجن في مدينة سخيڤينينغن إلى والديه بالتبنيّ عام 1946؛ لقد صودرت ممتلكاته الأخرى كلّها واختفت من الوجود. كان كتاب كافكا «تحضيرات عرس في الريف» بنسخته الألمانية موضوعاً على رفّ الشرف أيضاً، بين صفحاته «رسالة إلى الوالد» التي لم يرسلها إطلاقاً.

هما الاثنان هناك في الهزيع الأخير من الليل، هم الثلاثة في الواقع، مع آبائهم! مضت

(*) مخلوق أسطوريّ إغريقيّ. [م]

ساعات وماكس يقرأ له الرسالة بنطقي سليم من دون لكمة، بمقاطعة متكررة بغية التعليقات. كافكا الذي سلخ جلده، أراد الزواج، لم يستطع الزواج في ظل والده، الذي أعلن في وقت مبكر أنه «سيمزقه شرّ تمزيق مثل سمكة» - كلّما ورد شيء فظيع من هذا القبيل، غطس أونو في مقعده مزيداً من الغطس، كأنما أُصيب بوابل من الرصاص، إلى أن رقد على الأرض وهو يرتجف من شدة البهجة. نهض ماکس بالكتاب في آخر الأمر، وأطلق عليه كلماته بشكلٍ مستقيم من العلياء، فصاح أونو: «الرحمة! يا أبانا! لا تُنزل بنا أسوأ العقاب! أجل، سأقدم لك حتى قربان الفكر، أجل، سأعبدك إلى الأبد، بصفتي أدنى المخلوقات، أنا الدود الدنيء الذي لا يستحقّ تقبيل قدميك، اسحقني، كي تتحقّق العدالة!».

أغلق ماکس الكتاب بخبطة صاخبة وضغطه على معدته من شدة الضحك. كانا فريدين، خالدين! لن يكون بوسع أحدٍ فهم هذا الأمر، ولكن ليس من الضروري أن يفهمه أحد. عاد أونو إلى الجلوس في مقعده، وأترع كأسه مرة أخرى، نصف روم ونصف كولا. قال ماکس إنّ هذه الرسالة هي المفتاح إلى أعمال كافكا كلّها، إذ لا يمكن فهم «المحاكمة» إلا عن طريق هذا المکتوب. جوزيف ك.!

- لقد بلغت من الذكاء أنك استنتجت أصل «هال»، أما أنا فقد اكتشفتُ من أين ينحدر «جوزيف». «ك.» هو الحرف الأول من كافكا طبعاً، والرجل الذي يدخل الغرفة في مستهلّ الرواية من أجل إلقاء القبض عليه يدعى فرانس، مثل كافكا نفسه؛ ولكن لماذا يسمّى «ك.» نفسه «جوزيف» وليس ماکس، تيمناً باسم صديقه برود أو مورتيس؟ هتف أونو: «فرانس جوزيف!».

- هذا صحيح. المُعتقل، والمُعتقل، وكافكا نفسه يشكّلون ثالوثاً من صاحب الجلالة الإمبراطوري والرسولي الملكي.

الليل يمضي، والأرض تدور حول محورها، وهما يتحدثان عن المشكلة لماذا يرفرف علم في مهبّ الريح - في تيار شديد من الهواء - ولماذا تموجات شعر ماکس لا تتحرّك مع اتجاه نموّ الشعر لكنّها تبقى في المكان نفسه، عكس ما يحدث في البحر، حيث تتحرّك الأمواج بشكل أفقي ولكنّ المياه تبقى في المكان نفسه؛ وعن الحرب، عن أدولف هتلر، الذي سمّاه «أ. هـ. إرلينس»؛ وعن الابتين التوءم لماكس بلانك، مؤسس ميكانيكا الكمّ؛ أنجبت إحداهما بنتاً وماتت أثناء الوضع، واعتنت الأخرى بالطفلة وتزوجت من الأرمل،

وأنجبت هي نفسها بنتاً بعد مضي ستين، وماتت أثناء الوضع هي أيضاً، يضاف إلى ذلك أن ابنه الأول لقي مصرعه في الحرب العالمية الأولى، بينما ابنه الثاني أُعدم رمياً بالرصاص في الحرب العالمية الثانية. ثابت بلانك!

لعلهما يندمان بعد حين على عدم تسجيل ملاحظات عن تلك الأيام، ولكن لو سجّلا ملاحظات، لما تطابقت مع الواقع. لعلّ أونو لم يكن ليخبره بما أخبره عند اقتراب الصباح: بأن والدته أمّلت أن يكون بنتاً. كان آخر العنقود وبقي حتى سن الرابعة يتجولّ بشعر معقوص طويل، وفساتين وردية اللون مزينة بأناشيط. لكنّه أتلف الأدلة على ذلك بطريقة منهجية؛ لم يعد يرى صورة لطيفة له في ألبوم الصور العائد لوالديه، بل وصّفى أيضاً ألبومات إخوته وأخواته منها بذرائع غير مباشرة.

بقي ماكس ينظر إليه وهو يحني رأسه إحناءات خفيفة. قال: «والآن أخبرني بما لن تخبر به أيّ شخص بأيّ حال من الأحوال!».

مهما أسرف أونو في الشراب، يبقى صاحباً عند نقطة معيّنة على الدوام. وضع كأسه من يده.

- شيء فظيع! كنت أقيم أثناء دراستي الجامعية في غرفة مستأجرة، أحاول فيها زرع فلسفة فكرة القانون في رأسي. في الغرفة المجاورة تعيش أمّ غير متزوجة، فتاة مع طفل رضيع لا يتوقّف عن البكاء. الربّ يعلم ماذا دهاني. في مساء شتويّ ركضت في سورة غضب إلى غرفتها، كانت جالسة إلى الطاولة تخطط ملابس صغيرة، والرضيع يبكي بأعلى صوته؛ من أجل أب طبعاً! كانت هناك مدفأة فحم من الطراز القديم، متوهّجة الحرارة. انتزعت الرضيع المزعج من مهده، رفعت من كاحله بيدي اليمنى، أمسكت محرّك الجمر بيدي اليسرى، رفعت به الغطاء عن المدفأة وأمسكت الطفل برأسه إلى الأسفل فوق الوهج. لم أقل أيّ شيء، أخذت أنظر إليها فحسب. تجمّدت من الذعر، وكأنها صورة من نفسها. توقّف الرضيع أيضاً عن البكاء لأول مرة. شيء فظيع! كان يجب أن أعتقل على هذا الفعل ويُزجّ بي في السجن.

لم يحد عينيه عن عيني ماكس. قال: «حسناً، لقد عرفتَ القصة. لكنك لم تسألني هذا عبثاً، لأنك تعلم أنني سأطرح عليك السؤال نفسه. سألتني هذا السؤال، لأنك تريد إخباري بما لن تخبر أحداً به على الإطلاق. تستطيع الاعتراف الآن».

أحني ماكس رأسه بالإيجاب، وقال بنبرة خالية من المشاعر: «عندما كان أبي بالتبني على

فراش الموت في السنة الماضية، واصلتني رسالة من أمي بالتبني. لم أكن أراهما إلا نادراً، إذ يبدو أنك لا تستطيع مسامحة شخص إذا أحسن معاملتك. كتبْتُ إنه يريد رؤيتي للمرة الأخيرة قبل أن يموت».

قال أونو: «توقّف من فضلك!».

بطل مفعول الخمر على الفور. نهض ماكس بعد برهة قصيرة وأعاد كتاب كافكا إلى مكانه. بقي واقفاً في هيئة مترددة، ثم أشعل شمعة موجودة على طاولة الطعام في نزوة مفاجئة. التفت إلى الوراء، نظر في ساعة يده وقال: «إنها السابعة. إنني جائع. دعنا نذهب إلى فندق أميركان لتناول الفطور. ثم إنني بحاجة إلى مغامرة مع الجنس اللطيف. لعلّ عصفورة مبكرة جالسة هناك، فأنت لا تعرف إطلاقاً».

5. اللعب في الشارع

التوائم السيامية تستمدّ تسميتها من الأخوين إنغ وتشانغ، اللذين عاشا ثلاثة وستين عاماً في القرن التاسع عشر: من أجل الترفيه عن أونو، بحث ماكس عن ذلك في موسوعته العلمية. نظراً لالتصاق صدر أحدهما بصدر الآخر، سُمّيَا بالمصطلح الطبي ثوراكوياغوس، فعرف أونو في الحال أنهما هما نفسيهما ميتوياغوس^(*)، نظراً لارتباط روح أحدهما بروح الآخر. كانت النتيجة أنّ أحدهما بدأ يغيّر حياة الآخر. في نهاية آذار بدأ أونو يقضي بضعة أيام عند صديقه؛ أخذ معه ملابسه المتسخة كما يفعل دائماً. هي تسكن فوق متجر للتحف التذكارية، مغلق على العموم، في شارع فرعي هادئ مواز لقناة مائية، في بيت ضيق منحدر من القرن السابع عشر، في واجهته لوحة حجرية: وحيد القرن. التقى بها قبل بضع سنوات في معهد الفنون التاريخية، حيث تعمل مديرة مكتبة. أحبّها على الفور، لأنّ مظهرها يتطابق مع ما يتصوّره عن مديرات المكتبات، على النحو الذي قلّمَا يظهرن به: ممشوقة القامة، ذات شعرٍ مرفوع ووجهٍ هولنديّ صارم، مثل رئيسة دار الأيتام في لوحة فرانس هالس^(**)، ولكن أصغر سنّاً.

أخذت بين حينٍ وآخر تنظّف القبو الذي يعيش فيه، مثلما يعيش جرد من فصيلة الهامستر في جحره. كان يكسب بعض المال من كتابة مقالات وإلقاء محاضرات بين حينٍ وآخر، مع أنّ ذلك لم يكن ضرورياً في الواقع، فهو ينفق القليل ويستطيع تدبّر أمره من حصّته في ميراثه المستقبلي. في إحدى المرات سأله ابن أخيه ذو السنوات الستّ أثناء عشاء عائلي: «عمّي أونو، ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟»، بعد أن هدا الضحك، نظر الجميع إليه في

(*) «ثوراكوياغوس» كلمة لاتينية تعني: متحد الصدرين، و«ميتوياغوس» تعني: متحد الروحين. [م]

(**) Frans Hals (1582-1666): رسّام هولندي من العصر الذهبي، اشتهر برسم البورتريه. [م]

انتظار الردّ، فقال عندئذٍ: «هذا السؤال جيّد إلى درجة أنني لا أريد إفساده بإجابة». لو أراد، لأصبح أستاذاً في إحدى الجامعات في داخل البلاد أو خارجها منذ زمن بعيد، فقد كانت تأتية عروض مرّة تلو المرة؛ لكنّه لم يرغب في التخلّي عن طريقة حياته. إذ يرى نفسه عالماً متبحّراً مثل علماء القرن الثامن عشر، ويعتبر المؤسسة التعليمية شيئاً مبتدلاً. أساتذة الجامعات، حسب رأيه، شيء من قبيل معلّمي السباحة - ومن رأى معلّم سباحة في الماء ذات يوم؟ لم يحدث أن رآه أحد، لأنّ معلّمي السباحة لا يستطيعون السباحة إطلاقاً، كلّ ما يستطيعون فعله هو التكلّم من فوق حافة المسبح؛ أما هو فشخص يشقّ عباب المياه، سابحاً بتقنية الفراشة من دون رفق ولا هوادة.

بدأ التغيير بعد ظهر يوم مشمس من أيام السبت، كان الربيع قد ظهر بوثة هائلة من وراء الكواكيس، النوافذ مفتوحة والنسيم العليل يملأ الغرفة. وأونو قد أخذ معه بعض الأوراق إلى وحيد القرن، لكنّ العمل لم يكن يسير على ما يرام منذ أسابيع عديدة. رقدت قامته الضخمة على الكنبه مثل سفينة معطّلة. قال متدمّراً: «المدعو بيرنير^(*) المقرّف ذاك. أتمنّى لو أنه حطّم ذلك القرص الحقيّر على الفور في عام 1908. ولكن حسناً، لو فعل ذلك، لأعاد لصق الأجزاء بالصمغ. هناك شعبٌ بأكمله متوارٍ في مكانٍ ما، بخوذات وفؤوس، لكنّه يبقى مأكثاً في مكانه ولا يحرك ساكناً».

نزعت هيلخا نظارتها الخاصة بالقراءة ورفعت عينيها عن كتابها: «لماذا لا تدعه وشأنه لفترة من الزمن؟ ابدأ بشيء آخر!».

- أتعرفين ما تقولين يا عزيزتي؟ أعرف بدقّة كلّ الذين يعملون على هذا القرص، وهم لا يبدوون بشيء آخر. ماذا تقرئين؟

نظرت إلى الغلاف، وكأنها لا تعرف ماذا تقرأ، وقالت بالإنكليزية: «التقدّم في علم المكتبات».

- هذا الكتاب مطبوع، أليس كذلك يا حبيبتي هيلخا؟ وكلّ الكتب التي يتحدّث عنها مطبوعة أيضاً، أليس كذلك؟ يعتقد الجميع أنّ الطباعة بأختام متفرّقة اخترعت في الصين قبل ألف سنة، ولكن هل تعرفين من الذي اخترعها؟

(*) Luigi Pernier (1874-1937): عالم آثار إيطالي، اشتهر باكتشافه لقرص فيستوس، وهو قرص فخاري وُجد في القصر المينوسي في جزيرة كريت، تغطّي كلا وجهيه حلقة لولبية من الرموز المختومة. [م]

ولوح بالصورة التي عليها قرص فستوس: «الناس الذين صنعوا هذا. قبل أربعة آلاف سنة! إنه مزود بأختام! لو كان هناك عباقره ما قبل الأبجدية من أمثال هؤلاء، لوجد عليه شيءٌ مثير للاهتمام، أليس كذلك؟ وكان ينبغي أن أكون أول من يتمكن من قراءته، أليس كذلك؟ المشكلة هي أنه ليس لدينا سوى هذا النموذج، في حين أنك لا تصنع أختاماً من أجل لوح طيني واحد. لذلك لا بدّ من وجود مزيد من الألواح هناك، ولكن لم يُعثر سوى على هذا اللوح في جزيرة كريت. ثم إنه لا يوجد أي أثر مينيوسي عليه، انظري إلى هذه المحفّة السخيفة هنا، أي شيء هي؟ ماذا تعني؟ يجب علينا البحث في مكان آخر، ولكن أين؟ في أي عائلة؟».

- ولكن أليس لديك ما تنطلق منه؟

- سأشرح لك الوضع الذي أنا فيه.

وأخذ جريدة من الأرض وخربش شيئاً على هامشها: «اكتبي الرقم التالي: ثلاثة وثمانين ملياراً ومئةً وواحدًا وتسعين مليوناً، وأربعة وعشرين ألفاً، وخمسمئة وسبعاً وستين».

وعندما كتبت الرقم على ورقة كانت تسجّل عليها ملاحظات، قال: «والآن تصوّري اختصاصيّ رموز من السكّان الأصليين في أدغال أستراليا، اختصاصيّ رموز لا يعرف أنها أرقام حتى؛ كلّ ما يراه أحد عشر رمزاً عصيّاً على الفهم: 83191024567. كلّ منها مختلف عن الآخر، باستثناء الرمز 1. ماذا يمكنه أن يستنتج من هذا؟ لا شيء على الإطلاق. هذا هو الوضع الذي أنا فيه الآن. لنفترض أنه خطرت الفكرة البارعة في باله بأنّ هذه الرموز هي أرقام، ولكن كيف يمكنه اكتشاف أنها أعداد مرتبة ترتيباً أبجدياً من «واحد» إلى «عشرة»؟ بدءاً من «أ» من «أربعة» وانتهاءً بـ «واو» من «واحد». كيف له معرفة أنّ كلمة «أربعة» هي اسم العدد «4»؟ فهو لا يعرف نظام الأعداد العشرة، فضلاً عن لغتنا. كيف له بحقّ السماء معرفة أنه ينظر في قصة الدكتور كويست من الألف إلى الياء العصيّة على النسيان؟ ما المفتاح إلى ذلك؟ ومع ذلك يجب عليه اكتشاف ذلك وسوف يكتشف!».

وصاح فجأة بصوت عالٍ مخاطباً الصورة: «ماذا تقول؟ ألوا! هل ثمة أحد هناك؟ لا أستطيع فهمك! الخط ضعيف للغاية!».

ورمى الصورة بعيداً ووضع يديه على وجهه: «أنا متبلّد تماماً».

أغلقت هيلخا كتابها واضعةً سبّابتها بين صفحاته. سألت بنبرة مترنمة في صوتها: «وما السبب في أنك متبلّد تماماً؟».

فقال متظاهراً بالبكاء: «لا أعلم. لا أعلم! لعلّ الإنسان لا يستطيع اكتشاف شيء حقيقي سوى مرة واحدة في حياته».

- أيمكن أن يكون السهر مع صديقك الجديد سبباً من الأسباب؟

اختفى التصنع من وجه أونو؛ جلس من رقوده ونظر إليها: «أنت لا تعنين ما تقولين».

- إنني أعني ما أقول. هل تدرك كم هو وضع مرهق؟

قال مشدوهاً: «ماذا تقصدين يا هيلخا؟».

- لا أعلم ما الذي تقصده أنت، ما أعلمه هو أنك مقيّد تماماً منذ اليوم الذي عرفته فيه.

أنت لا تعرف كم تغيّرت في الآونة الأخيرة.

- من أيّ ناحية؟

وضعت الكتاب من يدها وصالبت ذراعيها على صدرها: «أعتقد أنك تشغل به أكثر مما

تشغل بعملك. لا تعود إلى البيت إلا عندما أذهب إلى المعهد. ثم كيف ينظّم هو أموره؟

أليس عالماً فلكياً؟ ألا يجب أن يرصد النجوم في الليل؟».

- أنا أيضاً لا أحتاج إلى الذهاب إلى المتحف في هيراكليون لأدقّق في تلك الرموز؟

وأستطيع النوم إلى وقت متأخر، أليس كذلك؟

نهض عن الكنبه وذهب إلى النافذة. لقد قلّ تفكيره في عمله بطبيعة الحال، ولكن هذا

شيء سيّئ إلى هذا الحد؟ التفكير لا يمكن لهذا السبب أن يتدهور إلى حالة من القلق، وهذه

الحالة تؤدي التفكير أكثر بكثير من عدم التفكير. تبادل الأفكار مع ماكس هو البدء «بشيء

آخر» بطريقة أو بأخرى. إنها تغار طبعاً.

- هل تغارين منه؟

- أريد أن تسير أمورك على ما يرام.

تنهّد بعمق والتفت إلى الوراء: «اسمعي! الذي بيني وبين ماكس لا يمكن أن يكون الذي

بينني وبينك أبداً؛ والذي بيني وبينك لا يمكن أن يكون الذي بيني وبين ماكس أبداً. هذا واضح

وضوح الشمس، يجب ألاّ تتسخ كلمة واحدة بهذا الأمر بعد الآن. ولكي أكون صادقاً، أعتقد

أننا وسّخنا الكثير من الكلمات».

نهضت عن مجلسها، سارت بضع خطوات، توقّفت عن السير وقالت: «أونو، احذر!».

فسأل باستغراب: «مّمّ يجب أن أحذر بحق السماء؟».

أومأت إيماءة عاجزة: «لا أعلم».

قال وهو يذهب إليها: «آه. حدس النساء».

وضمّتها إلى حضنه على نحوٍ أخرق: «شيء مؤسف. النساء لديهن كلّ شيء، عقل، مشاعر، إرادة، ولكنّ الرجال وحدهم لديهم حدس. لذلك ليس هناك إبداعٌ نسويّ ذو قيمة، وهذا لا يتأتّى من حقيقة أنهن يقضين جلّ وقتهن في المطبخ، لأنّ أمهر الطباخين من الرجال أيضاً. يجب قول هذا على مضض. لكنّهنّ يستطعن فعل شيء واحد لا يستطيع الرجال فعله، ألا وهو إنجاب الرجال. وهذا كافٍ وواف».

فكّكت نفسها من بين ذراعيه: «لماذا تبدأ بالمرأوة على الفور عندما أحاول التكلّم معك؟».

- أنت تعرفين ما قاله نابليون، أليس كذلك؟ قال إنّ جميع الحروب التي خاضها عديمة الأهمية، مقارنةً مع الحرب التي ستندلع يوماً بين الرجال والنساء. لذلك أقسم الآن القسم المقدّس أنّه عندما يحين ذلك الوقت سأصبح أولّ خائنٍ لجنسي، رغم علمي أنّ ذلك سيكلّفني الكثير.

- حسناً يا أونو. دعك من هذا. الحديث معك مستحيل!

وضمّنت خصلات شعرها المفكوكة في مؤخرة رأسها تحت الحبسات بيديها الاثنتين، وقالت: «هل نذهب إلى حديقة فوندل؟».

في تلك اللحظة انبعثت صرخة في الخارج: «هاي أونو!».

ألقي أحدهما نظرة على الآخر، وأخرج كلّ منهما رأسه من نافذة. كان ماكس مستنداً إلى حجرة الهاتف العمومي القائمة على حافة القناة، واضعاً يديه في جيبيه ومجلّة تحت ذراعه. نادى هيلخا مقلداً صوت صبيّ متذمر: «سيدتي! هل تسمحين لأونو أن يأتي ليلعب معي في الشارع؟».

نظر أونو وهيلخا مجدداً أحدهما إلى الآخر، هذه المرة من جانب الواجهة، خارج البيت. الكارثة. علم كلاهما في تلك اللحظة أنّ هذه هي النهاية - أنّ ماكس ببراءته أصاب علاقتهما في الصميم بصورة مفاجئة.

بعد مضيّ ربع ساعة خرج أونو أخيراً إلى الشارع.

سأله ماكس: «هل كان عليك كتابة وظائفك أولاً؟».

لم ينظر إليه أونو. أخذ يمشي إلى جانبه محتدم الغضب: «ما تفعله بأصدقائك.. انقطعت علاقتنا. الذنب ذنبك. وضعتُ مفتاح البيت على الطاولة».

- الذنب ذنبي؟ ماذا فعلت؟

توقّف عن السير ونظر إليه ممتلئاً بالاشمئزاز: «لا شأن لك بهذا. لن أتكلّم معك بعد اليوم. هل تعلم ما هي مشكلتك؟».

وعندما رمقه ماكس بنظرة متسائلة، قال: «ألا تعلم؟».

- لا، لا أعلم.

- لا تعلم؟ سأقول لك إذاً: لا يعجبني حدسك. لا يعجبني حدسك على الإطلاق.

لم يعلم ماكس ما الذي يرمي إليه؛ لم يكن يعرف أيّ شيء تقريباً عن علاقة أونو وهيلخا. لم يتحدّثا إطلاقاً عن النساء، ولا السيارات، ولا المال، ولا الرياضة. تحدّثا على أقصى تقدير عن المرأة بحدّ ذاتها، مثلما اعتاد أونو على القول، ولم يحدث أن تكلم أيّ منهما عن صديقتة. لم يسبق لماكس أن تكلم عن صاحباته، لأنه لا يمنح نفسه الوقت ليتعرّف إليهن - ولأنّ أونو لم يكن يستمع إليه لأنه شيء مثير للاشمئزاز - ولم يتكلّم أونو عن هيلخا، لأنّ المرء لا ينبغي أن يفعل ذلك. في المرات القليلة التي التقى فيها ماكس بهيلخا، لم يتبادلا كلمة واحدة تقريباً، لا لأنه يكرهها، ولكن لشعوره بأنها تنتمي إلى عالم آخر. لم تكن بحدّ ذاتها من الصنف الذي يجذب انتباهه، وإن بقي جالساً قبالتها في القطار ساعة كاملة؛ ولاحظ من خلالها كم أنه مختلف كلّ الاختلاف عن أونو. لم يستطع تصوّر امرأة واحدة يمكن أن تكون محطّ إعجابهما هما الاثنين.

لم يذهب إلى شقة هيلخا إطلاقاً؛ لم يستقبل أونو أيضاً ماكس في بيته الكائن في شارع كيرك. اعتاد على القول إنّ الجنس البشري مقسّم إلى ضيوف ومضيفين، وإنه هو نفسه ينتمي بطبيعته إلى الفئة الأولى؛ يضاف إلى ذلك أنه شيء أرخص بالنسبة إليه. هذا ما اعتاد قوله، لكنّه ليس السبب الحقيقي. لم يكن ليخطر في باله أيضاً أن يصطحب ماكس إلى منزل والديه، ويقدمه إلى عائلته، إلى والده، مع أنّ أهله في لاهاي سمعوا منذ زمن بعيد - بحواجب مرفوعة من الاستغراب - بصداقته الغريبة مع ابن ديلبوس، وأرادوا طبعاً تقييم هذه الشخصية في

إحدى المرات. كلاً، كان السبب هو أنّ هناك منطقة في كيانه لا يسمح لأحد بدخولها، ليس ماكس فحسب، ليس هيلخا فحسب، بل هو نفسه أيضاً. هناك، في رقعة غير مضيافة، تقوم حجرة ناسك، صومعة راهب كرتوزي^(*)، يسود فيها صمتٌ ثقيل - شيء يبدو أنه ينتظره بتوعد وتهديد، شيء يفضل ألا يفكر فيه ولم يحدث أن تكلم عنه مع ماكس.

كان يسير، بكتفين متهدّلين، بمحاذاة القناة المائية ويتشكّى مثل رجل محطّم: «ماذا سأفعل الآن؟ لقد دمّرت حياتي. ليس لي بيت، بينما لك بيت، ليس لديّ سوى ملجأ متهالك يحميني من المطر والريح. من سيغسل ثيابي الآن؟ لقد حطّمتني نهائياً وهذا ما كنت ترمي إليه طبعاً على الدوام. سيتتهي بي المطاف في الحضيض، بشعر أشعث ولحية طويلة، أستجدي الصدقات بنظرة معتوهة في عيني. ما الذي جاء بك، أيها الوغد؟!».

قال ماكس: «ليس من عادتي المجيء لسبب معيّن. لكنني جئتُك الآن بخبر عظيم. كنت في عيادة طبيب الأسنان قبل قليل، ورأيت في غرفة الانتظار عدداً قديماً من مجلّة التاييم. نُشر فيها مقالٌ هامٌّ عنا».

ردّد أونو: «مقالٌ عنا. في التاييم».

فتح ماكس المجلّة، وأشار إلى مقال في ذكرى حريق الرايخستاغ^(**) الذي اندلع في السابع والعشرين من شباط قبل أربع وثلاثين سنة.

- ماذا يعني؟

- يا رجل! ألم أولد في 27 تشرين الثاني 1933، أولم يكن من المفترض أن تولد أنت أيضاً في 27 تشرين الثاني؟ ألم نقرّر أننا توءمٌ ثنائي البويضة! ألم تفهم بعد؟ تسعة شهور! لقد حبلت أُمّي وأمك بنا أثناء حريق الرايخستاغ! بينما كان فان در لوبه يضرم النار في الستائر في برلين، كان والدا كلّ منّا يعتلي أحدهما الآخر في لاهاي وأمستردام!

توقّف أونو عن السير، تمطّى بكامل طوله، وبسط ذراعيه بهيئة المنتصر، بينما تعبر وجهه ابتسامة عريضة. وهتف: «أيها الموت، أين وخزك اللاسع؟ ها أنذا أستطيع مواجهة الحياة من جديد!».

(*) الكرتوزيان: نظام ديني لاتيني مغلق تابع للكنيسة الكاثوليكية. [م]

(**) حريق مبنى البرلمان الألماني في برلين. أضرم الناشط السياسي الهولندي مارينوس فان در لوبه النار فيه، وحُكم عليه بالإعدام نتيجة ذلك. [م]

6. لقاء آخر

بعد مضيّ شهرين -لم تكن الحفاوة بصداقتهما قد أظهرت علامات الانهيار بعد- التقى أونو بزميل له من القدس، في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في لايدن. لم يكن قد تقدّم خطوة واحدة في فكّ الرموز، وكان الإسرائيلي يتطلّع إلى معرفة ما يحزره من تقدّم، مثلما يتطلّع هو لمعرفة ما يحزره الإسرائيلي. عندما خرج في وقت لاحق من ظهر ذلك اليوم من المبنى الضخم، وجد ماكس ينتظره في الخارج تحت أشعة الشمس، جالساً في حديقة صغيرة من نوع غريب بجانب متحف العلوم الطبيعية المحاذي، مغمضاً عينيه وملقياً رأسه إلى الوراء. كانا قد تواعدا على أن يُريه المرصد الفلكي.

أعرب أونو عن احتقاره لذوي الرؤوس الفارغة المنهمكين في أخذ حمّامات الشمس -لم يسبق لجسده الكالفيني الأبيض رؤية الشمس- لكنّ ماكس قال إنّ هذا جزءٌ من عمله، فالشمس نجم في نهاية الأمر. سارا صوب مركز المدينة ليشربا في أول الأمر فنجاناً من القهوة في أحد المحلّات. أخبره أونو بارتياح بأنّ لاندوا، منافسه المهمّ، لم يحرز أيضاً أيّ تقدّم على ما يبدو، ما يعني زوال ذلك التهديد في الوقت الحاضر. احتضنتهما المدينة الصغيرة، ذات البيوت المنخفضة، بطريقة مختلفة عن أمستردام: انتابهما شعور بالرفق، مثل الذي يتتاب شخصاً من لندن أو نيويورك في أمستردام.

قال ماكس: «ها نحن أولاء نمشي هنا. بينما أنتظرك، خطر في بالي رجلين آخرين مشيا هنا هما أيضاً».

- مشى الجميع هنا، آينشتاين أيضاً.

- مع لورنتز، نعم، ومع ده سيتر، لكنني لا أقصدهما.

كان يقصد فرويد ومالر. بقدر ما يتذكّر من سيرتهما الذاتية، حدث ذلك في صيف عام

1908. كان فرويد قد نزل في فندق صغير في بلدة نوردفايك، ليسافر من هناك إلى إيطاليا، عندما وصلته برقية من ثيينا: مالر قد وقع في مشكلات، يعاني من عجز جنسي ولا يستطيع مجامعة زوجته، ألما، التي جنتت لاحقاً فرانتس فرفل، وفالتر غروبيوس، وأوسكار كوكوشكا أيضاً*». كان مالر بحاجة إلى مساعدة فورية، فاستقل القطار إلى لايدن، والتقى فرويد في أحد فنادقها. بعد ذلك مشيا الهوينى في شوارع المدينة لأربع ساعات كاملة، خضع مالر لنوع من التحاليل الإسعافية، تبين أنها قد عادت بالنفع عليه.

هناك فتاة صغيرة تربط حبلأ إلى عمود كهرباء، تبدأ تدير الحبل، فتاة ثانية تحرك جسمها العلوي بضع مرآت على الإيقاع نفسه إلى الأمام وإلى الخلف، تقفز في بيضة مُنخِلة وتنطّ بالحبل - أخذ أُونو بهذه المرونة يلعب بالحكاية وهما يواصلان مشي الهوينى.

- هكذا إذا أيها السيد القائد الأوركسترا لي، إنك تعاني إذا من إفراط في النشاط الجنسي. خلال تحليلي النفسي لحالتك، ابتكرتُ مصطلح «الشبق الفلكي» لهذا الغرض. إنها علّة تثير أقصى درجات الاشتزاز، حتى في نفوس المختصّين، العارفين بالجانب المظلم في الطبيعة الإنسانية. مكتبة سُر من قرأ

قال ماكس متشكيّاً: «ولكن ما عساني أفعل إذا كنت أحب هذا الشيء، عالِجني أيها السيد البروفيسور. فأنا لا أريد أن أحبه. أريد أنا أيضاً الاكتفاء بواحدة، مثلك تماماً، أو أن أكون عاجزاً جنسياً، في أيّ وضع أنت؟ سأضاعف لك أجرتك».

- حقيقة أنك تتحدّث عن المال على الفور، تدلّ على الإقرار بالجنس من الدبر، الذي يستحضر أمام عيني الداخلية مشاهد تجعل حتى دانتني يجفل منها. أسمعُ جيداً أنك تحب هذا الشيء؟ هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً.

- أجل!

- حتى متسلّق جبال الألب الخبير يقف في بعض الأحيان وجهاً لوجه مع الهاويات ويقول عنها: «لا، هذا هو الجنون بعينه». لو أخبرت صديقي فيرينزي عن هذا، لقال لي: «تستطيع إقناعي بأشياء كثيرة يا سيغموند، ولكن شيئاً من هذا القبيل لا يمكن».

(*) Alma Mahler (1879-1964): موسيقية وكاتبة ورشامة نمساوية، تزوّجت المؤلف الموسيقي غوستاف مالر، ثمّ الكاتبة فرانتس فرفل، فالمهندس المعماري فالتر غروبيوس، وعاشت الرسّام والأديب أوسكار كوكوشكا. [م]

- لكنّه يمكن معي!

- حقيقة أنه يمكن معك هي لغز يسبّب القشعريرة والانبهار إلى أقصى الدرجات. رأيت الكثير في حياتي العملية، هانس الصغير، الرجل الذئب، كلّ المختلّين عقلياً، ولكن ظاهرة مثلك تسلبني من آخر ما تبقى لديّ من إيمان بالكائن البشري. أستخلص من طريقة حياتك الصادمة أنك في هوسك الجنسي تريد القفز على كلّ امرأة في الواقع، لكنّ شبقك الداعر يجد نفسه مقتصرأً، في هيجانه الخارج عن السيطرة، على النابضات بالحياة. أولئك اللاتي سلّمن من يدك الطائفة في الماضي وأولئك اللاتي سيّسلّمن منها في المستقبل. إنك تفضّل امتلاك النساء جميعهن في المكان والزمان بضربة واحدة، في هيئة سيّدة النساء: المرأة البدائية. هل أنا مُصيبٌ في افتراضي، يا عزيزي، أنّ والدتك تُدعى إيفا؟

ضحك ماكس: «يا للعجب! لقد أصبّت كبد الحقيقة! الآن فهمت لماذا نصحني طبيب الأعصاب الخاص بي بأن أطلب استشارتك».

كان قد أخبر أونو باسم والدته، ولكنّ المنحى الذي أخذه أونو، هزّه مع ذلك هزّاً خفيفاً.

- أستطيع رؤية خبايا نفسك أيها السيّد القائد الموسيقي.

- ولكن إذا كانت أمي إيفا يا عزيزي السيّد الدكتور، فهل أنا قاييل أم هابيل؟

بدا أنّ أونو قد ترتّج هذه المرة، لكنّ ذلك لم يدم طويلاً. توقّف عن السير وهتف: «لن ينظر الربّ إلى قربانك، أيها الملعون سبع مرّات! قرباني وحده سيُنظر إليه!».

بينما يقول هذا، برباطة جأش يعرف هو وحده سرّها، وقعت عين ماكس على غلاف كتاب في واجهة العرض في متجر كتب مستعملة. كانا يقفان في حارة ضيّقة خلف كنيسة بيترز كيرك، المطلّة مثل جبال يونغفراو على البيوت المنخفضة في مركز المدينة القديم.

- انظر! جثنا بسيرة القطّ، جاء ينطّ^(٥).

وأشار إلى نسخة من كتاب ألما مالر بعنوان «حبيبي». قال وهو يضع يده على أكرة الباب: «تعال! سأهديك إيّاه، أجرّة على تحليلك النفسي».

*

(٥) العبارة بالهولندية: «حين تتكلّم عن الشيطان، فإنّك تخطو عليه»، ومعناها المجازي يشبه قولنا العربي هذا، لذلك فضّلنا استخدامه. [م]

في عالم مليء بالحروب، المجاعات، القمع، الخداع، الضجر، أي صورة يمكنها -بغض النظر عن البراءة الأبدية التي تتسم بها الحيوانات- التعبير عن الأمل؟ أم بطفل مولود للتو على ذراعيها؟ لكن الطفل يمكن أن يؤول به المآل إلى أن يكون قاتلاً، أو مقتولاً، بحيث لا تكون الصورة المفعممة بالأمل سوى نذير شؤم عن بيتاً^(*): أم بطفلها الميت للتو في حضنها. كلا، الصورة الزاخرة بالأمل هي شخص يمرّ من جوارك بألة موسيقية في جعبتها، فهي لا تساهم في القمع، ولا في التحرير، بل في الأمور التي تسير من دون توقّف تحت السطح. الشاب على دراجته الهوائية، بغيتار مُغمّد في جرابٍ جلديّ باهت على ظهره، الفتاة الواقفة في انتظار الترام بحقيبة كمانٍ مهترئة. القاعات المقدّسة أسفل منصّات الحفلات الموسيقية، التي يفتح عازفو الأوركسترا جعباتهم في جميع أرجائها، على الطاولات والمقاعد وعلى الأرض، ويُخرجون منها آلاتهم اللامعة المتألّقة، فتخلّف هذه الآلات آثارها؛ مسوّدات الكلارينيت، المزامير، الباصونات مع أبواقها وملحقاتها، المحفوظة في المخمل الناعم المتين؛ وبينما تمتلئ الأجواء تدريجياً بالنشاز المكتوم الصادر عن ضبط هذه الآلات كلّها، وهي تحتشد حول نغمة a، مثلما تحتشد العصافير والنوارس والزرازير والشحارير حول قطعة من الخبز، تقف صناديق الكمنجات الجهيرة، العالية علوّ قامة الإنسان، بأغطيتها المفتوحة مثل أبواب مفضية إلى عالم آخر...

أو المرأة الشابة التي تضع التشيلو الخاص بها في حقيقته، وتُغلق الغطاء عليه، بعد انتهائها من التمرين؟

تأخذ كراستها الموسيقية، المفكوكة بعضها عن بعض، عن حامل الكراريس، وترتب صفحاتها إلى أن تظهر صفحة العنوان بأناقة في أعلاها: بوهادكا^(**). شعرها المسترسل الأسود، الشبيه بالشعر الياباني، بالغرّة، يوطّر وجهها الشاحب على شكل مربع خالص؛ يتهدى مثل الحرير وفق كلّ حركة من حركات رأسها، ويؤول إلى السكون في نظام رياضي دقيق المرّة تلو المرّة. وجهها صارم، شفتاها مزموّتان بعض الشيء مثل شفتي شخص يعرف ما يريد. زميلها عازف البيانو، وهو رجل ممتلئ الجسم، ذو شعر سبط أشقر مائل إلى الحمرة،

(*) *La Pietà*: من أعمال مايكل أنجلو، تجسّد تصويراً للسيد المسيح وهو في حضن أمه مريم العذراء بعيد إنزاله عن الصليب. [م]

(**) *Pohádka* تعني حكاية خيالية، وهي معزوفة للموسيقار التشيكي ليوش ياناتشيك Leoš Janáček. [م]

ووجه خالٍ من التعبير، يجلس منحنيًا إلى الأمام، بذراعين متصلبتين على البيانو الكبير، ذقنه مستريح عليهما، وينظر إلى عينيها البتّيتين الغامقتين تحت حاجبيها الدكناوين المرتسمين بحدّة.

- فيمَ تفكرين يا آدا؟

الاستوديو الخاص به، وهو مساحة مستطيلة الشكل كبيرة الحجم في مبنى كان مدرسة في سابق عهده، ممتلئٌ بما جمعه من أشياء: صفوف من أجهزة الفونوغراف المحمولة القديمة على رفٍ مثبتٍ إلى الحائط، أبواق مغطّاة بطبقة من الغبار، كمنجات وآلات موسيقية أخرى، رفوف مكتنّزة بالكتب، طاوولات ثقيلة من سوق السلع المستعملة عليها كراريس عن موسيقا الصالونات القديمة، صفوف من أسطوانات الفونوغراف قديمة الطراز في أغلفة ورقية تالفة، سجاجيد فارسية بالية على الأرض، وبضعة مقاعد كبيرة من الجلد البنيّ من ذوي الذراعين ليجلس المرء فيها، يأخذ كتاباً في يده وينعزل عن العالم الخارجي.

- لا تزال خاتمة المعزوفة غير صحيحة. لن نستطيع تقديم العرض أبداً في هذا الحال.

إنها تصغره في السن، تخرّجت حديثاً في المعهد الموسيقي، الذي يُدرّس فيه العزف على البيانو؛ لكن يبدو واضحاً أنها تمسك بزمام الأمور في الثنائي الذي يشكّلانه. إنه عازف بيانو جيّد، الأمر الذي يثير اهتمامه أقلّ من اهتمامه بأشياء أخرى عديدة، مثل الدراسات الأثرية في الموسيقا الشائعة. لقد أنشأ فرقةً لأداء هذه الموسيقا، التي يجري الاستماع إليها بشيء من الضحك الذي لا ينسجم مع الطريقة التي يعزفان بها. بهذا الصدد لا يستطيع هو نفسه أن يضحك - أو على الأقل، لا يضحك أبداً؛ لقد كوّن شخصيته حول القرار بالآ يضحك على الإطلاق. الآخرون يضحكون على هذا الأمر في الغالب الأعمّ، مع أنّ الإنسان قلّما ييكي على شخص لا ييكي أبداً. إنه يفتقر إلى الطموح ليصبح عازف بيانو من درجة رفيعة؛ وحقيقة أنه يقدّم العروض الموسيقية مع آدا لا تمتّ بصلة إلى الموسيقا بقدر ما تمتّ إلى آدا نفسها، وهي تعرف ذلك، لكنّها تتركه يتكئ عليها. قاما بأداء معزوفات بضع مرّات، أمام جمعيات طلاب، ولكن حتى في ذلك الوقت المبكر استُقبل الأداء بنقدٍ إيجابي في الجريدة. إنها تتوقّع لنفسها إنجازات عظيمة كعازفة منفردة، على الساحة العالمية، حيث تلعب حفلات التشيلو دوراً، وحيث القادة الموسيقيون البارزون، والمنصّات الموسيقية في باريس وميلانو. روستروبوفيتش! بابلو كاسالس!

- هل نذهب بعد قليل لتناول لقمة في المدينة؟

لقد توقعتُ مثل هذا السؤال، وتأخذ عليه أنه يضعها مجدداً في موقف محرج. ألم يعرف بعد أنها لن تسايره في مثل هذا المجال؟ يمكنها بالطبع القول إنها لا تريد النوم معه، لكنه سيجيبها بأنه لم يطلب منها ذلك، بينما لا يمكن أن يكون القصد شيئاً آخر بطبيعة الحال. سيرى أنها باردة جنسياً، ولعلها هي كذلك - رغم أنها في الحادية والعشرين من العمر، لم تخض تجربة جنسية بعد مع أي رجل - ولكن ألا ينبغي أن يكون العمل ممكناً مع شخص دون أن يتمخض عن مثل هذه العواقب على الفور؟ يجب عليها التوقف عن العمل معه إذا بقيت الأمور تسير على هذا النحو؟ ما تريده في الخطوة التالية هو تشكيل فرقة من ثلاثة عازفين أو أربعة؛ أدبيات التشيلو والبيانو قليلة إلى درجة أنه لا يمكن الاستمرار مدة طويلة. ما تبحث عنه أشخاص متحمسون للموسيقا؛ ولكن ما دامت لم تجدهم، فهي بحاجة إليه.

- هل تنزعج إذا ذهبتُ إلى البيت يا برونو؟ أفضل أن أتمرّن قليلاً.

- ولكن أحد هذين الأمرين لا يتنافى مع الآخر، أليس كذلك؟ يجب أن تأكلي الطعام في كل الأحوال.

تومى بالإيجاب: «هذا صحيح. لكنك تعلم كيف تسير الأمور».

- كيف تسير إذا؟

لا ترغب في الخوض في هذا النقاش إطلاقاً. هذا هو الحال في العلاقات الزوجية بعد عشر سنوات بطبيعة الحال، عندما لا يعود أحدهما يرى شيئاً في الآخر: إلحاح، أمل، خيبة، - بينما يلوح في الأفق تهديدٌ بالعنف.

- أستاذنك في الانصراف.

إنها جاهزة للمغادرة، إحدى يديها على مقبض حقيبة التشيلو، والأخرى مكورة في قبضة تعيسة، بأصابعها الأربع على إبهامها، كي لا يرى أحداً أنها تقضم أظافرها، الأمر الذي يجعله أكثر وضوحاً.

- إلى اللقاء غداً

بينما تحمل حقيبة التشيلو بين ذراعيها مثل تابوت حجري، تنزل السلم المفضي إلى الشارع. استوديو برونو غير بعيد عن بيت والديها، الذي لا تزال تعيش فيه، وفي الطريق يترأى لعينيها فجأة مشهدٌ من حلم ألم بها في الليلة الماضية: خليج فسيح، وفوق البحر

غيمةً عالية رفيعة، بلون الكهرمان على شكل جذع شجرة ملتوٍ، موغل في القدم، تتغيّر هيئته في هوادة... تحاول أن تثبّت به، أن تتذكّر المزيد. ترى كذلك في لمحة خاطفة قامة ممتدة بالعرض، غريبة من نوعها، سوداء اللون، بقعة مدبّبة ورمح طويل، ولكن بوق سيارة مفرملة وإصبع مشيرة إلى جبين يضعان حدّاً لهذا المشهد...

تسير على الدرب المؤدي إلى الجهة الخلفية من المنزل وتدخل من باب المطبخ، حيث تخطيط والدتها جسد دجاجة شاحبة مقطوعة الرأس بخيط أبيض. إنها ممشوقة القامة، أطول قليلاً من ابنتها، ظهرها مستقيم متناسق الشكل. تنفرس عيناها فيها من تحت شعرها الأسود المرفوع، ولكن بنظرة أكثر بروداً، أشدّ ارتياباً، دون وجود سبب خاصّ لذلك.

- كيف سارت الأمور؟

- على خير ما يرام.

- فنجاناً من الشاي؟

- لو سمحت!

تريد صعود السلم، لكنّ والدتها تقول: «لا يمكنك الصعود إلى فوق، أبوك يدهن غرفتك».

تُنزل آدا قدمها من الدرجة السفلى بانزعاج: «ولماذا يدهن غرفتي؟ هل طلبتُ منه دهنها؟».

- لا تكوني فظة طوال الوقت! إنه يفعل ذلك من أجلك. اجلسي في الطابق السفلي

وانظري، سينتهي من العمل بعد نحو ساعة!

- لماذا خطر في باله دهن غرفتي؟ أليس لديه شيء أفضل من هذا يفعله؟

- عليك أن تسأليه هو. لا أعرف أنا أيضاً. صعد إلى فوق وقال إنّ غرفتك في حاجة ماسّة

إلى طبقة من الدهان.

تقول آدا: «الجنون لا حلّ له». وتجرّج آلتها الموسيقية إلى الغرفة الخلفية، التي يجلسون

فيها ويتناولون الطعام.

ستكون سعيدة عندما تغادر من هنا وتستطيع العيش بالطريقة التي تريدها. النيات الحسنة

أسوأ الأشياء، لأنها تصيبك بالعجز. والدتها حيزبون، ولكنّ والدها صاحب فكر حرّ مهذب

السلوك، لا يعرف قلبه الشرّ. لو كان في قلبه قليلٌ من الشرّ، لاستطاع فهم الشرّ على الأقلّ،

زوجته على سبيل المثال. أمنيته الكبرى أن يكون لها بيتٌ خاصّ، تستطيع أن تنعزل فيه كلّ

الانعزال. تريد أن تتمرّن، تسافر، تقدّم عروضاً موسيقية، تحتفل بانتصاراتها، لكنّها تريد العودة في كلّ مرة إلى شقّتها، تفصل جرس الباب والهاتف، تُطفئ الراديو والتلفزيون، أو تلغيهما حتى، من أجل تكريس نفسها بشكلٍ كامل للموسيقا وقراءة الشعر، أو من أجل ألاّ تفعل شيئاً ببساطة وأن تفكّر لساعات طويلة، دون أن يخطر في بال أحد بصورة مفاجئة أنه يجب عليه دهن غرفتها. ولكن في الوقت الحالي ليس لديها من المال ما يمكنها من فعل ذلك؛ كذلك والدها لا يستطيع تدبّر أموره المالية إلا بصعوبة.

تجفل عندما تضع والدتها فنجاناً من الشاي وقطعة من الكعك إلى جانبها.

- بماذا تفكّرين يا آدا؟

- لا شيء.

- كيف سارت الأمور مع برونو؟

- على ما يرام.

تنزعج عندما تلاحظ أنّ والدتها تواصل النظر إليها.

- ما الأمر؟

- لماذا لا تخرجين معه في مشوار؟ إنه شابّ في منتهى اللطف.

- أرجوك يا أمي، لا تتدخّلي في هذا الموضوع! هل تخرجين أنت مع بابا في مشوار؟

- حسناً، لا تنزعجي على الفور! يحسن بك الترويح عن نفسك من حينٍ إلى آخر.

- اتركي لي هذا الأمر!

عندما تنصرف والدتها من الغرفة، تفتح الكراسي الموسيقية، وتتفحص النغمات بقلم رصاص في يدها. تمسك الصفحات بالمقلوب برهة قصيرة، وتراها رائعة حتى في هذا الوضع. ليس من السهل أن «تسمع» ما تراه، إنها ترى ما يراه المستمع عندما يصغي السمع: جمال بنيوي، على شكل صفحة موسيقية موجودة في المكان، ولكن على شكل موسيقا مسموعة في الزمان فحسب. لهذا السبب ليس لديها شغفٌ كبير بالروايات، التي تُقرأ بصمت، بل بالقصائد التي يجب أن يُضفى عليها إيقاع. لا تفكّر في هذا كلّهُ بالكلمات؛ بل يدور في ذهنها وهي تنظر إلى النغمات، ضاربة الإيقاع المُتخيّل بيدها اليسرى بين حينٍ وآخر، بالاعتماد عليها - شأنها في ذلك شأن الطفل الذي يتحدّث لغته دون أن يعرف قواعد اللغة.

تضع الكرّاسة الموسيقية على الأرض، تُخرج التشيلو من الحقيبة، وتُرْكَب السيخ في أسفله. بينما تشدّ القوس، تذهب إلى الباب النصفى وتفتحه بإحدى كتفيها، فالمساحة الصغيرة تخنقها. تضع الآلة بين ساقها، تضبط الإيقاع، وتبدأ العزف وهي تنظر نظرة جانبية إلى النغمات، تسمع في الوقت نفسه ما لا يعزفه برونو الآن، بدندنة بين حين وآخر.

*

فتح ماكس باب المتجر، وتسمرّ دون أن يترك أكّرة الباب. بينما يصغي السمع، رفع سبّابته في الهواء. قال بعد بضع ثوانٍ: «ياناتشيك. هذا ليس تسجيلًا. هناك شخص يعزف».

لم يرنّ الجرس التلقائي. وضع إصبعه على شفّيته ودخلا المحلّ بهدوء. كان صداح التشيلو يحوم في الحجرة الصغيرة، المكتظة بالكتب. لم تكن الكتب تملأ الخزانات الخشبية غير محكمة الصنع والمرتفعة حتى السقف فحسب، بل تكدّست أيضاً في صفوف عالية على اليسار وعلى اليمين وفي الوسط؛ غابة من الكتب تفصل بينها ممرّات ضيّقة. توقّف أونو عن السير، ولكنّ ماكس شقّ طريقه إلى الأمام، صاعداً درجات، هابطاً درجات، من جانب أكّداس الكتب، الصناديق، المجلّات، الهندسة المعمارية، كتب البنات، القضايا اليهودية، الدلائل السياحية، انعطف في زاوية، صعد بضع درجات أخرى - ورأى آدا جالسة في الغرفة الخلفية: في قميص أبيض فضفاض بسوارين طويلين وياقة مرتفعة صغيرة، مُميلةً رأسها إلى جانب، والتشيلو بين ساقها المتباعدتين. قدمها اليسرى موضوعة إلى الأمام بعض الشيء بصورة أنيقة؛ تنورتها السوداء الفضفاضة منحسرة عن ساقها، فرأى ركبتيها النحيفة ثم الانسياب من جوربيها إلى لحم فخذها الفاتح.

ناجى نفسه: «إنني في طريقي إلى الجنون. أريد أن تداعبني أصابع هذه المرأة وتمسّدي أنا أيضاً على هذا النحو».

لم تكن قد رآته بعد. عاد على رؤوس أصابعه إلى أونو وهمس: «الواجب يناديني. سأراك بعد قليل في مقهى ده فير خولده ترك^(*)».

أحنى أونو رأسه بإشفاق: «إلى اللقاء، أيها التعيس!».

أخذ قلب ماكس يخفق بشدة. كان شيئاً جديداً في كلّ مرّة مثل أوّل مرة. وقف على نحوٍ

(*) ده فير خولده ترك تعني: التركي الذهبي. [م]

لا يمكن معه رؤيته. ولكن بينما يستمع إلى عزفها وينظر إليها، تغيّر شيء في نفسه. لم تختفِ إثارته، ولكن بدا وكأنّ فضاء أخذ ينكشف خلفها في هوادة، مثلما يحدث عندما تُرفع الستارة في المسرح. لأنها كانت مستغرقة في نفسها كامل الاستغراق، بدت الموسيقى وكأنها تتكوّن من صمت مسموع، صمت له هيئة، مثل شكلٍ هندسيّ رسمته حول نفسها. كانت تتوقّف برهة قصيرة بين حينٍ وآخر، وتبحث عن شيء في الكُراسة الموسيقية برأس قوسها: عندئذٍ يخيم صمتٌ في الصمت. وجهها المؤطّر بالأسود؛ الخشب اللامع ذو اللون المائل إلى الحمرة، المصنوع منه الصندوق المخصّر الصالح بين ساقها، يدها اليسرى على أوتار العنق؛ الحقيبة المفتوحة إلى جانبها. حضره بيتٌ من شعر مالارميه: موسيقا الصمت... لماذا يحضره بيتٌ من شعر مالارميه؟ يريد النوم معها، ولكن هذا ليس بأمر استثنائي، فهذا قوته اليومي، ما هو استثنائي هو أن يحضره بيتٌ من أبيات شعر مالارميه. عادةً لا يخطر في باله شعر مالارميه. طبعاً لو أراد ذلك، لاستطاع البحث عن بضعة أبيات من شعره، مثل «إلقاء حجر النرد لن يلغي الفرصة». ولكنّ هذا أقرب إلى عنوان في الواقع؛ استدعى إلى ذهنه ما قاله آينشتاين، ربما هنا في لايدن: «الربّ الكريم لا يلعب النرد».

بقي ينظر إليها وهو متوارٍ بين الكتب. تناهت إليه قرعةٌ خفيفة من فوق رأسه. أريد منها شيئاً آخر باستثناء النوم معها مرّةً أو مرّتين؟ دخل الغرفة مدفوعاً بنزوة مفاجئة.

ارتعبت من ظهوره بقوة بلغت من الشدّة أنّ جسمها انتفض. حدّقت فيه بعينين متسعيتين. ردّ الفعل الصادر عن جسمها، مثل شيء أقوى منها هي نفسها، والذي لم تستطع التحكّم به، جذبها إليها مزيداً من الجذب.

قال: «أريد شراء كتاب، لكن لم يأت أحد. لذلك استرقت السمع إليك. حكاية خيالية». هذا عنوان المعزوفة، وهو يعرفه على ما يبدو. ولكن ما أدهشها مزيداً من الدهشة هو طريقته غير المتكلّفة في الحديث معها. لطالما خاف الرجال منها بعض الشيء، مثلما تخاف هي من والدتها، ولكنّ هذا الرجل لا يبدو أنه يعاني من هذه المشكلة.

- ولكن استراق السمع شيءٌ غير مهذب إطلاقاً.

انفجر ماكس بالضحك: «وهذا ما تقوله عازفة موسيقية! مكبرات الصوت كجهاز تنصّت!».

دخلت والدتها إلى الغرفة حاملةً سكين لحم في يدها: امرأة وسيمة ممشوقة القامة، تحيط بها هالة من الصرامة؛ فكّها السفلي عريض وفمها ضيق. لو ارتدت عباءة سوداء من عباءات الراهبات، لأصبحت رئيسة دير.

- هل أسمع أصواتاً هنا؟

أشارت آدا بقوسها إلى ماكس: «هناك زبون».

- مرحباً سيّدي!

تلقي نظرة استنكار من العينين الدكناوين أسفل الحاجبين السوداوين، السائرين في صعود طفيف على الجانبين.

- ألا يعمل الجرس؟

قدّمت له اعتذارها ونادت في الممرّ باتجاه الطابق العلوي: «أوسوالد! هناك أحدٌ في المحلّ!».

قال ماكس وهو ينزل السلم الصغير وينظر حوله: «متجر جميل! لكنك تسكنين هنا، ولا تتصفّحين هذه الكتب طبعاً على الإطلاق».

- أبي يعلم على العموم ما أريده.

وقعت عينه على كتاب عن الفن يتضمّن صوراً ملوّنة: بيوض فابرجيه الذهبية المرصّعة بالجواهر، المبهرة للأبصار، التي اعتاد القيصر الروسي إهداءها إلى زوجته القيصرة في أعياد الفصح.

سأل دون رفع عينيه عن الكتاب: «هل تعرفين فابرجيه؟».

- أهو مؤلّف موسيقي؟

اقتنع من الطريقة التي أجابت بها على الفور بأنه في الطريق الصحيح.

- شيء من هذا القبيل. صانع مجوهرات.

بينما يتصفّح الكتاب، ظهر بائع الكتب، رجل غير لافتٍ للأنظار يقارب الخمسين من العمر، شعره أشقر رمادي متموّج، وأقصر قليلاً من زوجته؛ فمه وحده يشبه فم ابنته. قدّم اعتذاره هو أيضاً؛ كان الجرس يعمل قبل قليل. قال ماكس إنه يريد كتاب فابرجيه وكتاب ألما مالر الموجود في الواجهة. نظر بائع الكتب المستعملة إلى يديه ضاحكاً بخجل؛ لعلّ

السيد يريد أن يُخرج الكتاب بنفسه. كان وجهه أيضاً قد تلطّخ بالدهان. بينما ماكس يسير إلى الواجهة، قرأ على زجاجها:

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين

أراه السعر المكتوب على الصفحة الأولى من الكتابين وقال ليس هناك حاجة للتغليف. بعد أن دفع الحساب، عاود النظر إلى الغرفة الخلفية. الفتاة لا تزال جالسة في الوضعية نفسها بآلتها الموسيقية، بادلته النظر. ذهب إليها وناولها كتاب فابرجيه: «هذا لك. هدية من أجل الخاتمة الموسيقية!».

لا، حقاً! وبدأت تتورّد من الخجل. وضعت التشيلو جانباً، ونهضت كي تأخذه منه. قالت ضاحكة: «شيء في غاية اللطف...».

كانت سنّها الأماميتان العلويّان أعرض من أسنانها الأخرى وأطول منها. التفت ماكس إلى والدها: «هل تسمح لي بخطف ابتك لتشرب معي فنجاناً من القهوة؟». كان المشهد قد فاته إلى حدّ ما، في محاولاته ألاّ يلوّث صندوق الدفع بالدهان. تتمم بأنها تستطيع أخذ هذا القرار بنفسها.

مدّ ماكس يده باتجاهها: «ديليوس ماكس».

وضعت يدها في يده: «آدا برونس».

7. المرصد الفلكي

كان «ده فيرخولده ترك» قريباً من هناك، في شارع بريي. قدّم لها ماكس ذراعه في الشارع بهيئة ساخرة، مثل فارس من الطراز القديم، فتأبطت ذراعه، واندهشت من أنها أخذت تسير فجأة في شوارع المدينة مع رجل غريب كلياً وتدرّش معه عن ياناتشيك. أملت ألا يراها برونو. حدّرها ماكس من صديقه الذي ينتظره في المقهى: رجل متوحّش، يجب ألا تأخذه على محمل الجدّ.

ساد في المقهى الكبير ازدحام ما بعد الظهر؛ في الجهة الخلفية ثمة مجموعة من الطّلاب في سترات فضفاضة، وكؤوس بيّرة في أيديهم، يتفخرون بصخب. وجدا أونو جالساً إلى طاولة قراءة، بكأسٍ من الحليب وقطعة نصف مأكولة من الكروكيت إلى جانب جريدته كالعادة. قال ماكس وهو يضع الكتاب على الطاولة بجانبه: «تفضّل، "حبيبي"، من أجلك!». قال أونو: «صحيح»، ورفع عينيه ليشكره، فرآه برفقة أحد. قال ماكس: «أونو كويست. آدا برونس».

في تلك اللحظة أسقط نادلاً صينية ملأى بالأواني الخزفية، أعقب ذلك تصفيق الطّلاب وهتافهم بـ«مرحى». نهض أونو عن مقعده، وصافحها، ثم رمق ماكس بنظرة لم تختلف كثيراً عن النظرة التي رمق بها ماكس قطعة الكروكيت الموضوعة إلى جانبه. سحب كلّ منهما كرسيّاً إلى جانب الطاولة، وبدا لحظة أنّ أونو سيواصل قراءة جريدته بدافع من استياء أخلاقي، لكنّه مع ذلك لم يفعل. استند إلى ظهر الكرسي، لفّاً إحدى ساقيه على الأخرى، ما جعل البشرة البيضاء المائلة إلى الزرقة فوق جوربه القصير تبدو للعيان، وسأل في هيئة طبيب نفساني ريفيّ معترّ بنفسه: «هل يعرف أحدكما الآخر منذ وقت طويل؟».

أجاب ماكس: «لم يحدث قطّ أن لم يعرف أحدنا الآخر».

ونظر إلى آدا في انتظار علامة تدلّ على الموافقة. عندما لم تندّ عنها أيّ علامة، بدأت تثير إعجاب أونو.

- لا أفهم كيف ترتبط فتاة عاقلة مثلك مع شخصية من هذا القبيل بعلاقة أبدية. ولكن لعلّ لديه جانباً سرّياً، استطاع إخفاءه عني على الدوام. ماذا أستطيع أن أقدم لك؟
- ماء معدني، من فضلك!

ردّد أونو وهو يقطّب وجهه باشمزاز: «ماء. القصد من الماء هو أن تغسلي به أسنانك». قال ماكس: «هذا صحيح. ينبغي أن تفكّري في هذا في أغلب الأحيان».

لم تعرف آدا ماذا تقول. كان عليها التعوّد على أسلوب هذين الشخصين. نبرتهما تشبه نبرة الطّلاب، لكنّها مع ذلك مختلفة عما اعتادت عليه من طّلاب الاتحاد في لايدن، الذين تشكّل النبرة في الوقت نفسه المضمون الوحيد في نقاشاتهم. لعلّ نبرتهما صبيانية في الواقع: المبالغة الجنونية التي يظهر بها الصبيان الصغار في فرصة اللعب في المدرسة الابتدائية. لو استمرّ الوضع على هذا النحو، لخامرها شعور بأنهما ثنائي متعب. كان أحدهما يشاكس الآخر بطبيعة الحال، لأنّ أحدهما مولعٌ بالآخر. هناك كثيرٌ من العنف في أونو، أما ماكس فهو مختلف، أخفّ: لو أنّ أونو صخرة، فماكس هو الماء. الأسلوب الذي أغراها به لا يُقاوم، لكنّه ينطوي على شيء من الرتابة، فقد استخدمه بالطبع مئات المرات من قبل؛ يبدو عليه أيضاً أنه مسرف في التأتق بعض الشيء، أم أنه شخصٌ لعوب؟ إنها هي نفسها صفيقة رعاء بطبيعة الحال. أخذاً يتكلّمان مرة أخرى، عن الجوانب السريّة في نفسيهما، التي تتجاوز بعضها بعضاً بشكلٍ مفرّغ، وهي جالسة بينهما من دون لزوم. لقد رأياها برجوازية صغيرة بطبيعة الحال، وهما محقّقان في ذلك، فهي تفتقر إلى الكثير: عمّا قليل ستطّيع قلة على يدها، حكمة خاطفة لتأمل فيها، وبوسعها الاختفاء بعد ذلك. شعرت بحرقّة مفاجئة في عينيها، تمتمت بعذر كاذب، وذهبت إلى دورة المياه.

أقفلت الباب على نفسها وجلست على مقعد التواليت. ما الذي يحدث لها؟ إنها تعرفه منذ عشر دقائق فحسب، وما هي ذي تبكي لفكرة أنها قد لا تراه مرّة أخرى. لا تعرف أيّ شيء عنه، ما عدا أنه ملثمٌ بالموسيقا؛ حتى إنها لم تتمكّن من سؤاله بعد ما إن كان هو نفسه يعمل في المجال الموسيقي. أيّني هذا أنها مغرمة به؟ أم أنها مضطربة فحسب، لأنّ عاداتها الشهريّة توشك أن توافيها؟ كلّ عادة شهريّة تعني: ليس هناك طفلٌ مرّة أخرى؛ ولكنّ عاداتها

وافتها قبل فترة قصيرة. فما الأمر إذا؟ إنه ليس بالسليم، ولا بالقيح أيضاً، لكنه شخص غير عاديّ أبداً. لعلّها نظرة عينيه، النظرة المباشرة والنقيّة التي رمقها بها. ظهر في حياتها على غير المتوقع، مثل نجم متهاوٍ، نيزك في الغلاف الجوي، عندما يحترق تستطيع تمنّي أمنية. تمتّ ألا يحترق! لم تستطع تحمّل فكرة أنها ستذهب إلى البيت عمّا قليل، إلى التشيلو الخاص بها وإلى والديها، ويعود كلّ شيء إلى ما كان عليه دائماً، ولكن يجب عليها إذا الإسراع في العودة إليهما، قبل أن يختفيا من هناك!

بعد نهوضها، استند ماكس على مجلس كرسيّها بإحدى يديه، وانحنى باتجاه أونو وقال: «لن أسألك كيف تراها، لأنك لا تفهم بهذه الأشياء».

نظر أونو إلى يد ماكس على المجلس الدافئ ونذّ عنه صوت كأنما سيفرغ ما في معدته: «سأكون لك بالمرصاد أيها الوغد!».

أكان ذلك كلّ شيء؟ أم لعلّه شيء مختلف عما خطر في بال أونو، وخطر في باله هو نفسه.

سأل ماكس: «هل حدث أن تساءلت عن السبب الذي يجعلك ترى الكرسي الذي كان يجلس عليه شخص آخر للتوّ دافئاً، وليس الكرسي الذي كنت تجلس عليه ونهضت عنه؟».

- سؤال وجيه. وما السبب يا ترى؟

- نُشر مقال عن هذا الأمر. السبب هو أنّ الجميع يُنتج دفأه الخاص به. الدفء ليس مجرد حرارة، كما اعتقد الإنسان في الماضي، ليس الحركة البراونية التي تقوم بها الجزيئات عديمة الروح، ولكن كلّ شخص يُصدر دفئاً يكون في طبيعته وظيفته شخصيته الفريدة. ويمكن البرهان على هذا. إذا نهضنا الآن، ونظرنا إلى الجهة الأخرى، وبدلّت أنت كرسيّنا، أو لم تبدّلهما، استطعت القول أيّهما كرسيّك.

صاح أونو: «يا لك من معتوه! انهض في الحال!».

نهض ماكس، والتفت إلى الجهة الأخرى. وبينما السيّدات اللواتي يشربن الشاي يراقبن بتوجّس، بدأ أونو يسحب الكرسيين ويحرّكهما حركات مخادعة، ثم قال بإيماء داعية: «حسناً! تستطيع الجلوس. أيّهما كرسيّ؟».

أشار ماكس باتجاه آدا التي كانت تقترب منهما بين الطاولات: «يجب أن تذهب الآن، وإلا لن يكون أحدٌ موجوداً هناك. المرصد الفلكي مغلق دائماً في الليل».

وسألها: «هل تريدان الذهاب معنا؟».

- إلى أين؟

- مفاجأة.

وهي تمشي بينهما في شارع رابن بورخ، بمحاذاة المياه الراقدة في القناة الأكاديمية الموقرة، بدأت تعرف قليلاً في صحبة مَنْ تكون - من خلال حلّ ألغاز صغيرة وفهم ألفاظ ذات مفهوميّن عن المثاليين والمُلغّزين. بالقرب من المبنى الأكاديمي، انعطفوا إلى اليمين، ودخلوا الحديقة النباتية هورتيس بوتانيكوس^(٥)، التي زارتها آخر مرة، مع أبيها، في أيام طفولتها. وكأنّ ماكس أحسّ بهذا الأمر، فقد أخذ يدها في يده. إنّهُ شهر أيار، والعديد من الأشجار والشجيرات قد اكتسى بالأخضر؛ أشجار الصنوبر تكشف بحزنٍ وأسى عن أصلها الاستوائي من خلال أشكالها الغريبة، مثل الناس السود الذين يقفون سوداً في الشمال أيضاً، ولكن من دون التألّق العميق المنبعث منهم في الحرارة الإفريقية. لوحات الأسماء الموضوعة عند كلّ شجرة وعند كلّ نبات استحثّت أونو على إعطاء ملاحظة بأنهم من الواضح يوجدون في الجنة، التي أنجز فيها آدم مهمّة حفظ الأسماء. هتف بإيماءة واسعة: «خلق الإنسان بستانياً!».

لاح المرصد الفلكي في نهاية الحديقة: مبنى رئيسيّ مكوّن من طابقين، متوّج بقبة، مجنّح بينائين إضافيين على اليسار وعلى اليمين - كلّ شيء باللون الفاتح، يحافظ من حيث الطراز على الوسط بين مكتب ميناء من القرن التاسع عشر وكنيسة من عصر النهضة. هناك قبتان صغيرتان أخريان على الجهة الخلفية. ولكن هذه المناظر كلّها، هكذا ذكر ماكس، أصبحت بقايا أثرية لم يعد يستخدمها سوى جمعيات هواة الفلك في نهايات الأسبوع، فقد جعل ضوء المدينة وغبارها الإحصادات الهامة من المستحيلات. أما هم أنفسهم فلا يقومون سوى بمعالجة القياسات التي يأخذها التلسكوب الراديوي.

عندما دخلوا المبنى، حيّاه زملاءه المنشغلين بفكّ الشرائط المثقوبة المتشابكة في بئر السّلم: كان أحدهم يمسك بطرفها في الطابق الثاني، بينما يحاول آخرون بجانب درابزين الطابق الأول والطابق الأرضي أن يفكّوا عقْد السلاسل المعكرونية بنية اللون. ستُخزّن المعلومات بعد قليل في أجهزة الكمبيوتر في معهد الحسابات المركزي، حيث يجب أن يأخذها أحدهم إلى هناك بالدراجة الهوائية.

(٥) اسم لاتيني: «هورتيس» تعني حديقة، و«بوتانيكوس» تعني نباتي. [م]

- ألا تستطيع الوصول بها إلى هناك في سيارتك السريعة سرعة السهم، يا ماكس؟
- طبعاً أستطيع.

ثمّة أنقاض في قاعة المحاضرات أيضاً: سقط السقف بالمكتبة الموجودة في الطابق العلوي في اليوم السابق، كان الطلاب والفنيون يُخرجون الكتب من بين ركام الرفوف والجصّ.

قال أونو: «أشعر أحياناً أنّ هذا هو حالي».

في الممرّ، صاحت سيّدة عبر باب مفتوح بأنّ فلوريس اتصل به بالهاتف من دفنغلو: لقد قاس خطّ إعادة التركيب - 166 H a على 1424.7 ميغا هرتز.

- شكراً يا تيل!

تجوّل بهما ماكس عبر المبنى، شرح لهما عن الآلات القديمة، وأخبر آدا أنّ مادة جسمها مصنوعة بأكملها من النجوم، ثم أخذ يدها وطبع عليها قبلة بشهامة.

قال أونو: «ولكن لا تفكّر في أنّ هذا ينطبق على مادة جسمي أيضاً، فهي من صنع السيّدة والدتي».

في غرفة الكمبيوتر تلقّوا إحناءة متفحّصة من رجل أرستقراطي طويل، يناهز السبعين، أصلع الرأس وحاذّ القسّات. بدا أنّه أروع ماكس لحظة. قال وهم يصعدون السلم إلى الطابق الأول: ذلك هو المدير، الذي لم يبرهن أنّ مجرّة درب التبانة تدور فحسب، بل وأنّ لها بنية حلزونية أيضاً.

أخبرهما في غرفته المطلّة على هوريس بوتانيكوس عن برنامج البحث الذي يعمل عليه هو نفسه، عن توزيع الهيدروجين المحايد في الجزء المركزي من مجرّة درب التبانة، لكنّ آدا لم تفهم أيّ شيء مما قاله. أخذت تنظر إلى أكداش الملفات المرتّبة على الرفوف خلف مكتبه وإلى الرسوم البيانية والمعادلات على السبورة المدرسية الخضراء. حقيقة أنّ هذا الرجل هو الرجل نفسه الذي أغراها قبل قليل جعلتها في حيرة من أمرها - تساءلت هل سيكون بمقدورها ذات يوم سبر أعماق الناس؟ أخذت تستمع بصمت إلى حديثهما.

استعلم أونو بنبرة عالية عمّا إذا كانت هناك شكوك بخلق الربّ في هذا المبنى، الذي لا يسير فيه أيّ شيء على ما يرام كما يبدو. أوّماً ماكس إيماءة اعتذار وقال إنه مؤكّد منذ ثلاث سنوات، للأسف الشديد، أنّ العالم قد نشأ فعلاً قبل خمسة عشر مليار سنة إلى عشرين ملياراً،

لكنّه تشكّل نتيجة انفجار عظيم: انفجار نقطة حسابية ذات كثافة لانهائية وحرارة عالية بصورة لانهائية، لم تنتج عنه الطاقة كلّها والمادة كلّها فحسب، وإنما المكان والزمان أيضاً، وقد رُصد صدّ ذلك الانفجار في عام 1964.

قال أونو: «إذا، لم يكن هناك أيّ شيء قبل ذلك الانفجار العظيم المتهك للمقدّسات الذي تتكلّم عنه».

- تماماً. ولا زمان أيضاً.

- لم ينفجر شيء إذا.

- تستطيع قول هذا.

قال أونو: «إذا، لم يكن هناك انفجار عظيم. جميل. سوف تتردّد أصدااء الضحك الساخر على هذه النظرية السخيفة في مجال علم الفلك لسنوات طويلة قادمة».

ثم لآدا: «لا تستمعي إلى ما يقوله هذا الأحمق. الربّ خلق السماء والأرض في يوم الجمعة، في الأول من نيسان، عام أربعة آلاف وأربعة قبل الميلاد، في الساعة العاشرة والربع صباحاً، ورأى بعد ذلك أنه عمل جيّد، على الأقل ليس عملاً سيّئاً بالنسبة إلى مبتدئ».

ضحك ماكس: «بوسعك أن تصبح مؤمناً على أسس منطقية بحته».

هتف أونو بانتشاء: «أجل! الربّ هو المنطق! المنطق هو الربّ! أجل، أو من بهذا - لأنه عبث».

- هل تتذكّر ما أخبرتني به عن «باوت» الآلهة؟ عن الإله الخالق، الذي خلق نفسه من خلقه؟

- لن أخبرك بأيّ شيء بعد اليوم، لأنك ستستخدمه ضديّ على الدوام.

- يجدر بك التخلّص من هذا الخوف الفظيع من التناقضات. هل أخبرك بما قد يكون مكتوباً على قرصك ذاك؟

- أنطلّع إلى ذلك فعلاً.

- مكتوب عليه: ما هو مكتوب هنا، غير مقروء.

ابتسم أونو ابتسامة ساخرة: «أحسن. أحسنت. لعلّه كان من صنع إيمينيدس، الذي قال إنّ سكّان كريت كلّهم كاذبون».

أصبحت آدا بالدوار من هذا النقاش. حُيِّلَ إليها أنها تشهد مبارزة فكرية: المبارزان الملتزمان يقفزان إلى الأمام وإلى الخلف، يومض بينهما السيفان اللامعان، بسرعة شديدة تجعلها عاجزة عن المتابعة. كيف لها مواكبة هذا الأمر ذات يوم؟ ولكن لعلّ هذا غير ضروري، لعلّه غير مرغوب فيه حتى؛ لعلّه يجب أن يبقى بينهما فحسب.

عندما اتصل ماكس بفلوريس في دفتغلو بشأن أحدث القياسات، وقف أونو أمام النافذة، وضع يديه في جيبه وقال موجّهاً نصف الحديث إلى نفسه، ونصفه الآخر إليها: «هذه ليست هورتيس بوتانيكوس إطلاقاً، هذه هورتيس كونكلوسوس، إذا كنت تعلمين ما معناها».

- لا تؤاخذني، معرفتي لا تتجاوز المعهد الموسيقي.

- تعني «حديقة مغلقة»، يعيش فيها وحيد قرن. حيوانٌ برّيٌ فظيع، لا يمكن اصطیاده سوى بواسطة عذراء، لأنه عندئذٍ يضع رأسه في حضنها. هذا في علم الأيقونات يرمز إلى الحبّل بلا دنس.

التفت إليها، ضحك لها، وقال: «انتبهي لنفسك يا فتاة!».

*

بدا من البديهي بالنسبة إلى الجميع، وبالنسبة إليها هي أيضاً، أن تذهب معها إلى أمستردام.

عندما سألها ماكس ألا يجب عليها الاتصال بالبيت، قالت: «لا، أبداً».

- ألن ينتظرك والداك على العشاء؟!

- ربّما.

سيارته واقفة في الساحة الأمامية، طوى لها مسند الظهر إلى الأمام وكان عليها حشر نفسها بشكلٍ جانبي والجلوس وراء المقعدين. كانت قد هبّت ريحٌ قوية، وبعد أن سلّمت العلب المحتوية على الشرائط المثقوبة إلى معهد الحسابات المركزي، حيث يوجد الكمبيوتر، خرجوا من المدينة. في الطريق سأله أونو بحذر ما إن كان سيجد مشكلة في الذهاب إلى مرصد فيستربورك^(*)، عندما تجهز المرايا هناك: «أهو قريب من معسكر العبور السابق؟».

(*) في قرية فيستربورك كان هناك معسكر اعتقال مؤقتٌ يُسجن فيه اليهود قبل ترحيلهم إلى معسكرات الإبادة أثناء الحرب العالمية الثانية. [م]

أجاب ماكس وهو يشعر بشيء يتشّجّ في خديّه: «إنه في ساحة المعسكر. الآن يعيش فيه أمبونيون».

- متى سيجهز؟

- على الأرجح، في نهاية السنة القادمة.

أحنى أونو رأسه وقال: «ستبرورك... دفن»^(٥).

ألقي أحدهما نظرة قصيرة على الآخر ولزم الصمت.

بعد إيصال أونو إلى شارع كيرك، ذهب ماكس وآدا لتناول العشاء في المطعم الإيطالي، لا آركا، الذي عندما يدخل الزبون إليه يصفّح صاحب المطعم. تحت عريشة من عناقيد عنب اصطناعية وزجاجات نبّذ فارغة من ماركة كيانتى، تحدّثا عن أونو، وعن والديها، وعن عملها، وعندما همّت بوضع سكّينها في المعكرونة، علّمها كيف تفعل ذلك، حتى دون اللجوء إلى الملعقة. بعد ذلك ذهبت معه إلى البيت.

سار كلّ شيء بالدقة المتناهية لمعزوفة من معزوفات باخ. علمت أنّ الوقت قد حان. ها هو ذا سيحدث، وهذا ما تريد حدوثه أيضاً - ما أرادت حدوثه منذ اللحظة الأولى. طبعاً كانت قد صاحبت في بعض الأحيان، وأدّى ذلك إلى مداعبات جنسية أيضاً، مصارعات متعرّقة في سرير، أيدي طلاب تحاول الانزلاق إلى داخل سروالها الداخلي، رُكّب موسيقيين تحاول شقّ طريقها بين فخذيهما؛ لكن كلّ شيء ينتهي على الدوام عندما يحاول أحدهم فكّ أزرار بنطاله بأصابع مرتعشة، ما يكون بداية مشاجرات لاهثة بشعر أشعث وثياب مجعّدة، تتمخّص عن صفعة في وجهها في بعض الأحيان. لم يكن قد حدث إذاً بشكلٍ فعلي على الإطلاق. التفكير في هذا الأمر يثير اشمئزازاً غامضاً في نفسها أكثر منه شعوراً بالرغبة. حقيقة أنّ الرجال في سعيّ دائم إليه هي جزء من طبيعتهم، من بنيتهم الإيجابية المتجهة إلى الخارج: القضيّب يشبه إصبع قفّاز، ولكنّ المهبل يشبه إصبع قفّاز مسحوب إلى الداخل، وما يوقعها في الحيرة هو أنّ بعض النساء أيضاً مهووسات بالجنس. أليس هو الفرق بين الذهاب للزيارة واستقبال الزوّار: بوسحك زيارة الجميع إذا استدعت الحاجة، لكنك لا تسمح للجميع بدخول بيتك! هل اضطرت ذات يوم في الواقع أن تسمح لأحد بدخول بيتك؟ من دون تكريس كثير من

(٥) ستبرورك هو اختصار اسم «فيستبرورك»، وهذا الاختصار يعني: «مركبة النجم». أما «دفن» فهو اختصار «دفنغلو». [م]

التفكير لهذا الأمر، سلّمت على نحو أقل أو أكثر بأنها لن تستقبل ضيفاً على الإطلاق - وها هي ذي فجأة تصبح ضيفة ومضيعة في الوقت نفسه عند شخص لم يمضِ نصف نهارٍ بعدُ على معرفتها به. ما السبب؟ أهو رائحته؟ أهو قوام بشرته الناعم؟

قال ماكس، بعد أن أغلق الستائر وجلس في المقعد الأخضر ذي الذراعين: «البيت بيتك». إنّه مهذب السلوك. معظم الرجال أغبياء، يجلسون هم أنفسهم على الكنب، ما يؤدي لاحقاً إلى حدوث مشكلة في استقدام زائراتهم إلى جانبهم على الكنب. عليها الاختيار بين المقعد الآخر ذي الذراعين والكنبة. إذا جلست في المقعد الآخر ذي الذراعين، سيحدّقان هما الاثنان بشكل غير طبيعي في الكنب التي تلفت الانتباه بخواتمها، وستبدي ما لا تريد إبداءه أصلاً فحسب، بأنها فتاة على جانب كبير من الاحتشام، بل ما يجول في خاطرها أيضاً. إذا جلست على الكنب، سيعني هذا أنها لا تفكر إطلاقاً في مثل هذه الأشياء الحمقاء، ولكن سيكون من الأسهل عليه أن يأتي للجلوس إلى جانبها باليوم صوره أو ما جمعه من طوابع يريد. على النقيض من صديقه أونو، الذي يعوزه الإحساس بمثل هذه الأشياء في أغلب الظن، سجّل ماكس كلّ شيء ببالغ الدقة بطبيعة الحال. رغبت في معرفة ما لديه من فنون الإغراء، وأملت ألا يجعل من نفسه أضحوكة.

سارت، ورأسها في وضع أفقي، من جانب مجموعته الكبيرة من الأسطوانات المرتبة وفق الترتيب الزمني، وأخذت تنظر إلى لوحة رينيه ماغريت المعلقة على الحائط: رجل ينظر في المرأة ويرى ظهره. فقرت على مفتاح a في البيانو الكبير، على d في أعلاه، ثم مرة أخرى على a .

أحنى ماكس رأسه: «لحنٌ شاعريّ. للأسف لا يوجد m ولا x على لوحة المفاتيح. لا تجدنيهما سوى في أعلى نغمات الجواب في السترايدياريوس^(٥)».

قالت آدا وهي تمضي للجلوس على الكنب: «ترى نفسك على هذا النحو إذا؟!». - كان أونو سيقول: «إنني أخلّق في أقاصي العوالم الميتافيزيقية المترامية في الغيب المطلق».

- وماذا ستقول أنت نفسك؟

(٥) إحدى آلات الكمان، الفيولا، التشيلو، أو غيرها من الآلات الوترية التي صنعها أفراد من عائلة سترايدياري الإيطالية، تعتبر من أفضل الآلات التي صُنعت على الإطلاق. [م]

- لا شيء.

صدمها تغير مفاجئ في نظرة عينيه، مثل نظارة تتغبش عند الدخول إلى غرفة دافئة في فصل الشتاء. لم يتضح لها ما الذي حدث، لكنها أحسّت بأن شيئاً قد مُسّ، لعلّه هو نفسه لم يفهمه بصورة كاملة. بادلتها النظر وخيم صمتٌ على الغرفة؛ كانت رياحٌ شديدة تهبّ في الخارج، انبعث في البُعد الصفير ثلاثي النغمة بهدوء من سيارة إسعاف.

سأل: «هل نخلع ثيابنا؟ ونذهب إلى السرير؟».

أحنت رأسها بالإيجاب: «حسناً».

سار الأمر بهذه السهولة إذاً. لم تكن هناك حاجة إلى قبلة حتى على سبيل التمهيد، ومع ذلك لم يكن الأمر بارداً أو شبيهاً بصفقة عمل - لعل قبلة كانت ستجعله أبرد وأميل إلى صفقة عمل: كان السهل معقداً في الوقت نفسه. حضرتها قصيدة من قصائد بريخت، من تلحين آيسلر، عن السهل الممتنع، أغنية حبّ من نوع معيّن موجهة إلى الشيوعية؛ هنا لا يتعلق الأمر بالشيوعية، ولكن لعل أغنية حب تحوم مع ذلك في الجوّ.

أرشدتها ماكس إلى الحمام، وضع روب حمام أبيض على حافة الحوض، وأغلق الباب وراءه. لم تكن فيه نوافذ، سمعت عواء الريح العاتية من شبكة التهوية الموجودة في السقف. يسود هنا أيضاً النظام الحاسم ولكن غير المؤلم، الذي لفت انتباهها في الغرفة؛ لم تكن الزجاجات والقوارير مرتبة حسب الحجم بل حسب النوع، مغلقة جميعها بسداداتها، لم تتحوّل أنبوبة معجون الأسنان إلى ثعبان مدهوس بسيارة، لكنها ملفوفة إلى النقطة الصحيحة. خلعت ملابسها، ووقفت لحظة أمام المرأة العالية علوّ قامة إنسان، اعتبرت نفسها محظوظة بأنها لا تستطيع رؤية المشاهد التي انعكست من دون شكّ على هذا الزجاج في السابق. جسدها النحيف بالنهدين الصغيرين والهرم الأسود المعكوس، الذي طالما نظرت إليه بأحاسيس مترددة، بدا وكأنه تحوّل فجأة إلى شيء مقدّس: يوشك أن يخدم الغرض الذي صُنِع من أجله. في الغرفة، أشعل ماكس المطلع الموسيقي من أوبرا تريستان وإيزولده، فأحسّت بأنه اختيار كتيب بعض الشيء. وضعت يدها اليمنى على شعرها ويدها اليسرى على بطنها، بينما يراودها إحساس بأنها واقفة على طبق من أم اللؤلؤ.

استقبلتها تموجات فاغتر حين دخلت الغرفة. ماكس يرقد في السرير؛ واضعاً رأسه على ذراعيه المتصالبتين، ابتسم لها، وقال: «أم أنك ضد الألمان؟ أتفضّلين سماع برسل؟».

- إنني أعرف نفسي.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنني أفضل معرفتك أنت.

عندما بدأت تفكّ الحزام عن رداء الحَمَام بتردد، وضع يديه على عينيه إلى أن رقدت بجانبه تحت الملاءة. اتكأ على أحد مرفقيه ونظر إليها. رأت عليه أنه يريد أن يقول شيئاً، لكنّه لم يقل أيّ شيء، ومع ذلك حُيِّلَ إليها بعد لحظة أنه قال ما أراد قوله، ثم ضغط شفثيه على شفثيهما، بينما يأخذها بين ذراعيه بقوة وينزلق فوقها بنصف جسده. بدأت ترتجف وهمست: «على مهلك، لا تؤلمني!».

فهم ماكس من فوره أنها المرة الأولى بالنسبة إليها. يوشك إذاً أن يفقدها عذريتها، لو كانت أيّ واحدة أخرى لاختلق ذريعة من الذرائع كي يتوقّف؛ صداع، استيقاظ مبكر غداً. إذ إنه في كلّ مرة أخذ فيها هذه المهمة على عاتقه في الماضي، لم يسلم من عواقبها: بقيت الفتيات المتحوّلات إلى نساء يطرقن بابه ويتصلن به بالهاتف لشهور طويلة، حتى عندما ينساهنّ في الواقع. من يفقد فتاة عذريتها، يحتلّ مكاناً في حياتها لا يُقارن سوى بالمكان الذي يحتلّه الطبيب الذي جاء بها إلى الدنيا، أو الشخص الذي ساعدها وهي على فراش الموت. ولكن الآن، وهو مع آدا، لم يخطر في باله التوقّف.

أخذته بين ساقيها مثل التشيلو الخاص بها - شعرت به يلج فيها بتمهّل، بتقدّم يسير فيسير، ثم رجوع مرة أخرى، ثم تقدّم مرة أخرى، بينما يبدو في الوقت نفسه وكأنه يطوّقها وتخفي هي شيئاً فشيئاً في داخله.

عندما أحسّت بأنه بلغ غشاء بكارتها، تشبّثت به بخوف شديد وهي تتخيّل شكله: شيء مثل عين، مثل عدسة في آلة تصوير. أرادت أن تنادي أمها، لكنّه اخترقه فجأة وملأها بشكلٍ كامل. أخذت تقبّله وهي تبكي وتضحك، في حين توقّف هو عن الحركة. شعرت بدمه ينبض في أعماق بطنها، بدا واضحاً أنه يحاول السيطرة على إثارتته؛ عندما تهدّد ذلك بالفشل، اختفى من داخلها، رقد بجانبها ولفّ ذراعه حول كتفها: «ربّما يجب علينا ترك الأمر، اليوم، عند هذا الحدّ».

أذهلتها نبرته الأبوية، لكنّها شعرت بالامتنان له. لم تقل شيئاً، كانت الأسطوانة قد وصلت إلى نهايتها، فأخذت تنصت إلى صفير الريح بين الأشجار أمام البيت. ها هي ذي ترقد في

سرير أمسترداميّ مع عالمٍ فلكيّ، محاسناتٍ طويلة من البؤس وأدخلها فترة جديدة من حياتها. اقتربت منه أكثر وتنهّدت بعمق.

أخذ هو أيضاً ينصت إلى الريح. رأى البيت: مضاءً ودافئاً من الداخل، الليل القارس الرطب في الخارج.

سألها: «ماذا تظنّين؟ إذا صعدنا إلى السطح، وضغطتُ قطرة من الحبر من قلّمي وتركناها تطير باتجاه ورقة بيضاء: كم يبلغ الاحتمال بأن يظهر على الورق بخطّ يدي: لا أريد أن تبقى آدا معي؟».

- هذا غير ممكن.

- الاحتمال ليس صفراً، ولكن ربّما الكون أصغر من أن يستوعب الحبر كلّهُ، قبل حدوث ذلك.

8. حالة شاعرية

في الأسابيع التالية، صارا يلتقيان في لايدن كل يوم، يمشيان الهوينى في حديقة هورتيس بوتانيكوس، يشربان القهوة في مقصف المرصد الفلكي في استراحة الظهر، أو يتناولان العشاء في المطعم الصيني في المدينة في المساء. يصطحبها في نهايات الأسبوع إلى أمستردام، أحياناً مع التشيلو الخاص بها في المقعد الخلفي من السيارة. كانت أيام السبت والأحد تلك تبعث طمأنينة في نفسه، طمأنينة جديدة لم يعرفها من قبل. لقد أقام علاقات استمرت فترة أطول بضع مرّات، لكنّها لم تغيّر أيّ شيء من القلق الذي يلازمه؛ كان حتى عندما يستقبل صاحباته، يودّ لو يخرج من البيت، يمشي في الشارع، يدخل المقهى، ليس من أجل أن يشرب، لأنه لا يشرب، وليس من أجل الدردشة مع شخص باسترخاء، لأنه لا يفعل ذلك أيضاً، ولكن من أجل البحث عن شيء جديد. كانت فكرة أنّ هناك امرأة تمشي في مكان ما في المدينة، أو تجلس وحدها إلى طاولة في أحد المقاهي، بينما يضيّع هو وقته مع صاحبتة في البيت، تفوق طاقته على التحمّل. حتى إنّ امرأة من هذا القبيل تظهر له أحياناً في نوع من التخيل: يرى بدقّة بالغة في أيّ هيئة تكون وأين تجلس، في أيّ مقهى، وإلى أيّ طاولة. فيخرج من البيت متذرّعاً بإحدى الذرائع ويهرول إلى المقهى؛ ولكن عندما يتبيّن أنها لا تجلس هناك، يحصر السبب في أنه تأخر قليلاً في الوصول - يخرج بعد ذلك إلى الشارع، يقف على أصابع قدميه، وينظر ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عنها.

طبعاً لم يتحوّل في طرفه عين إلى عاشقٍ مكتفٍ بامرأة واحدة، فحياته الغرامية التي تستنزف كثيراً من الوقت سارت على سابق عهدها من الاثنين إلى الجمعة. ولكن في نهاية الأسبوع، عندما تكون آدا عنده، يغادره ذلك الهوس. هذا لا يعني أنه يجلس باسترخاء أمام التلفزيون، أو يقرأ رواية بوليسية، أو يصلح شيئاً في المنزل، لأنه لا يفهم ماذا يعني «استرخاء»

ولن يستطيع فهمه أيضاً على الإطلاق. لا يمكن أن يخطر في باله لعب لعبة صغيرة، أو ممارسة رياضة، أو الذهاب حتى للتمشي. فحتى عندما يذهب في رحلات استجمام، يأخذ معه مواد دراسية حصراً، لا يترك كنيسة ولا متحفاً إلا ويزوره؛ وحين يستلقي في الشمس، فليس لأنه يجد متعة في هذا الأمر، ولكن لأنه يجب أن يصبح أسمر اللون: ليس حماماً شمسياً بقدر ما هو عرض جسمه بأكمله على أشعتها وفق جدولٍ دقيق، حتى خاصرته والجهة الداخلية من ذراعيه وساقيه. هذا أيضاً عمل بالنسبة إليه، لأنه عندما لا يعمل ولا يلاحق النساء، ينظر في خواء مُتوَعَّد، يكون أكثر من مجرّد شعور بالضجر. على أنه حينما يلاحق النساء، يريد في الواقع أن يكون على رأس عمله، وحينما يكون على رأس عمله، يريد في الواقع ملاحقة النساء، والنتيجة هي أنه لا يعرف الراحة إطلاقاً. إذا ما قال له أحدٌ شيئاً عن هذا الأمر، اعتاد أن يجيب: «ستأتي الراحة الأبدية لا محال، لذلك لا أحتاج أخذ دفعة مُسبقة منها». لكنّه الآن، مع آدا، يمارس الحبّ بطريقة مريحة شبه برجوازية، ولا يعود بعد ذلك يريد أيّ شيء آخر، الأمر الذي يثير قلقه في بعض الأحيان. أهو في طريقه إلى الانحدار نحو الزواج؟ صارت آدا تأخذ حبوب منع الحمل نزولاً عند الحاجة.

أيضاً نقاشاته مع أونو جزءٌ من هوسه، ولكنّ الأمر مختلف مع آدا. هو لا يعشقها. بل يعشق سائر النساء بطريقة أو بأخرى، باستثناء آدا نفسها. عندما ينظر إلى امرأة، يراوده الشعور غالباً بأنه يستطيع رؤية أعماق روحها بعينه الزرقاوين، كما لو أنه ينظر إلى خليج ساطع؛ ولعلّ هذا صحيح، لعلّ النساء يشعرون به أيضاً، وهذا هو المفتاح لنجاحاته الغرامية، التي تشكّل السبب في أن يحسده ويكرهه في المقاهي. لكنّه عندما ينظر إلى آدا، يُخَيّل إليه أنّ نظرتَه هذه تزيد المسافة بينهما. لم يكن يفهم أيّ شيء منها، يرى في عينيها نظرة كائنٍ من عالم آخر لا يمكن سبر أغواره، وهذا تحديداً ما يشدّه إليها. لم يكن يعايش وجودها في بيته مثل وجود كلب ليس لديه أسرار يخفيها عن الإنسان، بل مثل وجود قطة هي سرٌّ بحدّ ذاتها - وبهذا القدر نفسه يشعر بأنه حرّ وفي مأمن من التهديد. ومثلاً ينتسب الكلب إلى الإنسان، بينما القطة إلى البيت، تماهت على هذا النحو مع النظام السائد في شقّته وأصبحت جزءاً منه. الكلاب تصطدم في ركضها بالطاولات فتقلبها، تنبش الوسائد من المقاعد الوثيرة وتحمل الأشياء برأس مرفوع إلى خارج الغرفة؛ القطط لا تلمس حتى الأشياء التي تلمسها - باستثناء الأوقات القليلة التي تُنشب فيها مخالبتها في السجاد. عندما تضع كتاباً على الطاولة، تضعه بالطريقة التي سيضعه بها هو نفسه: بالعنوان موجّهاً إلى الأعلى، ليس فوق كتاب أصغر، ليس

بشكل مائل، بل حسب النسبة الذهبية بين منفضة السجائر وحافة الطاولة، وبالتوازي مع تلك الحافة. لم يحدث قطّ أنها لم تطوِ الجريدة. عندما يرفع عينيه عن مكتبه، ويراها جالسة على الكنبه تقرأ قصائد ريلكه، تكون جالسة تماماً كما ينبغي لها الجلوس. لم يسبق أن رأى شخصاً يملك الإحساس الطبيعي ذاته بالعلاقات، دون أن يجبر نفسه ودون أن يتحوّل الأمر إلى لباقة بائسة.

لا يتبادلان الحديث كثيراً، وهذا الأمر أثار إعجابه أيضاً. موسيقا الصمت. كان يرى أنك تستطيع الدردشة مع الجميع، أما لزوم الصمت معاً دون أن يصبح صمتاً مؤلماً فهو من أندر الحالات. فقط عندما يحضر أونو، يتكلمون دون انقطاع. حين يضطر إلى فعل شيء على مكتبه، يخوض أونو في محادثات طويلة مع آدا، بنبرة أبوية إلى حدّ ما، فهي الطريقة الوحيدة التي يستطيع التعبير بها عن حنانه حيالها، أو لعلّها أقرب إلى نبرة حمّ في الواقع. لفت انتباه آدا في كلّ مرة أنّ ماكس أيضاً يتكلم معها أكثر بكثير عندما يكون أونو موجوداً: يبدو أنها تصبح إنسانة أخرى في عينيه في حضور أونو. لولا أونو لما شرح لها ببالغ الصبر، على سبيل المثال، أنّ الشيء المُلاحَظ، في العلوم الحديثة، لا يمكن رؤيته بشكلٍ منفصل عن المُلاحَظ، لأنّ المُلاحَظ يغيّر الشيء المُلاحَظ بملاحظته. ماكس يعلم أنّ هذا النوع من الأشياء لا يثير أدنى اهتمامها، ومع ذلك شرح هذا الأمر: لأونو في الواقع - هي تفضّل أن يبقى مثلما هو، عندما لا يكون أونو موجوداً.

هي نفسها ليست ثرثارة. تستطيع الجلوس في النافذة المفتوحة لساعات طويلة وتنظر إلى حديقة فوندل، حيث يتجول الناس مع أطفالهم وكلابهم، ويعبر أناس من جماعة «الهيبيز» وهم يغنون ويرقصون، مرتدين عباءاتٍ شرقية ومتزيّنين بالأزهار، وحيث ذلك الصبي نفسه الذي يتدرب دائماً على ألعاب الرشاقة على العشب، لكنّه لم يتعلّم سوى فنّ الانحناء. على الجهة الأخرى، خلف الشجيرات والأشجار، التي تكاد لا تُرى من الحديقة، يقوم مبنى منخفضٌ يحتوي على غرف الجثامين، تأتي إليه عربات الموتى عدّة مرات في اليوم، ويدخل إليه أناسٌ باكون ويخرجون منه. كانت ترى لسببٍ أو لآخر أنّ هذا المشهد يناسب ماكس تماماً: تشعر أنّ هناك مثل هذا المزيج الصارخ من الحياة والموت في كيانه أيضاً. الحقّ أنه في مزاج رائق على الدوام، ولكنّ هذا لا يلفت النظر إلاّ لأنه ظاهرٌ على خلفية داكنة، مثل ألماس معروض على مخمل أسود عند بائع مجوهرات.

فقط عندما سألها ماكس عن والديها في إحدى المرات، أخبرته شيئاً عنهما، عن لقاؤهما أثناء قصف لايدن، وكيف أسسا محلّ الكتب المستعملة في وقتٍ لاحق. لم تشعر يوماً بأنها طفلة هذين الشخصين، المختلفين عنها كلّ الاختلاف، بل طفلتها بالتبني، لقيطة، لا تمت إليهما بأيّ صلة في الواقع. ليس لأنها تضمّر أفكاراً رومانسية في هذا الاتجاه، فهي لا تحتاج سوى إلى النظر في المرأة لترى أمّها على صفحتها.

قال ماكس: «أحياناً تحدث الحالة المعاكسة أيضاً، يظنّ شخص أنّ والديه هما والداه الحقيقيان، بينما لا يكون ذلك صحيحاً».

لم يلتقِ بالديها مرّة أخرى بعد تلك المرّة الوحيدة. اعتقد هو أيضاً أنه لا يمتّ بأيّ صلة إليهما، ولم تطلب منه آدا اللقاء بهما - مع أنّ والديها لمّا بضع مرّات إلى أنهما يرغبان في لقاء صديقها ذات يوم. كان يعلم أنها تشعر بالامتنان له، لأنه يخلّصها يومين في الأسبوع على الأقل من ذلك البيت. في ما يتعلق بالديه، لو سألته عنهما، لأخبرها بقصّته؛ عندما لم تطرح عليه هذا السؤال، ترك الموضوع على حاله.

صارت السعادة المنزلية تملأ الأجواء! كان من عادته أن يذرع الغرف، عندما يستغرق في التفكير، لكنّه لا يفعل هذا عندما لا يكون وحده؛ آدا أول شخص لم يمنعه من هذا الفعل. لم يكن ذرع الغرف ذاك مجرد مشي جيئةً وذهاباً، ولا ما تفعله الدببة القطبية أو الأسود المحبوسة في الأقفاص، بل يُحدّد وفق نموذجٍ هندسيّ دقيق، لا يعيه هو نفسه إلا على نحوٍ غامض، ولا يحيد عنه قيد أنملة، يتشكّل من خطوط غير مرئية، تنبعث من قطع الأثاث: امتدادات الأضلاع والأقطار والمنصّفات العمودية. تشكّل كراسيه وطاولاته وخزاناته، بالاشتراك مع منصّفات زوايا الغرفة، النقاط المحورية في شبكة معقّدة، شبيهة بحديقة متخيّلة من طراز حدائق لونوتر، تتيح له المجال لوضع قدمه على نقاط عديدة فيها، ولكن ليس على النقاط كلّها. وبينما يذرع الغرف، واضعاً يديه على ظهره، يجد نفسه يفكّر في المستقبل في بعض الأحيان. عندما يجهز التلسكوب في فيستربورك في مقاطعة درينته بعد بضع سنوات، سيضطرّ على الأرجح للذهاب إلى هناك أكثر مما يذهب الآن. المساءات الكثيرة هناك، لا شيء يفعله المرء على بُعد أميال في الجوار، الفلاحون الأجلاف الذين يلعبون البلياردو، الفتيات غريبات الأطوار، اللاتي يكاد لا يفهم لهجتهنّ ولا يستطيع القيام بأيّ مغامرة معهن، لأنك ستلقى مصرعك بالمداري والمدمّات. ألن يكون شيئاً جميلاً إذا ما رافقته آدا بين حينٍ وآخر؟ بوسعهما استئجار مسكنٍ

مؤقت في مكان ما هناك، عند كاتب العدل المحلي، وتأثيره حسب ذوقهما الخاص. تعمل آدا هي أيضاً بطبيعة الحال، لكنها بالسيارة تستطيع الوصول إلى أمستردام خلال ساعة أو ساعة ونصف الساعة.

منذ استيعاب برونو أن آدا لديها صديق، صار يغيب عن جلسات التمرين بانتظام، لذلك أخذت تتمرن وحدها على معزوفة جديدة للتشيلو المنفرد «نوموس ألفا» من تأليف زناكيس. لم يكن هذا يضايق ماكس أثناء عمله، على النقيض تماماً: حقيقة أنها هي أيضاً منهمكة في فعل شيء، تعفيه من الواجب بأنه يجب عليه التكلّم معها في بعض الأحيان. حدث عدة مرّات أن عزفا الموسيقا معاً. في زمن الحرب، أعطته والدته دروساً في العزف على البيانو بين حين وآخر، وفي زمن لاحق أرسله والداه بالتبني إلى مدرسة تعليم الموسيقا، ولكنّ عزفه ليس من مستوى رفيع؛ كان قد اشترى البيانو الكبير في نزوة مفاجئة، في مزاد علني - ربما لا لشيء إلا ليرى كيف يُحمل إلى داخل المنزل، الأمر الذي من شأنه مداواة جرح قديم. في المرّات القليلة التي عزف فيها مع آدا، حدث أمران مختلفان كلّ الاختلاف. هي تخرّجت في المعهد الموسيقي في لاهاي، وأصبحت من محترفي الفن، وتعلم أنّ عزف الموسيقا ليس له صلة بالتعبير عن العواطف بل باستحضارها: هذا لا يمكن أن ينجح إلا إذا عُزفت بشكلٍ مهنيّ، أي من دون انفعال، مثل الطبيب الجراح الذي يجري عملية جراحية - وإن كان قادة الفرق الموسيقية والعازفون المنفردون يُقطّبون وجوههم تقطيبات استعراضية في أغلب الأحيان، عندما يعلمون أنّ العيون موجهة إليهم؛ في البيت أو أثناء التمرينات لا يقطّبون وجوههم على هذا النحو إطلاقاً، لا هم ولا العازفون في الفرق الموسيقية، لأنّ هذه تكون وجوه المستمعين. من ناحية أخرى، لم يكن ماكس موسيقياً إلى حدّ أنه يستحيل عليه تقريباً عزف الموسيقا، لا لأنه لا يتأثر بالموسيقا، بل لأنه يتأثر بها أكثر من اللازم. كان يملك مكتبة موسيقية شاملة، أسطوانات مصفوفة في أربعة أمتار، بدءاً من دو ماشو ودوفاي ووصولاً إلى بوليه ورايلي، لكنّه لا يشغل أياً منها لنفسه. عندما ينقر نغمة على البيانو الكبير الخاص به، ثم نغمة الأوكتاف، يؤثر فيه هذا الأمر البسيط أشد التأثير: يفتح هاوية سحيقة في نفسه تصيبه بالهلع من الوقوع فيها. عندما يأتي المدوّزن لضبط إيقاع البيانو، يتظاهر بقراءة الجريدة؛ الحقّ أنّ المشاعر تمزّق قلبه، حتى أكثر من الوقت الذي يعزف فيه عازفٌ منفرد بارز، لأنّ التناغم نفسه هو الذي يصدح في هذه اللحظة، بأنقى أشكاله، من دون تدخّل الموسيقار - مثلما يكون العجين الذي يُصنع في البيت أطيب دائماً من الكعك؛ ولكن لا يُسمح له بتناوله، حتى وإن قال

ألف مرّة إنه لا يرغب في تناول الكعك. الحليب، البيض، السمن، الدقيق، السكر - صحيح أنّ هذا المزيج الإلهي يتحوّل في القرن إلى فنّ من فنون الطبخ، لكنّه يُفسد أيضاً في الوقت نفسه. كرّر عشرات المرات مع آدا المازورة الرابعة الأولى في «فانتازيا في إف الصغرى» من تأليف شوبرت التي تعزفها أربع أيادٍ على البيانو: ماذا حدث؟ وُضع تمهيد، تصاعدت بضع نغمات بسيطة - وفي الحال تحقّق الجمال المطلق الأكثر سموّاً، الأكثر تعقيداً، والأكثر غموضاً في أكثر الأشكال بساطة. حتى بعد المرّة المئة لم تفقد شيئاً من بريقها ولم تكشف عن شيء من غموضها.

هتف ماكس باندهاش: «ما هذا؟ ما هذا بحقّ الإله؟! إنها تذكرني فجأةً بشيء ما. نعم، عرفت: الهيبريدس^(*) من تأليف مندلسون».

نهض عن مجلسه، أخرج الأسطوانة، ووضعها على القرص الدوّار: «هنا، اسمعي، عند المازورة الخامسة عشرة بعد المئة».

ورفع سبّابته في الهواء: «هل تسمعين؟ أليس الشيء نفسه تقريباً؟ في مثل هذا التمهيد!». طبع آدا قبلة على خدّه وقالت: «سمّعك عديم الرحمة».

لفّ ذراعه حول كتفها.

- يمكنني على الأقلّ التكلّم معك عن هذا، رغم أنه ليس لديك أي فكرة عنه، ولكن لا أحد لديه أيّ فكرة. هل تعلمين ماذا قال أونو ذات مرّة، عندما بدأت أتكلّم عن الموسيقى؟ أخذ يهزّ رأسه الكبير بينما يرتجف خدّاه وقال: «الموسيقا من أجل الفتيات». حسناً، تلك الفتاة موجودة الآن أمامي. لقد صدق حدسه.

- لماذا يجب أن تكون الموسيقى من أجل الفتيات فقط؟

- يجب ألاّ تأخذه بشكلٍ حرفيّ. عندما اشتريت مثلجاً في إحدى المرّات، قال: «المثلّجات من أجل القساوسة». لا توجد موسيقا بالنسبة إليه، يراها مجرد صوت بلا معنى. يرى أنّ الكلمات وحدها لها معنى. ما يعارضه في الموسيقى هو على الأرجح الهروب من الواقع الذي تمثّله لكثير من الناس، نوع من بند الفرار الذي يمكن التمسك به عند الإخفاق: لا تزال هناك موسيقا. لعلّه يجد الموسيقى نوعاً من العزاء الجبان. بهذا الخصوص، قال لي ذات مرة إنّ العبارة الإغريقية موسيكة تيكه - «فنّ الموسيقى» - اشتقّت في القرون الوسطى من

(*) The Hebrides: معزوفة تُسمّى أيضاً «كهف فينغال»، ألفها الألماني مندلسون Mendelssohn. [م]

الكلمة المصرية القديمة «مويس»، التي تعني «ماء». بهذا أصبح موسى مكتشف الموسيقى، لأن اسمه حسب ذلك الاشتقاق الخاطئ نفسه يعني «الْمُنْقَذ من الماء»، أنت تعرفين سلّة القش التي وجدوه فيها في نهر النيل عندما كان طفلاً رضيعاً: إنه موسى نفسه، الذي ضرب الصخرة فانفجر منها الماء، وجعل الرب يخلق السماء والأرض بكلمة حسب سفر التكوين، بعد ذلك حلّقت روحه على المياه. كلّ شيء صحيح على الدوام. إنك تمارسين إذاً الفن الموسوي في واقع الأمر.

- أنا واثقة من هذا. هل لك أن تُريني إبهاميّك!

وضع يديه في يديها: قوامهما جميل، مثل باقي جسمه، لا بالعريضتين ولا بالرفيعتين، ولكن إبهاميه الاثنتين قصيرتان ولهما شكل ملعقة مسطّحة.

- إنني أمصّ هذا كلّ من إبهامي (*) .

- ممّن ورثتهما؟

- لا أعلم. ربما من والدي. ربما من نفسي. لذلك يمكنني الوصول إلى نعمة أوكتاف فقط، ولكن ليس أبعد من ذلك. ما اسم عازف البيانو الذي أجرى عملية جراحية ليديه من أجل أن تصل أصابعه إلى نغمات أبعد، ثم لم يعد باستطاعته العزف؟

قالت آدا وهي تضع يديه في حضنه: «لا أعلم. ولماذا المثلّجات من أجل القساوسة؟».

- لأنهم يدلّلون أنفسهم طبعاً، لأن لا أحد يدلّلهم.

بقيت آدا تنظر إليه برهة قصيرة، ثم أحتت رأسها: «أنت تحبّه، أليس كذلك؟».

- طبعاً أحبّه.

اخضلت عينا ماكس بالدموع بصورة مفاجئة. اندهشت آدا وهي ترى ذلك يحدث. لم تعرف حقيقة رأيها في هذا الأمر، ولكن باغتها شعور بأنها أمّ لهذين الشخصين.

- هل يخبر كلّ منكما الآخر بكلّ شيء؟

- بكلّ شيء.

من حسن الحظ أنها لم تسأله عمّا إذا كان يحبه أكثر منها.

- حتى إننا نخبر كلّ منّا الآخر بما لا نخبر به أيّ شخص إطلاقاً. هذه هي الصداقة.

(*) مقولة هولندية تعني: ما أقوله هو اختلاق وتلفيق. [م]

9. العفارية

عندما بلغت الشمس لحظة انقلابها في مدار السرطان، في بداية الصيف إذاً، نُظِّمَت فعالية موسيقية سياسية في أمستردام، بمناسبة اختتام الموسم المضطرب وبانتظارٍ متطلّع إلى أوقاتٍ أشدَّ اضطراباً. منذ انتفاضة السنة الماضية، وقعت أمستردام تحت احتلال القوات الهولندية الغازية، على حدّ تعبير أونو؛ سيطر أبناء الفلاحين من ذوي الأصول المسيحية المرتدين بدلاتٍ عسكرية على المدينة بشكلٍ مؤقت، والقضية الآن هي تحريرها، بعد ذلك ستطرح أمستردام بهولندا إطاحةً لا رجعة فيها. يبدو أنّ واحداً من منظّمي الحفل قد حضر ذات يوم عرضاً موسيقياً من تقديم آدا وبرونو، لأنهما كانا هما أيضاً من المدعوّين. هذا أول عرض ستقدّمه في أمستردام، ورغم أنه لم يكن حفلة موسيقية حقيقية، فقد كان مع ذلك شرفاً عظيماً لها. حَزَّ في نفس آدا أن تعزف موسيقاها من النوع الخاص أمام الجمهور، الذي تتوقّع حضوره؛ لكن طبعاً كان عليهما المجازفة، واستطاعت إقناع برونو باستئناف العزف معها. الجميع سيكون هناك، هذا ما أكّده لها ماكس. السياسة صارت تسلية الشعب الجديدة، على النحو الذي لم يحدث منذ الحرب العالمية الثانية وعلى النحو الذي لن يحدث في الزمن القريب القادم؛ قدّر الفترة باثنتين وعشرين سنة: 1945، 1967، 1989... قبل الحفل ذهبت آدا مع الموسيقيين الآخرين لتناول الطعام، وكانت ستري ماكس بعد الحفل في حجرة الفنانين وتذهب لقضاء الليلة في بيته.

رافقهما أونو أيضاً. منذ أن وصل إلى طريق مسدود في مسألة قرص فستوس، أخذ يهتم بالسياسة بصورة متزايدة، ففي نهاية الأمر، ينشغل تشومسكي أيضاً بالسياسة أكثر مما ينشغل باللغويات في الوقت الحاضر، فهو إذاً في صحبة جيّدة. كان بفطرته يتعاطف مع المحرّضين الفوضويين والثوريين، شأنه في ذلك شأن ماكس، لكنّه يعلم بحكم وضعه الاجتماعي أنهم لن يحظوا بأيّ فرصة بسبب آرائهم الشرسة. هولندا تكره التطرّف؛ النظريات من هذا النوع

حوصرت في دلتا المستنقعات المحيطة بمصبّ نهر الراين وتُزَع فتيلها في اللاهوت، في حين بقيت التجارة بعرضها وطلبها تُمارس على أرض الواقع، أما ماكس، بطبعه الغريب الخطير، فلم تكن لديه أوهام عن هذا الأمر: لقد حسمه إيراسموس^(*) حسماً قاطعاً، ليس هناك سوى طريق واحد في هولندا، وهو طريق الوسط. وفي السياسة يدور كلّ شيء عن السلطة وليس عن شيء آخر. ما الذي بقي إذا؟ الديمقراطيون الاشتراكيون صاروا في جمود الأحزاب المسيحية. وماذا عن الأحزاب المنشقة مثل الحزب الشيوعي أو حزب دعاة السلام الاشتراكيين؟ ولكن هؤلاء، لا تؤاخذني، أناسٌ من نوع مختلف. صحيح أنه جرى تأسيس حزب ليبرالي يساري جديد، أحرز نجاحاً كبيراً في الانتخابات المحلية قبل بضعة شهور، وأصبح له سبعة أعضاء في مجلس النواب؛ ولكن رغم أنّ الناس الذين يقودونه من شاكلته، شاكلة أونو، ومن جيله أيضاً، فهو يرى أنّ هذه الجماعة لا تعرف أيّ شيء عن التاريخ؛ يضاف إلى ذلك أنه يشتهه بأنّ هذا الحزب يريد إجراء الإصلاحات الدستورية الرسمية، لا لشيء إلا لمنع الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية.

سأله ماكس وهما في الطريق إلى مكان الاجتماع: «لن تنخرط في السياسة عملياً، أليس كذلك يا أونو؟!».

نظر إليه أونو بهيئة مترددة: «أتكون هي قدرتي يا تُرى؟».

- قدر؟ أنت الذي تحدّد، أليس كذلك؟

- أنظن هذا؟ إنك على كلّ حال غير مؤهل للسياسة إطلاقاً، فلن تكون مؤهلاً يجب أن تكون من عائلة كبيرة. هذه المهنة تتعلّمها في صراع القاتل أو المقتول مع إخوانك وأخواتك. إذا لم تجتز المراحل في مدرسة المكيدة والخداع والإرهاب، فلن يحالفك التوفيق أبداً. هذا يعني أنني مؤهل بشكل ممتاز لهذا العمل، لكنك ولدٌ وحيد، ولم تكن في حاجة إلى أن تقاتل من أجل نيل الخطوة عند والدك.

- كان بيني وبين ذلك شعرة واحدة. وُلد لي أخٌ أكبر، لكنّه توفي في مهده.

- شيء يناسبك تماماً. أنت لا تتحمّل وجود أيّ شخص حولك. أما في ظروفنا الحالية فإنك لست جديراً سوى بأن تكون ملكاً. من يدري، إذا استمرت الأمور على هذا المنوال، ستصبح تلك الوظيفة شاغرة أيضاً.

(*) Erasmus (1466-1536): فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا. [م]

- عندئذٍ سأفوضك على الفور في تشكيل حكومتي الأولى والوحيدة، لأنني بعد ذلك سألغي الديمقراطية وأعلن الملكية المطلقة.

انحنى أونو وطوى يديه متوسلاً، وقال: «يا صاحب الجلالة الإمبراطوري والرسولي الملكي^(*)، ألا تعتقد...».

- إنها كلمتي الأخيرة، انتهت الزيارة، الباب هناك، أو بالأحرى النافذة هناك.

- مولاي، هل يجب حقاً أن...

- اقفز!

فقال أونو وهو يعتدل بقامته: «اللعة! لا أعلم ما إن كنت تعلم، ولكن هذه هي البوهيمية في إلقاء شخص من النافذة، التي تتصاعد الآن في روحك المريضة. في هرادشاني في براغ، لطالما ألقوا السياسيين غير المرغوب بهم من النافذة».

وألقي نظرة استهجان مفاجئة على بدلة ماكس الصيفية الأنيقة بمنديل جيب: «إنك مرتادٍ ملابس لا تليق أبداً بهذا الاجتماع الهدّام».

- كان روبسبير أيضاً يتبع موضحة النظام القديم.

- صحيح، إلى أن قُطع رأسه عن ياقته المنسوجة من الدانتيل.

- وأنت مرتدٍ كنترك بالمقلوب. مظهرك مضحك بهذه العلامة التجارية الظاهرة في عنقك.

- ستفعل مثل هذا الشيء عن قصد.

في الشوارع الفرعية، وقفت باصات شرطة ذوات لون أزرق داكن، ملأى بالريفيين المسلّحين المتربّصين، مثل قطط صبورة بجانب وكر فتران؛ هناك تراحمٌ شديد في جوار الباب الدوّار. تتزيّن صالة المسرح، وهي قاعة مزادات محوّلة بشكل مؤقت، بأعلام حمراء وصور ماركس، ولينين، وباكونين، وماو، وهو تشي منه، وطبعاً تشي غيفارا، بطل الأبطال، الذي تخلى عن منصبه الوزاري في كوبا ويشارك الآن في أدغال بوليفيا على الأرجح، في حرب العصابات، التي من شأنها أن تؤدي إلى تحرير قارة أميركا اللاتينية. يسود ازدحام مشوّب بالبهجة، أدمن عليه الجميع شيئاً فشيئاً. بين الأعمدة المقامة من الحديد الصبّ في الممرّات

(*) يقولها بالألمانية. [م]

المسقوفة على مدار الصلاة، تقوم بسطات تُعظَّم عليها الثورة في كلّ الأذواق والأنماط: الشيوعيون الموالون لموسكو، الشيوعيون المنشقون، التروتسكيون، الفوضويون، الماويون، الشيبة الاشتراكية، الشيبة الحمراء، حركة اتحاد الطلاب، اللجنة الطبية الهولندية-الفيتنامية، حركة البروفو، رابطة هولندا-الاتحاد السوفيتي، هولندا-ألمانيا الشرقية، هولندا-بولندا، هولندا-رومانيا... هولندا-الكون! أما أشدّ البسطات أناقةً في هذا المعرض الثوري فهي بلا ريب تلك العائدة إلى لجنة التضامن مع كوبا، لأنّ في حوزة القائمين عليها إرنستو تشي غيفارا نفسه، الذي تُزيّن صوره حتى واجهات أرقى محلات الألبسة الرجالية في المدينة. كان الناس ينظرون بمزيج من السخرية والرغبة إلى الكاتب المشهور، ولعب الشطرنج اللامع حامل لقب الأستاذ الكبير، والمؤلف الموسيقي البارز، الجالسين هناك على كراسي مطبخ بسيطة ويخوضون النقاش مع رجلين من ذوي البشرة الداكنة، صحيح أنهما بلا لحية ولا سيجار، لكنهما كوبيّان بما لا يدع مجالاً للشكّ. يمكن أيضاً رؤية رجال متلصّصين في كلّ مكان، حاملين تحت أذرعهم الأدبيات اليسارية المتطرّفة، التحريضية، الباعثة على الاطمئنان، ولكنّ تسريحات شعورهم وملامح وجوههم تشي بما هو مختلف: مخبرين، عناصر الأمن الداخلي، جواسيس الرجعيين المناهضين للتغيير. امتلأت الممرّات أيضاً في آخر الأمر بأناس راقيين بنصفهم بعضهم فوق بعض، وبدأت الحلاوة الميتافيزيقية لدخان الحشيش تنتشر بصورة تدريجية.

افتتح الأمسية زعيمُ الطلاب المشهور بارت بورك، وهو عالم اجتماع، أذان الإمبريالية الأميركية واستحثّ الناس على النشاط. بينما يتحدّث، كان جفناه السفليان مرفوعين بطريقة مترصّدة، غريبة، إلى حدّقيه، ما يُحدث انطباعاً بالتهديد إلى حدّ ما، ولكنّ الجميع تقبّل هذا الأمر. لأنّ ذلك التهديد موجه حصراً لأعداء الشعب. تحدّث فترة أطول من اللازم، مثلما يفعل الجميع تقريباً على الدوام، لكنّه كوفى بالتصفيق - بعد ذلك عزفت فرقة موسيقية معزوفة تشارلز آيفز، ثم بثّ الحماس في الجمهور بألحان هانس آيسلر العسكرية، فاستفاق، مثل جميلة نائمة، من نوم أربعين سنة، بقبلة من روح العصر.

بعدئذٍ ظهر ضيفٌ من برلين خلف المنصة الخطابية، رودى دوتشكه^(*) شخصياً، فبوشر

(*) Rudi Dutschke (1940-1979): عالم اجتماع وناشط سياسي ألماني، أسهم في الكثير من الاحتجاجات والمظاهرات التي تدين الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي الدكتاتوري. [م]

العزف على وتر آخر. هو في نحو السابعة والعشرين، قصير القامة، مرهف القوام، ولكن مثلما تنغرس مرسةً في قاع البحر، سيطرت النظرة الحماسية المتجلية في عينيه الدكناوين على الصالة بأكملها في الحال. اتخذت سيّدة ممثلة الجسم في منتصف العمر، من جيل والدته، مكانها إلى جانبه، أمام ميكروفون آخر، وأخذت تتفرّس فيه. بدأ يتحدث بصوت خشن، بشكلٍ متقطع، وارتجالي، يتوقّف بعد كلّ بضع جمل في انتظار الترجمة بنفاد صبر واضح: بدا عليه أنه يبذل من الجهد في كبح أفكاره أكثر مما يبذله في صياغتها. استعرض بهياج نظري لا يعرفه الهولنديون العمليون، وباقتباسات من ماركيز، وروزا لكسمبورغ، وبلخانوف، أنّ التغيير الاجتماعي الجذري، الذي لا تريده الجماهير من الناحية الشخصية، يصبح ضرورة ملحة بصورة متزايدة من الناحية الموضوعية. الطبقة العاملة الرأسمالية الظاهرة مؤخراً، التي لا تزال تتعرّض للاستغلال إلى درجة فقدان هويّتها، استكانت دون وعي منها في رفاهيتها النسبية وفي الهياكل الديمقراطية الرسمية، التي تعمل حصراً على إخفاء الطبيعة العنيفة للإمبريالية. إذاً، كيف ينبغي للمعارضة الناشطة خارج نطاق البرلمان المؤلفة من الطلاب والمثقفين في المدن الكبرى - التي لا تشارك في عملية الإنتاج على كلّ حال - أن تخرج من عزلتها وتخلق قاعدتها الجماهيرية الضرورية؟ سأل هذا بإيماءة بديعة من يده الرهيفة الصغيرة، فقلّدت المترجمة هذه الإيماءة أيضاً بيدها المزينة بالخاتم. إنها موجودة حصراً في العالم الثالث. هناك حصراً توجد البروليتاريا الجديدة، التي لم يشوّهها الوعي الزائف - وفقط من خلال التضامن مع حركات التحرّر في آسيا، وإفريقيا، وأميركا اللاتينية، وباستخدام المذبحة الجماعية الحالية في فيتنام كعامل مساعد، يمكن أن تنشأ حركة عملية كشكل من أشكال الرفض الجذري للرأسمالية العالمية، ما يمكن أن يكون في الوقت نفسه بداية لأنثروبولوجيا جديدة، يمكن من خلالها أيضاً منع تحريف الثورة عن مسارها في الاتحاد السوفييتي ومن يدور في فلكه، حيث تدهورت دكتاتورية الطبقة العاملة في بداية الأمر إلى دكتاتورية الحزب البلشفي، ثم إلى دكتاتورية أجهزة الدولة البيروقراطية، ثم في نهاية المطاف إلى دكتاتورية الرجل الواحد، ستالين، بما يرافق ذلك من قمع، ووحشية، وتعذيب، وبطش؛ هذا كلّه كشكل من أشكال توضيح الاختلاف - الذي عالجه ماركس في المخطوطات الفلسفية والاقتصادية - بين الشيوعية الاستبدادية والشيوعية الديمقراطية.

كان يتكلّم بسرعة لم تستطع المترجمة مواكبتها، فلم يعد بمقدورها سوى التلعثم بشيء عن «تحريف» و«ستالين»، ولكن مع ذلك فهمت الجماهير ما قاله. صفّقوا وهتفوا له بقوة،

لكنّه لم يعرب عن شكره حتى بإيماءة من رأسه، نزل عن المنصة لينضم إلى رفاقه الجالسين في الصفّ الأمامي - وفجأة وقعت حادثة. سارت بسرعة شديدة لم يتمكّن معها ماكس ولا أونو من متابعتها. اختفى المُنظّر الألماني عن الأنظار بصورة مفاجئة، فقد طرحه رجلٌ أرضاً وهو يصرخ ويركل، أسرع آخرون إليه وقامت الصالة على قدميها. في هذه الضوضاء صاح أحدهم بأنه يعرف هذا الرجل، فاشيئ سيئ السمعة من المنطقة الغربية في أمستردام، شوهد يوم الأمس عند الحدود البلجيكية، ولكنّ أحداً آخر صاح بأنه عضو في الحزب الشيوعي من الإقليم الشرقي في مقاطعة خرونيغن.

قال أونو برصانة: «إذا كان لديك عدوّان من هذا النوع، فلا بدّ أنك صائب تمام الصواب». سرحت أفكار ماكس إلى آدا، التي توشك على تقديم عرضها الموسيقي. خطر في باله أن يذهب إلى خلف الستارة ويقترح أن يُبادل الثنائي مع الفرقة الموسيقية التي ستقدّم العرض في آخر السهرة، ولكن في تلك اللحظة بدأ عمّال المسرح بسحب بيانو كبير إلى المنصة ووضع مقعد وحامل كراريس موسيقية. بينما يُساق المهاجم، بذراعيه الملتوين على ظهره بشكل مؤلم، وهو لا يزال يشتم بأعلى صوته، نحو باب جانبي، ظهر برونو وآدا بالتشيلو الخاص بها. كان لهذا المشهد تأثيرٌ مهذئ على الفور، فجلس الحضور جميعهم، هذا إن لم يكونوا مضطربين للوقوف على الأقل؛ تبين أنّ الضيف المتحدث تعرّض لإصابة طفيفة من حسن الحظ، فقد بقي في الصالة. أخذت آدا، الظاهرة الآن في بنطال جينز وقميص أبيض من خزانة ملابس ماكس، التشيلو بين ساقيه ورّبت الكراسية الموسيقية - وضعت القوس على الأوتار، نظرت إلى برونو، ورفعت رأسها علامة البدء...

ياناتشيك. ما إن سمع ماكس النغمات الأولى حتى أحسّ بحدوث شرخ في هذه الأمور السياسية والمؤقّته كلها، ظهر من خلاله شيء أبديّ للعيان - كما لو أنه يدور في كهف أفلاطون. أونو محقّ في رأيه عن الموسيقا: إنها ليست من هذا العالم؛ وفكر في ما يفكر فيه الناشط الألماني، الذي كملت له الركلات والضربات للتوّ، ربما في كلمات لينين: «أنا أيضاً أريد التأثير بالسوناتا العاطفية»^(٥)، ولكنّ هذا ليس وقت التأثير بالسوناتا العاطفية، إنما وقت قطع الرؤوس. يبدو أنّ الموسيقا -ربّما ليست موسيقا آيسلر، بل موسيقا شوبرت أو ياناتشيك- هي صوت الرجعية الأشد سواداً، العدوّ اللدود للإنسانية التقدّمية، عدوّ الشعب

(٥) تُعرف أيضاً بـ«أباسيوناتا»، وهي سوناتا البيانو الثالثة والعشرين لبيتهوفن. [م]

الأول. استمعت الصالة، التي كانت في هياج عنيف قبل قليل، مثل أيّ جمهور معتاد على حضور الحفلات الموسيقية. لا ريب أنّ كثيرين منهم يسمعون مثل هذه الموسيقى لأوّل مرة في حياتهم: بينما في البيت يُغيّرون من فورهم المحطة الإذاعية التي تبثّ مثل هذه الموسيقى المملّة ليستمعوا إلى شيء ممتع، يتلقّون الآن الفروسية الفنية.

نظر ماكس بافتخار إلى آدا وهي تنحني وتعود إلى الظهور مرة أخرى مع برونو بعد هتافات الجمهور.

قال له أونو: «اعتني بهذه الفتاة جيّداً، إنك لا تستحقّها إطلاقاً!».

رأى ماكس أنّ هذا ينطوي على شيء من الصحة. طوال المساء بقيت عيناه تزيفان إلى مؤخّرة رأس في الصف الثالث، ذي شعر أحمر متفّش معقوص؛ يبدو أنّ المرأة صاحبة الشعر أحسّت بهذا الأمر، فقد أخذت تنظر إلى جانب بين حين وآخر، ليس إليه مباشرة، ولكن على نحو يصبح هو في حافة مجال رؤيتها، فقد رأى أنّها لا تنظر إلى ما تراه، بل ترى ما لا تنظر إليه: تراه هو. لم يعد باليد حيلة. كان يجب أن يحدث، سواء أراد ذلك أم لم يُرد.

اختفى البيانو الكبير وحامل الكراريس الموسيقية، وعُقد المتدى خلف طاولة طويلة. تكوّن من النخبة اليسارية في لجنة كوبا، والكاتب، ولاعب الشطرنج، والمؤلف الموسيقي، إضافة إلى سيّدة مسنّة يبدو أنّها ذات مكانة مرموقة، عملت ممرّضة عند الحُمر أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، ولم تستردّ جنسيتها الهولندية بعد. كان رئيس المتدى صحافياً وناشراً يحظى باحترام عامّ، ترك سنوات الشباب وراء ظهره، كان فوضوياً في الماضي ولا يزال حتى الوقت الحالي. أدلى كلّ منهم بتصريح قصير، أعقب ذلك نقاش عن المواضيع التي عالجها الألماني الشرس بإسهاب في الواقع. لفتت السيّدة المسنّة الانتباه إلى أنّ الاهتمام الرئيسي للصناعات الدوائية في الاقتصاد الرأسمالي ينصبّ على عدم شفاء المرضى، ومن الواضح وجود عواقب لهذا على نوعية الأدوية ومن ثم على الصحة العامة - ما حدا بالمؤلف الموسيقي أن يرفع يديه فوق رأسه ويشني على الطبّ الصيني الذي يستطيع، تحت القيادة الملهمة للرئيس ماو، الاستغناء عن التخدير حتى في العمليات الجراحية المعقّدة.

في تلك اللحظة لم يعد أونو يستطيع التحكّم في نفسه، فصاح: «أيها المجنون الهيستيري! ستصبح في ظرف عشر سنوات يمينياً مثل جنرال أميركي!».

أجاب المؤلف الموسيقي ضاحكاً: «أعارضك في الرأي».

فنهض أونو وأعلن بوقار: «لا أريد أن يعارضني أحدٌ في الرأي، أريد أن يطرحني أرضاً». بدأ الجوّ يحمى. اضطر الكاتب أيضاً لتحمل مقاطعة، فعندما أعرب عن قلقه، ليس بكثير من الاقتناع، بأنّ العمّال تخلّوا عن المثقّفين، صاح أحدهم: «اغرب من هنا يا رجل! اذهب لقطع قصب السكر في كوبا!».

- لقد قطعْتُ قصب السكر في كوبا.

- نعم، لجزء من الثانية - أمام المصوّر.

استند الكاتب إلى ظهر الكرسي بابتسامة متعالية، ولزم الصمت.

قال ماكس: «يا له من سافل!».

أحنى أونو رأسه بالإيجاب: «أنت تشبهه قليلاً».

في تلك اللحظة وقف شخصٌ في الصالة وقال بصوتٍ مدوّ: «أنا عامل!».

التفتت الرؤوس كلّها في اتجاهه. فعلاً. إنّهُ يقف هناك. لم يكن هناك أيُّ مجالٍ للشكّ: إنه عامل. في الصناعات الثقيلة على الأرجح. أفران الصهر. يعتمر قبعة بيريه بسويقة صغيرة في قمتها، وجهه مجعّد مُستنزَف من الاستغلال، يده مفتوحتان قليلاً بجانب ردفه، جاهز للقيام بأيّ عمل شاقّ. تعالى التصفيق من هنا وهناك؛ انحنت السيّدة المسنّة على ميكروفونها ودعته لأخذ مكان خلف الطاولة. حاول رئيس المتدّي أن يحول دون ذلك، ولكنّ العامل كان في الطريق إليها، رافعاً ذقنه، ناضحاً باحتقار عميق لكل من ليس عاملاً.

قال أونو: «إنه مجنون، سترى ذلك في الحال. لم يقم بأيّ عمل في حياته كلّها».

علم كلّ الذين لديهم خبرة أنّ الأمسية ستخرج عن السيطرة. لم يتفضّل العامل بالقاء نظرة على أيّ عضو من أعضاء المتدّي؛ سحب ميكروفون السيّدة المسنّة إلى أمامه، وبدأ يشرح بنظرة جامدة أنّ اليسوعيين قد شيّدوا شبكة من الأنفاق تحت الأرض، تحت الشوارع والساحات في أمستردام، ليشنّوا منها هجوماً ضارياً ذات يوم. كتب ما لا يحصى من الرسائل عن هذا الأمر إلى المجلس البلدي، إلى الحكومة، إلى الملكة، إلى الأمم المتحدة، ولكن لم...

قاطعه رئيس المتدّي: «أشكرك على خطابك الواضح. والآن دعونا نتحدّث عن موضوع مختلف تماماً: الهجوم الأخير الذي قامت به إسرائيل على...».

فقال العامل، حتى دون إدارة رأسه إليه: «أغلِق فمك، عندما أتحدّث!».

بينما ينظر أعضاء المنتدى بعضهم إلى بعض في ذهول، ويزداد الجمهور ابتهاجاً وتحمساً، تابع برباطة جأش: «ليست مصادفة أن يكون جنرال اليسوعيين هولندياً، وأن يكون مقره الرئيسي في إسبانيا، التي صارت منذ حرب الثمانين عاماً^(*) ومحاكم التفتيش...».

نهض واحداً آخر في الصلاة وهتف: «كُفَّ عن هذا الهراء يا رجل!».

هذا الرجل كان البرهان على أن اللحم الكثير أيضاً يستطيع المساهمة في الهيمنة الثقافية، فقد سكت حتى العامل نفسه.

التفت الرجل الأصلع، مفرط الوزن، وهو صاحب مطعم مشهور، بذراعين ممدودتين إلى الجمهور، الذي بث فيه الحماس بالهتاف.

- ما لنا بهذه الترهات؟ الجميع يعلم أن أمستردام هي القدس الثانية، باركتها الأخلاقيات البايوجيومترية الفائقة المشدّبة التي جاء بها دانتى، وغوته، والملكة إستير مع خاصتها من الأسينيين الستة والثلاثين والصدوقيين^(**) الستة والثلاثين، وباركتها رياضيات العالم الفياغورسي المسيحي الجديدة والمُجدّدة كلّ شيء، الرياضيات البدائية الخاصة بالحكمة في عالم ما قبل التاريخ، باعتبارها تفسير العهد القديم والعهد الجديد، أي التشريعات اليهودية الجديدة في التناغم بين الأعداد الأولية والأعداد الأولية التوهم لموسى، وداود، وسليمان - الجديد في الجبر الحيوي، الهندسة الحيوية، السكونيات الحيوية لويليام الأول، سبينوزا، إيراسموس، سيمون ستيفن، كريستيان هوغنس، ديكارت، ورمبرانت، والرياضيات البصرية الجديدة الخاصة بتيلار دي شاردان، موندريان، شتاينر، توما الأكويني، ميرسين، فيرما، أرسطو، نقولاس الكوزاني، فتغنشتاين، وينرب...

لكنّه لم يُمنح فرصة لإكمال قائمته: في الجهة الخلفية من الصلاة فُتح بابٌ بصورة مفاجئة واندفع إلى الداخل الرجل الذي هاجم قبل قليل. صرخ وهو ينظر حوله بهيئة متوحّشة: «أين ذلك الألماني القذر؟ أعطوني إياه لأقضي عليه بركلة واحدة!».

تجاوز بهذا حدّاً حرجاً بصورة مفاجئة: انقلبت الصلاة على ظهرها وغرقت في ضحك

(*) الحرب التي خاضتها هولندا ضد السيطرة الإسبانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. [م]

(**) إستير هي ملكة يهودية وزوجة الملك الفارسي خشايارشا الأول.

الأسينيون: طائفة يهودية كانت موجودة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، وقد عاشت في تجمّعات تميل إلى الزهد والفقر والطهارة.

الصدوقيون: هم الصالحون في الديانة اليهودية. [م]

صاحب. عقد رئيس المنتدى ذراعيه على صدره، استند إلى ظهر كرسيه، وأخذ ينظر باستسلام إلى الهرج والمرج.

استأنف العامل تصريحاته من دون تأثر: «ليست مصادفة أن تزوّجت الأميرة إيرينا في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، قبل ثلاث سنوات، من متسلّق فرنسي يريد أن يصبح ملك إسبانيا».

وهتف صاحب المطعم: «أغسطينوس! آينشتاين! إقليدس!».

- أعطوني ذلك الوغد! كي أقطع رأسه!

- الأميرة بياتريكس يجب أن تصبح ملكة إسرائيل!

- فكرة جيّدة! جمهورية! جمهورية!

بعد برهة قصيرة، تبيّن أنّ إدارة الحفل قد خطرت لها فكرة رائعة، فقد ظهر الموسيقيون من خلف الستائر على طرفي الصالة بالسكسفونات، والأبواق، والكلارينيتات، والباسونات، والتوبات - يعزفون لحناً شرقياً غريباً من نوعه، عالياً لكنّه بطيء، بينما في الوقت نفسه يظهر رجل في القسم الخلفي من الصالة، في الممرّ الفاصل بين المقاعد، ويسير بخروف نحو المنصة.

- خروف! خروف!

لم يكن القصد واضحاً من هذا، لعلّه شيء يشير إلى قربان رمزي، ولكنّ الصدمة كانت كبيرة - و'حلّ ماكس هو الوحيد الذي طفرت الدموع إلى عينيه عند رؤية ذلك الحيوان المرتعب المدبذب بقوائمه، الخطورة التي لا يُسبر غورها، والألفة التي تربطه بالفلاح الذي يسوقه والذي يعلم ربما أنّ الحيوان على وشك الموت من الصدمة.

10. الفجر

في ازدحام ما بعد الختام، انتهز ماكس فرصة على جناح السرعة لتحديد موعد مع صاحبة الشعر الأحمر من الصف الثالث، ذهب بعدئذٍ إلى حجرة الفنانين الواقعة خلف المسرح. ثمة شخصيات عامة أخرى قد تمكنت أيضاً من الوصول إلى هناك. بجانب البار يقف رجلٌ شابٌ، أشقر الشعر، طويل القامة، في معطفٍ واقٍ من المطر ومعه مظلة: «صانع المطر» في حركة البروفو السابقة، الذي ينظّم هطول المطر بعضاً سحرية عندما يكون بمقدور هذا الأمر عرقلة الشرطة؛ كان يستمع ضاحكاً إلى صبيٍّ شاحبٍ بعُصاة على جبينه: لقد ثقب فجوة في جمجمته بمثقب طيبب أسنان ليبقى بفضل هذا اليافوخ الجديد، حسبما يصرّح في المقابلات، في مزاج عالٍ مثل طفلٍ رضيع.

كان الكاتب ييدي ملاحظات وهو لا يزال يفاق بالضحك. بينما يعبر ماكس، سمعه يقول للاعب الشطرنج إنهم سيتذكّرون هذا الوقت بين حينٍ وآخر؛ ولكنّ الأستاذ الكبير منحني شارد الذهن على لعبة شطرنج خاصة بالجيب، لعلّه يمعن النظر في أسلوب مغاير يستطيع استخدامه في مباراته القادمة مع سميلوف، في بالمادي ميوركا.

كانت آدا جالسة إلى طاولة مستديرة كبيرة مع برونو، وبضعة موسيقيين آخرين، والمؤلف الموسيقي من الممتدى، وزعيم الطلاب بارت بورك، وأونو. طبع قبة على خدّها وجلس إلى جانبها على الكرسي نفسه. قال: «تهانينا! كنتما الوحيدين اللذين أشعلا المسرح حقاً. هل أنت متعبة؟».

- متعبة جداً. لا أريد البقاء طويلاً.

رفع ماكس يده لبرونو، فأوماً له الأخير بوجهٍ خالٍ من التعبير. سبق أن التقيا عدّة مرّات، ولكن دون أن يتبادلا الحديث.

أخذ أونو يوضح للمؤلف الموسيقي لماذا سيصبح يمينياً مثل جنرال أميركي في غضون عشر سنوات، مثل ريشارد فاغنر ثانياً، ويعانق كنيسة الأم المقدسة على فراش الموت، مثل الماويين جميعهم، لأن هذا ما يبحث عنه في الواقع: الأب القدوس.

- الرفيق أرنب بالنسبة إليك مجرد وسيلة للوصول إلى غاية.

- الرفيق أرنب؟

- هذا ما يعنيه «ماو» باللغة الصينية. ولكنّ عزاءك هو أنه اسم برج فلكي أيضاً. من ناحية أخرى، سأصبح رئيس الجمهورية الشعبية الهولندية بعد الثورة، وسأقوم في هذا المنصب بزيارة رسمية إلى بكين.

أخذ بورك ينظر إليه من زاوية عينه وقد أحنى رأسه إلى الأمام إحناء خفيفة، فقال ببطء: «بعد الثورة، ستصبح بائع خردوات يللم ملقيات البحر من شاطئ أميلاند^(*)».

بادله أونو النظر مصعوقاً. هذا شخصٌ يعني ما يقول. شعر بهذه الملاحظة تترسّب في كيانه، مثل مسدّسٍ ملقى في قناة مائية ينزل عبر المياه العكرة باتجاه الوحل. هل تسير الأمور بهذا الاتجاه؟ تصوّر لو استلم بارت بورك زمام الحكم! وإذا لم تجر الرياح بما تشتهي السفن، الأمر الذي سيحدث على الأرجح، حسب معرفته بهولندا، ما الذي يمكن أن يفعله الأشخاص من شاكلته؟ كيف سيتعاملون مع الموقف؟ الآن يُحملون على أكفّ النوايا الحسنة المرححة الجماعية - ولكن إذا اختفى هذا ووجدوا أنفسهم بمفردهم فجأة؟ ما الذي سيفعلونه في إحباطهم؟ هل سيتحوّلون إلى إرهابيين؟ لقد تملكه الذعر. أليس عليه، والحال هذه، أن ينخرط في السياسة ويعمل شيئاً حيال هذا الأمر؟

- أونو، هل لك أن تساعدنا؟

كان ماكس وآدا وبرونو قد نهضوا عن مجلسهم ويتكلّمون مع أحد الكوبيين الاثنين. غيرّ الكوبي بارتياح من الإنكليزية الأميركية، التي يتحدّثها بصعوبة، إلى الإسبانية، أو بالأحرى إلى لهجة أميركا اللاتينية المهلهلة في شكلها الكوبي. لقد تأثر بالثنائي بالغ التأثير ويريد عنوان نقابة الموسيقيين الهولندية؛ يمكن أن تحدث فرصة مناسبة لدعوتهما، ولكنّ الكومباينيرا لا تريد إعطائه سوى عنوانها الخاص. غريزته السلطوية قد دفعته على ما يبدو لأن يخاطب آدا

(*) جزيرة في مقاطعة فريزلاند الهولندية. [م]

وليس برونو. شرحت آدا عن طريق أونو أنها لا تمت بأي صلة إلى مثل هذه المؤسسة، فالحياة الموسيقية لا تُنظَّم على هذه النحو في هولندا، فأخذ الكوبيّ يدوّن اسمها وعنوانها بشيء من الاستغراب.

قال ماكس عندما اختفى الرجل من أمامهم: «سيكون ذلك جميلاً».

قال برونو: «أعرف هذا النوع من الناس. لن تسمعي منه أي شيء. لم يُرد سوى استعراض عضلاته».

سألت آدا: «أتظن حقاً أننا سنتلقى دعوة للذهاب إلى كوبا؟ هناك الآلاف من الشائيات أفضل منا».

- لكنّ هذه الآلاف لا تقدّم عروضاً في الفعاليات اليسارية.

- سأرى ما يحدث، لا أريد التفكير في هذا إطلاقاً. هل تمانع أن نذهب إلى البيت؟

كانت الكراسي توضع على الطاولات، والجميع يستعدّون للمغادرة. قال برونو إنه يريد إكمال السهرة في المدينة: يريد حضور حفلة موسيقية لفرقة غجرية.

نظرت آدا إلى ماكس: «أرى على وجهك أنك ترغب في مرافقته. اذهب بأريحية. سأذهب للنوم على كلّ حال».

قال أونو بتذمّر صبيّ صغير، رافعاً سبّابته في الهواء: «هل يمكنني الذهاب أيضاً، هل يمكنني الذهاب أيضاً؟».

قال ماكس: «نعم يا حبيبي، يمكنك الذهاب أيضاً».

صاح أونو: «أوه! هل فقدت صوابك؟».

أعطى ماكس آدا مفتاح البيت، وقال وهو يتفرّس في وجهها: «اصعدي الدرجات الأمامية وعدّي إلى أربعة. ستجدين في أقصى اليمين نصف قرميد مفكوك. ارفعيه، ضعي المفتاح تحته ثم أعيدي القرميد إلى مكانه».

*

الفرقة الغجرية تعزف في خمّارة مظلمة خلف ساحة رمبرانت. تبين أنّ برونو يعرف العازفين. ألقى التحية على قائد الفرقة السائر بين الجمهور وفي أعقابها عازف كمان ثانٍ، ولوّح بيده لعازف الصنج وعازف غيتار البيس في الزاوية. رفع عازف الكمان الثاني آتبه الموسيقى

في الهواء بهيئة متسائلة، فأخذ برونو الآلة منه وكشف عن موهبته كعازف كمانٍ أنيق، ليست لديه أي مشكلة مع تشارداش^(*) ولا حتى مع الهتاف بـ «هوب هوب!».

ما إن سمع ماكس النغمات حتى ذاب شيءٌ في كيانه. لا أحد يحتاج لأن يخبره عن حالة هذه الموسيقى وعلاقتها بمعزوفة الهروب العظيم^(**) على سبيل المثال: هذا ما تعبر عنه هذه القمصان البرّاقة بأكامها الفضفاضة. ولكن في الوقت نفسه يكمن شيء فيها، لا يسمعه في موسيقا بيتهوفن ولا في موسيقا باخ، شيء يستشعره على البيانو الكبير في البيت عندما يعزف المقام العجري، المتوافق مع النغمة الرابعة الجمهورية: النشيج العجري اليهودي المنحدر من أوروبا الوسطى، الذي يصيبه بالعجز وقلة الحيلة.

كانت أغنية بطيئة تُعزف في تلك اللحظة، انحنى قائد الفرقة عليه وعلى أونو عند طاولتهما، باعتبارهما صديقَي صديقه. إنه يبلغ نحو الخمسين من العمر؛ له وجهٌ لحيم كبير بشكلٍ غير عادي، جفناه العلويان سميكان ومثقلان بالحزن، يبدوان مثل درفتين، فيكاد لا يستطيع رفعهما من فوق الحدقتين. سالفاه الأسودان ناميان من أذنيه حتى فكّه السفلي: طراز كان يُسمّى في أيام دراسة ماكس بـ «دعائم المضاجعة»، نظراً لأنّ النساء يستطعن التشبّث بهما أثناء نشاطهن الحميم. أونو، الذي لم يكن يسمع الموسيقى بقدر ما يسمع التهديد مراراً وتكراراً بأنه سيصبح بائع خردوات، تحوّل عنه في خجل وأشعل سيجارة - أما ماكس، الذي بقي يبادل النظر مع عازف الكمان، فقد حضرته ذكرى والده بصورة مفاجئة.

لقد استمع هو أيضاً إلى هذه الموسيقى، في عرض مباشر، في المناطق الهنغارية النمساوية، فيينا، براغ، بودابست، عندما لم يكن قد سمع عن هولندا سوى بشكلٍ غامض، حاله حال ابنه الآن عن آيسلندا: رقعة بعيدة، ألتима ثولي^(***)، يرغب في قضاء بضعة أيام فيها إذا ما وافته فرصة مناسبة. استمع إلى والد عازف الكمان هذا، عام 1914، في أحد مقاهي هنغاريا، جالساً في بدلته الهابسبورغية العسكرية، كستنائية اللون ضيقة الخصرة، مزينةً بسيفه المزخرف، على كلّ من ذراعيه صديقةٌ جريئة، وعلى الطاولة زجاجةٌ من نبيذ توكاج، تتجوّل أفكاره على جناح السرعة في الدائرة السحرية الكثيبة، ولا تستطيع التحرّر منها، بينما في هذه الأثناء تعلن

[*] Csárdás: نوع من الرقص الشعبي الهنغاري. [م]

[**] بالألمانية «Große Fuge»: معزوفة من تأليف بيتهوفن، يؤدّيها أربعة من عازفي الآلات الوترية. [م]

[***] جزيرة يقال إنها تقع في أبعد مكان في أقصى شمال الأرض، ذُكرت في الأدب اليوناني والروماني القديم وفي رسم الخرائط، ويقول الكثيرون إنها ربّما لم توجد على الإطلاق. [م]

النمسا الحرب على صربيا - «يجب أن يموت الصربيون!» - وتذهب أم ابنه لأول مرة إلى المدرسة في بروكسل...

عندما انتهت الأغنية، طلب ماكس زجاجة من النبيذ الأبيض للفرقة، وسأل برونو أي لغة يتحدثها قائدها، فهو يريد قول شيء له.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أجاب برونو إنه لا يعرف سوى بضع كلمات ألمانية.

- أونو؟

- لكن لا تظن أنني أتقن الخمسة والستين ألف لهجة التي يتحدثها هؤلاء الناس.

حاول باللغة الهنغارية، ولكن محاولته باءت بالفشل، فغير إلى لغة أخرى، فتألق وجه عازف الكمان بابتسامة عريضة. وضع يده على كتف أونو والتفت قائلاً شيئاً باللغة نفسها لأصدقائه، الذين هتفوا: «برافو!» و«هوب هوب!».

سأله ماكس: «بأي لغة تحدثت؟».

- لا أعلم. أعتقد بنوع من الصربية الكرواتية. إنه يفهمها على كل حال. ماذا أردت أن تقول له؟

قال ماكس بسرعة إملائية: «قل له إنني أعتبر الغجر قديسين، لأنهم الشعب الوحيد على وجه الأرض الذي لم يخض حروباً على الإطلاق».

فعل أونو ما طُلب منه فاخفت الابتسامة من الوجه الكبير.

- أهذا كل شيء؟

- لا. قل له: لأنهم هم وحدهم ليسوا قتلة، ينظر الجميع إليهم على أنهم لصوص، أما نحن فقد سرقنا منهم حتى موتهم.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنهم أعدموا بالغاز وأيدوا عن بكرة أبيهم مثل اليهود، ولكن الناس يموتون هذه الحقيقة ليستطيعوا الاستمرار في انتقادهم، حتى في هولندا.

- أنت واثق أن عليّ قول هذا؟

- نعم.

كان التأثير ساحقاً. بقي عازف الكمان ينظر إلى ماكس بآلته الموسيقية تحت ذراعه، بينما

تمتلئ عيناه بالدموع. التفت إلى الورااء وصاح بشيء للآخرين بصوتٍ مخنوق، ترجمه أونو على النحو التالي: «روما! اجتمعوا!!».

توافد عازف غيتار البيس أيضاً، وعازف الصنج بالكتبه أيضاً، فاضطرّ الضيوف إلى النهوض وإزاحة الطاومات إلى جانب؛ أخذ عازف الكمان الثاني آلتة الموسيقى من برونو. وما لبث عازفو الفرقة أن تجمّعوا في نصف دائرة حول ماكس، وأخذوا يعزفون له ويغنّون - بلغتهم الخاصة، مثلما ظنّ أونو: نوع من لهجة هندية جديدة من اللغة الهندية، حسبما يسمع، بكلمات دخيلة من الإيرانية، الأرمنية، اليونانية، السلافية الجنوبية والسماء تدري ممّاذا أيضاً.

يمكن للناس أن يطوّقوا شخصاً جالساً على كرسي ويحطّموه بالتهديدات، بالصفعات، بالكهرباء، أما هنا فيوجد شخصٌ يُكسر بالامتنان الآخذ شكل موسيقا. بكى ماكس، للمرّة الثانية في تلك الليلة. نظر بإيماءة اعتذار إلى أونو، الذي رأى أنّ هؤلاء الموسيقيين يدفعونه بلا رحمة إلى أصوله، دون أن يكونوا على وعي بما يفعلونه. ما يحدث شيءٌ غريب على أونو، إنه خزيٌ موسيقي، ويُفضّل إنهاؤه في الحال، ولكنّ هذا شيءٌ مستبعد بطبيعة الحال. من ناحية أخرى، أخذ هيامه بماكس أبعداً متعاطمة. أيّ نوع من الرجال، هذا الذي يستطيع ببضع كلمات تحويل عصبه من العازفين المبتذلين في شارع خلفي إلى فرقة كورالية تحيي ذكرى الموتى في قدّاس مهيب^(*)؟ نظر إلى برونو ورأى على وجهه تعبيراً يقول: إنه يستحقّ آدا.

بعد الانتهاء من هذا الابتهاال، رفع ماكس يديه في إيماءة شكر شعائرية. انسحب العازفون، ارتشف رشفةً من عصير البرتقال وقال مُرلزل الكيان: «أعدم والدي في مثل هذا اليوم، قبل إحدى وعشرين سنة تحديداً».

عندما سمع برونو ذلك، نهض عن مقعده وانصرف. كان أونو يهّم برفع كأسه إلى فمه، لكنّه أعادها إلى الطاولة. هذا هو السبب. لقد أصابه الغجر في الصميم. يجب عليه الآن المناورة بحذر شديد، لكنّه لم يتمالك نفسه عن السؤال: «هل أشعلت له شمعة؟».

- تذكّرتُ ذلك للتوّ.

- هل تذكّر اللحظة التي سمعت فيها الخبر؟

- ليس كثيراً. كنت في الثانية عشرة. لا أعتقد أنه أحدث تأثيراً كبيراً في نفسي. رأيت آخر مرّة عندما كنت في السادسة من عمري.

(*) يستخدم الكاتب الاسم اللاتيني «*missa solemnis*»، وهو الشكل الاحتفالي الكامل للقدّاس. [م]

أحني أونو رأسه. ماذا الآن؟ لقد بدأ ماكس بالحديث عنه - لا ينبغي أن يتركه وحده في هذا الوضع.

- هل حدث أن بحثت في الجرائد الصادرة في تلك الأيام؟ هل تعمقت في محاكمته؟
- لم يخطر في بالي قط. أكاد لا أعرف أي شيء عنه، حتى إنني لا أعرف أين وُلد ولا في أي يوم. لطالما شعرت بأنني لا أستطيع التسبب في ألم أمي بالاهتمام بأبي.

واستغرق في التفكير وهو ينظر إلى قائد الفرقة الموسيقية، الذي عاد يسير في هذه الأثناء بين الطاولات، ينحني أثناء عزفه على الكمان فوق السيدات ويرسل نظرات عميقة في ياقاتهن المفتوحة، بينما يطوي السادة، الذين يعرفون الأصول، الأوراق المالية بالطول ويحشرونها مثل بطاقات انتخابية في كمّيه الفضفاضين. كان برونو قد جلس بجانب عازف الصنج.

- هل سبق أن لفت انتباهك أنّ الناس غالباً يعرفون الكثير عن الأشياء التي لا يمتّون بصلة إليها، ولكن القليل عن الأشياء التي يمتّون بصلة وثيقة إليها؟ الناس الذين قبعوا في معسكرات الاعتقال، لا يعرفون شيئاً عن تركيبة مكتب الأمن الرئيسي للرايخ بقيادة هيملر، لكنني أعرفها بأدق التفاصيل، أستطيع رسمها بسهولة. لكن ليست لدي أي فكرة، كيف يُنتخب مجلس الشيوخ عندنا.

- سأشرح لك ذلك ذات مرّة.

- طبعاً. لكنك أخذت هذا الشيء بالوراثة.

- كلام صحيح. أنت لست كذلك بطبيعة الحال.

- أنت تعرف كل شيء عن اللغات، ولكن ما صلتك بها؟ أعرف كل شيء عن النجوم، ولكن ما صلتني بها؟

- مهلاً. أنت لا تبلغ من السذاجة حدّ الاعتقاد بأنك تمتّ بصلة إلى مجلس الشيوخ أكثر ممّا تمتّ إلى مكتب الأمن الرئيسي للرايخ، أليس كذلك؟

لزم ماكس الصمت. أصابه الحديث بمزيد من التشوّش. قبل خمس سنوات كان يتابع محاكمة أيخمان في إسرائيل يوماً بيوم: ذلك الرجل بوجهه غير المتناسق في قفصه الزجاجي، مثل دمية ميكانيكية في حكاية من حكايات إرنست هوفمان؛ لقد قرأ دزينة من فيض الكتب التي صدرت عن النازية حينذاك، فكّر أثناء القراءة في والده بطبيعة الحال، وفي محاكمته أيضاً؛ ولكن لم يخطر حتى في باله أنّ هناك جرائد متبقّية من عام 1946. افترض بطريقة أو

بأخرى أنّ كلّ ذلك قد اختفى في الماضي، سحقه الزمن. حتى إنه كان يعرف عن محاكمة ليوبولد ولويب^(*) أكثر مما يعرف عن محاكمة والده. ولكن طبعاً لا يزال كلّ شيء موجوداً! رفع عينيه.

- هل أقول لك شيئاً؟ أريد رؤيتها غداً. يجب أن يحدث هذا الأمر ذات مرة. إنهم طبعاً لا يزالون يحتفظون بتلك الجرائد القديمة كلّها في معهد الصحافة. ليتك تذهب معي! ففكر أونو لحظة: «لعلنا نستطيع التعامل مع الموضوع بشكلٍ أعمق. أعتقد أن ملفّه موجود في المعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب. ما رأيك أن نذهب إلى هناك؟».

- أعتقد أنها وثائق عامة؟

- طبعاً لا. ولكن أنت الابن الفظيع لذلك الأب الفظيع، أليس كذلك؟ كما أنك ابن أمك المقتولة. إذا عارضوا، سأطلب مساعدة أخي المقرّف، أو والدي نفسه إذا اقتضت الضرورة، وعندئذ لا أريد سماع كلمة لا. لكنهما يعرفان هذا كلّهُ، لذلك فإنّ الأمر سيحدث قبل حدوثه.

*

ألقيا تحية الوداع على برونو، ووصل ماكس بأونو إلى باب بيته، حيث اتفقا على أن يذهب أونو لاصطحابه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. سيأخذ ماكس إجازة صباحية من عمله. وجدا أنه من الأفضل ألا يتصلا بالمعهد مسبقاً لحجز موعد، لأنّ ذلك قد يُستخدم لتأجيل الموضوع.

في الطريق إلى البيت، تحسّس ماكس نبض معصمه - في غاية السرعة، لكنّه ليس غير منتظم. غداً سيُصقّي الحساب مع ماضيه. ليس لديه صور والديه حتى، لقد ضاع كلّ شيء عندما أُلقي القبض عليهما. لا يزال يتذكّر والدته بوضوح: امرأة شابة مرحة، في الغرف، إلى البيانو، في الشارع، في الحديقة العامة، وعلى الصدر الأيسر من كلّ ملابسها خيطة نجمة داود، بكلمة يهودي مكتوبة بحروف عبرية مزينة ساخرة. يتذكّر أنها قالت ضاحكة بنوع من انتصار بائس: «إنها ليست صفراء على الإطلاق، إنها برتقالية اللون!»، لكنّه لا يتذكّر من والده سوى مشهد واحد جامد. في ليلة عيد الميلاد^(**) - التي لم تكن معروفة في هولندا، لكنهم اعتادوا الاحتفال بها على طريقة أوروبا الوسطى - طُلب منه البقاء في غرفته حتى الانتهاء من

(*) ورد ذكرهما في الصفحة 52. [م]

(**) مكتوبة بالألمانية. [م]

تزيين شجرة عيد الميلاد وإشعال الشموع. لم يكن والده متديناً ولا والدته؛ أدرك بعد حين أنّ الشيء المسيحي الوحيد في ذلك الرمز الجرمانى الوثني، الممثل للانقلاب الشمسي، مثل شجرة مزينة بالأضواء، هو الصليب المصنوع من الخشب الخام، الذي يجب أن يبقاها واقفة، - لكنّه، ذلك الصليب بالذات، كان مخفياً تحت ورق الكورنيس الأحمر الذي ستوضع الهدايا عليه. ربما كانت هناك مشاحنة كلامية، أو نفاد صبر، أو انزعاج، على كلّ حال ظنّ أنه نودي عليه. دخل إلى الغرفة، وعندئذٍ حُفر المشهد في ذاكرته: والده واقفاً على كرسي بجانب شجرة عيد الميلاد؛ في يده النجمة المتألقة التي يهّم بوضعها على قمة الشجرة؛ تتجلى في عينيه الزرقاوين اللامعتين، الناظرتين إليه من علوّ لا يمكن معرفته، نظرة باردة برودة هواء سائل...

في المدخل أمام باب بيته تحسّس جيبه باحثاً عن المفتاح، وتذكّر عندئذٍ أنه قد أعطاه لآدا. نزل درجتين ورفع نصف القرميد. تألّق المفتاح في القفل المظلم، مثل آدا النائمة في سريره في الطابق العلوي.

11. المحاكمة

استيقظت آدا نصف استيقاظ عدّة مرّات، حين استلقى ماكس بجانبها أيضاً - وعندما كانت الشمس قد أشرقت على الستائر، وجدت نفسها في خضمّ حلمٍ معقّد:

في المقعد الخلفي في سيارة يرقد رجلٌ عجوز ضامر بين ذراعيها، تشعر بشعيرات لحيته غير الحليقة البيضاء على خدّها. تحاول دفعه عن نفسها، لكنّ المشكلة هي أنّ الزرّ الأعلى في معطفه المجمعّد الوافي من المطر هو زرّ معطف القاتل، وزرّ معطفها في الوقت نفسه. النتيجة هي أنه يجب عليها دخول الزنزانة المترامية تحت ساحة ساتورنوس؛ مَنْ يعرف بوجود الزنزانة يستطيع رؤيتها من شكل الساحة. في حجرة مظلمة كبيرة ملأى بسلاسل، جسور معلقة، قناطر، درابزينات، كابلات وسلاسل متدلّية من السقف، يجب عليها دخول قفص مصنوع من قضبان خشبية، ولكنّ هيئة المحكمة تجلس مكانها في جاهزية. رئيس القضاة الجالس في الوسط يُظهر ميدالية فضّية مستطيلة الشكل، أو لعلّها علبة صغيرة محتوية على جوهرة، بعد برهة قصيرة تبدأ جماعة من اليهود الأنقياء في ملابس الصلاة بإنشاد ابتهالاتٍ حزينة. هنا يبدأ التشوّش العقائدي بالظهور. فجأة ترى كأساً من الشمبانيا في يدها، ويعتقد قسّيسٌ في رداء منشغلٍ بالمباركة أنّ هذا الشيء جزء من الفريضة الدينية؛ ثم يجب عليها تسلّق سلّم عالٍ شديد الانحدار، لكنّها لا تستطيع صعود الدرجات لسبب أو لآخر. عندما تلتفت إلى الوراء، ترى امرأة جالسة في وضعية بوذا، تنساب أو تحوم في خطّ مائل عبر الهواء وتروي للمرة الألف أسرار الماضي...

استيقظت على يد ماكس وهي تداعب بطنها. كان عضوه قد انتصب لكنّه لا يزال نصف نائم: هذا لا يُعدّ انتصاباً، إذ يمكنه أن يحدث من دونها أيضاً. كان يتأوه.

قالت: «ساعد القهوة أولاً».

ونظرت إلى ساعة يدها: «يا إلهي! إنها تقارب التاسعة والنصف، أليس عليك أن تذهب إلى لايدن؟».

- سأخذ إجازة صباحية.

فتحت الستائر وذهبت وهي عارية من الملابس إلى المطبخ الصغير. كانت شمس الصباح تضيء المنزل من فوق الأشجار. في الحديقة العامة الواقعة في الأسفل، يضع عداء كعب قدمه على ظهر مقعد ويحاول كسر نفسه إلى نصفين. رائحة القهوة والخبز المحمص، شدو الطيور بين الأشجار، هدير حركة المرور في البُعد. كل شيء على ما يرام. في الغرفة أشعل ماكس الراديو للاستماع إلى الأخبار؛ سمعته يتصل بالهاتف، بالمرصد الفلكي على الأرجح. سيصل بها إلى لايدن بعد قليل، ولن تراه مجدداً بضعة أيام سوى في استراحة الظهر. كلما اختفى بسيارته في زاوية الشارع، راودها شعور بأنه لم يكن معها قط، ولن يكون معها أبداً - ولكن أين يكمن مصدر هذا الشعور بالغياب: أيمكن فيه أم فيها؟

عندما دخلت بالفطور إلى الغرفة، رأتته متربعا على السرير، ما ذكرها على نحو غامض بشيء رأتته في المنام، لكنها لم تستطع استبيانه. رأت نظرتة تنزل على جسدها سريعا مثل نفحة ريح، فأدركت عندئذٍ فحسب أنها عارية مثله؛ ولكن حتى وهو عارٍ من الملابس، يبدو أنه لا يزال متأنقا أكثر مما قد تتأق هي ذات يوم. قوامه قوام لاعب رياضي، ليس فيه أي مكان شوّهته الرياضة، أو شكل آخر من أشكال العنف، وأكسبته قياسات يقصد منها إبهار النساء، لكنها لا تحدث تأثيراً سوى في الرجال؛ بشرته ناعمة ومخملية الملمس مثل بشرة طفل.

تربّع أحدهما قبالة الآخر على السرير، بينهما صينية الفطور، يدهنان الخبز بمرتبى البرتقال، يعضّان الخبز المحمص، يشربان القهوة، يأكلان البيض المسلوق، بينما يضع يده على مهبها برهة قصيرة بطريقة تلقائية بين حين وآخر، وكأنه جزء من تناول الفطور. راقها الانتصاب الذي حدث تدريجياً أكثر من الانتصاب السابق - وإن تولّاها الاندهاش مجدداً عن الأحجام التي يمكن للأشياء أن تأخذها في هذه الدنيا. بينما يخبرها عن العجر، وضعت يديها حول كيس خصيتيه البارد برفق، وكأنها تزنه.

قالت: «أيتها الملايين! كونوا متعاقين!»^(٥).

تغبّشت نظرتة بعض الشيء، لكنه قرّر عدم الاستعجال على ما يبدو. قال بصوت ينطوي

(٥) تقولها بالألمانية، من «قصيدة الفرح» للشاعر الألماني فريدريش فون شيلر، وتلحين بيتهوفن. [م]

على شيء من الثمالة: «جاؤوا جميعهم ووقفوا حولي.. كنت أجلس، إذا جاز التعبير، في بؤرة مرآة مقعرة...».

أمسك عن الكلام. كان كلُّ منهما قد وضع يده بين فخذي الآخر، وشعرت آدا بأنه أحسَّ كم هي مبتلة. بينما ينظر إليها، انحنى ظهره انحناءً طفيفاً، وكأنه يتألم، فبدأت بتبسم. وضع صينية الفطور على الأرض وانزلق فوقها وهو يتنهد بعينين شبه مغمضتين، بينما يغوص لسانه وعضوه بعمق في داخلها. لهث: «على مهل.. على مهل!».

قال ذلك لنفسه، فهي لم ترغب في شيء أكثر من هذا. أخذ جسداهما يتحركان على السرير في هوادة، إيقاع مهيب^(*) - خُيِّلَ إليها وكأنهما يتهاديان على أمواج البحر، ينزلان تحت المياه بصورة تدريجية، حيث تسود الحركة نفسها، لكنهما يوغان في الانعزال عن العالم الخارجي، عن الهواء، عن الضوء - لا صوت، الأزرق يزداد دكنةً، البنفسجي يتزايد... رنَّ جرس الباب.

رُفِعت الشبكة إلى السطح. توقفت حركة ماكس؛ اتكأ على مرفقيه ونظر في ساعة يده. همست آدا بعينين مغمضتين: «اتركه يرن!». - إنه أونو. لقد تواعدنا على اللقاء.

ما لبث أن حرّر نفسه منها، فانزلقت ذراعاها عنه، وذهب إلى جهاز الاتصال الداخلي في الممر. سمعته ينادي: «أونو؟ إنني قادم. دقيقة واحدة!». عاد إلى الغرفة على جناح السرعة، وفتح خزانة الملابس. عندما رآها راقدة، ولا تزال ساقاها مفتوحتين، قال: «أبلغني نفسك!»، واختفى في الحمام.

تجمّدت آدا. ماذا قال؟ لم تستطع تصديق أنه قال ما سمعته. هل قال حقاً إنها يجب أن تبلغ نفسها؟ هل قال ذلك؟ هل قال إنها يجب أن تبلغ نفسها؟ أخذت تحدّق في السقف بعينين متسعيتين من الدهشة، غير قادرة على الحركة. هل يمكن أن يكون بهذه الجلافة كلّها؟ عندما ظهر في الغرفة وقد ارتدى ملابسه، بدأت: «ماكس...».

لكنّه طبع قبله على جبينها في عجالة وقال: «عندما أراك في استراحة الظهر، سأخبرك عن الأمر، إلى اللقاء قريباً».

(*) يستخدم الكاتب العبارة الإيطالية «*andante maestoso*». [م]

بعد برهة قصيرة سمعت وقع خطواته الصاخب السريع وهو ينزل السلم؛ ثم الوقع
الأخفت على السلم التالي؛ لم يعد بوسعها سماعه على السلم الأخير؛ ترامت إليها صفقة
الباب الرئيسي عبر النافذة المفتوحة.
سكون.

جلست على حافة السرير في ذهول. كانت لا تزال غير قادرة على الاستيعاب بشكل
كامل، لكنها علمت أنّ هذه هي النهاية. ما قاله شيء لا يمكن تصحيحه إطلاقاً: حُيِّلَ إليها
وكانها رأت وجه السيّد هايد بصورة مفاجئة على وجه الدكتور جيكل^(*). «أبلغني نفسك». لا
تعرف ما سيفعله هذان الاثنان، ولكن ألم يكن يستطيع الانتظار ربع ساعة؟ ألم يكن بوسعها
إرسال أونو إلى المقهى لحظة؟ تلك السرعة ليست متأتية من حالة مستعجلة، ولكن لأنّ
«أونو» هو الذي رنّ جرس الباب. لم يستطع ترك «أونو» ينتظر قليلاً، لارتعابه من أنه قد
يتحوّل عنه إلى الأبد. هراء طبعاً، ولكن حتى هذا يمكن أن يكون مفهوماً. كذلك ليس لأنها لا
تستطيع تحمّل أن يكون أونو مهمّاً بالنسبة إليه أكثر منها من نواح معيّنة، ولكن الطريقة الكلبية
التي داس بها على روحها لا تُطاق. لو صفعها في وجهها، لكان أقلّ إيلاماً.

الحمام لا يزال دافئاً ورطباً من استحمامه. تحت الماء المتدفّق، حُيِّلَ إليها أنّ ما قاله قد
سقط عنها برهة قصيرة، لكن عند عودتها إلى الغرفة، عاودها مرة أخرى. «أبلغني نفسك».
وكأنّ بلوغ الذروة هو المهمّ في الموضوع. لم يبلغ الذروة هو أيضاً. بدأت ترتدي ثيابها
بغضبٍ مفاجئ - ولكن تراءى لها عندئذٍ يظهر مجدّداً من العدم على درجات محلّ الكتب
المستعملة. هل تحبّه؟ لا تعلم هذا علم اليقين؛ لعلّ الأمر ليس على هذا النحو. لعلّك تعلم
علم اليقين إذا كنت تحبّ شخصاً، ولكن هذا يعني أنها لم تحبّ أيّ شخص حتى الآن، ولعلّه
يجب عليها قبول أنها لن تحبّ أيّ شخص أيضاً. الشيء الوحيد الذي تعلمه علم اليقين هو
أنّها تحبّ الموسيقى. لعلّها تريد مع ذلك إنجاب طفل منه. راودتها عدّة مرّات فكرة إيقاف
حبوب منع الحمل، ورؤية ما سيحدث بعد ذلك. صورة ماكس الصغير، أو ماكسيما، وهو
يهدج في الغرفة، تجعلها تذوب، مثل قطعة من السكر في كوب من الشاي الساخن: ستحبّ
هذا الشيء على كلّ حال. ولكن في هذه الحالة فإنّ مسيرتها الموسيقية ستعرّض أيضاً

(*) إشارة إلى رواية «قضية الدكتور جيكل والسيّد هايد الغريبة» للمؤلّف الأسكتلندي روبرت لويس
ستيفنسون. [م]

للخطر، لذلك ليس من الوارد أن تنجب طفلاً. طبعاً تعلم أنه يضاجع فتيات أخريات أيضاً - لم تفتّها علاماتُ ذلك في شقته، الشعر الأشقر، أعقاب السجائر المصطبغة بأحمر الشفاه في سلة المهملات، لكنّها لم تكن تولي الأمر كثير الاهتمام، لأنها تعلم أنه ينسى أولئك النساء قبل رؤيتهنّ حتى. ولكن الآن حدث شيء غير قابل للتصحيح.

نظرت حولها. لقد انتهت العلاقة. جلست إلى مكتبه المرتّب الفارغ وفتحت الأدراج التي يحتفظ فيها بـ«متجر القرطاسية» كما يسمّيها هو نفسه: أوراق من كلّ الأحجام والتصاميم، عشرات الدفاتر والمفكّرات، بدءاً من دفاتر ملاحظات صغيرة حتى سجلّات كبيرة مقوَّاة الزوايا، كرايس من كلّ الأصناف التي تخطر على البال، بعضها بورق أصفر وأزرق فاتح من الولايات المتحدة، بطاقات فهرسة بيضاء، بخطوط، بمربّعات، مرتّبة بعناية على شكل أهرامات، تكفي لحياة كاملة. قال في إحدى المرّات: «في الأمور المتعلّقة بالورق أستطيع مواجهة الحرب العالمية الثالثة باطمئنان». أخذت ورقة بسيطة من أوراق الآلة الكاتبة ووضعتها على صفحة المكتب. أخرجت من المقلّمة قلم رصاص أصفر بممّحاة في نهايته، وراحت تحدّق مستغرقةً في الأفكار في الأدوات المصفوفة على حافة المكتب المعروضة مثلما في متحف: المغناطيس، الموشور، الساعة الرملية، مرآة الجيب، المسطرة، العدسة المكبّرة، البوصلة، الشوكة الرنّانة...

*

أخذ الموظّفون في المعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب ينظرون باستغراب، عندما وجدوا أمامهم بصورة مفاجئة واحداً من آل كويست وواحداً من آل ديلبوس. مع ذلك لم يكن مشهدهما أغرب من حقيقة أنّ جارهم في شارع هيرين خراخت هو معهد غوته الألماني. على كلّ حال بدا لهم أنّ هذه المسألة من اختصاص المدير نفسه. اصطحبوا ماكس وأونو عبر سلالم من خشب البلوط وممرّات من الرخام، شوّهتها رفوفٌ ملأى بالملفّات، إلى غرفته الهادئة في الجناح الخلفي، المطّلة على الحديقة المشيّدة وفق النموذج الهندسي من القرن السابع عشر.

كان يكتب في دفتر ملاحظات ورفع عينيه. عرفا وجهه. لقد عمل سلسلة من برامج تلفزيونية عن الاحتلال الألماني قبل بضع سنوات؛ الآن أوكلت إليه مهمّة تدوين تلك الفترة يوماً بيوم، ما سيغطّي عشرين جزءاً ضخماً. بدا واضحاً من وجهه المهموم أنه ليس هناك شيء

لا يعرفه عن الحرب التي أمضاها هو نفسه في لندن؛ دخل فترة الحداد هذه، التي تستغرق أطول من الحرب بثلاث مرات، على أخيه التوأم الذي لم يتمكن من الفرار إلى لندن وأُعدم خنقاً بالغاز. أخبره ماكس بوضع جمل قصيرة عن قصّته، التي اختلفت مجدداً عما رواه من قبل، وختمها قائلاً: «الخلاصة هي أنّ أبي أُعدم رمياً بالرصاص، لأنه طارد أمي إلى الموت».

- أعلم هذا، يا سيّد ديليوس، أعلم هذا.

- لكنّه يبقى أبي مع ذلك. أرغب في رؤية إضرابته.

أحنى المدير رأسه: «ولماذا ترغب في ذلك الآن تحديداً؟».

أوجب أن يخبره عن الغجر؟ ولكنّ هذا أيضاً ليس السبب بطبيعة الحال.

- ربما لأنّ الوقت قد حان.

قال المدير: «حسناً، لا أرى أيّ مانع في ذلك. ثم إنّنا نعيش في زمن الانفتاح وتحقيق الديمقراطية، إن لم أكن مخطئاً. وأنت، يا سيّد كويست، ما دورك في هذا؟ ولكن دعني أولاً أهتّك على الدكتوراه الفخرية التي حصلت عليها؟ الحقّ أننا كلّنا نفعل الشيء ذاته، أليس كذلك؟».

عجز أونو لحظة عن الكلام، ثم قال: «إنك لا تنسى شيئاً البتّة».

- هذه مهمّة المؤرّخ.

- أنا هنا بصفتي صديقاً فحسب.

قال المدير: «يكفيني هذا». وأمسك بسماعة الهاتف: «أدريان؟ عندي السيّدان ديليوس وكويست. - ماذا قلت؟ - نعم، صحيح. إنها عن قضية فولفغانغ ديليوس. خذ ما يكفي من الوقت وقدّم لهما المساعدة اللازمة، سأرسلهما إليك في الحال».

لم يذكر ماكس اسم والده الأول؛ صُنع عندما سمعه من فم المدير بتلقائية بالغة. شرح لهما المدير إلى أين عليهما الذهاب، وقال لأونو لحظة الوداع: «بلّغ والدك تحياتي!».

عندما أغلق الباب، قال أونو بصوتٍ خافت: «الآن سيتصل به مرة أخرى. هذه المرة لإعطائه تعليمات».

- أيّ تعليمات؟

- عمّا يجب أن يخفيه عن عيوننا.

- ماذا يمكن أن يكون أسوأ مما نعرفه الآن؟

- لا شيء. ولكن طبعاً هناك سمعة أناسٍ آخرين على المحك، لم يُقتل الجميع رمياً بالرصاص.

تبين من النظرات التي التقيا بها في الممرات أن خبر وجودهما قد انتشر في المبنى كله. وضع الموظف، الذي دعاه المدير أديان، سماعة الهاتف على الجهاز عندما دخلا الغرفة: رجلٌ مكتنز الجسم، منحني الظهر انحناء طفيفاً، في الخمسينيات من العمر، ذو وجه مستدير ونظرة ثابتة، قدّم نفسه باسم «أود». دعاهما إلى الجلوس بصيغة غير رسمية، ثم ذهب إلى القبول يأتي بالوثائق.

جلس أحدهما بجانب الآخر إلى طاولة طويلة عليها أكداًس مرتبة من الأوراق. أجال أُنو عينيهِ على الخزانات المملأ بالاضبارات المزودة بأرقام مشفرة، المرتفعة حتى السقف المزخرف بالجبص، وقال إنَّ بعض الناس يفضّلون إشعال عود ثقاب فيها؛ أما ماكس فقد كان صامتاً. أدرك أنه يقترب من نقطة النهاية، ستوضع الأوراق عمّا قليل للمرّة الأخيرة على الطاولة. لكنّه الآن وقد وصل إلى هنا، لم يعد يرغب في معرفة كلّ شيء، كيف سارت الأمور على وجه الدقّة، كيف أُعيدت المشاهد أثناء المحاكمة، ما أدلى به الشهود وما يمكن أن يكون والده قد ارتكب من جرائم أخرى؛ لا يرغب حتى في قراءة الحكم. ما حدث قد حدث. الشيء الوحيد الذي يرغب في رؤيته شيءٌ ملموس، شيءٌ فوريّ، يتبيّن منه أنه كان موجوداً ذات يوم - ربما مجرد صورة.

دخل أود الغرفة بستّة مصنّفات سميكة مضمومة إلى صدره، في أعقابهِ رجلٌ شابٌ بصفٍّ أعلى من ملفّات وصناديق أرشيف مغبرة تحت ذقنه. عندما عُرضت قبّالتهما، جلس أود خلفها مثل تاجرٍ في السوق، أو مأى إيماءة استعراضية، وقال: «ماذا تريدان؟».

ها هي ذي هنا - مثل رغبة قدرة في حوض استحمام فرغ من الماء. قرأ ماكس على غلاف أحد الملفات:

၂၅၁

يحيى بن يحيى

اعترفته رغبة قويّة في النهوض والمغادرة؛ لم يبقَ جالساً إلا لأنّ أونو موجود معه. أونو أيضاً قد قرّر إفحام الجميع والإمساك بزمام الأمور، ولكنّ كمية المواد أصابته بالشلل؛ كما أنه خاف بعض الشيء من الرجل الجالس خلفها، بحرفي اسمه الأولين المتوعّدين، مثل حرفي القديس كريستوفر: «ألفا وأوميغا».

قال أود، عندما رأى ماكس متردّداً: «أعرف الطريق في هذه الإضبارة، شاركت في التحريّات الأولية في ذلك الوقت. هل تريد رؤية الوثائق التي تُذكر فيها أنت نفسك؟». ارتجف ماكس: «كنت تعرفه إذا».

أراد القول: «والدي»، لكنّه لم يستطع النطق بهذه الكلمة.

- كنت أعرفه.. لا أعتقد أنّ أحداً عرفه البتّة، لكنني رأيته عدّة مرات، نعم.

- ماذا قال عني؟

- هو نفسه؟ لم يقل شيئاً على الإطلاق، لا عنك ولا عن أيّ شيء آخر. لم يفتح فمه طوال فترة حجزه، ولا أثناء الجلسات. لم يكن هناك استجواب.

- ولكن كيف...

لم يحتاج ماكس لإكمال سؤاله. أحنى أود رأسه، فتح مصنّفاً، فكّ المشبك، وما لبث أن وضع يده المبسوطة على رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة: سطورٌ رمادية تفصل بينها مسافات قصيرة، توقيع يظهر نصفه من تحت معصمه.

- في هذه الرسالة يسأل والدك جنرالاً اسمه فان شومان، في قوَّات الدفاع الألمانية، لقي مصرعه في زمنٍ لاحق في ستالينغراد، عمّا إذا كان يستطيع أخذ خطوات تخلّصه من زوجته الشابة إلى الأبد. كان الجنرال صديقاً شخصياً له، لأنه يخاطبه بصيغة غير رسمية. ثم إنه يسمّي ذلك بوضوح «خدمة لصديق».

أدار ماكس رأسه عن الرسالة. لم يستطع رؤيتها على الإطلاق. تمنّى ألا يسأله أود عمّا إذا كان يريد قراءتها، فيضطرّ بذلك إلى إمساكها بيديه. رآه من زاوية عينه يقلب الصفحات.

قال أود: «هذه الرسالة من فان شومان إلى راوتر، القائد الأعلى لقوَّات الأمن والشرطة الألمانية في لاهاي، مكتوبة أيضاً بصيغة غير رسمية. كانوا جميعهم أصدقاء».

وواصل البحث: «كان شاهداً في قضية والدك، لم يُعَدَم هو نفسه إلا بعد ثلاث سنوات

من ذلك. أجل، هنا لدينا تعليماته إلى جهاز الأمن الألماني في أمستردام، مع العنوان وكل ما يلزم. وهذه قائمة جهاز الأمن الألماني في أمستردام في ذلك اليوم، وقد وضعت «v» أمام اسم والدتك، في إشارة إلى أن المهمة قد نُفذت. أما بالنسبة إلى جدك وجدتك، اللذين لم يشفع لهما وجودك، فقد سلك طريقاً مباشراً أكثر بكثير مما سلكه مع والدتك. هل تريد أن أبحث عن ذلك أيضاً؟».

بلع ماكس ريقه وهزّ رأسه علامة الرفض.

سأل أونو: «ولكن ما الذي تتضمنه هذه الملفات الأخرى كلها؟».

أجاب أود بوجه غير منفعل: «إنها تخصّ أناساً آخرين. والباقي يخصّ قضايا سرقة ونهب».

خيّم صمت. تراءى لعيني ماكس البيانو وهو يُحمل إلى خارج المنزل، وكومة الثياب في غرفة نوم والدته. في رغبة من أونو أن يساعده في تجاوز اللحظة، سأل عمّا إذا كان هناك تفسيرٌ لصمت ديليوس المتواصل: «هل كان بدافع الشعور بالذنب؟ لأنه أثبت على نفسه التهمة القاتلة في تلك الرسالة؟ يبدو أنّ عزرا باوند قد لزم الصمت أيضاً في الوقت الحاضر لسبب من هذا القبيل^(*)».

قال أود: «رأى المدّعي العام أنّ ذلك ليس سوى ملاذٍ أخيرٍ للتهرّب من عبء الإثبات، ولكن ذات يوم عُثر على شيء غريب في زنزانته».

بحث في صندوق من صناديق الأرشيف وأخرج منه ظرفاً رسمياً سميكاً أصفر اللون. وقال: «هذا».

وأخرج من الظرف علبة سجائر وأعطائها لماكس.

كانت من ماركة سويت كابورال، مصفّرة وخالية. أخذها ماكس باندهاش وأدارها إلى طرفها الآخر. كان قد كُتب عليه شيء بالألمانية بقلم حبر أخضر. قرأ: «أنا وحدي موجود. ما ليس موجوداً لا يمكن أن يموت».

قال أونو: «هذا يشبه نغمة فيتغنشتاين^(**)».

(*) إشارة إلى ما فعله الشاعر الأميركي الشهير عزرا باوند Ezra Pound في نهايات حياته، عندما وجد صوتاً جديداً بليغاً آخر هو الصمت. [م]

(**) Ludwig Wittgenstein (1889-1951): نمساوي، من أعظم الفلاسفة في العصر الحديث. [م]

واقتبس منه بالألمانية: «ما لا يستطيع المرء التحدّث عنه، يجب أن يصمت»، ثم أضاف: «كان هو أيضاً نمساوياً محبباً».

لم يسمعه ماكس. لم يسبق له رؤية خطّ يد والده؛ خطّ غير هولندي، أكثر حدّة، أشدّ اعوجاجاً. لقد أمسك هذه العلبة نفسها في يده، هناك في زنزاته في سخيفينغن، وكتب عليها هذه العبارة، ربّما على ركبته، وهو جالس على حافة سريره.

قال أود: «ولكن هذا لم يكن من أقوال فيتغنشتاين، بل من أقوال ديليوس؛ أجزم أنه لم يسمع بفيتغنشتاين، ابن عصره، الذي لم يصبح ذائع الصيت إلا في الوقت الحاضر. في تقرير عن حالته النفسية، استُخدمت هذه الملاحظة كدليل على أنّ المتهم ليس في كامل وعيه: كان يعيش في وهم بأنه لا يوجد أحدٌ سواه في الواقع وأنّ كلّ الأشياء الأخرى هي وهمٌ، إسقاط؛ من وجهة النظر هذه لا يمكن أن يكون مذنباً في ارتكاب جريمة قتل، لأنه لم يكن هناك أحدٌ على قيد الحياة، لذلك ليس لأحد أن يموت سواه. لم يكن القضاة الذين حكموا عليه والمحققون الذين استجوبوه موجودين أيضاً. حتى الجلّاد الذي نفّذ حكم إعدامه لم يكن، للمفارقة، موجوداً. لذلك كان لا بدّ لمثل هذا المريض أن يُعفى من الملاحقة القانونية ويوضع بين أيدي الحكومة. ولكنّ المدّعي العام حاجج مرّةً أخرى بأنها مجرد مناورة مأكرة من مجرم حاذق، بغية الإفلات من عقوبته العادلة. بالمقابل، فإنّ المحامي غيلتاي فيث، الموكل للدفاع عنه، الذي لم يستطع هو أيضاً الحصول منه على كلمة واحدة، أوغل بشكل أعمق في الموضوع. لقد رافع بأنّ زنزانه ديليوس احتوت على الكتاب ذائع الصيت من تأليف ماكس شتيرنر، الفيلسوف الألماني الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر، المدافع عن الأنانية غير الأخلاقية المتطرّفة، الذي شكّل كتابه "الأنا وذاتها" باكورة "الإنسان الخارق" لنيثشه. بعد سقوط هتلر، يبدو أنّ ديليوس ابتعد خطوةً أخرى، ووصل إلى الذاتية الميتافيزيقية الحقيقية. بعد ذلك طلب غيلتاي النصيحة في هذا الموضوع من اثنين من الفلاسفة الأجانب البارزين: راسل من كامبريدج، وهايدغر من فرايبورغ إم بريسغاو».

قال أونو باندهاش: «هايدغر؟ هل هي موجودة هنا؟».

فتح أود مصنفاً آخر، فوضع إصبعه على بطاقة بريدية بكتابة إنكليزية.

- هنا يكتب راسل: «الذاتوية، مع أنها ليست كعكتي المفضّلة، موقف فلسفي مشروع تماماً. عدم أخذها على محمل الجدّ ينطوي على تشويه فلسفة من هذا القبيل. لذلك أرى

أنّ موكلّك يجب إعدامه من دون تردّد». لم يقدّم غيلتاي هذه النصيحة إلى المحكمة، مثلما تستطيع أن تصوّر؛ يبدو أنّ المطاف انتهى بها بين هذه المستندات عن طريق الخطأ. قدّم إليها رسالة هايدغر فقط. ها هي ذي هنا مكتوبة بالألمانية: «مصطلح الذاتية، أو "السولسية" باللاتينية، مشتقّ من "سولوس إيسه" ويعني "أنا وحدي". ليس هناك ما يشير إلى أنّ أصل هذا الفكر، الذي ترك الوجودية وراءه، كان موجوداً في العصور القديمة، لكن يمكن نسبه إلى ديكارت. إنّ مبدأ الشكوكية العامة الذي انتهجه ديكارت، الذي شكّك في كلّ شيء باستثناء الذات، أنتج الصيغة التي يعرفها حتى تلاميذ المدرسة: "أنا أفكر، إذاً أنا موجود". عندما تأخذ "أنا أفكر، إذاً أنا موجود" شكلها الحادّ المتمثّل بـ "لذلك أنا وحدي"، تنشأ الذاتية. إنها امتداد منطقي للديكارتية، وإبعادها يتضمّن رفض فلسفة ما بعد ديكارت برمتها. لذلك فإنّ حكم الإعدام على موكلّك سيتضمّن بشكل أساسي إدانة الفلسفة بأكملها».

تابع أود: «ولكن حسناً. جادل المدّعي العام بأنّ هايدغر نفسه جانّ فلسفيّ، أي إنه نازي من الدرجة الأولى، لا يريد سوى تبرئة نفسه بشكل غير مباشر، لأنّه يشعر بأنّه هو أيضاً في مهبّ الرياح. في آخر الأمر أخذ القضاة في حكمهم موقفاً مفاده أنّ الشخص الذي يطارد زوجته وحماه وحماته إلى الموت شخصٌ غير طبيعيّ وفق المعايير؛ أنه ليس هناك قاتلٌ واحد طبيعيّ؛ ولكنّ هذا لا يعني أن يكون بمقدور القتلّة التذرّع بالظروف المخفّفة لتبرير جرائمهم، لأنّه سيعني نهاية القانون، أي رجوع الحضارة الإنسانية إلى البربرية - باختصار، إلى المجتمع من النوع الذي جرى تفاديه للتوّ بتكلفة خمسة وخمسين مليون قتيل».

أحنى أونو رأسه بالموافقة: «رأيتُ صائب جدّاً».

كانت بقايا التبغ المسوّدة قليلاً لا تزال عالقة هنا وهناك في زوايا علبة السجائر. أغلق ماكس العلبة وما لبث أن رآها تختفي في الظرف.

- هل لديك ربما صورة لوالدي؟

رفع أود حاجبيه، ثم قال بتردّد في صوته: «ينبغي أن توجد صورة له».

وبدأ يبحث: «في جواز سفره على كلّ حال...».

سأل أونو متظاهراً باللامبالاة: «هل تعرف أين قبر والدك؟».

أجاب ماكس وهو ينظر إلى أود: «كلا».

رفع أود عينيه لحظة وأوماً إيماة اعتذار قصيرة. لم يجد في نهاية الأمر سوى صورة

ضبابية في جريدة، مأخوذة للمحكمة من بعيد. رأى ماكس شخصاً غامض الملامح، إلى جانبه رجلٌ من الشرطة العسكرية بشريط مضفر أبيض حول كتفه، لعلّه الرجل نفسه الذي أخذه من الصف قبل أربع سنوات من ذلك.

*

كان أونو قد تواعد مع بضعة سياسيين على اللقاء، وذهب ماكس من فوره إلى البيت. إنه يشعر بالتعب ويحتاج إلى التكلّم مع آدا. لم تكن تعرف أي شيء عن هذا الأمر، لقد وُلدت في السنة التي أُعدم فيها والده رميّاً بالرصاص؛ طبعاً يمكن أن تستيقظ ذكرى في نفس والديها عند سماع اسم ديليوس، الذي لم يكن رائجاً في هولندا، ولكنّ ذلك كان قبل وقت طويل، وكانت هناك محاكمات عديدة في تلك الأيام، ومعظمها أكثر إبهاراً من محاكمة والده. يجب أن تعرف الآن، لأنه أيضاً لم يتصرّف معها بلباقة في الصباح.

عندما دخل الغرفة، شعر من فوره بأنّ هناك شيئاً ليس على ما يرام. التشيلو الخاص بها، الذي يكون دائماً بجانب البيانو الكبير، قد اختفى أيضاً. رسالتها موضوعة على مكتبه:

حبيبي ماكس،

عندما تعود إلى البيت، سأكون قد غادرت. ربما لن تفهم السبب على الفور، ولكن إذا فكّرت لحظة قصيرة، ستعرف. لقد أمضيت معك وقتاً ممتعاً، وأشعر بالامتنان لك على هذا، ولن أنساه ما حييت. كنت تعني لي الكثير ولعليّ لم أعني لك سوى القليل. إذا التقينا مرة أخرى، أمل أن يكون لقاء صديقين حميمين.

إلى الأبد، آدا.

وضع الورقة ببطء على المكتب. تغلّغت نبرة الوداع غير المتوقّعة، والحسم الذي اتسمت به الجُمْل، في أعماق كيانه؛ لكنّه في الوقت نفسه علم أنه لن يفعل شيئاً لجعلها تراجع عن القرار. هذا هو الوضع إذًا، لقد انتهت هذه المرحلة. جلس على المقعد، وفتح الدرج السفلي في مكتبه ليفعل ما كان ينوي فعله في حضورها. لم يحتاج إلّا إلى الإمساك بما يريده، دون أن ينظر: الترتيب الذي خلقه في ما حوله، منحه سنةً إضافية من حياته، سنة يضيقها الآخرون في البحث.

وضع قلم حبر من الطراز القديم وعلبة نظّارات أمامه على المكتب. قلم الحبر سميك، مصنوع من الإبونيت الأزرق الداكن الموشّى بالسنة الذهب، الذي صار باهتاً ومنعدم الحياة؛ المشبك النحاسي وحلقات الزينة كالحة وصدئة. فكّ الغطاء بحرص، وعاین الرأس الذهبي، المسودّ من الحبر الموغل في القدم. أشعل مصباح المكتب وأمعن النظر في القلم باستخدام العدسة المكبرة - ورأى ما كان يأمل رؤيته: توهّجاً أخضر داكناً يلوح بين بقايا الحبر، مثل طحالب في بركة آسنة. برم الغطاء على القلم، لكنّ الإبريم كان تالفاً؛ مع ذلك أشعرته مقاومة متناهية الضعف بنهاية السلك اللولبي.

علبة النظّارات مصنوعة من ورق معجّن سمنيّ اللون زهيد الثمن. فتحها وأخرج النظّارة منها؛ إطار النظّارة مصنوع من السيلولويد الشفّاف الخفيف؛ العدستان المتّسختان الدهنيتان مشحوذتان بشكل إيجابي. اعترته رغبةٌ في وضعها على عينيه برهة قصيرة، لكنّه عندما فتح ذراعيها، تهشّمت كلّها إلى قطع صغيرة، وقعت منها العدستان، ولم يبقَ منها شيء سوى بعض القمامة على رسالة آدا. امتقع وجهه. أمسك سلّة المهملات بيده اليسرى، ومسح كلّ شيء إلى داخلها بساعده الأيمن.

12. المثلث

كان ماكس يستطيع أن يسأل أود عن هذا الأمر، فهو مكتوبٌ في وثائق القضية بطبيعة الحال، لكنّه لم يرغب في الدخول إلى بيت الأشباح ذاك مرة أخرى. في وزارة العدل توصّل بشيء من الصعوبة إلى أنّ جدّيه من طرف أبيه تزوّجا في براغ، وأنّ أباه قد توفّي، بنظام تقويمي، في اليوم الذي وُلد فيه: 21 حزيران 1892، في منطقة بيليتز، في النمسا-هنغاريا. يبدو أنه لم يخطر في بال أحد أنّ اليوم الذي أعدم فيه رمياً بالرصاص يصادف يوم مولده. التحق بالمدرسة الابتدائية في مدينة كاتوفيتز، ثم المرحلة الثانوية في مدينة كراكاو، إلى أن بدأ الدراسة الجامعية في فيينا وهو في التاسعة عشرة من عمره. منذ زيارة ماكس للمعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب، بقي يفكر في اقتراح أونو بالآ يقضي إجازة هذا الصيف على ساحل أحرق من سواحل فرنسا، بل في مسقط رأس والده - لعلّ ذلك يمكنه أخيراً من طيّ هذه الصفحة. من ناحية أخرى، في ما يتعلّق بالماضي، يسود بالطبع سكوتٌ مطبق في تلك المدن كما يسود في بروكسل، المدينة التي وُلدت فيها والدته. ولكن عندما استأنس بالأطلس في البيت، اكتشف اكتشافاً صادماً. المدن الثلاث التي أمضى فيها والده فترة صباه - التي تقع الآن جنوب بولندا، بالقرب من الحدود التشيكية، وتُسمّى بيلسكو، كاتوفيتسه، وكراكوف - تشكّل مثلثاً خالصاً متساوي الساقين، يشير بدقّة صوب الشرق مثل رأس سهم، وفي الوسط، في نقطة تقاطع المنصفّات الثلاثة تحديداً، تقع مدينة أشفنشم، التي تُدعى بالألمانية أوشفيتز. ذهب بالقطار - مثل والدته. لقد سلكت في أغلب الظنّ طريقاً جنوب الطريق الذي سلكه هو، عبر لايبزيغ ودريسدن؛ من أجل الحصول على تأشيرة العبور عبر ألمانيا الشرقية، اضطرّ في أول الأمر إلى الذهاب إلى برلين الغربية، باهنوف زو، وقد وصل في الصباح الباكر وترك حقيبته في الأمانات. تمشّى قليلاً في شارع المحلّات كورفورستندام في الشمس الصباحية،

اشترى دليلاً سياحياً صادراً عن دار بايديكور من أحد الأكشاك، واستقل سيارة أجرة إلى مبنى الرايخستاغ المدمر، الذي تجري فيه أعمال الترميم على قدم وساق. كان المبنى حاسر الرأس: اختفت القبة الوسطى العظيمة -خوذة بسمارك- من الوجود؛ لكنه عندما التفت إلى الوراء، رأى على الطرف الآخر من الساحة الكبيرة مركز المؤتمرات الجديد، الذي له شكل قبة هتلر على وجه الدقة. لقد أحدث التوازن في هذا أيضاً. أحيا في ذهنه ذكرى فان در لوبه، الذي احتفل بإخصابهما بإضرام النار في هذا المبنى، ثم سار في الحديقة العامة على طول جدار برلين، الذي كان يصرخ بصمت برسائله متنوعة الألوان. في فوضى عربات النقانق، وأكشاك الهدايا التذكارية، والحافلات المركونة، المكان الذي كان ساحة بوتسدام ذات يوم، صعد فوق منصة خشبية ووقف بين السائحين المتراحمين، المنهمكين في التقاط الصور، ينظر إلى الخراب الشامل على الطرف الآخر، الذي تقع فيه ساحة لايبزيغر الآخذة شكل ثماني الأضلاع، مثل بصمة حافر وحش عملاق. بعدها ببضع مئات من الأمتار، يمكن رؤية المكان الذي أنهى فيه ذلك الوحش حياته أيضاً في آخر المطاف.

في فترة ما بعد الظهر استردّ حقيقته من الأمانات وذهب بالقطار الكهربائي «إس-باهن» إلى برلين الشرقية. راوده شعور عندئذ بأنه بعيد عن بيته منذ أسابيع طويلة. في محطة باهنوف فردريش شتراسه، تعرض على مدى ساعة ونصف الساعة لإزعاجات بيروقراطية على يد «شرطة الشعب الألمانية» التي بقيت ترسله من شبّاك تذاكر إلى آخر باستمارات ومن ثم استمارات. جواز السفر، التأشيرة، وضع نقوده كلّها على الطاولة، نزع النظارة الشمسية عن عينيه على الفور! لكنه أدرك أيضاً أنه لا يذهب من نصف المدينة إلى نصفها الآخر فحسب، لا يذهب من دولة إلى دولة أخرى فحسب، وإنما من عالم إلى عالم آخر. أمعن النظر في بوابة براندن بورغ المحمية بحاجز، ومشى الهويني في جادة أوتتر دن ليندن، التي يسود فيها هدوء منعش. الاختلاف بين برلين الغربية وبرلين الشرقية يشبه الاختلاف بين أمستردام عام 1967 وأمستردام 1947. على الواجهات منعمة الدهان في كلّ الأرجاء ليس هناك سوى دعايات وعبارات إيديولوجية على لافتات حمراء: «أيها الفنانون والعاملون في المجال الثقافي، فليكن فنكم مصدر إلهام للطبقة العاملة في تحقيق انتصار الاشتراكية». كان عابرو السبيل يلقون نظرات على بدلتهم الصيفية الفرنسية، وحذائهم الإيطالي، وقميصه الأميركي وربطة عنقه الإنكليزية؛ بين حين وآخر يخاطبه شخص يريد مبادلة ماركات ألمانية بقيمة أربعة مقابل واحد.

في آخر الجادة، قبالة الساحة الغائرة، التي شهدت حرق الكتب عام 1933، دخل إلى نيو فاغه: مبنى صغير من الطراز الكلاسيكي الحديث برواق معمد، حيث يقاوم جنديان واقفان من دون حراك نظراتٍ ضاحكةً لمجموعة من أشخاص فضوليين. في الداخل، تشتعل في مكعب من الكريستال شعلةٌ أبديةٌ فوق كلٍّ من الجرتين المتضمتين رماد جثة الجندي المجهول والمقاوم المجهول، كُتب على الجدار الجانبي بحروف ذهبية: «ضحايا الفاشية والعسكرية». لكنه لم يُمنح الوقت للتأمل، فقد أُخليت الصالة بأسلوب لبق، وعندما خرج من المبنى، كانت مناوبة الحرس تقترب في أوتر دن ليندن بموسيقا عسكرية وأحذية صاخبة. الأوامر، الخطوات الاستعراضية، الأجسام التي تبدو وكأنها ملتصقة بعضها ببعض، الدقة البروسية المربعة التي حُبط بها خمسون عقب بندقية على بلاط الشارع وكأنها عقب بندقية واحدة، الطقس الاحتفالي المنيع بأكمله بعث في أهالي برلين ضحكاتٍ في المقام الأول - والوحيد الذي شعر بعينه تخضلاً بالدموع، كان هو نفسه، فصحيحٌ أن الطقس عسكري، لكنه مخصص أيضاً لضحايا الفاشية.

هام على وجهه في المدينة بالدليل السياحي في يده، وخُيِّل إليه أنه يخوض في التاريخ حتى ركبته. في الشارع المهجور أوتو غروتيهول، الذي كان فيلهلم شتراسه ذات يوم، حدّق في نهاية المطاف دقائق طويلة في الساحة الخضراء المضاءة بنور الشمس، التي قامت فيها مستشارية الرايخ ذات يوم. يشير ورّمٌ بارز إلى المكان الذي كان فيه مدخل المخبأ؛ هناك في الأسفل، في أعماق الأرض، قرّر الوحش إطلاق رصاصته الأولى منذ الحرب العالمية الأولى: في فمه. أحنى ماكس رأسه علامة الموافقة. ناجى نفسه: «طبّاخ السم ذوّاقه».

*

ما بعث السرور في نفسه هو أنّ القطار الليلي المتجه إلى كاتوفيتسه لا يزال يُسحب بواسطة قاطرة بخارية، تهدر في تقطّع وتصفّر بصفارة من الطراز القديم. توقّف على الحدود البولندية على مدى ساعات طويلة، في حين بقي موظفون آخرون في بدلات مختلفة يسرون عبر الممرّ ويفتحون باب المقصورة؛ تحرّك القطار إلى الخلف، إلى الأمام، اصطدم بعربات أخرى، خرج من المحطة، دخل إلى المحطة مجدداً، بينما تلوح في الخارج أبراج مراقبة، أضواءٌ كاشفة، سيارات جيب محمّلة بالجنود، حذاءٌ طويل ظاهر نصفه من السيارة. كان يشعر برضاً كامل. أخيراً أصبح كلّ شيء مختلفاً. حاول في الضوء الخافت قراءة مقال لزملائه الإنكليز عن اكتشاف نوع جديد من مصادر الراديو، «النجم النابض»؛ إنهم يبلغون من عدم

التآني حد الاعتراف بأنهم كانوا يظنون حتى إنّ هناك حضارة خارج كوكب الأرض، لكنّه لم يكن في مزاج لأن يعرف التفاصيل التقنية. كان جالساً إلى تلك اللحظة بوجهه إلى الأمام، وها هو ذا الآن يدخل بولندا بوجهه إلى الخلف، فراوده شعورٌ بأنّه عائد إلى البيت. المفتش يأتي إليه مرّة بعد مرّة بسعرٍ أسود فأسود لصرف زلوتي^(*)، لكنّه رأى أنّه من الأفضل ألا يجاريه في الأمر؛ بدت الفلاحة على المقعد المقابل، بمنديل على رأسها وخنزير صغير ناخر في سلّة على حضنها، أنها لا تسمع شيئاً. بالقرب من مدينة غليفيتسه، بدأ الجميع ينهضون عن مقاعدهم ويللمون أغراضهم - علم ماكس أنّ هذه كانت في السابق غلايفيتز، التي كانت تقع في الماضي على الحدود الألمانية البولندية، المدينة التي اختلق فيها هتلر «حادثة» واتخذها ذريعة لاجتياح بولندا في اليوم التالي: هنا كانت البداية الفعلية لكلّ ما حدث.

نزل في فندق عائلي مهالك في مركز مدينة كراكوف. هل كان ليسينكو محقاً رغم كلّ شيء؟ هل تجارب الحياة وراثية أيضاً؟ راوده شعورٌ بأنّه عائد إلى البيت. عندما فتح أبواب شرفته المطلّة على الفناء الهادئ المليء بالنباتات، طوّقه رائحة فحم بّني غريبة، مألوفة ألفة لا توصف، مصحوبة بحرارة تتطابق تمام التطابق مع حرارة جلده: بدأ وكأنّ جسمه أخذ يتسع حتى بلغ جدران المباني المحيطة. بعد ذلك، في المدينة، حاول استيعاب أنّ والده أيضاً سار هنا، بحقيبة مدرسية من الجلد القاسي على ظهره، لكنّ الفكرة لم تأخذ هيئة واضحة. المدرسة الثانوية تشبه المدارس الثانوية كلّها، بأعمدة من الطراز الأيوني وطلبة^(**) فوق المدخل. في أحد المقاهي، حيث قدّم إليه كأس من الماء مع القهوة، تفحص دليل الهاتف ليرى ما إذا كان أحد من آل ديلبوس لا يزال يعيش في المدينة، ابن عمّ أو ربما ابنة عمّ؛ ولكن المتحدثين بالألمانية جميعهم غادروا بطبيعة الحال إلى الجذع النمساوي بعد الحرب العالمية الأولى. لعلّ أحداً من آل ديلبوس لا يزال يعيش في براغ، أو فيينا، أو بودابست، التي ينوي الذهاب إليها لاحقاً. أمضى باقي النهار مثل أي سائح، نظر بإعجاب إلى الكاتدرائية، وقف عند ضرائح الملوك البولنديين، سار بحذاء من الصوف فوق حذائه على الأرضية الخشبية في مئات الصالات عديمة النفع في قلعة فاقل.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، استقلّ القطار البطيء عبر الجانب الشمالي من المثلث

(*) العملة البولندية. [م]

(**) الطلبة في العمارة هي سطح الجدار الزخرفي شبه الدائري أو المثلث فوق المدخل أو الباب. [م]

إلى كاتوفيتسه. تحت السماء الملبدة بالغيوم، تترامى السهول المهجورة التي لا عزاء لها، القرى الفقيرة، الأطفال الذين يلوحون للقطار من أفنية البيوت الريفية الخشبية، الغابات الكثيفة المناسبة بصورة تدريجية في مناطق صناعية سوداء تغطّص بالمناجم والمصانع، ثم ساحة محوّلات سكك حديدية مترامية بقطارات الشحن. مضت بضغّ ساعات وهو يهيم على وجهه في الشوارع الهادئة، يستنشق رائحة الفحم والكبريت الثقيلة المشبعة بالبخار، وينظر إلى النساء اللواتي يكسّسن الشوارع. هل يمكن أن يسير طفله ذات يوم في شوارع أمستردام ولا يدن على هذا النحو؟ وجد نفسه يفكّر في آدا على الفور. أعني هذا أنّ عليه العودة إليها؟ بعد أن غادرت، لم يتواصل معها مرّة أخرى، وقد أوشك على نسيانها في واقع الأمر - تخيل لو تتصل به وتبلغه بأنها حاملٌ منه؟ ماذا سيفعل؟ ولكنّ هذا الأمر مستحيل، فقد كانت تأخذ حبوب منع الحمل. أبعد هذه الأفكار عن رأسه وعاد إلى المحطة. سار به القطار عبر قاعدة المثلث إلى بيلسكو-فيالا، التي تبعد خمسين كيلومتراً إلى الجنوب. ولكن في هذه البلدة أيضاً، التي صرخت فيها جدّته أثناء ولادة والده، لم يسمع أيّ صدى. لقد تلاشى الشعور بالألفة الذي استحوذ عليه في البداية. لعلّ ليسينكو لم يكن محقّقاً رغم كلّ شيء. ما إن مضت ساعة واحدة حتى استقلّ القطار إلى كراكوف عبر الجانب الجنوبي من المثلث، ينظر إلى الغربان في الحقول، إلى الخيول والعربات الزراعية على الدروب الريفية، ويتساءل هل كان يجب عليه سماع نصيحة أونو.

*

في اليوم الثالث استقلّ القطار المتجه إلى كاتوفيتسه مرة أخرى؛ اضطرّ إلى تغيير القطار في مدينة ترزيبنيا، واتجه بقلب خافق إلى داخل المثلث، إلى أشفنشم، الواقعة في نقطة تقاطع المنصفات الثلاثة. هناك أيضاً، تحت السماء البيضاء الضبابية، تترامى ساحات محوّلات سكك حديدية بقطارات تغيّر مسارها، سائقوها الواقفون قرب النار ينحنون من قاطراتهم البخارية الهادرة وينظرون إلى الخلف، بينما يعبرون بالصفوف اللانهائية من عربات الماشية المغلقة. وصلت به سيارة أجرة إلى مدخل المعسكر خلال خمس دقائق.

بدت مبانٍ بلون الصدأ البنيّ بغموض بين الأشجار. المدخنة العالية مربّعة الشكل فوق محرقة الجثث. القوّة العاملة في عطلة^(*). نظر بوجوم إلى هذه العبارة المصنوعة من الحديد

(*) مكتوبة بالألمانية. [م]

المطاول فوق البوابة؛ أهي السخرية الاشتراكية القومية، كما اعتقد على الدوام، أم أنها موجودة مذ كان هذا المكان ثكنة الفرسان النمساوية-الهنگارية، عند الحدود السابقة بين إمبراطورية هابسبورغ وإمبراطورية هوهنزوليرن؟ لعل والده كان في الحامية التي عسكرت هنا. الحرارة شديدة الرطوبة ساكنة الريح. تناول سحبقاً متبلاً بالبهارات على شريحة من الخبز الأسود في أحد الأكشاك، اشترى بضعة منشورات من كشك آخر، ودخل إلى المعسكر. راوده شعور بأنه متأخر عن نفسه بطريقة أو بأخرى - بأن جسمه يمشي هنا على الحصى الممشط، لكنه هو نفسه لا يمشي هنا بعد، وأن الأمر سيستغرق به عشرات السنوات قبل أن يمشي هنا فعلاً. أبراج مراقبة. صفوف مزدوجة من أعمدة إسمنتية مائلة بأسلاك شائكة ممتدة بين العوازل. جماجم بعظمتين متصالبتين. توقّف! ستوي(*)! إنه أصغر مما كان يتوقّع؛ قرية هادئة مكوّنة من ثلاثة وثلاثين مبنى من حجر الآجر، في ثلاثة صفوف من أحد عشر، فيها تعرّض عشرات الآلاف للضرب حتى الموت، للقتل رمياً بالرصاص، للقتل حقناً بالإبر السامة، للتعذيب حتى الموت، فيها جُرب الغاز على الأسرى المصابين من الروس وعلى المرضى في المستشفيات الواقعة في الجوار، لكنه مع ذلك ليس المكان الفعلي. أحجار، أقبية عطنة، جحور مظلمة، حلقات حديدية على الجدران، قيود، طاولات عمليات جراحية صدئة. بضعة مجمّعات من المباني محوّلة إلى متحف. نظر إلى حوض جهنمي، طوله عشرون متراً وعمقه ثلاثة أمتار، مملوء بشعر نساء، اكتسب لوناً رمادياً كالحاموحداً. هل شعر أمّه في الحوض يا ترى؟ حوض آخر يعجّ بأحذية أطفال بالية، بنظارات، بفراشي أسنان، بأطراف اصطناعية. ها هو ذا هنا. تساءل: لأنه ليس هناك شيء يمكن أن يُحدث اختلافاً في آخر الأمر؟ هل كلّ شيء ممكن وهل يمكن فعل كلّ شيء، نظراً لأنه سيوضع جانباً بصورة نهائية في يومٍ من الأيام؟ حتى في الجنة لا يمكن التمتع بالنعيم الأبدي إلا بنعمة فقدان الإجرام للذاكرة. ألا يجب أن يُعاقب المباركون على هذا بالجحيم؟ لقد دُمّر كلّ شيء إلى الأبد - ليس هنا فحسب، وإنما أيضاً في آلاف الأحداث السابقة واللاحقة، التي لا يتذكّرها أحد. الجنة مستحيلة، لعلّ الجحيم وحده موجود. أيّ شخص يؤمن بالرب، هذا ما قاله لنفسه وهو ينظر إلى الخزانة الزجاجية العملاقة المحتوية على ألعاب، يجب إعدامه - رمياً بالرصاص بجانب جدار الإعدام المطلي بالقطران الأسود، الذي رآه بجانب المجمّع الثاني.

(*) تعني «توقّف» باللغة السلوفاكية. [م]

تولاه إحساساً بأنه منهمك في إلحاق أذى بنفسه. في كشك خارج المعسكر شرب كأساً من ماء معدني فاتر، تصفح المنشورات، تفرس في الأرقام والخرائط، ثم سار في الطريق المؤدي إلى قرية صغيرة، على بُعد بضعة كيلومترات، يقع فيها معسكر الإبادة أوشفيتز الثاني. كان يمكنه الاتصال بسيارة أجرة، ولكن لأن آلافاً لا تُحصى من البشر سيقوا عبر هذا الطريق إلى موتهم، رأى أنه يجب عليه الذهاب سيراً على الأقدام، مثل مسيحي يسلك «طريق الآلام». كان الدرب الضيق المهجور يمتد عبر حقول القمح المجزوز بغابات بتولا هنا وهناك، ترتفع وراءها الأبراج القائمة فوق مهاوي المناجم ومداخل المصانع. الجو خائق؛ بينما يتصبّب عرقاً وينحني بقاتمه بعض الشيء، أخذ ينظر إلى الأحجار التي يسير عليها، فلم يتلاش المنظر الطبيعي من حوله فحسب، بل وكل ما يرتبط به أيضاً: أمستردام، أونو، صاحباته، زملاؤه، وعمله كذلك، المرصد الفلكي، أعماق الكون العبثية. لم يبقَ أيُّ شيء سواه، على النحو الذي يسير على أحجار الدرب الممتد بين أشفنشيم وبززينكا، وسط مثلثة الشيطاني. من دون التفكير في شيء خاص، امتلاً بصورة متزايدة بالإحساس بأنه هنا، بأنه موجود هنا، الآن، بأنه موجود هنا الآن بأصله وفصله: لماذا؟ لأنه هو نفسه هذا السؤال، هذا السرّ بحدّ ذاته؟ هل السؤال هو الجواب والجواب هو السؤال؟ كان يرى فرديتي حدائيه تتقدّمان في تناوب إلى الأمام، ولاحظ بصورة مفاجئة دوران الأرض: يجب عليه مواصلة السير ليبقى في المكان نفسه. ولكن بعد برهة من الزمن بدأ الدوران يزداد بصورة تدريجية، لذلك اضطر إلى الإسراع في المشي من أجل إحداث التوازن، وما لبث أن انتابه شعور بأنه سيقع على وجهه - توقّف عن السير وهو يشعر بالدوار ورفع عينيه عن الأرض. إنّه يقف على تقاطع مع طريق ريفي رملي يعجّ بآثار عجلات العربات. هناك جسرٌ فوق سكة حديدية على بُعد بضعة مئات من الأمتار - ووراءه على بُعد كيلومتر واحد، مترامياً في اتساع وانخفاض في ضوء الشمس الضبابي، يقع مبنى الدخول إلى أوشفيتز بيركيناو: فتحة الشرج.

بقي ينظر إليه متسماً في مكانه. ها هو ذا هنا. يشبه ببرجه الصغير فوق البوابة طائراً جارحاً وحشياً، حطّ هناك بجناحين مبسوطين. السماء فوقه تصطبغ بالأحمر ليل نهار من المحترقين من الرجال والنساء والأطفال؛ لا بدّ أنّ بقايا رمادهم لا تزال متناثرة في كلّ مكان من الحقول المحيطة به. ليست هناك حركة مرور؛ لا يملأ الصمت سوى شدو الطيور وصفير القاطرات البخارية في البعد، تفوح رائحة الأعشاب الدافئة، ممتزجة برائحة كيماوية لا يمكن تعريفها. نظر إليه المبنى دون حراك في شكله المتناسق عديم الرحمة. عندما بدأ يسير صوبه، رأى على

الجهة الأخرى من تقاطع الطرق تمثالاً صغيراً يجسّد مريم، مقاماً في نوع من أقفاص الطيور. تحمل العذراء بعضاً من الأغصان الذابلة في يديها، رافعةً عينيها إلى السماء بتلك النظرة التي غالباً ما كان يراها، عندما ينهض من رقادها، على الوسادة تحت رأسه. في تلك اللحظة نفسها، غمره غضبٌ عارم. من دون أن يفكر أو ينظر حوله في أول الأمر، ركض إلى التمثال الخشبي، انتزعه من قاعدته، أمسكه من رأسه، وألقاه أبعد ما يستطيع بين الشجيرات.

بينما لا يحوّل عينيه عنه، تابع السير فوق جسر السكّة الحديدية بقلب خافق، ورأى المعسكر يقترب منه مع كلّ خطوة من خطواته: فجوة سوداء لا يستطيع أيُّ شيء الإفلات منه. هذا مذبح القرايين، مركز القوّة الحقيقية للفاشية. هل هناك مكانٌ على الأرض عُمل فيه من الخير ما عُمل هنا من الشر؟ إذا كان للجحيم هذا الفرع على الأرض، فأين فرع الجنة إذا؟ ليس هناك مكان من هذا القبيل، لأنّ الجحيم وحده موجود وليس الجنة. هذا المكان نقيض الجنة تماماً، حتى وإن كانت الجنة غير موجودة. في تلك اللحظة فحسب لفت انتباهه وجود مدخلين للمبنى المشيّد من حجر الآجر ذي اللون الضارب إلى الحمرة: أحدهما في الوسط، يسير عبره خطاً السكّة الحديدية، والآخر إلى يساره من أجل حركة المرور الأخرى. مئات الأمتار إلى اليسار وإلى اليمين صفوفٌ مزدوجة من أعمدة إسمنتية بأسلاك شائكة كهربائية، بارتفاع أربعة أمتار، تتخلّلها أبراج مراقبة على مسافات قصيرة. أراد أن يسير إلى داخل المعسكر عبر البوّابة الوسطى، المبنية على شكل فتحة فرن من أفران حرق الجثث، لكن فجأة بدا وكأنّ جداراً غير مرئي سقط في دويٍّ أمامه: لا يجوز له الدخول إليه. تحوّلت الأرض الملعونة، التي قُتل عليها ملايين الناس، إلى أرض مقدّسة: لا يجوز له أن يدوسها بقدميه.

وقف على العتبة ينظر إلى الساحة التي تبعثرت فيها الأنقاض والحشائش الضاربة. هذه هي الفوضى في غرفة نوم تُركت على عجل، السرير غير مرتّب، الأدراج والخزانات كلّها مفتوحة والملابس في كلّ مكان على الأرض. ليس هناك أحد. في الداخل تتفرّع السكك، وتتفرّع مرّة أخرى؛ في المسافات الطويلة بينها، كانت الاصطفاءات تحدث بين أولئك الذين سيموتون في الحال والذين سيموتون في وقت لاحق. إلى اليسار من لآخر شتراسه تقوم صفوفٌ من برّكات خشبية، إلى اليمين لا شيء سوى مداخنها. رأى الأنقاض المتطايرة من محارق الجثث وغرف الإعدام بالغاز في مكان بعيد، على اليمين وعلى اليسار، عند نهاية السكك الحديدية؛ الجهة الخلفية من طبق القرايين مستطيل الشكل، تبلغ من البُعد أنه لا

يستطيع رؤيتها بوضوح. جلس القرفصاء ووضع يده اليمنى على السكة الصدئة. لقد وصل بها القطار على هذه السكة إلى الداخل. خُيِّل إليه وكأنَّ السكون غير المتحرِّك قد تسرَّب إلى كيانه - لم يدخل هو إلى المعسكر، بل دخل المعسكر إليه. لقد اختفى الجزأرون والضحايا جميعهم - والده ووالدته أيضاً: ماذا يشكِّل هو نفسه سوى تجسيد للمعسكر في إجماله؟

قرَّر أن يمشي ببطء حول الأربعة ملايين ونصف المليون مترٍ مربع. في كلِّ مترٍ مربعٍ منه يرقد قتيل.

13. ترتيب

في تلك الساعات نفسها التي يطوف ماكس فيها الثمانية كيلومترات في بولندا، تغلبت آدا على ترددها واتصلت بأونو لتسأله أين صديقه. طبعاً كان ماكس قد تصرف معها بصفاقة، ولكن من ناحية أخرى تربطهما تلك الصداقة الحميمة الحمقاء؛ لعل شيئاً مهماً فعلاً كان على جدول أعمالهما في ذلك الصباح - رغم أنه كان بوسعه إخبارها به. لم يكن قد غاب عن بالها على كل حال، ولعل رد فعلها أيضاً ينطوي على شيء من المبالغة.

بدا صوت أونو مندهشاً، لكنه لم يستطع أن يخدمها في هذا الأمر: «في مكان ما في بولندا، أو في تشيكوسلوفاكيا، أو في هنغاريا - أنت تعرفين مع أي شخص تتعاملين. شيء فظيع». مع أي شخص تتعامل؟ لقد فاتها المغزى من هذه الملاحظة.

- متى سيعود؟

- بعد نحو ثلاثة أسابيع، على ما أعتقد.

- هل تكلم عني؟

- لدي انطباع بأنه متأسف لحدوث قطيعة بينكما. شيء يؤسفني أيضاً على كل حال. كان لك تأثير إيجابي على ذلك المجنون. ذلك بسبب الموسيقى المُنْطَهرة للنفوس طبعاً. كيف تسير الأمور مع الثنائي؟

- لم يعد موجوداً في الواقع. لم يعد برونو يرى أي جدوى فيه. خضعت للتو لاختبار أداء أمام أوركسترا الكونسيرت خباو.

- وكيف هي النتيجة؟

- إنني في انتظارها.

- لماذا هذا القرار المفاجئ؟

- يجب عليّ كسب المال، أريد ترك البيت. وأنت؟ ألن تذهب في رحلة استجمام؟

- أنا؟ أذهب في رحلة استجمام؟ هل تعتقدين حقاً أنني أنغمس في مثل هذه الملذّات البرجوازية الصغيرة؟ يا للعار! أنت أيضاً لا تذهبين في رحلة استجمام، أليس كذلك؟

- لأنني لا أستطيع تحمّل التكاليف.

- من أين تتصلين؟

- من الكونسيرت خباو.

- حسناً. دعينا نشرب فنجاناً من القهوة في مقهى كايزر، الواقع في الزاوية. إنني قادم، وعندئذٍ سأسلّط ضوئي الحارق على عزيزك، لصّ الخيول البوهيميّ ذاك.

وهي جالسة إلى طاولتها بجوار النافذة، رأتها قادماً من ساحة المتحف ويقطع الشارع. كان ماكس سيرها على الفور، حتى قبل أن تراه هي على الأرجح؛ ولكنّ أونو ينظر إلى بلاط الشارع مستغرقاً كامل الاستغراق في نفسه، بأفكاره على أيّ حال في مكان غير المكان الذي هو فيه. أثارت قامته الضخمة الغليظة اشمئزازاً جسدياً غامضاً في نفسها، لكنّها في الوقت نفسه حرّكت فيها مشاعر رقيقة. لم تستطع تصوّر أن يكون هناك تناقض أكبر من التناقض الموجود بين ماكس وأونو: ماكس الذي لا تفوته شاردة ولا واردة، الذي يكون في كلّ مكان في الوقت نفسه، وأونو الذي يصبّ تركيزه في نقطة واحدة على الدوام ولا يعود باقي العالم موجوداً بالنسبة إليه.

بدا أنه مسرور برؤيتها. حتى لقد طبع قبلةً خرقاء على خدّها لأوّل مرّة.

- ما الذي كنت تفكّر فيه بذلك العمق؟

- هل تريدان أن تعرفي حقاً؟

- إن لم يكن سرّاً...

- إنه سرٌّ رهيب، لكنني سأخبرك به. كنت أفكّر بتربيع سحريّ.

التقط جريدة من طاولة القراءة، جلس قبالتها، وكتب في هامش الجريدة:

m a x

a d a

x a m

- انظري جيداً إلى هذا التقاطع. كنت أتساءل ماذا تعني الحروف الموجودة على القطرين
«mdm» و«xdx»، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة بعد. من المحتمل أن «mdm» اختصار
«madman»^(*)، ولكن ماذا يمثل «xdx»؟ لعلّه شيء متأثّر من حساب التفاضل، ولكن ماكس
أفضل مني في هذا. أخبريني، كيف حالك؟ المرة الأخيرة التي التقينا فيها كانت في تلك
الأمسية الحمقاء التي عزفت فيها.

- هذه أول مرة أعود فيها إلى أمستردام.

- ما الذي حدث بينكما حتى انتهت العلاقة بصورة مفاجئة؟ كانت تبدو حالة شاعرية.

سألت آدا باندهاش: «ألم يخبرك؟!».

- لم أسأله.

ناجت آدا نفسها: يبدو أنّ أحدهما لا يخبر الآخر بكلّ شيء، كما ادّعى ماكس.

- أفضل إذاً ألا أخبرك أنا أيضاً.

أحنى أونو رأسه بالإيجاب وأخذ يحرك الملعقة في قهوته: «ها نحن جالسان هنا إذاً.

ماكس يبحث عن جذوره، ونحن جالسان هنا مثل يتيمين».

- أيّ نوع من الجذور لديه هناك؟

نظر أونو إليها بعدم تصديق: «ألم يتحدّث معك عن هذا؟».

- لم يكن يتحدّث كثيراً.

تشاور أونو مع نفسه عمّا إذا كان من الجائز له إخبارها. لأنه يعرف أنّ ماكس لا يحرص

على إبقاء حكايته طيّ الكتمان، ولأنه رأى أنّ آدا لها الحقّ في معرفتها، أخبرها بالحقائق -

بدءاً من الحرب حتى زيارتهما إلى المعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب.

عندما سمعت آدا بهذه الزيارة، اتضح لها الأمر. «أبلغني نفسك». بقيت في الوقت نفسه

على قناعة بأنه لم يكن ليتصرّف بتلك الطريقة لو جاء شخص آخر لاصطحابه إلى ذلك

المعهد: كان ذلك متأتّياً من أنّ أونو هو الذي رنّ جرس الباب - أونو الذي يمكن أن يغادر إن

لم يفتح له الباب على الفور، ولا يعود أبداً، أبداً، مرة أخرى. لكنّها فهمت السبب أيضاً بصورة

مفاجئة: لقد غادر والداه ذات يوم ولم يعودا أبداً مرة أخرى. ظلّت تشرب قهوتها بصمت.

(*) تعني بالإنكليزية: رجل مجنون. [م]

أصبح ماكس إنساناً آخر على حين فجأة - مثل الوقت الذي تفتح فيه الستائر في الصباح وترى المنظر المألوف قد غطاه الثلج في الليل: كل شيء على حاله، وكل شيء مختلف. هناك في غرفتها الخلفية الهادئة في لايدن، تشاق إليه بطريقة أدهشتها هي نفسها، ليس اشتياقاً جسدياً، لأن هذا الأمر لا يعني لها الشيء الكثير، بل تشاق ببساطة إلى وجوده. ولكن يبدو أن ذلك الوجود كان هو الغياب في الوقت نفسه؛ طوال تلك الأسابيع لم يجدها جديرة بأن يخبرها من يكون في حقيقة الأمر. أم أنه من غير المعقول أن تطلق مثل هذا الحكم على شخص مرّ بتجارب لا تستطيع هي تصوّرها؟ تخيل لو أن أباهما كلّ أحداً لقتل أمها وبعد ذلك أعدم هو نفسه رمياً بالرصاص... شيء لا يمكن تصوّره. لا يفصل بينها وبين وماكس ما يزيد عن ثلاث عشرة سنة، ولكن بالنسبة إليها تلك الحرب كلّها، التي لا يتوقّف والداها عن الحديث عنها - والتي تدين لها بوجودها - حدث من الماضي الغامض. خلصت في نهاية الأمر إلى أنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة إلى ماكس. هذا الشعور لازمها طوال تلك الفترة أيضاً، وها هي ذي تعلم من أي مصدر كان ينبثق. لقد أخذت قراراً صائباً عندما تركته، وإن كان لسبب خاطئ ربما. كان مقفلاً أمامها، ولم يكن مستعداً لإعطائها المفتاح، الذي تبين أنه في جيب أونو.

سأل أونو: «هل تريدان الرجوع إليه؟».

- لم يعد هذا ممكناً. ليس لأنك أخبرتني بحكايته، ولكن لأنه لم يخبرني هو بها. رأت على أونو أنه يشعر بالحرج ويتساءل هل ارتكب خطأ بإخبارها، سألته بغية مساعدته: «وأنت؟ كيف حالك؟ هل تحرز تقدماً في فكّ الرموز؟».

- لا تسأليني عن هذا. كل صباح، عندما أستيقظ من النوم، أرى خيبة حياتي تحدّق فيّ بعينين جوفائين.

- ألا تبالغ قليلاً؟

- قليلاً؟ هل لك أن تتوقّفي عن إهانتني! إنني أبالغ مبالغة رهيبة!

- هذا يعني أنك تحرز تقدماً هائلاً في الواقع.

عبرت وجهه ابتسامة ساخرة: «لا يا آدا، لكنني أحاول جهدي».

تأثرت بذكره لاسمها. هل حدث أن ذكر ماكس اسمها عندما يتحدّث معها؟ ذكر اسم شخص أثناء المحادثة يشبه مداعبة ناعمة، تمسيدة على الشعر - هل حدث أن ذكرت هي نفسها اسم ماكس؟

أخبرها أونو بأنه ما دام لا يستطيع فكّ رموز قرص فستوس، فقد قرّر أن يمضي الوقت في تغيير هولندا. لقد حانت اللحظة المناسبة لفعل ذلك، ولن تحين مثل هذه اللحظة مرة أخرى في الأجل القريب. لذلك انضمّ مؤخراً إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي - ليس تجمعاً من أناس ثوريين، هذا ما يجب أن يُقال، الحقّ أنه حزبٌ خجول بعض الشيء، لكنّه الوحيد في نهاية الأمر الذي يحظى بفرصة في ممارسة سلطة حقيقية، والذي يمكن للمرء الظهور فيه على نحو أقلّ أو أكثر كإنسان متحضّر. يجب أولاً أن يتغيّر هذا الحزب نفسه؛ يشكّل جزءاً من اليسار الجديد، مجموعة صغيرة لكن مصفّاة من المتمرّدين، والصحفيين، وهذا النوع من الشخصيات المريية، التي من شأنها أن تكسر في الأجل القريب الهيمنة التي تمارسها نخبة الديمقراطية الاشتراكية الرجعية، هؤلاء الأتباع المتذلّلون لأميركا بكراهيتهم للشيوعيين وحبّهم المشوّه للكاثوليكيين الرومانيين. يجب أن يعمل في الوقت نفسه على منع زعماء طلاب حاقدين معيّنين من الوصول إلى الحكم، فالحرس القديم لم يعد قادراً على القيام بهذا الأمر أيضاً. باختصار، إنه يمضي معظم وقته في الاجتماعات في الوقت الحاضر.

- أعتقد أنك تفعل هذا أيضاً كي تغيب أخويك. ما رأي والدك في هذا؟

ضحك أونو: «عدنا من جديد. لا تخبر امرأة بأيّ شيء، لأنها ستسيء استعماله من أجل أن تفهمك. أجزم أنه يرى في أعماق قلبه أنه شيء رائع لعب أحد من آل كويست دوراً عند الحُمر، لكنّه يفضل قطع لسانه على الاعتراف بهذا الأمر. والاشتراكيون أيضاً يرون أنه شيء جميل أن يكون معهم أحد من آل كويست. وأنا أتركهم يتكثّون عليّ، بالوقار الهادئ الذي يميّزني عن غيري. في السياسة يجب عليك استخدام الأسلحة التي تملكها، مثلما هو الحال في الحب. كلّ شيء في حدود اللباقة طبعاً».

- هذا يعني أنك ترى ماكس أقلّ من السابق.

- نعم، أرى ماكس أقلّ من السابق.

أشعل سيجارة وتابع: «لا أظن أنني أستطيع شرح هذا الأمر لك، لأنني أنا نفسي لا أفهمه في الواقع، لكنني سأبقى ممتناً له إلى آخر يوم في حياتي على حقيقة أنه موجود».

- هذا ينطبق عليه أيضاً، إذا تعلّق الأمر بك. أعلم هذا.

وبقيت تنظر إليه برهة قصيرة: «ولكن لماذا تصرّح فجأة بهذا التصريح المهيّب؟».

- بدافع من حزن مرير.

- هل حدث شيءٌ مزعج بينكما؟

- طبعاً لا. إنه شيء يمتّ بصلة إلى الوقت لا أكثر. يعرف أحدنا الآخر منذ ستة شهور، وأجد في الأسابيع الأخيرة أنّ عبارة من عبارات هيغل تخطر في بالي كلّما فكّرت في الشهور الأولى تلك: «كان شروق الشمس ذاك باهراً». هذه العبارة كتبها بصفته رجعيّاً عجوزاً عن الثورة الفرنسية، التي شكّلت مصدر إلهامه في شبابه - عندما كان الجميع لا يتحدّثون سوى عن فظائع الإرهاب اليقوبي^(*). ولكن قبل شهرين لم تكن هذه الجملة تخطر في بالي على الإطلاق، وأن تخطر في بالي الآن، بصيغة الزمن الماضي المشؤوم، إنما علامة على أنّ هناك شيئاً يتغيّر. أراه أقلّ مما كنت أراه في السابق بسبب مشاغلي السياسية، ولكن يمكن أن يكون العكس بعض الشيء أيضاً، إن كنت تفهمين ما أعني. على كلّ حال، إنها الحكاية القديمة، لا شيء استثنائي: الفعل يعقبه التفكير، الحبّ يعقبه الزواج. سنبقى صديقين حميمين إلى الأبد - حتى وإن سرق ذلك النذل صديقتي مني.

ردّدت آذا بذعر أكثر من اندهاش: «سرق منك صديقتك؟ وقلت لم يحدث شيء مزعج؟ متى كان ذلك؟».

ضحك أونو وقال إنه من الأفضل على الدوام ألا تأخذ كلّ ما يقوله بشكل حرفي. أخبرها باستمتاع عن علاقته مع هيلخا، التي أنهاها ماكس بتظاهره أنه رفيقه في الشارع. الحقّ أنها بدت مأساة كبيرة.

قال: «كانت تشبه المسرحية في هاملت، المسرحية داخل المسرحية، التي يُواجه فيها الملك بجريمته - الفرق هو أنّ ريبباً ماكرّاً تقصّد تمثيل ذلك في مسرحية شكسبير، أما ماكس فقد فعله ببراءته اللعوب».

- ومن يرتّب غرفتك في الوقت الحاضر؟

أجاب أونو بصوت مخنوق هزلي: «لا أحد».

وقطّب وجهه وكأنه على وشك الانفجار بالبكاء: «لا أحد. أنا وحيد في هذه الدنيا».

قالت آذا بضحكة قصيرة: «صبيّ مسكين. هل أرّبت لك غرفتك إذا؟».

(*) إشارة إلى «نادي اليعاقبة، أصدقاء الحرية والمساواة» وهو النادي السياسي الأكثر نفوذاً خلال الثورة الفرنسية، نشأ على أيدي النوّاب المعادين للملكية. اتسمت بعض فترات حكم اليعاقبة بمستويات عالية من العنف والإرهاب السياسي. [م]

أحنى أونو رأسه بطريقة توصف عادةً في كتب الأطفال بأنها متلهّفة: «نعم، سيّدي. من فضلك، سيّدي!».

- هل نذهب الآن؟

رفع عينيه متفحّصاً: «هل ما زلت تقصدين هذا على سبيل المزاح؟».

- لا أبداً. أريد رؤية كيف تعيش، لقد سمعت عنك الكثير...

- لم يحدث أن رأى ماكس كيف أعيش، أو بالأحرى: لا أعيش.

- أنا لست ماكس.

نظر أحدهما إلى الآخر. بدأ كلّ شيء يتغيّر بصورة مفاجئة - مثل شجرة أسقطتها الريح، اقتلعتها من جذورها التي تعجّ بالحشرات. لا، لم تكن ماكس، لكنّه هو أيضاً لم يكن ماكس، وفي الوقت نفسه كانت هي ماكس، وكان هو كذلك.

*

بينما يجتاز ماكس طريق الحداد المستطيل حول المشنقة هائلة الحجم في بولندا، بدت آدا مذهولة مما أخذت تفعله فجأة، وبدا أونو مذهولاً مما سمح بحدوثه. حمل التشيلو الخاص بها عبر ساحة المتحف، وقال إنه فهم أخيراً لماذا أنهى ماكس العلاقة. اجتازا نفق المتحف الوطني رايكز صوب شارع كيرك. نزل الدرجات الأربع المفضية إلى القبو، فتح باب مدخل مزوّدي البضائع السابق، وتركها تدخل.

قال وهو يتقدّمها في السير على الألواح الرخامية المتصدّعة المرصوف بها الممرّ المظلم: «هذا غير جائز إطلاقاً».

كان أحد الجدران مختفياً تقريباً وراء أكداس من براميل الكيروسين ذات اللون الأحمر والأخضر.

- ولمّ لا؟ ألا تسمح لك صاحبة البيت باستضافة النساء؟

- صاحبة البيت نفسها فاجرة بشكلٍ لا يوصف. أضطرّ دائماً إلى إقفال الباب في الليل.

- أنت تتصرّف وكأنني طلبت منك النوم معي.

- أليست هذه هي الحقيقة؟

قالت آدا مندهشة من نفسها: «نعم، ربما».

توقّف عن السير ورفع عينيه إلى السماء: «أحتاج إلى مزيد من الشهود؟ هذا هو الدليل القاطع على انحطاط المرأة الأخلاقي! حتى معجزة الموسيقى لا تفيد في شيء على ما يبدو». سمعت آدا نفسها تتكلّم، باستخفاف، بغنج امرأة دنيوية؛ تكاد لا تعرف نفسها، يبدو وكأنها ترى نفسها في المرأة في حلّة ملكية. يراودها شعور بأنها سيّدة الموقف - ها هي ذي في أمستردام، وهي الريفية الصغيرة من لايدن، في استضافة عالم يتمتع بشهرة عالمية ينحدر من عائلة مرموقة. إنها صاحبة الكلمة. لم يحدث أن أمسكت بزمام الأمور عند ماكس، حتى إنّ فكرة من هذا القبيل لم تخطر في بالها؛ كان يتحمّلها باستعلاء شخص يتحمّل وجود قطّة في حضنه، إلى أن يبعدها عن نفسه بحركة بسيطة. أما الآن فإنّ القطّة تمسك بطير في فمها.

توقّفت على عتبة غرفة أونو. إنه أمرٌ حسنٌ فعلاً أنّ ماكس لم يرَ هذا البيت على الإطلاق. كانت الفوضى شاملة. تحت النافذة الضيّقة في الغرفة الأمامية، التي يمكن من خلالها رؤية العابرين على الرصيف حتى مستوى الركبة فحسب، تقوم طاولة مكتب وُضعت عليها أكداشٌ عالية من الأوراق، كتب مفتوحة، مجلّات، جرائد مبعثرة، منشورات، آلات نسخ، كشوفات مصرفية، ظروف، فواتير، كلّ شيء بشكل عشوائي ومبرقش بمنافض ملأى بأعقاب السجائر، زجاجة حليب فارغة، علبة سكّر مفتوحة، راديو محمول، قطعة من الزبدة أصبحت برتقالية اللون على ورقة من الألمنيوم - وهذا كلّه يستمرّ على الأرض وعلى طول الجدران، التي تقوم بجانبها رفوفُ كتبٍ منحنية وكنبة ذات حشوة هابطة ومدفأة بترول، إلى أن يبلغ الغرفة الخلفية، حيث ينتهي عند فراش اصطبغت شرافه بلون الورنيش المोगل في القدم الذي تراه في جداريات كنيسة السيستينا.

قالت آدا وهي تدخل الغرفة: «نعم، إذا كان هناك شيء لا يجوز إطلاقاً، فهو هذا».

- أنظنين أنه غير مرتّب؟

- ماذا عليّ أن أقول؟ إنه مختلف عن بيت صديقك.

- لكنني لا أشعر بأنني يجب أن أكون قادراً على الفرار بسرعة قصوى في أيّ لحظة. أما بالنسبة إليه فيمكن حدوث أيّ شيء في أيّ لحظة، لذلك يجب أن يكون بوسعه العثور على ما سيأخذه معه في الحال. لا أستطيع العثور على أيّ شيء هنا.

التقطت آدا من الأرض مجلداً بنّي اللون عتيق الطراز، بكعبٍ جلديّ مهترئ، وقرأت العنوان المكتوب بالألمانية، المطبوع بعشرات الأنماط من الحروف بصوتٍ عالٍ: «القاموس

العبري-الكلداني-الحاخامي الشامل للعهد القديم، الترجوميم، والمدراشيم، والتلمود، مع تفسيرات من مجالات النقد التاريخي، وعلم الآثار، والأساطير، والتاريخ الطبيعي وما إلى ذلك، ومع اعتبار خاصّ لأقوال مسيانية، باعتبارها الرابط بين كتابات العهد القديم والعهد الجديد».

سألت وهي ترفع عينها إليه: «كتاب ممتع؟».

- أمتع مما تظنين. هذا نوع من الكتب التي تعدّها لي الأقزام الخرافية في الليل عندما أكون نائماً.

كان منشورٌ حديث موضوعاً فيه كمؤشّر للصفحات: الاشتراكية والديمقراطية. بينما تضعه فوق كتب مكدّسة بحذر، تذكّرت محلّ والدها، ما منحها شعوراً بالألفة المنزلية. فتحت النافذة فوقعت عينها على صورتين لامعتين، مثبّتين بالدبابيس على إطار النافذة: نوع من رسمة لعبة الحجلة، تدور خطوطها مع اتجاه عقارب الساعة من الخارج إلى الداخل.

- هل هذا هو؟

- نعم، هذا هو.

أجالت عينها على الرموز وهي تهمهم بصوت خافت وكأنها تقرأ الكتابة بسهولة. نظر أونو إلى قامتها الرقيقة في الضوء المشعّ خلفها، واقفة وجهاً لوجه مع الشيء الذي يعذّبه منذ زمن طويل. قال لنفسه: ولمَ لا؟ لقد انفصلت عن ماكس، ولم يتحطّم بسبب ذلك؛ يضاف إلى ذلك أنه صاحب فتيات أخريات من شتى الأصناف أثناء علاقته معها. لم يكن هو نفسه زير نساء يلاحقهن بشبق، بل يترك لهنّ المجال لإغرائه على الدوام، وهذا ما حدث مع هيلخا أيضاً. لم يكن يحدث كثيراً أن تضع إحداهن عينها عليه، ولكن عندما يحدث هذا، لا يشعر بأنه قليل الحيلة فحسب، بل ويحسّ برغبة الفتاة مثلما يحسّ بحبّه لها. وهذا هو الحال أيضاً. إنه يحبّ آدا - في الهيئة التي تقف فيها هنا بشعرها الأسود وتنظر إلى الكتابة الغامضة. ولكن يجب عليه منح نفسه الوقت الكافي. لم يسبق أن رآها من دون ماكس، لا في الحقيقة، ولا في تصوّره: إنها جزء منه، وهذا ما يجب أن يخفي أولاً. يعلم علم اليقين أنه لن يغطس معها في السرير على الفور، مثلما سيفعل ماكس. وعلى كلّ حال، يجب أن يُنظّف السرير أولاً.

التفتت إلى الوراء ومسحت الغرفة بعينها مرة أخرى. هناك شيء واحد جميل على نحوٍ أقل أو أكثر يمكن رؤيته: صندوقٌ صينيّ مفرط الزخرفة منحوت من خشب داكن، له مقبضان

وقفل نحاسي؛ عندما رفعت الغطاء وألقت نظرة على الملابس والأحذية المهملة، انبعثت منه رائحة كافور ثقيلة.

سألت بنبرة شخص يهمل بالعمل: «ما النظام هنا؟ من أجل أن أعرف كيف يجب علي ترتيب البيت».

- لا يوجد نظام هنا. هنا تسود الفوضى العارمة التي يعيش فيها العاقرة.

ولكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً. ذهبت إلى الغرفة الخلفية، ورأت بين خزانة الكتب المتخمة والمغسلة القذرة المقرفة، قبالة السرير، عدداً كبيراً من أوراق مخططة بمربعات مثبتة بدبابيس على ورق الجدران: مقسمة بعناية إلى أعمدة أفقية مرقمة وأخرى رأسية بعناوين مثل: مذكر؟ مؤنث؟ حالة رفع. احتمال «حالات نصب». تنوعات هجائية. الحرف الساكن «س» الثاني قبل 24؟ الرموز موزعة على الأعمدة، ومثلما يتبين ليست الرموز الخاصة بقرص فستوس فحسب، بعض المجموعات مؤطرة بالحبر الأحمر أو الأخضر، ومزودة بملاحظات، - كل شيء بدقة وترتيب. هناك على وسادته المجعدة كتاب الأمير لمكيا فيلي؛ تطلّ النافذة على فناء مبلط مظلم.

التقطت آدا بعض الملابس وسألت: «هل لديك غسالة؟».

- هناك واحدة في الطابق العلوي يمكنني استخدامها، لكنني خائف من تلك الآلة الشمطاء. عندما تشتغل، يرتج البيت كله، حتى إنها تتجول في المطبخ في بعض الأحيان.

- أهنأك مكنسة كهربائية وهذا النوع من الأشياء؟ سطول ومماسح وأشياء من هذا القبيل؟ ربما صابون أيضاً؟

- اللعنة يا آدا، هل تريدين فعلاً ترتيب البيت؟ هل أصبحت مثل هرقل؟

- اخرج بضع ساعات، اذهب إلى المدينة!

طبع قبلة على جبينها: «حسناً، افعلي ما تريدين، ولكن لا تلمسي أي شيء!».

14. تعويض

الشخص الذي يعود من رحلة، يحمل معه المسافات التي قطعها مثل جناحين مبسطين - إلى أن يضع المفتاح في باب بيته. عندئذ ينطوي الجناحان، ويكون في البيت مجدداً وكأنه في مركز حلقة معدنية في الأفق لا يمكن عبورها. في اللحظة التي يغلق فيها الباب على نفسه، لا يعود بوسعه التصوّر أنه كان بعيداً عن البيت. كلّ شيء باقٍ على حاله: الردهة، السلم، الدرايزين. جمع ماكس الجرائد والبريد وصعد على مهل إلى الطابق العلوي. فتح النوافذ، أخرج أغراضه من الحقيبة، وضع ملابسه المتسخة في سلّة الغسيل، وأخذ حماماً. بعد ذلك اطلع على البريد، وصنّف الجرائد بعضها فوق بعض حسب الترتيب الزمني، في أعلاها الجريدة الصادرة يوم مغادرته، وبدأ يتصفّحها بنفاد صبر. في فيينا وحدها استطاع الاطلاع على الجرائد الغربية لبضعة أيام؛ باستثناء ذلك لم يخطر حتى في باله أن تكون هناك أخبار، ولكن بعد الاطلاع على جرائد الأسبوع الأول، اقتنع بوجودها: ما حدث، قد حدث؛ ما لم يحدث، لم يحدث. لكنّه علم أنه سيتوهم لسنواتٍ قادمة أنّ الذين ماتوا في تلك الأسابيع لا يزالون على قيد الحياة.

وضع الهاتف في حضنه، وبدأ يدير رقم أونو، لكنّه توقّف عند العدد الرابع. لم يعد يعرف الرقم بصورة مفاجئة. وضع السماعة على الهاتف وأخذ يحدّق أمامه: لديه خيار بين ثلاثة أرقام أو أربعة. لقد أدّاره مئات المرات، لكن لم يبقَ أمامه إلا البحث عنه وهو يشعر بخجل. يبدو أنه متعب أكثر مما يظنّ.

- كويست.

- أونو، معك ماكس.

- ماكس! متى عدت؟

- وصلت للتوّ من بودابست.

كان الوقت الذي انقضى بين اللحظة التي قال فيها هو نفسه ماكس، واللحظة التي هتف فيها أونو بماكس، أطول بجزء من الثانية مما توقّعه؛ تردّد طفيف: هناك شيء ليس على ما يرام.

- ماذا ستفعل؟ هل تريد أن تنام؟

- أنت مجنون؟ لقد عدتُ بالطائرة. تعال لزيارتي!

عندما جلس أونو بعد نصف ساعة في مقعد تشيستر فيلد الأخضر ذي الذراعين، كان هناك تردّد في سلوكه مرة أخرى؛ لكنّ ماكس رأى أنه يجب ألا يبدأ بالحديث عن الموضوع، مثلما تفعل أمّ عطوف لا تفوتها شاردة ولا واردة. بينما يقدّم له تقريراً عن رحلته، خُيّل إليه أنه يتكلّم عن حلم. كان في صباح ذلك اليوم نفسه قد مشى من فندقه في شارع لينين كوريت إلى مبنى البرلمان الفخم، ليلقي هناك نظرة أخيرة على نهر الدانوب، حيث تقع على الطرف المقابل هضبة القلعة القديمة بقصورها وكنائسها وحصونها - أوروبا المربعة تلك برمتها، التي رآها في فيينا أيضاً وفي براغ على وجه الخصوص، والتي كانت على القدر نفسه من الألفة والغربة بالنسبة إليه، شأنها في ذلك شأن اللغة الألمانية بلهجتها النمساوية التي سمعها في تلك الدول كلّها. بينما يتكلّم عن الأيام التي قضاها في برلين وفي المدن البولندية، صُعب عليه تصوّر أنه كان هناك فعلاً. تراءت لعينه بيركيناو، بلا حراك في الضباب. أراد إخباره عن طوافه حول المعسكر لساعات طويلة، لكنّه لزم الصمت.

- أنت مهموم يا ماكس.

أحنى ماكس رأسه وراح ينظر إلى أظافره: «كنت محقّاً على كلّ حال عندما نصحتني بالذهاب، ولكن روابطي مع هولندا لم تتوطد بسبب ذلك».

- هل يمكنك العيش هناك؟

- هراء. لقد وُلدت هنا، الهولندية لغتي، كبرتُ هنا وأصدقائي هنا. وصديقاتي، لا ينبغي نسيانهن. ولكن حسناً، هذه ليست بالمشكلة الكبرى، ولا سيما في فيينا أو بودابست. لن ينقصك شيء هناك في ما يتعلّق بهذا الأمر.

قال أونو: «نعم، نعم. وفرّ عليّ التفاصيل».

- على ذكر هذا الحديث، وجدت شخصاً من آل ديليوس في دليل الهاتف في فيينا.

- ولم تتصل به.

- هذا صحيح.

أحني أونو رأسه. إنّه يشعر بعدم ارتياح، وسأل ماكس بعد صمت قصير عن انطباعه عن الوضع خلف الستار الحديدي^(*).

- ماذا تقصد؟

- ماذا تقصد: «ماذا تقصد»؟

- ماذا تقصد ماذا تقصد ماذا تقصد. نعم، ماذا تريدني أن أقول؟ نجوم سوفيتية كبيرة على المباني، تماثيل لينين، صور زعماء محلّين من شتى الأصناف، لافتات عليها شعارات يستطيع شخص متعدّد اللغات مثلك أن يقرأها، لكنني لا أستطيع. كلّ شيء بائس وقذر، بيروقراطية متعجرفة بشكلٍ مرعب في كلّ مكان، مثل الموجودة عندنا في دار البلدية أو مكتب البريد أو مكتب العمل.

قال أونو مؤيداً: «الدكتاتورية هي العنصر الطبيعي في البيروقراطية. الجميع بيروقراطي في النظام الدكتاتوري».

- في براغ لم يسمع أحدٌ بكافكا. ولكن في الوقت نفسه الجميع ألطف من هنا بكثير. أعتقد أنّ الكثير من الأشياء الجيدة تُقع هناك، ولكن ربما الكثير من الأشياء السيئة أيضاً.

- ولذلك يجب أن يبقى الوضع على ما هو عليه؟

- لا تسألني هذا النوع من الأشياء. الفاشية لا تحظى بأيّ فرصة على كلّ حال، حسب اعتقادي، وهذا هو الشيء الأهم. أما الباقي فهو رفاهية.

- الستالينية أيضاً؟

- إلى أين تريد الوصول يا أونو؟ الوغدان الكبيران كانا هتلر وموسوليني، وقد قضى عليهما تشرشل وروزفلت وستالين. هذا رأيي.

- هذا ما أخشاه أنا أيضاً.

- حسناً. أعلم جيّداً ما الذي ترمي إليه، لكنني أريد اختبارك. إذا استدعاك الربّ إلى أمام عرشه وقال: «يا بني، قررتُ أن يُحكم العالم على نهج هتلر أو نهج ستالين إلى الأبد. عليك اختيار واحد من هذين الاثنين - بشرط خاص وهو أنك إن لم تُرد الاختيار بين هذين

(*) في إشارة إلى الحد الفاصل بين أوروبا الشرقية الشيوعية وأوروبا الغربية الرأسمالية. [م]

الوغيدين، أو رفضت الانخراط في مثل هذه الألعاب غير الأخلاقية، فسيكون هتلر»، فماذا ستقول عندئذ؟

قال أونو: «ستقول ستالين إذا».

- من دون أي تردد.

- ولماذا من دون تردد؟

- لأن ستالين يمثل الهمجية العقلانية وهتلر يمثل الهمجية اللاعقلانية. وبحكم طبيعتي أقف إلى جانب العقلانية. هتلر مجنون لا يمكن التنبؤ بأفعاله، أما ستالين فيحسب كل شيء بدقة، ولذلك يمكن التنبؤ بما سيفعل.

- أنظرن هذا حقاً؟ يا لك من طفل! لا عجب في أن النساء جميعهن يقعن في غرامك. ما الفرق بالنسبة لضحاياهما؟ هل الموت في خدمة العقل أطيب من الموت في خدمة اللاعقل؟ لا، ليس هناك فرق بالنسبة إلى الفرد. كل شخص يموت موته الفريد من نوعه.

بقي أونو ينظر إليه برهة قصيرة: «هل أقول لك شيئاً؟ أنت لم تكن في الكتلة الشرقية على الإطلاق. كنت حصراً في الإمبراطورية الألمانية العظمى بقيادة هتلر، وربما أبعد من ذلك، في المملكة المزدوجة بقيادة فرانس جوزيف».

ابتسم ماكس: «دعنا نقل إنني أمثل استمرارية التاريخ. ولنفترض أنك لم تُجب عن سؤال الرب. ستختفي الستالينية من الوجود وسيحكم العالم على نهج هتلر إلى أبد الأبدين. ستلوح نهاية الحضارة في الأفق. وتتشكل هاوية بيننا».

- ولكن يمكن أن يكون هناك احتمال ثالث.

- لم يقل الرب شيئاً عن هذا.

أحنى أونو رأسه بالإيجاب: «لعله يحسن بنا التوقف عن هذا النقاش».

انطوت نبرته على شيء جعل ماكس أيضاً يعتقد أنه من الأفضل التوقف عنه، فقال: «حسناً. ولكن أمل أنك لا تزال ترغب في شرب كوبا ليبره».

ونفض عن مجلسه ليصبّ الشراب: «أخبرني، ماذا فعلت في غيابي؟».

أنزل أونو ساقه عن الأخرى، ثم عاد ولف إحداها على الأخرى: «كنت أضع بضممتي التي لا تُمحي على سياسة الوطن. إننا نعمل على وضع استراتيجية للحصول على اعتراف ألمانيا الشرقية في مؤتمر الحزب. هذا سيكون من دواعي سرورك».

- أونو.. لست موقناً من أنك تفهمني جيداً. هل تقرأ أحياناً شيئاً آخر غير الجرائد؟
- نعم، أعلم رأيك في هذا الأمر. الموضوع ليس متعلقاً بألمانيا الشرقية، بل بهولندا.
- يحسن بك أن تفعل شيئاً عديم الفائدة، كما يليق بسيّد نبيل.
- أحني أونو رأسه: «سنرى مَنْ منّا سيكون الأنبل في نهاية المطاف». وبعد صمت قصير:
- «أنا سعيدٌ بعدوتك، لأنني سأستطيع الارتواء مجدداً من آرائك المخزية إلى جانب الترهات المتعلقة بالوضع الاجتماعي التي يلغو بها رفاقي في حركة العمال».
- أخذ كأس الروم بكولا من ماكس، وبدأ يتململ بعدم ارتياح في مقعده: «لكن يجب عليّ الاعتراف لك بشيء فظيع».
- عندما رأى أنّ ماكس ارتعب وتوقع شيئاً فظيعاً حقاً، قال: «لقد حدث شيء في غاية الجمال بيني وبين آدا».
- في الأيام التي كانت فيها الكيمياء علماً مغامراً، كان يحدث أحياناً أنّ إضافة سائل إلى سائل آخر تؤدي إلى فوران، وتغيّر في اللون، وارتفاع حراري غير مفهوم على الإطلاق: كان وقع خبر أونو في نفس ماكس على هذا النحو. بدا وكأنه يرى قامة آدا تظهر فعلياً، تنتقل منه إلى أونو في خطّ مائل، مثل بيدق في الشطرنج، الملكة السوداء.
- يا لها من مفاجأة يا أونو! منذ متى؟
- منذ نحو أسبوعين.
- لم يكن ماكس يعرف حقيقة مشاعره بعد. شعر بأنّه سعيد من أجل أونو، لكنّه في الوقت نفسه لم يستطع تصوّر هذين الشخصين أحدهما مع الآخر، في السرير؛ لم يكن يريد أيضاً تصوّر ذلك، ولكن في الوقت نفسه تراءى لعينه جسدها العاري، بينما ينظر إلى أونو.
- تهانينا! لم تكن لتجد أفضل منها.
- كان يجب عليّ طلب يدها منك طبعاً، لكنك لم تكن موجوداً.
- لا. كنت قد أبعدتني من هنا.
- مهلاً، إنك لا تظن أنني...
- طبعاً لا.

ضحك ماكس. أراد سؤاله كيف التقيا وأين، لكنّه شعر بأنه لا شأن له بذلك. لم يعد ذلك

يخصّه في شيء. إذا لم يخبره أونو من تلقاء نفسه، فلا يريد أن يعرف. حينذاك فحسب صعقه الإدراك بأنّ كلّ شيء بينه وبين آدا قد انتهى إلى الأبد - مع أنه كان قد انتهى منذ وقتٍ طويل. لم يتصل أيُّ منهما بالآخر منذ ذلك اليوم. ولكن الآن لا ينبغي له طرح السؤال عمّا إذا كان قد ترك شيئاً ينساب من بين أصابعه؛ إذا كان الأمر على هذا النحو، فالذنب ذنبه، ولم يعد قابلاً للإصلاح على كلّ حال.

وضع أونو كأسه من يده، جلس على ركبتيه، وطوى يديه: «هل تمنحني مباركتك؟!». - أليس الشرط الأول من شروط المجاملة بين الناس المتحضّرين أن تقدّم زوجتك إلى أصدقائك؟ عاد أونو إلى الجلوس في مقعده: «هذا صحيح. أشكرك جزيل الشكر. اعتبره تعويضاً عن هيلخا!».

*

لم تكد تمضي بضعة أسابيع، وكان الصيف يقترب من نهايته، حتى نسي ماكس أنّ العلاقات كانت مختلفة في يوم من الأيام. المرّة الأولى التي رأى فيها آدا من جديد، حصلت بعد عرض قدّمته أوركسترا الكونسيرت خباو. عُيّن آدا في عملها الجديد، وافتُتح الموسم بسيمفونية بروكنر السابعة. جلس في هيئة مهذّبة إلى جانب أونو في الصالة المكتظة، وأخذ ينظر إلى الأرغن الضخم، الشبيه بمقام التوراة في كنيس شرقي. فتحت الأدا جيوس بمقطوعة العزف على التشيلو جراحه من دون رحمة. لم يكن يذهب إلى الحفلات الموسيقية إطلاقاً، فهي تؤثر فيه بالغ التأثير، وها هي ذي الآن أشدّ وطأةً من المعتاد - ليس لأنه يستمع إلى آدا فحسب، وإنما لأنه أصبح أكثر هشاشةً منذ رحلته، مثل شخص بعد عملية جراحية. حاول أونو في هذه الأثناء إمضاء الوقت بقراءة شرح البرنامج: في هذه الأدا جيوس، عبّر النمساوي الصغير عن حزنه على موت فاغنر - وناجى أونو نفسه: أدا جيوس، آدا-جيوس، جيوفه، جيويتر، زيوس^(*)، آدا والإله الأعظم: ها هي ذي تجلس هناك على المنصة، على الطرف الأيمن، خاضعةً لإرادة قائد الفرقة الموسيقية.

بغية الاقتراب من الموسيقى، درس كتاباً تعليمياً عن نظرية التناغم - أثناء الاجتماعات في

(*) جيوفه هو الاسم الإيطالي لجويتر، وهو ملك الآلهة في الأساطير الرومانية.

زيوس: أبو الآلهة في الأساطير الإغريقية. [م]

المقر الرئيسي للحزب في أمستردام، في المقاهي وفي الصالات الخلفية الصغيرة في الفنادق القائمة في الغابات - لم تعد هناك حاجة لأن يشرح له أحد ماذا يعني «دو مرتفع صغير»، ولكن هذا أيضاً لم يعد عليه بفائدة. عندما سأله متأمر آخر لماذا لا يصغي السمع، أجابه دون رفع عينيه عن الكتاب: «أنا لا أقرأ بأذني» - فانخفضت منزلة السائل الصارم انخفاضاً أليماً في التسلسل الهرمي، بسبب ضحك الآخرين، ربما إلى آخر مسيرته السياسية، أما أونو فقد اكتشف أن لديه أذناً موسيقية رقيقة.

بعد انتهاء الحفلة، ذهبوا إلى حانة خلف الكونسيرت خباو، مفروشة بقطع أثاث من محل الأدوات المستعملة، مزدحمة ازدحام ترام في ساعة الذروة: فتأنون قذرون من المناطق المجاورة، نساء مطلقات، طلاب وطالبات، مراتدو الحفلة، أعضاء الفرقة الموسيقية في تنانير وفساتين طويلة. عندما دخلت آدا وشقت طريقها إليهما بصعوبة، ألفت هي وماكس التحية أحدهما على الآخر بابتهاج مضطرب، بنوع من استرخاء متوتر، بقبلات على الخد، وكأن الوضع لم يكن مختلفاً ذات يوم، ودون أي تلميح إلى التغير، ولو حتى بطرفة عين.

- جميل أن أراك ثانية! هل كانت رحلتك جيدة؟

- استثنائية جداً.

- كيف رأيت حفلة هذا المساء؟

- رائعة! تهانينا على عملك الجديد.

نادت زميلتها: «مارايكا! هل تريدين أيضاً زجاجة من البيرة؟».

يكاد لا يعرفها. تتكلم وتضحك، توقف الآخرين، تعرّف بعضهم إلى بعض، تختفي معهم في الزحام، تعود إلى الظهور، تتأبط ذراع أونو، تتفق على مواعيد، تلوح للمغادرين، وتبدو في منتهى السعادة. ما لم يعرفه أنه هو أيضاً أصبح شخصاً آخر بالنسبة إليها، منذ أن حكى لها أونو عنه.

سأله أونو، عندما دفعوا الفاتورة: «هل تريد الذهاب معنا؟».

أجاب وهو يلقي نظرة باتجاه مارايكا: «سأبقى قليلاً. مع السلامة!».

*

مثلما كان أونو لا يرى آدا من دون ماكس في الماضي، لم يعد ماكس يلتقيها من دون أونو، ولكنهم لا يلتقون كثيراً مثل السابق. صار أونو ينشغل بالحزب أكثر فأكثر، ولا سيما في

المساء؛ على العموم تُحطّم السياسة الزوجات والعلاقات - وإن كان بعض الناس ينخرون في السياسة لا شيء إلا لعدم البقاء في البيت - لكنّ آدا كانت مشغولة هي أيضاً بالتمارين وتقديم العروض. أما ماكس نفسه فيجب عليه الذهاب إلى دفنغلو كلّ أسبوع.

صار بوتيرة متزايدة يستيقظ في الصباح وهو يشعر بانزعاج غامض، لم يعرفه من قبل. الحقّ أنه يبدأ قبل أن يصحو بشكلٍ كامل، عندما لا يزال نصف نائم: تشاؤم قاتم يمتدّ إلى عمله على وجه الخصوص. شكوك عن صحة برنامج البحث الخاص به، حجج من وزن ثقيل لا يعود يتذكّرها عندما يفتح عينيه، ولكنّ الوجوم يظلّ محيطاً به مثل الرائحة التنتنة في أعقاب حريق. في الماضي كان يثب من سريره بعد بضع ثوانٍ ليفتح الدوش، أما الآن فيبقى في رقبته دقائق طويلة وهو يتساءل ما الذي يحدث. يسترجع عمله في ذهنه، ولكن ليس هناك أيّ خطأ فيه - هناك خطأ فيه هو نفسه. مع مرور الوقت في الصباح يروق مزاجه، لكنّه عندما يجب أن يذهب إلى دفنغلو في شرق البلاد ويجلس ساعة ونصف الساعة في سيارته، يعاوده الكرب في بعض الأحيان. إنه ليس باكتئاب حقيقي يستوجب استشارة مختصّين وتناول حبوب، فهو يظن أنه متأثّر من سبب محدّد: من رحلته. ما استحوذ على ذاكرته في الأسابيع الأولى - القصور والكاتدرائيات من الطراز الباروكي فوق الهضاب، تماثيل القديسين على جسور براغ، قصر هوفبورغ في فيينا، الموسيقى العجربة في المساء في فنادق بودابست المزيّنة بأرت نوفو، أو في مقاهيها البائسة المسمّاة بأسماء من قبيل «فيكس ماتروس» - أفسح المجال لبوتيرة متصاعدة لـ «جيهينا»^(*) المترامية في جمود في مركز مثلثة الشيطاني. ذلك الشيء الفظيع العصيّ على السبر قد اقتحم كيانه أعمق مما يظن - لعلّه ما كان ينبغي أن يعمل بنصيحة أونو. لعلّه يجب عليه الذهاب في إجازة ليتعافى من إجازته. فكّر في أنّ قضاء عشرة أيام في جزر الكناري سيعود عليه بالنفع - لكنّه يعلم أيضاً أنه لا ينبغي الاتصال بمكتب السفر الذي يحجز فيه عادةً لترتيب هذا الأمر.

*

ما لبثت آدا أن انتقلت للسكن مع أونو. كان الجيران في الطابق العلوي قد انتقلوا من هناك، فاستأجر طابقهم أيضاً، وأصبح يملك منزلاً حقيقياً بمطبخ خاص وباب رئيسي. بقي القبو مكان عمله، حصلت آدا على الغرفة الأمامية الجديدة، صارت الغرفة الخلفية غرفة

(*) تعني جهنّم، اسم مكان كان الكنعانيون يذبحون فيه أطفالهم ويقدمونهم قربانين للآلهة. [م]

نومهما، أما الغرفة الجانبية الصغيرة فسيجدان لها وجهة مناسبة. هتف أونو: «ستكون لطفلنا. ذلك الولد الفظيع الذي لن يتركني أهنأ بالنوم بصراخه المقرف، فأجد نفسي مضطراً للأسف الشديد إلى دفنه تحت إحدى الوسائد».

لكنّه لم يكن يريد طفلاً إطلاقاً، شأنه في ذلك شأن آدا. بعد أن نظّفت، ولمّعت، وبيّضت ودهنت على مدى بضعة أسابيع، بينما يراقبها أونو باستحسان، أرادت أن تأتي عربة نقل بأغراضها من لايدن؛ لكنّ أونو اعتقد أنّ هذا تجاوزٌ للحدود. رأى أنه يجب أن يسبقه حديثٌ مع والديها، ليس لأنّ الحديث معهما سيكون له أيّ تأثير، لكنّها في نهاية الأمر ابنتهما الوحيدة، وليس من اللائق أن يخطفها هكذا دون أيّ كلمة. حتى إنه لم يتعرّف إليهما!

- تصوّري أنك أمٌ ويختفي طفلك بين ليلة وضحاها!

- والوالدك إذا؟ ألا ينبغي أن تقدّمني إلى والديك أيضاً؟ ألا أخطفك أنا أيضاً؟

- يا إلهي! أتدري ما تقولين؟ لو سمعنا أنني سأعيش معك من دون زواج، لأصيبا بسكتة قلبية. لم يحدث أن قدّمتُ هيلخا إليهما أيضاً، يجب دائماً أن أفعل كلّ شيء في الخفاء.

لم يكن هذا ضرورياً بالنسبة إلى آدا. أراد أونو اللقاء بالديها في وقت سابق، كان يتطلّع إلى التعرّف إليهما، وخاصةً إلى والدتها: لطالما اعتقد أنك يجب دائماً أن تنظر إلى والدّة الفتاة، إذا أردت معرفة كيف ستصبح الفتاة في المستقبل. هذه الملاحظة على وجه الخصوص لعبت دوراً في الحيلولة دون اللقاء؛ فكرة أنها ستصبح مثل والدتها ملأتها بالاشمئزاز. هي تكره والدتها وتخجل من والدها الذي يقول دائماً الأشياء الخاطئة. ومن ناحية أخرى تقدّر رغبة أونو حقّ التقدير. طوال الفترة التي بقيت فيها مع ماكس لم يسألها عن والديها سوى مرّة واحدة. كانا فائضين عن الحاجة بالنسبة إليه، كما كانت هي نفسها في نهاية الأمر. أما بالنسبة إلى أونو فلم يخامرها ذلك الشعور بالفيض عن الحاجة، على النقيض: فهي تشعر بأنه لم يعد يستطيع العيش من دونها، رغم أنه ليس بالرجل الذي يستطيع قول هذا. أما السؤال عمّا إذا كان هذا الأمر يسري عليها هي أيضاً، فلم تسمح لنفسها بطرحه.

استطاعت أن تحول دون ذهابه إلى لايدن ورؤية مسكن والديها البرجوازي الصغير هناك: بعد الظهر من يوم الاثنين التالي، عندما كان محلّ الكتب المستعملة مغلقاً، جاء إلى أمستردام. في شارع كيرك مدّ كلّ من أوسوالد وصوفيا برونس يده لمصافحة أونو بارتباك شخص قادم إلى مقابلة عمل. بدا له برونس رجلاً طيّب القلب، لكنّه شعر من فوره بشيء

من الخوف من والدتها، فقد رmqته بنظرة كما لو أنه شيء، كرسي لا يقوم في مكانه الصحيح. تفحصا بعد ذلك الغرف الخالية من الأثاث، ورأى أونو أنها ترمق الأشياء كلها بالنظرة نفسها: إنها ببساطة الطريقة التي تنظر بها. في القبو، المتحوّل من أرض بور إلى حديقة مرتبة بشكل معقول، أشار والدها إلى الجداول، التي ما تزال معلقة في مكانها القديم، وسأل: «ألم تعد تمارس علم الفلك يا أونو؟».

فقلت آدا بامتعاض: «إنك تخلط الأشياء من جديد يا أبي. ذلك ماكس، صديقي السابق». قالت والدتها وهي تنظر إلى أونو: «يبدو واضحاً أنك لم تُطلعينا على شيء يا آدا. علينا سحب كلّ كلمة منك سحباً».

أحنى أونو رأسه علامة الموافقة: «الجيل الجديد. يفعل ما يريد».

استعلم برونس: «كم عمرك أنت؟».

- يا له من سؤال لئيم. أقدر أنني أكبر آدا بالقدر نفسه الذي تكبرني فيه حضرتك.

- في البيت، سأحسب ذلك. لكنك تقول لي «حضرتك».

- لا أستطيع مخاطبة حماي بصيغة غير رسمية! لأنّ ذلك سيقوّض النظام الاجتماعي بأكمله.

نظرت إليه والدتها من تحت حاجبيها الشبهيين بحاجبي آدا السوداوين، المرسومين بحدّة: «هل تنويان الزواج؟».

- أمي! أرجوك...

- لماذا لا يمكنني أن أسأل؟

- لأنه شيء يزعجني. وكأنّ الزواج أسمى ما في الوجود. عندما يحين وقت زواجنا، ستسمعين من دون شكّ؛ حالياً لا نفكر في هذا الموضوع، لا.

عندما يتم تأثيث البيت بأكمله، سيعودان لزيارتهما - وبناءً على اقتراح صوفيا برونس ذهبوا لشرب الشاي في متجر بايين كورف، حيث تريد شراء بعض الحاجيات. بينما تضع آدا والدتها في متاهات المحلّ التجاري المتضوّعة برائحة العطور والمزوّدة بالمرايا، وجد أونو وأوسوالد برونس طاولة بجانب النافذة في كافيتريا المتجر. أخذوا ينظران بارتباك، وهما محاطان بالسيدات، عبر النافذة إلى ساحة الدام المزدهمة. الدرجات الواسعة المحيطة

بالنصب التذكاري الوطني، وهو برجٌ منتصب من زمن ما قبل فرويد البريء، تعجّ بأناس جالسين وراقدين من جماعة «الهيبيز» بملابس متنوّعة الألوان، يحرسهم المتجولون من رجال الشرطة في بدلات سوداء، إضافةً إلى فارسين من الشرطة العسكرية الملكية. قال برونس إنّ ذلك التكاسل هناك في الساحة هو في الواقع انتهاكٌ لشرف الذين لقوا مصرعهم، فأوماً أونو إيماءة تعبر عن أنّ هناك ما يمكن قوله في هذا الأمر، ولكن من ناحية أخرى... على الطرف الآخر من الساحة، بالقرب من القصر الملكي -الذي يرى أونو ورفاقه أنه يجب أن يصبح دار البلدية من جديد، مثلما كان في فترة الجمهورية- جلس الأطفال في الشارع يشاهدون عرضاً من عروض مسرح عرائس ذي لون أحمر.

ارتعب أونو عندما وضع برونس يده على ذراعه.

- أونو، انظر إليّ! هل تعدني بأن تشمل آدا بعناية جيّدة؟!

فقال أونو بنبرة مهيبة ساخرة، وكأنه يؤدّي القسم: «أعدك!».

أراد سحب ذراعه، ولكنّ هذا أمرٌ غير وارد بطبيعة الحال. بقيت اليد راقدة على ذراعه، فما لبث أن شعر بدفئتها. نظر بعدم ارتياح في عيني صاحب محلّ الكتب المستعملة الصادقتين. يبدو واضحاً أنه يريد قول شيء، لكنّه يجد صعوبة في البدء؛ لعلّه جهّز ما يريد قوله ويحاول تذكّره.

قال: «آدا فتاة صعبة للغاية، ولا سيما بالنسبة إلى نفسها. كانت في طفولتها منطوية جداً على نفسها، لم تكن لديها صديقات على الإطلاق. كانت تريد ذلك، لكنّها كانت تثير العدائية بشكل دائم لسبب أو لآخر، دون قصد منها. في المدرسة أخذت الفتيات الأخريات يتأمّن عليها باستمرار، يثرثن من وراء ظهرها، وينشرن حكايات سخيفة عنها على الدوام».

- لماذا؟

- لا أعلم. ظلّت حتى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها في نوع من شرنقة نائمة، تنظر إليك بطريقة تجعلك تتساءل أهى تراني يا ترى. لم تكن كسولة في المدرسة فحسب، بل وتولّد لدينا انطباع أيضاً أنها لا تفهم بشكل كامل ماذا يعني التعلّم في الواقع. تنقلّت من مدرسة إلى أخرى، ولكنّ ذلك لم يعد عليها بأيّ نفع.

سحب يده وانتظر برهة قصيرة إلى أن يوضع الشاي أمامهما على الطاولة. تساءل أونو من

أين يأتي هذا التناقض يا ترى؟ لماذا حبّ الآباء والأمهات لأطفالهم شيء بديهي ولا يكون العكس صحيحاً؟ لماذا وُصّي الإنسان بـ«أكرم أباك وأمك» وليس بـ«أكرم طفلك»؟! قال: «ولكن صارت الأمور إلى خير ما يرام».

تابع برونس: «صحيح، ولكن مع ذلك.. الطبيعة كانت عدوانية تجاهها بالقدر نفسه. بقيت إلى الثامنة أو العاشرة من عمرها تعاني من مشكلات في أذنيها، تخضع بين اليوم والآخر للعلاج. تعافت من تلك العلة من حسن الحظ، لكنّها بعد ذلك بدأت تكابد من مشكلات في عينيها. تبيّن في لحظة معيّنة أنها تعاني من قصر النظر وبُعد النظر في الوقت نفسه، إن لم أكن مخطئاً. أخذت تلبس هذه النظارة تارة، وتلك النظارة تارة أخرى. تعافت من هذه العلة أيضاً من حسن الحظّ، ربما لأنّ قصر النظر وبُعد النظر ألغى أحدهما الآخر في نهاية الأمر؛ ولكن إلى ذلك الوقت ذهبت مئة مرّة إلى طبيب العيون. يضاف إلى ذلك أنها تعرّضت للحوادث بشكل دائم. تقود دراجة هوائية، تقع، فتتكسر أسنانها الأمامية. تنزلج على الجليد، تسقط، فيتزلج أحد فوق يدها، فتتمزّق أوتارها العضلية. يدها اليمنى من حسن الحظ. لا أستطيع تصوّر ما الذي كان سيحدث لها، لو لم يعد باستطاعتها العزف على التشيلو، لأنّ العزف ساعدها في تجاوز المحنة في نهاية الأمر: الموسيقى. الحقّ أنني لا أستطيع أن أفهم هذا، أنا لست موسيقياً على الإطلاق، حتى إنني لا أستطيع التمييز بين لحن جنائزي وفالس نمساوي».

- لعلّه لا يوجد فرق بينهما.

- نعم، صحيح، أنت تفهم، وإلا لما كنت مع آدا.

قال أونو: «ما الذي يجعلك تظن هذا؟ أنا أيضاً لا أفهم أيّ شيء فيها. الكلمة هي النهار، الموسيقى هي الليل. ابتكت لغز بالنسبة إليّ. ولكن لعلّ الفهم يقف في طريق الحبّ. هل تفهمك زوجتك، إذا سمحت لي بهذا السؤال؟».

فسأل برونس وهو ينظر إليه بشيء من الجمود في عينيه: «ماذا؟ ماذا تقصد؟».

- لا شيء. أردت فقط أن أقول لعلّ الإنسان لا يفهم شيئاً من زواج شخص آخر فحسب، بل ولا يفهم شيئاً من زواجه أيضاً. حدث أن تساءلت على سبيل المثال ما الذي يراه والذي في والدتي، لكنني بصدق لا أعرف الجواب. ولا يعرف هو نفسه في أغلب الظن، ولكن ربما هذا هو الحبّ تحديداً.

ظهرت آدا ووالدتها بصورة مفاجئة بجانب طاولتهما. نقلت آدا نظرة متفحّصة من أونو إلى والدها. عمّ كانا يتحدثان؟ هل كان هذا من ترتيب والدتها؟ نهض أونو عن مقعده ونظر في وجه صوفيا برونس الشبيه بوجه سفنكس^(*). قال: «كنا نتحدّث عن التطوّرات في سوق الأسهم. قرّرتُ المضاربة في حال الهبوط».

(*) وحش بوجه امرأة وجسم حيوان، في الأساطير الإغريقية. [م]

15. الدعوة

حتى عندما انتهى تأثيث البيت الكائن في شارع كيرك وصار أونو «يعيش» أخيراً، لم يُدعَ ماكس لزيارته. لم تكن آدا تفضل الذهاب مرة أخرى إلى البيت في شارع فوسبوس، لذلك كانوا على العموم يلتقون في مكانٍ ما في المدينة. في أحد المساءات كانا قد اتفقا على اللقاء إلى طاولة البار في «لاكي ستار»، وهي صالة رقص تضمّ شورية اجتماعية موضوعة على نار هادئة في أمستردام منذ بضع سنوات: مثقفين، شعراء، كتّاب، مؤلفين موسيقيين، نشطاء، سياسيين، أعضاء سابقين في حركة البروفو، ممزوجين مع صناعيين لعوبين، مصممي أزياء بوجوه خالية من التعبير، مصقفي شعر الطبقة الراقية ضاحكين، شخصيات مقبولة من عالم الإجرام، كلّهم مع أصحابهم الذكور أو الإناث ويُطبخون على نار هادئة في حساء من الشباب المولعين بالرقص من أحياء الطبقة العاملة. كان ماكس يستمع إلى أغنية 'California Dreamin' التي تصدح بها فرقة «ذا ماما ز أند باباز» في صندوق الموسيقى، وينظر إلى الفتيات اللاتي يتقدّمن أصحابهن الشباب في السير نحو حلبة الرقص، بذراع واحدة تتحرّك حركة غريبة من نوعها: لا تتحرّك من الأمام إلى الخلف وهي ممدودة على نحوٍ أقل أو أكثر، بل منحنية بزواية قائمة، حيث يبقى الجزء العلوي من الذراع بلا حراك تقريباً، بينما الساعد باليد المتدلّية يرسم قطاعاً أفقياً في دائرة تبلغ زوايته نحو خمسٍ وأربعين درجة. فوق حلبة الرقص تدور كرة مطعّمة بقطع سداسية الأضلاع من زجاج المرايا؛ الضوء المنعكس من بضع كواشف ضوئية يدور على شكل بقع ضبابية صغيرة لا نهائية على الجدران والناس، ويعشي وميضٌ ساطع عينيه بين حين وآخر. قال في نفسه: لعلّ هناك شيئاً من هذا القبيل في مكانٍ ما من الفضاء.

عندما ظهر أونو من شقّ الستارة ذات اللون الأحمر الداكن المتدلّية عند المدخل ورآه جالساً هناك، أخرج رسالة من جيبه الداخلي وأخذ يلوح بها فوق رأسه.

قال بلهجة صارمة للرجل الشاب، الشاحب شحوب الأموات، الجالس على مقعد بجانب مقعد ماكس: «اغرب من هنا!».

واندهش عندما نفذ الشاب ما أمره به، ثم قال: «ما رأيك؟ رسالة من كوبا». فقال ماكس متفاجئاً: «أرسلوها رغم كل شيء!».

كان المکتوب موجّهاً إلى الكومبانييرا آدا برونس - التي لا تعني «رفيقة» حسب رأي أونو، لأن الرفيقة بالإسبانية هي كاميرادا، بل «صاحبة» أو «شريكة». قال: «هذا هو الفرق على وجه التحديد».

الرسالة مكتوبة بإنكليزية ركيكة ومرسلة من المعهد الكوبي للصدّاقة مع الشعوب. من المزمع أن يقام في تشرين الأول مهرجان موسيقا الصالونات في هافانا على مدى عشرة أيام، يشارك فيه العديد من الفرق الموسيقية من أوروبا الغربية والشرقية ومن أميركا اللاتينية. ستكون نفقات السفر بالخطوط الجوية الكوبية «كوبانا»، والإقامة في فندق ناسيونال على حساب المعهد الكوبي للصدّاقة مع الشعوب؛ بسبب أسعار صرف العملات غير المستقرة، نتيجة حصار أميركا الشمالية، لن تُدفع أجور للمشاركين للأسف الشديد.

- رائع! ولكنّ الثنائي لم يعد موجوداً، أليس كذلك؟

فقال أونو بلهجة حاسمة: «سيعود إلى الحياة».

- إذاً ستقبل آدا؟

فقال أونو: «طبعاً. على الأقل إذا سمحت لها الأوركسترا بالذهاب؛ إذا كان هناك عدوّ للشيوعية ممسك بزمام الأمور في مجلس الإدارة، ستكون هناك صعوبات. ستعزف هذا المساء، وستحاول بعد ذلك الوصول إلى واحد منهم. سأراها بعد قليل في النادي فوق حانة بامبو. ولكن هناك مشكلة صغيرة».

ووضع إصبعه تحت التاريخ: «هذه الرسالة استغرقت شهرين لتصل إلى الغرب المسيحي. هذه هي المشكلة الكبرى في العالم الثالث: التواصل».

- هل اتصلت بالسفارة؟

- إذا حصلت على الموافقة من أولئك المديرين الفظيعين، سنذهب غداً على الفور إلى السفارة. لا أثق بالاتصال الهاتفي، لأنهم سيعاودون الاتصال بك بعد انتهاء المهرجان.

- تستطيعان الذهاب معي بالسيارة صباح الغد، إن أردتما؛ سأصل بكما إلى لاهاي.

- هيا، دعنا نذهب!

النادي الواقع فوق حانة بامبو، التي تصدح منها فرقة «ديكسي لاند»، هو مقرّ الحزب الليبرالي اليساري الجديد؛ ولكنّ الديمقراطيين الاشتراكيين من الجناح المتمرّد يجتمعون فيه أيضاً، نظراً لأنّ الجميع يعرف الجميع والانتماء إلى الجيل نفسه في الوقت الراهن أقوى من أيّ انتساب إلى الأحزاب المختلفة. كان البوّاب الهنغاري المهموم، الذي هرب من بودابست بعد الانتفاضة التي قامت فيها قبل إحدى عشرة سنة، يقف في أعلى السلم شديد الانحدار. قال إنّ آدا قد وصلت للتوّ، قال ذلك بوجه ينمّ عن أنّ هذا أيضاً ليس بذي بالٍ في نهاية الأمر. النادي مليءٌ بالناس، وتصدح موسيقا ديف برويك الهادئة. أثناء السير، سمع أونو أحدهم يقول: «بعد أن أصافح سياسياً من الديمقراطيين المسيحيين، أعدّ أصابع يدي على الدوام». القائل هو صاحب الحانة، وهو صحافيّ بارز وأحد مؤسسي الحزب الليبرالي اليساري. فقال أونو بالإنكليزية وهو يدير إليه رأسه: «كنت أتمنّى لو أقول هذا الشيء».

فرغ الآخر عينيه إليه بابتسامة عذبة وقال بالإنكليزية أيضاً: «ستقول هذا يا أونو، ستقول». كانت آدا واقفة في الجهة الخلفية، ذهب إليها أونو وهو يلقي التحية على كلّ الأطراف: «النتيجة؟».

ف قالت: «جيدة».

وتبادلت قبلات مع ماكس دون أن تنظر إليه: «شريطة ألا أعلن هناك أنني عازقة في أوركسترا الكونسيرت خباو».

- وبرونو؟

- أنت تعرف طبيعته. ردّ بفتور شديد وقال ربما يستطيع التفرّغ من مشاغله في تلك الأيام، لكنّه طبعاً طار من الفرّج.

نادى ماكس الرجل الواقف خلف البار: «كون! شمبانيا!».

فنظر إليه أونو بحاجيين مرفوعين: «منذ متى تشرب؟».

- منذ الآن. ألا يجب علينا الاحتفال بهذه المناسبة؟ كوبا! هل يمكنك التخيل!

وُضع المُبرّد مع الشمبانيا إلى جانبهم، وطرقوا الكؤوس بعضها ببعض. قال أونو: «نخب صداقة الشعوب!».

وطبع قبله من عليائه على رأس آدا.

قال ماكس دون سابق تفكير: «ماذا لو ذهبنا معها؟».

لكنّه عرف من فوره أن هذا هو الحلّ بطبيعة الحال. فهناك في الأقاصي البعيدة، شبه الاستوائية، لعلّ الشمس تخترق الضباب البولندي المحيط به منذ أسابيع؛ عربات الماشية، الاصطفاءات، الإعدامات خنقاً بالغاز. هناك على تلك الجزيرة الحمراء، لعلّ تلك البركة السوداء... لا يمكن أن تُردم، إذ من المستحيل ردمها بشيء لانهائي، ولكن لعلّ ضياء يسقط عليها يكون السبب في عدم إفناء البشرية على أنها إخفاقٌ ميثوس منه. ليس لأنّ كوبا هي الفرع المنشود من الجنة، ولكن لعلّ شيئاً من هذا القبيل يلوح في الأفق.

نظر أونو وآدا أحدهما إلى الآخر.

قالت آدا: «نعم، ولمّ لا؟ ما المانع؟».

هزّ أونو رأسه: «كيف تظنّين أن نتدبّر الأمر؟ المهرجان بعد ثلاثة أسابيع. نحتاج إلى تأشيرات وما أدراني أيّ أشياء أخرى. يمكنهم أن يعتبرونا إرهابيين يريدون قتل فيدل كاسترو. لن يحالفنا التوفيق في مثل هذه الفترة القصيرة مع أولئك البيروقراطيين البلاشفة، ومن العالم الثالث أيضاً. فمجرّد رسالة يستغرق بها الأمر شهرين من الزمن».

- ليست لديّ تأشيرة أيضاً.

- لكن لديك دعوة.

فقال ماكس: «أصغيا إليّ! يمكننا المحاولة على الأقل. ماذا لو ذهبنا نحن الثلاثة إلى السفارة غداً، وضعنا جوازاتنا السفر على الطاولة وقلنا لهم: اختتموا لنا التأشيرات عليها، لأننا أصدقاء الثورة الكوبية».

تساءل أونو: «أتعجّب كيف يمكن أن يكون لديّ صديق بهذا الغباء كلّهُ، وأنا واحد من أدكى الناس الذين أعرفهم على الإطلاق، وأقول هذا بكلّ تواضع؟ هذه ليست الطريقة التي يعمل بها العالم يا رجل!».

فجأة شعر ماكس بثقة كاملة بما يقول. أخذ جرعة من كأسه، انحنى إلى الأمام وقال: «لا أعرف كيف يعمل العالم يا أونو، ولكن لعلّ قوّتي تكمن هنا. لو سألتني لأجبتك بأنه لا يعمل على الإطلاق، شأنه في ذلك شأن محتويات حاوية قمامة. حسب رأيي إنّ العالم -على الأرض على الأقل فوضى ارتجالية كبيرة، لا تزال تعمل على نحو أقل أو أكثر لأسباب غير

قابلة للتفسير. الإنسان لا ينتمي في الواقع إلى الكون على الإطلاق؛ ولكن الآن وقد وصل إليه، صار كل شيء ممكناً بشئى الطرق. لقد أثبت التاريخ هذا على كل حال حسب اعتقادي، وبصفتك سياسياً يجب عليك معرفة هذا. ولكن إذا بدأت القول: هكذا يعمل العالم، وهذا ممكن وهذا غير ممكن، فيحسُن بك أن تعود إلى قرص فستوس. هذا كله يبقى عملاً بشرياً، فهو تخبطٌ إذاً، ولذلك يجدر بك على الدوام أن تفعل أولاً ما يمليه عليك قلبك، وألا تُقيّد نفسك مسبقاً بآراء قد يتقدّم بها الآخرون وقد لا يتقدّمون».

أكان تأثير الشمبانيا؟ أصابت كلماته الهدف على كل حال. نظر أونو إلى آدا في ذهول وقال: «لقد أفحمني بهذا الكلام، لكنّه محقّ. دعونا نحاول، فما الذي يمكن أن يحدث لنا، لعلّ الأمر بيضة كولومبوس^(*) في المجال السياسي».

وتابع وهو يخرج الزجاجاة من بين مكعبات الجليد في رنين: «بهذا الخصوص، عندما ذهب كولومبوس لاكتشاف أميركا، وصل إلى كوبا في أول الأمر، فظن أنها إلدورادو التي كتب عنها ماركو بولو».

*

عندما دخلوا مدينة لاهاي في صباح اليوم التالي، وقد جلست آدا بشكلٍ مائل في المقعد الخلفي، دلّها ماكس على المكان الذي توقّف فيه في شباط ليأخذ معه أونو.

بدأ أونو يغني: «الليلة الصامته... الليلة غير المقدّسة...».

قالت آدا: «أوه، شكراً. لو لم يتوقّف لك، لما تعرّفَ إليّ».

قال أونو: «صحيح، صحيح تماماً. لكنني أنا أيضاً لعبت دوراً حاسماً في هذا الأمر، فلو لم يكن لديّ موعد في لايدن في ذلك اليوم، لما تعرّفَ ماكس إليك».

فقال ماكس لآدا: «وندين بهذا لوالدك».

- لوالدي؟

- لو لم يضع كتاب «حبيبي» لألما مالر في واجهة العرض، لما دخلنا محلّ مديح الحماسة.

(*) تعبير يشير إلى مشكلة صعبة في الظاهر سهلة الحل في الواقع. والإشارة إلى كولومبوس لها قصّة، إذ يقال إن أشخاصاً جادلوا مكتشف أميركا قائلين إنّ أيّ واحد كان سيصل يوماً ما إلى المكان الذي اكتشفه. فطلب بيضة، وتحذّاهم أن يوقفوها على رأسها. وحين عجز الجميع، ضربها بقبضته فسحقها فاستقرّت على الطاولة. وعندئذٍ أدرك متحدّوه رسالته: بعد اكتشاف الحُلّ يصبح الكلام سهلاً. [م]

أحنى أونو رأسه بالإيجاب: «ألما ماتر^(٥)». ولكنّ والدي هو الذي وراء هذه الحكاية في نهاية الأمر، فلو لم يسعده الاحتفال بعيد ميلاده في اليوم الأول الذي التقينا فيه، لما حدث شيء على الإطلاق».

وقال ماكس: «ولم يكن ليحدث أيضاً، إن لم أذهب للاحتفال بالكرنفال في روتردام. الحياة سلسلة من المصادفات. ولكن.. ماذا عن شونبيرغ، مبتكر تقنية الاثنتي عشرة نغمة؟ كان يعاني من خوف فظيع من الرقم ثلاثة عشر. كان يرقم المازورات في مؤلفاته الموسيقية: الثانية عشرة، الثانية عشرة - أ، الرابعة عشرة. وماذا تظن؟ توفي في أحد أيام الجمعة في الثالث عشر من الشهر».

ضحك أونو: «كان الرجل يعاني من حالة جنونية. المؤلفون الموسيقيون جميعهم يعانون من حالات جنونية».

قالت آدا: «لا، قطعاً. كان يحدث بما سيحدث. أرى أنّ كلّ شيء مقدّر. كلّ شيء مكتوب في خطوط اليد».

بينما ينظر ماكس إلى الطريق، اتّسعت عيناه لحظة؛ لكن حُيِّل إليه أنه من الأفضل أن يصمت عمّا ورد إلى ذهنه.

قال أونو بشغف: «آه، كم سيكون هذا رائعاً!».

فقال ماكس: «على العكس. ليس هناك أيّ روعة في هذا. ثم إنّ القدر شيء غير ممكن في هذا الكون، بسبب ثابت بلانك، الذي يجعل كلّ شيء غير مؤكّد».

هتف أونو رافعاً سبابته: «الرّبّ بحكمته اللانهائية خلق ثابت بلانك أيضاً. ثابت بلانك هو تجلّي الرّبّ في الطبيعة. لهذا السبب نتمتّع بإرادة حرة ويمكن أن نرتكب الذنوب. لماذا نحن على الأرض؟ نحن على الأرض لنرتكب الذنوب ومن ثم نمجّد الرّب».

رغم أنهم لم يحجزوا موعداً وكان ينبغي لأدا وحدها أن تكون في الهيئة الدبلوماسية، أبدى السفير الكوبي استعداده لاستقبالهم - الأمر الذي له علاقة باسم كويست بطبيعة الحال. أصيب ماكس بالخيبة من أنّ السفير ليس متمرداً مرسل اللحية، بسيجار بين أسنانه وحزام مسدّس على مكتبه، بل سيّد مهذب في أواخر السبعينيات، في بدلة رمادية داكنة مع صدرية،

(٥) باللاتينية، وتعني حرفياً: الأم المرضعة، لكنّها تستخدم مجازياً لتشير إلى المدرسة أو الجامعة التي ارتادها الشخص سابقاً، أو تخرّج فيها. وقد استعملت هذه العبارة قديماً بمعانٍ أخرى. [م]

ذو شعر أبيض خفيف وشحوب أرستقراطي يتسم به مسؤول من مستوى رفيع في البلاط الإسباني السابق. انسابت تأشيرة آدا من رسالة الدعوة بصورة تلقائية، وقيل إن بوسع عازف البيانو أيضاً المجيء لأخذها؛ سيرسل اليوم تلغرافاً إلى المعهد الكوبي للصدّاقة مع الشعوب لإبلاغه بوصولهما ويستطيعان استلام بطاقات الطائرة هنا بعد بضعة أيام.

بعد اصطحاب إحدى السكرتيرات لأدا لإكمال الإجراءات الرسمية، أخبر السفير أونو أنه التقى بوالده بضع مرّات في مناسبات رسمية. كان قد صار عميد السلك الدبلوماسي نظراً لسنوات الخدمة الطويلة في هولندا، ولهذا السبب ترفض هافانا كلّ سنة أن يُحال إلى التقاعد، فهو يستطيع من منصبه المحافظة على العلاقات مع نظرائه من شتى الأصناف، الذين لا تسمح لهم حكوماتهم بتبادل كلمة واحدة مع سفير كوبي. إنه يفعل هذا بسرور من أجل خاطر فيدل، كان قد جمع المال حينذاك في نيويورك لرحلته بسفينة غرانما، التي أدّت إلى الثورة - لكنّه بدأ شيئاً فشيئاً يفضّل الاستمتاع بشيخوخته في كوبا، هذا لا يعني طبعاً أنه يقول شيئاً ضد هولندا، على أقصى تقدير شيئاً ضد الطقس.

سمّ أونو رائحة فرصته، فقال: «أجل. لا بدّ أنّ الطقس هناك في غاية الروعة. لولا ضيق الوقت، لكان من دواعي سرورنا الذهاب نحن أيضاً».

سأل السفير متظاهراً بالمفاجأة: «هل تريد زيارة جزيرتنا الجميلة بصحبة صديقتك؟ لماذا لا تفضّل الذهاب في وقت آخر؟».

- ماذا تقصد؟

- في كوبا لدينا نساء جميلات أيضاً.

نظر إليه أونو في ارتباك: «ولكن يا سعادة السفير! إنني مخلصٌ لصديقتي إخلاصاً لا يتزعزع! لن أسامح نفسي ما حييت إن حدث شيء فظيع من هذا القبيل».

ابتسم السفير ابتسامةً طفيفة: «يا سيّد كويست، ما يحدث على بُعد عشرة آلاف كيلومتر، لا يكون قد حدث». وترك أونو لمصيره واتجه إلى ماكس: «وأنت.. لماذا تريد زيارة كوبا؟».

- الحقّ أنك أعطيتني السبب للتوّ. حتى تلك اللحظة أردت مرافقتهم باعتباري صديق العائلة.

أحنى السفير رأسه بالإيجاب: «كوبا الجديدة تقدّر الصدّاقة حقّ التقدير. كوبا بحاجة إلى الأصدقاء بغية البقاء».

ونقل بصره برهة قصيرة من أحدهما إلى الآخر: «هل تحملان جوازيكما السفر، بمحض المصادفة طبعاً؟».

*

ستنزل آدا وبرونو في فندق ناسيونال؛ رأى السفير أنه من الأفضل ترتيب فندق لهما في مطار هافانا - وبعد طرق الاختام المرعب، الذي قرّر بشأن الحياة والموت مرّات لا تحصى في أرجاء العالم كافة، حان وقت الاستعجال بالنسبة إلى ثلاثتهم. تبيّن أنّ الرحلة بالخطوط الجوية كوبانا، التي يجب على آدا وبرونو الذهاب من أجلها إلى براغ أولاً، محجوزة بشكل كامل. ما عداها كانت شركة إيبيريا هي الوحيدة التي تقوم برحلات من أوروبا إلى هافانا - إسبانيا الفاشية وحدها قد كسرت الحصار المفروض على كوبا الشيوعية. رأى أونو أنّ السبب في هذا هو أنها كانت الوطن الأم للمستعمرة السابقة؛ الشخصية الوطنية أقوى من الإيديولوجيا على الدوام: فرانكو ملك إسباني، فيدل كاسترو زعيم أميركي لاتيني، ديغول هو لويس الأخير بعد ألف، ستالين قيصر الروس جميعهم، ماو إمبراطور الصين، والملكة يوليانا هي ستاتهاودر^(*) هولندية. أصدقاؤه السياسيون، الذين يريدون التخلص من الحكّام، سيصبحون هم أنفسهم حكّاماً في نهاية الأمر، إذ لا مفرّ من هولندا - ولكن ينبغي لماكس اعتبار هذا التنبؤ شيئاً خاصاً بينهما.

- وأنت؟

- أنا؟ سأصبح أقطع الحكّام على الإطلاق. سيرتجف أمامي ذوو النوايا الحسنة جميعهم! انبعث الثنائي من رماده، واضطّرت آدا وبرونو إلى وضع برنامج والتمرّن عليه، لأنه صعب عليها الذهاب بالتشيلو الخاص بها إلى لايدن كلّ يوم، ولأنّ أونو ليس لديه بيانو، اقترح ماكس وضع شقّته تحت التصرّف، فهو غير موجودٍ فيها أثناء النهار على كلّ حال. تردّدت آدا في قبول العرض، ولكن لأنّ الرفض لن يعود بأيّ فائدة على أحد، فقد قبلت في نهاية الأمر. حصلت على المفتاح، والمرة الأولى التي دخلت فيها الغرف راودها شعور الإنسان الذي يزور منزل شخص ميت: كلّ شيء باقٍ على حاله، كلّ شيء باقٍ كما وضعه عندما كان لا يزال على قيد الحياة. ولكن ما لبث أن اختفى هذا الشعور، بفضل وجود برونو، الذي جلس من فوره خلف البيانو الكبير.

(*) تعني حرفياً «أمين المدينة»، كانت لقب الحاكم العام في جمهورية هولندا في العصور الوسطى. [م]

حينما يعود ماكس إلى البيت في المساء ويرى هذين الشخصين يعزفان، وأونو أيضاً في أغلب الأحيان، وهو يقرأ الجريدة في مكانه المعتاد، يتملكه شعورٌ أبويٌّ بالرضا. أسرة سعيدة! كان أثناء النهار في لايدن يتطلع إلى الذهاب إلى البيت. وصوله يكاد لا يُلاحظ في بعض الأحيان؛ ولكنَّ شعوره بانعدام الأهمية في مسكنه لم يكن يزعجه - على النقيض: يملؤه بالبهجة والحبور، الأمر الذي يبعث الدهشة في نفسه. من أين جاء هذا الزهد؟ حتى إنَّ الأشياء لا تكون في بعض الأحيان موضوعة في مكانها المعتاد! يمضي للجلوس في مكانٍ ما، يلتقط كتاباً عن كوبا، وينهمك في القراءة وكأنه هو الذي في استضافتهم. يستمع إلى الموسيقى، ينظر إلى أونو من زاوية عينه ويخطر في باله أنَّ هذه الحالة الشاعرية ستنتهي في الأجل القريب: سترك الطفلان البيت وسيكون كلُّ شيء في المساء على الوضع الذي تركه عليه في الصباح.

تشعر آدا، والتشيلو بين فخذيها، بنظرته مستقرّة عليها في بعض الأحيان، لكنّها لا تبادله النظر. أصبح الحال كما هو عليه. إنها مع أونو، وستبقى معه، وتعلم أنه يعلم هذا الأمر. ولكن ما لا يعجبها هو أنَّ شيئاً لا يزال يعتمل في كيانه على ما يبدو، رغماً عنه - أم أنها تضحك على نفسها؟ أيعتمل هذا الشيء في نفسها هي؟ نظرت إلى أونو الجالس في مقعده الأخضر ذي الذراعين: طفل في هيئة عملاق.

سألها برونو: «أين سرحت بأفكارك؟».

16. المؤتمر

رغم أن آدا وبرونو غادرا قبل ثلاثة أيام، سيصلان قبلهما بيوم واحد فقط: في براغ يجب عليهما انتظار الطائرة التالية عشرين ساعة، يضاف إلى ذلك أن الكوبيين لا يزالون يحلقون في الطائرات الروسية القديمة، ذات المحرك المروحي التوربيني، فوق أسكوتلندا وجزيرة نيوفاوندلاند الكندية. سافر ماكس وأونو عن طريق مدريد، بتوقف قصير فقط في جزر الأزور. رأيا وجوهاً معروفة في كل مكان من الطائرة، مشاهير من المثقفين والفنانين من كل أنحاء أوروبا، مؤلفين، رسّامين، فلاسفة يعرفانهم من الصور؛ كذلك العديد من الأميركيين الشماليين والجنوبيين، الذين اضطروا لأخذ هذا الطريق الالتفافي نتيجة الحصار. سمعا من المضيضة أن هناك مؤتمراً ثقافياً في هافانا. أخذ أونو يقرأ جريدة حزب فرانكو، وراح ماكس ينظر عبر النافذة إلى السحب الكثيفة. السحب المتراكمة المتينة مثل جبال بيضاء، في وديانها بحيرات بلون رماديّ فاتح، يمكن أن تكون لها أسماء هي أيضاً - يمكن أن يكون منظر الأرض أيضاً على هذا النحو. كلما اقتربوا من الجنوب، أصبحت السحب أقل كثافة - إلى أن لاح البحر في جمود أزرق بصورة مفاجئة. غفا غفوة قصيرة وسمع في صوت المحركات سيمفونيات رائعة، مكونة بشكل أساسي من ثلاث نغمات، يستطيع التحكم بها حسب الرغبة.

الأرض في مرمى البصر! اربطوا الأحزمة!^(*) هناك في الأسفل زرع أحد الأشخاص ما لا يحصى من أعواد ثقاب في الأرض بشكل مستقيم، تلقي جميعها ظلالها الحادة الطويلة في الاتجاه نفسه: أشجار النخيل. رسموا قوساً فوق الخليج والمدينة البيضاء، وخطوا في مطار خوسيه مارتى. المدافع المضادة للطائرات تقوم في كل مكان على حدود المطار؛ على برج المراقبة صورة ضخمة تجسّد تشي غيفارا - هذا الوجه الرسولي بقبعة البيري، الذي يكتسب

(*) بالإنكليزية في الأصل. [م]

هنا، في هذا المكان الذي ينتمي إليه، سمّةٌ مختلفة كل الاختلاف. في أسفله كُتب بحروف إسبانية تبلغ متراً واحداً من الارتفاع:

«حتى النصر دائماً»

عندما فُتحت الأبواب، تدفّقت حرارة تشرين الأول إلى داخل الطائرة مثل موجة من الماء الدافئ. وقف أونو في أعلى السلم برهة قصيرة، أجال عينيه في ما حوله، وهتف: «صحيح! الدورادو! لم نعد بين رؤوس الجبن^(٥)!».

الشمس منخفضة وبرتقالية في الأفق، لكنها لا تزال تسطع بعنفٍ لا مثيل له في الشمال. وضع ماكس كفّ يده اليسرى على الإسمنت، الذي ما يزال ساخناً مثل مقلاة: يمكن أن تنضج بيضة عليه خلال دقيقة واحدة.

في صالة الوصول المكيّفة المنعشة، ثمة فرقة موسيقية ترشد الزحام بموسيقا الغواراشا. لقد وصلت طائرة من الخطوط الجوية الروسية إيروفلوت من موسكو أيضاً، كان الوافدون والمستقبلون يعانقون بعضهم بعضاً في كلّ مكان، دون أن يتضح بصورة جيّدة أين الجمارك ومكتب تفتيش جوازات السفر. ولكن هناك العديد من العساكر المرتدين بدلات خضراء وقبعات القتال، بعضهم يتمايل على نغمات الموسيقا. النّدل يتجولون بصوانٍ كبيرة عليها كؤوس مترعة بالشراب؛ عندما أخذ كلّ منهما كأساً وأراد الدفع، هزّ النادل رأسه بلطف علامة الرفض.

أقبلت عليهما فتاة سوداء في بدلة عسكرية، ذات شعر خشن مُسبّل، وسألت أيّ وفد يكونان. أجاب أونو بأنهما ليسا وفداً، بل سائحان بسيطان من هولندا يبحثان عن غرفتين، من المستحسن في فندق ناسيونال. طلبت جوازيهما السفر وأمعنت النظر في التأشيرتين، المختومتين على ورقتين منفصلتين مخروزتين إلى الجوازين، فإذا خُتمتا على جوازي السفر فلن يُسمح لهما بدخول الولايات المتحدة. انزلت سبّابتها على إحدى القوائم: «ليس لكما اسم هنا».

فقال أونو: «هذا صحيح».

- لا، هذا غير صحيح. هل قلت هولندا؟ تفضّلاً بالجلوس!

(٥) إشارة إلى الهولنديين. [م]

اختفت بجوازي السفر؛ سحب بنطالها الذي يناسب مقاسها تماماً يسير بدقة بين فخذيهما المزدهرين. انتهز أونو الفرصة للاتصال بآدا. نظر ماكس حوله وأطلق تنهيدة عميقة. هذا ما أراده على وجه التحديد: شيء مختلف كل الاختلاف، شيء لا يمت إليه بأي صلة. لقد نجحت الرحلة بالنسبة إليه. هناك لوحات ترحيب بالمشاركين في «مؤتمر هافانا الأول» في كل الأرجاء، وكذلك صور كبيرة تجسد ثوار الساعة الأولى مرسلتي اللحي، ولكن ليست هناك صورة لفيدل كاسترو؛ تمكّن من ترجمة شعار مكتوب بحروف حمراء على النحو التالي: «عندما تصبح الأشياء الاستثنائية أشياء يومية، تكون الثورة سارية». نظر إلى الموسيقيين الضاحكين على المنصة الصغيرة وفكّر في الأوضاع المزرية على حدود أوروبا الشرقية. هل يمتّ هذا بأي صلة إليها يا ترى؟

عاد أونو حاملاً إليه تحيّات آدا؛ ستكون في انتظارهما في بهو الفندق. عادت الفتاة السوداء أيضاً إلى الظهور: «كل شيء على ما يرام. هل لكما أن تأتيا معي؟».

لم يستلما جوازيهما بعد. أخذتا حقائبهما، ووصلا دون مزيد من التفتيش إلى الساحة الأمامية منعدمة النظام، فاستقبلتهما الحرارة مثل كتلة حارقة راقدة على الأرض. في نوبة من احتدام الألوان، تتماذى السماء في غروب الشمس، على النحو الذي لا يمكن أن يبتكره في أوروبا إلا فتىّ إضاءة مجنون، ما يعقب تسريجه من العمل على الفور. في أسفلها تسود حالة مرور شبيهة بمدينة ألعاب تصادم فيها سيارات صغيرة: سيارات ليموزين أميركية مفرقة، لا يقلّ عمر أيّ منها عن عشر سنوات، باصات متهاكة تلفظ سحباً سوداء من الدخان، بينما كل سائق واضح يده على البوق.

هتفت الفتاة وهي تلوح بيدها: «جيسوس!».

فأقبلت عليهم سيارة كرايسلر سوداء مضبضعة في هدير متقطع، تصدّع زجاجها الأمامي وفُقد رفر ف إحدى عجلاتها. أعطت الخلاسيّ القصير، الجالس خلف المقود، ظرفاً فيه وثائق وقالت له أن يوصل الكومباينير وس إلى فندق هابانا ليبره. فسأل أونو: «ولكن، أي نوع من الفنادق هذا؟ وكم يكلف؟».

- لا داعي للقلق، اتصلت بهم. ربّبت كلّ شيء. أنتما في ضيافة الثورة.

أراد أونو قول شيء آخر، لكنّها ابتسمت ابتسامة ملائكية كشفت عن أسنان بيضاء بياض البراءة واختفت في مبنى المطار. وضعتا حقائبهما في صندوق السيارة، وعندما أغلق جيسوس

باب الصندوق بصفقة قوية، سقط الباب الأيسر المفتوح على أرض الشارع. أطلق اللعنات، بصق السيجارة من بين شفتيه، وأخذ يضحك، ووضع مع أونو الباب أيضاً في الخلف. كان يرتدي قميصاً مشقوقاً رمادي اللون، وبنطالاً عديم الشكل، وصندلاً في قدميه العاريتين. بدأت السيارة تتحرك بقرعة مثل مطحنة بُنّ قديمة، في حين بقيت جميع العدادات الموجودة على لوحة القيادة في وضعية الصفر من دون اكتراث. بحث كلّ من ماكس وأونو عن مكان بين أرياش المقعد المشقوق، وما لبثوا أن يَمُموا وجوههم عبر طريق المطار صوب هافانا. لأنّ كوبا لا تحبّ أوضاع الغسق على ما يبدو، فقد حلّ الليل بظلامه شبه الأسود بصورة مفاجئة. على يمين الطريق ويساره يسير طلابٌ بيض وسود، وعمّال، ونساء ينعشن أنفسهن بمراوح ورقية.

قال ماكس بشعرٍ متطاير: «نحن إذاً الوفد الهولندي في المؤتمر الثقافي. لو أردنا، لاستطعنا المطالبة بتعويض عن نفقات السفر أيضاً».

- نعم، وهذا ما لا يجوز إطلاقاً. ماذا سنقول إذا سألونا أي نوع من أصحاب الرسائل الثقافية نحن؟

فبدأ ماكس بنبرة بلاغية: «أيها الكومباينيروس! إن الآراء الثورية عن نشأة الكون وتطوّره تتوافق أيضاً مع القوانين الديالكتيكية التي جاء بها ماركس وإنجلز!».

ثم قال بنبرة مختلفة: «الرّب أعلم، لعل هذا يكون صحيحاً. لقد أصدر عالم الأحياء السوفييتي المشهور، أوبارين، وهو ماركسي حقيقي، منشورات ثورية عن أصل الحياة - وما يسري على أصل الحياة قد يسري أيضاً بطريقة مماثلة على أصل الكون».

- أنت جهّزت كلمتك إذاً. ولكن أنا؟ ماذا يجب أن أقول؟

- سنقول إنك توصلت إلى أكثر الاكتشافات صلة بالواقع الاجتماعي، وهو أنّ علم النحو في كلّ اللغات الحديثة يعكس آليات القمع التي تمارسها الطبقات بعضها حيال بعض، كما يتبيّن من مصطلحات، مثل "فاعل"، و"مفعول به أول" و"مفعول به ثانٍ". البرجوازية تمثّل طبقة "الفاعل"، المثقّفون اليمينيون هم "المفعول بهم الأول"، والطبقة العاملة هي "المفعول بها الثاني". لم تكن هذه الاختلافات موجودة في لغات المجتمعات المشاعية البدائية غير الطبعية، ولذلك يجب اجتثاث الحالات الإعرابية من جذورها في المجتمعات الاشتراكية.

قال أونو: «أطروحة مثيرة للاهتمام! أيمكنني أيضاً ذكر عالمٍ سوفييتي؟ ما تقوله يشبه

بعض الشيء ما ادّعاه اللغوي نيكولاي مار، وانتقده جوزيف ستالين شخصياً في منشور ليس بالسخيف في إجماله. إنه إنجازٌ عبقرى على كلّ حال، إذا ما قورن مع كتابات أدولف هتلر». ونظر في قلبي إلى الخارج: «نحن نمزح الآن، لكننا في الحقيقة واقعين في الفخّ يا ماكس ديليوس. لعلّه ينبغي لنا القول إنّنا شاعران. لا أحد يستطيع التحقق من هذا. القصائد غير قابلة للترجمة».

- ما الذي يمكن أن يحدث لنا؟ فنحن لم نقحم أنفسنا في أيّ شيء - لقد دفعتنا إليه تلك الحلوة قبل قليل. نحن ببساطة نمثّل أنفسنا: أنا فلكي وأنت لغوي. سنرى. هزّ أونور رأسه وتنهّد بعمق: «هذا عمل غير مسؤول، غير مسؤول إطلاقاً». وفجأة رفع إحدى يديه وهتف بالإيطالية: «فلنركب المخاطر!».

دخلوا المدينة. شوارع قديمة مقتصدة الإضاءة، ساحات مرصوفة بالرخام، كنائس بيضاء من الطراز الباروكي الإسباني، تماثيل من الحقبة الاستعمارية. الخراب متوارٍ وراء حركة المرور المزدحمة للعربات المتهالكة السائرة في صخب، الازدحام البائس لكن النابض بالحياة على الأرصفة، الطوابير أمام الدكاكين، التي تمتد فيها ألوان البشرة في طيف يتدرّج من السواد الإفريقي الأشدّ سواداً إلى البياض الإيبيري الأنصح بياضاً. الموسيقى تصدح من النوافذ والراديوهاث المحمولة في كلّ الأرجاء، «تشا تشا تشا»، دقات، قرع طبول. عبروا من جانب حصون قديمة، وتمثال أبيض بياض الثلج يجسّد المسيح بارتفاع عشرات الأمتار. علّق ماكس: «لا شكّ أنه تصوّر الكوبي عن لينين».

بالقرب من الميناء، المكتظّ بالسفن الروسية الصدئة بمناجل ومطارق على مداخنها، انعطفوا إلى شارع عريض. على الجانب الأيسر، حيث يتنزّه الآلاف من الناس، يرفل كلّ شيء في الإضاءة، أما على الجانب الأيمن فقد أسدل الظلام ستاره على البحر.

في كلّ مكان على الحاجز الحجري الثقيل، المُقام ضد الأعاصير، يجلس أزواجٌ يتبادلون الغزل في ما بينهم، ورجالٌ مسنّون يلعبون الشطرنج فوق الأمواج المتلاطمة في الأسفل. هنا أيضاً تصدح الموسيقى في كلّ الأرجاء. لوحات تعلن أنّ العدو متربّص هناك، على الجهة الأخرى من المياه، على بعد مئة وخمسين كيلومتراً وراء الأفق، في فلوريدا: الإمبريالية اليانكية^{٥٠}. في نهاية الشارع العريض الطويل بدأت ضاحية حديثة، بمبانٍ عالية وإضاءة أوفر،

(٥٠) إشارة إلى الولايات المتحدة الأميركية. [م]

حتى لقد أُضيئت لوحات الإعلانات بالنيون، فلم يعد الناس السود يشكّلون الأغلبية في الشارع.

أمام مدخل الممر المؤدي إلى فندق حديث عالٍ، اضطرّ جيسوس إلى إظهار الأوراق؛ الناس الفضوليّون يقفون على الجهة الأخرى من الشارع، خلف أحد الحواجز. تبين أنّ الأوراق نظامية، فقد سُمح لهم بالدخول بإشارة يد باردة تتقنها الشرطة في كلّ أرجاء العالم، سواءً كانت في خدمة الشيوعية، أو الرأسمالية، أو الفاشية. ترجلوا من السيارة تحت سقيفة عريضة كُتبت عليها «هابانا ليبره». لا يزال بإمكان المرء رؤية أنّ «هابانا هيلتون» كانت مكتوبة عليها ذات يوم، لكنّها لم تعد موجودة. كذلك عند المدخل أخذ الحرس يردّدون نظرات متوّعة بين الصورتين في جوازيهما ووجهيهما، ما جعلهما يشعران بأنّ وجهيهما قد يكونان بضائع مهربة.

قال ماكس: «هنا يشملون أصحاب الرسالات الثقافية برعاية جيّدة».

سارا بحقائبهما، وراء جيسوس، عبر البهو المزدحم المنعش صوب مكتب الاستقبال. بينما يُخرج أوراقهما من الظرف مرّة أخرى، أجالا النظر بذهول في البهو الفسيح.

على شاشتين كبيرتين على كلّ من الجانبين تُعرض أفلام صامتة، ترافقها موسيقا كوية بهيجة صاخبة تحثّ على الرقص: إحدى الشاشتين تعرض الأعمال القتالية في فيتنام، قنابل منهمرة من قاذفات «بي-52» رمادية، طائرات مروحية ترشّ القرى بالرصاص، طائرات تحرق الحقول بالنابالم، رقيب أميركي يركل جندياً في الفيت كونغ^(*) مكبلاً بالأصفاد، منبطحاً على الأرض، لدقائق طويلة حتى الموت، ثم يطلق رصاصة على مؤخرة رأسه، من البندقية الرشاشة التي يحملها باستهتار بيد واحدة، ورصاصة على ظهره، وفي نهاية الأمر رصاصة أخرى في مؤخرته بهدف الاستمتاع، بينما تفرفر الجثة في كلّ مرة بضعة سنتيمترات في الرمال. تعرض الشاشة الأخرى، على سبيل المقارنة، رجال الشرطة الأميركيين وهم يضربون المتظاهرين السود بالهراوات. في وسط البهو، المزيّن أيضاً بالشعارات والصور الضخمة، مثل صور قروء تشرب الكوكا كولا، يتصب شيء شبيه بعمود طوطم غنيف المظهر حتى السقف، علّقت عليه مدافع رشاشة، بنادق، مسدّسات، أسلحة ستن، قنابل يدوية، وكل ما يمكن أن ينشر الموت والدمار.

(*) اسم ثانٍ للجنة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام. [م]

قال أونو: «يسود هنا مفهوم أصيل للثقافة».

انفجر ماكس بالضحك: «لعلّه مؤتمر عن ولادة الثورة من وجهة النظر المستقبلية».

سجّلا اسميهما، وسألتهما فتاة من المنظّمة هل يرغبان في إنعاش نفسيهما قبل الذهاب إلى مكتب المؤتمر. لكنّ أونو أراد إنهاء كلّ شيء على جناح السرعة، ثم يذهب من فوره إلى آدا، التي ستندesh من أنّ صديقيها الاثنتين صارا فجأة يمثلان الثقافة الهولندية في كوبا. سلّما حقائبهما، وسارا في أعقاب الفتاة إلى الصالة، التي قامت فيها في الماضي محلّات بيع الحقائب المصنوعة من جلد التماسيح والأحذية المصنوعة من جلد الأفاعي. كانت بعض المحلّات قد سُدت بلوحات خشبية، وتحول بعضها الآخر إلى مستودعات تخزين للنجارين والدّهّانين. ما يزال اسم «كارتييه» مقروءاً بشكل غامض على شبّاك المكتب. في الهرج والمرج استطاعت الفتاة تسجيل اسميهما، وأعطتهما ملقّات المؤتمر المكتوب على أغلفتها «مؤتمر هافانا الأول» و«بطاقتي تعريف باسم كلّ منهما مطبوعاً بالإسبانية: «ماكس ديلبوس، هولندا، مندوب - أونو كويست، هولندا، مندوب».

- سيكون الافتتاح الرسمي في الساعة التاسعة من صباح الغد، ونودّ أن نعرف في الحال في أيّ لجنة من لجان العمل تنويان المشاركة.

بينما يعودان إلى البهو ويثبّتان بطاقتي التعريف على صديريهما بالدبّوس، قال أونو: «لا شكّ أنّ هناك لجنة للإنسان الجديد. لديّ معرفة هائلة بهذا الأمر، لأنني أنا نفسي إنسان جديد. سألقي خطاباً متوهّجاً أقدر فيه جان جاك روسو التقدير الذي يستحقّه، وإن كان قزماً عديم الأهمية في ظلّ ماركس وإنجلز العظيمين. الإنسان طيّب في طبيعته، الظروف السيّئة وحدها هي التي تجعله سيّئاً، لذلك يجب تحسين الظروف».

ولكن عندما اتخذا مكانهما على كنبه ليّنة وفتحا الملفّات، اتضح أنّ لجان العمل لا تصبّ اهتمامها على الجوانب الثقافية الفلسفية لهذا الهدف النبيل، بل على الجانب العملي منه، مثل: الكفاح المسلّح، حرب العصابات في المدن، دور الفلاحين في عملية الاستيلاء على السلطة، والأحزاب الشيوعية.

نظر أحدهما إلى الآخر بفمٍ مفتوح من الدهشة.

قال أونو: «يا إلهي!».

- إنه ليس مؤتمراً ثقافياً على الإطلاق.

أخذاً ينبشان في الأوراق وما إن مضت دقيقة واحدة حتى اتضح كل شيء. المؤتمر تجمّع سياسيّ محض لمنظّمات حرب العصابات من جميع دول أميركا اللاتينية ودول إفريقيا وجبهة التحرير الفيتنامية من ناحية، و«القوة السوداء» من الولايات المتحدة الأميركية ومجموعات طلابية ثورية من دول أوروبا الغربية من ناحية أخرى - هذا كلّ بتجاهل ممنهج، كما يبدو من قائمة المشاركين الرسمية، للشيوعيين الرسميين في الأحزاب الموالية لموسكو؛ يبدو واضحاً أنّ الجماعات الماوية ليست من المدعّوين أيضاً. إنه اجتماعٌ حصريٌّ للغاية يضمّ صفوة الثورة، على الطراز الذي تحقّق في كوبا وحدها. ليس هناك وفدٌ هولندي على القائمة. يبدو أنّ تلك الفتاة في المطار كانت على قنعة لسببٍ أو لآخر بأنهما مندوبان؛ ولأنّ هولندا لم تكن موجودة على القائمة، مع أنها دولة في حاجة إلى التحرير أيضاً، فقد أرجعت السبب إلى الإهمال البيروقراطي، فوضعتهما على القائمة.

ورأيا في تلك اللحظة شيئاً كان يمكن أن يلفت انتباههما من قبل: لم يقتصر الأمر على أنّ المشاهير في المجال الثقافي، الذين كانوا معهما على متن الطائرة، ليسوا موجودين في أيّ مكان في الردهة فحسب، بل ويفتقر الحاضرون أيضاً إلى الملامح الرقيقة، الهشّة، الشبيهة بملامح المهرّجين، التي تميّز عادةً الفنّانين والمفكرين عن غيرهم. هذه الوجوه البيضاء والسوداء والصفراء تُبدي تعبيراً عن التصميم وقوة العزم، وإن كانت تشي أحياناً بشكل من أشكال الحزن - لعلّ هذا متأتّ من أنّ قوتهم ليست متجذّرة في الشرّ، على ما يؤمل، بل متجذّرة في الخير. في هذا الصدد، يبدو بعضهم مثل القديسين الزاهدين في لوحات إل غريكو. هناك أيضاً ضباط كوبيون من مستوى رفيع، قادة عسكريون، رواد إذاً، لأنّ الرتب العليا جميعها قد ألغيت بعد الثورة - أبطال الساعة الأولى، في نحو الأربعين من العمر، في زيّ القتال، دون شارات مميّزة، ولكن يمكن تعرّفهم من ليحاهم ومن الحشد المزدحم حولهم: لقد نجحوا في ما لم ينجح فيه الآخرون بعد.

قال ماكس: «لقد ترقّينا إذاً إلى قادة الثورة في هولندا».

وما إن قال هذا حتى انتابته ضحكة هوجاء. تهاوى على جنبه فوق الكنبه وأخذ يتلَهّف إلى قليل من الهواء: مكانتهما الجديدة وسط أكثر المطلوبين من الرجال والنساء في العالم وأشدّهم خطراً، المجتمعين هنا في قاعة واحدة، الأفلام التي تعرض الفظاعات نفسها المرّة تلو المرّة، الموسيقا... بدا وكأنّ ينبوعاً تفجّر في أعماق كيانه بصورة مفاجئة، فانبجست منه

مياة نابضة بالحياة. سألت الدموع على وجهه، لكنّ أونو أخذ يتخبط بعصية في فك بطاقة التعريف من طية صدر سترته: «لا تضحك أيها الأبله! يجب علينا تصحيح هذا الوضع على الفور، نشرح كلّ شيء ونصرف من هنا. حياتنا مهددة بالخطر يا رجل!».

قال ماكس بالإيطالية وهو يعتدل في جلوسه وقد اصطبغ وجهه بالاحمرار: «فلنركب المخاطر».

- ماذا تظن أن يحدث، لو اكتشفوا أننا لسنا من المدعّوين على الإطلاق؟ انظر إليهم. إنهم ليسوا من الرجال الذين يمكنك المزاح معهم. تصوّر لو يخطر في بالهم أننا من وكالة المخابرات المركزية الأميركية.

- وكنت تريد تغيير هولندا!

فقال أونو وهو يشير إلى عمود الأسلحة: «نعم، ولكن ليس بهذه الطريقة. أنا فاشي اشتراكي إصلاحى، أسعى حصراً إلى الحيلولة دون الثورة وإبقاء البروليتاريا في عبودية أبدية، - دود دنيء، ضبع، خادم الرأسمالية، مأجور عند وكالة المخابرات المركزية الأميركية، الذي سيتهي على مزلة التاريخ. هذا النوع من النسور يُعدم هنا من دون رحمة».

أفلتت الجملة الأخيرة منه بلا وعي. ألقى نظرة خاطفة على ماكس، لكنّ الأخير أحنى رأسه مبتسماً علامة الموافقة.

- وعن حقّ. لكن يمكنك رؤية الأمر بشكلٍ مختلف أيضاً. أنت هولندي ديمقراطي اشتراكي فاضل، يريد تغيير هولندا بالطريقة الوحيدة الممكنة في هولندا، ألا وهي الطريقة الهولندية. أعتقد أنّ هذا شيء يفهمونه هنا حقّ الفهم، ولا سيّما إذا نتجت عنه مساعدة إنمائية لكوبا. ولتعلم على كلّ حال، يا كومباينيرو، أنني سأشارك في اللجنة الرابعة. سأرى ما يحدث. لن أسامح نفسي ما حييت، إذا تملّصت من هذه المشاركة. كلّ شيء يمكن أن يحدث في هذه الحياة، مثلما يبدو هذه المرّة أيضاً. لعلّ الأميركيين يقصفون الفندق في صباح الغد أثناء الجلسة العامة، ويتوقّف الأمر عند هذا الحد، لأنّ موسكو تفضّل طبعاً التخلص من هؤلاء الناس أكثر من الاحتفاظ بهم. أعتقد أنّ ما تراه هنا هو التروتسكية في أنقى أشكالها.

قال أونو: «ولكن يا ماكس ماذا لو سمع أبي أنّ ابنه مندوبٌ في مؤتمر النخبة الثورية العالمية في هافانا الشيطانية!».

- حقيقة أنّ الأمر متعلّق بالنخبة ستثير الإعجاب في نفسه. ستكون مجنوناً لو فوّتَ

هذه الفرصة الذهبية. ستتعرف إلى هؤلاء الناس وترى من السياسة جانباً آخر مختلفاً عن ذلك التخبّط الهولندي. ستكون عمّا قريب الشخص الوحيد، ما عداي أنا، الذي يعرف عمّا يتحدث إذا تعلّق الأمر بهذا النوع من القضايا. لعلّ العديد من هؤلاء الرجال سيأتون في زيارة رسمية إلى هولندا بعد بضع سنوات، يا أونو كويست، ولعلّك عندئذٍ ستستعرض معهم حرس الشرف.

قال أونو باستسلام وهو يفتح ملفّ المعلومات الخاصّ به: «حسناً، حسناً! سأدعك تقنعني هذه المرة أيضاً. ولكن أنت الذي ستحمّل العواقب. بهذه المناسبة، السفير هنا متزوّج من إحدى بنات عمومي، واحدة من بنات فان ليندن؛ يمكنه مساعدتنا إذا أخذت الأمور منحى خاطئاً. وأنا بصفتي يعقوبياً لن أشارك طبعاً في تلك اللجنة شبه الرخوة مثلما هو حالك، بل في اللجنة الأولى: لجنة الكفاح المسلّح!».



بعد التسجيل وصرف الدولارات عند أمين الصندوق، نزعا بطاقتي التعريف عن صدريهما وخرجا من الفندق إلى المساء الحارّ الرطب. على الجهة الأخرى من الشارع، في حديقة عامة، كانت طوابير طويلة ممتدة أمام محلّ كبير لبيع المثلّجات، كوييليا، يبدو مثل صحن طائر حطّ على الأرض للتوّ. في المرح المجاور هناك مدفعٌ مضادٌ للطائرات مزوّد بطاقم؛ لقد رأيا ماسورة مدفع طويلة على سطح فندقهما أيضاً.

قال ماكس: «أهناك أجمل من التهديد بالكارثة؟».

- السلام، أيها الأحق، السلام.

- لا أقول الكارثة، بل التهديد بالكارثة. لعلّ السياسة أيضاً يمكن اختزالها إلى الجماليات، شأنها في ذلك شأن العلوم. لعلّ المعيار النهائي في العالم لن يكون الحقيقة، بل الجمال.

بينما يسيران في «الرامبا»^(*) المزدحم، المؤدّي بميل طفيف إلى البحر، أخذ أونو ينظر إلى بلاط الشارع مستغرقاً في أفكاره، واضعاً لسانه بين أضراسه - الأفكار بالنسبة إليه أكثر واقعية على الدوام من الأشياء المروية. أما ماكس، الذي تفوّه بالفكرة من دون تفكير، فقد أخذ يتشرّب كلّ شيء بشراهة. العائلات تتنزّه تحت أشجار النخيل في جميع الأرجاء؛ مكبرات الصوت المعلّقة على أعمدة الكهرباء تصدح بتوليفة موسيقية إلكترونية، استدعت إلى

(*) كلمة إسبانية تعني منحدر. [م]

ذهنه اللحن الذي ألفه لويجي نونو لمسرحية «التحقيق» من تأليف بيتر فايس، الذي يمتلك أسطوانة منه في البيت، ولكن من شبه المستحيل حفظ الموسيقى الإلكترونية؛ يضاف إلى ذلك أن راديوها لا حصر لها تضجّ من خلالها. «أنا! أنا!» هذا ما كان يهتف به صبيان باتجاه فتيات خلاسيات عابرات، تتمتع بعضهن بجمال فائن لم يهر أنفاس ماكس فحسب، بل وشهوته أيضاً: شيء في منتهى الجمال، إنه فنّ، ليست هناك حاجة لأن يُضاف شيء إليه، بل لا يجوز إضافة شيء إليه - الإثارة الجنسية تكمن تحديداً في النقصان عن الكمال. كانت نساء الشرطة المرتديات بدلات خضراء وقبعات بيضاء، لا يتجاوزن السابعة عشرة من العمر، يحاولن تنظيم حركة المرور العشوائية عند تقاطعات الطرق. على الحائط الجانبي لدار سينما علّقت لوحة إعلانات مضاءة بالنيون، ارتفاعها عشرة أمتار، ليست عن سلعة تجارية بل عن سلعة سياسية: خريطة فيتنام، مع بيانات ملوّنة تومض وميضاً متتابعاً عن المطارات الأميركية وقواعدها البحرية، أعداد الجنود، المعارك، المناطق المحتلة والمحرّرة، وقاذفة قنابل مستمرة في التحليق، مطلقّة خطوطاً منقطة تنتهي في نجوم حمراء وضياء، ثم تختفي الطائرة في توهج أحمر بصورة مفاجئة، يظهر في أعقابها السجل الأخير عن عدد الطائرات التي أسقطت: 2263.

هتف رجل لأونو بنبرة مرحة، قائلاً كلمتين إحداهما بالإسبانية والأخرى بالروسية، وهو يرفع يده: «شكراً، رفيق!».

شكره أونو بإحانة جميلة مهذّبة.

- يعتقدون أننا روسيّان.

هناك على الجهة الأخرى من الشارع، في سرادق أبيض مفتوح، لوحة ضخمة تجسّد رأس فيدل كاسترو، مصنوعة من ألواح حديدية لحم بعضها إلى بعض، بين أسنانه حزمة من الصواريخ ووردة حمراء على شكل سيجار، الرأس المدرّع تتوّعه عينٌ دامية تعلوها مbole مقلوبة في هيئة خوذة، بينما في الجوار تُضرب شخصيات سوداء حتى الموت، وقد غُطي كلّ شيء بالمناجل، المطارق، الأعداد، الأرداف، السيجار، الأسماك، البيوض، الجماجم، الكتب، العيون، البرّاقات. عندما لفت ماكس انتباه أونو إليها وقال شيئاً عن «السريالية الاشتراكية»، ترامت إليهما فجأة زمجرة مُهدّدة من عالم آخر خلخلت ضوضاء الموسيقى وحركة المرور. كان سلّم عريض، تقف تحته طيور فلامينغو برتقالية على ساق واحدة في

بركة ماء، يؤدي إلى الطابق التالي من السرادق: على درج المدخل هناك قفص فيه أسدان، إلى جانبه حظيرة صغيرة فيها خروف. وراءهما بقليل، علقت نسخة ضخمة من لوحة «خلق آدم» التي رسمها مايكل أنجلو في كنيسة سيستينا: السيد العجوز الحائم بذراعه الممدودة، آدم الناهض بصعوبة، شرارة الحياة التي يتلقاها في إصبعه الممدودة عبر بوارق متعددة الألوان من الضوء، تومض من الربّ باتجاه مخلوقه مثل قارورة ليدن^(*)، ترافقها بأعلى درجات الصوت مقطوعةً متكررة، تحريضية، من الجناح الثاني في باليه روميو وجوليت في نسخة بروكوفيف، في الجزء المتعلق بمتيغيو وكابوليت.

هتف ماكس: «أنا أحلم! أنا أحلم!».

- آدا!

ظهرت فجأة من تيار الوجوه غير المعروفة، عند مدخل فندق ناسيونال، وهو مبنى جبار من الطراز القديم، هرولت صوبهما وارتمت في أحضان أونو. أخذ يقبلها ويعانقها وكأنها طفلته، بتشجيع من عابري السبيل. طبع ماكس قبلة أخوية على كلّ من خديها.

هتفت بافتخار وابتهاج: «كيف تجدان هنا؟».

بدا أنّ الساعات الأربع والعشرين التي أمضتها في كوبا قد جعلتها شخصاً مختلفاً: وجهها يسطع بحماس لم يره فيها أيّ منهما من قبل. وقفت بينهما متأبطّة ذراع كلّ منهما تخبرهما عن استقبال شخصٍ لهما من «معهد الصداقة»، عن زيارتهما للمعهد الموسيقي الذي يستطيعان التمرّن فيه أيضاً، عن لقاءاتهما مع الزملاء الموسيقيين من كوبا وخارجها. برونو ربّ موعداً مع فرقة هابانيرا^(**) في المساء في المدينة القديمة.

- إنها حفلة كبيرة هنا!

لم يكن الفندق مطوّقاً بالحواجز، كما هو حال فندقهما. في البهو المكتظّ لم يريا الكتاب الألمان، الفلاسفة الفرنسيين، الشعراء الإنكليز، المؤلفين الموسيقيين الإيطاليين فحسب، بل وكان البهو يشكّل جزءاً من الشارع أيضاً: من هذا الباب يدخل السكّان وهم يثرثرون، عائلات بأكملها مع أطفال صغار، ويخرجون من الباب الآخر.

(*) قارورة تُحفظ فيها الطاقة بشكلها السائل بغرض تكثيف الكهرباء. [م]

(**) موسيقا كوبية شعبية. [م]

قال أونو: «هنا يشبه النظام الاشتراكي».

كانت آدا قد رأت أيضاً الكاتب الذي كان عضواً في المتمدن في تلك الأمسية في أمستردام، وكذلك الأستاذ الكبير في الشطرنج، الذي جاء لحضور مباراة كابابلانكا^(*).

- الجميع هنا، العالم كله. المثقفون اليساريون جميعهم.

قال أونو: «أترك كلمة "اليساريون" جانباً، لأن البديل هو تناقض في المصطلحات».

عندما جلسوا على المصطبة الكبيرة في الجزء الخلفي من الفندق، طلب أونو كأسه الأولى من «كوبا ليبره» الأصلي؛ طلبت آدا وماكس «ميلك شيك». عندما سمعت آدا ما حصل لهما، بدأت تضحك: «كل شيء ممكن هنا. إنه يشبه الحكاية الخيالية التي يتحول فيها ضفدع قبيح إلى أمير في غاية الجمال».

قال ماكس: «عندما نستلم السلطة في هولندا، سنصدر مرسوماً رسمياً نعلن فيه عن مناخ شبه استوائي مثل هذا المناخ».

قال أونو: «تماماً، ها أنت ذا تقول. لعل السياسة تتحدد من الناحية الجمالية، لكنها في كل الأحوال تتحدد من الناحية المناخية أيضاً».

- كم هو شيء رائع أن أراكما هنا! كنت مشتاقة إليكما.

فسأل أونو: «ليس إلى ماكس، حسبما أتمنى؟».

- بطريقة مختلفة.

بقي الليل حاراً. تقع المصطبة على حدود حديقة كبيرة شبيهة بمنتزه يؤدي إلى البحر. بدأ الزحام يقل وأعلن أونو أن هناك شيئاً مهماً يريد مناقشته مع آدا، لكنه شيء خاص ولا يمكن مناقشته إلا على أفراد. سيرى ماكس في الجلسة الافتتاحية في اليوم التالي.

قال ماكس: «نعم، نعم، الإنسان الجديد مثل خنزير».

عندما غادرا إلى غرفتها، سار ماكس بهوادة إلى الحديقة المظلمة. كانت السماء تلوح في جمود على شكل قباب تحت الأشجار العملاقة ملتوية الأغصان، في حين تبدو أشجار أخرى مثل أطياف بأوراقها الرهيفة، رقيقة مثل دانتيل بروكسل - إنها بالنسبة إليه في منتهى الغرابة، وفي الوقت نفسه في منتهى الألفة بسبب إطلالة مكتبه في لايدن على حديقة هوريس

(*) لاعب الشطرنج الكوبي José Raúl Capablanca. [م]

بوتانيكوس. الجزيرة برمتها حديقة نباتية، ولكن من دون لوحات صغيرة بأسماء النباتات. وقف في نهايتها، عند حاجز منخفض، وأخذ ينظر إلى البحر. هفت عليه نسمة منعشة؛ هنا وهناك بقع ضوئية تلقيها قوارب صيد على المياه. ضجيج المدينة يكاد يغمره حفيف الأمواج الخفيف.

ها هو ذا هنا. جاءت به الحياة إلى هنا، إلى هذا المكان الفردوسي. فكّر في حكايته، في والديه، في رحلته إلى بولندا - ثم في كلمات السفير الكويتي: «ما يحدث على بُعد عشرة آلاف كيلومتر، لا يكون قد حدث». ألم يحدث أوشفيتز هنا؟ السماء المرصعة بالنجوم التي لا يمكن السيطرة عليها. إنه في مدار السرطان على وجه التحديد، النجم القطبي في مكان منخفض من السماء؛ لكنّ الأشجار المنتصبة وراءه تحجب نظرتَه عن النجوم الجنوبية، التي لم يستطع رؤيتها قطّ.

فجأة، تناهت إليه أصوات خافتة. نظر إلى الجانب، فرأى في الظلام على بُعد عشرين متراً مجموعة صغيرة من الجنود بجانب مدفع سريع الرمي، ماسورته مصوّبة نحو الأفق. عندما رفع يده، ردّوا عليه التحية. تنهّد بعمق - تدفّق إحساس قويّ بالسعادة عبر كيانه.

17. أيام حارة

في صباح اليوم التالي، تولّى رئيس الجمهورية افتتاح المؤتمر الرسمي - لا ينبغي الخلط بينه وبين فيدل كاسترو، الذي من المزمع أن يلقي خطاباً في الجلسة الختامية العامة، يليها حفل استقبال في قصر الثورة. في استراحة القهوة، خرج ماكس وأونو من الفندق لأخذ انطباع عن المدينة في وضوح النهار.

كانت عيونهما قد ألفت الضوء الاصطناعي في صالة الاجتماع، فأعشتهما بليلة الشمس في الشارع: بدت وكأنها نفذت عبر جلديهما واستدعت ضوء غسق للظهور حتى في أعماق جسدتهما. النور تطير عالياً في السماء: الطيور السوداء تبدو مثل حواصر كتابية وهي تحوم في دوائر وحلقات بطيئة فوق المدينة الحارقة، دون أن تخفق أجنحتها مرّة واحدة. الفضوليون يقفون مجدداً وراء الحواجز على الطرف الآخر، يثبتون عيونهم بتركيز عليهما ويحاولون تذكّر أيّ بطلين هما ومن أي بلد؛ طبعاً كانت الجرائد تعجّ منذ أسابيع بالأخبار عن هذا المؤتمر، وبالسيرة الذاتية للمشاركين فيه. رغم أنّ المثلجات من أجل القساوسة، أراد ماكس شراء بعضها من الكوييليا؛ ولكن لو وقف في الطابور، لفاته على الأرجح حتى غداءه. بينما يتحدثان عن خطاب الرئيس، الذي ألقى الضوء على النتائج التي يتوقعها الشعب الكوبي، والحكومة الثورية، والحزب الشيوعي من هذا الاجتماع، دخلا في ظلال الحديقة العامة.

ما لبثا أن رأيا مشهداً خلف إحدى الأشجار، تنبثق اللاشعورية منه مثلما تنبثق الرائحة التنتنة من جرح متقيح. كان سيّد كوبيّ أكبر في السن قليلاً، يعتمر قبعة بنما بيضاء وحتى إنه يرتدي ربطة عنق، يصرف العملة لرجل شاب يبدو عليه أنه أجنبي، يقف بظهره إليهما. عندما لاحظتهما السيّد الكوبي، وضع العملات الورقية في جيبه على الفور. همّ ماكس وأونو بمتابعة السير، وكأنهما لم يريا شيئاً، لكنّ الرجل الشاب أدار رأسه إلى جانب في تلك اللحظة ليرى ماذا يجري.

تسمّر أونو في مكانه ولم يصدّق عينيه. هل هذا ممكن؟ هل تمنحه العناية الإلهية هذه الهدية حقاً؟ خفق قلبه خفقة شديدة: «بورك!».

أصيب زعيم الطلاب باسمه مثل حجر على رأسه. التفت إلى الورااء بحركة سريعة وحملق بذهول في أونو. يبدو أنه بلغ من الاندهاش حدّ عدم استطاعته الانصراف، وسار أونو نحوه بخطوات واسعة، يتبعه ماكس على مسافة قصيرة. لقد صار بين يديه، صار تحت سيطرته، لقد حان وقت الانتقام! يا لها من متعة! وقف أمامه واضعاً يديه على خاصرتيه: «ألغ هذه الصفقة في الحال، أيها الوغد! في الحال، هل تسمعني؟!».

وقال بالإسبانية للكوبي المرتعش إنه ليس هناك حاجة للقلق ولكنّ الصفقة لن تكتمل، ثم موجّهاً كلامه لبورك من جديد: «أيها الحقير الوضع! تجعل من نفسك يسارياً في هولندا وتصرف العملة في السوق السوداء في كوبا! هيّا، ماذا تنتظر؟!».

كان بارت بورك قد بلغ من الانشداه ما بلغه هو، لكنّه عندما رأى بطاقة المؤتمر على طيّة سترة أونو، انعقد لسانه بشكلٍ كامل. حصل السيّد، الذي نظر بارتياح أيضاً إلى بطاقتي التعريف على صدريهما، على نقوده من البيزو الكوبي، وعندما تلمّس الدولارات في جيبه، قال أونو إنه يستطيع الاحتفاظ بها، لكنّه يجب أن ينصرف بسرعة البرق، فخلع قبّعته بهيئة مؤدّبة واختفى عن الأنظار. التفت أونو إلى بورك مجدّداً وهو في ذروة مجده ونفوذه:

- أنت تعلم توقيع من موجود على هذه العملات الورقية، أليس كذلك، أيها السافل الشقيّ؟ أمعن النظر فيها إذا وانتك فرصة مناسبة: «تشي». هو في الأدغال في بوليفيا، حاملاً بندقية، أما أنت فتعقد صفقات رأسمالية قدرة هنا خلف شجرة. ماذا سيكون رأيك إذا أصبح هذا معروفاً في هولندا؟ لن نتطرق إلى الحديث عن كوبا، لأنّ ذلك سيعود عليك بعواقب وخيمة. لن أتكلّم عنها، لكنني أتساءل ما الذي تفعله هنا - وهل أقول لك في الحال ما الذي يخطر في بالي؟ أظنّك أتيت بمبادرة ذاتية على إحدى الطائرات المأجورة وحاولت فرض نفسك على المؤتمر، ولم يحالفك التوفيق. أنت لا مكان لك هنا. أصدقاؤك الدوليّون جميعهم ينزلون في هابانا ليبره، ما عداك أنت، إنك تنزل في فندق شبابي بانس في مكانٍ ما على نفقتك الخاصة - وهذا يليق ببائع خردوات يللمل ملقيات البحر من شواطئ كوبا.

لقد صُفّي الحساب. نظر أونو في ساعة يده وقال لماكس: «بعد عشر دقائق تبدأ اجتماعات اللجان».

تركا بورك وراهما دون إلقاء تحية الوداع.

قال ماكس عندما أصبحا خارج مرمى سماعه: «حسناً، لم أكن أعرفك هكذا».

- سأذكر هذا اليوم برضاً بالغ إلى آخر يوم في حياتي.

- ألا تخاف أن يسبب لنا مشكلات مع رئاسة المؤتمر؟

- هو؟ أظن حقاً أنه سيخطر في باله أننا لسنا مدعّوين إلى هذا المؤتمر؟ لقد فهم للتو

لماذا لم يُدعَ هو إليه. لأننا نحن مدعوّان. لقد كبرنا في نظره إلى ما لانهاية. كان يظن أنه يتعامل مع عالمين ساذجين، يستطيع تلقينهما درساً، أما الآن فقد اتضح له أننا شخصان على جانب كبير من الأهمية في الحركة اليسارية. إنه يؤمن بالثورة العالمية، وإذا اعترض طريقنا بأي شيء، سيفكر بأننا سنردّ له الصاع صاعين ذات يوم، مثلما كان سيفعل هو معنا. سيحاول التزلف إلينا عند أول فرصة مواتية. ثم إنه من المحتمل أن يكون عضواً في الحزب الشيوعي الهولندي، ولذلك فهو ليس موضع ترحيب هنا. صدّقني، إنهم هنا يعرفون مثل هذه الأشياء. ياله من يوم! ياله من لذة قصوى في الانتقام! تخيّل، لو لم تقنعني بالبقاء أمس!

قال ماكس وهما يُريان أوراقهما للحرس عند المدخل: «يا لك من شخصيّة مرموقة! الحقّ أنّ امتعاضك الأخلاقي يثير فيّ أصدق الإعجاب. ولا سيّما بالنسبة إلى شخص ينزل هو نفسه مجاناً، ومن دون وجه حقّ، في فندق من الدرجة الأولى ويأكل على حساب الشعب في دولة من دول العالم الثالث».

- اسكت أيها البائس! سأسدّد لهم الدين أضعافاً مضاعفة بطريقة أو بأخرى. صرّافو العملة يُطردون من المعبد على كلّ حال^(*).

*

في استراحة الظهر قدّم الوفد الهولندي إلى الكومبانييرو سلفادور غويرا غويرا: رجل نحيل في نحو الخمسين من العمر، بشعرٍ أشيب خفيف، وخدّين غائرين، ورسغين رفيعين مثل عصي المكانس. سيكون تحت تصرّفهما بشكلٍ كامل، مترجماً فورياً، ومرشداً سياحياً، ومصدر معلومات؛ من المفترض أيضاً أن يتناول معهما وجبات الطعام. بدا أنّ هذا الشيء الأخير على وجه الخصوص جوهرّي بالنسبة إلى غويرا نفسه. أثناء الغداء، الذي يتألّف من

(*) إشارة إلى حادثة طرد المسيح للباعة والصرّافين من الهيكل. [م]

ثلاث دورات ويجلس إليه المندوبون جميعهم، أخبرهما بخضوعه لعملية جراحية معقدة في المعدة قبل زمن ليس ببعيد: يستطيع في هابانا ليبره وحدها أن يأمل في استرجاع شيء من وزنه. ما عدا ذلك لن يتدخل في أمورهما: عندما يحتاجانه في أمر، يستطيعان السؤال عنه في مكتب المؤتمر. لم يحدث ولا مرة واحدة أن استفسر عن مكانتهما السياسية في هولندا - ذلك البلد الرائع، مثلما قال، بتاريخه الثوري الرائع، الذي كان أول من قام بالثورة ضد السيطرة الإسبانية قبل أربعمئة سنة. لم يحدث ذلك في كوبا إلا قبل مئة سنة.

قال أونو لماكس: «نعم، لا تستطيع الرد على هذا. هنا يقدرون هولندا أكثر مما يقدرونها في هولندا نفسها».

تابع غويرا: «ولكن قبل عشر سنوات استطاعت كوبا تجاوز هولندا إلى حدٍّ ما».

بعد العشاء، الذي يتألف من أربع دورات، ويُقدَّم معه النبيذ الفرنسي، ذهبوا مع آدا إلى مهرجان موسيقا الصالونات، حيث تُقدَّم فرقٌ موسيقية من عدد من دول الكتلة الشرقية عروضا في ذلك المساء. قال غويرا إنَّ هناك سيارة بسائق تحت تصرفهم على الدوام؛ ولكن لأنهم لم يكونوا قد اعتادوا بعد على فكرة أنهم يستطيعون العيش هنا مثل أصحاب الملايين، فقد استقلُّوا سيارة أجرة إلى المدينة القديمة. في صالة الحفلة ألقوا التحية على برونو أيضاً، الذي يعرف الجميع ويتصرّف وكأنه مقيم في هافانا منذ سنوات. بعد انتهاء الحفلة، اصطحب أونو آدا إلى غرفته في هابانا ليبره. كما هو الحال في فندق ناسيونال، كانت امرأة سمينية في منتصف العمر تجلس خلف طاولة صغيرة بجانب المصعد، أخذت تنظر إليه بنظرات مؤنّبة وكأنها أمه، لكنّه لم يكثر بالأمر؛ عندما غمز لها غمزة بعينه، بدأت تتألّق بالتأمر.

بقي ماكس لبعض من الوقت. كانت معرفته بمعزوفة الهروب العظيم في سلّم «ب» الكبير، أوبوس 133، من تأليف بيتهوفن، التي قدّمتها فرقة بلغارية مكوّنة من أربعة عازفين، قد أحدثت تأثيراً عظيماً في طالبة كويية في كليّة الطب - فتاة مشوقة القامة، بأصابع طويلة رقيقة، وضعتها على الجزء العلوي من فخذها، عندما أخبرها أنّ هذه المعزوفة قد انبثقت من خاتمة أوبوس 130. من أجل أن يحلّلا هذا مزيداً من التحليل، ذهبوا إلى حانة تبلغ من الظلام ما تبلغه أقصى الأعماق في الكون، الإضاءة الوحيدة فيها تتكوّن من توهّج السيجار والسجائر؛ أرشدهما النادل إلى مكانهما عبر الحرارة، وموسيقا الغيتار، والمداعبات والفقهقات غير المرئية، موجّهاً ضوء مصباحه اليدوي بشكل مؤدّب إلى الأرض. على كنبه بجانب حاجز

خشبي عالٍ، أخذاً يشربان السون، النظير الكوبي لكوكا كولا، وبينما يرشدهما التأوّه والقرقرة للذنان لا يتوقّفان في الحجرات المجاورة، توغّلاً مزيداً من التوغّل في «الهروب العظيم، الحرية تارة، البحث تارة»^(*). من أجل كشف النقاب عن آخر الأسرار الهاربة، ذهب بعد ذلك إلى بوسادا^(**) على بُعد بضعة شوارع من هناك. عند صندوق الدفع حصل كلّ منهما على منشفة وقطعة من الصابون، اضطرّاً بهما للانتظار عشر دقائق في الممرّ، حيث يجلس الرجال المتدرّجة ألوانهم من الأبيض إلى الأسود على مقعد، والنساء على المقعد المقابل. عندما انتهى هذا الشيء أيضاً، وأخذ يسير في نهاية الأمر صوب الفندق المقيم فيه عبر المدينة الليلية، حيث لا يزال الناس في كلّ مكان يجلسون أمام بيوتهم في الشارع، والنوافذ والأبواب جميعها مفتوحة، راوده الشعور الشامل لأول مرة بأنه ليس في أوروبا. عند مدخل الفندق تعرّض للتفتيش مرّة أخرى، وفي البهو ألقى التحية على أنجل، النادل الذي قام على خدمتهما أثناء تناول الطعام والذي كان يُنادى عليه بـ «بست!». كان مرتدياً في تلك اللحظة بدلة المقاومة الشعبية ذات اللون الأزرق، ومنهمكاً في تلميع مسدّسه.

*

ولكن لم يكد يمضي يومان حتى بدأ ماكس يتساءل ما الذي يفعله هنا. الجلوس ساعات طويلة في صالة مضاءة بضوء اصطناعي في هذا الجوّ البديع، الاستماع إلى ترجمة الخطابات التي لا تنتهي، ووراء ظهره اللغط المستمر للمترجمين الفوريين في مقصوراتهم، بينما يريد المشي في شوارع المدينة، كلّ هذا بدأ يُضيق عليه الخناق بصورة متزايدة. هل يجب أن يستمرّ هذا الوضع خمسة أيام أخرى؟ في الصباح صار ينزل بالمصعد أولاً، في رداء الحمّام، إلى المسبح الكبير في الهواء الطلق في الطابق الأول، حيث يُشغّل شريط آلة التسجيل الذي لم يُجدّد منذ سنوات الخمسينيات على: «Gonna take a sentimental journey»، و«Don't fence me in». يرقد في الشمس حتى وقت الغداء، متغيّباً عن الاجتماعات، ويختصر جلسات ما بعد الظهر بإمضاء الوقت في قراءة رواية «هاينريش فون أوفتردينغن» للكاتب نوفاليس، التي وضعها في حقيقته في آخر لحظة - ولكن أجاء إلى كوبا لهذا الغرض؟! لم تكن المشاحنات الإيديولوجية والتكتيكية تثير اهتمامه أيضاً، يضاف إلى ذلك أنّ الأمور المشوّقة

(*) عنوان المعزوفة في الأصل: *Grande Fugue, tantôt libre, tantôt recherchée*. [م]

(**) «بوسادا»: كلمة إسبانية تعني: نزل، فندق. [م]

حقاً لا تُطرح في اجتماعات اللجان بطبيعة الحال، بل تُناقش في غرف الفندق، خلف الأبواب المغلقة - أو في مبنى اللجنة المركزية.

لكنه صُنع على وجه الخصوص من الوفد الفلسطيني، الذي أراد محو دولة إسرائيل عن وجه الأرض، وتلقّى الهتاف والتصفيق من الجميع على هذا الأمر. كان هذا جديداً بالنسبة إليه. إسرائيل! طفل أوشفيتز ونظيره! إسرائيل ليست فرعاً من الجنتّة بطبيعة الحال، ولكن ألهذا السبب يجب أن تُحوّل إلى فرع ثانٍ من الجحيم على الفور؟ هل يمكن لأقصى اليسار وأقصى اليمين أن يتوافقا، عندما يتعلّق الأمر بمحاربة اليهود؟ تذكر من زمن الحرب أنّ المفتي الأكبر الفلسطيني في القدس ذهب لزيارة هتلر، بعمامة بيضاء على رأسه، لبحث معه إبادة اليهود في فلسطين: كان الجنرال رومل في طريقه إلى هناك على رأس الفيلق الإفريقي. هل كانت «معاداة الصهيونية» التعبير المُلطّف الأحدث عن معاداة السامية، مثلما كان «الحلّ النهائي» هو التعبير عن الإبادة؟ هل مدّ الجحيم قرونيه الاستشعار إلى كوبا أيضاً؟ إذا كانت إسرائيل والدته، فلا ينبغي بحقّ السماء أن يصبح الأمر على النحو الذي يجعل هذه الجزيرة الرائعة تنتمي إلى عالم والده.

لم يرغب في التفكير في هذه المعضلة، ولا تحدّث عنها أيضاً. ما جعله يبقى هو أونو، الذي قال إنه تعلّم الشيء الكثير، وإن كان يعتقد - لكونه ديمقراطياً برلمانياً إيراسموسياً في نهاية الأمر - بأنه ليست هناك حاجة لهذا التطرّف كلّ. وإلى ذلك هناك طبعاً وسائل الراحة. السيارة بالسائق، الرحلات بالباص في أرجاء البلاد، العروض المسرحية، العشاء في وقت متأخر من المساء في ساحة ريفية في المدينة القديمة، بصفوف من طاولات مجهزة بأدوات المائدة، طول كلّ منها عشرين متراً، مع موسيقا وخطابات، أو حضور استعراض في «لا تروبيكانا»، وهي ملهى ليليّ ضخم في الهواء الطلق، حيث تنبثق بيانوهات كبيرة بيضاء من الأرض، يعزف عليها رجالٌ سود في بدلات رسمية بيضاء، أغنية غوانتانامير^(٩)، وترقص خمسون فتاة بريش النعام على رؤوسهن، يرفعن أرجلهن في الهواء بين حينٍ وآخر، ويغنيّن في نهاية المطاف نشيد «الأممية»^(١٠)، بينما يقوم المئات من الجنود بالحراسة في المحيط الأخضر، إذ يجب دائماً أن يُحسب حساب هجمات المتسلّلين من ميامي.

*

(٩) أغنية كويبة شعبية. [م]

(١٠) أغنية تحرّض القوى العاملة على النضال. [م]

عندما حان الوقت لأن تقدّم آدا عرضها الموسيقي في نهاية الأسبوع، كان ماكس في صحة سيّئة. شعر بالحمّى طوال اليوم؛ وفضّل أن يغطس في السرير، ولكنّ هذا غير وارد بطبيعة الحال، وإن لم يكن ليؤاخذه أحدٌ على هذا. لقد غادر أونو مع آدا، وفقط من أجل أن يساعد غويرا في استرداد عافيته، ذهب إلى قاعة الطعام، حيث لم يتناول سوى سلطة فاكهة. لم تكن هناك سيارة متاحة، لذلك استقلّ الباص الذي يرتجّ ويطلق الدخان إلى المدينة القديمة مع الركّاب المرحين الناظرين إليه.

القاعة الصغيرة حارّة ومكتنّة بالجمهور الجالس حتى في الممرّات؛ ثمّة بضعة مؤلّفين موسيقيين قد جاؤوا أيضاً. آدا متوتّرة الأعصاب. كلّ التمارين التي أجريها، الرحلة المجّانية، الفندق، وجبات الطعام، الدخول المجاني إلى الحفلات الموسيقية وعروض الباليه، كياسة الجميع، كلّ ذلك يجب أن يُوازن الآن بعرض موسيقي يكاد لا يدوم نصف ساعة، بعد الاستراحة. عزفا مقطوعة المرح العاطفي لسان صابز، أعقبتها الحكاية الخيالية لياناتشيك، وسار كلّ شيء على ما يرام. استمرّ الصمت المتأمل بعد النغمات الأخيرة برهةً من الزمن ثم أفسح المجال للتصفيق، الذي صحيحٌ أنه لم يكن عارماً لكنّه فاق حدّ المجاملة.

في الختام، ضُيّف الحشد المتجمّع خلف المسرح مشروب ديكيري. عندما رأى أونو وجه ماكس المسفوع بالشمس والشاحب في الوقت نفسه قال له: «خذ كأساً، ستشعرك بالانتعاش!».

طرق ماكس كأسه بكأسيّ آدا وبرونو، ورشف بحذر الثلج المطحون مع الروم من الكأس العريضة المنخفضة. أحبّ مذاق الشراب. جرع ما في الكأس، وضعها على جبينه برهةً قصيرة، وأخذ كأساً أخرى، لكنّه بعد الرشفة الثانية ثمل بصورة مفاجئة. بدا وكأنّ شبكة سقطت فوقه، ستارة شفّافة، لكنّه في الوقت نفسه خرج من حالة الخمول التي لازمته طول اليوم. هتف: «نازدروفيه!»^(*).

وجرع هذه الكأس أيضاً، رغم أنه رغب في دلقها من فوق كتفه على الأرض، مثلما رأى جنراً روسياً مكعّب الشكل يفعل في الملهى الليلي تروبيكانا.

منذ تلك اللحظة أخذت الأحداث تغمض عليه بوتيرة متسارعة. ظهر أمامه الرجلان الكوبيان اللذان كان قد التقى بهما في أمستردام، واختفيا من جديد، وكذلك صاحبتة التي

(*) باللغة البولندية وتعني: في صحكتكم. [م]

تعرّف إليها قبل بضعة أيام قدّمت خدّها ليطلع قبله عليه وما لبثت أن اختفت عن نظريه. ارتشف الوحل الأبيض جليدي البرودة وشعر به ينزلق عبر صدره إلى الأسفل ويثلجه، بينما يُجِيل عينيه برضاً في الحشد. أخذ الناس يهْمُون بالمغادرة بصورة مفاجئة. يبدو أنهم لم يروا بعد أنّ شيئاً قد تغيّر فيه؛ قال أونو إنّ برونو قد نظّم مشواراً ويجب عليه وضع كأسه على الطاولة، لأنهم سيذهبون إلى سانتيريا. سانتيريا؟ فليكن الذهاب إلى سانتيريا، ما دام يوجد هناك أيضاً ديكيري.

ولكن لم يكن موجوداً. ذهبوا بسيارة مرقعة إلى شارع فقير في إحدى الضواحي، وماكس محشور في المقعد الخلفي بين ثلاثة أشخاص أو أربعة لا يعرفهم. ترجّلوا من السيارة أمام بيت خشبي باب رئيسي مفتوح بين أعمدة تقشّر منها الدهان. كانت الغرف الصغيرة ممتلئة إلى حدّ أنهم لم يستطيعوا إيجاد فسحة إلا ببالغ الصعوبة. وقف ماكس على رؤوس أصابعه: ثمة شيء من طقسٍ غامض غير عاديّ يجري على قدمٍ وساق.

من الغرفة الخلفية ينبعث صوت الطبول والغناء المهيّج؛ على كرسي خشبيّ بسيط، على جانبيه شموع، يجلس رجلٌ أسود هزيل في ثوب مزهر ذي لونٍ أزرق فاتح، يرتجف وكأنّ صدمات كهربائية تُضخّ في جسده، بينما تحاول امرأتان سوداوان كبج جماحه. يطلق في حالة انتشاء كلماتٍ وأصواتاً لا تمتّ بأي صلة إلى الإسبانية حسب رأي أونو، بل هي أقرب إلى اللغة النيجرية، يُوربا أو ما شاء لها أن تكون. يبدو أنّ روحاً إفريقية مستحوذة عليه، ولكن الطقس من ناحية أخرى ليس وثنيّاً إلى حدّ كبير، إذ يقوم فوق رأسه تمثال مبهرج على قاعدة يجسّد مريم العذراء، في حين علّقت فوقه صورة فيدل كاسترو. ولكن ربما يكون هذا كلّه في الوقت نفسه، متجاهلاً قانون الثالث المُستبعد^(*)، وجالباً الخزي الأبديّ على أولئك الذين يظنّون أنهم يفهمون شيئاً.

تطائر زغب الدجاج وريشه في الهواء، كان قارعو الطبول والمغنيّات يتمايلون في حالة من النشوة المحمومة، التي انتقلت عدواها إلى بعض الرجال والنساء من ذوي البشرة السوداء في الجمهور، ما اضطرّ الآخرين إلى إفساح المجال على جناح السرعة ليتفادوا الأيدي والسيقان الملوّحة.

حُشر ماكس في زاوية، وفجأة التقت عيناه، اللتان أثقلهما الروم إلى درجة أنه لا يستطيع

(*) مبدأ فلسفي يقول إذا صحّت مسألة أو صحّ نقيضها فلا مكان لاحتمال ثالث بينهما. [م]

التحكّم بهما بشكلٍ جيّد، بعيني الكاتب الهولندي الواقف إلى جانبه، الذي كان جالساً في المتدّى في أمستردام. قال ماكس: «ها قد التقينا مرة أخرى».

حاول أن يركّز عليه عينيه، لكنّه وقف في غاية القرب منه، وبقي الكاتبان المتماثلان يرفضان التماهي أحدهما في الآخر. فقط لأنّه أسرف في الشراب، خطر في باله السؤال: «كيف يمكن بحقّ الإله أن يكتب شخصٌ رواية من وحي الخيال؟!».

فأجاب الفمان الاثنان في برود: «أنا لا أكتب شيئاً من وحي الخيال. أنا أتذكّر. أتذكّر الأشياء التي لم تحدث قطّ، شأني في ذلك شأنك عندما تقرأ روايتي».

*

في الصباح الباكر من اليوم التالي -المؤتمر يقترب من نهايته- غادر المندوبون في الباصات إلى المطار، ليذهبوا من هناك إلى أوريثتيه، المقاطعة الحارّة في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة. من المقرر أن يقضوا يومين هناك في سيرا مايسترا، الجبال التي بدأ منها الثوار صراعهم باثني عشر رجلاً حول طاولة مستديرة قبل إحدى عشرة سنة. على الرغم من الشائعة التي تسري بأنّ إلدير ماكسيمو سيظهر هناك، فقد بقي ماكس وأونو في هافانا. طائرة آدا ستغادر في ظهر اليوم التالي -أما هما فسيغادران بعد ثلاثة أيام- فأخذت القرار، رغم اعتراض أونو، بقضاء يومها الأخير على الشاطئ في فاراديرو. غويرا سيتكفل بأن تكون السيارة جاهزة في العاشرة صباحاً، ليذهبوا بعد ذلك من أجل اصطحابها من فندق ناسيونال. في الساعة التاسعة والنصف جلس أونو حسب الاتفاق إلى البار المظلل، الذي يفصل حوض السباحة عن قاعة الطعام. بدا واضحاً أنّ ماكس لا يزال نائماً من أثر الشراب. كان الهدوء قد ساد في الفندق. لقد هبّت عاصفة في الليل؛ حارس المسبح يغرف أوراق الشجر والحشرات من المياه بواسطة شبكة؛ النادل يتفحص الزجاجات في الرفوف بقائمة في يده. ليس هناك أحدٌ سوى امرأة جالسة على الطرف الآخر من البار بكأس أمامها: ويسكي، على ما يبدو. فكّر أونو في نقاشاته مع المندوبين، التي استطاع خوضها على العموم بلغتهم الخاصة، عن الاضطرابات المحترمة في أرجاء العالم كافة، التي لم يكن قد استوعب سوى جزء ضئيل منها في هولندا - على الأقل، حاول التفكير فيها، فرغم أنّ المرأة لم تكن تنظر جانباً، شعر بارتباط شبه ملموس بينه وبينها. تساءل وهو في حالة من القلق: ما هذا؟ طلب الفاتورة وهو يشعر بأنّه منهمك في خيانة آدا. أراد الاتصال بغرفة ماكس ليقول له إنه جالس في انتظاره في

البهو. بينما يضع توقيعه على الفاتورة - ويتساءل مرة أخرى بأي شكل يجب عليه دفع هذا كله- أحسَّ بأنَّ المرأة تنظر إليه. بادلها النظر، وأوماً إيماءة جانبية خفيفة برأسه وهو يتسّم، علامة ألاّ تؤاخذة على عدم تجاوبه ولكن ليس هناك ما يفعله حيال هذا الأمر - حيال أنه شخص أبله بطبيعته.

لكنّه عندما أخذ يسير في البهو صوب حجرة الهاتف، رآها تنزل السلم وراءه. فهم من فوره ماذا حدث. لقد فسّرت إيماءة رأسه على نحوٍ مختلف تماماً، أي على النحو التالي: «هيا، دعينا نذهب!»، مثلها ببراعة بغية خداع النادل. ذهب إليها بعد شيء من التردّد؛ لقد وقع في الفخّ، ولم يعد هناك أيُّ مخرج منه - لكنّه لم يعد يرغب في الخروج منه أيضاً. إنها في الثلاثينيات، امرأة غصّة مكتنزة الجسم، داكنة الشقرة، عيناها بنيتان عميقتان وبشرتها ملوّنة بلون البندق. قالت بلهجة جادة: «دعنا نذهب!».

علم من لكتتها أنها كوبية الأصل. أنيقة المظهر، تبدو برجوازية بعض الشيء؛ لعلّها تكون «غوسانو» كما يسمّونها هنا، دودة معادية للثورة، تفضّل أن تهرب اليوم قبل الغد إلى الولايات المتحدة الأميركية. ولكن كيف وصلت إذاً إلى هذا الفندق محكم الإغلاق؟ أحنى رأسه علامة الإيجاب وخرج معها. هل تسير الأمور بهذه السهولة؟ ولكن طبعاً لم يكن ليجرؤ أن يومئ تلك الإيماءة من تلقاء نفسه بالمعنى الذي فهمته هي. هذا أقرب إلى أسلوب ماكس.

مدّ يده وقال: «أونو كويست».

- ماريا.

عندما جلس إلى جانبها في سيارتها، التي تبدو في حالة لا بأس بها، تساءل ما الذي جعله يفعل هذا. ينبغي عليه الذهاب إلى الشاطئ بعد قليل، فهذا آخر يوم لأدا، هذا لا يجوز إطلاقاً، يجب عليه العودة على الفور. ولكنّ العودة أصبحت مستحيلة. ألقي الجندي الواقف في الممرّ تحيّة عسكرية أثناء عبورهما به.

قال: «يجب أن أجري مكالمة هاتفية».

ألقت نظرة جانبية خاطفة وابتسمت ابتسامة حزينة: «يمكنك إجراؤها من بيتي. سنصل في الحال».

كان يوم أحد، والشوارع خالية، ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى وصلا إلى طريق عريض

أنيق يسير في وسطه حوضٌ تنمو فيه الأعشاب والأشجار، تتخلّله بين حينٍ وآخر لوحاتٌ كبيرة بشعارات، من قبيل «أينما يفاجئنا الموت، نرحّب به». السفارات تمرّكزت في هذا الشارع وكان الأثرياء يعيشون فيه في الماضي؛ لقد حوّل القسم الأكبر من المنازل الفخمة إلى مساكن طلابية ومعاهد جامعية من شتّى الأصناف. الأغصان والأوراق المتطايرة متناثرة في أرجائه كافة أيضاً. ترّجّلا من السيارة أمام فيلاً صغيرة بحديقة مُعتنى بها عناية جيّدة.

الباب الرئيسي يقضي مباشرةً إلى غرفة الجلوس المبلّطة البيضاء، شبه الخالية حسب المفاهيم الهولندية. الجدران عارية أيضاً، ما عدا صورة مؤطّرة معلّقة فوق خزانة البوفيه: رجل بابتسامة عريضة في نحو الأربعين، يرتدي بدلة عسكرية ومرسل اللحية، على رأسه قُبعة كبيرة عريضة الحواف، مثل القبعات التي يلبسها حصّادو قصب السكر، تطوّق ذراعه كتفي ماريا، التي تبتسم هي الأخرى، وقد انكمشت على نفسها بعض الشيء من العنف النابض بالحياة الذي يجانبها. عندما رأى أونو تلك اللحية، العلامة النبيلة الثورية، انتابه شعورٌ بأنه يجب عليه الهرب على الفور، يخرج من الباب الرئيسي ويطلق ساقيه للريح بأقصى ما يستطيع من سرعة صوب الشارع العريض: هذا الرجل سيدخل في الحال ويطرّحه أرضاً بطلقة رصاص، بعد ذلك سينفخ الدخان من ماسورة مسدّسه وينفجر بالضحك. لقد خاض هو أيضاً في مغامرة مرّة واحدة، فانهى به المطاف في مثل هذا الوضع. قال في نفسه: «الذنب ذنبي. أستحقّ ما يحدث لي». لقد أوقع نفسه في ورطة ويجب عليه تحمّل العواقب. أينما يفاجئنا الموت، نرحّب به. «السيد الدكتور أونو كويست، لاهاي 6 تشرين الثاني 1933 - هافانا 8 تشرين الأول 1967».

جلس في كرسي خيزرانيّ واتصل بفندق ناسيونال. بينما ينتظر لأن يُوصّل بغرفة آدا، سأله ماريا عمّا إذا كان يرغب في كأس من الويسكي.

أجاب بلهفة شديدة جعلتها تنفجر بالضحك: «لا شيء أفضل منها».

عندما سمع صوت آدا، خجل من نفسه وعأوده الندم. أراد القول إنه نزل إلى المدينة وتاه فيها، وإنه سيعود إلى الفندق بعد خمس عشرة دقيقة، لكنّه لم يفعل.

قالت مرّة أخرى: «ألو؟».

- نعم، أنا معك.

- أهلاً! أجزم أنّ ماكس لا يزال نائماً، أليس كذلك؟ لقد أفرط في الشراب، أمس. ليست مشكلة، إنني مستمتعة بالجلوس في الشمس على الشرفة.

- لا، لا أتصل لهذا السبب، أو لعلّي أتصل لهذا السبب أيضاً. لم يكن قد وصل قبل قليل.
- ما الأمر إذا؟ ألسْتُ في الفندق؟
- لا. هل يضايقك إن لم أذهب معكم؟
- أوه، ظننت هذا. أنت على الشاطئ - رأيت ذلك غريباً. ماذا ستفعل اليوم إذا؟ أين أنت؟
- أجاب أونو بنبرة رزينة، بينما ينظر إلى ماريا وهي تملأ الكأسين بمكعبات الثلج: «في الكنيسة».
- ردّدت آدا ضاحكة: «في الكنيسة؟ لتصلّي من أجل الثورة؟!».
- أريد رؤية كيف تسير الأمور هنا. سيُقام قدّاسٌ مهيب بعد قليل.
- اسمع، هل آتي أنا أيضاً. أين الكنيسة؟
- اذهبي إلى البحر مع ماكس. إنها فرصتك الأخيرة، بعد غدٍ ستكونين في هولندا من جديد، في العواصف والأمطار.
- ألا تمنع حقاً؟
- سأراكما في المساء. لكن اتصلي به في الحال، لأنه لا يعرف أيّ شيء بعد.
- سأفعل.
- حسناً. صلّي من أجل روحي!
- عندما وضع السماعة على الجهاز، رفع كأسه الموضوعة إلى جانبه وأخذ جرعة كبيرة.
- سألت ماريا وهي تجلس على الكنب: «بأيّ لغة تحدّثت؟».
- بلغة الشعب الهولندي البطل.
- لقد فاتتها النبرة الساخرة في هذا الجواب. أحنّت رأسها بينما تشعل سيجارة: «هولندا لديها تاريخ عظيم. هل كانت زوجتك؟».
- أطلق أونو تنهيدة عميقة: «إنها صديقتي. ما الذي جعلك تظنّين أنها زوجتي؟».
- كلّ شيء.
- أنتنّ فظيحات في كوبا، مثلما هو حالكنّ في كلّ مكان.
- وأشار إلى الصورة: «هل هذا زوجك؟».

- كان زوجي.

فنظر إليها بارتياح. توقع أن تبدي له بطريقة أو بأخرى أنها تفهم هذا الارتياح، لكن وجهها بقي جامداً. أصابه اضطرابٌ جديد بصورة مفاجئة. لعلها عميلةٌ سرّية، لعله يجب عليها اكتشاف حقيقة هذين الهولنديين في المؤتمر، اللذين لم يسمع بهما أحد، واللذين لم يلقيا كلمة واحدة، وحتى إنهما لم يذهبا مع المندوبين الآخرين إلى سيرا مايسترا.

- لماذا لا يزال هؤلاء الفرسان يرسلون لحاهم من زمن حرب العصابات؟

- لأنهم أقسموا ألا يحلقوا لحاهم وألا يخلعوا بدلاتهم العسكرية إلى أن تتحقق الثورة في أميركا اللاتينية كلها.

نهضت عن مجلسها وأخرجت صورة كبيرة من درج من أدراج خزانة البوفيه، وأعطته إياها: «هذا زوجي».

امتنع وجه أونو من شدة الاشمئزاز. إنه الرجل نفسه، ولكن جثته العارية راقدة على نعش، متسخة ومخضلةٌ بالدماء، بثقوب رصاص سوداء في صدره، بشعر دبق وأشعث، ولحية، إحدى عينيه نصف مفتوحة.

قال: «يا يسوع!»، ونظر إليها مشدوهاً: «أين حدث هذا؟».

- في بوليفيا.

لم يعد يعرف ماذا يقول. نهض عن مجلسه، أعاد الصورة إلى الدرج، أغلق الدرج، وعاد إلى الجلوس. لقد اتضح كل شيء. كونها أرملة بطل قتيل، حصلت من أصدقائه على امتيازات؛ منزل جميل، سيارة، قسائم وقود، وويسكي في الصباح الباكر. ربما لديها أطفال أيضاً. أراد سؤالها عما إذا كان لديها أطفال، لكنه لم يطرح السؤال. أخذ ينظر إليها بصمت. بادلته النظر، ثم ربت بيدها مرتين على المكان الفارغ بجانبها.

18. نقطة التلاشي

حاول ماكس التخلص من صداعه بالقهوة السادة والمياه المعدنية وهو جالس إلى طاولة البار. لقد رأى مناماً غريباً عن كوبا: كانت تقع بيضاء ومغطاة بالثلج على نحو كامل، في بحر قطبي متجمد - لكنه لم يتذكر أكثر من هذا. الساعة تقارب العاشرة. ما إن هم بالاتصال بغرفة أونو ليسأله لماذا لم يأت، حتى رن الهاتف. ردّ النادل، نظر إليه، وسأل: «كومانييرو ديلوس؟».

إنّها آدا. لقد ذهب أونو إلى الكنيسة ولن يرافقهم.

فقال ماكس: «خطيك غريب الأطوار يفضل الجلوس في البخور على الجلوس في الشمس. ماذا نفعل؟».

- لك أن تقرّر. كيف تشعر بعد ليلة أمس؟

- أعاني من صداع، لكنه إما أن يزداد سوءاً في الشمس وإما أن يختفي بسبب البحر. دعينا نذهب، فقد هيأت نفسي للذهاب؛ يمكنني الجلوس في الظل إذا استدعت الحاجة. سأكون عندك بعد عشر دقائق.

أخذ حقيبه المحتوية على مستلزمات السباحة وذهب إلى البهو، حيث جلس غويرا يقرأ جريدة الحزب غرانما. يرتدي قميصاً مطرّزاً أبيض اللون، يشكّل سترة في الوقت نفسه.

قال ماكس: «الرفيق كويست مشغولٌ بالدين. لا تؤاخذة، لقد ذهب للصلاة من أجل الثورة. من ناحيتي، تستطيع البقاء أنت أيضاً في هافانا، نستطيع العثور على الطريق».

ولكنّ سلفادور غويرا لم يرغب في سماع أيّ شيء من هذا. اليوم يوم أحد، سيكون هناك ازدحامٌ شديد في فاراديرو، ولن يستطيعوا من دونه إيجاد مكان مناسب؛ ثم يجب تناول الطعام أيضاً.

- يضاف إلى ذلك أنني مسؤول عن سلامتكم. يجب علينا الذهاب عبر منطقة يهبط فيها مغاوير إرهابيون من فلوريدا بصورة منتظمة. اسمح لي بتقديم.. كومبانيرا مارلين.

ونذت عنه إيماءة صوب امرأة شابة شقراء تقترب منهما: في بدلة عسكرية خضراء، وحذاء ثقيل ذي كعب عالٍ، ومسدس رشاش صغير لكن مخيف على صدرها بشكل مائل، وابتسامة مهذبة حادة حدة السكاكين على وجهها. إنها تبلغ من العمر ما تبلغه آدا، وتتميز عن النجمة السينمائية الحاملة الاسم نفسه بنظرة ذكية متيقظة في عينيها الخضراوين، اللتين تغطيهما مع ذلك طبقة رقيقة من السديم. خفّ صداع ماكس على الفور. صافحها وعلم أنه لا ينبغي له قول «مونرو»، لأنّ الجميع يقولون هذا بطبيعة الحال. ولكن مع ذلك لم يتمالك نفسه من التلميح له بطريقة غير مباشرة: «كم تبدّين رائعة! حتى إنه يتبيّن أنّ هناك مبدأ مُسمّى باسمك».

فهمت قصده على الفور. مبدأ مونرو في أميركا الشمالية، الذي عارض التدخل الخارجي في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وعاد قبل خمس سنوات إلى لعب دور في أزمة الصواريخ الكوبية. كانت تتحدّث الإنكليزية الأميركية بطلاقة، وعندما أثنى عليها لهذا الأمر، قالت إنها أميركية، من نيويورك، حيث درست تاريخ الفن، ولكن ليست هناك حاجة للتوغّل في هذا الموضوع. لم تكن تفضّل أن تخسر جنسيّتها، فلو علم والداها أين هي وماذا تفعل، لما واتتهما الجراءة على الخروج إلى الشارع. لذلك من الأفضل إبقاء نسبتهما طيّ الكتمان.

- في أيّ مكانٍ يظنّ والداك أنك توجدين الآن؟

- يظنّان أنني أتجول في أوروبا وأرتاد المتاحف، أدرس في إيطاليا الرسم المنظوري عند باولو أوتشيلو وبيرو ديلافرانچيسكا.

- شيء مهمّ أيضاً بطبيعة الحال.

- ولكن بصورة مختلفة.

بينما ينظر إلى مؤخرتها نظرة استحسان سار في إثرها إلى الخارج، حيث ينتظرهم جيسوس في السيارة. جلست مارلين إلى جانبه واضعة الكلاشينكوف في حضنها، وسارت السيارة عبر الرامبا الهادئ صوب فندق ناسيونال. كانت آدا واقفة في انتظارهم على درج المدخل. ألقت آدا ومارلين التحية إحداهما على الأخرى عبر نافذة السيارة، بحميمية لا يستطيع إظهارها في الحال سوى النساء بعضهن حيال بعض. خرج غويرا بشكلٍ مؤدّب وتركها تأخذ مكانها بينه

وبين ماكس في المقعد الخلفي. ما لبثت أن سارت بهم السيارة في الطريق الموازي للساحل الصخري إلى داخل البلاد.

قال ماكس لآدا: «ما رأيك في هذا الكالفيني السابق، الذي يذهب إلى قدّاس كاثوليكيّ روماني في بلد الشيوعيين؟ كيف يمكن أن يخطر مثل هذا الشيء في باله؟».

- هذا غير ممكن إلا في كوبا.

- انظري، حتى الأرض حمراء هنا!

إلى يمينهم كان قصب السكر يتصب في علوّ يزيد عن قامة رجل في الطين الأحمر، مخبأ مثاليّ للرعاع الذين يحطّون هنا على اليابسة. لأنه يوم أحد، توقّع أن يكون هناك ازدحامٌ على الطريق، لكنّ الناس يستقلّون القطار نتيجة تحصيل البنزين بطبيعة الحال؛ حركة المرور شبه معدومة. كانت أوراق قصب السكر المتطايرة متناثرة على حجارة الأرض في كلّ الأرجاء ويخيم صمّتٌ غريب على البرّ والبحر.

رأتها آدا أيضاً: «أتساءل هل نستطيع المغادرة غداً. سمع برونو أنّ هناك إعصاراً في هايتي قد يصل إلى كوبا أيضاً. إعصار فانسي».

- إنه السادس هذه السنة إذًا.

- كيف تعرف؟

- لأنّ الحرف «ف» سادس حرف في الأبجدية الإنكليزية. ليس الناس وحدهم يُرتّبون حسب الترتيب الأبجدي في هذه المنطقة، وإنما الكوارث أيضاً. يجب عليّ التحدّث مع أونو عن هذا الأمر، لكنّه الآن يستمع إلى الكير ياليسون.

لأول مرّة شمّ رائحتها مرّة أخرى وشعر بدفئها على فخذه، لكنّه شعر بهذا كشيء مألوف فحسب. كان جالساً خلف جيسوس، لذلك استطاع رؤية جزء من وجه مارلين؛ تحت أذنيها، على تدوير فكّها، يتألق زغبٌ ناعم مثل لحاف صغير من الضوء. باولو أوتشيلو. بيرو ديلا فرانثيسكا. كلاشينكوف. كيف له أن يحكي عن هذا في هولندا عما قريب؟ لن يستطيع أحدٌ فهم ما يحدث هنا، مثلما لا يستطيع فهم ما يحدث في ألمانيا الشرقية أو في بولندا.

حدّدت حالة السيارة استغراق الرحلة ما يقارب الساعتين. في تيار الهواء المنعش الداخل عبر الشبايك المفتوحة، أخبرهم غويرا عن دوره في الثورة، التي لم يشارك فيها في الجبال، بل في هافانا. قال إنّ مقاومة المدن ضد نظام باتيستا الفاسد، التي تكوّنت من الطلّاب

والمثقفين على وجه الخصوص، وكلفها الكثير من القتلى أيضاً، بقيت في ظلّ المقاتلين في حرب العصابات على الدوام - ولكنّ السبب في ذلك يعود أيضاً إلى أنّ العديد من الناس أخذوا في وقت لاحق يدّعون بأنهم كانوا في المقاومة المدنية، بينما لم يكونوا فيها في الواقع. كان التحقق من صحّة ما يدّعون شبه مستحيل.

قال وهو ينحني إلى الأمام وينظر إلى ماكس: «لم يكن أحد يجرؤ على الادّعاء بأنه قاتل في سيرا مايسترا إن لم يكن قد قاتل فعلاً. ولكن في حالات الفوضى ترى دائماً أناساً يستغلّون الفرصة ويتظاهرون بما ليسوا عليه في الحقيقة».

وأحنى رأسه إحناءاً متتابعة، ثم استند مجدداً إلى ظهر المقعد.

تجمّد ماكس. هل يعرف بأمر الوفد الهولندي؟ هل يريد إشعاره بأنه يعرف؟ أم أنه يتخيّل هذا؟ إنهم يعرفون الحقيقة بطبيعة الحال! إنهم يعرفونها منذ وقت طويل! فلو لم يعرفوا مثل هذا الشيء، لما استمرّت دولتهم في الوجود. لكنهم تركوا الأمر على حاله، لأنّ الخطأ من طرفهم. لقد علموا منذ وقت طويل أنهم لا يتعاملون مع مقاومين واعدّين، بل مع فلكيّ ساذج ولغويّ تافه اتخذ من السياسة البرجوازية هوايةً له. قال أحدهم في الوقت الفاصل الذي يضع فيه سيجاراً في فمه ويشعله: «دعكم من هذا. إنهما طفلان!»، وحسم الأمر بعقوبة تأديبية بحقّ تلك الفتاة السوداء في المطار. ألقى نظرةً على آدا، لكنّها لم تُثر انطباعاً بأنها تلقت رسالةً مبطنة. فضّل أن يعترف لغويرا في الحال، أن يقرّ له بأنهما حضرا ذلك المؤتمر عن طريق الخطأ وأنهما سيعوّضان كلّ النفقات - ولكن تخيّل لو أنه أخطأ التقدير، فماذا سيجلب على نفسه؟

هتف جيسوس فجأة: «فيدل!».

أحسّ ماكس وكأنه تعرّض لصدمة كهربائية. كان يسير أمامهم موكبٌ من سيارات عسكرية، يحرسه من الخلف عسكريان مدجّجان بالسلاح الثقيل، بهدوء لكن بانتباه، أحدهما بمنظار والآخر بجهاز اتصال لاسلكي. تلقّوا إشارةً بالمحافظة على مسافة بينهم وبين الموكب. تغيّرت الأوضاع في سيارة الكرايسلر في طرفة عين. أدار جيسوس رأسه، أشار من فوق عجلة القيادة، وقال مرة أخرى: «فيدل!».

انحنّت آدا إلى الأمام، مدّ غويرا عنقه، وجلست مارلين بجسم مشدود. فجأة، أخذت خمسة قلوب تنبض على نحوٍ أسرع، فقد تبين أنّ هناك رجلاً معيّناً في الجوار، رجلاً مثل كلّ

الرجال، من لحم ودم، له عينان، وأذنان، وذراعان، وساقان - وفي الوقت نفسه رجل ولا كل الرجال: مُحَرَّر شعبه، التاريخ في شخصه. نظر ماكس من فوق كتف جيسوس إلى الموكب السائر في هواده. رأى هوائيات استقبال وكذلك ساقاً خرج نصفها من شباك سيارة هنا وهناك وماسورة بندقية أوتوماتيكية. إنه هناك في سيارة ما - السلطة تنتقل من مكان إلى مكان. قال غويرا إنه يسافر هكذا على الدوام، أو بالأحرى، يجوب الجزيرة في السيارات والطائرات المروحية من دون انقطاع؛ ليس لديه شيء من قبيل مسكن أو مقر في أي مكان في هافانا، هناك مقره، هناك أحباؤه كلهم؛ إنهم يعرفون كل شيء وكل شخص، ينامون في الثكنات العسكرية، في بيوت الفلاحين، أو في الأسرة المعلقة بين الأشجار. هذا النمط المضطرب ميراث من حرب العصابات؛ حتى لقد دفع تشي إلى خارج البلاد. لا أحد يعرف مكانه إطلاقاً، فهو يظهر في كل مكان بصورة مفاجئة، ما يعود عليه بالسلامة بطبيعة الحال، إذ إن هناك الكثير من الناس الذين يرغبون في رؤيته ميتاً.

ولكن عندما أشار الجندي الحامل جهاز الاتصال اللاسلكي بأنهم يستطيعون تجاوز الموكب، تساءل ماكس ألم يؤخذ هذا القرار بشيء من الاستهتار، ففي المقعد الأمامي من سيارتهم، في الجهة التي تجاوزوا فيها الموكب، تجلس امرأة أميركية بسلح ناري في وضعية التلقيم: مَنْ قال لهم إن ما وضعته وكالة المخابرات المركزية الأميركية من خطة شيطانية لاغتياله لن توضع موضع التنفيذ، مضحية على نحوٍ ساخر بعازفة تشيلو وعالمٍ فلكيٍ واعد؟ لعل تفسير هذا هو أن يقطعهم غير مرتكز على الخوف. ولكن الأيدي بقيت تظهر من الشبائيك مشيرة لهم أن يزيدوا من السرعة. انحنى ماكس انحناءً عميقاً فوق حوضن آدا لكيلا يفوته شيء، واستند غويرا إلى ظهر المقعد لكيلا يعيق رؤيته، لكنه لم يتمكن من رؤية الكثير بسبب السرعة الشديدة. عربة عسكرية وراء أخرى، بينها عربة مطبخ، عربة مستشفى، عربة راديو، ثم رتل من سيارات جيب فيها قادة وضباط آخرون، ثم لمح في السيارة الأمامية: جالساً إلى جانب السائق الأسود، مرتدياً نظارة بإطار داكن اللون، ويقرأ في أوراق، وعلى شبكة حديدية فوق ركبتيه مسدس رشاش.

*

كان الخليج يرقد تحت السماء الصافية مثل كأسٍ مقدسة من الدم الأزرق الغامق. وقف ماكس وآدا إلى جانب السيارة وأخذا ينظران، وقد عقدت الدهشة لسانيهما، إلى العشرات من طيور البجع البيضاء الكبيرة ذات المناقير الطويلة، التي تحلق عالياً فوق الأمواج، ثم

تسقط فجأةً بشكلٍ مستقيم في المياه مثل قذائف الأعماق، تختفي عن الأنظار، وما تلبث أن تظهر والمياه تقطر منها وجيوب ما تحت مناقيرها تهتز ذات اليمين وذات الشمال، وتواصل تحليقها. بدت تلك الحركات العمودية المتواصلة مثل أعمدة رفيعة غير مرئية، وكأنها تحوّل الفضاء إلى صالة مقببة مغلقة. كانت الغابة تتراعى حتى الساحل الرملي العريض، وتبدو أشجارها وكأنها لا تلقي ظلالاً بل الظلال هي من تحمل الأشجار. لم تكن تتحرك ورقة واحدة من أوراقها.

قالت آدا: «هذا المشهد ليس من هذا العالم».

لقد ازدحم الشاطئ على مسافة منهم، ولكن في القرب لا يجلس في الشمس سوى بضعة فنّانين ومثقفين يساريين من ذوي الشهرة العالمية. كانت الشاليهات الفخمة لكن المتداعية إلى حدٍّ ما متوارية بين الأشجار، التي قال غويرا إنّ أصحاب بيوت الدعارة وتجّار الكوكايين من الأميركيين والكوبيين كانوا يسكنون فيها شهرين في السنة في الماضي، لكنّها الآن أصبحت مضافات تستخدمها منظّمات مختلفة. كانت البيوت الصيفية بجوار الشاطئ العام قد وُضعت في خدمة الشعب.

على الشرفة وارقة الظلّ في أحد الشاليهات، قدّم كوبيّ صينيّ في سترة بيضاء الغداء: حساء جازباتشو، وسمك أبو سيف مشوي مع نبيذ أبيض جافّ - شربه الجميع ما عدا مارلين - ومثلّجات بندق حلوة مع قهوة. قبل ذهاب ماكس لارتداء بنطال السباحة، سأل آدا عمّا إذا كان قد حدث لديها انطباع هي أيضاً بأنهم اكتشفوا أنه هو وأونو محتالان. قالت: «أأنت مجنون؟ هذا ليس سوى تأنيب ضميرك».

- أوَظنّين ذلك؟

- طبعاً. ولكن يجب عليكما تصحيح الخطأ ذات يوم.

- آمل أن تكوني على حقّ.

بثّت ملاحظتها الاطمئنان في نفسه، كما فعل النبيذ من قبل. كانت هناك نظّارة غوص على أحد الكراسي، وما إن خلع ملابسه حتى هرول على الرمال المخملية المتوهّجة صوب الأمواج، وغطس في البحر بالنظّارة حول ذراعه. لقد اعتاد على بحر الشمال البارد والبحر الأبيض المتوسط المنعش، فلم يتوقّع أن تكون المياه فاترة. صعد إلى السطح بصرخة ابتهاج وارتدى على ظهره في الحال. هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً! لقد نشأت الحياة في مثل

هذا البحر! لوح لآدأ، التي مدت منشفتها على الرمال، لكنّها أومات بأنها ستأتي بعد قليل. أخذ يلعب في الماء مثلما يلعب طفلٌ صغير في بركة صغيرة، يقفز إلى الأعلى، يغطس إلى الأسفل، ناسياً الصداق الذي كان يعاني منه قبل قليل. وضع النظارة على عينيه، وعلى مدى ثانية واحدة تكشف أمامه العالم الذي لم يعرفه إلا في الأحلام: الصمت المتموّج، الحركة التي تصبح نباتاً، الضوء المتجوّل على سيقانٍ خشبية طويلة، الألوان الطيفية المتحوّلة إلى أسماك، اخترقتها بجعة عملاقة مثل لعنة مفاجئة وحلّقت عبر قبة السماء المعتمّة وانقضّت على فريستها - لكنّ نظارتها، المنحدرة من زمن ما قبل الثورة، امتلأت بالمياه فاضطرّ أن يعود إلى الشمس.

لقد تخلّصت مارلين أيضاً من عنفها، وجلست في لباس السباحة على منشفة إلى جانب آدأ. بدا واضحاً أنّ الحراسة هنا يتكفّل بها أناس آخرون. بقي غويرا على الشرفة، وانهمك في الحديث مع جيسوس ومدير المنزل الصيني، الواضع ساقيه على الطاولة؛ ثمّة امرأة سوداء سمينة في مربلة بيضاء تكنس بلاط الأرض. جلس على الطرف الآخر، إلى جانب مارلين. كان الجلد المزغب العاري على ذراعيها وساقها وبطنها من دون مسدّس رشّاش مختلفاً، لو لم يرها بمسدّس رشّاش، لكانت ببساطة امرأة شابة في لباس السباحة، شأنها شأن آدأ؛ ولكن لأنّ المسدّس الرشّاش غائب، فإنه موجود بطريقة أو بأخرى أكثر من الوقت الذي كان موجوداً فيه فعلاً. أهذا ما يجعل نوعاً من النساء يتجذبن إلى العساكر: لأنهم ينزعون سلاحهم من أجلهن في نهاية الأمر؟ أكان نوعاً من التبرير بالنسبة إلى النساء اللاتي كنّ يضاجعن الجنود الألمان أثناء الحرب؟ أكنّ مناضلات في المقاومة في واقع الأمر، وحلّقت شعورهن ظلماً وعدواناً بعد التحرير؟ فما دام العدو يرقد فوقها، فلن يستطيع إطلاق النار!

لم يعجبه التفكير في الحرب. استلقى على ظهره، طوى يديه تحت رأسه، وسأل بالإنكليزية: «تُرى ماذا يفعل فيدل الآن؟».

قالت آدأ: «لا يأخذ حمّاماً شمسياً على كلّ حال. لم يسبق له فعل هذا».

- لقد رأيته. حياتي بلغت ذروة النجاح. تستطيع السير في انحدار فقط من الآن فصاعداً.

أدارت مارلين رأسها من فوق كتفها، ورمقته بنظرة متفحّصة: «ما نوع هذه الدعابة؟».

- لماذا تظنّين أنها دعابة؟ لعلّها ليست دعابة. لعلّها دعابة أنها ليست دعابة.

قالت آدأ: «أصبحت تتكلّم مثل أونو».

رفع عينيه إلى عيني مارلين، فرأى أنه يجب عليه أن يتوَّخى شيئاً من الحذر. لقد تبَّين له مراراً أنَّ الثورة في كوبا لم تُفطم من روح الفكاهة، لكنَّه لم يلاحظ الكثير من هذا الشيء عند الأجانب في المؤتمر، مثلما لم يلاحظه حينذاك في أوروبا الشرقية - وها هنا تجلس امرأة أميركية. استشاره هذا الأمر في الوقت نفسه فانتابته رغبة في مضايقتها: «ربما يجب علينا رؤية كل شيء في منظور».

- أيّ منظور؟

- منظور الأبدية.

بدت هذه المرّة أنها تفهمه أفضل مما يقصد هو نفسه. استلقت على بطنها وقالت بلهجة تعليمية: «الأبدية والمنظور لا يتوافقان. هل أعلمك شيئاً يا ماكس الهولندي؟ ابتكر المنظور في القرن الخامس عشر. قبل ذلك، كان الإله يوجد دائماً في فضاء اللوحة بشكل طبيعي للغاية - مريم العذراء مع الطفل على سبيل المثال - ولكن ذلك الفضاء نفسه لم يكن طبيعياً. كان ببساطة يجلس على عرش في السماء الزرقاء، فوق مريم العذراء، يحيط به قليل من الدوائر والنجوم. أو كنت ترى في الجهة اليسرى القديس ديونيسيوس بقلنسوة أنيقة قابلاً في زنزانة، وفي الجهة اليمنى كيف يُقطع رأسه في وقت لاحق، وفي الوسط المسيح عارياً على الصليب قبل مئات السنين، محاطاً بالرسل الاثني عشر في ملابس الأساقفة: هذا كلّه بصورة طبيعية للغاية في فضاء واحد مستحيل في لحظة واحدة مستحيلة. ولكن مع اكتشاف المنظور المركزي عُرِّف المكان الطبيعي والزمان الطبيعي. شخص على كرسي في السماء سوف يسقط إلى الأسفل، والأشياء متتابعة الحدوث لا يمكن أن تحدث في الوقت نفسه. كان ذلك إذاً هو بداية نهاية الأبدية».

استمع إلى شرحها في ذهول. بدت وكأنها تقدّم «ملخصاً» عن أطروحتها في الماجستير.

- أتريدين القول إنه لا شيء منذ ذلك الحين يستطيع شقّ طريقه من الجانب السماوي عبر نقطة التلاشي المنظورية إلى هذا العالم؟

- لن تسمعي أقول هذا النوع من الترهات.

- شيء مؤسف.

- لا يوجد جانب سماوي لنقطة التلاشي.

فقال بغية إزعاجها: «كيف تعرفين ذلك؟ ربما لم يعد إظهاره ممكناً بأسلوب فنّي لائق، ولكن ربما لا يزال موجوداً».

لكن تبين أنها لا تملك حاسةً مرهفة لهذه الأشياء.

- أعتقد أن هذا هراء لا جدوى فيه. ليس هناك شيء أبديّ سوى الزمان والمكان.

فاستلقى هو أيضاً على بطنه وقال: «ولا حتى هما في أغلب الظن. أعتقد أن هذا موضع شك في علم الفلك. بمناسبة هذا الحديث، عندما أفكر في لوحة مايكل أنجلو خلق آدم، المعلقة في رامبا... أليست من زمن ما بعد ابتكار المنظور؟».

- ولذلك تستدعي الضرورة أن يحوم الإله هناك، في المكان الطبيعي، على هذا الجانب من نقطة التلاشي، التي ليس لها جانب آخر. فلم يعد إلهاً ذا مصداقية، بل تخيل رائع لرجل تغلب على قوانين الطبيعة.

أحنى ماكس رأسه: «بدلاً من أن يكون قد خلق هذه القوانين. ولكن مهلاً.. في الوقت الحاضر...».

- نعم، أعلم ما تريد قوله.

- حقاً؟ ماذا إذا؟

- تريد القول إن الفن الحديث تخلى عن المنظور.

- تماماً. خذي بيكاسو على سبيل المثال. عنده لا ترين أحداثاً غير متزامنة، كما هو الحال في لوحات القرون الوسطى، بل ترين مستحيلات مكانية، مثل وجه من الأمام ومن الجانب في الوقت نفسه. وفي النظرية النسبية تجددين هذه الغرائب الزمانية-المكانية كلّها بأسلوب علمي، كما سمعتُ في إحدى المرات.

- ولكن الإله لا يظهر فيها. إذا كان هناك جانبٌ آخر من نقطة التلاشي، فقد اختنق هناك، ولم يبقَ منه سوى جثة تنتن في السماء.

- أنظنين ذلك؟ أعتقد أن شيئاً لم يتغيّر هناك، لأنه لا يمكن أن يتغيّر شيء في الأبدية. الأبدية شيء مثل اللحظة تماماً. نقطة التلاشي هي بوابة السماء، حيث يقف القديس بطرس بمفتاحه، الذي لا نستطيع انتزاعه منه في أغلب الظن، لكنني أظن أنك تستطيعين شقّ طريقك عبر تلك النقطة بمسدّسك الرشاش. في هذه الحالة سأستلّل وراءك مباشرة.

- حسناً، كل ما تقوله جميل جداً، لكنك لن تخبرني أنك مؤمن، أليس كذلك؟

- طبعاً لا.

- لن تخبرني، أم أنك لست كذلك؟

تنهّد ماكس بعمق: «لعل آينشتاين هو الإله، إنه يشبهه بعض الشيء. أين شتاين در فايسن»^(٥).

ودفع أصابعه في الرمال الساخنة حتى وصلت إلى مكان أنعش قليلاً.

- أتذكر بوضوح عندما توفي عام 1955؛ كنت حينذاك في الثانية والعشرين وشعرت بأنني فقدت أبي. اسمعي يا مارلين، إنني أمزح في بعض الأحيان. أعلم أنّ المفكرين الصارمين من أمثالك يرون هذا شيئاً غير لائق، لكنّ هذه هي طبيعتي. يضاف إلى ذلك أنني في كوبا، وأؤمن مثلما تؤمنين أنت بأن إقامة مجتمع عادل على الأرض يجب أن تكون ممكنة. إنني مؤمن بهذه الطريقة - مثلك تماماً. وإذا نجح فيدل في هذا، حتى وإن كان نجاحاً بسيطاً، أردت أن أضفي عليه بريقاً يشبه البريق الإلهي، إذا جاز التعبير. أو لعلّ هذا يسري على نواياه حتى وإن لم يحالفه النجاح. هناك هالةٌ رسولية تحيط به من دون شك، لديّ إحساسٌ قويّ بذلك.

أراد القول لأدا بالهولندية إنه وجد أخيراً شخصاً هنا يأخذ تاريخ الفن على محمل الجدّ ويحمل بندقية؛ لكنّه وضع رأسه على ذراعيه وأغمض عينيه، إذ ليس من اللباقة أن يتحدث بلغة سرّية بصورة مفاجئة. تأسّف على عدم وجود أونو، فقد كان لديه حتماً ما يضيفه. لعلّه سيثني عليها أنها لم تُدخل سيكولوجية الدين، أو ماركس، في النقاش. بينما تسفع الشمس ظهره، أخذ يستمع إلى الموج. هذا الصوت شبه أبديّ على كلّ حال. ربما ليس هناك صوتٌ أقدم منه سوى صوت انفجار البركان. أقدم الإشارات كانت طبعاً إشعاع الخلفية الكوني «³K»، التوهّج الذي أعقب الانفجار العظيم، الذي نشأ عنه «الزمان الطبيعي والمكان الطبيعي» اللذين تكلمت عنهما مارلين؛ ذلك التفرد الانفجاري كان إذاً نقطة التلاشي المنظورية التي تكلمت عنها مارلين، والتي لا يمكن أن يجتاز أيّ شيء عبرها. أما السؤال ماذا يوجد وراءها، أو أمامها، فسؤال لا جدوى منه. صحيح تماماً. الفن ليس كدليل للعمل السياسي فحسب، وإنما لفهم العالم بصورة علمية أيضاً!

(٥) يقولها بالألمانية وتعني حجر الفلاسفة: «أين شتاين» تعني حجر، و«در فايسن» تعني حكيم، فيلسوف.

قالت آدا: «إنك تحترق، وأنا أيضاً على كَلِّ حال. سأذهب لأرى ما إن كان هناك وإي من الشمس».

عندما ذهبت إلى الشالية، استند على أحد مرفقيه، تفرّس في عيني مارلين وقال: «إذا كان هذا كلّ صحيحاً، فهل لنا أن نتزوَّج؟».

بادلته النظر برهة قصيرة، ثم تدرجت في نوبة ضحك من فوق منشفتها إلى الرمال، حيث بقيت مستلقية على ظهرها، فاتحة ذراعيها وساقها على اتساعها. أراد الضحك هو أيضاً، لكنّه عندما رأى مرتفعها الفينوس يبرز إلى الأعلى بصورة مفاجئة، وقماش سروالها السباحة الرقيق منساب على تقوس شفرتها، مثل حبة كبيرة من البُنّ، لم يحدث سوى أن افترّت شفتاه بعض الشيء. عندما لاحظت ما حدث فجأة، تلاشت ضحكتها أيضاً. جلست من رقودها، لفتت ذراعيها حول ركبتيها، وبقيت تنظر إليه برهة من الزمن وهي تحني رأسها إحناءات متتابعة، سألت: «بم تفكّر؟».

- بأشياء فظيعة.

- أبعدّها عن رأسك! لقد أخطأت العنوان.

- أخشى ذلك أنا أيضاً.

- يا مسيح، كم هو شيء مزعج! كنا نخوض في نقاش ممتع، ولكن لا تكاد زوجتك أو صديقتك تدير إليك ظهرها حتى تبدأ العريضة.

- إنها ليست صديقتي. إنها صديقة صديقي.

رأى أن هذه المعلومة قد أصابته بالإرباك، تابع: «نعم، الآن يجب أن تصيحي: "حبيبي، هذا يغيّر كلّ شيء!" - وأن ترتمي في أحضانني».

بدا واضحاً أنها تجد صعوبة في الحفاظ على هيئة الاستياء - لو ضحكت، هذا ما تفكّر فيه على الأرجح، لأخذت الأمور منحى خاطئاً. لا بدّ أنها على صحبة مع أحد القادة العسكريين، أو بالأحرى مع بروفيسور رصين في علم الجمال، أو رسّام سورياتي بشوش في استوديو متسخ - كلّ شيء ممكن: الرجل لا يستطيع أن يعرف قطّ من الذي تصاحبه المرأة. لعلّها تصاحب الثورة حصراً. قرّر ترك الأمر عند هذا الحدّ في الوقت الحاضر، فالיום لم ينتهِ بعد. استلقى مجدّداً على بطنه، أسند ذقنه على يديه، وأخذ ينظر إلى آدا القادمة من الشالية ومعها الواقي من الشمس.

19. في البحر

مكتبة
t.me/soramnqraa

أيضاً في المساء، أعرب جيسوس عن رغبته في تناول الطعام في المطبخ. جلسوا بخمول، ووجوه حمراء، إلى المائدة على الشرفة أثناء غروب الشمس غير المعتدل؛ لم يكن الحر قد انخفض انخفاضاً يُذكر، فلم يرتدوا بعد الاستحمام سوى قميص؛ أما غويرا فلا يزال يرتدي بنطاله الطويل وسترته المطرزة. عندما حلّ الظلام ولم تعد الغابة تلفت الانتباه بظّلها، امتلأت بصرير جحافل من الجدادج. أخذت آدا تنظر إلى التوهج البنفسجي الآخذ في التعمق فوق البحر، حزينّة من رحيلها الوشيك، بمساعدة النيذ الأحمر ممتلئ الجسم الذي قدّم مع لحم الخروف المشوي.

- لا عزاء لي. إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها غروب الشمس هنا.

قال غويرا: «ابقي إذاً! لقد بقيت مارلين أيضاً».

- ليت الأمر بهذه السهولة!

قال ماكس وهو يغمس قطعة من الخبز في نبيذه: «تصوّر لو قالت إنها ستبقى، فبماذا سيعود عليها بقاؤها؟ بسعادة عظيمة أم بالسؤال: والآن ماذا سأفعل؟».

استتجت مارلين: «بعبارة أخرى، السعادة مستحيلة».

نظر إليها وهو على قناعة بأنها تعلم هي أيضاً، أنهما هما الاثنين منهما كان في الوقت نفسه في نقاشٍ ثانٍ غير معلن. أخذ الزجاجة وقال: «كم أنت صارمة! يحسّن بك أن تشربي كأساً من النبيذ. حسب رأي صديقنا المشغول، القصد من الماء هو أن تغسلي به أسنانك».

قالت: «لا، شكراً. لعلّي أضطرّ إلى إطلاق النار».

ملأ الكؤوس الثلاث الأخرى وهو يضحك: «هذا صحيح. الطريق الآن في منتهى الخطورة. الساحل كله يعجّ بالمتسلّين. لماذا لا ننام هنا؟ أعتقد أنّ هذا ممكن».

قال غويرا: «بالتأكيد. إذا أردتم».

قالت آدا بإيماءة بنّائية من مرفقها: «لا تكن سخيّاً يا ماكس. لن يخطر هذا في بالي، ستغادر طائرتي غداً. كما أنه ليس عدلاً بحقّ أونو. على ذكر هذا الحديث، أليس علينا الاستعداد للذهاب؟».

أحنى ماكس رأسه مغمض العينين، في إشارة إلى أنها كانت نزوة عابرة، ووضع شوكتة وسكّينه من يده.

- هل أقول لك شيئاً يا مارلين؟ صدّقي أو لا تصدّقي، لكنني سعيدٌ الآن، لعلمي أنني سأندكر هذا المساء بإحساس أنني كنت سعيداً حينذاك. لعلّك لا تستطيع أن تكون سعيداً إلا من خلال هذه المرأة. سأرقد ذات يوم على فراش الموت وأنا أعلم أنني لن أنهض منه مرة أخرى - ولعلّ التفكير في هذا المساء سيخفّف من وطأة موتي.

أخذ رشفةً من كأسه، لكنّه لم يبتلعها. حرّك لسانه عبر النبيذ، فاخترقت رائحته من الداخل إلى أنفه، وخُيِّل إليه وكأنّ هذه الستيمترات المكعبة القليلة في ظلمة فمه تحتوي العالم بأكمله بطريقة أو بأخرى، مثلما تعكس قطرة ندى على سويقة عشب المنظر الطبيعي. ابتلعها وقال: «لقد وافتني رؤية».

قالت آدا: «أخبرنا!».

- أرى جندياً ألمانياً في المروج الروسية، قبل خمسة وعشرين عاماً. لا بدّ أنكم تعلمون أنّ الحرب كانت مندلعة عندنا في أوروبا في ذلك الزمن، لكنّ الحديث عن هذا سيستغرق الكثير من الوقت. إنه في نحو العشرين من العمر، تبلغ درجة الحرارة أربعين درجة تحت الصفر، وبين دباباتٍ مدمّرة وجيف خيول مجمّدة يرقد على ظهره في العاصفة الثلجية العاتية، بينما تهسّس شظية قنبلة متوهّجة حمراء في أحشائه. توافيه رؤية هو أيضاً بينما يلفظ أنفاسه الأخيرة. يرى مائدة على شرفة مطلّة على خليج شبيه بقصص الخيال، الوقت مساء، تحفل المائدة بالطعام والنبيذ، ويبلغ الطقس من الحرارة أنّ المرأتين الجميلتين لا ترتديان سوى قميص رقيق...

ساد الصمت برهة قصيرة. ألقت آدا نظرة على مارلين تعبر عن أنّ مشكلة قد حدثت. سأل غويرا، بينما يميل إلى جانب ليفسح المجال لمدير المنزل الصيني من أجل أخذ طبقه: «ولماذا يظهر في رؤية جنديّ فاشيٍّ، وليس في رؤية جندي روسي سوفيتي؟».

تأوه ماكس: «أنت محقّ، ولكن هل أستطيع التحكّم في رؤياي؟ أليست الرؤية رؤياه؟».

ابتسم غويرا: «لن تكون شخصية ديكالكتيكية فاشلة في مدرسة الكوادر».

- إذا ضمنت لي أنّ الرؤى لا تُفرض فيها، تقدّمتُ الآن بطلب لهذه الوظيفة.

- نحن لا نفرض أيّ شيء. كوبا الجديدة نفسها رؤية.

قال ماكس لأدا: «مرحى! سأبقى هنا إذا».

نظر ثلاثتهم إليه - فباغته شعورٌ بعدم الارتياح. هل ثرثر أكثر من اللازم؟ خُيِّل إليه أنّ مسافة نشأت بينه وبين الآخرين، فتولّاه شعورٌ مفاجئ بتخلّي الجميع عنه. لأنّ الصداق بدأ يعاوده، عقف يديه على شكل وعاء وطلب من آدا صبّ قليل من الماء المثلج من الدورق فيهما، ثم باعد ركبتيه إحداهما عن الأخرى وغمس وجهه فيه.

- أتشعر بالإعياء؟

أجاب والماء يقطر من وجهه: «انتكاسة بسيطة. ستزول في الحال».

نهض عن مقعده ولم يعرف ما أراد قوله إلا عندما قاله: «هل أتصل بأونو؟ لأخبره بأننا سنعود إلى الفندق بعد بضع ساعات؟».

- هل أتصل به؟

- دعيني أفعّل!

ذهب إلى الداخل دون تجفيف وجهه، فدلّته العاملة المنزلية السوداء على الهاتف في الردهة. كان مسدّس مارلين الرشاش معلقاً على مسند أحد الكراسي. هويّتها الحقيقية معلقة هناك. لقد أخطأ في تقديره لها، يجب عليه التوقف، وإلا انكسرت رقبتة. ولكن في هذه الأثناء كانت إفرازاته الداخلية قد تهيّأت للأمر: أحسّ بها مثل شيء قاسٍ في أعماقه، مثل جذع مصنوع من الإسفنج يوضع أحياناً في أسفل مزهريّة لغرز الأزهار فيه، متصبّاً من أسفل بطنه حتى مشارف قلبه.

لأنه افترض أنّ أونو لا يزال جالساً إلى مائدة العشاء، طلب استدعاءه من مصطبة المطعم، لكنّه لم يكن هناك؛ لم يردّ على الهاتف في غرفته أيضاً. ما إن همّ بوضع السماعة على الجهاز حتى سمع صوته الأجشّ الخافت قائلاً بالإسبانية: «نعم؟!».

- ما هذا؟ معك ماكس. أكنت نائماً؟

- نعم، وأنت أيقظتني. ما الأمر؟ لا أريد التحدث مع أي شخص. ولا معك حتى.

- ماذا حدث؟

- هذا ليس شأنك.

- أونو! هل هناك مشكلة؟

سادت لحظة صمت. أيقن أنّ أونو نهض نصف نهوض واستند على أحد مرفقيه ليرى كم الساعة.

- لم أعد أستطيع النظر إلى نفسي. لا أستحقّ أن يخاطبني شخص رفيع المقام مثلك. لن أقول المزيد، ولكن حتى هذا يجب أن يبقى سرّاً بيننا. هل تستطيع آدا سماعك؟

- لا، إنها جالسة على الشرفة. نحن هنا في داتشا^(٥) رائعة مطلة على البحر، مع غويرا وجيسوس، يحيط بنا حشد من الخدم والحشم - لا علينا، فأنت تعلم أنّ الناس من أمثالنا أنا وأنت لا يستطيعون العيش مثل الرأسماليين إلا في دولة شيوعية. يضاف إلى ذلك أنّ الثورة منحتني بصفتي الرئيس المستقبلي للجمهورية الهولندية الشعبية امرأة مبهرة للأنفاس بمسدّس رشّاش.

- نعم، أستطيع سماع هذا، إنك تشيع غرائك المازوخية الأكثر عمقاً مرة أخرى. لم يكن ينبغي عليّ سماع كلامك. لم يكن علينا المعجىء إلى هنا، لأنّ الأمور تؤخذ هنا على محمل الجدّ، وهذه الجدّية جعلت مني مضاجع الأموات. أنا منهار أخلاقياً. لا شيء يمكنه منحي السلوان سوى النوم.

- وحدث كلّ هذا في الكنيسة؟ هل بصقت في حوض الماء المقدّس؟

- نعم! بصقت في حوض الماء المقدّس!

- أونو، لن تخبرني أنك نمت مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟

- لن أخبرك أيّ شيء، يا نذل! عندما يلوم شخص فائق التهذيب نفسه، لا تستطيع التفكير إلا بهذا الأمر. مشكلتي الحقيقية من نوع روحاني مختلف تماماً. سمحت لهم بأن يفترسوني - أنا ضحية طيبة قلبي. طبيعتي النبيلة ستودي بي إلى الهلاك ذات يوم. والآن سأقوم بإنهاء نفسي.. أقصد، بإنهاء المكالمة، لأنني منهك القوى. بلغّ آدا أنني سأتي إليها في صباح الغد

(٥) كلمة روسية تعني: منزل ريفي للاستجمام. [م]

على الفور لأرتمي تحت قدميها. لا، لا تقل لها الجملة الأخيرة. ستعودون هذا المساء، أليس كذلك؟

- سنصل تقريباً الساعة الثانية عشرة.

- إلى اللقاء غداً.

قال ماكس بالإنكليزية: «ليلة سعيدة أيها الأمير الجميل!».

وضع السماعة على الجهاز وبقي واقفاً مستغرقاً في الأفكار. ماذا يعني هذا؟ هل خان أداً فعلاً، في وضع النهار؟ هذا شيء مستحيل. ولكن حتى لو كان الأمر على هذا النحو، فإنّ حكايته لا تزال غير مفهومة، حتى بعد حذف مبالغاته جميعها. ماذا كان يقصد بـ«مضاجع الأموات»؟ هل سمح لهم بأن يُغروه بتناول الخبز المقدّس؟ «هذا هو جسدي»؟ هل سار إلى المذبح منكّس الرأس مطوّي اليدين، وأخرج لسانه لتوضع عليه قطعة الخبز؟ ربما لإرضاء شخصٍ ما؟ القسيس؟ ربما لأنه كان الشخص الوحيد في الكنيسة؟ على كلّ حال هو يعلم أنّ أونو يبالغ على الدوام عندما يقارب الحقيقة، وليس عندما يبتعد عنها، وأنّ هناك فعلاً ما يعذّبه - ولذلك يحسن به ألا يعود للحديث عن هذا الموضوع إن لم يبدأ هو نفسه بالحديث عنه.

ذهب إلى الشرفة، حيث انضمّ مدير المنزل والطباخة وجيسوس إلى المجلس وأخذوا يتكلّمون بصوت خافت في الظلام. كانت آدا قد اختفت. قالت مارلين إنها نزلت إلى البحر للمرّة الأخيرة، «من أجل توديعه».

قال غويرا بإيماءة إلى حفيف الأمواج في الظلام: «ما الذي يمنعك؟».

نعم، ولمّ لا؟ لم يسبق له السباحة في خليج المكسيك في الليل، وسوف يضطر هو أيضاً بعد بضعة أيام إلى فتح مظلّته الإنكليزية ذات المقبض الخيزراني وإغلاقها في مدخل بيته، وكأنّه كان في صراع مع خفّاش عملاق. ارتدى في الشاليه سروال السباحة الرطب ونزل الدرجات صوب الشاطئ.

عندما خرج من تحت الأشجار، وقدماه الحافيتان تغوصان في الرمال التي لا تزال دافئة من أثر الشمس، تكشّفت السماء غير المقمرة، المرصّعة بالنجوم، بحركة ظنّ أنها كانت شبه مسموعة: مثل نغمة رائعة عزفتها فرقة موسيقية بأكملها. كان منظر السماء من غرفته في الفندق في الطابق الخامس والعشرين، الباهت من أضواء المدينة وانبعاث الغازات، بالمقارنة

(*) يقولها باللاتينية: *Hoc est enim corpus meum*. [م]

مع هذا المنظر، أسطوانةً على فونوغراف محمول قديم. توقّف عن السير. أخذ يجيل عينيه في السماء، بينما يراوده شعور بأنّ رأسه قبة مرصّد فلكيّ. المَرِيخ يسطع بهيئة صارمة ولون قرمزي وسط النجوم المتلاثلة، وفي مفترق ساقى الجوزاء، يلوح سديم «مسييه 42» مثل بقعة جافة من سائل منوي على سرج بنطال بدلة رسمية. رأى أنّ النجوم الواقعة إلى الجنوب منه، تحت منكب الجوزاء ورجل الجوزاء، التي تكون غير مرئية عند خطوط العرض العليا حتى في فصول الصيف، لا تتوافق مع «الصور» الأسطورية الهندسية في علم الفلك القديم؛ ولكن حتى في ما يتعلّق بتلك النجوم الواقعة في النصف الشمالي لم يعد يعرف أكثر من التكوينات القليلة التي تعلّمها في صباه، في زمن الحرب - شأنه في ذلك شأن طبيب لم يعد يتقن أكثر من نظرية الأمزجة عند أبقراط. الحزام متقلّب المزاج، خافت السطوع، في درب التبانة يتعرّج عبر قبة السماء مثل وشاح عروس متطاير، فأدرك مرّةً أخرى، لأول مرّة منذ سنوات طويلة، لماذا كرّس حياته لهذه القبة الجليلة.

استقبله البحر، الذي كان أكثر دفئاً من فترة الظهر، وكأنه عائد إلى البيت. كان في وضع المدّ. بينما تلطم الأمواج صدره وتجعله يترنّح، حاول اكتشاف مكان آدا، ولكن ذلك كان مستحيلاً في تلك الحركة المظلمة كلّها. عقف يديه على فمه وصاح: «آدا!».

*

تردّدت. رأت طيفه مرتسماً على الشاطئ الأكثر إضاءةً وراءه، كانت كلّ موجة ترفعها لحظة وتضعها مرة أخرى على أصابع قدميها، وقد شردت بأفكارها إلى الحقيقة الشبيهة بقصص الخيال وهي أنها هنا الآن، لأنها تستطيع العزف على التشيلو: حملتها الموسيقى «على أجنحة الأغنية»(*) إلى هذا المكان في البحر - ليت أمّها تستطيع رؤيتها!

لوّحت بيدها: «ماكس! أنا هنا!».

لوّح لها هو أيضاً وغطس في المياه.

كانت تفضّل البقاء وحدها، لكنّها لو لم تردّ عليه، لساوره القلق طبعاً بأنّ البحر قد ابتلعها. لا تشعر بأنها موجودة فعلاً إلا عندما تبقى وحدها؛ لعلّ الناس الآخرين يخافون من هذا الإحساس تحديداً، أما هي فتخاف من الناس الآخرين لأنهم يسلبونها هذا الإحساس.

صعد ماكس إلى السطح بالقرب منها.

(*) بالألمانية «uf Flügel des Gesanges»: مقطوعة موسيقية من تأليف فيلكس مندلسون. [م]

هتفت: «إلى أي شيء ندين بهذا؟».

- إلى نجومنا المتألقة!

وضع يديه حول خاصرتيها وأخذها يطفوان معاً في صعود وهبوط في المياه شبه السوداء. لم تره في هذا القرب منذ زمن بعيد، وجهه الندي لا ينيره سوى النجوم. وضعت يديها على كتفيه وضحكت: «يبدو وكأننا نرقص».

لفّ ذراعه اليمنى حول خاصرتيها، أخذ يدها اليمنى في يسراه وجذبها إليه: «الفالس»^(*). رأت وميضاً جامحاً في عينيه وأحست بانتصاب عضوه - ولكن ذلك تحت الماء، غير مرئي في الأعماق، فخيّل إليها وكأنها لا تمت بأي صلة إليه: هناك العديد من أسرار البحر التي لم يكشف النقاب عنها بعد. وضع خده على خدها، وبينما يدندن اللحن الأساسي المروّع في مقطوعة رافيل الأوركسترالية وسط حفيف الموج، رأت ضوءاً ساطعاً ينطلق عبر السماء. - انظر، نجمٌ متهاوٍ! نستطيع تمنّي أمنية.

أدار رأسه، لكنّه لم يثق تماماً بالأثر الغباري حبيبي الشكل الذي بقي يتوهج برهة طويلة: لا بدّ أنه كتلة من كيلوغرام واحد أو كيلوغرامين اثنين، فالأحجار النيزكية نادراً ما تكون بهذه الضخامة.

قال: «وإذا لم تتحقّق، فهذا يعني أنها قطعة من قمر صناعي؛ السماء مليئة بالأقمار الصناعية في خطّ العرض هذا. ماذا تمنّيت؟».

- يجب ألا تقول أمنيّتك على الإطلاق.

ونظرت إليه مشوّشة الفكر. «طفل» هذا ما تمتّته لنفسها في الحال، دون تفكير، وكأنّ هذه الأمنية احترقت نفسها مثلما احترق ذلك النيزك الغلاف الجوي، «أتمنّى أن يكون لي طفل». شعرت بارتباك ربّ أسرة فاضل، يجد نفسه فجأةً يرغب في إفيوس^(**) في غاية الجمال في السابعة عشرة من العمر، عند رؤية نيزك. لم تكن تعلم قطّ أنها تريد طفلاً، شأنها في ذلك شأن أونو. أكانت تكبح أعمق أمنياتها في كلّ مرة تلبع فيها تلك الحبة البيضاء الصغيرة؟

ظهر ترخيّم مفاجئ في إيقاع الأمواج: وصلت موجة أسرع وأعلى، رفعتها وأسقطتها؛

(*) يقولها بالفرنسية «La valse»: مقطوعة موسيقية من تأليف موريس رافيل Maurice Ravel، ترافقها

عادةً رقصة الفالس. [م]

(**) مراهق في الأساطير الإغريقية. [م]

صعدا إلى السطح وهما يكحّان ويصقان المياه المالحة، وأمسك أحدهما الآخر من جديد. طبع ماكس قبلةً على خدّها ثم بحث عن فمها على الفور. هل رأى ما تفكّر فيه؟ سمحت له بتقبيلها وشعرت بيده تختفي في سروالها من الخلف.

- ماذا تفعل؟

لهث قائلاً: «هناك شيء يجب علينا إكماله...».

«أبلغني نفسك». كانت إثارتة متأتية أيضاً من الموقف الذي وضع نفسه فيه مع مارلين؛ لقد خرج منه خالي الوفاض، فأصبحت آدا البديل الجنسي. لكنّه أشار في الوقت نفسه إلى ذلك الصباح قبل ما يزيد عن ثلاثة شهور، وهذا ما جعلها تعجز عن مقاومته. لم يكن هو أيضاً قد نسي الأمر، ويعلم أنه كان تصرّفاً غير لائق. في اللحظة التي رفعتها موجه أخرى إلى الأعلى، سحب سروالها إلى الأسفل، ووضعها في الحال حول ذراعه. لفّت ساقها حول ردفه بحركة منعقدة الوزن تقريباً وقالت: «ماكس.. هذا لا يجوز! إذا علم أونو...».

لكنّه لم يعد يسمع شيئاً. تكفّلت بأن تتدفّق قوّة مختلفة تماماً عبر كيانه، لا تلقى أيّ بالٍ إليه. شعرت كيف يلج فيها - ورأت من فوق كتفه هلالاً مروّج المنظر دمويّ الحمرّة بازغاً في السماء: يكاد يرقد بربعه الأول بشكل مستقيم على الأفق...

المهمة

قلتُ في تلك اللحظة:

- أيتها الشرارة! أجل، أنت! طوفي صوبي في متوازيات سطوح دائرة في هودة عبر هذا البياض الأنصع بياضاً من النور الأبيض، الذي يسطع هنا ويصدق من كل الجهات، الذي يحيط بنا ويتغلغل فينا، الذي نحن جزء منه، النور في النور، التناغم في التناغم. مَنْ ذا الذي يريد الرحيل من هذا العالم الروحاني، حيث يتوافق كل جزء مع الكل، حيث يوجد الكل في كل جزء، وحيث تأخذ الأشكال هيئتها هنا ثم هناك وتختفي، مثلثات، دوائر، قطع ناقصة، قطع زائدة، كُرّات، مخروطات، مكعبات، ثُمانيّ سطوح، اثنا عشريّ سطوح، حيث تتألق الأجسام الشبه الكروية في تقلبها وتماهي في التناغم اللامتناهي في النور اللامتناهي، الذي تكوين فيه نقطة منقطعة النظر، بل وترأ من النور منسجم النغمات. هل تستطيعين الرحيل من هنا؟ انظري، هناك، قرب القطاع المحدّب في المضلع ذاك، هناك ترحل واحدة من الشرارات: هسيس، اختفت - شيء يهتزّ برهة قصيرة، خيال واهن، صمت يسير، ثم يغلق النور ويبدو كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. ولكن حدث شيء. انظري حولك، سترين أنه يحدث من دون انقطاع في كل الأرجاء. إلى أين يذهبن؟ انظري جيّداً - سترين أيضاً شرارات تعود إلى داخل النور: هناك، وهناك، وهناك. أئمة شيء آخر غير هذا العالم الأبدي؟ انظري إلى نفسك، إلى هذا النور المتواصل الذي تكوينه، الذي لا تشوبه شائبة - أهنأك شائبة تشوبه مع ذلك؟ أوليست تلك الشائبة توقاً معيناً إلى المجهول، تحمليه في داخلك ولا تدري كينه لهذا السبب، تماماً مثلما لا تدري كين التناغم المضيء الذي تكوينه، لأنك جزء منه؟ أهو نوع من الحنين، رغم أنك لم تكوني في أي مكان آخر غير هذا المكان؟ ألا يبدو أنّ الكمال نفسه ليس كاملاً؟ وأنّ النور ليس منيراً كلّ الإنارة ولا التناغم متناغماً كلّ التناغم؟ أجل، يجب أن تعرفي الآن:

هذا العالم ليس بالعالم الوحيد. هناك عالم آخر. لا أستطيع برهان ذلك، ينبغي عليك الإيمان به، ينبغي عليك اتخاذ الخطوة لتكتسبي خبرة حقيقية به. هناك أرض. الأرض موجودة - مثل أعماق الزنازين في مملكة «الأرخونيين»^(٥)، ليست هناك جدوى من إخبارك الكثير عنها، أو حتى القليل، لأنك لن تفهمي، حتى إنك لن تفهمي ما لا تفهمينه، لأنك لا تعرفين بعد ما «لا يوجد». هكذا، ليس هناك نورٌ دائم على الأرض - ولكن هذا أيضاً يفوق قدرتك على الإدراك. يمكنني ألا أقول شيئاً لأنه سواء، لكنني سأقوله رغم كل شيء: ربما بدافع الغيرة، لأنني لن أتمكن من العيش هناك على الإطلاق. بطريقة قابلة للتفسير ومحيّرة في الوقت نفسه، يعمّ النور هناك في بعض الأحيان، ويعمّ الظلام في بعض الأحيان؛ ولكن حتى الضوء الأرضي المأخوذ من الشمس ظلامٌ مقارنة مع نورنا، إنه ظلّ نورنا إذا جاز التعبير، وظلّ ذلك الظلّ هو سمّ الظلام الأرضي. أدرك أنني لا أجعله أمراً مغرباً لتغادري إلى ذلك العالم المشوّش منعدم النقاء، لكنني لا أريد خداع أي شخص بأي شيء، حتى وإن كان لا يفهمني. وفقط لأنك لا تفهميني، سأكشف لك عن أعماق الأسرار. مثلما تكمن بذرة الظلام في نورنا، هكذا يميل الظلام إلى نورنا ويحبّه. وبذهابك إلى هناك، تأخذين النور معك، والطريقة الوحيدة لأخذ النور إلى هناك هي ذهابك. عدم التكافؤ الكوني هذا يتضمن المغزى من عالمنا في نهاية الأمر، أي إنك لن تكوني ذات جدوى إلا إذا انطلقت إلى تلك المنطقة التي يسود فيها الضوء الأسود، الأكاذيب، الخداع، العنف، القتل، المرض والموت. لن تتاح هذه الفرصة للغالبية العظمى من الشرارات لامتناحية العدد - إذا جاز لي التعبير - لأنها محجوزة لمناسبات لن تحدث أبداً. بالنسبة إليها لن تترك الأبدية مكانها للفاني والمحدود. أما أنت فواحدة من تلك المجموعة الصغيرة المختارة التي جاء دورها. تمّ استثمار الكثير في جعل مغادرتك ممكنة - أكثر مما ستعرفين ذات يوم، من أجل راحة بالك - وكان هذا الاستثمار بهدف توكيل مهمة إليك، لا يستطيع أحد تذكرها سواك. لكنك لن تذكرها في هيئة ذكرى، ستظنين أنها فكرتك الخاصة، خاطرة رائعة، لأنك بقدر ما لا تعرفين هنا شيئاً عن الأرض، لن تعرفي شيئاً عن هذا العالم عندما تكونين على الأرض. سوف تنسين كل شيء عن هذا العالم. عندما يتحدثون عنا، سترفعين ما سيكون لديك عندئذٍ من كتفين. فبينما تكونين في طريقك إلى الأرض في لحظة

(٥) «أرخونيون» مفرداً «أرخون»: هم في المعتقد الغنوصي خدام خالق المادة «ديميورج» وحكام المصير الأرضي، هدفهم إبقاء الروح البشرية أسيرة أثناء إقامتها الأرضية. الكلمة أصلها إغريقي وتعني «حكام». [م]

زمنية، تتجاذبن خلالها ثلاثمئة وخمسة وستين «أيونا» وعالمًا وجيلًا، سيزداد وزنك شيئاً فشيئاً، ستلتصق بك أوساخٌ من الأجواء الكونية أكثر فأكثر؛ أغلفة، ملابس، زوائد، حلزونات، حملٌ ساكن، يغطّي إحساسك بالنور الأصلي، إلى أن تسقطي أخيراً في سجن الروح والجسد المظلم وتولدين في هيئة إنسان في نهاية المطاف، أي في هيئة كائن لا يتذكر أي شيء، لا يعرف حتى أنه من نور - مثل شخص نائم. هذا يسري عليك أيضاً. ولكن في الوقت نفسه ستكونين مختلفة عن الآخرين؛ الآخرين النائمين كلهم، الذين يجب أن يستيقظوا بالإيمان والمعرفة. سيكون لديهم عندئذٍ فحسب طريق للعودة. ولكن على العموم صالحتهم أدرانهم الثقيلة مع الحياة على الأرض، فنسوا أنهم غرباء هناك وأصبحوا كما يظنون بأنفسهم: وهذا أكبر تهديد لعودتهم. أما بالنسبة إليك فستكون أكثر سهولة. قررنا لأسباب فنية وضع إجراء «شخصية مهمة جداً» موضع التنفيذ. والآن - الآن حانت لحظتك للذهاب إلى هناك؛ كل شيء جاهز لاستقبالك. رافقتك السلامة! اذهبي! الآن! أعيدي لنا الشهادة! إلى اللقاء!

الجزء الثاني

نهاية البداية

الفصل الأول

- أوه! كان ذلك في آخر لحظة.

- ها أنت ذا تقول. المشكلة مع الناس هي أننا نستطيع تحفيزهم، لكننا لا نستطيع إجبارهم. يكلفنا عناءً بسيط على سبيل المثال جعل شخص ينهض من فراشه ويذرع غرفته، أو جعله ينزلق فتتكسر رقبته؛ أمّا حمل شخص على فعل شيء يتعارض مع مشاعره فهذا ليس بالأمر السهل. الناس ليسوا دمي متحركة، لديهم إرادة ذاتية؛ إنهم يتملّصون منك قبل أن تشعر. خذ مثلاً ذلك اللقاء بين ماكس وأونو.

- أأنت ربّبت ذلك اللقاء؟

- ومَن غيري؟

- كان يمكن أن يحدث مصادفة.

- طبعاً، ولكن لم يحدث.

- برهان قويّ. لو عبر ديلبوس بعد نصف دقيقة من هناك، لربما سافر أونو في سيارة شخص آخر.

- ولذهب كلّ شيء هباءً. لك جزيل الشكر على الإطراء، لكنّ هذا النوع من الأشياء أمرٌ روتينيّ بالنسبة لفرعي؛ يكاد يكون بسهولة عملية من العمليات التلقائية، مثل إسقاط شجرة، أو إصابة أحد بحجر نيزكي، على سبيل الذكر لا الحصر، رغم أننا نواجه اضطرابات في مثل هذه المجالات أيضاً. كان ذلك جزءاً من خطة عمل واسعة النطاق بطبيعة الحال، فقد كان علينا التكفّل بأن يذهب ماكس إلى روتردام في اليوم الذي احتفل فيه والد أونو بعيد ميلاده، وهكذا دواليك، ولكن في ما يتعلّق بهذا الأمر لم يكن من المتوقع أن تكون هناك مقاومة.

- ولكن ما الذي كان سيذهب هباءً؟ ماذا كانت الغاية من ذلك اللقاء؟ ألم يزد ذلك من

تعقيد الأمور؟ ألم يكن بوسعك ترك أونو خارج الموضوع وجعل ماكس وآدا يلتقيان ببساطة وينجبان طفلاً؟

- في المقام الأول، لم يكن سيجعلها تحبل منه على الأرجح، وفي المقام الثاني، سيتبين لاحقاً أن وجود أونو جوهرى لبلوغ هدفنا النهائي. عندما تعمل على مشروع من هذا القبيل، لا تشغل بال اللحظة الآنية فحسب، بل وتضع في حسابك أيضاً كل ما حدث في الماضي، وما يجب أن يحدث في المستقبل، وما يمكن أن يأخذ منحى خاطئاً وكيف يجب التعامل معه وما يجب أن تكون قد جهّزته في هذه الحالة، هذا إذا كنت لا تريد أن يتسرّب كل شيء من بين أصابعك. يمكنك مقارنة هذا بالحرب: بعد انتهائها، تكون في كتاب التاريخ حكاية مكتملة، جميلة، بنتيجة معروفة؛ ولكن بينما تدور رحاها تضع خطة معركتك بصفتك قائداً عاماً، لكنها تبقى بصورة رئيسية سلسلة عشوائية من الأحداث، والحماقات، والمفاجآت غير المتوقعة، التي تتطلب منك وضع قرارات جديدة في كل لحظة. وفي المقام الثالث.. أوه، لم أعد أتذكر. لا تؤاخذني! لقد وضعت يدك على نقطة مبدئية يجب أن نكون واضحين بشأنها من البداية. طلبت مني إخبارك الحكاية بإسهاب وتفصيل، ولذلك بدأت بسردها. ولكن لكي أكون صادقاً لا أرغب في أن أسرد الحكاية وأشرح في الوقت نفسه لماذا أخذت المنحى الذي أخذته وأين تدخّلت فيها وأين لم أتدخّل ولماذا.

- هل دستُ لك على طرف؟

- بدايةً ليست لديّ أطراف، لأننا في عالمنا الروحاني نتكوّن من الذكاء فحسب، ويضاف إلى ذلك...

- ويضاف إلى ذلك؟

- دعك من هذا! لا أمانع بين حينٍ وآخر في تقديم تبرير أو مزيد من الشرح، لكنني لا أنوي عَضّ ذيلي طوال الوقت.

- لديك ذيلٌ إذاً؟!

- لعلّ للحكاية ذيلًا.

- لا أدري ما إن كنت تدري، ولكنّ الأوروبوروس، الثعبان الذي يعضّ ذيله، هو رمزٌ للخلود على تلك الأرض نفسها.

- هذا جائر، ولكن إن لم أستطع سرد الحكاية بالطريقة التي تتضمنها الأحداث نفسها،

فيجدر بك الرضا بإبلاغك أنّ المسألة قد انتهت. بوسعك أن تسألني مئة سؤال، أو ألف سؤال، أو مئة ألف سؤال؛ بوسعك أن تسألني... دعنا نقول، لماذا أقحمت كوبا في الموضوع، وما أدراني أيّ أسئلة أخرى - سيتضح هذا كلّ في حينه. صدّقني، لم يكن ليحدث شيء إن لم تكن هناك ضرورة قصوى لحدوثه، على الأقل ما يخصّ الأمور التي تدخلت فيها، ليس عبثاً أنني حتى الآن لم أقل «أنا» ولا مرّة واحدة.

- ما عدا المرات الثلاث تلك. ودعني أقول لك هذا: حقيقة أنك في قمّة الهرم السماوي لا تمنحك الحقّ في التكلّم بمثل هذ النبرة الوقحة إلى مسؤول يفوقك في المستوى بعض الشيء. لا علينا، هذه هي الأوضاع هنا في الوقت الحاضر. بدأت تصيبي بالكرب، ولكن لعلّ هذا متأثّر من حكايتك أيضاً. أتدري، لا أحد منا يستطيع رؤية «البليروما»^(٥) الكاملة، ولكن إذا كنت تعمل على حافة النور، كما هو حالنا، وتطلّ على عالم الظلام الشيطاني ذاك، فسُتُعاني أكثر من الكيانات العليا، التي تكاد لا تعلم أيّ شيء عنه؛ وأنت تقف بظهرك إلى النور ووجهك إلى الظلام حتى أكثر مني. إن لم تخنّي الذاكرة، فقد ظهرت بضعة مرّات في الماضي في المنطقة الأرخونية تلك، التي لا تستطيع حتى الجزم أنها من خلق «الحاكم»، كما يعتقد معظم أولئك المتبجحين هناك، لأنّ انفجار الضوء البشري ذاك، الذي كان من شأنه أن يؤدي إليهم، هو من إنجاز مركزنا. بالمقارنة معي، تكاد تكون واحداً منهم، رغم أنك بعيد عنهم بعداً لانهاثياً - هذا إن كانوا يؤمنون بوجودك. معظمهم لا يعرف مخلوقات مثلنا إلا على شكل تخيّلات طفولية من قبيل سوبرمان، أو باتمان. أتريد معرفة السبب؟ السبب هو أنهم أصبحوا يمتلكون تقريباً كلّ ما نمتلكه من قدرات، في شكل تقنياتهم. وهذا خطؤنا الأحمق. بقينا قروناً طويلة نائمين هنا برضاً تامّ عن أنفسنا، بينما الشيطان إيل يقوم بعمله.

*

- الشيطان إيل؟ ما الذي أسمع؟ في أيّ هيئة؟!

- تلك الهيات كلّها حثالة على كلّ حال: الشيطان بليعال، الشيطان بعل زبوب، الشيطان آشماداي، الشيطان عزازل، الشيطان سامايل، الشيطان مِفستوفيليس وإلى آخر القائمة، كلّهم من طينة واحدة. ولكن ذلك كان طبعاً من عمل الشيطان لوسيفر من جديد.

(٥) «البليروما»: الملائ الأعلى في المعتقد الغنوصي؛ مركز الحياة الإلهية ومنطقة النور، يقيم فيها الأيونات وعدد من الأرخونيين. [م]

- ماذا فعل ذلك الدنيء إذا؟

- لم نكتشف ذلك إلا مؤخراً. لقد أبرم ميثاقاً مع البشرية قبل خمسمئة عام دون أن نلاحظ ذلك، نوعاً من نظير شيطاني لشهادة «الحاكم».

- أنت لا تعني ما تقول! أعرف فقط قصة أن مِفستوفيليس أبرم ميثاقاً مع شخص يدعى الدكتور فاوست، الذي باع له روحه، لكنني ظننت أن هذا بقي في إطار الأدب.

- هذا صحيح، ولكن يتبين الآن أن هناك جانباً في منتهى الخطورة في هذا الميثاق. هل تسمح لي بإنعاش ذاكرتك؟ كان يوهان فاوست التاريخي ساحراً ألمانياً متجولاً من منطقة فورتمبيرغ، ذائع الصيت، مثل العديد من أمثاله في النصف الأول من القرن السادس عشر البشري. في عام 1587، بعد مضي أربعين أو خمسين سنة على وفاته، بدأت أسطوره بصدور حكاية تاريخية، «تاريخ الدكتور يوهان فاوست، الساحر المتجول والفنان الأسود»، تظهر فيها قصة الميثاق الذي أبرمه مع الشيطان. أسطورة فاوست تلك تعود حسب اعتقادنا إلى شخصية رجالة مماثلة، قبل ذلك بألف وخمسمئة سنة، ورد ذكرها في سفر أعمال الرسل: سمعان المجوسي. كان قد دخل في نزاع مع بطرس، لأنه أراد شراء «الروح القدس». لقد جاء هذا الرجل، سامريّ الأصل، بفكرة أنه هو «الحاكم».

- لا! هل كان الشيطان إيل وراء هذا الأمر أيضاً؟

- هذا ما نفترضه الآن. لقد صاحب عاهرة فينيقية، ادّعى أن روح هيلين طروادة متقمصة جسدها.

- كيف يمكن أن تدّعي مثل هذا الشيء؟

- على الأرض يمكنك ادّعاء أي شيء، وهناك أناس يصدقونك على الدوام. ولكن كن حذراً، لا تستهن به! لقد قال إن المبدأ النسوي كان أول فكرة في الفكر - أي فكرة «الحاكم»، الذي ادّعى أن يكونه هو نفسه. وهذا المبدأ خلقنا بعد ذلك، ثم خلقنا نحن العالم. ولكن حسب رأيه لم نكن نريد أن يُنظر إلينا على أننا مخلوقات، بل خالقون فحسب، ولذلك قال إننا جرجرنا خالقنا من النور إلى ظلام خلقنا، وأقحمناها في جسد سلسلة من النساء ممتدة عبر القرون، من بينهن هيلين، ثم في نهاية الأمر في جسد عاهرة في بيت دعارة في مدينة صور، التي نزل فيها «الأب» إلى الأرض وصار في هيئة إنسان من لحم ودم، وحرّر «الأم» السجينة في آخر المطاف.

- يا لها من قصّة! الجزء المتعلّق بالخطف وأولئك النسوة كلّهنّ كذبة مشينة بطبيعة الحال
- ولكن كيف اكتشف ذلك الساحر حقيقة الخلق؟ هل ألهمه لوسيفر بهذا كلّ؟
- هل لديك تفسيرٌ آخر؟
- وأيّ غايةٍ كانت في نفسه؟

- غايته كانت صرف الانتباه عن خطّته الحقيقية. من دون أن يلاحظ أحد، عاد سمعان المجوسيّ في أواخر القرن السادس عشر إلى الظهور في أسطورة فاوست، الباحث الدؤوب عن المعرفة، الذي أبرم عقداً مع الشيطان. كانت أولى نسخها المعدّلة الأدبية من تأليف كريستوفر مارلو، مسرحية «التاريخ المأساوي للدكتور فاوستوس»، التي عُرضت في لندن نحو 1590. كانت تلك هي الأولى في سلسلة متواصلة من النسخ المعدّلة عن الموضوع، التي تستمرّ إلى هذا اليوم بالتوقيت الأرضي، وفي ذروتها طبعاً نسخة غوته، التي تعود فيها هيلين إلى الظهور. في إحدى النسخ المعدّلة الأخيرة، وهي «الدكتور فاوستوس» من تأليف توماس مان، تظهر عاهرة مصابة بداء الزّهري مرة أخرى بصفتها صاحبة البطل - وشخصيّتها مستوحاة، بصورة معبّرة بما فيه الكفاية، من عاهرة قاتلة في حياة نيّشه، الذي تكلمنا عنه قبل قليل. إنّها السبب في جنونه القاتل.

- أعلم كلّ شيء عن هذا، فأنا الذي أرسلت إليه تلك الحيزيون في ذلك الوقت. يجب ألاّ تدّعي أنّ «الحاكم» ميت. ولكن ما الذي كان يضره لوسيفر بصرف الانتباه؟ وعن أيّ شيء؟

- كان يقصد بذلك إفهام البشرية أنّ الميثاق مع الشيطان مسألة أدبية: حكاية اختيارية عن شخصٍ خياليّ متعطّش إلى المعرفة، يبيع روحه في سبيلها. هذا هو السبب في أن تبقى واقعةٌ فظيعة، لا تمت بأيّ صلة إلى الأدب لكنّها في منتهى الواقعية، من دون ملاحظة أحد إلى هذا اليوم بالتوقيت الأرضي، ألا وهي أنّ لوسيفر أبرم ميثاقاً مع البشرية في ذلك العقد الأخير نفسه من القرن السادس عشر، وفي لندن أيضاً: عقداً جماعياً، باعت بموجبه البشرية جمعاء روحها له.

- يا إلهي! كيف يمكنني تصوّر هذا؟ هل وقّع أحدٌ ذلك العقد نيابة عن البشرية؟
- أجل.
- من؟
- فرانسيس بيكون.

- فرانسيس بيكون؟

- فرانسيس بيكون، الذي كان يُعدّ دائماً الرجل الذي تنبأ بالعالم الحديث القائم على العلم والتكنولوجيا. في عدد من الأعمال المؤدّنة بعهد جديد، حدّد ملامح عالم لن يكون فيه العلم والتكنولوجيا في أيدي بضعة هواة متفرّقين، كما كان الحال حتى أيامه نحو عام 1600، بل سيتحوّلان إلى مؤسسة جماعية تنظّمها الدول، وتموّلها الحكومات، ولها مؤتمرات ومنشورات منتظمة. لا يمكن تحقيق سيادة كاملة على الطبيعة إلا بهذه الطريقة؛ وينبغي أن يكون المنهج العلمي منهج الاستقراء، فيرتقي المرء من خلاله من الخصوص إلى العموم، من الظواهر التجريبية إلى قوانين الطبيعة - رغم أننا، وأنا وأنت، نعلم بطبيعة الحال أنّ المنهج الصحيح الوحيد هو المنهج المعاكس، ألا وهو منهج الاستنباط. كتب في نهاية حياته رواية «نوفاً أتلانتس»، (الأطلانطس الجديدة)، التي بقيت جزءاً ونُشرت بعد موته. يصف فيها المؤسسة المركزية في جزيرة فاضلة، «بنسالم»، يسمّيها «بيت سليمان»^(*) - ولكنّ هذا ليس شيئاً من قبيل هيكل سليمان المبارك في القدس، العزيز على قلوبنا، ولا حتى شيئاً من قبيل كنيسة مسيحية، لكنّه أقرب إلى مركز أبحاث حديث، تُصنع فيه حتى الأنواع البيولوجية الجديدة.

- هذه الأمور كلّها تبدو بديهية للغاية من وجهة النظر الإنسانية.

- بديهية إلى حدّ أنها لم تعد تُذكر على الأرض في القرن العشرين. هذا هو الخطر في أن تكون على جانب كبير من الصواب: لم يعد أحدٌ تقريباً يدرك أنّ الأمور كانت مختلفة ذات يوم. تصوّر أنه حتى التجارب العلمية كانت شبه مجهولة في زمانه! لذلك أدهشنا دائماً بقاء هذا العقلاني تحديداً، الذي وضع أساس الحداثة العلمية والتكنولوجية، محاطاً بالغموض أكثر من أي شخص آخر. زُعم أنه مؤسس الماسونية، أنه عضوٌ سرّي في نظام «الصليب الوردي»، أنه رائدٌ في عددٍ من جمعيات سرّيّة أخرى. منذ زمن بعيد، هناك طائفة من البيكونيين تحاول بواسطة فنّ الأرقام وخزعات التنجيم البرهنة على أنه هو الذي كتب مسرحيات شكسبير وأشعاره الغنائية. كلّ هراء طبعاً. ولكن لماذا ألصقوا هذا كله بمصارع

(*) في هذا العمل البيوتوبي يشرح فرانسيس بيكون رؤيته لمستقبل يحفل بالاكشاف والمعارف. وأما Francis Bacon (1561-1626): فهو فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنكليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب»، لا على «القياس». [م]

الأوهام الواقعي الرصين ذاك تحديداً؟ لم يزعموا أنه المؤلف الحقيقي لكتاب بيرتون «تسريح الكتابة» فحسب، وإنما أثبتوا أيضاً بالقصائد المتوجة من شتى الأصناف التي جرحوها من شعورها وأقحموها في الموضوع أن أعمال إدmond سبنسر من تأليفه في حقيقة الأمر - وأعمال مارلو، يجب ألا تنسى أيضاً؛ سيكون باعتباره مؤلف أول نسخة من نسخ مسرحية فاوست! لقد زُعم أن تابوتا فارغاً قد وُوري الثرى في جنازته، لأنه بعد ذلك عاش إحدى وعشرين سنة باسم مستعار في ألمانيا.

- في فورتمبيرغ حتماً!

- في عاصمتها تحديداً: في شتوتغارت. هذا الاكتشاف المزعوم أيقظنا من سباتنا في آخر الأمر، ونستطيع الآن إعادة ترتيب الوقائع التي حدثت. يدعي البيكونيون أحياناً أنه كان الطفل الشرعي للملكة إليزابيث وإيرل ليستر^(*)، لكنه في الواقع ولد ابناً لحارس الختم العظيم الخاص بالملكة إليزابيث عام 1561. لأنه الابن الأصغر، فقد تركه والده مفلساً بعد وفاته؛ حصل على مقعد في البرلمان عندما كان محامياً في الثالثة والعشرين من العمر. أراد أن يكون على القدر نفسه من غنى والده ونفوذه، لكن حياته المهنية لم تسر على ما يرام. فعل صديقه الحميم، إيرل إسيكس^(**)، عشيق الملكة، كل ما يستطيع فعله من أجله، لكن إليزابيث لم تكن تتق ببيكون. عندما باءت كل محاولات إسيكس النبيل لتوكيل منصب رفيع إلى صديقه بالفشل، أهدها عقاراً من عقاراته مثل لصقة طيبة على الجرح. كان ذلك في عام 1595. ولكن بعد مضي أربع سنوات فقد إسيكس نفسه الحظوة، وجرت التحضيرات لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى، فخرجت إليزابيث عن صمتها بصورة مفاجئة؛ سألت ببيكون عما إذا كان يبلغ من اللطف حدّ تجهيز عريضة الاتهام. وبذلك حانت ساعة الشيطان - لأنه ماذا تظن؟ لبتى طلبها، رغم علمه أن ذلك سيؤدي إلى إعدام المحسن إليه. لقد وعده الثعبان بأنه سيرتقي إلى مقام أعلى من مقام والده، ولكن ليحدث هذا يجب عليه أولاً أن يضع توقيعه على عريضة الاتهام، ثم ينشر عدداً من الكتب التي ستُملى عليه.

(*) هي الملكة إليزابيث الأولى، أما إيرل ليستر الأول فهو روبرت دادلي Robert Dudley، أحد النبلاء الإنكليزي وصديق مقرب من الملكة. [م]

(**) هو روبرت ديفيرو Robert Devereux: نبيل إنكليزي، أصبح أثيراً لدى الملكة إليزابيث الأولى بعد وفاة روبرت دادلي. [م]

- لماذا قام لوسيفر باختيار يكون تحديداً لهذه المهمة؟ هل كان قد كتب شيئاً قبل ذلك الوقت؟

- كان قد نشر في عام 1597 مجموعة من المقالات البارعة، التي لا تزال تُقرأ حتى اليوم، لكنّها من حيث طبيعتها لم تكن لتجذب حتى انتباه الشيطان. ولكن قبل ذلك بكثير، عندما كان في الثانية والعشرين من العمر، في عام 1583، نشر كتيباً بعنوان «تمبوريس بارتوس ماكسيموس»^(*) أي «ولادة الزمان العظمى». ما أثار شكوكنا هو أنه لم يبقَ أيُّ نسخة منه؛ ونفترض الآن أنّ النبوة التي استعملها فيه جعلت الشيطان يرهف السمع. حاول لاحقاً إخفاء النسخ كلّها لسبب أو لآخر. مهما يكن من أمر، عندما وقع نبيُّ العصر الجديد الميثاق الشيطاني مع البشرية، وذلك بوضع اسمه تحت عقوبة الإعدام الفعلية حيال أعزّ أصدقائه، انتهى ركود مسيرته المهنية بصورة مفاجئة. في عام 1600 قُطع رأس إيسيكس في برج لندن، في 1607 أصبح ليكون المحامي العام، وفي 1613 المدعي العام، وفي 1617 أصبح في مستوى والده، وذلك بتعيينه حارس الختم العظيم. بعد مضيّ عامين أكّد خضوعه للشيطان من خلال تعذيب سجين بريء، لأنّ الملك جيمس أراد اعترافاً منه وبالتالي إدانة له؛ بعد ذلك بوقت قصير أصبح السيّد المستشار، أعلى منصب في البلاد، متجاوزاً بذلك والده في المقام. رُقيّ إلى رتبة النبلاء بلقب «بارون فيرولام»، ثم رُفِع لاحقاً إلى رتبة «فيكونت سانت ألبانس». كان في تلك الأثناء يؤلّف الكتب التي يوسوس بها الشيطان له، والتي لم تكن تنبئية بل نبوءات ذاتية التحقق بالغة الذكاء - بهدف تدمير البشرية.

- هذا يعني أنّ ذلك الخائن الانتهازي لم يكتب أعمال شكسبير أو مارلو فحسب، إنما لم يكتب أعماله أيضاً.

- هذا صحيح. ولكنّ لوسيفر لن يكون لوسيفر إذا ترك الأمر عند هذا الحدّ. حتى الشخص الذي يخضع له ويخدمه، يجب أن يُدمّر في نهاية المطاف. فبعد أن حقّق «السير فرانسيس» في آخر الأمر أكثر ممّا كان يطمح إليه، ظهر له الشيطان ذات يوم في هيئة موظف قدّم إليه رشوة لقبها - ما أدّى إلى محاكمته بتهمة الفساد، وسجنه في برج لندن، وانتهياره الاجتماعي الكامل. بعد خمس سنوات من ذلك، في سن الخامسة والستين، سيق إلى الجحيم في نهاية المطاف.

(*) باللاتينية في الأصل. [م]

- عاشت الصداقة!

- حكايتك أيضاً توضيح آخر لماذا الصداقة مفقودة هنا - ويحزنني أن يكون الوضع على هذا النحو. هذا أكثر ما افتقدته على الدوام، رغم معرفتي بالبديل الأفضل، هنا في عالم النور. ليست هناك ندرة في الحب، والتعيم، والخير، والحكمة، والحقيقة، والسلام، والجمال، هذا كله في خدمتنا، ولكن ليست هناك صداقة.

- ألسنت صديقي؟

- ولا صديقتك. لا توجد صداقات في المنظّمات، وخاصة في منظّمتنا، وعلى الأخص بين الرؤساء والمروّسين. لا توجد الصداقة سوى في الهاوية. هل تعرف تلك المقاطع المشهورة، الرائعة، المرموقة عن الصداقة، التي كتبها بيكون قبل وفاته بوقت قصير؟ «لا وصفة تفتح القلب إلا صديقٌ حقيقيٌّ»^(٥). أجل، وتفتح الوريد الوداجي! هو الذي جعل أعزّ أصدقائه يُقطع رأسه. هل تسمع الضحك الصادر عن الشيطان عديم القلب، بدرجة حرارته الواقفة على الصفر المطلق، الذي يجلجل عبر أروقة الأبديات كلّها؟

- لقد فهمتُ أخيراً لماذا بذلتُ تلك الجهود طوال تلك السنوات كلّها.

- تابع، إنني أستمع!

(٥) بالإنكليزية في الأصل. [م]

20. هوبلاي

من بين أول الأشياء التي فعلها، عند عودتهما إلى هولندا الخريفية -تبين أن تشي غيفارا قد لقي مصرعه في بوليفيا في تلك الليلة نفسها التي كانوا فيها في رحلة في فاراديرو- هو تعويض كوبا عما تكبدته من تكاليف. لم يتحمس ماكس كثيراً لهذا الأمر؛ فذعره من كلمات غويرا قد تلاشى بحكم المسافة، ورأى أن كل شيء قد اختفى في متاهات النسيان البيروقراطي. ولكنّ أونورا رأى أنها مسألة أخلاقية، مسألة نقد العقل العملي كما ذكر كانط، لا يمكن المساومة عليها. استعلم ماكس من فندق هيلتون في أمستردام عن تكلفة إقامة كاملة في اليوم الواحد، فتبين أنها تكلف الكثير من المال؛ قدّر الربح الربوي الرأسمالي لصاحب الفنادق كونراد هيلتون ومعاونه في سوق الأوراق المالية وول ستريت بنسبة خمسين بالمئة، ثم قسّم المبلغ على اثنين بأسلوب ثوري، وقرّرا اعتبار رحلاتهما السياحية وجولاتهما بالسيارة استثمارات كوبية في حملاتهم الدعائية القادمة لصالح الجزيرة. فكّر في إرسال المبلغ بواسطة شيك مكتوب بالدولار مجهول الاسم إلى «المعهد الكوبي للصدّاقة مع الشعوب»؛ لكنّ آدا أخبرتهما بأنّ المعهد الموسيقي في هافانا في أمس الحاجة إلى آلة نسخ "استنسل" جديدة، لا يمكن الحصول عليها في كوبا، ما جعل ماكس يختار آلة نسخ جميلة ويرسلها بالشحن البحري مع رسالة قصيرة مكتوبة بالإسبانية: «حتى النصر دائماً - صديقان».

عندما أبلغهما لاحقاً بما كتبه، أحنى أونورا رأسه علامة الموافقة، أما آدا فقد ألقت عليه نظرة خاطفة أصابته مثل صفعه في الوجه. نكّس عينيه وفكّر في ما تفكّر هي فيه. صديقان؟ هل يغطس صديق مع صديقة صديقه في السرير، أو بالأحرى في البحر، حتى وإن كانت صديقته ذات يوم؟ حسبما يقول هو نفسه إنّ الصداقة هي تلك الحالة التي يخبر أحدهما الآخر بما لا يمكن إخبار أيّ شخص آخر به - هل يمكن أن يخبر أونورا ذات يوم بما اقترفه في

خليج المكسيك؟ إذا أخبره أو لم يخبره، أليست في كلتا الحالتين نهاية الصداقة الحقيقية؟ لو أخبره، فليس من الضروري أن تحلّ عداوة محلّها، يمكن أن تحلّ محلّها أشياء من شتى الأصناف، ولكن في كلّ الأحوال سيحلّ شيءٌ مختلف محلّها. ولكن لأنه لن يخبره، فقد نشأت حالةٌ أقلّ صفاءً بكثير: كلّ شيء بقي على حاله بالنسبة إلى أونو، أما ماكس وآدا فأصبح لديهما ما يحيطانه بالكتمان: كلاهما خانا. لم يتغيّر شيء في الوضع القائم، لكنّ أونو صار مثل شخص وضع ثروته كلّها في لوحة من لوحات رامبرانت، لكنّ اللصّ استبدل بها نسخةً متقنة الرسم ذات ليلة، ولن يعرف طوال حياته أنّ نسخة عديمة القيمة معلّقة على الحائط.

ما لم يعرفه ماكس وآدا هو أنّ أونو أيضاً كان قد خاض مغامرة عاطفية - لكنّه تعرّض للإغراء، لقد خان صديقه فحسب، وليس صديقه. هدأ ماكس ضميره بإقناع نفسه أنّ ذلك لم يحدث في تشرين الأول، بل في حزيران، مثل سداد متأخر لدين اشترى به شيئاً ذات يوم ولم يعد يملكه منذ وقت طويل، لكنّه مع ذلك يجب أن يوفيه - وبعد مضيّ أسبوع ضمه بصورة متناغمة إلى تجاربه الأخرى غير المعقولة التي خاضها في تلك الجزيرة، تجاربه التي يلخصها القول المأثور الذي رآه في مطار هافانا: «عندما تصبح الأشياء الاستثنائية أشياء يومية، تكون الثورة سارية». شعر بأنه استعاد حيويته من الرحلة العابرة للقارات، وألقى كلمة حماسية عن الثورة في كوبا في قاعة المحاضرات في المرصد الفلكي؛ حضر أناسٌ من الكليّات الأخرى أيضاً لأنهم أرادوا الاستماع إلى تقرير من شاهد عيان، وإذ كان هناك بضعة أجناب بينهم، فقد تحدّث بالإنكليزية؛ ثارت حفيظة زميل أميركي له على وجه الخصوص، من التلسكوب الراديوي غولدن ستون، متخصص بالشمس، على سياسة الخنق التي تتبعها حكومته. كان يخجل من كونه أميركياً!

أدّى أونو واجبه مع أصدقائه السياسيين. لزم الصمت هو أيضاً عن أنه كان مندوباً في مؤتمر الثوريين المتطرفين، إذ لن يصدّق أحدٌ ما حدث في الواقع، لكنّه شرح أنّ الاتصالات هي المشكلة الرئيسية في العالم الثالث؛ ليس في مجال نقل البضائع فحسب، وإنما في مجال نقل المعلومات أيضاً: هذا كلّهُ بالقدر نفسه من الخلل، لذلك يمكن حدوث أغرب الأشياء هناك، يستطيع الإتيان بأمثلة مذهلة، لكنّه لا يريد الإسهاب في الموضوع. وهناك الإيديولوجية أيضاً! في كوبا يمكنك تعلّم معنى كلمة «الرايكاالية». في الولايات المتحدة الأميركية، الجناح اليساري في الحزب الديمقراطي يمينيٌّ أكثر من أيّ حزب يميني في هولندا، وحزبٌ يمينيٌّ مثل الحزب الجمهوري، فضلاً عن جناحه اليميني، لا تراه في هولندا بطريقة جادة على

الإطلاق؛ أما في كوبا فإن السلطة يسارية أكثر بكثير حتى من الحزب الشيوعي في هولندا. لذلك فإن غضب الأميركيين من وجود هذا المعقل الأحمر قبالة ساحلهم أمر مفهوم، فهم يرونه ببساطة مسكن الشياطين، الهنود الحمر الجدد، الذين يجب القضاء عليهم بطلقات نارية من الورك؛ وهذا لا يزال يعني للديمقراطيين الاشتراكيين الهولنديين أن الوضع السائد هناك يتطلب مراقبة حثيثة وانتباهاً لازماً، ولو بتحفظ حكيم.

*

«سأنزل برهةً إلى المدينة»، هذا ما قالتها آدا، بعد أن أخرجت رأسها من وراء باب مكتب أونو وقد ارتدت معطفها. في ضيافته رفيق مناضل ذو شارب، يدخن غليوناً كبيراً معقوف الشكل؛ كان أونو يجلس بظهره إليها فلوح بيده دون أن يلتفت إلى الورا.

كانت تلك الرمادية كلها في أمستردام لا تزال تلفت انتباهها بعد تلك الألوان الاستوائية المبهرة للأبصار، لكنها لا تنزعج منها حق الانزعاج. إنها تنتمي إلى هذا المكان. كان الناس ينظرون بعبوس وعدم رضا؛ الطقس شديد البرودة، الأشجار تتعري من أوراقها، والظلام يحل مجدداً في وقت مبكر، ولكن هذا التنوع في الفصول بالذات لا يعرفونه في المناطق الاستوائية: لا خريف، لا شتاء، ولا ربيع - الحق أنهم لا يعرفون سوى الصيف. أمن الممكن أن يظهر شوبان أو سترافينسكي في مثل ذلك المناخ؟ لم يظهر هناك على كل حال، وإلى ذلك لم يحدث أيضاً أن ابتكر أو اخترع شيء ذو أهمية هناك، حسب معرفتها. لأن الشعور راودها بأنه من الأفضل ترك هذا النوع من الاعتبار لأونو وماكس، فقد أبعدت هذه الأفكار عن رأسها.

لم ترغب في السير في الشوارع المزدحمة بالناس والترامات، فهامت على وجهها في شارع سبيخل صوب مركز المدينة. كانت تشعر بالقلق، نفذ صبرها بصورة مفاجئة فلم تعد تستطيع التمرن، مثل الوقت الذي تريد فعل شيء فيه وتتوقع أن يرنّ الضيوف جرس الباب في أي لحظة. توقفت بين حين وآخر أمام واجهة متجر من متاجر الأثريات، نظرت إلى بوذا الهادئ المطمئن، اللامع لمعان الذهب، الممدود اليدين في وضعية صدى، إلى سلطانية يابانية خضراء، كامدة، وحيدة على مخمل رمادي اللون، لن يلتقطها أحداً إذا ما رآها في مجرى مياه، إلى أوان زجاجية وفضية من الطراز العتيق، وإلى لوحات متوهجة من القرن السابع عشر. جمال العالم لا نهاية له، ولا لبشاعته نهاية. كانت تشعر بألم في صدرها - طبعاً لأنها عاودت

الجلوس خلف التشيلو بوضعية متراحية؛ هذا خطأها منذ دروسها الأولى وهي في السادسة من العمر. في مساء الغد ستعزف مع الفرقة الموسيقية في لاهاي، وفي آذار القادم سيقومون حسب المقرر بجولة في الولايات المتحدة الأمريكية. شدد عليها المدير الفني ألا تقول كلمة واحدة عن عرضها الموسيقي في هافانا، ويُستحسن ألا تقول شيئاً للموسيقين الآخرين أيضاً، لأن ذلك قد يعرض الجولة بأكملها للخطر. كل من يذهب إلى كوبا، يكون مصاباً بالوباء - الموت الأحمر، حسب إدغار آلان بو.

سارت في شارع كايزر خراخت صوب الشوارع الفرعية الضيقة ذات الأسماء الهمجية، التي لا تستطيع حفظها إطلاقاً؛ مثل شارع بيرين وشارع فولفن^(٥)، حيث تعرض محلات صغيرة أشياء صغيرة للبيع: أدوات زينة ملونة، حلّى شبه عتيقة، مباسم سجائر من العاج، كشتبانات صدئة، دمي بياقات من الدانتيل المصفر. سرحت أفكارها إلى دميها المفضلة، ليسي: دمية صلعاء صغيرة ذات نظرة لثيمة، ولكنّ هذا تحديداً ما جعلها ذات شخصية خاصة. في اللحظة نفسها تراءت لعينيها حصيرة جوز الهند رملية اللون التي كانت تلعب عليها، وقوائم الطاولة، والكراسي الريفية بمجالسها المضطربة المهترئة من الأسفل. كانت ليسي دمية وليست دمية في الوقت نفسه. عندما تسحب ذراعها، يظهر شريط مطاطي أبيض في الكتف؛ وعندما تفلتها، ترتطم بالجسم في طقة خفيفة وتبقى في وضعية غير متوقعة: «مرحباً!» أو «انظري، هناك!». بوسعها أيضاً لي ذراعها وساقها إلى الخلف في وضعيات تعذيب، لكنها ما إن تعيد كلّ شيء إلى حدود الممكن حتى تصبح ليسي أكثر من دمية. وتصبح فوق ذلك فتاة، مثلها تماماً، فتاة تفهمها، وتعني هي لها ما تعني والدتها لها، فتصبح بذلك ليسي في الوقت نفسه. وتعرض كلتاها، ليسي وليسلي، لتهديد ذلك الوحش البشع، الذي يختبئ أحياناً في ظلال الستائر السمكية، لكنّه غالباً يحوم في مكان ما قرب السقف دون أن يظهر على الإطلاق: هوبلاي.

صدمتها هذه الذكرى وهي تمشي في سوق الطوابع، حيث يقف هواة جمع الطوابع بمظهرهم الرثّ خلف بسطاتهم، وقد غطّوا ألبوماتهم بالبلاستيك لحمايتها من المطر الرذاذ. لم تحضرها هذه الذكرى منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. كان تهديد هوبلاي المشؤوم يلوح في سماء طفولتها، مثل غيمة منذرة بعاصفة رعديّة دون أن تُفرغ شحنتها. كان هوبلاي

(٥) الاسمان يعينان على التالي: شارع الدببة وشارع الذئاب. [م]

يريد وضعها في صندوق. لم يكن هناك أحدٌ تتكلم معه عن هذا الأمر، سوى ليسي، التي سمحت لها طواعية بأن تدخلها في صندوق من الكرتون في متجر الكتب القديمة كي ترى كيف سيكون الوضع. وذات يوم ضرب هوبلاي ضربته واختفت ليسي إلى الأبد - وضعها والدها مع الصندوق وكل شيء على حافة الرصيف ليأخذها عامل البلدية. كان لا يزال بوسعها الركض وراءه مع والدها، ولكن فقط لترى بعد شارعين كيف ينتصب صندوق الشحن في عربة القمامة بصرير، بينما تُطحن ليسي في داخله مع قمامة العالم وأوساخه كلها...

عبرت ساحة الدام خائضةً عبر طيور الحمام، وعندما تلقفها الهواء الدافئ المتدفق من خلف الباب الدوار لمتجر بايين كورف دخلت إليه. هامت على وجهها برهةً من الزمن بين نسوة يستشبقن ظهور أيديهن أو يسجبن خطوطاً حمراء سميكة عليها؛ صعدت فوق السلم المتحرك الكهربائي وتركت الصالة تنزل على مهل إلى الأعماق. شعرت بالغثيان بسبب هذا الأمر، لعلها يجب أن تأكل شيئاً. وقفت إلى طاولة عالية في الكافتيريا وتناولت شطيرة من سمك مدخن ثم سارت إلى قسم الألعاب، حيث أخذت تتجول على مرأى من عشرات الدمى، نظرة كل منها أغبى من الأخرى. لا تشبه أيٌّ منهن ليسي في شيء ولا حتى من بعيد. على أحد الرفوف تقف كتيبة من الماموشكات^(٥) الروسية من كل الأحجام: نساء فلاحات مطلّيات بألوان زاهية يمكن فتحهن ببرم الجزء العلوي، فتظهر منها المرأة التالية. وقعت عينها على صندوق مليء بفلاحات صغيرات من الطراز نفسه، مطلّيات باليد أيضاً، لا يزيد طولهن عن خمسة سنتيمترات، لا يخفين تحت تنانيرهن سوى مباري أقلام صغيرة. اعتلت وجهها ابتسامة. أرادت إهداء ماكس واحدة منهن في عيد ميلاده في تشرين الثاني: امرأة بعضو تناسلي مرعب من هذا القليل - هذا سيلقنه درساً. كُتب على بطاقة السعر الصغيرة: فلورين وخمسة سنتات. وقفت في حالة من التردد واللعبة في يدها. انتابها شعورٌ لسبب أو لآخر بأن اللعبة صارت ملكها، وبأنها ستقلل من قيمة هذه المُلْكِيَّة إذا ما دفعت ثمنها - مثل مرئاد على بيت دعاة يعرف أنّ المرأة لا تنتمي إليه بسبب الدفع.

نظرت حولها، أغلقت يدها على الدمية الصغيرة، سارت مسافة قصيرة، وما لبثت أن أخفتها في جيب معطفها الواقى من المطر. ملأها هذا الفعل برضاً مبهج. فكّرت في نظرية

(٥) ماموشكا أو ماتريوشكا: مجموعة من الدمى الخشبية ذات الحجم المتناقص، كل واحدة منها تحوي دمية أصغر حجماً بداخلها. [م]

أونو أنّ الفوز بمئة ألف فلورين في اليانصيب يمنح الشخص رضاءً أعمق من كسب المبلغ نفسه من عرق الجبين، ولهذا السبب تحديداً يجب منع القمار. لم يحدث قطّ أن سرقت شيئاً من متجر، حتى عندما كانت طفلة صغيرة، واندھشت من سهولة الأمر. بينما تتحسّس الدمية بين حينٍ وآخر ذهبت إلى قسم المواد الغذائية، حيث اشترت على الفور لوازم وجبة العشاء. منذ سكنها مع أونو، صارت تفهم أمها أكثر من السابق؛ التفكير كلّ يوم بما يجب إعداده للعشاء أسوأ من عزف الموازين الموسيقية، رغم أنها محظوظة مع أونو، لأنه يفضل أكل الشيء نفسه كلّ مساء. دفعت ثمن المعكرونة واللحم والحليب، ومضت إلى باب الخروج. كان ضوء الغسق قد بدأ بالهبوط.

لكنّها عندما دخلت الباب الدوّار، اعترض رجلٌ طريقها بصورة مفاجئة: «هل تريدان أن تتكرّمي وتُريني ما في جيب معطفك؟!».

نظرت مذعورة إلى بطاقته الشخصية، التي رفعها أمامها والتي يظهر وجهه عليها، لكنّه مختلف عما تراه الآن: وجه أكثر لطفاً، رافعاً عينيه باطمئنان إلى شيء سارّ؛ الآن ترى نظرة متحرّجة. ناولته مبرة الأقلام في خجل.

- ألم يغلفوها لك؟ هل يمكنني رؤية الفاتورة؟!

- ليست عندي فاتورة.

- تعالي معي!

أدار الناس رؤوسهم إليها، كانت الترامات والسيارات تعبر الشارع، رأت اسم فندق ديه روده ليو على الطرف الآخر منه، واختفى عالم الحرّية البديهي وراء الأفق بصورة مفاجئة، فقد كان عليها العودة إلى الداخل.

قالت: «سأدفع».

- لا يمكنك ترتيب هذا الأمر معي. تفضّلي!

عبرت باباً غير لافتٍ للأنظار وراء طاولات عرض متلائة بمستحضرات التجميل، وصلت إلى ممّرٍ إسمتي مضاء بضوء النيون، انتهت فيه حلاوة الدنيا بين لحظة وأخرى. تركها الرجل تدخل عبر باب حديدي إلى غرفة فارغة من دون نوافذ، لا شيء فيها سوى طاولة طويلة وبضعة كراسي. توقّعت أن يدخل وراءها، لكنّه أغلق الباب عليها وأدار المفتاح في القفل.

نظرت مذعورة حولها. لقد حبسوها! كبحت نوبة يأس، فما الذي يمكن حدوثه لها بسبب فلورين وخمسة سنتات؟ هذا إجراء اعتيادي طبعاً، اتخذه كي يلقنوها درساً؛ سيظهر موظف آخر في الحال، يوجّه لها توبيخاً، يجبرها على الدفع ويسمح لها بالمغادرة. ولكن ما دام الباب لم يُفتح، فهو لا يزال مغلقاً. وضعت حقيبة مشترياتها على الطاولة وجلست. لو أنها في فيلم سينمائي لصرخت بأنها تريد رؤية محاميها. لقد سبقتها حشود من الرجال، والنساء، والأطفال إلى هنا. سطح الطاولة مصنوع من البلاستيك الكامد، هناك ثقب عميقة في أماكن مختلفة منه؛ تسمع بين حين وآخر أصوات أناسٍ من الممرّ، وكذلك قرعة عربات تُجلب بها بضائع جديدة. نظرت في ساعة يدها وفكرت في أونو الذي يتشاور الآن مع رفيقه في مكتبه ولا يعلم أنها محبوسة في زنزانة متجر. أخرجت فلوريناً وخمسة سنتات من محفظة نقودها ووضعت إحداهما فوق الأخرى.

ولكن عندما لم يظهر أحدٌ بعد خمس عشرة دقيقة، عشرين دقيقة، جاشت موجة من الخوف في كيائها بصورة مفاجئة. لقد جاوزت الساعة الخامسة والنصف، وأوشك وقت إغلاق المتجر على القدوم - تصوّر لو ينسونها هنا! تصوّر لو تبقى هنا حتى صباح الغد! نهضت والعرق يتصبّب منها وبدأت تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً وهي تقضم أظافرها. هل يجب عليها طرق الباب؟ أيجب أن تبدأ بالصراخ؟ لكنهم ربما ينتظرون أن تفعل هذا بالذات، ربما يراقبونها من مكانٍ ما. اختلست النظر إلى الجدران الإسمنتية لكنها لم تستطع رؤية شيء. في اللحظة التي عزمت فيها الانتظار لخمس دقائق أخرى على وجه الدقة، أدير المفتاح في القفل. ظهر على عتبة الباب حارس الأمن الذي استوقفها قبل قليل مع رجل من الشرطة.

- ما اسمك؟

نظرت آدا بعينين متسعيتين إلى الرجل في الزيّ الأسود والحذاء الطويل الأسود، بالهراوة السوداء على خاصرته.

تلعثمت وهي لا تصدّق أنهم أبلغوا الشرطة: «آدا برونس».

سألها وهو يشير إلى الدمية التي أظهرها رجل الأمن: «أتعترفين بأنك سرقتها من هنا؟». أخذت آدا القطعتين النقديتين من فوق الطاولة وقدمتهما له في يدها المفتوحة: «هذه هي النقود. إنني نادمة على ذلك».

هزّ رجل الشرطة رأسه علامة الرفض: «يجب أن تأتي معي إلى المركز».

ردّدت في ذهول: «إلى المركز؟ لماذا؟».

- لكتابة محضر.

وضع يده تحت سترته، ورأته آدا بفرع يُخرج القيد من تحتها. بدا منظر الفولاذ المصقول اللامع وكأنه يمزق أوصالها. انكسرت مقاومتها فألقت النقود على الرجلين وهي تجهش بالبكاء: «أنتم مجانين! مجانين!».

- هذّني من روعك يا آنسة! لن يحدث لك شيء. هذه هي الإجراءات.

عندما أغلق القيد على معصميهما ببطقة خفيفة، كان أول ما خطر في بالها هو كيف يمكنها العزف على التشيلو مرّة أخرى. كانت المسافة بين يديها ليست كافية حتى لعزف قيثارة الأكالل. حمل رجل الشرطة حقيبة مشترياتهما أثناء سيرهم عبر الممرّات صوب باب الخروج الخلفي. كان الظلام قد هبط؛ في الفناء تقف حافلة اعتقال صغيرة بقضبان على نوافذها. بعد برهة قصيرة توجّهت بهما الحافلة إلى مركز فارموس سترات، الواقع على مرمى حجر، على أطراف حيّ الدعارة.

سُلّمت إلى مكتب الضابط المناوب، حيث فُكّ القيد عن معصميهما. كانت امرأة سمينة ثملة، شعناء الشعر، تصرخ في وجه شرطيّ، يبدو من شدّة صغره في العمر وكأنه يرتدي ثياباً تنكّرية، وحاولت إشرّك آدا في شجارها؛ لكنّها لزمت الصمت، عندما دخل اثنان من المحقّقين برجل نصف غائب عن الوعي، تلطّخ قميصه من الأمام بالدماء. أرسلت آدا إلى الغرفة 21، حيث اضطرّت إلى الجلوس على مقعد خشبي أمام باب مدهون باللون الأصفر الطيني. لقد اختفى غضبها وذعرها بفكّ القيد عن معصميهما. راودها شعورٌ بأنها كانت واقعة في المياه، لكنّها الآن تجلس على الضفة.

في الداخل استقبلها رقيبٌ شائب جالس وراء آلة كاتبة سوداء عالية، تشبه درجات سلّم في نصب تذكاري للموتى. نظر إليها نظرة أبوية وسألها عمّا إذا ارتكبت هذه الجنحة من قبل. لم تستطع أن تفسّر له لماذا ارتكبتها الآن، بمثل هذا الشيء الصغير تافه القيمة. وضع ورقة كربون سوداء بين استمارتين وهو يطلق تهيدة، سوّاهما على الطاولة، ثم وضعها في الآلة الكاتبة.

عندما قالت إنها تستغرب من هذه الضجة كلّها بسبب فلورين وخمسة ستات قال: «إنها ليست مسألة فلورين وخمسة ستات، إنها مسألة سرقة من محلّ تجاري. إذا سرق ألف

شخص شيئاً بقيمة فلورين وخمسة سنتات ولم نفعل شيئاً حيال هذا الأمر، فلماذا علينا إذاً ملاحقة شخصٍ سرق شيئاً بقيمة ألف وخمسمئة فلورين؟ أو شخص سرق ألفاً وخمسمئة فلورين؟».

قالت آدا: «هذا صحيح».

شعرت بأنّ الحساب ليس صحيحاً تماماً، ولكن خُيِّلَ إليها أنها من الأفضل ألا تركز الاهتمام عليه.

- إذا لم نفعل شيئاً حيال هذا الأمر، فلن يُفعل شيء بعد عشر سنوات حيال شخص يسرق دراجة هوائية أو راديو سيارة، وبعد خمسين سنة لن يُفعل شيء حيال جريمة قتل. أنت لا تريدین حدوث هذا، أليس كذلك؟

فكرت في الفرقة الموسيقية وسألت: «هل سأحال إلى المحكمة؟».

- هذا جائزٌ جداً.

- وما العقوبة؟

- غرامة مالية، على ما أعتقد، وربما حكم مع إيقاف التنفيذ. ما مهنتك؟

عندما سمع أنها عازفة تشيلو، استند إلى ظهر مقعده، خلع نظّارته الخاصة بالقراءة وأخذ ينظر إلى السقف بابتسامة متأملة؛ لقد ذكرته بأمر ما، لكنّه لم يقل شيئاً. سجّل كلّ المعلومات بينما ينتزع الحرف المعدني الذي بقي يعلق في كلّ مرة عن الورق، سألها عن تهجئة كلمة «ماموشكا»، ثم سحب الأوراق من الآلة الكاتبة بحركة صاخبة. قبل أن يتركها توقع على المحضر، قرأ عليها ما جاء فيه: إنها، آدا برونس، من مواليد 24 تموز عام 1946، مدينة لايدن، المهنة عازفة تشيلو، تعترف بأنها في السابع والعشرين من تشرين الأول عام 1967، في متجر بايين كورف في أمستردام، استولت بطريقة غير شرعية على مبرة أقلام من موديل ماموشكا، تنتمي إلى متجر بايين كورف، أو على الأقل إلى أحد آخر غيرها؛ غير المتهمّة.

قالت آدا: «لقد وضعت ورق الكربون بطريقة خاطئة».

نظر الرقيب إلى الاستثمار الثانية: كانت فارغة. والنص معكوسٌ على الجهة الخلفية من الاستثمار الأولى. هزّ رأسه وقال: «هذا ما يحدث لي في شيخوختي. لقد آن الأوان لأن أحوال إلى التقاعد. أتعرفين؟». وشقّ الأوراق كلّها إلى نصفين بيديه الضخمتين: «دعينا نقول إن شيئاً لم يحدث. لك تمنّياتي الخالصة!».

21. الخبر

همس أونو: «ألا تستطيعين النوم؟».

- لا.

حدث ذلك بعد مضيّ أسبوع ونصف الأسبوع. كان قد عمل إلى ما بعد منتصف الليل، وجاء يرقد إلى جانبها من دون إشعال الضوء؛ لا بدّ أنه غفا غفوة قصيرة، لكنّه استيقظ فجأة وهو على يقين بأنها ترقد مفتوحة العينين. لم يكن يستطيع رؤيتها.

- من المؤكّد أنّ تأنيب الضمير يؤرّقك، لأنّ حياتك أخذت انعطافاً إجرامياً قاتلاً.

- لعلّ هذا هو السبب.

استدار على ظهره، صالب ذراعيه تحت رأسه وأخذ يحدّق في الظلام: «ما الذي يجعل المجرمين يعانون من الأرق يا ترى؟ يقول الشاعر إنّ النوم أخو الموت، ولكن لهذا السبب تحديداً يجب على القتلة النوم جيّداً. يبدو أنّ الضمير نقيض الموت».

سأل وهو يدير وجهه إليها، ولكن دون أن يرى شيئاً: «هل تعلمين لماذا ينام الإنسان؟ أليس من الحماقة أن نضيّع ثلث وقتنا الثمين بالنوم؟ لو فكّرت جيّداً في الأمر، لرأيت أنّ هذا الرقود الغبيّ يعيون مغمضة سخيف وغير إنساني إطلاقاً - شيء خاص بزمّن ما قبل الحرب. شيء مثل البطالة في سنوات الثلاثينيات».

- وبعده؟

- لقد نشأت هذه العادة السخيفة، عندما زحف أسلافنا من البحر إلى اليابسة. كانت درجة حرارة البحر حينذاك سبعاً وثلاثين درجة، تماماً مثل حرارة دمائنا في الوقت الحاضر. لم تكن هذه مشكلة في النهار، لأنّ الشمس تشرق على أسلاف آل كويست وآل برونس، ولكن في الليل يحلّ البرد، فيدخلون في حالة سبات، تماماً مثل الخفافيش وما على شاكلتها ممّن لا

يزالون يدخلون في سباتهم الشتوي. نحن في الوقت الراهن من ذوات الدم الحارّ، ولكن النوم إرثٌ من المرحلة التي كنّا فيها من ذوات الدم البارد، إن كنت تفهمين ما أقصد.

- كيف تعرف كلّ هذا؟

- إنه نتيجة الحقيقة البائسة المتمثلة في عدم استطاعتي نسيان ما قرأته ذات يوم. ذاكرتي هي لعتي - ولكنّ، عزاؤك هو أنني أضيف إليه شيئاً من بنات أفكارٍ بين حينٍ وآخر. أستطيع على سبيل المثال اختلاق فكرة أنّ الأحلام من حيث طبيعتها ذكرياتٌ من حياتنا السابقة في البحر، ففيها تحدث الأشياء بتلك الحماسة نفسها. خذي نصف الحومان في أحلامك مثلاً - أنت تعرفين هذا الإحساس، أليس كذلك؟ هذا لا يحدث في أيّ مكان سوى في المياه. لعلّه يجب علينا الرجوع إلى جاك إيف كوستو^(*) عوضاً عن سيغموند فرويد.

بقيت أدا صامته. بدا وكأنه يلّمح إلى أشياء ليس بوسعه معرفتها. تصاعدت في الشارع بضع صرخات حيوانية فظة، منبعثة من الروح الجرمانية المخمورة بالبيرة. استمع أونو إلى الدقات الخفيفة المنبعثة من ساعة المنبه، وبعد استعراض نظريته شعر بنفسه يغفو مجدداً ببطء - يظهر شكلٌ حيوانيٍّ أمام عينيه، يتحوّل في هوادة إلى شيء يشبه قفصاً محمولاً...

- أونو؟

انتفض من غفوته: «نعم».

- كم الساعة؟

- الثانية تقريباً.

- هل تعرف أيّ يوم هذا؟

- الاثنين. لماذا؟

- السادس من تشرين الثاني. إنه يوم مولدك.

فتح عينيه على اتساعهما وقال: «اللجنة! أربعاً وثلاثين - لقد نجحت في بلوغه!».

- بلوغ ماذا؟

- لقد تخطّيت بسلام العمر الذي مات فيه المسيح.

(*) Jacques-Yves Cousteau (1910-1997): ضابط بحريّ ومستكشف وصانع أفلام وثائقية وباحث فرنسيّ. كرّس حياته لدراسة البحار والمحيطات وما تحويه من أشكال الحياة. [م]

قَبْلَ كُلِّ مِنْهُمَا الْآخَرُ، وَبَيْنَمَا لَا يَزَالُ يَحْضُنُهَا قَالَتْ آدَا بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ: «لَدَيَّ هَدِيَّةٌ لَكَ».

- لَكِنَّكَ لَمْ تَسْرِقِهَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
- سَرَتْ رَعْشَةٌ فِي جَسْمِهَا. بِذَلِكَ مَجْهُودٌ لِتَسْتَطِيعَ التَّحَكُّمَ فِي صَوْتِهَا: «أَتَمَنَّى أَنْ تَسْعِدَكَ!».
- لَا أَنْظُرُ فِي فَمِ الْحِصَانِ الْمُهْدَى إِلَيَّ^(*).
- لَمْ تَوَافِنِي الدُّورَةَ الشَّهْرِيَّةَ.

*

رَغِمَ أَنَّهُ رَجُلُ اللُّغَةِ، لَمْ يَكُدْ يَسْمَعُ جُمْلَةً فِي حَيَاتِهِ تَعْلُنُ عَنْ إِمْكَانِيَّةِ تَغْيِيرِ جُذُرِي فِي ظُرُوفِهِ. بَقِيَتْ الْجُمْلُ مِنْ قَبِيلِ «أَنْتَ رَهْنُ الْإِعْتِقَالِ»، أَوْ «لَدَيْكَ مَرَضٌ خَطِيرٌ»، أَوْ «سَأَهْجُرُكَ» مَوْفُورَةً عَلَيْهِ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَسِيءُ التَّصَرُّفَ، يَتِمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، وَلَمْ يَرْتَبِطْ بِأَمْرَاءٍ قَطَّ بِصُورَةٍ فَعْلِيَّةٍ؛ لَمْ يَسْمَعْ الْبَتَّةَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْهُ قَدْ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ. طَرَقَتْ أُذُنِيهِ مَرَّاتٌ قَلِيلَةٌ جُمْلُ مِنْ قَبِيلِ «بَعْدَ الثَّوْرَةِ، سَتَصْبِيحُ بَائِعُ خَرْدَوَاتٍ يَلْمَلِمُ مَلَقِيَّاتِ الْبَحْرِ مِنْ شَاطِئِ أَمْلَانْد»، حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ جُمْلَةٌ لَمْ يَسْتَطِعْ فَكَّ رَمُوزِهَا، وَلَكِنَّ حَيَاتِهِ فِي إِجْمَالِهَا -رَغِمَ الْحَرْبِ- كَانَتْ تَنْطَوِي عَلَى شَيْءٍ عَذْرِيٍّ. «لَمْ تَوَافِنِي الدُّورَةَ الشَّهْرِيَّةَ...» - بَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ وَكَأَنَّهَا اكْتَسَبَتْ هَيْئَةً دَاكِنَةً وَمَمْدُودَةً، مِثْلَ طُورِيْبِدٍ يَنْطَلِقُ مِنْ أُنْبُوبِ الْإِطْلَاقِ وَيَخْتَفِي فِي الْأَمْوَاجِ. أَرَادَ إِشْعَالُ الضُّمُوءِ، لَكِنَّهُ بَقِيَ رَاقِدًا وَأَخَذَ يَحْدِّقُ فِي الظَّلَامِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْلُقَ فِيهِ اللَّوْحَ الْمُدْرَسِي الْقَدِيمَ بِالصُّوَرِ وَالْكَلِمَاتِ الْمَعْبُورَةِ عَنْهَا.

- مَتَى كَانَتْ سَتَوَافِيكَ؟
- قَبْلَ أُسْبُوعٍ.
- وَهَلْ تَتَأَخَّرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ؟
- إِنْ طَلَقًا، إِنَّهَا تَوَافِنِي فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَّدِ عَلَى الدَّوَامِ.
- وَلَمْ تَنْسَ أَخْذَ الْحَبِّ وَلَا مَرَّةً وَاحِدَةً؟ وَلَا حَتَّى فِي كُوبَا؟
- إِنْ نِيَّ مُتَأَكَّدَةٌ مِنْ هَذَا. أَتُرِيدُ رُؤْيَا شَرِيطِ الْحُبُوبِ؟ إِحْدَى وَعِشْرُونَ حَبَّةً مَأْخُودَةً كُلَّهَا.

(*) تعبير هولندي المقصود منه أن المهم هو الإيماءة أو اللفتة ممن أهداك، لا قيمة الهدية أو جودتها. ويعود هذا التعبير إلى تجارة الخيول، إذ يمكن معرفة عمر الحصان من النظر إلى أسنانه. [م]

- أرجوك لا تفعلني! أصدّق أيضاً أنك لم ترميها في المرحاض. شيء لا يُصدّق! الفوضى تسود في الصناعات الدوائية مثلما تسود في كلّ الأماكن الأخرى. إذا أنجبت طفلاً فعلاً، سنضعه في صندوق أحذية ونرسله إلى مكتب الشكاوى في المصنع. هذا سيلقّنهم درساً. انتابه شعور بأنها ارتعبت، فلَفَّ ذراعه حول كتفيها وقال بصوت مختلف: «إذا أنجبت طفلاً يا آدا، سنربّيه ببالغ الحب ولكن بيد من حديد، بغاية وحيدة هي أن يبجل والده».

- ما رأيك الحقيقي يا أونو؟

- صدقاً، لا أعرف. يبدو أنك تفكرين في الموضوع منذ أيام عديدة، ولكن كيف لي أن أعرف رأيي بهذه السرعة؟!

الحقّ أنه لم يكن يعرف. إنّها لحظة تشبه تلك اللحظة التي تدقّ فيها ساعة الإله العظيم بان^(٥) في الطبيعة الكلاسيكية: بدء حرارة الظهر، المتوهّجة، الساكنة.

- أمضيتُ المساء كلّ في دراسة مشكلة مبهرة، وهي كيف يجب ربط الإعانات الاجتماعية برواتب موظفي الخدمة المدنية - ثم تخبريني فجأةً بأنك حامل!

وهتف: «يا إلهي! الآن وأنا أسمع نفسي أقول هذا، أستوعب الأمر فجأةً. أنت لا تعنين ما تقولين! هل هذا صحيح؟!».

قالت آدا: «لو خرجت الآن من الغرفة، لعلمتُ علم اليقين أنني لست وحيدة فيها». تذكر أنه لاحظ شيئاً غريباً في نظرتها بضع مرّات في الأيام الماضية: وكأنّ عينيها لم تكونا تنظران إلى الخارج بل إلى الداخل، وكأنه كان يراها من وراء مرآة ثنائية الاتجاه، مثل المرايا الموجودة في المحلات التجارية وبيوت الدعارة - كانت عندما تنظر إليه، يبدو وكأنها لا تراه بل ترى نفسها فقط.

- لقد برهنتِ بالدليل القاطع. لذلك لن أخرج من الغرفة، سنبقى نحن الثلاثة هنا إلى الأبد، لأنّ الأسرة هي حجر الزاوية في المجتمع. إنه بالشيء الحسن أنّ رفاقي في الحزب لا يعرفون كم أنا يميني وديمقراطي مسيحي مُلغز في طبيعتي.

بدأت فكرة إمكانية أن يصبح أباً تثير إعجابه بصورة مفاجئة، الأمر الذي أدهشه دهشة

(٥) بان: إله إغريقي قديم، مرتبط بالرعاة وقطعانهم وبالطبيعة. كان يُعتقد أنه يتربّص في الكهوف والجبال وأماكن أخرى منعزلة ويُصيب أعداءه بالذعر والرعب المفاجئ. [م]

عظيمة، شأنه في ذلك شأن عالمٍ معتكفٍ في غرفته يتلقّى عرضاً على غير المتوقع بأن يقوم بجولة حول العالم. هذا سيقرب حياته رأساً على عقب، ولكن لماذا يجب أن تبقى حياته على حالها على الدوام؟

طبعت قبلة على خده: «خفت أن تقول إننا يجب أن نُسقطه».

ردّد باشمتراز في صوته: «يجب أن نُسقطه؟ يجب أن أُسقط طفلي؟ أريد إسقاطك أنت على أقصى تقدير، ولكن من المؤكّد ليس طفلي! إسقاط واحد من آل كويست - من ذا الذي سمع يوماً بمثل هذا الشيء المشين؟ وسوف تتزوّج بطبيعة الحال، لأنني لا أريد أن يُكنّى ابني باسم برونس».

كانا ما يزالان راقيدين في الظلام، وكأنّ أحدهما لا يجرؤ على مواجهة الآخر في وضعهما الجديد.

- لا يهمني بأيّ اسم يُكنّى. المهمّ هو أن يكون طفلاً طبيعياً وبصحة جيّدة.

- أن يكون بصحة جيّدة فنعم، أما أن يكون طبيعياً فلا. يُخيّل إليّ أنّ هذا الاحتمال غير كبير من الناحية الوراثية على كلّ حال. ستكون ذات موهبة غير عادية، باهتمامات متعددة، وجمال باهر. هكذا ستكون.

- ستكون؟ هل تريد بنتاً؟

- لا أريد شيئاً، لكنّها ستكون بنتاً من دون شكّ. الرجال الحقيقيون ينجبون بناتاً.

وأطلق آهة مفاجئة.

- ما الأمر؟

- أفكّر بالعار الذي سأجلبه على عائلتي. لم يسبق أن تزوّج أحدٌ من آل كويست بامرأة حامل؛ لن يتغلّب والداي على هذه المشكلة إطلاقاً. لعلّه يجب عليّ تقديمك إليهما في الأيام القادمة.

انتابته رغبة في تدخين سيجارة، لكنّه لم يُرد رؤية ضوء الكبريت: «هل تعرفين مَنْ سيتفاجأ بهذا مفاجأة سعيدة؟».

أجابت آدا بصوت شبه خالٍ من التعبير: «ماكس».

كان التفكير في ماكس يعاودها بطبيعة الحال المرّة تلو المرّة في الأيام الماضية، مثل

سمك يُخرج فمه لحظة قصيرة من مياه البركة، لكنّها كانت تكبته في كلّ مرة، فهي تريد في الوقت الحاضر التفكير في طفلها فقط وليس في الأب. تلمّس أونو يدها وبقي أحدهما راقداً إلى جانب الآخر بصمتٍ برهّة من الزمن.

سأل: «لو أنني قلت يجب إسقاطه، فهل ستفعلين ذلك؟».

- ولا في الأحلام.

استدار على جنبه ووضع يده الأخرى على بطنها: «ما حجمه الآن يا ترى؟ مليمتراً واحداً؟ مليمتريْن؟!».

- بحجم بيضة ضفدع، على ما أعتقد، مثلما كنت أنت في هذا العمر.

- هل لك أن تُحسّني ألفاظك؟ أنا مثل بيضة ضفدع.. يبدو أنك فقدت صوابك. إنني انبثقت من يافوخ أُمي بصورة عفوية، في حلّتي الكاملة، بالدرع والرمح؛ أُغمي على والذي عندما رأيته، تدرجت الكواكب من مداراتها، وشوهدت علامات عجيبة في طرقات الربّ كلّها.

استند على أحد مرفقيه وسأل في اتجاه وجهها: «أخبريني، هل كلّ ما تقولينه صحيح؟ ماذا ستفعلين لو وافتك دورتك الشهرية غداً؟».

وبينما يقول هذا، علم أنه سيُصاب هو أيضاً بخيبة أمل.

- لن توافيني الدورة الشهرية غداً.

- هل ذهبت إلى طبيب نسائية؟

- ليس بعد.

- اذهبي إليه غداً. وإن لم تكوني حبلَى، أوقفي حبوب منع الحمل.

أحسّ من الوسادة أنها تحني رأسها علامة الموافقة.

- متى ستولد؟ لن يكون التقويم القمري مشكلة بالنسبة إليك على كلّ حال، كونك امرأة حبلَى.

- الثامن من تموز.

- هذا يعني أنك حبلت...

- في ليلتنا الأخيرة في هافانا.

ترأى له طيفها يظهر في فتحة الباب المفضي إلى غرفته في الفندق في ضوء الممرّ المضاء وراءها - في تلك الأفاقي البعيدة، في كوبا الغارقة وراء الأفق. أليست الذاكرة من أعظم المعجزات في نهاية الأمر؟ كيف يمكن للانفجار العظيم الذي يتحدّث عنه ماكس أن يؤدي إلى نشوء الذاكرة؟ إلى كلّ شيء موجود، نعم، ولكن كيف يمكنه أن يؤدي إلى تذكّر كلّ ما حدث في الماضي، وصولاً إلى الانفجار العظيم نفسه؟ ماريا، التي ربّت مرتين على المكان بجانبها، فأطاع أمرها مثل كلب صغير - استسلامه بسبب سوء الفهم، المحادثة الهاتفية الكاذبة مع آدا، والصورة المروّعة للجنّة على النعش. أخذته إلى سريرها، الذي كانت روح الرجل ذي اللحية والقبّة الكبيرة لا تزال راقدة فيه، اغتصبته ثم عادت به في سيارتها - عابرةً بالجنود الملّقين التحيّة العسكرية - إلى الفندق، حيث جلس ساعةً كاملة في حوض الحمام، وأمضى باقي النهار في التهنّد والتأوّه، بينما يقرأ رسائل فالتر راتيناو إلى والدته، بترجمتها الإسبانية: طبعة قديمة مجمّعة، كان النزول السابق - وهو واحد من النقايبين اللاسلطويين الراديكاليين طبعاً - قد تركها في الخزانة الصغيرة بجانب السرير. بينما يقرّف من نفسه ويعاني من تأنيب ضميره، ذهب إلى الفراش في وقت مبكر وأرغم نفسه على النوم؛ بعد المحادثة الهاتفية مع ماكس لم يستيقظ إلا على صوت آدا، التي كان من المفترض أن تنام في فندقها، لكنّها رقدت بجانبه في السرير بصورة مفاجئة. يبدو وكأنّها شعرت بخيائته لها وأرادت إخفاءها عن الأنظار، مثل طبقة من الدهان فوق طلاء الأساس. هذا وحده يسلبه الحقّ في مطالبتها بالإجهاض - حتى لو أراد ذلك.

كذلك بالنسبة إلى آدا، الراقدة إلى جانبه، امتلأ الظلام بالمساء الأخير ذاك. لم يكن لديها أيّ سبب يجعلها تعتقد أنّها ستحبّل من ماكس، لأنّها كانت تأخذ حبوب منع الحمل؛ ولكن أثناء الرحلة الليلية بالسيارة إلى هافانا، عندما لم يكن أحدٌ ينطق بكلمة واحدة تقريباً، خامرها شعورٌ بالشكّ، لا يستند إلى أيّ أساس، لكنّها لم تستطع إبعاده عن نفسها. كانت حينذاك في الفترة التي ستحبّل فيها، لو لم تكن تأخذ حبوب منع الحمل. تصوّر لو أنّ صانع الحبّ أخذه النوم أثناء العمل! لقد قرأت في إحدى المرات أنّ هذا يحدث مرّة من بين ملايين المرات: هذا يمكن أن يحدث لها بالذات. لازمها سوء الحظّ من هذا النوع طوال حياتها، ولكن من ناحية أخرى تمنّت أن يحدث لها - لا لأنّ الطفل سيكون من ماكس، ولكن لأنها تريد طفلاً؛ ستخرج من الدائرة الموسيقية بضعة شهور، ولكنّ مقعدها سيبقى محفوظاً لها. لقد مضت

أربعة أيام أو خمسة على المرّة الأخيرة التي نامت فيها مع أونو - لم يكن أيّ منهما مهووساً بالجنس مثل ماكس - ولو شاء القدر إصابتها، فيجب أن يكون أونو أيضاً قد نام معها في فترة خصوبتها. لا لأنه يجب أن يكون هناك احتمال بأن يكون أونو الأب فحسب، نظراً لأنها تريد البقاء مع أونو، بل لأنها في هذه الحالة لن تعرف أيّهما الأب أيضاً. وستكون صادقة عندما تقول لماكس إنها لا تعرف من هو الأب. لقد ترجّلت من السيارة أمام فندق هابانا ليبره. قالت إنها تريد قضاء ليلتها الأخيرة مع أونو، الذي لم تره طوال اليوم - ولأن معظم المندوبين كانوا في سييرا مايسترا، سمحوا لها بالدخول بتوصية من غويرا. في الطابق الثاني والعشرين دلّها ماكس على غرفة أونو، ثم أمسك رأسه بيديه بصورة مفاجئة، واختفى في غرفته دون قول كلمة واحدة.

كان كلاهما يفكر في تلك الليلة، التي رقد فيها أحدهما إلى جانب الآخر، مثلما هما راقدان الآن. قالت له آدا إنها اشتاقت إليه وسألته كيف جرت زيارته للكنيسة؟ أجاب أونو إنّ الجوّ كان ممتعاً للغاية في الكنيسة، الملأى بالبرجوازيين الذين يمرّون بأوقات عصيبة، وإنه اشتاق إليها هو أيضاً. لم يسبق أن عانق أحدهما الآخر بذلك الشغف، ولا حتى في المرّة الأولى، بدا وكأنهما في تلك الليلة فحسب يعيشان الحب النقي الحقيقي... قال أونو: «لقد حدث حينذاك إذاً لا أزال أتذكّر ذلك على وجه الدقّة».

- وأنا أيضاً.

لا تعرف آدا أنّ أونو يخجل من نفسه في الظلام، مثلما تخجل هي - ولا يعرف أونو أنها تخجل من نفسها. قال في سريره: لعلّ الحبّ النقي الحقيقي، مثل الأزهار كلّها، يزدهر بأحسن صورة عندما تكون جذوره في الروث والطين. لعلّ هذا هو قانون الحياة الذي يجعل كلّ الأشياء متماسكة: النهار لا يصبح نهائياً إلا بنعمة الليل. ولكن إذا كان الليل يحدّد النهار على شكل نهار، ألا يعني هذا أنّ الليل كامن في قلب النهار؟ فهل النهار هو النهار النقي الحقيقي في واقع الأمر؟ هناك فرخ وقواق أسود في مركز الشمس؟ ينبغي عليه مناقشة هذا مع ماكس في إحدى المرات. إذا كان هذا صحيحاً، ولا يوجد النقاء الحقيقي، فهل يكمن العزاء الوحيد في الإدراك أنّ الليل أيضاً ليس بالليل الخالص؟ - وعلى هذا، لعلّ الموت ليس بالموت المطلق. إذا كان الموت يكمن في طبيعة الحياة، ألا يعني هذا أنّ الحياة أيضاً تكمن في طبيعة الموت؟

قال: «كان ينبغي عليّ معرفة أنّ تلك المرأة ستثمر عن طفل».

لقد راود آدا آنذاك شعورٌ من هذا القبيل، تماماً مثلما راودها مع ماكس قبل بضع ساعات من ذلك. لعلّ مثل هذه التجربة مرّتين يُطل مفعول الحبوب، مثل الوقت الذي نضرب فيه الناقص بالناقص فتكون النتيجة زائداً. لعلّ هذا يعني أيضاً أنها حبّلت من كليهما - ومن ثم لم تحبل من أيّ منهما. أيجب أن تتمسّك بهذه الفكرة؟ أحبّلت من الصداقة بين هذين الشخصين؟

قالت: «لذلك كنتَ على حقّ في تخصيص غرفتنا الصغيرة الجانبية».

أحنى رأسه علامة الموافقة، رغم أن لا أحد يستطيع رؤيته: «من الأفضل أن نتصرّف بصورة عملية في حالات الطوارئ. يجب شراء سرير للطفلة، وسرير نّقال، وخُشخيشة. هذه الأشياء ستكلّفنا قدرًا لا بأس به من المال. وفي المستقبل ستطلب أيضاً جهاز ستيريو بطبيعة الحال. كلّ هذا يبلغ من الفظاعة أنه لا يمكن التفكير فيه. ماذا سيقول أبوك وأمك؟».

- سيسرّان سروراً عظيماً. أبي على كلّ حال.

- ولماذا ليست أمك؟

- أمي مجنونة.

- هذه جرأة منك. أصبحت نوعاً من الأتهات منذ خمس دقائق، وبدأت على الفور تتكلّمين مثلهن. لماذا أمك مجنونة؟ أعتقد أنّ أمك ليست مجنونة على الإطلاق. أمي هي المجنونة.

- لا أعرف أمك.

- لكنني أعرف أمك.

- تظنّ أنك تعرفها. هل أخبرك شيئاً عن أمي؟

- هذا يعتمد على الشيء. ليس إذا كان سيضعني في موقف محرج عندما أقف أمامها وجهاً لوجه في حفلة زفافنا، التي ستكون مثل قصص الخيال.

- لم يحدث أن أخبرت أيّ شخص به.

- ولا حتى ماكس؟

رفعت كتفها: «لم يكن يوليني اهتماماً حقيقياً».

لو كان الضوء مشتعلًا في غرفة النوم، لما أخبرت أونو أيضاً في أغلب الظن؛ ولكن بسبب الظلام المحيط بها، اختفى إحساسها بالمكان الذي توقفت فيه وبدأ باقي العالم. في الغرفة الواقعة في الجهة الخلفية من محلّ الكتب، كانوا جالسين إلى مائدة العشاء، يأكلون شرائح اللحم المطهو مع بطاطا وهندباء أنديفية؛ قال والدها إنه في أيام صباه كان لديه صديق يطمح لأن يصير عالماً كيميائياً عظيماً، وكان يساعده في تحضير التجارب. كان لديه مخبرٌ في عليّة البيت، ويقرأ السّير الذاتية المشهورة للعلماء الكيميائيين العظماء، مثل لافوازييه، ودالتون، ولييخ، وفي عيد ميلاده أُهدي إليه معطفٌ مخبر حقيقي أبيض اللون عالي الياقة. كانت هناك خزانة ملابس، في غرفة نوم والديه، في أحد أبوابها مرآة عالية، ترى نفسك فيها على الفور إذا ما دخلت الغرفة. في الأوقات التي لا يكونان فيها في البيت، ينزل بين حين وآخر إلى الطابق السفلي، إلى غرفة نومهما، وقد ارتدى معطفه المثير للاهتمام ويسير بيد ممدودة ورباطة جأش ليسلم على نفسه - مثل الكيميائي العظيم، الذي استطاع التفرغ دقيقة واحدة لزائره، الذي جاء تلك المسافة كلّها من أميركا ليطلب النصيحة من الحائز على جائزة نوبل.

سألت آدا: «وهل صار كيميائياً عظيماً؟».

- لا، لكنّه صار رجل أعمال عظيماً. إنه الآن مدير قسم في شركة فيليبس ويتنقل في سيارة بسائق. هذا كلّه يمتّ بصلة إلى العقلية.

فقالت والدتها: «هذا صحيح. انظر أين أوصلتك عقليتك، إلى حارس متحف بائس في أول الأمر، ثم إلى تاجر أشدّ بؤساً في الكتب المستعملة التي تفوح منها رائحة القبور».

نظر برونس إلى زوجته، وكأنه تلقى ضربة سوط - وعندما رأت آدا نظرت، ألقّت الشوكة والسكّين من يديها وهجمت على أمها. أمسكتها من معصمها وضغطتها على الحائط بظهرها. صرخت بها: «اعتذري منه! اعتذري منه على الفور!».

أخذ صدر آدا يتحرّك في صعود وهبوط. قالت إن شقاً انفتح على زواجهما فتكشّفت من خلاله طبيعته الحقيقية. كان والدها لا يزال يلعب فيه الدور نفسه، الذي لعبه في صداقته مع الكيميائي العظيم.

- أعتقد أنها سحاقية في طبيعتها، لكنّها لا تعرف ذلك.

هتف أونو وهو يسحب البطّانية حتى ذقنه: «يا للفضاعة! يا للفضاعة! لقد تجرّأت أن تضغطي جدّة ابنتي على الحائط! وكيف انتهى الموقف؟».

- رمقتني بنظرة وكأنها تريد قتلي. تدخّل أبي بيننا، ذهبت إلى غرفتي، ولم يعد أيّ منا إلى الحديث عن هذا الأمر مرة أخرى. أعتقد أنها أقنعت نفسها في وقتٍ لاحق بأنّه لم يحدث.

- لديها موهبة تُحسد عليها. هذه الموهبة تجعل الإنسان يعيش حياة طويلة.

في الخارج يسود صمتٌ كثيف، يطفو على هديرٍ يكاد لا يُسمع منبعثٍ من محرّكات طائرات - ربما على علوّ شاهق، أو في مكان بعيد، في أحد مدارج مطار سخيّهول.

قالت آدا بعد برهة قصيرة: «ربما ينبغي لك ألا تخبر ماكس إلا إذا تأكّدنا».

قال: «طبعاً».

عاود التفكير في أنه لولا ماكس لما تعرّف إلى آدا، ولما كان له أن ينجب هذا الطفل أيضاً. كان هناك شيءٌ من هذا القبيل في الأجواء منذ اللحظة الأولى بطريقة أو بأخرى. تراءت له السيارة الرياضية داكنة الخضرة وهي تقترب على طريق فاسينارسه، تعطي إشارة ضوئية وتنحرف بحركة سريعة إلى جانب الطريق. كاد يجثو على ركبتيه ليرى ذلك الوجه الشبيه بوجوه المهرّجين خلف عجلة القيادة. لم تمضِ سنة واحدة بعد على ذلك.

سأل: «ماذا سنسمّيها؟».

أجابت بابتسامة خفيفة: «لم أفكر بالاسم بعد».

وسألت بعد برهة قصيرة: «ما رأيك بإليزابيث؟ وعندئذٍ نستطيع مناداتها ليسي».

- هذه العادة تحديداً من أغبي العادات إطلاقاً: تسمية طفلك باسم لا تنوي مناداته به. إذا أردت مناداتها ليسي، فيجب أن تسمّيها ليسي أيضاً. طبعاً إليزابيث أجمل، فهو اسم والدة القديس يوحنا المعمدان. لكنني أعتقد أنه يجب علينا تسميتها باسم متماثل مثل اسمي واسمك، ونستطيع تحقيق ذلك بتغيير أونو إلى آنا حسب قانون كويست في الصوتيات. إنه شيء مناسب دينياً أيضاً، لأنه اسم جدّة سيدنا ومخلصنا. من طرف والدته بطبيعة الحال، فجذّته من طرف والده لا يُعرف الكثير عنها، لم أسمع على الأقل أيّ شيء عن والدة الربّ. يجب على الحركات النسوية البحث في هذا الموضوع. على ذكر هذا الحديث، ابنة فرويد أيضاً تُدعى آنا. الرجال العظماء يسمّون بناتهم بهذا الاسم.

- وإذا كان صبيّاً؟

- سنغيّر آدا إلى أودو وذلك باستبدال ألف وواو بألف ممدودة، وواو بألف.

- هذا يشبه قليلاً اسم فارس في كتب الشباب.

- أصبت. لن نسمّيه بهذا الاسم. ثم إننا لسنا بحاجة إلى التفكير في الاسم، لأنه لن يكون صبيّاً. سيكون بنتاً - بخصلات شعر معقوفة طويلة رائعة. وإذا كان صبيّاً، سنأتي باسم مستحيل.

وطبع قبة على خدّها: «لك جزيل الشكر، إنني سعيد جداً بهديّتك!».

22. والآن؟

عندما أكّد العلمُ الحَدَس، كما ينبغي، اتصل أونو بماكس في لايدن، وسأله عمّا إذا كان مشغولاً في المساء. اندهش ماكس بعض الشيء، لأنه على العموم لا يبلغه بمجيئه إلا قبل عشر دقائق من وصوله. تصاعد وقع خطواته على درجات السلم في الساعة التاسعة، واتخذ في العتبة وضعية تمثال إله كلاسيكي، أبولو بلقيدير، برشاقة خرقاء: باسطاً ذراعيه ومديراً رأسه على نحو طفيف. قال بالألمانية: «بساطة نبيلة وعظمة هادئة!»، ثم بالهولندية: «إنك تنظر إلى شخصية، تسقط أنت بجانبها في تفاهة شاملة».

قال ماكس: «لك جمالٌ خارق للطبيعة. لا بدّ أنّ الروح قد انسكبت في كيائك».

قال أونو: «لا تعلم النصف من كلّ ما انسكب». ومضى يجلس في مقعده: «تماسك يا ماكس!».

وعندما جاره ماكس في اللعبة وأمسك بالبيانو الكبير، قال: «سوف أصبح أباً!».

أبقى ماكس يديه على الطلاء الأسود الأملس ونظر إليه: «غير معقول».

- معقول، معقول، معقول إلى ما لا نهاية!

لم تنفذ المعاني الكاملة التي تضمّنتها هذه الكلمات الثلاث إلى ماكس بعد، لكن تولّاه شعوراً في الحال مثل الوقت الذي تُنزل فيه سفينة في المياه، عندما تتهشم زجاجة شمبانيا على قوس السفينة، فترغد بينما تتحرّك السفينة في هوادة. بدت يداه وكأنهما ملتصقتان بالبيانو الكبير؛ كانت وضعيته لا تزال جزءاً من اللعبة، التي لم يعد يلعبها بصورة مفاجئة. اعتدل في وقوفه: «منذ متى تعلم هذا؟».

- منذ البارحة نعلم علم اليقين. لقد مات ضفدعٌ على الصليب من أجل طفلي. ستره بعد ثمانية شهور، إذا كنت لا تصدّق. بالنسبة إلى عقلك الفلكي، الذي لا يركّز على شيء سوى

الخلود، لا يعني التكوين الرهيف اللانهائي لحياة جديدة أي شيء بطبيعة الحال، ولكن مع ذلك أنت أول شخص يسمع به - لأسباب تبلغ من الashمئزاز ما لا يمكن الإشارة إليه.

شعر ماكس بالإعياء. هل أخبرته آدا بما حدث في فاراديرو؟ كلاً، هذا غير ممكن! وعندما حضرته ذكرى تلك الليلة في البحر وهو يحسب في طرفة عين، واجهه احتمالاً أفظع: طفل مَن يكون؟ ذهب إلى الخزانة التي تصطفّ فيها الكؤوس، وسأل: «ماذا تعني؟».

- أعني أنك قدّمته إليّ، هذا ما أردت قوله. ماذا ظننت أنني أقصد؟ ماذا أصابك؟! تبدو شاحباً يا صديقي!

لاحظ ماكس أنه مصابٌ بالرعب. قال وهو يضع الكأسين على الطاولة: «صعقني الخبر. لا تؤاخذني! ربما لأنني فكّرت أحياناً بإنجاب طفل، عندما كنت مع آدا، وقد أصبح ذلك الآن من المستحيلات».

ذهب إلى المطبخ. هذه كذبةٌ أخرى - سيخبر أونو آدا عنها، وستعرف أنها ليست سبب ذعره، لكنّها لن تقول شيئاً لأونو. أخذ بيدين مرتعشتين علبةً من مكعبات ثلج يتصاعد منها البخار من الثلاجة، وضعها لحظة تحت الصنبور، ثم أخرج المكعبات منها ووضعها في وعاء. يجب عليه ترتيب أفكاره، التفكير في كلّ شيء على وجه الدقة، أن يرى ما يجب فعله، ويجب عليه في الوقت نفسه العودة إلى الغرفة وتجاذب أطراف حديث مع أونو، لن يكون عن الموضوع الحقيقي. لقد حوّل قصر صداقتهما إلى أنقاض، ويعتقد أونو أنه لا يزال قائماً، ولا يعرف أنه أصبح سراباً.

قال أونو: «لم أكن أعرف إطلاقاً».

- ماذا؟

- أنك أردت طفلاً من آدا.

- ليس الأمر على هذا النحو تماماً، لكنّها كانت المرأة الوحيدة في حياتي التي لم يرعيني التفكير في إنجاب طفل منها على الفور. انس! الوضع كما هو عليه.

- ولو أنّ الوضع مختلفٌ عمّا هو عليه، لكان هناك شيءٌ غريب جداً في العالم.

وضع الروم بالكولا إلى جانب أونو، صبّ لنفسه كأساً من النبيذ، وجلس قبالة. أرغم نفسه على النظر إليه: «هل كانت متوقّفة عن أخذ حبوب منع الحمل؟».

- الحبوب! لا تتكلم عن الحبوب. ما كان الأمر سيختلف لو أنها أخذت حبة من الفول السوداني كل يوم. يبدو أنّ التكنولوجيا الطبية لا تزال في مهدها - تماماً مثل طفلي الذي سيكون في مهده عمّا قريب. لكنّ هذا شيء لا يؤسفني. كان تجاوبي مختلفاً تماماً عما ظننت، من المؤكّد أنني لم أكن سأخذ قراراً من تلقاء نفسي بإنجاب طفل؛ ولكن بعد أن أخذه عني صانع الأدوية الدجّال، اكتشفت أنني خلّقت لأكون أباً. لا بدّ أنّ هذا العنصر الأبوي الدافع العميق في أعماقي قد لفت انتباهك أيضاً في كثير من الأحيان، أم أنه لم يلفت انتباهك؟

قال ماكس وهو يجد صعوبة في مضاهاة أونو في النبرة، التي لم تكن قد تغيّرت، لكنّها صارت بالنسبة إليه تنتمي إلى الزمن الماضي: «طبعاً».

أخذ رشفة من كأسه وقال: «إن لم أكن مخطئاً في الحساب، فقد حدث ذلك في كوبا».

- في هافانا، في المقرّ الرئيسي للثورة، تلك الليلة من الثامن إلى التاسع من تشرين الأول، ألف وتسعمئة وسبعة وستين بعد الميلاد، في نحو الثانية صباحاً. ذلك الأحد الذي ذهبتم فيه إلى الشاطئ. يؤسفني عدم تمكّني من الذهاب معكم بسبب انشغالي ببحث ميداني في الظواهر الدينية.

نظر أحدهما في عيني الآخر. أحنى ماكس رأسه؛ علم أنّ أونو يعلم أنه يسترجع الآن في ذاكرته المحادثة الهاتفية التي سمّى فيها نفسه «منهار أخلاقياً» و«مضاجع أموات». ولكن بغضّ النظر عما حدث، أيقن على كلّ حال أنّ آدا - بعد ما حدث بينه وبينها - قد أغرت أونو في تلك الليلة: لذلك أرادت النوم عنده بدلاً من النوم في فندقها. لقد أخذت كلّ شيء بعين الاعتبار، وليس عن عبث، كما يتبيّن الآن. خطّطت بأنّاء وروية أن تضع أبوة طفل بعيدة الاحتمال، ولكن ليست مستحيلة، في خانة الشكّ. إلى أيّ حدّ يبلغ بها المكر؟ لم يكن يعرفها على هذا النحو إطلاقاً، ولا أونو أيضاً. ولكن ذات يوم ستحين ساعة الحقيقة من دون شكّ، فمنّ منهما سيُشبهه الطفل؟ ترك هذا السؤال ينفذ إلى أعماقه بفزع شديد. لو كان هو نفسه يشبه أونو بعض الشيء، لما خطر في بال أحد أنّ الطفل ليس طفل أونو، إذا تبيّن أنّ الطفل طفله - ولكن، أيّ شبه يجمع بينه وبين أونو؟ على النحو الذي يجلس في مقعد تشيستر فيلد الأخضر ذي الذراعين، بقامته الثقيلة الضخمة، التي تبدو قامته المتناسقة بجانبها شبه أثيرة - ولا سيما بأنفه التقليدي المستقيم، وفي أسفله الفم الرزين الصغير بالشفّتين المقوّستين، الذي يشبه فم تمثال إغريقي فعلاً. أما وجهه هو نفسه فهو أقرب، من منظور تاريخ الفن، إلى

الوجوه المتممة إلى فترة المانيزم^(*)، بأنفه الشبيه بمنقار طير جارح وفمه النهم الشره. رأسه يناسب جسد أونو على نحوٍ أفضل بطريقة أو بأخرى، والعكس بالعكس. كلاهما من حسن الحظ أشقر شقرة داكنة وله عينان زرقاوان. تصوّر لو أنّ أحدهما كان صينياً، أو أسوداً!

قال أونو: «ستكون ابنتي تجسداً للثورة. ستكون روزا لوكسمبورغ ثانية - أو بالأحرى، ستكون مثل تلك المرأة التي رسمها ديلاكروا في تلك اللوحة إلهة الحرية: قائدة الجماهير العاملة مكشوفة الصدر ببندقية وعلمٍ مرفرف من ثلاثة ألوان».

طبعاً، يمكن أيضاً أن يصبح فتاة - لعلّ حصّة آدا ستكون المهيمنة في هذه الحالة؛ ولكن من الأفضل ألا يصبح شيئاً على الإطلاق.

- هل أنت متأكد من أنك تريد طفلاً؟

أجاب أونو وهو يُحدث رنيناً بمكعبات الثلج في كأسه: «من ناحية المبدأ أنا أؤيد الإجهاض حتى سنّ الأربعين، والموت الرحيم من سنّ الأربعين. سأبذل قصارى جهدي لإدراج هذا في برنامج الحزب. لكنني أريد منح استثناء في هذه الحالة الخاصة. كنت أعلم أنك ستلتجئ إلى الإجهاض. لن يكون لديك أطفال إطلاقاً، لأنه ليس لديك أب أيضاً، أما أنا فلديّ أب، وليس من منزلة وضيفة أيضاً، وقد حانت فرصتي لأوجه له ضربة قاضية في عقر داره، لأنني سأبلغ مستواه في الأجل القريب ولن يكون بحاجة إلى إخباري بما يجب عليّ فعله. سأجري عملية إجهاض، نعم! ولكن إجهاض الابن الذي أكونه، إن كنت تفهم ما أعني».

وهتف بنظرة مترقّعة في عينيه: «سأتخلّص من نفسي!».

ازداد ماكس حيرةً واضطراباً. في الماضي كان سيستمع بكلّ كلمة يقولها أونو، أما الآن فيبدو وكأنه يجب أن يشرب الشمبانيا بجانب شخص على فراش الموت. لا يمكن استمرار الوضع على هذا المنوال، يجب أن يحدث شيء. يفضل أن يغادر أونو في الحال، ليستطيع التفكير على مهل، لكنّه وصل للتوّ وسيبقى ساعات طويلة، إلى أن يرتقي بحالة الأبوة إلى العوالم العليا، حيث يسكن الإله الأب الذي لن يكون هو أيضاً بحاجة إلى إخباره بما يجب عليه فعله.

(*) النهجية أو الأسلوبية: حركة فنيّة أثّرت في فنّ عصر النهضة الإيطالي في مرحلته الأخيرة. [م]

- وآدا؟ ماذا ستفعل بمسيرتها الموسيقية؟

- ليست هناك أي مشكلة، لأنني سأخذ المخاض على عاتقي. نعم، لا ترمقني بهذه النظرة الغبية. إنها ظاهرة شائعة في إفريقيا السوداء، التي لا تزال تحافظ على علاقتها بالمصادر البدائية للبشرية. الأم المستقبلية تعمل في الحقل في الحرارة الحارقة وهي تغني، والأب المستقبلي يرقد في ظل الكوخ وهو يتأوه. الولادة حدث قصير، ستعود آدا إلى التشيلو الخاص بها، وسأدفع عربة الطفل في حديقة فوندل، أجلس على مقعد، وأتبادل الحديث مع موظف متقاعد من مكتب الإسكان عن الزمن الماضي، بينما أؤرجح العربة بيد واحدة ذهاباً وإياباً. في زمن لاحق سأذهب مع الطفل الصغير إلى حوض الرمل وأتكلم مع الأمهات الشابات عن الأرداف المتحسّسة من الحفاضات وعن مساحيق الغسيل، بينما أطفالنا الأحباء يحاولون كسر رؤوس بعضهم بعضاً بالحجارة. في المساء، عندما تغوص آدا في أعماق مالر المدوّية في الكونسيرت خباو، ستعتريني رغبة في رمي الطفل الباكي من النافذة؛ لكنه عندما يخلد إلى النوم أخيراً، سأوقظه خشية أن تكونمنية قد وافته. باختصار، سأنصهر كامل الانصهار مع أبدية العنصر الصغير البلهاء.

- والسياسة؟

- سأكون بذلك قد تخلّصت منها أيضاً. بينما تغرق هولندا في الفوضى وتتخبّط من دوني، سأتوغّل في أقاصي التبصّر الفلسفي، التي لا يستطيع سوى قليل من الناس التوغّل فيها: الأب هو الأم!

أخذ جرعة كبيرة من الشراب وتابع: «ربما سأرتدي فساتين على المدى البعيد وأترّين بأقراط طويلة حتى الأرض».

نهض ماكس ليفعل شيئاً على طاولة مكتبه، حيث لم يكن هناك ما يجب فعله. رتب بعض الأوراق التي لا تحتاج إلى الترتيب بصورة أفضل، وسأل: «هل تنوي الزواج؟».

- نعم، ماذا ظننت؟ أظننت أنني سأواصل العيش في الخطيئة؟ إنه أمر سيئ بما يكفي أن يقوم طفلنا بالحساب في المستقبل ولا يتوصّل إلى تسعة شهور بين يوم زفافنا ويوم ولادته، في تموز السنة القادمة. أي فكرة سيأخذها عنا؟!

تسمية هذا التاريخ أصابت ماكس بصدمة جديدة.

الشهر الآن تشرين الثاني - سيمضي الوقت، الأسبوع تلو الأسبوع، عبر الشتاء ثم الربيع إلى الصيف، إلى أن يحلّ ذلك اليوم لا محال.

قال وهو لا يعرف ماذا يقول: «نعم».

واصل أونو: «سأخبرك بشيء آخر. لقد أعلنّا عن نيّة الزواج في ظهر هذا اليوم. ستكون حفلة زفافنا بعد أسبوعين. في السابع والعشرين من هذا الشهر».

- إنه يوم مولدي.

- أعلم هذا، ولكن لم يكن هناك مجال سوى هذا اليوم في دار البلدية. لعلّك تستطيع التفرّغ من مشاغلِكَ. ستكون شاهداً بطبيعة الحال.

شعر ماكس وكأنه يتعرّض للتعذيب. كانت آليّة قد بدأت بالعمل لا يمكن إيقافها ولا يمكن أن تستمرّ على هذا النحو. يجب أن يحدث شيء - ولكن ماذا؟
- هذا شرفٌ عظيم لي.

- لكنّك لا تُحدّث انطباعاتاً بأنك أعددت نفسك لحقيقة أنّ الرغبة في تأسيس أسرة قد استحوذت على صديقك. هل أنت معي بأفكارك؟

أجاب وهو يمضي للجلوس خلف مكتبه: «كي أكون صادقاً يا أونو، ليس تماماً. نحن في لايدن مشغولون بمعالجة عددٍ من نتائج قياسات هامة من دفنغلو، وهي تجول في رأسي بصورة متواصلة. هل يزعجك إذا اتصلت بأحد زملائي؟».

- إذا كنت ترى الكون أهمّ من زواجي، فيجب عليك الاتصال الآن. يبدو أنك فقدت الإحساس بتقدير الأمور.

ابتسم ماكس وأدار رقمه الخاص، الذي تبين أنه مشغول.

قال للنغمة المتردّدة بغياء: «ألو، معك ماكس، هل هناك أخبار جديدة؟ - إنك لا تعني ما تقول. - استقطاب بنسبة أربعين بالمئة عند موجة طولها عشرة سنتيمترات؟ - هذا شيء مدهش! ولكن إذا كان هذا صحيحاً، ف... طبعاً. طبعاً...».

لم يعد يعرف ماذا يجب أن يقول، فألقى الكلام على عواهنه: «ولكن إذا كان يتكوّن من مصدرين إشعاعيين؟ - أجل، ولمّ لا؟ - من ناحية تكون بنية المجال المغناطيسي شبه موحّدة، ولكن من ناحية أخرى إذا أخذت دوران فاراداي بعين الاعتبار... ماذا قلت؟».

ورمق أونو بنظرة مترددة وقال: «نعم، هذا صعب قليلاً. الآن عندي ضيف. ولكن...». فقال أونو وهو يضع كأسه من يده: «حسناً، حسناً. إني ذاهب. اذهب إلى الاستقطاب الخاص بك!».

- سأكون في الحال. سأكون في لايدن بعد عشرين دقيقة.

*

لكنّه لم يذهب إلى لايدن. أوصل أونو إلى شارع كيرك بسيارته، ثم ركن السيارة ليس أمام بابه، ولكن على بُعد شارع من منزله، لئلا ينكشف أمره في حال إذا خرج أونو وآدا للتمشي. لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد إذاً! صعد درجات السلم مرةً أخرى وهو يشعر بقرف من نفسه لم يسبق أن شعر به على الإطلاق، وبقي دون أن يشعل الضوء يذرع الغرفة حتى الهزيع الأخير من الليل وفق المحدّد من الأقطار والمنصفات العمودية، ملقياً نظرة بين حين وآخر على كأس أونو، التي لم يُفرغها من الشراب.

ما إن استيقظ من النوم في صباح اليوم التالي حتى عاوده التفكير ولم يتركه طوال النهار. الجنين ينمو دقيقة بعد دقيقة في ظلام رحم آدا؛ تنضمّ إليه آلاف الخلايا وتنظّم نفسها على شكل تهديد فظيع. رغم أنّ بياناتٍ هامة فعلاً كانت تتدفّق من معهد الحسابات المركزي، فقد ظلّ يذهب المرّة تلو المرّة إلى نافذة مكتبه في لايدن، يقف أمامها واضعاً يديه في جيبيه، وينظر من فوق هورتيس بوتانيكوس، حيث هبط الخريف الهولندي على النباتات الاستوائية. بقي فترة طويلة يكرّر الأفكار نفسها. هناك احتمالٌ خمسون بالمئة أن يكون الطفل طفله؛ إنه احتمال مروّع، حتى إذا تبين أنه ليس طفله في آخر الأمر، فسيعيش سنوات طويلة في خوف من ظهور شبه بينهما. على حدّ علمه، ليست هناك طريقة لتحديد الأبوة في مرحلة الحمل. ولكن تصوّر لو تتضح أبوّته للطفل في يوم الولادة نفسه: إبهاماه اللذان لهما شكل ملعقة مسطّحة. فماذا سيحدث عندئذٍ؟! أو يظهر تدريجياً أنفه، الشبيه بأنف أمه، تحت نسخة طبق الأصل من عيني آدا. فماذا سيحدث عندئذٍ؟ أليس عليه أن يهاجر خلال ثمانية شهور؟ أن يقبل رغم كلّ شيء عرض زميله في كاليفورنيا، في مرصد ماونت بالومار؟ أن يشنق نفسه؟ ماذا سيفعل لو كان محلّ أونو؟ لعلّه كان سيقتله.

مرّر يديه الاثنتين على وجهه. هل يُعقل أنه دمر حياته؟ كيف يمكن أن يعود الكبرياء إليها ذات يوم؟ إنه هو المنهار أخلاقياً، المنغمس في الأكاذيب والخيانة حتى أذنيه. رجع بذكرته

إلى تلك الليلة في البحر: ما الذي دهاه بحق السماء؟ كيف بلغ به الجنون ذلك المبلغ! لقد طلب منه أونو أن يكون شاهداً على زواجه بعد أسبوعين: القبول مستحيل والرفض مستحيل بالقدر نفسه. إنه واقعٌ في الفخ. يجب أن يتغيّر الوضع تغييراً جذرياً هذا الأسبوع، ويُفضّل أن يتغيّر اليوم قبل الغد - ولكن كيف؟ يحسن به أن يكون صادقاً ويعترف لأونو بذنبه، يرتمي على قدميه، يأخذ قدمه ويضعها على رقبته ويتنظر ما سيحدث. أو لعلّه يجب عليه فعل ذلك - طريقة أكثر جبناً ولكن أكثر دقّة - بالكتابة إليه.

جلس إلى مكتبه، أخذ ورقة مخطّطة بمربّعات، برى قلم رصاص فوق سلّة المهملات، وبدأ يكتب من دون قناعة كبيرة:

عزيزي أونو،

سأنتخلى عن سنوات كثيرة من عمري مقابل ألا أضطرّ لكتابة هذه الرسالة. كانت صداقتنا، المستمرة منذ تسعة شهور، أغلى ما أملكه. حتى إنني لا أعرف ما إذا كانت «الصداقة» هي الكلمة الصحيحة. الكثيرون من الرجال أصدقاء، لكن ليس لديّ انطباعٌ أنّ صداقتهم تشبه علاقتنا كثير الشبه؛ كان لديّ العديد من «الأصدقاء» بطبيعة الحال، ولكن كان شيئاً مختلفاً تماماً من حيث الطبيعة. أهي «قربة الروح»؟ أظن أنّ هذه الكلمة أيضاً لا تنصيب كبد الحقيقة، إذ أيّ روحين تختلفان إحداهما عن الأخرى أكثر من روحينا؟ خطر في بالي في إحدى المرات أننا ربما يجب علينا تشبيهها بارتباط البرق بالأرض، حيث كنتُ البرق تارةً، وكتته أنت تارةً أخرى. لا أستطيع التكلّم عنك، لكنني قبل أن ألتقي بك كنتُ أشعر في كثير من الأحيان بأنني سحابةٌ رعديّة حقيقية، لا تستطيع إفراغ شحنتها. أو بالأحرى، بعد أن التقيت بك، علمت أنني كنتُ أشعر هكذا. أدرك أنّ كتابتي تبدو إلى الآن وكأنّها رسالة غرامية، وهي كذلك بطريقة أو بأخرى. طبعاً أنت آخر شخص يمكن أن يفوته استخدامي للزمن الماضي. لقد فقدتُ الحقّ، بطريقة لن أسامح نفسي عليها أبداً، في قول إننا ما زلنا صديقين. يكاد يستحيل عليّ الاعتراف بالحقيقة؛ أفضل الاستمرار في الكتابة إلى آخر يوم في حياتي، لا شيء إلا لتأجيل الاعتراف. أونو! الطفل الذي تنتظره آدا قد يكون طفلي.

في اللحظة التي كتب فيها الجملة الأخيرة، علم أنه لا يستطيع إرسال هذه الرسالة بطبيعة الحال. ليس من حقّه كشف النقاب عن هذا الأمر بمبادرة شخصية منه، من وراء ظهر آدا.

في هذه الحالة سوف يسبب لها من الألم بطريقة معينة، من أجل إراحة نفسه مجدداً، ما سببه لأونو من قبل. إنه مرتبطٌ بها، ولا يستطيع أخذ أي خطوة من دونها. لذلك فإن أول ما يجب عليه فعله هو التحدث معها. ولكن هذا أيضاً يجب أن يحدث من وراء ظهر أونو مرةً أخرى - فكل ما سيفعله، سيجعله يغوص في الوحل أعمق فأعمق. ويجب عليه فوق ذلك إقناعها بإجهاض جنينها. كل شيء باعث على الاشمئزاز بالقدر نفسه، ولكن عدم فعل شيء مستحيل أيضاً. إن لم يستطع حملها على فعل ذلك، يمكن لها الطلب منه أن يتزوجها بعد أسبوعين ويتصرف على أنه هو الأب - باحتمال خمسين بالمئة أن يكون الطفل طفل أونو. ولكن حتى في هذه الحالة ستنتهي صداقتهما، ولكن إذا اقترحت هذا الاقتراح، فلن يتردد في القبول. يجب عليه القبول به باعتباره قدره المكتوب. ثم إنه لو لم يُغَرِّ آدا في ذلك المساء، لما أغرت هي أيضاً أونو في تلك الليلة - لذلك حتى لو كان الطفل طفل أونو، لما كان له أن يوجد من دونه. فوق ذلك هو يشعر في أعماق قلبه بشيء من الموافقة على أن يكون أباً لطفل أونو.

ولكن ماذا سيفعل أونو في هذه الحالة؟ إنه يتطلع إلى مجيء طفله ويستعد للزواج، لعلّه تحدث مع عائلته عن هذا الأمر - سيُحَرِّم من كل شيء بصورة مفاجئة. هذا لا يمكن تصوّره أيضاً. من ناحية أخرى، فإنه ليس من المستبعد أن يتصرف بطريقة مماثلة ويبيد استعداداته للقبول بأن يكون أباً لطفله، ولكن بعد إنهاء صداقته معه. لا، هذا شيء غير مرجح، إلا إذا كان قد نام مع امرأة فعلاً، في ظهر ذلك اليوم في هافانا، الذي ذهب فيه هو نفسه إلى فاراديرو مع آدا. «لا يمكنني مواجهة نفسي بعد الآن. أنا منهازٌ أخلاقياً. لقد بصقت في وعاء الماء المقدس». في هذه الحالة سيكون قد تورّط في موقفٍ مشابه، ولعلّه سيرجع السبب إلى أنه لم يكن لأي شيء أن يحدث لولا تلك المغامرة، وأنه يجب عليه دفع ثمن ذلك بترية طفل صديقه. ولكن لا، لعلّ هناك شيئاً أقوى في الموضوع بالنسبة إليه: لعلّ طفله يجب أن يكون كويستياً حقيقياً قبل كل شيء، استمراراً للسلالة الحاكمة - ولهذا السبب يجب أن يكون من آل كويست، وليس من آل ديلبوس في الواقع. لم يكن لديه هو نفسه هذا الإحساس، ولم يكلفه الكثير من العناء ليفهم السبب.

أخرجت زميلةً شابة، تعمل على الاستقطاب مع أن هيتها أقرب إلى بطلة سباحة، رأسها من وراء الباب المُفضي إلى غرفته، وقالت إنه لا تزال هناك مشكلات مع 3C 296.

قال ماكس وهو ينقر بممحاة قلم الرصاص على الرسالة: «إنني أمعن النظر فيه أيضاً،

ماذا ستقولين لو أنه مكوّن من مصدرين إشعاعيين؟ لعلّ الإشعاع الأصغر متزامنٌ مع السديم البصري. خذي مجرّة قنطورس بعين الاعتبار».

نظرت إليه لحظة، ثم رفعت سبّابتها واختفت.

كانت تلك هي المرة الثانية التي يلقي فيها الكلام على عواهنه، لمجرّد قول شيء، لكنّه استوعب في الحال أنه قد يكون صحيحاً: هذا يفسّر من الوهلة الأولى كلّ شيء. لعلّه توصّل إلى اكتشاف هامّ، يجب أن يعمل عليه في الحال قبل أن يُتنزع من بين يديه - لكنّ عقله ليس في الاكتشافات. يجب عليه قبل كلّ شيء إيجاد فرصة للتكلّم مع آدا. أخذ الرسالة وشقّها من النصف خمس مرات؛ شقّ بعد ذلك كلّ نصف مرة أخرى، ثم مزج القصاصات بعناية مع النفايات الأخرى في سلّة المهملات.

23. طرّة أم نقش؟

لم تكن تعزف للجمهور بل لطفلها - ينبغي للنغمات المتصاعدة من الآلة بين ساقها، هكذا ناجت نفسها، أن تغلغل في أعماق بطنها وتحيط المخلوق الصغير في أحشائها بالجمال. بعد الإيقاع البطولي الأخير، وبينما قائد الفرقة الموسيقية، الضيف التشيكي، يقف متكوماً على نفسه، وكأنه تعرّض لنوبة مغصٍ مفاجئة، ساد الصمت لحظةً في الصالة، - ثم انفجر التصفيق، مع هتافات استحسان وتصفيير حماسيٍّ هنا وهناك. تخلص الفنان من تشنّجه بهوادة؛ شكر الفرقة وهو يبتسم ابتسامة عريضة، ويصافح بإحدى يديه يده الأخرى، فالتفت عينا آدا لحظةً بعينه. أخرج منديله بحركة استعراضية من جيبه الصدري ومسح به جبينه بإسهاب، ثم أدار لهم ظهره بعد ذلك، وأخذ ينظر إلى الشرفة بضع لحظات وهو ينخر بهيئة المنتصر، ثم انحنى انحناءً مفاجئةً وكأنه أصيب بضربة على رقبته. قامت الصالة على قدميها وأخذت تهتف له وكأنه فرانز ليست نفسه - رغم أنّ الشرطة كانت ستعتقل على الفور مشيري الشغب من أمثال «مازيا»^(*) في الظروف الحالية في أمستردام، وباستحسان كبير من هذا الجمهور نفسه. انتظرت آدا وهي تنقر قوسها برفق على الجهة الجانبية من التشيلو، إلى أن يلتفت إليهم، ويتركهم ينهضون مثل دمي متحركة بإيماءة عريضة، بينما العصا في إحدى يديه، ومنديل الجيب في يده الأخرى. عندما نهضت عن مقعدها، وجدت نفسها لا تنظر إلى الجمهور في الصالة، بل تحدّق من فوق الرؤوس، عبر الجدار الخلفي، في نقطة لانهاية البعد.

(*) إيفان مازيا: كان قائداً عسكرياً في الإمبراطورية الرومانية، شكّلت حياته مصدر إلهام لكثير من الكتاب والشعراء والمؤلفين الموسيقيين، من بينهم «فرانز ليست» فألف القصيدة السيمفونية «مازيا» التي عزفتها الفرقة. [م]

في غرفة الفرقة الواقعة تحت المسرح، أرقدت ألتها الموسيقية لتنام في الحقيقة؛ لم تكن ستأخذها معها إلى البيت، لأنها ستأتي للتمرّن في صباح اليوم التالي. سألتها صديقتها عازفة الكلارينيت، مارايكا، عمّا إذا كانت ترغب في مرافقتها إلى الحانة. الحقّ أنها تفضّل الذهاب إلى البيت على الفور، فهي تشعر بالتعب، ولكنّ الاقتراح كان من النوع الذي لا يستطيع رفضه سوى أصحاب أقوى الشخصيات.

عندما استمرّت مارايكا في الإلحاح، قالت: «برهة قصيرة إذا!».

كان ماكس جالساً على أريكة من القטיפّة الحمراء، هابطة الحشو، إلى جانب مدفأة الغاز ويقرأ الجريدة. نهض مندهشاً: «يا لها من مصادفة!».

لم تكن آدا متأكّدة من أنها مصادفة - على النقيض. طبعاً لقد بحث في البرامج الفنّية ليرى متى ستقوم الفرقة الموسيقية بتقديم عرض. كان لا يزال مُسمّراً من كوبا. قبل أحدهما الآخر على الخدّ، خلعت معطفها المبلّل، وجلست إلى جانبه، بينما مارايكا يتلعها الازدحام المتزايد على وجه السرعة.

لقد جاء ما لا مناص منه إذاً. عندما سمع ماكس أنهم عزفوا مازيبا بعد فترة الاستراحة كوصلة ختامية تبثّ الحماس في الجمهور، قال إنه من الواضح أنّ بروكوفيف أيضاً قد استمع بشكل جيّد إلى هذه القصيدة السيمفونية عالية الرومانسية، لأنها تذكره دائماً بتلك المقطوعة من سيمفونية روميو وجولييت، التي كانت تصدح في الشارع في هافانا، بالقرب من لوحة خلق آدم لمايكل أنجلو. هاتان المعزوفتان تتماهى إحداهما في الأخرى في ذاكرة آدا وعرفت ماذا يقصد. كان بوسع أونو في ذلك الوقت أن يشرح لها كلّ شيء عن الفاصلة الفياغورسية الموسيقية، أو عن التريتون في نظرية الموسيقى^(*)، أو لماذا المقام الميكسوليدي والمقام الأيولي يعكس أحدهما الآخر، ولكن ليس بوسعه إطلاقاً الإتيان بملاحظة مثل التي أتى بها ماكس.

قالت: «أنت وأونو معاً تعرفان كلّ شيء عن الموسيقى. لكنني أجلس أمام الكرّاسة الموسيقية وأعدّ ثم أمرّ القوس على الأوتار. هذا شيء مختلف، أليس كذلك؟».

أحنى ماكس رأسه بالإيجاب ونظر إليها: «لا نعرف كلّ شيء إلا نحن الثلاثة معاً».

(*) بالإيطالية في الأصل «*il diavolo in musica*» وترجمتها الحرفية «الشیطان في الموسيقى»: فاصل موسيقي يتألّف من ثلاث نغمات كاملة متجاورة. [م]

فهمت في الحال ما الذي يلمّح إليه. قالت بعد بضع ثوان وهي تنظر برأسٍ منحني إلى يديها الراقتين في حضنها: «لعلنا لا نعرف في هذه الحالة أيضاً».

طوى ماكس إحدى ركبتيه واستدار إليها ربع استدارة على الكنب. قال بصوتٍ منخفض: «اسمعي يا آدا، منذ أن سمعت من أونو أنك حبلى، لم أعد أستطيع التفكير في أي شيء آخر. هذه كارثة حقيقية».

- لكنني سعيدة جداً بها.

رأت أنه مذعور؛ لكنها تعلم أنها لن تحيد عن موقفها قيد أنملة، مهما قال وأعاد، ولعلّه شعر بهذا. حرّك رأسه ويده بضع حركات غير متناسقة: «طبعاً، أنت امرأة، أنت حامل، تنتظرين طفلاً، وأنت نفسك ما تزالين ذلك الطفل في الوقت ذاته. أفهم هذا. إنه شيء يشبه ما يحدث مع فتان حامل بسيمفونية أو رواية؛ لن يسمح لأي شيء أو أي شخص باعتراض طريقه، ولكن هذا هو الاختلاف في الوقت نفسه، لأنّ العمل الفني له أمٌّ فقط، بينما طفلك له أبٌّ أيضاً. لم يكن حبّلك حبلاً بلا دنس، أليس كذلك؟».

- أعتقد أنه لم يكن كذلك - رغم أنني كنت آخذ حبوب منع الحمل.

- هو أقرب إلى حبّك بيقعتين من الدنس. ولكن من الأب؟ لا تعرفين.

- ولا أريد أن أعرف أيضاً. أنت وأونو أبوا الطفل. أنتما تشكّلان نوعاً من الوحدة، أليس

كذلك؟

- آدا، أنت مجنونة! سيتبيّن ذات يوم من هو الأب بطريقة أو بأخرى، أنا أم أونو. أدعو الرب أن يكون أونو، لأنه في هذه الحالة لن تكون هناك أي مشكلة، هذا يعني.. سنكون عندئذٍ قد عشنا سنوات طويلة في الخوف، أنا على الأقل. ولكن إذا أنجبت صورة طبق الأصل عني، فما الذي سيحدث؟ ما الذي سنكون قد اقترفناه بحق أونو؟ كيف يمكننا الاستمرار؟ ستكون كارثة لا يعرف أحد عقباها، أليس كذلك؟

قالت آدا وهي تصالب ذراعيها على صدرها: «ستعامل مع الوضع، عندما يحين ذلك الوقت. أعرف جيداً ما تريد الوصول إليه، ولكن تستطيع توفير جهودك. لن أسقط الجنين!». اقترب منها ماكس مزيداً من الاقتراب. كان هناك أشخاص آخرون قد جلسوا إلى طاولتهما: رجلٌ مهلهل الهيئة، ذو لحية رمادية، يبدو أنه عازم على دخول شيخوخته بشراسة، يحاول إثارة إعجاب فتاة شابة بحكاية من زمن الحرب، بينما صديقها يستمع إليه بكثير من

عدم الارتياح. كان ثلاثتهم يضطرون بين حين وآخر إلى الانحناء إلى الأمام تحت ضغط الازدحام وراءهم. كان البخار المنبعث من الشعور والمعاطف المبلّلة يمتزج مع الدخان ورائحة البيرة فيتشكّل غاز، لا يستطيع أحدٌ تحمّله أكثر من دقيقة واحدة في البيت؛ وسط الضجيج والضحك لم تكن هناك حاجة لأن يخاف ماكس وآدا من تنصّت أحدٌ إليهما.

- ولكن ألا ترين، بحقّ الربّ، أنه لا مخرج آخر من هذا المأزق! تستطيعين القول لأونو إنك أجهضت من تلقاء نفسك - ويمكنكك الحبل مرّة أخرى بعد بضعة شهور إن أردت.

أخذت آدا رشفة من نبيذها الأبيض، الذي جاء به نادلٌ أصبح ربيعاً مثل خطّ مرسوم بقلم الرصاص، بعد أن عصرته الأجسام مساءً بعد مساء.

- لا، لا يمكنني.

- ماذا تقصدين؟

وضعت كأسها من يدها ونظرت إليه: «لن أحبل مرّة أخرى».

- ولمَ لا؟

- هذا ما يخبرني به حدسي.

- وعلى أيّ شيء يعتمد حدسك؟

- لا أعلم.

- ألعنك تقصدين نتيجة الإجهاض؟ اسمعي، طبعاً لن نترك امرأةً عجوزاً تجهضك

بحقنة، سأُكفّل أنا بذلك. يمكن أن يحدث هذا حتى في المستشفى الجامعي في لايدن.

- هذا ليس له علاقة بالموضوع، لكنني أعلم علم اليقين أنّ هذه فرصتي الوحيدة لإنجاب

طفل.

أشفقت عليه. لعلّه هو أبو طفلها، لعلّه ليس أباه، سيمرّ بمرحلة فظيعة على كلّ حال. كان كلّ ما فكّر فيه ماكس، قد فكّرت فيه هي أيضاً بطبيعة الحال؛ ولكن حتى إذا أطبقت السماء على الأرض، فيجب عليها إنجاب طفلها وسوف تنجبه. سينحلّ كلّ شيء في نهاية الأمر بطريقة أو بأخرى، حتى ولو تبيّن أنه طفل ماكس - حتى وإن كان على حساب زواجها وعلى حساب صداقة ماكس وأونو، فهذه الأمور كلّها تحظى بأهمية أقل. لعلّ ماكس سيرغب في هذه الحالة بإكمال حياته معها، ولعلّه لن يرغب، لعلّها ستعامل مع الوضع وحدها، هذا ليس بالأمر المهمّ، سترى في حينه: المهمّ أن يأتي طفلها إلى الدنيا. لقد غمض عليها من أيّ مصدر يأتي

هذا التصميم. فهي لم تكن تعرفه في الماضي إلا إذا تعلّق الأمر بمسيرتها الموسيقية، ولكن مؤخراً عندما قدّمت عازفة تشيلو ذات شهرة عالمية من عمرها عرضاً مع الفرقة الموسيقية، في كونشيرتو التشيلو للموسيقار إدوارد إلغار، بألة من آلات ستراديفاريوس، لم تفكّر لحظة واحدة في: الحقّ أنني أيضاً أريد الجلوس هناك.

- ولكن هذا شيء غير عقلائي يا آدا. هناك نساء لا يُحصين أجهضن ثم أنجبن أطفالاً بعد ذلك.

نظرت إليه: «إذا كنت تبلغ هذا الحدّ من العقلانية، فلماذا لا تخبر أونو بالحقيقة بكلّ بساطة؟».

أفرغ ماكس كأسه وهو في حيرة من أمره: «بدأت بكتابة رسالة إليه، لكنني مزّقتها».

- لماذا؟

- رأيت أنني لا أستطيع إخباره من وراء ظهره.

- حسناً، أصبحتُ على علمٍ بالموضوع.

- هل ترين أنه يجب عليّ إخباره؟ ماذا تظنّين أن تكون العواقب بالنسبة إليك؟ لم تخبريه أنت أيضاً.

قالت آدا: «لا. ليس لأنني رأيت أنني لا أستطيع إخباره من وراء ظهره. إنني مستعدة للمجازفة؛ إما أن تكون طرّة أو نقشاً. إذا أخبرناه، تحطّم كلّ شيء على كلّ حال».

- إلا إذا تزوّجنا.

وضعت إحدى يديها على يده برهة قصيرة وابتسمت: «حتى في هذه الحالة. لن ينتهي بنا المطاف إلا في مستنقع جديد».

أحنى ماكس رأسه علامة الموافقة: «تماماً، مستنقع - هذه هي الكلمة. أرض موحلة. سيبقى شيئاً كارثياً على الدوام، مهما فعلنا. حتى وإن لم نفعل شيئاً وتبيّن أنه طفل أونو، فسنبقى في موقف خاطئ حياله إلى الأبد. مثل الوقت الذي تعلمين فيه أنّ شخصاً مصاب بالسرطان، ولكن هو نفسه يظن أنه في صحة جيّدة».

قالت آدا: «وسيكون الوضع على هذا النحو أيضاً، إذا أسقطت الجنين. ولهذا السبب أيضاً لن أسقطه. طفلي هو السبب في كلّ شيء، لكنّه في الوقت نفسه بصيص الأمل الوحيد».

ستأتي لحظة نموت فيها جميعنا، وتختفي مشكلاتنا كلها، لكنه سيظل حياً يُرزق في مكانٍ ما، هو وأولاده وأولاد أولاده أيضاً».

- كيف تعرفين أنه سيكون صبيّاً؟

رفعت كتفيها: «يرى أونو أنها ستصبح بنتاً. حتى لقد فكّر باسمٍ لها».

ردّد ماكس مشدوهاً: «اسم؟ هل يفكّر الآن بالأسماء؟ ولكن هذا يعني أنها قد جاءت إلى الدنيا».

ظهرت مارايكا شاقّة طريقها بين الأجسام ووضعت أمامهما كأسين آخرين من النبيذ: «هل كلّ شيء على ما يرام هنا؟».

نظرت آدا نظرة خاطفة إلى ماكس، الذي أوماً إيماءة وهو يتنهد: «سيكون على ما يرام». كان الرجل الجالس قبالتهم، المنحني إلى جانب من أجل شخص يحاول خلع معطفه، يتشكّى من أنّ الترامات في أمستردام تزدهم في الوقت الحاضر مثل هذا الازدحام في ساعة الذروة؛ الحقّ أنك لم تعد تستطيع استخدام المواصلات العامة.

سأل ماكس: «ماذا سنفعل الآن؟».

رفعت آدا كتفيها: «لا شيء».

- هل التقيت بعائلته؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

- وكيف كان اللقاء؟

- عرّفني بوالديه بطريقة رسمية للغاية. ذهبنا لشرب الشاي. هناك تأتي مدبرة المنزل بالشاي على عربة بعجلات، ثم تصبّه السيّدّة بنفسها في الفناجين.

- وكيف كان موقفهما منك؟

- لم أعرف بوضوح. كانا في منتهى الودّ، لكنني لا أعرف ما الذي يضمّرانه وراء ذلك الودّ. رأى أونو أنني وقعت من نفسيهما موقع الإعجاب. كان هو نفسه متوتّر الأعصاب وكأنه يزورهما لأول مرة. لم يتبيّن لي أنّ والدته ذات نجم متألّق، وكان والده مخيفاً بعض الشيء. لم يقلّ الشيء الكثير، كان في غاية اللطف، ولكن وراء ذلك اللطف يكمن شيء مختلف تماماً. عندما قلت ذلك لأونو في وقت لاحق، قال إنني رأيت فيه رجل سياسة. حسب رأيه

إنهم مقاتلون مبدّون في قتال الشوارع، بأدمغة هي عضلات في الواقع، أناس يعرفون كيف يصفون حساباتهم مع أعدائهم.

أضاف ماكس: «ثم قال إن هذه الصفة تميّزه هو أيضاً عن الآخرين، وإنه هو أيضاً يسحق أعداءه إلى آخر رجل فيهم».

وفكر في الطريقة التي صفى بها أونو حسابه مع بارت بورك في الحديقة العامة في هافانا. بدأت عيناه تحرقانه بعض الشيء. كان أونو قد سكن كيانه كله، لكنّه الأونو الذي لم يكن ليوجد له بعد الآن.

- جائز جداً. لا أتذكّر.

نظرت آدا في ساعة يدها. أرادت الذهاب إلى البيت، فأونو في انتظارها. أحست بوجودها في الحانة المكتظة، مثلما أحست في ظهيرة ذلك اليوم في لاهاي، وكأنها في نوع من الصور، التي يمكنك الطلب من أحد أن يلتقطها لك في ساحة الألعاب: وراء صورة ملصقة بالحجم الطبيعي تجسّد الملكة، بالتاج والعباءة المنسوجة من فراء القاقوم، ولكن وجهها مقصوص ويجب عليك أن تدخل وجهك في مكانه. شعرت بوجود شيء آخر في أعماقها - ليس في رحمها فحسب، وإنما في كيانه أيضاً. كانت في الوقت ذاته ما تزال هي نفسها، مثلما قال ماكس: إنها نفسها وليست نفسها، شخصيتها تحتوي على جزء من نفسها مثل شيء آخر، يشكّل مع ذلك نفسها تماماً، مثلما تكون مساهمتها على المسرح جزءاً لا يتجزأ من إيقاع الفرقة الموسيقية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

24. حفلة الزفاف

عندما وجد ماكس بطاقة الدعوة في صندوق بريده، التي يعلن فيها أونو ماتياس ياكوب كويست وآدا برونس عن نية زواجهما -متجاوزين الوالدين من الطرفين، الأمر الذي لا بدّ أنه نزل مثل الصاعقة في لاهاي على وجه الخصوص- استولى عليه شعورٌ عظيم بالاستسلام. كانت صنّارة الكذب ملقاةً في وجوده وستبقى عالقةً فيه إلى الأبد. انشطرت حياته إلى شطرين بما لا سبيل إلى إصلاحه: شطر أبيض حتى ذلك المساء في خليج البجع، وشطر أسود بعد ذلك المساء. لم يخطر في باله قطّ أن يحدث معه شيء من هذا القبيل - وها قد حدث الآن، ليس في هيئة مرضٍ أو حادث لا ذنب له فيه، بل بسبب ما اقترفت يداها: إنه نظير قاتل بمعنى معيّن، ولكنّ تأنيب الضمير يفضي إلى الشيء نفسه. كان في الماضي ينهض من النوم مثل بهلوان أرجوحة يسقط في الشبكة: يقف بجانب السرير بقفزة ارتدادية وينظر إلى النهار المترامي أمامه - أما الآن فيصدر صوتاً وكأنه يوشك أن يُفرغ ما في معدته ويفضّل البقاء تحت اللحاف، الذي ترقد تحته صاحبةً أيضاً بشكلٍ منتظم، ولكن أقل بكثير من السابق، فقد كانت هذه الشراهة هي السبب في كلّ شيء في نهاية الأمر. لقد تحوّلت النغمة الثلاثية المتألّفة، التي كان يشكّلها مع أونو وآدا، بصورة نهائية إلى نغمة نشاز صادرة عن موسيقار من مدرسة دارمشتات.

رأى أونو أنها لباقةٌ منه ألاّ يفضّل أن يكون شاهداً على زواجه، باعتباره صديق آدا السابق. - طبيعتك النبيلة تلقي ضوءاً ساراً على قدرتي على اختيار أصدقائي.

جاء يوم الزفاف، عيد ميلاد ماكس، بذكرى حزينّة عن الصيف: الريح ساكنة، والشمس مشرقة بخفوتٍ من سماء ذات زرقّة شاحبة لا غيوم فيها. في فترة ما بعد الظهر، سار ماكس من دون معطف إلى دار البلدية، المخفية في مركز المدينة بجانب قناة فرعية مثيرة للريبة تسكن

على طولها بنات الليل، بعد قيام الملكية بطرد البرجوازيين الجمهوريين من قصرهم البلدي الشامخ في ساحة الدام. لم يكن هناك مدخلٌ واضح؛ وحدهم سَكَّانُ أمستردام يستطيعون إيجاد البوابة الحجرية المكتنفة بالغموض المفضية إلى الفناء الداخلي. هنا يواصل الشعب الهولندي استمراره في الوجود على قدمٍ وساق: زحام مواكب الزفاف في جيئةٍ وذهاب، سيارات ليموزين سوداء بشرائط زينة بيضاء على مراياها الجانبية تنعطف إلى داخل البوابة وخارجها؛ في كلِّ الأرجاء برجوازيون صغار في معاطف رسمية مستأجرة، وأحذية بيّنة، وقمصان واسعة الياقة، وقبّعات أسطوانية رمادية اللون، لا يرتديها سوى الذين يحضرون سباقات الخيل أباً عن جدٍّ في بلدة أسكوت الإنكليزية، عرائس في الأبيض بياقات زهور، ترافقهن أحياناً وصيفات شرفٍ متعثّرات، يقفن أمام المصوِّرين، بينما تُلقى عليهن قبضاتٌ من الثَّار وسط ضحكٍ مجلجل. في كلِّ الأنحاء يقف الناس في مجموعات، فاستطاع بعد تفتيش سريع إيجاد مجموعة آدا وأونو.

كانت في الواقع مجموعتين، إحداهما تتكوّن ببالغ الوضوح من عائلته، التي يراها لأول مرة: عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً أنيق المظهر، تلبس السيّدات قبّعات وقلائد من اللؤلؤ، ويرفلن في كثير من الأحمر الفاقع والأزرق البحري المنقّط بالأبيض. يتسلّون بالنظر في ارتياب إلى الحدث الأمستردامي الشعبي. واحدٌ منهم شقيق أونو بما لا يدع مجالاً للشكّ، فهو بضخامته وثقله، وله الوجه نفسه، ولكن كلَّ شيءٍ محوّر في صيغة مهذّبة ومعدّلة. أما السيّد المسنّ الوقور، الأقصر بكثير، المنحني انحناءً طفيفاً، المرتدي قبّعة والمستند على عكازة، الذي يُخرج ساعةً من جيب صدرته وينظر فيها برهة قصيرة، فهو والده بطبيعة الحال؛ هذا واضح من الطريقة التي يحتشد بها الآخرون حوله. والدته امرأة قوية البنية، أطول من زوجها، شعرها أبيض وظهرها مستقيم. وصلت سيارة، خلع السائق قبّعته، وفتح بابها، فخرج منها شخصٌ لا شكّ في أنه واحد من آل كويست، وانضمَّ إليهم مع زوجته: إنه طبعاً شقيق أونو الأكبر ديدرك، مفوّض الملكة في المقاطعة. فجأة، رأى والدَي آدا أيضاً: يقفان غربيين نوعاً ما إلى جانبهم، ولكن دون أن يندمجا معهم، مثل حلقات من الدهن في الحساء. أما المجموعة الأخرى، الواقفة إلى جوارهم ولكن مع ذلك على مسافة منهم، فهي من الواضح جماعة المناضلين في اليسار الجديد: رجالٌ من عمره بوجوه ضاحكة، لكنهم مع ذلك قد يكونون مرتعبن بعض الشيء من القُرب الجسدي لأحد رموز هولندا القديمة، الممتدّة أصولها إلى القرن السادس عشر - هولندا القديمة التي يريدون إلغائها.

تردّد ماكس. إلى أيّ منهم يجب أن ينضمّ؟ لقد التقى بوالدي آدا مرّة واحدة فقط، ما عداهما لم يكن يعرف أيّ أحد - في حين لم يكن أحد على علاقة حميمة مع العروسين أكثر منه. أخذ يسير ببطء في اتجاههما، وعندما سمع شيئاً أثناء سيره عن «سلسلة المقاطع الهجائية القبرصية»، علم أنّ هناك مجموعة ثلاثة أيضاً؛ مكوّنة من زملاء أونو اللغويين. وهناك مجموعة رابعة كذلك - فقد رأى برونو فجأة، ثم مارايكا أيضاً؛ هناك يقف الموسيقيون. ألقى التحية على برونو، الذي لم يره منذ أن ودّع أحدهما الآخر في مطار هافانا.

سأله عازف البيانو بوجه خالٍ من التعبير: «هل ما تزال تفكّر في كوبا أحياناً؟».

- كلّ يوم.

- كنت أتمنّى أن تشيع آدا من أونو هناك، حتى أكون أنا العريس هنا، اليوم. الآن أنا شاهد على العقد.

قال ماكس: «أنا لست شاهداً حتى».

وناجى نفسه في الوقت ذاته: «تصوّر لو أنها نامت معه هو أيضاً!».

- هذا يومٌ أسود بالنسبة إلينا.

بعد برهة قصيرة، انعطف أونو إلى داخل البوّابة: على الدراجة الهوائية، آدا جالسة وراءه. انزلق وسط التصفيق من فوق المقعد بانتصار بهلوان في السيرك يقفز من فوق دراجته ذات العجلة الواحدة البالغة من العلو ثلاثة أمتار، وشكرهم على التصفيق بانحناءة من جذعه: «سامحونا لأننا تأخرنا قليلاً، ولكن كان علينا شراء زيّ العروس أول الأمر. ألا تبدو باهرة الجمال، التي ستصبح زوجتي؟!».

ارتدت آدا فستاناً بسيطاً أسود اللون، مع سترة من قماش ذهبيّ لامع، لا يلائم مقاسها تمام الملاءمة، لكنّه مع ذلك يمنحها مظهر جوهرة ثمينة. كان هو نفسه مرتدياً ملابسه المعتادة، ولكن بربطة عنق حمراء؛ حسب رأي ماكس، لم يكن قد غسل حتى شعره.

سألت مارايكا: «هل تسمحين لي؟!». وأمسكت ساعد آدا وانتزعت بطاقة السعر بأسنانها من الكُمّ.

أقفل أونو دراجته الهوائية ثم هتف: «بعد قليل سأقدّم بعضكم إلى بعض، الآن يجب إبرام عقد الزواج بسرعة البرق!».

كانت صالة الزواج المظلمة المكسوّة بألواح الخشب صغيرة على استيعاب المدعوين.

وقف ماكس في الجهة الخلفية ينظر إلى ظهري آدا وأونو. شاهد آدا هو والدها إضافة إلى برونو، أما شاهد أونو فامرأة هي أخته الصغرى في أغلب الظن وأحد أصدقائه السياسيين. أدى أحد رفاقه في الحزب، وهو عضو المجلس المحليّ للأشغال العامة، دور موظف السجل المدني في هذه المناسبة. أعلن أنه نزولاً عند طلب العريس لن يقرأ النصّ المعتاد، بل نصّ الجمهورية الباتافية^(٥)، الذي لم يُستخدم منذ عام 1806. أخذ رَقاً بَنِي اللون من فوق الطاولة، ألقي نظرة قصيرة من فوق نظارته نصف الدائرية إلى الشيخ الجليل المناهض للثورة الجالس في الصف الأول، وقرأ:

- المرسَم، على النحو الذي كان يُعمل به في حفلات الزواج في دار البلدية في أمستردام، منذ الثورة المجيدة في التاسع عشر من كانون الثاني عام 1795. أيها العريس وأيتها العروس! بما أننا نفترض أنكما لم تأخذا قراراً غير متروى فيه، بأن يقترن أحدكما بالآخر بمقاصد شريفة، واستجديتما مباركة هذا الاقتران منه، من الذي تدينان له بكل شيء، فلا نعترض نحن أيضاً، على تلبية مرادكما المشروع، وذلك بوضع الختم القانوني على إعلانكما الحب المتبادل والوعد بالإخلاص. ولكن قبل فعل ذلك، سوف نذكّر كما بإيجاز بالواجبات المترتبة عليكما. أخذ شيء من المرح يسري في الصالة. حاول المتمردون الديمقراطيون الاشتراكيون قراءة شيء على وجه كويست، لكن وجهه بقي جامداً جمود الحجر؛ كما أنّ مفوض الملكة، والمدعي العام، والبروفيسور في القانون الجنائي، الذين يعرفونهم من الوجه بطبيعة الحال، لم يُظهروا أي علامة تدل على الحياة. بعد أن حثهم عضو المجلس البلدي بروح وطنية على الاجتهاد، والصدق، وحسن السلوك، والتواضع، والطاعة والاعتدال، وحذّره من التساهل مع أولادهم الذي يأتي بالفساد الأخلاقي، سأل:

- أيها العريس! هل تقبل بعروسك، الحاضرة هنا، زوجاً لك؟!

ألقي أونو رأسه إلى الوراء وهتف ببالغ التأثر: «نعم، أقبل!».

لم يضحك جميع من في الصالة، ولكن معظمهم. وجد عضو المجلس المحليّ أيضاً صعوبة في مواصلة النظر بجمود.

- أيتها العروس! هل تقبلين بعريسك، الحاضر هنا، زوجاً لك؟!

(٥) الجمهورية الباتافية: هي الدولة الخلف لجمهورية البلدان السبعة المنخفضة (أقاليم هولندا المتحدة)، نشأت في عام 1795، وانتهت بانضمام لويس الأول إلى عرش المملكة الهولندية في عام 1806. [م]

أجابت آدا بصوت هادئ: «نعم، أقبل!».

انطوى صوتها على شيء جعل الجميع يلزم الصمت. جالت شهقة بكاء مفاجئة في حلق ماكس؛ صُعب عليه التحكّم بنفسه، فضّل الخروج من الصالة، ولكنّ ذلك غير ممكن بطبيعة الحال. أمسكت آدا وأونو أحدهما باليد اليمنى للآخر، وبينما يقفان في هذه الوضعية، واصلت اللغة من الماضي الثوري:

- إذاً هل تقرّان الآن، في حضور الربّ العليم بكلّ شيء، وعلى مسمع من المواطنين المجتمعين هنا، بأنّ أحدكما قبل بالآخر زوجاً له، وبأنكما ستعيشان معاً، تحت طائلة الواجبات التي عُرضت عليكما، إلى أن يفرّق الموت أحدكما عن الآخر؟

- أجل.

- أجل.

- فليكن الربّ، الذي هو الحبّ نفسه، في عونكما على الوفاء بالوعد؛ فليحفظكما من التعاسة المنزلية؛ فليتوجّ ارتباطكما الزوجي بأعظم بركاته؛ فليكن معكما في ظروف حياتكما كلّها!

رفع عضو المجلس المحليّ عينيه عن الوثيقة، أخذ نظّارته من فوق أنفه، وقال:

- فكّروا بالفقراء!

فهمس أحد أصدقاء أونو السياسيين: «رائع. فكّروا بالعالم الثالث!».

أما ماكس فقد غمرته العواطف: أليس هو الفقير الذي يجب أن يكون موضع التفكير؟ ولكن لا أحد يفكّر فيه، لا يجوز التفكير فيه، باستثناء آدا ربما. رأى كيف يسحب أونو خاتم الزواج على إصبعها؛ عندما انتظر عضو المجلس البلدي أن تسحب آدا الخاتم على إصبعه، قال بخشونة: «الرجال لا يلبسون خواتم».

وضع كلّ منهما توقيعاً على العقد، وبعد الانتهاء من الإجراءات الرسمية صافحهما عضو المجلس البلدي، بعد ذلك سُنحت الفرصة للمدعوّين لتقديم التهاني. انتظر ماكس إلى أن انتهى الازدحام الأول. قبل آدا من خدّها ثلاث مرّات دون قول شيء. عندما صافح أونو، أدرك أنّ هذه هي المرّة الثانية التي يصافحه فيها: كانت المرّة الأولى في سيارته، في الليلة الأولى تلك، عندما كانا يعبران من جانب لايدن وقدم أحدهما نفسه إلى الآخر. كانت يده بيضاء ودافئة وجافّة.

- تهانينا يا أونو!

- شكراً يا ماكس، ومبارك عيد ميلادك!

- شكراً. كيف تشعر؟

- عاقد العزم. سأصبح أكثر أرباب الأسر رجعيةً وتعصباً. كلّه ذنبك!

*

في المساء ستُعَدُّ مأدبة عشاء للأصدقاء المقربين، ولكن قبل ذلك الجميع مرحّب به في مقهى بجانب دار البلدية، حُجزت فيه الطاولات وجُهّزت الشمبانيا. هناك أيضاً لم تختلط المجموعات. التصق الموسيقيون بعضهم مع بعض، والعلماء أيضاً، في حين تجاهل السياسيون الطاولات وتسلّقوا مقاعد البار حيث طلبوا بيرة؛ جلست آدا مع والديها اللذين انفصلا عن آل كويست. عندما رأى أونو ماكس، اصطحبه إلى الزاوية في الجهة الخلفية التي عَشّشت فيها عائلته: «يجب أن ترى أخيراً ما ابتلاني به القدر».

عندما بلغا طاولتهم، أشار بسبّابته إليه، مثل بائع في المزاد العلني، وقال: «هذا صديقي ماكس ديلوس!».

قالت سيّدة تناهز الخمسين، تبين بعد برهة قصيرة أنها أخته الكبرى، المتزوجة من المدّعي العام: «أوه، هذا أنت!».

كانت هي أيضاً على جانب من الضخامة والمهابة، يبدو أنه مستوطن في هذه العائلة؛ ينطوي وجهها على شيء من الخشونة، شيء ذكوري، بعث الرعب في نفسه بعض الشيء.

قال أونو بانزعاج: «نعم يا ترييس، هذا هو. لا تحتاجين سوى لوضع منظار الأوبرا الخاص بك أمام عينيك!».

لم يمنح ماكس الفرصة لمصافحتها، فقد أشار إلى والديه، ثم أخويه وزوجتيهما، فأخذه الصغرى وزوجها. دعاها دول، وهي الوحيدة التي قال كلمة طيبة في حقّها. بعد ذلك ترك ماكس وحده معهم.

كان الجوّ مشحوناً إلى حدّ ما. الطريقة الأمستردامية التي حدث بها كلّ شيء، العروسان على الدراجة الهوائية، الاستقبال في الحانة، الفنانون وأصحاب الفكر الحرّ والرايات الحمر في كلّ الأرجاء، لا أثر لقسّيس في أيّ مكان، وقبل قليل التحريض بوثيقة ثورية من الزمن الفرنسي، والآن يُفرض عليهم ابنُ مجرم حربٍ من زمن الاحتلال الألماني - امتعاضهم ليس

بالشيء غير المفهوم. مثل هذه الأشياء لا تحدث في لاهاي. كل مَنْ على هذه الطاولة يعرف مَنْ كان والده بطبيعة الحال، وبالتالي يعرف أيضاً مَنْ كانت والدته. الناس هنا يعرفون كل شيء - باستثناء مَنْ يكون هو نفسه.

قدّم مينو، شقيق أونو، البروفيسور في القانون في جامعة خرونيغن، الذي يكبره بنحو عشر سنوات، كرسيّاً له، بابتسامة لطيفة، وعندما جلس معهم شعر بثقل هذه العائلة. لم يكن له أحدٌ في هذه الدنيا، كانت العائلة بالنسبة إليه شيئاً من الماضي البعيد، ولكن هنا تجتمع سلطة، جعلته يفهم أونو على نحو أفضل. هذه السلطة هي التي يقاوم أونو ضدها، ولكن بقوة هذه العائلة نفسها، التي يشكّل جزءاً لا يتجزأ منها.

سأله ديدرك، مفوض الملكة في المقاطعة، بينما يصالب ذراعيه على صدره ويستند إلى ظهر المقعد: «قل لي يا سيّد ديليوس، هل ثقّفتك مراسم الزفاف؟».

إنّه في أوائل الخمسينيات؛ أما زوجته أنطونيا، وهي أيضاً سيّدة مخيفة إلى حدٍّ ما، فتناهر السّتين من العمر كما يبدو، وتكاد تكون في عمر جدّة آدا.

أدرك ماكس بارتياح أنّ مرحلة من المواردية والسريّة قد بدأت مرّة أخرى - كيف يمكنه أن يكون نفسه ببساطة، دون التفكير بشيء لا يستطيع قوله عند كلّ ما يقول؟

- بدا لي أنّ ذلك النّص من الجمهورية الباتافية هو من بنات أفكار أونو. لا سيّما إذا أخذت الوضع السياسي الحالي بعين الاعتبار.

قال المدّعي العام: «الأمر الوحيد هو أنّ ذلك الزواج بمثل تلك الطريقة غير قانوني إطلاقاً». كان ممثلاً ومتفخاً بعض الشيء، بشعرٍ خفيف سبط، وعينين زرقاوين حاذقتين. أضاف: «في أغلب الظنّ سيضطرّ عضو المجلس البلدي إلى الاستقالة من منصبه».

فقالت دول: «لا تكن سخيّاً يا كون، لا تجعل من نفسك أضحوكة!»

إنّها لا تشبه أختها النحيلة بارزة العظام ترييس في شيء، رهيفة القامة، وجهها جذاب ومنفتح؛ من الواضح أنّ جدّة مهذّبة من جدّاتها قد عادت إلى الظهور في شخصها حسب قانون مندل في الوراثة. فهم ماكس في الحال لماذا هي أخت أونو المفضّلة.

زمجر كون: «سوف يستقيل، سوف يستقيل!».

اقترح زوج دول، المدعو كارل، وهو جراح دماغ في مستشفى من مستشفيات روتردام، حسبما سمع ماكس من أونو: «ما رأيك في أخذ كأسٍ أخرى من الشمبانيا؟!».

هو أيضاً يختلف عن الآخرين، بملامحه الدقيقة الحادة، التي تضيء عليه مظهر عالم شيطاني من عائلة فرانكنشتاين، مهووس بتدمير العالم، رغم أن هذا ليس بالشيء الذي يريده. ردد كون مرة أخرى: «سوف يستقيل».

ما جعل مارخو زوجة مينو، تنفجر بالضحك، وتقول: «هنا يشبه مجلس الدم^(*)». سألته ترييس: «هل أنت أيضاً متهور يساري مثل أونو، يا سيد ديليوس؟ لست مثله حتماً، أليس كذلك؟ إنك كما أمل تؤثر عليه تأثيراً إيجابياً، أليس كذلك؟!». فأجاب: «طبعاً. بالنسبة إليّ لا توجد سوى الأشياء السامية. أنا عالم فلك». انحنى والدته أونو إلى الأمام: «حقاً؟ هذا يعني أنك تستطيع التنبؤ بالمستقبل!». فقال لها كويست: «اسكتي يا تو!».

قال ماكس: «بالتأكيد، في عددٍ من النواحي على الأقل. مثلاً، متى سيحدث كسوف الشمس مرة أخرى. ولكن من نواحٍ أخرى لا أستطيع».

- ومن أيّ نواحٍ لا تستطيع؟

- على سبيل المثال، إذا كانت ستصلك رسالة مفادها أنك ستذهبن في رحلة طويلة.

- شيء مؤسف.

- ها أنت ذي تقولين.

فقالت السيّد كويست بهيئة حاملة وهي تنظر إلى زوجها: «أتمنّى الذهاب ذات مرة إلى جزر غالاباغوس، يبدو أن لديهم هناك حيوانات غريبة من شتّى الأصناف. هل تذكر تلك السلاحف المائية في سورينام يا هينك؟!».

أحنى كويست رأسه بالإيجاب: «كان ذلك في ألفٍ وتسعمئة وسبعة وعشرين».

- كانت قد أضاعت طريقها تماماً. وضعت بيوضها على الشاطئ، ولم تعد بعد ذلك إلى البحر، بل أخذت توغل في اليابسة، فأخذ صبيانٌ صغار من الزوج يضعونها في السلال. نظر ماكس إليها؛ لها أنف أونو المستقيم التقليدي. تركته يتجول بفساتين وردية اللون

(*) مجلس الدم هو الاسم الذي أطلقه الناس على «مجلس الاضطرابات»: محكمة خاصة تشكّلت في بداية حرب الثمانين عاماً ضد الإسبان في القرن السادس عشر، وأصدرت أحكام الإعدام بحق عدد كبير من المتمردين والهرطقة. [م]

وشعر معقوص طويل حتى الرابعة من عمره. حفيد من سيكون الطفل القادم؟ حفيدها، أم حفيد امرأة يهودية أعدمتم خنقاً بالغاز في أوشفيتز؟ وهو، وزير الدولة؟ أسيكون حفيده أم حفيد مجرم حرب نُفذ فيه حكم الإعدام؟

*

في مطعم صغير تحت الأرض في شارع برينسن خراخت، كان أونو قد حجزه، تناولوا فخذ الأرنب البري مع ملفوف أحمر وشربوا نبيذ برغونيه. أرسل أفراد العائلة كلهم إلى البيت، وبقيت مجموعة مختارة مكونة بشكلٍ أساسي من السياسيين، والموسيقين، واللغويين، وعالم فلكي واحد. ألقوا الخطب الكوميدية على المائدة وشربوا نخب العروسين، الأمر الذي تقبله أونو بافتخار واعتداد بالنفس، بينما يطوق كتفي آدا النحيفتين الذهبيتين بذراعه الجبارة. عندما لمع أحدهم إلى أبوته الوشيكة، هتف: «إنني متزوج من ابنة جدّة طفلي».

- أنظن أنّ هذا شيء مميّز؟

- ألا تسمع هذا من كلامي؟

التقت نظرة ماكس بنظرة استفسار بضع مرّات: أليس عليه قول كلمة باعتباره صديقه الحميم؟ لكنّه أوماً إيماءة رافضة خفيفة بيده وهزّ رأسه. عليه التزام الصمت. فلو أخذت الأمور منحى خاطئاً، ل زاد كلّ ما قد يقوله الطين بلّة. لعلّ صمته يُفهم على أنّه دليلٌ على ذوقه الرفيع، لأنّ العروس كانت صديقه سابقاً، أو دليلٌ على امتعاضه من أنّه هو نفسه ليس العريس - ليس أمامه إلا تحمّل هذا.

حتى بعد احتساء القهوة استمرّت المشروبات في التدفق، غيرّ الناس أماكنهم واختلطوا أخيراً بعضهم مع بعض. أظهر اللغويون رهيفو البنية والسياسيون ناتتو العظام أنهم هم أيضاً يعرفون شيئاً عن الموسيقى، وأظهر الموسيقيون رقيقو القوام أنهم لا يعرفون شيئاً عن اللغة ولا يلقون بالآ إلى السياسة؛ أكّد السياسيون للغويين أنهم هم «اللغويون» الحقيقيون في واقع الأمر، لأنهم لا يعملون سوى بالكلمات، ولذلك لا يتبقّى للغويين شيء إذا أخذ هذا بعين الاعتبار. ماذا يفعلون هنا في الواقع؟ لقد توصّل أونو أيضاً إلى هذه النتيجة في نهاية الأمر! ما حدا باللغويين للاستفسار عمّا إذا كانوا قد حدّدوا موقفهم من مشكلة «فائض الروث»^(٥)،

(٥) مشكلة نتجت عن تربية المواشي بكثافة في المزارع الصناعية. [م]

وبينما يعلو المزاج، وتزداد قوة الصوت، ويغني أحدهم في مكان ما بصوت جهوري «استيقظوا أيها المنبذون في الأرض!»، ويهتف بأنها أجمل من أغنية «ملك العفاريت» لشوبرت، وجد ماكس الفرصة لأول مرة كي يتبادل مع آدا بضع كلمات. كان قد رأى أنها لا تشرب سوى الماء.

قالت عندما سألتها كيف تشعر: «على ما يرام. وأنت؟!».

- أشعر شعور شخصٍ داس على لغمٍ أرضي وسمع «طق»: يعلم أنه سيتلاشى في الهواء إذا خطا خطوة واحدة.

- انتظر بهدوءٍ إذا! ما الجدوى في أن تؤثر أعصابك هذا التوتر كله؟ احتمال أن تصير الأمور على ما يرام، كبيرٌ بالقدر نفسه.

- ولكن يا آدا، ذلك الزواج، هؤلاء الناس كلهم، هذه الحفلة هنا - بينما لا يعرف أحدٌ سواي وسواك أن هذا كله قد يكون كذبة، خداعاً، هراءً، وغشاً. كيف تستطيعين العيش مع هذا؟!

- أنا أعيش مع طفلي.

- عندما أفكر في أونو...

- اصمت، إنه قادم!

نظر إليه أونو من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وفي يده كأس مترعة بالروم بكمولاً، وقال: «عندما أرى مظهرك الباعث على الشفقة، أتذكر ذلك الزمن الفظيع عندما كنتُ أنا نفسي لا أزال أعزب. يا له من كابوس! في مخيلتي تظهر طبيعةٌ مقفرةٌ فيها شجرةٌ عارية واحدة في الريح العاتية، حيث يصارعها حاجٌ وحيد منحني الظهر بأسمالٍ بالية، وعكازة طويلة، وهو يشق طريقه صوب نهايته الشنيعة. والآن، انظر إليّ!» - ونفخ صدره - «لقد بلغتُ أسمى مكانة في الإنجازات الإنسانية: الزواج! لحمي يعبق بشذى ورد شارون، لأنني متزوج! أنا بين الأبناء، مثل الزنبق بين الأشواك. شفتاي تقطران الشهد، براعمي جثة من الرمان، لأنني متزوج! أنا روضة محاطة بالأسوار، نافورة محكمة الإغلاق!».

ومد ذراعه صوب آدا وقد ألهمه الصمت السائد وهتف: «شاهد! جميلةٌ أنت يا عروسي! عيناك الشمس التي تشرق على الصيادين الشاحبين وهم يخرجون من المدينة على دراجاتهم الهوائية بالديدان! صوتك شدو الطيور الأولى على مزاريب السطوح! شعرك لامعٌ لمعان

الزيت المتلألئ في ضوء الصباح الباكر النقيّ على أرض الشارع التي وقفت عليها السيارات! أسنانك مثل الحليب الذي يشربه تلاميذ المدرسة في الاستراحة، شفتاك مثل بركة الدم القرمزي التي تذكّر في استراحة الظهر بالسيدة التي دهستها إحدى السيارات! جميلة أنت في إجمالك يا صديقتي! ضحكتك مثل رنين الصفّارة الذهبية في آذان فتيات المصنع! ثدياك منيران مثل أول لافتتين مضئتين، غير مرئيتين في الغسق! سرّتك الحريق البرتقالي للشمس الغاربة في نوافذ المتاجر الكبيرة! بطنك متوارٍ مثل واجهة العرض وراء الدرفة الفولاذية، التي يُسدّلها الجواهري على كنوزه الثمينة بعد الساعة السادسة، مفرقةً حتى الأرض! هبّي، أيتها الريح الجنوبية، وتعالِي! أنت مثل الهزيع الأخير من المساء، عندما تهتف الممثلة في رداها الروماني: أنت أيها الشقي البائس! ويلك، ألم تسمع مرّة واحدة من تكون! ونومك... ما أدراني؟! نومك استيقاظ صبيّ صغير ينزل عليه الجنون في نعيق!«.

وضع كأسه على فمه مستنزف القوى. وبينما يتعالى التصفيق الذي كافأه به الحاضرون، أحسّ ماكس برغبة في الصلاة لأن يكون الطفل طفل أونو - ولكن ذلك لم يكن ليعود بأيّ نفع، فقد تقرّر طفل من يكون. حتى لو كان الربّ موجوداً، لما استطاع تغيير الوضع.

25. المرأة

في منتصف شباط، مضت سنة على لقائهما الأول، ولكنّ أُونو كان مشغولاً بالسياسة إلى درجة أنه لم يتذكّر الأمر، ولم يذكره ماكس به. كان شتاءً متقلب الطقس - في تشيكوسلوفاكيا حلّ «ربيع براغ» في وقتٍ مبكر - تتخلّله بضعة أيام شديدة البرودة بصورة مفاجئة. كان الخطر المقترّب يختفي من ذهنه بضع ساعات في بعض الأحيان، لكنّه يعود إلى الظهور أمام عينيه بصورة مفاجئة، مثلما تظهر صخرةٌ من الضباب. أثناء عمله أيضاً يجد نفسه في بعض الأحيان قد شرد بأفكاره عن الأوراق على مكتبه وأخذ يحذّق في عقارب الثواني في ساعة يده، التي تدور بوّابات لا هودة فيها، لكنّها تتقدّم في الواقع على طول خطّ مستقيم يمكن أن يكون لانهائياً، إلى أن يحلّ يومٌ من أيام الصيف ويحدث فيه ذلك الحدث.

قالت له آدا: «انتظر بهدوء إذا». فكّر في التشبيه الذي خطر في باله أثناء مادبة الزفاف: أنه يقف على لغمٍ أرضيّ منزوع الفتيل. تصوّر جندياً أميركياً، في مهمّة استطلاعية في غابات فيتنام. «طق». يقف ساكناً سكون الأموات. سيمرّق عند الخطوة التالية إلى أشلاء. ماذا عليه أن يفعل؟ لقد ضيّع دوريته العسكرية وليس هناك جدوى من الصراخ وسط ما يصمُّ الأذان من زعيق القروذ والبيغاوات وطيور الكوكاتو. ليس بوسعه إطلاق رصاصة أيضاً، لأنّ الارتداد سيشعل فتيل اللغم. يشعر بالموت تحت قدميه المغطّاتين بطبقة رقيقة من التراب: طنجرة ضغط مسطّحة من الحديد، مصنوعة بأيدي نساء في مكانٍ ما في الصين أو الاتحاد السوفييتي. يجب عليه التفكير جيّداً - ولكن ليس هناك ما يفكّر فيه. يجب عليه الانتظار. لعلّ شخصاً يراه مصادفة، فليأمل ألا يكون جندياً من جنود الفيت كونغ: أميركي لا يستطيع الحراك في الغابة الاستوائية. يفكّر في حياته التي توقّفت بصورة مفاجئة مثل فيلم علق في جهاز عرض سينمائي. من أجل ماذا كان يؤدي واجبه على الدوام؟ كلّ شيء حوله يتحرّك، أما هو فقد

تحوّل إلى تمثال من جلي. آي^(*)، مدجج بالسلاح، بخوذة وحقيبة عتاد. رأسه لا يزال يتحرك، صدره يعلو ويهبط، في جسده ينبض قلبه وتعمل أمعاؤه، ولكنّ موته يتوقّف على وزن هذه الأشياء كلّها. لا تواتيه الجرأة على رمي أيّ شيء منها، لأنّ ذلك سيغيّر من وزنه؛ لا يستطيع الوصول إلى زمزميته أيضاً من دون مخاطرة. تمرّ ساعة بعد ساعة. بينما العرق يتصبّب منه، والحشرات تخزه، ويشعر بلسانه سميكاً وجافاً مثل لقمة من الدقيق، يفكّر في صديقه، في البيت في أوكلاند، على الخليج - يحلّ الليل دون تدرّج يُذكر، ترتعش قدماه ارتعاشاً طفيفاً من شدّة الإرهاق. إذا خرّت ركبتاه، أو إذا أخذه النوم، فستكون نهايته. أيجب عليه توجيه مسدّسه الرشاش إلى نفسه، أم لا يزال هناك أمل؟ هل يمكن أن يكون قد أخطأ التقدير؟ هل يمكن أن يكون ما سمعه صوت تزواج خنفس عملاق أو آخر؟ هل يمكن ألا يكون واقفاً على لغم أرضي إطلاقاً ويجب عليه مواصلة السير ببساطة؟

*

لقد نسي ماكس أيضاً أنّ السابع والعشرين من شباط هو يوم إخصابهما المتزامن. قال أونو على الهاتف: «يجب علينا الاحتفال بهذا اليوم، ثم إنني في حاجة إلى الابتعاد قليلاً والتحدّث مع شخص طبيعي».

- هل تقصّدي أنا؟

- ما قد لاحظت مدى التشوّه الذي بلغته.

- أين نحتفل؟

- ما رأيك في الرايخستاغ في برلين؟ أم لديك فكرة أفضل؟

فقال ماكس وهو ينظر في مفكرته: «ليست هناك فكرة أفضل منها. الأمر الوحيد هو أنني سأكون طوال ذلك الثلاثاء في دفنغلو. ما رأيك في المجيء بالقطار إلى دريتته؟ سأتي لأخذك من محطة فايستر وسوف أطلعك على عملنا، كي تجعل نفسك محبوباً بتقديم دعم ماليّ كبير عندما تستلم السلطة».

- على النقيض، يجب تخفيض الدعم بصورة جذرية. مرايا، مرايا، ثم مرايا؛ أنتم مثل الجيش تماماً. وما الفائدة الاجتماعية من هذه المرايا كلّها؟!

- لا فائدة، حمداً للربّ!

(*) GI: لقب الجندي الأميركي. [م]

- سأجعلهم يحسبون لي كم روضة أطفال يمكن بناؤها بسعر مرآة واحدة.

فقال ماكس وقد عاوده الارتباك على الفور من المعنى المزدوج الذي تتضمنه هذه الملاحظة: «إذا، ستضطرّ للتكفل بمزيد من الأطفال!».

- أرى أنها ليست أكثر من مرايا مشوّهة، وأنكم تمسكون بخواصركم طوال الوقت من شدة الضحك على هذه السلطة الغبية.

- أرجوك ألا تخبر أحداً بهذا الأمر. تعال يوم الثلاثاء لترى بأّم عينك، ستموت من الضحك! إذا أردت، استطعت قضاء الليلة في دار الضيافة، وسنعود معاً بالسيارة في صباح اليوم التالي.

- اتفقنا. لا تمنع طبعاً أن أصطحب آدا؟ لم أعد أراها تقريباً؛ إذا استمرّ الوضع على هذا المنوال، تحطم زواجي أيضاً على صخرة الواقع. لا أرى حولي غير هذا الأمر.

- أهلاً وسهلاً بكم أنتم الثلاثة!

*

بقي الطقس حارّاً حرارةً غير طبيعية طوال الأسبوع. بعد ظهر ذلك اليوم، عندما كان ماكس ينتظر وحده على الرصيف المفتوح في محطة الريف، بدا الجوّ خائفاً والريح ساكنة، السماء غائمة ويبدو أنّ عاصفةً رعديّة على وشك الهبوب. مرّ الإصبع الوسطى من أصابع يده اليمنى على بقعة الصلع الصغيرة في مؤخرة رأسه، التي اكتشفها قبل بضعة أسابيع، ما بعث الرعب في نفسه. إنّها ذات شكل بيضوي، يبلغ محورها الأطول ستيمتراً واحداً، ولا تُرى تحت شعره؛ لم يتركه الخوف الذي تولّاه من الصلع المفاجئ على مدى أيام طويلة، ولكن عندما لم تكبر البقعة، تضاعف خوفه بصورة تدريجية.

أخذ ينظر إلى القطار القصير المقرب بهوادة. يرقّة صفراء. في داخله يجلس أغلى ما لديه في الدنيا وأكثر ما يهدّده. عندما مدّ أُنو يده إلى آدا ليساعدها في النزول من القطار، حاملاً في يده الأخرى حقيبة سفر، رأى ماكس لأول مرة أنّ بطنها قد كبر. كانت ترتدي فستاناً أسود طويلاً إلى الكاحلين، محلّى عند الياقة العالية والكمّمين الطويلين بشرائط من الدانتيل الأبيض - لقد تضخّم أسفل خاصرتها، الأمر الذي غيرّ مركز ثقلها، لذلك تميل إلى الخلف بعض الشيء.

نظر أُنو حوله باستهجان: «تظنّ إذاً أنك تستطيع في هذا الكوكب معاينة أعماق الكون!».

وعقف يده خلف أذنه وأخذ يرهف السمع: «لا أسمع صدى ذلك الانفجار العظيم الذي تحدث عنه إطلاقاً. لا أسمع سوى خوار الأبقار شديدة الغباء في البُعد، التي حان وقت حلها».

قال ماكس: «إنك مرهف السمع».

كان سقف سيارته مفتوحاً وثمة صبيانٌ صغار ينحنون على لوحة العدادات ليروا مدى السرعة التي تستطيع السير بها. نظراً للظروف المتغيرة، اضطرّ أونو هذه المرة لإقحام نفسه بشكل جانبي في المساحة الضيقة وراء المقعدين الأماميين. خرجوا من القرية عبر الطريق الإقليمي السريع المحفوف بأشجار الدردار الباسقة؛ كانت السماء متماثلة الرمادية، مثل القصدير، مترامية فوق تناوبات الحقول مع الغابات. أشار ماكس إلى الأحجار الضالّة الكبيرة، المنحدرة من العصر الجليدي، المكدّسة على شكل أهرامات صغيرة عند مدخل كلّ مزرعة من المزارع. قال إنها تصعد من تلقاء نفسها من أعماق الأرض إلى السطح، فيصطدم المزارعون بها أثناء الحرّاة.

سأل أونو: «هل أفهم جيّداً أنّ الأحجار هنا تسقط إلى الأعلى؟».

- لا تعود تسقط إلى الأعلى، إذا وصلت إلى السطح.

هتف أونو بشيء من العطف الأبويّ في صوته: «آه، يا أمّنا الأرض!».

أراد ماكس إخبارهم عن سماعه ذات مرّة أنه يحدث في بعض الأحيان أن تخرج رصاصة من ظهور المحاربين القدامى فجأة بعد عشرين سنة - لكن لم يعد بوسعه التكلّم بمثل هذه الطريقة اللعوب مع أونو. العائق موجودٌ إلى جواره مباشرة، تحت ذلك التقوّس الأسود. ألقى نظرة على مرآته، فرأى فيها أونو ينظر حوله بشعره المتطاير، مستمتعاً بالرحلة على ما يبدو. وراءه، في المرأة أيضاً، تسير السيارة بهم إلى الوراء، على الجانب الخاطئ من الطريق: نعم، لقد أصبحت علاقتهما على هذا النحو.

مرّوا من جوار منازل العاملين في الحقول، ثمّة أحجار غرائب ضالّة قد تكدّست أيضاً في حدائقها الأمامية الصغيرة، ساروا عبر إحدى القرى، وبلغوا بعد بضع مئات من الأمتار طريق غابة ظهرت عليها لوحاتٌ تمنع مرور العربات المزوّدة بمحرّكات. شرح ماكس أنّ هذا له علاقة بموجات الراديو التي ترسلها شموع الإشعال، فالتسكوب يبلغ من الحساسية أنّ إشارة متناهية الصغر من هذا النوع تشوّش على الاستقبال.

سألته آدا: «وشموع الإشعال الخاصة بك؟».

- إنها معزولة.

قال أونو: «يمكنك الاعتقاد إذا أنك اكتشفت سديماً حلزونياً جديداً، بينما لا يكون هناك شيء سوى دخول درّاجة نارية إلى الموقع».

أوما ماكس إيماءة ارتياح بيده وقال: «حسناً. هذا ممكن. أمل ألا تكون معك ماكينة حلاقة كهربائية!».

واصل أونو: «ليس من المستبعد إذاً، أنكم أنتم علماء الفلك الراديوي ما تعتبرونه الكون، ليس سوى حركة مرور في الجوار».

لم يتمالك ماكس نفسه من الضحك: «الرب أعلم!».

- ها أنت ذا تقول! الأرض مسطّحة والنجوم ثقبٌ صغيرة في القبة الزرقاء يشرق من خلالها ضوء السماء السابعة، مسكن الأبرار. وكلّ مَنْ يدّعي خلاف هذا، مثلك، يضع نفسه في موقف شائك.

لاح جزءٌ من المرأة فوق الأشجار بصورة مفاجئة: هيكل عملاق قطره خمسة وعشرون متراً، قطعٌ مكافئ شفاف من الفولاذ الرمادي، يشكّل في المحيط الريفي نشاراً مثل لعنة في خطبة دينية.

قال أونو: «إنها ليست عيناً على الإطلاق. إنها أذن».

أطفاً ماكس محرّك سيارته بالقرب من مجموعة من مباني الخدمة منخفضة الارتفاع، فخيّم عليهم صمّتٌ جامح، زادته الطيور في الغابة عمقاً؛ هفّت من الجانب الآخر، المفتوح قليلاً، رائحة المرج.

خرجت آدا من السيارة، استنشقت الهواء بعمق، ونظرت حولها: «يا لروعة هذا المكان!».

قال أونو وهو يشعل سيجارة ويأخذ منها نفساً عميقاً: «نعم، إنها روعة البلادة. الطبيعة هي نوم العقل. في المدينة وحدها يصحو العقل من غفلته».

- ومع ذلك يسرّني العيش هنا، وليكن بشيء أقلّ من العقل.

- يا للعار! الطبيعة من أجل الأطفال.

- هذا ما أقصده.

كان أونو أيضاً قد خرج من السيارة متأوهاً، فطبع قبلةً على خدّها: «أنت جوهرة، لكنك ترتكبين خطأ فادحاً. يجب أن تصبح ابنتنا طفلة مدنية حقيقية من أجل سلامتها الخاصة. تستطيعين رؤية هذا على أولئك الأطفال جميعهم من الريف: يذهبون سرّاً إلى أمستردام وهم في الرابعة عشرة من العمر ويقعون ضحية الأحابيل في الحال. إنهم يعرفون أي نوع من الفطريات سامّ، ويعرفون أنهم يجب ألا يمشوا بأقدام حافية عبر الأعشاب الطويلة، ولكن ليست لديهم أي فكرة عن أفاعي المدينة. فإذا كبروا في المدينة، عرفوا على وجه الدقة ما يجب عليهم الحذر منه. وصدّقني، سيصبح الوضع في أمستردام بعد أربع عشرة سنة أشدّ خطورة مما هو عليه الآن، لأنّ كلّ شيء يزداد سوءاً يوماً بعد يوم».

ثم سأل ماكس: «هل تستطيع العيش هنا؟ أليس من المؤكّد أنهم لم يبتكروا أي شيء في الريف حتى اليوم؟ ألا تفكر أنت أيضاً في لايدن بما ستجرّبه هنا؟».

استمع إليه ماكس بياس. ما قاله عن تلك «الابنة» لعبة بطبيعة الحال، ولكن يبدو أنه فكّر مثل أبٍ حقيقي في أفضل محيط ينشأ فيه طفل آدا.

- أن أعيش هنا لمجرّد العيش؟ أفضل التخلّي عن علم الفلك على العيش هنا. سأشعر بأنني مجرّم منفيّ. لن تسمعي أقول كلمة سيئة بحق دريته، لكنها سيبيّرنا هولندا بطبيعة الحال.

ونظر إلى السماء: «أظن أنني سأغلق سقف السيارة».

سحب السقف بمساعدة أونو، وبعد تثبيت المقابض وأزرار الكبس، اصطحبهما إلى دار الضيافة، حيث كان قد طلب من الناظر حجز غرفة نوم لهما. في غرفة الجلوس المشتركة، المفروشة بكراسي من الخيزران وكنبات من الخشب المعاكس، عرّفهما بزميل شابّ من سيدني، سمين جداً بالنسبة إلى عمره ويعمل على طاولة الطعام. أخبرهما ماكس بالإنكليزية أنه قادمٌ إلى هنا كي يدمج البيانات الأسترالية عن توزيع الهيدروجين المحايد في مجرّة درب التبانة مع بيانات النصف الشمالي من الكرة الأرضية، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى خريطة كاملة: «شيء من هذا القبيل». وأشار إلى إحدى الأوراق، التي يظهر فيها رسمٌ بياني شَبَّه أونو باختبار رورشاخ^(*)، أما آدا فقد شَبَّهته بمظهر دماغ من الأسفل.

(*) اختبارٌ تُسجّل فيه تصوّرات الأشخاص عن بقع من الحبر، ثم تحليلها باستخدام التفسير النفسي، أو الخوارزميات المُعقّدة، أو كليهما. [م]

فسألها أونو: «ماذا تعرفين عن الأدمغة؟ هذا اختصاصي!».

- رأيت صورة منه في إحدى المرات.

بعد إخراجهما لملابسهما من الحقيبة في غرفة النوم، ذهبا إلى القاعة ذات السقف المنخفض في المبنى الرئيسي، حيث كان علماء الفلك، والاختصاصيون الفنيون، والموظفون الإداريون، والطلاب الذين يعملون إلى جانب دراستهم، قد تجمّعوا حول عربة محمّلة بالشاي والكعك. بعضهم يعرف أونو وآدا من زيارتهما إلى المرصد الفلكي في لايدن - أدرك ماكس أنّ زيارتهما كانت في اليوم الأول ذاك، عندما اقتطف آدا من متجر الكتب المستعملة «مديح الحماقة». تراءت لعينيه وهي جالسة خلف التشيلو الخاص بها، «موسيقا الصمت»، والدها يبيع الدهان على وجهه - ولاحقاً: «على مهلك، لا تؤلمني!».

أراهما مكتبته، البالغ من الترتيب ما يبلغه مكتبه في لايدن، وغرفة القياس، ومشغل صناعة الآلات، ومشغل أخرى، حيث الضوء مشتعل في كلّ الأرجاء، ثم خرجوا من المبنى عبر الباب الخلفي. التلسكوب العملاق قائم على بُعد مئة متر، موجّهاً بهدوء إلى نقطة في السماء المظلمة. لا يزال ماكس نفسه يشعر بتأثير غامض ينبعث من هذه الآلة، التي يعرفها حقّ المعرفة - لا يمكن مقارنته بتأثير أيّ هيكل تقني آخر. كانت تهبّ ريح خفيفة، وبينما يسIRON على الدرب صوب التلسكوب، قال إنّ سبب هبوبها هو التواصل مع أبعد الأشياء وأقدمها التي حدثت في الكون. على طرف المرج المترامي حتى الأفق، أطلّ عليهم التلسكوب العاكس من عليائه، شفافاً مثل ورقة ساقطة من الشجر، لم يتبقّ منها سوى العروق في فصل الشتاء. كان العملاق واقفاً على قوائم، تنتصب بينها حجرة التحكّم؛ الهيكل بأكمله مدعوم بأربع عجلات واقفة على سكة دائرية الشكل.

أشارت آدا إلى الفراشي المربوطة، بالحبال بصورة مؤقتة، إلى كلّ عجلة من العجلات من الأمام والخلف للحفاظ على سلاسة السكة وقالت: «أعتقد أنها فراشي مطبخ».

أحنى ماكس رأسه علامة الموافقة: «من متجر الأدوات المنزلية في دفنغلو. نحن نعتمد على هذا النوع من الأشياء في نهاية الأمر. هذا هو الحال في المجال العلمي، ولكن لا أحد ينبغي أن يعرفه».

قال أونو: «يحدث الشيء نفسه في السياسة. كلّ ارتجالٍ وتخبّط. الناس يؤمنون بالعقول الفذة والمؤامرات الشيطانية؛ لكن لو سمعوا كيف توضع سياسة الحكم، لأصابهم هلعٌ

شديد. الأمور تسير كما تسير عندهم في البيت. أظن أنك ستري الشيء نفسه في كل مكان، عندما تنظر وراء الكواليس. إنها معجزة أن يستمرّ العالم في الدوران». في حجرة التحكّم، حيث يجلس بضعة مراقبين أمام الألواح، استفسر عما يرصدونه أو يستمعون إليه في هذه اللحظة.

أجاب ماكس: «أظن أنهم يقومون بالمعايرة. ماذا نفعل الآن يا فلوريس، 296 3C؟». قال رجلٌ من عمره، ربما أصغر منه بقليل، دون تحويل عينيه عن عدّاداته: «نعم، ولكن هناك تشويشٌ في مكانٍ ما. لا بدّ أنه بالون طقسٍ آخر لعينٍ من كوكسهافن، بتردّده الثمانية والثلاثين التوافقي. لماذا لا نتّصل بقاعدة ليواردن الجوية ونطلب منهم إسقاط هذه البالونات اللعينة بطلقة نارية؟».

- إنهم يشوّشون علينا بالقدر نفسه.

قال ماكس إنّ هذه هي المشكلة فعلاً؛ كان أونو محقّقاً بشأن الدّراجة النارية. إذا أصبحت لديك بيانات على الشريط المثقوب، يجب عليك في البدء البحث عمّا قمت بقياسه في الواقع والتكفّل بإخراج بيانات الفلك منه.

- لا تؤاخذاني، لكنني أعتقد أنني سأتدخّل للمساعدة. تستطيعان الذهاب للتنزّه في المرح، سأراكما قبيل وقت العشاء. لقد حجزتُ طاولةً في مطعم في القرية، يمكن لي القول عنه إنه مطعم نجوم. وتذكّرا، عندما تبدأ عاصفة رعدية، يجب عليكما الانبطاح على الأرض والعودة زحفاً. هذا شيء من الأشياء التي لا تعرفها، إذا كنت ابن مدينة.

ولكن في اللحظة التي قال فيها هذه الجملة، صعقه شيءٌ مثل البرق، لإدراكه أنه سيحلّ مشكلته: عندما تلقى آدا مصرعها بهذه الطريقة - وأراد أن تتلاشى هذه الفكرة من رأسه على الفور.

*

لم تكن هناك حاجةٌ لحجز الطاولة، فقد كانوا الوحيدين في المطعم نتيجة الطقس السيئ. في القاعة الريفية المظلمة، التي علّق على جدرانها لوحاتٌ ورسومات وقدر حديدية كثيرة لا سبيل إلى تعريفها، اختاروا طاولةً بعيدة قدر المستطاع عن النوافذ، التي تلمطها هباتٌ من المطر بين حينٍ وآخر. أشعل ماكس الشمعة واستمع إلى حجّة أونو عن الفرق بين الجوّ السيئ في المدينة والجوّ السيئ في الريف. هو يرى أنك تبتّل أكثر بالمطر في المدينة، وأنّ الطقس لا

ينتمي في الواقع إلى المدينة على الإطلاق؛ من ناحية أخرى، فإنّ الإنسان في الريف يصاب بالاكْتئاب منه، مع أنه شيء غير مناسب في المدينة فقط.

- لكنّك لا تُحدِّث انطباعاتاً بأنك مكتئب في هذه اللحظة.

- لا، لستُ مكتئباً بطبيعة الحال، لأنني سَمَوْتُ على هذه الأمور كلّها. فأنا أسكن في عوالم العقل المحض^(٥)، التي لا تؤثر فيها الأحوال الجوية. أما أنت فتُحدِّث انطباعاتاً بأنك مكتئب. هل هناك ما يزعجك؟!

فأجاب ماكس: «طبعاً لا». وألقى نظرة متردّدة على آدا، التي تمنّى لها الموت قبل قليل: «ما الذي يمكن له إزعاجي؟».

- هذا ما أسأله. ربما لأنك تأتي إلى هنا كثيراً. كيف ستكون حالك عندما تنتهي تلك المنشأة في فيستربورك؟

- سأرى عندئذٍ.

- إلى أين وصلوا الآن؟

- ستجهز المرأة الثانية عشرة خلال هذه السنة.

قالت آدا: «ستكون منظراً رائعاً. فواحدة منها تثير هذا الكمّ الهائل من الإعجاب».

- هذا ما أظنّه أيضاً.

رمقه أونو بنظرة فاحصة: «أيعني هذا أنك لم تذهب لرؤيتها بعد؟».

- لا. أقصد: نعم. لم أذهب لرؤيتها بعد.

سألته آدا: «أليست هنا في الجوار؟».

- إنها تبعد خمسة وعشرين كيلومتراً من هنا.

- معنى ذلك أنها قريبة.

وضع أونو يده على يدها لحظة، ورأى ماكس أنّ هذه ليست لفظة رقيقة فحسب، وإنما أمرٌ بأن تسكت أيضاً. يبدو أنها لا تعرف ماذا تعني له فيستربورك، فهو لم يخبرها إطلاقاً؛ لكنّها في أغلب الظن سمعت من أونو خلال الفترة الماضية ونسيت هذا الاسم ببساطة. لم يعجبه كثيراً معاملته بهذا الرفق، مثلما يُعامل مريض.

(٥) إشارة إلى كانط. [م]

- لكنني أعرف المنطقة مثل جيب سترتي. أحفظ تلك الخرائط كلها وأستطيع أخذك إلى الساحة التي كانت تُنادى فيها الأسماء أو إلى بَرَاكة العقوبة وأنا مغمض العينين.

كان يبدو بوتيرة متزايدة أنه سيصير عالم فلكٍ في التلسكوب في فيستربورك، أي عالم فلكٍ يعمل بانتظام مع العاملين الفنيّين في الموقع، وسيرى ما يحدث عندئذٍ. ربما يحسّن به تأجيل هذا الأمر إلى حين لا يبقى أمامه خيارٌ آخر، مثل شخص يجب ألا يتحسّس برودة الماء بإصبع قدمه أول الأمر، بل يجب عليه الغطس فيه ببساطة. يضاف إلى ذلك أن هذا الأمر اختفى في الشهور الأخيرة خلف المشكلة التي جلبها على نفسه.

لم تستطع حتى البدلة السوداء الأنيقة التغير من خشونة وجه النادل، الذي وُلد أجداده في أغلب الظن في كوخ من الطين المسقوف بالعشب، لكنّه فتح زجاجة الشمبانيا بمهارة، دون أن يفرق الفلين. تذوّق ماكس الشراب، وانتظر حتى يصبّه في الكؤوس - في هذه الأثناء وضعت آدا يدها فوق كأسها - ثم رفع الكأس: «نخب إخصابنا المتزامن!».

رمقته آدا بنظرة اندهاش. هل أخبر أونو بما حدث؟!

- ماذا تقصد بحقّ الربّ؟!

فهم في الحال ما الذي ظنّته يقصده - ولكن قبل أن يستطيع الإجابة قال أونو: «لقد أخبرتك بهذا يا آدا، لكنك لم تكوني تستمعين إليّ. ظننت: نعم، نعم، عدنا مرة أخرى. هذا ما نحتفل به هنا: ليلة فان در لوبه المقدّسة الهادئة، أكثر السياسيين الهولنديين تأثيراً على مرّ العصور».

بينما ينظرون في قائمة الطعام، أخبرها مرّة أخرى - وصوّر لها المناسبة التي تسبّب فيها ماكس بإنهاء علاقته. «سيّدتى، هل تسمحين لأونو أن يأتي ليلعب معي في الشارع؟». كان ماكس قد نسي ذلك تقريباً. لقد حدث قبل سنة واحدة، لكنّه بدا مثل شيء من الماضي البعيد. سأل: «كيف حال هيلخا؟ هل رأيتها بعد ذلك اليوم؟».

- إطلاقاً. لا تزال جالسةً بأدب في معهد الفنون التاريخية وتعمل على تحديث الفهرس. تناولوا لحم الخنزير البرّي وأسهب أونو في الحديث عن مغامراته في السياسة الداخلية، فأنصت إليه ماكس وآدا بشكل مهذب. قال إنهم قاموا بقفزة كبيرة إلى الأمام تحقّق بها أخيراً ما استطاع والده ورفاقه السياسيون منعه في 1945، رافقتها موجةٌ شرسة من إرساء الديمقراطية، لم تكن تخلو من ملامح سوقية: لم يعد يُسمح لأحدٍ بالإنجاز أكثر من أيّ شخص آخر -

وإذا شجعتَ هذا الأمر وأنجزت بأسلوب أرستقراطي في هذه الأثناء ما لم يستطع أحد آخر إنجازه، فقد ضمنت لنفسك السلطة إلى نهاية القرن.

قال ماكس: «لم يعيش ميكافيلي عبثاً».

هتف أونو: «أوه، ميكافيلي! اسمٌ لا يُذكر إلا في النادر!».

بعد شرب القهوة طلب أونو الفاتورة، لكنّ النادل قال إنّ الحساب مدفوع.

قال ماكس وهو ينهض عن مقعده: «أنتما ضيفاي. سأتناول الطعام على حسابكما ذات مرّة في أمستردام».

26. فانسى

المطر لا يزال ينهمر بشدة وثمة رياحٌ قويّة قد أخذت بالهبوب؛ أسرعوا إلى السيارة. عبروا الدروب المظلمة المهجورة ووصلوا بعد عشر دقائق إلى المرصد الفلكي. الضوء مشتعلٌ في كلّ مكان منه، ما يزالون يرصدون النجوم، وما يزال القادم من النصف الآخر من الكرة الأرضية جالساً إلى طاولة الطعام في دار الضيافة. الساعة العاشرة والنصف، وسألهما ماكس عمّا إذا يرغبان بالذهاب إلى النوم - وإن لم يكونا يريدان ذلك، فقد بقي لديه نبيذٌ وروم بכולا في المطبخ. قالت آدا إنها تريد كأساً من الكولا، رغم أنّ هذا المشروب أيضاً قد لا يُنصح به للمرأة الحامل؛ لكنّ أونو رأى أنّ الكحول يقتل البكتيريا الضارّة، ولذلك فهو مفيدٌ للغاية لنموّ الأجنة.

خُيِّلَ إلى ماكس أنه يستطيع رؤية الكتب الملوّنة عن الحمل والوضع المقدّسة طبعاً بعضها فوق بعض، بجانب سرير آدا.

العاصفة في الخارج تشتدّ بوتيرة متزايدة وهم يجلسون مستأنسين حول الموقد المفتوح، غير المشتعل. أخذ أونو يتكلّم هذه المرة عن الفرق بين «الطقس الكبير» و«الطقس الصغير»: يمكن أن يكون الطقس سيئاً إلى حدّ يتجاوز معه درجة الصفر، فيصبح جيّداً مرّةً أخرى. أما الرعد والبرق، وتحطّم المصدّات المائية، والفيضانات، فلا يمكنك القول عنها «طقس سيّء»؛ ما حمل ماكس على القول إنّ ديكنز كان يقيم مأدبة عشاء لأصدقائه في ليلة عيد الميلاد من كلّ سنة، يقف أثناءها مشرّداً مأجور تحت النافذة في الخارج، في العاصفة الثلجية، ويصيح كلّ بضع دقائق: «أوه! كم هو بردٌ قارس!» - هذا من أجل أن يزداد الجالسون في الداخل استمتاعاً بالدفء وأكل الإوزة.

قالت آدا: «يا له من نذل!».

قال أونو: «لا أبداً. إنه شيء على ما يرام من الناحية الديالكتيكية. يتبين من طريقة عيشه أنه كان كاتباً عظيماً».

- لديكما أفكار غريبة عن العظمة.

- وما ميزة العظمة في رأيك؟

- التواضع.

فهتف أونو وهو يمسك رأسه بخيبة أمل: «آدا، لا تذكرى أسوأ الخصال!».

- أعني ما أقول. أعتقد أن باخ كان يشعر بأنه صغير جداً أمام الموسيقى.

- لكنّه في الوقت نفسه ألف الروائع الموسيقية الواحدة تلو الأخرى. في غاية التواضع.

ثم أخبرني ما هي «الموسيقا»؟! لولا باخ والموسيقيون الآخرون، لما وجدت الموسيقا على الإطلاق. أم أنك تعتقدين أن «الموسيقا» شيء يحوم في مكان ما في السماء؟

- لعلّها كذلك، نعم.

فقال أونو وهو يهزّ رأسه: «النساء كلهن أفلاطونيات».

سألت آدا: «وماكس إذاً، بهذا التللكوب هنا؟».

ثم توجّهت إليه: «ألا تشعر أنك صغير عندما تنظر إلى هذا الكون الهائل؟».

أجاب ماكس بحذر: «أظنك تخلطين بين شيئين. كان أينشتاين إنساناً متواضعاً أيضاً، هذا ما نقرؤه دائماً، لكنّه في الوقت نفسه شرح بنية الكون. أونو على حق: ما مدى التواضع في هذا في واقع الأمر؟ يمكنك القول إنه لم يكن يتباهى بذلك في حياته اليومية، وذلك لم يكن ضرورياً أيضاً، لكنك في هذه الحالة لا ترين التواضع إلا باعتباره حالة نفسية...».

وقاطعه أونو: «وعلم النفس غير مثير للاهتمام دائماً. ثم ما مدى التواضع الذي كان يبلغه

فرويد نفسه؟ اقرئي النصوص وارتعبي!».

قال ماكس: «كي أكون صادقاً، حتى عندما كنت صبيّاً، لم أكن أفهم قطّ كيف يمكن

لشخص الشعور بأنه صغير أمام الكون. الإنسان يعرف مدى حجمه المذهل، ويعرف إلى ذلك بضعة أشياء أخرى - فهو ليس صغيراً إذاً! حقيقة أنه اكتشف هذا كلّهُ، إنما هي برهانٌ على عظمتِهِ. ما يدعو إلى الدهشة هو أنّ هذا المخلوق الضعيف يستطيع احتواء الكون كلّهُ في الفضاء الصغير تحت سقف جمجمته - ويستطيع إلى ذلك التأمل فيه، مثلما نفعل الآن. هذا ما يجعله حتى أكبر من الكون بمعنى أو بآخر».

قال أونو ضاحكاً باتجاه آدا: «نعم، يجب أن تستمعي إليه جيداً».

كانت مدخنة الموقد المفتوح تُهمهم، مثل أنبوبة أرغن غير مضبوط الإيقاع في العاصفة. قال ماكس وهو يملأ كأسه مرة أخرى: «يمكنك بطبيعة الحال تصوّر شخص يقول إنَّ الإنسان يجب عليه الشعور بأنه صغير أمام عظمته، لأنه يملك هذه العظمة من الربّ». فقاطعه أونو: «لكنّه سيكون في هذه الحالة مازوخياً، ولا يرى أنّ الربّ أيضاً من خلق الإنسان».

نظر ماكس إلى حمرة نبذه القانية وأمسك عن الكلام. «الأنا وذاتها»^(٥). كان يعمل على بحث عن خارج المجرّة: إشارات عن أحداث كونية وقعت قبل مليارات السنين في الكون الناشئ؛ لكنّها تلاشى في العدم بجانب الحدث الذي قد يكون في انتظاره، على كوكب صغير في نظام شمسيّ ضئيل الأهمية، على هامش مجرّة من المجرّات التي يبلغ عددها عشرات المليارات. ولكنّ هذا الإدراك لم يرشده إلى شيء من قبيل «النسبية» بأيّ شكل من الأشكال. على النقيض، ولادة إنسان ليست حدثاً ضئيل الأهمية في اللانهاية المقيسة للكون، بل هي حدثٌ ذو أبعاد تمتدّ إلى ما وراء الكون - حتى من دون الربّ، لا سيّما من دون الربّ.

دخل فلوريس والماء يقطر منه والرياح بعثرت شعره: «يجب علينا تثبيت التلسكوب يا ماكس، وإلا سنضطرّ غداً للبحث عنه في المروج. قوّة الرياح تبلغ عشرة، وحسب خبراء الأرصاد الجوية في ده بيلت سيزداد الوضع سوءاً، فهم يتوقّعون وصول سرعة الهبّات إلى مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة. يبدو أنها البقايا الأخيرة من إعصار قادم من منطقة البحر الكاريبي، الذي يجوب المحيط الأطلسي منذ ستة شهور. هل لك أن تأتي أيضاً؟! لقد وضعناه بظهرة إلى الريح».

ارتدى أونو والأسترالي معطفيهما أيضاً. قالت آدا إنها ستذهب إلى السرير؛ لقد جلبت معها كراسيها الموسيقية المحتوية على سيمفونية «أغنية الأرض» لمارلر، وتريد الدراسة فيها قليلاً.

صاح أونو عندما خرج من المبنى: «صحيح!».

كانت الأشجار ترفرف وترتجّ في العاصفة الهائجة، كأنما تريد أخيراً انتزاع نفسها من قيودها. لطمت الريح وجوههم وساروا بانحناء على الدرب صوب التلسكوب، حيث تتحرّك

(٥) بالألمانية في الأصل. [م]

مخروطاتٌ ضوئية منبعثة من مصابيح يدوية وينهمك عشرة أشخاص أو عشرون شخصاً في العمل. المرأة تدور ببطء في الوضع الأفقي. وهم يحملون الكوابح الثقيلة ويشبكون بها العجلات؛ صاح أحدهم بأنه يجب إطفاء محرّك السمّت، وصاح أحدٌ آخر بأنه يجب على فلوريس الصعود إلى السطح ليُطفئ محرّكات الرافعة. سارت العملية برمتها وفق دليل الاستخدام المحتوي على التوجيهات في مثل هذه الحالات - وغمرهم الرضا بعد مضي نصف ساعة وهم ينظرون إلى التلسكوب العاكس، موجّهاً بثبات إلى البعد السمّي، مثل وعاء قرايين مهيب.

اجتمع الجميع مبّللين بماء المطر في المخبر، من أجل التكلّم عما حدث والاستماع إلى كلمة الشكر التي سيلقيها المدير.

قال ماكس وهو يشير إلى حذائه الأسود المغطّى بالوحل: «انظر إلى حذائي الجديد كستنائيّ اللون المصنوع من الجلد المدبوغ». فقال أونو: «لاثق بك تماماً».

كانت زوجة الناطور قد أعدّت مشروب الشوكولا الساخن، صبّته من إبريقٍ ضخّم مصنوع من المينا الرمادي في أكواب بيضاء سميكّة، فشرع الجميع بالسعادة لعودته إلى الأب والأم في البيت بعد قضاء يومٍ مفيد.

قال أونو برضاً: «سأصير أنا أيضاً عالم فلك. هنا ما يزال يسود الدفء الإنساني الحقيقي». نادّت فتاة في تلك اللحظة: «أهنا أحدٌ يدعى السيّد كويست؟». فقال أونو متعجباً: «نعم؟».

- هاتف من أجلك.

قال أونو وهو ينهض عن مجلسه: «هناك شيءٌ خاطئ».

ارتاب ماكس في الأمر أيضاً. كان الليل يقترب من منتصفه - من ذا الذي يريد التكلّم معه في هذه الساعة؟ ربما حدث شيءٌ لوالده أو والدته.

عاد أونو بعد فترة وجيزة. رأى ماكس على وجهه أنّ هناك فاجعةً قد حدثت فعلاً.

- أُصيب والدُ آدا بنوبة قلبية. كانت أمّها على الهاتف. يبدو أنّ حالته على جانب كبير من الخطورة، وسألت عمّا إذا كنا نستطيع المجيء إلى لايدن على الفور. نقلوه بالإسعاف إلى المستشفى الجامعي.

قال ماكس وهو ينهض أيضاً: «ليست هناك قطارات الآن. دعنا نذهب. سأخذكما!».

ذهبا إلى دار الضيافة عبر الممرات الداخلية. كانت آدا قد استغرقت في النوم، مديرة وجهها إلى جانب، واضعة سباتها بين أوراق الكرّاسة المغلقة. بينما يوقظها أونو، ذهب ماكس إلى غرفته لتوضيب أغراضه. فكّر في والد آدا، الذي يكاد لا يتذكّر شكله، الذي أصابته لكمة على صدره بينما يقف على سلّم أمام رفوف كتبه. يمكن حدوث أيّ شيء في أيّ لحظة على ما يبدو؛ الجميع يعيشون يوماً بعد يوم في نوع من الإيمان بأنّ كلّ شيء سيبقى على حاله إلى الأبد، وفجأةً يتغيّر كلّ شيء. جاء بالأسرطة المثقوبة على وجه السرعة ليأخذها معه إلى معهد الحسابات وذهب بالحقيبتين إلى غرفة الجلوس، التي ما لبثت أن ظهرت فيها آدا وأونو أيضاً.

قال: «يا يسوع، يا آدا!»، وطبع قبلةً على جبينها: «يا له من وضع! هل كان يعاني من مشكلة في القلب؟».

- أعتقد ذلك، لكنّه لم يكن يريد الاعتراف بها. الرجال دائماً أشدّاء للغاية، أليس كذلك؟ دعونا نسرع في الذهاب!

لم يكن لدى أيّ منهم معطف. في الخارج، هرول ماكس عبر العاصفة إلى سيارته، وقادها إلى أمام باب دار الضيافة. كان سقفها مغلقاً؛ لذلك اضطرّ أونو أن يطوي نفسه إلى ربع حجمه خلف المقعدين؛ عرضت عليه آدا الركوب مكانه، لكنّه لم يرغب في سماع أي شيء عن هذا الأمر. أخذ المطر يقطط على السطح المصنوع من الكتّان، وانعطف ماكس إلى الدرب الرملي مشعلاً الضوء الأمامي العالي.

كانت الغابة تتحرّك وكأنّها لا تتكوّن من النباتات بل من الحيوانات؛ هناك أغصانٌ متطايرة في الوحل في كلّ مكان، يجب عليه تفاديها. كان يحملق في الطريق منحنيّاً على عجلة القيادة، ويمسح البخار بساعده من الزجاج الأمامي بين حينٍ وآخر. تحوّل الدرب إلى طريق مرصوف بالحجارة، كانت العاصفة قد تمخّضت عليه عن عدد لا يُحصى من الفئران الراقصة: فقاعات سمكة ذات أرجل صغيرة، ترقص رقصة بولكا سخيفة بصورة أساسية، لأنّه لم يتمكّن من رؤية سوى جزء صغير من الفقاعات. منازل القرية جميعها تقريباً غارقة في الظلام؛ تشكّلت بركٌ ماءٍ مترامية على طول الأرصفة، لم تتمكّن المجاري من استيعابها، وقد رشقها بصوت يشبه أزيز شحذ السكاكين حتى الحداثق الأمامية للمنازل. عندما عبروا من جانب المطعم،

ترأى له شكله من الداخل برهة قصيرة: النادل والطباخ ذاهبان إلى البيت، والأضواء مطفأة، ولكن في الهجران المظلم العصي على السبر ما تزال الطاولات والكراسي والقدر المعلقة على الحائط على حالها.

على الطريق الإقليمي السريع، الذي لم تكن المصابيح مضاءة عليه، اضطر إلى إحكام قبضته على عجلة القيادة ليُقي السيارة تحت سيطرته. الأسفلت يتلألأ بالماء، ولكن من حسن الحظ ثقلت السيارة من وزن أونو على المحور الخلفي، ومن وزن آدا التي تُحسب شخصين. المطر يهطل بشدة تجعل تأثير المساحة شبه معدوم على الستارة المائية على الزجاج الأمامي. بينما يصحح ماكس وضعية السيارة على الفور عند كل هبة ريح قوية، أبقى عينه بصعوبة على الخط الأبيض في منتصف الطريق، حيث يتحوّل الضوء العالي المنبعث من مصباحيه إلى مخاريط ضوئية ملأى باللالى اللامعة المبهرة للأبصار.

قال وهو يلقي نظرة على آدا: «لا تؤاخذي، يجب أن أقود ببطء».

صاحت: «انتبه!». كانت شجرة مقتلعة من جذورها راقدة على عرض الطريق، ساقطة من الجانب الأيسر. فرمل لكنه شعر في الحال أنّ الدواليب تفقد اتصالها بالأسفلت، فداس على «الدبرياج» وأدار عجلة القيادة؛ بينما تشبّت آدا بكتفيه، أوقف السيارة بعجلتها الأماميتين على الجانب العشبي من الطريق، على بُعد بضعة أمتار من كومة عالية من الأنقاض.

قال: «يا إلهي! لقد نجونا في آخر لحظة. يجب علينا الرجوع!».

وضع الترس في وضعية الرجوع وحاول الخروج من الجانب العشبي، لكنّ العجلتين الأماميتين كانتا غائبتين في الأرض.

- يجب أن ندفع يا أونو!

أطفأ المحرك، وما إن فتح الباب حتى كادت الريح تنتزعه من يده، طوى ظهر مقعده إلى الأمام ليفسح طريق الخروج لأونو.

سألت آدا: «هل أساعدكما؟».

فأجاب أونو: «ابقي جالسة، بحق الرب!».

قال ماكس وهو يغلق الباب: «ويجب علينا الإسراع أيضاً، قبل أن تأتي سيارة أخرى».

ذهبا في الضوضاء المدوية إلى الجانب العشبي، وأمسكا وافي الصدمات في ضوء المصباحين الأماميين. عدّ ماكس إلى ثلاثة وهو يغوص في الطين حتى كاحليه في حدائه

الجديد - ولكن في تلك اللحظة نفسها حدث شيءٌ ثانٍ. تصاعد من ضجيج العاصفة والأمطار الغزيرة دويٌّ جديد: خرخرة داكنة تحوّلت إلى طقطقة وحفيف عميقين. نظر ماكس حوله، إلى الأعلى، فرأى تاج شجرة قائماً يُقبل عليهما من الجهة الأخرى من الطريق، مثل يدٍ عملاقة، فأمسك أونو وسحبه بكلّ ثقله إلى الأرض. سقطت الشجرة بخبطة قوية على الطريق والسيارة، التي تلقت الضربة عنهما.

*

رغم أنّ الضجيج لم يتضاءل، بدا وكأنّ صمتاً شاملاً قد حلّ بصورة مفاجئة. انطفأ المصباحان العلويان، وسقطت بعض الأغصان عليه. تلمّس ماكس باحثاً عن أونو.
- أونو!

- نعم، نعم، أنا بخير، ولكن آدا!
نهضاً بصعوبة، ورأياً بذهولٍ جامد جذع الشجرة الداكن يلوح، مثل الظلّ تحت الأغصان العارية من الأوراق، على سقف السيارة الأبيض.

قال أونو: «يا يسوع، لا.. هذا غير ممكن!»، وصرخ: «آدا!».
تحرّراً بأقصى سرعة ممكنة من الأغصان المتشابكة، بينما ينزلقان ويصابان بالجراح، وحاولا الوصول زحفاً على الأذرع والأرجل إلى أبواب السيارة، لكنّ الوصول إليها كان مستحيلاً.

صرخ أونو مرة أخرى: «آدا!».
لم يسمع أيّ جواب. كان كلّ شيء قد اعوجَّ بطبيعة الحال. أقحم ماكس ذراعه بين الأغصان وهو في وضعية نصف استلقاء، وحاول إزاحة سقف السيارة، لكنّه لم يستطع الإمساك بأيّ شيء.

- يجب علينا طلب النجدة!
نظر لاهثاً في ما حوله. كان هناك بيتٌ ريفي في الحقول، على بُعد مئة متر، لا يزال الضوء مشتعلاً فيه. ما إن همّ بالذهاب إليه حتى اشتعل ضوء مصباح يدويّ على الطرف الآخر من جدول الماء وارتفع صوت: «يا إلهي العظيم! إنها السيارة الثانية خلال عشر دقائق! هل هناك أحد؟».

- مرحباً! أحضِر لنا النجدة من فضلك!

- لقد اتصلت بالشرطة للتو!

- يجب أن تأتي سيارة إسعاف في الحال!

انعطف ضوء المصباح اليدوي وتحرك بوثبات سريعة باتجاه البيت الريفي. حاول أونو شق طريق عبر الأغصان، باستماته، وبكل ما أوتي من قوة، لكن محاولته باءت بالفشل: كانت السيارة مطوّقة بالأغصان وكأنها في قفص.

زمجر: «اللعة! آدا! طفلنا!».

تسمّر ماكس. طفلها... تصاعدت هذه الفكرة الشنيعة من قرارة نفسه للمرة الثانية هذا اليوم - أراد كبجها على الفور، لكنّها كانت قد وُلدت وانتهى الأمر، وهذه المرّة ليست بسبب طرفة عن البرق، بل في الوقت الذي يمكن أن تكون قد ماتت فيه فعلاً، هناك تحت ذلك الجبل من الخشب. راوده إحساس بأنّ ملاءة سوداء لامعة قد لفتت نفسها حول جسمه، متبّعة كلّ تقاسيمه، مثل جلدٍ ثانٍ. شعر في اللحظة نفسها بالغثيان، التفت إلى جانب وأفرغ لحم الخنزير من معدته. عندما اعتدل في وقوفه، رأى أونو مستنداً إلى الأغصان، واضعاً وجهه على ذراعه ويجهش بالبكاء.

اقتربت سيارة إطفاء بصفّارة إنذار وضوءين وامضين حمراوين من اتجاه دفنغلو، تتبعها سيارة شرطة بضوء وامض أزرق. ما لبث أن برق ضوءٌ كشافٍ ساطع وامتلا المكان برجال مرتدين معاطف مشمّعة؛ مُدّت الشرائط ذات اللونين الأحمر والأبيض على الطريق، وما لبث أن تصاعد أزيز المناشير الكهربائية، التي أخذت تخترق الأغصان، مثلما تخترق سكين قطعة من الخبز. لم يُطرح أيُّ سؤال على ماكس ولا على أونو. كان أونو ينظر إلى ما يحدث، لكنّه في الوقت نفسه يمشي جيئةً وذهاباً في حالة ذهول، في حلقة دائرية، مثل نمر خلف القضبان. ساعدهم ماكس في سحب الأغصان من فوق السيارة وأراد قول شيء له، لكنّه لم يعرف ماذا عليه أن يقول؛ كان يشعر بطعم القيء المرّ في فمه. حقبة السيارة منبعجة؛ لعلّ الأشرطة المثقوبة قد ضاعت هي الأخرى. بقيت الأضواء الومضة الثلاثة مشتتة، فتحوّلت تلك الإشارات النابضة إلى نموذج وحشيّ، يعبر عما يشعر به على وجه الدقّة. كانت الريح لا تزال تعصف والسماء تمطر ولكن بصورة أخفّ قليلاً.

عندما تكشّفت السيارة من الداخل، رأى آدا مطوّية إلى نصفين تحت السقف المتداعي، الذي لم يوفّر لها أيّ حماية - لا تحرك ساكناً، وجهها على ركبتيها؛ لم يكن جذع الشجرة قد

سقط على مكانها ولكن بجانبها مباشرة، على مكانه. لم ينظر أكثر من ثانية واحدة، فقد حوّل عنها عينيه في الحال، أما أونو فقد جاء متعثراً إلى الأمام واستند إلى غطاء المحرك، فأمسكه شرطيٌّ من كتفه بخشونة: «اذهب من هنا يا سيّد! أترأه منظراً جميلاً جداً؟».

ظنَّ على الأرجح أنهما من الفضوليين الساكنين في الجوار. التفت إليه أونو وهو يرتعش: «إنها زوجتي!».

ترك الشرطي كتفه وأمسكه بطريقة مختلفة، بيديه الاثنتين على كتفيه هذه المرّة.

- تعال من فضلك!

- هل ما زالت حيّة؟ آدا! هل تسمعيني؟!

- تعال من فضلك!

بينما يفكّ رجال الإطفاء سقف السيارة بحذر ويغطّون آدا بالبطانيات، ظهرت سيارة إسعاف بسرعة عالية من الجانب الآخر، بصفّارات إنذار هادرة، وأضواء عالية وأضواء زرقاء وامضة مبهرة للأبصار. قفز منها ممرّضان - وبينما يهرول أحدهما إلى الباب الخلفي ليخرج منها نقالة المرضى، قفز الآخر من فوق الأغصان، وجلس القرفصاء بجانب آدا ووضع سماعة طبيّة في أذنيه.

قال أونو: «إنها حامل».

رفع الممرّض عينيه إليه برهة قصيرة وأحنى رأسه علامة الفهم. وضع قمع السماعة على عنقها دون أن يحركها. أمال رأسه إلى جانب بعض الشيء وأخذ يرهف السمع، في حين لم يعد أحدٌ منهم يحرك ساكناً.

أخذ قلب ماكس يخفق بشدّة. خُيِّلَ إليه أنّ الإيقاع القوضوي للأضواء الوامضة يشكّل الصوت الوحيد.

أزال الممرّض السماعة عن أذنيه، ونهض من قرفصائه، وقال: «إنها حيّة!».

تنفّس ماكس الصّعداء ووضع يديه على عينيه. بعد مضيّ برهة قصيرة، نظر في وجه أونو المتّسخ المبلّل وعانقه.

*

لم تعد آدا إلى وعيها في سيارة الإسعاف أيضاً. جلس ماكس إلى جانب السائق، الذي لم يرد قول رأيه في وضعها الصحي؛ عندما نزل من السيارة أمام المستشفى في مدينة هوخيفين،

رأى أنّ ارتياح أونو أيضاً قد أفسح مكانه لقلبيّ جديد. نُقلت آدا إلى الداخل على جناح السرعة، وأخذتهما إحدى الممرّضات إلى حمّام، حيث يستطيعان تنظيف نفسيهما قليلاً. في تلك الحجرة شديدة النظافة، الهادئة، المضيئة، ارتعبا من منظرهما في المرأة: ملابسهما ممزّقة، مشبعة بماء المطر، مغطّاة بالطين والبقع الخضراء المطبوعة من لحاء جذع الشجرة، وجهاهما وأيديهما مخضّلة بالدماء وملأى بالخدوش. لا يبدوان قادمين من عاصفة كارثية فحسب، وإنما بطريقة أو بأخرى من زمنٍ آخر أيضاً.

قال أونو: «أتمنّى انتهاء هذا بسلام. يا لها من فوضى عبثية أن نقف في ذلك المكان بالذات، الذي سقطت فيه تلك الشجرة اللعينة. ما المغزى من كلّ هذا؟».

كان ماكس يغسل فمه ولم يُجب في الحال. أدرك أنّ أونو يعيش الفوضى العبثية للوجود لأول مرّة في حياته. بالنسبة إليه كانت حقيقة أنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث في أيّ لحظة تبلغ من البديهية ما تبلغه الحقيقة العبثية أنّ الطقس جميلٌ في يومٍ وسيئٌ في يومٍ آخر. هذا هو الحال على الأرض، أما في السماء فقلّما تسير الأمور على هذا النحو، هناك تسود قوانينٌ أشدّ صرامة: الشمس تشرق دائماً، وليس لا تشرق أحياناً، أو تشرق بعد يومٍ واحد - الأمر الذي لا يستطيع المرء حتى قوله بهذه الطريقة - لكنّها تشرق دائماً في اللحظة المتوقّعة على وجه الدقّة. ليس هناك تهديدٌ من ذلك الاتجاه، ولكنّ هذا لا يمتّ بصلة إلى الحياة على الأرض، ولعلّه لهذا السبب تحديداً اتخذ من هذه الثقة غير البشرية مهنةً له.

قال: «من ناحية أخرى، لو كانت جالسة في المقعد الخلفي، في مكانك، لما نجت من الحادث».

ألقي أونو الماء على وجهه بيديه الاثنتين - وتسّمّر بصورة مفاجئة. اعتدل في وقوفه ببطء ونظر إلى ماكس في المرأة بعينين متسعيتين. قال بصوتٍ منخفض شبه هامس: «ماكس.. والد آدا!».

فغر فم ماكس: «يا يسوع! لم أفكر فيه لحظة واحدة».

نظر كلّ منهما إلى الآخر باندهاش.

- هذا أيضاً! ماذا سنفعل؟

- يجب عليك الاتصال بها.

- أتصل بها؟ تخيّل حال المرأة. زوجها يُصاب بنوبة قلبية خطيرة ويضطرّ إلى الذهاب

إلى المستشفى. ثم يرنّ الهاتف وتسمع أنّ ابنتها الحامل تعرّضت لحادث وترقد في غيبوبة. لن تنجو من هذا.

- ولكن ماذا يجب أن نفعل إذا؟!

- يجب أن تذهب إليها وتخبرها بحذر. سأبقى هنا، مع آدا، هذا شيء مؤكد.

- وكيف أصل إلى هناك؟

- بسيارة أجرة. على نفقتي.

- إنها تكلف بضع مئات من الفلورينات. هل لدينا هذا المبلغ؟

- إن لم يكن لدينا، سنقرضه من هنا.

نظر ماكس في ساعة يده: «إنها الواحدة والرّبع. الآن كان يجب أن نصل تقريباً إلى لايدن. ستقارب الساعة الثالثة قبل وصولي إلى هناك. ولكن حسناً، سأذهب طبعاً».

ذهباً إلى غرفة الانتظار، وضعاً نقودهما بعضها مع بعض، وطلباً من أحد العاملين الاتصال بسيارة أجرة. كان سائق الشركة المحليّة قد ذهب إلى النوم، لكنّه سيصل إلى المستشفى بعد عشرين دقيقة. بينما ينتظران سيارة الأجرة، ظهر رجلٌ شابٌ أشقر في معطف طبيّ أبيض، عرّف بنفسه أنّه الطبيب المناوب. لم يكن لديه الكثير مما يقوله في الوقت الحاضر. إنها لا تزال غائبة عن الوعي، ولكن يبدو أنّه لم ينكسر أيُّ شيء في جسمها؛ ضغط الدم، والنبض، والتنفس على ما يرام. ويبدو أنّ طفلها في حالة جيّدة أيضاً.

قال أونو: «حمداً للربّ!».

- يجب علينا انتظار الفحص العصبي.

- ومتى سيُجرى؟

- في الحال، استدعينا طبيب الأعصاب من سريره.

لأنّ سيارة الأجرة لم تكن قد وصلت بعد، رافقه ماكس إلى غرفة المريضة. كان رأسها راقداً على الوسادة بعينين مغمضتين، وقد بُنيت حقنة وريدية إلى ساعدها. تقوّس بطنها تحت البطانية مثل موجة مدّ عارمة. لفت انتباهه تعبيرٌ مرسم على وجهها، بدا مألوفاً له، لكنّه لم يستطع معرفته في الحال. بعد برهة قصيرة عرفه فجأة: إنه التعبير الذي يرسم على وجهها عندما تعزف، عندما تستغرق في الموسيقى.

27. مواساة

عندما رأى سائق سيارة الأجرة ماكس، قال إنه لن يفكر لحظة واحدة في أخذه معه بهذه الهيئة.

- اذهب سيراً على الأقدام يا أبي، لقد نجّدتُ المقاعد للتو!

لعلّه ظنّ أنه كان مشتبكاً في صراع. عندما جاء ماكس بجريدة المقاطعة الشمالية من عند حارس المستشفى وفرشها على المقعد الخلفي، أبدى الرجل حينذاك فحسب استعداده لاصطحابه. صُعق ماكس من هذه الغلظة، لكنّه من ناحية أخرى سرّبها، لأنه لم يضطرّ بدافع المجاملة إلى الجلوس بجانبه وتبادل الحديث معه، من دون شكّ عن كرة القدم، التي لا يعرف قواعد لعبتها وحتى إنه لا يريد معرفتها أيضاً.

المطر والريح العاتية من جديد. لم يكن يدرك بعد ما الذي حدث في الواقع - عندما انعطفت السيارة إلى الطريق السريع، أغمض عينيه ليستوعب الأمر: الشجرة فجأة على عرض الطريق.. الجانب العشبي.. رأس آدا على الوسادة، شعرها الأسود على القماش الأبيض.. الضوء الكشّاف المبهر للأبصار في الليل الهائج مع صفارات الإنذار والأضواء الواضحة.. الطين.. الأغصان.. يقود الدّراجة الهوائية في شارع رابنبورخ وتأتي امرأة في فستانٍ صيفي وتقود درّاجتها إلى جانبه. تسأله أين موقف الترام الذاهب إلى بلدة نورديفايك. يجيب إنه قريب، أوّل شارع إلى اليسار. هل السفر بالترام رخيص الثمن؟ من الأفضل أن تذهبي بالدّراجة الهوائية، فهي ليست بعيدة. لكنني ربما أضطرّ إلى الانتظار طويلاً عند مرأب الدّراجات الهوائية؟ لا أعتقد ذلك. الطقس حارّ، لكنّه يرتدي معطفه الواقٍ من المطر. إنها الرابعة وخمسة وعشرون دقيقة. في حديقة هورتييس بوتانيكوس تصدمه الأشجار الأولى بأوراقها النامية: النصف العلوي من تيجانها مغطى بطبقة سميكة من الثلج، يياضها مبهـر

للأبصار في الشمس الصيفية. يصبح وهو يوقف درّاجته: «انظري!»، لكن يبدو أنها لا تولي الأمر أيّ اهتمام. تواصل سيرها بالدراجة باتجاه شاطئ نورديفايك وقد استغرقت في أفكارها. انتفض من نومه. تراءى له من خلال نافذة السيارة درج مدخل الكايبيتول في هافانا - الذي تقلّص على الفور وصار مدخل المستشفى الجامعي في لايدن. ملابسه لا تزال دبكة ورطبة. السماء تمطر، لكنّ العاصفة آلت إلى الهدوء، أو لعلّها لم تعصف هنا؛ دفع الأجرة للسائق وذهب دون توديعه إلى الداخل.

كان الحارس الليلي، الذي تفحصه بارتياح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، لديه رسالة للسيد كويست وزوجته - وسأله من يكون. عندما قرّر تصديق قصة ماكس، قال إنّ السيدة برونس ذهبت إلى البيت قبل عشر دقائق، وستبقى هناك في انتظار ابنتها.

- والسيد برونس؟

- توفي في نحو الثانية عشرة والنصف.

التفت عنه ماكس، نظر إليه مرة أخرى، التفت عنه من جديد ونظر إليه مرة أخرى: «هلاً تكرّمت عليّ واتصلت لي بالمستشفى في هوخيفين؟».

لاحظ أنّ الصيغة الرسمية في هذه الجملة ساعدته في السيطرة على نفسه. لبي الحارس طلبه وناولته سماعة الهاتف. استغرق الأمر بعضاً من الوقت قبل أن يأتي أونو على الخطّ.

- أمي؟

- لا، معك ماكس. أنا الآن في لايدن، في المستشفى.

وتردّد قليلاً: «لم يتّهِ الشقاء بعد يا أونو!». وعندما لم يسمع شيئاً قال: «مات والد آدا!».

- لا تعني ما تقول!

- يبدو وكأنّ كلّ شيء غير حقيقي.

- يا إلهي! سأجنّ. لا أستطيع التصديق! الرجل الطيّب، هل مات حقاً؟!

- يبدو أنه مات نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، لا أعرف أكثر من هذا.

- وحماتي؟ كيف تتعامل مع الوضع؟ هل أخبرتها بما حدث لآدا؟

- لم أتحدّث معها بعد. كانت تنتظرنا هنا، لكنّها الآن في البيت؛ سأذهب إليها في الحال.

كيف حال آدا؟

- إنها عند طبيب الأعصاب، إنهم يأخذون الصور لها.

- سأذهب الآن. شدّ حيلك! حاول أن تنام قليلاً الليلة!

- نعم، لقد جهّزوا لي سريراً، هنا في غرفة آدا. سأتكفل بأن تُنقل إلى أمستردام غداً على الفور.

- ستصل بك حمائك بعد قليل.

- شكرًا يا ماكس، ما تفعله من أجلي شيء رائع!

- اسكت، هذا أقلّ ما أستطيع فعله!

أعاد ماكس السّماعَة إلى الحارس الذي وضعها على الجهاز، وسأله: «هل يمكنني كتابة رقم ذلك المستشفى؟».

وسأله بعد كتابة الرقم: «هل لك أن تطلب لي سيارة أجرة. سأنتظرها في الخارج».

فقال الحارس وهو يمسك بالسّماعَة من جديد: «شدّ حيلك أنت أيضاً!».

عندما وقف ماكس على درج المدخل، استنشق الهواء بعمق بضع مرّات. ما هذه الليلة؟ لكنّ المصيبة أصابتهم هم هذه المرّة، لقد أصابت الآخرين في الليالي الأخرى، وأصابت عدداً لا يحصى من الآخرين هذه الليلة أيضاً - ليس هناك يومٌ أو ليلة أو مجرد لحظة، لا يحلّ فيها شيءٌ من هذا القبيل بأحد، ما دامت البشرية موجودة. الشؤم يجوب أصقاع الأرض بلا توقّف، مثل سنونو عبر سربٍ من البعوض، بانعطافات حادّة، فاعراً منقاره على اتساعه.

*

عندما خرج من سيارة الأجرة أمام «مديح الحمافة»، كان المطر قد توقّف أخيراً. الضوء مشتعلاً في المحلّ. تصاعد من مكان قريب في المدينة الهادئة صخبُ الطّلاب الخارجين من ناديمه؛ كانوا يزعمون طوال تلك الساعات في موقعهم المكسوّ بخشب البلوط، الذي نشروا فيه الخراب. لم يكذبون الجرس حتى ظهرت صوفيا برونس في القسم الخلفي من الكهف المليء بالكتب. كان وجهها خالياً من أيّ تعبير، وعيناها لا تُبديان أيّ أثر للاحمرار.

عندما فتحت الباب ورأته، بدت أنها فزعت لحظة. نظرت سريعاً إلى الشارع، إلى اليمين وإلى الشمال: «ما هذا المنظر! ما الذي حدث؟ أين آدا وأونو؟».

- تعرّضنا لحادثٍ في الطريق إلى هنا، ولكن لا تقلقي، الجميع أحياء!

ردّدت: «حادث؟!». تفرّست فيه عيناها الدكناوان الباردتان بطريقة جعلته يشعر بالذنب على الفور: «وطفلها؟!».

- كلّ شيء على ما يرام. إنهم في مستشفى هوخيفين. جثت بسيارة أجرة. كنت في المستشفى الجامعي للتوّ، سمعت هناك الخبر الرهيب عن زوجك. ما حلّ بك شيء فظيع. عاودت النظر إلى خدوشه وملابسه الممزّقة، قالت بفم جامد: «كلّ شيء له نهاية. تفضّل بالدخول!«.

لم يكن أونو يعرف حماته جيّداً: هذه المرأة ليست من النوع الذي يجب معاملته بحذر ويمكن له أن يفقد رباطة جأشه من مكالمة هاتفية. سار في أعقابها عبر متاهة المقروءات إلى الغرفة الخلفية. شعر، تقية، علم اللاهوت. هناك ألبوم صور مفتوح على الطاولة المنخفضة، وإلى جانبه نظارة قراءة سوداء. فوق الكنبه بنّية اللون من المخمل المضلّع علّقت صورة كبيرة للكاتب مولتاتولي^(٩)، لم تلتفت انتباهه في المرة الماضية: في وضعية الحاكم الرومانسية الخاصة بملك بافاري، بحرمة على كتفيه، مثل عباءة ملكية من فراء القاقوم، مثبتاً عينيه النديتين على الحقيقة.

- فنجان من القهوة؟!

- ليس هناك أطيب منها.

بينما تصبّ له القهوة، أخبرها بما حدث. عندما ذكر بقلق أنّ آدا ما تزال غائبة عن الوعي، أوقفت تحريك الملعقة في فنجانها وسألت: «ما تزال؟ منذ ما يزيد عن ثلاث ساعات؟»، وفكرت قليلاً ثم أضافت: «إنها لا تزال صغيرة في العمر من حسن الحظّ. لقد رأيت مرضى بقوا أياماً أو أسابيع طويلة في الغيبوبة، دون آثار دائمة».

نظر إليها متعجباً: «هل كنت تعملين في التمريض؟».

- في الماضي البعيد. أثناء الحرب.

- لا أعرف كيف حالها الآن على كلّ حال. عندما اتصلت بأونو من المستشفى قبل قليل، كان طبيب الأعصاب عندها. هل أتصل لك بهوخيفين؟ لديّ رقم الهاتف. أشارت إلى الهاتف: «تفضّل!«.

(٩) Multatuli (1820-1887): كاتب هولندي، من أشهر رواياته «ماكس هاثيرلار». [م]

إحدى درجات السلم، تحت مخبله البرونزي، في حين تراجع والدها إلى الورا متظاهراً بالفزع، أما والدتها فقد رفعت عينيها إلى التمثال، الذي لا يظهر في الصورة.
سأل وهو يرفع إليها عينيه: «مدينة البندقية؟».

- نعم، قبل سنتين.

- أنتم الثلاثة في الصورة. من التقطها؟

- شخص عَبَّرَ مصادفةً من هناك.

استند إلى ظهر المقعد ونظر عبر الباب النصفى المفتوح إلى المحلّ. الحقّ أنه كان يريد الانصراف، لكنّه شعر بأنّ الوقت غير مناسب بعد.

- ماذا ستفعلين بمحلّ الكتب؟ هل ستواصلين العمل فيه؟

- لا أريد التفكير في هذا الأمر الآن. يجب علينا الانتهاء من الجنازة أولاً.

أحنى ماكس رأسه: «أيجب عليك تنظيمها بنفسك أم لديك أقرباء؟».

- والدتي في دار المسنّين وأخي في كندا، ولكنّ، لزوجي أختان، قد تستطيعان المساعدة. قال أونو بهذا الخصوص إنه سيطلب من عائلته التّدخل في صباح الغد.

قال بصيغة رسمية: «إنه الشخص الذي يمكنك الاعتماد عليه. إذا كان هناك ما أستطيع خدمتك فيه في الأيام القادمة، فأنا تحت تصرّفك دائماً».

ونهض عن مجلسه: «حسناً يا سيّدتي، لن أزعجك أكثر من هذا».

رمقته بنظرة متسائلة: «أين تريد الذهاب؟ لقد جاوزت الساعة الرابعة. لن تقول إنك ستذهب بسيارة أجرة إلى أمستردام؟».

- أستطيع الذهاب إلى المرصد الفلكي. المدير يسكن في المبنى المتاخم، وسيكون لديه سرير لي، وإلا سأنام عند الناطور.

نهضت صوفيا أيضاً: «يا له من هراء أن توقظ هذين الشخصين. تستطيع النوم في غرفة آدا. يمكنك الصعود إلى الطابق العلوي وتبدأ بأخذ حمام».

نعم، ولم لا؟! كان يخشى رؤية أرملة مفعوجة، تتحب عند جثة زوجها بيأس؛ ولكن يبدو أنّ موته زادها صلابة ورباطة جأش. كان هو نفسه متضيقاً من فكرة خروجه مجدداً إلى الشارع بعد قليل. ولعلّها هي أيضاً لا تفضّل البقاء وحدها في البيت هذه الليلة.

- حسناً.. إن لم أكن عبثاً عليك، بقيت بكل سرور.

أطفأت الأضواء، ودلّته في الطابق العلوي إلى الحمام - حجرة صغيرة فيها مغسلة، وطاولة كي مطوية بجانب الحائط، وسلّة غسيل عالية. فضّل الاغتسال في حوض استحمام، لكن لم يكن هناك سوى مقصورة مربعة الشكل، مخصّصة للدوش، بستارة بيضاء من البلاستيك. ما لبث أن خلع ملابسه، التي لم تكن قد جفّت بعد بشكل كامل، وألقى بعضها فوق بعض، ووقف على أرضية المقصورة المرنة المصنوعة من التوتياء، التي كانت محاولة تنظيفها، بمادة حمضية أو أخرى على ما يبدو، قد تركت بقعاً بيضاء في معدنها. ولكنّ التدفّق المتواضع من الرشاش كان دافئاً، فملأه شعوراً مبهجاً بولادة ثانية، وكأنه لم يكن قد تعرّض لِمَا يكفي من الماء في ذلك اليوم. ثمّة قطعة صابون بيضوية الشكل وردية اللون متدلّية من حبلٍ رفيع، استطاع أن ينظّف بها أخيراً كلّ شيء - ليس الأوساخ فحسب، وإنما قُرب ما حدث أيضاً بطريقة أو بأخرى. عندما فتح الستارة، وجد منشقة حمّام على حافة المغسلة وبيجامة مطوية. لوالد آدا طبعاً. بنطال البيجامة قصير جداً، لكنّ القماش القطني ناعم ومريح. في غرفة آدا، في الجهة الخلفية من البيت، انشغلت والدتها بتهيئة السرير؛ كانت النافذة مفتوحة. ألقت نظرة خاطفة عليه: «تبدو في منظر مختلف تماماً».

لم يأتِ إلى هنا من قبل. كانت آدا قد أخذت معظم أغراضها إلى بيت أونو، لكنّ أشياء البنات متروكة هنا. دُمى وحيوانات على الخزانة المنخفضة المحتوية على كتب خاصة بالبنات؛ أشياء صغيرة وحلية رخيصة، علب وزجاجات، على الحائط مُلصقٌ كبير يجسّد كلباً حزيناً من فصيلة الدّموم، ولكن أيضاً صورة مؤطّرة لسترافينسكي^(٩)؛ حامل كراريس موسيقية معوجاً مع أرنب من الصوف. كلّ شيء مرتّب بأناقة، يبدو أنّ الغرفة طُليت بطبقة من الدهان في زمن غير بعيد.

تمنّى أحدهما للآخر ليلة سعيدة وركد في السرير. في جواره يتدلّى حبلٌ على الحائط، من مفتاح كهربائي قريب من السقف شبيه بمنقار ببغاء، مثل الذي كان موجوداً في غرفة طفولته، في بيت والدته. أصدر الطقّة نفسها، عندما شدّ الحبل وغمره الظلام على الفور. صمّت عميق يسود في الخارج. وضع يديه تحت رأسه وأغمض عينيه. هل كان هذا اليوم فعلاً عندما أخذهما من المحطّة؟ تاج الشجرة المهسهس في طريقه إلى الأسفل...

(٩) Igor Stravinsky (1882-1971): مؤلف موسيقي روسي، ومن أكثرهم تأثيراً في القرن العشرين. [م]

استيقظ من النوم عندما اندست بجانبه تحت البطانية. ظنّ في أول الأمر أنه يحلم، فهذا شيء مستحيل الحدوث. لكنّه لم يكن يحلم، فقد شعر فجأةً بذراع صوفيا تلتفّ حوله وبجسدها الدافئ يلتصق بجسده، مرتجاً من شدة البكاء. كان شعرها مسدلاً. نعم، هذا هو المستحيل بعينه طبعاً، ما لا يمكن تصوّره على الإطلاق!

سأل: «ما الأمر؟».

انتحبت وهي تخبئ وجهها في عنقه: «لا تؤاخذني! اصبرني لو أردت! هذا متأّت من الطريقة التي ظهرت بها بتلك الخدوش كلّها وتلك الثياب الممزّقة. كان أوسوالد في هذا المظهر تماماً، في اليوم الذي تعرّفت إليه، في الحرب، بعد عملية قصف.. وهذا تحديداً في اليوم الذي يموت فيه. كان أحمرّ كبيراً بطبيعة الحال، ولكن.. ثم آدا.. ربما من الأفضل ألاّ يعيش هذه المحنة».

ارتعب من كلماتها. أيمن أن يودي الحادث بحياة آدا؟ في غمرة من التشوّش لفّ ذراعه هو أيضاً حولها، مواسياً مواساةً أبويةً وباحثاً عن العون في الوقت نفسه، ثم أحسّ بظهرها الناعم ووركها المكتنزتين تحت روب نومها المرفوع الرقيق. ما الذي يحدث؟ تطابق جسده بدقة في انحناءات جسدها، ثديها، بطنها، مثلما تتطابق آلة موسيقية في حقيبتها. داعب بصورة لا إرادية ردفها العاريين الكبيرين، اللذين لم يكونا ردف في فتاة، بل ردف في امرأة ناضجة، في منتصف الأربعينيات - وكانّ يده تلقفتها دوامةً وجرّرتها معها، فسقطت بينهما ووصلت إلى عالم استوائي آخر من الرطوبة، والشعر، واللحم النابض بالحياة، الذي بدا فجأة وكأنه يطوّقه بصورة كاملة في الظلام. بدأ يرتعش وقبلها. سحبت بنطاله إلى الأسفل واختفى من دون مساعدة في داخلها، وكانّ فتحتها موجودة في كلّ مكان. طوال الوقت أبتت لسانها خارج فمها، بارزاً إلى حدّ بعيد، بينما همهمة سوداء تصدر من حنجرتها، وشيء في أعماق بطنها يعضّ رأس عضوه في كلّ مرّة - ما نوع هذا السرّ؟ أهو عنق رحمها؟ فكّر لحظة في زوجها، المتيسّس على نعشه في مركز حفظ الجثث، الذي لا بدّ أنه هو أيضاً شعر بهذا الشيء عندما حبّلها بآدا، لكنّه لم يُطل التفكير فيه، فقد ساقه العَضّ سريعاً إلى الذروة، وكأنه مُلئ بالهواء بواسطة منفاخ. انبهرت أنفاسه، وانفجر الحدث المبهّر بصرخة قوية، وأفرغ نفسه فيها بصرخة ثانية فثالثة فرابعة. تهاوى على ظهره إلى جانبها، متفصّد العرق ومنقطع الأنفاس، وقبل أن يعرف ماذا حدث، نهضت من السرير. لم يسمع سوى صوت إغلاق الباب.

لم يكن قد رآها. شدَّ الحبل المتدلّي من المفتاح الكهربائي، فأعشاه الضوء فأغمض عينيه. ما حدث للتوّ هو المستحيل بعينه! لا بدّ أنها كانت هلوسة استدعاها كلّ ما عاشه من انفعال وإرهاق! تلمّس عضوه: لا يزال نصف منتصبٍ ومبتلّاً بالكامل. تساءل في انشدها هل نام مع جدّة طفله - في سرير ابنتها التي تعرّضت لحادث للتوّ، مرتدياً بيجامة زوجها الذي مات للتوّ. هاتان الحقيقتان الأخيرتان مؤكّدتان على كلّ حال. كيف يمكن لأحدهما النظر في عين الآخر في صباح الغد؟ مَنْ أغرى مَنْ؟ هي التي أغرته طبعاً! لأول مرة في حياته يتعرّض للإغراء. لعلّها لم تنم مع زوجها منذ زمن بعيد. ألا يجب عليه النهوض من السرير، وترك رسالة قصيرة لها والمغادرة؟ ولكن كيف يجب عليه بدء هذه الرسالة؟ حبيتي صوفيا؟ أم سيّدتي المحترمة؟ كلاهما مستحيل بالقدر نفسه. أيكّتب من دون استهلال؟ وبدت فكرة ارتداء ملابس الدبقة من جديد والسير إلى المرصد الفلكي عبر هورتيس بوتانيكوس، وكأنها العلامة الحاسمة لجسده من أجل وضع نقطة وراء ما حدث اليوم. لم تعد قوّته تسعفه سوى على سحب حبل المصباح.

*

استيقظ في التاسعة والربع؛ ملأته ذكرى الليلة الماضية بارتباك محموم على الفور. فرقع المفصلين العلويين في إبهاميه، مثلما يفعل دائماً عندما يستيقظ من النوم. نهض من السرير في عجلة وفتح الستائر. الطقس هادئ؛ الأغصان وقطعٌ من قرميد السطوح المتطايرة وحدها تستدعي إلى الأذهان ما حدث. ملابس معلّقة على كرسي: كلّها مغسولة وجافّة ومكوية، حتى حذاؤه ملّمع. في الحمام كانت أدوات الحلاقة الخاصة بالسيّد برونس لا تزال على المغسلة، لكنّه لم يلمسها. عندما دخل الغرفة في الطابق السفلي، كانت صوفيا تتكلّم على الهاتف. لقد رفعت شعرها مجدّداً؛ أومأت إليه إيماء برأسها وأشارت إلى إبريق القهوة الموضوع على الطاولة.

بينما يصبّ القهوة لنفسه، سمع أنّ المحادثة تدور عن بطاقات النعية والجنّازة. تصرّفت معه بصورة طبيعية، وقد عادت نظرة رئيسة الدير تتجلى في عينها، وكأنّ شيئاً لم يحدث. إذا كانت قد اختارت هذه الوضعية، فقد سهّلت عليه الأمر كثيراً. أم أنّ شيئاً لم يحدث في الواقع؟ أيّمكن أن يكون قد رآه في المنام؟ اختلس نظرة إليها. هل هذه هي المرأة نفسها التي كانت تبرز لسانها إلى ذلك البعد في الليلة الماضية؟ الآن فحسب لفت انتباهه أنها جميلة القوام،

أكثر امتلاءً من آدا، لكنّها مضبوطة التقاسيم، لا يشوّه الدهن أيّاً منها؛ تنساب ربلتاها الممتيتان بأناة وروية في كاحلين رقيقين.

قالت وهي تضع السمّاعة على الجهاز: «إنّها دول، أخت أونو. ستأخذ عني إجراءات الجنازة كلّها. هل نمت جيّداً؟».

- ممتاز. ولك جزيل الشكر على تهذيب ملابسي!

لقد اتصل أونو أيضاً. وضع آدا ما يزال من دون تغيير، سيأتي معها بسيارة الإسعاف إلى أمستردام خلال فترة الصباح. ستذهب هي نفسها إلى هناك بعد الظهر.

- هل قلتَ له إنني نمت هنا؟

- نعم، أليست هذه الحقيقة؟ هل تريد بيضاً مقلّياً؟

- إذا تكرّمت يا سيّدتني!

عندما اختفت في المطبخ، ناجى نفسه: هذه المرأة منفصمة في شخصيتين مختلفتين، صوفيا النهار وصوفيا الليل، وليس هناك أيّ شيء مشترك بينهما - إحداهما مخلوقة باردة عديمة المشاعر والأخرى تفيض بالعواطف. تذكر كيف كانت آدا تتحدّث عنها في بعض الأحيان، وكأنّها تتحدّث عن فاجرة مثيرة للغثيان، ولكن هل عرفت والدتها حقّ المعرفة؟ لقد انههر بها - لكنّه أيقن أيضاً أنّه لا ينبغي له التلميح بكلمة واحدة عمّا حدث في الليلة الماضية. فكّر في كلّ ما ينتظره من أعمال في ذلك اليوم. يجب عليه مهاتفة أونو بطبيعة الحال، ثم يجب عليه الذهاب إلى المرصد الفلكي: يُهيئ الجميع لفكرة أنّ مادة الرصد لأسبوع كامل يمكن أن تكون قد ضاعت. يجب عليه الاتصال بدفنغلو ليطلب من فلوريس الاتصال بالشرطة. يجب أن يهاتف شركة التأمين من أجل سيارته، وكذلك ورشة التصليح. لم تصبح السيارة عديمة القيمة، لم يتضرّر محرّكها في أغلب الظن، لكنّه لا يرغب في رؤيتها مرة أخرى؛ فيصلحوها ويبيعوها. أخرج مفكرته وهمّ بتدوين بضع ملاحظات، لكنّ رأس قلمه الرصاص كان مكسوراً. بينما ييري القلم، رنّ جرس المحلّ.

صاحت صوفيا: «هل تريد رؤية مَن الطارق؟».

سار فوق السلالم الصغيرة وعبر متاهات الكهف صوب الجهة الأمامية من المحلّ. وقف بالقرب من صندوق الدفع رجلٌ طويل ونحيف، ذو لحية سوداء قصيرة، يحدّق بشراسةٍ إلى حدّ ما في عيني ماكس: «هل لديك شيء عن تناسخ الأرواح؟».

تناسخ الأرواح - هذا يشبه الجنون. أجال ماكس عينيه في ما حوله: «ربّما في خزانة الكتب عن الطبّ النفسي...».

فقال الرجل دون رفع نظره عنه: «أيّ انتقال الروح من جسد إلى جسد». همّ ماكس بالقول إنهم لا يبيعون أيّ شيء يخصّ شركات النقل، ولكنّ صوفيا ظهرت وقالت: «لقد أغلقنا المحلّ يا أستاذ. أغلقناه بسبب حالة وفاة». ثمّ لماكس: «البيض جاهز».

28. الجنازة

في مساء ذلك اليوم، بينما يسير أونو إلى مقهى كايزر، حيث تواجد مع ماكس على اللقاء في الساعة السابعة، نظر بارتياح إلى الكونسيرت خباو: لقد نسي كلياً الاتصال بالفرقة الموسيقية! ستقدم بعد قليل عرضاً خاصاً بالمشاركين! عندما سأل البواب الواقف أمام مدخل الفنانين عما إذا كان أحد من الإداريين موجوداً، وصلت مارايكا بالكلارينيت الخاص بها. عندما أخبرها بما حدث، امتقع وجهها وضمت حقيبة الآلة الموسيقية إلى صدرها بذراعيها الاثنتين، مثل طفل في حاجة إلى حماية. قالت إنها سوف تبلغهم بالخبر وتزور آدا في اليوم التالي.

قال أونو: «لن يكون الوضع مختلفاً إذا تغاضيت عن زيارتها، فهي في هذه اللحظة لا تحسّ بما يحدث حولها».

- كيف تعرف هذا؟ ثم إنني أريد زيارتها من أجلي أيضاً.

أعطاهما رقم الغرفة، طبع قبلة على جبينها، وقطع الشارع إلى الطرف الآخر، إلى المطعم الممتلئ بمرتادي الحفلة الموسيقية الجالسين إلى مائدة العشاء.

كان ماكس جالساً إلى طاولة صغيرة بجانب الحائط. سألته على الفور: «كيف حالها؟».

- ليس على ما يرام.

كان أونو قد سمع من طبيب الأعصاب بعد الظهر أنّ تخطيط أمواج دماغ آدا لم يكن من حسن الحظ «مسطحاً» كما سمّاه، لكنّه أظهر «صورة مشتتة، بطيئة بشكلٍ جدّي».

أحنى ماكس رأسه: «أعرف هذا النوع من المصطلحات بحكم مهنتي».

- قال إنه لا يستطيع التنبؤ بأيّ شيء في الوقت الحاضر. فقط عندما يبقى الوضع على ما هو عليه بعد شهرين أو ثلاثة شهور، يمكنه التحدّث عن غيبوبة لا رجعة منها.

- وإذا كان التخطيط مسطحاً؟!

- تصبح مجرد نبتة.

كان أحدهما يجلس قبالة الآخر وأمسكا عن الكلام.

بدأ ماكس بتردد: «ولكن تصوّر.. آدا في شهرها الخامس.. إذا طال وضعها...».

- يبدو أنه لا يؤثر على الجنين إطلاقاً.

أدرك ماكس فجأة أنه الشخص الوحيد في الوقت الحاضر الذي يستطيع رواية ما حدث في خليج المكسيك. ولكن حتى إذا بقي الوضع على ما هو عليه، فلن يفيد بأي شيء. فأدا لم تكن ستحدّث عنه إطلاقاً، حتى لو لم تتعرّض لحادث. سأل بحذر: «وبعد ذلك؟».

- نعم، ستكون هناك مشكلة بعد ذلك، لكنها مستبعدة في الوقت الحالي. لم تمض ليلة واحدة بعد على ما حدث، هل تدرك هذا؟ جاءت والدتها لزيارتها بعد الظهر، كانت ممرضة في الماضي؛ قالت إنها رأت حالات غيبوبة كثيرة استمرّت أسابيع طويلة.

سمع أونو نفسه يقول هذا - وترأى له في الوقت نفسه وجه آدا الساكن على الوسادة، والقسطرة الفظيعة في أنفها، وكيف جلس بعد الظهر في بيتهما الهادئ ينظر إلى التشيلو الخاصّ بها على مدى دقائق طويلة، كأنما ينظر إلى شاهدة قبر.

قال ماكس في رويّة: «ليس هناك خطر على حياة الطفل على كلّ حال».

- الجميع متفقون على هذا.

مدّ النادل يده بقائمة طعام إلى كلّ منهما، لكنّ أونو أوما إيماءة رافضة وقال إنه يريد أربعم قطع من الكروكيت وكأسين من الحليب. لم يكن ماكس يرغب في تناول الطعام إطلاقاً، فطلب طبقاً من حساء الخضراوات فقط. لديه انطباع أنّ أونو أكثر تفاؤلاً منه، لم يكن هو نفسه مطمئناً - والسبب في هذا طبعاً هو ما قالته صوفيا نفسها، ولكن في الليل.

قال ماكس: «ها أنت ذا تعود إلى الحليب وقطع الكروكيت!».

تنهّد أونو بعمق: «إذا أردت أن أكون في منتهى الصدق.. ولكن لا ينبغي لك إخبار أيّ شخص طبعاً.. هذا بحدّ ذاته ليس أسوأ ما في الأمر. أنا النموذج الفكاهي للأعزب المتزوج».

ابتسم ماكس. أراد القول إنه هو نفسه، وهو نقيض أونو في كلّ شيء، النموذج المأساوي للزوج غير المتزوج في أغلب الظن - لكنّ هذا ينطوي على معنى مزدوج، فلم يستطع النطق

به. فكّر أونو من جانبه في هذا الأمر على الفور، وعلم أيضاً أنّ ماكس يفكّر فيه، وقدّر فيه أنه لا يريد استخدام نبرتهما المعتادة.

مدّ ماكس منديل المائدة على حضنه، وسأل: «كيف كان تجاوبُ حماتك عندما رأّت آدا؟».

- غير مفهوم. نظرت إلى ابنتها وكأنها تنظر إلى مريضة لا على التعيين، دون أيّ عاطفة، مع أنّ زوجها أيضاً مات للتوّ. لا، إنها نعمة عظيمة أن تكون لك مثل هذه الأم! لم أكن أرغب إطلاقاً تصديق ما تقوله آدا عنها، لكنني الآن رأيته بأمّ عيني.

قال ماكس دون النظر إليه: «مع أنها كانت في غاية اللطف معي. لا أستطيع القول خلاف هذا. استضافتني في بيتها، كوت لي بنطالي، وقلّت لي البيض. لعلّها تجد صعوبة في التعبير عن نفسها».

- نعم، نعم. أستطيع إخبارك ببعض حكايات آدا عنها، لكنني لن أفعل. لعلّك تعرفها أنت أيضاً. على كلّ حال، ستُحرق جثة برونس يوم الاثنين، ستصلك بطاقة النعية قريباً. هل ستأتي، أم أنك ستكون في دفنغلو؟

توقّف: «ما بك؟ تنظر إليّ فجأة وكأنك تبرّزت في بنطالك!».

كانت عينا ماكس قد اتسعتا بارتياح، فقد لاحظ انتصاب عضوه تحت منديل المائدة، عندما فكّر برؤية صوفيا مرّة أخرى. ماذا يعني هذا بحق السماء؟ هل يعني أنه لم يستطع فهمها فحسب، مثل آدا وأونو، أم أنه لا يستطيع فهم نفسه أيضاً؟

*

ذهب ماكس بسيارة فولكس فاغن، استعارها من ورشة التصليح، من المرصد الفلكي إلى محرقة الجثث الواقعة على التلال البحرية القريبة من لاهاي. كان يجب أن يكون في دفنغلو في الواقع، ولكنّ أحد زملائه أخذ عنه مهمّته بعد إبلاغهم بالحادث.

هنا تبخّر كلّ الآمال في الهواء. في هذا المكان أيضاً يسود ازدحام ساعة الذروة، مثلما كان سائداً قبل ثلاثة شهور، أثناء حفلة زفاف أونو - ولكن الآن من أجل إلغاء ما كان يوضع أسسه بشكل متواصل في دور البلدية. سيارات الليموزين السوداء نفسها تدخل البوّابة وتخرج منها، الآن من دون شرائط زينة بيضاء على مراياها الجانبية، والآن لا يرافقها النّثار والضحك، ولكن في صممتٍ ثقيل، تملؤه فقط الطقطة الخفيفة الصادرة عن القواقع المطحونة تحت الدواليب.

استنشق هواء البحر بعمق. ثمة مجموعاتٌ من الناس تقف هنا أيضاً في كلّ الأرجاء، لكنّه لم يرَ أحداً ممّن يعرفهم. أمام البوّابة، سأله رجلٌ في بدلة سوداء، بقبّعة في يده، عن اسم المتوفّى الذي جاء من أجله؛ بحكم مهنته كان وجهه يعبر عن حزنٍ كونيّ هائل، شبه منطقي، على فناء الناس جميعهم، وبضمنهم سقراط، لا يستطيع أحدٌ مضاهاته فيه بحزنه الشخصي. ستقام مراسم تشييع السيّد برونس في القاعة الصغيرة. لم يصل موكب تشييعه بعد.

سار على الدرب الترابي الممتدّ بمحاذاة «الكولمباريا»^(٥). الجرار تقوم في مشكاوات الجدران الحجرية، مثلما كانت تقوم في صيدليات القرن الثامن عشر؛ لكنّها في الوقت ذاته تثير انطباعاً آسيوياً في نفسه، تنضح بشيء صينيّ، شيء من ثقافة مندثرة منذ آلاف السنين. إنه هو نفسه لا يريد أن تُحرق جثته إطلاقاً؛ هذا أمرٌ محسوم بالنسبة إليه. في إحدى المرات توصل مع أونو إلى استنتاج، أنه يجب عليك التقرير ما إذا كنت تريد الرجوع إلى والدك أو إلى والدتك بعد موتك، إذا أردت الرجوع إلى والدك، فيجب عليك دخول النار، لأنّ النار هي الروح؛ أما والدتك فهي الأرض طبعاً، الجسد. قرّر أونو منذ ذلك النقاش بأن تُحرق جثته بعد موته. الشمس مشرقة على ارتفاع منخفض فوق رؤوس الأشجار - وعندما لاحت المحرقة، رأى دخاناً رقيقاً شاحب الزرقة، شبيهاً بدخان السجائر، يتصاعد ببطء من سطحها المسطح المنخفض، مرثماً على الغابة الداكنة في الخلف. قرّر أن يطوف بالمبنى قبل الدخول إليه.

توقّف عن السير في الجهة الخلفية، ليس بسبب حاوية القمامة القائمة هناك، لأنّ القمامة لا مناصّ منها في كلّ الأماكن؛ وليس بسبب السائقين الواقفين بجانب سيارات نقل الموتى المركونة وهم يضحكون ويتجاذبون أطراف الحديث، لأنّ كلّ شخص يعمل عمله؛ ولكن بسبب المدخنة مربّعة الشكل، التي تعرّفها من بيركيناو. لا ينبعث دخانٌ منها، بل حرارة حارقة. يتصاعد ضجيج المراوح من شبكة عند قاعدتها. لم يرَ المشهد، لكنّه رآه في الوقت نفسه: كيف أنّ عاملي الحرق تحت الأرض يسحبون الحاملات مع التواييت من المصاعد الهابطة، يجرونها عبر الأرض المبلّطة المضاء بضوء النيون، ويدفعونها مع الأزهار وكل شيء في الجحيم الأبيض: صحيح أنها ليست بالآلاف كلّ يوم، اثنتان أو ثلاث في الساعة، ولكنّ هذا ما يحدث هناك في الأسفل على كلّ حال.

كانت مجموعة صغيرة من الناس قد تجمّعت في غرفة الانتظار أمام القاعة الصغيرة.

(٥) جدران بمشكاوات تُحفظ فيها الجرار المحتوية على رماد الموتى. [م]

والد أونو ووالدته موجودان أيضاً زوج أخته الصغرى، كارل، جراح الدماغ في روتردام. أما الآخرون -أصدقاء برونس ومعارفه بطبيعة الحال، أصحاب الفكر الحرّ والفوضويون، وربما حتى الممتنعون عن المشروبات الكحولية- فلم يكن قد رآهم من قبل. إنه يتذكّر والد آدا بغموض، لكنهم يشبهونه بطريقة أو بأخرى: مهلهلو الهيئة إلى حدّ ما، مثل الديمقراطيين الاشتراكيين، ولكن تنقصهم هالة البرجوازية الصغيرة ويتمتعون بوضوح فكريّ معيّن، ينظرون به إلى الأمور. لقد قرؤوا الكتب - وإن كانت ربّما تلك الكتب التي لم يعد أحدٌ يقرؤها سواهم. كانوا ينظرون باستحياء بين حينٍ وآخر إلى وزير الدولة الكالشيّني، الذي يقرأ كتاباً واحداً في المقام الأول.

لم يعرف منهم سوى برونو. كان عازف البيانو قد رأى إعلان النعي، وسأل كيف تجاوبت آدا مع وفاة والدها.

أجاب ماكس: «لم تتجاوب».

بعد أن أخبره باختصار بما حدث، سأل برونو بارتياح عمّا إذا كانت غائبة عن الوعي اليوم أيضاً، لكنّه لم يعرف الجواب. استأذنه بالانصراف وألقى التحية على عائلة أونو. بالنسبة إليهم أيضاً من البديهي ألا يتكلموا عن برونس بل عن آدا. أكّد جراح الدماغ بنبرة متردّدة أنّ الغيبوبة طويلة الأمد لا تدلّ بالضرورة على تلف في الدماغ، لكنّه مع ذلك يفضّل رؤيتها تفيق اليوم قبل الغد. لم يتعرّض جذع دماغها، حيث يوجد مركز التنفّس، للضرر على كلّ حال.

قالت والدة أونو: «البتت المسكينة. وحبلّى أيضاً. ألا تثير شفقة الربّ؟!».

فقال السيّد كويست بقوة حجر الغرانيت: «لا تتحدّثي بهذه الطريقة يا تو! لا أحد يعرف الحكمة من التدايبر الإلهية».

- نعم، طبعاً، لكن...

- ليس هناك «لكن» أمام الحكمة الإلهية.

صمتت مرعوبة.

قال ماكس: «كان أقرب إلى لعبة من الأعياب الشيطان. كان علينا التوقّف أمام شجرة أسقطتها الريح، وبعد ذلك بوقت قصير سقطت شجرة ثانية في ذلك المكان نفسه بالذات».

رمقه السيّد كويست بنظرة خاطفة، لم يستطع معرفة مغزاها تماماً: من ناحية عبّرت عن أنّ الشيطان شيءٌ خاصّ بعبدة الأوثان، أو بالكاثوليكيين الرومانيين، الأمر الذي يفضي عملياً إلى

الشيء نفسه؛ ومن ناحية أخرى التمتع فيها شيء من الاستحسان، لأنه قدّم يد العون لزوجته بطريقة مانوية في معضلة «الثيوديسيا»^(٥). ناجى ماكس نفسه: لعلّه صحيح فعلاً أنك لا تستطيع الإيمان بالربّ إلا إذا آمنت بالشیطان أيضاً. إذا آمنت بالربّ وحده، فستقع في مشكلات. من أين جاءت غرف الغاز تلك إذا؟ ولماذا وقعت تلك الشجرة في ذلك المكان بالذات الذي وقعت فيه؟ لماذا بلغ خلق الربّ ذلك الحدّ من النقصان أن صار ظهور مسيح في وقتٍ لاحق أمراً ضرورياً؟ «ورأى الربّ أنّ ذلك حسنٌ جداً» - لكن ذلك لم يكن حسناً على الإطلاق. لم يكن فيه أي شيء صحيحاً.

فتح خادماً أبواب القاعة ببطء، محطّماً هو أيضاً بشكل كامل من الحزن، رغم يفاعه سنّه. ماكس هو آخر شخصٍ دخل إلى القاعة. التابوت المغطّى بالأزهار موضوعٌ أمامهم في الوسط، مثل صاروخ على وشك الإطلاق. رأى في الصف الأمامي أونو، وأخته دول وصوفيا مع سيّدة مسنة لا بدّ أنها والدتها؛ أما الآخرون فهم أقرباء برونس بطبيعة الحال. كانت دول قد جاءت بفكرة أن يُعزف الجزء الثاني من كونشيرتو التشيلو للموسيقار دفوراك، ما جعل آدا أكثر حضوراً مما لو كانت حاضرة فعلاً. خُيّل إلى ماكس أنّ الموسيقى هي الشيء الوحيد الذي يتحرّك في الصالة. نظر إلى رأس جدّة آدا الأبيض، بالشعر المرفوع في عقدة. هل الجالسة هناك جدّة أم طفله يا ترى؟

عندما انتهت الموسيقى في هوادة، خطا الرجل الشابّ المحطّمْ خطوة إلى الأمام وقال، بقبّعة في يده أيضاً: «فليتفضّل السيّد أكرسدايك بإلقاء كلمة!».

خرج رجلٌ سائب من بين الصفوف، بينما يستلّ أوراقاً من جيبه الداخلي، ومضى إلى المنصّة ووقف خلفها. فتح الأوراق، نظر بعبوس إلى الحضور، وقال بحسم بالغ: «لقد توفي أوسوالد برونس».

هنا يتحدّث شخص لا يعرف التردّد. بينما يذكر باختصار إنجازات برونس في قضية الفكر الحرّ وانتصار العقل على الظلامية بجميع أشكالها، والإلحاد العلمي على دوغمائية الكنائس في كلّ الطوائف، ولا سيما في فرع لايدن، حيث كان برونس قد بذل قصارى جهده، رأى ماكس على مؤخرة رأس أونو أنه يفكر في والده، الذي يجب عليه معاشة هذه التجربة مرّة أخرى. أجال عينيه في ما حوله. القاعة الساطعة بجدرانها من حجر الآجر نظيفة وجرداء،

(٥) نظرية العدالة الإلهية. [م]

مثل سيل ماءٍ بارد من الصنبور - إنها التصميم المعماري الوظيفي للموت الحديث. ولكن ليس التصميم المعماري الحقيقي للحزن هو كنيسة مظلمة عابقة بالبخور، بأعمدة وتمائيل ومشكاوات معتمة، تشتعل فيها الشموع بجانب ما يلوح بخفوت من لوحات وآلهة مقتولة وأدوات مقدسة؟ ألا تؤذي من الناحية العاطفية دوراً وظيفياً أكثر مما تؤذي مثل هذه القاعات؟ الظاهر أنّ محطمي الأيقونات الدينية النباتيين من مدرسة باوهاوس ودي ستايل قد نسوا هذا الأمر.

اقتبس أكرسدايك في نهاية خطابه قولاً مريراً من أقوال مولتاتولي، تغيّر صوته أثناء مثل صوت قسيس يبدأ بقراءة آية من الكتاب المقدس. طوى مخطوطه، نظر إلى التابوت بشيء من التناقض مع معتقده، وقال بصوت أجش: «إلى اللقاء يا أوسوالدا!».

سيطرت الموسيقى على القاعة مرة أخرى. بعد نصف دقيقة تساءل ماكس ماذا ينتظرون الآن؟ - عندئذٍ رأى التابوت وهو يوشك على الاختفاء تحت الأرض. توارت الأزهار أيضاً عن الأنظار وانزلقت الدرفتان إحداهما باتجاه الأخرى وانغلقتا ببطء. الآن سيبدأ العمل في السرداب، أولئك الرجال المتفصّدون عرقاً، ذوو البطون الكبيرة من شرب البيرة، بالسجائر بين شفاههم؛ اعترته رغبة شديدة في الذهاب إلى الخارج ليرى كيف يتصاعد الدخان من المدخنة بصورة مفاجئة. خطرت آدا في باله. بينما يُتلف جسد والدها، ترقد هي في السرير ولا تعرف شيئاً مما يحدث. أم أنّ هناك رابطاً بين الابنة وأبيها يبلغ من العمق والسرّة أنها تحسّ به بطريقة أو بأخرى؟ ربما مثل الرابط الموجود بينها وبين طفلها الذي لم يولد بعد - أو مثل الموجود بين الابن وأمه؟

عندما اكتملت العملية في العالم السفلي على ما يبدو، خطا الرجل الشاب خطوةً إلى الأمام مرة أخرى وأوماً إلى عائلة الميت إيماءةً داعية؛ في الوقت نفسه فُتح مصراعاً باب على الجهة الجانبية، وانتشرت رائحة القهوة على الفور، مثل رائحة بخّور في مملكة الأحياء. وقف أقرباء الميت في صفٍّ واحد وكان ماكس آخر مَنْ قدّم تعازيه. صافح صوفيا دون قول شيء، وأحسّ بدفئتها أثناء مصافحته؛ لكنّها لم تُظهر أيّ تجاوب، رغم أنّها رأت عليه هذا الأمر. قدّمته إلى والدتها التي نظرت إليه بعينين باردتين شبيهتين بعينيها، متكئة على عكازة، وقالت: «سمعت أنّك كنت تقود السيارة. كم هو شيء فظيع!».

أحنى رأسه بصمت. كانت والدته برونس تذرف الدموع، ما جعل والده أيضاً يكاد لا

يستطيع التحكم بنفسه؛ ولكن كلما تقدّمت الأجيال، أصبحت المعاناة أقلّ وطأة: الصغار من أبناء وبنات إخوته، في النهاية، بدوا في مزاج مرح بما لا يدع مجالاً للشكّ. كان الطابور قد تلاشى وراءه، فسأل أونو عن وضع آدا اليوم. أجاب أونو: «مثلما كان».

واستأذنه بالانصراف، عليه الذهاب إلى والده ووالدته، ليصلح ما أفسده أكرسدايك: - ما أقترفه بحقّ هذين الشخصين.. سأعاقب عليه عقوبةً شديدة ذات يوم. على كلّ حال سنذهب بعد قليل إلى شارع ستاتن، إلى منزل والديّ، لكن الاجتماع خاصّ بالأقرباء فقط. لا أستطيع دعوتك. - طبعاً لا. سأتصل بك غداً.

أخذ فنجاناً من القهوة وقطعة من الكعك من مائدة المشروبات، وأخذ يمشي في هوادة بين الحاضرين، يتبادل مع أحدهم بضع كلمات بين حينٍ وآخر. بقي يلقي نظرة خاطفة في اتجاه الأرملة، لكنّها لم تنظر إليه. طبعاً لا. لقد ارتكب خطأً كبيراً ويجب عليه إيعادها عن رأسه. كانت هفوةً منها؛ لقد تركت العنان لنفسها مرّة واحدة تحت وطأة الفاجعة، وها هي ذي قد استعادت سيطرتها على نفسها. أصبحت المرأة بعيدة المنال مجدّداً، مثلما كانت على الدوام. لعلّها أقنعت نفسها في هذه الأثناء أنّ ما حدث لم يحدث.

لكن عندما بدأ الحاضرون يهيمون بالمغادرة، تكفّل بأن يكون بالقرب منها على سبيل المصادفة. بينما تساعد والدتها في النهوض عن المقعد، سألتها: «ألم تفتقد مبراتك؟ لقد تركتها عندي الأسبوع الماضي!».

- أوه، أهي عندك؟!

نظرت إليه بعدم اكتراث: «إلى اللقاء. شكراً على اهتمامك».

- إلى اللقاء يا سيّدتي!

*

فضّل ماكس الذهاب مساء ذلك اليوم نفسه لأخذ مبراته، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً بطبيعة الحال. في اليوم التالي أيضاً بقيت أفكاره تشرّد باستمرار: من نظام 3C 296 إلى العُصّ الداخلي للسيدة برونس. ألم تكن «إلى اللقاء» دعوة مبطنّة؟ أم أنه يقنع نفسه بهذا؟ لعلّها

قصدت فعلاً تلك المبراة فحسب. ولكن أيعود المرء إلى ذكر شيء سخيّف مثل مبرة منسيّة - وذلك بعد حرق جثة زوجته مباشرة؟ لو أنّها قلم حبر، أو مبرة مميّزة للغاية، لكان شيئاً مفهوماً، لكنّها مجرّد مبرة رمادية عادية بربع فلورين، لم يفتقدها حتى، ولديه منها خمسٌ أو عشرٌ في البيت، وفي المرصد أيضاً. حقيقةً أنه لم يزرها في مساء اليوم التالي أيضاً، بل أجبر نفسه على ركوب سيارته والذهاب إلى أمستردام، متأتية من عدم قدرته على معرفة الموقف الذي يمكن له وضع نفسه فيه. ألم يورّط نفسه في المشكلات بما فيه الكفاية؟ المرّة الأولى، جاءت المبادرة من صوفيا برونس، في ظروف استثنائية، لذلك يمكن اعتبارها لم تحدث بمعنى أو بآخر. ولكن إذا حدث مرة ثانية فستكون المبادرة قد جاءت منه، وستكون بدايةً جديدة، وإذا أسفرت عن نتيجة، سوف يتغيّر كلّ شيء، وتتبعها مرة ثالثة، ورابعة أيضاً. كيف يمكن أن يبقى هذا سرّاً؟ تصوّر لو يعرف أونو! يضاف إلى هذا أن ابنتها قد تنجب طفلاً يكون صورة طبق الأصل عن عشيقها - ماذا سيحدث عندئذٍ؟ سيصبح كلّ شيء كارثياً بشكل مضاعف، ولعلّه لن يخلو من الخطر. وكونه رجل علم، لا يستطيع أن يستبعد مئة بالمئة احتمال حدوث كارثة ثالثة: أن تحبل منه صوفيا أيضاً.

لكنّه لم يعد يستطيع التحمّل. جعلته ذكرى العُصّ والظروف المشيرة في تلك الليلة، قبل أسبوع، يفقد كلّ اهتمام بالنساء الأخريات. أخذ مثل الشخص الذي يتوقّف عن التدخين ولا يفعل أيّ شيء طوال اليوم سوى التفكير في السجائر، يهيم على وجهه في أرجاء المرصد، يدخل حديقة هورتيس بوتانيكوس، يعود إلى المرصد، يمشي جيئةً وذهاباً في غرفته، يذهب لشرب القهوة، يُجري محادثات ينساها على الفور، وعندما غادر معظم زملائه إلى البيت، ذهب لتناول العشاء في المطعم الصيني، الذي غالباً ما كان يذهب إليه مع آدا. شرب ثلاث قناني من مشروب ساكه، وذهب إلى الهاتف في التاسعة والنصف وأدار الرقم، المسجّل تحت اسم آدا في مفكرته.

- السيّد برونس.

- معك ماكس ديليوس. أتصل بك من أجل مبراتي.

- إنها هنا على الطاولة.

- هل يمكنني المجيء لحظةً لأخذها؟ أم أنّ الوقت متأخر؟

- الوقت ليس متأخراً إلى هذا الحدّ.

- إذا، سأكون عندك في الحال.

دفع الحساب وهو يرتجف، وذهب بسيارته إلى «مديح الحماقة». أوقف سيارته بنصفها على الرصيف وعقد العزم على ألا يأتي بأي مبادرة، كعادته في الحالات الأخرى؛ سيري ما يحدث.

فتحت صوفيا الباب بنظارة القراءة السوداء على أرنبه أنفها.

- مرحباً ماكس!

- مرحباً سيّدتى!

سار في أعقابها عبر محلّ الكتب المستعملة، الذي أحدث انطباعاً أنه قد استأنف عمله. في غرفة الجلوس كانت قد أشعلت التلفزيون وكتمت الصوت؛ في إحدى الساحات، في روما كما يبدو، تضرب الشرطة المتظاهرين.

- ماذا يحدث؟

- أوه، هذا. لا أعلم، أردت مشاهدة فيلم من بطولة غريتا غاربو يوشك على البدء. تفضّل بالجلوس، أم يجب عليك المغادرة في الحال؟

بينما تعدّ له القهوة في المطبخ، رفع الصوت وجلس على الكنبه. الحقّ أن أخبار السياسة قد فاتته منذ حبّل آدا؛ طبعاً كان يقرأ كلّ ما يحدث في الجريدة، وقد حدث الكثير، لكنّه يقرؤه مثلما يقرأ الإعلانات أو الأخبار الاقتصادية: لم يكن يصل إلى المنطقة التي يعيش فيها بشكل شبه دائم منذ ذلك الوقت - ولا يصل إليها الآن أيضاً. عندما دخلت صوفيا بالقهوة، ظهر على الشاشة عنوان فيلم آنا كارينينا.

في البيت لديه جهازٌ محمول، بهوائي استقبال داخلي قابل للمدّ على شكل حرف «V»، لكنّه نادراً ما يُشعله؛ لم يستطع تذكر أنه شاهد التلفزيون مع آدا ذات يوم. ولكن الآن، في هذه الغرفة العلوية في القسم الخلفي من محلّ بيع الكتب، وفي سرّيّة تامّة، يُظهر هذا الشيء البرجوازي المختصّ بتقديم المباهج كلّها جانباً خفياً مثيراً بصورة مفاجئة، مثل حذاء بريء أمام «فيتيشي أحذية»^(*). جلست صوفيا في المقعد الصغير ذي الذراعين ولقّت ساقاً على ساق، أخذت تحرّك الملعقة في قهوتها وهي تشاهد الدراما التي تتكشف أمامها على الشاشة. لم يتجاذبا أطراف حديث. لقد قرأ الرواية قبل نحو عشر سنوات، لكن لم يحدث لديه انطباعٌ

(*) شخص يُثار جنسياً من رؤية حذاء. [م]

أنّ الفيلم يمتّ بصلة إلى الكتاب أكثر مما تمتّ صورة كارثة إلى تلك الكارثة. قصور. أزياء مبهرة للأبصار. وجه غاربو المنيع، النبرة اللبائسة الغنائية في صوتها. أخذ بين حين وآخر ينظر من زاوية عينه إلى صوفيا، إلى كاحليها الرقيقين الجميلين. ناجى نفسه: ما كان في الماضي مدفأة يجلس أفراد الأسرة حولها، أصبح الآن جهاز التلفزيون. التلفزيون هو النار الحديثة. أراد قول هذا لها، لكنّه شعر بأنه يجب عليه التزام الصمت.

عندما أفسح صفير القاطرة المميّنة وهسيسها وسحب بخارها الرهيبة المجال لآخر الأخبار، أطفأت صوفيا التلفزيون وسألته هل يريد شرب شيء آخر: «كأساً من النبيذ؟».

- إن كنت لا أشغلك عن...

- أنا لا أنام في وقت مبكر، أما أنت فيجب عليك الذهاب إلى أمستردام.

- سأصل خلال نصف ساعة. الطريق هادئ الآن.

أهي تلعب لعبة - أم العكس صحيح؟ بعد أن صبّت له كأساً من النبيذ من زجاجة ريوجا مفتوحة، تحدّثا عن آدا. لقد ذهبت في الصباح إلى المستشفى: ما زال وضعها من دون تغيير، وصار الأطباء أكثر تشاؤماً بصورة ملحوظة. لأنها أوضحت لهم أنها حاصلة على شهادة في التمريض، تحدّثوا معها بطريقة مختلفة عما يتحدّثون بها مع أيّ قريب آخر. أبلغوها بتفاصيل النتائج المخبرية، وفحص الوظائف الحركية، وردود فعل العينين. لا يمكن إعطاء تشخيص دقيق بشكل أقلّ أو أكثر إلا بعد أسابيع، ولكن ما يزال هناك أمل وسيبقى هناك أمل في الوقت الحالي. حتى إنّ هناك، في الأدبيات الطبيّة، حالة معروفة عن رجل في الأربعين من العمر بقي في غيبوبة سنة ونصف، لكنّه أفاق منها وبدأ يتكلّم من جديد، وإن كان مصاباً بشلل شبه كامل ومعتمداً كلياً على مساعدة الآخرين.

أحنى ماكس رأسه. إنها تفكّر في ما يفكّر فيه بطبيعة الحال: كيف ستسير الأمور إن لم تعد آدا إلى وعيها. أراد بدء الحديث عن هذا، لكنّه لم يجرؤ. سأل كيف تسير الأمور في محلّ بيع الكتب المستعملة، فأجابت صوفيا إنها فتحتة بعد ظهر اليوم، ولكنّ هذا الوضع لا يمكن أن يستمرّ فترة طويلة؛ عندما يبحث أحدٌ في المحلّ ويريد شراء كتاب، تبيعه بالسعر الذي كتبه زوجها بقلم الرصاص في الصفحة الأولى الفارغة من الكتاب. ولكن عندما يُخرج أحدٌ كدسة من الكتب من حقيبتها لبييعها لها، لا تعرف ماذا تفعل فتصرفه من المحلّ.

ساد صمت.

سأل ماكس: «كيف كانت آدا في طفولتها؟».

نظرت صوفيا إلى يديها: «هل أخبرك بهذه القصة؟ في إحدى المرات، تشاجرت معها، قبل أن نذهب أنا وأوسوالد إلى مكانٍ ما. كانت حينذاك في نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر. لقد أشاعت حكاية فظيعة عني وهي أنني وضعت القطّ في صندوق من صناديق الكتب وأغرقت في قناة رابنبورخ - في حين لم يكن لدينا قطّ على الإطلاق. لأنّ أوسوالد يتحسّس من القطط. عندما عدنا إلى البيت بعد الظهر، وجدنا رسالة قصيرة هنا على الطاولة، كتبت فيها إنها تركت البيت ولن تعود أبداً. في اليوم السابق كنا قد تناولنا الفطائر المحلاة، وكما تعلم، نحن نعدّ الفطائر المحلاة بكميّات كبيرة على الدوام؛ اختفت الفطائر المتبقية كلها. ظننّا أنّ الأمر لن يأخذ مثل هذا المنحى، ولكن عندما لم تعد إلى البيت بحلول وقت العشاء، بدأ القلق يساورنا. اتصلنا بكلّ الذين نعرفهم، وذهب أوسوالد، بصورة لها، إلى مركز الشرطة في وقتٍ لاحق من المساء. بقينا مستيقظين طبعاً، وبحلول منتصف الليل، لم يعد أوسوالد يتحمّل أكثر من ذلك، خرج عن طوره كلياً، فركب درّاجته الهوائية وذهب يبحث عنها. وظللت أسمع، من بُعد بضعة شوارع، وهو يناديها بأعلى صوته. ولكن بعد مضي نصف ساعة انتابني شعورٌ غريب بصورة مفاجئة، لا أعرف أيّ شعور كان، صعدت إلى علية البيت وفتحت باب المستودع. وجدتْها نائمةً هناك بمعطفها، وإلى جانبها الفطائر المحلاة، موضوعة في منشفة مطبخ معقودة الأطراف».

- وبقي زوجك يتجوّل ساعات في شوارع لا يدن ويناديها؟

- نعم. عندما عاد إلى البيت، كنت قد أرقدتها في سريرها منذ وقت طويل. حتى إنها لم تلاحظ أنني خلعت ملابسها.

- واليوم التالي؟

- لم يتحدث أحدٌ عن الموضوع.

لم يكن يُسمع أيّ صوت في الخارج. أفرغ ماكس كأسه - وقرّر في نزوة ألاّ يبادر بقول أيّ شيء. صبّ لنفسه ولصوفيا كأساً أخرى من النبيذ ونظر إلى مبراته الموضوعة على الطاولة. «قصة خيالية». ها هو ذا يجلس في هذه الغرفة العلوية، التي رأى فيها آدا أول مرة، والدتها بعد برهة قصيرة من ذلك. الوقت يمرّ والصمت يطوّقه مثل حمام يزداد دفناً. يرى قامتها باستمرار في حافة مجال رؤيته، بالسّر في أعماق حضنها. بعد مضيّ بضع دقائق نظر إليها

برهة قصيرة، فبادلته النظر مدّة ثانية واحدة، ولكن دون أيّ تعبير على وجهها. لم يُظهر هو أيضاً أيّ علامة على الفهم؛ هو يعلم علم اليقين أنه لو ابتسم، لحطّم كلّ شيء.

بعد مرور عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة من الصمت، علِم أنه في طريقه إلى الخسارة. إنها أقوى منه. ستبقى حتى صباح اليوم التالي جالسة في مقعدها ولا تقول كلمة واحدة. نظر في ساعة يده بقلبٍ خافق وقال: «لقد تأخّر الوقت. أظن أنني سأذهب».

نظرت هي الأخرى في ساعة يدها: «هل يجب أن تعود إلى لايدن صباح الغد؟».

- أمرٌ لا بدّ منه.

- وشربت الكحول أيضاً! لو أردت، استطعت النوم هنا!

- حسناً.. إن كنت لا أضايك... .

كانت أدوات العناية الشخصية الخاصة بالسيد برونس قد اختفت من الحمام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

29. الاربعة

في الأسابيع التالية صار يزور صوفيا كل بضعة أيام. في كل مرة يتصل بها في أول الأمر ليعلن عن مجيئه، إذ يبدو له أنّ مجرد تحديد موعد ينطوي على كثير من الحميمية، وفي كل صباح يشكرها بصيغة رسمية على حسن ضيافتها. كانا يتحدثان قليلاً، يقرأان قليلاً، أو يشاهدان التلفزيون؛ وعندما يتأخر الوقت على الذهاب إلى أمستردام في آخر الأمر، لا تمنع من جهتها بقاءه لقضاء الليلة. في كل مرة تفتح الباب في الظلام وتندسّ تحت اللحاف إلى جانبه؛ تترك العنان لنفسها بشكل كامل، ثم تخفي من دون أن يكون قد رآها. لم تعد تتحدّث أيضاً بعد المرة الأولى تلك، فأصبحت علامة له أيضاً ألا يقول شيئاً في السرير. لم يكن قد مرّ بمثل هذا الشيء الملغز من قبل، لكنّه استجاب بطريقة أو بأخرى لرغبة عميقة في نفسه، لم يكن يعيها على الإطلاق. لقد وصل إلى المرأة التي لا يمكن الوصول إليها! لا يجوز لأحد معرفة هذا، ولا يجوز له التحدّث عنه مع أحد - ومعها بالذات في المقام الأول. لو أظهر لها مرة واحدة فقط أنه على علم بالموضوع، لانهى كلّ شيء في الحال. يجب أن تبقى المرأتين اللتين تتكوّن منهما، صوفيا النهار وصوفيا الليل - لو أراد أن يوصل إحدهما بالأخرى، لنشأ تماس كهربائي عطّل الآلية على الفور. حتى إنه لا يجوز له مناداتها باسمها الأول، ما دامت لم تطلب منه فعل ذلك. جال في خاطره: الأطباء النفسانيون سيرون هذا الأمر انحلالاً أخلاقياً، وكان فرويد سينقلب على ظهره من شدة الضحك، ولكن لغزها يتوافق تمام التوافق مع لغزه، مثل الصامولة مع البرغي، لذلك صار مدمناً كامل الإدمان على الوضع - وهذا بغض النظر عن لسانها الطويل، والعصّ الجوفّي المتوهّج. إذا كانت رغبته في المرأة نفسها تتضاءل شيئاً على الدوام في الحالات الأخرى، فهي الآن تتعاطم في كلّ مرة حتى بعد انقضاء شهر من الزمن. لم يعد يلتفت إلى النساء الأخريات - ما عاد بفائدة إضافية في توفير هائل للوقت.

سأله أونو بضع مرّات أين يختفي في الأسابيع الأخيرة، فهو نادراً ما يسمع ردّاً عندما يهاتفه في شارع فوسيسوس، فأجاب ماكس بأنه مضطّرّ لحضور اجتماعات تُعقد بانتظام في المساء عن البرنامج المتعلّق بالتلسكوب الجديد في فيستربورك، الذي من المقرّر أن يدخل حيّز الاستخدام خلال هذه السنة. أراد أونو تصديقه عن طيب خاطر، فهو نفسه لا يفعل شيئاً سوى حضور اجتماعات. بعد بيركيللي، وأمستردام، وبرلين - حيث قُتل رودي دوتشكه في الآونة الأخيرة - انتفض الطلاب في باريس أيضاً. أخذ هذا الأمر بُعداً مختلفاً، أكثر جدّيّة على الفور، لأنه حدث هناك في تقليدٍ ثوري؛ انتقلت الثورة في الحال إلى العمّال، الذين قاموا باحتلال مصانعهم، فبدأت الأمور تأخذ منحىً جدّياً في أوروبا. تأثّر الخيال! ^(٥) يوشك عصرٌ جديد على البدء، ويجب أن يكون الحرس الجديد في هولندا أيضاً على أهبة الاستعداد لاستلام السلطة. بغية الاطّلاع على الأوضاع، سافر أونو في منتصف أيار إلى باريس لعدّة أيام مع بضعة من رفاقه المناضلين، حيث رأى في المقاهي المكتظة حول «سوربون» المحتلّة العديد من النشطاء الذين كان يعرفهم من هافانا، يلقون الخطابات بقوة السلطة الكوبية، تتجلّى في عيونهم نظرة النصر المضيئة. لكنّه، مثلما أخبر ماكس بعد عودته، لم يكشف لهم عن نفسه أمام أصدقائه الهولنديين: ليست هناك حاجة لأن يعرف هؤلاء ما الذي فعله في كوبا على وجه الدقّة، من أجل ألاّ يستخدموه ضدّه في يوم من الأيام.

قال ماكس: «مهنتك تبعث البهجة في النفس!».

- ها أنت ذا تقول. السياسة يضعها الأوغاد المبحّلون، وأنا أخبث الأوغاد جميعهم. إنها ليست مهنة لأصحاب الأرواح الرقيقة غير الدنيوية، من أمثالك.

أما آدا فقد فاتتها أحداث العالم. لم يرها ماكس منذ ليلة الحادث تلك؛ كان يحسّ بشيء يمنعه من زيارتها، ولأنه لم يكن في حاجة لأن يزورها من أجلها هي، لم يعد يشعر بالذنب أيضاً. لم تستعلم صوفيا قطّ عمّا إذا ذهب إلى مستشفى فيلهيلمينا؛ ولكن عندما اتصل به أونو في صباح يوم أحد، وسأله عمّا إذا كان يريد الذهاب معه، لم يستطع الرفض - وبعد مضيّ ساعة كانا يسيران في شوارع المجمع متراحي الأطراف الذي تقوم فيه المباني الكثيرة المنحدر من القرن التاسع عشر. كانت رائحة المادّة المطهّرة «ليزول» تفوح حتى في الخارج في الصباح الربيعي منعدم الريح، ممزوجةً برائحة البرتقال.

(٥) بالفرنسية في الأصل. [م]

ترقد آدا في جناح هامشيٍّ مع ستّة مرضى آخرين راقدين في الغيوبة في صالة مطليةً بدهانٍ أصفر قذر. إنها ساعة الزيارة، يجلس الأقرباء صامتين أو هامسين عند كلّ سرير؛ ضُمّت رؤوس معظم المرضى بالضمّادات. هناك ممرّض يقرأ الجريدة على طاولة صغيرة، تحت تقويمٍ شهريٍّ بصورة كبيرة تجسّد هرم خوفو. آدا راقدة على فروة من صوف الغنم؛ رأسها مُدار قليلاً إلى جانب على الوسادة، وفي أنفها قسطرة. تتنّفس بهدوء، مغمضة العينين، كما لو أنها نائمة - ويُرى في الوقت نفسه أنه ليس نوماً بطريقة أو بأخرى. كان تعبير وجهها قد تغيّر، لكن صُعب عليه أن يحدّد من أيّ ناحية: ينبعث منه شيءٌ أبديّ، وكأنها تتحوّل تدريجياً إلى تمثال عن نفسها. ذراعاها راقدتان بجانب جسدها، يداها لا تتحرّكان. ما تغيّر على كلّ حال بما لا يدع مجالاً للشكّ، ما كَبُر، ارتفع، هو موجة المدّ تحت اللحاف. إنها في شهرها السابع، وما كبر هناك في أعماقها ليس تمثالاً، بل كائنٌ من لحم ودم، وكأنها ما تزال موجودة لا لشيءٍ إلا لإنجابه، مثل ملكة نحل عاجزة تبقىها اليعاسيب في الحياة.

كان كلّ منهما يقف إلى جانب من السرير العالي، المرتّب بإحكام، ونظر أحدهما إلى الآخر.

قال ماكس بصوت خافت وهو يشعر من فوره بتجاوزه لحدوده: «تمثال ينجب إنساناً». اقشعرّ أونو. فهذا يعبر تعبيراً دقيقاً عمّا يحسّ به طوال هذه الأسابيع. لقد اختُصرت إلى فرن يختلف في طبيعته عن الخبز الذي ينضج في داخله. هل ستأتي لحظة تفتح فيها عينيها؟ لم يكن قد طرأ أيّ تغيّر عليها اليوم أيضاً، وقد فقد الأمل تقريباً في الآونة الأخيرة، لكنّه لم يرغب في الاعتراف بهذا لنفسه؛ كذلك لم يرغب في التفكير في المشكلات التي ستعترضه هو نفسه في أغلب الظن، إلا عندما يكون هناك يقين. كان يعتريه شعورٌ غامض بأنّه لو افترض هذا الأمر في ذهنه، لجعل اللاروجة تقترب بطريقة أو بأخرى. قال: «الجميع مقتنعون بأنّ الراقدين في هذه الأسرة لا يسمعون شيئاً، ومع ذلك يهمس لهم الجميع».

أضاف ماكس: «كي لا يسمعوا شيئاً. لعلّهم يسمعون شيئاً رغم كلّ شيء».

- أنظن هذا حقاً؟

رفع ماكس كتفيه: «لا أدري. نحن نهمس أيضاً، أليس كذلك؟ لماذا نحن هنا في الواقع؟ لعلنا في أعماقنا مقتنعان بأنّ هؤلاء المرضى يلاحظون كلّ شيء، لكنهم فقط لا يستطيعون التعبير عنه».

فتح أونو فمه، لكنّه أغلقه مجدّداً - ما جعل ماكس يقول: «نعم، طبعاً أعلم الأمر المتعلّق بتخطيط أمواج الدماغ».

تذكّر أونو ادّعاء مارايكا أيضاً مثل هذا الشيء، لكنّه بالطبع أقصى درجات الهراء. أراد المجادلة بأنّ هذا يعني أنّ الموتى أيضاً يسمعون كلّ شيء، لأنّ الناس يهمسون أيضاً في غرف الموتى؛ ولكن وجود آدا منعه من هذا القول - لذلك لعلّها لم تكن فكرة سخيفة رغم كلّ شيء. وإلى ذلك هو يعلم أنّ ماكس سيدفع بنظريته إلى أقصى حدّ على الفور، مثلما يدفع كلّ شيء إلى أقصى حدّ على الدوام، وسيكون في هذه المناسبة مستعدّاً أيضاً لأن يوسّع الحدود بين الحياة والموت حتى تصبح منطقة محرّمة مترامية الأطراف. وحسبما يعرفه، بميوله شبه المثلية إلى التماثل، سيأخذ لهذا الغرض مدّة الشهور التسعة التي تعقب الوفاة - فيشرح بها على الفور السبب الأعمق لفترة الحداد.

لم يكن ماكس من ناحيته يصدّق نظريته في واقع الأمر - لكنّه في الوقت نفسه يعلم علم اليقين أنّه لا يجرؤ على القول في أذن آدا: «لقد مات أبوك وأنا على علاقة مع أمك». قرأ البطاقة المعلّقة على باقة الزهور بجانب سريرها: «من برونو».

نظر إلى أونو وقال: «عملٌ لا طائل فيه. هدّرٌ للمال».

- فعل ذلك من أجل نفسه.

- وهذا أسوأ بكثير.

عندما أحسّ أونو أنّ إجابته تتضمّن قناعته بعدم صحو آدا مرة أخرى قال: «أو لعلّه يأمل أن تعود إلى وعيها وترى أزهاره على الفور».

خيّم صمتٌ على الصالة. المرضى الهامدون الذين ينظر الزائرون إليهم: الأموات الأحياء. قال ماكس بصوت هامس: «يبدو هنا مثل متحف».

وأمسك في اللحظة نفسها يد آدا مثلما فعل أونو: أونو اليد التي كانت تعزف بها على الأوتار، ماكس اليد التي كانت تمسك بها القوس. شعر كلاهما أنّ اليد رغم دفئها قد أصبحت مجرّد شيء. هنا وهناك تظهر بقعٌ من الصدأ من تحت دهان السرير الأبيض.

قال أونو بعد عدّة لحظات: «دعنا نذهب!».

وضع كلّ منهما اليد في مكانها، طبع أونو قبلة على جبين آدا وسارا صوب الباب. عندما

مدّ ماكس يده إلى مقبض الباب، تحرّك المقبض إلى الأسفل وظهر طبيبٌ في معطف أبيض مفتوح من الأمام، وترك صوفيا تدخل. نظر بعضهم إلى بعض في اندهاش. قال أونو: «لا أصدّق! مرحباً يا أمي!».

- مرحباً أونو، مرحباً ماكس!

صافحها ماكس وهو موقنٌ بأن لا شيء يُرى عليه أو عليها: «مرحباً سيّدي!».

كان الطبيب، وهو رجلٌ أصلع الرأس قصير القامة، يلبس نظارة بعدستين إضافيتين، عدستها الأماميتان مرفوعتان إلى الأعلى، فيبدو وكأنه ينظر بزاوية قائمة إلى السماء. بعد أن عرّفه أونو بأنه طبيب الأعصاب الخاص بآدا، الدكتور ستيفنس، عادوا إلى جانب السرير. راود ماكس شعورٌ غريب. ها هم أولاء أربعتهم قد اجتمعوا هنا فجأة، أو بالأحرى خمستهم. ولكن من هم؟ كلّ ما يعرفه أونو هو وجوده في صحبة صديقه، وحماته، وأم طفله. لكنّه في الواقع في صحبة عشيقة صديقه، الذي قد يكون أبا الطفل الذي ستجنبه زوجته، والذي لا يمكن لهذا السبب أن يُسمّى صديقه عن وجه حق، ولا أن تُسمّى زوجته زوجته. كانت صوفيا تعرف أكثر من أونو، ولكن ليس كلّ شيء، مثلما يعرف هو نفسه.

تخلّلت صوفيا شعر آدا بأصابعها، ثم أرخت الشرشف عند قدميها بعض الشيء. قالت دون النظر إلى الدكتور ستيفنس: «هذه الوضعية ستسبّب لها تشوّهاً في القدمين».

ثم قالت بوجهٍ غير منفعل: «الأخبار ليست جيّدة يا أونو».

نظر أونو بذعرٍ إلى طبيب الأعصاب، الذي قال وهو يلقي نظرة على ماكس: «الحقيقة...».

- قل ما عندك، أنا لا أخفي شيئاً عن صديقي.

- تحدّثنا عن الموضوع للتوّ. لقد تدهور تخطيط أمواج الدماغ على نحوٍ خطير في الأيام الأخيرة، ويتبيّن من مؤشّرات أخرى أيضاً أنه يجب عليك تهيئة نفسك لحقيقة أنّ زوجتك على الأرجح في غيبوبة لا رجعة منها.

بقي أونو ينظر إليه برهة قصيرة، ثم ألقي نظرةً على آدا وخرج من الغرفة. تردّد ماكس، لكنّه بعد ذلك لحق به إلى الممرّ، حيث أخذ أونو يحدّق عبر النافذة إلى الخارج، من فوق شوارع المستشفى المنظّفة بالمحاليل القلوية. قال: «كنت أعرف. كنت أعرف طوال الفترة الماضية. كنا نعرف جميعنا. كيف يمكننا بحقّ السماء الاستمرار في هذا الوضع؟!».

رأى ماكس في عينيه يأساً كاملاً لا يُحتمل - بدا في اللحظة نفسها وكأنه يثب إليه مثل مناشدة، مطالبة!

*

عندما اتصل أونو بأخته الصغرى في ظهر ذلك اليوم ليلبلغها بالأخبار السيئة، قالت إن أفراد العائلة يتصلون بعضهم ببعض منذ أيام طويلة ويتباحثون في ما يجب أن يحدث إذا بقيت أدا في الغيوبة. أزعجه هذا الأمر على الفور إلى أبعد الحدود: يجب عليه تقرير هذا بنفسه؛ لكنّه من ناحية أخرى كان يفهم أيضاً وجوب أن يأتي الحلّ من هذا الاتجاه، فقد اعتاد على القول: «العائلة تبقى إلى الأبد» - وعندما اقترحت دول تنظيم اجتماع عائلي للتشاور، وافق على الاقتراح. اتصلت به في المساء تبلغه أنّ أباهما يريد دعوة القسيس أيضاً، فقال أونو إنه يريد في هذه الحالة إلغاء الاجتماع.

كانت العشيرة قد جهّزت الطبخة مسبقاً بطبيعة الحال. بدا في الظاهر أنه تشاورٌ فحسب، واتضح له على الفور ما سيفضي التشاور إليه. ثمة في عائلته المقرّبة أسرتان لديهما أطفالٌ صغار: أسرة هانس ابن ديدرك الأكبر، وأسرة باولا ابنة ترييس الكبرى. لم يحدث أن اهتم كثير الاهتمام بهذه الفروع الثانوية؛ رأى أولادهما في الحفلات عدّة مرّات، لكنّهم بدوا في كلّ مرّة قد كبروا وتغيّروا إلى درجة عدم تذكّره من هو من ولم يهتمّ معرفة ذلك أيضاً. كان ابن أخيه هانس، وهو في الوقت الحالي السكرتير الأول للسفارة في كوبنهاغن، ولم يحدث أن تبادل معه ما يزيد عن بضع كلمات، يقف على عتبة مهنة واعدة في السلك الدبلوماسي؛ كان مقدّراً له، باعتباره أيضاً من آل كويست، أن يُعيّن في مناصب السفراء في أفطح البلدان، ولعلّه يبلغ في نهاية المطاف أرقى مكانة في النعيم الدبلوماسي: لندن. وهو متزوّج من ابنة أحد المصرفيين من مدينة بريدا، خطر في بال والدها تسميتها هاديفيخ. أما ابنة أخته باولا، التي لا يعرفها أيضاً في الواقع، فقد اختارت زعيماً من زعماء الميناء من روتردام، يكبرها بخمس عشرة سنة، يان كييس، الذي جاءها بثلاثة أطفال من زواجه السابق: رجلٌ بشوش أخرج يناهز الأربعين، يتكلّم بصوت عالٍ ويدخّن السيجار.

بعد يومين اجتمع وفدٌ من وزن ثقيل في بيت والديه في لاهاي. كويست العجوز يجلس في الضوء المضاء خلفه، في مقعده المجنّح ذي الذراعين، بجانب المنصّة التي يقوم عليها الكتاب المقدّس الرسمي، ويجيل عينيه على أولاده وأحفاده. النساء يشكّلن الأغلبية. لم

يكن ديدرك وزوجته أنطونيا حاضرين، فهما في زيارة رسمية في أندونيسيا - ولكنّ ابنتهما هانس كوبنهاغن وزوجته هاديفيخ موجودان؛ لأنه يجب عليه الذهاب إلى وزارة الخارجية على كلّ حال، انتهز الفرصة للمجيء. كذلك ظهرت باولا مع زوجها يان كيبس، مثلما توقّع أونو. باولا في عمر آدا، شأنها في ذلك شأن هاديفيخ، ربما أكبر قليلاً، وحبلى بطفلها الثاني. صوفيا وحدها ليست من دائرة العائلة المقربة. بعد أن قدّمت كوبى الشاي وبسكويت الفستق وانصرفت من الغرفة، توقّع أونو أن يفتتح والده الاجتماع، مثل رئيس مجلس الوزراء - ولكنّ والدته هي التي قالت: «البنّت المسكينة! لم يُغمض لي جفن في الليلة الماضية. أحقّاً ليس هناك أيّ أمل يا أونو؟!».

رفع كتفيه: «يبدو أنه ليس هناك يقينٌ مئة بالمئة في العلوم الطّبيّة، ولكن حسب رأي الأطباء يجب علينا افتراض أنّ وضعها سيبقى على ما هو عليه. بوسعك سؤال كارل». فقال زوج أخته، جراح الدماغ: «اتصلت البارحة بمستشفى فيلهيلمينا. أخشى أنّ هذا صحيح». وألقى نظرة خاطفة على أونو: «ولعلّه أهون الشرور. يمكن لغيبوبة طويلة الأمد من هذا النوع أن تتمخّض عن عواقب وخيمة لا سبيل إلى تداركها، مثل فقدان كامل للذاكرة أو تغيير كلّ في الشخصية».

فقدان كامل للذاكرة. تغيير كلّ في الشخصية. غاصت هذه الكلمات في كيان أونو، مثل طلقات نارية في الجسد. لم يقل له أحدٌ هذا الشيء من قبل، لا كارل ولا الأطباء في المستشفى؛ يبدو أنّ الجميع أصبحوا يأملون في الآونة الأخيرة ألاّ تصحو مرة أخرى.

توجّهت السيّدّة كويست إلى صوفيا: «ما ألّم بك أيضاً شيء مروع. في أول الأمر موت زوجك، والآن هذا القدر الرهيب الذي أصاب طفلتك الوحيدة!».

نظر أونو إلى حماته. منذ أن ظهر في صالة المرضى في إحدى المرات وراها تهذب أظافر آدا بالمبرد - التي لم تعد مقضومة بالأسنان - خفّف حكمه القاسي عليها. كان واضحاً عليها شعورها بعدم الارتياح في هذه الصّحبة، لكنّها جالسة بظهرٍ مستقيم ومحافظة على رباطة جأشها.

- كنت أعرف على الدوام أنّ الحياة مثل الطّقس، يمكنها أن تتغيّر في أيّ لحظة. بعد هذه الكلمات التي لا تنمّ عن مشاعر مسيحية في المقام الأول، خيّم صمتٌ قصير. أخذ صوت المطارق الثاقبة يتناهى من البعد، من المكان الذي يصلحون فيه الشارع. أمل

أونو ألا يعقّب أحدٌ باقتباس مهدّي من تعليم هايدلبرغ^(٥)؛ تبين، لحسن الحظّ، أنّ الجميع يتمتّعون بسلامة الفطرة لئلا يعقّب أيّ منهم باقتباس. ناجى نفسه: ثم إنّ هذا يسري خاصة على الأحوال الجوية في هولندا، وليس على الأحوال الجوية في الصحارى؛ لكنّه احتفظ بهذا لنفسه. قال: «لقد آلت الأمور إلى ما آلت إليه ولم يعد باليد حيلة».

ورأوده شعور أنّ هذا الحشو في الكلام يتضمّن أقصى درجات الحكمة: «ربما لا ينبغي علينا التحدّث اليوم عن عواطفنا، بل عمّا يجب علينا فعله في الأجل القريب. إذا سارت الأمور كلّها على ما يرام، سيولد طفلنا بعد شهرين، في تمّوز، وحسب رأي العارفين، ليس هناك أيّ سبب للافتراض ألاّ تسير الأمور على ما يرام، من هذه الناحية. ولكن ماذا سنفعل عندئذٍ؟!». قالت ترييس، أخته الكبرى، وهي ترتّب وشاحها الحريري: «طبعاً لا أحد يتوقّع منك أن تغسل حقائضات».

وسمع أونو، بما لا يدع مجالاً للشكّ، الإضافة الصامتة في جملة ثانوية: «... بينما ما تزال أنت نفسك تلبس حقّاضة». لكنّه ترك هذا يمرّ بسلام؛ لا لأنّ هذه اللحظة ليست باللمحة المناسبة للردّ بقسوة فحسب، ولكنّ لأنه لا يخالفها تمام المخالفة في هذا الرأي أيضاً. لن يغرز دبابيس الأمان في الحقّاضة فحسب وإنما في جسم الطفل أيضاً، وبينما يستغرق في التفكير سيترك الطفل يتدحرج من فوق طاولة العناية، أو يردّ على الهاتف ويتركه يغرق في حوض الاستحمام.

قال زوجها: «طبعاً لا. هذا عمل النساء. في الوقت الحاضر، تسمع أصواتاً مغايرة، لكنّ الحقيقة هي أنّ النساء ينجبن الأطفال وليس الرجال. إنهم يقولون ما سمعوه. لذلك دعونا نبسّط الأمور. سيولد طفل أونو قريباً، أونو لا يستطيع الاعتناء به، من سيعتني به إذا؟!».

عبّر كون بهذه الكلمات عن جوهر المسألة - في أغلب الظن لديه أعمالٌ أخرى بعد الظهر. أجال المدّعي العامّ بصره بحاجبين مرفوعين في حلقة الجالسين، وكأنّ أول شخص يرفع إصبعه يحقّ له تولّي رعاية الطفل، وبذلك يُحسم الأمر؛ سيتكلّمون قليلاً عن الطقس، يحصلون على فنجان من الشاي من كوبي، ثم ييمّمون وجوههم صوب البيت.

قالت دول: «ليس لدينا أطفال، وليس أحبّ على قلبينا من احتضان طفلك يا أونو. إنني

(٥) وثيقة بروتستانتية تتضمّن سلسلة من الأسئلة والأجوبة، تُستخدم في تعليم العقيدة المسيحية الإصلاحية. نُشرت عام 1563 في مدينة هايدلبرغ الألمانية. [م]

أناهر الأربعين، لذلك لا يزال هناك مجال. لقد تكلمنا طويلاً عن الموضوع، لكننا نعتقد مع ذلك أنه من الأفضل لطفلك أن يكتنفه أبوان أصغر في السن، أليس كذلك يا كارل؟».

كان الجراح جالساً برؤوس أصابعه المبسوطة بعضها على بعض؛ فصل أنامله بعضها عن بعض وتركها تعود إلى وضعها الطبيعي. جعلته هذه الإيماءة يشبه الكونت فرانكنشتاين أكثر من أي وقت مضى.

- طبعاً من الأفضل أن ينشأ في أسرة، مع أطفال صغار آخرين.

أحنى أونو رأسه علامة الموافقة ونظر إلى صوفيا: «يبدو لي صحيحاً».

قالت: «يجب عليه الذهاب إلى مكانٍ يحصل فيه على أفضل الفرص للتطور والازدهار». بدا هذا الأمر بديهياً إلى حدٍ كبير، ولكن أونو سمع أيضاً صدىً بعيداً من دينونة سليمان: «اقطع ذلك الطفل الحي إلى نصفين، وأعطِ إحداها نصفه، وأعطِ الأخرى نصفه الآخر». نظر إلى الزوجين، هانس وهاديغ؛ باولا ويان كيس - ولكن قبل أن يقول أي شيء أخذت مارخو زمام الحديث، زوجة شقيقه الأستاذ الجامعي مينو، الذي لم يستطع المجيء بنفسه لأنه يجب عليه تبرير أفعاله في اجتماع طلابي. كان جفناها متورمين ومؤطرين بالاحمرار كالعادة، وكأنها بكت للتو، لكنّها كانت أقرب إلى البشاشة والضحك.

- صارت ذريتنا في المدرسة الإعدادية، وكى أكون صادقة لا أستطيع أن أفكر مجرد التفكير في غسل الحفاضات مرة أخرى. وبقدر ما أعرف أونو، فإنه لا يريد لطفله أن يكبر في خرونيغن على كل حال. أليس هذا صحيحاً؟ إنك تراها المقاطعة الكثيفة، وستكون أيضاً بعيدة عنك.

قال أونو: «لا ينبغي لأي شخص هنا الاعتذار عن أي شيء. لا أطلب شيئاً من أحد».

قال يان كيس: «حسناً، سنقدّم إليك عرضاً!».

وضع سيجاره في المنفضة، مدّ ساقه، وضع إحدى قدميه فوق الأخرى، ووضع يديه على قفا رقبته: «لديّ حشدٌ من الأطفال، لذلك يمكن إضافة طفلك إليهم. نحن نعيش في منزل ريفي قريبٍ من روتردام، بحديقة ليست سيئة، لأنني أملك شركة شحن عابر أكسب منها الكثير من المال. أنا كرة يمينية، لكنني أعنتي بعمالي جيداً، وأي شخص لا يوافقني في الرأي أريه الطريق إلى خارج الملعب. سوف نربي طفلك على نهجك تماماً، يمكنك الوثوق

بي بكلّ أريحية، لأنني كنت أنا نفسي اشتراكياً، قبل أن أنتمي إلى المجتمع الراقي. وهذا لن يكلفك ستاً واحداً. اتفقنا؟ هل نعدّد الصفقة أم لا؟ تفضّل بالحديث!».

هنا تُعقد الصفقات على الطريقة الروتردامية. ساد صمتٌ محرج بعض الشيء، لكنّ ما قاله وقع موقع الإعجاب في نفس أونو. لقد تعمّد الاستفزاز بطبيعة الحال، ربما بدافع الخجل؛ تظاهر بما هو في حقيقته في آخر الأمر؛ ولكن لأنه تظاهر بذلك، لم تكن هذه حقيقته في الوقت نفسه.

قالت باولا وهي تبتسم ابتسامة اعتذارٍ باتجاه أونو: «إنك تتناول الموضوع بلباقة فظيعة!». قال يان كيس: «نعم، ألا توافقين؟». فقال حموه كون: «جداً!».

- لكننا نعني ما نقول يا خالي أونو. ستتكلّف برعايته عن طيب خاطر.

لم يرَ أونو مشكلة في نشوء طفله في بيئة رجعية، فقد حدث معه الشيء نفسه؛ كذلك العديد من أصدقائه التقدميين ينحدرون من عائلات ثرية على نحو أقل أو أكثر. ولكنّ يان كيس كاسبٌ أموال عامي، خالٍ من أيّ اهتمام ثقافي؛ لا ريب أيضاً أنّ فيه شيئاً حيوانياً، بأسنانه الحادة ولحيته الداكنة الكثّة، التي تتفجّر من وجهه بغزارة. من ناحية أخرى تُحدث زوجته باولا انطباعاً مسالماً ودياً، على النحو الذي تجلس فيه هنا ببطنها الكبير في عباءتها الأفغانية السوداء، المطرّزة بالذهب، الطويلة إلى الكاحلين. إنها في المظهر لا تشبه والدتها المرعبة ترييس في أيّ شيء، لكنّها في البيت صاحبة الكلمة في أغلب الظن. لا بدّ أنّ شخصيتها تنطوي على صفة من صفات مروّض الأسود.

قالت هاديفيخ: «نحن أيضاً على استعداد لمساعدتك».

أصبح العرض الثاني في تناول اليد.

ضحكت مارخو وهي تغمس بسكويت الفستق في فنجانها الشاي: «ليس الجميع في الوقت نفسه!». وفي الحال وضعت يدها على فمها وأجالت بصرها في ما حولها بذعر وقالت: «لا تؤاخذوني!».

لعلّ اسم هاديفيخ حدّد لها هذا الأمر بقوة خارقة^(٥)، لعلّها كيّفت نفسها له، إنها تبدو على

(٥) اسم هاديفيخ يعني: مقاتلة، مناضلة. [م]

كلّ حال مثل متصوّفة من القرون الوسطى. وجهها يتّسم بدكّة خفيفة، تركتها وراءها القوّات الإسبانية في مقاطعة براينت قبل أربعمئة سنة، عيناها بَيَّتَان نجلاوان، تبدوان في لمعان من نشوة التجلّي.

قال هانس: «ليست لدينا فيلّا في حيّ كراينغن في روتردام، ولا حديقة بحوض سباحة، بل شقّة مريحة في كوبنهاغن. أيّ ما دمت بقيت في وظيفتي هناك. لا أعلم طبعاً مكان إقامتنا القادم. أستطيع تصوّر أنك ترى مشكلة في هذا. سيكون في كلّ الأحوال أبعد من خرونيغن عن أمستردام».

كان نقيض يان كيس في كلّ شيء، شعره أشقر ناعم نعومة الساتان، مسرّح إلى جانب، عيناه زرقاوان زرقّة فاتحة، يبلغ السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين، وقد تهندم من قمة رأسه حتى أخصم قدميه حسب التوجيهات المتعلّقة بالزيّ الرسمي في وزارة الخارجية: في بدلة بلون رمادي صحيح، ليس بالداكن ولكن ليس بالفاتح على وجه الخصوص، وقميصٍ مخطّط بالأزرق، وربطة عنق كحلية منقّطة بنقاط بيضاء خفيفة، ويتعلّ حذاءً رسمياً أسود. يعطي انطباعاً جذاباً وذكياً، وإن كان باهتاً بعض الشيء - ولقد أشار من فوره إلى المشكلة الأساسية: حياة الرُّحْل.

أجال أونو عينيّه في حلقة الجالسين وقد استغرق في التفكير. أدارت تريس رأسها إلى كون الذي يُخرج معصمه الأيسر ببالغ البطء من تحت كُم قميصه ويخفض عينيّه دون أن يحرك رأسه ليرى كم الساعة. أطلقت والدته تنهيدة عميقة ونظرت وهي تهزّ رأسها هزّاً خفيفةً إلى صوفيا، التي تحرك سبّابتها جيئةً وذهاباً عبر حلقة في قلايتها المرجانية دموية الحمرة دون أن يبدو عليها أيّ تأثير كالعادة. أما الأزواج، الذين تقدّموا بعروضهم، فقد بدا أنّ بعضهم يتفادى نظرات بعضهم الآخر، مثل المتقدّمين بطلب لشغل الوظيفة نفسها.

انتابه فزعٌ مفاجئ. قال: «ليس من الضروري أن أقرّر الآن، أليس كذلك؟».

وفي الحال تكلم الجميع في وقتٍ واحد.

- غير ممكن.

- تصوّر.

- طبعاً لا.

- مجرد الفكرة!

قالت دول: «فكر على مهلك. أمامك شهران على الأقل».

أحنى كارل رأسه علامة الموافقة: «من حيث المبدأ، نعم».

وجد أونو نفسه معتمداً على أفضل عائلته بصورة مفاجئة، فكلفه العناء أن يعثر على كلمات الشكر. ما أثقل عليه على وجه الخصوص هو الموقف التنافسي المؤلم الذي وضعت أسرة هانس وأسرة يان كيبس نفسها فيه، طواعيةً، من أجله. تصوّر لو لم تكن له عائلة، مثل ماكس - ماذا كان سيفعل؟

أجبر نفسه على القول: «لقد أسأت معاملتكم في كثير من الأحيان، أعذر عن ذلك!». كان يعني ما يقول، وفي الوقت ذاته قرف من نفسه عندما سمع نفسه يتكلّم بهذه الطريقة. أخذوا يهزّون رؤوسهم باعتراض ويومثون إيماءات رافضة؛ لكنّ وجه والدته بدأ يتألّق، وقال والده كأنما ليضع ختماً على ركوعه: «حسناً، دعونا نصلي!».

ساد الصمت، وُضع السيجار جانباً، انحنت الرؤوس، وطويت الأيدي. أونو أيضاً وجد نفسه يحني الجزء العلوي من جسمه إحناءً طفيفاً إلى الأمام؛ صوفيا وحدها لم تتغيّر من وضعيتها، لكنّها توقفت عن اللعب بقلادتها. في الصمت السائد فتحت كوبي الباب كي تصبّ الشاي مرّة أخرى؛ شحب وجهها وأسرعت في إغلاق الباب مجدّداً.

قال كويست مغمض العينين: «يا ربّنا العظيم، يا أبانا الذي في السماء، إنك ترانا مجتمعين هنا في شقائنا ابتغاء مرضاتك. هذه الحياة - التي ليست سوى موت متواصل - اشتدّت ظلاماً علينا بسبب قدرك الحكيم العصيّ على الفهم بشأن آدا. لكننا نعرف أنك تستطيع فعل كلّ شيء ولا أحد يستطيع اعتراض أيّ فكرة من أفكارك. امنحنا بركتك وأزِر قلوبنا! نتوسّل رحمتك التي لا حدود لها وندعوك، يا ربّنا القدير والأزلي، أن تهب القوّة والحكمة لابننا الضالّ، الذي اهتدى إلينا، آمين!».

30. المشتقة

كان ماكس على اطلاع بالاجتماع وانتظر التقرير بصبر نافذ. اعترته رغبة شديدة في الاتصال بأونو أو صوفيا في الحال، لكن خُيِّلَ إليه أنه من غير الحكمة إظهار هذا القدر الهائل من الفضول. في اليوم التالي اتصل به أونو في لايدن وأعلن عن وصوله في ذلك المساء.

رغم اعتياده أن يغطس من فوره في المقعد الأخضر ذي الذراعين، فقد أخذ يذرع غرفة ماكس من دون توقّف وهو يروي كيف سارت الأمور، وأنه مرّغ أنفه في التراب في نهاية الأمر، وخطّ من قيمة نفسه، فكوفى في الحال بالشفاعة له عند الربّ.

- ما هذا الدين العبوديّ غير الشريف؟! كيف استطاع ذلك الرجل الرث من الناصرة الانتصار على الإله جوبيتر الشامخ؟!

- ولكنّ أولئك المسيحيين غير الشرفاء عرضوا عليك أخذ طفلك في كنفهم.
- أتقصد أنّ هذا لم يكن ليحدث عند الرومان عبدة الأوثان؟ هذا لا يمتّ بصلة إلى الدين، بل إلى العشيرة. أنت لا تعرف هذا، لأن لا عائلة لك، لكنّه يحدث حتى في مملكة الحيوانات. إنها رابطة الدم.

قال ماكس وهو ينظر إليه: «لا، لا عائلة لي. لذلك تمتدّ معرفتي بها إلى حدّ أنّ المسيحيين أخذوني في كنفهم ذات يوم، رغم أنني لم أكن من عشيرتهم».

بينما يقول هذا، أدرك أنّ هذا الأمر قد يسري على طفل آدا أيضاً، إذا تبين أنه ليس من عشيرة أونو. بادلّه أونو النظر؛ أدرك أنه ارتكب خطأ أحمق، فقال بإيماءة كريمة: «حسناً، يوجد حبّ إنساني خالٍ من الأنانية، دعنا نترك الموضوع عند هذا الحدّ. الأمر الوحيد هو أنني عندما استيقظت من النوم هذا الصباح، كنت لا أزال في حيرة من أمري. كيف لي الاختيار بحقّ السماء؟ الخيار الأول أسوأ من الثاني، والثاني أسوأ من الأول. يرى أصحاب التفكير

المحدود أنّ هذا مستحيل من الناحية المنطقية، ولكنّ هذه الاستحالة تسري على هذه الحالة بعينها».

- لماذا لا تقول إنّ الأول أفضل من الثاني والثاني أفضل من الأول؟

- لا، لأنّ كليهما ليس جيّداً. على الأقل ليس جيّداً بما فيه الكفاية. خذ يان كيس وباولا. إنهما يعيشان في روتردام، في بيت فسيح فخم، أستطيع الذهاب إليه بعد الظهر من كلّ يوم أربعاء لأصطحب طفلي من هناك إلى حديقة الحيوانات. إنني أحبّهما بطريقة ما، لكنّهما ليسا من نمطي ولا من نمط آدا، لذلك لا أريد أن ينشأ طفلي هناك. هانس وهاديغ أفضل من هذه الناحية، لكنّهما سيُنفلان من الدنمارك إلى زامبيا بعد فترة قصيرة، ثم من زامبيا إلى البرازيل، ثم من البرازيل إلى الفلبين، وهكذا سوف يُجرّج طفلنا من مدرسة دولية إلى مدرسة دولية أخرى، ويجب عليه توديع أصدقائه وصديقاته إلى الأبد كلّ أربع سنوات. من جهة أخرى، سيري شيئاً من العالم ويتعلّم لغات عديدة بطبيعة الحال، لكنني سأصبح غريباً عنه بصورة نهائية: عمّا من نوع معيّن في هولندا البعيدة. لن يأتي إلى هنا سوى بضعة أسابيع في العطلة الصيفية - هذا شيء لا يروقي أيضاً. لو أنّ يان كيس يعمل في السلك الدبلوماسي، ويعيش هانس وهاديغ في كرايغ، لعرفت ماذا أختار؛ لكن يبدو أنّ الحياة لا تمنّ بمثل هذا الخير. ماذا أفعل إذا؟ ليس هناك خيار آخر. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

جلس، ونهض ماكس. سار إلى النافذة واضعاً يديه في جيبه، ونظر عبرها إلى المساء المظلم دون أن يرى شيئاً. كان يعلم أنّ مؤخرة رأسه وظهره يرسلان رسالة مفادها أنه يفكر بهدوء، لكنّ قلبه كان يخفق بشدّة ويشعر بأنّه يتمزّق. ماذا سيفعل لو كان أونو؟ لعلّه هو أونو - هذا يعني أنّ أونو نفسه قد لا يعرف من يكون. إلى متى يجب أن يستمرّ الوضع على هذا النحو؟ ألم يحنّ الوقت لأن يقطع حبّل الأكاذيب والخداع بصورة جذرية؟ أليس عليه الالتفات الآن إلى الوراء، الآن في هذه اللحظة، والقول أخيراً: «أونو، الطفل الذي تنتظره آدا قد يكون طفلي...» - الكلمات التي أراد كتابتها له ذات مرّة، والتي كتبها فعلاً لكنّه لم يرسلها؛ حجّة أنّه لا يستطيع فعل ذلك من وراء ظهر آدا لم تعد سارية المفعول. لم يعد شيء يحدث من وراء ظهر آدا، نظراً لأنّ كلّ شيء صار يحدث من وراء ظهرها. الأمر الوحيد هو أنه لا يستطيع استجماع شجاعته، فقد ترك الأمر يصل إلى حدّ بعيد. ومع ذلك لا يستطيع ببساطة انتظار ما سيحدث، بثقة أنّ كلّ شيء سيصير إلى ما يرام. يجب أن يحدث شيء!

فجأة، رأى صورته المنعكسة على الزجاج الأسود. سَوَى رِبْطَةَ عُنُقِهِ ومَرَّرَ يَدَيْهِ عَبرَ شَعْرِهِ،
بينما تحضره ذكرى مساء ذهب فيه مع أونو إلى المسرح لحضور «الملك أوديب»؛ أثناء
الاستراحة، وبينما يشربان فنجاناً من القهوة الخفيفة في البهو، سأله أونو: «هل تنظر دائماً في
المرآيا أيها التافه المغرور؟»، فأجابه: «نعم، أنظر دائماً في المرآيا كلها: من أجل معاييرها».
التفت إلى الوراء، وضع يديه مجدداً في جيبيه، وجلس على حافة النافذة: «تستطيع أخذ
مدبرة منزل، مساعدة تخدم ليل نهار».

- أنا أترك مدبرة منزل تربّي طفلي؟ ومن المؤكد يجب أن أتحمل عشرين سنة تلك
المرأة البائسة، التي ستجلس باكية كلّ مساء في المطبخ. لا أفكر في هذا مجرد التفكير. ثم
كم تظن ذلك سيكلفني من المال؟ إنني كما تعلم أكرّس نفسي، مدفوعاً بشخصيتي النبيلة،
للعلم والشأن العام، ولا أكسب شيئاً تقريباً؛ أعيش من حصتي الصغيرة من الميراث. ولكن
حسناً، يمكن إيجاد حلّ لهذا الأمر، أستطيع على سبيل المثال العمل، وإن على مضض. أعلم
الأبجدية لطلاب السنة الثالثة. أستطيع إيجاد عمل بسهولة في إحدى الجامعات، ربما حتى
في هولندا.

- ولكن ليست هناك حاجة لأن يستغرق الأمر أطول من السنوات الخمس أو الست
الأولى؟ بعد ذلك يستطيع الذهاب إلى مدرسة داخلية جيّدة.

- مدرسة داخلية جيّدة! أيجب حقاً أن ألقي طفلي في ريعه السادس من الأمان إلى
اللامان، كي يعيش ما تبقى من حياته في عالم لا يشعر فيه بالامان؟ على الطريقة الإنكليزية؟
هل ستفعل هذا حقاً لو كنت مكاني؟
فرك ماكس وجهه بيديه الاثنتين وقال: «لا».

*

عندما اتصل ماكس بصوفيا بعد ظهر اليوم التالي وسألها ما إن كان يناسبها مجيئه لشرب
فنجان من القهوة بعد العشاء، أجابت: «طبعاً. تستطيع تناول العشاء هنا أيضاً، إذا أردت!».
هذا شيء جديد.

- هل أنت متأكّدة من أنني لا أزعجك؟!
عندما سمع نفسه يقول هذه الكلمة الأخيرة، راوده شعور بأنه يبالغ أكثر من اللازم، لكن
تبين أنه لم يكن كذلك.

- أنت نفسك تعرف هذه الأشياء. إذا كان هناك طعام لشخص واحد، فهناك طعام لشخصين، وإذا كان هناك طعام لشخصين، فهناك طعام لثلاثة أشخاص.
- هذا صحيح. إذا كان هناك طعام لمئة شخص، فهناك أيضاً طعام لمئة وعشرة أشخاص.
الحق أن المرء لا يفهم أنه لا يزال هناك جوع في العالم.

أخذ معه زوجة من نبيذ كيانتى، وبينما أحدهما جالس قبالة الآخر إلى طاولة المطبخ وضعا السكين في شريحة اللحم. فيما يستمع إلى رأيها في التشاور العائلي في لاهاي، استحوذت عليه من جديد الإثارة التي تهيجها فيه الحالة كل مرة: في جلسة استماع إلى رئيسة الراهبات بعيدة المنال، عروس المسيح حصراً، التي ستحوّل في الظلام بعد قليل إلى سيرسي^(٥) المتأوّهة، الشهوانية. تساءل مرّات عديدة كيف يحدث هذا التحوّل. حاول تصوّر ما يحدث في سريرتها: تعلّق ملابسها على كرسي، تغتسل، تمضي للرقود في السرير، وتطفئ الضوء. أهذه هي اللحظة؟ أيحوّلها الظلام الهابط من إحداهما إلى الأخرى؟ أم ليست هناك لحظة انتقال على الإطلاق، ولا تعدو المسألة أن تكون لعبة خبيثة، اكتشفت تأثيرها ذات يوم على نوع معيّن من الرجال، مثل برونس ومثله هو نفسه؟ ولكن ما الذي يشترك فيه مع برونس؟ نعم، لعلّ المشترك هو قابلية التأثير بهذه اللعبة، ولكن مع ذلك يجب أن تكون هناك بضعة قواسم مشتركة أخرى، وهي ليست موجودة. طبعاً لم تيسر الأمور مع برونس بهذه الطريقة إطلاقاً، لقد سارت معه هو حصراً بهذه الطريقة، ولم تكن لعبة أيضاً. هو على قناعة بأن حياتها الليلية ليست موجودة بالنسبة إليها في النهار بطريقة أو بأخرى، مثل الأحلام التي لا يستطيع المرء تذكّرها في النهار. كان هو حلمها ويجب أن يبقى حلمها. لو قال لها في النهار إنهما أمضيا معاً ليلة مثيرة مرة أخرى، لما عرفت في أغلب الظنّ عمّا يتحدث ولألقت به خارج البيت مع هذيانه الغريب. أنامت معه، مع صديق ابتتها السابق - كيف يمكن أن يخطر هذا في باله؟! هذا النوع من تخیلات الرجال يجب عليه الانغماس فيه مع العاهرات!

استمع إليها وهو يحني رأسه إحناءات متتابعة، مسح فمه، أخذ رشفة من النبيذ ونقل بصره من فمها المتحرّك إلى عينيها ومن عينيها إلى فمها المتحرّك. لم يكن ينصت إلى ما تقوله - فهو يعرف القصة من أوانو - بقدر ما ينصت إلى رنة صوتها؛ سمع لأول مرة شيئاً من النجيب في صوتها، نبرة خفيفة يائسة، لعلّها لا تمتّ بصلة إلى عاطفة بل إلى تركيبة حبالها الصوتية.

(٥) شخصية من الأساطير الإغريقية، وهي ساحرة وابنة إله الشمس هيليوس وحورية البحر بيرسي. [م]

أخبرته بأنها استقلت القطار مع أونو بعد انتهاء الاجتماع، وقالت له بين لاهاي ولايدن إنها تستطيع أيضاً التكفل برعاية الطفل بطبيعة الحال.

- قلت له إن هذا دور الجدة في نهاية الأمر حسب التقاليد. عندما يضطرّ الوالدان إلى المغادرة، يتصلان بالجدة من أجل أن تأتي للعناية بالأطفال.

لم يقل له أونو شيئاً عن هذا الحديث. فكّر برهة قصيرة في والدته، التي يمكن أن تكون الجدة الأخرى لطفل آدا، أو كان يمكن أن تكون - اقتران الحياة والموت.

- وماذا كان رأي أونو؟

- لم يكن واضحاً، لكنني لاحظت أنه لم يره حلاً مثالياً، وهو ليس بالحلّ المثالي أيضاً. إنني الآن أقارب الخامسة والأربعين، وتستطيع الحساب: عندما يبلغ الطفل الخامسة عشرة، سأكون أنا في الستين. لعلّ هذا لا يزال ممكناً، ولكنّ أونو صار فجأة من الطراز القديم للغاية، رغم أفكاره التقدمية كلّها: يرى أنه من الضروري وجود رجل في الأسرة. يضاف إلى ذلك شعوري بأنه لا يحبّني كثيراً. لكن يجب عليه اتخاذ قرار سريعاً.

نهضت وأخذت تلملم الطاولة. رغم علم ماكس على وجه الدقّة أنّ حدوث الحمل في 8 تشرين الأول 1967 سيؤدّي، بعد نحو عشرة شهور قمرية، إلى الولادة في أوائل تمّوز عام 1968، سأل بنبرة لامبالية: «نعم، بعد نحو شهرين، أليس كذلك؟».

أجابت صوفيا: «لا، أبكر بكثير في أغلب الظنّ».

ردّد باندهاش: «أبكر بكثير؟!».

بينما تضع الأطباق على لوح المجلى، سألته دون أن تلتفت إليه: «ألم تتحدّث اليوم مع أونو؟».

- لم أتحدّث معه منذ البارحة. هل حدث شيء؟

- اتصل بعد وقتٍ قصير من مكالمتك. لا أعرف الوضع بدقّة، لكن يبدو أنّ هناك خطورة في حالة آدا. يقول طبيب الأعصاب إنّ تخطيط أمواج دماغها يكاد لا يُظهر أيّ شكل. الأطباء يفكّرون، على كلّ حال، في إخراج طفلها بعملية قيصرية في الأجل القريب. على ذكر الحديث يجب إجراء العملية في كلّ الأحوال، لأنها لم تعد قادرة على الإنجاب. غداً سأذهب إلى المستشفى، سيؤخذ القرار عندئذٍ.

تجمّد ماكس. ها هي ذي الساعة قد حانت بصورة مفاجئة: ساعة الحقيقة. طبعاً كان يعلم

طوال تلك الشهور أنّ هذه اللحظة تقترب بلا هوادة؛ لكنّ الشعور ظلّ يلزمه على الدوام، دون أن يعيه بوضوح، بأنها لن تصل أبداً - مثلما يحدث حسب مفارقات زينون في الحركة بأن يبقى دائماً جزءاً من الطريق يجب السير فيه: النصف الأول، ثم النصف الأول من النصف الثاني، ثم النصف الأول من الربع المتبقي... بحيث يبقى دائماً متسع من الزمن. ولكن الآن حدثت القفزة فجأة.

سألته صوفيا وهي تمسك بالغلاية تحت الصنبور: «هل تريد قهوة أيضاً؟!».

نهض مشوّش الذهن. راوده شعور بأنه لم يبقَ شيء في وضعه السابق، بأنه قد أخذ قراراً، لكنّه لم يتركه ينفذ إلى أعماقه بعد. قال: «لا، شكراً...»، وبحث عن الكلمات: «يجب عليّ الذهاب».

التفتت إليه: «ماذا أصابك فجأة؟!».

- لا أعرف.. يجب عليّ التفكير. لا تؤاخذيني، إنها قلة أدب مني، ولكن...

ومدّ يده إليها: «شكراً على العشاء، سأتصل بك غداً. يجب أن أخلو بنفسني لحظة».

- طبعاً، كما تريد.

شيّعت صوفيا إلى الباب وركب سيارته الفولكس فاغن التي كان قد اشتراها في نهاية الأمر. غادر دون هدفٍ محدّد. كان يريد أن يفكر، لكنّه لا يريد التفكير إلا عندما يخلو المكان حوله من الناس. لا أحد يستطيع إجبار نفسه على استحضار الأفكار، ولكن إذا حضرته يستطيع إيقافها: التحويل الذهني لا يختلف عن التمثيل الغذائي. بقي بيت شعر لريلكه يتردّد في رأسه، مثل سدّ يمنع تدفق أفكاره:

«ينبغي أن تغيّر حياتك»^(٥).

كان الليل قد هبط، وبينما هو في الطريق إلى أمستردام، أخذ مفرق نورديفايك بشكل تلقائي. سار في الشارع المظلم الممتدّ عبر التلال الرملية صوب المنارة، وركن سيارته هناك. أطفأ المحرّك وخرج منها: بدت الصفقة التي صفق بها الباب مثل نقطة في نهاية الجملة. ومثل أول حرف في بداية الجملة التالية تصاعد حفيف الموج - صمّت مسموع، يتقلّب عبره ضوء المنارة مثل شيء أكثر صمّتا من الصمت. تهبّ رياح بحرية شديدة البرودة، تظهر نجوم

(٥) بالألمانية في الأصل. [م]

وتختفي بين الغيوم العائمة السوداء. استنشق الهواء المالح بعمق وسار في الدرب المنحدر صوب الشاطئ المهجور. عندما بلغ الرمال اعترته رغبةً، بدافع من التعود من أيام الصيف التي لا حصر لها، في خلع حذائه، لكنّه رفع ياقته ودسّ يديه في أعماق جيبه، ومشى في خطّ مستقيم صوب المياه. عند بلوغ الرمال الرطبة الأكثر صلابة، التي تركها المدّ وراءه، توقّف برهةً ونظر إلى الأفق الأسود، الذي يُظهره المخروط الضوئي العابر عليه بشكلٍ بطيء وسريع في الوقت نفسه كلّ بضع ثوان. بدأ يسير منحني الرأس فوق القواقع صوب الجنوب.

العملية القيصريّة! لقد اتضحت الفكرة: يجب عليه التضحية بنفسه. يجب عليه تربية طفل آدا - مع صوفيا. فقط من خلال هذا الفعل، يستطيع التعويض عما اقترفه في السابق. إذا تبيّن، لا سمح الربّ، بطريقة أو بأخرى، أنّ الطفل ليس طفل أونو بل طفله هو، ستقع فاجعة لا حدود لها بطبيعة الحال؛ سيختفي أونو من حياته، لكنّه سيفهم في الوقت نفسه ما فعله هو، ماكس - أي إنه اكتنف الطفل في اللحظة التي لم يكن يعرف فيها بعد من هو الأب، وجازف بترتيب حياته حسب متطلّبات طفل ليس بطفله. وإذا تبيّن أنه ليس طفله، فلن يعرف أونو ما حدث على الإطلاق. حتى عندئذٍ لن يكون الوضع وكأنّ شيئاً لم يحدث، لأنّ خيانة الصداقة لا تُمحى بأيّ حال من الأحوال: ستبقى الكذبة بينهما إلى الأبد، حتى ولو كان هو وحده يعرف ذلك، لكنّه على الأقل سيكون قد فعل ما استطاع فعله. كبح فكرة أنّ الولادة القيصريّة قد تُمنى بالفشل، الذي من شأنه إلغاء كلّ شيء - لكنّه وجد فجأة أنّ هذا قد يصيبه بخيبة أمل.

إشعاعات المنارة الآخذة هيئة صليب تتحرّك فوق رأسه دون توقّف، مثل مراوح الطائرة المروحية التي تُبقي الكرة الأرضية حائمة في الكون. فكّر في أنه يجب عليه عرض اقتراحه على صوفيا هذه الليلة، أو غداً على أقصى تقدير؛ وإذا وافقت، سيرضه على أونو من فوره. إذا وافق هو أيضاً، فيجب عليه ترك أمستردام وحياته فيها بأقصى سرعة ممكنة، يلغي عقد إيجار بيته وينتقل إلى دريته، يبحث عن منزل في مكان قريب من دفغلو وفيستربورك ليسكن فيه مع أسرته الغربية من نوعها: مع امرأة ليست أمّ طفله بل جدّته، وطفل قد لا يكون طفله. أم أنه فقد صوابه؟ هل سيكون بوسعه تحمّل هذا؟ نعم، سيكون بوسعه تحمّل هذا، لأنّه طبعاً لا يضحيّ بنفسه على الإطلاق - فإنّ يسمّيها «تضحية» ليست سوى كذبة أخرى، وستعرفها صوفيا. ولكن بهذا ستتاح الفرصة لأن يضيف صبغة دائمة على علاقته الخفيّة معها؛ الطريقة التي سارت بها الأمور حتى اللحظة لا يمكنها طبعاً الاستمرار فترةً أطول دون أن تصير سخيفة. ماذا ستقول يا ترى؟ لقد صارت حياتها هي أيضاً في الحضيض. ماذا ستفعل هناك

في لايدن، بمحلّ كتب لا تعرف كيف تديره وسيكون الهلاك مصيره المحتوم؟ من ناحية أخرى، عندما يبلغ الطفل الخامسة عشرة، وهذا سيحدث بعد خمس عشرة سنة، ستكون هي قد بلغت الستين، مثلما قالت - أما هو فسيكون قد بلغ الخمسين فقط. فقط؟ ارتعب من هذه الفكرة. هل سيبليغ الخمسين بعد خمس عشرة سنة؟ ولكن عندئذٍ سيختلف كل شيء، وسيرى ما يفعله بعد ذلك.

حضرته حكاية رواها له أونو في إحدى المرات أثناء جولة من جولاتهما في المدينة. في بداية القرن التاسع عشر قُتل الكاتب المسرحي الألماني من الدرجة الثانية كوتسيو، الذي كان في خدمة القيصر، على يد الطالب النقابي القومي ساند؛ حُكم بالإعدام على الطالب وقُطع رأسه على يد الجلّاد براون. لكن في وقت لاحق بلغ الجلّاد من الندم على إعدام شخص بهذا النبل، أنه بنى كوخاً من ألواح المشنقة، أخذ طلاب النقابة يجتمعون فيه في الخفاء لتبجيل ساند، وتقبيل بقع الدم، وغناء الأغاني المعادية للسامية.

راحت القواقع تطلق تحت حذائه واستحوذ عليه نوعٌ من الثمالة - ليس من النبيذ، بل من التغيّر الكامل الذي لاح في الأفق بصورة مفاجئة؛ راوده شعورٌ شخصي تهتّده الحرب، فيقرّر بين لحظة وأخرى الهجرة إلى مكان بعيد: إلى بلد لا يُشار فيه إليه بمدّ الإصبع إلى جهة معينة، ولكن يُشار فقط إلى نظير السمّت، إلى الأسفل بشكل مستقيم، إلى الجهة الأخرى من الكرة الأرضية: بعيداً قدر المستطاع، هناك في المكان الذي تنمو فيه الأشجار إلى الأسفل، ويلتصق الإنسان والحيوان رأساً على عقب بالأرض، وتسقط الأحجار إلى الأعلى.

بدا مرّة أخرى وكأنه يريد تأجيل أفكاره، مثلما يفعل في السرير عند الاقتراب من بلوغ الذروة، لأنّ ذلك يزيد اللذة أربعة أضعاف. فجأة انتابته رغبةٌ في زيارة والدته بالتبني. لقد عاش في كنفها وكنف زوجها، على مدى عشر سنوات، حتى عام 1952؛ انتقل بعد ذلك إلى غرفة مستأجرة في لايدن، للدراسة والعمل. في أواخر الخمسينيات انتقلا إلى قرية سانتبورت، هناك صارت والدته بالتبني معلّمة في روضة أطفال، أما والده بالتبني، مدرّس الجغرافيا في أيام شبابه، فقد كان حينذاك أيضاً يعاني من مرضٍ جدّي. صار يزورهما بوتيرة متناقصة مع مرور الوقت؛ في أول الأمر مرّة كلّ بضعة أسابيع، ثم مرّة كلّ بضعة أشهر، لاحقاً في أعياد الميلاد فقط، وفي النهاية لم يعد يزورهما حتى في الأعياد. كانت كلّ زيارة تعني العودة إلى الحرب، التي أخذت تثقل عليه كلّما أوغلت تلك الحرب نفسها في الزمن البعيد. لم يكن قد تواصل معهم منذ سنوات.

نظر في ساعة يده بعينين نصف مغمضتين - رأى في وميض من ضوء المنارة أنها تشير إلى التاسعة والنصف. في أي ساعة تنام يا ترى؟ إنها تسكن بعد نحو ثلاثين كيلومتراً من هنا، يستطيع على كل حال الاتصال بها.

على مسافة منه، على أطراف التلال الرملية، يقوم هاوس تر داون: فندق ساحلي كبير، مضاء، فيه شيء من طراز البحر الأبيض المتوسط، وكأنه يقوم على ساحل دي أنجليه في مدينة نيس الفرنسية، بدلاً من ساحل قرية نائمة على بحر الشمال البارد. مشى في صعود بخطوات متناقلة على الرمال الهشة، وجد على المصطبة باباً غير مقفل، وانتهى به المطاف في حفلة صاخبة حافلة بمشروب الجنّ، والبيرة، وأغاني الكرنفالات. على المسرح يجلس أعضاء فرقة موسيقية متجولة متكرّرين في ثياب الفلاحين، بقبعات من الحرير الأسود على رؤوسهم ومناديل جيب حمراء حول أعناقهم، وقد أخذ أسوأ ما في الأسوأ يجري على قدم وساق: رقصة «البولونيز»، حيث يتحرك المحتفلون في مسار ثعباني تحت الزينة، ويذا كلّ منهم على كنفٍ من يسير أمامه. بينما لا يزال يرمش بعينه من شدة الضوء والضجة، جرجره شخصٌ بسحبة واحدة إلى داخل الصف الراقص والمغني، وقبل أن يعرف ماذا حدث صار جزءاً من الطقس. قلّما شعر بأنه في غير مكانه مثلما شعر في تلك اللحظة، لكنّه انتقاد له وهو يتسم ابتسامة وديعة؛ لو عارض، لربما ذبحوه على الفور وألقوا به في زيت القلي، بين النفاق. عند أحد الأبواب تملّص منهم وذهب إلى مكتب الاستقبال في البهو.

كانت الكنبات والمقاعد ذات الذراعين الثقيلة، المنجّدة بقماش الكتّان، الموشّاة بأزهار حمراء وزرقاء كبيرة الحجم، تشير إلى أنّ إنكلترا تقع على الجانب الآخر من البحر. في حجرة الهاتف أدار رقمها باضطراب. هل ما تزال حيّة تُرزق يا ترى؟ ردّ صوت رجالي: «بلوك يتكلّم».

- لا تؤاخذني، أليس هذا رقم السيّد هونديوس؟

- لم تعد تعيش هنا.

إنها منذ سنة تقيم في دار المسنّين سانكتا ماريا في بلدة بلومندال؛ أعطى ماكس رقم الدار أيضاً على الفور. بينما إصبعه على قرص الهاتف، في الثقب فوق العدد الأخير، 1، تردّد. لم ترسل له عنوانها الجديد، يبدو أنها قطعت الأمل منه عقب تقاعسه عن زيارة زوجها وهو على فراش الموت. ملأه هذا الإدراك بالخجل إلى درجة أنه لم يعد يجرؤ على مواصلة إدارة

القرص - لكنّه علم أيضاً أنه لن يراها مرة أخرى، إن لم يجتز بإصبعه التسعين درجة الأخيرة من القرص. سحبه إلى الأسفل في نثرة واحدة إلى أن بلغ المشبك الفولاذي. أوصله بواب الدار في بلومندال بغرفتها وما لبث أن سمع صوتها: «نعم، من معي؟».

- معك ماكس.

ساد صمتٌ قصير، ثم سألت بصوتٍ خافت: «حقاً؟! أهذا أنت يا ماكس؟!».

- هل كنت نائمة؟

- لا أنام أبداً في الليل. ليس هناك شيء خطير، أليس كذلك؟

- أنا الآن في نوردفايك، كنت أريد المرور عليك. هل هذا ممكن؟!

- الآن مباشرة؟!

- أم لعل الوقت غير مناسب؟

- طبعاً لا، الوقت مناسب دائماً من أجلك. سأنتظرك في الصالة العامة في الطابق الأرضي.

- سأكون عندك بعد نصف ساعة، ماما تونيا!

*

سار في عجالة على الطريق الموازي للساحل المهجور عائداً إلى سيارته. بينما يتجه إلى بلومندال عبر الطرق الداخلية، مجتازاً مدينة هارلم، فكّر فيما إذا كان يجب عليه قول شيء عن غيابه المخزي عندما كان زوجها على فراش الموت؛ لكنّها ربما تفهم من دون كلام أيضاً أنه صعب عليه حضور موت الوالدين، حتى وإن كانا والدين بالتبني.

سانكتا ماريا، المحاطة بسياج حديدي، المبنية بأحجار آجرٍ داكن بالأسلوب الحامي الكثيب الخاص بالكاثوليكية الهولندية، تقوم في جادة مشجرة هادئة قبالة إحدى الغابات. ركن السيارة في الفناء الأمامي المبلّط، وما إن فتح الباب الرئيسي حتى وقف وجهاً لوجه أمام الجثة المشوّهة لمؤسس الدين - مثبتة إلى الصليب في الوضعية التي ثبّت فيها أوتو ليليتال نفسه إلى طائرته الشراعية، التي قام بها بأولى رحلاته الجوية. ناجى ماكس نفسه: «النهاية. المهندس أيضاً لم ينجُ من تجاربه». رفع البواب عينيه عن جريدته بامتعاض، ألقي نظرة على ساعة الحائط، وأشار بإيماءة من رأسه إلى مدخل الصالة العامة.

في موجات التغيرات الاجتماعية، كان مهندس التصميم الداخلي من الطراز الحديث قد خلق انطباعاً ناجحاً عن العذاب المطهر الوشيك، من خلال ضوء النيون الصارخ والأثاث المقيت المصنوع من البلاستيك ذي اللون الفاقع. بدا واضحاً أنّ النزلاء جميعهم قد انسحبوا إلى غرفهم. أمّا والدته بالتبني فجالسة وحدها إلى طاولة بالقرب من النافذة ولوّحت له بيدها؛ رآها لأول مرة منذ انتقاله إلى الغرفة المستأجرة من دون والده بالتبني. لم يكن هناك أحد سوى رجلٍ ضخم البنية في نحو الستين من العمر في كرسيّ متحرك، يقف في مكان عشوائي تماماً في الصالة، وكأنّ أحداً دفعه دفعةً قوية، فتدحرج بانعطاف والتفاف إلى أن توقّف هناك؛ كانت هناك خرقةٌ صغيرة سوداء على عينه اليمنى.

نهضت عن مقعدها: «ماكس! يا لها من مفاجأة!». وقبلته بعيون مخضلة، ثم دفعته عن نفسها لتنظر إليه جيّداً: «صرت رجلاً، سيّداً دولياً حقيقياً».

لم يتمالك نفسه من الضحك لهذه المجاملة.

- وأنت ما تزالين كما كنت، ماما تونيا!

لم يكن هذا صحيحاً تماماً. فقد ضمرت، وانحنى ظهرها؛ وجهها مرتسم بحدة أشدّ من السابق، مثل النقش، بشيء من قبيل ابتسامة خفيفة مهذّبة عند زوايتي الفم. لكنّها ما زالت تلبس الشعر المستعار كستنائي اللون نفسه، الظاهر من الظلّ الداكن الرفيع في استدارة رأسها: وادٍ محاط باللغز بين الجلد والشعر المستعار، سحره عندما كان صبيّاً صغيراً أكثر مما سحرته الوديان في كتب كارل ماي^(*). كانت تلبس الشعر المستعار منذ الوقت الذي عرفها فيه، ولم يعلم السرّ الكامن وراءه؛ كذلك صار منذ ذلك الحين على قناعة بأنه يستطيع رؤية ما إذا كان أحد الأشخاص يلبس شعراً مستعاراً - إلى أن أخبره أونو ذات يوم بأنه لا يستطيع رؤية ذلك إلا عندما يراه وليس عندما لا يراه. كان يسمّي والدته الحقيقية «ماما» على الدوام.

جلس قبلاتها فأخذت يديه في يديها. مسحت على إبهاميه الشبيهتين بملعقة مسطّحة ونظرت إليه: «ما تزال يداك باردتين مثل السابق».

- هذا هو حال أصحاب الرؤوس الساخنة.

- أخبرني كيف حالك؟! -

(*) Karl May (1842-1912): كاتب ألماني، يعدّ من أكثر كتّاب روايات الرحلات والمغامرات الخيالية

غزارةً في الإنتاج. [م]

أجاب: «بخير، بخير».

بخير؟ طبعاً لم يكن ليخطر في باله إخبارها عن المأزق الواقع فيه وكيف يفكر في الخروج منه؛ لم يكن يعرف كيف حاله، ولعلّ هذا ما دفعه إلى المجيء إليها. الحقّ أنها لم تكن طاعنة في السن، لعلّها بلغت السبعين للتوّ - لو عاشت والدته الحقيقية لكانت الآن في الستين - لكنّها مع ذلك تقيم في هذا المكان المرعب في انتظار موتها، أفكارها منحصرة في الماضي، بينما هو واجسه لا تتعلّق سوى بالمستقبل.

أخبرها عن عمله في لايدن، وبأنه سيقتل في أغلب الظن إلى دريته في الأجل القريب، حيث وُضع تلسكوبٌ جديد حيّز الاستخدام.

- أنت في دريته؟ ماكس! شخص مستمتع بالحياة مثلك في الأراضي السبخة؟ لن تقول لي إنك تزوّجت في الآونة الأخيرة، دون إطلاعي على الأمر؟!
بينما يفكر في أنه يمكن أن يولد له طفل حتى، دون إطلاعها على الأمر، قال: «إذا تزوّجت، ستكونين الشاهد على زواجي. لا، إنني أضحيّ بنفسي في سبيل العلم. إنه تلسكوب استثنائي للغاية».

- ما أزال أراك وأنت تجلس في غرفتك، بخريطة النجوم الخاصة بك. قلت على المائدة في إحدى المرات: «سأكشف النقاب عن سرّ الكون».

ابتسم بعدوبة: «هل قلتُ هذا حقّاً؟ في الجامعة يعلّمونك نسيان هذا النوع من الأشياء. أول ما يدّمرونه هناك هو الحافز الذي يدفعك إلى دراسة موضوع معيّن. العباقرة العظام الحقيقيون، مثل آينشتاين، جميعهم هواة - وهذا ليس في العلوم الطبيعية فحسب».

- خيرٌ لك أن تكون سعيداً من أن تكون عبقرياً عظيماً.

- ربما. لكنّ الشيء المزعج هو أنّ آينشتاين كان في أغلب الظن سعيداً أيضاً.

- وأنت؟

- بغية التجانس، يجب أن أكون غير عبقرٍ وغير سعيد على حدّ سواء، أليس كذلك؟

هزّت رأسها ببطء: «هل تعرف أنك لم تتغيّر بعد؟ من يعطي مثل هذا الجواب؟».

- إنك على حقّ.

فكر في الأمر. من الهراء طبعاً القول إنه سعيد، ولكن أيتضمّن هذا أنه غير سعيد؟ لعلّه

شيء منطقي، ولكن من الناحية النفسية؟ لعلّه لم يكن سعيداً حقّاً في الشهور الماضية، على الأقل كان واقعاً في الشرك الذي نسج حبائله بنفسه، دون أمل في الخروج منه. «سعيد»، «غير سعيد»... ليس من عادته التفكير في نفسه بهذه المصطلحات، هذا أقرب إلى أسلوب البنات، كما سيقول أونو. ولكن منذ اللحظة التي أخذ فيها قراره هذا المساء، صحيح أن كلّ شيء بقي على حاله - أي فسد إلى الأبد - لكن أيضاً تغيّر فجأة، انقلب رأساً على عقب، مثل عداء سباق يستمدّ قوّته من إرهاقه القاتل تحديداً، وربما حتى شيئاً من قبيل اللذة. لعلّه صار عداء سباق بدافع من إدمانه على تلك اللذة المُستَمَدّة من الإنهاك.

- الربّ أعلم، إنني سعيد، نعم.

سحبت والدته بالتبني يديها، أخفضت عينيها وقالت: «تلك الحرب اللعينة».

أدهشته هذه الملاحظة، لكنّه لم يعقّب عليها. أمسك يديها أيضاً.

نظرت إليه: «لم يرَ أحدنا الآخر منذ زمن بعيد يا ماكس.. ما الذي جاء بك فجأة هذا المساء تحديداً؟».

- لأنني هذا المساء أخذت قراراً هاماً يا ماما تونيا، قراراً يمكن له تحديد بقية حياتي كلّها. لكن لا تسأليني ما هو، لأنه يمكن ألا يحدث إطلاقاً. عندما يحين الوقت، سأطلعك عليه بطبيعة الحال. لا أعرف.. فجأة أردت رؤيتك مرّة أخرى. طبعاً كان يجب عليّ المجيء منذ زمن بعيد، قصّرتُ في واجبي، ولكن...

- لا تقل أيّ شيء آخر!

أمسك عن الكلام. على الطاولة التالية هناك رقعة شطرنج لم تكتمل فيها اللعبة بعد؛ لا شك أن الرجلين العجوزين سيواصلان اللعبة في صباح الغد، اللذين يرقدان الآن في سريريهما ويفكران بالخطوة التالية، التي من شأنها إلحاق هزيمة ساحقة بالوزير والملك، اللذين سيرسلان خطوط قوّاتهما عبر الـ «666»^(*) مربّعاً إلى الملك الخصم مثل أشعة قاتلة. كان الرجل الجالس في الكرسي المتحرّك لا يتحرّك؛ لقد أخفض رأسه وأخذ ينظر إلى يديه البيضاء، المطوّيتين في حضنه. هو أيضاً يشبه بطريقة أو بأخرى الملك المُحاصر، الذي ينتظر الهزيمة الساحقة. ظهرت امرأة شابة في فتحة الباب، تحت المسيح على الصليب

(*) هو عدد الوحش حسب تفسير لنصّ ورد في سفر رؤيا يوحنا، في الكتاب المقدّس. [م]

المعلق هنا أيضاً، وقالت إنّ وقت نوم الأطفال قد حان. إنّها ممشوقة القامة، في أواخر العشرينيات؛ نظرت عينان زرقاوان، من تحت حاجبيها الكثيفين الشقراوين شقرة داكنة، إلى ماكس - فعرف في تلك اللحظة نفسها أنه يستطيع الاختفاء معها بعد قليل في الغابة الواقعة على الطرف الآخر، لو أراد ذلك. رأى عليها أيضاً أنها رأت من فورها معرفته ذلك - لكنّه لم يكن يريدّه. لقد أصبح ذلك في عداد الماضي. أرسل لها ما يشبه غمزة بعينه الاثنتين على سبيل الاعتذار وكأنه يعرفها منذ سنوات. تورّد خذاها بعض الشيء ومضت إلى الكرسي المتحرّك.

- هل ستأتي أنت أيضاً يا سيّد بيلتس؟ سنذهب إلى النوم!

نهض ماكس وماما تونيا.

قالت له: «تعال معي إلى غرفتي. أريد أن أريك شيئاً، لكنني لم أستطع العثور عليه بسرعة». عندما عبرا من جانب الكرسي المتحرّك، وتبادل ماكس نظرة حزينة أخرى مع الممرضة، تبعه السيّد بيلتس بعينه الوحيدة وقال: «سافل!».

- مهلاً، مهلاً يا سيّد بيلتس، ما هذا؟ أسنبدأ بالجنون؟!

فضحك ماكس: «سيّد بيلتس محقّ تماماً. إنني سيّء السلوك».

أخذوا المصعد، وعندما دخل الشقة الصغيرة أُصيب بصدمة. كلّ ما يراه يعرفه من بيتهم في أمستردام وبيتهم في سانتبورت في زمن لاحق، لكنّه مختصر هنا إلى جوهره، مثل خلاصة مكتفة. على الطرف الأيمن مباشرة يقوم مطبخٌ بحجم مفرش طاولة، يتصل بغرفة جلوس صغيرة، ارتبطت عن طريق ممرّ مقوّس بغرفة نوم تضاهيها في الصغر. على هذه الكنبّة، المنجّدة بالقماش الخشن القاسي الذي لا يُنسى، والمنحدرة من سنوات العشرينيات أو الثلاثينيات، قرأ كتابه الأول عن علم الفلك «الكون الغامض» لجينس في نسخته المترجمة؛ غُطيّ مسند الذراع المهترئان بقطعتين من قماش مبهم. فوقها علّقت نسخة من لوحة «سقوط إيكاروس» للرّسام بروخل، التي كان كلّ تفصيل من تفاصيلها قد غاص حتى أعماق روحه: مساحة الأرض والبحر اللامتناهية، الفلاح حارث الأرض، الذي بهت قميصه الأحمر إلى اللون الوردي الخافت، الراعي المتكئ على عصاه وكأنّ أنفه يتزف، المدير ظهره إلى الحدث الذي كان السبب في كلّ شيء والذي يظهر مثل واقعة تافهة القيمة: ساق صغيرة بارزة من بين الأمواج. على الطاولة المنخفضة أمام الكنبّة وُضعت علبة السكاكر المائل لونها إلى

البنفسجي، المصنوعة من الكريستال المحجّر، التي لم تخطر في باله منذ ذلك الوقت، لكنّه يألفها أكثر من أيّ شيء آخر في بيته في أمستردام؛ في المكتبة الصغيرة كعوب الكتب التي يعرفها. «دائرة المعارف للجميع». خامره إحساسٌ من أحاسيس قصص الخيال، مثل الذي يراود عالم آثار يفتح موقعاً أثرياً: هذه الأشياء العتيقة كلّها المجموعة، على بضعة أمتار مربّعة محاطة بالأسرار، هنا في بلومندال. كانت هناك أشياء أقدم من هذه الأشياء في حياته: لقد نُهبَت من القبر الملكيّ في منزل والديه - لا يستطيع تذكّرها سوى بصورة غامضة ولعلّها ما تزال موجودة في مكانٍ ما، عند اللصوص الذين ساروا في أعقاب المجرمين، أو عند أراملهم أو أولادهم؛ لكنّها لن تظهر مرّة أخرى على الإطلاق.

على جهاز التلفزيون هناك صورتان مؤطّرتان: إحداهما لوالده بالتبني والأخرى له. طوال تلك السنوات التي تقاعس فيها عن الاتصال بهما، وُضعت صورته هناك وكانت ماما تونيا تنظر إليها كلّ يوم! رmqه السيّد هونديوس، بالسترة وسلسلة الساعة، بنظرة صارمة. «لماذا لم تأتِ يا ماكس؟». تحوّل عنه بخجل. أمّه بالتبني جاثية على ركبة واحدة في غرفة النوم تبحث عن شيء في صندوق من الكرتون سحبته من تحت سريرها. رأى بجانب الحائط الخزانة الصغيرة ببابها ذي المصراعين المصنوعة من خشب الماهوغوني، الذي لا تزال تعرّقاته المتماثلة تشكّل الرأس المرعب لذلك الخفّاش العملاق. فوقها، بجانب سلّة خياطة، هناك رأسٌ آخر: بالحجم الطبيعي، من الخشب الأملس، عديم الوجه، مثل تلك الرؤوس التي تُرى في لوحات دي شيريكو^(٥). بدا واضحاً أنّه لم يكن القصد أن تقع عليه عينه، فقد كانت تضع شعرها المستعار عليه في الليل بطبيعة الحال. لعلّه في الماضي كان يوضع في إحدى الخزانات، فهو لم يره من قبل على الإطلاق. ولكن هنا عمّن يجب بقاء أيّ شيء مخفياً؟ فوق الباب هناك المسيح على الصليب مرة أخرى، لا يرتدي سوى حفاضة.

قالت: «نعم، لقد وجدتها».

نهضت بصعوبة وهي تستند على حافة السرير، وأحضرت له صورة كبيرة قديمة ملتوية الأركان، مشقوقة الحواف هنا وهناك.

- هل تعرفها؟!

فصاح: «إنهما هما!».

(٥) Giorgio de Chirico (1888-1978): رسّام إيطالي، أسس حركة الفن الميتافيزيقية. [م]

كانا يقفان فيها، أحدهما يتأبط ذراع الآخر: والده ووالدته. أخذ ينظر إليهما، بفم مفتوح، غير مصدّق عينيه. لا بدّ أنّ الصورة الملتقطة بالأبيض والأسود المصغّرة، الأقرب إلى صورة رسمية، قد التُقّطت قبل ولادته، على يد مصوّر محترف، ربما في يوم زفافهما عام 1926. في بدلة مفصّلة بحرفية دقيقة ينظر والده في العدسة، التي تحلّ محلّها الآن عينا ابنه، الذي يتعرّف على عينيه في الحال؛ السجّارة في يده اليمنى لم يضعها جانباً. تتأبط ذراعه اليسرى زوجته، ذات الثمانية عشر عاماً، التي تصغره بست عشرة سنة، واقفةً لصقه، يدها على وركها، قبعة سوداء على رأسها، وتحتها عينا لا سبيل إلى وصفهما، لا يستطيع رؤية لونهما ولا يستطيع تذكره أيضاً، مع صورة طبق الأصل من أنفه وفمه. رفع عينيه ووضع إصبعه على الصورة. قال مرّة أخرى بينما لم يتعاف من دهشته بعد: «إنهما هما. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها صورة لهما».

- ظننت هذا. إنك تشبههما هما الاثنين.

وأما أن يشبهه طفله، مثلما يشبه هو والديه، فهذا ما لم يخطر في باله أكثر من لحظة واحدة.

- كيف حصلت عليها؟

- عثرت عليها بين أوراق زوجي، عندما كنت أرّتب الأغراض قبل الانتقال إلى هنا. رأيت فوراً أنها لا يمكن أن تكون لأفراد عائلته، فهم لم يكونوا دنيويين مثل هذين الشخصين. لا بدّ أنّ هذه الصورة أتت مع الأشياء التي أرسلوها لنا بعد موت والدك.

- لماذا لم يُرني إياها زوجك؟

- لا أدري. لعلّه لم يرغب حينذاك في مواجهتك بما حدث، وأراد أن يعطيك إياها في وقت لاحق، ولم تُنخّ له الفرصة...

وأمسكت عن الكلام. أتقصد أنّ السيّد هونديوس أراد أن يعطيه الصورة عندما كان على فراش الموت؟ لم يحوّل ماكس عينيه عن الصورة: «هل يمكنني أخذها؟».

- شيء بديهي.

وقع في حيرة من أمره. جاءت الصورة إذاً من زنزانة والده، هذا يعني أنها واحدة من الأشياء القليلة التي أخذها معه لحظة القبض عليه - لماذا؟ لقد طارد تلك المرأة المتأبطة ذراعه اليسرى إلى موتها، الأمر الذي أوصله هو نفسه أمام فرقة الإعدام: هو، الفاني منقطع

النظير. لماذا يقف في صورة مع شخص، ليس موجوداً ولذلك لا يمكن أن يموت؟ هل هذا يعني أنها كانت موجودة بالنسبة إليه؟ لقد ماتت إذاً رغم ذلك؟ كيف يمكن تفسير الإنسان؟ كيف يمكن تفسير نفسه هو بالذات؟

31. الطلب

في الصباح التالي استيقظ في سريره بتألقٍ لامع في ذاكرته. أبقى عينيه مغمضتين برهة قصيرة ورأى أنه جمجمة ماما تونيا فضّية اللون، المخبّأة تحت شعرها المستعار، وعلى مدى لحظة واحدة تفتّحت مرّة أخرى القاعات الشاسعة التي رآها في منامه تلك الليلة، بممراتها وغرفها، برسائلها بالغة الأهمية ومشاهدها المذهلة، وانغلقت من فورها إلى الأبد، مثل بلد المسافرين المغادر الذي يبدو وكأنه لا يختفي وراء الأفق فحسب، وإنما يختفي هناك من الوجود أيضاً...

فتح عينيه. كلّ شيء قائم في مكانه في الضوء الخافت المشرق عبر الستائر برتقالية اللون، لم يكن شيء قد تغيّر، لكن في الوقت نفسه تغيّر كلّ شيء: فقد استمراريته بطريقة أو بأخرى، بحيث سيبقى يوم الغد على الحال نفسه مثل اليوم، وسيبقى يومٌ ما بعد الغد مثل يوم الغد. بدا وكأنه لم يعد يعيش هنا، وكأنّ روحه قد غادرت. الساعة العاشرة. لم يكن قد عبّر المنبه لأنه يوم سبت ولا حاجة للذهاب إلى لايدن. نهض من السرير، فتح الستائر، وأدار رقم صوفيا.

كانت على وشك الذهاب إلى أمستردام، إلى المستشفى: «لقد ارتديت معطفي».

- هل سيأتي أونو أيضاً؟

- أعتقد ذلك. لماذا؟

- يجب أن أتحدّث معك، ولكن من دون أونو. إنه شيء هامّ.

- هل حدث شيء؟ لقد اختفيت مساء أمس أيضاً بصورة مفاجئة.

- نعم، حدث شيء، لكنني لا أستطيع قوله على الهاتف.

- أين نلتقي؟

- من السهل دعوتها إلى منزله، الذي يبعد عن مستشفى فيلهيلمينا عشر دقائق سيراً على الأقدام، لكنه شعر بأنه سيتجاوز حداً معيناً.
- في كافيتريا المحطة؟ لعلها أسهل مكان لك.
- لكنني لا أستطيع القول على وجه التحديد متى سأصل إلى هناك.
- أفهم هذا. لا تستعجلي، سأكون هناك من الساعة الواحدة. نستطيع أيضاً تناول وجبة غداء بسيطة.
- إذا سأراك بعد الظهر.
- كانت صورة والديه موضوعاً على مكتبه. نظر إليها برهةً من الزمن وقرر أن يؤطرها بعد قليل. ترك حوض الاستحمام يمتلئ وحاول في الماء الساخن التفكير في المستقبل، ولكن لم تكن هناك فائدة كبيرة من التفكير، ما دام لم يتحدث مع صوفيا بعد. ليس من المستبعد أن تنظر إليه في استغراب وتسأله هل فقد صوابه؛ هذا يعني في أغلب الظن انتهاء علاقتهما الخفية على الفور. ولكن لعل الأمور تسير على نحو مختلف أيضاً، ويجب عليه عندئذ اتخاذ الإجراءات في الحال ليعين في فيستربورك ويبحث عن مسكن. رغم أن... هذا كله متوقف على أونو في النهاية. هو الذي يجب أن يقرر، فالأمر يتعلق بزوجته ومن هو -على الأقل رسمياً- طفله؛ إنه تحت ضغط عائلته، والسؤال هو هل يمكنه الموافقة على التركيبة التي قد يميل إلى تصنيفها في خانة السريالية. أدرك ماكس أنه يجب أن يعول على تلك الصداقة بالذات التي خانها هو نفسه.
- نزل السلم قبيل الثانية عشرة والنصف وهو يحمل الصورة بين صفحات جريدة مطوية، أخرج الجريدة الصباحية من صندوق البريد في الطابق الأرضي، ويمّم وجهه صوب المحطة المركزية. في واجهة محلّ الصور في شارع لايدسه كانت هناك صورة تصادم سيارتين في سنوات العشرينيات: لقطة صغيرة مصفّرة تجسّد سيارتين، اصطدمت إحداهما بالأخرى بما يدعو للسخرية في ذلك العالم شبه الخالي من السيارات، أعيدت صياغتها بخدع فنية في صورة لامعة كبيرة تبدو وكأنها التقطت يوم الأمس. في داخل المحلّ عرضت عليه فتاة تغيير صورته المتأدّية بهذه الطريقة؛ لكنّ ما يهّمه ليس ما تجسّده الصورة فحسب، وإنما الموضوع نفسه أيضاً، تلك الورقة الأصلية، تلك المادة، التي كانت في حوزة والده ووالدته ذات يوم. لا بدّ أنّ جُزئيات من أيديهما باقية عليها.

سار في شارع دامراك صوب المحطة المركزية، التي تحجز واجهة المرفأ مثل السدّ. بدا وكأنّ مجلس مدينة البندقية قد توصّل إلى فكرة بناء محطة على بحيرة مولو، وراء العمودين القائمين في ساحة بيازيتا، فحجبت رؤية البحيرة الساحلية. ناجى نفسه: لعلّ أمستردام تكون بندقية الشمال، ولكنّ البندقية ليست أمستردام الجنوب من حسن الحظ. منذ أن صارت لديه سيارة، لم يكن قد ذهب إلى المحطة سوى مرّة واحدة: عندما قام برحلته إلى بولندا. مثلما كان يفعل دائماً في الماضي، وهذه المرّة أيضاً، ألقي نظرة خاطفة إلى اليسار، قبل دخول قاعة المحطة: إلى الممرّ المنحدر الخاص بنقل البضائع الذي سيق عبره مئة وعشرة آلاف يهودي إلى عربات الشحن.

لطالما أشعره السقف الضخم نصف الدائري المصنوع من العوارض الفولاذية -المُشَيّد بهذه الطريقة من أجل امتصاص دخان القاطرات وبخارها- بأنه الجزء الداخلي من منطاد زبلين^(٥)، لكنّه الآن يستدعي إلى ذهنه أضلاع حوتٍ ابتلعه في جوفه. شعر بشيء يشبه الخوف من الظهور على المسرح. في الكافتيريا، ذات الجدران المكسوّة بالألواح الخشبية الداكنة والمزينة بالنقوش والرسوم، جلس إلى طاولة بالقرب من النافذة. بما أنّ المحطة تحجب منظر العالم الواسع، مثل ختمٍ موضوع على القوّة البحرية الهولندية المندثرة، فإنّها تطلّ على منظر باهر: الساحة المزدهمة المتشعّبة في كلّ الاتجاهات، حيث تنعكس الكنائس، والفنادق، والواجهات المنحدرة من القرن السابع عشر في المياه، وعلى جانبها الآخر تسمح بإلقاء نظرة شبه فاحشة على أعماق المدينة. بينما ينظر إليها، راوده الشعور نفسه الذي راوده في الصباح عندما استيقظ من النوم: لعلّها لم تعد مدينته. لقد حدث فيها كلّ شيء، باستثناء عمله العلمي، بدءاً من ولادته حتى المحادثة التي سيجريها بعد قليل.

طلب قهوة من نادل بمريلة بيضاء طويلة إلى الكاحلين، وفتح جريدته. يوم الأمس، في باريس، قرّر ديغول إجراء استفتاء على بقائه رئيساً، اندلعت على إثره احتجاجاتٌ في المدن الفرنسية جميعها مرّة أخرى، أسفرت عن سقوط عدد من القتلى وآلاف من الجرحى. لم يقرأ سوى العناوين الرئيسية والفقرات الافتتاحية - لا لأنه غير قادر على التركيز، بل لأنه لا يزال غير مهتمّ بالأخبار. منذ رحلته إلى كوبا، لم يشغل سوى بمشكلاته الخاصة التي جرّها على نفسه هناك، وبمشكلات المصادر الإشعاعية في الكون في الماضي السحيق - وما بين

(٥) منطاد زبلين (Zeppelin): منطاد ألماني استُخدم في الحرب العالمية الأولى قنّاصاً وأداة استطلاع. [م]

هذين الأمرين، مثل الحرب في فيتنام والثورة في أوروبا، اختفى من حياته شيئاً فشيئاً؛ لقد تركه لأونو. قرأ مقالاً عن التطور السريع للشريحة الإلكترونية، التي سيتعامل معها في الأجل القريب، بينما يطرق أذنيه من دون انقطاع صرير باب المدخل، والصفير الحاد لمفتشي القطار الذي يملأ بطن الحوت، وقعقة القطارات الواصلة التي تخفف سرعتها بصريفٍ ممانع. بين حينٍ وآخر يتردد صوتٌ غير مفهوم من مكبرات الصوت.

*

نظرت إليه صوفيا من العليا: «هل انتظرت طويلاً؟».

نهض عن مقعده، حيّاها، وأخذ عنها معطفها الذي كان بارداً من الخارج ودافئاً من الداخل. عندما جلس أحدهما قبالة الآخر، قالت: «حسناً، لقد حُسم الأمر. سيُخرجون الطفل الخميس القادم على أبعد تقدير».

أحنى رأسه: «هل قالوا السبب؟».

- لا يخبرونني أنا أيضاً بكل شيء، ولا سيما في حضور أونو. لقد تشاوروا طويلاً؛ يقولون إنهم سيفعلون ذلك بغية الأمان، لكنني لا أدري ماذا يقصدون بذلك. تستطيع تخيل أن كل شيء يتغير إلى الأسوأ في ذلك الجسد. إنها تعاني من قروح الفراش أيضاً، يجب أن تُدار كل ثلاث ساعات، تُعالج بالثلج، وتُجفف.

الطريقة التي قالت بها «ذلك الجسد» الذي أنجبته هي نفسها، بثت القشعريرة في نفسه. تُدار. تُعالج بالثلج. تُجفف.

- ولكن هل ستنجو من مثل هذه العملية المعقدة؟

نظرت صوفيا إلى يديها: «من يستطيع قول هذا؟ لقد تحدّثنا مع الجراح قبل قليل، لكنّه لا يريد طبعاً البوح بكل ما يعرف. يرى أن العملية في حدّ ذاتها لا تشكّل خطراً على حياتها. بالنسبة إلى الطفل ليست هناك مشكلة على أيّ حال، فقد تجاوز سبعة شهور».

فكّر ماكس في أنه ربما من الأفضل ألا تنجو آدا من العملية، وأن صوفيا تفكّر الآن في الشيء نفسه في أغلب الظن؛ لكن لم تتوفّر لديه الشجاعة لقول هذا.

- وأونو؟

- إنه يفهم طبعاً أن هناك خطراً ما، لكنّه قال إنه يفضل أن يصبح أباً اليوم قبل الغد.

تخيّل ماكس وهو يقول هذا: بإيماءة واسعة، لم يعرف الجراح كيف يرّد عليها، في حين

كانت معرفته بالأمور في هذه الأثناء تزيد عن معرفته بها. إنه يشير سوء الفهم عند الآخرين على الدوام؛ ظنّ الطبيب على الأرجح أنه إنسان مفطوم من الجدّة.

قال: «إذا سار كل شيء على ما يرام، فيجب أن يكون لدى الطفل مأوى خلال بضعة أسابيع. هل اتخذ أونو قراراً بهذا الشأن؟».

نظرت إليه صوفيا باستغراب: «يبدو وكأنك لم تعد تراه. هل حدث بينكما شيء؟».

قال ماكس وهو يبادلها النظر: «لا أبداً، لماذا تظنين هذا؟ تحدّثت معه أول أمس آخر مرة». وأخفض عينيه وطوى الجريدة.

- تكلمنا عن الموضوع في الترام قبل قليل، لكنّه لم يقرّر بعد. طلب النصيحة مني.
- وبم نصحتّه؟

- أرى أنه يجب ألا يترك الموظفين يجرجرون طفله حول العالم، يجب عليه اختيار ابنة اخته باولا، في روتردام. يضاف إلى ذلك أنه سيلتقي بامرأة أخرى ذات يوم ويستطيع عندئذٍ استرجاع طفله.

لم يكن هذا الاحتمال قد خطر في بال ماكس من قبل. نعم، يمكن أن يحدث هذا أيضاً بطبيعة الحال، لكنّه لن يحدث. تذكّر ما قاله له أونو في اليوم التالي للحدث مباشرة: إنه لا يرى العيش وحده أسوأ ما في الأمر، نظراً لأنه النموذج الفكاهي للأعزب المتزوج. من المؤكّد أنه سيلتقي بامرأة أخرى ذات يوم، لكنّه لن يعيش مع أيّ شخص تحت سقف واحد مرة أخرى؛ كانت المرة الأولى حدثاً عرضياً بالنسبة إليه، مثل شخصٍ بخيل اشترى الأسهم ذات مرّة ثم خسر ماله، فوضع رأسماله وديعة في المصرف إلى الأبد، حتى وإن قال له أصدقاؤه المضاربون إنّ الادّخار في المصرف هو إلقاء المال في النار. لقد خاض التجربة مرّة واحدة، لكنّه لن يخوضها مطلقاً مرّة أخرى.

- هل قلت له ذلك؟

- طبعاً لا.

هزّ ماكس رأسه علامة عدم الموافقة: «مثلما أعرفه، سيبقى أعزب بقية حياته - أي إنه سيعيش حياة العزوبية».

وقف النادل بصمت إلى جانب طاولتهما، ونقل نظره من أحدهما إلى الآخر، وفي يده قلم الحبر والدفتري الصغير. لقد اعتادا على مثل هذه الجلافة، فطلب كلّ منهما أيضاً مقلّياً على

قطعة من الخبز، مع أنه سيكون غير مستساغ بهذا القدر نفسه في أغلب الظن. رسم ماكس بإظفره قضباناً على بقعة لم تُغسل جيداً من مفرش الطاولة. قال ببطء دون رفع عينيه: «ولكن لو نفعل هذا، أنا وأنت!».

- نفعل ماذا؟

- نتولّى رعاية طفل آدا.

لقد قيلت الفكرة. صارت في العالم بصورة مفاجئة، مثل شيء، مثل نيزك اخترق الغلاف الجوي. نظر في عينها وحاول أن يقرأ على وجهها كيف تلقت اقتراحه، لكنه لم يرَ أيّ عاطفة عليه.

- نتولّى رعاية طفل آدا؟ أنا وأنت؟ كيف تتصوّر الوضع؟

أوشك على القول: «دعينا بحق السماء نتوقّف أخيراً عن هذه المهزلة يا صوفيا. لقد طالت بما يكفي؛ أنا مغرّم بك، لا أستطيع العيش من دونك، وأنت تعلمين هذا؛ حتى عندما آخذ عنك معطفك، أفكر بالطقس الخفيّ في ليالينا في لايدن، وهذا ينطبق عليك أيضاً». ولكن تخيل لو قال هذا، وردّت عليه: «نعم، طبعاً، أنت محقّ، يجب أن تنتهي هذه الملهاة» - فهل سيرغب في أن تنتقل للعيش في بيته مع طفل آدا؟ طبعاً لا. هو يعرف حقّ المعرفة أنّ هذه السريّة غير المفهومة تحديداً هي التي باع لها روحه: هذا الشيء الذي لا يخفيانه عن العالم فحسب، بل ويخفيانه أحدهما عن الآخر أيضاً، ولعلّها تخفيه هي حتى عن نفسها.

قال: «إنك تديرين محلّ مديح الحماقة منذ وفاة زوجك، ولكنّ هذا الوضع لن يستمرّ حسب اعتقادي. سأضطرّ إلى الانتقال إلى دريسته عمّا قريب في أغلب الظن، سوف أُعيّن عالماً فلكياً في التلسكوب في فيستربورك. ابتك ستجب طفلٌ أعزّ أصدقائي الخميس القادم. هذه هي الوقائع، أليس كذلك؟ لم تعد آدا من هذا العالم، ويجب على أونو إيجاد مأوى لطفله، أنا لا أريد العيش وحدي في الريف وأنت لم يعد لديك شيء في لايدن. كلّ واحدٍ منّا نحن الخمسة وحيد - لذلك دعونا نربط أقدارنا بعضها مع بعض بهذه الطريقة. لقد أخبرتني أنّ الجدة تعتنى بالأحفاد حسب التقاليد، وأنك عرضت على أونو أداء هذه الوظيفة، لكنه رأى وجوب أن يكون هناك رجلٌ في الأسرة. حسناً، أنا إذاً ذلك الرجل. لن تكون أسرة بالمعنى المألوف، لكنها مع ذلك ستُظهر سمات الأسرة. حتى إنها بمعنى أرقى يمكنها أن تكون أسرة أكثر من الأسر العادية».

ما يقصده من الجملة الأخيرة، لم يتضح له هو أيضاً على الفور، ولكن لعلّه يتضح لاحقاً. أدارت صوفيا رأسها ونظرت إلى الخارج. استدعى وجهها الصارم إلى ذهنه وجه امرأة في لوحة «أبي الهول» لفرانز فون شتوك، رأى نسخة منها في إحدى المرات: ترقد على بطنها عارية من الملابس، رافعة جسدها العلوي وعاقفة أصابعها على شكل مخالف، في وضعية أسد، على ضفة بحيرة جبلية مظلمة تندفق فيها مياه شلال. لم يستطع رؤية ما الذي يجري في سريرتها، لكنّها لم ترفض اقتراحه من فورها على كلّ حال. نظرت إليه: «هل تعرف حقاً ما تقول؟».

- لا أعرف دائماً ما أقول، لأنني لو كنت أعرف، فلن أقول أيّ شيء ذا أهمية؛ لكن ما قلته الآن، فكّرت فيه من كلّ الجهات. أعلم أنه سيغيّر حياتي بشكل كامل، وحياتك أيضاً. ولكن هذا واجبتنا حيال آدا، أو لعلّه ليس واجبتنا، ولكن في هذه الحالة يجب علينا فعله رغم أنه ليس واجبتنا.

وضع جريدته جانباً ومطّ ظهره: «هذا ما أردت قوله لك. يجب ترتيب كلّ شيء على المدى القريب بطبيعة الحال. يجب عليّ إيجاد منزل بمساحة تكفيّنا نحن الثلاثة، بيت من بيوت القساوسة القديمة ربما، يجب عليك إغلاق محلّ الكتب المستعملة، ولكنّ هذه الأمور كلّها سهلة الحلّ. راتبي ليس عالياً، ولكن هناك عائلات تعيش من دخل أقل منه؛ ثم إنّ كلّ شيء أرخص في الريف، ولا سيما إذا ما اشتريته من المزارع».

ونذت إيماءة عن يده: «أستطيع تصوّر أنك تفاجأت، وأنتك تريدين التفكير على مهل بضعة أيام، لذلك...».

قالت وهي تحملق في عينيه: «لا أحتاج إلى التفكير».

بادلها النظر مشدود الأعصاب: «والسبب؟».

- في الأشهر الأخيرة صارت حياتي.. أقصد... إذا وافق أونو...

اعترفته رغبة في مسك يدها، لكنّه كبح نفسه. لأول مرة رأى ما يشبه تصدّعاً في درعها.

- هل هو في البيت الآن؟

- أعتقد هذا.

- إذاً، سأعزّج عليه بعد قليل. سأعلمك فوراً كيف كان ردّه؛ أظن أنه من الأفضل أن

أذهب وحدي.

رأى أنه أدهشها بأسلوبه الحاسم والسريع. ضحك.

- يجب على المرء أخذ القرارات المصيرية ببالغ السرعة، وإلا فلن يستطيع أخذها. سيستغرب أونو أشد الاستغراب - وإن كان من مجرد طريقي لبابه. لم يسبق أن حدث هذا.

*

بخلاف ماكس، لدى أونو موهبة في تحويل انتباهه كلياً من لحظة إلى أخرى، مثل شخص يذهب من غرفة إلى أخرى ويغلق الباب وراءه. لقد شغله الخبر الذي مفاده أن طفله سيأتي إلى الدنيا بعد خمسة أيام، وأنه يجب عليه أخذ قرار في عجالة، إلى أن وضع المفتاح في القفل. كان متفقاً مع حماته في الرأي على أن هانس وهادي فيخ أسوأ الخيارين، لكنه لم يكن يريد الخيار الأقل سوءاً بل الخيار الجيد، لذلك لا يزال غير قادر على حسم الموضوع. عندما دخل مكتبه، وقعت عينه على أوراق الحزب، وسرعان ما انكب على دراستها.

عندما رنّ الجرس، نهض عن مقعده بصورة تلقائية، وفتح الباب دون أن يقطع أفكاره. عندما رأى ماكس أمام الباب، عاد إلى نفسه في اندهاش. قال: «هذا شيء غير مألوف تماماً».

- شكراً على الاستقبال الحارّ. أعلم أنك لا تنتمي إلى الصنف المستضيف، لكنني أريد التحدّث معك في موضوع.

فقال بالإيطالية: «أهلاً».

تبعه ماكس إلى القبو، الذي كان قد عاد بعد فترة وجيزة من الترتيب المتواضع إلى قبضة القانون الرئيسي الثاني من قوانين التحريك الحراري: أكمته الفوضى ألماً شبه جسدي. انعقد لسانه وهو ينظر إلى الأشياء المبعثرة.

يستطيع هو نفسه الانشغال دقائق طويلة في ترتيب الأدوات على حافة مكتبه بعناية، المغناطيس، البوصلة، الشوكة الرنّانة، إلى أن تُحسب المسافة بينها بالمليمتر، أما هنا فلا يوجد حتى بوادر إدراك أن هناك شيئاً اسمه نظام. سأل: «هل أنت إنسان حقاً؟».

- نعم، هذا يُعجزك عن الكلام. فقط أقوى الأقوياء يستطيعون العيش على هذا النحو. الطابق العلوي على جانب أكبر من الترتيب، لكنني في الواقع لا أذهب إلى هناك إلا للنوم.

ما بيّن أنه إنسان في أغلب الظن رغم كلّ شيء هو تشيلو آدا: كانت حقيبة الآلة ترقد على كرسيّين متقابلين بجانب طاولة مكتبه، مثل جسم راقد على سرير. تقدّمه أونو في السير إلى الغرفة الخلفية، التي كان سريره يقوم فيها في الماضي، وأخلى زاويةً من الكنبه هابطة الحشو؛

أزاح الكتب، والجرائد، وزوجاً من الجوارب الرمادية، ومحمصة خبز، إلى جانب، ورأى ماكس في لمحة خاطفة كتاب فابرجيه أيضاً، الذي أهداه إلى آدا في اليوم الأول من لقائهما. قال أونو: «كنت في مستشفى فيلهيلمينا في الصباح. سيحدث يوم الخميس، الساعة الرابعة والنصف. أوه صحيح، أنت لا تعلم بعد: الأطباء...».

- أعلم. لقد تحدّثت مع حماتك للتوّ. هذا هو السبب في مجيئي إليك.

تهالك أونو في المقعد الصغير ذي الذراعين، المنحدر من أيام دراسته الذي اشتراه من محلّ سلعٍ مستعملة؛ في جلده البنيّ على الجانبين تظهر خطوطٌ وخدوش، لعلّها تعود إلى قطة ماتت منذ زمن بعيد شحذت مخالبتها عليه ذات يوم. هل تحدّث ماكس مع حماته؟ نظر إليه بحاجبين مرفوعين: «تحدّثت مع حماتي؟!».

يمكن لأحد أن يعرف أحداً آخر سنوات طويلة، لكنّه إذا ما سُئل عن لون عيني هذا الآخر، فلا يعرفه في أغلب الأحيان، لأنّ الإنسان لا ينظر إلى عيني الشخص بل ينظر إليه. رأى ماكس لأول مرة أنّ هناك حافةً رفيعة بنية اللون تحيط بحدقتي أونو الزرقاوين.

- نعم.

- إنني أستمع.

الآن يتوقّف كلّ شيء على النبرة الصحيحة. لم يجهّز ماكس ما سيقوله، لأنه يجب عليه في هذه الحالة تذكّر ما جهّزه، بينما لا يتعلّق الأمر بتذكّر الأشياء الصحيحة، بل بقول الأشياء الصحيحة بالطريقة الصحيحة.

- اسمع يا أونو، سأتكلم دون لفّ ودوران! أول أمس أخبرتني عن معضلتك في اختيار الشخص الذي يجب لطفلك العيش في كنفه. لأنني شعرت بأنني قد أستطيع المساعدة بطريقة أو بأخرى، تواصلت مع حماتك يوم أمس. أخبرتني بشيئين. في المقام الأول: الطفل سيولد بعملية قيصرية الخميس القادم، لأنّ حالة آدا يمكن أن تصبح حرجة.

- ما قد يكون أفضل شيء للجميع. وفي المقام الثاني؟

- في المقام الثاني أنها عرضت عليك الاعتناء بالطفل. لكنك لم تُرد أن يذهب طفلك إلى امرأةٍ عزباء.

انتظر ماكس لحظة ليرى هل فهم أونو، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى ذلك. استمع إليه

أونو بشيء من الضيق من هذا التدخّل في شؤونه الخاصة، حتى وإن كان من أعزّ أصدقائه. ليس في عائلته المقرّبة وحدها يتكلّمون من وراء ظهره عن أشياء تمتّ بصلة مباشرة إلى حياته. لم تكن لديه أيّ فكرة عما يريد ماكس الوصول إليه.

أحنى رأسه: «صحيح. وبعد؟».

- حدّدت موعداً معها وقابلتها في كافيتريا المحطة قبل قليل. إنني قادم من هناك.

ما الذي يحدث هنا بحقّ السماء؟ استقام أونو في جلوسه.

- أليس هذا غريباً بعض الشيء؟ لم تخبرني أيّ شيء عن موعدنا معك.

- لم يكن القصد أن تعرف.

وبحث عن الكلمات. سيقولها الآن للمرّة الثانية: «تماسك يا أونو! اقترحت عليها أن

نعتني أنا وهي بطفلكما».

نظر إليه أونو في جمود. ما سمعه الآن شيء مستحيل.

- قلّ ذلك مرّة أخرى.

- من شبه المؤكّد أنني سأصير عالماً فلكياً مختصّاً بالتلسكوب في فيستربورك، وسأنتقل

في أغلب الظن للعيش بشكل دائم في درينته في الأجل القريب.

- ما الذي تقوله؟ أتذكّر أنك كنت ستشعر هناك مثل مجرمٍ منفيّ في سيبيريا.

- لقد تغيّرت أشياء في نفسي يا أونو. حمايتك مستعدّة للسكن معي، من أجل أن يكون

طفلك في أيّد أمانة.

خُيّل إلى أونو وكأنه يرى مدينة تنهار أمامه ثم ترتفع من أنقاضها في هيئة مدينة أخرى -

أمستردام تتحوّل إلى روما، القصر القائم في ساحة الدام يتحوّل إلى كنيسة القديس بطرس.

سبق أن راوده مثل هذا الإحساس، في مساء من مساءات الشتاء قبل سنوات عديدة، كان الثلج

قد كتم كلّ الأصوات في المدينة، وكان منكبّاً على صورته التي تجسّد الكتابة الإترورية: وإذا

به يرى كلّ شيء يتحوّل إلى كوكبة جديدة، يتشقلب، ينقلب رأساً على عقب، فيصبح اكتشافه

حقيقة واقعة. التحوّل المفاجئ الذي يجعل من صديقه مرّبي طفله، ومن حماته رفيقته في

السكن - لم ينفذ إلى أعماقه بعد، ولكن أليس الحلّ المثالي؟ فليسقط أولاد الإخوة كلّهم

وبنائهم مع شركاء حياتهم! أم أنها حماقة كاملة، جنون لا يمكن التعبير عنه بالكلمات؟ ماكس

مع حماته المربعة في دريته - أيمن أن يكون هذا صحيحاً؟ هذا الساتيري^(٥) الموهوس تحت سقف واحد مع صوفيا برونس جليدية المشاعر - ماذا دهاه؟ ما الذي يحمله على إلغاء نفسه بهذه الطريقة؟ هل وصل ماضيه إليه، هو الذي كان طفلاً متبنّى؟ لكنّه قدّم إليه عرضه وها هو ذا يجلس هنا في انتظار الردّ. أهى الصداقة ببساطة يا ترى؟!
بدأ: «ماكس...».

بدا وكأنّ رتّة صوته جعلت الدموع تطفّر إلى عينيه: «لا أعرف ماذا أقول...».
- لا تقل شيئاً إذاً. أو بالأحرى: قلّ إنك موافق، لنفرغ من الأمر في عجالة.

نهض أونو عن مقعده وخرج من الغرفة. ألقى الماء على وجهه بيديه الاثنتين على مغسلة صغيرة في المرحاض. بينما يبحث عن منشقة، غير موجودة، تساءل عما إذا كان يستطيع قبول هذا العرض. هل يمكنه التسبّب في هذا التغيّر الشامل في حياة ماكس؟ لعلّ ماكس يشعر بأنه مسؤول أيضاً، نظراً لأنه، لأنّ أونو، لم يكن سيتعرّف إلى آدا لولاه. أم أنّ الحادث يلعب دوراً، لأنه كان خلف المقود لحظة حدوثه، مع أنّ الذنب لم يكن ذنبه؟ جفّف وجهه بأحد كُمّي قميصه وذهب إلى الغرفة.

كان ماكس قد نهض هو الآخر وينظر إلى الأوراق المخطّطة بمربّعات، المتضمّنة جداول لغوية، المثبّطة على الحائط بالدبابيس؛ يبدو أنّ قرص فستوس لم يختفِ من حياة أونو بعد.
قال أونو: «ما تزال أذناي تطنّان. أنت موقن من أنك لا تنقاد لما لديك من روح الدعابة؟».
انفجر ماكس بالضحك: «أظنّ أنني لم أكن جدّياً في حياتي مثل اليوم».

- لعلّها تكون بيضة كولومبوس، ولكن ساعدني في الفهم من فضلك! ما الذي يعتمل في نفسك؟ لن أتحمل العيش يوماً واحداً مع تلك المرأة. كيف يمكن تصوّر هذا؟ أهنالك شيء بينك وبينها؟

ضحك ماكس: «هه، هه، لا تدعني أضحك!».

- إنك قادر على هذا الفعل، ولكن في أغلب الظنّ هناك حدودٌ حتى بالنسبة إليك.
قال ماكس برصانة: «أتصوّر أنني سأعيش هناك، مثلما يعيش قسيس مع مدبرة منزل وحفيدها. سوف تطبخ لي طعامي وتكوي لي قمصاني، ليس من حواف الياقة باتجاه الرأس

(٥) ساتير: شخصية في الأساطير الإغريقية ترمز إلى الشهوانية. [م]

بل من الرأس إلى الحواف. أما من الناحية الجنسية فسأندبر أمري بطريقة أو بأخرى، سألتقي حتماً بأحد ما».

- ولكن لماذا تريد فعل كل هذا من أجلي؟

- ليس من أجلك فقط، لقد سئمتُ من الطريقة التي عشت بها حياتي إلى الآن. لست ملزماً بالذهاب إلى فيستربورك، إن لم أرد الذهاب، أليس كذلك؟ ولكن في ما يتعلق بحياتي الجنسية أيضاً، أريد أن أهتدي إلى الصواب؛ على ذكر هذا الحديث، يستحيل عليك عملياً العيش مثل الحيوان في الريف. دعني أقول على النحو التالي: هذا يناسبني جداً بمعنى أو بآخر. أريد العمل بذلك التلسكوب، وإن لم أفعل هذا، سأعيش هناك وحدي في غرفة عند كاتب عدلٍ محليّ. فالفكر كل يوم ذهاباً وإياباً إلى أمستردام عملٌ جنونيّ بطبيعة الحال، وخاصةً بفولكس فاغن؛ ثم إنَّ هناك أشياء كثيرة أستطيع فعلها في الليل أيضاً. سأدخل في علاقة مع الممرضة الجراحية في مستشفى هوخيفين، ثم في علاقة مع مدرسة اللغة الألمانية في المدرسة الثانوية في زفوله. أستطيع تعليمها شيئاً إضافياً. وفي نهاية الأمر سينشأ شيء في غاية الجمال بين حماتك وتاجر من تجار السلع العتيقة في أسن.

- ولكن ماذا لو التقيت بواحدة، واحدة تريد تكوين أسرة معها؟

- سأخذ طفلك معي طبعاً. لكنني لا أتوقع حدوث هذا الأمر. على ذكر هذا الحديث، يمكن حدوث شيء غير متوقع على الدوام، فابن أخيك هانس وصهرك يان كيبس يمكنهما أن يقررا الطلاق أيضاً.

فهتف أونو وهو يرفع يديه إلى السماء: «يا إلهي! ها أنت ذا تقول! عائلتي! كيف سأخبر عائلتي؟!».

لقد حُسم الأمر.

- اتعني أننا سنفعل هذا؟

- طبعاً سنفعل هذا! أعلم علم اليقين أن آدا أيضاً كانت ستراه أفضل الحلول.

أثرت هذه الملاحظة في ماكس. لم يفكر في هذا الأمر، ولكن لا يمكن أن يكون هناك أيّ شكٍّ فيه؛ خُيِّل إليه أنه يرى وجهها وهي تحني رأسها مغمضة العينين علامة الموافقة. مدَّ يده، فنظر أونو برهة إليها، ثم صافحه.

قال ماكس: «شمانيا! لا قوف!».

هزّ أونو رأسه في وجوم: «ليتها موجودة. ليست لديّ حتى بيرة في البيت. لقد عدت إلى الهمجية تماماً».

- دعنا إذاً نشرب شيئاً في مكانٍ ما، يجب علينا الاحتفال بهذا. أنا سأدفع.

- اذهب أنت. يجب عليّ البقاء وحدي. يجب أن أحذق أمامي ببلاهة فترة طويلة كي أتعافى من الصدمة. بعدئذٍ يجب أن نجتمع نحن الثلاثة بأسرع ما يمكن؛ لا شكّ في أنّ هناك مشكلاتٍ من شتّى الأصناف، لكننا سنصل إلى حلّ. سيُولد الطفل قبل الأوان بشهر ونصف، وحسب رأي الأطباء يجب أن يبقى في الحاضنة أربعة أسابيع أو خمسة. هناك إذاً متّسع من الوقت لترتيب كلّ شيء.

32. انتقال شخصية

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما غادر ماكس، صعد أونو إلى الطابق العلوي وتهاوى على سريره. تلاشت سحب الضباب بصورة مفاجئة وأصبح المستقبل أمامه مرةً أخرى، مثل النهار بعد الليل. لقد أقنعه ماكس، لكن الصورة لم تتضح له بعدُ بشكلٍ كامل، فترية طفل في نهاية الأمر مسألة تستغرق نحو سبع عشرة سنة - هذا يعني أنّ ماكس حدّد حياته من حيث المبدأ حتى عام 1985، سيبلغ عندئذٍ الثانية والخمسين. الثانية والخمسين! أيها الإله العظيم! سيكون عمره قد أصبح وراء الظهر بعض الشيء؛ وعمره هو نفسه أيضاً. أو لعلّه لن يكون وراء الظهر، فلماذا لا يمكن للإنسان أن يعيش تسعين سنة، ولكن مع ذلك سيتحوّل من الظهر إلى المساء. وسيفعل ماكس في هذه الأثناء أشياء أخرى وليس تربية طفله فحسب، أي البحث العلمي؛ تربية طفله بالذات ستساعده في هذا الأمر، فهي ستخلق النظام في حياته. لعلّ طفله هو ما يحتاجه تحديداً لإنجاز عمل فلكنّي ذي أهمية حقيقية، وإلا سيهدر جزءاً كبيراً من وقته في إقناع ألف امرأة أخرى بالخروج من سراويلهن الداخلية - الأمر الذي سيكون جميلاً ورائعاً، عندما يكون بوسعك حفظه، كي تسترجعه في ذاكرتك بنفسٍ راضية وأنت على فراش الموت. لكنك تنسى طبعاً أنّ هذا سيخلّف كومةً هائلة من الغسيل، لا يمكن فيها تمييز سروال داخلي عن آخر. يضاف إلى ذلك أنك إذا كنت في التسعين، فأنت نفع تجنيه من الإدراك أنك جامعت ما لا يحصى ممّن يبلغن الثمانين عاماً أو السبعين؟ أو المئة عام؟ سوف تجلس على مقعد في الحديقة العامة بينما يسيل لعابك، وسوف تأتي امرأةٌ عجوز، بجسمها المعوجّ في زاوية قائمة من الرومانيزم، وهي تتكلّم مع نفسها، وتكفي على عكازة مطلية بالورنيش الأسود، وسوف تناجي نفسك: لقد غطست مع هذه الفتاة في الفراش ذات يوم. انتصار باهر. ولكن، لعلّ ماكس لا يريد أن يتذكّر على الإطلاق، لعلّه يريد الاستمرار في هجران النساء ونسيانهن، لأنّه هو نفسه تعرّض للهجران والنسيان ذات يوم. هذا لن يحدث له، لأونو على كلّ حال. لقد نام مع إحدى عشرة

امراً، يتذكرهنّ واحدةً واحدةً على وجه الدقّة: كانت هيلخا التاسعة، آدا العاشرة، وماريا الهاقانية الحادية عشرة؛ ومنذ الحادث لم ينم مع أحد.

ولكن إذا كان ماكس قد وصل إلى هذه النقطة، هذا ما جال في خاطر أونو، فهناك طبعاً طرائق أخرى يستطيع أن يغيّر بها حياته - من دون صوفيا برونس. ألا يأخذها والحال هذه مثل إكرامية على الصّفقة؟ لا يستطيع هو نفسه أن يفكّر مجرد التفكير بوجود تلك المرأة في جواره طوال الوقت، لكن يبدو أنّ ماكس لا يرتعب من وجودها. مهما تكن من حيزبون، فهو يعيد المعنى لحياتها هي أيضاً. لا، لقد حاول ماكس تصوير عرضه على أنه عمل أناني من أجل أن يسهّل عليه، على أونو، القبول به؛ لكنّه كان وسيبقى عملاً غير أناني بدافع من الصداقة في المقام الأول، فيجب عليه أن يبقى ممتناً له طوال حياته. سيكون بوسعه تكريس نفسه لأشغاله وهو مطمئن القلب، دون أن يصارع ما يعترى خاطره من شكّ فيما إذا كان قد فعل الشيء الصحيح. لقد رشّحه نادي المتمرّدين لمجلس إدارة الحزب في الآونة الأخيرة، وسيؤخذ القرار بهذا الشأن في الأجل القريب؛ إذا حصل هذا، يجب أن يكون بوسعه وضع كامل تركيزه في مهمّته.

فجأةً قفز من السرير، ذهب إلى الهاتف، وأدار رقم أخته الصغرى. أراد حسم الأمر في الحال، كي لا يبقى طريق للعودة: «دول؟ معك أونو!».

- انتظر لحظة، دخلت البيت للتوّ، يجب أن أسقي الكلب.. نعم، لقد عدت.

- اسمعيني جيّداً يا دول! أعلم أنني أباغتك، لكن يجب عليّ إنهاء الموضوع فوراً. صديقي ماكس كان هنا قبل قليل، أنت تعرفينه، أعزّ أصدقائي، ماكس ديليوس، وعرض عليّ التكلّف بترية طفلي، مع حماتي. أردت فقط إبلاغك بهذا.

- يا إلهي! على مهلك يا أونو، ليس بهذه السرعة. ما هذا الذي تقوله؟

- أقول إن مشكلتي قد حلّت. سيعمل ماكس في التلسكوب الراديوي الجديد في دريته، سيتنقل للعيش هناك؛ ستسكن حماتي معه كمدرّبة منزل، وسيكون هناك مكانٌ لطفلي. ليس هناك أجمل من هذا. كلّ شيء على ما يرام!

حاولت العثور على الكلمات وهي تلعثن: «ولكن أونو.. تمهّل قليلاً! أنت لا تستطيع...».

- أستطيع قطعاً!

- لا تكن بهذه الحماسة. لا تستطيع تقرير هذا بين لحظة وأخرى!

- قرّرت وانتهى الأمر.

- كيف تتصوّر الوضع إذا؟ هل فكّرت جيّداً بكلّ العواقب؟ هل تعلم علم اليقين أنك لن تندم؟ أرى على كلّ حال أننا لا نستطيع التباحث في هذا على الهاتف. ألا تستطيع...

- ليس هناك ما نتباحث فيه، أريد فقط إطلاعك على الأمر. سيتلقّى كلّ من هانس وباولا رسالة لطيفة مني، رسالة شكر على عرضهما - ولا أرى أيّ عواقب أخرى قد تترتب على هذه الصيغة. لا أستطيع قراءة المستقبل، ولكن لماذا يجب أن أندم؟

مضت بضغ ثوانٍ قبل إجابة دول: «لأن.. لا أعرف كيف أقول هذا.. هذا ليس رأيي، لكنني أستطيع تصوّر أن يكون رأي أحد.. انظر، لا أحد يستطيع الاعتراض على حماّتك، ولكن...».

فسأل وهو يشعر بأنه يحتدم غضباً: «على مَنْ إذا؟! أو بالأحرى على مَنْ غيرها؟ قولي أخيراً ما تقصدينه!».

- نعم، لا أريد جرحك يا أونو ولكن صديقك ماكس.. بدا لي رجلاً مثيراً للاهتمام، ووسيم الطلعة أيضاً، لكنّه.. ليس واحداً منا.

فصاح أونو بغضب شديد: «حتى أنت يا بروثس! تقصدين أنه ابن يهودية ومجرم حرب، ابن كلّ ما حرّمه الربّ، وليس ابن أناس مسيحيين مهذّبين قاموا بنهب المستعمرات على مدى قرون طويلة! هذا ما تقصدينه! وأنّ مثل هذا الشخص ليس جديراً بترية طفل من آل كويست! لا، لكنني تأكّدت الآن من كلّ شيء، إنني سعيد لأنك قلت هذا، شكراً على مساعدتك!».

*

في الصباح التالي، يوم الأحد، ندم على سورة غضبه واتصل بها مرة أخرى. ردّ صهره على الهاتف، لقد خرجت دول بالكلب. قبل اعتذاره نيابةً عنها، لقد تفهّمت موقفه في ما بعد. بدأ يقول: على كلّ حال كنا مساء الأمس في زيارة والديك في شارع ستاتن... لكنّ أونو لاحظ من فوره أنّ كارل يحاول بهذه الطريقة غير المباشرة وضع ماكس موضع النقاش من جديد، لذلك قاطعه وقال إنه لا يكثر بما يقوله والداه، لأنه حسم قراره: سيحدث على هذا النحو وليس على نحوٍ آخر، وليس هناك جدوى من العودة إلى النقاش فيه، ويجدر بالعائلة أن تتعلّم التعايش معه. بعد ذلك اتصل بماكس وصوفيا واتفقا على أن يذهب مع ماكس إلى لايدن في فترة ما بعد الظهر؛ سيذهب ماكس لاصطحابه من أمام بوابة المستشفى.

لم يكن واضحاً تماماً بالنسبة إلى أونو نفسه لماذا يزور آدا برهة قصيرة كل يوم تقريباً، - في الآونة الأخيرة خارج أوقات الزيارة الرسمية في أغلب الأحيان. لم تكن هناك حاجة لأن يفعل هذا من أجل آدا: هي أقرب إلى زيارة قبر منها إلى عيادة مريض. ولكن في ذلك القبر المنطوي على التناقضات لم يكن هناك جسدٌ ميت يتحلل بصورة تدريجية، بل جسدٌ غير مولود يأخذ هيئة معيّنة. بينما يقف إلى جانبها بذراعين متصلبتين، أقبلت عليه رئيسة الممرّضات وقالت إنّ الدكتور ميلخيور، الجراح، قد سأل عما إذا كان يستطيع أن يعرج عليه؛ إنه في غرفته، في الجناح المقابل.

- بهذه المناسبة، الآن وأنا أتحدّث إليك: هل توافق على تقصير شعر آدا قليلاً؟ لقد حافظنا حتى الآن على طوله على نحو أقل أو أكثر، ولكن لأسباب تتعلّق بالنظافة.. في هذه الظروف سينمو من جديد بسرعة كافية.

فهم أونو أنه لا يستطيع الرفض، مثلما لا يستطيع المطالبة بأن تُجمل آدا بالمساحيق كلّ صباح. أحنى رأسه علامة الموافقة، طبع قبلةً على شعر آدا الحريري الأسود، وغادر الصالة دون أن يتبادل نظرة مع الممرّضة.

تساءل ما الذي يريده ميلخيور منه، فقد تحدّث معه يوم أمس. في الطريق لاحظ مجدّداً أنّ العاملين ينظرون إليه بطريقة خاصة: لقد عرف الجميع بمرور الوقت من يكون، وفي أيّ حالة ترقّد زوجته. بدا أنّ بعضهم يريد رؤية كيف يشعر شخص في وضعه، ومعظمهم يُحدّث انطباعاً بأنه يريد مساعدته بالنظر إليه.

جاء الجراح قصير القامة، بوجهه المستدير اللحيم، وظهره المحدودب، وساقه المشوّهة، من خلف مكتبه، وصافحه. يرتدي سترة بيضاء قصيرة الكُمّين. قال: «تفضّل بالجلوس! لن نطيل في الحديث. أردت التحدّث إليك على انفراد، من دون حماتك».

طوى يديه الكبيرتين على سطح مكتبه، ونظر إلى أونو نظرة طويلة ثاقبة، بينما يزن كلماته بعناية على ما يبدو: «استفسرت أمس عن مدى خطورة العملية التي سنجرّيها الخميس القادم». - فهمت منك أنّ نسبة نجاحها عالية إلى حدٍّ ما.

أحنى ميلخيور رأسه علامة الموافقة وترك الصمت يسود مرّةً أخرى، في حين لم يحوّل عينيه الزرقاوين الفاتحتين عن أونو. بادله أونو النظر في اندهاش بينما يراوده شعور بأنّ فواصل الصمت هذه تتضمّن الرسالة الحقيقية أكثر من كلماته. قال الجراح ببطء: «هذا صحيح على العموم. ولكن دائماً يمكن حدوث مضاعفات مميتة».

قال أونو: «نحن على وعي بهذا. لعلّ حماتي أكثرنا وعياً، فقد كانت تعمل في المجال الطبي. لم تكن هناك حاجة لأن تخبئ عنها هذا الأمر».

قال ميلخيور: «سمعت هذا».

وأدخل فاصل صمتٍ مرّةً أخرى: «ولكن أنت تعلم، الأم...».

فجأة، شعر أونو بالدم يهرب من وجهه. هل فهمه جيّداً؟ هل هذا الرجل مستعدّ لإنهاء الأمر؟ لو قال له إنّ النهاية المميّنة غير المتوقّعة قد تكون أفضل للجميع في آخر المطاف، ولآدا في المقام الأول، هذا إذا كان قد بقي شيء من آدا، فهل ستظهر المضاعفات المرغوبة يوم الخميس؟ نزيف دموي، أو سكتة قلبية تؤدي إلى الوفاة؟ الخميس هو اليوم الذي يمكن فيه حدوث هذا الشيء؛ إذا لم يحدث، ستضيع الفرصة وسيبقى جسدها في هذا الوضع على مدى شهور وربما سنوات، قبل أن يموت موتاً فيزيولوجياً طبيعياً. سيمضي وقتٌ طويل قبل أن يختلف الوضع في هولندا التي يسيطر المسيحيون عليها، دون أن يعرض أحدٌ نفسه لخطر السجن أو الحرمان من الأهلية في ممارسة الطب؛ هذا سببٌ آخر يستدعي التغيير الاجتماعي. نهض عن مقعده، سار إلى النافذة، ونظر عبرها إلى الخارج دون أن يرى شيئاً. إنه الآن في محادثة معه، ولكن لا يجوز قول كلمة صريحة في هذا الأمر؛ لو نطق عبارة «الموت الرحيم»، لرفض ميلخيور الاقتراح باضطراب ولسارت العملية دون شائبة. لو ماتت آدا أثناء العملية وظهرت الشكوك، فأصبح بمقدور الناس من أمثال صهره كون جرجرته إلى المحكمة، على أساس القوانين التي يدرّسها أخوه مينو، لاستطاع الجميع الإدلاء بشهاداتهم تحت القسم أنه لم يكن هناك أيّ حديث عن إنهاء حياتها. لعلّ القاضي سيكون له رأيه الخاص، ولكنّ الحكم سيكون إخلاء السبيل، الأمر الذي سوف يستقبله القسم المتنوّر من الشعب بالهتافات.

لكن ماذا يجب أن يفعل؟ يجب عليه فجأة أن يقرّر بشأن حياتها، وهو لم يُخلق لأخذ مثل هذا القرار! أحسّ بالمسؤولية تُثقل كاهله، مثل ذلك العتال بكيسٍ كبير من الفحم الصلب من أيام طفولته. لكن هل حياتها ما تزال حياتها «هي»؟ هل ما يزال هناك شخصٌ يسمّى آدا، شخص يرقد على فروة من صوف الغنم على بُعد خمسين متراً من هنا؟ لقد سأل أول أمس طبيب الأعصاب عمّا إذا كان تخطيط أمواج دماغها مسطحاً تماماً - فأجاب ستيفنس إنه لا يمكن تمييزه عن التخطيط المسطح. لكنّه تذكّر أيضاً الحديث الذي خاضه مع ماكس قبل

أسبوع بجانب سرير آدا وهو أن الجميع، رغم تخطيطات أمواج الدماغ كلها، يهمسون بحكم الغريزة للراقدين في تلك الأسرة.

التفت إلى الوراء. ميلخيور يتصفح بطاقات الفهرسة الكبيرة، المربوطة بعضها فوق بعض بشريط لاصق على شكل كراس مؤقت؛ كان يثير انطباعاً بأنه نسي موضوع النقاش. نظر أونو في ساعة يده، وقال: «لا تؤاخذني! هناك شخصٌ ينتظرنى أمام البوابة. هل نواصل هذا الحديث في وقت آخر؟».

- كما تريد. ليس هناك كثيرٌ مما يمكن مواصلته.

*

سأله ماكس: «ما بك؟ لماذا لا تقول شيئاً؟».

كانا يسيران بالسيارة في الطريق المتجه إلى لايدن، محاطين بالسائقين ذوي الشعور الشائبة غير الواثقين من أنفسهم، الذين لا يقودون سياراتهم سوى أيام الأحد. تأوّه أونو ونظر إليه من الجانب: «هل أستطيع الوثوق بك؟».

ضحك ماكس بعدم ارتياح: «هل يُعقل أن أقول: لا؟».

- أقسم إذاً إنك لن تخبر أي شخصٍ بالسّر الذي ساستأمنك عليه!

- أقسم!

- لا حماتي، ولا طفلي، ولا أيّاً كان في وقت لاحق أيضاً. ارفع إصبعين من أصابع يدك اليمنى وأقسم مرةً أخرى.

سحب ماكس يده اليمنى عن المقود، رفع إصبعين، وقال: «أقسم».

ثم أخبره أونو بما حدث قبل قليل. صُعق ماكس أيضاً من هذا الظهور المفاجئ للخطورة القصوى. لم يخطر في باله، شأنه في ذلك شأن أونو، أن يأتي يومٌ في حياته يأخذ فيه القرار في مسألة الحياة والموت. هذا شيء يحدث مع الأطباء، والعساكر، والسياسيين، وليس مع علماء الفلك؛ لذلك يمكن أن يحدث مع أونو أكثر منه.

- عندما قلت له إننا نستطيع مواصلة حديثنا في وقت آخر، أجاب بأنه ليس هناك كثير مما يمكن مواصلته. لم يكن يشير إلى حديثنا طبعاً، بل إلى حياة آدا. إنه يشبه كوازيمودو في المظهر، قارع الأجراس في كنيسة نوتردام، لكنني سمعت من صهري أنه نابغةٌ في مجاله. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

لعله كان مكانه. أخذ دماغ ماكس يعمل بشكل حادّ وسريع. قال: «أريد التحرّي عمّا إذا كان طيبب الأعصاب والجراح مقتنعين مئة بالمئة أنّ آدا ميتة دماغياً فعلاً، وأنّ أيّ ذرة من الفردية لم تبقى منها. فإذا كان قد بقي منها ولو جزء صغير للغاية، فيُعدّ هذا جريمة قتل. إنني متعصّب إلى هذا الحدّ. لنفترض أنه لم يبقَ منها سوى ما يعادل طفلاً ذا سنة واحدة، فلا يجوز فعل هذا. فالأطفال الرضّع أيضاً لا يجوز قتلهم. ولكن إذا لم يكن قد بقي أيّ شيء منها، أصبحت صفراً بالمئة، مجرد نبتة، فهذا لا يعني شيئاً. فيجوز فعل هذا».

- الأسبوع الماضي كنت تتحدّث بشكل مختلف. لقد أثرت لديّ انطباعاً بأنك ترى أنه حتى الموتى لا يجوز إماتتهم، إذا جاز التعبير.
أحنى ماكس رأسه: «كان ذلك تخيلاً».

- ولكن كيف يمكنني اكتشاف ما الذي يفكر فيه كوازيمودو فعلاً؟ لا يمكنني سؤاله ببساطة، لأنّ ذلك سيُلغّي الأمر على الفور. ولا أستطيع التواصل مع طيبب الأعصاب ستيفنس، لأنّ ميلخيور لم يُطلعه على استعداداته بطبيعة الحال.

في تلك اللحظة نفسها خطرت فكرة في بال ماكس: «هل تعرف ما يجب عليك فعله؟ استفسر منه بنبرة بريئة عما إذا كانت آدا ستُخدّر تخديراً موضعياً أم كلياً. إذا قال إنه لن يقوم بتخديرها إطلاقاً، لأنها لم تعد تملك أيّ إحساس، فقد حلّت المسألة؛ ولكن إذا قال تخديراً موضعياً أو كلياً، فستعرف الحقيقة».

هتف أونو: «هنا نميّز الاختصاصي في العلوم الدقيقة! ولكن إذا طرحت عليه هذا السؤال، سيُشتم رائحة الطعم في أغلب الظن، فهو لا يبلغ ذلك المبلغ من الغباء كما يبدو لي. لعله من الأفضل أن أترك صهري يتدخّل في الموضوع بذريعة أو بأخرى، فهو جراح دماغ، كما تعلم؛ هؤلاء الجزارون جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً».

وهزّ سباتته: «أو لا، لعله يقول إنّ العملية القيصريّة لا تُجرى تحت التخدير الموضعي إطلاقاً وليست هناك حاجة إلى السؤال. ولكنّ هذا سيثير انتباهه على الفور، لأنّ الجميع قد فكّر في هذا الاحتمال بطبيعة الحال، ولا سيّما كارل المهذّب، الذي كان يمكن من الناحية الشخصية إقناعه بمثل هذا الشيء، لو لم يكن كلباً مسيحياً في نهاية الأمر. لا ينبغي دخول أيّ شخص آخر في هذا الموضوع».

ونظر إلى الجانب مرّة أخرى: «أعرف حلّاً أفضل. يجب عليك أنت اكتشاف هذا».

ألقي عليه ماكس نظرة خاطفة، ثم نظر إلى الطريق مرة أخرى: «كيف تتصوّر هذا؟».

- يجب أن تغازل الممرضة الجراحية قبل يوم العملية وتعرف منها ما إذا كانوا سيخدّرون آدا. في السرير إذا لزم الأمر. دون أخذ الشخص بعين الاعتبار. هكذا ستكون إباحيتك المقررة قد عادت أخيراً بفائدة.

ابتسم ماكس. هذه الإباحية التي يمكنها تحقيق فائدة - رغم أنّ أونو قالها طبعاً بلهجة نصف جادة - لم تعد موجودة.

- لا أظنّ النجاح مضموناً.

- صرت خجولاً فجأة؟!

- اسمع، يمكنها أن تكون سحاقية، فأنت لا تعرف طبيعة هؤلاء الممرّضات. لا تفتح فمي.. هناك حتماً طريقة أضمن للوصول إلى النتيجة. أظنّ أنني سأعمل في الأيام القادمة على اكتساب المعرفة بعملية التخدير من الناحية الفنية.

- تبنيج. المخدّرات هي عقاير التخدير.

- ... بحيث أستطيع رؤية ما إذا كان جهاز التخدير في وضعية التشغيل وهذا النوع من الأشياء. سأدخل غرفة العمليات بخطأ مفتعل يوم الخميس، قبل العملية بربع ساعة. يمكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث دائماً في أمستردام. سأطلعك على الوضع بعد ذلك؛ كونك زوج المريضة سترافق نقالة المرضى إلى باب غرفة العمليات، حيث لن يسمحوا لك بالدخول. عندئذٍ ستطلب مقابلة الجراح وتلمّح له على انفراد إلى قرارك.

نظر أونو مستغرقاً في التفكير إلى سيارة التقليد الصغيرة ذات العجلات الثلاث، السائرة أمامهما ولا تريد أن تتزحزح عن المسار الأيسر من الطريق. قال: «صحيح. سنفعل هذا الشيء يا كوميانييرو! ماذا كنت سأفعل دونك؟!».

- لا شيء.

*

عندما اجتمعوا لأول مرة في ظهر ذلك اليوم، في الغرفة العلوية في الجهة الخلفية من محلّ الكتب المستعملة، وأمامهم الشاي والكعك، شعر أونو في المقام الأول بأنه يجب عليه التعوّد على وضعهم الجديد: ماكس الأب المتبنّي، صوفيا الأم المتبنّية، وهو الأرملة الغائبة عنه زوجته. شعر بالحرج من الوضع، لكنّ صوفيا تصرّفت بشكل عملي مثلما تفعل على

الدوام؛ لقد تأقلمت تماماً مع الظروف المتغيرة، مثل شخص غير وظيفته ببساطة. أما ماكس فيعلم، أنها هي وهو وحدهما يعرفان، أن العلاقة الجديدة التي يقف فيها أحدهما حيال الآخر هي واجهة تخفي وراءها علاقة مختلفة كل الاختلاف؛ وهذه العلاقة أيضاً تشكل طبعاً واجهة جديدة، تسود خلفها الفوضى وعدم الاطمئنان حصراً. الآن وقد أضيفت الخطة التي وضعها في الطريق قبل قليل إلى هذا الإدراك، فقد خُيِّلَ إليه وكأنه هو نفسه ذاهب إلى شيء شبيه بالتخدير. فضل البقاء لقضاء الليلة في «مديح الحماقة» كي يغطس في أحضان صوفيا الليل، ولكن ذلك مستحيل طبعاً بسبب وجود أونو.

- إلى اللقاء سيديتي!

- مع السلامة ماكس!

عُقد الاجتماع المغلق التالي مساء الثلاثاء في بيت أونو، ولكن لم يكن قد بقي الكثير مما يمكن النقاش فيه. اتفقوا سريعاً على الجانب المالي من المسألة، وقد رُتّب بيع محلّ الكتب المستعملة أيضاً في تلك الأثناء. لم يكن أونو في حاجة إلى التفكير طويلاً في هذا الأمر: خرج من مخزون عائلته الذي لا ينضب واحدٌ من أولاد عمومته، لا يريد قط أن يكون فاضل السلوك، لكنّه الآن مدير مكتب عقاريّ كبير؛ اتصل أونو به وطلب منه بيع العقار بسعر باهظ، دون أخذ نسبة مئوية لنفسه، وإلا سيبلغ الشرطة عنه. أما بالنسبة إلى المسكن في دريته، فقد تحدّث ماكس مع مدير المرصد، الذي ابتسم ابتسامة غامضة وقال إنه ربما يعرف شيئاً جميلاً. كان ذلك ما يبحث عنه، ولم يكن على كلّ حال منزلاً في حيّ مشيد حديثاً. تضمّن ذلك أيضاً أن تعيينه عالمًا فلكيًا اختصاصياً في التلسكوب في المرصد الجديد قد أصبح حقيقة واقعة.

بعد انتهاء الاجتماع، غسلت صوفيا الأطباق المتراكمة، وكُنّست البيت بالمكنسة الكهربائية، وشغلت الغسالة، ما استدعى إلى ذهن أونو زيارة آدا الأولى: إنها تشبه أمها أكثر مما تعرف هي نفسها، أو أكثر مما كانت تعرف. بينما صوفيا منهمكة في العمل في الطابق العلوي، قال ماكس إنه من الضروري إطلاع حماة أونو على خطّتهما التخديرية. فهي في المقام الأول تفهم في التخدير، وفي المقام الثاني يتعلّق الأمر بابتها. أما أونو فقد رأى أنه يجب إبقاؤها خارج الموضوع لهذا السبب تحديداً: كونها أمّاً لن تشارك إطلاقاً في موت طفلها، حتى وإن لم يبقَ شيء من هذا الطفل. لم يقتنع ماكس تمام الاقتناع بهذا الأمر، لكنّه لم يستطع إظهار أنه يعرفها أكثر مما يعرفها أونو. السبب الأساسي في ضرورة أن تبقى جاهلة

بالموضوع - وقد اتفق معه ماكس في هذا- هو عدم تعريض ميلخيور للخطر بأي شكل من الأشكال، فهو الذي جازف وأبدى استعداداه لخرق المحظور الكبير، وتعتمد تقديم اقتراحه المبطن في غياب صوفيا.

في صباح يوم الأربعاء -بعد قضاء الليلة في لايدن، فقد كان من غير المجدي العودة إلى أمستردام- ذهب إلى المستشفى الجامعي. لقد نوى تقديم نفسه على أنه كاتب روايات طبية، يجمع معلومات موثقة، ويرغب في إلقاء نظرة على غرفة العمليات ويتلقى فيها شرحاً عن كيفية عمل جهاز التخدير. لكنّه عندما وقف على درج المدخل وتذكر الليلة الكارثية قبل ثلاثة شهور، خارت عزيمته بصورة مفاجئة. قرّر الذهاب أولاً إلى المكتبة العامة الخاصة بكلية الطب.

بينما يتهامس طالبان في جواره عن المسرح الملكي «كاريه» في أمستردام، الذي سيحتل في أغلب الظن يوم الغد عقب عرض موسيقي -بقيادة الكاتب والمؤلف الموسيقي، اللذين صادفهما في طريقه عدة مرات، والعائدين للتو من باريس المتمردة كما يبدو- تصفح الكتب التعليمية عن التخدير وأمعن النظر في صور الجهاز. بعد ذلك طلب من سيّدة متجهمة، بشعر شائب مرفوع في عقدة، وقلم رصاص خلف أذنها، أن ترشده إلى الأدبيات عن علم التوليد. بينما يتعمّق في تقنية العملية القيصرية وينظر إلى صور الأحشاء المضمّخة بالدماء، حيث يُخرج الأطفال الرضع من الكهوف المظلمة الرطبة، رغماً عنهم كما يبدو، ضُعن من التشابه المتطابق، تطابق الصورة المنعكسة في المرأة، بين عمل الجراحين وعمله. مثلما ينظر هو، منطلقاً من جسمه، في أعماق الكون، التي يصبح فيها كلّ شيء عصياً على الفهم بوتيرة متزايدة، يسلكون هم الاتجاه المعاكس ويخترقون الجسم نفسه، حيث يصادفون ألغازاً مماثلة، وينتهي بهم المطاف عند أعصاب مبهمة وجزيئات الحمض النووي، التي من المحتمل أنّ العمليات الكمومية تحدّد عملها هي أيضاً في آخر الأمر. أما حقيقة أنّ حجم الجسم البشري يكاد يكون في الوسط بين حجم الكون وحجم أصغر الجسيمات، فتنسجم مع هذا الأمر. الإنسان هو محور العالم - هذا لا يتضمّن عقيدة لاهوتية: هذا تستطيع قياسه.

لكنّه بعد ذلك صادف مشكلة غير متوقّعة. العملية القيصرية، وهي عملية روتينية لا تستغرق أكثر من نصف ساعة، تُجرى على العموم تحت تخدير كليّ، ولكن في بعض الأحيان تحت تخدير موضعي؛ الجزء السفلي من الجسم وحده يُخدّر بحقنة قطنية في أسفل الظهر.

هذا يعني: حتى إذا لم يكن الجهاز في وضعية التشغيل يوم الخميس، فلا يمكن التوصل إلى استنتاج شيء. إذا كانت الأضواء الحمراء غير مشتعلة، فهذا يعني أنه يجب عليه إيجاد حقنة معيّنة، خلال بضع ثوان، بين العشرات من الحقن الأخرى، والمقصات، والملاقط، والمشابك، والكمّاشات، والمشارط، وكل الأشياء الأخرى التي ستكون جاهزة لتسيير كلّ شيء حسب الرغبة. طبعاً هذا شيء مستحيل. وكذلك لا فائدة من التحريّ، بأيّ ذريعة من الذرائع، عن وجود طبيب التخدير في غرفة العمليات من عدم وجوده. سيكون موجوداً بطبيعة الحال؛ ليس من المعقول أن يتلقّى اتصالاً هاتفياً بأنه يستطيع البقاء في البيت هذا اليوم، لأنّ المريضة لا تشعر بأيّ شيء بكلّ الأحوال. فضغط الدم ووظيفة القلب وكلّ شيء يجب أن يبقى تحت المراقبة، سواءً أعطوها التخدير أم لم يعطوها.

أغلق ماكس الكتاب بخبطة قوية، الأمر الذي استحقّ به نظرة جليدية من أمينة المكتبة. لقد رأت طبعاً منذ وقت طويل، من فوق نظارتها، أنّ شخصاً غير متخصص جالس هناك يعبت بالملفات الأنجلوسكسونية المغلفة بالكثان الأحمر والأزرق، والمنضّدة بالحروف الذهبية. فالمصابون بوساوس المرض يأتون إلى هنا بشكل منتظم ليُشخّصوا أمراضهم المُتخيّلة. راوده شعور بأنه مثيرٌ للسخرية، شأنه شأن طبيب عام يدخل غرفة الرصد في دفنخلو، ظناً منه أنه يستطيع في طرفة عين رؤية ما إذا كانت المرأة تُستخدم لأهداف تجسّسية. حديث من عشر دقائق مع خبير في المستشفى الجامعي سيوضح كلّ شيء؛ ولكن إذا أخذت الأمور منحى خاطئاً ونُشرت الحادثة في الجريدة، فيمكن أن يذهب ذلك الشخص إلى المحكمة ويدلي بشهادته عن تلك المحادثة الغريبة في اليوم السابق للعملية المميّنة، التي ستثير ضجة في هولندا المحافظة بأكملها. جريمة قتل! سيلاحقونه -لأنّ أمينة المكتبة رأتَه في إحدى المرات يخرج من المرصد، بينما تتنزّه مع صديقتها في حديقة هورتيس بوتانيكوس- وسينتهي المطاف بميلخيور في السجن. لا يمكنه ببساطة الإمام بالموضوع في عجالة دون تعريض نفسه للخطر، إلا إذا استقلّ طائرة على الفور إلى بلد بعيد، إيطاليا على سبيل المثال، وقَدّم نفسه في المستشفى في روما على أنه كاتب ألماني يعمل على قصة قصيرة عن امرأة حامل في غيبوبة، امرأة... ولكن لا، حتى هذا محفوف بالمخاطر في أغلب الظن. فمثل هذه الحالة المذهلة قد تصل حتى إلى الصحافة العالمية.

33. العملية القيصرية

كان أونو وصوفيا قد رأيا شعر آدا من قبل، ولكن عندما دخل ثلاثتهم معاً إلى صالة المرضى بعد ظهر اليوم التالي، توقّف ماكس على العتبة من شدة الفزع. لقد حُلّق شعرها على الصفر. بدت مثل الفتيات والنساء اللاتي رأى شعورهن تُحلق على يد رجال مُرغين ومُزبدّين في الشارع، في الأيام القليلة الأولى بعد انتهاء الحرب، عقوبةً لهن على معاشرتهن الجنود الألمان: «عاهرات الموفونيين» في رأي الجماهير، التي بقيت حتى معركة ستالينغراد تنسّق على مستويات أعلى بكثير مع الألمان، باستثناء خلع السراويل بمرح وابتهاج. اختفى الإطار المستطيل حول وجهها وكشف عن رأس أعزل مكوّر، بدا عندئذٍ فحسب أنه رحل بشكل نهائي إلى العالم المتعذّر الوصول إليه.

في الساعة الرابعة إلا ربعاً، ظهرت ممرّستان كي تنقلا آدا مع السرير وكلّ شيء إلى غرفة العمليات. كان ماكس قد اتصل بأونو في المساء السابق وأبلغه بفشله الذريع في بحثه الطبيّ، فاستتج أونو من فوره أنّ عدم اليقين من وجود آدا الروحي قد بقي على حاله، وأنها لهذا السبب يجب أن تبقى على قيد الحياة. طبع ماكس شفّتيه على جيبتها وتساءل كيف سيشعر لو أنّ القرار خلاف ذلك.

شعر أونو أيضاً بالارتياح لسير الأمر على هذا النحو. لقد راوده شكّ في وقت لاحق فيما إذا قصد ميلخيور من كلامه فعلاً ما فسّره هو، لكن لم تتوفّر لديه الجرأة لأن يقول هذا لماكس. لعلّه كان سيحمّله على تنفيذ مهمّة سخيّة. في حين ذهب ماكس وصوفيا إلى الصالة العامة، رافق آدا واضعاً إحدى يديه على بطنها عبر الممرّات وفي المصعد إلى الطابق العلوي. في حجرة واقعة أمام غرفة العمليات هناك رجلٌ من عمره يغسل يديه؛ يرتدي رداءً فضفاضاً أخضر اللون قصير الكمّين، وعلى رأسه قُبعة من اللون ذاته. عرّفه أونو بنفسه وسأله عمّا إذا

كان يستطيع التحدّث قليلاً إلى الدكتور ميلخيور. سأله الرجل: «ألا تستطيع التحدّث إليّ؟ أنا ستينفايك، طبيب التخدير!».

نظر إليه أونو في ذهول. له بشرةٌ حنطية، تميل إلى الدكنة حول العينين. أدرك أونو أنه أصبح في وضع قد يمكنه من اكتشاف ما يريده. ردّد: «طبيب التخدير؟ هل ستخدّر زوجتي؟!». - شيءٌ بديهي.

- لكنني فهمت من الدكتور ستيفنس أنها لم تعد تحسّ بالألم.

هزّ ستينفايك رأسه بابتسامة غامضة: «هذا شيء آخر. الإحساس بالألم مسألة تتعلق بالحاء الدماغى. ولكن ما يجب علينا تفاديه لمصلحة الطفل أثناء العملية هو ردود الفعل المحتملة من جذع الدماغ. وهذا الجذع سليم، كما تعلم، فزوجتك تتنفس أيضاً في آخر الأمر. ثم إنّ إحساسى أيضاً يقول لي إنه يجب علينا تخديرها».

بقي أونو ينظر إليه برهة قصيرة ثم أحنى رأسه علامة الفهم. لقد نُسفت تلك الترهات كلّها بضربة واحدة. لكنّ جملة ستينفايك الأخيرة، عن إحساسه، بقيت تتردّد في رأسه. أيمكن أن يكون قد بقي شيء من آدا حسب رأيه هو أيضاً؟ على الرغم من أنه لم يعد واثقاً من أنّ ميلخيور قد لمّح فعلاً إلى الموت الرحيم، فقد قال وهو يشعر بنفسه مثيراً للسخرية: «أرجو إبلاغ الدكتور ميلخيور بأن يتذكّر قسم أبقراط الذي أقسم عليه ويفعل كلّ ما بوسعه لإنقاذ حياة زوجتي».

لم يُجب ستينفايك على الفور. هل فهم؟

- سأبلغه، وإن كنت أظن أنه ليست هناك ضرورة لذلك في الواقع.

ونظر إلى أونو بنظرة حزينة إلى حدّ ما وقال: «أشاطرك الحزن. تستطيع الانتظار في الغرفة المجاورة».

- رفيقاي جالسان في الطابق السفلى.

- كما تريد.

*

جلس ماكس وصوفيا في كرسيّين من كراسي الحديقة المصنوعة من القصب إلى طاولة مستديرة من الخيزران بلوحة زجاجية على سطحها، محاطين بالمرضى المرتدين أروابهم

المنزلية فوق البيجامات المخططة وقمصان النوم، الحاشرين أقدامهم العارية في الأخفاف القماشية. بعضهم يلعب الورق، وبعضهم الآخر يقرأ مجلات مصوّرة، صادرة قبل شهور أو سنوات من دون شك، لكنّهم على وجه الخصوص يدخّنون؛ يمتصّون الدخان إلى داخل رئاتهم بالاستسلام المبهج للسجاء الذين سُمح لهم أخيراً بالخروج إلى الهواء الطلق، بحيث تبقى رؤوس السجائر متوهّجة بالاحمرار. هناك تلفزيون مطفأ يقوم على خزانة صغيرة.

أخذت صوفيا أيضاً تتصفّح مجلّة بهدوء، وكأنّها جالسة في انتظار قطار؛ واضعةً إلى جانبها حقيبة سفر. نظر ماكس في ساعة يده: إنها الرابعة. مع أنه هو أيضاً هادئ في الظاهر، لكنّه يرتجف من الداخل من شدة الخوف. خُيِّلَ إليه فجأة وكأنّ الوقت مخروطٌ مجوّف، يُدفع فيه منذ شهور من القاعدة الواسعة وسع العالم صوب الرأس الذي يجب أن ينفذ منه في الأجل الوشيك - وأدرك من فوره أنّ هذا التخيل ذكّر الرسم البياني المعتاد للزمان المكاني في الأدب النسبي: «المخروط الضوئي» لحادثة ما. في غضون ساعة واحدة يمكن أن تصبح الكارثة حقيقة واقعة، إذا اتضح فوراً بطريقة أو بأخرى أبوتّه للطفل.

جلس أونو إلى جانبهما وقال: «تحدّثت للتوّ مع طبيب التخدير».

رفع ماكس عينيه بحركة مفاجئة، لكنّه أدرك على الفور أنه يجب عليه التحكّم بنفسه، لكيلا يلفت انتباه صوفيا إلى الأمر الذي انشغلا به في الأيام الأخيرة.

سألت صوفيا: «وماذا قال؟».

أبلغها بالمحادثة دون أن ينظر إلى ماكس، لكنّه في الواقع كان يبلغه هو أيضاً بطبيعة الحال - فأدرك ماكس بصورة مفاجئة أنّ تصرّفه بشأن التحقيقات يوم الأمس أسخف بكثير مما كان يظن. شعر بنفسه مثل صبيّ صغير يظن أنّ صافرة رئيس المحطة تبتّ الحركة في القطار، وها قد سمع الشرح ببضع كلمات أنّ الأمر ليس على هذا النحو. شعر بالخجل - ليس حيال أونو باعتباره صديقه، إذ كان لديه أسبابٌ أخرى لذلك، وكان أونو نفسه قد رأى جدوى في الخطة، بل باعتباره رجل علمٍ على وجه الخصوص - تصوّر لو يسمع زملاؤه بهذا الأمر. كيف خطر في باله أنه يستطيع التحقّق من مسألة متعلّقة بالحياة والموت من هذا القبيل في غضون بضع ساعات بمبادرة شخصية منه، في مجال مختلف كلّ الاختلاف، يضطرّ الناس الآخرون للدراسة فيه عشر سنوات! هل أخذت التوتّرات منه كلّ مأخذ؟ لعلّه يجب عليه البدء بتوخي الحذر بعض الشيء.

سألهم إحدى الممرّضات ما إذا كانوا يرغبون في فنجان من الشاي؛ لم يرفض أحد سوى ماكس. حسب رأي صوفيا ستلقّى آدا تخديراً كلياً بواسطة جهاز تقطير؛ في حال التخدير الموضوعي في الظروف الطبيعية، يجب أن تجلس وتنحني إلى الأمام، برأسك بين ركبتيك، وهذا مستحيل طبعاً في حالتها؛ يمكن أيضاً في وضعية استلقاء، على الجنب الأيسر، لكنها لا تعتقد أنّ هذا سيحدث. قال أونو إنّ أهمّ شيء هو ألا يكون الطفل مصاباً بخلل، ولم يكن مطمئناً كامل الاطمئنان، حتى وإن ادّعى الأطباء أنه ليس هناك ما يستدعي القلق. افترضت صوفيا أن يكون طبيب أطفال أيضاً موجوداً أثناء العملية - على الأقل هذا ما كان يحدث في أيامها، ولكن ذلك كان في الماضي البعيد. تخلّل الصمت حديثهم بين حين وآخر. فهم يدركون أنّ آدا راقدة على طاولة العمليات تحت المصباح الضخم وأنهم يفتحون بطنها.

قال أونو فجأةً بوقار: «كلّ شيء يوشك أن يتغيّر. سيتحوّل الطفل من جنين إلى إنسان، آدا من ابنة إلى أم، أنت من أم إلى جدّة، وأنا من ابن إلى أب».

ونظر إلى ماكس: «أنت وحدك لن تتغيّر. شيء خليق بك وحدك».

أحنى ماكس رأسه. نزعته نفسه إلى الصلاة بأن يتبيّن أنه لا يتغيّر مثل الحجر.

قالت صوفيا بعد برهة قصيرة: «سنحتفل بعيد ميلاد في الثلاثين من أيار في كلّ سنة من الآن فصاعداً. مهلاً، هذا يعني أنه سيصبح من برج الجوزاء».

ردّد أونو باشمتراز وهو ينظر إليها بعدم تصديق: «الجوزاء؟ أنت لا تعنين ما تقولين».

- ماذا تقصد؟ نهاية أيار تعني الجوزاء، أليس كذلك؟

ردّد أونو بتأكيد ساخر مرة أخرى: «نهاية أيار تعني الجوزاء.. لن تقولي لي إنك تؤمنين بهذه الخزعبلات، أليس كذلك؟! أنت تشبهين أُمي؛ هي تدمج التنجيم مع المسيحية، وأنت تدمجينه مع الإنسانية كما يبدو. التنجيم مثل دينٍ عالميٍّ مهيم. ولكن حسناً، لا علينا، كلّ هذا مبرّر بسبب جذوره الموغلة في القدم. حتى إنّ مهنة ماكس لم تكن لها أن توجد، لولا التنجيم».

أحنى ماكس رأسه علامة الموافقة: «أجدادنا، المنجّمون».

وناجى نفسه: الجوزاء - وتذكّر في اللحظة نفسها إنغ وتشانغ، لكنّه احتفظ بهذا لنفسه. تصوّر لو يولد الآن في الطابق العلوي توءمٌ سياميّ فعلاً - أو توءم من بويضتين مختلفتين، بمعنى أن يكون أحدهما ابن أونو والآخر ابنه... هل يمكن حدوث مثل هذا الشيء؟

سأل أونو صوفيا، بصوت ما يزال ينطوي على نبرة هازئة: «أنت؟ ما برجك؟!».
- العذراء.

- هذا ما أريد سماعه يا أمي. هذا يحدث في نفسي انطباعاً في غاية الرصانة.

كان أونو كلما خاطب صوفيا بـ«أمي»، شعر ماكس بالإعياء، وكأنه يصبح بهذه الكلمة شيئاً شبيهاً بـ«أبي» أونو.

قالت صوفيا وهي تشير إلى زاوية الأبراج في المجلة الموضوعية على حضنها: «أنا لا أؤمن بها إطلاقاً. رأيته هنا مصادفة».

دخل سيدّ ضامر أرستقراطيّ المظهر في الخمسينيات من العمر، سائراً خطوة خطوة؛ الخرطوم البلاستيكي، المتدلّي من أنفه، موصولٌ بزجاجة مقلوبة معلقة على حامل طويل ثلاثي القوائم مزوّد بعجلات، يسحبه إلى جانبه مثلما يسحب أسقفٌ صولجانه. رغم أنّ جسده يبدو وكأنه ممتلئ بغاز مخلخل فقط، لا يثير انطباعاً بأنه ناوٍ على الموت - بل هناك أشياء أفضل يستطيع فعلها وهو مستاء بصورة أساسية من هذا التأخير الأحمق في المستشفى؛ يبدو له في أغلب الظن أنّ هذا شيء خليق بالناس العامين. كانت أطراف روبه المنزلي داكن الزرق، المنسوج من الحرير كما يبدو، محلاة بزركشة بيضاء؛ يبرز منديلٌ أبيض من جيب الصدر. أشعل التلفزيون دون أن يتنازل بإلقاء نظرة على أحد، وجلس إلى الطاولة المجاورة لطاولتهم. قالت له امرأةٌ مرتدية رداء حمام بلون زهرّي فاقع وعلى إحدى أذنيها لصقة كبيرة، مثل الرسام فان كوخ، إنّ البثّ لم يبدأ بعد في هذه الساعة. نذت عن السيّد إحناءة طفيفة وكأنه تلقى إطرأً منها، أشعل بهدوء غليونه، المتناقض تناقضاً غريباً مع القسطرة في أنفه، لفّ إحدى ساقيه على الأخرى، وأخذ ينظر إلى الشاشة في انتظار. كانت شعارات النبالة مطرزة بخيوط ذهبية على خفّ القماشّي دمويّ الحمرة.

أخذ ماكس وصوفيا، الجالسين بظهرهما إلى التلفزيون، يتحدثان عن الحرب، عن الأوضاع الارتجالية في المستشفى في مدينة دلفت في ذلك الوقت، فقال أونو فجأة: «اصمتا لحظة!».

لقد ظهر ديغول في بثّ إضافي. راح الجنرال المرتبك، بجسمه الضخم الشبيه بجسم أونو بعض الشيء، ينظر إلى الكاميرا ويخاطب الشعب الفرنسي. قال إنه لن يستقيل من رئاسة الجمهورية، رغم الأحداث الدامية التي وقعت في الأسابيع الأخيرة؛ أعلن عن حلّ الجمعية

الوطنية وعن إجراء انتخابات عامة؛ إذا استمرت أعمال الشغب، ستتخذ إجراءات في غاية الحزم. كان البث مباشراً، دون ترجمة كتابية، بصوت امرأة ناعم يقدم ترجمة فورية - ولكن بالهولندية لم تكن مثلما هي في الأصل: فرنسا تتحدث إلى فرنسا، بالفرنسية. بدت وكأن هذه اللغة هي اللغة الوحيدة الموجودة فعلاً، متبلورة في شخصية الجنرال من ناحية، والفرنسيين من ناحية أخرى. ناجى أونو نفسه: لعل هذا يمت بصلة إلى أن المتحدث، بكل سماته الأثرية مجتمعة، فيه شيء من صبي صغير سُمح له بارتداء حلة والده برهة قصيرة: حلة ملك فرنسا - وكأن شارل الصغير تحت الطاولة ما يزال يلبس بنطاله القصير، بركبتيه العاريتين المليئتين بالقشور المتبقية من جروح مندملة.

قال الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة وهو ينهض عن مجلسه: «صحيح!».

لم يستمر الخطاب أكثر من خمس دقائق. نظر أونو إلى ماكس وصوفيا في اندهاش: «هل أخبركما بشيء؟ لقد انتهى الأمر. في هذه اللحظة سينزل اليمين الفرنسي بأكمله إلى الشارع. لقد انتهت أيام العسل».

لم يكن ماكس قد تابع الخطاب؛ كان اهتمامه بالسياسة في تلك اللحظة أقل من أي وقت مضى، واستمع بعدم اكتراث إلى أونو، الذي قال إنه يرى أنّ عصرًا مختلفًا قد بدأ بهذه الجمل القليلة، لأنه يملك بحكم مهنته فطرة سليمة لتقدير هذا النوع من الأشياء. لقد ولّت سنوات الستينيات، غُزل الخيال عن السلطة، وستصبح الأمور من اليوم فصاعداً أقل إبهاجاً في العالم. لكنهم هم أنفسهم سيتذكّرونها على كلّ حال بالطريقة التي كان الجيل السابق يتذكّر سنوات العشرينيات - والسؤال هو عمّا إذا كان الجيل القادم سيكون لديه مثل هذه الذكرى.

قالت صوفيا: «على ذكر الحديث عن الجيل القادم.. هل تتذكّر لماذا أنت موجود هنا؟ ستصبح أباً!».

عاد أونو بهزة عنيفة من عالم السياسة إلى الصالة العامة. نظر في ساعة يده: «دعونا نذهب من هنا! نستطيع الانتظار في الطابق العلوي أيضاً».

أخذهم مصعدٌ حديديّ ضخم، غير مخصّص للزوّار على ما يبدو، بل لنقلات المرضى والتوابيت، إلى الطابق الأول ببطء. في حجرة ضيقة بجانب غرفة العمليات هناك كتبة خشبية مطلية بالورنيش مثبتة بالبراغي إلى الحائط؛ قبالتها على الجدار علّق ملصقٌ فيه ساحل يوناني مشمس: خلجان زرقاء عميقة الزرقة بين الصخور مُزبدة الأطراف، خلفها تخضع آدا لعملية

جراحية في هذه اللحظة. جلسوا بشكل أخرق بعضهم إلى جانب بعض، صوفيا في الوسط، بحقيبتها السفر الكبيرة أمام قدميها. سألتها أونو: «ما هذا الذي تجر جرينه معك طوال الوقت؟». فتحت سحاب الحقيبة دون أن تقول شيئاً، وأخرجت قميصاً صغيراً أبيض اللون بإحدى يديها وزوجاً من الجوارب الصغيرة بيدها الأخرى: «لا حاجة لهذه الأشياء في الحاضنة في الوقت الحاضر، ولكن إذا سارت الأمور على ما يرام، سأضعها في خزانة آدا بعد قليل. كانت هي نفسها ستفعل هذا».

قال أونو وهو ييسط القميص الصغير بين أصابعه وينظر إليه، مثلما ينظر عالم أحياء إلى نوع من الحيوانات مُكتشف للتوّ: «أنت رائعة! حقيقة أنك فكرت بهذا...».

عندما رأى ماكس الملابس المجهرية، خطر في باله الظل الذي يلقيه الشرير المقرب، في الأفلام من الدرجة الثانية، الذي لا يظهر منه سوى قدميه المحشورتين في حذاء لامع.

- انظر.. الصبيّان اللوطيّان!

في عتبة الغرفة وقف الصحفي، الذي سحبه أونو من فوق الطاولة في المقهى قبل ما يزيد عن سنة، لأنه هاجم صديقه.

قال أونو: «أيعقل هذا؟ ماذا تفعل هنا؟!».

- أنا على رأس عملي. يجب عليّ كتابة مقال عمّا يحدث هنا.

- وكيف تعرف ما يحدث هنا؟

رفع الصحفي كتفيه: «من أين تحصل الجرائد على المعلومات؟».

- اذهب من هنا لو سمحت! لست في حاجة إلى النشر. طبعاً اتصل بكم ممرض أراد كسب قليل من المال.

- لا تسألني هذه الأسئلة يا أونو، إنني أفضل الجلوس في الحانة على أن أكون هنا.

- أنا لست أونو بالنسبة إليك.

- حسناً يا دكتور كويست، دعنا نتكلّم بهدوء. أفهم أنك متوتّر قليلاً. ما الذي يدور في ذهنك في هذه اللحظة؟

- الرغبة الجامحة في كسر فمك! وإن لم تغرب عن وجهي في هذه اللحظة، كسرته لك فعلاً.

عندما همّ أُنو بالنهوض عن مقعده، والقميص الصغير ما يزال بين يديه، رفع الصحفي كتفيه وقال: «سأفعل من دونك إذا!».

واستدار على عقبه واختفى عن الأنظار.

ألقي أُنو القميص الصغير في حقيبة السفر بغضبٍ شديد: «هؤلاء الرعاع الباحثون عن الإثارة...».

فقال ماكس: «لا تنفعل إلى هذا الحدّ. لقد عوقب هذا الرجل بما فيه الكفاية بحقيقة أنه مخلوق على هذه الشاكلة».

فجأةً، وضعت صوفيا يديها اليمنى واليسرى على ذراعيهما: «هدوء!».

كان ينبعث بكاءً طفلٍ يكاد لا يُسمع على الطرف الآخر من الحائط.

*

ما لبثت إحدى الممرّضات أن أدخلت رأسها من فتحة الباب وقالت ضاحكة: «لقد جاء اللقلق^(*)! صبيّ ملائكيّ! الأمّ والطفل بخير!».

حقيقة أنه صبيّ كانت متوارية خلف الحفاضة - ولكنّ تحديد الجنس لم يكن يعني الشيء الكثير. وقفوا عاجزين عن الكلام أمام الحاضنة، في حين أخذ الأطباء، والمساعدون، والممرّضات ينظرون معهم من فوق أكتافهم. لم يحدث أن رأى أحدٌ مثل هذا الطفل الوليد. على العموم يكون مظهر الأطفال حديثي الولادة مثل مظهر الملاكين في نهاية الجولة الأخيرة: متورّمين، عيونهم مغمضة من الضرب، دائخين من العنف الذي تعرّضوا له - ولكن ما يرقد هنا في الحيزّ الزجاجي المغلق، مثل تحفة ثمينة في خزانة عرضٍ زجاجية في متحف، يبدو أقرب إلى «بتو^(**)» في واقع الأمر، على النحو الذي يُرى في اللوحات الإيطالية من عصر النهضة: ينقصه جناحان فقط.

لم يكن أصلع الرأس أو مغضّن البشرة، مثل بعض الرضع الذين يبدون على الفور في الهيئة التي سيكونون عليها في شيخوختهم، بل له شعرٌ أسود مسترسل ذو رونق ماهوغوني عميق، يغطّي جمجمته بأسرها وكأنه قادم من الحلاق للتوّ؛ بشرته نضرة مشدودة وتبدو

(*) أسطورة تقول إنّ اللقلق يُحضر الطفل الوليد في سلّة يحملها بمنقاره. [م]

(**) بتو: طفلٌ عارٍ من الملابس له جناحان في صورة ملاك. [م]

وكانها مضاءة بنور البدر. وأيضاً ليس فيه التشوّه المنتفخ الذي لا يمكن أن يُرى جميلاً سوى من منظار غريزة الأب والأم؛ الخدان مكتئبان وهناك ثنيات طفيفة في جلد الفخذين والمعصمين، يمكنها أن تدلّ لدى البالغين على السُّمنة - ولكن لا يظهر انتفاخ ناعم في أيّ بقعة من الجسم، كلّ شيء في أكمل صورة، مثل تحفة فنية جديرة بهذا التعبير. هذا ما يجعله في الوقت نفسه يتألّق بشيء من التحفّظ وكأنه ليس في حاجة إلى أحد. تبدو الحلمتان الصغيرتان، وأصابع اليدين والقدمين الرشيقة وكأنها منقوشة بإبرة نقش دقيقة؛ رغم مجيئه إلى الدنيا قبل شهر من أوانه، لم تكن أذناه فحسب قد تطوّرتا وأخذتا شكلهما شبه النهائي، بل أنفه وفمه أيضاً.

ولكن أكثر ما يلفت الانتباه هو عيناه. مفتوحتان على اتساعهما، وقد امتلأت المساحة الواقعة بين الرموش الداكنة بأكملها باللأزورد، بلون أزرق لم يسبق لأيّ منهم رؤيته عند إنسان. استدعى إلى ذهن ماكس لون البحر الأبيض المتوسط - ولكن في لحظة معيّنة فقط: عندما يراه في أول لمحّة، بعد سفر بالسيارة على مدى أيام عبر بلجيكا وفرنسا، بين التلال المتألّثة بأشعة الشمس بالقرب من سانت رافاييل: «ثالاسا!» زرقّة الأزرق العصيّة على الوصف في تلك اللحظة، ها هو ذا يراها في بقعتين في هذا الوجه النادر الشاحب. اختفى خوفه من ظهور شَبّه واضح فوري، في طرفة عين، يستطيع الاطمئنان في السنوات القليلة الأولى على ما يبدو. لقد نظر من فوره إلى الأنف والإبهامين، لكنّه لم يرَ فيها أيّ شَبّه منه؛ لم يكتشف أيّ شَبّه بينه وبين أونو أيضاً، ولم يأخذ من آدا سوى الشعر الأسود والحاجبين السوداوين المرتسمين بحدّة والرموش السوداء، التي تزيد زرقّة عينيه عمقاً.

قالت صوفيا: «يا له من جمال! هذا سيعرّضه لمشكلاتٍ في المستقبل».

والتفتت إلى الورا بصورة مفاجئة وسألت الوجوه الواقعة خلفها: «كيف حال ابنتي؟!».

- إنها ما تزال في غرفة العمليات. كلّ شيء يسير حسب الرغبة، ولكن سوف يستغرق بعضاً من الوقت.

لم يفكّر أونو ولا ماكس بآدا.

سأل ماكس: «ما اسمه؟».

(٥) كانت الكلمة قديماً تشير إلى البحر عموماً، وفي الميثولوجيا الإغريقية هي إلهة البحر، وتجنّد البحر الأبيض المتوسط. [م]

نظر إليه أونوباعتزاز: «أنت تعرف قصة الرجل الذي قال لأحد زملائك إنه يفهم أنّ علماء الفلك استطاعوا تحديد كلّ الصفات الممكنة للنجوم بأدواتهم الفلكية - ولكن كيف اكتشفوا أسماءها؟».

أحنى ماكس رأسه: «الحقّ أنّ هذا أعظم إنجاز لنا!».

قال أونو: «كويبتن».

من الأعماق



الجزء الثالث

بداية النهاية

الفصل الثاني

- تهانينا! لا بدّ أنها كانت لحظة مُرضية بالنسبة إليك. فهذا هو ذا قد وُلد، مبعوثنا - بعد سنوات طويلة من العمل الشاقّ.

- لكنّها لم تكن سوى لحظة واحدة. بعدئذٍ سارت الأمور كما تسير على الدوام: عندما تحقّق أخيراً ما كنت تريد تحقيقه، لا يعود ما كنت تريد تحقيقه، ولكن ما حقّقته ببساطة. يصبح عندئذٍ شيئاً بديهياً. ما تحرزه هو ما تخسره في الواقع، إذا أمعنت النظر. يضاف إلى ذلك أنك عندما ترى ما كان عليك أن تتسبّب فيه من أذى لتحقيقه، يتلاشى الرضا من نفسك. ولكن حسناً، أنا محترف، لديّ خبرة كافية في هذا المجال. ما يُحسب هو الهدف فقط.

- أظن أنك تفكّر الآن في الصداقة بين هذين الاثنين. ولكنّ تلك الشجرة التي سقطت.. هل كانت مصادفة، أم أنك كنت وراء سقوطها أيضاً؟

- كنت وراء سقوطها أيضاً. كانتا شجرتين على كلّ حال.

- ما المغزى من ذلك؟ كانت تلك العملية في غاية الخطورة - تصوّر لو أنها لم تنجّ منها أو أنها أجهضت. أعلم أنك لا تحب هذا النوع من الأسئلة، ولكن لعلّك ترغب مع ذلك في الإجابة.

- إن لم أكن أستطيع إسقاط الأشجار على النحو الذي أريده تحديداً، فلن أسقط الأشجار. نحن نعلم موقع كلّ جزيئة في الهواء ومدى قوتها، ونعلم إلى ذلك مرونة كلّ نقطة في الشجرة وجذورها ومدى مقاومتها - كان لابلاس^(*) سيّشعر بالسرور لو استطاع رؤية فرعنا الخاص بالديناميكا الهوائية منهمكاً في هذا النوع من الأشياء.

(*) Pierre-Simon Laplace (1749-1827): فيزيائي وعالم رياضيات وعالم فلك فرنسي، كان له إسهامات عديدة في مجالات شتى، ويُعدّ أحد أعظم العلماء على الإطلاق. [م]

- لا بلاس؟ أعتقد أنه واحد من أولئك المثقفين الفرنسيين بشالٍ متسخ حول عنقه ووشاح على كتفيه.
- لا أعلم ما إن كانوا يفعلون هذا في عصره أيضاً. رجلٌ عظيم على كلِّ حال، زميل ماكس ديلبوس، لكنّه أيضاً متفائل لا سبيل إلى إصلاحه. قال إنّ الشيطان الذي يعرف شروط العالم كلّها في لحظة معيّنة، لن يكون بوسعه إعادة بناء الماضي بدقّة فحسب، وإنما سيكون بوسعه حساب المستقبل بثقة أيضاً.
- أظنّه شخصاً من القرن الثامن عشر. حتى نحن لا نستطيع فعل هذا.
- نحن نحرز تقدماً جيّداً على مستوى إسقاط الأشجار.
- أخبرني، لماذا كان يجب أن تتعرّض تلك البنت المسكينة لمثل ذلك الحادث الفظيع؟
- لأنّ المهمّة لم تكن لتُنجز لو لم تتعرّض له. في كلّ ما فعلته، وضعت شيئاً واحداً فقط نصب عيني: استعادة الإملاء.
- حسناً، أفهم أنك لا تريد الإجابة. يبدو أنها تخدش شرفك المهني، وأنا أحترم هذا. سيتضح لي الأمر لاحقاً.
- نعم، سيتضح لك. في الماضي كانت الأمور أسهل بالنسبة إلينا.
- ماذا تقصد؟
- عندما كنا نوجّه الكلام إلى الناس ببساطة في حالاتٍ معيّنة.
- لكننا توقّفنا عن فعل ذلك، منذ أن جاءت تلك المخلوقات بفكرة أنّ ما يسمعونه ليس صوتنا بل صوتهم الداخلي. لم نكن نستطيع تحمّل هذا النوع من السرقة بطبيعة الحال. جدال في أنّ التكنولوجيا تأخذ مكان اللاهوت بوتيرة متزايدة على الأرض، ولكن لا ينبغي لعلم النفس تخيّل شيء في هذا الصدد.
- إنه لشيءٌ مؤسف أن تسير الأمور على هذا النحو. الحقيقة هي أنّ السماء والأرض مرتبطة إحداهما بالأخرى بواسطة الكلمة حصراً - العملية الحالية بالذات توضح مجدّداً هذا الارتباط.
- تماماً. كانت هذه العملية هي النقطة التي وضعناها في نهاية ذلك النقاش.
- سيكون شيئاً جميلاً إذا ارتعب الناس عند سماعهم بما حدث، أي عند سماعهم باسترجاع الشهادة، وإذا دفعهم هذه الصدمة إلى التوبة.

- لن يعرف أحدٌ بأمرها على الإطلاق. ثم أقول: التوبة؟ لا تدعني أضحك. هل تعتقد حقاً أنَّ هذا الجنس سيتخلّى عن أي شيء مهما كان؟ هيا! ما ينالونه، يريدون الاحتفاظ به. ذلك المسخ لوسيفر يعرف جيداً كيف يحقق مآربه. مع كلّ اكتشاف جديد سرق الناس جزءاً من قدرتنا المطلقة وشيطنوا واقعهم خطوة خطوة بهذه الطريقة. لقد حولهم حسب العقد إلى مصاصي دماء، يمتصّوننا تحت رعايته حتى الاستنزاف. إنهم بصواريخهم يتنقلون من مكان إلى مكان أسرع من الريح، وأسرع من الصوت حتى، وسيقتربون من سرعة الضوء ذات يوم؛ إنهم بتلفازهم حاضرون في كلّ مكان تقريباً في واقع الأمر، يستطيعون الرؤية في الظلام، يستطيعون مشاهدة الأحشاء الداخلية للإنسان دون أن يفتحوه، إنهم بأجهزة الكمبيوتر يملكون نظاماً شمولياً من المراقبة والتحكّم يتفوّقون به على فرعك، يستطيعون رصد الجسيمات الأولية، ويعرفون ما حدث في الثانية، عشرة أسّ ناقص ثلاثة وأربعين، بعد حدوث انفجار الضوء الخاص بنا. أما أبعد من هذا الحدّ فقد بادت نظرياتهم بالفشل حتى هذه اللحظة، فكلّ حساباتهم في الوقت الراهن تؤديّ إلى اللانهاية، ودعنا نأمل في ألا يروا معناه الأعمق ذات يوم؛ لكنني لم أعد أطمئن لأي شيء.

- سأبلغك شيئاً عن هذا الموضوع بعد قليل.

- إذا أرادوا، استطاعوا أن يدمروا الأرض حتى. لا تؤاخذني، ولكن هذه القدرة كانت امتيازاً لنا في الواقع. إنهم في هذه الأثناء مشغولون بتدمير الأرض دون قصد، وللبقاء على ضفة الأمان يتجولون في خطوة استباقية على سطح القمر، باعتباره نقطة انطلاق إلى بقية الكون. سيكونون في المستقبل المنظور قد استولوا على حقنا المطلق: خلق الحياة، نظير إفنائها الشامل. فيروس بادئ ذي بدء، ثم جرثومة، ثم دودة، ريداء رشيقة في أغلب الظن، وسيصنعون في يوم من الأيام كائنات بشرية على شكل وجوههم - التي غالباً ما تخلو حتى في الوقت الحالي من أيّ تعبير، مثل وجوه الدمي: بدلاً من أن يملكو تعبيرات الوجه يملكون أشياء مادية، مثل السيارات. لذلك سيصبح الناس مثل الأشياء بحكم الضرورة. المعرفة الإنسانية تتضاعف كلّ اثني عشر عاماً - الآن في عامهم 1985، ازدادت معرفتهم وقدرتهم مرتين عما كانت عليه في عامهم 1973، وعند اقترابهم من القدرة المطلقة سيصبح كلّ شيء ممكناً، بصورة حرفية، هناك في الأسفل. «المعرفة بحدّ ذاتها قوّة»^(٥) - من الذي تظن أنه جاء

(٥) بالإنكليزية في الأصل. [م]

بهذا القول المأثور؟ ذلك اللعين فرانسيس سيكون مرةً أخرى بطبيعة الحال. المعرفة قدرة، نعم، ولكن ليست على الطبيعة فحسب، بل على الناس، وعلينا أيضاً. تحوّلت الأرض بصورة نهائية إلى «بيت سليمان» اللعين ولم يعد الناس في حاجة إلينا، أصبحنا حكايات خيالية بالنسبة إليهم، فضولاً، أدباً... هل تتذكّر ذلك الوابل من الأسئلة الذي أطلقه «الحاكم» على أيّوب في إحدى المرات - عمّا إذا كان يستطيع رفع صوته إلى الغيوم، وعمّا إذا كان يستطيع سدّ البحر بالأبواب، وما أدراني أيّ أسئلة أخرى؟! لا، لم يستطيع فعل ذلك، لم يكن أحدٌ يستطيع فعل ذلك سوى «الحاكم»، وانظر إلى كلّ ما يستطيع فعله أيّوبنا الآن، ويضمن ذلك أشياء جديدة كلّ الجدة حتى على «الحاكم». لقد انتصر لوسيفر، ولم يعد هناك جدوى من اللفّ والدوران حول الموضوع. لقد أظهر عن طريق حركته الشيطانية مع البارون الخائن أنه الأقوى، ولم يعد يفيد أيّ شيء. لم تكن قد مضت خمس سنوات على وفاة يكون حتى كتب غاليلي وديكارث عمليهما الأساسيين، «الحوار» و«مقال عن المنهج»^(*)، ما شكّل بداية العصر الجديد، الذي فتح الطريق المشووم إلى أوشفيتز وهروشيتا وفكّ رموز الحمض النووي. لقد تنبأ غوته الشيخ بهذا المسار للأحداث، وإن في هيئة بشير خير: لقد جعل بطله فاوست البالغ مئة عام ينتهي به المطاف ليصير تكنوقراطياً، ينتصر على البحر بالمصدّات والقنوات، هذا يعني أنّ الطبيعة تصبح من خلق الإنسان.

- من قبيل مهندس هولندي في استصلاح الأراضي من البحر، في وزارة المياه والبنية التحتية في الواقع، يسدّ البحر بالأبواب. لعلّ غوته كان يفكر في لايخفاتر^(**)، الذي اكتسب شهرةً واسعة في القرن السابع عشر بكتابه بحيرة هارلمر.

- جائز، لكنني الآن لست في مزاج للتأملات التاريخية الأدبية. إنك تصرف انتباهي عن موضوعي - عمّ كنت أتحدّث؟

- عن الدمار العام الذي يحلّ بكلّ شيء.

(*) العنوان الكامل لكتاب الفيلسوف والفيزيائي الإيطالي غاليلي Galileo Galilei هو: حوار حول النظامين الرئيسيين للكون، وأمّا العنوان الكامل لعمل الفيلسوف الفرنسي ديكارت René Descartes فهو: مقال عن المنهج المتبع لحسن قيادة عقل المرء والبحث عن الحقيقة في العلوم. [م]

(**) Jan Leeghwater (1650-1657): صانع طواحين ومهندس مختص بالمياه، هولندي. ساهم في استصلاح أراضي البحر. وكان من أوائل الذين نادوا باستصلاح بحيرة هارلمر، التي شكّل نموّها خطراً على البلدات المحيطة بها. [م]

- نعم، عن دمارنا أيضاً على وجه الخصوص. لأنّ هذا ما بدأ لوسيفر بالسعي إليه منذ اليوم الأول: إهانتنا وتدميرنا بصورة كاملة. إنه لا يكثر بالإنسان في نهاية الأمر. ثم لا تنسَ أنّ هذه التكنولوجيا الشيطانية تنطوي أيضاً على العديد من الجوانب الجميلة. ليس فقط استصلاح الأراضي من البحر، ولكن خذ مثلاً التكنولوجيا الطبية. دعنا نذكر التخدير الموضعي على سبيل المثال لا الحصر. هل تعتقد أنّ أحداً يرغب في خلع ضرسه دون مخدّر مثل السابق؟ وهل تستطيع لومهم؟ تصوّر أن تكون لديك أضرار! لا، خذها مني، إنها حالة ميثوس^(*) منها. لقد استولى لوسيفر على أرواح الناس من خلال أجسادهم. أكبر خطأ ارتكبهنا هو أننا استهنا به على الدوام. ظننا أنّ الأمور لن تأخذ مثل هذا المنحى، فمن ذا الذي يستطيع معارضة «الحاكم»؟ نعم، هو إذاً. أحياناً يخطر في بالي -أرتكب إثمًا بقولي هذا- أنه يعرف الناس أكثر من «الحاكم» بكثير. «الحاكم» مثاليّ، زاخر بالعطف، يريد الخير للناس دون أن يعرف حقيقتهم. لكنّ لوسيفر يعرف أنهم يفضلون أن يفنوا السماء والأرض على أن يتخلّصوا من سياراتهم. لقد تكفّل في أن يكمن نعيمهم في الأشياء المادية. يعرف أنهم سيفضلون التخلّص من أرجلهم على التخلّص من الأشياء. ستفنى السماء والأرض إذاً. ولن يكون هناك مزيدٌ من الخسارة في الروح في هذا «الغسق الإنساني»، لأنها تعرّضت لخيانة شيطانية، بيعت، انصهرت في الآلات. سائق السيارة ليس إنساناً سائراً على قدميه في سيارة، بل مخلوقٌ جديد تماماً من لحم، ودم، وفولاذ، وبتزين. إنهم قناطير، غرافين^(*) من الطراز الحديث، وستكون هذه المخلوقات الأسطورية المنجّزة هي الشيء الوحيد الذي يبقى في آخر الأمر، لأنها نشأت على حساب الطبيعة والإنسان، وعلى حسابنا وحساب «الحاكم». مع كلّ شيء تقنيّ جديد صارت الحياة الإنسانية فارغة من المعنى بصورة تلقائية. ولن يحتوي عالمنا في نهاية الأمر إلا على تلك السلبية المنتصرة في نيران الجحيم جليدية البرودة، وفي السماء المعاناة الأبدية لـ «الحاكم»، مثل شعلة تائهة متبقية من النور العظيم. سيتبيّن لاحقاً أنّ كلّ شيء كان من أجل لا شيء. ماذا كنت أريد أن أقول؟ لقد التبتست عليّ الأمور على نحوٍ كامل. نعم، إنني أتشوّش مزيداً من التشوّش، أشعر بالدمار والاستنزاف في داخلي أيضاً. تابع. إنني أستمع.

(*) قناطير جمع قنطور وهو مخلوق أسطوري نصفه العلوي إنسان ونصفه السفلي حصان. أمّا الغرافين فهو مخلوق أسطوري له جسم أسد ورأس طائر العقاب وجناحه. [م]

34. الهبة

«طفل بصحة جيّدة وُلد لأُمّ ميتة دماغياً»، هذا ما نشرته الصحيفة الصباحية في اليوم التالي؛ اجتازت آدا العملية من دون مضاعفات، وجاءت الأسابيع التالية -التي كان يجب أن يبقى فيها كوينتن في الحاضنة- بتغيّرات جديدة.

حافظ مدير المرصد على كلمته: حدّد موعداً لماكس مع صديقٍ قديم له من أيام الدراسة، البارون خيفرس، المقيم على بُعد بضعة كيلومترات جنوب المرصد الراديوي في فيستربورك، ولديه حسب معلوماته ما يؤجّره في الجوار. كان يوماً مشمساً من أيام حزيران، عندما ذهب ماكس بسيارته من دفنغلو إلى هناك، وفي ذهنه خريطة الطريق التي وصفها له الناطور. على طرفه الأيمن، الشمس تتلألأ مثل المصباح الومّاض بين أشجار النغت التي تنزلق إلى الورا على طرفي الطريق الإقليمي السريع، الأمر الذي جعله يقاوم شيئاً شبيهاً بنوم مغناطيسيّ وشيك؛ ألقى كعادته نظرة خاطفة على المكان الفارغ من الشجرتين المفقودتين على الطرف الأيسر من الطريق. بعد أن سار بضعة كيلومترات على الطريق السريع، أخذ مفرقاً وانعطف عند مستودع متهاك إلى درب غابة متعرّج. ما تزال هناك أشجارٌ ساقطة على الأرض في كلّ مكان، تيجانها عارية إلى الأبد عري الشتاء، جذورها المقتلعة من الأرض جافة في بياض. تولّته الدهشة عندما رأى فجأةً مجموعة من الشباب الأندونيسيين يزحفون عبر الشجيرات، مرتدين ملابس قتالية ارتجالية، وكأنهم في حرب - بعد برهة قصيرة راوده شعورٌ بأنه حلم بهذا. كانت الغابة تتناوب بين حينٍ وآخر مع مروج فيها بيت ريفي، ومع حقول، وأراضي ذرة. التقى الدرب مع تقاطع طريق لا حراسة فيه - وفي اللحظة التي رأى فيها الملاذ المنشود يلوح أمامه، حضره ما قاله غوته في إحدى المرّات حسبما أخبره أونو: «الإنسانية تبدأ من البارون».

يقوم البيت الريفي المنخفض الأبيض، غير الكبير جداً، الذي يبدو أنه منحدر من مطلع القرن التاسع عشر، في نهاية مرج ويتألق بفخامة رصينة. يبدو في الوقت نفسه مركز شركة زراعية، فالى جانبه تقوم إسطبلات، وكومة كبيرة من القش، ومستودع للآلات الزراعية. يُسمّى «كلاين ريخترن». الممر المؤدي إليه محاط بالحجارة الضالة الكبيرة ومفروش بالحصى، الذي قرع تحت إطاراته بصورة إقطاعية وأجبر حتى الفولكس فاغن على الإبطاء الراقي الذي تتسم به سيارات البتلي. أخبره حدسه بأنه لا يستطيع إيقاف سيارته أمام المدخل مباشرة، لذلك ركنها على الطرف المقابل. عندما ترجل من السيارة، رأى طاووساً جالساً على إفريز السطح.

فتح الباب صبي مغولي، في نحو العشرين من العمر، نظر إلى ماكس بعينين صغيرتين لامعتين، وصاح على الفور بصوت أجش، دون أن يحول عنه عينيه: «ماما!».

ظهرت في البهو سيّدة ممشوقة القامة تناهز الستين. عرّف ماكس بنفسه، بعد ذلك وضع يده أيضاً في يد ابنها الدافئة، العريضة، الجامدة، الذي تبين أنه يُدعى روتخر. في الجناح الزجاجي في الجزء الخلفي من البيت، حيث الأبواب مفتوحة على المصطبة وبستان الخضراوات، قدّم إليه كوب من الشاي الصيني.

- أتوقع وصول زوجي في أي لحظة. كيف حال يان؟ لم نره منذ فترة. عندما يعمل في دفنغلو ينزل في ضيافتنا بين حين وآخر.

إنها تقصد المدير. رغم أنه قد أطلعهم طبعاً على ظروف ماكس بحذافيرها، لم تلمح لها بأي شيء. يمكن أن يكون هذا لباقة منها، ولكن يمكن أن يكون شيئاً آخر أيضاً؛ شعر بشيء من عدم الارتياح من لطافتها المتحفظة في النقاش، وحدث لديه انطباع بأنها تنقص ذلك. إذا حدث أن انتقل للسكن هنا في مكان ما، فيجب عليه ربما أن يستوعب منذ اللحظة الأولى أنّ هذا لا يعطيه الحق في الألفة. تقوم إلى جانبها طاولة مستديرة عليها صور مؤطرة لأفراد العائلة؛ كذلك صورة حصان أبيض. أخذ ينظر بانبهار إلى روتخر بين حين وآخر. يجلس في كرسي من الخيزران، ذي مسند ظهرٍ مترام إلى أبعاد هائلة مثل عرش ملك، يعبث بلسانه الخارج من فمه. إلى يساره ترقد كرة من الصوف البنفسجي على الأرض؛ بواسطة بكرة دُقت فيها ثلاثة مسامير صغيرة، يغزل خيطاً من الصوف على شكل حبل، لا بدّ أنه قد بلغ من الطول عشرات الأمتار ويرقد في كومة ملونة عند قدميه.

قال عندما التقت نظرتَه بنظرة ماكس: «أعمل ستارة كبيرة جداً».

أحنى له ماكس رأسه إحناءة مشجعة ونظر إلى أمه.

- إنه يعمل عليها منذ نحو عشر سنوات، على هذه الستارة الكبيرة جداً. أقصّ قطعة منها بين حين وآخر، وإلا لن نتمكن من الدخول إلى البيت ذات يوم.

- أولاً يلاحظ ذلك؟

- لا، ما دام لا يراني أفعل ذلك.

قال ماكس: «ربما ليس لديه إحساسٌ بطول هذا الجبل لأنه ليس لديه إحساسٌ بالوقت». نظرت إليه البارونة بوجه خالٍ من التعبير: «جائز».

راود ماكس إحساسٌ بأنه تجاوز حدّه: مَنْ يتحدث عن الوقت، يتحدث عن الموت. اقترب جرّارٌ على الدرب الممتدّ في نهاية بستان الخضر اوات، يقوده رجلٌ ضخم البنية في زيّ عامل؛ قبعته وحدها ذات اللون الرملي، المرفوعة إحدى حافتيها من الجانب والمُسدلة من الجانب الآخر، تدلّ على أنه ليس معجّزٌ فلاح. جاء إلى الجناح الزجاجي في حذاء مطّاطي طويل الساق أخضر اللون، وعرفّ بنفسه بيد ثقنة قاسية دون أن يدخل. وجهه ينطوي على شيء من الصرامة، لكنّه لم يكن غير وديّ؛ لقد ربّى شارباً صغيراً أبيض.

- جئت في الوقت المناسب، لقد تلقّيتُ عشر مكالمات هاتفية. هل نذهب في الحال؟ فهم ماكس للمرة الثانية أنّ العلاقات يجب أن تبقى واضحة، حتى وإن أوصى به أحد الأصدقاء. بينما يسير بجانب الذي سيصير مؤجّر بيته عبر بستان الخضر اوات صوب الشارع، اعتراه فضولٌ شديد إلى ما سيراه. دون الاعتراف تماماً لنفسه، كان يأمل في مسكن رعوي بمستودع حناطير بين الأشجار، تتراعى أمامه أرضٌ عشبية؛ ولكن للبقاء على ضفة الأمان، هيأ نفسه لأن يكون بيتاً بائساً من بيوت عمال الخثّ مطلّاً على قناة مائية، تنتظر دون حراك أن يغرق فيها الأطفال الصغار. تبين أنه لن يكون مثل هذا البيت، عندما قال خيفرس إنهما يستطيعان الذهاب إليه سيراً على الأقدام، لأنه قريب. أخبره ماكس عن «الأمبونيين»^(*)، الذين رآهم يتسلّلون عبر الغابة.

قال البارون: «هؤلاء هم المولوكان الحمقى من حيّ سخاتنبيرخ، الواقع على بُعد بضعة كيلومترات من هنا. إنهم يستعدّون لتحرير جزيرتهم على الطرف الآخر من العالم».

(*) مجموعة عرقية تعيش في جزيرة أمبون التابعة لمقاطعة مالوكو في أندونيسيا، معروفة أيضاً باسم مولوكان. [م]

حيّ سخاتنبيرخ: إنه الاسم الحالي لمعسكر فيستربورك.

قال ماكس: «ظننت فعلاً أنني أحلم».

أحنى البارون رأسه: «العالم يتكوّن من الأحلام. لحسن الحظّ لم يبقَ منهم سوى عدد قليل وسوف يغادرون هم أيضاً في الأجل القريب، بفضل المرصد الفلكي».

صادفا ثلاث فتيات ممتطيات أحصنة، هتفن بمرح: «مرحباً يا سيّد خيفرس!» - وبعد بضع مئات من الأمتار، حيث ينعطف الطريق انعطافاً طفيفاً، كان هناك مفرقٌ إلى بوابة حديدية ضخمة، مثبتة على قاعدتين من الحجر الصلب المنحوت، يجثو على كلّ منهما أسدٌ مدرّع. هناك جسرٌ على قناة مائية ضيقة يفضي إلى دربٍ طويل محفوف بصفيّين من الأشجار؛ في نهايته جسرٌ ثانٍ، قائم على خندق مائي محيط بالقلعة، مؤدّ إلى فنائها الأمامي.

قال خيفرس بإيماءة من يده وهو يدفع البوّابة التي انبعث منها صرير: «اسمها خروت ريخترن».

قلعة! بينما يسيران على ألواح الجسر المخلخلة صوب الدرب، أخبره أنه وُلد في هذه القلعة، شأنه في ذلك شأن والده وجده، لكنّها صارت مُكلّفة للغاية، لا سيما العاملين فيها، ولا يمكن تدفّيتها دون أن ينتهي المرء إلى الإفلاس، لذلك انتقلوا للسكن في كلاين ريخترن. القلعة مقسّمة بصورة مؤقتة إلى شقق، يسكنها أناس محترمون إلى حدٍّ ما - باستثناء شخص واحد، شيوعيّ، لكنّه مشغول الآن بإخلاء شقته.

نظر ماكس عاجزاً عن الكلام إلى القلعة العريضة الكبيرة، التي يقترب منها خطوة خطوة. تحيط بها أشجارٌ عملاقة من الجانبين والخلف؛ تُحدث انطباعاً أنّها مهملة والحقّ أنها ليست جميلة أيضاً - يبدو أنّها شهدت إصلاحات وتوسيعات بصورة متكرّرة على مرّ القرون - لكنّها قلعة بما لا يدع مجالاً للشكّ: بناء يختلف عن منزل مثلما يختلف نسرٌ عن دجاجة. الواجهة، التي لعلّها تنحدر من فترة ليست أقدم من القرن التاسع عشر، مسطّحة ومتناسقة الأبعاد؛ على مستوى العلّية، في القمة مثلثة الشكل فوق المدخل، هناك ساعة بلا عقارب. في الطابق الأرضي تمتدّ سلسلة من نوافذ قبو مقنطرة الشكل، ويؤدّي درجٌ مزدوج إلى بسطة الباب الرئيسي، المزوّد من الجانبين بنوافذ عالية مكوّنة من ألواح زجاجية صغيرة؛ الطابق العلوي على الجانب الأيمن يفضي إلى شرفة كبيرة. تحتها في الفناء الأمامي تقوم حاوية، يرمي فيها شخصٌ ألواحاً خشبية وقمامة من شتى الأصناف. الجانب الخلفي يبدو أكثر قِدماً؛

يظهر فيه السطح المدبّب لبرج مربع الشكل، على قمته مؤشّر رياح في هيئة ديك. أيمن أن يكون صحيحاً أنه سيعيش في هذا المكان الشبيه بقصص الخيال؟ ربما هناك بالقرب من تلك الشرفة؟ ماذا فعل ليستحقّ هذا؟

القلعة مركز قرية صغيرة. إلى يسارها أرض فيها أشجار يافعة، تنساب في غابة من أشجار الصنوبر، ولكن إلى يمينها هناك بضعة مساكن صغيرة، ومستودع حناطير، وإسطبلات، وحظائر محوّلة. في المنطقة العشبية أمام ما كان في أغلب الظنّ مسكن البوّاب، يجزّ رجلّ العشب بالمنجل من حول حجرة ضالة ضخمة، رفع عينيه وقال: «مرحباً يا سيّدي البارون»، - الأمر الذي استحقّ عليه تفضّلاً ب: «أهلاً يا بيت». هناك دفيئة أشجار برتقال نصف مرئية بين المباني والأسيجة، يتحرّك شخص فيها أيضاً؛ تحت الأشجار يحاول تيسّ أن يبلغ أبعاد مما يسمح له الجبل المربوط حوله عنقه. يبدو كلّ شيء مأهولاً بالسكّان، النوافذ مفتوحة في كلّ مكان. في ظلّ التاج الضخم لشجرة بلوط بنية اللون، على جانب الخندق المائي، تحوم بجعتان سوداوان بمهابة منزلتهما الأكثر رقيّاً، بينما يزقن زوج من البطّ بزعيق مبتذل بين أوراق الزنابق المائية، عند قدم شجيرات الرندرة الطويلة طول إنسان.

انتابت ماكس رغبة في السير على رؤوس أصابعه. القلعة قائمة في الماء كأنما على راحة يدٍ ممدودة؛ لقد حلّ الجسر الحجري على الخندق المائي، حسبما قال خيفرس، محلّ الجسر المتحرّك السابق. في الفناء الأمامي، المرصوفة أرضه بحجر آجرٍ في نموذج متموّج فتّي، مثل جدارٍ أفقيّ، تقف بضع سيارات مركونة. بينما يصعدان الدرجات المفضية إلى بسطة المدخل، سقطت ثلاجةٌ بدويّ هائل في الحاوية، بعد ذلك نظر إليهما وجهٌ متجهّم من فوق درابزين الشرفة. تبين من لوحة صغيرة باللونين الأزرق والأبيض بجانب الباب الرئيسي أنّ القلعة مدرجة في قائمة المعالم الأثرية. كان أحد مصراعي الباب مفتوحاً، مثبتاً بكرة خشبية على الأرض؛ قبل أن يدخل خيفرس، خرج من حذائه طويل الساق وخلع قبعته الأنيقة، فبدأ فجأةً أشدّ صرامةً بجمجمته الصلعاء.

في البهو، المكسوّ بألواح من خشب البلوط الداكن، ظهرت سيّدة متأنقة الهندام قصيرة القامة من أحد الأبواب؛ ألقي ماكس نظرةً على صالة كبيرة مفروشة بأثاث من الطراز الإمبراطوري، تتضمّن هي أيضاً طاولة صغيرة عليها صورٌ مؤطرة، و امرأة بإطار مذهب فوق رفٍّ موقدٍ مفتوح من الرخام. عرّفها خيفرس بالسيّدة سبير.

- لعلّ السيّد ديلوس يصبح المستأجر الجديد في الطابق العلوي.

رمقته بنظرة فاحصة. كانت هيئتها بأكملها قد شهدت عنايةً حتى أدقّ التفاصيل، لم تكن حتى شعرة واحدة من تسريحتها قد تجرّأت على الخروج من خطّ المعركة.

- أهلاً يا سيّد ديلوس! إذا كنا نستطيع مساعدتك بشيء، أعلمنا بذلك!

قال خيفرس وهما يصعدان السلم العريض المصنوع من خشب البلوط في نهاية البهو: «زوجها مصمّم خطوط مطبعية مشهور. على ذكر هذا الحديث، يعجّ المكان هنا بأصحاب الذكاء المتوقّد، سوف تناسبهم جداً. سأشعر لكوني فلاحاً بسيطاً بأنني لست في مكاني الصحيح إلى حدّ كبير في هذا الجمع المثقّف».

لم يغفل ماكس عن العنف الذي انطوت عليه هذه الملاحظة. بدا واضحاً من الطريقة التي ينظر بها خيفرس حوله أنه لا يروق له المجيء إلى هنا، فكلّ شيء يذكرّه بالماضي ويواجهه بوضع القلعة المتدهور. لقد أخبره المدير بأنّ خيفرس لعب دوراً قيادياً في المقاومة أثناء الحرب؛ لأنّ هولندا دولة صغيرة، لعلّه يعرف والد أونو أيضاً. أدرك ماكس في الوقت نفسه أنّ هذا يتضمن في أغلب الظن أنه يعرف من كان والده، والد ماكس.

في الطابق العلوي هناك بهوٌ آخر، أقرب في الواقع إلى موزّع فسيح، تطلّ عليه أبوابٌ متنوّعة؛ لقد اختفت هيبة خشب البلوط من هنا. تلوح الغابة الواقعة خلف القلعة من إحدى النوافذ الكبيرة في الجناح الزجاجي؛ تقوم في أحد جوانب الصالة أحواضٌ مغطّاة بالبلاستيك ونماذج صلصال مغلّفة فوق مناضد تشكيل عالية رقيقة.

قال خيفرس وهو يومئ إيماءة قصيرة برأسه: «هناك يعيش فنّان، تيو كيرن، نموذج غريب نسبياً. لديه استوديو آخر لأعمال أكبر حجماً في الفناء».

وتوقّف فجأةً وحملق في ماكس: «لطفٌ فظيع منك، يا سيّد ديلوس، أن تتولّى رعاية طفل صديقك. أردت فقط قول هذا. لطفٌ فظيع!».

قبل أن يعرف ماكس بمَ يجب، أشار خيفرس إلى الشقّة المقابلة، التي فتحت فيها الأبواب كلّها وسادت فوضى الانتقال: «فريق العمل أي. مقرّ الثورة الرئيسي في درينته. سيُنقل غداً أو بعد غدٍ إلى أسن، ليجعل المقاطعة من هناك في حالة تأهب بروتاري».

لم يُحدث البارون انطباعاً بأنه آسف على مغادرة هذا المستأجر. كان الرجل، الذي نظر إليهما بعبوسٍ قليل، يجلس مع امرأة وبضعة أصدقاء على الأرض في غرفة الشرفة،

يشربون الشاي من أكوابٍ مزهرة. إنّه في نحو الثلاثين من العمر، له شعرٌ طويل ويضغط على سيجار رفيع بين أسنانه، لم يخرج منه فمه أثناء الحديث.
قال خيفرس: «هيه، يا رفيق! في استراحة قصيرة؟».

أحنى الرجل رأسه إحناءً قصيرة بابتسامة خفيفة، لكنّه لم ينهض. حقيقة أن خيفرس بارون ليست حيادية في هذا الجمع أيضاً على ما يبدو؛ لكنها هنا لا تضيف شيئاً إليه، كما هو الحال في الأماكن الأخرى كلّها، بل تنقص منه. نظر العامل الاجتماعي بشيء من السخرية ولكن ليس بشكل غير ودي إلى سترة ماكس وربطة عنقه الخاصة بالنادي: «هل ستسكن هنا؟».
وبعد أن أوما ماكس إيماءة غامضة باتجاه خيفرس: «تهانينا! لن تجد شيئاً مثل هذا مرة أخرى. أجل النظر حولك إذا أردت!».

عندما التقت نظرة ماكس بنظرة المرأة، رأى كراهية في عينيها - ربما لأنّ هذه الشقة ستصير مسكنه. إنّه بالطبع لا تريد الانتقال إلى أسن على الإطلاق.

في غرفة الشرفة، المطلّة على الجنوب، كان السقف مدهوناً باللون الأزرق الفاتح، بسحب بيضاء مرسومة فيه؛ هذا كلّه يجب أن يُدهن من جديد. يفضي بابٌ فاصل إلى غرفة كبيرة مجاورة، تتصل بغرفة البرج على الجهة الخلفية عن طريق غرفة مؤونة متداعية. بدا له أنها ستكون غرفة الطفل؛ لأنّ صوفيا يجب أن تنام قريباً من كويتن، ولكن قريباً منه أيضاً، يبدو أنه يستطيع الاستحواذ على غرفة الشرفة. على الجهة الأخرى، تتيح هذه الغرفة الوصول إلى مطبخ واسع، يطلّ على الفناء الأمامي؛ في محاذاته غرفة كبيرة أخرى، لا بدّ أنها تقع فوق الباب الرئيسي. المصاريح مفتوحة بجانب النوافذ كلّها. أخذ يجيل النظر حوله في هياج. إنه كبير لأن يسكن فيه ثلاثة أشخاص بسهولة. لقد امتلأ كلّ مكان بالنفايات، نُجّرت على الجدران رفوفٌ محمّلة بالمنشورات، وأكداش الجرائد والمجلاّت، هناك آلات «استنسل» على قواعد - لكنّ عينيّه تغاضت عن هذه الأشياء كلّها ورأت ما ستصير الشقة إليه.

عندما وقفا على الشرفة - التي كانت في ذاتها بحجم غرفة - وأخذا ينظران إلى الأشجار الرهيبة، المنتصبة على الطرف الآخر من الخندق المائي، سأله خيفرس: «ما رأيك؟ لم تعجبك حقاً!».

أوما ماكس إيماءة العاجز عن الكلام. ثم قال: «هبةٌ من السماء».

35. الانتقال

عندما أخليت الشقة بعد يومين، أرى ماكس صوفيا باعتزاز المسكن الرائع الذي حصل عليه، وكادت هي أيضاً لا تصدّق عينيها. أمضيا جلّ ما يستطيعان من الوقت، الذي كان يجب أن يبقى فيه كويتن في الحاضنة، في إصلاح الغرف التي كانت في حالة مزرية. في الليالي الأولى ناما في دفنغلو، كلّ منهما في غرفة في دار الضيافة، ولكن بعد ذلك وفي استباق للانتقال، أحضر ماكس عدة أشياء ضرورية من بيته وبيت صوفيا بشاحنة صغيرة مستأجرة إلى القلعة؛ فُرُش، أغطية، ملابس، أدوات مطبخ، كتب. في دفنغلو لم تأتِ إلى سريره، الأمر الذي قد لا يمتّ بصلة إلى الضيوف الآخرين فحسب، وإنما إلى ابنتها أيضاً، التي قضت فيها ليلتها الأخيرة وهي في كامل وعيها، إذا كان باستطاعة المرء قول هذا. لعلّ الصمت كان يمنعها أيضاً. في المرات الأولى التي نام فيها هو نفسه في دفنغلو، لم يكّد يستطيع النوم كونه ابن مدينة: من شدة ما كان الصمت عميقاً وشاملاً، حُيِّلَ إليه وكأنه مصابٌّ بالصمم. لم يكن يسمع سوى دقات قلبه وحفيف الدم في أذنيه؛ لقد اختفى العالم خارج الغرفة في العدم. لم يستوعب إلا بعد حين أنه كان صمت الحرب: في ذلك الوقت كان الليل في أمستردام أيضاً يبلغ من الصمت ما يبلغه في هذا المرج. ولكن في الليلة الأولى في خروت ريخترن، حيث لم يكن يخلخل الصمت سوى نعيق بومة في البعد بين حين وآخر، استؤنف الطقس السريّ. كان راقداً في غرفة الشرفة ينتظرها بقلب خافق، وعندما سمعها قادمة من الفراش المؤقت في الغرفة المجاورة لغرفته، وبعد ذلك سرير المقبض وصرير الباب - هذا كلّ يحتاج إلى التزييت - صار ارتياحه أكبر قدر الإمكان من إثارته. تصوّر لو أنها رأت أنّ هذا جزءٌ خاص بلايدن وزوجها الميت فقط!

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يصبح أحدهما في صحبة الآخر بصورة يومية ويشكّلان

أسرة، ولكن حتى ذلك لم ينطو على تغيير: بقي من جانبه يخاطبها بصيغة رسمية، وبخلاف الأشخاص الذين يرتبطون بعلاقة في ما بينهم، لا تنشأ مشاحنات زوجية بين شخص وحماة صديقه. في الصباح بعد الاستيقاظ على صوت البطّ، يتناولان الفطور على الشرفة، ثم يقضي كلّ الوقت الذي يستطيع التفرّغ فيه في اقتلاع الرفوف في الغرفة الأمامية، في إزالة الألواح المصنوعة من الخشب المعاكس، التي كان من شأنها إضفاء مظهرٍ عصريّ في سنوات الخمسينيات على الأبواب القديمة المصنوعة يدوياً، وفي الدهن، والتصقيل، والتبييض. استحوذ عليه بصورة تدريجية نوعٌ من الهياج، جعله يكاد لا يستطيع التوقّف عن العمل في المساء. بينما تجلس صوفيا منذ وقتٍ طويل أمام التلفزيون بكأس من النبيذ وتخطط الستائر، كان هو لا يزال يقف على سلّم ويسحب بكرة الدهان على السحب للعبوب المرسومة على الأسقف. لم يسبق له فعل شيءٍ من هذا القبيل، كانت صاحباته يقيمن عنه بهذه المهمة على الدوام، وأحدثت النتيجة المرئية على الفور تأثيراً مهدّئاً في نفسه؛ يضاف إلى ذلك أنه أخذ يفكر أثناء ذلك في عمله بين حينٍ وآخر، ولكن بطريقة مختلفة عمّا إذا كان جالساً خلف مكتبه: بشكل غير مباشر، وأكثر إثماراً بمعنى معيّن، على النحو الذي توافيه دائماً أفضل أفكاره عندما ينظّف أسنانه أو حذائه، أو عندما يقف تحت الدوش. بخصوص هذا الأمر، لم يكن هناك دوش، جاء بأحدٍ من أجل تركيبه؛ لأنّ القلعة ليست متصلة بشبكة الغاز، اضطرّ أن يأتي بسخّان جديد يشتعل على أنابيب غاز البوتان؛ لا بدّ من تغيير مدافئ البترول المتهالكة أيضاً. عندما يحتاج إلى دهان جديد أو فراشي أو ألواح، يذهب بسيارته في ثياب العمل المتسخة إلى المتجر في قرية فيستربورك، الواقعة على بُعد عشرة كيلومترات جنوب المرصد الفلكي الجديد، والتي ليس هناك أيّ شيء مشترك بينها وبين المعسكر سوى الاسم. لم يكن قد ذهب إلى المرصد بعد؛ ما دامت المرايا لم تكتمل، ليس لديه ما يفعله هناك، وقد عزم أمره على تأجيل ذهابه أطول فترة ممكنة.

خلال الأيام الأولى قاما بزيارات مجاملة للساكنين الآخرين في القلعة. كان السيّد سبير، زوج السيّدة سبير، على وشك المغادرة عندما طرقا الباب. إنّه يضاهيها في قصر القامة، ويبدو مثلها متأنقاً بما يبعث على الألم بشعره الأشقر الداكن، الخفيف، المسرّح بعناية بالغة، في بدلته داكنة الزرقة المكوّنة من ثلاث قطع، المخطّطة بخطوط رفيعة، بوسامٍ في عروة الزرّ ودبّوس محلّى باللؤلؤ في ربطة العنق، مُزاحاً عن المركز بشكلٍ طفيف، كما ينبغي. قال بنبرة مهذّبة إنهم من المؤكّد سيلتقون كثيراً، ما جعل ماكس يدعوها في الحال لشرب كأس من

الشمبانيا بعد بضعة أسابيع. أما السيد فيرلورن فان ثيمات، الذي يدرّس التاريخ المعماري في المعهد التقني العالي في مدينة دلفت، ويسكن في الجناح الآخر من الطابق الأرضي، فقد اعتاد أن يأتي في نهايات الأسبوع فقط؛ كان في تلك اللحظة يقضي الصيف في روما، في المعهد الهولندي للفنون التاريخية.

في النصف الجنوبي من العليّة - في سلسلة من غرف الخدم سابقاً على الطرف الشمالي خزّن البارون مفروشاتة الفائضة عن الحاجة - يسكن مترجم إنكليزي، أي مترجم من اللغة الإنكليزية: ماريوس بروكتور، رجلٌ ذو شعر أسود يناهز الأربعين من العمر، ينظر إلى العالم نظرة كثيية بعض الشيء. أما زوجته، كلارا، وهي شخصية بشوشة استغزائية، بشعر مصبوغ بالأحمر وقرطين كبيرين، فتبدو مثل عرّافة في مظهرها؛ تصنع من مظلات قديمة أشياء مجرّدة شبيهة بالأشباح، تعلّقها على جدران غرفهما المائلة. عندما تدعو ماكس وصوفيا لشرب الشاي في فترة ما بعد الظهر، ويجلسون في الكراسي العصرية من سنوات الخمسينيات، يخفي بروكتور على العموم دون أن يقول شيئاً عبر باب منجّد سميك يفضي على الأرجح إلى مكتبه: غرفة البرج فوق الغرفة التي يقوم فيها السرير الصغير وطاولة العناية في انتظار كويتن. إنه يترجم الروايات من أجل كسب لقمة العيش، أما عمله الحقيقي في هذه اللحظة فهو ترجمة الملحمة الشعرية «الفردوس المفقود» للشاعر ميلتون؛ يضاف إلى ذلك أنه، حسبما قالت كلارا، منشغلٌ منذ سنوات في تأليف كتاب عن اكتشاف له، من شأنه زلزلة عالم الأدب التاريخي. على كلّ حال، كان له الخدّان والصدغان الغائران لشخص متعصّب يلتهم نفسه. لهما ابنٌ عدواني في نحو الرابعة من العمر، يُدعى أرندي، كلّما رأى ماكس ركض إليه وأخذ يدفعه من فخذه بيديه اللتين، وكأنه يريد إخراجه من الغرفة، من القلعة، وقد خفض رأسه بشراسة، مثل تيس؛ لم تكن الكلمات المُلْهِية والدفع الرفيق يؤثّران فيه، وعندما تسحبه كلارا في نهاية الأمر، يحاول أرندي أن يكيّل له ركلة سريعة على قصبة ساقه. لم يكن ماكس يرغب في الصعود كثيراً إلى الطابق العلويّ. حاول مرّة واحدة بدء نقاشٍ عن الأدب، لكنّ بروكتور لم يُجب سوى ببضع جمل غامضة، ثم بقي صامتاً صمت أبي الهول. كانت صوفيا تكرهه، ولكنّ ماكس قال إنّ بصيرةً أو أخرى، أو ربما كلارا، قد سحقته على الأرجح.

كانا على أفضل تواصل مع تيو كيرن وزوجته، الساكنين في طابقهما. الدخول إلى شقّتهما يعني المغادرة من هذا العالم والدخول في عالم آخر. توزيع الغرف يشكّل صورة منعكسة

عن غرفهما، ولكنّ هذا هو الشبه الوحيد. من النظرة الأولى أعادت الفوضى إلى ذهن ماكس الفوضى السائدة في بيت أونو، أما من النظرة الثانية فقد اتضح له أنها نقيضها، ولكن بطريقة تختلف عن النظام المحسوب في بيته الخاص. إنها فوضى نظامية، أو نظاماً فوضوي - إنها احتمال ثالث: ترتيبٌ فنيّ، غير متروى فيه، لأشياء لا حصر لها، انتهت مصادفة على ما يبدو في مكانٍ ما، وُضعت بغير اكتراث، نُسيت، كما هو الحال في بيت أونو، لكنّها هنا تشكّل إبداعاً متناغماً عصياً على الفهم، مثل سربٍ من الطيور يتشكّل في لحظةٍ معيّنة في أكمل صورة دون أن يكون لأحد يدٌ في تأليفها. بخصوص هذا الأمر، كانت هناك طيور أيضاً. ثلاثة أقفاص موزّعة في الغرف، يضمّ كلّ منها ثلاث حمامات سمنية اللون؛ أبواب بعضها مفتوحة، الطيور المتوجّهة بالعُرف تهدل وتنحني على سطحها. هناك مناضدٌ عليها نماذجٌ من الصلصال، حواملٌ عليها رسومات ونباتات؛ على رفوف الموقد والطاولات، وعلى الأرض، تماثيلٌ مصنوعة من الأسلاك، رسومات، أكواز صنوبر، أغصان في مزهريات، حجارة، تماثيل صغيرة، جذوع شجر، أصداق. ليس هناك اختلافٌ بين غرف النوم، وغرفة الجلوس، والمطبخ؛ فجأة يُرى سريرُ الزوجين كيرن الأبيض ذو الأعمدة الأربعة في مكانٍ ما، أو السرير الخشبي المطليّ بالورنيش الخاص بابنتهما، التي تقيم في هذه اللحظة في مخيم صيفيّ، وفي مكانٍ ما لوحٌ مجلى، ثلاجة، فرن - كلّ شيء ساطع، أشقر، عديم الوزن، متناهٍ في الكلّ شفافية تشبه شفافية الورق.

وفي وسط هذه الأشياء كلّها يقف الفنّان: قصير القامة، مكتنز الجسم، مرح الطبع، حافي القدمين على الدوام، تحيط برأسه من القمة حتى الذقن هالةٌ ضخمة من الشعر الأشيب، مثل هندباء بريّة ذابلة. كلّما رآه ماكس، خطر في باله تماثل قزم قائم على فطر أحمر؛ أما زوجته الثقيلة، سلمى، فتبدو في فسائنها الفضفاضة الطويلة حتى الكاحلين وكأنها حبلٌ إلى الأبد، وهي نادراً ما تضحك، وتنظر إلى زوجها أحياناً مثلما تنظر إلى مجنون، فتجعل المرء يفترض أنّ هناك شيئاً آخر مختلفاً تماماً متوارٍ في النحّات - لأنّ الجانب الخفيّ في الرجل، حسب رأي ماكس، يكون مرئياً في هيئة زوجته، مثلما يكون الجانب الخفيّ في المرأة مرئياً في هيئة زوجها. ولكن خُيّل إليه أنه من الحكمة إخفاء وجهة النظر هذه عن صوفيا. اعتاد أن يُسمّي سلمى «أمنا الأرض». إنّها ذات شعرٍ طويل، مسدل، أشقر شقرة داكنة، ونظرة متحفظة؛ كانت صوفيا على وفاي تامّ معها. وهما أيضاً يبدوان، مثل بروكتور وزوجته، أنهما يجدان شيئاً من الصعوبة في الكوكبة التي يشكّلها ماكس مع صوفيا والطفل الذي سيظهر قريباً؛ لكنهم اعتادوا

عليها. كان السيّد كيرن يأتي بين حين وآخر ليرى كيف تسير أعمال ماكس، يساعده بين الفينة والأخرى ويعيره ما يلزمه من أدوات؛ المثقب الكهربائي، الدباسة. تناولوا الطعام عندهما بضع مرّات؛ أطباق شهية كبيرة بنكهة أميركية جنوبية، ما وفرّ عليهما شرائح اللحم الدسمة في المطعم الريفى.

*

لم يأتِ أونو إلى القلعة بعد. كلّما ذهب ماكس بصوفيا إلى مستشفى فيلهيلمينا - حيث تزور ابنتها وحفيدها - اتفقا على لقاء في مكانٍ ما في المدينة، وفي إحدى المرّات في مقصف المقرّ الرئيسي للحزب، الواقع على مرمى حجر من بيت ماكس؛ خامره شعورٌ بأنه لم يعد يسكن في شقّته نصف الخالية. لكنّ حديثهما لم يكن يدور سوى عن الأمور العملية، ولا يستغرق ما يزيد عن نصف ساعة. مؤتمّر الحزب انتخب أونو مع بضعة من أصدقائه لمجلس إدارة الحزب نيابةً عن نادي المتمرّدين؛ ردّ الفعل كان حدوثاً وشيكاً لانشقاق الجناح اليمين، الأمر الذي تحسدهم عليه جميع الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا حسب اعتقاد أونو، لأنه في الدوائر اليسارية تكون انشقاقات الجناح اليسار وحدها من التقاليد، ما جعل تلك الأحزاب كلّها تصبح يمينية بوتيرة متزايدة. إنه ينشغل بهذه الأمور أكثر من أي وقت مضى، ويساوره القلق، عندما يدرك في السرير ليلاً في بعض الأحيان أنّ كوينتن وآدا غابا عن باله طوال النهار. في تلك الأثناء باع قريه، الوكيل العقاري، بيت صوفيا بسعر معقول، سيُفتح فيه محلّ وجبات سريعة - اشترى زملاء برونس بضاعة «مديح الحمافة»، وابتاعت شركة مزادات المفروشات الفائضة، وأخذ «جيش الخلاص»^(٥) ملابسه. عندما صار الانتقال وراء الظهر وجرى تأثيث الغرف في خروت ريخترن، ذهب ماكس وصوفيا في صباح دافئ من صباحات حزيران إلى أمستردام، حيث كان أونو ينتظرهما في المستشفى.

لم يستطع العاملون التخلّي عن كوينتن إلا بصعوبة بالغة. لقد أرقّد بجانب آدا في السرير، - الأمر الذي يحدث منذ بضعة أيام، لأنه لم يعد بحاجة إلى الرقود في الحاضنة. نظروا مصعوقين إلى الطفل الملائكي ذي العينين الزرقاوين، المفتوحتين على اتساعهما، بجانب وجه آدا الساكن، الشبيه بالرخام بالجفنين المغمضين. لقد اختفت موجة المدّ تحت اللحاف، وشعر ماكس بأنّ هذا المشهد يغوص في أعماقه، مثل شيء لن يخنفي من ذاكرته. في اللحظة

(٥) جماعة بروتستانتية دولية تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء. [م]

التي أزعجت فيها إحدى الممرّضات اللحاف إلى الجانب وحملت كويتن، أدرك الجميع أنّ ما يحدث هنا شيء لا رجعة فيه، مثل ولادة ثانية، وداعٌ ثانٍ. آدا أيضاً ستغادر المستشفى عمّا قريب؛ يبحثون لها عن دار رعاية في مكانٍ قريب من القلعة.

سألت الممرّضة وكويتن بين ذراعيها: «هل يمكنني أخذه؟ لم يسبق أن رأيت مثل هذا الطفل الرائع. هل تعلمون أنه لم يبكِ مرّةً واحدة منذ ولادته؟ كم يُكلّف؟!».

في السيارة جلست صوفيا في المقعد الخلفي، إلى جانبها كويتن في المهد المحمول. لم يتحدثوا كثيراً. كان أونو، مثل ماكس، يفكر في رحلتهم المشؤومة في شباط، التي تشكّل هذه الرحلة نظيرها بمعنى أو بآخر، لكن لم يقل أيّ منهما شيئاً عنها. عندما نزل أونو من السيارة في الفناء الأمامي في خروت ريخترن، نظر حوله، نفخ صدره وقال: «تماماً! هذا محيط مناسب للسيد ابني! صحيح أنّ الطبيعة بحدّ ذاتها حمقاء بطبيعة الحال، وأنّ الإقطاعية لا تتوافق تمام التوافق مع شخصية رجلٍ بسيط من الشعب مثلي، يفكر حصراً، باعتباره اشتراكياً ذا خبرة واسعة، في رفاهية أصحاب الأجور المنخفضة، ولكن في هذه الحالة الخاصة سوف تتغاضى قيادة الحزب عن هذا الأمر».

عندما أخرجت صوفيا المهد المحمول من السيارة برفق وأرادت حمله إلى الداخل، قال: «لا يا أمي، أنا سأحمله. هذا الامتياز لي!».

علّق مقبضيّ المهد على ذراعه مثل حقيبة مشتريات، رفع إحدى يديه في الهواء، وبينما يصعد درج المدخل، أخذ يتلو بوقارٍ باللغة اللاتينية: «باسم الأب والابن والروح القدس!».

في غرفة البرج وضعت صوفيا كويتن على طاولة العناية من أجل تغيير حقّاضته، أما ماكس فقد أطلع أونو على الشقّة. في غرفة نوم صوفيا، وهي نفسها غرفة جلوسها، تعرّف الكنبّة المنجّدة بالقטיפيّة المضلّعة والطاولة المنخفضة، ولكن هنا، وبإطلالة على الخندق المائي والغابة، كان كلّ شيء قد أخذ مظهراً مختلفاً كلّ الاختلاف. يبدو أنّ صورة مولتاتولي قد أخذها صاحب محلّ المواد المستعملة. عندما رأى هذا كلّّه، تساءل ما الذي دار في ذهن ماكس في نهاية الأمر، ولكنّ الوقت قد فات على معاودة الحديث في الموضوع. لقد امتزجت الأشياء الخاصة بماكس مع الأشياء الأخرى الخاصة بصوفيا، بصورة أساسية، في الغرفة الكبيرة في مقدّمة البيت: مقعد تشيسترفيلد الأخضر ذو الذراعين، والبيانو الكبير، وكتبه. على مكتبه صُفّت الآلات الصغيرة مجدّداً، متحوّلةً إلى رموز بسبب اندماجها وعرضها الدقيق.

رغم أنه يعرف هذه الأشياء كلها، كانت شخصيتها هي أيضاً قد تغيّرت في هذا المكان. سأله أونو عمّا إذا كان الإيجار عالياً علوّ الفلك، ولكنّ ماكس أجاب بأنه يكاد لا يتجاوز نصف ما يدفعه في أمستردام.

توقّف أونو بالقرب من رفّ الموقد، الذي تقوم عليه الكتب في «رفّ الشرف». اختفى كافكا من الصفّ، رأى في مكانه نسخة من رواية «الآباء والبنون» لتورغينيف. أيضاً تقوم عليه صورته مع آدا، التقطها برونو السنة الماضية في هافانا. بجانبها صورة قديمة ثانية مؤطرة. رأى على الفور أنها صورة والدّي ماكس. نظر إليه دون أن يقول شيئاً.

أحنى ماكس رأسه، وقال: «انبعثا من الليمبو^(٥)!».

- من أين جاءت فجأة؟!

أخبره ماكس بزيارته لوالدته بالتبني، دون أن يخوض في الظروف. انحنى أونو إلى الأمام وتفحص الزوجين: «أنت أخذت النصف العلوي لوجهك من أبيك والنصف السفلي من أمك».

- هل تتذكّر أنك قلت مثل هذا الشيء عن وجهي من قبل - في اليوم الذي التقينا فيه؟!

قال أونو: «لا، لكنني واثق من أنني أصبت كبد الحقيقة».

- هذا لا شكّ فيه.

صاحت صوفيا: «هل ستأتيان؟!».

كانت تُرُضع كويتن بالزجاجة، جالسةً تحت المظلة الشمسية على الشرفة التي فرشها ماكس بكيسين من الحصى الجديد. صُعب كلّ من ماكس وأونو من الوحدة التي تشكّلها مع الطفل، وكأنها أمه الحقيقية. رأى كلا الأبوين امرأةً في منتهى السعادة، تبدو وكأنها لم تكن لها ابنةٌ على الإطلاق.

ظهر كيرن وسلمى أيضاً.

عرّف أونو بنفسه بطرّق كعبه أحدهما بالآخر، ربما على سبيل التعليق على قدمي كيرن الحافيتين، ثم قال: «لقد أخبرني ماكس عنكما».

(٥) الليمبو في اللاهوت الكاثوليكي هو المكان الذي تبقى فيه أرواح الموتى الذين لا يدخلون الجنة، ولا جهنّم، مثل الوثنيين الذين عاشوا قبل المسيحية مثلاً. [م]

أحدث كيرن انطباعاً بأنه لم يسمعه. أشار بيدٍ ملطّخة بالصلصال وغبار الأحجار إلى كويتن الذي يرضع في حضن صوفيا، وقد ثبتت البركتين الملونتين بأزرق الأزرق في عينيه على الخطوط البرتقالية في المظلة الشمسية.

- مَنْ رأى مثل هذا المخلوق من قبل؟! هذا شيء غير ممكن إطلاقاً!

فقال أونو باعتزاز: «إمّا أن تستطيع أو لا تستطيع. هناك فنانون يخلقون الجمال في معركة شنيعة بواسطة الروح والمادة، مثلك، أما أنا فأخلق الجمال في لحظة شهوانية بواسطة الجسد».

بينما ينطق بهذه الكلمات، شعر بقشعريرة مفاجئة، وكأنّ غياب آدا عن الشرفة قد اخترق كيانه.

اختفى كيرن بعد لحظة قصيرة، ربما لأنه لم يستطع تحمّل نظرة كويتن. كانت زجاجة شمبانيا موضوعة في مُبرّد مغطّى بالبخار، وعندما ترك ماكس الفلين يرسم، برضا قذيفة بالسّتية، شكل قطع مكافئ في طريقه إلى الخندق المائي - حيث أسرع إليه البطّ في رفرفة ونصف هرولة على سطح الماء، ليغطس بعد ذلك ويحرّك ذيله منصرفاً بانتباهه إلى أشياء على جانب أكبر من الأهمية - ظهرت عائلة بروكتور. تصرّفت كلارا مثلما تتصرّف المرأة عند رؤية طفل ولید لأول مرّة؛ ولكن المترجم الكثيب عندما رأى كويتن، تغيّر شيء في وجهه: أشرق، وكأنّ حجاباً رُفِع عنه برهة قصيرة. والأعجب من ذلك كان تأثير الطفل على أرندي. بينما يملأ ماكس الكؤوس، أبقى عيناً متيقّظة على الأزعر الصغير، الذي أخذ يركض صوب صوفيا - من أجل أن يستطيع التدخّل على الفور إذا ما أراد إنزال لكمة على أنف كويتن. عوضاً عن ذلك، طوّقه بذراعيه، طبع قبلةً على جبينه وقال: «كم رائحته حلوة!».

لقد زوّض أرندي! ردّد بروكتور نظرتيه بين كويتن وأونو - ثم قال شيئاً خفق له قلب ماكس خفقةً قوية: «إنه يشبهك، لقد أخذ فمه منك!».

لم يكن ليعطي ماكس هديةً أعظم من هذه الهدية. ونعم، لعلّ هذا صحيح: لعلّه أخذ منه الشفتين المقوّستين التقليديتين الرقيقتين. بدا وكأنّ هذه الكلمات جرفت البقايا الأخيرة مما يراوده من شكّ، مثلما يجرف سيلٌ من الماء الرغوة المتسخة بعد غسل اليدين.

بعد أن سُحبت كراسي كافية إلى المكان، انقسم الجمع إلى قسمين حسب الجنس، بكويتن في وسط النساء. بينما في هذا القسم تُتبادل الخبرات في رعاية الأطفال الرضع،

أخبر أونو بروكتور بأن زوجته كانت عازفة تشيلو. افترض أن ماكس قد أبلغه بالحدث فقال: «رغبت في أول الأمر تسمية ابني أوكثاف تكريماً لها: على اسم الفاصل الموسيقي الأبسط كامل التناغم، الذي تركز عليه الموسيقى كلها. هل تعمقت في أسرار فيثاغورس عن تلك الصيغة الأولية التي لها نسبة واحد إلى اثنين^(*)؟».

سبق لماكس أن أخبر أونو عن طبيعة بروكتور الانطوائية، ورأى أنه يبحث عن طريقة للنفوذ إليه. أوما بروكتور إيماءة غامضة: «لا أعرف شيئاً عن الموسيقى».

- ومن يعرف؟ الموسيقى ترقى على المعرفة كلها. ولكن عند ذكر اسم أوكثاف، يظهر في خيالي نمطٌ من البشر لا أرغب أن أرى ابني عليه. إنه أقرب إلى فيلسوف أنيق، مخنث بعض الشيء، بساقين شبيهتين بركيزتين مثل ساقَي مالك الحزين، وزهرة في عروة زرّ سترته، وليس الرجل المقدم القوي الذي يجب أن يصير ابني إليه، كما هو حالي أنا نفسي إلى درجة كبيرة حسب رأي الجميع. لذلك انتقلت من الصيغة الأولية تماماً إلى صيغة المسيطر الماكرا التي لها نسبة اثنين إلى ثلاثة. الكوينت النقي^(**)!

كان هذا جديداً على ماكس أيضاً. يبدو أن عقل بروكتور لم يتوقف عن العمل في هذه الأثناء، فقد قال: «الأوكثاف ثمانية، والإله ثمانية أيضاً».

مضت بضع ثوانٍ قبل أن يستوعب أونو: «الإله ثمانية؟ كيف حسبت هذا؟».

- أنت تعرف شيئاً عن اللغات، أليس كذلك؟

انطلقت ضحكة مريرة من فم أونو:

- كي أقول لك الصدق، لا أعرف أي شخص يضاهيني في المعرفة باللغات. وهذا هو السبب أيضاً في أنني لم أستطع تسمية ابني سكستوس. ليس لأن «سكستوس» يشكّل الفاصل المثير للشفقة ثلاثة إلى خمسة، ولكن لأنّ هذا الاسم ليس مشتقاً من الكلمة اللاتينية *sextus* التي تعني «السادس» كما يظنّ الجميع، بل مشتق من الكلمة الإغريقية *xustos* التي تعني «مصقولاً».

- أنت تعرف إذاً ماذا تعني تراخاماتون؟

(*) الأوكثاف النقي (2:1) هو فاصل موسيقي كامل التناغم. [م]

(**) الفاصل الموسيقي الخامس كامل التناغم (3:2). [م]

- تابع من فضلك يا أستاذ!

فذكره بروكتور أن الحروف «يود، هيه، واو، هيه» هي اسم الإله «يهوفا». لأن اللغة العبرية، مثلما يعرف السيد كويست على الأرجح، ليست فيها أرقام منفصلة، فإن هذه الحروف الأربعة تتضمن فوق ذلك القيم العددية 10، 5، 6 ومرة أخرى 5. إذا جمعتها حصلت على 26. إذا أضفت 6 و2 أحدهما إلى الآخر حصلت على 8، حسب قواعد جيماتريوت^(*).
فصاح أونو: «لقد أفحمتني! أنت قبالي^(**) موهوب! ولكن إذا كان الإله 8، فماذا يكون 5 إذا؟!».

بدأ بروكتور: «بالطبع هناك عددٌ لانهاثي من...»، ولكن الكلمة الأخيرة اختفت في نوبة سعال محشرج وافته بصورة مفاجئة.

صحح ماكس: «ليس هناك عددٌ لانهاثي. عدد كبير نعم. رغم... لعله مع ذلك عدد لانهاثي، نعم».

تابع بروكتور بعد أن استنشق الهواء بعمق ومسح فمه: «وما له دلالة كبيرة في هذا السياق هو عدد الحروف الأبجدية».

فأحنى أونو رأسه إحناءً ساخرة لم يلاحظها أحدٌ سوى ماكس: «طبعاً، اثنان وعشرون حرفاً».

فقال: «في العبرية، نعم. ولكن أبجديتنا تتضمن ستة وعشرين حرفاً».

ونظر إلى أونو بوجه وكأنه أمارط اللثام عن السر النهائي.

قال أونو بحاجبين مرفوعين: «أها!».

ورفع سبّابته في الهواء:

- أها! عددٌ يعادل القيمة العددية للإله! اللغة الهولندية باعتبارها لغة إلهية! بهذه المناسبة

يا سيد بروكتور، يجب ألا نقول «يهوفا»، بل «يهوه» بالتشديد على «و». «يهوفا» كلمة مسيحية تحقيرية تنحدر من أواخر القرون الوسطى. والأفضل من هذا هو ألا تنطق هذا الاسم إطلاقاً،

(*) علم الأعداد اليهودي. [م]

(**) نسبة إلى القبالة: شروحات روحانية فلسفية تفسّر الحياة والكون والربانيات. يعتقد أتباعها أن الإرشادات والطقوس الواردة في القبالة تساعد الشخص على تطوير نفسه ليفهم بواطن الدين، وبخاصة بواطن التوراة والتقاليد اليهودية. [م]

لأنه قد يودي بك إلى نهاية وخيمة. يحسن بك أن تقول «أدوناي»^(*)، بالحروف «ألف، داليت، نون، يود». على الأقل إذا كان له قيمة عددية مقبولة، ولكن لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. فقال بروكتور على الفور: «واحد زائد أربعة زائد خمسين زائد عشرة يساوي خمساً وستين».

فأحنى أونو: «يساوي أحد عشر، يساوي اثنين. لا أمانع في ذلك».

أخذ أرندي يعدّ أصابع قدمي كويتن وهو يسمع هذه الأعداد كلّها، وعندما صاح «عشرة!»، ظهر كيرن على الشرفة مرة أخرى، هذه المرأة بصحبة السيد سبير وزوجته. جاءا ليؤدّيا واجبهما الاجتماعي، بلطافة لم تُبين ما إذا كانت مصطنعة أو حقيقية. قالت السيدة سبير: «كم هو جميل!».

نظر إليه السيد سبير بانتباه أيضاً، مرّر رأس بنصره برفق على المكان الناعم من يافوخه - ثم قال وكأنه يستطيع أن يرى عليه: «حرفاه الأوليان ك. ك. Q.Q»^(**).

فأحنى أونو رأسه وقال باللاتينية: «كمالٌ كامل». مكتبة سرّ من قرأ

وبينما يعقف السيد سبير إبهامه وسبّابته المهدبتين على شكل دائرة بشيء من الفجور ويشكّل الشّرطة بسبّابة يده الأخرى، قال: «هذا شيء نادر الحدوث. الـ Q أكثر الحروف غموضاً، هذه الدائرة مع الشّرطة. هذه البويضة التي تنفذ فيها النطفة، ومرتين أيضاً، شيء في غاية الجمال. شيء يستحقّ الثناء».

يبدو أنه كان على اطلاع، شأنه في ذلك شأن بروكتور، بأن أونو أيضاً له علاقة بالرموز الكتابية. شعر ماكس بقشعريرة بسيطة تسري في ظهره عند سماع كلماته، أما أونو فقد انحنى له انحناءة خرقاء وجميلة في آن واحد. انحنى السيد سبير انحناءة قصيرة أيضاً وأخرج ساعة فضية من جيب سترته. للأسف يجب عليهما المغادرة في الحال، إذ تقف سيارة الأجرة في الفناء الداخلي لتقلّهما إلى المحطة: سيذهبان في رحلة استجمام، إلى ويلز، إلى قرية «بونتريدفينديغيد»، كعادتتهما كلّ سنة.

(*) تعني ربّي أو سيّدي: اسم الإله عند اليهود، يُستخدم في النصوص التوراتية بديلاً عن كلمة «يهوه». [م]
(**) يبدأ الاسم بالهولندية Quinten Quist، بحرف Q، فيجيبه أونو بكلمتين باللاتينية تبدأ بالـ Q بالحرف نفسه: Qualitate qua. وفي العربية يبدأ الاسم بحرف الكاف، وهو الحرف الذي استخدمناه في الإجابة. [م]

جلس كيرن في هذه الأثناء على كرسي عمودي جلسة امتطاء الحصان، ووضع على مسند الظهر أمامه قطعة من الورق المقوى، مشبوكة عليها قطعة من ورق الرسم. بينما لا يحول عينيه عن صوفيا والطفل في حضنها، قام بحركات كبيرة، راسمة رسماً أولياً، ينزلق جانب يده وحده على الورق. يمسك قلماً صغيراً من الفحم بين أصابعه، لكنه لم يكن قد حصل بعد على ترخيص لترك أثر وراءه. يبدو أنه في انتظار أمر من عالم الخير، والجمال، والحقيقة: بأن لحظة اللاعودة قد حانت.

36. النصب التذكاري

في ظهر يوم من أيام الخريف، بينما ينظر ماكس من شرفته إلى الأشجار المصفرة، ناجى نفسه: الشخص الحرّ لا يستطيع تصوّر أن يُسجّن ذات يوم، مثلما لا يستطيع السجين تصوّر حرّيته الحقيقية. ببطء العموم يجد نظيره في بقاء الروح: كلّ ما لا يحدث في لحظة معيّنة، يكتسي بطابع الحلم. النتيجة هي أنّ التاريخ يمكن إيجاده في الكتب، ولكن ليس خارجها إلا في الحدّ الأدنى - وما هي الكتب؟ أشياء صغيرة، قلّما يزيد حجمها عن حجم بلاط، لكنّها أخفّ في الوزن، ومن شبه المستحيل العثور عليها بين ما لا يُحصى من الأشياء الأخرى التي تغطّي وجه البسيطة، وهي في الطريق تتضاءل في الأهميّة أكثر فأكثر في العالم الإلكتروني، الذي ينبثق أسرع فأسرع من الأفكار التجريدية. كلّ شيء يسير إلى الأمام، وما حدث كان يمكن ألا يحدث أيضاً. الأحلام تبقى في الذاكرة بعد بضع دقائق من الاستيقاظ - ما تلبث أن تختفي في عالم النسيان. أين معركة فردان^(٩) الآن؟ ما عدا في الكتب التي من شبه المستحيل العثور عليها ولا تُقرأ على كلّ حال، وفي ذاكرة حفنة من الرجال المسنّين، الذين سيُدفنون بعد عشرين سنة، مع كوابيسهم وندباتهم وكلّ شيء؟ أين معركة ستالينغراد؟ قصف درسدن؟ هيروشима؟ أوشفيتز؟

في شتاء 1968، بعد ستّة شهور من انتقالهم إلى خروت ريخترن، ذهب لأول مرّة إلى معسكر فيستربورك. كانت المرايا الاثنتا عشرة كلّها قد صارت جاهزة، شأنها شأن برامج الكمبيوتر؛ لقد بوشر بإرصادات تجريبية. وجوده لا يزال غير ضروري في الواقع، ولكن في لايدن - حيث لا يزال يداوم على نحو منتظم - سأله المدير باستغراب في إحدى المرات عمّا إذا لم يكن قد ذهب بعدُ لإلقاء نظرة على مكان عمله الجديد. حدث ذلك أخيراً في

(٩) معركة من معارك الحرب العالمية الأولى. [م]

اليوم الذي أرى فيه صوفيا المرصد الفلكي في دفنغلو. لقد أمضت بضع ليالٍ فيه أثناء تأثيث خروت ريخترن، لكنّها لم تشاهد المرصد حينذاك، إذ إنّ الأشياء التقنية لا تثير اهتمامها. في صباح يومٍ باردٍ ساطع، استطاع إقناعها بأن تُلبس كويتن ثياباً سميكّة وتأتي معه. لم يعرف هو نفسه لماذا أرادها معه. بينما يُريها المباني والمرآة، أخذ يفكّر دون توقّف في ذلك اليوم مع آدا وأونو، قبل تسعة شهور؛ لكنّه لم يتحدّث عنه ولا سأله هي عنه. لم يتغيّر الكثير منذ ذلك الوقت - سوى أنّ الآلات الكاتبة الكهربائية المستغنى عنها تقوم الآن في كلّ مكان على الأرض، بأسلاكها الملفوفة حولها، بينما ظهرت شاشات الكمبيوتر على المكاتب. كان كويتن جالساً بهيئة جادّة على ذراع صوفيا أثناء الجولة، وسرّ الجميع بأنه ينظر حوله بعينه الزرقاوين، مثل شخصيّة ليست غير راضية عن سير الأمور. لقد بلغ سبعة شهور ولم يبك مرّة واحدة، لكنّه لم يضحك أيضاً - الحقّ أنه لم يصدر أيّ صوت يُذكر. شعرت صوفيا بالقلق أحياناً من أنه تعرّض لإصابة أثناء الحادث، لكنّ الطبيب قال إنه طفل استثنائي كما يبدو؛ ما عدا ذلك ليس هناك ما يشير إلى أنه غير طبيعي.

أثناء استراحة القهوة، بينما يقف العاملون جميعهم بالقرب من العربة المحمّلة بالإبريق اللامع في بهو المبنى الرئيسي، تكلم ماكس مع مهندس إلكترونيات مسؤول عن تمديدات أسلاك التلسكوب الراديوي التوليقي؛ بعد الاستراحة سيذهب إلى فيستربورك بحافلة النقل العام، فقد ظهرت مشكلة أخرى من مشكلات التأسيس. أخذ يتحدّث بصوت يبلغ من الخفوت والتواضع أنّ ماكس كاد لا يسمعه في اللغظ السائد. عرض عليه في هبة اندفاع أن يأخذه بسيارته، لأنه هو أيضاً يجب عليه الذهاب إلى هناك. قال بصورة مفاجئة: هذه هي اللحظة، مع كويتن وصوفيا. بمرور الشهور، أثناء المساءات الطويلة في القلعة، كان قد أخبر صوفيا عن حياته أكثر مما أخبر ابنتها ذات يوم - ربما لأنّ الصيغة الرسمية التي يحدثها بها قد سهّلت عليه لسبب أو لآخر أكثر مما تفعل صيغة غير رسمية.

بعد خمسٍ وأربعين دقيقة كانوا يسيرون بالسيارة على الطريق الإقليمي السريع. لعلّ صوفيا، الجالسة في المقعد الخلفي مع الطفل، افترضت أنّ الحادث قد وقع هنا في مكانٍ ما؛ ولكن عندما مرّوا بتلك الرقعة، نظر إليها ماكس بنظرة سريعة فقط من زاوية عينه. المساحة الفارغة، التي انتصبت فيها الشجرتان ذات يوم، امتلأت بشجرتي نغت يافعتين، تسندهما دعائم خشبية، مربوطة إليهما بشرائط من المطاط الأسود، تبدو أنها مقصودة من إطار السيارات، على شكل 8. لم يتجاذبوا أطراف الحديث، المهندس يتصفّح في ملفّ من الأوراق على حضنه، خلد

كويتن إلى النوم، وحضرت ماكس فجأة ذكرى سيره في الحرارة البولندية الدقيقة، من أوشفيتز الأول إلى أوشفيتز الثاني - وكان مسيره ذاك كان نظير الطريق من دفنغلو إلى فيستربورك. خامره شعورٌ بالغثيان، ليس متأثراً من تلك الذكرى فحسب، وإنما مما يكمن وراءها على وجه الخصوص. تمضي أسابيع أو شهور دون أن يفكر فيها، لكنها دائماً تحضره بصورة مفاجئة في حالة غير متغيرة، دون اضمحلال تتعرض له حتى المواد المشعة.

قال المهندس، عندما كانوا يسرون في قرية هوخهالن: «يجب أن تنعطف هنا إلى اليمين».

- آسف! هذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا.

- أنت لا تعني ما تقول.

- إنها الحقيقة مع ذلك.

- هل أنت مهتم حقاً بعلم الفلك؟

- ربما لا.

رأى لوحة تشير إلى قرية «آمين» القريبة - كما لو أنّ المنطقة بأسرها مجهزة منذ قرون لما سيحدث فيها ذات يوم - ثم ظهرت إشارة إلى حيّ سخاتنبيرخ. انعطفت إلى طريق غابة، تحفّ به من اليمين سكةٌ حديدية صدئة. كانوا يعبرون بين حين وآخر من جانب أمبونيين مرتدين ملابس أندونيسية تقليدية، طويلة إلى الكاحلين، مضافة إليها شالات وقبعات من الصوف اتقاءً من الشتاء الهولندي؛ عائلات بأكملها في بعض الأحيان، لا يسير أفرادها جنباً إلى جنب بل بعضهم خلف بعض، الأب في المقدمة، وأصغر الأولاد في الخلف. ما لبث ماكس أن أدرك بفزع ماذا كانت تلك السكة الحديدية الموازية للطريق: لقد شيّدها الألمان وتنتهي في بيركيناو.

*

توقّف عند حاجز في السياج المكوّن من أسلاك شائكة، نزل من السيارة دون قول شيء، ونظر إلى المعسكر منقطع الأنفاس. يعرف من الخرائط والطبعات الزرقاء، التي رآها مراراً في لايدن ودفنغلو، أنه شبه منحرف يقارب طوله نصف كيلومتر وعرضه نصف كيلومتر. ما يراه هو مساحة كبيرة محاطة بالغابة، الهواء المتجمّد ممتلئ بإبر جليدية صغيرة متلاثة في ضوء الشمس؛ تقوم فيها صفوفٌ من البرّكات المتداعية، يتعامد بعضها مع بعض، مثل تلك الموجودة في بيركيناو، وكأنها لا تزال على طاولة الرسم - نموذج غير إنساني، يبدو

أنه كان المثال المُقتدى به في تشييد الأحياء السكنية بعد الحرب. الدخان يتصاعد من بعض المداخل، ولكن معظم البراكات لم تعد مسكونة كما يبدو؛ احترق عددٌ قليل منها واختفى بعضها من هنا وهناك. ثمة أطفال يلعبون، شخصٌ يقود دراجة هوائية في مكانٍ ما، لا شك في أنه يستطيع أن يروي الشيء الكثير عما حدث في أندونيسيا أثناء الاحتلال الياباني، لكنه لا يعلم شيئاً مما حدث هنا.

أمامه في خطٍّ مستقيم تمتد السكة الحديدية إلى النهاية الأخرى من المعسكر، وفي موازاتها، إلى اليمين قليلاً، يقوم صفٌّ من أطباق الأقمار الصناعية الضخمة، مثل... نعم، مثل ماذا؟ - مثل خيال، سراب، صورة من حلم - على طول كيلومتر ونصف، يدخل المعسكر من هذه الجهة ويغادره من الجهة الأخرى. اخضلت عيناه بالدموع. هنا، في مؤخرة هولندا هذه، توسلوا مباركة السماء في صمتٍ شامل مثل مذابح قرايين. شعر في تلك اللحظة بأنَّ العبء قد انزاح عنه، العبء الذي يثقل كاهله منذ بضع سنوات: أنه يجب عليه العمل في هذا المكان الملعون. فجأة عرف أنه ليس هناك أي مكان آخر على وجه البسيطة يفضل العمل فيه أكثر من هنا. ألم يكن هنا هو المكان الذي جمع فيه كل شيء، مثلما في بؤرة العدسة؟

ركب السيارة مجدداً دون أن ينظر إلى صوفيا، واتجه ببطء إلى مبنى الخدمة الجديد منخفض الارتفاع، في حين لم يعد يستطيع التوقف عن الكلام. أخذ يخبرها بهياج، وهو يلتفت إليها نصف التفاته بين حين وآخر، بأنَّ المعسكر قد أنشأته الحكومة الهولندية في 1939 لاستقبال اللاجئين اليهود من ألمانيا - أول معسكر لليهود خارج ألمانيا - ولكن تكاليف الإنشاء استردت من المجتمع اليهودي في هولندا. عندما جاء الألمان، وجدوا اللاجئين مجموعين هنا بعناية. بعد ذلك سيق ما يزيد عن مئة ألف يهودي هولندي أيضاً إلى بولندا عن طريق هذا المعسكر - عددٌ يفوق نسبياً حتى عدد اليهود من ألمانيا نفسها. بعد الحرب صار الفاشيون الهولنديون، الذين كانت دريتته تعج بهم، يُسجنون فيه، صار فترة من الزمن معسكراً للجيش، ثم أُسكن فيه الهولنديون العائدون من أندونيسيا، وفي نهاية الأمر المولوكان الذين يُجبرون، الآن أيضاً، على السكن في أحياء سكنية عادية على نحو أقل أو أكثر رغماً عنهم ويتدخل منتظم من الشرطة. من أجل منعهم من العودة إلى المعسكر، تركوا كل شيء عن عمد يؤول إلى الخراب. تأمل السلطات من خلال إقامة المرصد هنا في أن يفقد «فيستربورك» صده السليبي. عندما أخبر أونو بهذا في إحدى المرات، قال الأخير إنه واثق من أنَّ أخاه الأكبر، مفوض الملكة في دريتته، وراء هذا الأمر.

- تصوّر أن يقيم البولنديون معهداً موسيقياً في أوشفيتز، كي يصبح لاسم «أوشفيتز» صدى أقلّ إزعاجاً! «ستعملها» في بنطالك من شدة الضحك، لو لم يكن الوضع على هذا القدر من الحزن. تتساءل أحياناً هل يعرف الناس حقاً في أيّ عالم يعيشون؟!

ثم سأل المهندس: «هل تعرف على سبيل المثال أن بلدية فيستربورك باعت مجموعة كاملة من تلك البرّكات للمزارعين في الجوار والنوادي الرياضية؟ هنا في أرجاء درينته كلّها، يغيّر لاعبو كرة القدم ملابسهم في تلك البرّكات المربعة. العمل عمل! ولكنّ تلك البرّكات هي ملك اليهود، ولم أقرأ في أيّ مكان أنّ البلدية قد حولت تلك المداخل إلى المجتمع اليهودي. إنهم يتعرّضون للسرقة حتى يومنا الراهن!».

ودقّ على عجلة القيادة بانفعال، ما جعل المهندس يدير رأسه ويتبادل نظرة سريعة مع صوفيا.

في مبنى التحكّم، على الطرف الآخر من صفّ التلسكوبات، كان الجوّ دافئاً وتفوح رائحة القهوة الطازجة. ظهر مدير المنشأة بابتسامة اندهاش، وهو مهندسٌ فتّي عمل في شركة نفطية في الماضي. قال: «ظننّا أننا لن نرى هنا عالماً فلكياً قطّ».

ونظر بعينه البنيّتين الدكناوين إلى عينيّ كويتن: «انظر، ابنة المنزل جاءت أيضاً!». استغرق الأمر بماكس بعضاً من الوقت ليشرح أنّ كويتن كويست ليس بنتاً بل صبيّ، وأنه ليس ابنه بل ابن صديقه، وأنّ صوفيا برونس ليست زوجته ولا أمّ الطفل بل جدّته.

أوما المدير إيماءة تنم عن أنّ الأمر سيّان عنده، ثم تقدّمهم في السير إلى حجرة الكمبيوتر. خلعت صوفيا معاطف كويتن وقبعاته وناولته دمية صغيرة، فتجاهلها بغطرسة. صافح ماكس المهندسين الفنيّين، الجالسين وراء الشاشات على مدار الحجرة والذين يعرفهم من دفنغلو، طلب منهم أن يدلّوه إلى غرفته، ثم ذهب مع المدير إلى صالة الاستقبال، التي تضجّ بصريّر ودويّ من المراوح المعزولة في قفص فاراداي. عندما عادا إلى المحطة المركزية، وقف برهة من الزمن أمام النافذة الكبيرة نصف الدائرية، المطلّة على المرايا والبرّكات.

عندما تذكّر وجود صوفيا، التفت إلى الورا، أشار إلى التلسكوبات وسألها: «هل تعرفين كيف تعمل؟».

- لا أفهم منها شيئاً.

- إنها في غاية البساطة.

أخبرها بأن هذا الصفّ من العاكسات، متّجه من الغرب إلى الشرق بدقّة، في خطّ مستقيم، المسافة بين كلّ منها والتي تليها تبلغ مئة وأربعة وأربعين متراً، محسوبة بعناية إلى حدّ نصف مليمتر. ولكن هذا ليس كلّ شيء، فهو يشكّل إضافةً إلى ذلك خطّاً مستقيماً حقيقياً: في هذه المسافة المكوّنة من كيلومتر ونصف الكيلومتر سُوي تكوُّر الأرض أيضاً. لك أن تتخيّلي! وهذه الدقّة ضرورية، لأنّ المرايا الاثنتي عشرة يجب أن تُرى على أنها تلسكوبٌ واحدٌ ضخّم دائريّ الشكل، بقطرٍ يبلغ نصف كيلومتر، أكبر تلسكوب في العالم. الفكرة هي، من خلال دوران الأرض على النحو الذي يُرى من الفضاء، أن يقف صفّ المرايا بشكل عمودي على موضعه الأصلي بعد ربع يوم وفي الوضع المعاكس بعد نصف يوم؛ هذا يعني أنك من خلال رصد مصدر راديوي على مدى نصف يوم، تستطيع التوصل إلى التوليف الذي تريده. ثم قال: «حتى الطفل يستطيع فهم هذا، أليس كذلك؟».

قالت صوفيا وهي تمسك رأس كويتن المتذبذب وتمسح فمه: «أسمع كلّ ما تقوله، لكنني لا أستطيع تخيل شيء».

أخذ خريطة راديوية من فوق مكتب وسأل المهندس الفتي: «ما هذا؟».

فنظر إليه المهندس شارد الذهن: «M 51».

قال ماكس وهو يرفع الخريطة أمامها: «هنا، إنه يبدو على هذا النحو. سديم الدوّامة في برج السلوقيان. قبل ثلاثة عشر مليون سنة».

ولكنّ كويتن هو الذي أخذ الورقة بيديه الاثنتين وأخضع الجبال المدبّبة في خطوط التكايف المتموّجة لتفتيشٍ دقيق.

فقال المدير بحاجبين مرفوعين: «أتطلّع إلى سماع ما سيخبرنا به».

عندما أعاد كويتن الورقة إلى ماكس، دون أن يجعلها أو يفركها بطريقة عشوائية على الأرض، لفت صوفيا ذراعيها حوله وضمّته إلى صدرها وهي تقول: «يا لك من طفل غريب! إنك تشبه أباك».

كانت الطريقة التي تعاملت بها مع كويتن منذ البداية قد كشفت جانباً مختلفاً تماماً من طبيعتها، أثار دهشة أونو خلال زيارته المتقطّعة، ولكنّ ماكس كان يعرفه من الطريقة التي تتصرّف بها حياله في الليل - ولكن دون أن تقول كلمة واحدة. لم تُرق هذه المداعبة لكويتن فحرّر نفسه منها بكبرياء.

أخذ ماكس ينظر إليه مستغرقاً في الأفكار، ثم قال: «سأذهب لحظة إلى الخارج».

التفح بشالٍ فقط، وضع يديه في جيبه، وسار إلى الساحة. الهواء لا يزال ممتلئاً بالشظايا الصغيرة الحائمة، المضيئة بطريقة سحرية. إنه في حاجة للبقاء وحده بضع دقائق، كي يتمكن من استيعاب التغير الذي خضع له قبل قليل. كانت تفوح رائحة غامضة لطعام أندونيسي؛ وفي حديقة قاحلة وراء إحدى البراكات يُصلح صبيٌّ دراجة هوائية. تذكر من الخرائط أن صفًا من البراكات الطيبة قد هُدم من أجل وضع المرايا مكانه. لم يعد المعسكر في الوضع الذي كان عليه في الحرب، ولكن حتى وإن اختفى كل شيء، سيبقى هنا هو المكان إلى أبد الأبدن. القِلا القائمة بالقرب من الحاجز، حيث نزل من السيارة قبل قليل، هي مسكن قائد المعسكر. إنها لا تزال مأهولة بالسكان، فهناك ستائر معلقة ونباتات موضوعة على حافة النافذة. سار بخطوات وثيدة باتجاه الشرق على الطريق الموازي للسكة الحديدية، الذي كان يُسمّى «جادة البؤساء» في يوم من الأيام. عندما أخبر صوفيا قبل قليل عن الصفّ الدقيق للآلات المتّجه من الغرب إلى الشرق، خطر في باله المثلث البولندي متساوي الساقين الخاص بوالده، بيلسكو-كاتوفيتسه-كراكوف، الذي يشير هو أيضاً إلى الشرق على وجه التحديد، بأوشفيتز في مركزه. هذا كلّ لا يعني شيئاً، لكنّه واقع. وفجأة تراءت لعينه خريطة دريئة: مثلث متساوي الأضلاع، بمعسكر فيستربورك في مركزه.

هنا، على هذا الطريق، ربما في هذا المكان الذي يمشي فيه، صعدت والدته إلى عربة من عربات المواشي تحت العين المراقبة لقائد المعسكر، ثم سُحب الباب عليها وأُقل بالمزلاج. هنا بدأت رحلتها الأخيرة. حاول موافقة هذا الإدراك مع ما يراه؛ ولكن رغم أن ذلك الحدث جرى في هذا المكان، فقد بقي هذان الأمران مختلفين أحدهما عن الآخر اختلاف فكرة عن حجر صلب. كان الطريق مهجوراً، والسكة الحديدية فارغة، إنها ليست رائحة شولنت^(٥) بل رائحة نازي غورينغ^(٥٥). ناجى نفسه: الزمن هو الذي يمزق كلّ شيء إلى أشلاء. نظر حوله: دخول المرايا الصامت المهيّب إلى المعسكر. تنأى إليه من مكانٍ ما طرُقُ نقار الخشب. علّم اليقين أنه يتّمي إلى هنا، أنه يجب عليه قضاء حياته هنا. واصل السير إلى النهاية الأخرى من المعسكر، حيث تنتهي السكة الحديدية عند واقى صدماتٍ متفّسخ. جلس القرفصاء

(٥) طبق طعام يهودي. [م]

(٥٥) طبق طعام أندونيسي. [م]

ووضع يده على الحديد الصديء، نهض من قرفصائه وعاود النظر إلى صفّ أطباق الأقمار الصناعية، المشيرة كلّها إلى النقطة نفسها في السماء. وفجأةً خطرت في باله النجمة الصفراء، التي كانت والدته تُرغم على وضعها على الجانب الأيسر من صدرها أثناء الحرب. نجمة! نجوم! أولئك العشرات الآلاف كلّهم الذين رُحّلوا من هنا كانوا يلبسون نجومًا؛ أُجبروا على ركوب العربات بالنجوم على صدورهم، ليقطعوا الطريق من شبه المنحرف الصغير إلى المستطيل الكبير. تذكر النقاشات المنشورة في الجرائد عمّا إذا كان يجب إقامة نصب تذكاريّ للمُرحّلين، هنا في فيستربورك؛ لقد عارض الناجون، قالوا إنّ كلّ شيء يجب أن يُنسى. لكنّه ها هو ذا قائم هنا مع ذلك! فماذا يكون التلسكوب الراديوي التوليقي في نهاية الأمر غير نصبٍ تذكاريّ للموتى، بقطر كيلومتر ونصف الكيلومتر؟!

37. رحلات استكشاف

بينما تسير الحياة في خروت ريخترن ودفنغلو بهدوءٍ ريفيٍّ وفلكيٍّ، بدأ أونو يحرز تقدماً سياسياً في أمستردام بسرعة البرق. صار يشعر في بعض الأحيان بأن الطريقة التي يحدث بها هذا الأمر ليست لها علاقة بمؤهلاته فحسب، بل أيضاً بالقدر الذي أَلَمَّ به: وكانَ أصدقاءه السياسيين يرون أنه يستحقّ هذا بعد حادث زوجته - أو أنهم على الأقل لا يستطيعون عرقلة تقدّمه عرقلةً قويّة بأسلوبٍ لبقٍ. في بداية 1969 وصلَ بالانتخاب إلى المجلس البلدي، وبعد فترة قصيرة من ذلك صار عضو المجلس البلدي المسؤول عن التعليم والفنون والعلوم.

همس في أذن عمدة البلدية بعد تعيينه، أثناء مأدبة عشاء في المقرّ الرسمي: «خلال فترة حكمي، سيهدف التعليم بصورة أساسية إلى إنشاء جيلٍ من عديمي الإرادة الذين يهزّون رؤوسهم بنعم. آخذاً أفلاطون بعين الاعتبار، سأعامل الشعراء بحدّ السيف دون رحمة، وأجعل العلم طوع بناني على نحوٍ كامل وأضعه في خدمة طموحاتي الشخصية. سأجعل نفسي مكروهاً، كما لم يفعل أيّ عضو في مجلس بلدية أمستردام من قبل. بينما تمثالك سيُزوّد بأزهارٍ جديدة كلّ يوم، لن يُذكر اسمي حتى بعد قرون إلا بأعمق اشمئزاز».

فأزاح عمدة البلدية الشائب يده عن صدفة أذنه وقال: «نعم، نعم يا أونو، على مهلك!». كان الجميع قلقاً من أنه سيُلحق الضرر بالحزب بلسانه السليط، ولكنّ ذلك لم يحدث: تعلّم طريقة العمل في غضون بضعة أسابيع، وتبنّى نبرةً مختلفة تماماً في قاعة المجلس - أيّ تلك النبرة الهادئة التي يعلم أنها النبرة الوحيدة الفعّالة في هولندا. بدأت حياة جديدة بالنسبة إليه. كان عمداء الجامعات يطلبون لقاءه ويضطّرون للانتظار إلى أن يسمح لهم بالدخول، استدعى مدير هيئة الفنون للحضور، دافع في أروقة لاهاي عن مصالح أمستردام في الوزارة، ومارس الضغط على رفاقه في الحزب في مجلس النّواب؛ كان يتّخذ القرارات، يتوسّط،

يتدخل، يفصل، يعيّن، يدخل في الصراع مع الطلاب. صار فجأةً صاحب سلطة، في خدمته سكرتيرة، وموظفون يرقصون على أنغامه، وسيارة بسائق يأخذه من مبنى البلدية إلى شارع كيرك في المساء.

لكن لم يكن ثمة أحدٌ هناك. إذا ما أغلق الباب وراءه، استقبله صمتٌ بدا أنه منبعث من صندوقين: حقيبة التشيلو الخاصة بآدا في مكتبه، وصندوق الكافور الصيني في غرفة نومه، الذي وضع فيه ملابسها، ولكن التفكير فيها وفي كويتن ما يلبث أن يختفي تحت الملفات التي تظهر من حقيقته مفرطة الحجم - لأنه يعلم أيضاً أن كويتن لا ينقصه شيء، وأن آدا تتلقى العناية اللازمة في دار الرعاية في مدينة إمن، التي لم يذهب إليها أكثر من مرتين على كل حال. كان اهتمامه بمضمون تلك الملفات ضئيلاً إلى أدنى الحدود، قياساً باهتمامه بالرموز الخفية في لوحة معينة في متحف هيراكليون^(٥)، لم يكن ليحدث اختلافٌ في نهاية الأمر إذا ما تولّى مسؤولية حقيبة أخرى؛ لكنه وطن النفس على أن حياته تُحددها على ما يبدو بدايات متألقة، تصوير مخيية للآمال بصورة مفاجئة - حياته الأسرية وفي علم اللسانيات على حدٍ سواء. يعرف أناساً تعني لهم العضوية في مجلس بلدية أمستردام أسمى إنجازٍ في حياتهم، أما هو نفسه فهو راضٍ بها، لأنه على الأقل لديه ما يفعله؛ قرر أن يجعلها تسير على أفضل حال، أما الوهم بأنه يستطيع تغيير هولندا، أو حتى أمستردام، فقد تركه يذهب أدراج الرياح بعد بضعة شهور؛ ولو أراد أن يكون صادقاً مع نفسه، لرأى أن التغيير غير ضروري في الواقع. فأي تسير الأمور في العالم أفضل مما تسير في هولندا؟ في سويسرا ربما - لكنها أكثر فساداً، والأسوأ من هذا، أكثر إضجاراً. لو استطاع المحافظة على التغيرات المُفرحة، التي حدثت من الأسفل في النصف الثاني من سنوات الستينيات، وترسيخ دعائمها، سيكون في غاية الرضا؛ أما الآن، ومع اقتراب سنوات السبعينيات، فإنه يرى أن الخيال يغرق في مستنقع الاجتماعات المريرة المتواصلة، التي يبدو أنها تهدف إلى شيء من قبيل ديمقراطية شمولية عديمة الرحمة. لم يعد أحدٌ يفعل شيئاً، الجميع يتكلم حصراً عن الطريقة التي يجب أن يحدث بها شيء، عندما يفعله أحد. حينما تحدث في إحدى المقابلات عن «انعكاسات التهيج الذاتي»، التي تسبب في إصابة الدماغ والنخاع الشوكي عند الطلاب، لَطَّخَ بابُ بيته بالدهان الأحمر وتلقّى في منتصف الليل تهديداً على الهاتف: «ستقع في أيدينا ذات يوم، يا غدا!».

(٥) متحف في جزيرة كريت اليونانية. [م]

لكن قبل أن يتمكن من القول: «أهذا أنت يا بورك؟!»، قطع الخطّ.

عاش في زهد منذ الحادث، لا لأنه أجبر نفسه على ذلك، ولكن لأنه لم يخطر في باله بدء علاقة مع امرأة. لم يكن ذلك ليكلّفه أيّ جهد: سرعان ما اكتشف أنّ للسلطة جاذبيّة جنسية؛ وإذا أراد شخصٌ ما أن يُفسد معه الأمر إلى الأبد، فليسأله لماذا لم يطلق زوجته، ما سيكون إجراءً شكلياً من الناحية القانونية على كلّ حال. حقيقة أنّ عاملة البلدية تنظّف غرفه كلّ صباح، وأيضاً ترتّب سريريه وتغسل ملابسه أثناء وجوده في دار البلدية، تمتّ بصلة إلى هذا الأمر بطبيعة الحال. كانت السيّدة سيلياكوس تنظّم هذا الشيء، سكرتيرته، التي لولاها لما سار أيّ شيء في مساره الصحيح، لا في عمله ولا في حياته: إنّها تكمل بدقّة ما ينقصه. اعتاد على القول لها: «نحن معاً نشكّل إنساناً واحداً». ولكنّ السيّدة سيلياكوس كانت قد جاوزت الخمسين من العمر وتتقاسم شقّة مع سيّدة من عمرها منذ عشرين سنة. اعترف لها في لحظة انفراد: «لو لم تكن ميولك غير طبيعية إلى هذا الحدّ الصادم، بل طبيعية حتى الصميم كما هو حالي، لعرفت ماذا أفعل!».

إلى أن اتصل به ماكس، في مساء يوم أحد في شهر تمّوز، على رقمه السري الجديد، وسأله هل يعرف أنّ أول إنسان سيضع قدمه على القمر هذه الليلة.

- ستشاهده حتماً، أليس كذلك؟ سيعرضون كلّ شيء على التلفزيون.

- في أيّ ساعة؟

- نحو الرابعة صباحاً.

- كي أقول الصدق لم أكن أنوي المشاهدة. القمر! تبدو وكأنك مجنون. إنه لا يلعب أيّ دور في السياسة المحليّة في الواقع. في الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد يجب عليّ مخاطبة رئيس جامعة لينينغراد، بالروسية. هذا ما أعمل عليه الآن.

- يجب عليك مشاهدته حتماً. الشيء الرائع ليس الحدث بحدّ ذاته، لأنّ جول فيرن تنبأ به، وكذلك سيرانو دو برجوراك وكيبلر...

- وماذا ستقول عن بلوتارخوس؟ ولوقيانوس؟ وشيشرون؟ حلم سيبوي! إنني على يقين من عدم سماعك بهم. إنّنا في فترة ما قبل الميلاد. لا تتخيّل أيّ شيء.

- دعني أكمل حديثي! ما أريد قوله هو أنّ شيئاً واحداً لم يخطر في بال أحدٍ على الإطلاق، وهو أنّ الجميع على وجه الأرض سيكونون شاهدين عندما يحطّ شخصٌ على القمر، في

اللحظة نفسها ومن دون أن ينهض عن مقعده المريح - حتى وإن كان القمر غير بازغ في السماء في تلك اللحظة. هذا هو المستحيل بعينه. لو تنبأ أحدٌ به من قبل، لُوْصِمَ بالجنون.

- ألن تتجاوز الثانية عشرة من عمرك قط؟! إذا كنت أفهمك جيّداً، يجب أن أشاهد شيئاً لا يمكن رؤيته في الواقع: أشاهد فكرة. كلّ شيء مختلف دائماً بالنسبة إليك. تكاد تستطيع أنت نفسك أن تشاهد الانفجار العظيم، هناك على المرج. ولكن حسناً، سوف أستمع إليك مجدّداً، رغم شعوري بأنني لن أستفيد كثيراً. أخبرني كيف حال كوينتن كويست؟ هل بدأ يقول بعض الكلمات؟

- لا أعرف، لا أستطيع فهمه على كلّ حال. يجب عليك في الواقع أن تفهم بأيّ لغة يبربر، لعلّها تكون اللغة نفسها التي كنت تبحث عنها في الماضي.

- نعم، انكأ جراحي القديمة أيها الساديّ بالفطرة. لعلّي يجب أن أوطن النفس على أنني والد طفل لا يعرف فكّ الحرف. هذا ما تراه على الدوام: ابن غوته كان أبله أيضاً. الرجال العظماء لهم دائماً أبناء بلهاء - ما يبرهن ضمناً على كلّ حال أنّ والدي ليس بالرجل العظيم. لا علينا، لعلّنا يجب أن نكون سعداء بأنّ السيّد مستعدّ على الأقل لأن يتكرّم بالخبو.

- إنه يشير انطباعاً في بعض الأحيان بأنه يفهم قليلاً.

- دعنا نأمل هذا! كيف حال السيّد حماتي؟!

- كلّ شيء على ما يرام. تعال لزيارتنا قريباً.

وضع السمّاعة على الجهاز، لكنّه بقي ممسكاً بها وتنهّد. لم يذهب إلى دريته منذ عيد ميلاد كوينتن الأول، قبل شهرين؛ حضر حينذاك العديد من آل كويست مع أتباعهم، والجيران الساكنون في القلعة، وحتى والدته حماته، فلم تكد تواتيه الفرصة لأن يولي كوينتن انتباهه. كان يجب عليه قضاء ذلك الثلاثين من أيار بصورة رئيسية في إرضاء عائلته، التي رأت حينذاك لأول مرة كيف يتلقّى طفلٌ من آل كويست التربية من جدّته وصديق والده. نظر في ساعة يده، بينما لا تزال يده على السمّاعة. إنها الحادية عشرة. بدت له الساعات الخمس، التي تفصله عن لحظة ماكس القمرية، طويلة بما لا يمكن تخطّيها. لقد بثّ سماعٌ صوته الراحة في نفسه؛ انتزعه فجأةً من رتابة عمله. هو يستطيع الذهاب إلى السرير بطبيعة الحال، إذ إنّ ماكس لن يعرف ذلك أبداً، ولكن أليس هناك أحدٌ يستطيع أن يؤنس وحدته؟ ألا يستطيع زيارة أحد؟

في تلك اللحظة عرف بمن سيتصل - ولكن هذه الفكرة أصابته بصدمة بلغت من القوة أنه احتاج إلى بضع ثوانٍ ليتعافى منها. لا يزال يعرف الرقم عن ظهر قلب.

*

- هيلخا؟

- نعم، من معي؟!

- يا للفضاعة! ألم تعودى تعرفين حتى صوتي؟

- أونو! يا لها من مفاجأة! كيف حالك؟

- بخير، أظن أنك سمعت قليلاً من كل ما حدث. لقد حدث الكثير.

- شيء مروع. أردت الكتابة إليك، لكنني لم أعرف أي نبرة يجب أن أستخدم. هل هناك تغييرٌ في وضعها؟

- لا.

- وابنتك؟ كم عمره الآن؟

- لقد تجاوز السنة.

- هل يعيش معك؟ كيف تتدبّر الأمر؟ أنت عضو المجلس البلدي في الوقت الحاضر، أليس كذلك؟

- أنا أعيش وحدي. هو يعيش في رعاية حماتي وماكس، أنت تعرفينه، ذلك الذي كنتِ مجنونةً به. إنهم يقيمون في دريته.

- أليس هذا غريباً بعض الشيء؟

- بعض الشيء، نعم، لكنّه الحلّ الأمثل. أعتقد أنه بدأ علاقة مع فتاة أو أخرى منذ زمن بعيد، لكننا لم نعد نتكلّم عن مثل هذه الأشياء. وأنت؟ ماذا تفعلين؟

- في هذه اللحظة؟ إنني جالسة أقرأ.

- ماذا؟

- ستضحك: تقرير المجلس في الجريدة.

- أقرئين الجريدة؟ ألم تقرئي ماذا سيحدث بعد بضع ساعات؟

- ماذا سيحدث؟

- الليلة سيحطّ إنسانٌ على القمر.

- وماذا في ذلك؟ فليحرص على ألاّ تزلّ به قدمه. أتتصل لهذا السبب؟ منذ متى تهتمّ بمثل هذه الأشياء؟!

- منذ خمس دقائق. اتصل بي ماكس وقال إنني يجب أن أشاهده.

- ولذلك ستشاهده.

- هيلخا! لست غافلاً عن هذه النبذة الحادة في صوتك. لا تهمني الأجرام السماوية، وبضمنها الكرة الأرضية؛ لكنني سعيد بأنه اتصل بي، لأنني أستطيع الطلب منك أن تستقبلني في بيتك، كي نشاهده معاً.

- لا أعرف ما إن كنت أريد هذا يا أونو.

- أنا الشخص الذي يحدّد ما تريد به، أليس كذلك؟

- لا، ليس منذ زمن. كيف تعرف أنني لست على علاقة بشخص آخر منذ وقت طويل، وهو الآن يرقد على الكنبة باسترخاء؟

- لأنني أعرف أنّ العشب لا يستطيع النموّ في المكان الذي وقفت فيه ذات يوم.

- ألم تتغيّر إطلاقاً يا أونو؟!

- سأدقّ جرس بيتك بعد ربع ساعة - وإذا لم تفتحي لي الباب، سأغلق معهد الفنون التاريخية غداً. أول ما سأفعله في الصباح!

- أنت تريد طبعاً أن تجلب لي ملابسك المتسخة فقط.

- اسمعي يا عزيزتي هيلخا، هل تعرفين كيف كان آل هابسبورغ يُدفنون؟

- عفواً؟ ماذا يُدفنون؟

- آل هابسبورغ، الملوك النمساويون الهنغاريون.

- كيف كانوا يُدفنون؟

- نعم، لا بدّ أنك تعرفين، أليس كذلك؟

- ماذا تقصد بحقّ السماء؟

- أنصتي إليّ. كان موكب التشيع يصل بالتابوت إلى السرداب الإمبراطوري في فيينا، فيقرع القهرمان، أو شخصٌ من هذا القبيل، الباب بعصاه ثلاث مرات. كنت تسمعين راهباً

مستأً في الداخل يسأل بصوت متهدّج: «مَن هناك؟»، فيجيب القهرمان: «صاحب الجلالة الإمبراطوري والرسولي الملكي، إمبراطور النمسا وملك هنغاريا» إضافةً إلى خمسمئة وستة وثمانين لقباً آخر. بعد ذلك يسود الصمت في الداخل، فيقرع الباب ثلاث مرّات من جديد ويزمجر بالقائمة نفسها. وعندما يطرق الباب للمرّة الثالثة ويسأل الراهب مجدّداً: «مَن هناك؟»، ويجيب القهرمان: «مذنبٌ مسكين». عندئذٍ فحسب تُفتح الأبواب ببطء.

- ماذا تقصد بهذا؟

- أيجب أن أكون أكثر وضوحاً؟ عدت أجراً أذبال الخيبة لأقول لك إنني تعبت من اللعب في الشارع - إذا كان هذا لا يزال يعني لك شيئاً.

*

بعد استحواذ كويتن على الغرف في الشقّة في أول الأمر، وسّع عالمه إلى أن شمل قلعة خروت ريخترن بأسرها، بنتيجة أنه كان يضيع مرّة واحدة على الأقل كلّ يوم. لقد ظهر من الوليد الرائع، الذي ما إن مضت ثلاثة شهور حتى انبثقت أربع أسنان في فمه، صبيّ صغير يبعث البهجة في الجميع بجماله. قالت سلمى كيرن لصوفيا مراراً إنّ زوجها قد أدمن على ظهور كوكو. كان غالباً ما يُسمّى كوكو، لأنّ السيّد سبير يخاطبه باستمرار بكوكو - وذلك من أجل أن يدلّه بالاستمرار نفسه على الباب، لأنه لا يرغب في النقاش مع شخص لا يردّ عليه بأيّ شيء: «تعلّم الهولندية أولاً يا كوكو!». أما في بيت كيرن، على الطرف الآخر من طابقه، فهو موضع ترحيب على الدوام؛ وعندما لا يكون الفنّان مشغولاً بالنحت في الاستوديو الخاصّ به في الفناء، القائم في أحد مستودعات الحناطير، لا يستطيع رفع عينيه عن الطفل. كانت ابنته مارثا، البالغة من العمر عشر سنوات، وهي فتاة شقراء نحيلة، مولعة به أيضاً، وقد وطّنت النفس على أنه لا يتكلّم، فصارت تتربّع عنده على الأرض، وتناول كوز صنوبر أو صدفة ليتفحصها، أو تشير له إلى الحمايم البيضاء. عندما حطّت حمامة على قمّة رأسه في إحدى المرّات، وبقيت جاثيةً عليه وهي تهدل هديلاً ناعماً، بسط السيّد كيرن ذراعيه من شدّة الاستمتاع، وكأنه يريد الطيران هو نفسه، وبقي في هذه الوضعية ينظر إلى كويتن، الذي لم يعد يتحرّك هو الآخر ولم يحوّل عينيه أيضاً عن سلمى في ثوبها الأسود.

صاح: «هذا لا يمكن أن يكون من هذا العالم!».

وصار هناك مجلّدٌ كبير يحتوي على العشرات من رسومات كويتن، التي كانت العينان

فيها تكبران بوتيرة متزايدة، مضطرباً برأس الإصبع الوسطى قوّة وحيوية على زرقتهما ببودرة الميثيلين؛ كذلك يظهر فيها أحياناً بصولجان أو كرة أرضية في يديه، وقد جلس على وسادة فاخرة، أو في هيئة البابا بتاج على رأسه. حسب رأي سلمى، لم يحدث أن ألهمته ابنته على هذا النحو. سأل كيرن ماكس عما إذا يمكن أن يسمح أونو له بعرض هذه المجموعة ذات يوم، فأكد له ماكس أنه قد يستطيع حتى إقناع أونو بافتتاح المعرض، ولكن عليه أن يأخذ في الحسبان أنّ أونو سينسب الشرف كلّهُ إلى نفسه باعتباره الأب. لا شكّ في أنه سيبتكر حبكة لا يبقى فيها شيء للفنان سوى استنساخ غيبي للواقع - أي: الدليل على دوره الفائض تماماً عن الحاجة.

قال ماكس وهو يدرك مجدداً كم أنّ أونو صار جزءاً من كيانه: «سوف يسمّيه في أغلب الظن "مبدأ البغاء" أو شيئاً من هذا القبيل».

في الطابق العلوي، في بيت بروكتور، بين المظلات السوداء المرعبة، نظر كويتن إلى القطار الكهربائي - كيف أنّ أرندي ما إن اقترب القطار من المنعطف حتى أدار ذراع المحوّل إلى أقصى اليمين بحركة مفاجئة، فطار القطار من السكّة، فتدحرج أرندي على ظهره متفضّلاً من شدّة الضحك، محرّكاً ساقيه في الهواء بسعادة شيطانية. نظر إليه كويتن بتعبير على وجهه لم يختلف عن التعبير الذي ارتسم عليه عندما كان ينظر إلى القطار. ثم ذهب في رحلة استكشاف إلى الجزء الشمالي من العلّة. كانت فيه غرفة مغلقة على الدوام، وهي الغرفة الأولى التي يعث بمقبض بابها بصورة ثابتة لا تتغيّر. عندما تبوء محاولته بالفشل، يحبو على يديه وركبتيه في غرف البارون المكتظة بالأغراض المخزّنة ذات الرائحة العطنة؛ على السجاجيد الملفوفة، بين الكتب المربوطة بعضها إلى بعض بالحبل، بين الطااولات والكراسي المقلوبة، الثريات الساقطة على الأرض، الخزانات الكبيرة والصغيرة، وأكوام الملابس، التي يغطّ عليها في النوم في بعض الأحيان - حيث تعثر عليه صوفيا أو ماكس في نهاية الأمر بتنهيدة ارتياح: «وجدته!».

كان في عيد ميلاده الثاني أيضاً لا يزال غير قادر على الكلام، أو على الأقل لم يكن قد قال شيئاً مفهوماً بعد؛ لكن ما أخذ يلفت الانتباه بصورة متزايدة هو أنه يُبدي ذلك المزيج الغريب من الفضول والانزعال. لم يكن يحبّد المداعبة، رغم أنه سمح لصوفيا بمداعبته بضع مرّات؛ لم تكن الألعاب التي يشتريها له ماكس تثير فيه من الاهتمام أكثر مما تثير فيه قطعة بطاطا،

أو برغي، أو غصنٌ صغير. يستطيع النظر دقائق طويلة إلى الماء المتدفق من الصنبور، إلى تلك الضفيرة الباردة الصافية التي تحتفظ بشكلها ولمعانها رغم أنها تتكوّن من ماء يختلف باستمرار. لم يعرف أحدٌ في أيّ خانة يجب أن يضعه. إنه يبلغ من الجمال ما لا يمكن تصديقه، لا يبكي إلا نادراً، لا يضحك أبداً، لا يقول شيئاً، ولكن لا أحد يشكّ في أنّ هناك الكثير مما يحدث تحت ذلك الشعر الأسود. في إحدى المرات وقف على الشرفة ينظر بلا حراك إلى الدرابزين، إلى العارضة الحجرية الرمادية الموضوععة على الدعائم الخشبية التي لها شكل الجرار. جلس ماكس القرفصاء بجانبه ليرى ما إذا كانت حشرة تدبّ هناك؛ ولكن عندما وضع كويتن سباته برفق على بقعة معيّنة، رأى عندئذٍ فحسب مستحاة صغيرة لثلاثي فصوص، منحدرٍ من العصر الباليوزوي، عمره نحو ثلاثمئة مليون سنة. أدرك في الوقت نفسه أنّ هذا الحيوان، الذي اكتشفه كويتن، قد عاش تقريباً في اللحظة التي أرسل فيها العنقود المجري في كوكبة الهلبة - «شعر برنيس» - الضوء الذي يصل الآن إلى الكرة الأرضية. نظر كويتن إليه.

قال ماكس: «هذا ثلاثي فصوص، نوعٌ من قمل الخشب. ماذا تريد؟ هل نحرّره؟». أخرج مبرداً من علبة شذب الأظافر الخاصة بصوفيا، ثبت رأس المبرد بميلٍ في طرف المستحاة الصغيرة وطرقه بحصاة طرقّة خفيفة، فانطلقت المستحاة من مكانها واختفت بين الحصى. لكن كويتن انحنى بجذعه وما لبث أن أمسكها في يديه.

قال ماكس: «عندما تكبر، يجب أن تصبح عالم حفريات».

كان عندما يضيع، يمكنه أيضاً أن يكون في الأقيّة. في طريقه إلى هناك يحاول دائماً العبث في أول الأمر بمقبض باب السيّد فيرلورن فان ثيمات، في البهو المكسوّ بالأواح خشبية في الطابق السفلي، قبالة شقّة آل سيرر. ولكنّ ذلك الباب لا يُفتح سوى في نهايات الأسبوع وأيام العطل. كان مؤرّخ الفن في نحو السّتين من العمر، وهو رجلٌ طويل نحيف، منحني بعض الشيء، بشعرٍ شائب خفيف وقسمات وجهٍ رقيقة؛ تنجلي على العموم نظرة متحفّظة، تزنُّ الأشياء بدقة، خلف نظّارته ذات الإطار المعدني، لكنّه أحياناً ينفجر في ضحكٍ مفاجئ مفرط شبه جنوني، تشارك فيه أطرافه كلّها. زوجته، إلزيث، تكاد لا تبلغ الأربعين في أغلب الظنّ، تصغر صوفيا بنحو خمس سنوات على كلّ حال؛ ليس لديهما أطفال. كان ماكس يهاب البروفيسور بعض الشيء: مثقف أكاديمي من النوع الهولندي الصارم، لا يتغاضى

عن أي شيء. في إحدى المرات في الماضي، صَنَّف ماكس مع أونو المثقفين وفق النظام الرهباني الكاثوليكي: سرعان ما تبين أنه هو نفسه يسوعيّ منعدم الضمير، في حين بقي أونو في مستهل الأمر تُرابياً* ريفياً، لأنه يؤدي واجبه بصمت حصرًا؛ لكنه انضمَّ في نهاية الأمر إلى البندكتيين** المَهْذَبين ذوي السلوك الفاضل، الذين يكرّسون أرواحهم للإله بعد حياة دنيوية ناجحة. في هذا الطيف كان ثيمات كرتوزيا*** صارماً، يشعر ماكس بأنه يرى فيه خليعاً مثقفاً عندما لا يتعلّق الأمر بعلم الفلك.

ولكن إذا ظهر كويتن في فتحة الباب، على رؤوس أصابع قدميه، وما زالت يده على مقبض الباب فوق رأسه، تغيّر شيء في البروفيسور الحازم أيضاً. حينما يكون جالساً في كرسيه الهزاز منهمكاً في القراءة - هو يقرأ على الدوام - يضع الكتاب جانباً، يطوي يديه الشاحبتين في حضنه وينظر إلى الطفل المقرب. على النقيض من بيت سيرير، المؤثّر كلّ مكان فيه بالتحف النفيسة، تتسم الصالة هنا بطابع غرفة طلاب شتّت عن الطوق، فتضمّنت السجاجيد الفارسية المهرثة، المكتب العتيق، المقاعد ذات الذراعين البالية من الجلد البنيّ، وحتى عصا لعبة هوكي نصف متفسّخة في حافظة مظلات. رغم أنّ هذا منزله الثاني، فقد غطّي الجدار الطويل المواجه للنوافذ بخزانات كتب مرتفعة حتى السقف. علّقت هنا وهناك رسومات معمارية مؤطرة، معظمها بشيء من الميل، ولكنّ مسعى كويتن الأول يكون دائماً صوب نقشٍ مؤطر كبير الحجم، يقوم على الأرض مستنداً إلى خزانة الكتب. في إحدى المرات جثا السيّد ثيمات على ركبتيه إلى جانبه وقال له إنها مسألة.

- «قل ورائي: مسألة».

وعندما بقي كويتن صامتاً: «يجب أن تراها مثل شعاع شمس متحرّج. إنها في روما، بالقرب من قصر اللاتران، القائم هنا إلى اليمين، المكان الذي كان الباباوات يقيمون فيه في القرون الوسطى. هل ترى هذه الرموز كلّها المنحوتة في البرج؟ إنها محفورة في الضوء في واقع الأمر. هل ترى هذه الطيور كلّها؟ إنها الحروف الهيروغليفية المصرية، اعتقد أنّ أبالك يستطيع قراءتها - على الأقلّ كان يستطيع قراءتها قبل أن يبدأ بهدر وقته في السياسة. لم

(*) الترابيون Trappists: معروفون رسمياً بجماعة السيسترسيين للالتزام الصارم، وهم جماعة دينية كاثوليكية من الرهبان المعتزلين. [م]

(**) البندكتيون: أعضاء في نظام كاثوليكي رهباني من أتباع القديس بنديكت. [م]

(***) كرتوزيان: نظام رهبانيّ لاتيني مغلق تأسّس على يد القديس برونو فان كولن. [م]

تأخذ هذه المهارة عن شخص غريب يا كوكو. أراد الإمبراطور أغسطس إحضار هذا الهيكل العملاق إلى روما، لكنّ نذير شؤم منعه من إحضاره. أما الإمبراطور قسطنطين فلم يُعِره أيّ اهتمام بعد ثلاثئة سنة؛ كان الرجل الذي أدخل المسيحية إلى روما. انظر، الشارع غير معبد تقريباً. هذه الصورة مرسومة في القرن الثامن عشر؛ إنه في الوقت الحاضر مزدحمٌ للغاية، بمئات الدراجات البخارية والسيارات ذات الأبواق الصاخبة. في ذلك المبنى في الخلف يقوم ما كان في الماضي المصلّى الخاصّ بالباباوات، سانكتا سانكتورم، وأيضاً سكالا سانتا، الدرج المقدّس من قصر بيلاطس في القدس، الذي سار عليه يسوع المسيح. هذا ما يدّعونهُ على الأقلّ. لا تزال هناك بقعٌ من دمه على الدرجات. لذلك لا يُسمح لك بالصعود عليها إلا حبواً على ركبتيك».

سألته إلزبيث وهي ترفع عينيها عن مجلّتها: «ما هذا الذي تقوله للولد المسكين؟ تبدو وكأنك فقدت صوابك».

- الإنسان لا يكون صغيراً أبداً على التعلّم.

عندئذٍ غادر كويتن. ذهب عبر باب بجانب السّلم إلى سلسلة الأقبية، الممتدة على جانبي ممرّ طويل تحت القلعة بأكملها. هناك ساد فجأة صمتٌ أعمق مما كان سائداً في الطابق العلوي - ربما بسبب صدى القطرات التي تسقط في بركة مياه في مكان بعيد، على فترات متباعدة. يكاد الممرّ ذو الرائحة العطنة يكون شامل العتمة؛ يكاد لا ينفذ أيّ ضوء إلى هذه المقصورات عبر النوافذ الصغيرة العالية، شبه السوداء من الأوساخ. بعضها لا يزال نصف ممتلئ بالفحم الذي لم يعد يُستخدم، ومُلئ بعضها الآخر بمئات من زجاجات فارغة، وقطع أثاث، وأدوات بستنة قديمة، وعربات أطفال مكسورة، ودراجات هوائية دون عجلات. حُجِرَ غسيل، حُجِرَ شطف، مخازن، حُجِرَ مؤونة، ممتلئة كلّها بأوساخ عشرات السنين؛ المطبخ الكبير، الذي كان يعجّ بالخدم على مدى قرون، الذين كانوا يجرجرون أنفسهم مستنزفي القوى على السّلم الخلفي الصاعد إلى العلّية في وقت متأخر من المساء، مهجوراً في الظلام العميق، يحتوي على ألواح مجلى متصدّعة، وأنابيب شبكة مياه مفكوكة، وبلاط مكسور. ومصعد نقل الأغذية إلى صالة الطعام، التي صارت الآن غرفة جلوس السيّد سيير، ساقطٌ بحباله المقطوعة في قاع بئرهِ.

حبا كويتن إلى داخل المصعد، لفّ يديه حول ركبتيه، وأخذ يحدّق في الظلام.

38. القبر

قبل بضعة أسابيع من عيد ميلاد كويتن الثالث، الذي صادف عيد العنصرة في عام 1971، جاءت لحظة شعر فيها أونو بالاعتزاز. نزولاً عند طلب هيلخا المُلح وجد متسعاً من الوقت للذهاب إلى دريته مرة أخرى - بالسيارة الرسمية، وإن كان هذا غير لائق تماماً؛ ذهب لأخذ هيلخا من البيت. لم تكن هناك نية لأن يسكن أحدهما مع الآخر تحت سقف واحد؛ لم يكن أيُّ منهما يريد ذلك. لقد استأنف زيارته إلى منزل «وحيد القرن»، ولكن هذه المرة من دون أكياس بلاستيكية ملأى بالغسيل.

يُخَيَّل إليه في بعض الأحيان أنّ الفترة التي عاشها مع آدا آتيةً من رواية قرأها ذات مرة، كان كويتن أيضاً شخصية فيها. صارت ذروة صداقته مع ماكس أيضاً تنتمي إلى سنوات الستينيات الغابرة، وتُرى هي الأخرى في ضوء الذاكرة الكئيب. بدأ يظهر له بطنٌ ويرتدي بدلة داكنة الزرقة، ولكن بقشرة الرأس متناثرة على ياقته، وحاشية قميصه ظاهرة من بنطاله على العموم، ما يجعل جزءاً من بطنه الأبيض ظاهراً للعيان، وربطة عنقٍ غير مناسبة للبدلة على الدوام وجوربين قصيرين للغاية - تلك الكوارث كلّها التي كان ماكس يسمّيها «انعدام الذوق الديمقراطي الاشتراكي». كانا في ذلك الوقت يناهزان الأربعين، لكنهما لم يعودا يحتفلان بإخصابهما المتزامن في يوم حريق الرايخستاغ، فقد صار ذلك اليوم حادث آدا وموت والدها أيضاً. أحياناً ترافقه هيلخا إلى حفلات الاستقبال الرسمية أو مآدب العشاء، وإن كانت على العموم لا تشعر برغبة في حضورها، ما يجعله يتدمّر في أول الأمر؛ لكنّها تفعل ذلك من أجل خاطره فقط، الأمر الذي يبرهن على أنها لا تهتمّ بالتألق المريب المحيط بمنصبه، بل تهتمّ به.

كانت والدته صوفيا أيضاً حاضرة في خروت ريخترن. ألقى أونو التحية على كويتن

بوضع يده على قمة رأسه، ورفع عينيه إلى السماء وقول: «الابن الحكيم يسرُّ أباه»^(٥). لأنه لم يكن يفكر في كويتن في الواقع إن لم يكن هناك ما يستدعي ذلك، لم يعد يعرف جيداً أي نبرة يجب عليه استخدامها معه. أثناء تناول الغداء في المطبخ -بيض مقلي بدهن الخنزير، حليب، فاكهة، كل شيء من المزارع- جلس ماكس باعتباره رب الأسرة إلى النهاية الأخرى من الطاولة قبالة صوفيا؛ إلى يمينه جلست السيِّدة هاكن المسنَّة وأونو، وإلى يساره هيلخا مع كويتن. دُعي السائق أيضاً، لكنَّه فضَّل البقاء في الفناء الأمامي وأن يأكل هناك الشطائر التي جلبها معه من البيت.

قال أونو: «ديمقراطي مسيحي يعرف مكانه. آليات القمع الحقيقية ليست خارج الإنسان بل في داخله، وهذا أمرٌ حسنٌ أيضاً. لقد اختفى الكثير من هذه الآليات في الآونة الأخيرة؛ هذا سيعود علينا بعواقب وخيمة».

قال ماكس: «يا للعجب! لغة صارمة من سياسيٍّ تقدِّميٍّ».

- الانضباط الخارجي من دون انضباط داخلي شيء غير ممكن، ليس بوسع الشرطة أن تحلَّ محلَّه - لأنك ستحتاج إلى رجلين من الشرطة لكلِّ شخص: واحد أثناء النهار وواحد أثناء الليل. ولكن من الذي سيحرس الشرطة في هذه الحالة؟ فسأل ماكس ضاحكاً: «ما رأيك في أن يحرسها الإله؟!». ثم سأل هيلخا: «هل يصبح صديقك رجعيّاً فعلاً؟».

قبل أن تتمكَّن من الإجابة قال أونو: «إنها حالة ميثوسٌ منها أكثر مما تظنُّون. ولكن رجاء دعونا لا نتحدَّث في هذا، لأنني سأفضِّل أن أذهب من هنا». سمع ماكس نبرةً في صوته لم يكن يعرفها من قبل. سألت السيِّدة هاكن: «هل ستذهب؟ لقد وصلت للتو!». - لا يا جدِّتي. سأبقى قليلاً.

استفسرت هيلخا عن عمل ماكس. علم أنها تسأل من باب المجاملة، فقد كانت العلاقة المتشنَّجة نفسها ما تزال تربطه بها، فهي طبعاً لن تغفر له أبداً الدور الذي لعبه في حياتها - أولاً عندما تسبَّب في قطع علاقتها بأونو دون دراية منه، وثانياً عندما تسبَّب في إصلاحها، أيضاً

(٥) الكتاب المقدس، سفر الأمثال 20:15. [م]

دون دراية منه. عندما سمع لأول مرة أنّ أحدهما عاد إلى الآخر، بفضل الهبوط على سطح القمر، انتابه شعورٌ برهةٍ قصيرة بأن شيئاً لم يتغيّر منذ ذلك الوقت؛ لكنّه لم يحتجّ سوى إلى النظر إلى كوينتن وصوفيا حتى يرى أنّ الوضع قد تغيّر.

قال إنّ فيستربورك تعمل على نحو أفضل من المتوقع؛ كلّ زملائه من أنحاء العالم كافّة يحسدونه على البحث الذي يستطيع إنجازه. قال ردّاً على سؤال من أونو إنّ آخر عائلة من عائلات الأمبوينين قد غادرت من هناك، بعد عمليات إخلاء قسرية وصدّامات عنيفة من شتّى الأصناف مع الشرطة؛ لم يعد أيّ شيء تقريباً يُذكر بالحيّ السكني سخاتنبيرخ، ولا بمعسكر العبور فيستربورك. للحيلولة دون عودتهم -أي عودة المولوكان- هُدمت البرّكات جميعها؛ لم يعد الحاجز موجوداً أيضاً، رغم إرادته على كلّ حال، لكنّ هذا ما كان يريده الناجون، فماذا كان بوسعه أن يفعل؟ لقد أزيلت حتى السكّة الحديدية، لم يبقَ منها سوى واقعي صدّامات متفسّخ. لكنّه ابتكر شيئاً من أجل مناسبة «إحياء ذكرى الموتى»^(*) الماضية، في مساء الرابع من أيار؛ سيجذب بضع مئات من الزوّار على الدوام. كلّ أحدٌ بصنع برنامج كمبيوتر صغير، يجعل المرايا الاثنتي عشرة كلّها تنحني بحزنٍ إلى الأرض، إلى أن يكتمل الانحناء في الثانية التي تدقّ الساعة الثامنة فيها؛ تبقى في هذه الوضعية خلال دقيقتي الصمت ثم تستقيم من جديد متّجهة إلى السماء.

قال: «الإنسان يفعل ما يستطيع فعله».

ونكس عينيه لحظة: «لم يبقَ سوى فيلاً قائد المعسكر الألماني السابق. غريب، أليس كذلك؟ لا تزال أرملة القائد العسكري من فترة ما بعد الحرب تسكن فيها. هل تريدون سماع حكاية ظريفة؟ قبل بضعة أسابيع انقطع التيار الكهربائي بصورة مفاجئة، فحوّلنا إلى مولّد الطوارئ على الفور؛ بعد برهةٍ قصيرة رأيناها تهرول إلى المحطّة، وفي يديها علبةٌ مغلّفة بغلاف بلاستيكي: سألت عمّا إذا كان بإمكانها وضعها في الثلاجة عندنا في فترة انقطاع التيار. تبين أنها وجبة العشاء الخاصة بزوجها، شريحة من لحم العجل وبطاطا مقليّة وبازلاء، لقد أعدّتها له قبل ما يزيد عن عشرين سنة، لكنّه لم يتمكّن من تناولها، بسبب موته المفاجئ إثر نوبة قلبية».

(*) في الساعة الثامنة من مساء الرابع من أيار في كلّ سنة يقف الهولنديون دقيقتي صمت حداداً على أرواح الذين قضوا في الحرب العالمية الثانية، قبل الاحتفال بالتحرّر من الاحتلال الألماني في الخامس من أيار. [م]

هتف أونو بهيلخا وهو يهزّ سكينه فوق رأسه: «صحيح! هذا هو الحب! خذها قدوة لك!».

كان كويتن جالساً على ركبتيه في كرسيه وينظر إلى أبيه بضم مفتوح، وكأنه ينظر إلى ألعاب نارية. عندما رأى أونو التعبير المرتسم على وجهه قال: «نعم يا بني، شيء يجعلك عاجزاً عن الكلام. حتى إذا لم يعد الحب يمرّ من المعدة، فإنه لا يزال يتتصر على الموت! هيا، قل شيئاً أيها الأبكم! عندما كنتُ في عمرك، كنت أقرأ تاسيتس^(*)».

قالت صوفيا معاتبة: «أونو.. إنه يفهم أكثر مما تظن».

بينما بقيت هيلخا مع كويتن، ذهبوا لزيارة آدا بعد الغداء - جلس أونو إلى جانب السائق، باعتباره أضخم واحد فيهم، وجلس ماكس محشوراً بين صوفيا والدتها في المقعد الخلفي، بذراعين متصلبتين على شكل X. في الطريق سألت السيدة هاكن متى سيخبرون كويتن بما حدث لوالدته.

أجاب أونو في الحال، دون أن يدير رأسه: «ربما لن نخبره إطلاقاً».

ثم التفت مع ذلك وقال لصوفيا: «لا تؤاخذيني!».

- لا أوأخذك. لا تقلق، سوف يتكلم فجأة، إنني موقنة من هذا!

ثم لوالدتها: «طبعاً لن نتركه يعيش لحظة واحدة في الوهم بأنني أمه وماكس أبوه. يجب أن يعرف هذه الحقيقة على الفور. أليس كذلك؟!».

قال ماكس: «طبعاً».

ورأى بوضوح الشعرات الشائبة الظاهرة هنا وهناك في تسريحتها. كان يجلس بالقرب منها أكثر من أيّ وقت في النهار، أما في الليل فيسود الظلام: «تصوّري ألا نقول له!».

سألته السيدة هاكن: «ومتى تريدان أن تُريه آدا لأول مرة؟».

- أونو هو الذي يجب أن يحدّد.

فقال أونو: «لا، أنت يجب أن تحدّدي. أنت تعرفينه أفضل مني. هذا يتوقّف على أيّ نوع من الصبيان سيصير إليه، لأنها ستكون صدمة مروّعة بطبيعة الحال. عندما يبلغ السادسة العاشرة؟ ما رأيك يا ماكس؟!».

(*) Tacitus: كان مؤرخاً ورئيس قضاة وكاتباً وخطيباً في عصر الإمبراطورية الرومانية. [م]

- أظن أننا سنعرف بدقة عندما تحين تلك اللحظة.

- لعلك على حق.

سألت صوفيا: «بهذا الخصوص، هل تعرف من بقي يزورها بضع مرّات في السنة؟ مارايكا وبرونو. إنهما متزوّجان».

لم يعد أحدٌ يتفوّه بشيء. شعر كلّ منهم بأنّ الفكرة نفسها تراود الآخرين: هل ستعيش لسنوات قادمة؟ هل يجب أن تستمرّ في العيش لسنوات قادمة؟ وإذا ماتت فجأة - هل يجب ألا يكون كويتن قد رآها البتّة، حتى وإن كانت تتنفس فقط؟

تقع دار الرعاية -التي سمّاها الموظفون الساخرون في دائرة الصحة «روضة السعادة»- في مبنى جديد في شارع جديد على أطراف مدينة إمن. كانت مبنية على اللاتراز الحديث نفسه، مثل القاعة التي أنزل فيها أوسالد برونس إلى النار، بجدران داخلية من حجر الآجر شبيهة بالجدران الخارجية، ما يجعل الشخص يرغب بصورة دائمة في الذهاب إلى الداخل، رغم وجوده في الداخل.

قال ماكس: «حتى المهندسون المعماريون يتركون الناس يموتون من البرد هذه الأيام». وافقه أونو في الرأي: «إنها حالة ميثوسٌ منها. المهندسون المعماريون مجرمو سلام. لقد اقترب آخر الزمان».

كانت آدا راقدة في غرفة صغيرة في الطابق الثاني، تطلّ على فناء داخليّ مبلّط. تجمّعوا حول السرير بصمت؛ سُحب كرسي للسيدة هاكن التي اغرورقت عيناها بالدموع. ناجى ماكس نفسه: ها هم أولاء هنا، جدّة كويتن الكبرى، جدّته، والدته، ووالده أيضاً على كلّ حال. لقد تغيّرت آدا من جديد، ولكن يصعب القول ما الذي تغيّر في الواقع. الأمر مثل كتاب جديد اشترته ذات يوم ووضعت في خزانة الكتب دون قراءته: عندما تخرجه لأول مرّة بعد بضع سنوات، لا يكون جديداً، حتى وإن لم يتغيّر شيءٌ ملموس فيه، فهو لم يتجدّد، لم يسر مع الزمن؛ - ها هي ذي راقدة هنا، رأسها مُدار إلى جانب على الوسادة، ولا تعرف حتى أنّ لها ابناً بعينين زرقاوين زرقة غير دنيوية، فضلاً عن أن تعرف أنّ الروس قد احتلّوا براغ، وأنّ الأميركيين يدمرون كمبوديا أيضاً، وأنّ زوجها عضو مجلس بلدية أمستردام في الوقت الراهن. ناجى أونو نفسه: حتى القطّة تعرف أكثر منها؛ لعلّها لا تزال تملك وعي فأر، ولكن ألا يجوز لك أن ترشّ سمّاً أو تنصب فخّاً لفأر؟ ارتعب من نفسه وألقى نظرة مذنبّة على

صوفيا، التي كانت قد أخذت يد آدا في يدها وتنظر إلى ابتها بتعبير عصبي على السبر في عينيها الدكناوين.

*

عندما عادوا إلى خروت ريخترن، شربوا الشاي في الغرفة الأمامية، ولكن لم تبدأ محادثة حقيقية. أخذ السائق يقرأ الجريدة في المطبخ، ذهبت السيّد هاكل لأخذ قيلولة على سرير ابتها، وأطلعت صوفيا هيلخا على الصور. بينما يُجري أونو بضع مكالمات هاتفية على مكتب ماكس، أخذ ماكس ينظر بذراعين متصلبتين إلى نقطة معيّنة في خزانة الكتب ويفكر في خطط تنصيب مرآتين متحرّكتين آخرين، ثلاثة عشرة ورابعة عشرة، في فيستربورك، الأمر الذي من شأنه تحسين قدرة التلسكوب التحليلية بعامل اثنين؛ ولكن السلطة السياسية في لاهاي ترى أنّ المرصد الراديوي قد كلّف ما يكفي من المال. كانت النوافذ مفتوحة وتتناهى موسيقا من جهة مستودعات الحناطير تبدو أنها لفرقة «رولينغ ستونز»؛ تُسمع بين حين وآخر قرعقة مكتومة، عندما تسير سيارة على الألواح المتخلخلة في الجسر القائم على الخندق الخارجي. التفت أونو إليه وقال إنّ السياسة تتكوّن من المكالمات الهاتفية؛ تتساءل كيف كان يوليوس قيصر يتدبّر الأمر. جلس في المقعد الأخضر ذي الذراعين، وأخذ مجلة عن الفيزياء الفلكية من فوق الطاولة وقد استغرق في أفكاره.

في البعد انبعث هديرٌ خفيف عن قطار يسير على تقاطع السكة مع الطريق الذي لا حراسة فيه. بعد وقت قصير من ذلك رأى ماكس كويتن راقداً على بطنه عند قدمي أونو، بنصف جسده على الحذاء ذي الرباط الرث الذي لا يزال يفتقر إلى التلميع. كان ذلك استثنائياً للغاية، فهو لم يفعل مثل هذا الشيء الحميمي معه على الإطلاق؛ لم يكن كويتن يريد التقرب منه. هذا المشهد بثّ الطمأنينة في نفسه. كان خوفه من أبوته قد تلاشى مع مرور السنوات، شأنه شأن البقعة الصلعاء في مؤخرة رأسه؛ لكنّه على النقيض من تلك البقعة، لم يخف بصورة نهائية - مثل حال شخص متعافٍ من سرطان أو نوبة قلبية لا يشعر بالأمان مئة بالمئة ولا ينسى أبداً أنه كان في قبضة المرض، حتى وإن لم يفكر فيه على مدى شهور طويلة في بعض الأحيان: سيبقى وحشٌ يتربّص به من مكانٍ ما في كهف مظلم بقية حياته. كان يعلم أنه - ما دامت آدا على قيد الحياة - ربما يستطيع تحديد الأبوة عن طريق تحليل الدم: إذا تبين امتلاك كويتن لعوامل وراثية معيّنة يفتقدها هو وآدا على حدّ سواء، فسيكون أونو هو الأب؛ وإذا

ما افتقدها أونو، فسيكون هو نفسه الأب. يستطيع تحليل دمه بسهولة ويمكنه بعد قليل من التشاور الحصول على عينة من دم آدا وكويتن أيضاً، ولكن كيف له أن يحصل على عينة من دم أونو؟ ولكن مع ذلك ليس من المستبعد مئة بالمئة ألا تكون هناك عوامل مفقودة في دمه، وفي دم أونو أيضاً. حتى إن هذا لن يثير دهشته. لعل الأمر سيختلف في المستقبل، ولكن التحليل في الوقت الحاضر لا يزال غير قادر على إعطاء النتيجة المؤكدة في كل الحالات.

كان كويتن يحاول عبثاً فتح غطاء علبة معدنية، يخشخش شيء فيها. لم يلاحظ أونو ما يحدث عند قدميه؛ كان يتصفح المجلة الاختصاصية وقد رفع حاجبيه بارتباب، وكأنها إحدى منشورات الجمعية الشيوصوفية^(٥). فقط عندما شعر بدفع كويتن ينفذ عبر جلد حذائه، وضعها جانباً وانحنى إلى الأمام: «ألا تستطيع فتحها؟! اتركه في داخلها! إنه أجمل بكثير عندما لا تعرف أي شيء هو. ما رأيك أن نذهب نحن الاثنين للتزّه؟!».

فسأله ماكس: «هل أنت واثق من هذا؟ ستوغل في الطبيعة في هذه الحالة».

- سأجعل الطبيعة ترتعب أفضع ارتعاب.

عندما أخذوا يسيران يداً في يد صوب الباب، قالت هيلخا: «اعتنِ بأبيك جيداً يا كويتن!». في الفناء الأمامي تردّد أونو في أي اتجاه يذهب. رأى عندئذٍ فحسب شجيرات الرندرة المزدهرة بالقرب من مستودعات الحناطير: انفجارات بنفسجية ضخمة تنوء بثقلها على الماء ويسبح البطّ من تحتها، مثلما يخرج المؤمنون من كاتدرائية. أخذ كويتن القرار. سحبته اليد الدافئة عبر الجسر وعلى الدرب الموازي للخنديق المائي؛ سارا في ظلّ شجرة البلوط البنية المهيبة واجتازا الطرف الجانبي للقلعة. بدا واضحاً أنّ الحجارة المسطّحة المتأثرة بالعوامل الجوية في الجزء السفلي من البناء، المرتفع من الماء الداكن بشيء من الميل، منحدرّة من القرون الوسطى.

أدرك أونو بخجل أنها المرة الأولى التي يختلي فيها بكويتن. إنه أبّ منحلّ من التزاماته؛ ألقي كلّ شيء على عاتق ماكس وكأنه أمرٌ بديهيّ - وعلى أيّ أساس؟ ذكرته اليد الصغيرة في يده بيده في يد أبيه الكبيرة، عندما سار معه على الرصيف البحري في سخيفينينغن. انحنى أحدهما بجانب الآخر فوق الحاجز وأخذوا ينظران إلى الشباك المستطيلة الكبيرة، التي كانت تُرفع من بين الأمواج في صرير وهسيس، وتفرفر فيها عشر سمكات أو عشرون سمكة بريئة.

(٥) الشيوصوفية: مصطلح ديني فلسفي، يعني الحكمة الإلهية. [م]

حينذاك كان شعره لا يزال طويلاً معقوصاً ويرتدي الفساتين الوردية التي ترغب والدته في رؤيته بها. صعقته هذه الذكرى: هل كويتن هو الكائن الذي كانت والدته تبحث عنه في شخصه وحققته بعد ذلك من خلاله؟ توقف عن السير برهة قصيرة ونظر إليه. أجل، إن كنت لا تعرفه، يمكنك أن تظنه فتاة، حتى من دون فستان وشعر طويل معقوص.

قال وهما يسيران من جانب الأشجار اليابعة صوب غابة الصنوبر: «تعلم من والدك الحكيم العجوز، يا كويتن، أن الجديد هو القديم أيضاً على الدوام. كل ما هو قديم كان جديداً ذات يوم، وكل ما هو جديد سيصبح قديماً ذات يوم. الحاضر هو الأقدم على الإطلاق، لأنه لم يكن هناك أي شيء آخر سوى الحاضر. لم يعيش أحد في الماضي قط، ولا أحد يعيش في المستقبل أيضاً. ها نحن أولاً نمشي هنا، وأنا وأنت، ولكن في إحدى المرات مشيت مع أبي بهذه الطريقة على الرصيف البحري في سخيڤينينغن، الذي نسفه الألمان في الحرب. أخبرني حينذاك عن صيد الأسماك العجيب، وأن ربّ الأرباب سمى الرسل بـ«صيّادي البشر». بالنسبة إليّ، كان ذلك في الماضي البعيد بما لا يمكن وصفه، خمسة وثلاثين عاماً، ولكن بالنسبة إلى والدك بالتبني تعني خمسة وثلاثون عاماً يوم أمس. كل شيء يعني له يوم أمس على الدوام. والحرب لا تعني له حتى يوم أمس، بل هذا الصباح، قبل قليل، للتوّ. على ذكر الحديث عنه، لا أظنك تكنّ له الكثير من الودّة، أم أنني مخطئ؟ قل لي بصدق، أعتقد أنك تفهمني حقّ الفهم، حتى وإن كنت لا تعي كلمة واحدة. صحيح أم لا؟! هل تضحك علينا جميعاً؟ هل تعي كل شيء ولا ترغب ببساطة في الكلام؟ هل تنهض من سريرك في الليل وتقرأ الكوميديا الإلهية في الخفاء؟ نعم، أظنّ أنّ هذا هو حالك. أنت مستاء طبعاً من ترجمتها الفاسدة التي يملكها ماكس في مكتبته، ولا تستطيع العثور على أي شيء لڤيرجيل. أليس كذلك؟ هيا اعترف!».

لم يجب كويتن، لكن بدا أنه يعرف على وجه الدقة إلى أين يريد الذهاب. أثناء السير، أخذت جذوع الأشجار في الغابة الصنوبرية، المزروعة بحساب صارم، تنتج أفانين هندسية ذات خطوط مائلة وعمودية تدور وتقفز إلى أن انسابت في حديقة برّية، انتشرت في أرجائها أشجار عارية من أوراقها مقتلعة من جذورها، طرحتها أرضاً عواصف مختلفة في اتجاهات مختلفة. في المكان الذي تخفّ فيه الغابة قليلاً، ظهر جداراً آخر من شجيرات الرندرة المزدهرة بغزارة. ترك كويتن يده ودخل بينها وكأنه لا يواجه أي مقاومة للتغلّب عليها، بينما

اضطرّ أونو لشقّ طريقه عبر الشجيرات الشائكة، التي تفوقه في الطول، وقد وضع يديه أمام وجهه. صاح: «إلى أين تأخذني بحق السماء؟! هذا ليس مخصّصاً للناس يا كويتن! الإنسان يجب أن يمشي على الرصيف!».

لكنّه عندما تمكّن من اجتيازها، أحسّ حتى هو بالمكان الشبيه بقصص الخيال. وقفاً على حافة بركة مياه مزاجية التشكّل كبيرة الحجم، مطوّقة بجبال من الزهر البنفسجي؛ انزلقت البجعتان السوداوان بين زنابق الماء في صمّتٍ شامل. كان برج القلعة يلوح في البُعد بين الأشجار، والبحيرة الصغيرة تبدو متصلة بالخندق المائي، لكنّها مكانٌ في غاية الرقيّ بالنسبة إلى البطّ. كذلك دجاجات الماء السوداء العدوانية، بالخطّ الأبيض الخبيث في رأسها، تشعر على الأرجح بأنّها هنا ليست في مكانها الصحيح.

ولكنّ الغاية المنشودة لم تُبلغ بعد. بدأ كويتن يسير بمحاذاة الماء تحت الأغصان. سار أونو في أعقابهِ إلى الطرف الآخر وهو يتشكّى، يتشبّث بالأغصان، ينفخ من وجهه ورق الزهر، انزلق مرّةً واحدة والتقط فردة حذاء مبلّلة وهو يلعن. عندما اجتاز الجدار الثاني من الأزهار، وقف على حافة مساحة مفتوحة، غطّتها نباتات القراص غامقة الخضرة التي تصل إلى خاصرته. قال: «لا، ليس من هناك!». لكنّ كويتن أخذه إلى دربٍ متعرّج ضيق، يتكوّن من نباتات قراص سحقها الأقدام، لكنّها انتصبت من جديد في أماكن كثيرة. ولأنّه هو نفسه أصغر من الفرخ الشيطاني، ترك أونو يتقدّمه في المسير. وضع الأخير ساقه بنطاله في جوربيه وهو يطلق تنهيدة، التقط غصناً من الأرض، وسار على الدرب بحذاءٍ متشرّب بالماء، يضرب بغضب وكراهية حقيقة كلّ قَراض يمكنه التفكير في تهديدهما. صاح: «ما الذي تفعله بي؟! ليتني لم أتزوَّج قطّ!».

بعد ثلاثين متراً أو أربعين وقفاً بصورة مفاجئة أمام شاهدة قبر مربّعة الشكل، عند قدم عمودٍ صغير مخروطيّ الرأس. قال أونو في استغرابٍ شديد: «ما هذا؟!».

جلس القرفصاء، فصار وجهه المخدوش في مستوى وجه كويتن. مرّ بسبّابه على الحروف المنحوتة في الحجر: «ديب ثوت سان ستار»^(٥). نظر إلى كويتن: «هل أقول لك شيئاً؟ إنه حصانٌ مدفون هنا. هكذا تُسمّى خيول السباق». ونهض واقفاً: «من ذا الذي يدفن حصاناً؟! الخيول تذهب إلى مسلخ الخيول، أليس كذلك؟».

(٥) بالإنكليزية في الأصل: Deep Thought Sunstar. [م]

عندئذٍ حدث الشيء، الذي جعله، بعد أن عجز عن الكلام لحظة قصيرة، يأخذ كويتن بين ذراعيه ويهرول بشعور المتصرّبين نباتات القراص والأزهار، ومن جانب رقص الجذوع الهندسي، عائداً إلى القلعة: مدّ كويتن إصبعه نحو العمود الصغير، مال إلى الخلف بعض الشيء، وقال بضحكة: «مسلة!».

39. رحلات استكشافية أخرى

مثلما ينزلق ضوء المنارة على الجهات الأربع في مدينة نوردفايك، هكذا كانت الفصول الأربعة تمرُّ على خروت ريخترن في هَبَات كبيرة كلَّ سنة. الحقُّ أنَّ ماكس لم يعرف تغيّر الفصول إلّا من أمستردام: في يوم من أيام شباط أو آذار، رائحة الربيع الأولى العصيّة على الوصف، عندما يخرج إلى الشارع في الصباح، العصيّة على التحديد مثل الكسور العشرية لـ «π»، الصيف المغبرّ الذي تمتلئ المدينة فيه بالسائحين، الذي يتحوّل بالقدر نفسه من الفجائية إلى خريفٍ مريرٍ رطب، ثم الشتاء الباهت الذي تبدو فيه حجارة الشوارع والجدران وكأنها تعبرُ بصورة مفاجئة عن طبيعة العالم المنيع - ولكن كلَّ هذا بشكل عابر في الواقع، لا يلاحظه سوى في فواصل قصيرة يتنقّل فيها من داخل مكان إلى داخل مكان آخر. إذا كانت الطبيعة في المدينة موسيقاً خلفية هادئة، فإنه في القلعة يجلس وسط قاعة حفلات موسيقية صاخبة مع كويتن وصوفيا. يحلّ الربيع والخريف باستعراض هائل، الصيف أشدَّ حرارة وجفافاً، الشتاء أكثر برودة وبياضاً. هذا التغيّر المتواصل، هكذا قال أونو في إحدى المرّات، يشكّل مصدر الإبداع كلّهُ بطبيعة الحال؛ الشكل الواحد الرتيب للطبيعة في المناطق المدارية يؤدّي إلى الركود الثقافي أيضاً، المناطق الاستوائية هي حَمَام بخارٍ متواصل، خضراء على الدوام، مثلما تكون المناطق القطبية بيضاء على الدوام. أما خطوط العرض المعتدلة بأشكالها الأربعة فهي حَمَامات بمياه ساخنة وباردة، تُبقي الإنسان في يقظة دائمة. هذا هو الحال في المدينة أيضاً بطبيعة الحال، لكنّ هذا لم يصبح واضحاً بالنسبة إليه إلا وهو في الريف. ما جعل أونو يعقّب بأنه قد يكون واضحاً أكثر من اللازم، لأنّ الأشكال الأربعة المتكرّرة كلَّ سنة تكتسب هي أيضاً شيئاً من الرتابة، لذلك فإنّ الإبداعات الحقيقية تحدث في المدينة على الدوام. رأى على أونو أنه يمنع نفسه عن الاستفسار عمّا إذا كان إبداعه قد ازداد في الريف؛ ولكن على الرغم من أنه ليس هناك ما يتشكّى منه في عمله، فلم يُثر الموضوع من تلقاء نفسه.

في دريته لم يكن الظلام وحده أشدّ حلكتاً، الصمت أكثر صمتاً، العاصفة أشدّ قوّة وقوس قزح أشدّ سطوعاً من أمستردام، بل حتى المطر مختلف. عندما يكون من المقرّر أن يتنزّه مع كويتن في الغابة، لا يخطر في بال ماكس الانتظار حتى يتوقّف المطر عن الهطول، فضلاً عن أخذ مظلة معه. يلبس ثلاثهم أحذيتهم المطّاطية عالية الساق خضراء اللون، يرتدون معاطفهم المشمّعة، يسحبون القبعات على رؤوسهم ويخوضون في الوحل، بينما تدوي طلقات البارون وأصدقائه في البعد. في إحدى المرّات، عندما توقّف المطر وكان لا يزال يقطر من أوراق الشجر في كلّ الأرجاء، قال ماكس: «إذا توقفت السماء عن المطر، بدأت الأشجار تمطر».

قال كويتن: «إنها تبكي».

فقالت صوفيا: «هذا يعني أنك لست شجرة على كلّ حال».

لوّح كويتن بذراعيه، قفز بقدميه اللتين في وسط بركة ماء وهتف: «أنا المطر!».

عندما سمع أونو من ماكس هذا الإعلان في ظهيرة يوم سبت في أمستردام، في حديقة الحيوانات أرتيس، في قسم الزواحف -بينما ينظر كويتن إلى ثعبان لا حراك فيه، ملتف على نفسه مثل حبل على رصيف مرصاة- قال إنّ هذا قد يسبّب له مشكلات في المدرسة. يتبيّن من كلّ شيء أنه من دون شك يفوق الكادر التعليمي في الذكاء حتى في هذا العمر، مثلما كان واضحاً عليه هو نفسه وضوح الشمس في الماضي.

منذ أن شارك كويتن كلمته الأولى مع أونو، مصحوبةً بضحكته الأولى، بدا فعلاً أنه كان يستطيع الكلام قبل ذلك الوقت بكثير، لكنّه لم يكن يرى أيّ سببٍ لفعل ذلك. بعد ستّة شهور لم يعد هناك أيّ شك في وجود تخلف، بل بدا متقدّماً على عمره من الناحية النحوية؛ عندما يتكلّم عن نفسه، لا يقول كويتن أو كوكو، بل يقول «أنا». يسمّي أونو «بابا»، وصوفيا «جدّتي» أو «جدّتي صوفيا» حين تستدعي الحاجة لتمييزها عن «جدّته تو»، ويسمّي ماكس «ماكس». لكنّه بقي صامتاً أكثر من الأطفال الآخرين. ثرثرة الأطفال العامة، الأوامر الاستبدادية، التذمّر عمّا يريدون الحصول عليه، الهذر عمّا فعلوه للتوّ أو عمّا يريدون فعله: لا شيء من هذا كلّّه. لم يكن في حاجة إلى رفاق اللعب أيضاً؛ لا تسعده صوفيا حقّاً عندما تصطحبه إلى ملعب الأطفال أو المسبح. قبل النوم يروق له سماع حكاية من الحكايات الخيالية، وإلى ذلك يكتفي بالقلعة وبما يمكن أن يعيشه فيها؛ منذ أن طاب له التكلّم، صار موضع ترحيب

حتى عند السيد سبير. لم يكن يشعر بالضجر إطلاقاً. يجلس ساعات طويلة في غرفة البرج الخاصة به ويشاهد الصور - ليست الصور في كتب الأطفال، هذا يجب أن يكون مفهوماً، بل الرسوم التوضيحية على وجه الخصوص في كتاب سمح له السيد ثيمات بأخذه معه إلى الطابق العلوي، «العمارة والمنظور» لجوزيبي بيسيينا. أخبره ثيمات، وكأن كويتن يعرف ما هو «القرن الثامن عشر» وما هو «بلاط فيينا»، بأن ذلك الكتاب قد أعد في بلاط فيينا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. لقد بهرته على وجه الخصوص النقوش في ديكورات المسرح المتخيلة: الباروك الفاخر، المساحات ذات المنظور الفائق التي تقوم فيها صفوف أعمدة، سلالم، أعمدة من تماثيل العذارى، كل شيء حافلٌ بالزخارف. يود أن يمشي فيها.

عندما كان في الرابعة من العمر، أرادت صوفيا إرساله إلى روضة الأطفال في فيستربورك: هذا سيساعده في تنمية شخصيته، فقد رأت أنه يصبح انطوائياً للغاية بهذه الطريقة. لم يكن أونو ولا ماكس قد ذهبا إلى مثل هذه المؤسسة - لم تكن عادةً دارجة بعد في الثلاثينيات - ولم يشعر بحماس كبير لهذه الفكرة؛ لكن صوفيا ركبت رأسها. في طريقه إلى المرصد أوصله ماكس إلى الروضة في اليوم الأول، وفي ذلك الصباح نفسه ضرب أحد الأطفال كويتن على رأسه بكوبٍ من الفخار. لم يبك على إثره، بل نظر فقط إلى مهاجمه، بنظرة تبلغ من الدهشة في عينيه الملونتين بأزرق الأزرق أن الطفل الآخر انفجر بالبكاء. فوبخت المشرفة، التي لم تكن قد رأت شيئاً مما حدث في زاوية الدمى، كويتن لأنه فعل شيئاً للصبى بطبيعة الحال، وإلا لما بكى هذا البكاء كله. لزم كويتن الصمت. عندما ذهب ماكس لأخذه، محاطاً بالأمهات وذرياتهنّ الزاعقين، أخبرته المشرفة بما حدث حسب اعتقادها. قالت إنها طبعاً لا تريد القول إن كويتن خبيثٌ أو حقود، ولكن ربما يجب أن يبقى تحت المراقبة قليلاً. بينما يجلس كويتن في المقعد الخلفي في السيارة، أخبره كيف سارت الأمور في الواقع، وصدقه ماكس؛ في البيت اكتشفت صوفيا فوق ذلك جرحاً صغيراً تحت خصلات شعره الأسود. بعد مكالمة هاتفية مع أونو، أوصلته به السيدة سيلياكوس، قرراً إخراجه من تلك المؤسسة على الفور.

قال له ماكس: «لا داعي أن تذهب إلى الروضة. اتفقنا؟!».

أحنى كويتن رأسه علامة الموافقة. كان واقفاً بجانب مكتب ماكس، يدير البوصلة الصغيرة ببطء وينظر إلى المؤشر المتذبذب، الذي بدا أنه غير موصول بالبوصلة بل بالغرفة. قالت صوفيا: «لا تول الأمر أيّ اهتمام!».

ولكن ما كان يضايقه هو شيء آخر. ثبت عينيه عليها وقال: «الأطفال كلهم جاءت أمهاتهم لأخذهم إلى البيت».

نظر ماكس وصوفيا أحدهما إلى الآخر. لقد حان الوقت. ها قد طُرح السؤال الأساسي بصورة مفاجئة. لم يعرف ماكس سريعاَ ماذا يجب أن يقول، أما صوفيا فقد جثت على ركبتيها بجانبه، لفتت إحدى ذراعيها حوله وقالت: «أنا أم أمك يا كويتن. أمك متعبةٌ إلى درجة أنها لا تستطيع المجيء لأخذك من الروضة. إنها نائمة في بيت كبير جداً، عند أناس طيبين جداً، ولا تستطيع الاستيقاظ مرةً أخرى أبداً، إنها متعبة إلى هذا الحد. إنها لا تسمع أحداً ولا تستطيع التكلّم مع أحد».

- ولا حتّى معي؟!!

- ولا حتّى معك.

- ولا للحظة قصيرة جداً؟!!

- ولا للحظة قصيرة جداً.

- ولا حتّى للحظة قصيرة جداً جداً؟!

وعندما هزّت صوفيا رأسها، سألت: «ولا حتّى مع بابا والخالة هيلخا؟».

- ولا مع أيّ أحد، حبيبي!

أغلق الغطاء على البوصلة مستغرقاً في التفكير: «مثل الأميرة النائمة؟».

- نعم، مثل الأميرة النائمة.

فسأل وهو يرفع عينيه: «والأمير إذا؟؟!».

رأى أنّ عينيّ صوفيا قد اغرورقتا بالدموع، رأى ماكس ذلك أيضاً. لم يسبق لماكس أن رأى فيها هذه العاطفة. مسح كويتن دموع صوفيا براحة يده ولم يطرح مزيداً من الأسئلة. لكنّ ماكس ذهب إلى رفّ الموقد وجاءه بصورة آدا وأونو: «هذه ماما عندما كانت لا تزال صاحبة».

أمسك كويتن الصورة بيديه الاثنتين ونظر إلى الوجه المؤطر بالشعر الأسود: «جميلة».

فقالت صوفيا: «لذلك أنت أيضاً جميل جداً».

توقّع ماكس أن يحتفظ بالصورة، لكنّه أعادها إليه وذهب إلى غرفته. عندما بقيا وحدهما،

أراد ماكس احتضان صوفيا، ولكنّ هذا أمر مستبعد بطبيعة الحال. قال: «كان هذا شيئاً متوقّعا. والآن؟».

- يجب علينا التشاور مع أونو. أعتقد أنه لا ينبغي لنا العودة إلى الموضوع من تلقاء أنفسنا. أظن أنّ الشيء الذي لا يسأل عنه، يفوق طاقته على التحمّل.

أحنى ماكس رأسه علامة الموافقة: «سوف يعطي إشارة جديدة ذات يوم».

نفضت صوفيا فتاتاً حقيقياً أو متخيلاً عن حضنها: «قبل بضعة أسابيع قرأت له حكاية الأميرة النائمة، ولم أدرك عمّ تدور في الواقع إلا عندما وصلت إلى منتصفها، لكنني لم أعد أستطيع التراجع».

- أنت لا تشعرين بالذنب حيال ذلك، أليس كذلك؟

ردّدت وهي تنظر إليه: «بالذنب؟ لماذا يجب أن أشعر بالذنب؟!».

كان الاعتداء في روضة الأطفال قد أثاره جمال كويتن بطبيعة الحال. في الرابعة من عمره ظهرت له أسنانٌ جديدة محلّ الأسنان اللبنية. اضطرّ تيو كيرن إلى تخصيص مجلّد ثانٍ لدراساته المتعلّقة بكويتن؛ لم يكن قد عرضها في معرض بعد، ربما لأنه يريد الاحتفاظ بها لنفسه. ولكن لم يكن الجميع غيورين مثله. فعلى الرغم من لافتة «ممنوع الدخول، حسب المادة 461 من القانون الجنائي» المعلّقة بجانب البوّابة التي يجثو عليها الأسدان، كانت السيارات تظهر بانتظام في الفناء الداخلي بالمتزوّجين حديثاً، الذين يريدون أن تؤخذ لهم صور بالقلعة في الخلفية: هي في الفستان الأبيض الطويل، هو في بدلة الزفاف المستأجرة، بالقبّعة العالية الرمادية في يده، لأنه لو وضعها على رأسه لانزلقت إلى ما فوق أذنيه؛ وجهه مسمّرٌ على العموم من أشعة الشمس، بحدّ واضح في منتصف الجبهة إلى البشرة البيضاء الرطبة، اعتادت أن تصل طاقيته إليه. حدث بضع مرّات أن وقعت عيون المصوّرين على كويتن، فقرعوا الجرس وسألوا صوفيا عمّا إذا كانت تسمح لهم بالتقاط سلسلة من الصور لهذا الصبي فائق الجمال - لأغراضٍ دعائية، ستدرّ عليهم مبالغ جيّدة بطبيعة الحال.

لم يندعش ماكس ولا صوفيا من عدم بكائه، عندما تلقى ضربة على رأسه. الحقّ أنه لم يكن قد بكى بكاءً حقيقياً سوى مرّة واحدة. أثناء موجة حرّ في شهر تموز، وضعت صوفيا في الصباح مسبحاً قابلاً للنفخ دائريّ الشكل من البلاستيك الأبيض في الفناء الأمامي؛ عندما لم تستطع العثور على المنفخ، نفخته هي بنفسها ثم ملأته بالماء إلى منتصفه بخرطوم الحديقة.

حملت كويتن إلى داخله، صاحت بماكس بأن يُبقي عينه عليه، وذهبت على الدراجة الهوائية لتأتي بالبيض من عند المزارع. بعد مضي نصف ساعة، سمعه ماكس يبكي. كان هناك وباء الذباب طوال الصيف، ولكن في تلك اللحظة كانت الحجارة الساخنة في الفناء قد غطّاه بساط لامع أسود في أشعة الشمس، يصدر طيناً فظيماً، مثل مئات من آلات التشيلو. كان كويتن محاطاً بخَصْنة الجحيم من كلّ الجهات، وكأنه على جزيرة، واقفاً في الماء، عاري الجسم، يداه على عينيه، ينشج بالبكاء ويرتجف من الخوف. هذا المشهد أشعل في ماكس غضباً شديداً، في تلك اللحظة نفسها، لم يعرفه من قبل إطلاقاً؛ لم يكن هو نفسه يلبس سوى سروال سباحة وقبل أن يحسّ بنفسه، كان قد ركض عبر السرب الذي يطنّ ويتطاير وهو يشعر كيف يسحق الذباب بالمئات تحت قدميه الحافيتين، وسحب كويتن من الماء بتلك السرعة نفسها وأوصله إلى برّ الأمان في الظلّ، تحت شجرة البلوط البنية على الجانب الآخر من الخندق المائي.



قريباً من عيد ميلاده الخامس في 1973 - السنة التي بلغ فيها ماكس وأونو الأربعين وصوفيا الخمسين من العمر - كان كويتن قد وسّع منطقة نفوذه حتى شملت جميع الغابات. كلّ يوم يزور ما كان في السابق مستودع الحناطير، حيث ينحت تيو كيرن تماثيله الكبيرة. في الحجرة عالية السقف المملأ بالحجارة، والغبار، والعدّة، ونماذج الجبس، والطاولات المحمّلة بالرسومات الأولية، وقطع الأثاث المهمّلة، وجهاز القهوة المشتعل على الدوام في الزاوية، حيث يهدف كلّ شيء إلى العمل حصراً، كان يشعر بالراحة أكثر من الوقت الذي يكون فيه في شقّة كيرن في القلعة، بوجود سلمى. يجلس ساعاتٍ طويلة على قطعة من الحجر وينظر إلى الفنان: كيف يشكّل قامات نساء ضخمة وزخارف للمباني الحكومية من الحجر الخام، ويتجول بقدميه الحافيتين على الشظايا الحادة مثل درويش. بين حينٍ وآخر، يحدث معه شيءٌ مثير للقلق. يتوقّف بصورة مفاجئة، يغمض عينيه نصف إغماضة، يكشّر عن أسنانه حتى تظهر لثته، يرفع يديه عالياً في الهواء، وهو يرتجف، كما لو أنه يدافع عن نفسه ضد التمثال بكلّ ما أوتي من جهد. فيتحوّل القزم طيّب القلب بصورة مفاجئة إلى وحشٍ مفترس. بعد برهة قصيرة يسترخي وجهه مجدداً بشكل كامل، وكأنّ شيئاً لم يحدث. يرى عليه كويتن أنه لا يتذكّر حتى أنه تصرّف بتلك الغرابة كلّها.

يرى كيرن أنّ النحت ليس فناً، وأنّ الجميع يستطيع أن ينحت - قال ذات يوم إنك لا تحتاج سوى إزالة الحجر الزائد: «على الأقلّ هذا ما كان يدّعيه مايكل أنجلو».

- من مايكل أنجلو؟

قال: «شخصٌ مثلي، لكنّه مختلف. هو الذي صنع ذلك التمثال هناك». وأشار إلى صورة مثبتة بالدبّوس على عارضة خشبية: تمثال رجل بوجهٍ هائج، ولحية طويلة، وقرنين على رأسه.

- هل هو الشيطان؟

- ما الذي يجعلك تظنّ هذا؟

- أوه، هذان القرنان طبعاً.

- نعم، أنا أيضاً لا أفهم هذا. لكنّه موسى على كلّ حال. شخص من الكتاب المقدّس.

- ما هو الكتاب المقدّس؟

آلت مطرقة كيرن إلى السكون: «ألا تعرف ما هو؟ ألم يخبرك والدك عنه؟ كتابٌ سميك جداً فيه قصص، يعتقد كثير من الناس أنها حدثت فعلاً».

تذكر كوينتن الكتاب الضخم الذي يقوم على منصّة في بيت جدّه في لاهاي، والذي يقرؤه أحياناً بصوتٍ عالٍ. ذلك هو الكتاب المقدّس طبعاً.

نظر كيرن بتنهيدة إلى الصورة: «لا أستطيع أن أصنع مثلها يا كوكو. أحصل على مهمّات عمل من بلدية أسن، أما هو فكان يحصل عليها من البابا. إنه اختلاف في المكانة والمنزلة. الحقّ أنني أكره الألوان بعض الشيء، لكنّه كان يجيد الرسم أيضاً أيّما إجادة. رسم على سبيل المثال رسومات في كنيسة السيستينا - ليست سيئة على الإطلاق. إنها في الفاتيكان: المعبد الخاص بالبابا».

- من هو البابا؟

- رئيس الكاثوليكين. إنهم الناس الذين يؤمنون بالربّ. والآن ستسأل حتماً من هو الربّ.

كان كوينتن جالساً على حجر غرانيت ذي لون أزرق داكن، واضعاً يديه بين ساقيه، فأخنى رأسه ثلاث مرّات، وقال: «نعم».

- إنه غير موجود، لكنّه خلق العالم حسب اعتقاد المؤمنين.

- يقول ماكس إن العالم نشأ نتيجة انفجار.

- إنه محقّ. تستطيع رؤية الربّ في كنيسة السيستينا: إنه يحوم في الهواء وله لحية، مثل موسى.

- وأنت أيضاً.

- ولكن لحيته ليست جميلة وبيضاء مثل لحيّتي. عندما تكبر قليلاً، يجب عليك الذهاب لرؤية روما ذات مرّة. هناك الكثير مما يمكن رؤيته هناك.

- كيف يمكنك رسم أحد غير موجود؟

- إنك تتخيّله في هذه الحالة، أو تستخدم خدعة. رسم مايكل أنجلو رجلاً مسنّاً ببساطة، كان يعبر بالبيتزا من شارع كلّ يوم؛ جعله يحوم في الهواء ثم قال الجميع إنه هو الربّ. لو كلّفتني بلدية أسن بصنع تمثال للربّ، لاستطعتُ أن أنحت رأسي ببساطة.

قال كويتن: «مع ذلك، يمكنك صنع تمثال للربّ حتى وإن كان غير موجود».

- أخبرني إذاً، كيف يجب أن أفعل ذلك؟

- حسناً، ستأخذ قطعة من الرخام وتنحت فيها إلى أن لا يبقى شيء منها.

نظر إلى كويتن بانشدها، ثم انفجر في ضحكة مجلجلة: «وسأخذه إلى أسن، وأقول: تفضّلوا، ها هو ذا هنا. الربّ! هل ترون؟ لا شيء! هل تظنّ أنهم سيفهمون؟ وهل تظنّ أنهم سيدفعون لي؟ حتماً لا! لن يعوّضوا حتى ثمن الرخام. إنهم أغبياء إلى درجة أنّ الشيطان لا يكثر بهم».

- من هو الشيطان؟

- يا يسوع المسيح، يا كويتن! من هو الشيطان؟ يحسّن بك سؤال القسيّسة عن هذه الأمور كلّها. الشيطان هو العدو اللدود للربّ!

- أهو غير موجود أيضاً أم أنه موجود؟

- بالطبع لا.

- حسناً، أعرف أيضاً كيف يمكنك صنع تمثال للشيطان.

خفض كيرن مطرقته وإزميله ونظر إلى كويتن: «كيف؟».

- يجب أن تملأ العالم كلّ بالرخام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رأى كويتن أن الأمور تشوّشت عليه.

- من أين تأتي بمثل هذه الأشياء يا كوكو؟

- هكذا، بشكل طبيعي...

لم يفهم كويتن ما قصده، لكنّه شعر بأنه يجب عليه المغادرة في الحال. نظر مرّة أخرى إلى موسى؛ إنه يتأبط شيئاً كبيراً، ملفاً من نوع معيّن، يبدو أنه ينزلق منه ويوشك أن يسقط على الأرض، الأمر الذي يستطيع تفاديه في الوقت المناسب. لعلّه كان بستانياً أو شيئاً من هذا القبيل في الحقيقة. قال: «إلى اللقاء».

كان كلّما خرج من الاستوديو، باغته وجود خروت ريخترن هناك. بالنسبة إلى الناظر من القلعة، تبدو مجموعة المباني الملحقة بها، القائمة على الجانب الآخر من الخندق المائي، صغيرة وعديمة الأهمية؛ أما القلعة نفسها، فتعطي انطباعاً للناظر إليها من هنا أنها قوية ومنيعة. ينظر إليها بضع ثوانٍ على الدوام، لا يفكر في شيء - أو بالأحرى: ما يفكر فيه يتطابق مع ما يراه - القلعة، مستغرقة هناك في نفسها، شأنها في ذلك شأن أفكاره، بالساعة التي لا عقارب لها فوق الباب. يُخيّل إليه في بعض الأحيان وكأنها تختفي عن الأنظار بصورة مفاجئة للحظة قصيرة جداً.

إلى اليمين من استوديو كيرن هناك مبنى أصغر في الحجم؛ فيه ورشة السيّد روسكام، ناطور خروت ريخترن وكلاين ريخترن، الذي يتولّى أمر الإصلاحات؛ الباب مقفل على العموم. إلى جانبه يؤدّي سلّم خشبيّ مسقوف إلى الطابق العلوي، الذي يقيم فيه كلّ بضعة شهور شخصٌ مختلف: تارة امرأة شقراء، وتارة أخرى رجل بعثنون أسود. لم يكن يتواصل معهما، لكنّه يتواصل مع بيت كيلر، المقيم على الطرف الآخر.

على جانبيّ الدرب المفروش بالحصى، المؤدّي إلى بابه الرئيسي من جانب الحجر الضالّ الكبير، يظهر النصفان العلويان من عجلتيّ عربة. يبدو من النظرة الأولى أن أحد الأشخاص قد طمرهما في الأرض حتى محوريّهما - ولكنّ كويتن يعلم الحقيقة بشكل أفضل: إنها الحالة المعاكسة. إنهما غير مغروزتين في الأرض بل بارزتان منها، وهما ليسا النصفين العلويين بل النصفان السفليّان. فهناك تحت الأرض استقرّت العربة، الحنطور، العربة الذهبية^(٥)، مثل التي

(٥) عربة خاصة بالعائلة المالكة، كانت الملكة تذهب بها من قصرها إلى الريدرزال (صالة الفرسان) لإلقاء خطاب العرش في يوم الثلاثاء الثالث من أيلول كلّ سنة. [م]

رأها على التلفزيون في إحدى المرات: لكنّها مقلوبة رأساً على عقب، تجرّها ثمانية خيول، يمسك الحوذي الجالس على مقعده باللجام، أيضاً كلّ شيء مقلوب رأساً على عقب في الأرض، ولا تجلس فيها الملكة بل امرأة أجمل بكثير، أجمل امرأة في العالم - وقد توقّفت العربية لأنهم غطّوا جميعهم في النوم.

عندما سأله بيت كيلر في إحدى المرات لماذا لا يمشي على الدرب، وإنما دائماً على العشب من جانب العجلتين، أجاب: «هكذا، من دون سبب».

كيلر في الخمسينيات من العمر، وهو رجلٌ نحيل بظهر منحني ولون بشرة غير صحي، يرتدي على العموم معطفاً واقياً من الغبار قصيراً سمّي اللون. أحياناً كانت زوجته تحرّك جسمها كلّ بصورة مفاجئة حركات منتفضة غريبة، لذلك يخاف كويتن منها بعض الشيء؛ كانت ابنته وابناه الاثنان، وثلاثتهم أطول منه بمقدار رأس واحد، قد بلغوا عمراً يكادون فيه لا يلاحظون حتى كويتن في أغلب الظن. مشغله في المستودع المجاور، واعتاد كويتن مراقبته هو أيضاً مراقبةً حثيئة ساعةً بعد ساعة. يُصلح الأقفال القديمة التي تُرسل إليه من الجوار البعيد، ليس من الأفراد فحسب، وإنما من تجّار التحف الأثرية والمتاحف أيضاً. في أرجاء المشغل كلّها، تقوم صناديق محتوية على آلاف المفاتيح من كل الأحجام، وعلب مليئة بعتلات، ألباب أقفال، صفائح معدنية، السنّة أقفال، مزاليج، مساند مزاليج، وأجزاء أخرى علّم كويتن أسماءها. على حلقات حديدية كبيرة علّقت مفاتيح هيكليّة لا حصر لها.

قال في إحدى المرّات بغمزة من عينه: «لديّ كلّ المفاتيح، ما عدا المفاتيح الموسيقية ومفتاح القدّيس بطرس».

كانت الأقفال التي يعمل عليها موضوعة على منضدة، ينيرها مصباحٌ متهاكٌ مثبتٌ إلى الحائط بسلك حديدي؛ إلى جانبها رفوفٌ فيها أدراج لا تُحصى مليئة ببرايغي، وصواميل، ودبابيس، وأشياء صغيرة أخرى. هناك أيضاً طاولةٌ ثقيلة عليها مخرطة وآلة ثقب وآلة تجليخ. عندما يكون كويتن حاضراً في الورشة، يرفق كيلر عمله على العموم بتعليق مهمهم منعدم النبرة: ليس بقصد التعليم، وإنما لإعطاء تقرير عمّا يفعله أو يفكر فيه. حدث مرّاتٍ قليلة، مثل الوقت الذي عمل فيه على قفل مشبك ثقيل من القرون الوسطى، بحجم شريحة من الخبز، مُقلّل ومفتاحه مفقود، أن تسلّلت نغماتٌ غنائية إلى تقريره.

- انظر إليه، أليس ملاكاً؟ نسّمّي هذا: قفل مشبك سحاب. هل ترى هذين الأخدودين

على شكل «H»؟ يجب وضع المفتاح فيهما. سأصنع المفتاح بعد قليل. يوجد في داخله حاجز من نوابض قوية للغاية؛ رؤوسها مرتخية الآن، لذلك تكبح المشبك في صندوق القفل. - كيف تعرف؟ هل نظرت في داخله؟

- لا، ولن أنظر أيضاً. على الأقل ليس الآن. سأفعل أولاً شيئاً مختلفاً تماماً.

أخرج من أحد صناديق العدة سيخين فولاذيين طويلين مناسبين لإدخالهما في «H». عندما عاد إلى خلف طاولته، دهنهما بالزيت وبدأ يدفعهما إلى داخل القفل بهوادة، بينما تتجه عيناه إلى الأعلى، وكأنه يستطيع رؤية الجزء الداخلي من القفل هناك: «نعم، أستطيع الآن الشعور بالانحناء الأول في صفائح النابض.. نعم.. صحيح، نعم.. أبعد قليلاً.. إنها تنكمش بعضها على بعض.. نعم.. هذا صعب، إنه صدئ هناك في الداخل.. ربما بمساعدة بسيطة حذرة من المطرقة.. والآن بضع نقرات أخرى.. والآن نقرة أخرى، يجب أن تكون كافية».

انبعثت طقة قاسية في الداخل وسحب المشبك من القفل.

نظر إلى كويتن ضاحكاً: «نعم يا كوكو، أستطيع كسب لقمة العيش بطريقة أسهل بكثير. ولكن: "لا تسرق". تستطيع أن تسأل القسيّسة».

سحب السيخين من القفل وأدخل فيه المشبك مجدداً، فانبعثت طقة ثانية.

- ماذا تفعل؟ لقد أقفل مرة أخرى!

وضع القفل العملاق أمام كويتن: «صار بوسعك فتح الأقفال العادية بعض الشيء، ولكن حاول فتح هذا القفل أيضاً. لعلك تصبح خليفتي في المستقبل، فأنا لا أستطيع إقناع ابنيّ بهذا الأمر».

القسيّسة، السيّدة تريب، راعية الأبرشية الكالفينية في قرية هوخهالن، عزباء وتعيش مع قطّتها السوداء على بُعد عشرين متراً، في ما كان سابقاً منزل البستاني، الذي ألحق به جناح زجاجي كبير. لا تتواصل كثيراً مع الساكنين الآخرين في خروت ريخترن، آل فيرلورن فان ثيمات وحدهم يشربون الشاي عندها في بعض الأحيان؛ إنها صديقة البارونة. رغم أنها ليست أكبر من صوفيا بالعم، فقد ابيضّ شعرها بياض الشمع. عندما تجلس على شرفتها تقرأ لعالم اللاهوت كارل بارت أو رواية جميلة، أو عندما تعتني بالزهور في حديقته، التي تسير بانحدار إلى رافد من روافد الخندق المائي، يتوقّف كويتن في بعض الأحيان بالقرب من البوابة وينظر إليها برهة قصيرة. عندئذٍ تومئ إليه إيماءة لطيفة برأسها، لكنها لا تلوح له بيدها إطلاقاً، ولا

يرى هذا ضرورياً أيضاً. لا بدّ أنها تعرف أشياء كثيرة، ربما بقدر ما يعرف والده تقريباً، لأنّ الجميع يقول دائماً: «اسأل القسيسية عن هذا» عندما لا يعرف الإجابة. يكون السؤال على العموم متعلّقاً بالربّ أو يسوع المسيح، لكنّه لم يحدث أن سألها عن شيء. كان عموماً يركض في الحال صوب الجسر.

لقد منعتة صوفياً من السير عليه: إنه إنشاءٌ فائق الرومانسية، متذبذب ومتهاكك، يفتقر إلى بعض الألواح، ويستدعي إلى ذهن ماكس دائماً لسببٍ أو لآخر أغنية شوبرت: «أعنيّ تحوم إليك عبر صمت الليل تناشدك...». أما على الطرف الآخر، في ظلّ أشجار الزان الباسقة، فتقوم دفيئة البرتقال: مبنى طويل منخفض له نوافذ كبيرة، يعيش فيه سيرب فيردونكسخت مع صديقه، ولا يعيش مع صديقه فحسب، وإنما يملك فيه «غرفة أثريات» أيضاً. عندما يدخل كويتن إليه، لا يكون هناك زائرٌ آخر تقريباً، ولا يكون فيردونكسخت نفسه موجوداً على العموم، فهو يعمل في الخدمات البريدية - رجل متجهّم، يشعر بالمرارة حسب رأي ماكس، لأنّ مهاراته العلمية لا تؤخذ على محمل الجدّ، لا من الجامعة في خرونيغن ولا من المتحف الإقليمي في أسن. لعلّ السبب في هذا هو أنه يعرض آثاره القديمة للبيع.

كان صديقه إتيان، وهو رجل مائل إلى البدانة في نحو الأربعين من العمر، يُخرج رأسه من الباب على الدوام ويقول: «أهلاً بالجميل، هل جئت مرة أخرى؟ لا تسرق شيئاً، اتفقنا!». ثمّة خرائط ملوّنة عن انتشار حضارة القدور القُمعية في دريخته معلّقة على الحائط، ومعثورات فيردونكسخت العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ معروضة في صفّين من الخزانات الزجاجية: عشرات من رؤوس سهام حجرية، عمرها خمسة آلاف سنة، فؤوس حجرية، دبائيس شعر صدئة، شظايا من جرار فخارية، قطع نصف متفسّخة من الجلد. لم تكن هذه الأشياء نفسها هي التي تبهر كويتن، الحقّ أنها لا تعني له شيئاً، بل الجوّ في هذه الغرفة المطلية بألوان زاهية: الصمت الملائم، المحيط بهذه الأشياء القديمة القادرة التي تنتمي إلى أعماق الأرض وتُعرض هنا في الضوء، مثل أحشاء سمكة عند بائع الأسماك في القرية. إنها مكتنفة بالغموض لأنها ليست من الأمور الجائزة في الواقع. وأغرب ما في الأمر هو أنّ هذه الأشياء كلّها ترقد هنا وراء الزجاج على هذا النحو أيضاً، عندما لا ينظر أحدٌ إليها - في الليل أيضاً، عندما يعمّ الظلام هنا ويرقد هو نفسه في سريره. لا يمكن هذا بطبيعة الحال، فهي ستصرخ من الخوف وسوف يسمع صراخها وهو في سريره؛ لكنّه لم يحدث أن سمع صراخاً

قادمًا من دفيئة البرتقال في الليل. لا يسمع سوى نعيق بومة في بعض الأحيان. هذا يعني أنها ليست موجودة إلا عندما يراها.

كان عندما يخرج، يتسلق دائماً وفي الحال على الحجر الضالّ، الذي ظهر هناك هو أيضاً من تحت الأرض. يجلس ويُنظر إلى أن يُقبل عليه تيس فيردونكسخت، خايس، بقفزات مائلة. لو استطاع خايس، لوجّه له نطحةً بقرنيه من دون شكّ، لكنّ الحبل قصير على الوصول إليه. بعد ذلك خاطبه كويتن: «لماذا تريد إزعاجي دائماً؟».

ومدّ يده ليداعب رأسه، لكنّ المداعبة رُفضت بحركة سريعة.

- لم أفعل لك شيئاً، اليس كذلك؟ أراك لطيفاً للغاية. أراك مثلاً ألطف من أرندي بكثير - هو أيضاً ينطح الناس أحياناً برأسه المنحني إلى الأمام بهذه الطريقة. أعتقد أنك بلطف ماكس تقريباً، ولكن ليس بلطف أبي إطلاقاً. أبي ألطف الناس جميعاً. عندما نذهب للتنزّه يخبرني دائماً بأشياء كثيرة. يستطيع التحدّث بكلّ اللغات وقراءة الرموز الغامضة. هل تعرف لماذا لا أستطيع العيش معه؟ لأنه مشغولٌ جداً بلعب دور الرئيس. لهذا السبب لا يأتي إلى هنا كثيراً. هو رئيس مليون ومليون شخص. الخالة هيلخا لا تعيش معه أيضاً. لم أذهب إلى بيته إطلاقاً، لكنّه يعيش في قلعة في أمستردام. عندما أكبر في العمر، سأذهب لزيارته هناك. تستطيع الذهاب معي. هل تعرف من هو ألطف ألطف شخص في رأيي؟ أمي. أمي متعبة جداً، هذا ما تقوله جدّتي. أمي نائمة. هل تعرف ما الذي جعلها متعبة إلى هذا الحد؟ أنت لا تعرف حتماً، لكنني أعرف. هل أقول لك؟ ولكن لا تخبر أحداً، لأنه سرّ. هل تعدني يا خايس؟ إنها متعبة، لأنها كانت دائماً تلوّح للجميع في العربة الذهبية.

40. عالم الكلمات

في تلك الأثناء انشغل أونو أكثر فأكثر بتأدية دور الرئيس. في وقت متأخر من أحد المساءات، أثناء المرحلة الختامية من تشكيل الحكومة، وبعد أن زار هيلخا وشرب بضع كؤوس من الروم بالكوّلا في طريقه إلى البيت، اتصل به المكلف بتشكيل الحكومة وسأله عما إذا كان يريد أن يصير الوزير المفوض لسياسة العلوم.

- منذ متى صارت هذه مهمة المكلف بتشكيل الحكومة؟

- اتصل بك نيابةً عن وزيرك.

- هل يمكنني التفكير في الموضوع؟

- لا.

- ولا حتى خمس دقائق؟

- لا. يجب أن تُسوّى المسألة كلّها في غضون أربع وعشرين ساعة، هذا الهرج مستمرّ منذ ما يزيد عن خمسة شهور. بدأ الشعب يتململ.

- إلى ماذا أدين بهذا الشرف يا يانوس؟

- بشكل غير مباشر إلى الاقتراح الذي تقدّم به صديقك لك، صاحب حانة من مدينتك: وزير الإسكان الجديد.

- ووزيري؟ هل تعرف أنّ قلبي مليء بضغينة استثنائية حيال العلوم؟

- نعم، نعم يا أونو، إنني على قناعة بأنك ستسبّب في مشكلات للحكومة. هيّا، لديّ أشياء أخرى أفعلها! نعم أم لا؟

- إن كان هذا في مصلحة الوطن، فكلّ شيء يهون. نعم.

- رائع. سأنتظر حضورك صاحياً، في الساعة العاشرة من صباح الغد، في الشؤون العامة في لاهاي. سنقوم بعمل جميل. تصبح على خير!

بهذا تغيّر كل شيء بصورة مفاجئة. لم يكن غير راضٍ بعضويته في المجلس البلدي، التي يشغلها منذ أربع سنوات؛ على الرغم من تضاؤل تأثير الحكومة سنة بعد سنة، كانت وظيفته تنطوي من عدة نواحٍ على سلطة مباشرة أكثر من وظيفة الوزير المفوض، الذي يعمل في ظلّ الوزير. إنه في السياسة المحليّة على تواصل مباشر مع المواطنين، أما في السياسة الوطنية فلن يكون الوضع على هذا النحو، ولكنّ هذه السلطة بالذات تملؤه أحياناً بالاشمئزاز، وكأنّه تعرّض لهزيمة؛ ممارسة السلطة أمرٌ ضروري كي يتمكّن المجتمع من أداء وظيفته، لكنّها في الوقت نفسه تنطوي على شيء من العاميّة من دون شك. كما أنّ هناك ميزةً أخرى في كونه عضواً في المجلس البلدي، وهي أنه يعمل في أمستردام وليس في ذلك الوكر الخانق الذي يعمل فيه الموظفون الحكوميون في لاهاي، التي هرب منها ذات يوم، ويجب عليه الآن الذهاب إليها كل يوم - إنها نعمة بالنسبة إلى أمستردام ألا تكون الحكومة الهولندية متركزة في العاصمة. لكنّه أيضاً عرف في الحال وبشعور بالخجل لماذا قال «نعم»: من أجل إسعاد والده وكي يُشعل نار الغيرة في نفس أخيه الأكبر. سيعرفان على الفور بأنه سيصبح وزيراً أيضاً في يومٍ من الأيام؛ أرقى منزلة في النعيم السياسي.

بينما لا يزال ينظر إلى الهاتف، اندهش فجأةً من أنه لو أجاب عن السؤال «نعم أم لا؟»، بالنبرة القصيرة «لا»، لما تغيّر شيء في حياته، بينما الإفصاح عن النبرة الأقصر «نعم» غيّر أموراً كثيرة للغاية - مع أنه لا أحد يستطيع تحديد الرسوم الطيفية لهاتين النبرتين سوى علماء الصوتيات المتمرسين. ولو أجاب بـ«كِن»، لما تغيّر شيء، رغم أنّ هذه الكلمة أيضاً تعني «نعم»، ولكن بالعبرية. هذا كلّه بديهي، كسب لقمة العيش، ألف باء الحياة، لكنّه بعث القلق فيه بصورة مفاجئة، بينما ساوره القلق في الوقت نفسه على قلبه.

*

بعد أن نطق كلمته «نعم»، أصبح لديه وقتٌ أقل بكثير للزيارات إلى خروت ريكترن: منذ ذلك الوقت صار كويتن يراه على التلفزيون أكثر مما يراه في الواقع. كان حينذاك في الصف الأول من المدرسة الابتدائية في فيستربورك؛ وفي إحدى المرّات المتفرقة التي جاء فيها أونو لزيارتهم - في سيارة رسمية كبيرة داكنة الزرقة عليها هوائياً استقبال، بعد قيامه بافتتاح معهد

تكنولوجيا في مدينة ليواردن- أخبرته صوفيا بافتخار بأن كويتن تعلّم القراءة قبل فترة قصيرة. قالت وهي تعطيه الكتاب: «أسمع بابا ما تستطيع!».

فقرأ كويتن دون أن يستخدم سبّابته: «بسم في الغابة». ولكن قبل تمكّن أونو من الثناء عليه، نظر إلى الجريدة الموضوعة على الأرض وقرأ العنوان الرئيسي: «الرئيس الكمبودي لون نول يمدّد سلطة القوّات الخاصة». وفي الصمت المذهل الذي خيّم عليهم، قال: «لم أتعلّمها في المدرسة. أستطيع القراءة منذ زمن بعيد».

ماكس هو أول من بادر بالحديث: «مَن علّمك؟».

- السيّد سبير.

لم يفهم ما الشيء المميّز في هذا. في مكتب السيّد سبير فائق الترتيب، الذي تقوم فيه طاولة الرسم المائلة، وتطلّ نافذته على الغابة الواقعة وراء القلعة، كانت تصاميم حروفه الجديدة مغروزة على الحائط حسب الترتيب الأبجدي: ستّ وعشرون ورقة كبيرة مخطّطة بمرّبات، على كلّ منها حرفٌ بشكليّه الكبير والصغير، أطلق عليهما «الخزانة العلوية» و«الخزانة السفلية». لم يخبره السيّد سبير -الذي يرتدي ملابس أنيقة على الدوام وأثناء عمله أيضاً، بربطة عنق وسترة ومنديل جيب- كلّ شيء عن تشريح الحرف فحسب، «جسم»، «زائدة علوية»، «انحناء مفتوح»، «ذيل»، بل وأمسكه من يده أيضاً، على مدى بضعة أيام متتالية، وسار به أمام الحائط خطوة خطوة، بينما يشير إلى الحروف واحداً تلو الآخر ويلفظها، ويطلب منه ترديدها ورائه. لا شكّ في أنك ستتعلم بهذه الطريقة بلمح البصر! كان السيّد سبير عندما يصل إلى الحرف «Q»، يرفع سبّابته بحركة ذات معنى على الدوام. لقد سمّى حرفه الجديد بـ«يوديث»، تيمناً باسم زوجته. كان يصمّم طوابع بريديّة وعملات ورقية أيضاً، لكنّه لم يكن يفعل هذا إلا في المطبعة في مدينة هارلم، تحت حراسة الشرطة، لأنّه شيء سرّي للغاية بطبيعة الحال. ولطالما ضحك في قلبه بعض الشيء، هكذا قال؛ في زمن الحرب، عندما اضطرّ إلى التخفي لأنّ هتلر أراد القضاء عليه، قام بتزوير أشياء من شتى الأصناف: طوابع ألمانية، بطاقات شخصية.

- مَن هو هتلر؟

- كم هو أمرٌ جميل أن يكون هناك أناس لا يعرفونه. كان هتلر رئيس الألمان، الذي أراد قتل كلّ اليهود.

- لماذا؟

- لأنه كان يخاف منهم.

- مَنْ هم اليهود؟

- نعم، هذا ما يتساءل عنه كثير من الناس منذ زمن بعيد يا كوكو، وبضمنهم اليهود أنفسهم. لعلّه لهذا السبب كان يخاف منهم، لكنّه لم يُوقَّ في ذلك.

- أيّني هذا أنك يهودي؟

- بالتأكيد.

- لكنني لست خائفاً منك.

وعندما ابتسم السيّد سبير سأله: «هل أنا يهودي؟».

- على النقيض، حسبما أعلم.

- على النقيض؟

- إنني أمزح. هذا ما يفعله اليهود في أغلب الأحيان عندما يتحدثون عن اليهود.

سألت صوفيا: «ما بك يا كويتن؟ بماذا تفكّر؟».

- بلا شيء.

لا يزال ماكس غير قادر على الاستيعاب: «لماذا لم تخبرنا بأنك تستطيع القراءة؟».

رفع كويتن كتفيه ولزم الصمت.

قالت صوفيا: «هكذا يضعنا سيادته أمام ألغاز جديدة كلّ يوم».

أحنى أونو رأسه: «إنه مثقل وراثياً بموهبة عظيمة. هل أمتحنه مرّة أخرى؟».

ثم لكويتن: «هل ترى شيئاً غريباً في هذا الاسم لون نول؟».

فأجاب كويتن على الفور: «توجد مرآة بينهما».

فهتف ماكس بسعادة مضاعفة: «لا أستطيع تصديق أذني!»، إذ لم يعد هناك أيّ شك في

مَنْ نقل إليه هذه العوامل الوراثية!

تابع أونو: «مثل...؟».

فكّر كويتن برهة قصيرة، لكنّه لم يعرف الإجابة.

فقال أونو: «أنا»^(٥).

أراد أن يقول آدا أيضاً، لكنّه أحجم؛ هذا ليس صحيحاً تماماً على كلّ حال، فوجود حرف «د» في الوسط ليس متماثلاً في ذاته.

ضحك كويتن وهو يغطّي حرفي اللام بسبابتيه: «طبعاً. أنت في داخله!».

ردّد أونو: «أنا في داخل لون نول. لو سمع رئيسي في الحزب بهذا الأمر، لاخفتت مسيرتي المهنية وراء الشمس».

قال كويتن: «هناك تناغم في القافية، فهو صحيح إذا».

انفجر ماكس بالضحك: «أخيراً شخص يأخذ الشعر على محمل الجد».

قال أونو: «قبل فترة قصيرة طُلب مني أنا أيضاً أن أقرأ على الملأ. طلب مني ذلك أ.ع». سألت صوفيا: «ماذا أ.ع؟».

أجاب أونو: «بالأحرى من أ.ع؟ الأمين العام، المسؤول الأعلى في الوزارة الذي يُعَمَّر في منصبه أكثر من السياسيين جميعهم - ممثل الأبدية».

سأل ماكس: «وماذا طلب منك أن تقرأ؟».

- كلّ شيء ودائماً. طبعاً لم يخطر في بالي قطّ أن أقرأ شيئاً من الورق في البرلمان، مثلما يفعل النواب المبجلون كلّهم تقريباً، فأنا أعتبر دائماً عن حقائق الساحقة بشكل ارتجالي. لكنّه قال إنّ هذا يثير الضغائن، وإني بهذه الطريقة أواجههم بعجزهم وقد يفكّرون في الانتقام مني. إنّ الموهبة الخطابية حسب رأيه غير مرغوب بها في السياسة الهولندية - وماذا تظن؟ منذ ذلك الوقت أتنازل بوضع قليل من الأوراق العشوائية أمامي، أوراق فارغة في بعض الأحيان، كي يأخذ المجلس على الأقل انطباعاً بأنني أقرأ من الأوراق. ألا يجعلك هذا تشنق نفسك؟ ضحك ماكس.

- نعم، أنت تضحك، لكنني أغوص أعمق فأعمق في مستنقع الانحطاط. في السياسة يتعلّق كلّ شيء بالكلمات، إنها عالم مقرف من الكلمات.

قال ماكس: «حسناً، يُخيّل إليّ أنّ عالم الكلمات هو مكانك المناسب».

- ولكن ليس بهذه الطريقة. عندما كنت أفكّ رموز النصوص في الزمن الغابر، كنت أقوم

(٥) اسم أونو يكتب في الأصل «Onno»، واسم لون نول «Lon Nol». [م]

بأفعال، منفصلة في حد ذاتها عن تلك النصوص، حتى وإن لم أفعل شيئاً سوى تبديل كلمة بأخرى. هل ما زلت تتابعني؟

- إذا لم يعد أحدٌ يتابعك منذ وقت طويل يا أونو، فسأظلّ أتابعك.

- ولكن في السياسة تكون الكلمات نفسها أفعالاً، وهذا شيء مختلف كلّ الاختلاف. أنت تجلس هناك في فيستربورك وتستمع إلى الهيسيس المتناهي من أعماق الكون، أما أنا فاستمع إلى الكلمات من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من المساء: في الوزارة، في البرلمان، في صالة القهوة، في مكتب الحزب، أثناء اجتماعات اللجنة، على الهاتف، في السيارة، في حفلات الكوكيتيل، في مآدب العشاء وحفلات الاستقبال وزيارات العمل، من الناس الذين يهمسون شيئاً في أذني، يدسّون في يدي ورقة فيها معلومة، وإن كانت مجرد «احذر من هذا الرجل» أو شيئاً من هذا القبيل. وأنا نفسي لا أكفّ عن الحديث إلى الجميع في مثل هذه المناسبات وأثناء المؤتمرات الصحافية أو المقابلات الصحفية والتلفزيونية. أحاول إقناع الناس والتأثير عليهم. هذه هي السياسة، السلطة؛ هذا كلّ شفوياً، عاصفة ثلجية متواصلة من الكلمات، لكنّه ليس كلاماً عادياً، لا، بل إدلاء بتصريحات. إنه عمل؛ إنه فعل شيء من دون فعل شيء. إنه شيء رائع بطبيعة الحال عندما تستطيع تغيير الأشياء وتحسينها، لن تسمعني أقول شيئاً في هذا الصدد - ولكن الإدراك بأنه يحدث بهذه الطريقة بدأ ينخر في كياني.

- لماذا؟ أهنأك أجمل من فعل شيء بالكلمات؟ وهل يفعل الكاتب شيئاً آخر غير هذا؟ أو خذ الربّ مثلاً!

- نعم، فلنأخذ الربّ مثلاً. لا ضرر في هذا إطلاقاً. «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمةُ الله».

سأل كوينتن: «هل هذا من الكتاب المقدّس؟».

- بالتأكيد! يرى يوحنا أنّ الخالق تزامن مع كلمة الخلق، ويرى ناظم المزامير أنّ هذا كان الخلق ذاته في الوقت نفسه: «قَالَ، فَكَانَ». الربّ، الكلمة، العالم - هذا كلّه متماثل. ليس هناك ما هو سياسي أكثر من اللاهوت المسيحي.

قال ماكس: «يمكنك أيضاً عكس الأمر والقول إنّ السياسة مسألة دينية».

- لمن تقول هذا الكلام؟ «الحكّام خُدّام الربّ المسلّحون بالسيف»: لقد رضعت هذا مع

حليب أمي. الأمر الوحيد هو أنّ الكلاب المسيحيين لم ينظروا إلى هذا من المنظور الفلسفي اللغوي. ثم إنّ هذا لا يسري على السياسة فحسب. عندما قلت ذات مرّة «نعم، أقبل» في عيد ميلادك في دار البلدية، كان ذلك أقرب إلى فعل منه إلى تصريح، أو عندما أطلقت اسم كويتن على هذا المخلوق العجيب هنا. لكنني لم أخلق لخدمة الربّ، مثلما قد يكون حالك أنت. هناك رائحة تفوح من هذا الفعل اللفظي المفتقر إلى فعل شيء. ما لا يعجبني فيه هو شيء - كيف يجب أن أقول... هو بُعد لأخلاقي.

ردّد ماكس: «بُعد لأخلاقي.. هذا لا يبدو جيّداً»، وأرغم نفسه على عدم النظر إلى صوفيا، فقد باغته شعور بأنّ أونو يتحدّث في الواقع عن علاقته الخفية معها، ولكن هذا هراء بطبيعة الحال.

قال أونو فجأة: «الإمبراطور نابليون جمّل باريس»، وأمسك عن الكلام. أحنى ماكس رأسه وانتظر التالي.

- الملك سليمان بنى الهيكل الأول في القدس.

قال كويتن: «أعتقد أنّ هذا أيضاً من الكتاب المقدّس».

- كلّ شيء من الكتاب المقدّس على الدوام.

استفسر ماكس: «وما شأن نابليون وسليمان؟».

- شأنهما هو أنّ الملك سليمان لم يضع حجراً على حجر طوال حياته. لم يبنه إذاً. لقد كلّف المعماريّ ببناء هيكل، لكنّ المعماري لم يبنه أيضاً. لقد بناه عمالٌ مجهولون. على أيّ أساس يُنسب الشرف إلى الشخص الذي فعل أقلّ شيء في بنائه؟
- لأنه لم يكن ليُبنى لولاه.

- أكان سيُبنى لولا المعماريّ؟ ولولا أولئك العمال؟ ومع ذلك فإنّ سليمان هو الباني الفعلي للهيكل بطبيعة الحال - على أساس سلطته وفعلٍ مكوّن من كلمتين: «ابنٍ هيكلًا!»، أو بالأحرى «تيفني ميقداش!». يبدو أنّ «الباني» هو الذي يقول «ابنٍ». أليس شيئاً منافياً للأخلاق أن تسيّر الأمور على هذا النحو؟

قال ماكس وقد باغته شعور بأنّ هذا الكلام موجه إليه بطريقة أخرى: «تماماً. والأمر ببناء هيكل لا يزال أمراً لا غبار عليه، لكن تصوّر إعطاء أمر بارتكاب جريمة!».

ثم توجّه إلى صوفيا: «أخبريه بما سمعت أمس.. عن تلك القُبعة!».

رفعت صوفيا عينيها عن النموذج الورقي الذي كانت تثبته بالدبابيس على قطعة من القماش. رأى ماكس وأونو أنها اضطرت إلى استجماع أفكارها: النقاشات من هذا النوع تفوتها، فهي تعتقد في أغلب الظن أنها ترّاهات صيبانية.

يوم أمس دعت السيّد روسكام، ناظر القلعة، لشرب فنجان من القهوة، فأخبرها عن والده الذي عمل بستانياً عند والد البارون الحالي. عندما كان السيّد روسكام في عمر كويتن، ذهب مع والده في إحدى المرّات إلى دفيئة البرتقال، التي كانت تُستخدم حينذاك بستاناً شتوياً. وقف خيفرس المسنّ على العتبة، مع ابنه أيضاً، البالغ نحو السادسة من العمر أيضاً، وألقى نظرة على قُبعة والد السيّد روسكام، وقال له: «أحضِرْ مجرفة يا صاح!»، أحضر والده مجرفة. «احفر حفرة!»، فحفر والده حفرة. «ألقي قُبعتك فيها. هذه القطعة القذرة يجب أن تغرب عن وجهي». دفن والده قُبعتَه وسوى التربة عليها بقبقباه، بينما ينظر الصبيان إليه. بعد خمسين سنة، لا يزال السيّد روسكام يرتجف وهو يروي هذه القصة. ظنّ والده أنه سيحصل على قُبعة جديدة في وقت لاحق، لكنّ ذلك لم يحدث.

سأل كويتن الذي استمع إليها بفمٍ مفتوح: «السيّد روسكام؟».

قال أونو: «صحيح. عندما أسمع مثل هذه الأشياء، أتذكّر لماذا أنا يساري».

قال ماكس بانفعال: «الوضع مثلما تقول تماماً. الشيء اللا أخلاقي على وجه الخصوص هو أن تكون مثل هذه الكلمات السلطوية ممكنة. «ابن هيكلاً!» «ادفن قُبعتك!» خُذْ هتلر مثلاً. لقد أعطى هيملر أمره الخاص جداً ذات يوم: «اقتل كلّ اليهود!» - ثلاث كلمات، طبعاً شفوياً فقط. لكنّه لم يقتل هو نفسه أيّ يهودي، ولا فعل هيملر ولا هيدريش ولا أيخمان، لقد فعله في آخر الأمر الجنود من أدنى الرتب. وفي أوشفيتز كان الأمر أكثر حماقة: يجب على السجناء اليهود أن يلقوا «زيكلون ب»^(٥) في غرف الغاز. هكذا كنت ترى مشهداً بأنّ القتل الحقيقي لم يرتكبه القتلة بل الضحايا. من فعله لم يفعله، ومن لم يفعله فعله».

تلقى نظرة من صوفيا فأحجم بصورة مفاجئة. كي لا يثقل كاهل كويتن بذلك الماضي، لا يتحدّث عن هذه الأشياء إطلاقاً عندما يكون موجوداً - وفي الواقع عندما لا يكون موجوداً أيضاً.

(٥) ميبد حشري استخدمه النازيون للقتل والإبادة الجماعية في غرف الغاز. [م]

قال أونو: «هذا ما أقصده. كانت لأوامر فوهرر قوة القانون^(٥)». في حالة هتلر تجد كل شيء في شكله النقي على الدوام. عندما تصبح الكلمات أفعالاً، تتبخر الأفعال ويفتح جحيم التناقض فمه ويلتهم الأخضر واليابس. هناك شيء خاطئ كلياً في العالم، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يكون مختلفاً عما هو عليه. لعلها تكون أزمة منتصف العمر، لكنني في فترات العصر الممطرة، قبيل غروب الشمس، أصدق عبر النافذة في الوزارة في بعض الأحيان وأتطلع إلى اليوم الذي أترك فيه السياسة. سياسيو لاهاي جميعهم منغمسون في هذه الكوكبة اللا أخلاقية، لكنني سأكون سعيداً عندما أستطيع التكلم بشكل طبيعي مرة أخرى، عندما أريد التكلم - كما أ فعل الآن. وعندما أريد فعل شيء، أريد فعله ببساطة عن طريق فعله، مثل الناس المحترمين جميعهم. قبل قليل افتتحت مؤسسة في ليواردن: بالكلمات التي كانت بالتالي فعلاً؛ ثم كان يجب عليّ فعل شيء، ألا وهو سحب الستارة عن تمثال: ذلك ليس فعلاً بمعنى الفعل، بل عمل رمزي. هذه حياة لا تليق بالإنسان! وعندما يكون اليوم أكثر قتامة، أفكر أحياناً في الملكة في قصرها الهادئ هدوء القبور: يجب على جلالته أن تؤدي مثل هذه الأفعال اللا فعلية يوماً بعد يوم، طوال حياتها، بينما لا يجوز لها أن تتحدث بكلماتها الخاصة إطلاقاً، بل بكلماتنا نحن. في الواقع يجب إلغاء النظام الملكي، فقط بدافع من الاحترام لها.

نهض عن مجلسه ومضى يقف أمام النافذة، قال بعد برهة قصيرة: «السياسة تُلحق الضرر بأرواح الجميع. في عالم السياسة يجلس عدوك اللدود المحتمل دائماً في الصف الأول في القاعة التي تُلقى فيها كلمة. لهذا السبب لا أستطيع الثقة بأحد - وبأصدقائي في المقام الأول؛ وهذا يعني مرة أخرى أنه يجب عليّ احتقار نفسي باستمرار».

لم يعد أحد يتفوه بأي شيء. نظر ماكس إلى يديه بارتياح، نظر كويتن إلى ظهر والده الجبار، بينما الكلمات التي سمعها تدوم في رأسه مثل حشد من النحل. بعد برهة قصيرة التفت أونو إلى الورا وقال لماكس: «كنت قد نويت طبعاً ممارسة الضغط لصالح اللعبة الخاصة بك في ظهر هذا اليوم، أليس كذلك؟ التلسكوبان الثالث عشر والرابع عشر الفائضين عن الحاجة تماماً. أفهم أنني جعلت ذلك شبه مستحيل بالنسبة إليك. لكن لأنني سأعاود ممارسة السياسة باستخدام ذلك، فلن أفعله بدافع من طيبة قلبي اللانهائية».

فهم ماكس بارتياح أن ملاحظة أونو عن الأصدقاء الذين لا يستطيع الثقة بهم لم تكن

(٥) فوهرر: لقب هتلر. يقول هذه الجملة بالألمانية. [م]

موجهة إليه. قال بالنبرة التي اقتبس بها أونو مقولة سليمان: «ابن مرآتين! لا أعرف كيف أقولها بالعبرية».

- «تيفني شتي مغثوت!» أعد هذا تبذيراً للمال العام، علاقته بالمصلحة الاجتماعية صفر، لكنني أستطيع إبلاغك بأنني وجدت ثغرة خلال الفترة الماضية لتمريره، على حساب بضع مؤسسات في الخارج، وهي لن تشكرني على هذا الفعل.

ثم قال بنبرة مهيبة: «الملك أونو، باني مرآتين في فيستربورك! بينما لا أستطيع أن أشحد نظارة، مثل سبينوزا. كم أنا شخصٌ فاضل في طبيعتي!».

ونظر حوله: «أين كويتن؟».

قالت صوفيا: «في حالته لا تعرف بتاتاً».



خرج كويتن من البيت. في الفناء الأمامي تقف السيارة بهوائي استقبال - السيارة التي تكون ساكنة في لحظة معينة وتستطيع في اللحظة التالية السير مئة كيلومتر في الساعة. كان السائق يدخن سيجارة على درابزين الخندق المائي وأوماً له إيماءة ودّية. رأى كويتن هذه السيارة أجمل من سيارة عمّه ديدرك، مفوض الملكة. سار على الجسر مستغرقاً في التفكير ونظر إلى العجلتين على جانبي الدرب المؤدي إلى باب بيت كيلر. الملكة تجلس في قصرها الهادئ هدوء القبور ولا يجوز لها قول شيء. لقد علم الآن علم اليقين أنّ الملكة هي والدته. وإلا لما كان والده مسؤولاً في الحكومة ولديه مثل هذه السيارة الجميلة بسائق؛ وعمّه هو مفوضها في دربنته، في ذلك البيت الفخم في أسن، ليعتني به. ولكن والده أيضاً أخفى عنه هذا الأمر، لأنه سرّ بطبيعة الحال. لعلهم يعرفون هذا في المدرسة، وإلا لما عاملوه هذه المعاملة السيئة. إنهم يغارون منه، لأنّ جميعهم لديهم أمهات عاديات جداً، بفساتين مزهّرة وشعور معقوصة، ويعيشون في مزارع أو في بيوت صغيرة غريبة ملتصقة بعضها ببعض. يستطيع فهم الأطفال في صفّه، لكنهم يتحدثون بطريقة مختلفة عن الطريقة التي يتحدث بها، ورؤوسهم مختلفة أيضاً. شعورهم في بعض الأحيان تكاد تكون بيضاء وعيونهم تشبه عيون الأسماك. الصبيان يحبون لعب كرة القدم، الأمر الذي يثير الامتعاض في نفسه، لكونه ابن الملكة. مثل هذه الكرة الدائرية الجميلة - من يستطيع ركلها؟ تستطيع إذاً ركل الناس أيضاً. ولكونك ابن الملكة فإنك لا تفعل هذا النوع من الأشياء. ولكن اليهود جميعهم قُتلوا بأمر من هتلر، في

غرف الغاز - لقد تكلم ماكس عن هذا الأمر مجدداً. لعله هو نفسه يهودي، يجب أن يسأله ذات مرة، فقد أصابه انفعالٌ شديد عندما بدأ يتحدث عن هتلر. كم كان شيئاً حقيراً: قتل السيد سبير...

بينما يفكر في هتلر، تراءت له قامة عملاقة مفتولة العضلات، أكل لحوم البشر بشعر أشقر طويل متطاير في الهواء، يقضي الليل في بيت الغول في المرج.

- انتبه لمشيك يا كوكو!

رفع عينيه. كانت سلمى تعبر من جانبه بدرّاجتها الهوائية في فستانها الفضفاض. لعل ذلك التمثال، الذي أزاح والده الستار عنه اليوم، من نحت كيرن. لا تحتاج سوى إلى إزالة الحجر الزائد، ثم ستار. لعل السيد كيرن يزيح هذا الفستان عن السيدة كيرن بهذه الطريقة في بعض الأحيان، فتقف عارية في الغرفة بصورة مفاجئة. بدأ يضحك. يا له من منظر! ولعل ماكس يفعل هذا مع جدّته - عندما تندس في سريره في الليل، لأنها تشعر بالبرد؛ لكنّه لم يرغب في المزيد من التفكير في هذا الأمر. نظر إلى استوديو كيرن؛ إنه ليس هناك، قفل المشبك معلق على الباب. كان باب ورشة السيد روسكام مفتوحاً، رآه يهدج في الظلام. لقد اضطرّ والده إلى دفن قبّعته. تخيل لو يأمر البارون والده بدفن قبّعته. لن يفعل والده هذا إطلاقاً! ثم إنه لا يلبس قبّعة حتى. هل تحدّث السيد روسكام مع البارون ذات مرة عن هذا الأمر يا ترى؟ حتماً لا. فالأخير يشعر بخجل شديد بطبيعة الحال أو لعله نسي الأمر.

سار من جانب منزل القسيّسة إلى دفيئة البرتقال، حيث كان إتيان على وشك المغادرة بسيارته. أنزل الشباك وقال: «لا يمكنك الذهاب إلى الداخل، يا جميل، يجب عليّ الذهاب إلى القرية. تستطيع العودة غداً».

عندما سمع قرقة ألواح الجسر المخلخلة، أمعن النظر في تلك الحالة بعناية. كان السيد روسكام ووالده قد خرجا من بيت البستاني، الذي تقيم القسيّسة فيه الآن، والبارون المسنّ يقف مع ابنه هناك على عتبة دفيئة البرتقال. كان روسكام وابنه يقفان تقريباً في هذا المكان الذي يقف هو فيه. ولكنّ الأرض صلبة هنا، لا يمكنك أن تحفر حفرة فيها. التفت إلى الورا ونظر أين يمكنه أن يحفر حفرة إذا ما اضطرّ إلى حفرها. خطا بضع خطوات من الجزء القاسي إلى المكان الذي تبدأ فيه أرض الغابة اللينة، المغطاة بأوراق الشجر المتساقطة. التقط حجراً ووضعه في المكان الذي يجب أن تكون القبّعة مدفونة فيه، ثم هروا إلى السيد روسكام.

لقد كبر في السن؛ يحاول فكّ صامولة من الصنبور بكمّاشة، ولم تعد لديه القوّة لفعل ذلك في الواقع. عندما نظر كويتن في عينيه الحزبتين، أراد أن يقول على الفور إنه وجد قبة والده، ولكن حُيِّل إليه أنه من الأفضل مفاجأته.

- هيه يا كوكو، على طريق الحرب؟

- هل يمكنني استعارة مجرفة منك؟

- أتريد إخراج كنز؟

- نعم.

- المجارف هناك. خذ تلك الصغيرة. لكن أعدّها إليّ، اتفقنا، ومن دون تأخير. الظلام يحلّ من جديد في وقت مبكر.

عندما عاد إلى مقربة من دفيئة البرتقال، أزاح الحجر الضالّ الصغير جانباً، أبعد أوراق الشجر بإحدى قدميه، وغرز الرفش في الأرض. في أيّ عمق ستكون القبة مدفونة يا ترى؟ حتماً ليس أعمق من نحو ثلاثين سنتيمتراً. من أجل زيادة احتمال العثور عليها، قرّر حفر خندق بطول متر واحد، سيصادفها حتماً في هذه الحالة. بدأ يغرف التراب إلى جانب برفق، حتى لا يُتلف القبة أكثر مما هي تالفة بعد خمسين سنة بطبيعة الحال. اصطدم بحجر على عمق عشرة سنتيمترات، فألقاه جانباً. ظهر حجر آخر بعد لحظة قصيرة. بدأ القلق يساوره. هذا يعني أنّ القبة مدفونة إلى الخلف قليلاً، أو إلى الجانب، لكنّه لا يستطيع طبعاً حفر الساحة بأكملها. لقد أحسن صنعاً بأنه لم يقل شيئاً للسيد روسكام. بدأ الظلام يرخي سدوله. عندئذٍ ظهرت أربعة رؤوس سهام حجرية على رفشه - مثل تلك الموجودة في دفيئة البرتقال، في خزانات فيردونكسخت الزجاجية. آثار قديمة! لقد عثر على أشياء أهمّ من قبة بكثير! هذا سيبعث السرور في نفس إتيان والسيد فيردونكسخت! نظر مرة أخرى إلى الحجرين اللذين ألقاهما جانباً. ليس هناك مجال للشكّ! إنهما فأسان حجريان.

دسّ ما عثر عليه في جيوبه بهياج، ردم الخندق، سوى التراب عليه بقدميه، وأعاد أوراق الشجر إلى مكانها، حتى لا يخطر في بال أحد آخر البحث هنا عن آثار ما قبل التاريخ. سرّ أيضاً بأنّ خايس موجود في حظيرته ولم يره منشغلاً بالحفر. قرّر ألا يقول شيئاً للسيد روسكام، لأنه قد يسأله ما الذي جعله يحفر هناك، وبماذا يجب عليه أن يجيب في هذه الحالة؟

ما زال الضوء مشتعلًا في الورشة، لكنّه لم يفكّ الصامولة بعد.

عندما أعاد كويتن المجرفة إلى مكانها، قال السيّد روسكام دون أن يرفع عينيه: «وهل عثرت عليه؟».

- نعم.

- مرحى لك!

من حسن الحظ أنه لم يسأل المزيد. كان السائق قد جلس في السيارة التي تنبعث منها موسيقا خافتة؛ المحرّك يعمل بصوت يكاد لا يُسمع، لا بدّ أنه شعر بالبرد. لم يكن الضوء مشتتلاً في الغرفة الأمامية في الطابق العلوي، لكنّه عندما دخل، رأى الجميع جالسين في المكان نفسه في غبش الليل.

قالت له صوفيا: «من المؤكّد أنك كنت تفعل شيئاً».

- كنت أبحث عن قُبعة والد السيّد روسكام.

خيّم صمّت لم يخلخله إلا ماكس بعد برهة طويلة من الزمن: «قُبعة والد السيّد روسكام.. كنت تبحث عنها؟!».

- نعم.

سأل أونو: «وهل وجدتها؟».

- حفرت خندقاً وانظر ماذا وجدت.

وأفرغ جيوبه على الطاولة وأشعل الضوء. نهض ثلاثتهم عن مجلسهم وانحنوا فوق القطع الأثرية المصنوعة يدوياً.

هتف ماكس: «رائع يا كويتن! شيء لا يُصدّق!».

ثم لأونو: «أليست هذه مفارقة عصيّة على التصرّو؟ الربّ يعلم أين كان سيذهب هذا الرجل للتتقيب عن الآثار، بينما تكون موجودة أمام بابه مباشرة».

قال أونو وقد استغرق في أفكاره وأمسك رأس سهم تحت المصباح: «نعم».

قالت صوفيا: «هكذا هي الدنيا».

فكّر ماكس بصوت عالٍ: «لعلّ الأمر ليس غريباً جداً. حقيقة أنّ قلعة موجودة هنا منذ قرون يمكنها الإشارة إلى أنّ هذا المكان كان مأهولاً بالسكّان في العصر الحجري الحديث».

سأل أونو كويتن: «هل كانت هذه الأشياء مصفوفة بعضها بجانب بعض؟».

- نعم.

نفخ أونو على رأس السهم، بلّله بقليل من اللعاب، وأمعن النظر فيه مرة أخرى. ثم نظر إلى ماكس وقال: «أنا لست عالم آثار، ولكن لديّ تجربة من حياتي السابقة مع نوع معيّن من علماء الآثار. هل أقول لكم ما أظنه؟ ذلك السيّد المقيم هناك في دفيئة البرتقال.. ما اسمه؟» - فيردونكسخت.

- ذلك السيّد فيردونكسخت صنع هذه الأشياء بنفسه وطمرها في الأرض، ليركها بضع سنوات تعتق حتى تصبح من عصر ما قبل التاريخ، ثم يبيعه بأثمان باهظة. أعلم هذا علم اليقين. مجموعته كلّها مزيفة طبعاً.

نظر إليه ماكس مشدوهاً ثم تهاوى على ظهره على الكنب. هتف: «طبعاً! طبعاً!». قال أونو: «نعم، أنت تضحك، لأنك تضحك دائماً، لكننا أمام مشكلة. ذات يوم سيلاحظ هذان المحتالان أنّ هناك شيئاً قد اختفى وأنّ أمرهما قد كُشف».

فسأل كويتن: «هل أعيدها إلى مكانها؟».

- هل يستطيعان رؤية أنك حفرت هناك؟

- أنا أعدت أوراق الشجر إلى مكانها فوق الحفرة.

- ممتاز. نحن الآن في تشرين الأول، ولن تصبح الأرض ظاهرة للعيان مرة أخرى إلا في شباط أو آذار السنة القادمة. عندئذٍ لن يكون هناك ما يدّل على أنك حفرت هناك، ستكون الأشياء وحدها قد اختفت؛ ولكن هذه مشكلتهما. ثم إنهما لن يستخرجا بضاعتهم إلا بعد مرور ثلاث سنوات أو أربع، لأنّ إحساسي يخبرني بأنها لا تزال تحتاج إلى وقت طويل حتى تبدو عتيقة بما فيه الكفاية. لا، ليست هناك مشكلة في أغلب الظن. ارم هذه النفايات في سلّة المهملات على الفور!

قال كويتن بامتعاض: «يا لهما من محتالين! أليس علينا إبلاغ الشرطة عنهما؟».

قال أونو: «بالتأكيد. حتى إنّ هذا واجبنا من الناحية القانونية. لكنني أقترح أن نتغاضى عنه، لأنه ليس عملاً ساراً. إنه شيء معيب طبعاً أن أقول هذا بصفتي وزيراً، لكنّ الشرطة لا تستطيع مؤاخذتنا على أنّ الفكرة، التي خطرت في بالنا طبعاً على الفور، لم تخطر في بالنا».

*

يبدو أنّ للشرطة قنواتٍ أخرى لاكتشاف الحقيقة، فبعد مرور سنة ظهرت سيارة مدامات زرقاء أمام دفيئة البرتقال بصورة مفاجئة، ألقي رجال الشرطة، في كنزات صوفية ودون قبّعات

على رؤوسهم، محتويات الخزانات الزجاجية في أكياس قمامة بلاستيكية، وألقي القبض على إتيان والسيد فيردونكسخت على مرأى صامت من ساكني القلعة كلهم تقريباً. ارتعش كويتن عندما رأهما يصعدان في خضوع تام إلى السيارة؛ رفع عينيه إلى صوفيا وهمس: «أبي محق دائماً»، فوضعت إحدى أصابعها على فمها. ففكر: تصوّر لو حدث هذا لأنّ أباه قد أبلغ عنهما الشرطة. لوح له إتيان بيده من وراء قضبان النافذة. في اليوم التالي نُشر الخبر حتى في الصحافة الوطنية. هذا الأمر جعل موقف الصديقين ضعيفاً لا يمكن الدفاع عنه في خروت ريخترن، فالغى البارون عقد إيجارهما على الفور. قامت زوجة بيت كيلر برعاية التيس مدة أسبوع، ولكن بعد انتقالهما اختفى التيس أيضاً، وبقيت دفيئة البرتقال غير مأهولة بالسكان.

أكثر ما يفتقده هو ذلك الحيوان. حتى بعد مضيّ أسابيع يجلس في بعض الأحيان على الحجر الكبير، فيترأى له خايس مقبلاً عليه بقفزات جانبية - لكنّه لم يكن موجوداً، كان الهواء خاوياً، وهذا الخواء وهذا الغياب يبلغان من الغموض والكمال أنه يكاد لا يستطيع التحمّل. خيّل إليه أنّ العالم بأكمله قد تأذى بسبب هذا الأمر، الغابة، القلعة، كلّ شيء امتلأ بغياب خايس المستحيل عن هذا المكان، بحيث أصبح كلّ ما هو موجود هنا غير موجود بطريقة أو بأخرى، أو لا يمكن أن يكون موجوداً في الواقع، أو لن يكون موجوداً. مع مَنْ سيتكلّم الآن؟ عندما انفجر بالبكاء وهو جالس على الحجر في إحدى المرات، قرّر ألاّ يذهب إلى هناك مرّة أخرى.

انتابه مثل هذا الشعور عندما حلّ وباء الدبابير في أواخر الصيف. كانت النوافذ كلّها قد سُدّت بالغراييل، لكنّها بدت وكأنّها تنفذ من خلال الجدران البالغة متراً واحداً من السّمك. في كلّ الغرف أخذت العشرات منها تظنّ بالقرب من السقف بأجسامها ذات اللون الأصفر والأسود: هذا المزيج اللوني اللثيم، الذي تعلن به على الملأ ألاّ يتوقّعوا أيّ رحمة من جانبها. رأى كويتن أنّ هذا غباء منها في الواقع: إذا كنت سافلاً، فلن تتبيّج بسفالتك، بل ستكتسي باللون الأزرق الفاتح أو الوردي. ولكن السبب في هذا كان طبعاً ترهيب الطيور الشرهة. لم يفهم أحد من أين جاءت فجأة؛ بدا إلى ذلك أنّ هناك دبابير في الداخل أكثر منها في الخارج، لعلّ الغراييل تأتي بنتائج عكسية. وبعد ظهر يوم من الأيام بينما يتسكّع في الجهة الخلفية من العلّية، توقّف عن السير فجأة، وأخذ يهدف السمع وقد أمال رأسه. أدرك أنه طوال الوقت كان هناك اهتزاز في الهواء غير مسموع تقريباً، أقرب إلى شعور منه إلى صوت. هنا أيضاً تظنّ

الدبابير بالقرب من العوارض الخشبية، ولكن الصوت قادم من مكان آخر: من اتجاه الغرف المُخزَّن فيها أثاث خيفرس. توقَّف عند باب مغلق. كان يعلم أنه يفضي إلى غرفة صغيرة، أشبه بحجرة في الواقع، لعلَّ المرأة الغسَّالة كانت تنام فيها في الماضي، ولا تضمَّ الآن سوى قليل من نوابض أسرة صدئة. سحب المقبض إلى الأسفل بحذر وفتح الباب ببطء. تسمَّر في مكانه، وكأنه رأى شيئاً مقدساً لا يجوز أن يراه في واقع الأمر.

عشَّ الدبابير يتدلَّى من السقف مثل قطرة عملاقة من عالم آخر - يبعد قليلاً عن الوسط، ولكن وفق النسبة الذهبية تحديداً، التي علَّمه إياها السيّد ثيمات. يبدو وكأنه مصنوع من ذهب معقَّر بالغبار. تدبَّ عليه المئات من الدبابير، تندفع إلى داخل الفتحة وإلى خارجها، وتطير في غدوَّ ورواح عبر الغرفة، ولكن من دون طنين يُذكر، وكأنها لا تريد إزعاج الملكة، التي تضع بيوضها هناك في الداخل المظلم. فجأة لم تعد تتسم بأي شيء من الخطورة، بل بشيء من التواضع والحنان. كانت النافذة مغلقة. بينما يغلق الباب بهدوء، بدا منظر هذا السرَّ يتعشَّش في أعماقه، وكأنه ابتلعه.

في الجزء الأمامي من العليّة صادف أرند - الذي كان في الصف الرابع من المدرسة الابتدائية ولا يريد أن يُنادى بأرندي مرَّة أخرى. عندما أخبره كويتن بما اكتشفه، ذهب إلى هناك في عدم تصديق، فتح الباب بشكلٍ موارب وصاح: «اللعة!»، أغلق الباب بسرعة وذهب لإحضار والده. قال بروكتور: «مرحى يا كوكوا!»، واتخذ إجراءات على الفور. ارتعب كويتن عندما ظهر، بعد نصف ساعة، عاملٌ من المزرعة القريبة في بثر السِّلْم، وعلى ظهره بخّاحة مبيد حشرات. في العليّة طلب مكنسة، فتح الباب وضرب العشَّ على الفور فسقط من السقف، رجع سريعاً بضع خطوات إلى الوراء، ورشَّ سحابةً سميكة من الغاز السامِّ في داخل الغرفة على مدى عشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية، موجَّهاً إياها إلى العشَّ الساقط على الأرض على وجه الخصوص، ثم لوحَّ بها تلويحة أخرى عبر الغرفة كلّها، وأوماً إلى بروكتور ضاحكاً بأنه يستطيع إغلاق الباب. بعد ذلك نظر الجميع باستغراب إلى كويتن الذي اعتلاه الشحوب فجأةً وأفرغ ما في معدته.

لأنَّ الفلاح قال إنه من الأفضل ألا يقترب أحدٌ من الغرفة مدَّة أسبوع، كان كويتن هو الوحيد الذي بقي يفكِّر في العشَّ. لأنه أفشى سرّاً أدَّى إلى عاقبة مميتة، راوده شعور بأنه يجب عليه تصحيح خطئه. في تلك الأثناء اختفت الدبابير من القلعة، أخرج كيساً بلاستيكيّاً من

أُكياس محلّ البقالة من الدرج السفلي المكتظّ في خزانة المطبخ، وصعد إلى العلّة، كانت الغرفة ذات الرائحة العطنة قد فقدت سحرها. الأرض حول العشّ المهشّم مغطّاة بالدبابير الميتة الجافة. لقد أُيِّدت الدولة عن بكرة أبيها - لقد سمع من بيت كيلر أنّ مثل هذه الجماعة من الدبابير تدعى «دولة». كان العشّ قد صار باهتاً بهوت ورق تغليف قديم؛ ولملمسه أيضاً. حمله بيديه الاثنتين، إنه خفيفٌ للغاية، أقرب إلى الحالة المعاكسة للوزن، مثل بالون مملوء بالغاز، فاضطرّ إلى إمساكه جيّداً ليحول دون صعوده في الهواء، ووضعهُ برفق في الكيس. في الخارج استعار مجرّفةً من السيّد روسكام، دفنه تحت شجرة البلوط البنيّة، وعلمَ المقبرة الجماعية بحجر يستطيع رؤيته من القلعة.

41. الغيابات

كان كويتن في السابعة من العمر، عندما أشعل ماكس شمعةً، مرّتين خلال أربعة عشر يوماً. في أول الأمر سمع كويتن أنّ جدّته الكبرى قد وافتها المنية، السيّدة هاكن المسنّة؛ ثم سمع أنّ جدّه هيندريكوس ياكوبوس أندرياس كويست، وزير الدولة، الحاصل على وسام الصليب الأعظم الملكي أورانيه؛ وسام الصليب الأعظم أسد هولندا؛ وسام الصليب الأعظم الملكي أورانيه-ناساو، وهلمّ جرّاً، قد انتقل بسلام إلى جوار ربّه عن عمر يناهز الرابعة والثمانين. في إعلان النعي في ثلاثة أعمدة، تتبعها عشرة أعمدة أخرى يُرثى فيها أيضاً، كان اسم كويتن كويست من فيستربورك مذكوراً أيضاً في القائمة الطويلة من أسماء أفراد العائلة. أطلعته ماكس عليه، وشعر في اللحظة نفسها بالندم، إذ يمكن أن يؤدّي هذا إلى سؤال صعب، لكنّ السؤال لم يأت؛ يبدو أنّ الأمر لم يلفت انتباهه. عندما ذهب إلى النوم، تحدّث ماكس مع صوفيا عن عدم ذكر آدا كويست-برونس من مدينة إمرن في إعلان النعي. رأت ذلك أمراً صائباً، لأنّ ابنتها لم تعد موجودة. اتصل بها أونو بشأن هذا الموضوع، لكنّها نسيت إخباره؛ لقد وافقته في الرأي على عدم ذكر اسمها.

لم يحضر كويتن حرق جثة والدّة صوفيا. رأى ماكس أيضاً أنّه لا ينبغي أن يُثقل كاهله بالحزن على شخص يسبقه بثلاثة أجيال، ويكاد لا يعرفه؛ ولكن من المستبعد ألا يحضر جنازة والد أونو. لقد ذهب لزيارة جدّيه في لاهاي بضع مرّات، وكان يرى باقي أفراد عائلته أيضاً في بعض الأحيان، في أعياد الميلاد والحفلات؛ حدث عدّة مرّات أن جاء أحد من أبناء أعمامه وعمّاته لقضاء بضعة أيام في خروت ريخترن، لكنّه لم يشعر بارتباط وثيق معهم. العائلة من جهتها أيضاً اعتبرته نوعاً من الغرباء: إذا كان أونو شخصاً غريب الأطوار في عيون آل كويست -رغم أنّ هذا تضاعف قليلاً في السنوات الأخيرة- فإنّ كويتن، الذي تربيّه جدّته

ورجلٌ غريب، شخصٌ من عالم آخر بالنسبة إليهم. يضاف إلى ذلك أنّ جماله ليس «كويستياً» على حدّ تعبير عمّته أنطونيا: آل كويست ليسوا بالجميلين. الحقّ أنّ الجمال لا يناسب الناس المحترمين.

من أجل تفادي الحساسيات لم تذهب هيلخا إلى الجنازة، وكذلك ماكس أخبرته فطرته بأنه لن يكون في مكانه المناسب هناك. ذهب بكويتتن وصوفيا إلى لاهاي، إلى الوزارة، حيث استقبلتهم السيّد سيليياكوس، التي أبقاها أونو سكرتيرة له؛ أكمل ماكس طريقه إلى لايدن، إلى المرصد الفلكي.

كان أونو جالساً خلف مكتبه، بصورة الملكة معلّقة فوق رأسه، يتحدث مع أحد الموظّفين. عندما دخلا، هتف متظاهراً باليأس: «وحيد في العالم!».

لكنّ اليأس الذي تظاهر به كان أقلّ من التظاهر بهذا اليأس.

بعد وضع توقيعه بضع مرّات -الذي بدا مثل سوطٍ مروّض حيوانات في لحظة الوقع- وإجراء مكالمات هاتفية، وإدخال رأسه في شقّ بابٍ هنا وهناك في الممرّات الهادئة، ذهبوا بسيارته إلى شارع ستاتن. لقد اجتمع العشرات من أفراد العائلة والأصدقاء المقرّبين خلف ستائر مغلقة، يتكلّمون بأصوات خافتة، يتركون كوبيّ تصبّ لهم القهوة، ويأخذون بسكويّت الفستق من طبقٍ كبير.

يتبيّن من كل شيء أنّ أونو الآن صاحب أعلى سلطة في العشيرة - إذا ما قورن مع الراحل فهو نكرة بطبيعة الحال، وزيرٌ مفوّض مسكين، ولكنّ الراحل أصبح في عداد الأموات. أفسحو له المجال، صافحه مفوّض الملكة، تفرّس المدّعي العام في عينيه. طبع قبلة على خدّ دول ولفّ ذراعه حول كتفي والدته، الجالسة في كرسي متحرّك، وبدأت تبكي لحظة رؤيته. ثم ذهب ماسكاً بيد كويتتن إلى الغرفة الأمامية، التي تشتعل فيها الشموع وتتصوّع بالرائحة الخائقة المنبعثة من أكداش الأزهار. كان كويست المسنّ، بعد حياة قضّاها في خدمة الملكة والوطن، راقداً بجانب المنصّة التي يقوم عليها الكتاب المقدّس الرسمي، الضخم، المفتوح.

ارتعب كويتتن. إنه يرقد في التابوت فعلاً؛ لقد وضعوا جدّي في التابوت! كان رأسه على وسادة الساتان قد تغيّر إلى حدّ لا يمكن تعرّفه. تذكّر وجهه المكتنز، الثقيل، الجبّار، الذي يتّسم مع ذلك بشيء من الطيبة - الآن يرقد هنا تمثال من الرخام لطائر جارح، صقر متعصّب، مثل الذي رآه بضع مرّات يهبط على فأر حقل مثل لعنة مرفرة. هناك بقعٌ غريبة على جبينه

وصدغيه؛ يلمع شيء بين شفّتيه، وكأنهما ملصقتان إحداهما بالأخرى بالصمغ. همس: «هل هذا جدّي حقاً؟»، فأجاب أونو: «لا. جدّك لم يعد موجوداً».

رمقته أخته ترييس بنظرة معاتبة من الطرف الآخر من التابوت، ثم قالت لكويتن: «جدّك انتقل من الحياة المؤقّنة إلى الأبدية».

نظر بعينين متّسعيتين إلى محتوى التابوت الجامد، دون أن يفهم ما يراه. هنا يرقد شيء مستحيل. كلّ ما رآه في حياته حتى هذه اللحظة كان ممكناً، لأنه كان موجوداً؛ ولكن هنا يرقد شيء لا يمكن رؤيته ومع ذلك يراه. إنه جدّه وليس جدّه!

فجأة، بدأت ترييس تقرأ بصوت هادئ من الكتاب المقدّس المفتوح: «وقال له: الحقّ، الحقّ أقول لكم: من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان».

نظر إليها كويتن باندهاش، وتراءى له في اللحظة نفسها الصّفّ المتعرّج الرفيع من النمل وهو يصعد وينزل على أبواب خزانات المجلى عندما يكون السكّر مندلقاً عليها.

أجبر أونو نفسه على عدم تعنيفها بأنها هي نفسها اختارت السّلّم الاجتماعي على سلّم يعقوب من دون تردّد؛ طبعاً قصدت من تلك القراءة التي لا تُطاق أن تُسمع كويتن في الظاهر فحسب.

بعد ذلك بوقت قصير، ظهر ستّة رجال متّشحون بالسود، ومعهم غطاء. رأى كويتن كيف أنّ جدّته تو، التي يسندها عمّه ديدرك، طبعت قبلة أخيرة على جبين جدّه، ثم وُضع الغطاء على التابوت. رأى الظلّ يسقط على وجه جدّه، فانحنى بركبتيّه انحناءً طفيفاً ليلقي عليه النظرة الأخيرة؛ في اللحظة التي اختفى فيها في الظلام واصطدم الخشب بالخشب، سمع شهقة بكاء عميقة تفلت من صدر أونو، مثل حيوان كان محبوساً وأطلق سراحه أخيراً. رفع إليه عينيه وأمسك يده - وعندما شعر أونو بتلك اليد الصغيرة في يده، أحسّ وكأنه ابن ابنه.

ارتعد كويتن لحظة، عندما رأى الصّفّ الطويل من سيارات الليموزين السوداء الكبيرة واقفة في الخارج. على الطرف الآخر من الشارع كان ساكنو الحيّ ينظرون بأذرع متصالبة إلى الخارجين من الفيلا؛ لقد ظهرت الشرطة أيضاً. ثمة شرطيان على درّاجتين بخاريتين محرّكاهما مشغلان في مقدّمة الموكب، بحذاء واحد طويل الساق على أرض الشارع، ينظران أمامهما بفتور، وكأنهما من أصحاب الموت. سُحب التابوت إلى داخل السيارة الأولى،

وُضعت الأزهار والأكاليل في السيارتين التاليتين. بناءً على توجيهات من رجل أصلع الرأس يقفز جيئةً وذهاباً بأوراق في يديه، أخذ كويتن مكانه في سيارة الموكب الثالثة، على مقعد قابل للطّي، قبالة صوفيا، وهانس ابن ديدرك، السفير في ليبريا حالياً، وهادي فيخ؛ أما أونو فقد جلس إلى جانب السائق. سار الموكب بإيقاع العالم الآخر إلى قرية فاسينار، بينما يلقي رجال الشرطة الواقفون على تقاطعات الطرق كلّها التحية العسكرية. بالقرب من كنيسة في وسط القرية، حيث يجري إبقاء المهتمّين على مسافة بواسطة حواجز حديدية، وقفت سيارات كبيرة عديدة؛ ولكن ما عدا طاقم التلفزيون، والمصوّرين، والسائقين، والعديد من رجال الشرطة، ليس هناك في الواقع سوى عدد قليل من الناس. من الأبواب المفتوحة كانت تتناهى موسيقا الأرغن، التي توقفت بعد لحظة قصيرة من وصولهم.

عندما ذهب كويتن إلى الداخل، أصابه الذهول من الاكتظاظ والصمت في الوقت نفسه. كان الجميع قد نهضوا عن مقاعدهم في الكنيسة الممتلئة. الصّفان الأماميان فارغان؛ عندما ذهب إلى المقعد الذي أرشده الرجل ذو الأوراق إليه، في وسط الصف الثاني، رأى الملكة بشعرها الشائب واقفة في وسط الصف الثالث. ليست هي الوحيدة التي وجّهت عينيها إليه، يبدو وكأنّ الجميع ينظر إليه؛ لكنّه اعتاد تدريجياً على أنّ العالم بأسره يراه جميلاً.

بينما الملكة جالسة وراءه مباشرة، وجّدته تو أمامه مباشرة في كرسيّها المتحرّك، سمع القسيس والمزامير والتراتيل، لكنّه لم يكن يصغي السمع. لم يفكر في هذا الأمر منذ زمن، ولكنّ الملكة ليست والدته بطبيعة الحال، لأنها ليست غير نائمة فحسب، بل وطاعة في السن أيضاً؛ يضاف إلى ذلك أنها لم تُبدِ أيّ علامة على أنها تعرفه. جدّته صوفيا جالسة إلى جانبه، وإلى جانبه الآخر يجلس رودي من روتردام، الذي يبلغ من العمر ما يبلغه هو نفسه، وكان قد ثبتّ طرف شريط مطّاطي على فخذه بإحدى أصابعه، ويشدّ طرفه الآخر بيده الأخرى ويطلقه مرّة بعد مرّة - إلى أن أخذته منه باولا، والدته، بصورة مفاجئة.

عندما انتهى الطقس أخيراً وأخذ يمشي بين أونو وصوفيا وراء التابوت، على درب ضيق ممتدّ بين القبور، سأل فجأة: «بابا؟».

- نعم؟

- لماذا لم تُذكر ماما في ذلك الإعلان الكبير في الجريدة؟

نظر إليه أونو ولم يعرف سريعاً بماذا يجب عليه الإجابة. لقد فكّر في الأمر طويلاً وتحدّث عنه مع هيلخا ودول. رأت كلتاها وجوب ذكر آدا في قائمة النعي، حتى وإن كانت بعيدة

المنال؛ لكنه رأى أنها ليست «بعيدة المنال»، لأنّ هذا يتضمّن إمكانية المنال، وهذه الإمكانية تحديداً لم تعد موجودة. هل يمكنك القول عن نبات إنه «بعيد المنال»؟ سمّت أخته هذا «تلاعباً بالألفاظ»، فقال إنّ له، على ما يبدو، رأياً مختلفاً عن التلاعب وعن الألفاظ على حدّ سواء. لقد وافقته حماته وحدها في الرأي؛ لم يفكر أحدٌ في كويتن. في غمرة من التشوّش ألقي أونو نظرة على صوفيا. إنها المرة الثانية التي يقول فيها كويتن في حياته شيئاً عن آدا. سمع الكلمات تخرج من فمه: «يجب ألا نزعج ماما أبداً».

وأدرك في الحال أنّ هذا يتعارض مع دافعه الحقيقي.

- لأنها تستتيقظ؟

نظر أونو إلى صوفيا باحثاً عن العون. فقالت: «لا يا حبيبي. إنها لن تستيقظ أبداً». أحنى كويتن رأسه دون قول شيء.

كانت مقبرة القرية القديمة صغيرة على استيعاب الجميع. عندما وقفوا في نصف دائرة حول القبر، يد الملكة في يد جدّته تو، أخذ الصفّ الواقف بهدوء يتعرّج على الدروب إلى أن وصل إلى داخل الكنيسة. كان العديد من الناس يحملون باقات زهر - مزيداً من الأزهار: لماذا الأزهار تحديداً؟ أليست الأحجار أفضل منها بكثير؟ بينما يصف رئيس الوزراء الخدمات التي لا تُقدّر بثمن، التي قدّمها الراحل للمملكة، نظر كويتن إلى التابوت ويده في يد أونو. على جانبيه يقف الرجال السّنة المتشّحون بالسود، ووراءهم، بجانب حائط المقبرة، يقف أربعة رجالٍ طاعنين في السن في صفٍّ واحد، كلٌّ منهم بنيشان ملوّن في عروة الزرّ. رأى من خلال أغصان الصنوبر ظلام الحفرة التي يوشك جدّه أن يختفي فيها إلى الأبد.

عندما أنهى رئيس الوزراء حديثه، همس: «بابا؟»، ورفع عينيه، فرأى حينذاك فحسب أنّ خدّي أونو مُخضّلاً بالدموع. الحقّ أنه لم يعد يجرؤ على السؤال، لكنّ أونو قال بصوت أجشّ: «نعم؟».

- أرغب كثيراً في رؤية ماما.

أغمض أونو عينيه وأحنى رأسه بصمت علامة الموافقة.

*

كان في الرابعة من العمر عندما قال شيئاً عن والدته لأول مرة، وها هو ذا يقارب ضعفي ما كان يبلغه حينذاك. حتى إنه لا يعرف أيّ شيء عن الحادث؛ يبدو أيضاً أنه نسي صورة

آدا الموجودة على رفّ الموقد، إذ لم يحدث أن رآه أحدٌ ينظر إليها. كان الجميع متّفقين في الرأي على ضرورة ذهابه لزيارة والدته بصحبة والده فقط. بعد مضيّ أسبوعٍ طلب أونو من السيّد سيلياكوس إلغاء موعد مع مخابر شركة فيليبس؛ بعد ذلك اتصلت بدار الرعاية وطلبت منهم نيابةً عن الوزير المفوض إزالة جهاز التقطير من أنف آدا بشكل مؤقت في ظهر اليوم التالي. رغم أنه لا يزال لديه قليلٌ من الوقت، فقد ذهب إلى القلعة لأخذ كويتن، بعد ذلك سارت بهما السيارة بسرعة مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة على الطريق الإقليمي السريع المؤدي إلى إمن. كان هناك لقاء مع إدارة شركة الغاز الطبيعي، خاسيوني، في خرونيغن على جدول أعماله؛ في المساء يجب أن يذهب إلى مأدبة رسمية في لاهاي على شرف رئيس إفريقي، غاب اسمه عن باله - من دون هيلخا، لأنّ المحظيات لسن موضع ترحيب في البلاط الملكي.

جلسا جنباً إلى جنب في المقعد الخلفي، لكنّهما لم يتحدثا بعد عن آدا. عندما سأله أونو عمّا يفعله، أجاب كويتن إنه ذهب في الآونة الأخيرة إلى استوديو تيو كيرن. يعمل النحات على لوحة تذكارية؛ الحروف، التي يجب أن تُكتب عليها، لا ينحّتها من اليسار إلى اليمين، كما يمكنك الظنّ، بل من اليمين إلى اليسار؛ قال إنها أنسب طريقة: يمسك الإزميل بيده اليسرى والمطرقة بيده اليمنى، هكذا يسهل عليك العمل من اليمين إلى اليسار. مثل كويتن الحركة وسأل: «هل يمكن أن يمتّ هذا بصلة إلى أنّ الناس كانوا يكتبون في الماضي من اليمين إلى اليسار؟ ألأنّ معظم الناس يمينيون؟».

فتح أونو عينيه على اتساعهما وتنهّد بعمق. قال: «نعم يا كويتن، لعلّ هذا يمتّ بكلّ الصلة إليه، وإلى السياسة أيضاً على ذكر الحديث».

- ظننت هذا.

- ممّن سمعت أنّ الناس كانوا يكتبون في الماضي من اليمين إلى اليسار؟

- من السيّد سبير.

انتاب أونو شعور مفاجئ بأنه قد يتعلّم شيئاً من ابنه في يوم من الأيام. بعد ذلك لزم الصمت لإدراكه أنّ مساهمته في تربيته شبه معدومة - حتى إنها أقل من مساهمة شخص مثل السيّد سبير والساكين الآخرين في القلعة. يستطيع طبعاً عقد العزم على تكريس مزيدٍ من الوقت له، لكنّه يعرف أنّ ذلك لن يتحقّق.

عندما اقتربوا من إِمْن، نظر السائق في مرآته وقال: «الشرطة تلاحقنا». فالتفت أونو إلى الوراء. ثمة سيارة صغيرة لشرطة حفظ النظام بضوء علويّ. قال: «زد السرعة!». - ولكن يا سيّدي...

- زد السرعة، هذا أمر!

زاد السائق السرعة إلى مئة وسبعين، بدأت صفّارة الإنذار تدوّي خلفهم، واعترضتهم سيارة الشرطة أمام مدخل «روضة السعادة»، كما لو أنها جاوزتهم. قفز منها شرطيّان باهتياج ورأيا بعد لحظة قصيرة أمام مَن يقفان.

قال أحدهما بارتباك: «أهذا حضرتك يا سيّد كويست؟!».

فقال أونو: «ارتبّت في الأمر. ظننت أننا نتعرّض لهجوم، هنا، بوجود كلّ هؤلاء المولوكان وعمليات اختطاف القطارات...».

فقال رجل الشرطة، ولكن بشيء من الارتياب في نظرتة: «أوه، هذا هو السبب إذًا، طبعاً، لا تؤاخذنا، هذا يغيّر الوضع!».

قال أونو برحابة صدر: «لا مشكلة أيها السيّدان. راقت لكما تلك السرعة، أليس كذلك؟».

- من ناحية نعم، لكنّها لم تخلُ من مخاطرة.

عندما دخلا المبنى، قال أونو لكويستن: «كان يمكن لهذا الأمر أن يأتي عليّ بعواقب وخيمة».

أخذ كويستن يرتجف بعض الشيء من شدّة التوتر: لم يتوقّع أن يؤخذ بهذه السرعة لزيارة والدته. بعد تلك السرعة، بدت الكراسي المتحرّكة في البهو، ذي الجدران الآجرية، أنها تسير أبطأ من بطئها المعهود. كانت المديرية واقفة في انتظارهما، لكنّ أونو أبلغها بأنه يفضل أن يُترك وحده، فهو يعرف الطريق. أخذهما المصعد الكبير إلى الطابق العلوي، وعندما وضع يده على مقبض الباب قال: «لا داعي للخوف».

رأى كويستن والدته. ها هي ذي هنا: تحديداً هنا، في هذا المكان من العالم، وليس في مكان آخر. شعرها الأسود مقصّر. تخطّى العتبة ونظر إلى النائمة التي لا حراك فيها - الشرف وحده يتحرّك ببطء في صعود وهبوط. شعرها عند الصدغين شائب بعض الشيء.

سأل بعد برهة من الزمن: «أحقّاً لا تستطيع ماما الاستيقاظ أبداً؟».

- لا يا كويتن، ماما كانت نائمة حتى عندما أنجبتك. لم تعد تستطيع سماع أي شيء ولا رؤية أي شيء ولا الشعور بأي شيء - لا شيء على الإطلاق.

- كيف يمكن هذا؟! إنها ليست ميتة، مثل جدّي، أليس كذلك؟! إنها تتنفس.

- إنها تتنفس، نعم.

- هل تحلم؟

- لا أحد يعرف. الأطباء يظنون أنها لا تحلم.

- كيف يعرفون؟

- يقولون إنهم يستطيعون قياس هذا بواسطة أجهزة معينة. حسب رأيهم، لا يجوز حتى القول إن ماما نائمة.

- ماذا يجب القول إذا؟

تردد أونو لكنه قال مع ذلك: «إنها لم تعد موجودة».

- حتى وإن لم تكن ميتة؟

قال أونو بوجه متجهّم: «حتى وإن لم تكن ميتة. هذا يعني أنّ ماما ميتة في حين أنها ليست ميتة... أقصد، التي ليست ميتة هي ليست ماما. إنها ليست ماما، هذه التي تتنفس».

- من هي إذا؟

نذت عن أونو إيماءة عاجزة: «لا أحد».

- ولكن هذا غير ممكن.

- هذا غير ممكن إطلاقاً، لكنه مع ذلك واقع.

مكتبة

t.me/soramnqraa

عاود كويتن النظر إلى الوجه على الوسادة. العينان مغمضتان، الرموش السوداء نصف الدائرية تشبه فراشي رسم معينة، مثل الموضوع في وعاء خزفي عند تيو كيرن، وهي تشبه الأعمدة النخيلية المصرية التي رآها في كتاب من كتب السيّد ثيمات؛ الأنف صغير ومستقيم، أحمر وملتهب بعض الشيء على الطرف، الفم مغلق، الشفتان جافتان. هل يمكن أن يكون هناك شيء عصيّ على الفهم أكثر من جدّه الميت الذي كان راقداً في التابوت الأسبوع الماضي؟ في السرير ترقد امرأة تنبض بالحياة، تتنفس - ألم يكونا سيذهبان لزيارة والدته؟ لماذا جاءا إلى هنا على غير المقرّر؟ هل هذه والدته أم لا؟ ولو أنها والدته وليست والدته في

الوقت نفسه، مَنْ يكون هو نفسه إذا؟ وَمَنْ يكون والده إذا؟ كانت أفكاره تجول وتصول - وإذا بلمعان خفيف يتوهج في رأسه، كما هو الحال مع دينامو، مثل الوقت الذي يكون راقداً في السرير في الليل ويرى انعكاس نار عيد الفصح يلعب وراء الأشجار: النار العالية علو الأبراج المشتعلة من الأغصان الجافة، التي يجمعها الجميع من الجوار، ويشعلها البارون كل سنة في المرج القريب من كلاين ريخترن، ويأتي المئات من الناس لرؤيتها. قال وهو يفكر لحظة في بيت كيلر: «ماما مقفلة».

أعطاه أونو كرسيّاً وجلس هو أيضاً. أدرك بمرارة أنّ أسرته قد التأم شملها لأول مرة: الأب، والأم، والابن، ولا أحد آخر.

نظر إليه كويتن من فوق السرير: «كيف حدث هذا يا أبي؟».

أحنى أونو رأسه وروى له القصة بأكملها في خطوطها العريضة، القصة بأكملها على وجه التقريب - لم يذكر أنّ آدا كانت صديقة ماكس في أول الأمر. أخبره عن الصداقة التي تربطه بماكس، كيف كان أحدهما في صحبة الآخر ليل نهار، من أجل أن يفهم كويتن لماذا أصبح ماكس تحديداً والده بالتبني. أخبره عن مهارة آدا الموسيقية، عن عملها في واحدة من أفضل فرق الأوركسترا في العالم. عندما وصل إلى زيارتهما لدفنغلو، وإلى الحادث في الليلة العاصفة، عاودته الذكرى بكلّ زخمها، فاضطرّ إلى بذل جهد للتحكّم بنفسه.

- بعد ذلك بقيت ثلاثة شهور في بطن أمك. كان ذلك شيئاً استثنائياً للغاية، حتى إنّ الجرائد كتبت عنه في وقت لاحق.

نظر كويتن إلى المحيط الأبيض لجسم آدا تحت الشرشف: «هل كنت في هذا البطن؟».

- نعم.

أخذ ينوس بجسمه العلوي إلى الأمام والخلف، واضعاً يديه على ركبتيه، مستغرقاً في التفكير: «ولكن إذا كنت هناك في الداخل في ذلك الوقت، فمعنى ذلك أنني لم أكن في الواقع في بطن ماما؟».

أوماً أونو إيماءة عاجزة ولم يعرف ماذا يقول. التناقض يجعل كلّ شيء صحيحاً، بحيث لا يعود أيّ شيء صحيحاً.

- لا تحاول أن تفهم يا كويتن. إنه شيء لا يمكن فهمه.

في حين كان كل شيء يبدو عادياً في الغرفة، شعر كويتن بأنه محاط بالألغاز، التي يشكّل هو نفسه جزءاً منها. تُخيل إليه وكأنّ فضاء لا متناهيّاً كامناً في داخل هذا الجسد هنا.

- هل يمكنني لمسها؟

- طبعاً.

وضع يديه الاثنتين على يدها وشعر بدفئتها لأول مرة منذ ولادته. ألا تلاحظ هذا حقاً؟
نظر إلى وجهها، الذي بقي ساكناً مثل وجه تمثال في استوديو كيرن.
- أريد رؤية عينيها يا أبي.

عينيها! نهض أونو عن مجلسه بارتباك. لم يرَ هو أيضاً عينيها منذ ثماني سنوات! هل يجب أن يستدعي ممرّضة أم أنه يستطيع رفع أحد جفنيها بنفسه؟ بينما يراوده شعور بأنّ ما يفعله شيء غير لائق، انحنى فوق السرير، وضع أناملته الوسطى على أحد جفنيها، ورفعها برفق. نظرا معاً إلى العين ذات اللون البنّي الغامق المائل إلى السواد، التي لا ترى شيئاً - مثل العين التي تبدو وكأنّها تشكّل في السماء أثناء كسوف كامل للشمس.

*

أثناء العشاء في مساء ذلك اليوم، كاد كويتن لا يستطيع إبقاء عينيه مفتوحتين - بعد ذلك مباشرة ذهب إلى السرير وانتهى به المطاف في المنام الذي لن يتركه بعد اليوم...

كلّ ما حوله يبدو ممتلئاً بالمباني: الكون متحوّل إلى مجمّع معماري واحد، لا بداية له ولا نهاية. ليس هناك كائنٌ حيّ في أيّ مكان - إنه وحده تماماً لكنّه لا يشعر بالوحدة، يهيم على وجهه عبر سلسلة من قاعات لا حدود لها، ممرّات معمّدة، سلالم، شرفات، مشكاوات، أعمدة، جسور مشاة، أروقة، قناطر تمتدّ في الاتجاهات كلّها، من جانب واجهات مباني منمّقة زاخرة بالتماثيل والزخارف تتحوّل إلى جدران داخلية، عبر أقبية تكون علالي في الآن ذاته، فوق سطوح تبدو أساسات في الوقت نفسه. لأنّ الداخل ليس له خارج، لا يستطيع ضوء النهار النفاذ من أيّ مكان، ولكن لا يسود ظلام، رغم أنه ليست هناك مصابيح مشتعلة. ورغم أنه لا يصادف أحداً ولا يعرف من أين هو قادم ولا إلى أين ذاهب، يملؤه التجوّل عبر هذا العالم نصف المظلم بالبهجة: هذا الصرح، المرصوص بعضه إلى بعض، المرفوع بعضه فوق بعض، المترامي الأطراف، يضّمّه ويهدده مثل حوض حمام مليء بعسل دافئ. يسود صمتٌ شامل في كل الأرجاء؛ فقط من حينٍ إلى آخر يتناهى حفيفٌ برهةً قصيرة، يذكرّه بخفقان

جناحيّ طائرٍ كبير. يقف فجأةً أمام بابٍ مغلقٍ ذي مصراعين من خشب عتيق، مزينٍ بنماذج معيّنة الشكل مزوّدة بقضبان حديدية، ومُقفَل بقفلٍ مشبكٍ سحابٍ صدئٍ ثقيل، بحجم شريحة خبز. مظهر هذه الأداة الناضحة بالتهديد يبيّن الرعب في نفسه. يبدو وكأنّ الباب ينظر إليه، ويسمع في الوقت نفسه صوتاً أجشّ يقول: «مرکز العالم». الكلمات تبدو هادئة مثل الهدوء الذي يقول به شخص: «اليوم يوم جميل» - لكنّها في الوقت نفسه تغمره برعبٍ كبيرتيّ مميت، فلا يبقى أمامه غير وسيلة واحدة لإنقاذ حياته: الاستيقاظ.

فتح عينيه غارقاً بالعرق، مرتعد الأوصال، لكنّ الرعب لم يزياله. جلس من رقوده ولم يعرف أين هو، الظلام الشامل يحيط به وكأنّ الكون لم يعد يحتوي فجأةً على شيءٍ سواه. مدّ يده وأحسّ مع ذلك بحائط، خرج من السرير، تلمّس طريقه لاهثاً فوجد باباً، ولكن خلفه يسود من الظلام والصمت ما يسود أمامه؛ خطأ بضغ خطوات في دھول، مرّر راحة يده على حائط، اصطدم بشيء، تلمّسه دون أن يعرفه، تركه ولفّ حول محوره. أين هو؟ خطأ بضغ خطوات أخرى، اصطدمت أصابع قدمه بعتبة فتوقّف فاتحاً عينيه على اتساعهما. فجأةً، ومن دون أن يريد، أطلق صرخة قوية. سمع في الحال صوت صوفيا في البُعد: «كويتن! ما الأمر؟ هل رأيت كابوساً؟ انتظر، إنني قادمة!».

*

عندما أغلقت باب غرفة النوم وراءها، ظهر خطٌّ من الضوء في العتبة. طوى ماكس يديه تحت رأسه وأخذ يحدّق فوقه في الظلام. هذه هي النهاية. كان من المستحيل ألا يحدث مثل هذا الشيء في ليلة من الليالي: وها هو ذا قد حدث. لن تظهر مرّةً أخرى في سريرهِ. ليس هناك سبب لهذا في حدّ ذاته، فلماذا لا يجوز للجدة أن تكون على علاقة حميمة مع صديق صهرها؟ ولكن لا يجوز لكويتن أن يعرف بها، لأنّه قد يتطرّق إليها معهما الاثنين أثناء النهار، وهذا شيءٌ غير جائزٍ بطبيعة الحال.

استمعَ إلى الصوتين في غرفة صوفيا، كويتن يرقد في سريرها بطبيعة الحال، فاستحوذ عليه شعورٌ عميق بالطمأنينة. الحقّ أنه توقّع حدوث هذا الأمر قبل هذا بوقتٍ طويل. إنه يناهز الثانية والأربعين، وتبلغ هي الثانية والخمسين. لقد استغرقت سبع سنوات، فترة طويلة. اتسمت علاقتهما بطابع اللغز، إمكانية جديدة تماماً إلى جانب الأسرة التقليدية، المكوّنة من أبٍ وأمٍّ وطفل، دون أن تحلّ محلّ الأسرة. في النهار كان هو الرجل الوحيد في العالم الذي

يرأس أسرة لا تنشب فيها نزاعات، مكوّنة من ابن صديقه وحماته، التي لا تربطه بها أيّ علاقة جنسية؛ لكنّه عشيقها في الليل. اعتماداً على موقع الشمس، كان كلّ منهما شخصاً آخر - باستثناء الطفل الذي بقي ببساطة ابنَ صديقه، وإن ارتاب في هذا الأمر فترة طويلة. قال له أونو في إحدى المرات: «كلّ شيء مختلف في حالتك على الدوام». لم يكن أيّ شيء في حياته متطابقاً مع الظاهر، حتى حقيقة أنه «عالم فلكيّ»، أخذت تعني له شيئاً مختلفاً منذ أن بدأ العمل في فيستربورك.

كيف ستسير الأمور؟ لقد نُسف الأساس الذي ارتكزت عليه علاقته بصوفيا، ولكنّ المهمة التي أخذها على عاتقه بقيت طبعاً على حالها: من المستبعد أن يغادر ما دام كويتن يسكن في البيت - وهذا يمكن أن يستغرق عشر سنوات أخرى. سيكون عندئذٍ في الثانية والخمسين من العمر.

42. الحصن

أيضاً بالنسبة إلى أونو، جاءت لحظة أخرى تغير فيها كل شيء بصورة مفاجئة. في آذار عام 1977 سقطت الحكومة، فأجريت انتخابات جديدة أصبح فيها حزبه هو الفائز الأكبر: هذا يعني في أغلب الظن أنّ منصباً وزارياً يلوح له في الأفق. ولكن في نهاية أطول مخاض سياسي عرفته هولندا، دام تسعة شهور، قام الديمقراطيون المسيحيون باختيار المحافظين على الاشتراكيين في اللحظة الأخيرة لتشكيل ائتلاف حكومي معهم، فأصبح عاطلاً عن العمل بين ليلة وضحاها. بعد أن سلّم صلاحياته إلى خليفته في الوزارة واستلم وساماً على خدماته، عُرض عليه أن يُوصَل إلى بيته بالسيارة الرسمية للمرة الأخيرة، لكنّه قدّم شكره على العرض، وقال بكرامة مهانة: «الناس المحترمون يسافرون بالقطار» - لكنّه عندما وقف في الشارع بعد ظهر ذلك اليوم الشتوي البارد، تبين أنّ الأمر ليس بهذه السهولة، فقد اعتاد ألاّ يحمل معه نقوداً منذ تولّيه المنصب. أبدى البوّاب استعداده لأن يقرضه خمسة وعشرين فلوريناً، وبينما يجلس في الترام المتجه إلى المحطة وجد نفسه يصفرّ بفمه. إنه إنسان حرّ! فهذا هو ذا يغادر لاهاي! وداعاً أيتها البرك المائية، أيتها الأزقة، المستشاريات، حفلات الكوكتيل، القمصان المخطّطة الزرقاء، الوجوه الجامدة!

عندما خرج من المحطة في أمستردام، كان الظلام قد حلّ. مشى وهو يصفرّ بفمه في المدينة المضاءة المفتقرة إلى الترتيب، ورأى الحياة اليومية لأول مرة منذ سنوات عديدة دون أن تراوده أفكارٌ ونوايا سياسية، مثل الوقت الذي تُفتح فيه النافذة بعد انتهاء الحفلة ويتدفّق هواء الليل العليل إلى داخل الغرفة. مع اقتراب الأعياد، كانت الشوارع مزدحمة، والمحلات والمقاهي مكتظة، يقف جنود «جيش الخلاص» على الرصيف يغنون حول وعاء يضع الناس النقود فيه، تجلس فتاة على العتبة تعزف على الغيتار، ينحني رجلٌ من شبّاك سيارته ويشتم

راكب دراجة هوائية. كل شيء على حاله، مزدحمًا، صاخبًا، فوضويًا، وينطوي في الوقت نفسه على شيء أبديّ، شيء كان موجوداً على هذا النحو في القرون الوسطى، أو في روما القيصرية، أو في القاهرة الحالية، أو حتى في مكان أبعد أو زمان أقدم. هناك فترات تختلف فيها الوضع، مثل فترة الاحتلال الألماني؛ ولكن بما أنّ الخير في العالم يتنصر دائماً في نهاية المطاف لأسباب لا يمكن سبرها، فهذا هو المنظر الحقيقي للمدينة الأبدية. شعر برضاً بالغ. بما أنه يتفق القليل من المال، يمكنه العيش من ميراث والده إلى يوم مماته إذا تطلّب الأمر؛ حتى الحوالات المالية التلقائية من أجل تربية كويتن لن تتعرض للخطر. ثم إنه يتوقع المزيد من جهة والدته، الراقدة في المستشفى منذ بضعة أسابيع؛ يضاف إلى ذلك أنه سيحصل على تعويضات سخية عن إنهاء خدمته على مدى عدة سنوات. ناجى نفسه: يجب على الإنسان في الواقع أن يقضي حياته كلها في التجوّل في الشوارع، أو يجب عليه فعل شيء حقيقيّ إن لم يكن وضعه المالي يسمح بذلك. لعلّ الإنسان الحقيقي هو الرجل الجُرْفِيّ.

اتصل بهيلخا من حجرة هاتف عمومي، مغطاة أرضها بصفحات دليل الهاتف الممزّق. اتفقا على اللقاء في مطعم يوناني.

على ضوء الشمعة، الذي يهدف إلى إعطاء حتى أقسى شريحة من لحم الضأن مظهر شريحة طرية من لحم العجل النبيل، أخبرها بأنّ زملاءه المفصولين وقادة الحزب مجتمعون الآن في غرفة الحزب في مبنى البرلمان وهم يشعرون بالمرارة، أما هو فقد وقرّ على نفسه هذا الرثاء. يريد الاحتفال باستعادة حرّيته، فقد بلغ الرابعة والأربعين منذ شهر واحد فقط - وما زالت أمامه حياة بأكملها! وسيكون لديه أخيراً متسع من الوقت ليقضيه مع كويتن.

استفسرت هيلخا: «على من تضحك؟ عليّ أم على نفسك؟».

سكت أونو وتنهد بعمق، ثم قال: «يا لك من امرأة لا تُطاق! طبعاً أضحك على نفسي. ولكن ألم يكن بوسعك منحي مزيداً من الوقت لفعل ذلك؟».

- أعرف بالضبط متى سترفع سماعة الهاتف وتتصل برفاك الشاعرين بالمرارة.

- ومتى سيكون ذلك؟

- عندما تعود إلى البيت بعد قليل وترى أوراق قرصك المصفرة معلقة على الحائط.

نظر إليها بضع ثوانٍ بصرامة.

- هل تعتقدين أنه من اللائق أن تعرفي شخصاً إلى هذا الحد؟ هذا شيء غير محبّد إطلاقاً

بين الرجل والمرأة. لا ينبغي أن يسود بين الرجل والمرأة سوى سوء التفاهم، كي يمكن التغلب عليه بالجماع الجسدي.

- لا تؤاخذني!

أمسك يدها وطبع قبلة عليها: «ماذا ستكون حالي من دونك؟».

وما إن مضت بضعة أسابيع حتى كان يجلس في مقعد، ضيق في الواقع على جسمه الضخم، بصفته عضواً معارضاً في مجلس النواب ويستمع بتأفف إلى بيان الحكومة الجديدة. لقد طارده قرص فستوس مرة أخرى إلى لاهاي بلا رحمة. كان بوسعه التقدم بطلب للحصول على وظيفة خارج المجال السياسي، كما فعل معظم زملائه من الحكومة السابقة، لعل بوسعه أن يصبح مديراً لمؤسسة البحث العلمي البحت، أو عمدة بلدية مثل بلدية فيستربورك، ليتلقى على إثره التهاني الساخرة من أخيه الأكبر؛ لكنه فعل حسب رأيه ما يجدر بسياسي فعله في ظروفه: انضم إلى المعارضة التي يقودها رئيس الوزراء السابق. يضاف إلى ذلك أن هذه الوظائف الاجتماعية كلها لا تنسجم مع شخصيته. لم يكن يشعر إطلاقاً بأنه سياسي حقيقي؛ ولكن ما يشترك معه السياسيون الحقيقيون فيه هو أنهم هم أيضاً بوهيميون في آخر الأمر، أولاد شوارع، كي لا نقول مقاتلو شوارع، شخصيات هامشية، مغامرون. وسرعان ما لاحظ أن عضويته في البرلمان تناسبه بمعنى أو بآخر أكثر من عضويته في الحكومة، فهو يجيد المقاطعات اللازمة أكثر من السياسة الحكيمة. يستطيع التسبب في مشاحنات سياسية في طرفه عين. ردّاً على التطورات التي حدثت في اليسار الهولندي، كان أهمّ حزبين بروتستانتين قد اندمجا مع الحزب الكاثوليكي في ائتلاف ديني عام؛ ولكن ما حدث في الواقع هو أن الكاثوليكين ضموا البروتستانتين إليهم ببساطة - عابدو الأيقونات أخضعوا أخيراً محاربي الأيقونات - الأمر الذي جعله يذهب إلى الميكروفون أثناء جلسة الحوار عن سياسة الحكومة في الفترة القادمة، ويقول لرئيس الوزراء الجديد الكاثوليكي المتطوّف إن حرب الثمانين عاماً، التي ولدت عنها الأمة، قد خيضت عبثاً على ما يبدو. هكذا أصاب هولندا في الصميم، شاملاً حتى العائلة المالكة بطريقة غير مباشرة، فتسببت هذه الملاحظة في هياج في الصحف وعلى التلفزيون على مدى أسابيع طويلة.

لكنه عندما رأى وجه رئيس الوزراء يتجمّد، شعر بالاشمئزاز - لا لأنه فعل شيئاً في حقّه، فقد كان خصمه بارعاً بالقدر نفسه في هذا الأسلوب، بل لأن الكلمات صارت تفعل الأشياء

من جديد. وبما أنه نائب مراقب في البرلمان من دون سلطة، فقد بدا عالمه أكثر هلامية وتجريداً من الوقت الذي كان بوسعه اتخاذ القرارات. لهذا الأمر بُعد لأخلاقي، مثلما عبّر لماكس، إنه عمل من دون فعل شيء، لكنّه يؤدّي على الأقل إلى نتائج. لم يعد حديثه عملاً من ناحية، وكان من ناحية أخرى لا يزال حديثاً غير عادي، بل هو انشغال زائف هجين - في صالة الاجتماعات، في غرف اللجان وتلك المحافل الأخرى كلّها من الخدع الكلامية في البرلمان، الذي يبعد سنوات ضوئية عن الواقع. هذا كلّهُ يحدث في كرة بلّورية، لعلّ ماكس وحده يستطيع رصدها ذات يوم بفضل مرآتيه الثالثة عشرة والرابعة عشرة، اللتين استطاع أن يحققهما له وأصبحتا قيد الإنشاء.

سأل هيلخا بيأس، بينما يرقد على أريكتها: «هل يجب حقاً أن أفعل هذا أربع سنوات؟ وربما أربع سنوات أخرى بعد ذلك؟ سأكون عندئذٍ في الثانية والخمسين! كم من الوقت تستطيع أن تبقى ديمقراطياً من دون سلطة؟».

أجابت: «مَن يدري؟! لعلّ أزمة تحلّ في الأجل القريب، أو يحدث شيء غير متوقّع يغيّر كلّ شيء».

فهتف: «آه يا إلهي! اجعل كلّ شيء جديداً!».



لم تحلّ أزمة في غضون ذلك، وخلال السنوات الأربع التي بقيت فيها الحكومة المخزية، الكلبية، اليمينية في السلطة، مثل نظيرتها الهابسبورغية الكاثوليكية الإسبانية التي هيمنت في القرن السادس عشر، صار يرى كويتن أقلّ من السابق، ليس أكثر من بضع مرّات في السنة، في عيد ميلاده، في أعياد الميلاد، أثناء جنازة جدّته تو - كان السبب أيضاً هو أنه لم يعد لديه سيارة بسائق، ولا حتى سيارة من دون سائق على ذكر هذا الحديث، إذ لم تكن لديه رخصة قيادة، شأنه في ذلك شأن هيلخا: قيادة السيارة، حسب رأيه، شيء خاصّ بالسائقين تحديداً وليس بالمسافرين من أمثاله. أصبح كويتن بالنسبة إليه حادثة من الماضي بمرور الوقت.

لكنّ الحياة في خروت ريخترن استمرّت على منوالها من دونه أيضاً. منذ ظهور كويتن على عتبة غرفة نوم صوفيا في تلك الليلة، لم تعد تأتي إلى غرفة ماكس مثلما توقّع. بعد سبع سنوات من الإخلاص السريّ، الذي كان خداعاً مثيراً في الوقت نفسه، وبعد بضعة أسابيع من العزوبية، بدأ علاقة مع سكرتيرة في المرصد الفلكي في دفنغلو، تشيجالنغتشني بوبما؛

امرأة شقراء طويلة في نحو الثلاثين من العمر، بقوام جميل ولكن أيضاً بطباع ريفية مسيحية صارمة، تشبه تماثلاً من تماثيل أرنو بريكر، نحّات هتلر المفضّل. كانت كلما رأتَه في ملابسه الدنيوية الأنيقة، تجلّت نظرةٌ من النفور والاشمئزاز العميقين في عينيها؛ لم يكن يكثرُ بتلك النظرة، وإن فسّرَها منذ اللحظة الأولى بأنها إعلانٌ للحب، لأنك طبعاً لا تنظر بهذه الطريقة إلى شخص تكاد لا تعرفه. ولكن بدافع من امتناعه عن المملّذات بدأت تثيره يوماً بعد يوم. في المساء الأول مباشرة، بعد أن اقترح عليها الذهاب معه لرؤية الهلال في الصمت الصاخب في الممرج، تحوّل نفورها الفاضل إلى خلاعة متخبّطة وصرخات عالية: «أوه يا إلهي! أوه يا إلهي!» أرعبت طيور الضريس وطفادع الحقول، فتوقّف ضاحكاً، ببنتاله حول ركبتيه، وأرهف السمع ليعرف ما إذا كان علماء فلكيون قلقون يقتربون منهما.

ولكن بعد الانتهاء: دُمّ ودموع. لقد أفقدها عذريتها.

- أنا خجلة جداً، حتى إنني لا أعرفك!

- هذا هو الشيء المشترك بيننا.

كانت تعيش في غرفة مستأجرة في مدينة ستينفايك، فوق متجر قرطاسية صغير يبيع أيضاً بطاقات بريديّة وألبومات صور. السبب الإضافي الذي جعله يغرم بها هو تأثيث غرفتها بشكل بنّاتيّ مؤثّر، بمجموعة صغيرة من ألعاب قديمة مصنوعة من القصدير؛ لأنّ كل شيء أصبح باهظ الثمن بالنسبة إليها في السنوات الأخيرة، صار يشتري لها بين حين وآخر لعبة على شكل طائر ملوّن قابل للتعبئة عندما يكون في لايدن. لا يتجاذبان أطراف الحديث كثيراً، ولا سيّما عنه وعن حياته؛ يستمعان إلى الموسيقى، يفتح هو الخرائط الراديوية الخاصة به، تحيك هي كنزة صوفية بضمفائر من أجله، يجب عليه ارتداؤها عند الانتهاء منها، وبعد أخذ حمّام يذهب إلى البيت. لم يحدث أن اصطحبها إلى خروت ريخترن، رغم أنها طلبت منه ذلك في إحدى المرّات - ليس مراعاةً لصوفيا في المقام الأول. لأنه لم يكن هناك أي شيء بينه وبين صوفيا في النهار في نهاية الأمر، فقد أخبرها بعدم اكتراث، في المطبخ، بعد مضيّ بضعة شهور: «على فكرة، أريد إخبارك بشيء يا صوفيا. لديّ صديقة في الوقت الحالي».

قالت دون أن ترفع عينيها: «كم هو شيء جميل! كنت أشمّ أنك تستعمل صابوناً مختلفاً بين حين وآخر».

قال: «امرأة مهذّبة، ابنة قسيس من قرية إنتر».

لكنّها لم تستفسر عن المزيد؛ ولا أعربت عن رغبتها في التعرّف إليها.

بعد ذلك لم يعودا إلى الحديث عن هذا الأمر. ولكنّ كويتن على وجه الخصوص هو الذي حال دون تقديم صديقه تشيجالنجشي قوية البنية رقيقة المشاعر. خروت ريخترن عالم كويتن في المقام الأول، ويجب ألاّ يعكّره بنزواته الخاصة؛ يضاف إلى ذلك أنه خاف بعض الشيء من النظرة التي سيرمقها بها كويتن. لم يتحدّث عنها مع أونو أيضاً.

*

كلّما كبر كويتن في العمر، ازداد غموضاً في عيون الجميع. ليس لديه أصدقاء، وعموماً فإنّه يقرأ في غرفته أو يتسكّع في المنطقة المجاورة - في أحيان نادرة بـ«الريكوردر»^(٥) الخاصّ به. عندما يجلس ماكس وصوفيا على الشرفة، يسمعان النغمات الرعوية تتناهى من الغابة في بعض الأحيان، من مكانه المفضّل بجوار البركة المائية التي تنمو شجيرات الرندرة على أطرافها. كان ماكس يرى تلك النغمات، الممتزجة مع شدة الطيور غير المرئية، أكثر تأثيراً من أعذب أداء مؤثّر لأجمل سيمفونية تقدّمها أفضل الفرق الموسيقية، ويرى على صوفيا أنها تفكّر هي أيضاً في آدا، لكنهما لا يتحدّثان عن هذا الأمر.

عندما كان في العاشرة من عمره، في عام 1978، أوقفت السيّدّة تريب صوفيا على الجسر الخارجي بعد ظهر أحد الأيام: «هل أخبرك كويتن؟».

- أخبرني؟ ماذا تقصدين؟

كانت في اليوم السابق تنزّه مع البارونة في حديقة الورد في كلاين ريخترن. وكويتن عند روتخر كما اعتاد أن يفعل في أغلب الأحيان في الآونة الأخيرة. البارونة لا تحب الزيارات غير المتوقّعة على العموم، ولكن لأنّ روتخر يبتهج بصورة واضحة عندما يزوره كويتن، فقد كان موضع ترحيب دوماً. فجأة طرق سمعهما عويلٌ يمزّق القلب من جهة الشرفة. هرعنا إلى هناك ورأنا روتخر جالساً على الأرض يبكي، وذراعه حول ركبتَي كويتن - حول ركبتَي جلّاده، كما اتضح بعد ذلك بقليل. كان كويتن يقصّ الخيط الذي يغزله روتخر إلى قطع صغيرة - أجمل شيء يملكه، إبداعه اللانهائي الذي يعمل عليه منذ سنوات طويلة. كانت والدته أيضاً تُعمل المقصّ فيه بشكل منتظم، لكنّها طبعاً لا تفعل ذلك في حضوره. بلغنا من الدهول أنهما لم تستطيعا التّدخل؛ يضاف إلى ذلك أنّ الشعور راودهما بأنّ ما يحدث لا يجوز

(٥) آلة موسيقية شبيهة بالناي. [م]

لأحد إيقافه. كما أنّ جمال المشهد الغريب أصابهما بالشلل: هذا الصبي رائع الجمال مع هذا المعتوه المشوّه الذي يكبره بعشرين سنة عند قدميه، بينما ينظر إليهما الطاووس بمروحة من خمسين عيناً من بستان الخضراوات.

قال كويتن بينما يواصل قصّ الخيط إلى قطع من مترٍ واحد: «نعم، اهدأ قليلاً، انتظر قليلاً! سنصنع ستارة كبيرة جداً. ألا تريد فعل هذا، أن تصنع ستارة كبيرة جداً؟!». قال روتخر باكيّاً: «نعم. لا تفعل هذا، لا تقصّ!».

- ولكن إذا أردت صنع ستارة كبيرة جداً، فيجب عليك صنعها أيضاً. يجب ألا تغزل خيطاً واحداً فقط إلى أبد الأبدین. يجب أن تنسج أيضاً. انظر، هكذا...

ثم جلس إلى جانبه على الأرض، أخرج إبرةً كبيرة من جيبه، وأمسك بالقماش الخام الخشن المنسوج على شكل شبك، بمساحة مترٍ مربعٍ واحد، الذي كان قد أحضره معه - والذي اتضح أنه قد اشتراه من مصروفه الخاص من متجر الأقمشة في القرية. بينما يغرز الخيط عبر القماش، ويخبره بما يفعله من دون انقطاع، توقّف روتخر عن البكاء وأخذ ينظر منبهراً الأنفاس، بصدرٍ ما يزال يتنفّض، إلى ما يحدث.

قال كويتن بينما يعطيه الإبرة: «والآن دورك. وعندما يمتلئ هذا بشكل كامل، سنشتري قماشاً جديداً. وعندما يمتلئ هو أيضاً، سنخيّطه إلى هذا القماش ونشتري قماشاً آخر، إلى أن...»، ولوّح بذراعه: «... تصبح الستارة بحجم العالم كلّه».

ضحك روتخر واللعب يسيل من فمه: «نعم!».

- وعندما تصنع ستارة أخرى، سنعلّقها على الشمس والقمر!

فانحنى روتخر إليه وطبع قبلة على خدّه: «نعم! نعم!».

لم يخطر في بال أحد قطّ أن يتدجّل في عمل روتخر عديم النفع، فضلاً عن أن تواتيه الشجاعة لتنفيذه.

سأله ماكس بإعجاب في مساء ذلك اليوم: «كيف خطرت تلك الفكرة في بالك؟ كيف واثّك الجرأة؟».

أجاب كويتن: «هكذا، من تلقاء نفسها».

نظر ماكس إلى صوفيا وقال: «هذا الصبيّ لديه سمّةٌ مطلقة في شخصيته».

بقي الحلم المعماري المُنشئ، الذي ألمَّ به عقب زيارته الأولى لوالدته، يعاوده كل بضعة شهور - تقريباً بالوتيرة نفسها التي يزور بها إمَّن. على أنه لم يعد يلتم به في اليوم نفسه، ولم يعد ينتهي بكابوس أيضاً، رغم وجود الباب المصفَّح المزوَّد بقفل المشبك عند «مركز العالم». كان كلَّما هامَ على وجهه عبر الصرح اللامحدود، في متاهات الغرف، من جانب الواجهات الداخلية المزخرفة، على الشرفات، يبقَى راقداً برهة قصيرة بعد الاستيقاظ، يفرق المفضلين العلويين في إبهاميه كعادته كل صباح، ويحاول الاحتفاظ بالذكري - لكنَّ المشاهد تودَّعه بعد بضع دقائق على الدوام، مثلما يحدث في دار السينما عندما تختفي نهاية الفيلم عن الأنظار إذا ما أشعل الضوء في وقت أبكر من اللازم. بدأ يتساءل شيئاً فشيئاً أين يقع ذلك المبنى في الواقع. فلا بدَّ أن يكون موجوداً في مكانٍ ما، فهو يراه بوضوح في كل مرة. ولكن لأنه لم يكن يصادف أيَّ شخص فيه، أيقن أنه هو الشخص الوحيد الذي يعلم بوجوده - وهذا يعني الشيء الكثير، فهو سرٌّ ولا يجوز أن يتكلَّم عنه مع أيِّ شخص: ليس مع ماكس بطبيعة الحال، ولكن ليس مع جدِّته أيضاً، ولا حتى مع والده في المرَّات القليلة التي يراه فيها. ثم كيف يمكن أن يكون قائماً ببساطة في مكانٍ ما في العالم في حين أنَّ العالم ليس مبنياً بأكمله؟ لعلَّه قائم في عالم آخر. لقد منحه اسماً أيضاً: الحصن.

يحدث ألا يفكر بالحصن لأسابيع طويلة. وإذا ما طرح نفسه من جديد، ذهب في بعض الأحيان إلى السيِّد ثيمات ليرى ما إذا كانت هناك صورة لشيء مشابه له في كتبه السميكة. في تلك الأثناء كان البروفيسور قد أُحيل إلى التقاعد، ويعيش في خروت ريخترن بصورة دائمة، ما جعل مكتبته تزداد ضخامة. كان كويتن موضع ترحيب على الدوام. حدث مرَّات قليلة أنَّ السيِّد ثيمات جلس في كرسيِّه الهزاز من دون كتاب على حضنه، وقد تغيَّر وجهه إلى حدٍّ لا يمكن التعرُّف إليه، كما لو أنه متحوِّل إلى حجر، وهذا الحجر ينظر إليه بعينين تنمَّان عن يأسٍ كامل، يجعله يغادر في الحال. يبدو أنَّ السيِّد ثيمات في هذا الوضع لا يعود يعرف حتى مَنْ يكون. تمضي بضعة أيام لا يجرؤ فيها على زيارته؛ لكنَّه عندما يعود، لا يرى أيَّ أثر للحجر.

- عمَّ تبحث يا كوكو؟

- لا شيء.

- لا أصدق. أنت لا تشاهد الصور لمجرَّد المشاهدة.

نظر إليه كويتن. لا يجوز أن يفشي السرَّ بطبيعة الحال، لأنَّ الحلم عندئذٍ قد لا يعاوده مرَّة أخرى. سأل: «ما هو المبنى يا سيِّد ثيمات؟»

أطلق ثيمات تنهيدة عميقة: «ليت طلاي سألوني ذات يوم مثل هذا السؤال الوجيه: ما هو المبنى؟». وبينما يطوي يديه خلف عنقه، استند إلى الوراء في كرسيه الهزاز، ونظر إلى الزخارف الجصية في السقف، وردّد: «ما هو المبنى؟».

وبينما لا يزال يفكر، دخلت زوجته إلى الغرفة، فقال: «لقد طرح عليّ كويتن السؤال للتوّ».

- والسؤال هو؟

- ما هو المبنى؟

قالت إلزبيث: «ربما يكون هذه القلعة».

ضحك السيّد ثيمات لكويتن وقال: «نعم. النساء يبحثن في مكانٍ أقلُّ بُعداً على الدوام، ولعلّهن محقّات. انتظر، لعلّي أعرف. المبنى غير موجود طبعاً، لكنني أعتقد أنّ البانثيون هو الاحتمال الثاني الصحيح».

بعد ذلك بوقت قصير، جلس أحدهما إلى جانب الآخر إلى الطاولة المستديرة الكبيرة يشاهدان الصور والرسومات المعمارية التي تجسّد البانثيون في روما: المعبد الروماني الوحيد - المخصّص لـ «كلّ الآلهة» - الذي جرى الحفاظ عليه بشكلٍ كامل. لاحظ كويتن من فوره أنه لا يشبه الحصن إطلاقاً. فهو ليس متاهة، بل في غاية البساطة والوضوح، له رواقٌ في المقدمة مثل واجهة معبدٍ إغريقي، مثلما سمّاه السيّد ثيمات، بأعمدة وطبلتين مثلتي الشكل متداخلة إحداهما في الأخرى؛ ورائه مبنى دائريّ ضخم يتكوّن من الداخل من مساحة دائرية واحدة خالية، فسيحة، لا نوافذ فيها، في وسط القبة فتحة دائرية كبيرة ينفذ الضوء من خلالها إلى الداخل - شيء مثل اليافوخ في جمجمة طفل وليد. أوضح السيّد ثيمات بفرجار على رسم مقطعي أنك ستحصل على كرة خالصة مستقرّة على الأرض إذا ما سحبت الخط من القبة إلى الأسفل. حسب رأيه يمكنك رؤية المعبد على أنه صورة العالم.

ناجى كويتن نفسه: هذا يعني أنه من هذا العالم - وهو على الأرجح ليس بالذي يراه في منامه. لكنّه مع ذلك يمتّ بصلّة إلى الحصن، ربما بسبب هذا التناقض بين الجهة الأمامية المزخرفة والجهة الخلفية المغلقة. لقد أبهره على كلّ حال - أيضاً الحروف المنحوتة على العارضة الأفقية، التي تشير بعدد من الاختصارات إلى أنّ «أغريبا» هو باني المعبد. أخبره السيّد ثيمات بأنّ الإمبراطور هادريان كان يبلغ من الشهامة حدّ جعل اسمه يُنقش عليها بعد

إعادة بنائه بشكل كامل - وعند ذكر اسم هادريان توقّف بصورة مفاجئة ونظر إلى كويتن: أزرق الأزرق في عينيه بين الرموش الداكنة، الشعر الأسود المسترسل المؤطر بشرته الشاحبة شحوب القمر. أوماً ثيمات إيماءة باتجاهه وقال لإلزييث: «أنطونيوس».

ابتسمت، ألقت نظرة سريعة عليه وأحنت رأسها أن نعم. لم يفهم كويتن ماذا يقصد من ذلك، لكن لم يهتم أيضاً أن يفهم. ذات يوم عندما بدأ يتحدث إلى السيد سبير عن هذه الحروف، لا شيء إلا ليقول شيئاً في الواقع، اتقد الأخير بالحماس على الفور: «هذه هي الكوادراتا^(*) يا كوكو، أجمل حرف كبير على مرّ العصور! كيف اكتشفتها؟».

ثم أخبره بأنها تُسمّى أيضاً الكتابة اللابيدرية^(**)، المشتقة من الكلمة اللاتينية «لايس» التي تعني «حجر». هذا الحرف يشكّل التوازن المثالي بين الجسد والروح.

- كيف يمكن هذا؟ الحرف ليس إنساناً، أليس كذلك؟

- طبعاً إنه إنسان!

- كيف يمكن أن تكون للحروف روح؟

- إنها تحدّث إليك، أليس كذلك؟

فأحنى كويتن رأسه بهيئة جادة: «هذا صحيح».

- الحرف يملك روحاً وجسداً مثل الجميع. روحه تكمن في ما يقوله وجسده يتكوّن من المادة المصنوعة منه: من الحجر، أو الحجر.

فكّر كويتن في والدته. أهي مجرد بضعة بقع من الحبر؟ أم أنها حجر لم يكتب شيء عليه؟ قال: «ليس من الضروري أن يكون الحرف مصنوعاً من شيء».

- لا؟ إنني أحلم أحياناً بحروف خالصة، تحوم في الهواء، ولكنّ هذا شيء غير ممكن، مثل روح بلا جسد.

- وتلك الحروف المحفورة في واجهة البانثيون إذا؟ إنها ليست من الحجر، ليست من الحجر تحديداً. لقد نُحت الحجر من أماكنها بالذات: أرى تيو كيرن يفعل هذا أيضاً في بعض الأحيان. إنها مصنوعة من لا شيء. أحياناً يكون هناك جسد من دون روح، أليس كذلك؟

*

(*) الكتابة الرومانية القديمة. [م]

(**) الكتابة المنقوشة في الحجر. [م]

كان عندئذٍ في الصف الرابع الابتدائي، ورأى المعلم أنه يجب عليه البدء تدريجياً بقضاء المزيد من الوقت على واجباته المدرسية. لم يكن أداؤه بالسيئ، ولكن ليس بالجيّد أيضاً؛ ما يثير اهتمامه، يتقنه على الفور، حتى وإن كان صعباً؛ أما الأشياء الأخرى كلّها فتتطلب منه جهداً، حتى وإن كانت سهلة في الواقع. ولكن بدلاً من تعلّم الجغرافيا، أو حلّ مسائل الحساب، أخذ يبحث عن طريقه إلى الحصن عند السيّد ثيمات.

وصار البروفيسور يُريّه أحياناً أمثلة عن الفن المعماري الحديث في النصف الأول من القرن العشرين، من تصميم فرانك لويد رايت أو لو كوربوزيه أو ميس فان دير روه، التي كان هو نفسه مغرمّاً بها على وجه الخصوص. كان كويتن يراها جميلة في بعض الأحيان، ولكن هذا كلّ شيء؛ لا يهتمّ بها مزيداً من الاهتمام، لأنّ السمة العملية الباردة لعلب الثقاب تلك لا تذكره بالحصن بأيّ شكل من الأشكال. أمّا المباني الكلاسيكية فتقاربه في الشبه أكثر من غيرها، ولا سيما البانيون الروماني، على النحو الذي يضيف بجزئه المركزي الدائري المغلق شيئاً من القتامة والتهديد على الضوء الصافي في المعابد الإغريقية. صحيح أنّ معبد البارثينون في أثينا، الذي أراه إياه السيّد ثيمات، في غاية الكمال، حتى وهو أثرٌ قديم، لكن خيّل إليه أنه مخلخل وشفاف أكثر من اللازم. رأى السيّد ثيمات أنّ الرومان أنفسهم لم يأتوا بشيء مبدع من الناحية الفنية، فذلك الشكل الدائري والقائم أخذه من المقابر الإترورية، الجثاوي^(٥)، على النحو الذي لا يزال يُرى في مرقد أغسطس في روما، أو في ضريح هادريان؛ قلعة سانت أنجلو.

يجب عليه أن يذهب لرؤية هذه الأشياء كلّها، في المستقبل.

تحت إشراف السيّد ثيمات، الذي وصفه لماكس في إحدى المرات بـ«أفضل طالب عندي»، ما لبث أن وجد كويتن طريقه إلى النهضة الإيطالية. أكثر ما سحره هناك هو الكنائس من تصميم بالاديو، التي تُبدي هي أيضاً ذلك المزيج من الواجهات الكلاسيكية الرائعة والجدران الآجرية المنطوية على نفسها. لقد مدحه ثيمات على ذوقه الرفيع، وإن لم يكن تقدماً كثيراً، ولكن فاته ذلك الإطراء، فذلك كلّهُ لم يكن يمتّ بأيّ صلة إلى الذوق. في الطراز الباروكي راوده إحساسٌ غامض بأنه تعرّف الزخرفة الباذخة، وأمّا المباني الكلاسيكية الحديثة من القرن التاسع عشر فقد خلبت لُبّه، لأنها ذكّرت به بمباني بالاديو في القرن السادس

(٥) جمع جثوة، وهي أماكن لدفن الموتى تعلوها أكوام من الحجارة أو الأنربة. [م]

عشر. كانت جميعها على كل حال من الجهات الخارجية: جهات خارجية رائعة، ولكن هذه الجهات الخارجية بالذات لم تكن تثير اهتمامه، ما يثير اهتمامه هو الجهات الداخلية فقط. في مخاطرة بالكشف عن شيء من سرّه، قرّر بعد ظهر أحد الأيام طرح سؤال جوهري: «هل هناك مبنى بجهة داخلية ولكن من دون جهة خارجية؟».

حدّق فيه ثيمات بضع ثوانٍ قبل أن يستطيع الإجابة: «ما الذي يجعلك تفكر في مثل هذا الشيء؟».

- لا شيء.

- هذا غير ممكن بطبيعة الحال، شأنه في ذلك شأن مبنى بجهة خارجية ولكن من دون جهة داخلية.

- هذا ممكن جداً.

- كيف؟

- عندما لا يكون مفرّغاً من الداخل، بل كلّه من الحجر، مثل تماثيل.

فقال ثيمات ضاحكاً: «هذا ينطوي على شيء من الصحة. ولعلّ جهة داخلية من دون جهة خارجية تكون ممكنة أيضاً».

بينما يبحث عن شيء في مكتبته، قال إنه هو نفسه قد نشأ على فكرة أنّ النهضة الإيطالية هي من الطراز القديم، والحقّ أنه لا يزال على هذه القناعة؛ لكنّه عندما يرى كويتن منشغلاً بهذه الطريقة، يراوده شعور بأنّ شيئاً من مثيل «نهضة جديدة» في طريقها إلى النشوء. ثم أراه صور المسرح الأولمبي من تصميم بالاديو في مدينة فيتشنتزا، أغنية البجع المعمارية. إنه من الخارج صندوق آجري قبيح المنظر، لكنّه من الداخل روعة لا توصف. يتشكّل جدار المسرح الخلفي وجدرانه الجانبية من واجهات مطعّمة بالرخام، مزينة بإسراف بأعمدة كورنثية، بتماثيل في إطارات نوافذ فخمة ذات تيجان مقنطرة ومثلثة الشكل، وتماثيل أخرى على قواعدها، زخارف، تيجان حلزونية، نحوت بارزة، نحوت غائرة، ومن جديد أعمدة وتماثيل وراء المقاعد الصاعدة في القاعة نصف الدائرية - كلّ شيء مصنوع من الخشب والجصّ، ولكن عليك معرفة هذا. قال ثيمات إنها إذاً جهة خارجية من دون جهة داخلية، لأنّ هذا ديكور، وفي الوقت نفسه جهة داخلية من دون جهة خارجية. فهم كويتن ذلك، لكنّه لم يكن سوى صورة جزئية من الحصن.

- على ذكر هذا الحديث، هل تتذكر كتاب بيبينا، الذي كنت مولعاً بتصفّحه في الماضي؟ لا، لم يتذكره كويتن، لكنّه عندما رآه مجدداً استيقظت ذكرى غامضة في نفسه. شرح له ثيمات أنّ رسومات الديكور تلك تُظهر الجهة الداخلية من المباني التي ليست لها جهة خارجية. بقي البروفيسور ينظر إلى الرسومات المنظورية برهنةً من الزمن وقد بدا عليه أنه راضي عن شرحه، ثم قال فجأة: «انتظر! ربما أعطيك شيئاً أجمل».

وأخرج من المكتبة، التي صُفِّ فيها كلّ شيء بترتيب أبجديّ دقيق، من قسم حرف الباء، -بعد بالاديو، بانثيون وبارثينون بقليل- كتاباً كبيراً يحتوي على نسخ من لوحات «السجون المتخيّلة» لبيرانيزي.

عندما فتح الكتاب، صُعق كويتن، أو كاد! ها هو ذا هنا تقريباً، حلمه! المساحة اللانهائية ذاتها المترامية في الاتجاهات كلّها، المملأى بالسلالم، الجسور، القناطر، الشرفات، الظلال العميقة من دون مصادر الضوء، كلّ شيء ممتلئ بالهواء الساكن نفسه. لكنّ الهواء في هذه التخيّلات المنقوشة عن السجن يبدو بارداً وعطناً، بينما كان في الحصن دافئاً وحلواً. كان الحصن خالياً إلا منه هو نفسه، ولكن هنا تُرى قامات بشرية في كلّ مكان؛ وتفتقر أيضاً إلى الأعمدة والواجهات المزخرفة الضخمة. فقط بالجمع بين ديكورات بالاديو وبيبينا كانت ستشبه الحصن فعلاً.

قال ثيمات: «إنني أكوّن شيئاً فشيئاً فكرة غامضة عمّا تبحث عنه. ولكن يجب علينا في هذه الحالة مشاهدة نوع مختلف من الكتب عمّا شاهدناه حتى الآن. أنت لا تبحث عن المباني الموجودة، بل عن التخيّلات المعمارية. على ذكر هذا الحديث، هل تعلم أنّ بيرانيزي هو الذي صنع رسمتك المفضّلة هناك؟».

- رسمتي المفضّلة؟

أشار ثيمات إلى النقش المؤطر، القائم على الأرض المسند إلى المكتبة. نظر إليها كويتن في اندهاش. كانت الرسمة قد تماهت مع الأشياء الأخرى في الغرفة منذ سنوات، فلم يعد يلاحظها: المسئلة بالقرب من المبنى المحتوي على الدرج المقدّس.

43. ابتكارات

في مطلع الصيف من عام 1980، دُشنت المراتان المتحرّكتان الجديدتان في فيستربورك، - لم يقم خليفة أونو بالتدشين، بل الوزير نفسه. رافقه أونو وهيلخا في سيارته من لاهاي واستقبلهم مفوض الملكة، ديدرك، الذي سيُحال إلى التقاعد في الأجل القريب. لقد حضر الجميع من لايدن أيضاً، وفي المركز رئيس المرصد المسنّ، البالغ ثمانين عاماً من العمر، لكنّه لا يزال منتصب القامة، كما لو أنه المحور الذي تدور حوله الكرة السماوية. وظهر جميع من في دفنغلو أيضاً بطبيعة الحال، حتى تشيجالنتشي، لكنّها حضرت لأنها أرادت أن ترى أخيراً صوفيا وكويتن. لم يرغب كويتن في مستهلّ الأمر في الذهاب، لكنّه عندما سمع أنّ والده سيحضر أيضاً، جاء هو وصوفيا أيضاً بطبيعة الحال. عندما رآهم ماكس مجتمعين كلهم في مبنى التحكّم، بكأس من الشمبانيا في يد كلّ منهم، خطر في باله نوعٌ معيّن من القصص البوليسية، حيث يجتمع المشتبه بهم جميعهم في بهو الفندق في نهاية الأمر، ويشير المحقّق بعد إعادة دقيقة لأحداث الجريمة إلى الجاني، الذي لم يتوقّع أحدٌ أن يكون هو في الواقع.

بعد إلقاء الكلمات والضغط الوزاري على الزرّ، سار قسمٌ كبير من الحشد، وبضمنهم تشيجالنتشي، صوب المراتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، القائمتين على بُعد ثلاثة كيلومترات، بعضهم لا يزال حاملاً كأس الشمبانيا. وضع فلوريس، الذي يعرف المسافة، زجاجةً في جيبه. بقيت صوفيا مع هيلخا في دائرة من زوجات علماء الفلك، اللاتي يعرفن الوضع من قبل، في حين سار ماكس وأونو وكويتن إلى الساحة. وضع أونو، الذي يزور فيستربورك لأول مرة، إحدى يديه على كتف كويتن وأخذ يستمع إلى ماكس. وحدها الفيلّا التي كان قائد المعسكر يقيم فيها لا تزال موجودة، أما البرّاكات فقد أفسحت المجال لأرض

عشبية مترامية الأطراف، بريئة المظهر، تنتصب فيها شجرة هنا وهناك، وتطوّقها الغابة من الجهات الأربع. بينما يسرون في ما كان سابقاً «جادة البؤساء»، حاول ماكس أن يصف لأونو المشاهد التي حدثت هنا قبل ما يقارب أربعين سنة؛ تكلم باعتدال نظراً لوجود الصبي، لكن كوينتن سأله فجأة: «هل أنت يهودي؟».

نظر ماكس وأونو أحدهما إلى الآخر برهة قصيرة.

- صعدت أُمِّي أيضاً إلى القطار هنا ولم ترجع أبداً.

- وأبوك؟

- لم يصعد إليه.

- هل ما يزال حيّاً؟

- مات هو أيضاً منذ زمن بعيد.

لزم كوينتن الصمت. منذ تحدّثه مع السيّد سبير عن اليهود في إحدى المرّات، لم يكن قد عاد إلى التفكير فيهم - صُعِقَ من أنّ ماكس أيضاً له صلة بهذه الأشياء: حتى إنّ والدته قتلها هتلر! هذا ليس شأنه، ولكن حقيقة أنه لم يعرف بهذا الأمر قطّ أشعرته بشعور غامض بالذنب. ماذا يعرف عنه في الواقع؟ في السنة الماضية، تناهى إلى مسمعيه أنه سيذهب إلى بلومندال، لحضور جنازة والدته بالتبني؛ لم يستفسر حينذاك عن الأمر، ولكن ها هو ذا يفهم الآن لماذا كان لماكس - مثله تماماً في الواقع - والدان بالتبني.

بالقرب من واقِي الصدمات كانت السكّة الحديدية وعوارضها الخشبية متروكة على حالها بطول عشرة أمتار على وجه التقريب، تحدّها بأناقة حافة رصيف من نوع معيّن. أخبرهما ماكس بأنّ واقِي الصدمات جديد؛ الواقِي القديم يقع خلفه مباشرة، متفسّخاً بشكل شبه كامل. لقد عقف أحد الفنّانين نهايتي السكّة الحديدية إلى الأعلى، وكأنّ القطار الأخير قد انطلق من هناك إلى السماء.

قال ماكس وهو يجيل عينيه في الساحة: «اختفى كلّ شيء إلى الأبد».

في البُعد كانت المجموعة البشوشة من الوجهاء وعلماء الفلك يسرون بمحاذاة الصف المهيب من القُطوع المكافئة، الموجهة مثل السكّة الحديدية إلى السماء الزرقاء؛ يتردّد صدى ضحكاتهم بخفوت عبر السهل. في حين لم يعرف ماكس ولا أونو ماذا يقول، نقل كوينتن ناظره بين المرايا والسكّة الحديدية، التي استدعت إلى ذهنه قرني الاستشعار في

رأس الجراد. قال: «أعتقد أنك ستستطيع ذات يوم رؤية ما الذي حدث هنا في زمن الحرب بوضوح».

نظر إليه ماكس وأونو بذهول.

سأله أونو: «هل لنا أن نسألك ما الذي تقصده يا كويتن؟».

- حسناً، شيء منطقي إلى حد بعيد. أخبرني ماكس في إحدى المرات بأننا نرى النجوم في الصورة التي كانت عليها في الماضي. هذا يعني أنهم من فوق النجوم يرون الأرض في الصورة التي كانت عليها في الماضي. إذا نظروا إلينا بمنظار قويٍّ للغاية من فوق نجم، يبعد أربعين سنة ضوئية من هنا، فسيرون حتماً ما الذي حدث هنا قبل أربعين سنة، أليس كذلك؟
سأل أونو ماكس: «هل هذا صحيح؟».

ارتعش ماكس: «طبعاً».

استغرب من أن هذه الفكرة لم تخطر في باله قط: صورة معسكر العبور فيستربورك تندفع الآن بسرعة الضوء عبر الفضاء، في مكان ما بين نجم السماك الرامح ونجم العيوق «أ»، شأنها في ذلك شأن صورة أوشفيتز بمداخنه التي تلفظ النار.

- من الناحية النظرية يجب أن يكون مرئياً في مكان ما في الكون على الدوام. الأمر الوحيد هو أننا لا نستطيع رؤيته.

قال كويتن: «ولكن أليس يُفترض أن ينعكس؟».

- ينعكس؟

- أنت تستطيع النظر بتلك التلسكوبات القائمة هناك إلى نجم يبعد عشرين سنة ضوئية من هنا - إذا فعلت ذلك، سترى كيف صعدت أمك إلى القطار هنا قبل أربعين سنة، أليس كذلك؟

وناجى ماكس نفسه: ونزلت منه في مكان آخر.

- إنك على صواب مرة أخرى. لعلك يجب أن تفكر في الكواكب والأقمار البعيدة، على الأقل إذا كانت مثل هذه الأشياء موجودة خارج نظامنا الشمسي، ولكن يجب علينا في هذه الحالة أن نكتشف أولاً مبدأً جديداً للغاية.

- ولكن إذا اكتشف هذا المبدأ بعد مئة سنة، سيمكن رؤية ما حدث على كوكب أو قمر، يبعد خمسين زائد عشرين سنة ضوئية من هنا.

- رأيي محكم.

قال أونو: «أشعر بالإعياء يا كويتن! ما الذي يدور في ذهنك؟ أي نوع من الأشخاص أنت؟».

رفع كويتن كتفيه. هو يرى أن هذا كله بديهي للغاية.

*

بينما انشغلت صوفيا وهيلخا في المطبخ، كما يليق بالنساء حسب رأي أونو، تحدّث السادة عما أُنسّه كويتن من «علم الفلك التاريخي». كان بروكتور جالساً معهم أيضاً. لقد طرق الباب ليستعير البيض، لأنّ كلارا وأرند سيقضيان الليلة في بيت حماته، فدعته صوفيا لتناول لقمة معهم.

فكرة أنّ كل ما حدث على الأرض ذات يوم لا يزال بالإمكان رؤيته في مكانٍ ما من الكون فكرة مغرية من كويتن بطبيعة الحال؛ ولكن حسب رأي أونو لا يمكن أن تتحقّق على الإطلاق. صحيح أنك تستطيع تكبير الصور التي تلتقطها الأقمار الصناعية للأرض حتى أدقّ التفاصيل، على الأقلّ إذا كانت السماء غير ملبّدة بالغيوم أثناء التقاطها، إنهم في وزارة الدفاع يعرفون كلّ شيء عن هذا الأمر؛ ولكن ماذا سيبقى من مثل هذه الصورة، بعد رحلة تستغرق العشرات أو المئات أو الآلاف من السنين عبر الكون؟ إضافة إلى ذلك، كيف يمكنها أن تنعكس؟ فالكواكب والأقمار ليست مصنوعة من زجاج المرايا، أليس كذلك؟ بل منشورة بالحجارة والغبار، وهي إلى ذلك محدّبة بدلاً من أن تكون مقعّرة: البقايا الأخيرة من الصورة ستبّدد بأكملها على الفور.

أنهى حديثه: «وهكذا ينبغي أن يكون. لقد خُتم الماضي إلى الأبد، ومن يحاول كسر هذه الأختام، "كان خيراً لذلك الرجل لو لم يُولد" (٥). وحده "ربّ الجنود" يرى كلّ شيء».

قال ماكس: «طبعاً. معرفتك البصرية مذهلة، ولكن هذا ما كانوا يقولونه على الدوام. تصوّر لو قال صبيّ في الثانية عشرة لأبيه قبل مئة سنة: إنّ الإنسان لن يتمكّن من وضع قدمه على القمر في غضون مئة سنة فحسب، وإنما سيستطيع جميع من على الأرض أن يكون شاهداً على ذلك في اللحظة نفسها!».

(٥) إنجيل متى 24:26. [م]

فقاطعه أونو: «نعم، نعم، نعلم هذا الشيء منك. أتذكر بغموض أنك قلت هذا قبل إحدى عشرة سنة». وأوماً إيماءة صوب هيلخا التي تجهز الطاولة: «شكراً مرة أخرى».

التفتت هيلخا لحظة إلى الوراء، فانحنى ماكس لهما هما الاثنان انحناءً مهذباً، ثم تابع: «إذا بقيت تفكر في صورة بصرية، فهذا غير ممكن أبداً بطبيعة الحال، هذا شيء بديهي، لكننا في علم الفلك الراديوي لم نعد نعمل بالصور البصرية، أليس كذلك؟ هل لديك فكرة عن مدى ضعف الإشارات التي نتلقاها في فيستربورك؟ ما يجعل الأمر خادعاً للغاية هو أنك عندما تستعمل آلات وأجهزة كبيرة، تفكر في قوات كبيرة بشكل تلقائي: سدٌ كبير ينتج كميات هائلة من الطاقة، مدفعٌ كبير يطلق النار إلى مدى بعيد للغاية. ولكن عندما تعمل بالتلسكوب الراديوي التوليفي يكون العكس صحيحاً، إذ يكون الكبير مخصصاً للصغير. هل أخبرك بشيء؟ مصباح دراجة هوائية يستهلك من الطاقة خلال ثانية واحدة ما يفوق ما تلتقطه تلك الأطباق الأربعة عشر كلها خلال مئة ألف سنة».

فسأل كويتن: «أحقاً ما تقول؟».

- نعم. لقد أحرزنا تقدماً هائلاً في هذا المجال. بعبارة أخرى، لعل ذلك ليس مستبعداً من الناحية العملية، ولكن يجب على شخص من شاكلة آينشتاين أن يجد أولاً مبدأً جديداً تماماً، كما استدعت الحاجة في حال التلفزيون.

قال أونو: «إذا كنت تقول هذا، فهو صحيح على الأرجح. لذلك ألقىت مهمة جميلة على عاتقك - ولكن لا تنسَ أن كويتن له الحق في مشاركتك في جائزة نوبل».

لم ترق لكويتن معارضة ماكس لوالده؛ من ناحية أخرى شعر بالإطراء من مساندته، ورأى أنه لطفٌ من والده أن يسمح له بإقناعه. أعجبه أيضاً أن يتكلّم فترة طويلة عن الفكرة التي خطرت في باله.

قال ماكس: «إذا كانت هناك إمكانية، فأعتقد أن إيجادها سيكون أصعب بكثير من إيجاد المفتاح لحلّ ألغاز قرصك. ألم تفترض أيضاً أنّ هناك رسالة من الماضي السحيق مكتوبة عليه؟».

قالت هيلخا وهي تلقي نظرة خاطفة على أونو أثناء مغادرتها الغرفة: «قصة الدكتور كويست التي لا تُنسى، من الألف إلى الياء».

تنهّد أونو بعمق: «هل تعرف أيّ امرأة هي؟ إنها محاورتي، مثلما كان إيكerman محاور

غوته. إنها لا تنسى أي شيء مما قلته ذات يوم. الرب أعلم، لعل المبدأ مكتوب على ذلك القرص الكريتي اللعين، مَنْ يستطيع قول هذا؟ إذا نُحيت عن السلطة ذات يوم بسبب ذكائي الخارق المهدّد لأمن الدولة، وطاردتني الشرطة العسكرية الملكية بطريقة مخزية إلى ما وراء الحدود، سأحاول مرة أخرى - لكنني أخشى أن أكون بحاجة إلى هذا المنظار التاريخي تحديداً كي أتمكّن من فكّ شيفرة المبدأ الذي يركز عليه. ثم إنني في أغلب الظنّ سألقى مصرعي على يد إحدى وكالات الاستخبارات قبل أوان ذلك الوقت، أو على يد رجال البابا، لأنك تستطيع تصوّر ما الذي يمكن أن يسفر عنه هذا الأمر: صور كلّ ما حدث ذات يوم، أو لم يحدث...».

قال كويتن: «أو أفلام عنه».

- أو أفلام عنه، فليكن لك ما تريد! الأفلام الصامتة في أول الأمر، ثم الأفلام الناطقة ثم الأفلام بالألوان أيضاً! سوف نوجّه الكاميرا إلى نجم بيت لحم، ونقرب جبل الزيتون. هل يصعد أحدٌ هناك إلى السماء؟ لا. هل يتسلّم أحدُ الوصايا العشر على جبل حوريب؟ للأسف، لا، سأُمحي عن وجه الأرض، وعن حقّ، وسيغرق العالم في الفوضى.

فقال ماكس: «نظافة شاملة. هذا ما سيكون الوضع عليه. سيُكشف النقاب عن كلّ الهراء والخداع، ستُحرّر البشرية وتعرف أخيراً الحقيقة بأكملها!».

لكنّه بينما يتحدّث، أصابه فزعٌ شديد من رؤية فيلم وثائقي فلكي آخر: خليج فاراديرو - هو نفسه يتمايل وسط الأمواج، خدّاً إلى خدّ مع آدا، ساقاها المفتوحتان حول وركيه، في الضوء الأحمر حمرة الدم المنبعث من الهلال المتزايد... ألم يختفّ ذلك المشهد بعد - ولا حتى من قرارة نفسه؟

أراد أنو أن يسأله أيّ حدث سيصوّره في أول الأمر، لكنّه رأى على نظرته أنه سيكون شيئاً فظيلاً في أغلب الظن، ربما إعدام والده، لذلك توجّه إلى بروكتور: «وأنت؟ إلى أي شيء ستصوّر الكاميرا التاريخية؟».

لم يكن المترجم قد شارك في الحديث، مثلما يجدر بشخص بقي لتناول العشاء فقط، لكنّه استند على ركبتيه منحنيّاً إلى الأمام وقال: «إلى فراش موت في بيت محدّد في شتوتغارت، في مركز البلدة القديم، الذي تعرّض للدمار في الحرب العالمية الثانية. في عام 1647».

- طبعاً. في هذه الحالة يجب تزويد الكاميرا بعدسة الأشعة السينية التي تخترق كل الجدران. ومَنْ ذا الذي تريد رؤيته يحتضر هناك؟

أجاب بروكتور وهو ينظر من أحدهما إلى الآخر بوجه ذي مغزى: «فرانسيس بيكون».

ردّد ماكس: «فرانسيس بيكون؟ في شتوتغارت؟ في 1647؟ ألسّت مخطئاً؟».

ضحك بروكتور ضحكة قصيرة، فيها نبرة مريّة. الحقّ أنّ العلم الرسميّ ظنّ على مدى قرون أنه توفيّ في لندن عام 1626، لكنّ الحقائق الجديدة برهنت خلاف ذلك - بعبارة أخرى، برهنت للناس ذوي العقول المنفتحة القادرين على التخلّي عن الآراء القديمة، أنه على دراية طبعاً بكلّ التّرهات التي يدّعيها البيكونيّون، منها على سبيل المثال أنّ أعمال شكسبير هي من تأليفه في الواقع، لكنّه لا يشاركونهم في هذا الهراء - حتى وإن كان له مؤيدون أجلاء، مثل فرويد وهو في عمر متقدّم. ولكن ما أثار اهتمامه على الدوام هو لماذا نُسب مثل هذا الهراء إلى بيكون بالذات، فاكشف هو نفسه قبل بضعة سنوات شيئاً غير مسبوق. نقل بصره بين ماكس وأونو. هل يمكنهما حفظ السرّ؟

فقال أونو وهو يصالب ذراعيه على صدره: «سرّك في بئر».

كان بيكون شاهداً على ولادة مسرحية لوسيفر لفوندل^(*). عُرضت تلك المسرحية المأساوية لأول مرة في أمستردام في الثاني من شباط عام 1654، كان قد عمل عليها ستّ سنوات، هذا يعني أنه بدأ بكتابتها في السنة التي توفي فيها بيكون. لقد جمع هو نفسه المئات من الأدلّة النصّية التي تؤكّد نظريته بأنّ كتابة مسرحية عن هلاك لوسيفر متأتية من بيكون. همس بها بيكون ذو الستة والثمانين عاماً وهو على فراش الموت لفوندل ذي الستين عاماً.

سأله أونو بعد أن تبادل نظرة خاطفة مع ماكس: «هل لديك دليل أيضاً على أنّ أمير الشعراء كان في شتوتغارت عام 1647؟».

- لا بدّ أنه كان هناك. لقد ثبت هذا ضمناً بالأدلة الأخرى التي جمعتها.

- طبعاً.

- ولا أزال أجمع أدلّة جديدة.

- اذكر واحداً منها!

قال بروكتور إنّ الكتابة الرمزية الشائعة من القرن السابع عشر ترقّم الحروف الأبجدية من 1 إلى 24، حيث حرفا «I» و«J» لهما الرقم نفسه 9، وحرفا «V» و«W» لهما الرقم 21. حاصل

(*) Joost van den Vondel (1587-1679): شاعر وكاتب مسرحي هولندي، كان يُسمّى أمير الشعراء. [م]

الجمع لـ «يكون»^(*) هو 33 وحاصل الجمع لـ «فرانسيس» هو 67، فيصبح المجموع بذلك 100. إذا أخذت الجملة الأولى التي يقولها لوسيفر في مسرحية فوندل ونظرت إلى الكلمة الثالثة والثلاثين، فستجد: «هذا»؛ بعبارة أخرى: «هذا يكون». أو: «هذا يجب أن يُنسب إلى يكون». وإذا عددت بعد ذلك إلى الكلمة المئة، ستجد: «ينطفئ». أي: «هذا ينطفئ». فرانسيس يكون يحتضر».

سادت لحظة صمت، ثم قال ماكس لأونو: «أعتقد أننا لا نستطيع الردّ على هذا». فقال أونو: «لا نستطيع الردّ على هذا إطلاقاً».

واستفسر بحذر: «ولكن إذا كنت تريد رؤية فراش الموت ذاك في شتوتغارت بمنظار كويتن، فهل يعني هذا أنك لست متأكداً من أطروحتك مئة بالمئة، التي يبدو لي شخصياً أنها منطقية للغاية؟».

فقال بروكتور بشيء من الاستياء: «ما الذي يجعلك تظن هذا؟ أريد فقط سماع لماذا أراد يكون أن تُكتب مسرحية عن هلاك لوسيفر. لا بدّ أنه أطلع فوندل على السبب. ما الذي كان يربطه بشخصية مثل لوسيفر وهو أنجليكي المذهب؟ لعلّ هذا له علاقة بتلك الأساطير السخيفة كلّها، التي تُنسبت إلى شخصه؛ لكنني سأكتشف ذلك أيضاً».

أحنى أونو رأسه: «طبعاً، هذا ضروري. ولماذا اختار يكون فوندل تحديداً؟».

- هذا شيء بديهي! كان فوندل على علاقة بالشياطين والملائكة بصفته كاثوليكيّاً، لم تكن هناك حاجة لأن يكلف يكون شخصاً بروتستانتيّاً مثل جريفوس. كان فوندل في تلك اللحظة الكاتب المسرحي البارز الوحيد الذي يصلح لمشروعه - ما عدا كورني ربما، ولكن حينذاك لم يكن بإمكانك أن تجيز مثل هذه الأشياء الرائعة في مسرح باريس مثلما تستطيع إجازتها في أمستردام.

سأل كويتن: «ولماذا هي رائعة؟».

أجاب بروكتور: «نعم، أنصت، هذا لم يكن قد ظهر في الأدب من قبل على الإطلاق: مسرحية تجري أحداثها في السماء من البداية إلى النهاية. إذا لم يكن هذا رائعاً، فلا أعرف ما هو رائع».

(*) فرانسيس يكون يُكتب باللغة الهولندية Francis Bacon. [م]

قال كويتن فجأة: «كم خاتمك جميل!».

فنظر بروكتور إلى الخاتم في إصبعه بشيء من الارتباك: «إنه ياقوت. أيضاً رمز للسماء».

- لا بدّ أنه باهظ الثمن.

- هذا أكيد. حجر من خمسة قرايط يكلف خمسة آلاف فلورين. هذا غرام واحد.

انحنى ماكس أيضاً إلى الأمام: «هل ترى أنّ لهذا الحجر لون عينيك تماماً يا كويتن؟».

سألت صوفيا: «هل ستأتون إلى المائدة. سنأكل هوتسبوت^(٥) مع لحم البقر».

*

لم يكن كويتن ينسى مثل هذه المحادثات إطلاقاً، وإن كان لا يفهم سوى نصفها. ولكن ما يسمعه في المدرسة الإعدادية في أسن، التي صار يذهب إليها بالباص كل يوم منذ نهاية ذلك الصيف، لا يستطيع حفظه إلا بصعوبة بالغة. يضاف إلى ذلك أنه أراد تصديق المقولة اللاتينية «بلاد الغال في مجملها مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء»؛ لكنّه رأى من الحماسة أن تكون مطبوعة في كتابه بالحروف الصغيرة، وحتى المائلة في بعض الأحيان، إذ إنّ الرومان لم يعرفوا هذه الحروف إطلاقاً! يجب أن تكون مكتوبة بالحروف الكبيرة، ويُفضّل بالكوادرات. حسبما أخبره السيّد سبير، نشأت هذا الكتابة في العصور الوسطى وعصر النهضة - شأنها في ذلك شأن الكتابة الإغريقية بالحروف الصغيرة: الإغريق القدماء أيضاً كانوا يكتبون بالحروف الكبيرة فقط. عندما اتصل به أونو من البرلمان في إحدى المرات ليقول إنّ هناك ما يحول دون زيارته مرّة أخرى وإنه يرى هذا شيئاً فظيماً، تشكّى كويتن إليه هو أيضاً: «هل يجوز أن يغيروها بهذه البساطة؟ أليست من مثيل تصوّر القيصر في بدلة جينز بدلاً من العباءة الرومانية؟».

فهتف أونو: «مرحى يا كويتن! أنت الابن الذي يثلج قلبي! المسرح الحديث لا يستهويك من حسن الحظ. "إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرفٌ واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلّ"^(٥٥)».

كان هذا من الكتاب المقدّس مجدّداً بطبيعة الحال، لكنّه لم يعرف ما الذي يرمي إليه. منذ ذلك المساء الذي أعقب تدشين المرآتين الجديدتين، صار ينظر إلى والده بمزيد من التقدير.

(٥) طبق هولندي مكوّن من بطاطا وجزر وبصل. [م]

(٥٥) إنجيل متى 18:5. [م]

سأله على مائدة العشاء عن أي قرص كان يتحدث مع ماكس، فاستوعب حينذاك لأول مرة أن والده ليس سياسياً في الأصل، بل عبقري في اللغات، جعله يفهم اللغة الإترورية. قال إنه يستطيع بطريقة مختلفة تماماً عن والد أرنولد غريب الأطوار، الذي لا ينشغل سوى بالطلاسم العقيمة، مثلما أخبره أونو لاحقاً، البرهنة في لمح البصر أن سيكون كتب سفر التكوين، أو روايات نابوكوف: كل ما تحتاجه هو النظر إلى الحروف الخمسة الأولى من اسم «نابوكوف» لترى أنها جناس القلب لاسم «بيكون»، إذا أخذت بعين الاعتبار أن حرف العلة «ألف» يتحول أحياناً إلى «ياء»؛ أما الحرفان الأخيران «وف» فيرمزان إلى «والي فيرولام» (*) بطبيعة الحال. كان ماكس أيضاً يخبره بأشياء ساحرة في بعض الأحيان - على سبيل المثال، لا يهتم في أي اتجاه تنظر، فأنت نفسك تكون أبعد شيء على الدوام؛ أو عن اللغز، لماذا يكون الليل مظلماً، وليس أكثر سطوعاً من النهار، وفيه هذا العدد الهائل من النجوم التي تستطيع أن تشكل مجتمعة شمساً عملاقة واحدة، ضوءاً لانهائياً واحداً، يضيء القبة السماوية بأكملها على نحو متواصل... ولكن ماكس ليس والده في نهاية الأمر. فما كان لوالده بالتبني علاقة بالحرب، بهتلر الذي قتل والدته، هذا ينتمي إلى عالم مرعب، عاش فيه السيد سبير أيضاً، لكنه هو نفسه لم يكن جزءاً منه لحسن الحظ.

كذلك في المدرسة الإعدادية، بقي اهتمامه ينجذب إلى الأشياء التي لا تُدرّس في المنهاج. لم يُقَم صداقات أيضاً، مثلما كان حاله في المدرسة الابتدائية؛ لم يحدث أن التقى شخصاً من عمره يستطيع التكلّم معه عن الأمور التي تشغل باله، لكنه لم يعانِ من هذا الأمر ولا تفاجأ به أيضاً، إذ لم يشعر حتى بأنه من طينة مختلفة عن رفاقه في الصف - كان شيئاً بديهيّاً إلى هذا الحد. في فترات الاستراحة يتكلّم معهم ويضحك معهم، ولكن مثل ممثل يؤدّي دوره إلى حدّ ما؛ عندما يفرغ من الأداء ويعود إلى نفسه، تختفي الشخصية اختفاءً كاملاً من ذهنه. ولهذا السبب لم يشعر أيضاً بأنه متفوّق عليهم، إذ لم يخطر في باله مقارنة نفسه بهم.

كان يحتفظ بالرسومات الأولية، التي يرسمها للحصن من منامه، في صندوق مطعم بالبرونز الثقيل، عثر عليه بين أغراض البارون في العلّة. ولأنّ الحصن لانهائي في كلّ

(*) في الأصل: «bacon» هو جناس ناقص لـ nabok مع الأخذ بعين الاعتبار أن حرف c كان في الأبجدية السيريلية ka. وقد كيّفنا الحالة لتناسب مع اللغة العربية، فجناس القلب في اللغة العربية هو ما اختلف فيه اللفظان في ترتيب الحروف. أمّا والي فيرولام فنكتب في الأصل of Verulam، وهو لقب بيكون. [م]

الاتجاهات، فقد اضطرَّ أن يقتصر على الأجزاء، والمقاطع العرضية، والخرائط، التي لا يمكنها تشكيل كلِّ متكامل، لكنَّها جميعها تمتَّ بصلة بعضها إلى بعض. كانت الأوراق المطوية موضوعة في ظرفٍ سميكٍ سمنيّ اللون من ظروف التلسكوب الراديوي التوليقي في فيستربورك، كتب عليه في أول درس من دروس اللغة اللاتينية في المدرسة الإعدادية وبأجمل ما يستطيع من الكوارث «حلم كوينتن»: «SOMNIUM QUINTI».

أثناء رحلته الاستكشافية إلى «المبنى»، كان السيّد ثيمات قد أرشده إلى الفن المعماري الكلاسيكي الثوري، الذي ازدهر نحو عام 1800 - على الأقل في التصميمات، إذ لم يدخل سوى القليل منها حيّز البناء. عاد إلى إهمال واجباته المدرسيّة، وأخذ يمعن النظر في الرسومات التي رسمها العشرات من المهندسين المعماريين المتمين إلى تلك المدرسة، لكنّه يعود في كلّ مرّة إلى تخيّلات بوليه^(*) المعبّرة عن جنون العظمة، التي تتجاوز عملياً كلّ الحدود، حسبما قال ثيمات، ولكن هذا التجاوز تحديداً هو الذي أبهر كوينتن. مبانٍ عامة ضخمة، قصر عدل، مدفن كبير، مكتبة عامة، متحف، كاتدرائية، وكلّ واحدة منها بقياسات عملاقة يجب أن تستعمل عدسة مكبّرة كي تميّز الناس، الذين يدبّون مثل النمل على السلالم وبين الأعمدة العالية علو الأبراج. كذلك معبد هائل الحجم يجب تصوّره، حسبما قال ثيمات، على أنه المدرج الروماني، متوجّاً بسقف مقبّب شبيه بسقف البانثيون. إنه مشيّد فوق شقٍّ صخريّ مظلم، متعذّر الوصول إليه، يؤدي إلى جوف الأرض؛ عند مدخل الكهف يقوم تمثال أرتميس أفسس، الإلهة ذات الأثداء المتعدّدة. نظر إليها كوينتن باستحياء. هل يبدأ عالم الحصن من هذه الهاوية السوداء يا ترى؟ خطرت والدته في باله برهة قصيرة، لكنّه أبعدّها عن باله على الفور. لم يكن يفكر في والدته تقريباً، فقد تعلّم من والده أنه سيفكر في اللاشيء؛ لم يعاود زيارتها أيضاً منذ تلك المرّة، إذ كيف لك أن تزور شخصاً غير موجود؟ لحسن الحظ لم تطلب منه جدّته قطّ مرافقتها إلى إمّن.

كان مأخوذاً بالقدر نفسه بتصاميم بوليه المتطرّفة التي تجسّد النصب التذكاري لنيوتن. كان يعرف من ماكس من هو نيوتن: إنه آينشتاين القرن السابع عشر، الذي بدأ معه العلم الحديث، والذي، حسبما أخبره ثيمات، كان موضع تبجيل في القرن الثامن عشر مثل مسيح

(*) Étienne-Louis Boullée (1728-1799): مهندس معماري فرنسي ينتمي إلى المدرسة المعمارية النيوكلاسيكية. تميّز بأن لديه رؤية فرنسية معمارية خاصة. [م]

من نوع معيّن، لأنه أول شخص فهم العمل الذي أنجزه باني العالم وقام بحسابه. يتكوّن قبره الأجوف من كرة ضخمة يزيد قطرها عن مئتي متر، ترتفع إلى خط الاستواء بثلاث أسطوانات متدرّجة الشكل لا نوافذ لها، مزروعة بصفوف من أشجار السرو، أشجار الموت بلا منازع. في داخل القبر، في ضوء الغبش العميق، هناك تابوت حجري فارغ على مصطبة، يُضاء حصراً من خلال الثقوب الصغيرة الموجودة في الكرة، الثقوب التي تجعل ضوء الشمس يتحوّل إلى سماء ليلية مرصّعة بالنجوم. عندما رأى كوينتن التابوت الصغير في المساحة الشاسعة، راودته ذكرى والدته مرة أخرى. كانت رسمة المبنى تنضح في ضوء القمر بنذير شؤم، وكأنّ هذه الكرة قبله مخيفة يمكنها أن تنفجر في أيّ لحظة وتدمّر العالم بأسره - وفي أحد الأيام تخيل فتيلاً مشتعلًا يبرز من جهتها العلوية. بينما لا يزال يخبر السيّد ثيمات بهذا التخيل، رأى من فوره شيئاً آخر: القنبلة بالفتيل هي تفاحة بسويقة في الوقت نفسه.

- أعتقد أنّ هذا المبنى هو في الواقع تلك التفاحة، التي سقطت على رأس نيوتن. ضحك ثيمات: «لم يسبق لأحد رؤيته على هذا النحو. بقي حتى الوقت الراهن يذكّرنا دائماً بالكون».

- وأعرف أيضاً أيّ تفاحة تكون، تلك التي سقطت على رأس نيوتن.

- أهو سرٌّ أم أنك تستطيع إخباري؟

- إنها التفاحة التي قطفتها حواء في الجنة.

فأكمل ثيمات: «من شجرة معرفة الخير والشر».

واستغرق فجأة في نوبة من نوبات ضحكه المفرطة الغريبة، التي تشاركه فيها حتى ذراعاه وساقاه الطويلة، إلى درجة أنّ كرسيّه الهزاز أوشك أن ينقلب به. قال وهو ينهض عن مجلسه: «النجدة! لقد فعلتها مرة أخرى يا كوكو! وكى أثبت نظريتك، سأريك شيئاً آخر في الحال». بينما يبحث بين المجلّات المكدّسة على الرفوف السفلية من مكتبته، قال إنّ كوينتن قد لاحظ طبعاً التشابه الموجود بين قبر نيوتن الأجوف من تصميم بوليه، والباشيون: ذلك الشكل الكروي المفتقر إلى النوافذ، الذي يصوّر الكون في كلتا الحالتين. قال: «ولكن إذا كان مؤسس العلم الحديث جالساً تحت شجرة معرفة الخير والشرّ، فما رأيك في هذا إذا؟!»، ووضع صورة مفاعل نووي على الطاولة بشيء من الانتصار: «على ذكر الحديث عن القنبلة. ألا ترى أنّ هذا الشيء ينسجم تمام الانسجام مع التقليد النمطي الذي يميّز به

الباشيون وبالاديو وبوليه؟ والشيء الرائع هو أنّ هذا المصنع لم يُصمّم وفق تقليد جمالي على الإطلاق، بل بشكل وظيفي خالص، على يد مهندسين معماريين من مؤسسة حكومية. الويل يا كوكو! يطيب لي التفكير في أنّ ما تقوله صحيح. وإذا كنت تعرف الآن أنّ الفضل في إنتاج الطاقة النووية، ومن ثم القنبلة الذرية، يرجع إلى آينشتاين، نيوتن الثاني، فهذا قد يعني أنّ بوليه صمّم نصباً تذكاريّاً لاينشتاين في واقع الأمر.

أحنى كويتن رأسه: «لذلك لم يُشيّد حينذاك».

فقال ثيمات: «لأنّ وقته لم يحنّ إلا الآن، أهذا ما تريد قوله؟ نعم، ولمّ لا؟ مع أنه...» -وتجهم وجهه بعض الشيء- «لا تزال هناك بعض العقبات. ليس من الناحية التقنية، إذ إنّنا في الوقت الحالي نستطيع تشييده ببالغ السهولة، بل شيء يمتّ في الواقع بصلة إلى تفاحة الجنة التي تحدّثت عنها».

ثم ألقى محاضرة على كويتن عن البنيان العملاق، الذي يمتّ بصلة إلى الموت على الدوام. كان الغرض من تشييد المدرج الروماني هو أن يموت فيه الإنسان والحيوان؛ بنى هادريان قلعة سانت أنجلو دائرية الشكل ضخمة الحجم، أيضاً في روما، لتكون ضريحاً له ولخلفائه. لقد عرف ذلك البنيان العملاق نشأته الأولى في مصر، حيث كانت الحياة بأكملها موجهة إلى مملكة الموتى. لم تكن الأهرامات، ناكرات الزمان تلك، سوى قبور تحتوي على توابيت حجرية في داخلها؛ وما أنجزه بوليه، في تخيلّه على الأقل، كان اتصالاً بين تلك الضخامة المضاجعة للأموات، ونقيضها المتمثّل في التناغم الإغريقي واعتداله. أراه ورقة فيها تصميم مدفن كبير: هرم في قاعدته فجوة نصف دائرية، محشورة فيها، مثل فأر في فخّ، واجهة معبد إغريقي ذات أعمدة وطبلة معمارية مزخرفة. هذا الرواق المعمّد مع هذه القنطرة يستدعي الباشيون إلى الأذهان مرّة أخرى بطبيعة الحال، ولكن في الوقت نفسه يختفي هذا العنصر الإغريقي المُبهج ويتبدّد في ظلّ الضخامة المصرية الموجودة في أعلاه. وهذا التمثيل المعماري للحياة الهشّة، الذي هدّدته قوّة الموت الجبار فجأة كما يبدو، عاد إلى الظهور، بعد مئة وخمسين سنة من وفاة بوليه، على شكل تصوير للقتل الجماعي المباشر: في التصاميم التي أنجزها ألبرت شبير لأدولف هتلر.

ارتعب كويتن عندما سمع هذا الاسم: لقد ظهر ذلك الوغد مجدداً! الحقّ أنّ هذا الاسم لا ينبغي ذكره مرة أخرى على الإطلاق. أطلعه السيّد ثيمات على صور النماذج المعمارية

لـ«جرمانيا»، التي كان من المزمع تسمية برلين بها بعد الانتصار الأخير، بصفتها عاصمة العالم على مدى ألف سنة. سلسلة من المباني الجامعة، البالغة ذروتها الجرمانية بـ«القاعة العظمى»، التي تتجاوز كل ما خطر في البال في يوم من الأيام. هذا المارد أيضاً وُلد، على حدّ قول شبير نفسه، من رحم البانثيون الذي لا ينضب: واجهة ذات أعمدة كلاسيكية حديثة، خلفها مساحة دائرية الشكل مقببة السقف. ولكنّ هذه القبّة أعلى مرتين من هرم خوفو؛ فوقها فانوس أسطواني الهيئة، محاط بالأعمدة للسماح بدخول الضوء، ويزيد هو نفسه ببضعة أمتار في الارتفاع والعرض على البانثيون بأكمله، الأكبر هو أيضاً من قبّة كاتدرائية القديس بطرس التي صمّمها مايكل أنجلو. وعلى القمّة يقف نسراً بالكرة الأرضية بين مخالفه، مثل الفتيل في قبلة كويتن. القاعة تتسع لمئة وثمانين ألف إنسان، مختزل إلى حجم برغوث؛ يجب أن يؤخذ تشكّل الغيوم والمطر الرذاذ بعين الاعتبار. كان المشروع مستمداً من تصميم أوليّ أنجزه هتلر نفسه ذات يوم: كان في مستهلّ الأمر يريد أن يصبح مهندساً معمارياً، حسبما قال السيّد ثيمات، لكنّه في وقت لاحق فضّل أن يعمل في الدمار، فبعد انتحاره، لم يكن قد بقي حجرٌ على حجر في برلين. حتى لقد أجهزت النيران على تلك النماذج المعمارية في نهاية الأمر.

- صار لديك كلّ شيء من الناحية المعمارية يا كوكو. هيروشيما وأوشفيتز. الانتصار الهائل الذي حقّقه العلم والتكنولوجيا في القرن العشرين!

*

عندما يريد كويتن القراءة أو العزف على الريكورد الخاص به دون إزعاج ويكون الطقس جميلاً، يذهب أحياناً إلى البحيرة الصغيرة ويجلس على حافتها. يشعر بالأمان والرضا في هذا المكان، الشبيه بمنطقة استوائية، وهو محاط بشجيرات الرندرة الباسقة وعادةً بصحبة البجعيتين السوداوين العائمتين على صورتيهما المنعكستين في الماء. لقد بنى كوخاً من الأغصان، يُشعره بالافتخار ويحميه من الأمطار غير الغزيرة. ولكن عندما يكون هناك ما يعكّر مزاجه، أو عندما يحتاج إلى التفكير في أمرٍ ما، يذهب على العموم إلى مكان آخر: بضع مئات من الأمتار خارج العقار، وراء حقل البارون.

على الرغم من أنّ عشرات الأشخاص يعبرون من هناك كلّ يوم، كان على يقين من أنه هو الوحيد الذي يعرف هذا المكان، لأنه لم يرَ أيّ شخص ينظر إليه نظرةً خاصّة. الحقّ أنه

ليس فيه شيء مميز. إنه المكان الذي توقد فيه نار عيد الفصح كل سنة: مرجٌ مستطيل الشكل صغير الحجم، تطوّفه غابة باسقة الأشجار من ثلاث جهات، ودرب ريفي ضيق من الجهة الرابعة. في الصيف ترعى فيه بقرة حمراء، ترفع عينيها بانتباه عن الأرض، عندما يجلس في الخندق ويلفّ ذراعيه حول ركبتيه. لعلّ هذا يمتّ أيضاً بصلة إلى الشجرتين، اللتين تبدوان وكأنهما هربتا من طرف الغابة المظلم ووقفتا على مسافة متباعدة في العشب، كلٌّ منهما في مكان مناسب تماماً، حيث تضفيان النظام على المرج، شأنهما في ذلك شأن الأحجار الضالّة الكبيرة الثلاثة - ولكن هذا أيضاً لا يفسّر السرّ الذي يكتنف هذا المكان. يبدو وكأنه أكثر دفئاً وهدوءاً من الأماكن الأخرى المتسمة بالقدر نفسه من الدفء والهدوء.

أجال عينيه في الساحة المطوّقة وأخذ يفكّر في اليوم السابق. لأنّ والده لم يستطع إيجاد متسع من الوقت للمجيء إلى خروت ريفخترن منذ بضعة شهور، ذهب مع ماكس لزيارته في لاهاي، حيث أضاءا الطريق في مبنى البرلمان، الأمر الذي أشعره بالسرور. في غرفة الحزب قالت إحدى الموظّفات إنه في صالة الاجتماع، وبعد أن استمعا إلى وصف الطريق الطويل، حيث نسيا البداية في نهايته، أخذا يسيران عبر متاهة من الممرّات الضيقة، يصعدان الدرج، ينزلان الدرج، إلى اليسار، إلى اليمين، من جانب صفوف من صور النواب المتوفّين، مكاتب، غرف اللجان، فيات يستخدم الطابعات، صحفيين يتكلّمون بصوت مرتفع، يبدو عليهم أنهم سكارى إلى حدّ ما، سياسيين يتشاورون على حواف النوافذ - كلّ شيء شهد التنجير، والتركيب الارتجالي، والهدم مرّات عديدة. ولكن بعد السؤال مرّتين أخريين عن الطريق، فتحا باباً ووجدا نفسيهما بصورة مفاجئة في الشرفة الخاصة بعامة الشعب.

في الصالة المستطيلة الجميلة، الموشاة بكثير من الأحمر والبني والأصفر الغامق، التي هي أصغر مما ظنّ كويتن، كان الوزير غاطساً في مقعده خلف طاولة الحكومة يستمع إلى حجة شخص وراء المنصة، يتظاهر على الأقل بالاستماع إليه؛ أما في المقاعد الكثيرة فلا يجلس أكثر من أربعة نواب أو خمسة مصابين بالقدر نفسه من الملل. كان أونو واقفاً يتكلّم مع رئيس البرلمان، لكنّه رآهما على الفور وأوماً إيماءاً بأنه قادم إليهما.

قال: «لكما جزيل الشكر على إنقاذي من أشدّ عرائن الأسود إضجاراً».

واصطحبهما إلى صالة القهوة المكتظة. وهناك، بينما يتناول كويتن شطيرته، سأله: «أنت في الثانية عشرة من العمر. هل تعرف ماذا ستصبح في المستقبل؟».

عندما لم يُجب على الفور، قال ماكس: «مهندساً معمارياً، على ما أعتقد».

انزعج كوينتن من قول ماكس لهذا: أنه تدخل في شؤونه الخاصة. يضاف إلى ذلك أنه لا يريد أن يصبح مهندساً معمارياً على الإطلاق.

كانت امرأة شابة تركض على الدرب الريفي وراء أربعة كلاب، مرتديةً فستاناً طويلاً أبيض اللون، واضعةً خواتم في أصابعها كلها ومسربةً إلى ذلك بالسلاسل والأساور؛ إنها قادمة من المزرعة القريبة، التي تعيش فيها جماعة من الفنانين من أمستردام، المعتزلين، الذين سُموا الحياة في المدينة. رفعت له يدها بمرح، فردَّ عليها السلام شارداً الذهن.

كان ينظر بهيئة حالمة إلى شيء لا يمكن رؤيته، لكنه مع ذلك يُقبل عليه من مكان أهدأ من المرج الهادئ حيث البقرة، والأحجار الثلاثة، وشجرتا النغت. لم يكن السؤال عما يريد أن يصبح في المستقبل قد خطر في باله قط. هو مثلما هو - فماذا يجب أن يصبح أكثر من هذا؟ ولكن والده كان يقصد طبعاً مهنةً أو أخرى، مثلما يعلن صبيٌّ في صفِّه على الدوام رغبته بأن يصبح طبيباً. الأمر الوحيد هو أنه لا يستطيع تصوّر نفسه يمارس مهنة أو أخرى ذات يوم، ولا حتى مهنة العمارة. فالاهتمام بها متأثّر حصراً من الحصن الذي يراه في منامه، ولكن ماكس لا يستطيع معرفة هذا. لعلّ كلّ شيء سيبقى دائماً على حاله.

أونو أيضاً لم يكن يعلم ماذا يريد أن يصبح في المستقبل، ولكن في العام التالي، في 1981، قدّمه رئيس حزبه بعد الانتخابات الجديدة لأن يصبح وزير الدفاع. كان تحالف اليمين الوسط، الذي حكم في السنوات الأربع الماضية، قد أفسح مكانه لتحالف اليسار الوسط، فقد تبين أن رئيس الوزراء الديمقراطي المسيحي غير معرّض للتغيير بصورة تلقائية؛ نائب رئيس الوزراء المحافظ وحده خرج من الساحة مع جماعته، وحلّ محلّهم الليبراليون الجدد والديمقراطيون الاشتراكيون الذين أبعادوا من الحكومة السابقة قبل أربع سنوات، ويريدون الآن أن يحكموا مهما كلّفهم الأمر، آخذين بعين الاعتبار القول المأثور: إنّ السياسة لا تُنهك الذين في السلطة بل الذين ليسوا في السلطة.

في المرحلة الأخيرة من تشكيل الحكومة، في يوم أحد في شهر آب، اجتمع عشرون أو ثلاثون من اللاعبين الأساسيين ليقوموا برحلة بالقارب في بحيرة آيسل. لقد نظّم الرحلة، قبل شهور، مصرفيّ متنوّر، صعب المراس، لا يروّج للفنون فحسب، وإنما لا يسمح حتى لمصالحه الشخصية أن تحدّد آراءه، إذ إنّ ثراءه لم يحلّ دون أن يكون يسارياً على نحو أقلّ أو أكثر؛ ولأنه مصرفيّ ثريّ، ما عدا أنه يساري على نحو أقلّ أو أكثر، وإلى ذلك سليل عائلة أرستقراطية عريقة، لم يرَ أحدٌ سبباً في ذلك الوقت لرفض دعوة منه. أما الآن فقد صارت الرحلة فرصة مناسبة لأن يُكمّل الأصدقاء السياسيون الجدد صراعهم على الحقائق الوزارية دون إزعاج؛ لقد فهم القادة المحافظون، الذين تلقّوا الدعوة أيضاً في ذلك الوقت، بأنّ من الأفضل لهم القول إنّ هناك للأسف ما يشغلهم عن الحضور. حلّ محلّهم عددٌ ممّن يُتوقّع لهم أن يصيروا وزراء، مثل أونو. كان على العموم يبقى يوم السبت عند هيلخا لقضاء الليلة، لكنّه ذهب في المساء إلى البيت لكيلا يوقظها في الصباح التالي؛ وهي نفسها لديها بطاقة لحضور عرض ليليّ للفيلم الفرنسي القديم «أطفال الفردوس».

قبل صعودهم إلى متن السفينة، شرب السياسيون المتأفون، الناعسون، القهوة في قلعة ماودرسلوت، ولكن في الساعة الحادية عشرة انتهى المطاف بأولى زجاجات الويسكي الفارغة في الصناديق. كان يوماً خائفاً؛ أخذ يخت المصرف ذو المحرك الجدير بركوب البحار، المزود بطاقم مكوّن من قبطان شائب مع قائد دفّة وسيّدتين في مريلة بيضاء تقومان على خدمة الركّاب، يشقّ طريقه عبر المياه الرمادية الشبيهة برمادية السماء. ومن المزمع أن يرسو بعد الظهر في بلدة إنكهاوسن، حيث سيعزف رئيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي على الأرغن حسب البرنامج؛ عقب ذلك سيعبّر إلى مقاطعة فريزلاند، إلى مدينة ستافورين، حيث حُجز فندقٌ بأكمله. وقد وصلت السيارات الرسمية إلى هناك لتقلّ الذين لا يريدون قضاء الليلة في الفندق.

وقف أونو في حلقة على السطح الخلفي، وفي يده كأسٌ من الروم بالكولا، يشرح للمصرفيّ لماذا يعتبره الجميع هو بالذات الشخص الجدير كلّ الجدارة لأن يصبح وزير الدفاع:

- أنا مدينٌ بهذا إلى لساني السليط. حتى في حزبي يخشون أن الديمقراطي الاشتراكي لا يستطيع الوقوف في وجه الجنرالات. لكنهم يعلمون أنني سأجعل تلك الطغمة ينتظمون في صفٍّ واحد في غرفتي في اليوم الأول وأقول لهم: «أيها السادة، إذا ظنّ أيُّ منكم ذات يوم أنه يستطيع أن يهدّد بالفصل من الخدمة، فليعتبر نفسه مفصولاً بشكلٍ تلقائي». وبعد جعلهم يقسمون على الولاء لشخصي حتى الموت، سأموح الاتحاد السوفييتي من الخريطة بأول ضربة قاضية.

كان للمصرفيّ ضحكة ربويّة مُعدية، يتردّد صداها في الصندوق الصوتي في جسمه مفرط الوزن. ويتعرق بغزارة ويهشّ بجريدة من دون توقّف أسراب البعوض الصغير، التي ترافق القارب. لم يكن البعوض هو المرافق الوحيد على كلّ حال: ثمة قارب حراسة تابع للشرطة الوطنية يمحّر عباب المياه، خلفهم بقليل، على بُعد بضع مئات من الأمتار. وهناك تجمّع قد تشكّل على مقدّمة السفينة أيضاً، ولكنّ الأعمال الهامة تحدث في المقصورة، التي لا يدخل إليها أحدٌ من دون استدعاء. استطاع أونو رؤيتهم، من خلال الباب المفتوح في أسفل الدرجات شديدة الانحدار، جالسين إلى طاولة الصالون: رئيس الوزراء وزعيم الحزبين الآخرين مع أختائهم. يذهب أحدٌ منهم إلى قمرة القيادة على فترات منتظمة لإجراء مكالمات هاتفية. يبدو أنّ هناك مشكلةً ما، فقد مضت ساعة كاملة وهم مجتمعون بعضهم مع

بعض حصراً. الجميع يدعو الجميع باسمه الأول، لكنهم يخاطبون أفراد الطاقم بـ«السيد» و«السيدة». تساءل أونو: كيف يمكن حدوث هذا؟ كيف يمكن أن تكون هذه الحفنة من الناس ماسكة بزمام الأمور في هولندا؟ كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ يبدو أنّ هناك فعلاً نوعين من الناس في العالم. جرع ما في كأسه، أجال ناظريه في الحلقة، وأراد السؤال ألا ينبغي أن يكون هناك إله أيضاً على متن هذه السفينة، لكنّه تحكّم بنفسه.

بدأت أولى علامات الثمالة تظهر للعيان. على مقدّمة السفينة أخذ وزيرٌ مؤقتٌ يصيح منذ برهة من الزمن إلى قائد الدفّة: «إنها تسير في خطّ مستقيم!»، فيحني القائد رأسه مبتسماً في كلّ مرّة. قال سياسيٌّ متمرّس في كنزة صوفية مفرطة السّمك لإحدى السيدتين القائمتين على الخدمة بنبرة تهديد: «في الليل سأعدّ شعرايتك». كان هوائي الرادار يدور بهوادة ومن دون حاجة حول محوره؛ عبروا من قرية ماركن، وعندما تركوا فوليندام وإدام وراء ظهورهم، أخذ الساحل يغور شيئاً فشيئاً وراء الأفق. رغم أنّ القارب محاطٌ بالمياه حصراً من كلّ الجهات، أصبح الجوّ خانقاً بوتيرة متزايدة. أيقن الجميع أنّ الأمور لا تسير على ما يرام في المقصورة: هناك مشكلةٌ ما. بينما يتناقش أونو عند الحاجز مع وزير الخارجية عن المسألة الحساسة المتعلّقة بوليّ العهد، الذي سيُدعى على الأرجح إلى الخدمة العسكرية في ظلّ نظامه، خرج رئيس حزبه من المقصورة. ربطه عنقه مفكوكة وقميصه متدلّ من بنطاله من الخلف؛ بينما يومئ إيماءات خرقاء غير متناسقة، تنحّي بأونو جانباً في الجهة الخلفية من السفينة. خيم شيء من الهدوء على السطح، وعرف أونو في الحال أنّ هناك مشكلةً خطيرة.

لوح الزعيم ذو الرأس الأصلع، رئيس الوزراء للحكومة التي كان فيها أونو الوزير المفوض، نائب رئيس الوزراء في الحكومة القادمة، الأقصر منه بمقدار رأسين، لوح بورقة ورفع عينيه إليه: «لقد ذهب كلّ شيء أدراج الرياح يا أونو. هل كنت في كوبا في ألف وتسعمئة وسبعة وستين؟!».

هذه هي المشكلة.

- نعم.

- وهل شاركت هناك في...

ووضع نظّارة قراءة ذات إطار ثقيل على عينيه ونظر في الورقة، ولكنّ أونو أكمل سؤاله على الفور: «مؤتمر هافانا الأول؟ نعم، ولكن في الواقع لا».

- خلع الزعيم نظارته عاجزاً عن الكلام وبقي ينظر إليه: «و هل كنت فعلاً في اللجنة الأولى - لجنة الكفاح المسلّح؟ أكاد لا أستطيع النطق بها».
- نعم يا كورس.
- استدار كورس على عقبه في ذهول وأخذ يحدّق في الفضاء فوق المياه؛ كان شعره الأبيض الطويل قليلاً قد تجمّع في عنقه على شكل سلسلة من النقاط، مثل أسنان القرش.
- ماذا يعني هذا بحق السماء؟ أتظن فعلاً أنك تستطيع استلام وزارة الدفاع بمثل هذه الحقيقة في سيرتك الذاتية؟ لماذا أخفيتّها عني؟
- لم أخف شيئاً، لم أعد أفكر فيها ببساطة. حدث هذا قبل أربع عشرة سنة. أعدّها حادثة تافهة لا تعني أيّ شيء.
- إلى أيّ حدّ يبلغ بك الغباء يا أونو؟
- إلى هذا الحدّ.
- هل تعرف ما الذي تفعله بالحزب؟ لعلّ التشكيل الحكومي كلّ صار مهدّداً بالانهيار. قل لي، من أنت؟ هل تدرّبت هناك على حرب العصابات أيضاً؟!
- تجاهل أونو هذه الملاحظة وسأل: «هل هذه رسالة من مجهول؟».
- أجل.
- أعرف إذاً من كتبها.
- من؟
- بارت بورك.
- بارت بورك؟ بارت بورك؟ زعيم الطلاب الشيوعي في ذلك الوقت؟ هل كنت معه في ذلك المؤتمر؟
- على العكس. لم يُسمح له بالدخول. ولكن كان له حساب معي، ويبدو أنه سيصفّيّ بنجاح.
- أرجوك أخبرني الآن وعلى الفور، كيف حدث ذلك بالضبط؟!
- أحبّد إخبارك بوجود المكلف بتشكيل الحكومة.
- لا أمانع أبداً.

سأله أونو وهما يذهبان إلى المقصورة وسط نظرات الآخرين الصامتة: «هل هذه الرسالة موجهة إليك؟».

- لا. لقد وضعها دوروس على الطاولة قبل قليل. اللعنة، يا أونو، لا أتمنى له هذه السعادة. أونو يعلم أن رئيس الوزراء لعنة في حياة كووس. عندما كان دوروس وزير العدل في حكومة كووس، كان الأخير منزعاً أشد الانزعاج من ذلك المتعصب المتزمت، الذي لم يُرد التغاضي عن الإجهاض، فضلاً عن الموت الرحيم، لكنه أمر بإطلاق النار من دون رحمة على المولود كان عندما اختطفوا القطار في دريتته؛ أثناء التشكيل السابق للحكومة همّش كووس بقسوة شديدة، فلم يستطع الأخير بصفته رئيس المعارضة السيطرة عليه، والآن يجب عليه أيضاً أن يخدم تحت سلطته. السياسة هي استمرار للحرب بوسائل أخرى، يمكنك أن تفوز فيها أو تخسر؛ المشكلة الوحيدة هي أنك تتعود على الفوز، لكنك لا تتعود قط على الخسارة. هذا يتضمّن أنك عندما تخسر، يعتريك من المشاعر أكثر مما يعتريك عند الفوز، أنك عندما تخسر تعيش بعنفوان أشدّ، الأمر الذي يؤدي أيضاً إلى أن بعض الناس يفضلون الخسارة على الفوز في نهاية الأمر، لأن الفوز يُصيبهم بالضجر. أراد أونو القول لكووس إن هذه النزعة المدمّرة هي عدوّه اللدّ من دوروس، لكنه لم يجرؤ على هذا القول.

في تلك الأثناء، ظهر دوروس أيضاً على سطح السفينة، حيث تلقى تصفيقاً من الجميع عندما وقف على يديه برهة قصيرة بغية الاسترخاء. رأى أونو على كووس، الذي يكبر دوروس بخمس عشرة سنة أو عشرين ويكاد لا يستطيع الوقوف على قدميه بشكل جيّد، أنه انزعج غاية الانزعاج من هذا الأمر. إنه ينحدر من عائلة كالفينية، شأنه في ذلك شأن أونو.

ما إن مضت برهة قصيرة حتى ساد جوٌ جليدي في المقصورة الدافئة. بيت فقط لا يزال جالساً إلى الطاولة، رئيس الحزب الليبرالي الجديد، إضافةً إليهم.

قال دوروس: «نحن نستمع».

هو أيضاً يرتدي بدلة غير رسمية، وقد سرح شعره بعناية تبعث على الألم. ينمّ مظهره عن شيء صبيانيّ هشّ، أما عيناه شبه المغمضتين اللتان أبقاهما على أونو، وشفثاه المكتنزتان والمزومتان بعض الشيء في وجهه الجامد بالأنف المدبّب، فتكلّمان لغةً مختلفة أكثر قساوة.

اندھش أونو من هدوئه. أخبرهم بما حدث قبل أربع عشرة سنة، دون الشعور بأن الأمر

يهتمه في شيء: لقاءه مع بورك بعد المظاهرة الموسيقية السياسية في أمستردام، عندما أعلن الأخير أن أونو سيصبح بائع خردوات على شاطئ أميلاند بعد الثورة - وأن تلك الملاحظة المشؤومة تحديداً شكّلت العامل الحاسم في انخراطه في السياسة، ثم الدعوة التي تلقتها زوجته من كوبا، وسوء التفاهم الذي حدث في المطار، والمؤتمر الانفجاري الذي انتهى به المطاف إليه. لم يتطرق إلى دور ماكس الذي أقنعه بالذهاب. وفي نهاية الأمر لقاءه مع بورك في الحديقة العامة في هافانا، عندما كان يصرف العملة بطريقة غير شرعية، وشفى غليله منه. أنهى حديثه: «والآن جاء دوره لأن يشفي غليله مني. لكنّه كان مؤتمراً مشوّقاً، تعلّمت منه الكثير. الأمر الوحيد هو أنني عندما أعيد النظر، أظنّ أنه كان من الأفضل إحضاره بصفة مندوب صحفي».

نقر دوروس رؤوس أصابعه المتباعدة بعضها على بعض عدّة مرات، وأجال نظره في الحلقة: «نحن نصدّك».

قال بيت وقد تجلّت في عينيه الزرقاوين النظرة المندهشة البريئة التي أكسبته العديد من الأصوات: «على الأقلّ أنا أصدّك».

تابع دوروس: «يضاف إلى ذلك أنني أقدر صراحتك. هناك أيضاً نسخٌ مصوّرة من إدارة المؤتمر مع الرسالة، باسم شخص يُدعى أونو كويست، وكان بوسعك القول إنه شخص آخر أو إنها أوراق مزوّرة. ما دام ليست هناك صورة تظهر فيها بصحبة الدكتور المقدم كاسترو روز، كان بوسعك إحراز تقدّم هائل».

- أنا لا أكذب يا دوروس، لأنه ليس لديّ ما أخفيه.

- ولكن في هذا الوضع، ما الفائدة من أن نصدّك؟ هل سيصدّك رؤساء الأركان - أو هل سيريّدون تصديقك؟ هذا مثل حال الأسقف الضالّ الذي يُضبط في بيت الدعارة فيصرّح: «كي يستطيع المرء محاربة الشرّ، لا بدّ له أن يعرف الشرّ». أين بقيت سلطتك؟ لأنني أوكدّ لك أن الجنرالات أيضاً سيستلمون هذه الوثائق في غضون أربع وعشرين ساعة. هذا الخطاب... ووضع دوروس يده الصغيرة المعتنى بها على الخطاب، وتابع: «لم يكن موجّهاً إليّ، بل إلى السفير الأميركي، الذي بلغ من اللطف أن أرسلها إليّ مع مبعوثه الخاص في الليلة الماضية. ولكن حسناً، هذا يعني أنّ وكالة المخابرات المركزية الأميركية قد عرفت بالأمر، وأنّ مخابراتنا ستعرف قريباً، وأنهم سيعرفون في بروكسل، في مقرّ حلف الناتو الرئيسي، تحت القيادة البطيركية لأخينا في الوطن الذي لا يُقدّر بثمن. لقد أدّى السيّد بورك عمله على

أكمل وجه. ولك أن تكون على يقين من أنّ أصدقاءنا الأميركيين لا يريدون أن يجازفوا أيّ مجازفة، مهما كانت صغيرة، بأن يصبح أحد مناصري فيدل هو الأمر الناهي في حلف الشمال الأطلسي، على القوّات المسلّحة في سهل ألمانيا الشمالية، وبأن يطّلع هذا الشخص على الأسرار العسكرية الحيوية، حتى لا تكون الحرب الباردة قد خيضت عبثاً.

بهذا صفّى الحساب المفتوح عن حرب الثمانين عاماً التي خيضت عبثاً. ناجى أونو نفسه: السياسة مهنة تجري فيها تصفية كلّ الحسابات حتى آخر سنت.

تنهّد كووس من دون أخذ سيجاره الرفيع من فمه: «ليس هناك جدوى يا أونو. لقد انتهيت. على ذكر هذا الحديث، يحسن بك معرفة أنّ بعض الجنرالات كانت لديهم أفكار غريبة في زمن حكمي: كانوا يرون أنني تجاوزت حدودي. يضاف إلى ذلك أنّ بعض الجماعات المناصرة للملكية من المقاومة السابقة خزّنت الأسلحة منذ أوائل السبعينيات، لاستخدامها في حال وصول اليسار الجديد إلى السلطة. إنهم يعرفون أننا نعرف من هم وأين دفنوا تلك الأسلحة، وكنت ستكتشف هذا الأمر أيضاً بصفتك وزير الدفاع».

قال دوروس: «هذا يعني أننا نعرف ما نعرف، لكننا لا نعرف ما لا نعرف».

قال كووس: «لن تأخذ الأمور هذا المنحى. إنهم أناس محترمون في المقام الأول، وإن كان بينهم بضعة جنرالات أيضاً. أقول هذا لأعطيك انطباعاً عن الجو العام».

قال أونو بمزيج من الدهول والارتياح: «من البديهي أن أنسحب».

فسأل دوروس: «وإذا استفسر أصدقاؤنا الصحفيون النامية أرياشهم عن السبب؟ إنهم يتداولون اسمك في الجرائد منذ بضعة أسابيع».

- لأنكم قرّرت، بما تملكون من حكمة عصيّة على الفهم، توزيع الحقائق الوزارية بصورة مختلفة، فلم تكن هناك حقبة تناسبني للأسف. أو فكّر بمرض لي. قل إنني أصبت بنزيف دماغي طفيف.

فقال بيت: «هراء. لماذا يجب أن تكذب ما دمت لا تريد الكذب؟ وإلى ذلك هناك احتمال أن يعلن بورك هذا الأمر على الملأ. إذا سألك أحد، فقل الحقيقة ببساطة، وما إن تمضي سنة حتى تصبح عمدة بلدية لايدن».

قال دوروس بوجه خالٍ من التعبير: «أي سيكون بائع الخردوات على شاطئ أميلاند قد أصبح طيّ النسيان».

فصاح بيت معاتباً، ولكن أيضاً ضاحكاً: «دوروس!».

تمتم كووس: «أبلغني بما تريد!».

سأل بيت: «والآن من سيستلم وزارة الدفاع؟».

- هناك أميرٌ لطيف بلا أدنى شك على متن هذه السفينة، جدير بهذا المنصب المسؤول مسؤولية استثنائية، وهو عزيز علينا جميعنا.

قال كووس ساخطاً وهو يرفع سبابته، التي كان مفصلها العلوي مشوهاً: «مهلاً! هذا يعني أننا...».

فقاطعه دوروس: «بلا ريب. لقد فهم العمّ كووس بذهنه الصافي صفاء الكريستال، على الفور، جوهر الفكرة البارة التي حضرني بصورة تلقائية».

نهض أونو عن مجلسه وقال إنه يشعر بأن وجوده هنا لم يعد له أي لزوم. اتفقوا ألا يقول شيئاً للآخرين في الوقت الراهن؛ إذا حلت عليهم بركة الرب، فلعلهم يخرجون من هذا المأزق قبل وصولهم إلى ستافورين. وعدهم أونو بالألا يُطلق ساقيه للريح في إنكهاوسن.

عندما عاد إلى الجلوس في كرسيه على سطح السفينة الخلفي، نظر إليه جميع الجالسين في الحلقة بصمت، ولكن لم يطرح عليه أحد أي سؤال. وحده دولف، وزير الشؤون الاقتصادية الكاثوليكي، ذو الذقن المحلوق حلاقة سيئة، وضع يداً موسية على كتفه أثناء مروره به. ناجى أونو نفسه بأن أكثر ما يتمناه هو أن يُقذف بمدفع من السفينة إلى المرفأ في الحال، إذ لم يعد لديه أي عمل هنا. بينما تُستأنف المحادثات، أيقن بهدوء أنه لا يعرف للمرة الثانية ماذا يريد أن يصبح. لقد تغير كل شيء بين دقيقة وأخرى. لم يشعر برغبة في البقاء ببساطة في البرلمان، ولا خطر في باله أن يصبح عمدة بلدية، ولا مدير مؤسسة البحث العلمي البحت، ولا أي شيء في «أوروبا»؛ من المؤكد أنه سترك السياسة بشكل نهائي. لقد بدأت مع بورك وستنتهي مع بورك. وأما أن تكون حياته مرتبطة به إلى الأبد، فهذا ما ملأه بالاشمئزاز. تراءت له عيناه الشزرتان، فراوده شعورٌ وكأن حشرة مقرقة ترحف فوقه؛ فرك وجهه بيديه الاثنتين ليبعدها عن نفسه. بعد ذلك فكّر في ماكس، المسؤول في نهاية الأمر عن كل الانعطافات التي حدثت في حياته، لكنه لم يؤاخذ على أي شيء. الشخص الوحيد الذي لا يتمنى له سعادة سقوطه هو أخوه الأكبر المتقاعد - لحسن الحظ لم يعد بوسع والده أن يعايش هذا. وفي ما يتعلق بهيلخا: ستكون سعيدة في أغلب الظن بأن الأمور سارت على هذا النحو.

توقّف سكّان إنكهاوسن القلائل، الذين رأوهم يسرون في الشوارع القديمة الهادئة من المرفأ إلى الكنيسة بعد ظهر يوم الأحد ذاك، وهم على يقين من أنهم يحلمون: ليس رئيس الوزراء فحسب هو الذي يسير هنا، بل الجميع. هذا شيء مستبعد بطبيعة الحال، فهذه الوجوه كلّها تُرى على التلفزيون فحسب وليس في بلدتهم الصغيرة: إذا كانت هذه هي الحقيقة فعلاً، إذا كانت السلطة بأسرها موجودة في إنكهاوسن، فهناك خطرٌ كبيرٌ يحيق بهم في أغلب الظن. لم يكن عمدة البلدة ولا الشرطة المحليّة على علمٍ بحضورهم، فرحّب بهم القسّيس والشمّاس فقط. انتشر الزوّار، كاتمين ضحكاتهم مثل طُلاب صفٍّ دراسيّ، في المقاعد الخشبية في صحن الكنيسة. كان كوكوس ودوروس وبيت قد جاؤوا معهم أيضاً من أجل الاسترخاء، لكنّهم انسحبوا على الفور إلى المذبح الجانبي، حيث تابعوا مشاوراتهم تحت لوحة القديس سيّاستيان. لا تزال الكنيسة عابقة برائحة البخور المتبقّية من قدّاس الصباح. صعد الوزير، الذي كان يصيح قبل قليل من دون توقّف «إنها تسير في خطّ مستقيم!»، الدرج إلى المنبر بصورة مفاجئة، ليلقي من دون شكّ خطبة كالفينية مزلزلة، لكنّ وزيره المفوّض حال دون ذلك. في تلك الأثناء كان رئيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وهو عالم لاهوتي بروتستانتي في الأصل، قد اختفى عن الأنظار - وبعد ذلك بوقت قصير انبعث من أنابيب الأرغن الساكنة نسخة باخ المعدّلة، المختفية عن الأنظار بالقدر نفسه، من ترنيمة: «من السماء فوق، إلى الأرض أتيت»^(*).

التفت أونو إلى الورا برهة قصيرة: جعلته الجهة الأمامية من الأرغن يفكّر في الفم المفتوح لحوثٍ ضخم يهاجمه من الخلف. راوده شعور بأنه ليس في مكانه الصحيح على الإطلاق، في هذه الكنيسة الكاثوليكية وفي هذه الصلابة على حدّ سواء. استعاد في ذهنه بخجل الكلمات الطنّانة التي قالها قبل قليل عن الجنرالات الذين سينظّمهم في صفٍّ ويهدّدهم - سوف يذكّرونه بهذا ذات يوم على سبيل المزاح، إذا ما التقوا به مصادفةً مرّةً أخرى. بينما يشعر بتصلّب معيّن في جسمه، أخذ ينظر إلى المسيح المصلوب على المذبح ويستمع إلى الموسيقى. لعلّ ملاحظة بورك في ذلك الوقت شكّلت العامل الحاسم في انخراطه في السياسة، ولكن كان هناك دافعٌ أعمق وراءها: فشله في فكّ رموز قرص فستوس. الآن وقد اكتملت دورة في حياته على ما يبدو، ألا يجب أن يحاول معاودة العمل على القرص؟ قبل

(*) بالألمانية، ترنيمة عن ميلاد يسوع، كتبها مارتن لوتر في عام 1534، ولحنها باخ. [م]

أربع سنوات كان بوسعه الهرب منه إلى عضويته في البرلمان، ولكن الآن انتهى كل شيء. شعر فجأةً بالانجذاب إلى هذه الإمكانية، ربما بسبب باخ. يجب عليه اكتساب المهارة مرةً أخرى بطبيعة الحال، فهو لم يعد يتابع حتى الأدبيات المتخصصة في هذا المجال خلال السنوات الأربع عشرة الماضية؛ الشيء الوحيد الذي يعلمه علم اليقين هو أنه لم ينجح أحدٌ بعدُ في فكّ الرموز، ولا حتى لاندau، منافسه الإسرائيلي، لأنّ الأخير لم يكن ليحرم نفسه من بهجة إخباره شخصياً. تنهّد بعمق. من يدرى، لعلّ السنوات الماضية كلّها كانت ضرورية لينضج الحلّ في أعماق كيانه: لعلّ الفكرة المخلّصة تخطر في باله في أقرب فرصة!

خرج الشّماس من غرفة المقدّسات وسأل شخصاً في الصف الأمامي عن شيء، فالتفت الأخير إلى الوراء، وأخذ يبحث بعينه في ما حوله، ثم أشار إليه. رفع أونو رأسه متسائلاً، ما حدا بالشّماس إلى تحريك يده اليمنى حركات دائرية بجوار أذنه. نهض أونو باندهاش، بينما يجول شيثان في رأسه في أنّ واحد: كيف يمكن لأيّ شخص معرفة أنه هنا - وكيف يمكن أن تكون الإشارة المعبرة عن «التلفون» لا تزال تحدّدها حركة جهاز لم يعد موجوداً منذ نصف قرن ولم يعد يُشاهد سوى في أفلام ستان لوريل وأوليفر هاردي؟

اصطحبه الشّماس إلى غرفة المقدّسات. كان الهاتف موضوعاً على طاولة ذات مفرش داكن الحمرة؛ في خزانة جدارية مفتوحة الباب علّقت أردية قدّاس طويلة، مثل عباءات إمبراطور روماني.

أمسك أونو السماعة: «كويست».

سأل صوت نسائي: «هل أنت السيّد أونو كويست؟».

- نعم، من معي؟

- سيّد كويست، هنا مركز الشرطة الرئيسي في أمستردام. عرفنا مكانك من مكتب رئيس الوزراء. لا تؤاخذنا، ولكن يجب عليك تهيئة نفسك لخبر مفاجئ.

شعر أونو بنفسه يتجمّد وفكّر على الفور في كويتن: «قولي، ماذا حدث؟!».

- نحن نعلم أنّ السيّد هيلخا هارتمان صديقتك.

بدت هاتان الكلمتان، هيلخا هارتمان، مثل رصاصتين تخترقان جسده.

- نعم، وما الأمر؟

- لقد تعرّضت لشيء خطير جداً الليلة الماضية.

فجأة، لم يعد أونو قادراً على التحدث؛ علقت أنفاسه مثل كرة في حلقه.

- سيّد كويست، هل ما زلت معي؟

سأل بصوت أجش: «هل ماتت؟».

- نعم، يا سيّد كويست...

هل هذا ممكن؟ ماتت هيلخا؟ ماتت هيلخا؟ اتسعت عيناه ببطء من هول الفجعة، أحسّ بكيانه يفرغ، باتجاه أمستردام، التي لا بدّ أنّ جثمانها يرقد فيها.

سأل وهو يسمع على الفور مدى حماقة هذا السؤال: «أحقّ ماتت كلياً؟».

- نعم، يا سيّد كويست.

فصرخ فجأة: «يا ويلتي! كيف حدث هذا بحقّ الربّ؟».

- هل أنت واثق من أنك تريد سماع هذا على الهاتف؟!

- أخبريني من فضلك! في الحال!

لا بدّ أنها تعرّضت لهجوم في الهزيع الأخير من الليل، بينما تفتح باب منزلها. جُرّجرت إلى الداخل وطُعنت بالسكين في الرعدة من دون رحمة، على يد مدمن مخدرات في أغلب الظن؛ بعد سرقة لبيتها، تركها لمصيرها المحتوم. لا أثر للجاني. لأنّ حبالها الصوتية مصابة أيضاً، لم تستطع أن تصبح لطلب النجدة، لكنّها وهي تنزف بشدة استطاعت فتح الباب والزحف إلى حجرة الهاتف العمومي على الطرف الآخر من الشارع، وفي يدها قليل من عملات معدنية، بقيت في حقيبتها التي أفرغها الجاني. من الواضح أنها أرادت الاتصال من هناك برقم الطوارئ - لو أنها تلقت مساعدة فورية، لنجت في أغلب الظن، لكنّ الهاتف كان محطماً. على الأرجح بعد مضيّ ساعة من الزمن، قُبيل الصباح، وجدها أحد عابري السبيل؛ كانت قد ماتت بسبب التزيف. جثمانها الآن في المشرحة في مستشفى فيلهيلمينا.

*

لم يعد أونو إلى الآخرين، خرج من باب جانبي إلى الشارع. كان حشدٌ صغير قد تشكّل في تلك الأثناء بالقرب من بوابة الكنيسة المغلقة، لكنّه لم يعد يستوعب أيّ شيء مما يحيط به؛ من دون أن يرى أين يمضي، هام على وجهه من جانب قناة ضيّقة باتجاه مركز البلدة. لقد ماتت هيلخا. تشكّلت صحراء في نفسه. أراد أن يبكي، لكنّه كان قد أجذب من

الداخل. لقد ذبحوها بلا مغزى. لم تعد موجودة، جثتها المشوّهة ترقد تحت ملاءة في قبو من أقبية أمستردام، ويعيش قاتلها في هذه اللحظة في نعيم الهيروين. لعلّه يراه في المدينة ذات يوم وهو ينش في حاوية قمامة - كيف يستطيع الخروج إلى الشارع مرة أخرى؟ يجب أن يرحل، يجب أن يرحل من هولندا إلى الأبد. في أول الأمر كانت آدا، والآن هيلخا. كل شيء سُوي بالأرض. هل كان يحبها؟ لم يكن يفهم جيداً ما الذي يقصده الآخرون عندما يقولون إنهم يحبون شخصاً ما، ولكنّ هيلخا كانت جزءاً منه على كلّ حال، وقد مات هذا الجزء. لماذا لا يُمنع المدمنون من الشارع، بموجب قانون الجنون؟ ربما سيُلقى القبض عليه - ولكن ماذا عن المخربين الذين حطّموا حجرة الهاتف العمومي، الأمر الذي تسبّب في نزيها حتى الموت؟ لولاهم، لبقيت على قيد الحياة. هؤلاء لن يُقبض عليهم قطّ ولن يُلاحقوا حتى. إذا ما ضُبطوا مصادفةً بالجرم المشهود، فسيعودون إلى الشارع بعد نصف ساعة بعد تلقّي توبيخ. تستطيع الشرطة مكافحة النهب والقتل، ولكنّ أعمال التخريب لا يمكن أن تمنعها سوى سلطة استبدادية، أو الربّ في السماء، الذي لم يعد أحداً هنا يؤمن به. إنه غير موجود، ولكن لو أنّ الناس يؤمنون به ولو أنّ وصاياه سارية المفعول، لما حطّموا الهواتف العمومية بهدف المتعة. لقد ماتت هيلخا. هل يجب أن تكون الكذبة ضرورية، لأنّ البديل سلطة استبدادية؟ حجرات الهاتف العمومي لا تتعرّض للتخريب لا في موسكو ولا في مكّة. هل يجب أن يكون الاختيار بين الخداع والاستبداد؟ لم يعد يريد أن يكون جزءاً من عالم تسير فيه الأمور على هذا النحو. هل يجب الاختيار بين حكومة دينية ودكتاتورية دينية؟ هل يمكن للمجتمع تأدية وظيفته بصورة ملائمة على أساس الخوف فقط؟ هل يجب زراعة رجل شرطة في داخل الإنسان بأمرٍ من فوق؟ هل الإنسان شرير بطبيعته ولا يصبح خيراً إلا في الظروف السيئة؟ أيجب أن يُعمل إذاً على تدهور ظروفه لأسباب إنسانية؟ هل كان روسو أكبر مجنون على مرّ العصور كلّها؟ في هولندا لم يبلغ الناس من الإنسانية أكثر مما بلغوها في شتاء 1944-1945، عندما كان الآلاف منهم يموتون من الجوع وتدوي حولهم طلقات فرق الإعدام. إنها حالة ميثوسّ منها. لقد ماتت هيلخا. يجب على زملائه في الكنيسة، زملائه سابقاً، رؤية كيف سيتعاملون مع الوضع بتسامحهم - لأنهم لا يريدون الاختيار، لن يبقى أمامهم سوى الفوضى. جاء فيدل بتصميم متفائل لصورة مثالية للإنسان الجديد في دور الربّ، وتشي في دور ابنه المقتول - لقد حظي فيدل بمباركته، أما بالنسبة إليه هو نفسه فقد انتهى كل شيء. سيخرج من الساحة. لقد ماتت هيلخا. لا سياسة بعد اليوم، لا صديقة بعد اليوم؛ ربما لا شيء

سوى قرص فستوس. لم يعد يريد أن يصبح شيئاً. لقد احترق بشكلٍ كامل. أيّ يوم هذا؟! نظر حوله، إلى واجهات يوم الأحد الفاضلة. لم تكن هيلخا قد جاءت إلى إنكهاوسن قطّ في أغلب الظن، شأنها في ذلك شأنه هو نفسه؛ لكنّها الآن ليست هنا ليست بالطريقة التي لم تكن بها هنا من قبل: لقد زرع موتها «لا» دائمة، مختلفة تماماً، في العالم وفي نفسه. لقد انتهى كلّ شيء. لقد أخذ قراره: سوف يختفي. الوضع في البلدان المتحضّرة الأخرى ليس أفضل من هنا قيد أنملة بطبيعة الحال، ولكن على الأقل لا أحد يعرفه هناك، لأنه هو أيضاً لا يريد معرفة أحد من الآن فصاعداً - ولا حتى كوينتن. لقد صار غريباً عن الجميع، وعن نفسه في المقام الأول. لن يبقى في هولندا يوماً أطول من اللازم.

45. تَغْيُرَات

المرة الأخيرة التي رآه فيها ماكس، وصوفيا، وكويتن، كانت في جنازة هيلخا، التي حضرها أيضاً العديد من السياسيين والصحفيين. عاملته الصحافة بعطفٍ ورافة؛ كان هناك انطباعٌ بأنه تخلى عن الحقيبة الوزارية بسبب موت صديقه. اعتقد الجميع أنه من الأفضل ترك الأمر عند هذا الحد. كان من البديهي أن يحدث انطباعاً كثيباً مهموماً، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى نيته التخلي عن كل شيء، ولا حتى أثناء الوداع. بعد مضي أسبوع تلقى كلٌّ منهم رسالة مكتوبة بخط اليد، رسالة من أمستردام، قرؤوها في آنٍ واحد على مائدة الفطور في الشرفة.

عزيزي ماكس،

لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى في أغلب الظن. سأرحل بلا عودة. لقد دُفع بي إلى أقصى حد. أمل أن تفهم هذا من دون شرح، لأنني لا أستطيع الشرح. كل ما أعرفه هو أنني يجب أن أجعل نفسي غير مرئي، بعض الشيء مثل فيلٍ محتضّر. الشخص الذي كتبه لم يعد موجوداً، وكل ما يمكن أن يحدث في حياتي، يُعدّ حدث بعد وفاتي في واقع الأمر. لست في حاجة إلى إخبارك بأن هناك أناساً عاشوا معاناةً أسوأ بما لا يُوصف ولم يكن ردّ فعلهم مثل ردّ فعلي، لكنهم أناس مختلفون عني. هناك أيضاً أناس يشقون أنفسهم لسبب أهون بكثير. لا أعرف ما إذا كان ما كنت أريده ممكناً، وهو أنني لم أعد أريد شيئاً، لكن يجب أن أحاول على كل حال. كل ما أريده هو التأمل في عدة أشياء. أما أنني أبتعد أيضاً عن أعلى الناس عليّ، مثلك، ومثل كويتن طبعاً، وأختي الصغرى، بدلاً من أن أقرب منكم، فهذا لغز بالنسبة إليّ أيضاً؛ ولكن أي موقف يمكن أن يأخذه الإنسان ليحلّ اللغز الذي يشكّله هو نفسه؟ لعلّي كنت أريد دائماً أن أبتعد عن كل شيء.

بين حادث آدا ومقتل هيلخا حدثت مسيرتي السياسية، التي انتهت الآن هي أيضاً. لا يمكن تصوّر حياتي من دون حياتك، كنت حتى الأسبوع الماضي تحدّد مجراها إلى حدّ أكبر مما تعرف أنت نفسك. أدرك أنّ ما أقوله يبدو غامضاً، لكن دعه يبقى هكذا. على الرغم من أننا تحدّثنا عن أشياء كثيرة، ولا سيما في الشهور الأولى تلك، بقي ما هو جوهر قيد الكتمان على الدوام. ما الذي كان بيننا يا ماكس؟ جلجامش وإنكيديو؟ هل تتذكّر؟ «الميتوباغوس»؟ لم أنس شيئاً ولن أنسى شيئاً ما حييت، ستبقى ذكرى صداقتنا معي إلى أن أُلغى أنفاسي الأخيرة. وأما أنّك أردت أن تشمل كويتن برعايتك - كي أكون صادقاً، لا تزال الطريقة التي تخلّيت بها عن مباحج حياتك السابقة تدهشني إلى اليوم الراهن - فهذا شيء يملؤني لا بالامتنان العميق فحسب، بل ربما أيضاً بإحساسٍ أعمق بالذنب. الحقّ أنه منذ اللحظة الأولى كان ابنك أكثر مما يكون ابني. اعتنّ به جيّداً في السنوات القليلة القادمة التي سيبقى فيها عندكم. لقد ربّيت كلّ الأمور المالية والعملية مع المصرف الذي أنعامل معه؛ سوف تستمرّ كلّها بطبيعة الحال حسب العادة. أحياناً يراودني إحساس بأنه يعرف كلّ شيء، ولكن إذا أراد الالتحاق بالجامعة والعيش في غرفة مستأجرة، فهناك حصّة مالية في انتظاره.

ألغيت عقد الإيجار في شارع كيرك ووضعت أغراضي في العلّية في بيت دول في الوقت الحاضر؛ إذا كان أيّ منكم يريد شيئاً منها، يستطيع أخذه. ما عدا محاميّ، هانس غيلتاي فيث (بهذه المناسبة هو ابن المترافع عن أبيك بعد الحرب)، لا أحد يعرف كيف يصل إليّ، ولا حتى عائلتي. إذا كان هناك شيء هامّ حقاً، تستطيع التوجّه إليه.

تمنياتي لك بالتوفيق يا ماكس، في مشروعك العلمي أيضاً. اكشف النقاب عن الانفجار العظيم! سأبقى أفكّر فيك بصفتك الشخص الذي يعرف الإجابة عن سؤال قبل طرحه.

المخلص لك، أونو

سيدتي المحترمة،

يمكن لأيّ استهلال آخر أن يكون بالقدر نفسه من الحماقة، لذلك فلتترك هذا الاستهلال على حاله. سيقرئك ماكس رسالتي التي أخبره فيها بأنني سأختفي. يبدو من الوهلة الأولى وكأنني اتخذت قراراً صعباً، فكّرت فيه فترة طويلة، لكنّ الأمر لم يسر على هذا النحو. ما إن سمعت ما حدث لهيلخا، حتى علمت علم اليقين أنه ليس هناك خيار آخر. لقد صرّْتُ في

وضعي الحالي غير مؤهل لأيّ رابطة اجتماعية. قدّرتُ أدائمتَ طبعاً بكلّ الصلة إلى هذا الأمر بطريقة غير مباشرة.

يصعب عليّ كتابة هذه السطور. صحيح أننا لم نكن على خلاف أبداً، لكننا لم نكن على تواصل حقيقي أيضاً. لم تختاري أن أكون صهرك ولا اخترت أنا أن تكوني حماتي؛ ولكن لأننا أنا وآدا اختار أحدهما الآخر، أصبحنا أنا وحضرتك نمتّ بصلة أحدهما إلى الآخر، بينما في الواقع بقي كلٌّ منا غريباً عن الآخر طوال هذه السنوات كلّها، مثل كاتنين من عالمين مختلفين. يبدو أنّ الطبيعة لا تؤثر في النفس الإنسانية إلا على مسافة قصيرة، وينبغي لنا القبول بهذا الأمر. ولكنّ هذا لا يؤثر على حقيقة أنّ ابنتك زوجتي... أو كانت - حالة الغبش في هذا الاقتران تعبّر أدقّ تعبير عن عمق المصيبة. لقد تضافرت حياتنا نحن الخمسة إلى الأبد: حياتي، حياتك، حياة آدا، وماكس وكويتن.

لن تعرف آدا أبداً كم هو شيء رائع أنك أخذت مهنتها على عاتقك خلال الثلاث عشرة سنة الماضية، لكنني أعرف وأتمنّى لو أكون قادراً على التعبير عن مشاعري. لست قادراً على التعبير عنها للأسف الشديد؛ لكنني أؤاسي نفسي بأنّ الذي يستطيع فعل هذا قد لا يملك هذه المشاعر. دعيني أقول بهذه الطريقة: من عدّة نواحٍ أكنّ لحضرتك من مشاعر الامتنان أكثر مما أكنّه لو الدتي. لحم آدا من لحمك؛ إذا استدعت الحاجة لأن تؤخذ قرارات بشأنها، فلحضرتك الكلمة الأخيرة بطبيعة الحال.

سامحيني على النبرة الرسمية في هذه الرسالة. وداعاً، مع خالص تمنّياتي.

صهرك

حبيبي كويتن!

لابدّ أنك لاحظت أنّ كلّ شيء في الحياة يتغيّر باستمرار - هذا يحدث على العموم بصورة تدريجية وغير ملحوظة تقريباً، ولكن في بعض الأحيان بصورة مفاجئة وجذرية للغاية أيضاً. عندما تذهب إلى مكانٍ ما بدرّاجتك الهوائية، لا تكون هناك أيّ مشكلة، ولكن عندما تسقط منها وتنكسر ساقك، تقع مشكلة كبيرة بصورة مفاجئة. الحرب شيء من هذا القبيل، ولكن ليست الحرب فحسب. كنّا أنا وأمّك نعيش معاً حياةً في غاية الهدوء، ولكن عندما أخبرني ذات يوم بأنك ستولد - طبعاً لم نكن نعرف في تلك اللحظة أنّ الطفل سيكون أنت،

حتى إننا لم نكن نعرف ما إذا كان صبيّاً أو بنتاً- لم يبقَ أيُّ شيء على حاله منذ تلك اللحظة. كان ذلك تغييراً جميلاً بطبيعة الحال، ولكن عندما تعرّضت أمّك لذلك الحادث، تغيّر كلّ شيء بطريقة فظيعة. في السنوات الماضية حضرت أيضاً جنازة جدّك وجدّتك تو، كانا طاعنين في السن، وعندما تكون طاعناً في السن، فمن الطبيعي أن تموت؛ لكننا قبل بضعة أيام دفنا خالتك هيلدا أيضاً. هل تستطيع تصوّر أنني لم أعد أستطيع التحمّل؟ لعلّك لم تتوقّع هذا مني، ولعلّك تجده ضعفاً مني، لكنني لا أستطيع فعل أيّ شيء حياله. إنه شيء مثل عود الثقاب: تستطيع كسره مرّتين ويبقى نصفاه مع ذلك متّصلين أحدهما بالآخر، لكنّه في المرة الثالثة ينكسر من النصف. في بعض البلدان، لديهم أعواد ثقاب صغيرة من الشمع، يمكنك أن تحنيها إلى الأمام والخلف كما يحلو لك دون أن تنكسر أبداً؛ لكنني لست واحداً من تلك الأعواد. إنها على كلّ حال أعواد ثقاب فاسدة تحترق بها أصابعك على الدوام.

حقيقة أنني أكتب لك هذه الرسالة، تعني حدوث تغيّر من هذا القبيل بالنسبة إليك. عندما تقرأوها سأكون قد رحلت. إنني متخفّ الآن، مثلما كانوا يقولون في زمن الحرب؛ كان الناس يتخفّون حينذاك من الألمان، لكنني متخفّ من الحياة نفسها. لعلّك ترى هذا غريباً من شخص متكلّم مثلي، لعلّك ستحتقرني على هذا في يوم من الأيام، ولعلّك تحتقرني الآن، ولكن هذا هو الحال. لقد رحلت من أجلك، ورحلت من أجل نفسي أيضاً. لن تفتقدني كثيراً، لأنه لن يتغيّر الكثير بالنسبة إليك. لم أكن أباً حقيقياً لك على الإطلاق، كنت دائماً مثل عمّ في مكان بعيد. ماكس هو أبوك، وجدّتك هي أمّك. هناك آباء وأبناء في العالم، وكنت أنتمي دائماً إلى الأبناء أكثر منه إلى الآباء. لعلّك أبّ أكثر مني. حاول أن تنساني، كلّ ما أريده هو أن أفكّر قليلاً. اعتبرني ناسكاً يذهب لقضاء ما تبقى من عمره في الخلاء.

سامحني ولا تبحث عني، لأنك لن تجدني.

أبوك الضائع

رفع كويتن عينيه فالتقنا بعيني ماكس وصوفيا، اللذين قرأ كلّ منهما رسالة الآخر أيضاً. في شمس الصباح كانت الدباير الأولى قد حطّت على بقايا العسل.

- ماذا يعني ناسك؟

- زاهد.

- هل رحل أبي مثل أمي؟

كان بيت شعر يتردد في رأس ماكس من دون توقّف: «أنا ضائع بالنسبة إلى العالم»^(٥) - خيّل إليه وكأنّ رسالة أونو متوالية وراء هذه الكلمات، بحيث لا تستطيع النفاذ إلى أعماقه بصورة فعلية. لقد ارتعب أيضاً من جملة أونو التي يقول فيها إنه حدّد حياته إلى حدّ أكبر مما يعرف هو نفسه - لكن تبين مما تلاها أنّ ذلك ليس له علاقة بكويتن. نظر إلى كويتن مشوّش الذهن وأخذ يبحث عن إجابة لسؤاله، لكن صوفيا قالت: «طبعاً لا. إنه في مكانٍ ما، لكنّه لا يريد التكلّم مع أحد. إنه مفجوع على الخالة هيلخا ولذلك يقول هذا الشيء. أظن أنّ...».

فجأة اختفت كلماتها في أزيز يصمّ الأذان صادر عن تشكيلة من الطائرات الحربية العابرة على ارتفاع منخفض؛ انتظرت برهة قصيرة إلى أن تحوّل الأزيز وراء الغابات إلى هدير عاصفة رعدية بعيدة: «الزمن يداوي كلّ الجراح. لن أستغرب عندما يعود بعد بضعة شهور بصورة مفاجئة».

قال ماكس: «لست واثقاً من هذا».

لقد ظنّ هو أيضاً أنّ هذا أمر غير مستبعد، لكنّه لم يرغب في إعطاء كويتن أيّ أمل كاذب: «لو كان يريد العودة، لانسحب إلى مكانٍ ما فترة من الزمن؛ ولكنّ الشخص الذي يكتب مثل هذه الرسائل، يكون قد حدث معه شيء آخر. هل يمكننا قراءة رسالتك أيضاً يا كويتن؟».

- ليس الآن. يجب عليّ الذهاب إلى المدرسة.

- سأتصل بهم لأبلغهم أنك ستأخر قليلاً.

ناوله كويتن الرسالة على مضض، بعد ذلك قرأ هو نفسه رسالتي صوفيا وماكس. لم يفهم كل شيء، لكنّه كوّن من جديد فكرة عن علاقة الصداقة التي كانت قائمة بين أبيه وماكس. كما أنه قرأ في الرسالة الموجهة إلى ماكس أنّ ماكس هو والده في الحقيقة، لكنّ الأمر في الحقيقة لم يكن على هذا النحو تحديداً: ليس الشخص الذي كتب رسائل الوداع هذه ليس والده، بل والده. ماكس والده على سبيل المجاز فقط، مثلما جدّته هي والدته على سبيل المجاز فقط.

رفع عينيه عن الرسالة: «هل يمكنني الاحتفاظ بتشيلو ماما في غرفتي؟».

فقال ماكس: «طبعاً. إذا ذهبت إلى لاهاي، سأتيك به من عند عمّتك دول».

(٥) بالألمانية: من قصيدة سيمفونية لمارلر. [م]

تَهْد كوينتن بعمق وأخذ يحدّق من فوق الخندق المائي إلى الأشجار ومستودعات الحناطير. شعر بغياب والده حوله بقوة أكبر بكثير مما شعر ذات يوم بوجوده، فحِيلَ إليه وكأنه الآن أكثر حضوراً من الوقت الذي كان حاضراً فيه.

*

ما حقيقة هذا الأمر - تساءل ماكس بعد مضيّ بضعة شهور، في وقت متأخر من المساء عقب عودته من بيت تشجالينغتشبي، بينما يريد شرب كأس أو كأسين من النبيذ في القلعة الهادئة، لكنّه أفرغ الزجاجاة بأكملها - حقيقة أن تتغيّر الأزمان بصورة مفاجئة؟ في سنوات الستينيات انتفض الطلاب في بيركلي، بعد وقت قصير من ذلك نشأت حركة بروفو في أمستردام، وبعد ذلك احتلّت الجامعات في برلين وباريس أيضاً. يمكن أن تكون هناك علاقة سببية بين هذه الأمور، ولكن كيف لها أن تحدث في وارسو أيضاً، على الجانب الآخر من الستار الحديدي؟ وكيف حدثت الثورة الثقافية في الصين في الوقت نفسه، التي كانت أيضاً قضية من قضايا الشباب؟ لم تكن هناك علاقة بين هذه الأشياء، لكنّها مع ذلك حدثت في آن واحد. لم تكن يابان الإمبراطورية تمتّ بأيّ صلة إلى ألمانيا الهتلرية، ومع ذلك صارت عدوانية بالقدر نفسه في اللحظة نفسها. أيمن أن تكون روح هيغل العالمية موجودة فعلاً، وأنّ البشرية بأسرها خاضعة لحركات المدّ والجزر التي تُحدثها التيارات الغامضة في أعماق البحار، التي لا تبالي بالفروقات السياسية؟ هذا نوعٌ من الأسئلة التي لا أجوبة لها، ولكن على نطاق ضيق حدث شيءٌ مشابه في ظروفه الشخصية أيضاً. يقول المثل الذي لا يُطاق: «المصائب لا تأتي فرادى»؛ لكنّه منذ أن ناهز الخمسين من العمر، بدأ يدرك أنّ هذه الأقوال المأثورة هي حقائق واقعة. بدا لاحقاً وكأنّ رحيل أونو قد أعلن أيضاً نهاية إقامتهم في خروت ريجترن، رغم أنّ رحيله لم يكن يمتّ بأيّ صلة إلى إقامتهم فيها.

عندما توفيّ البارون إثر صراع طويل مع المرض ومع ذلك على غير المتوقع، كما أعلنت بطاقة النعي، كان لذلك نتيجة مرضية في أول الأمر. تلقّى ماكس بصفته وصياً على كوينتن دعوة من كاتب عدل في مدينة زفوله، حيث سمع أنّ المتوفّى قد ذكر كوينتن في وصيته الأخيرة. في غرفة فاخرة مكسوّة بالوواح خشبية، تدخلها سيّدة هادئة بين حينٍ وآخر، وتغيّر شيئاً في أكداش عالية من الوثائق المطوية بالطول، قرأ عليه المسؤول الحكومي الهزيل إلى حدٍّ ما وصية خيفرس. لم يكن المتوفّى قد فاته أنّ كوينتن ينظّف قبر «ديب ثوت سان ستار»

من نباتات القَرَّاص بالمنجل على نحوٍ منتظم: مكافأة له على هذا العمل، وصّى له بعشرة آلاف فلورين. كذلك سيحصل على ثلاثين ألف فلورين على أنه جعل مشروع حياة ابنه روتخر ممكناً: «الستارة الكبيرة جداً» - التي بلغت في هذه الأثناء عشرة أمتار بعشرة أمتار. قال كاتب العدل إنّ أربعين ألف فلورين مبلغ كبير للغاية، وإنّ عائلة المتوفّى ليست سعيدة بهذا الأمر في أغلب الظن، لكنّه في الإجمال يُعدّ تعويضاً عن إيجار مسكنهم منذ 1968. لقد أقاموا فيه مجاناً طوال تلك السنوات.

قال بينما يرافق ماكس إلى الباب الرئيسي: «على ذكر هذا الحديث، إذا كان يهَمُّكَ أن تعرف، فأستطيع إبلاغك أنّ الورثة يريدون التخلّص من خروت ريخترن عما قريب. تستطيع شراءها إذا أردت. إنها لك بخمسمئة ألف فلورين، من دون الحديقة ومنزل السيّد تريب ولكن مع مستودع الحناطير والمباني الملحقة الأخرى. رخيصة للغاية».

ضحك ماكس: «ومن أين سأتّى بنصف مليون فلورين؟ يجب عليّ تدبّر أمري من راتب العلماء الذي لا يسدّ الرمق».

- تكلم مع المصرف الذي تتعامل معه. وإذا كانت باهظة الثمن بالنسبة إليك وحدك، يمكنك التفكير في إنشاء جمعية تعاونية مع المستأجرين الآخرين، تستطيع أن تكون هي المشتري. لا تعرف ما الذي سيحدث في الحالة الأخرى. بعد انتقال الملكية إلى طرف ثالث، يستطيع إلغاء عقد الإيجار بعد ثلاث سنوات، ولن تحصل على شيء مثلها مرّة أخرى. أنا تحت تصرّفك إذا احتجت أيّ استشارة. لكن لا تتأخّر كثيراً في أخذ القرار، فهناك أناسٌ عيونهم عليها.

هكذا بدأت فترة من الاضطراب وعدم الاستقرار، ولكنّ النتيجة الأولى كانت زيادة في التضامن. لم يحدث أن اجتمع بعضهم مع بعض بهذه الكثرة في القلعة: في بيت ماكس وصوفيا، بين حمام تيو كيرن الهادلة، في إمبراطوية السيّد والسيّد سبير الأنيقة، ومرّات قليلة في الطابق العلوي أيضاً، عند بروكتور وكلارا بين المظلات؛ لكن على العموم في مكتبة ثيمات، الذي لم يكن وضعه يسير على ما يرام في الآونة الأخيرة. ولأنّ أيّاً منهم لم يكن ثرياً، فقد طلبوا من كاتب العدل أن يكتب لهم مسوّدة النظام الأساسي لجمعية مستأجرين؛ بغية الحصول على إعانات مالية للترميم، حجز بذكاء بالغ مقعداً في المجلس الإداري لطرفٍ غريب، مثل «مؤسسة قلاع درينته»، أو «إدارة الأحرار الوطنية». ولكن عندما بوشر الحديث

عن التمويل، القرض العقاري، مساهمات المشتركين، ضريبة الأرض، ضريبة العقار، تقسيم هذه التكاليف كلها بينهم، ظهرت أولى المشكلات. مَنْ يسكن في أجمل شقة يجب عليه دفع القدر الأكبر بطبيعة الحال، والشقة يمكن تقدير قيمتها؛ ولكن كيرن، الذي يقيم في شقة أجمل من شقة بروكتور، على كل حال، ويستخدم إلى ذلك مستودع الحناطير، بدأ يتراجع بارتياح. فالجميع لديه دخلٌ ثابت ومعايش تقاعد، ما عداه هو باعتباره فنّاناً. لقد بلغ أواخر الستينيات وإذا ما أقعده المرض غداً، فلن يدخل سنتٌ واحد إلى جيبه، وستضطر سلمي أن تذهب لفرك الأرضيات في بيت البارونة؛ ثم إلى متى سيكون قادراً جسدياً على النحت، حتى يستطيع الإيفاء بالتزاماته؟ الحقُّ أنَّ حصّته في فاتورة كاتب العدل قد قصمت ظهره. ولكنَّ الشخص الذي لا يصبح عضواً في الجمعية، هكذا اشترط كاتب العدل نفسه، يجب أن يوافق على فقدان حقّه في المسكن.

بدأ ماكس يتردّد أيضاً. لقد ترك نفسه يسير مع التيار الأول من الحماس، ولكن عندما تعثرت الأمور، تساءل ماذا يريد هو نفسه. بعد خمس سنوات على أقصى تقدير سيتترك كويتن المنزل - هل يجب عليه الاستمرار في العيش هنا مع صوفيا؟ ستكون المهمة التي أخذها على عاتقه قد أُنجزت، ولن يعود هناك ما يربطه بها سوى الذكرى.

ذات مساء، عندما ثمل قليلاً، استجمع شجاعته فجأةً للبدء في الحديث عن الموضوع: «اسمعي يا صوفيا، بالنسبة إلى القلعة مرة أخرى. إذا قرّر كويتن بعد بضع سنوات...». فقاطعته في الحال: «طبعاً. سيفترق طريقنا».

تذرّعا بذريعة أنهما لا يستطيعان التخلّي عن تيو، الذي يجدر بالذكر أنه أقدم الساكنين جميعهم في خروت ريخترن، ثم تمكّن بعد ذلك من إقناع الآخرين بترك الأحداث تأخذ مجراها الطبيعي وأن يعقدوا الأمل على أنَّ المالك الجديد سيتترك كل شيء على حاله.

*

مرّت هذه الأمور على كويتن مرور الكرام. تلقّى خبر الميراث السخيّ من خيفرس بعدم اكتراث أيضاً: كان الاعتناء بقبر «ديب ثوت سان ستار» وتعليم روتخر كيف ينسج ستارة، من الأمور البديهية للغاية بالنسبة إليه!

لأنه كان يعلم أنه سيرسب تلك السنة، في الأول الإعدادي، صار يعمل على واجباته المدرسية حتى أقل من المعتاد. في المساء، في الصمت الشامل، وقد أعشاه الضوء المضاء

على كتبه ودفاتره المفتوحة، يحدّق في غرفته إلى النافذة السوداء العالية، التي يستطيع أن يميّز على صفحاتها بغموض كيف تنساب السماء المظلمة في الغابة الأشدّ ظلمة. هناك في مكانٍ ما في الليل يعيش أبوه الآن - في مكان بعيد، ربما في أميركا، أو ربما حتى على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، في أستراليا. لكنّه على الأقلّ ليس بعيداً بعداً لا نهائياً مثل أمه. لعلّه يكون قريباً أيضاً؛ لعلّه أوحى بأنه سيرحل من هولندا، لكيلا يبحث أحدٌ عنه: لعلّه يعيش عند مزارع في الجوار. ولكن إذا كنت لا تعرف أين يوجد شخص، فلا يكون هناك فرقٌ في الواقع. ماذا يفعل في هذه اللحظة يا ترى؟ كتب لماكس إنه يريد أن «يتأمل» في شيء. أي شيء هو؟ ما الذي قصده بذلك؟ أخرج رسالة أبيه من الصندوق البرونزي، الذي يحتفظ فيه أيضاً بالخرائط السرية من «سامنيوم كويتي»^(٥). لم يحتج إلى قراءتها مرة أخرى، فهو يعرفها عن ظهر قلب: مرّر أنامله برفق على الكلمات المكتوبة، على الورقة التي استراحت عليها يد أبيه. أما ألا يراه مرة أخرى، فهذا يبدو مستحيلاً مثل فكرة أن الشمس لن تشرق يوم الغد.

أغلق الصندوق بقفل المشبك العتيق الذي كان بيت كيلر قد أهداه إياه؛ خبأ المفتاح الصغير بين أحجار القرميد المخلخلة وراء مدفأة البترول. بعد وضع يده على حقيبة التشيلو الخاصّ بأدا برهة قصيرة، ذهب إلى النافذة لينظر مجدداً إلى العناكب.

كانت تبدو مقرّفة المظهر وشعر بكَراهية نحوها، لكنّها تبهره. لأنّ الضوء في غرفة البرج الخاصة به يجذب الحشرات من الغابة، فقد رأت خمسة عناكب كبيرة أو ستّة أنها يجب أن تنسج شبّاكها أمام الزجاج. لم يكن يفهمها. كانوا من ناحية بناء ماهرين، بارعين، ينسجون بصبر شبّاكاً في منتهى الرقة من مادة تذكّره بالشيء الذي يجده في بنطال بيجامته في بعض الأحيان منذ بضعة شهور عندما يستيقظ في الصباح: يسبقه حلمٌ مبهج على الدوام، لا يستطيع تذكّره إطلاقاً ولا يمتّ بصلة إلى الحصن. ولكن عندما يفرغون من عملهم، يُظهرون أنهم قتلة يتسمون بالقدر نفسه من الصبر، لكنّهم على جانب كبير من الفظاعة، يتقصّون على فريستهم بلا رحمة، يعصّونها حتى الموت، يغزلون خيوطهم حول جناحيها المكسورين ويمتصّونها حتى الاستنزاف. كيف يتوافق هذان الشيطان أحدهما مع الآخر: هذه البراعة المعمارية مع هذا العدوان الغاشم؟

هناك عناكب تتربّص على طرف شبكتها إلى أن يعلق أحدٌ في جحيمها الفضّي، ولكن

(٥) باللاتينية في الأصل: *SOMNIUM QUINTI*. [م]

هناك أيضاً عناكب تقبع في وسطها. وفي أحد المساءات رأى فجأة أنّ التركيبة الواضحة لشباكهم تشكّل بمعنى أو بآخر صورة هندسية من أجسامها المقرفة بأرجلها المشعرة الثماني، نوعاً من امتداد شفاف منها، شأن الجبر الذي يكون مادة تجريدية من الرياضيات. عليه معرفة المزيد عنها، فقرر طرح الموضوع على السيّد ثيمات.

في اليوم التالي قال السيّد ثيمات بإذعان شخص وجد أستاذه: «هل تعلم ما هي مشكلتك يا كوكو؟ أنت.. لا علينا، دعك من هذا! لا أعرف ما هي مشكلتك».

ثم أخبر كويتن بأنها المرة الألف التي يصيب فيها كبد الحقيقة. أخذ يتحدث على نحو أبطأ من السابق؛ كذلك نوبات ضحكته المجلجلة لم تعد تطرح نفسها. رأسه يبدو وكأنه قد أصبح جزءاً من جذعه غير المتحرّك، أما عيناه المفتوحتان على اتساعهما في وجهه شبه الخالي من التعبير فتحدّقان فيه بجمود. لقد سمع كويتن من صوفيا أنّ السبب في هذا هو اضطرابه لأخذ الحبوب: تصبح على هذا الحال منها. عندما تراه، يُخيّل إليك أنه متحوّل إلى تمثال من نفسه مصنوع من الشمع، مثلما في متحف مدام توسو، ولكن يتبيّن من كلامه أنّ قواه العقلية لم تتعرّض لضرر.

قال إنّ كويتن قد عثر، عن طريق شبكة العنكبوت، على «نظرية المقياس الذاتي»: أطروحة بروتاغوراس^(*) بأنّ الإنسان مقياس كلّ الأشياء. في العصر الروماني القديم، قال فيتروفيو^(**) إنّ المعابد يجب أن تكون لها النسب المثالية لجسم الإنسان، مثلما هو الحال عند الإغريق؛ في العصور الوسطى صارت هذه القاعدة مرتبطة بالفكرة الموجودة في العهد القديم وهي أنّ الربّ خلق الإنسان على صورته، التي تضيف أصلاً إلهياً على قياسات الإنسان، بإضافة من العهد الجديد طبعاً وهي أنّ جسد المسيح هو المُعطى المركزي. أدّى هذا الأمر في الفنّ المعماري إلى بناء الكنائس والكاتدرائيات على شكل صليب لاتيني، أي معالم القامة البشرية في خطوطها العريضة؛ ولكنّ وجهات النظر هذه لم تتطوّر إلى نظام معماريّ فلسفيّ دقيق إلّا في عصر النهضة.

أمره السيّد ثيمات: «استلقِ على الأرض!».

نظر إليه كويتن باندهاش: «أنا؟».

(*) Protagoras (490-420 ق. م): فيلسوف إغريقي، تعدّ أفكاره أساس أفكار السفسطائيين. [م]

(**) Vitruvius (80-70 ق. م - 15 ق. م): مهندس معماري رومانيّ. [م]

- نعم، أنت.

بينما يفعل كويتن ما قيل له، نهض ثيمات عن كرسيه الهزاز ببطء، مثلما في فيلم بطيء الحركة، وسأل إلزبيث عما إذا كان لديها جبل في البيت.

رددت بارتياح: «جبل؟ ما الذي تنوي فعله بحق الرب يا فرديناند؟ هل ستربطه؟».

- أعطيني إياه!

أخرجت كرة من الصوف الأبيض من سلة: «هل هذا مناسب؟».

- حتى أفضل.

قال ثيمات لكويتن أن يضع كاحليه أحدهما بجانب الآخر وأن ييسط ذراعيه. ثم أخذ يزحف على ركبتيه ويمد الخيط على شكل مربع خالص فوق السجادة، محاذياً قمة رأس كويتن، وطرفي إصبعيه الوسطاوين، وكعبي قدميه. بعد ذلك قال لكويتن أن يبعد إحدى قدميه عن الأخرى قليلاً، ويرفع ذراعيه قليلاً إلى الأعلى، ثم مد ثيمات خيطاً ثانياً أبيض على شكل دائرة من جانب مشطلي قدميه ورؤوس أصابع يديه. نهض كويتن من رقوده بحذر ونظر إلى الشكل المزدوج. الدائرة مستندة على الضلع السفلي من المربع؛ محيطة به من الجانبين ومن الأعلى. أخرج ثيمات قطعة نقد معدنية من جيبه ووضعها بعناية في مركز الدائرة المتوافق مع مركز المربع.

قال: «هذا مكان سرتك، التي كانت تربطك بأمك».

نظر كويتن بشيء من الفزع إلى القطعة النقدية، التي تحولت بسبب كلمات ثيمات بصورة مفاجئة إلى لغز لاعم.

أخبره ثيمات بأن هذه العلاقة بين «الدائرة المتجانسة» و«المربع المتجانس» قد وصفها فيثروفيو في أطروحته عن الهندسة المعمارية قبل الميلاد، ورسمها ليوناردو دافنشي في رسم مشهور في القرن الخامس عشر. أخرج كتاباً من المكتبة وأطلع كويتن على الرزمة: رجل عارٍ من الملابس فخور الهيئة في مربع ودائرة، ذو شعر كثيف طويل إلى الكتفين وأربع أذرع وأربع أرجل، يحيط به تعليقٌ بكتابة معكوسة.

قال: «أظنّها صورة ذاتية. اللعنة، إنه يقبع مثلما يقبع عنكبوت في شبكة - ولديه ثمانية أطراف أيضاً. ماذا يعني هذا؟».

وألقي نظرة جانبية على كويتن، الذي كان هو أيضاً قد رأى ذلك على الفور، ثم سأل: «ألا تخشى أن تصل شيئاً فشيئاً إلى مناطق، لا يعود بوسع أحد متابعتك فيها؟».

- ماذا تقصد؟

- لا أعرف.

عاود كويتن النظر إلى الشكل المزدوج على السجادة وقال: «إنه يشبه أيضاً خريطة البانثيون بعض الشيء».

تبادل ثيمات نظرة مع إلزبيث وقال بشيء من الوقار في صوته: «إن إدراك أن الجسم الربّاني يحدّده شكلان بسيطان، مثاليان، من أشكال الهندسة الرياضية، وضع الإنسان في مركز التناغم الكوني. لا بدّ أنك تفهم أن ذلك كان اكتشافاً هائلاً بالنسبة إلى المهندسين المعماريين الإنسانيين، من أمثال صديقك الحميم بالاديو».

لم يحوّل كويتن عينيه عن المربّع الأبيض والدائرة البيضاء، بالقطعة النقدية في مركزهما. هل يمكن أن يكون هذا الشكل جوهر حصنه أيضاً؟ هل هذا هو الكلمة الأخيرة؟ حضره ما قاله ماكس له في إحدى المرات: في الكون اللامتناهي ليس هناك محيط في أيّ مكان وهناك المركز في كلّ مكان - لكنّه تذكّر أيضاً الصوت الأجشّ الذي يُجمّد الدم في العروق، الذي قال له في منامه إنّ «مركز العالم» يقع خلف الباب المقفل. نظر إلى القطعة النقدية فترأّت له والدته راقدة في سريرها الأبيض - ولكنّ السرير مستطيل الشكل. هل يذهب المستطيل خطوة أبعد من المربع؟ ولكنّ الدائرة ستصبح في هذه الحالة شكلاً بيضوياً بصورة تلقائية، بنقطتي مركز: مدار الأرض حول الشمس!

شعر في تلك اللحظة بأصابع تلامس شعره في مؤخرة رأسه، قليلاً إلى يمين الوسط. كانت السيّدّة ثيمات: «كويتن! هل تعرف أن خصلة من شعرك تبيّض هنا؟ فقط هنا، في هذا المكان!».

مكتبة

t.me/soramnqraa

46. اقتصاد السوق الحرّ

تبيّن في غضون بضعة شهور أنّ الصراع على القلاع لا يزال يُخاض، مثلما كان يُخاض في العصور الوسطى. صراعٌ تدور رحاه في ليلٍ حالك الظلام، بين أطراف غير مرئيين تقريباً، لا يشكّل ساكنو القلعة جزءاً منه، لكنّه سينتهي في أغلب الظنّ بطردهم من قبل المتتصر. كلّما طال أمد الحرب، فذلك أفضل بالنسبة إليهم. كان المشتري الأول صاحب مدجّة ثرياً من مدينة بارنيفيلد، ربّ الحياة والموت على ملايين الدجاج. عندما ظهر مرة في خروت ريخترن ليعاين عقاره الجديد الذي اشتراه دون أن يراه، بدا مظهره تماماً مثلما يتخيّل المرء عن مثل هذا الشخص: رجلٌ ضخّم البنية جهوري الصوت، بسيجار ومزاج رائع، لم يظهر بعد ذلك مرّة أخرى. ترك ذلك لوكيله مدير العقار، وهو سيّد نبيل الأصل شائب الشعر، كيفّ مظهره ليتوافق مع لقبه - ولكن، حسب رأي ماكس، بشيء من الإفراط في التأتق الأرستقراطي بنبطاله القصير، وجوربه الأخضر الطويل، وحذائه الإيرلندي شديد اللمعان، فهو خادمٌ لصاحب مدجّة عامي في نهاية الأمر. لم يكشف المالك الجديد عن خططه بشأن خروت ريخترن، لكنّه من المؤكّد لا ينوي السكن فيها، حسبما زعم السيّد النبيل، فهو لديه فيلاً فخمة في لونيرن. سرت شائعات في القرية بأنّ القلعة ستصبح المبنى الرئيسي لمركز أنثروبوصوفي للمتخلّفين عقلياً، بثلاثة مهاجع في الحديقة - التي يُقال إنها بيعت لمؤسسة معاشات التقاعد - يقيم في كلّ مهجع ستون قاصراً. يُزعم أنّ هذا كان شرط البارونة أثناء البيع، رغم أنّ القسيّسة قالت إنها لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر.

لأنّ ماكس هو الذي أفضل جمعيّة المستأجرين، فقد شعر بأنه ملزم بفعل شيء حيال حالة عدم اليقين هذه. كان مستغرفاً تماماً في إعداد برنامج بحث دولي مثير عن الطول الموجي الجديد البالغ 92 ستيومتراً في «الكويزار MQ 3412»، الذي يمكن من خلاله دراسة حالة

الكون الناشئ - لكنّه مع ذلك كان يجلس في دار البلدية بانتظام يهدر وقته في سبيل الحصول على صورة واضحة عن الخطط المتعلّقة بالقلعة. ولكنّ عضو المجلس البلدي والموظّفين، الذين يعرفون كلّ شيء معرفةً دقيقة بطبيعة الحال، والذين يسعدّهم من دون شكّ رؤية اسم فيستربورك مرتبطاً بمنشأة طبيّة، أثبتوا أنّهم مُنعماء أكثر من أفق الكون الذي كان قد اقترب منه غاية الاقتراب.

بعد مضيّ ستة شهور، اختفى مستشفى المجانين الأثروبوصوفي من الوجود بصورة مفاجئة. وعلموا أنّ الإيجارات يجب تحويلها اعتباراً من تلك اللحظة إلى حساب مصرفي آخر، باسم شخص لم يتنازل بالمجيء حتى مرّة واحدة لرؤية مشتراه. شخص يعيش في قصر ريفيّ كبير في مقاطعة أوثرآيسل، في وسط الغابات، حيث زاره ماكس. هو يشبه موظّف الطوابع البريدية وراء الشباك، وزوجته النحيلة حذاء بشكل طفيف، ومن فوق العشب رمقه بستانيّ غائر العينين، بمنجل في يده، بنظرة متعطّشة إلى الدماء. كان كلّ شيء ينضح بالتهديد مثلما في رواية قوطيّة، ولم يستطع حتى اكتشاف كيف يكسب المالك الجديد قوت يومه، فضلاً عن خطّطه. زعم السيّد روزينخا، الذي يصعد السلم بأسطوانات الغاز في الشتاء، أنّ الناس في القرية يقولون إنّ خروت ريخترن ستُحوّل إلى فندق بمطعم فاخر، ولكنّ بيت كيلر سمع أنّ مدرسة شرطة ستُفتح فيها.

لم يتحقّق أيّ شيء من هذا أيضاً، وبقي الملاك يخلفون بعضهم بعضاً. ثم سرّت شائعة جديدة عن دار مزادات علنية تريد الاستقرار في القلعة، ثم شائعة أخرى عن أنّها ستصبح منتجعاً للمديرين المنهكين من العمل الإضافي. في هذه الأثناء، لم يعد يُجرى عليها أيّ عمل من أعمال الصيانة. كان السيّد روسكام قد أخلى ورشته ولم يعرف أحداً ما إذا لحق بالبارون تحت الأرض، إلى العالم الذي ترقد فيه قبعة والده. صارت التصدّعات في الجدران الخارجية ظاهرة للعيان، أخذ الماء يتسرّب في بعض الأماكن، الجصّ يسقط من السقوف المصنوعة من الخيزران، وفي زوايا الغرف بدأ ورق الجدران المتعفنّ ينفكّ عن الخلفية المملّطة، كاشفاً الملاط الخشن القديم قدام قرون من الزمن. سدّت أوراق الخريف مزاريب السطح، فأخذت مياه المطر تسيل على الجدران وتغمر الأقبية، الأمر الذي أدى في الصيف إلى انتشار البعوض. بدت القلعة وكأنّها مصابة بالسرطان، تتدهور حالتها شهراً بعد شهر، ولكنّ عناداً لا يُقاوم استحوذ على الجميع: لن يسمحوا للرأسماليين بطردهم من القلعة!

بعد سنة ونصف من وفاة خيفرس، في 1983 - كان ماكس قد بلغ الخمسين، وصوفيا

الستين - حدث الشرخ الأول في المجتمع المتآلف: قبل كيلر بأن يُباع ما يخصه. كان المالك يبدو حينذاك رجلاً لطيف الطبع في الأربعينيات من العمر، زعمت القسيصة أنه من شهود يهوه، تدير زوجته نادي جنس في مدينة أمرسفورت. سمى نفسه بـ«تاجر تحف»، ما يتضمّن ذهابه مع «شريك» بشاحنة فارغة إلى إسبانيا، مرّة في الشهر، والعودة بحمولة من الكراسي والطاولات والخزانات الريفية، التي يخزنها في دفيئة البرتقال المتداعية. كان منزل كيلر قد خُصّص للشريك، الذي يثير انطباعاً بأنه أقرب إلى خادم مستعدّ للتضحية بنفسه من أجل سيّده. على حدّ زعمه، يستطيع الجميع أن يُكمل فترة إشعار الإخلاء البالغة ثلاث سنوات بكلّ أريحية؛ بعد ذلك سترُمّ القلعة ترميماً كاملاً، بتمديدات من شبكة الغاز الطبيعي وتدفئة مركزية. سيحصل الساكنون الحاليون على حقّ الأفضلية في السكن بطبيعة الحال، على أن يأخذوا بعين الاعتبار أن إيجار الشقق سيكون عندئذٍ أضعافاً مضاعفة من الإيجار الحالي. رأى السيّد سبير أنّ هذا سيفضي إلى تحوّل القلعة إلى بيت دعارة ضخّم تحت رعاية الكائن الأعلى.

ولكن تبين فجأة أنه قد باع القلعة هو أيضاً. لقد احتفظ فقط بالمباني الواقعة خلف الخندق المائي - وعندما رأى ماكس وصوفيا مالك القلعة الجديد، أدركا على الفور أنّ رياحاً أخرى على وشك الهبوب. لم يعد هناك مجال للشكّ، ها هو ذا المنتصر هنا، لقد توصّلت آلية السوق السامية أخيراً إلى هدفها المنشود: رجل قصير القامة، مزهوّ بنفسه، أصلع الرأس وقصير اللحية، يُدعى كورفينوس، وصاحب شركة هدم. كان من الواضح أنه قد عزم على تقصير فترة الثلاث سنوات بشكلٍ حادّ عن طريق الإزعاجات، فقد بدأ من فوره يتدخّل في كلّ شيء. فإذا وضع كويتن درّاجته الهوائية مجدّداً في الفناء الأمامي، خلافاً للنظام الجديد، بدلاً من وضعها في مستودع الدراجّات، تلقّى ماكس في اليوم التالي رسالة مضمونة يطلب فيها بنبرة حازمة أن يمنع حدوث هذا الأمر منعاً باتاً. أسمع كيرن أنّ البهو المشترك في الطابق العلوي ليس جزءاً من مسكنه المستأجر، ولذلك لا يُسمح له باستخدامه لتخزين الأغراض. طالب كلارا بالآلّا تنشر غسيلها مرة أخرى على السطح، مثلما يفعلون في الأحياء الفقيرة. كانت كرة التخطيم المتدلّية من الرافعات، التي يضرب بها عمّاله على جدران المنازل، موجودة في رأسه أيضاً بطريقة أو بأخرى. فصار يأتي مرّة واحدة كلّ أسبوع لا شيء، حسب رأي الجميع، إلا لاختلاق نزاعات جديدة - لكن يبدو أنّ هذا لم يكن كافياً بالنسبة إليه. كان يجب أن يأتي

بسجّان. حُوِّلَت الغرف، التي خزّن البارون فيها أغراضه في العلّية في ما مضى، إلى شقّة، وظهر ذات يوم الساكن الجديد: نيدركورن.

ارتعب ماكس عندما رآه في المرة الأولى، وفي كلّ المرات اللاحقة أيضاً. رجل عملاق من عمره، صلب الرأس، يرتدي دائماً حذاء فروسية طويل الساق أسود اللون، يضرب عليه بسوط مضقّر، ويصاحبه كلب رعاة بصورة دائمة لا تتغيّر. كان ماكس يفضّل أن يفرغ فيه مسدساً رشاشاً على الفور، ولكن لعلّ هذا التصرف أقرب إلى شخصية رفيقه الجديد في السكن. لم يُعرّف بنفسه إلى أحد، لم يحدث أن ألقى التحيّة على أحد، كان يقضي ساعات في تدريب كلبه، باكو، على الساحة العشبية قبالة منزل بيت كيلر السابق. يشارك حياته مع امرأة شابة مكتنزة الجسم، تصغره بكثير وأقصر منه بثلاثة رؤوس، تبدو أنها مغرمة به وتلفّ ذراعها حول كتفيه عندما يغادران في سيارة الجيب الخاصة بهما، الأمر الذي أدهش ماكس دهشة عظيمة.

ولكن سام سبير لم يقتصر على التخيّلات المتعطّشة للقتل، فقد أعلن بعد بضعة أيام بوجه خالٍ من التعبير: «سأرحل. لا أستطيع العيش مع هذا الرجل تحت سقف واحد. لا تؤاخذوني، هذا الشخص الغليظ يصيبني بإعياء جسدي. إنه يذكّرني كثيراً بشيء». رأى الجميع أنه كان جاداً في ما ذهب إليه، لم يتمنّ أحد هذه السعادة لكورفينوس، لكنّ الجميع احترمو قراره والجميع فهموا أيضاً أنّ المرحلة الأخيرة قد بدأت.

*

بالنسبة إلى كويتن كان رحيل بيت كيلر أشبه برحيل فيردونكسخت وصديقه: أقرب إلى مشاهدة مندهشة للحقيقة، التي كتب له والده أيضاً عنها: بأن ليس كل شيء يبقى دائماً على حاله. كان أولاد كيلر الثلاثة قد تركوا المنزل منذ زمن بعيد، شأنهم في ذلك شأن مارثا ابنة كيرن على ذكر الحديث. لقد ساعده بتحميل المفاتيح والأقفال والأغراض الأخرى من ورشته، التي لطالما لعب بها. عندما سأله ألا يجب أن يأخذ معه عجلتي العربة الموجودتين على جانبي الدرب المفروش بالحصى، تردّد كيلر برهة قصيرة، ثم قال إنه ليس لديه مكان لهما في المنزل الذي سيسكن فيه. عندما سارت الشاحنة الصغيرة المُستأجرة مفرقة على الألواح المخلخلة للجسر الخارجي واختفت وراءه، انتابه شعور وكأنّ كيلر -الذي تعلّم منه أشياء كثيرة للغاية- لم يكن موجوداً على الإطلاق.

لكنّه لم يستطع رؤية رحيل السيّد سبير. تذكّر كيف أنّ الجدة كانت تأتي دائماً لترقده في السرير وتُطفئ الضوء، عندما كان صبيّاً صغيراً؛ بعد أن تطيع قبله على خدّه وتسير صوب الباب، يسحب البطّانية بسرعة إلى ما فوق رأسه ويغمض عينيه بشدّة - عندما يفتح عينيه بعد ذلك، يجب أن يكون الظلام قد بقي على الحال نفسه حينما أغمض عينيه. لا يجوز أن يكون هناك فرق بين الفتح والإغماض. ولكن عندما يبقى الضوء مشتعلًا، لأنها ترتّب شيئاً في غرفته، يكون هذا شيئاً كارثياً، عندئذٍ تكون الليلة قد أفسدت بطريقة أو بأخرى.

في بيت سبير حُزم كلّ شيء في صناديق وبطّانيات رمادية. عندما انعطفت شاحنة النقل إلى الفناء الأمامي في مطلع الظهيرة، ودّعهما على درج المدخل. تفرقت الدموع في عيني السيّد سبير ولم تستطع قول شيء، عانقته فحسب، ضمّته إلى حضنها وقبلته خمس مرّات أو ستاً، أما السيّد سبير فقد صافحه مصافحة قوية وقال: «يؤسفنا ألا نراك كلّ يوم من الآن فصاعداً يا كوكو! لقد صرتَ جزءاً من حياتنا، الحقّ أنك طفلنا أيضاً. أمل أن تسير أمورك على ما يرام، لكن في الواقع لا يخامرني الشكّ في هذا، ما دمت تعتني بنفسك جيّداً. هل تعدني بأن تعتني بنفسك جيّداً؟».

- أعدك يا سيّد سبير!

- تعال لزيارتنا في بونتريدفينغيد عندما تأتي إلى إنكلترا - أو بالأحرى إلى ويلز.

ذهب بالريكوردر الخاص به إلى البحيرة الصغيرة، إلى أحضان شجيرات الرندرة. ترك الآلة الموسيقية في حضنه طوال فترة الظهر دون العزف عليها؛ بقي جالساً أمام كوخه حتى ساعة الغسق. كان يوماً غائماً من أيام الربيع، الرياح ساكنة، المياه اللامعة لمعان الزيت ترسم عليها فقط صورة منعكسة عن طائر يطير فوقها بين حين وآخر.

لقد اختفى السيّد سبير وزوجته أيضاً من حياته. اليوديث. الكوادراتا. بونتريدفينغيد... أيمن أن يكون والده هناك أيضاً؟ شعر بالحزن والأسى. لماذا هناك شيء، وليس لا شيء؟ إذا كان كلّ شيء يمضي، فما المغزى من أنه وُجد ذات يوم؟ وهل وُجد فعلاً؟ إذا لم يعد هناك بشرٌ ذات يوم، لم يعد هناك أحد يستطيع تذكّر شيء، فهل بوسعك القول إنّ شيئاً قد حدث ذات يوم؟ أي هل بوسعك القول الآن إنه سيكون بوسعك القول عندئذٍ إنّ شيئاً قد حدث ذات يوم، بينما لن يكون هناك أحد ليقول شيئاً؟ لا، عندئذٍ لن يكون أي شيء قد حدث - بينما يكون قد حدث ذلك. يعلم أنه يستطيع التكلّم مع ماكس عن هذا الأمر؛ ولكن

لأنه لا يستطيع التكلّم مع والده عنه، فلا يريد التكلّم عنه مع ماكس أيضاً. رجع بمخيلته إلى «مركز الذكرى» الذي افتُتح في معسكر فيستربورك العام الماضي، والذي ذهب إليه مع ماكس وجذّته. في الصور الكبيرة وفي فيلم أيضاً، ترى أناساً يصعدون إلى مقصورات المواشي، تحت إشراف رجال يشبهون نيدركورن، لئساقوا إلى موتهم. لقد رأى ماكس ينحني إلى الأمام ليتفحص كلّ الوجوه بدقّة تامّة - طبعاً على أمل أن يرى والدته مصادفة. كانت بينهم نساء، لا ترى منهن سوى مؤخرة الرأس. الجميع في عداد الأموات. لا يمكن القول إطلاقاً إنّ ذلك لم يحدث! لقد أخبره ماكس بأنّ هناك في الوقت الراهن معجبين بهتلر، يدّعون أنّ تلك الأفلام والصور كلّها مزيفة، وأنّ هذا لم يحدث إطلاقاً - ولكن لماذا ينظرون إليه بعين الإعجاب إذا؟ ألا يقولون في الواقع إنّ هتلر كان فاشلاً لم يستطع تحقيق ما أعلنه على الملأ؟ يا لهم من معجبين! لو عاشوا في ذلك الزمان، لأعدمهم هتلر رمياً بالرصاص على الفور. ولكن مع ذلك.. بوسع هؤلاء الناس القول إنّ ذلك لم يحدث، في حين أنه حدث فعلاً - يمكن إثبات ذلك بالمنظر التاريخي - ولكن إذا لم يعد هناك بشرٌ ذات يوم، ومن ثم لم يعد بوسع أحد القول إنّ ذلك قد حدث فعلاً، فكيف لا يمكن ألا يكون قد حدث؟ تلك السمكة هناك، التي أخرجت خطمها لحظة من الماء، فتشكّلت دوائر آخذة في الاتساع، مثل هالة قدّيس متزايدة في الحجم، هل فعلت ذلك حقاً إلى الأبد؟ وهو نفسه، وهو جالس هنا الآن، أيمن ذات يوم ألا يكون قد جلس هنا إطلاقاً؟ وهل هو جالس هنا في هذه اللحظة حقاً؟ هل يوجد أيّ شيء حقاً؟ لعلّه يجب عليك القول إنّ العالم موجود وغير موجود. مثل الحصن قليلاً. وأيضاً هو نفسه: إنه موجود وغير موجود. هذا شيء غير صحيح إطلاقاً. ماذا يجب أن يفعل في مثل هذا العالم الأحرق؟ ماذا يفعل هنا؟

*

عندما عاد إلى البيت، كان السيّد سبير وزوجته قد غادرا، وكورفينوس يسير عبر الغرف الخالية بمتري خشبيّ قابل للطّي، ولم يكد يمضي شهراً حتى سكن هو نفسه في البيت. بدت القلعة منذ تلك اللحظة وكأنّها تنحرف عن مسارها، مثل سفينة أصابها طوربيد.

لم يجرؤ أحدٌ على الذهاب، ولا حتى على سبيل المصادفة، ليرى كيف يعيش نيدركورن في العلّيّة. كان ينام حسبما زعم ماكس تحت علم الصليب المعقوف، بصورة هيملر فوق سريره. لم يكن قد تغيّر شيء من النظرة الأولى في طابق ماكس، الذي يشاركه مع كيرن؛ ولكن في الطابق السفلي استُبدل بالأثاث الإمبراطوري للسيّد سبير أثاثٌ من خشب البلوط،

شديد الكثافة وربما مُثقل بالخرسانة أيضاً من الداخل، إلى درجة أن كورثينوس يجب أن يكون سعيداً، حسب رأي كيرن، بعدم سقوط كل شيء عبر الأرضية وانطراحه في الأقبية. هو أيضاً لديه زوجة مولعة به على ما يبدو؛ ولكن لأنه منعها من معايشة رفاقها في السكن بطبيعة الحال، لم تكن هناك طريقة لمعرفة ما إذا كان هيامها به بفضل كرة التحطيم الحجرية في رأسه أو على الرغم منها. لهما ولدان من عمر كويتن وأرند بروكتور، لم يكن كويتن يختلط بهما، ولكن أرند عقد صداقة مع الابن الأكبر، إيفرت - رغماً عن كورثينوس في أغلب الظن. كان واضحاً أنه يريد القلعة بأكملها لنفسه، وعلاقات الصداقة مع العدو تُصعّب حرب الأعصاب التي يشنها عليه.

كان باكو عندما لا يخضع لسوط نيدركورن وأوامره، يكون مربوطاً إلى سلسلة في الفناء الأمامي تحت إحدى نوافذ غرفة ثيمات، وينبج من دون توقّف. تذرعت إلزبيث بزوجها الذي يعاني من المرض ولا يستطيع تحمّل الصوت، فتشكّت منه بضع مرّات، لكنها لم تستطع أن تأخذ من نيدركورن سوى تلك النظرة التي يلقيها المرء على شيء جامد. فقدت أعصابها في إحدى المرّات فاتصلت بالشرطة، لكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء.

قال ماكس بعد ذلك: «لا يحدث تقريباً أن تستطيع الشرطة فعل أي شيء، باستثناء إلقاء القبض على اليهود - كانوا بارعين في ذلك».

ولم يكن ممكناً الاقتراب من الكلب نفسه: فعندما يقترب أحدٌ إلى أقل من ثلاثة أمتار منه، يتربّص بعينه ويكشف عن أنيابه بشفتين مرتجفتين، دون أن يُحدث ذلك انطباعاً عن الضحك. فقط عندما يرى كويتن يتوقّف عن النباح على الفور؛ يضع أذنيه على عنقه، يهزّ ذيله ويسمح له بمداعبته. عندما رأى نيدركورن هذا الأمر لأول مرة، ثارت ثائرتة: «إذا لامست هذا الحيوان مرة أخرى، سأريك النجوم في عزّ الظهر!».

لم يعد كويتن يداعبه بعد ذلك - لا لأنه خائف من نيدركورن، ولكن لأنّ باكو هو الذي سيدفع الثمن بطبيعة الحال. لكنّه صار يذهب بكتاب، عندما تسنح له الفرصة، ويجلس تحت نافذة السيّد ثيمات، كي يهدأ الكلب على الأقل برهة من الزمن. لقد تعلّم أشياء كثيرة من السيّد ثيمات، لذلك لن يتوانى عن فعل هذا من أجله. لم يعد يذهب إلى البحيرة على كلّ حال منذ أن هُدم كوخه. يحبو باكو صوبه بقدر ما تسمح سلسلته ويربض في مكانه، مقرباً منه خطمه قدر المستطاع وموجّهاً إليه عينيه البنيّتين الذهبيّتين. ناجى كويتن نفسه: إنه ينظر مثلي

تماماً، لكنّه لا يعرف أنّ لديه عيّنين. في إحدى المرّات ظهر كورفينوس على درج المدخل وأمره بالذهاب من هناك: الفناء الأمامي ليس حيّاً فقيراً يجلس فيه الرعاع في الشارع؛ ولكن صوفيا ما لبثت أن فتحت النافذة في الطابق العلوي وقالت بهدوء: «بدأ يلفت الانتباه أنك تتكلّم كثيراً عن الأحياء الفقيرة، يا سيّد كورفينوس. ما السبب في هذا يا ترى؟!».

جاء هذا بفائدة - ولكن إلى متى يجب أن يستمرّ هذا الوضع؟

في أحد المساءات، كان ماكس راقداً على الكنبه يحاول أن يعمل قليلاً، لكن الأفكار عن الوضع في القلعة بقيت تشوّش ذهنه دون انقطاع. نهض منزعجاً وذهب إلى غرفة صوفيا. كانت جالسة في مبدلها على حافة سريرها وتحقن نفسها بحقنة الأنسولين، التي تحتاج إلى أخذها كلّ يوم منذ سنة.

قال وهو ينظر إلى الإبرة في فخذها: «آسف على إزعاجك، لكنني متضايق. لم أعد أستطيع التركيز وما علاقتي أنا بكلّ ما يحدث في الواقع؟ منذ أن ولّت السلطة الإقطاعية من هنا وأمسكت البرجوازية بزمام الأمور، أقضي ساعات كلّ يوم في التفكير في واقع أننا نعيش هنا. لكنك تسكن تحديداً في بيت من أجل أن تستطيع فعل شيء آخر. عندما تمشي، لا تفكّر طوال الوقت في أنك تمشي - إلا إذا كانت ساقك قد انكسرت للتوّ. لديّ أشياء أخرى أفكّر فيها، فأنا أعمل الآن على أهمّ مشروع في حياتي المهنية كلّها. هل تتذكّرين عندما شرحت لك في إحدى المرّات أنّ المرايا في فيستربورك تشكّل في الواقع تلسكوباً واحداً عملاقاً؟ لكننا في الوقت الراهن قادرون على توصيل جميع المرايا على الأرض بعضها مع بعض، بواسطة تلك الكمبيوترات، وبهذه الطريقة سيكون لدينا عمّا قريب تلسكوب هائل يزيد قطره عن عشرة آلاف كيلومتر، يبلغ حجمه حجم كوكبنا بأكمله. أيّ شرف أحوز عليه، عندما لا أسمح لهؤلاء الهمج هنا في القلعة بإذلالني؟ عمّ نتحدّث في الواقع؟ هل يجب عليّ الانغماس في هذا المستنقع؟ أعتقد أنّ هذا خطر كبير يمكن أن يدمّر حياتك كلّها. خذي مثلاً أولئك المولوكان الذين أقاموا في الماضي في فيستربورك. في معسكر سخانتبيرخ، هل تتذكّرين؟ كانوا يخدمون في جيش هند الشرقية-الهولندية، كانوا عملاء في واقع الأمر، اضطروا إلى المغادرة بعد استقلال أندونيسيا. أصبحوا منبوذين هنا أيضاً بطبيعة الحال، لكنهم كانوا واثقين من أنهم سيعودون ذات يوم إلى جمهورية جديدة خاصة بهم، جمهورية جنوب مالوكو. لذلك لم يكن أولئك البؤساء يرغبون في ترك تلك البرّكات الوضيعة، لأنّ ذلك كان سيعني أنهم

قبلوا بالأمر الواقع. بدأ أبناؤهم باختطاف القطارات باسم المُثُل العليا، وها هم أولاء الآن قابعون في السجن. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يرون أنَّ الحكومة الهولندية لا تزال مدينةً لهم بمستحقَّاتهم من معاش الجندية، ألفي فلورين أو شيئاً من هذا القبيل. صارعوا طوال حياتهم من أجل الحصول عليها، بالمناشدات والمظاهرات أمام مبنى البرلمان، وحصلوا عليها في نهاية الأمر، ولكنَّ حياتهم كانت حينذاك قد انتهت. لم يستطيعوا أن يشتروا بها حتى تلفزيوناً ملوّناً، وهم الآن رجال طاعنون في السن، لا يزالون يرفعون علَم دولة غير موجودة. أليس علينا أن نعتبر من تجربتهم ونرحل من هنا بأقصى سرعة؟».

رفعت صوفيا عينيها، بينما تضغط قطعة قطن على الجرح الصغير في فخذها اليسرى: «لا يعجبني دخولك غرفة نومي بهذه الطريقة، يا ماكس!».

47. الموسيقا

من أجل أن يحمي فيرلورن فان ثيمات نفسه من نباح باكو، صار يجلس على العموم في الغرفة الجانبية أثناء النهار، الواقعة تحت غرفة نوم صوفيا. كانت تلك الغرفة مملكة إلزيث، حيث يتناولان الطعام أيضاً. بعد ظهر يوم أحد خائق، ملبد بالغيوم، في أواخر الصيف من عام 1984، سألت إلزيث كويتن ألا يريد أن يزوره مرةً أخرى. سوف يُسعد حتماً بزيارته.

كان السيّد ثيمات يرقد مطويّ اليدين على أريكة أمام النافذة، المطلّة على الخندق المائي. المنظر من هنا هو المنظر نفسه من الطابق العلوي، ولكن من زاوية أخرى، بحيث لا يعود هو نفسه في الوقت ذاته: زنابق الماء والبطّ على مسافة أقرب، والأشجار على الطرف الآخر أعلى. لأنّ الجوّ داكن في الخارج، كان المصباح مضاءً وتصدح موسيقا هادئة، حفلة من حفلات العزف على الكمان، ربما لتطغى على النباح البعيد. إنّه في وضع صحيّ سيئ. لم يستطع كويتن تصوّر أنّ هذا الرجل المريض العجوز هو الشخص نفسه الذي عرفه في الماضي. جلس، ولأنّه لم يكن قد جاء بسؤال، لم يعرف ماذا يجب عليه القول، فهو لم يحدث أن تكلم معه عن أشياء عادية. نظر إلى مكتب السيّد ثيمات الأثري. رأى في التعريقات المتماثلة في الخشب الماهوغوني شكلاً شيطانياً شبيهاً بالخفاش: رأسه بالعينين الكبيرتين على الدرج الأعلى، جناحاه المبسوطان على سطح الكتابة المغلق، ومخالبه على البابين الصغيرين السفليين.

خُيّل إليه وكأنّ السيّد ثيمات أيضاً يجد صعوبة في هذا الوضع. كان يحدث شيء غريب لعينيه: لا يرمش بسرعة كبيرة، مثلما يفعل الجميع، لكنّه يغمضهما برهة من الزمن ثم يفتحهما مرةً أخرى، وكأنه منهك من التعب.

قال: «نعم يا كوكو.. الأزمان تتغيّر. كم عمرك الآن؟».

- ستة عشر.

- ستة عشر بهذه السرعة...

ووجه نظره إلى عوارض السقف المصنوعة من خشب البلوط: «عندما كنتُ في السادسة عشرة، كانت السنة ألفاً وتسعمئة وسبعاً وعشرين. في أيار من تلك السنة قام لندبرغ بأول رحلة جوية فوق المحيط الأطلسي دون توقف، لا أزال أتذكر ذلك بدقّة. كنت أعيش حينذاك في هارلم، قريباً من حقل البرغوث، كما كنا نسمّيه؛ لطالما تسكّعت هناك مع أصدقائي. كان مرجاً مترامي الأطراف قبالة سرادق أبيض كبير، منحدر من أواخر القرن الثامن عشر، بأعمدة وطبلة معمارية وكلّ ما يحبه قلبك».

رأى عليه كوينتن أنه يرى السرادق أمامه مرةً أخرى، رغم أنه لا يستطيع أن يرى سوى السقف.

- كانت فخامته لا تناسب ذلك المحيط البرجوازي في هارلم على الإطلاق.

ونظر إلى كوينتن: «كنت أنا نفسي مهتماً بالعمارة الحديثة، بالدي ستايل، الباوهاوس وأشياء من هذا القبيل. لطالما وجدت ذائقتك المعمارية غريبة بعض الشيء بالنسبة إلى صبيّ صغير، ولكن هل أقول لك شيئاً؟ أنت عصريّ للغاية بتفضيلك بالاديو وبوليه وأولئك الناس».

- ماذا تقصد؟

رفع السيّد ثيمات إحدى يديه، ربما ليمرّرها على وجهه، لكنّه ما لبث أن أنزلها مجدّداً وهي ترجب: «لم أعد أتابع الأدبيات المتخصصة منذ زمن بعيد، ولكن بعد الكلاسيكية والكلاسيكية الحديثة، تعود تلك الأشكال الكلاسيكية كلّها إلى الظهور للمرة الثالثة. سيكون العالم قد امتلأ بها في سنة ألفين، تذكّر كلامي، ستعايش هذا الشيء. ظننت في البدء أنها صيحة من صيحات الموضة، لكنّ المسألة أعمق بكثير. أنت محقّ، ولا أدري ما إن كنتُ سعيداً بهذا. يمكن أن تنتهي الحداثة ذات يوم في الفنون المرئية وفي الأدب والموسيقا، وفي السياسة أيضاً. غروبيوس، بيكاسو، جويس، شوينبيرغ، لينين، هؤلاء حدّدوا حياتي، ولكن يبدو أنّ هذا كلّ شيء سيصبح عمّا قريب في عداد الماضي».

سأل كوينتن: «فرويد وآينشتاين أيضاً؟».

كان يسمع هذين الاسمين دائماً في تسلسلات من هذا النوع.

- هذا لن يثير استغرابي. في السنوات الأخيرة، يراودني الشعور الذي لا بدّ أن راود مناصراً للفن المعماري القوطيّ عندما ظهرت الكلاسيكية. عندما صارت تلك الكاتدرائيات الرائعة كلّها من الطراز القديم في طرفه عين. ألا تزال مهتماً حقاً بهذا النوع من الأشياء؟

شعر كوينتن بأنّ ثيمات لم يعد يعرف جيّداً مع مَنْ يتحدّث في الواقع. بدا وكأنه يرى كوينتن على أنه بروفيسور متقاعد، مثله هو نفسه.

- لم أكن مهتماً قطّ بهذه الطريقة.

- بأيّ طريقة إذاً؟

فكّر كوينتن برهة قصيرة. هل يجب عليه إخباره عن الحصن الذي يراه في منامه؟ ولكن كيف يمكنك أن تروي مناماً في الواقع؟ عندما تروي مناماً، يبدو غريباً على الدوام، ولكن وأنت تراه لا يكون غريباً على الإطلاق - لذلك حتى عندما تروي مناماً بكلّ حذافيره، فإنك لا تروي مع ذلك ما رأيته. رواية منام شيء مستحيل.

قال: «هكذا، بطريقة عادية. لا أعرف. أظن أنك أخبرتني بكلّ ما أردت معرفته».

نظر إليه ثيمات برهةً من الزمن، ثم أنزل ساقيه بصعوبة من فوق الأريكة، وجلس بظهر منحني، ويدين بيضاوين مبسوطتين بجانب فخذه. أغمض عينيه وفتحهما مجدّداً: «هل أخبرك بشيء آخر، لعلّك لا تعرفه؟».

- ليتك تفعل!

- لعلّك تراه هراء، ثرثرة من رجل عجوز مريض، لكنني مع ذلك أريد إخبارك به. انظر، ما الذي جعل ذلك الفنّ المعماري اليوناني-الروماني المثالي، والفن المعماري في عصر النهضة، يتحوّلان إلى عملاقة غير إنسانية عند شخص مثل بوليه؟ وكيف أمكنهما لاحقاً، عند شبير، أن يتدهورا إلى التعبير عن إبادة جماعية؟

- قلت في إحدى المرّات إنّ ذلك يمتّ بصلة إلى مصر. إلى الأهرامات. إلى الموت.

- هذا صحيح، ولكن كيف أمكن أن يمتّ بصلة إليها؟

- هل تعرف الجواب؟

- أظن أنني أعرف يا كوكو. ويجب أن تعرف أنت أيضاً. السبب في هذا هو الانحطاط في الموسيقى.

نظر إليه كويتن باستغراب. الموسيقا؟ ما علاقة الموسيقا بالفن المعماري؟ حُيِّل إليه وكأن ابتسامة باهتة عبرت على قناع وجه السيّد ثيمات.

قال إنّ المهندسين المعماريين الإنسانيين، من أمثال بالاديو، لم يستأنسوا في تصميماتهم باكتشاف فيثروفيو للمربّع والدائرة فحسب، اللذين حدّدا نسب الجسد الإنساني الرّباني، بل واستأنسوا أيضاً باكتشاف فيثاغورس في القرن السادس قبل الميلاد: وهو أنّ النسب بين الفواصل الموسيقية تماثل النسب بين الأعداد الصحيحة البسيطة. إذا ضربت على وتر وأردت بعد ذلك سماع نغمة الأوكتاف من تلك النغمة، فعليك أن تأخذ نصف الوتر - التوافق المطلق بين النغمة وأوكتافها تحدّده إذا النسبة الأبسط 2:1. النسبة عند «الكوينت» هي 3:2، وعند «الكوارت» هي 4:3. وأما أن تكون هذه النسب الرائعة البسيطة وبالقدر نفسه العصيّة على الوصف 4:3:2:1 هي الأساس الذي ارتكز عليه التناغم الموسيقي، واشتقّت منها نظرية الموسيقى برمتها، فقد أصابت أفلاطون بعد مئة وخمسين سنة بصدمة بلغت من الشدّة أنه في محاورته «طيماوس» جعل ديميوغاً^(*) يخلق عالماً كروي الشكل حسب القوانين الموسيقية تلك، وبضمن ذلك الروح الإنسانية. كان تأثير ذلك لا يزال سارياً في عصر النهضة بعد ألف وخمسمئة سنة. أدرك المهندسون المعماريون في ذلك العصر أنّ التناغمات الموسيقية لها تعبيرات مكانية، أي إنّ النسب في طول الأوتار والنسب المكانية كانت تشغل بالهم هم أيضاً على وجه التحديد. لأنّ الديميوغ المعماري خلق العالم، وكذلك الجسد والروح، الكون الكبير والكون الصغير على حدّ سواء، وفقاً للتناغمات الموسيقية، فقد صار من الضروري أن توجه القوانين الموسيقية التصميمات المعمارية أيضاً. تطوّر هذا عند بالاديو إلى نظام دقيق للغاية. وبعد ذلك أصبح هذا التناغم اليوناني الرّباني في العالم مرتبطاً بيهوه في العهد القديم، الذي أمر موسى بإقامة خيمة الاجتماع حسب قياسات موصوفة ببالغ الدقة - لكنّه لم يتذكّر تفاصيلها الدقيقة. لقد نسيها.

سأل كويتن: «خيمة الاجتماع؟».

- كانت خيمة يضع فيها اليهود مقدّساتهم أثناء ترحالهم في الصحراء.

- هل كان يجب أن تكون مربّعة أم كروية الشكل؟

(*) ديميوغ: في الفلسفة الغنوصية، هو فيض من الحكمة وهو المسؤول عن خلق الكون المادي والشكل المادي للبشر. [م]

- نعم، ها أنت ذا تقول. هذه هي تحديداً العقبة التي حالت دون التوفيق بين أفلاطون والكتاب المقدس. كانت الأشكال المربّعة مطروحة، إن لم تخنّي الذاكرة، ولكن لا شيء كروي. ويجب أن تكون الخيمة بأكملها مستطيلة الشكل.

مستطيلة الشكل؟ ألم تكن المعابد المصرية والإغريقية مستطيلة الشكل أيضاً - مثل الأسرة؟ وسّع كويتن عينيّه برهة قصيرة، لكنّه لم يُمنَح فرصة لمواصلة أفكاره، فقد وصل ثيمات إلى الاستنتاج.

قال إنّ ذلك كلّهُ انهار في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع ولادة العصر الجديد، عندما ظهر العلم الحديث. فكرة أنّ النظرية الموسيقية يجب أن تكون الأساس الميتافيزيقي للعالم، والجسد والروح، والفن المعماري، ضُربت بعرض الحائط على أنها هراء ظلامي - الأمر الذي أدّى مباشرة إلى بوليّه وشبير. النسب التناغمية في حدّ ذاتها لا تتغيّر بطبيعة الحال، عندما تكبر عناصرها مئة مرّة؛ ولكن قياسات الجسم الإنساني، باعتباره مقياس كل الأشياء، بقيت من دون تغيير في تلك الأثناء - أي إنها صارت أصغر مئة مرّة مقارنة معها، لذلك تشوّش كلّ التناغم في نهاية الأمر وتبدّدت الروح الإنسانية على الطريقة المصرية.

رفع السيّد ثيمات سبابته ببطء وكأنه يحمل شيئاً ثقيلاً: «وما تراه في الوقت الراهن، يا كوكو، هو عودة تلك الزخارف الكلاسيكية كلّها على غير المتوقع، تلك الأساسات، آبار التهوية، تيجان الأعمدة، الأطناف والطبلاّت المعمارية كلّها - بالمقاس الإنساني مجدّداً لحسن الحظ، ولكن أيضاً بطريقة في غاية الجنون. يبدو وكأنّ المثالية الكلاسيكية انفجرت في مكانٍ عالٍ من الفضاء وأخذت أجزاءها وشظاياها تتساقط على الأرض، كلّها بعشوائية، مشوّهة، مكسورة، وفارقة التوازن. هنا».

وأمسك كتاباً سميكاً، ضخماً، كان قد جهّزه مسبقاً على ما يبدو: «فهرس بينالي البندقية. قبل أربع سنوات أقيم هناك معرضٌ للفن المعماري، رأيت فيه لأول مرّة ما الذي يختمر. كان موضوع المعرض "حضور الماضي". انظر!». وفتح الكتاب على الصفحة الموضوع فيها مؤشر الصفحات: «الأكروبوليس في مرآة مشوّهة». وناول كويتن الكتاب مغمضاً جفنيه نصف إغماضة.

أهي نظرة على الحصن؟ بدأت عينا كويتن تتألّقان. يالها من روعة! إنها صور شارع رائع، منزل من الداخل، مُشيدٌ في بهو مسقوف: قطع ديكور في واجهات عالية، صمّمها مهندسون

معمار يون مختلفون، الواجهات كلّها مختلفة بعضها عن بعض، ومع ذلك منتمية بعضها إلى بعض، في حين تتكوّن كلّ واجهة في حدّ ذاتها من أجزاء متنافرة، لكنّها مع ذلك تشكّل كلّاً متكاملًا. بينما يقول ثيمات إنّ فيتروفيو كان سيصاب بنوبة قلبية إذا رأى هذا، وإنّ بالاديو كان سيموت من الضحك، نظر كويتن إلى رواق متناقض بأربعة أعمدة قريية بعضها من بعض: الأول جذع شجرة عارٍ من الأوراق، الثاني يقوم على نموذج بيت، الثالث لم يقم منه سوى النصف، أي النصف العلوي، الذي يحوم في الهواء ويتظاهر مع ذلك بدعم العارضة الأفقية، الرابع سياج مشدّب على شكل عضادة؛ يُشار إلى الطبلّة بخطّ مقوّس من ضوء نيون أزرق. كل شيء متناقض تناقض حكاية خيالية، التنافر في شكل التناغم. يمكن للسيد ثيمات الادّعاء أنّها لغة كلاسيكية، ولكنّ الكلمات كلّها بأغلاط إملائية، وبناء الجمل مثل إسطلب الملك أوغياس^(٥)، كما يكتب الأطفال الصغار - فبعثت في نفسه شعوراً غامراً بالسعادة.

قال السيد ثيمات وهو يربّت على زاويتي فمه بمنديل جيب: «ظننت أنّها ستعجبك يا كوكو. إنّها النهاية بالنسبة إليّ، نوعٌ من ألعاب نارية في ختام المهرجان الكبير، الذي بدأ في اليونان في يومٍ من الأيام. ولكن حينذاك كانت لديك صورة العالم المتوازنة من بطليموس، حيث تقع الأرض في مركز الكون؛ في الفلسفة الإنسانية كانت لديك من كوبرنيكوس، حيث الشمس تقع في المركز؛ بعد ذلك كان لديك الكون اللانهائي من غوردانو برونو، الذي لم يعد له مركز على الإطلاق. تلك الأكوان كلّها كانت أزليّة ولا تتغيّر، لكننا في الآونة الأخيرة نعيش في الكون العنيف المتفجّر حسب رأي والدك بالتبني، الذي صارت له نقطة بداية بصورة مفاجئة. هكذا يكون لديك نوعٌ من مشاهد ما بعد الحداثة؛ هكذا يتفجّر كلّ شيء ويتحوّل إلى أجزاء وأشلاء. كلّ شيء آخذٌ بالانفجار في هذه اللحظة، ويضمن ذلك سكّان العالم، والسبب في هذا كلّهُ هو التطوّر الجنوني للتكنولوجيا. لقد بدأ زمن مختلف تماماً، زمن لن أضطرّ إلى معاشته لحسن الحظ».

نظر كويتن عبر النافذة مستغرقاً في الأفكار: «ولكن أليست نقطة البداية نوعاً من نقطة ثابتة؟ فأيّ شيء أكثر ثباتاً من نقطة بداية؟ ألا يجدر بك أن تراها تقدماً على الكون السابق الذي لم يعد له مركز؟».

(٥) بحسب الميثولوجيا الإغريقية كانت إسطلبات الملك أوغياس تضمّ أكبر عدد من الماشية في البلاد، ولم تُنظف مطلقاً، ولذلك فقد كانت شديدة الفوضى والقذارة. [م]

قال ثيمات: «نعم، يمكنك أن تراها طبعاً بهذه الطريقة أيضاً».

- أتذكر في هذا الصدد ما قاله ماكس في إحدى المرات: إنَّ الإنسان أصغر من الكون بما يقارب أصغر جزئية مقارنةً بالإنسان.

ركّز السيد ثيمات عينيه الكبيرتين المحملقتين عليه بضع ثوان: «صحيح إذا؟ الإنسان إذاً يقف في المركز في نهاية الأمر؟ كان عليهم أن يعرفوا هذا».

- مَنْ؟

- حسناً، أفلاطون، بروتاغوراس، فيثروفيو، بالاديو، هؤلاء الرجال كلّهم.

عاد إلى الرقود متأوهاً بعض الشيء، وساد الصمت برهة قصيرة: «في الأسابيع الماضية كنت أفكر في الموسيقى طوال الوقت يا كوكو. لقد اختفى تناغم الأفلاك الأفلاطوني من العالم منذ نيوتن، واختفى التناغم من الموسيقى نفسها مع شوينبيرغ، في زمن آينشتاين. ولكنّ تناسق الأنغام أيضاً يعود إلى الظهور في هذه اللحظة، شأنه في ذلك شأن تلك الأعمدة البائسة في ذلك الفهرس - الأمر الوحيد هو أنّ الموسيقى تحوّلت من نعمة إلى نقمة في هذه الأثناء. لا يزال لدينا هدوءٌ نسبي، هنا تنبج الكلاب فقط، ولكن في المدينة لم يعد هناك مفرّ منها، الموسيقى في كلّ مكان، حتى في المصاعد والمراحيض؛ من السيارات تنبعث الموسيقى، وعلى السقالات يُشعل كل عامل بناء الراديو المحمول الخاص به، بأعلى صوت ممكن. صار الحال في كلّ مكان، مثلما كان فقط في ساحة الاحتفال في السابق. ولكنّ هذه الموسيقى المتناغمة كلّها تشكّل بعضها مع بعض نشازاً، لا تساوي تقنية الاثنتي عشرة نغمة النسبية لشوينبيرغ شيئاً مقارنةً به. وهذا النشاز الموجود في كلّ مكان هو ما يعبرّ عنه الفن المعماري النشازي من الطراز الحديث. لقد انفجرت تلك القنبلة التي تحدّثت عنها ذات مرة يا كويتن. هذا ما كنت أريد قوله، ولكن قد يكون من الأفضل أن تنساه على الفور. أشعر بالتعب على كلّ حال، أعتقد أنني سأغمض عيني برهة من الزمن».



أثر هذا الخطاب في كويتن أشدّ التأثير: كان يشبه وصيّة بعض الشيء. لقد سمع مرّة أخرى كمّية هائلة من الأشياء الجديدة إلى حدّ أنه لم يستطع استيعابها في الحال. بينما يصعد السلم في البهو، فكّر في أنه لا تزال هناك أشياء كثيرة يمكنه أن يعرفها عن العالم أكثر مما يعرف. لا تستطيع معرفة كلّ شيء بطبيعة الحال، وهذا ليس بالأمر الضروري أيضاً، ولكنّ،

لعلّ العديد من الناس لا يعلمون حتى أنّ هناك ما يمكن لهم معرفته، إنهم يعيشون ويموتون دون أن يخبرهم أحدٌ أنه كان بإمكانهم معرفة هذا أو ذاك، مما كانوا يرغبون ربما في معرفته. الأمر الوحيد هو أنك عندما تصبح في عداد الأموات، فأيّ فرق يمكن أن يحدثه هذا؟ عندئذٍ سيّان أن تكون وأن لا تكون قد وُلدت أيضاً. لعلّ معظم الناس لا يريدون أيضاً معرفة شيء، كلّ ما يريدونه هو أن يصبحوا أغنياء جداً، أو يأكلوا كثيراً، أو يشاهدوا كرة القدم وأشياء من هذا القبيل. أو يقبلوا بعضهم بعضاً.

في غرفته وقف بتردد ونظر إلى الحقيبة السوداء المحتوية على تشيلو والدته، القائمة بجانب الحائط. لم يفتحها من قبل إطلاقاً؛ كان يلزمه شعور بأنه من غير اللائق أن يفتحها بدافع من الفضول المحض. ولكن إذا كانت ستحين تلك اللحظة، فقد حانت الآن. لعلّ هذه هي المرّة الأولى، منذ ست عشرة سنة، التي سيسطع الضوء عليه مرة أخرى. أو لا، لقد نظر والده في داخلها طبعاً في إحدى المرات. أرقد الحقيبة على الأرض بحذر، جثا على ركبتيه، فتح القفلين، ورفع الغطاء ببطء.

رغم علمه بأنّ الآلة الموسيقية في داخلها، صُنع من منظرها. كانت ترقد باهتة ومغمّرة على ظهرها في المخمل الأحمر الداكن، الذي التهم العث أطرافه. لها شكل إنسان، بوركتين عريضين، وخاصرة، وجسد علويّ وكثفين؛ في نهاية العنق الطويل يشكّل صندوق الأوتاد والقوقعة رأساً صغيراً، مثل رأس نعامة، فتحتا الصوت المتماثلتان على طرفي الجسر تشبهان أثرَي قدم. أخرجها من الصندوق بحذر -البطانة في الجزء السفلي التهمها العث التهاماً شبه كامل- وحملها إلى فوق سريره بوقار. جلس إلى جانبها، كأنما إلى جانب إنسان، وأخذ ينظر إليها بصمت. لعلّها هي والدته أكثر مما تكون والدته الآن. نظر إلى الأوتار التي انسابت عليها أصابعها، إلى الحافتين الجانبيتين اللتين أسندت إليهما فخذيها - كلّ شيء يحتفظ بذكرياتها أكثر مما تحتفظ بها هي نفسها.

بعد برهة من الزمن نهض عن مجلسه وذهب إلى الغرفة الأمامية. لقد انهمكت صوفيا في تلميع زجاج الصور المؤطرة الموضوعة على رفّ الموقد، سألها عمّا إذا كان بوسعه أخذ شريط القياس الخاص بها؛ عندما قالت إنه ضائع منذ زمن، ذهب إلى تيو كيرن واستعار منه متراً خشبياً قابلاً للطيّ. بعد ذلك قاس طول الوتر «a» بعناية، من الرأس حتى الجسر: 62 سنتيمتراً. الآن يجب أن يضرب على الوتر، وأما أن يصدر صوتٌ من التشيلو بعد هذا الوقت

كلّه، فهذا إدراك يجب أن يتغلّب عليه في أول الأمر. سحب الوتر بإظفر سبّابه واستمع إلى النغمة الموسيقية. قطّب ما بين حاجبيه. رأى أنها أخفض بنصف نغمة. تحقّق منها بالريكوردر الخاص به: إنه محقّق، إنها «as» منخفضة. حاول دوزنة الوتر، رغم أنّ هذا ليس بالأمر المهمّ، لكنّه لم يجد سبيلاً إلى تحريك الوتد. ثم حدّد وسط الوتر بالمرّ الخشبي: 31 سنتيمتراً، وضع سبّابه على هذه النقطة وضرب على الوتر من جديد بالسبّابة الأخرى. عندما سمع الـ«as» نفسها، التي لم تكن الـ«as» نفسها في الوقت ذاته، انتصب بقامته ونظر حوله بابتسامة نشوى. هذا صحيح! فيثاغورس! أفلاطون! لقد سمع نغمةً من مركز العالم!

ترك كلّ شيء على حاله بصورة مفاجئة، ونزل السلم راكضاً إلى البهو. في الطابق السفلي فتح كورفينوس بابَه وزمجر بأنّ أناساً آخرين يعيشون هنا أيضاً، أو ليس بوسعه أن يكون أهدأ قليلاً؟! لكنّه لم ينظر إليه حتّى. هروّل عبر الفناء الأمامي - حيث نيدركورن يعلمّ إفرت كورفينوس القيادة في سيارته الجيب، بينما يجلس أرند في المقعد الخلفي - وفوق الجسرين ثم صوب المرجّ المستطيل، المطوّق بالغابة خلف كلاين ريخترن. هناك تهاوى في الخندق ونظر لاهثاً ومتعرّقاً إلى البقرة الحمراء، التي بادلتها النظر لحظة، بفكين مجترّين، ثم استأنفت طعامها بطمأنينة. كانت السماء لا تزال غائمة، ولكنّ الغيوم الآن غريبة تجري بسرعة كبيرة، لونها بنفسجي داكن من الوسط، وبنفسجي فاتح من الأطراف؛ تبدو وكأنّها ترتفع عمودياً من الأعماق، مع أنّ المكان الذي يجلس فيه ساكن الريح وخائق.

نظر بانفعال إلى الأشجار الداكنة المحيطة بالمرج، إلى البقرة التي ترعى بين شجرتي النغت وإلى الأحجار الثلاثة الراقدة في أماكنها المثالية، مثلما في حديقة يابانية. علم فجأة علم اليقين أنّه مقدّر له فعل شيء مهيب - بدا وكأنّه تلقّى رسالة، مهمّة لا أحد غيره قادر على إنجازها! ولكن ما هي؟ كيف له أن يعرفها؟ هل تمتّ بصلة إلى ذلك العصر المختلف تماماً الذي بدأ حسب رأي السيّد ثيمات؟ في تلك اللحظة ظهر أيلٌ بين الأشجار المنتصبّة على الجهة المقابلة، وقف في مكانه ونظر عبر المرجّ - بعد ذلك مباشرة، لا أحد يصدّق هذا، بدأت ريحٌ قوية تعصف فجأة في وجه كويتن، فأخذت الغابة بأكملها تهدر مثل البحر بين لحظة وأخرى، وتدحرجت من بين الجذوع أمواجٌ عالية من أوراق الشجر إلى المرج، وثب عليها الأيل واختفى في الظلام.

48. سرعات

عندما أُدخل فرديناند فيرلورن فان ثيمات في بداية كانون الأول إلى مركز للعلاج النفسي، في مدينة أبلدورن لفترة غير محدودة، أخذت إلزبيث قرارها وانتقلت هي الأخرى إلى تلك المدينة، فضمّ كورفينوس شقتهما على الفور إلى شقته. منذ ذلك الوقت لم يعد باكو يُربط إلى السلسلة في الفناء الأمامي. كانت سنة 1985 على وشك الحلول.

أصبح متعهد الهدم يسكن في الطابق السفلي بأكمله، فكانت النتيجة أنّ الساكنين الآخرين مُنعوا من استخدام الباب الأمامي: لم يُرَقَّه أن يمشوا عبر الجزء الخاص به. منذ ذلك الحين اضطروا إلى استخدام مدخل مزوّد البضائع السابق الواقع على الطرف الجانبي، ثم عبر مستودع الدراجات الهوائية، والأقبية، وسلّم العاملين السابق على الجهة الخلفية من القلعة. كانت بئر السلّم تلك، مثل غرف القبو، مليئة منذ عشرات السنين بالكراكيب، السطول الصدئة، الكراسي المكسورة، لفائف السجاد؛ إذا كانوا منزحجين من هذه الكراكيب، فعليهم التخلّص منها، ومَن لا يعجبه يستطيع الرحيل. للصعود إلى العلّية لا يجوز لأحد سوى نيدركورن أن يستخدم السلّم القديم، المسدود الآن، إلى الطابق الأول.

ثارت نائرة بروكتور من هذا الإجراء. بدا حتى تلك اللحظة وكأنّ التغيّرات المنزلية قد فاتته في واقع الأمر، طبعاً لأنه منشغل الذهن بكتابه العظيم عن لوسيفر لفوندل؛ أما الآن فقد ركض فجأة بعد ظهر أحد الأيام إلى الطابق السفلي بفأس في يده، وأخذ يثلم الباب الفاصل الجديد وهو يزمجر. استغرق الأمر بكلا را وصوفيا وسلمى ساعة من الزمن ليهذّئن قليلاً من روع المترجم المرتعش. بينما يشرب كأساً من الماء، بقي يردّد دون توقّف إنه لن يسمح لأحد بأن يدله إلى الباب الخلفي؛ إنه يستخدم الباب الأمامي منذ عشرين سنة، ويجب على مثل هذا الهمجيّ ألا يظن أنه يستطيع إرساله إلى الباب الخلفي. لن يبقى هنا يوماً آخر!

توقع الجميع ردّاً فظيماً من كورفينوس، لكنّه ردّ بتحفظ باعث على الاستغراب؛ أصلح الباب في اليوم نفسه ولم يعد إلى الحديث عنه بكلمة واحدة. فسّر ماكس هذا الأمر بأنّه يرى أنّه يقترب من هدفه خطوة خطوة ولا يحتاج سوى فعل القليل من أجل كسر معنوياتهم؛ قطع الكهرباء أو الماء فجأةً بين حينٍ وآخر يفي بالغرض. افترض كويتن أنّ وازعه قد يكون أيضاً الصداقة بين أرنلد بروكتور وابنه إيفرت، اللذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. قال: «لقد هتما كوخى أيضاً، هذان الاثنان».

سألت صوفيا: «كيف تعلم أنهما هما اللذان هتما؟».

رفع كويتن كتفيه: «لا أعلم. لكن هذه هي الحقيقة».

رغم أنّ ماريوس بروكتور أعلن أنّه لن يبقى يوماً آخر في القلعة، فقد بقي فيها: يبدو أنّ ضربات الفأس قد استنزفت قوّة إرادته. لم يرحل إلا بعد أن رتّت الشرطة جرس الباب من درج المدخل في ليلة رأس السنة. كان قد وقع حادثٌ خطير. بعد أن أسرف الصديقان في الشرب في ملهى ليلي، سرقا سيارة، ترحلت بهما على طريق ريفي متجلّد، فطارت بهما من المنطعف، واصطدمت بشجرة. أصيب إيفرت كورفينوس، الذي كان جالساً خلف عجلة القيادة، إصابة خطيرة لكنّه يمكن أن ينجو منها. أما أرنلد بروكتور فقد مات.

زلزل الخبر خروت ريخترن في أساساتها النفسية. طوال اليوم الأول من السنة الجديدة، بقيت صوفيا وسلمى تواسيان ماريوس وكلاهما اللذين لم يستطع أيّ منهما التعامل مع الفجیعة. كان ماكس يعلم منذ نعومة أظافره أنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث في أيّ لحظة، لكنّه بقي هو أيضاً متوتراً الأعصاب طوال اليوم: فجأةً عاودته ذكرى حادث السيارة الآخر قبل سبع عشرة سنة. لم يكلف كورفينوس نفسه عناء الظهور، أما زوجته -التي تبين فجأةً أنّها تُدعى إلسا- فقد حاولت التواصل مع والدَيّ أرنلد عن طريق صوفيا؛ لكنّ بروكتور صرخ بكلاهما إنه سوف يقتلها إذا تحدّثت معها كلمة واحدة. لقد مات أرنلد، لكنّ ابنها حيّ يُرزق، ولديها إلى ذلك ولدان! سمعه كويتن يصرخ بصوتٍ متهدّج بأنّ الحياة كومة من الروث، لا مغزى فيها، وأنّ الوجود كومة واحدة من القذارة لا معنى له!

بينما يقف كويتن في البهو يستمع إليه، تساءل كيف يمكنك قول هذا. لعلّك لا تقول مثل هذه الأشياء إلا عندما يموت أحد، أو عندما تموت أنت نفسك، ولكن هل أنت صائب أم غير صائب؟ هل تكمن الحقيقة النهائية في الموت أم في الحياة؟ إذا كنت ترى أنّ الحياة لا

معنى لها، ألا يتحتم عليك إذاً أن ترى معنى في الموت؟ يبدو وكأن بروكتور يخلط كل شيء بعضه مع بعض. إذا كان يرى موت أرند لا معنى له، فيجب عليه إذاً رؤية أنّ الحياة لها معنى! وإلا ماذا يهم أن يموت أرند؟ لماذا يصرخ هكذا إذاً؟ لعلّ هذا الأمر يعتمد على أي نوع من الأشخاص أنت. لعلّ والده، الذي لم يسمع منه أي شيء منذ ثلاث سنوات، لم يفهم أيضاً أي شيء من هذا الأمر. وجد نفسه يفكر في حادث والدته، ووفاة خالته هيلخا، ولكن باستثناء ذلك، لم يحرك الحادث فيه أي عاطفة: ما كان ينبغي لهما هدم كوخه.

في تلك الليلة لم يستطع النوم من العويل والنحيب فوق رأسه. نهض من سريره ووقف أمام النافذة. الخندق يرقد متجمّداً في ضوء النجوم الجليدي. فجأة أخذ النواح والصياح في مكتب بروكتور أشكالاً جنونية - ما لبث أن رأى الأوراق ترفرف أمام نافذته، تتبعها المظلات ومزيد من الأوراق، رزمٌ كاملة منها في بعض الأحيان، تتبعثر بعضها عن بعض في الهواء.

*

عندما رحل آل بروكتور، بعد أسبوع من جنازة أرند، وسّع نيدركورن منزله بضمّ منزلهم إليه. منذ ذلك الحين صارت شقّتا ماكس وتيو محصورتين بين شقّتي هذين الهمجيين، مثلما بين فكّي أفعوان. ولكنّ ماكس وصوفيا اتفقا في الرأي على أنهما لا يستطيعان الرحيل بدافع من التضامن مع تيو وسلمى. تبين أنّ إيفرت كورفينوس أصيب بالشلل من خاصرته إلى الأسفل نتيجة تضرّر في النخاع الشوكي، وسيجلس في الكرسي المتحرّك طوال ما تبقى من حياته، مثلما سمعت صوفيا من والدته. هذا يعني أنّ متعهد الهدم سيهدئ من نبرته في الزمن القادم ولن يحاول إفساد السنة الأخيرة أيضاً من فترة إشعار الإخلاء - وإن كان السبب الإضافي في هذا هو أنّ إلسا كورفينوس قد كسرت حظر الحديث المفروض عليها.

كان ماكس، المستغرق كلياً في عمله على الكويزار MQ 3412، والذي بدا أنه يتصرّف بغموض متزايد، يتطلّع إلى الهدوء المتوقع في السنة الأخيرة - لكنّه لم يُمنح ذلك. كانت حالة آدا تتدهور بصورة تدريجية منذ شهور. في أول الأمر حدثت مشكلات في الهضم، تصاب مرّةً بالإمساك، ومرّةً بالإسهال؛ ثم التهابات مزمنة في منطقة الحوض، نتيجة القسطرة في مثانتها. ولكن في يوم سيبيريّ البرودة من أيام شباط، عندما لم تكن مدافئ البترول في خروت ريخترن قادرة على تدفئة الغرف حتى بطاقتها القصوى، عادت صوفيا من إمّن بخير أخطر بكثير. لقد ذهبت إلى المديرية لتحدّث معها عن الفطريات في فم آدا؛ عندئذٍ سمعت

منها أنهم سيضطرون في أغلب الظنّ إلى نقل آدا إلى المستشفى في الأجل القريب. فحتى في الفترات التي تتخلّل عاداتها الشهرية يحدث معها نزيف، وهذا يمكن أن يشير حسب رأي الدكتور المراقب إلى إصابتها بسرطان الرحم.

بينما تُطلعه على هذا الخبر، استعاد وجهها ذلك التعبير الشبيه بالقناع الذي يعرفه ماكس حقّ المعرفة. صعقته حقيقة أنّ آدا -أي جسمها البائس المثير للشفقة- كانت لا تزال تحيض كلّ شهر خلال السنوات السبع عشرة الماضية، أكثر مما صعقه خبر مرضها. فهذا أقرب إلى شيء باعث على الأمل: نقطة الانطلاق صوب نهاية وجودها العبي. بقي ينظر بصمت إلى صوفيا. سألتها بعد برهة من الزمن: «أتكون هذه ساعة الحقيقة؟».

منذ قيامه هو وأونو بنشاطاتهما الجنونية، في الوقت الذي كانت آدا ستخضع فيه للعملية القيصرية، لم يعودا إلى الحديث قطّ عن الموت الرحيم. لم يتكلّم عنه مع صوفيا ولا مرّة واحدة، رغم أنه يشغل بالها هي أيضاً بطبيعة الحال. لم تجب عن السؤال، لكنّه رأى في عينيها أنها تشعر الشعور نفسه.

بعد عشرة أيام من ذلك، لم يتحدّثا عن هذا الأمر أيضاً، وهما في السيارة على الطريق إلى المستشفى في هوخيفين. عندما أغلق باب السيارة ووقف على الثلج المسحوق ينظر في ما حوله، أدهشه أنّ كلّ شيء قد بقي على الحال الذي كان عليه في ذلك المساء الذي وقع فيه الحادث، في اليوم السابع والعشرين الكارثي ذاك من شباط، الذي احتفل فيه هو وأونو بإخصابهما المشترك في دفنغلو. باغتته أيضاً ذكرى سائق سيارة الأجرة، الذي لم يُرد أخذه إلى لايدن، حيث كانت صوفيا قد ترمّلت للتوّ. حقيقة أنّ آدا قد نُقلت إلى هذا المستشفى للمرة الثانية، بعثت الشعور في نفسه بأنّ الدائرة آخذة في الانغلاق - والدوائر الآخذة في الانغلاق تكون دائماً إشارة إلى تحولات حاسمة. كان سعيداً بأنه اتفق مع تشيجالغنتشي على اللقاء في المساء.

أكّد كلوستربور، الطبيب الذي دعا صوفيا إلى الحضور، صحّة التشخيص. جلس أحدهما إلى جانب الآخر أمام طاولة مكتبه ونظرا إلى طبيب النسائية الشاب، الذي يبدو بشعره الأشقر القصير وعينه الزرقاوين اللامعتين أشبه بمدرّب تنس.

سألته صوفيا: «إلى أيّ حدّ؟».

أحنى رأسه: «إنه منتشر. لم تعد هناك فائدة من عملية جراحية».

قال ماكس: «تصوّر!».

سمّر الطبيب عينيه عليه: «ماذا تقصد؟».

- ليس من المعقول إجراء عملية جراحية لامرأة ترقد في غيبوبة منذ سبع عشرة سنة، وتعيش مثل نبات. حتى إذا كانت ستعود بفائدة، فلن تعود مع ذلك بفائدة.

صالب كلوستربور ذراعيه على صدره: «فليفهم أحدنا الآخر جيداً منذ البداية، يا سيّد ديلبوس. لو كانت هناك فائدة منها، لأجريناها».

نظر ماكس وصوفيا أحدهما إلى الآخر برهة قصيرة. استفسرت صوفيا: «والآن؟ علاج كيماوي؟ علاج بالأشعة؟».

- لا هذا ولا ذاك.

سأل ماكس: «ومسكّنات ألم؟ يهمني معرفة ما إن كنت ستعطيها مسكّنات ألم». رأى على كلوستربور أنه لا يعرف كيف يتعامل مع هذا السؤال، لأنه لم يعط جواباً على الفور.

- أقصد إذا كنت لا تريد إعطاءها مسكّنات ألم، فما وظيفتك إذا؟ كيف يمكنك التوفيق بين هذين الأمرين؟

تجمّد وجه الطبيب: «أنفهم آراءك، وأنفهم وضعك، لكنني لا أستطيع الخوض في التفاصيل إطلاقاً. عليك تفهم موقفي أنت أيضاً».

قالت صوفيا وهي تنهض عن مجلسها: «ننفهم موقفك».

دحرج كلوستربور كرسيه إلى الوراء: «سأخذك إلى غرفة ابنتك».

- لا تجهد نفسك، سنجد الطريق!

بينما يسيران عبر الممرّات، قال ماكس إنه يجزم أنّ كلوستربور مسيحي متعصب، مهما بدا على مظهره أنه سفيح ومتسامح.

افترضت صوفيا: «لعلّ كلّ ما في الأمر هو أنه شاب، وخائف على حياته المهنية».

نعم، إنها تعرف عالم الأطباء أفضل منه بطبيعة الحال. ألقى نظرة من زاوية عينه على رئيسة الدير الشائبة منتصبه القامة السائرة بجانبه، التي لا يستطيع حتى الآن فهمها. إنها تزداد شبهاً بوالدتها. لقد حان الوقت أخيراً للحديث عن الموضوع. أبطأ من خطواته: «أخبريني يا صوفيا، ماذا يجب أن يحدث الآن في رأيك؟!».

- يجب على زوج آدا أن يقرّر.

هزّ رأسه علامة الرفض: «يجب على والدّة آدا أن تقرّر. ثم إنني أتذكّر أنّ أونو كتب لك هذا الشيء أيضاً».

- ماذا كتب؟

- أنّ لحم آدا من لحملك، وأنّ لك الكلمة الأخيرة عندما يجب أن تؤخذ قرارات بشأنها. لا يمكن أن يكون قد قصد شيئاً آخر سوى مثل هذا الوضع الذي نحن فيه الآن.

توقّفت عن السير وحملت في عينيّه: «إنهم يريدون تركها تموت ببطء، لكنني أعتقد أنه يجب إنهاء الأمر. بشكل فعّال جداً - بحقنة مورفين. لكننا لا نستطيع الاعتماد أنّ هذا سيحصل هنا. في أحسن الأحوال سيجتمع الطاقم الطبي للتشاور، أو سوف يكفّون، ولكن...».

- يكفّون؟

- يتوقّفون عن تغذيتها. لكنّهم لن يفعلوا ذلك، لأنّ ما يحدث عندئذٍ شيء فظيع على أن يراه العاملون. فهي ستضمّر ببطء حتى تصبح هيكلاً عظيماً.

ارتعد ماكس، قال: «بعبارة أخرى، يجب نقلها من هنا، إلى مستشفى متنوّر، حيث لا يخافون كثيراً من وصول الأمر إلى الجرائد. في أمستردام».

- إذا سمحوا بنقلها على الأقل، إذا لم يروا أنّ نقلها يضرّ بسمعتهم. أعرف كلّ شيء عن المستشفيات. ثم إنها لا تحتاج الذهاب إلى مستشفى حتى، فأنيّ طبيب عائلة معقول يمكنه فعل هذا، الجميع يعرفون، المدّعون العامّون أيضاً، لكنّهم لا يتكلّمون عنه.

نظر إليها: «هل تقصدين أنّه يجب علينا أخذها إلى القلعة؟».

قالت على الفور: «طبعاً لا. بوجود كويتن...».

- وماذا سنفعل معه؟ أيجب أن يعرف عن وضعها؟

نظرت إليه صوفيا بتردد: «ما الفائدة من إثقال كاهله بهذا الأمر؟».

في الصالة العامة كان المرضى والممرّضون يشاهدون مباراة التزلّج على التلفزيون؛ دلّهما أحدهُ منهما إلى القاعة التي ترقد فيها آدا. لم يتذكّر ماكس متى كانت المرة الأخيرة التي زارها فيها، ربما قبل أربع سنواتٍ أو خمس، ربما قبل ذلك الوقت - ولكن ما يراه في هذه اللحظة، عند النافذة، مخفياً خلف ستار، يراه لأول مرّة. تسمّر في مكانه.

في الضوء الأبيض الأشدّ بياضاً من الثلج، استدعى رأسها إلى ذهنه جوز الهند المقطّع، الذي نسي رميه في إحدى المرات قبل سنوات، وكان لا يزال في الطبق عندما عاد من رحلة استجمام، عندما كان لا يزال يسكن في أمستردام. لقد شابت شعيرات رأسها، تحوّلت إلى رماديّ ميّت يؤطرّ وجهها المبقّع الضامر، منخارها محمّرّان وملتهبان من القسطرة. يكاد لا يرى أنّ هناك جسداً تحت الملاءة. يداها البيضاء والجافتان تشبهان مخالب طير؛ رؤوس أصابعها جميعها ملفوفة بالضمادات.

قال بارتياح: «لم تخبريني عن حالها قطّ!».

- لم تسأل عنها قطّ!

وجد نفسه يفكر في أنّ هذا الوضع يجب أن ينتهي على الفور، في غضون خمس دقائق، - أخذ ينظر إلى الجثة الباهتة في السرير الحديدي، بينما تحوم صورٌ مصفّرة في ذاكرته مثل أوراق خريفية متطايرة: وهي جالسة في الغرفة العلوية في منزل والديها، التشيلو بين ساقها، أناملها على الأوتار؛ متربّعة قبالة على سريره وهي عارية من الملابس؛ محيطة ساقها بوركيه في البحر الليلي الدافئ... تحوّل عنها بصدرٍ منتفض ونظر عبر النافذة إلى الثلج المبههر للأبصار، الذي كانت الشمس قد أشرقت عليه.

*

لم يسبق له الانهماك في عمله مثلما انهمك خلال السنة ونصف السنة الماضية. في الصباح، عندما لا يكون مستيقظاً بعد، لكنّه لا يكون نائماً أيضاً، على هذا الحدّ الفاصل بالضبط، يظهر MQ 3412 في ذهنه على الفور - ولكن في شكل كتلة متشابكة فوضوية من معطيات، رسومات بيانية، أطياف، خرائط راديوية، صور أشعة سينية التقطتها أقمار صناعية، تفسيرات سخيفة، تخیلات مزاجية، كلّها مشوشة ومعقدة بما لا يمكن الإصلاح، مثل كُبة خيوط لعبت بها القطّة، ومحاطة إلى ذلك بهالة من اللعنة: هذا شيء خاطئ برمته، إنه ماضٍ في مسار خاطئ تماماً، هذا هراء لا طائل منه. لكنّه صار تدريجياً يعرف عن نفسه هذا الاستيقاظ المكروب، لقد بدأ عندما جعلها عادة من عاداته أن يشرب كلّ مساء زجاجة من النبيذ، وحتى زجاجتين في بعض الأحيان في الآونة الأخيرة - وعندما يذهب إلى النوم يكون قد توصّل إلى قناعة تامة بأنّه على وشك اكتشاف يزلزل العالم. تعلّم على مرّ السنوات ألاّ يعير هذا كلّهُ أيّ اهتمام. كان في اللحظة التي يفرق فيها مفاصل إبهاميه ويزيح اللحاف عن نفسه، يخفي القسم الأكبر من الكرب.

أيضاً يوم الاثنين 11 آذار 1985 سار الأمر على هذا النحو. في ذلك الصباح كانت ستصل البيانات الأولى عن «الخطّ الأساسي التداخلي الطويل جداً»، التلسكوب البالغ حجمه حجم الأرض بأكملها. أمضى بضعة من علماء الفلك الشباب من لايدن الليلة في فيستربورك وهم يرصدون مع الفنيّين؛ لكنّه هو نفسه لم يكن قد اتصل بهم حتى، على مائدة الفطور تصفّح الجريدة الصباحية في أول الأمر وهو لا يزال معكّر المزاج. لقد مات تشيرنينكو؛ لم تكد تمضي أربع ساعات حتى اختارت اللجنة المركزية في الكرملين خليفاً له، اسمه غورباتشوف، ولكنّ هذا أيضاً لن يغيّر أي شيء بطبيعة الحال؛ لن يتغيّر أي شيء على الإطلاق، ستستمرّ الحرب الباردة إلى الأبد. كانت بقايا حلم لا تزال تجول وتصول في رأسه - صورة آدا: أعضاءها حائمة خارج جسدها في الهواء، مثلما في نوع معيّن من رسومات مقطعية لأجزاء محرّك، بحيث تبدو في الوقت نفسه وكأنّها لقطة فوتوغرافية من انفجار.

قال وهو ينهض متأوّهًا بعض الشيء: «سأتناول العشاء عند تشيجالغتشى في المساء». سألت صوفيا: «هل ستعود إلى البيت؟». - ربما نعم، وربما لا. سأرى.

مرّر إحدى يديه على كتفي كويتن أثناء عبوره به وقال له: «أبذل قصارى جهدي!». بينما يقود سيارته في غبش الصباح الربيعي صوب فيستربورك، أخذ يستمع إلى السيمفونية «غير المكتملة» لشوبرت، بقيادة بوم. إنها لا تزال جميلة جداً لا يفنى، لكنّه يعرف كلّ نغمة فيها، مثلما صار تدريجياً يعرف الموسيقى كلّها تقريباً.

عندما وصل إلى المحطة المزدحمة، اختفى إحباطه وأخذ ينظر إلى النسخ المطبوعة من الكمبيوتر، التي أعطاه إياها فلوريس، بالفضول نفسه الذي كان يعتريه عندما كان في نصف عمره الحالي - الأمر الوحيد هو أنه في ذلك الوقت لم تكن هناك نسخ مطبوعة من الكمبيوتر. عندما يتعلّق الأمر بشغفه بالعمل، يبدو أنّ الزمن لا ينقضي، ولكن ما له صلة بانقضاء الوقت في المقام الأول هو الكويزار - ورأى من النظرة الأولى أنّ هناك شيئاً خاطئاً برّمته. قال فلوريس بنبرة ساخرة: «أتمنّى لك التوفيق. يمكنك أيضاً أن ترميها في سلّة المهملات على الفور!».

لأنّ كويتن كان بوسعه تسمية نفسه مخترع المنظر التاريخي وهو في الثانية عشرة من عمره، رسم له ماكس في إحدى المرّات رسمة أولية لكويزار: جسم غامض في غاية الثقل

على حدود الكون الذي يمكن رصده، يبعث من الطاقة ما يعادل طاقة ألف مجرة تضم كل منها مئة مليار نجم، بينما شبيه النجم هذا أصغر بكثير من مجرة واحدة. هناك في أغلب الظن ثقب أسود في داخله، أشدّ الظواهر السماوية فظاعة. يقع أبعد كويزار معروف، OQ 172، على مسافة تزيد عن خمسة عشر مليار سنة ضوئية؛ لذلك بوسعك أن ترى من خلاله كيف كان الكون بعد خمسة مليارات سنة من الانفجار العظيم، عندما كان حجمه يبلغ ربع ما يبلغه الآن. كان صديق قديم له من أيام الدراسة في لايدن -يعمل حالياً في مرصد ماونت بالومار في كاليفورنيا- قد اكتشف تلك المسافة في الزمان المكاني رباعي الأبعاد، من خلال انزياح الأحمر في خطوط الهيدروجين في الطيف البصري. شرح ماكس لكويبتن: عندما تقترب طائرة نفاثة، يرتفع صوت محرّكاتها، وبعد عبورها من فوقك، ينخفض صوتها: في أول الأمر تسحب موجاتها الصوتية بعض الشيء، فتصبح أقصر، ثم تبسطها، فتصبح أطول. حقيقة أنّ الخط الطيفي الأقوى OQ 172 قد انزاح مسافة بعيدة عن الأشعة فوق البنفسجية باتجاه الأطوال الموجية الأكثر طولاً للأحمر، إلى وسط الطيف المرئي، تعني أنّ هذا الشيء ابتعد بأكثر من 90 بالمئة من سرعة الضوء في الكون الآخذ في الاتساع.

أبدى كويبتن اهتماماً فائراً - إنه في نهاية الأمر، هكذا فكّر ماكس، شغوف بالآداب، مثل والده تماماً. يضاف إلى ذلك أنّ MQ 3412 يرفض التوافق مع نمط ما يقارب ألفي كويزار معروف في الوقت الحالي. ويتبيّن أنّ «الخط الأساسي التداخلي الطويل جداً» يعاني من مشكلة خطيرة من مشكلات التأسيس، لعلّها خللٌ في التواصل فائق الحساسية بين المئات من المرايا في عشرات البلدان في مختلف القارات، أو لعلّ هناك خطأ في الساعة الذرية في مكان ما، لذلك لم توضع البيانات بتزامن كامل الدقة في الكمبيوتر. أخذ ماكس ينظر إلى نتائج القياس كأنما ينظر إلى خدعة سحرية عصيّة على التصديق، لا يريد الإنسان في الواقع أن يعرف تفسيرها. هذه المرة قرّر MQ 3412 التحرك بسرعة لانهائية، مثلما يتبيّن من الطيف الراديوي المهجور.

قال ماكس: «بعبارة أخرى، صديقنا التكيوني^(*) يوجد على نقاط الخط كلّها في الوقت نفسه بطاقة تبلغ صفراً».

قال فلوريس: «هذا كان سيثير اندهاش ألبرت آينشتاين».

(*) التكيون: جسيم افتراضي يتحرّك بسرعة تفوق سرعة الضوء. [م]

أمضى بقية النهار في الاجتماعات، إجراء مكالمات هاتفية، حتى إلى أستراليا، قراءة الفاكسات وإرسالها والتشاور مع المهندسين. قال أحدهم إنَّ الخطأ قد يكون خطأهم. لقد جرى استخراج الغاز من الأرض الواقعة تحت فيستربورك، الأمر الذي يمكن أن يكون قد تسبَّب في هبوط طفيف في الأرض، بحيث لم تعد المرايا قائمة في وضع عمودي خالص؛ قبل بضعة شهور سُجِّل زلزال بسيط بالقرب من مدينة أسن، بقوة 2,8 على مقياس ريختر. توَّصَّلوا إلى قرار بأن يعايروا كلَّ شيء من جديد ويتصلوا بشركة الغاز الطبيعي في خرونيغن. اندهش ماكس من أنَّ حدثاً في أعماق الأرض، في العصر البرمي، يمكن له التسبَّب في تشوُّش رؤية حافة الكون.

مع اقتراب المساء، انسحب إلى مكتبه الصغير ليمعن النظر على مهل في البيانات، لكنَّه لم يستطع فهم أيَّ شيء منها. بدا وكأنَّ قرداً حاول كتابة قصيدة غنائية على آلة كاتبة. لكنَّه أيضاً وجد نفسه يفكر في تجربة ثورية، أُجريت قبل ثلاث سنوات في باريس، استندت إلى محادثة أساسية بين آينشتاين ونيلز بور في سنوات الثلاثينيات، أي بين نظريتي النسبية وميكانيكا الكم، اللتين لم تتفق إحدهما مع الأخرى على الإطلاق. خضعت تجربة آينشتاين الفكرية للاختبار في 1982، وتبيَّن أنَّ بور كان على صواب. بدا حتى في ذلك الوقت أنه توجد إشارات لحظية سريعة سرعة لانهاية، أي أسرع من الضوء؛ نظراً لأنه لم يشكَّ أحدٌ في أنَّ هذا شيء مستحيل، فقد كان يدلُّ على شيء في الواقع لم يستطع أحدٌ توقُّعه. هل يمكن أن يمتَّ ذلك بصلة إلى هذا؟ ولكن كيف؟ لعلَّ التفسير لن يأتي إلا من «الخط الأساسي التداخلي الطويل جداً» في الفضاء، الأطباق الهوائية على الأقمار الصناعية، فيكون السبب في نشوء تلسكوب يبلغ قطره مئة ألف كيلومتر - ولكنَّ هذا سيستغرق عشر سنوات وسيكون عندئذٍ قد أُحيل في أغلب الظن إلى التقاعد.

كانت الطاولات، والخزانات، والرفوف المحيطة به مكتظة بأكداس من الأوراق، مثلما هو الحال في مكاتب زملائه، بفارق وحيد وهو أنَّ الترتيب في مكتبه يُرى على الفور. احتلَّت أحد الجدران سبورة مدرسية خضراء، خُطَّت عليها معادلات ورسومات بيانية بطباشير مختلفة الألوان - لم توضع على شكل خربشات وشخبطات في جنون عبقر، بأماكن ممحوَّة بشكل اعتباطي، وإنما في صياغة متناغمة، مثل عملٍ فنيّ.

وضع الأوراق في ملفٍّ، أسند ذقنه على يديه وأخذ ينظر من النافذة المفتوحة. على كلِّ

من جانبيها هناك حاجزٌ أسود عملاق من المرايا يمنعه من الرؤية. إنهم منشغلون بالمعايرة. في الصمت الشامل يسمع بين الفينة والأخرى الصرير الخافت المنبعث من آلية المعايرة، التي من شأنها التعويض عن دوران الأرض حول محورها، بغية تثبيت الجسم المرصود. أيّ سخرية لثيمة هذه أن يتبين أنه استُخرج الغاز من تحت معسكر فيستربورك السابق؟! هل عقلٌ شيطاني هو من يوجّه الواقع؟ يبدأ الظلام بالهبوط، ولكن في البُعد لا يزال الزائرون يتجولون في الساحة - ليس لمشاهدة التلسكوبات، بل لمشاهدة شيء لم يعد موجوداً. إذا كان المعنيون مباشرة لم يعودوا يريدون معرفة أيّ شيء عن المعسكر، فإنّ أصواتاً من بين الجيل اليهودي الجديد قد بدأت ترتفع في الآونة الأخيرة بوجوب إعادة المعسكر إلى وضعه الأصلي. لقد أعيد الحاجز إلى مكانه القديم، ورُمّم أحد أبراج المراقبة بالقرب من وادي الصدمات. حتى لقد أقاموا دعوى قانونية من أجل إزالة المرصد. إذا ثابروا فعلاً على هذا الأمر، سيكتب رسالة إلى الجريدة الأسبوعية الإسرائيلية الجديدة، يسمّي فيها التلسكوب الراديوي التوليقي بـ«المرصد اليهودي» على سبيل المديح، وأنه لا يمكن إزالته إلا إذا عادت القطارات الثلاثة والتسعين إلى الظهور هي أيضاً في جادة البؤساء، بعد الترميم الكامل لمعسكر فيستربورك، لتعيد الناس من غرف الغاز.

49. ده فيستربورك

أخذت علاقته بتشيجالغنتشي الشكل الهادئ للزواج على مرّ السنوات. صحيح أنها لا تزال تصيح «أوه، يا إلهي!» عندما تبلغ الذروة، ولكنّ متجر القرطاسية، الذي كانت تسكن فوقه، اشترته شركة نشر كبيرة، احتاجت إلى طابقتها لتخزين كتب إنكليزية عن الفن مخفّضة السعر. تكفل بانتقالها إلى منزل ريفي شبيه بمنزل هانسل وغريتل على أطراف قرية فيستربورك، حيث كان مهندس إلكترونيات خجول من دفنغلو يستقبل عاملي المزارع الشباب حتى لحظة تقاعده. كان أيضاً قد وضع في اعتباره نهاية خروت ريجترن واللحظة التي سترك فيها كويتن المنزل، سيلي ذلك افتراق طريقه عن طريق صوفيا. في الجزء الخلفي من الحديقة المليئة بالحشائش، هناك مستودعٌ خشبيّ يشغل العرض بأكمله، الحقّ أنه كبير جداً على هذا المكان، لكن بوسعه تحويله إلى استوديو لنفسه؛ الآن أيضاً يجلس فيه في بعض الأحيان عندما يريد العمل دون إزعاج. لم يتحدّث مع تشيجالغنتشي عن هذا الأمر إطلاقاً، ولا اقترحت هي أيّ شيء في هذا الاتجاه؛ لكنّها تعلم أنه تعهّد بتربية طفل صديقه، المختفي فوق ذلك منذ أربع سنوات، لذلك فهي تعلم أيضاً بطبيعة الحال أنّ وضعاً جديداً سينشأ بعد ذلك.

لقد سمعت في دفنغلو بالفشل الذريع مع «الخط الأساسي التداخلي الطويل جداً»، فجهّزت المائدة بشكلٍ احتفالي من أجل مواساته على ما يبدو؛ حتى لقد وضعت الشمبانيا في مبرّد. ارتدت روب منزل فاقع الحمرة طويلاً حتى الكاحلين، ما يجعلها تبدو أطول قامّة، وعلى الرغم من أنها تضاهيه في الطول، فقد كانت تعانقه مثلما يعانق شخص طويل شخصاً قصيراً؛ هي بذراعها حول عنقه، وهو يديه على ردفها المكتنزين، ما يسبّب في الحال تغييراً في توازنه الكيماوي.

قال وهو يخلع معطفه: «إنك على الأقل تعرفين كيف يشعر باحث محبط».

تهاوى على الكنبه وأخبرها، وكأس الشمبانيا الوردية في يده، عن النكبة الفلكية العالمية التي كلفت مئات الآلاف من الفلورينات، وربما الملايين منها: «ولكن أليس رائعاً أن يكون هذا الشيء ممكناً؟ كان بالإمكان أن تُبنى بهذه المبالغ الآلاف من قاعات اللعب للأطفال، وحتى لو أنّ التجربة قد نجحت، لما عادت بالفائدة على أحد. حقيقة أنّ هذا الأمر لا يزال ممكناً، تصالحي مع الإنسانية بعض الشيء. إنها تعني عدم تجاوز الجنس البشري مرحلة طفولته الفضولية بعد. إذا ساد قصر النظر بشكل نهائي ونُظر إلى أهمية الأشياء على أساس وظيفتها الوشيكّة، أخذت الأمور عندئذٍ فحسب منحى خاطئاً فعلاً. لك أن تسمعي: إنني أتحدّث وكأنه مطبوع أمامي».

- أنت تقصد أنّ الإنسان يجب عليه النظر أبعد من أنفه.

- الحقّ أنّ هذا يكاد لا يكون ممكناً في حالتي.

لعلّ الطريقة التي تنفجر بها بالضحك هي التي أسرته أيضاً. لا يستطيع تذكّر أنه رأى صوفيا تضحك ضحكاً حقيقياً ذات يوم، ولا آدا في واقع الأمر؛ لكنّ وجه تشيجالنتشي الصارم على استعداد دائم لأن يتحوّل إلى شيء مختلف كلّ الاختلاف بين ثانية وأخرى، وكأنّ الضوء قد أُشعل في غرفة مظلمة. لعلّ موهبة الضحك هي الموهبة الحقيقية، أكثر من القدرة على الإنجازات الفكرية. بينما هي منشغلة في المطبخ، نظر بذراعين متصالبتين إلى الجريدة المسائية نصف المطوية الموضوعة إلى جانبه على الكنبه. قرأ من دون لمسها العناوين الرئيسة عن التغيّرات في موسكو. هناك أيضاً يحدث شيء شبيه بانزياح الأحمر على ما يبدو - أو بالأحرى تحدث الحالة المعاكسة، انزياح بنفسجي في السياسة: هناك شيء مقبل على البشرية بسرعة بالغة، نظراً لأنّ توسّع الكون السياسي قد تحوّل إلى انكماش. كان يشعر بالتعب. وضع ساقيه على الكنبه، وعندما أغمض عينيه برهة قصيرة، رأى من فوره نتائج القياس العبثية مرّة أخرى. لعلّ هذا متأتّ من الشمبانيا، ولكن لسببٍ أو لآخر باغته شعور بأنّ هناك معنىً كامناً فيها رغم كلّ شيء.

كذلك على المائدة، لفت انتباهه أنّ تشيجالنتشي قد أنفقت على المشتريات ما يزيد عن ميزانيتها. كان هناك محار، أفرغاً زجاجة الشمبانيا أثناء تناوله؛ بعد ذلك عندما خرجت بلحم الغزال من المطبخ، وناولته زجاجة من نبيذ فولناي لِيُزيل الفلّين من فوهتها، أيقن أنّ هناك شيئاً آخر.

قال وهو يطرق كأسه بكأسها: «قولي ما عندك يا تشيجال، ما الأمر؟ أنسيْتُ مناسبةً ما؟!». بقيت تنظر إليه من فوق كأسها. ازدردت ريقها؛ رأى عليها أنها تستصعب قول ما تريد قوله.

- أمل ألا تغضب مني يا ماكس، لكنني أرغب رغبة شديدة في أن تصبح لدينا مناسبة لا ننساها.

- أنت تتحدّثين بالألغاز.

- أريد طفلاً منك!

بادلها النظر من دون حراك. تردّد صدى كلماتها في رأسه، مثل سهم ناريّ انطلق عبر نافذة مفتوحة إلى الداخل. لقد سبق أن راوده الظن بأنّ هذا الأمر يشغل بالها، لكنّه لم يتوقّع أن تُظهره بهذا الشكل المباشر والحاسم. وقبل أن يعرف هو نفسه ردّ فعله على هذا الإعلان، كان قد نهض عن مجلسه وجثا على ركبتيه بجانبها، ولفّ ذراعيه حوله خصرها وأخفى وجهه في حضنها. بدأت تشيجال تغتشي تبكي. أخذت يده اليسرى وطبعت شفثيها على راحتها، بينما تمرّر يدها الأخرى عبر شعره الشائب الكثيف. أخذ رأس ماكس يدور. طبعاً! هذا يجب أن يحدث! وبدا كما لو أنّ صوتاً يردّد في الدوّامة من دون توقف: «كلّ شيء سيُصوّب، كلّ شيء سيُصوّب». أراد أن يفكر، أن يخلق الوضوح في نفسه. فضّل الخروج من الأبواب المفتوحة إلى الحديقة، لكنّه بالطبع لا يستطيع ترك العشاء الاحتفالي. رفع عينيه: «قولي بصدق، هل أنت حبلى؟!».

- طبعاً لا، ماذا تراني؟ أو تظن أنني أبتزّك؟ لكنني أريد طفلاً منك، حتى وإن كنت لا تريد. أنا الآن في السادسة والثلاثين، ووضعي يزداد حرجاً سنة بعد أخرى، مثلما تعرف ربما. إذا انتظرت بضع سنوات أخرى، فلن أنجب سوى أطفال منغوليين.

- مع أنني أعرف منغولياً في غاية اللطف.

جلس القرفصاء، لأنّ حصيرة جوز الهند القاسية بدأت تؤلم ركبتيه: «إذاً تريدين طفلاً سواءً أكنت معك أو لم أكن، ولكن طفلاً على كلّ حال».

- نعم.

- وإن لم أرغب في ذلك، فماذا ستفعلين؟ هل ستبحثن عن شخص آخر؟

أخفضت عينيهما: «لا أدري. لا ينبغي أن تسألني مثل هذا السؤال».

- وهل تدركين أنني سأكون في السبعين عندما يبلغ طفلك الثامنة عشرة؟

- ما من أبٍ أعظم مثاليّة من الجدّ، هذا ما يعرفه الجميع.

- حسناً. اتفقنا إذاً!

ونهض من قرفصائه، لفّ ذراعيه حول جسمها الضخم وقبلها: «اذهبي غداً إلى الطبيب لإزالة اللولب. وعندئذٍ ستريدين الزواج بطبيعة الحال».

- هذا لا يهمني. ليس ضرورياً بالنسبة إليّ.

- وأبوك، القسيس؟

- أعتقد أنه لم يعد يؤمن بالربّ منذ وقت طويل.

فصاح ماكس وهو يشعر بأنه يقتبس نبرة أونو: «في أيّ عالم نعيش؟!».

أفرغ كأسه بجرعة واحدة، مثلما يشرب الإنسان الماء، وصبّ لنفسه كأساً أخرى، وبينما يتناولان الطعام تجاذبا الحديث عن عواقب قرارهما. إذا سارت الأمور على ما يرام، فسيقدّم كوينتن امتحانات الثانوية العامة في السنة القادمة، ولعلّه سيذهب إلى مكانٍ ما للدراسة، رغم أنه لم يُبدَ ما يدلّ على نيّة من هذا القبيل؛ ستنتهي في الوقت نفسه مهلة إقامتهم في القلعة. لم يحدث أن أشارت صوفيا أيضاً إلى ما تنوي فعله بعد ذلك، لكنّها، حسبما يعرفها، تعلم منذ وقت طويل ماذا ستفعل.

قالت تشيجالغنتشي بينما تضع زجاجة جديدة على الطاولة: «لا تشرب كثيراً!».

- طبعاً سأشرب كثيراً. حتى إنني أنوي الإسراف في الشراب هذا المساء. هل تدركين

أنني سأصبح أباً حقيقياً لأول مرة في حياتي، إذا حالفنا التوفيق؟

فرك وجهه بيديه الاثنتين. لقد تغيّر العالم بصورة مفاجئة. بدت تلك السنوات السبع عشرة كلّها التي أمضاها مع صوفيا وكوينتن وكأنّها عبرت فجأة مثل نفحة هواء. سيبدأ كلّ شيء من جديد، ولكن بطريقة نزيهة لا لبس فيها. نهض عن مجلسه وترنّح لحظة.

- ألا تريد قهوة؟

- لا تؤاخذيني، يجب أن أنفرد بنفسي قليلاً! إنني ذاهب إلى المستودع.

- الآن، إلى المستودع؟ أنت سكران يا ماكس. لماذا لا تصعد إلى الطابق العلوي وتجلس

هناك؟

- اتركيني على راحتى!

طبع قيلة على جبينها، فتح باب الجناح الزجاجى، وخرج إلى الحديقة ومعه الزجاجاة وكأسه. كان الليل قد هبط، وبزغ القمر بربعه الثالث فوق الأشجار. فى منتصف الدرب المتعرج بين الشجيرات، استند بقعر الزجاجاة برهة قصيرة على الحجر الضالّ الضخم، الذى شقّ طريقه من باطن الأرض هناك إلى الأعلى، والذى يبلغ حتى خاصرته؛ عندما استعاد السيطرة على نفسه، أشعل المصباح غير المحمى فى المستودع، وتهاوى فى الكرسي الخيزراني المهترئ وهو يطلق تنهيدة. ترك الباب مفتوحاً. لعلّ هذه المساحة الكبيرة كانت تُستخدم ذات يوم لتخزين شيء ما، أو لعلّها كانت مشغلاً؛ لعلّ نجّاراً كان يعيش فى بيت تشيجالنجتشي ذات يوم. هناك بضع نوافذ صغيرة على مستوى النظر.

صبّ لنفسه كأساً وتعجّب من لغز الوجود. بدا وكأنّ الكلمات الثلاث التى نطقتها تشيجالنجتشي بأنها تريد طفلاً منه قد أعطت حافزاً جديداً لوجوده، مثل ضربة السوط التى كانت تحفّز الخدروف على الدوران، عندما كان طفلاً صغيراً. منذ أن عاش مع كويتن وصوفيا فى خروت ريخترن، خدمة لأونو، بقيت حياته الشخصية مقتصرة فى منظور الماضى؛ أما الآن فقد بدت وكأنها أدارته مئة وثمانين درجة، فوقف بوجهه إلى المستقبل بصورة مفاجئة - صحيح أنه لا يستطيع تمييز شيء ملموس فيه، نظراً لأنه غير موجود بعد، لكنّه مع ذلك حائم فى مكان ما، مثل زمانى مكانيّ مظلم مليء بالإمكانات المتزاحمة. لقد أعلنت بضربة واحدة عن نهاية الوضع المعقّد الذى عاش فيه سبع عشرة سنة. طفل وليد فى سرير محمول. لا بدّ أن سرير كويتن المحمول لا يزال موجوداً فى المستودع، مطويّاً، شأنه فى ذلك شأن سريره المفكوك. خُيّل إليه أنّ احتمال وجود طفل، سيكون طفله بما لا يدع مجالاً للشكّ، جعل كويتن ابن أونو بصورة نهائية. لقد قرأ فى الجريدة أنه أصبح بالإمكان فى الآونة الأخيرة تحديد الأبوة المشكوك فيها عن طريق اختبار الحمض النووى، لكنّ مخاوفه الماضية قد اختفت منذ زمن بعيد. مظهر كويتن لا يشبه أياً منهما، يشبه آدا وحدها، على النحو الذى كانته فى يوم من الأيام؛ وطبيعة اهتماماته الأدبية تشير فى اتجاه أونو أكثر بكثير مما تشير فى اتجاهه. وما يؤكّد هذا هو أنّ الموسيقى لا تعني له إلا الشيء القليل؛ حتى إنه ليس لديه نظام صوتى فى غرفته. لعلّ الصبّى العصيّ على الفهم لا يشبه أى شخص جاء ذات يوم إلى هذه الدنيا. عندما تراءت لعينه الفظاعة عديمة الحركة التى تتلاشى ببطء فى سرير المستشفى، أخذ يفرك وجهه بيديه الاثنتين، وكأنّ الصورة ملتصقة بجلده. أخذ جرعة من كأسه وراوده

شعور بأنه هو نفسه قادر على إنهاء وجود تلك الميّتة الحيّة، ولكن كيف؟ بسكّين؟ ولماذا ليس بسكّين؟ وتساءل لماذا ستعلو صرخة رعب في العالم إذا ما تبين أنّ المرضى الميئوس من شفائهم في هذا المستشفى أو ذاك قد نُقلوا إلى القبو، وقُطعت رؤوسهم بواسطة مقصلة؟ أو إلى فناء داخلي وأطلقت طلقةً في أعناقهم؟ لأنه فقط يستدعي الإعدامات إلى الأذهان؟ أم لأنه يوضح أشدّ الوضوح أنّ القتل هو القتل وليس شيئاً آخر من قبيل «الإفناء»؟ لعلّها مسألة كلمات في نهاية الأمر. لقد سمّى الألمان المذبحة الجماعية بحقّ اليهود بـ«الحلّ الأخير». أيّ شيء أجمل من «الحلّ الأخير» لشيء، النتيجة النهائية، النتيجة الحاسمة للقسمّة المطوّلة على صفر؟ إنه تقريباً من مثيل «نظرية كلّ شيء» في الفيزياء. نظر بعينين نصف مغمضتين إلى الأحمر الصديّ في كأسه وفكّر في أونو. يودّ لو يتكلّم معه عن هذا الأمر، عن اللغة بصفتها التمويهية للواقع. في أغلب الظن سيرفضها على الفور باعتبارها موضوعاً مكرّراً حدّ الابتذال، لا يُجهد أحدٌ ذهنه به سوى المراهقين من أمثاله، لكنّه بعد ذلك سيقول عنه بضعة أشياء غير متوقّعة رغم كل شيء. أين أونو؟ ماذا يفعل في هذه اللحظة؟ هل يفكّر هو أيضاً فيه يا ترى؟ ربما نعم. ولكن ربما لا. لعلّه أبعدهم عن وعيه بشكل كامل - ليس هو فحسب، وإنما كويتن وآدا وصوفيا كذلك. لعلّه لم يعد على قيد الحياة حتّى. لعلّه زحف إلى داخل كهف في جزيرة كريت، حيث سيعثرون على عظامه بعد خمسين سنة، وسيرونها في أول الأمر على أنها عظام كاتب قرص فستوس، إلى أن يكتشفوا بتقنية التأريخ بالكربون المشع أنه لا يمكن إلا أن يكون سياسياً هولندياً، ومن أصل كاليفني في أغلب الظن.

كانت تشيجالغنتشي قد أشعلت التلفزيون، لكن دون أن تشعل الضوء؛ انعكاس الصورة يومض عبر الغرفة وكأنّ انفجارات صغيرة تحدث من دون انقطاع. يراوده إحساس بأنه لا ينبغي له تركها وحدها، لكنّه لا يزال يريد التفكير - أو بالأحرى يريد الطفو على أفكاره، مثلما على رمث في البحر. في البيت تجلس صوفيا الآن وحدها أيضاً في الغرفة، مثلما يجلس كويتن من دون شكّ في غرفته. كلٌّ منهم يجلس وحده في غرفة. في الآونة الأخيرة انتابه شيءٌ من القلق على صوفيا: في بعض الأحيان تجلس ساعات طويلة في كرسي تحدّق أمامها دون حراك، واضعةً يديها في حضنها؛ عندما يقول شيئاً عن هذا الأمر، تصحو مذعورة وتنتظر إليه وكأنّها لم تكن هي نفسها على وعي به. تذكّر من استجماماته السابقة عائلاتٍ إيطالية وفرنسية، جالسةً في المساء إلى موائد طويلة تحت أشجار زيتون ملتوية التواءات باعثة على الشجن، هي نفسها أشجار، بآباء وأمّهات أجداد طاعنين في السن مع تفرّعاتهم

كلّهما من الأولاد، الأحفاد، أولاد الأحفاد، أبناء العمومة، بنات العمومة، وأصهار وكنائن لا حصر لهم، وصولاً إلى الرّضّع على صدور الأمهات، الموائد حافلة بالمأكولات والنبيد: لم يعيش إطلاقاً مثل هذه الأجواء. عائلة أونو وحدها تميل في هذا الاتجاه بعض الشيء. ولكنّ رحلات الاستجمام تلك كانت في الماضي البعيد، من الزمن الذي كانت لا تزال لديه السيارة الرياضية القتالة. منذ إقامته مع كويتن وصوفيا في القلعة، قلّما يذهبون للاستجمام في الخارج. يذهبون مرّة كل بضع سنوات إلى جنوب فرنسا أو إسبانيا، في نزوة مفاجئة، عندما يعطيهم الطقس سبباً لذلك، فهم لن يجدوا أجمل من خروت ريخترن على كل حال. لم يكن هو نفسه في حاجة إلى السفر، كان عليه الذهاب بضع مرّات في السنة لحضور مؤتمر في مكانٍ ما من العالم بسبب عمله، ويشعر بالسعادة على الدوام عندما يعود إلى البيت. لعلّ هذا أيضاً يمتّ بصلة إلى حقيقة أنه لم يتمكّن قطّ من الوصول إلى القمة الحقيقية في علم الفلك الدولي. صحيح أنه يعرف الجميع، والجميع يعرفونه ويقدّرونه على عمله، لكنّه لم يجلس قطّ أثناء العشاء الختامي الرسمي إلى الطاولة الرئيسية المستديرة مع رئيس البلدية أو مع الوزير، مثلما هو حال زميله مارتن شميد من معهد كالتيك.

بينما يترع كأسه مجدّداً، بعين واحدة مغمضة، لكيلا يترع كأساً غير موجودة، استرجع في ذاكرته المرة الأولى التي ذهب فيها إلى الجنوب، بعد بضع سنوات من الحرب. التأثير الهائل الذي أحدثه الضوء في نفسه هناك، لون البحر الأبيض المتوسط، الذي رآه مرة أخرى بعد حين في زرقه عيني كويتن. في الغرفة التي سكن فيها أثناء الدراسة في لايدن، كانت هذه الألوان تراءى له في بعض الأحيان، بعد الاستيقاظ مباشرة ولكن قبل أن يفتح عينيه - كان عندما يفتحهما، يحلّ محلّها الصباح الهولندي الرمادي. عندما ذهب إلى ريفيرا للمرة الثانية، فكّر في شيء ليتعافى من تلك الصدمة. صار عندما يستيقظ من النوم هناك، وعينه لا تزالان مغمضتين، يتخيّل أنه عائداً إلى لايدن الزاخرة بالمطر، وأنّ ذكرى مشهد البحر الأبيض المتوسط ستبتدّد عندما يفتح عينيه. لكنّه عندما يفتحهما يراه موجوداً فعلاً! البحر اللازوردي، معجزة باعثة على السعادة! انتقالٌ فوريّ، أسرع من الضوء! البحر.. في الليل كان البحر أسود اللون - لكنّه لا يريد التفكير في هذا الأمر. ماذا كان اسمها؟ مارلين. مسدّسها الرشّاش. الربّ واكتشاف المنظور المركزي؛ نقطة التلاشي، التي لم يعد أيّ شيء يستطيع النفاذ من خلالها منذ القرن الخامس عشر، لا من هذا الجانب، ولا من الجانب الآخر. لا بدّ أنها قد بلغت نحو الأربعين من العمر، وعادت بالطبع منذ زمن بعيد إلى الولايات المتحدة، إلى مكانٍ ما في

عش إقليمي، حيث صارت معلّمة تاريخ الفن وأماً لثلاثة أطفال، ومتزوجة من محامٍ مهذب السلوك، سيُصاب بسكتة دماغية إذا سمع عن ماضيها الثوري. فجأةً تراءت له من الماضي الأبعد بكثير غرفة نوم والدته: الخزانات والأدراج المفتوحة، ملابسه المتكومة على الأرض. هذا لن يتوقف أبداً. مثلما اعتاد أونو أن يقول: العائلة تبقى إلى الأبد. تشيجالنتشي لا تعرف أي شيء من هذه الأمور كلّها؛ لعلّه يجب عليه إخبارها شيئاً فشيئاً عن جدّ الطفل الذي تريده منه، وجدّته. ماذا يجب أن يسمّيه؟ أوكتاف؟ أوكتافيا؟ على اسم الفاصل الموسيقي الأبسط كامل التناغم، الذي له نسبة واحد إلى اثنين، الذي تحدّث عنه أونو؟ يبدو أنه صار بالإمكان في الوقت الحالي معرفة جنس الجنين أثناء فترة الحمل عن طريق الموجات فوق الصوتية، - الحقّ أنه مبدأ جديد مثل المبدأ الذي احتاجه كويتن لـ «منظاره التاريخي». نظر عبر الباب المفتوح إلى المنزل. لقد أطفئ التلفزيون، واشتعل الضوء في غرفة النوم في الطابق العلوي. إنها تقرأ في السرير، رواية «الإخوة كارامازوف» التي نصحبها بقراءتها، وتنتظر قدومه.

انحنى رأسه إلى الأمام بهوادة وانسدل جفناه برهة قصيرة. رجع إلى نفسه بحركة منتفضة وتنهد بعمق بضع مرّات. رائحة خشب مدهون بالقطران. أترع كأسه مرّة أخرى وغطس في كرسيه؛ أجال بصره في المستودع مستنداً بمؤخرة رأسه إلى مسند الظهر. خيّل إليه أنه يشعر بحياته مثل شيء كبير يستطيع لفّ ذراعيه حوله، مثلما حول كلب في غاية الضخامة جاثٍ في حضنه. كلّ شيء يتضخّم دون توقّف، كلّ شيء يزداد في التعقيد، مثل بلوط بيرعم شتلةً متناسقة رقيقة، تأخذ في النموّ حتى تصبح شجرة بلوط ملتوية مليئة بالعقد، لا يُدرك أي شيء فيها بأصلها شبه الرياضياتي. ومع ذلك كان لها ذلك الشكل ذات يوم. كيف أمكن أن يتحوّل أحدهما إلى الآخر؟ وإذا كان هذا عصياً على التفسير، فكيف أمكن لهذا التحوّل أن يحدث؟ ناجى نفسه: المشكلات لم تكن كامنة في ما حدث، لأنّ ذلك حدث ببساطة، ولكن كيف أمكن أن يحدث الذي حدث؟ لقد نشأ الكون من أصلٍ متجانس - كيف يمكن إذاً أن يكون في هذه الهيئة التي هو فيها الآن، بتوزيع المجرّات في شكلها الحالي وليس في شكل آخر؟ لماذا لم يبقَ كلّ شيء على تجأّسه؟ لماذا تختلف الأرض عن الشمس؟ وتختلف الشمس عن الكوازار؟ كيف يمكن أن يقوم كرسيّ هنا ومدّة هناك؟ كيف يمكن هو نفسه أن يكون موجوداً ومختلفاً عن أونو؟ كيف يمكن أن يفكر الآن بشيء مختلف عما كان يفكر به قبل قليل، ويفكر بعد قليل بشيء مختلف عما يفكر به الآن؟ ما الذي يحدث أثناء هذا التحوّل؟ أم لعلّ الأصل لم يكن متجانساً رغم كلّ شيء؟ إنه يعرف النظريات بطبيعة الحال، عن التقلّبات

الكمية الأولية، ولكن هل تفسّر هذه النظريات فعلاً الاختلاف بينه وبين أونو؟ نظر إلى ألواح المستودع؛ إنها تشبه بعضها بعضاً، لكنّها مصنوعة على هذا النحو. يضاف إلى ذلك أنها ليست متطابقة الشبه: بعضها أعرض قليلاً من بعضها الآخر، أعمق قليلاً، أفتح قليلاً، ويبدو وكأنّ هناك شيئاً محفوراً في أحد الألواح. ضيق عينيه، لكنّه لم يستطع رؤيته. شعر بأنّه يجب عليه معرفته، فنهض متأوهاً عن كرسيه وذهب إليه. إنها حروف وأرقام، رفيعة وغير مقروءة تقريباً؛ استند إلى اللوح بإحدى يديه ووضع يده الأخرى على عين واحدة.

خيدون ليفي. 8 / 3 / 1943.

وضع يده الأخرى أيضاً على اللوح وأخفض رأسه مستترق القوى. المستودع ينحدر من فيستربورك. قبل اثنتين وأربعين سنة حفر صبيّ هذه الكتابة في الخشب بسكين الجيب الخاصّ به. بعد أن لقي مصرعه في غرف الغاز، اشترى أحد البرّاة ووضعها هنا في حديقته. نظر إلى البيت عبر النافذة الصغيرة، التي فهم معناها الآن هي أيضاً. أراد إطلاع تشيجالنفغشي على هذا الأمر، وأنّ المستودع يجب هدمه غداً على الفور؛ لكنّ الضوء كان مطفأً في غرفة النوم. وضوء القمر الشاحب قد أضاء الواجهة. أجال بصره في ما حوله. مساحته أصغر من أن تُستخدم برّاة للسكن؛ لعلّه كان مدرسة أو غرفة الخياطة. لعلّ والدته أُجبرت على العمل فيه ذات مرة. تلمّس طريقه إلى الكرسي وهو يستند إلى الألواح، تهاوى فيه بتلوّحة مترنّحة، وأمسك الزجاجة بالمقلوب فوق كأسه.

بعد ذلك، لا بدّ أنّه غفا غفوة قصيرة. استيقظ لأنّ الجوّ أصبح بارداً ورطباً في المستودع؛ مع ذلك لم ينهض لإغلاق الباب. لقد جاوزت الساعة الثانية عشرة، وهو يعلم أنّه ثمل ويجب عليه الذهاب إلى السرير، لكنّ الشعور يراوده بأنّ دماغه يعمل تحت ثمّالته أو في ما وراءها دون أن يعرقله شيء - لعلّه يُعرقل حتى أقلّ من الوقت الذي يكون صاحباً فيه. رجع بذكرته، مغمض العينين، متأرجحاً في كرسيه إلى الأمام والخلف بعض الشيء، إلى مطبوعات الكمبيوتر في ظهر ذلك اليوم. هل النتيجة تبلغ حقاً ذلك المبلغ من السخافة؟ تراءت له الأوراق بدقّة بالغة، وكأنّه يراها أمامه فعلاً. بدا وكأنّ ضوءاً عظيماً قد اشتعل في نفسه بصورة مفاجئة: لقد فهم كلّ شيء! في جزء من الثانية اجتمع كلّ شيء بعضه مع بعض - ولكن ما هو؟ إنه يعرف الجواب، ولكن يبدو أنّ فكّ خيوطه المتشابكة يبلغ من الصعوبة ما يبلغه السؤال. سرعة MQ 3412 المزعومة أنها لانهائية ليست خطأً، مثلما يظنّ زملاؤه في

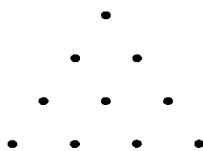
كل أرجاء العالم، لكنّها تكشف عن كوكبة لم تخطر في بال أحد! إنها تشبه اكتشاف فليمنغ للبنسلين: كان مساعده قد وضع طبقاً بترياً يحتوي على استنبات بكتيريا المكورات العنقودية على طرف ليرميه في سلة المهملات، لأنها متعفّنة؛ لكنّه عندما أمعن النظر هو نفسه في الطبق مرة أخرى، رأى أنّ البكتيريا لم تُلحق الضرر بالبنسلين، بل البنسلين ألحق الضرر بالبكتيريا - الأمر الذي أنقذ لاحقاً حياة الملايين من البشر وأكسبه جائزة نوبل. جائزة نوبل! ليست هناك جائزة نوبل في علم الفلك، ولكن في الفيزياء. شردت أفكاره إلى ستوكهولم، حيث سيقف في ملابس تقليدية على تلك المنصة، على تلك الدائرة المنقوش في داخلها حرف نون، في يديه الميدالية الذهبية، التي يتسلّمها من يدي الملك - أو على أقلّ تقدير تنتظره هو أيضاً دكتوراه فخرية، في أوبسالا...

أبعد هذه التخيّلات عن رأسه وأجبر نفسه قدر المستطاع على التأمل في اكتشافه. السرعة اللانهائية المفترضة تشير إلى تشوّه في المنظور! إنها أشبه بنقطة التلاشي: في الأفق يلتقي خطأ السكة الحديدية، لذلك لا يمكن لأيّ قطار العبور منها، لأنّه سيتحطّم في هذه النقطة - وعلى الجانب الآخر منها ليس هناك أيّ شيء آخر. ومع ذلك تعبر القطارات منها، سواء من هذا الطرف أو من الطرف الآخر. كويزار MQ 3412 ليس كويزاراً على الإطلاق! أو لعلّه كويزار ولكنّ الجميع يراه على أنه شيء ليس هو في حقيقته، لأنّ جسماً آخر يقع خلفه في خطّ مستقيم جيوديسي، في مكان أبعد منه بكثير، يقوم هو بحجبه. لعلّه لا يحتوي على ثقب أسود، بل هو التفرد البدائي نفسه: النقطة في القبة الزرقاء حيث لا يزال بالإمكان رؤية الانفجار العظيم! لعلّ «الخطّ الأساسي التداخلي الطويل جداً» التقط في الليلة الماضية إشارات وصلت عبر نفق نقطة التلاشي تلك - أو بالأحرى عبر نقطة الظهور! الثقوب السوداء أيضاً، التي لا تستطيع المعلومات أن تأتي منها من الناحية النظرية، يتبيّن عند تدقيق النظر فيها أنها تُسرّب مثل المصفاة. في الزمان المكاني السلبي تصبح تلك اللانهائيات كلّها مرئية بصورة مفاجئة، يصطدم بها المُنظِّرون دوماً في أوصافهم الرياضياتية. أقصر من « 10^{-43} » من الثانية بعد لحظة الصفر، زمن بلانك، يكون الكون فوق المجهرى مستشفى مجانيين في شكله النظري؛ في لحظة الصفر تؤدّي الحسابات إلى كونٍ متناقض مساحته صفر، نقطة رياضياتية إذاً، وكثافته لانهاية في الوقت نفسه، انحناء لانهاية في الزمان المكاني ودرجة حرارة مرتفعة بصورة لانهاية. هناك تنهار نظرية النسبية العامة ونظرية الكمّ على حدّ سواء. الجميع متفقون على أنّ هناك حاجة إلى نظرية جديدة شاملة ليكون بالإمكان مواصلة الحوار؛ ظهور اللانهائيات يُنظر

إليه دائماً على أنه علامة على وجود خطأ أساسي في النظرية - لكنه موجود فعلاً، فقد رُصد قبل أربع وعشرين ساعة! الأمر الوحيد هو أنه لم يخطر في بال أحد تفسيره بهذه الطريقة: علم الكونيات برمته ضحية الخداع البصري! وسيكون من الحماقة حقاً إذا لم تُقترن بداية الكون باللانهاثيات. عندما ينشأ شيء من لا شيء، فهذا يعني أنه شيء مختلف بصورة لانهاثية عن الوقت الذي ينشأ فيه شيء من شيء آخر - عدم القدرة على الفهم هو تحديداً جوهر الحقيقة بأنّ العالم موجود وليس غير موجود! استقام في جلوسه. يجب عليه أن يذهب للنوم ويعمل على هذا يوم الغد مباشرة وينشره بأقصى سرعة ممكنة، قبل أن يتوصّل شخص آخر إلى الفكرة نفسها.

بدلاً من النهوض عن مجلسه، أمسك الزجاجاة فوق كأسه مرة أخرى. عندما لم يخرج أي شيء منها أراد وضعها في مكانها، فانزلت من بين أصابعه. مدّ ذراعه ليلتقطها من الأرض، لكنه لم يبلغ أبعد من طول ذراعه. بينما تتدلى ذراعه، سقط ذقنه على صدره. ورد إلى ذهنه فجأة أنّ نظرية جديدة من هذا القبيل تتسبّب في تهيج في المجال الفيزيائي منذ بضعة شهور، إذ قد يكون بوسعها أن تصالح أخيراً بين ميكانيكا الكم ونظرية النسبية: التوحيد العظيم - «نظرية كلّ شيء» التي طال البحث عنها! من المزمع أن يُخصّص مؤتمر كبير لهذه النظرية في مدينة باري هذا الصيف - ألا ينبغي أن يذهب إليه؟ حتى الوقت الراهن كانت الجسيمات الأولية، مثل الإلكترونات، تُعدّ دائماً نقطية الشكل، صفرية الأبعاد، ما يعني بطبيعة الحال أنّ طاقتها في تلك النقطة كبيرة إلى ما لانهاية، وبالتالي كتلتها أيضاً؛ ما يدعو للعجب هو أنه لم يشعر أحد بالقلق على هذه اللانهاثيات، لكنه لم يعد يندهش من هذا النوع من الخداع والاستياء الانتقائي: الوضع في المجال العلمي لا يختلف عما هو عليه في المجال السياسي. أعربت النظرية الجديدة عن أنّ الجسيمات الأولية ليست صفرية الأبعاد بل أحادية الأبعاد: أوتاراً متناهية الصغر في عالم ذي عشرة أبعاد. ليست كل الجسيمات فحسب، بل أيضاً قوى الطبيعة الأساسية الأربع والثوابت الطبيعية السبعة عشر، يمكن تفسيرها من حالة الاهتزاز للأوتار المتطابقة كلّ التطابق في الحالات الأخرى. أوتار! الآلة أحادية الوتر! فيثاغورس! هل وصل العلم إلى حيث بدأ؟ هل الموسيقا جوهر العالم؟ تراءت لعينه صورة آدا، والتشيلو بين ساقها المتباعدتين. «الأشياء كلّها عبارة عن أرقام» هذا ما قاله فيثاغورس. الرقم 10 هو الرقم المقدّس لديه، الذي تستطيع عدّه على أصابع يديك، شأنه في ذلك شأن الوصايا العشر والأبعاد العشرة في نظرية الأوتار الفائقة. الرقم 10 هو «أمّ الكون»، وتذكّر من قراءات

فترة صباه، المنسية منذ زمن بعيد، رباعيات فيثاغورس الصوفية، النموذج الرباعي، التصوير الرمزي للصيغة «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة» التي كان أتباعه يقسمون بها:



ناجي ماكس نفسه: لا بدّ أنّ فيثاغورس، بصفته يونانياً حقيقياً، كان سيرفض اللانهائيات المكتملة، حتى وإن كان قد اصطدم بالأرقام غير المنطقية بنظريته المشهورة - لكنه هو نفسه يحتاجها ليتمكّن من تفسير إرصادات «الخطّ الأساسي التداخلي الطويل جداً»، أيّ نشوء العالم: الانفجار العظيم بصفته موسيقاً لانهائياً! رفع رأسه بصورة مفاجئة، وفتح عينيه. أزعجه الضوء، فنهض مترحّناً عن مجلسه، أطفأ المصباح وتهاوى مجدّداً في كرسيّه.

هل من الممكن أنّ الرياضيات كانت موجودة في ذلك الوقت لهذا الغرض؟ عندما احتاج أينشتاين إلى هندسة غير إقليدية، رباعية الأبعاد، من أجل الزمان المكاني المنحني الخاص به، تبين أنها كانت قد تشكّلت قبل عشرات السنوات على يد غاوس وريمان. إذا كان العالم لانهائياً مُنجزاً في أول المطاف وآخره، فهل يمكنه هو نفسه أن يستشير كانتور، واضع نظرية المجموعات؟ كانتور! (*) المغني! عندما كان طالباً جامعياً، انكبّ فترةً من الزمن على دراسة نظريته الصادمة عن الأعداد الأصلية فوق المنتهية، العدد اللانهائي للأعداد اللانهائية المكتملة، ولكن ذلك كان في الماضي البعيد. يتذكّر الدوار الذي أصابه في زيارته إلى «السكولا كانتوروم» (**) الأورفية التي تقشعرّ منها الأبدان: أرقامها الأليف، $\aleph_0$ ، $\aleph_1$... أوميغاها اللانهائية المطلقة Ω . يجب أن يعود إلى التعمّق في هذا الموضوع على الفور، لكنّه في الوقت نفسه يجب أن يكون على جانب كبير من الحذر، لأنّ كانتور نفسه أُصيب بالجنون منه. لأنّ هذا الرجل الذي خاطر بالدخول إلى مثل هذه المجالات كان يثير اهتمامه، قرأ سيرته الذاتية، التي يتذكّرها أكثر من الرياضيات. كان كانتور يُدخل إلى مستشفى الأمراض العصبية

(*) Georg Cantor (1845-1918): عالم رياضيات ألماني. وكلمة «كانتور» تعني باللاتينية مُغنٍّ في

كنيسة. [م]

(**) «schola cantorum» باللاتينية تعني المدرسة الكانتورية. [م]

بشكل منتظم؛ أراد في الأصل أن يصير موسيقياً، عازف كمان، لكنّه قال إنّ الربّ نفسه قد ناداه وأوحى إليه بنظريته. كانت الرياضيات بالنسبة إليه ميثافيزيقيا في الوقت نفسه، مثلما كان الحال بالنسبة إلى فيثاغورس: الأرقام كلّها عبارة عن أشياء. كان مصاباً بجنون العظمة ويعاني من اكتئاب حادّ، ولديه اهتمام بالثيوصوفية، والماسونية، وتعاليم الصليب الوردي، وكتب منشوراً بيّن فيه أنّ المسيح هو الابن الطبيعي ليوسف الرامي^(٥)، بينما كان يلقي إلى ذلك محاضرات عن بيبكون وأثبت بالبرهان القاطع أنه كتب مسرحيات شكسبير...

فتح ماكس عينيه على اتساعهما في المستودع المظلم. أخذ يرفع الكأس الفارغة إلى فمه بصورة آلية، المرّة تلو المرّة، ثم يعيدها إلى مكانها؛ يبدو وكأنّ سدّم الكحول تخفّ في الظلام، لكنّه يعرف في الوقت ذاته أنّ الأمر ليس على هذا النحو. تراءت له فجأةً رسمة مثيرة للأعصاب من الماضي الأبعد، وتذكّر من فوره من أين جاءت: من ترجمة كتاب شهير لغاموف، واحد، اثنان، ثلاثة.. لا نهاية، قرأها في السابعة عشرة من عمره ولعبت دوراً في قراره أن يصير عالماً فلكياً. تعلّم لاحقاً أنّ غاموف كان أول من جعل نظرية الانفجار العظيم مقبولة علمياً، وتنبأً بصدهاء في عام 1948، إشعاع خلفية الكون، الذي رُصد في 1964، ما أثبت النظرية بصورة نهائية. كانت الرسمة التي رسمها هو نفسه في الكتاب تبدي رجلاً مشوّهاً طوبولوجياً يمشي على الأرض وينظر بإعجاب إلى السماء المرصّعة بالنجوم: كلّ شيء فيه مقلوب داخله إلى خارج. إذا كانت الأعضاء فعلاً محجوزة في داخل الجسم، المحاط بالكون -بمخرج وحيد إلى ذلك العالم الخارجي عن طريق الفم، الجهاز الهضمي، وفتحة الشرج- فقد تحوّل الآن الجزء الداخلي إلى الجزء الخارجي: أعضاؤه الداخلية تمتدّ بلا حدود مثل الأعضاء الخارجية، بينما يصبح الكون، بالكواكب والنجوم والسدّم الحلزونية، هو الجزء الداخلي للرجل، الذي لا يزال يمشي على الأرض، ودخله مقلوب إلى الخارج، وعيناه لا تزالان تنظران إليها. من هذا الرجل المشوّه؟ أهو نفسه، وهو ينظر عبر نقطة الظهور في الزمان المكاني السلبي على الطرف الآخر من الانفجار العظيم؟ الربّ؟ أم لعلّه يكون امرأة؟ أمي آدا، وفي رحمها الورم السرطاني الذي احتلّ مكان كويتن؟ أم أنها والدته هو، وهو في رحمها؟ أم الكون.. آدا وإيفا.. نساء.. نساء فقط...

(٥) رجل من أثرياء بلدة الرامة، آمن بالمسيح، وهو من أنزله عن الصليب وكفّنه ودفنه بعد أن طلب ذلك من بيلاطس البنطي. [م]

غفا مرة أخرى. عندما استيقظ شعر بالتعب والسعادة. إنه الآن في الخمسينيات من العمر ولا يزال ينشغل بالأمر نفسه التي انشغل بها في السابعة عشرة من عمره. هل حدث أي شيء فعلاً في حياته منذ ذلك الوقت؟ لم يكن فيها انقطاع، كما في حال أونو؛ لا ينبغي للصبي الذي كانه أن يخجل منه. نهض عن مجلسه وفكر مجدداً في الطفل الذي تريده تشيجالنتشي منه. طبعاً: أوكتافيا! لا يستطيع أن يحبها هذه الليلة، فهو سكران جداً على هذا الأمر؛ يضاف إلى ذلك أن اللولب لا يزال في رحمها. فتح الباب وتوقف في مكانه والمقبض لا يزال في يده. أين أونو؟ أي شخص صار أونو؟ كيف يستطيع أن يتخلى هذا التخلي الكامل عن طفله؟ وهذا المسكين كويتن نفسه - من صار أكثر بعداً عنه، والدته أم والده؟

البيت مظلم، والحديقة راقدة بهدوء في ضوء القمر. ناجى نفسه: ياناتشيك، حكاية خيالية. سار على الدرب وهو يجبر نفسه على عدم الترنج صوب الصخرة الضالة، فجلس عليها ليأخذ قسطاً من الراحة. كانت ليلة آذار باردة ورطبة. هل ما فكر فيه هراء في إجماله؟ هل رأى «الخط الأساسي التداخلي الطويل جداً» التفرد البدائي حقاً، وحتى إنه ربما نظر من خلاله، إلى عالم سرمدي آخر، أكبر من الكون؟ ألم ينس شيئاً؟ إلى أي حد تبلغ ثمالته في الواقع؟ كيف يمكن إثبات أن كل ما فكر فيه ليس على هذا النحو؟ إذا كان مثل هذا الشيء ممكناً، فلا بد أن انزياًحاً هائلاً في الأحمر قد حدث على كل حال - انزياًح كبير إلى درجة أنه لم يخطر في بال أي شخص. أقصى ما قيس حتى الآن، في 172 OQ، هو بمقدار 3.53؛ لقد وصل «خط ليमान ألفا» إلى داخل الضوء المرئي. أما بالنسبة إلى MQ 3412 فهم يبحثون الآن في مكان بين 4 و5، ولكن لعله يجب عليهم النظر في مكان قريب من 20، أو 50، أو حتى 100! لن يفكر أحد وهو في كامل وعيه في النظر هناك، ولا حتى مارتن. ولكن أين تصل بذلك الانزياًح؟ حاول أن يحسبه، لكنه لم يعد قادراً على فعل ذلك. تصل إلى مكان على طوق الموجة القصيرة في أغلب الظن. لعل هاوياً من هواة الراديو التقط صوتاً استثنائياً: «أنا الرب إلهك!»^(*) - ثم أدار القرص بضجر لاعتقاده بأنه يتعامل مع شخص غريب الأطوار على الهواء! من الواضح ليس مع موسى ثان!

رفع ماكس ذراعيه في الهواء، ألقى رأسه إلى الخلف، وأخذ يضحك بصوت مجلجل.

*

الضربة المدوّية، التي سقطت بها في تلك اللحظة كرة نارّية بيضاء اللون معشية للأبصار على الصخرة التي يجلس عليها، مثل صاروخ من السماء، أحرقت كل الأشجار والنباتات في الحديقة، هُشمت نوافذ بيت تشيجالنجتشي، فاشتعلت النيران في الستائر، واستيقظت القرية كلّها بفزع على الانفجار. في كلّ مكان أخذت الكلاب تنبح، والديوك تصيح. اشتعلت أضواء البيوت حتى في الجوار البعيد في حالة من الذعر، وبدأ الناس يتصايحون من النوافذ بأنّ انفجار غازٍ قد حدث بلا شك. في اليوم التالي تبين أنّ قسماً حتى من الحجر الضال قد تبخّر. هكذا وصل ماكس في نهاية المطاف إلى الصحافة العالمية - لكن ليس بسبب فرضيته الكونية، التي بقيت غير معروفة، بل بسبب المصادفة العجيبة على التصديق بأن يكون في المكان الذي كان فيه. على حدّ ما هو معروف، لم يشاركه القدر سوى راهب فرنسيسكاني من ميلانو في القرن السابع عشر. لم تترك الإصابة من عالم الفلك الهولندي عاثر الحظ أكثر مما يبقى من نملة في ضربة حجريّ صوّان أحدهما بالآخر.

افترض الخبراء أنّ النيزك كان بحجم قبضة اليد. لم يعثروا سوى على شظايا متناهية الصغر منه، فاستطاعوا أن يستخلصوا منها أنه نيزك حجري، أكوندرت، يزيد عمره عن أربعة مليارات سنة، قادم في أغلب الظن من المنطقة الواقعة بين المريخ والمشتري. حسب العادة الدولية، سُمّي الجسم السماوي على اسم أقرب مكتب بريد: ده فيستربورك.

50. القرار

بعد انقضاء أربعة أيام، أثناء الجنازة في مقبرة فيستربورك -وسط نعمات الحكاية الخيالية لياناتشيك- لم يجرؤ كويتن على التساؤل ماذا يوجد في الثابوت الذي يُنزل إلى جوف الأرض. وهو محاط بعلماء الفلك والفنيين، نظر لحظة إلى صوفيا، التي تقف متأبطة ذراع تشيجالنجتشي. هل هناك شيء فيه؟ لكنّه بعد مضيّ شهر استوعب ما حدث بهزة عنيفة.

كان هو وصوفيا مدعوّين إلى بيت تيو وسلمى كيرن لتناول الطعام في عيد الفصح. أخذت صوفيا معها النبيذ، وبينما يجلسون حول طبق كبير من «بوتوفو»^(*) مع فجل الخيل، تحدّثوا عن نار الفصح الكبيرة، التي كان البارون يشعلها كلّ سنة في الماضي في الساحة القريبة من كلاين ريخترن - تقليد لم يتكفّل أحد بمواصلته عقب وفاته. رأى كيرن أنّ السبب في هذا هو أنه لم يعد أحدٌ من نبلاء الريف يعيش في الجوار، إنهم يعيشون إلى الجنوب قليلاً، في مقاطعتي أوفرايسل وخيلدرلاند. كان خيفرس هو الرجل النبيل في الشمال. لأنّ البارونة المسنة انتقلت في الآونة الأخيرة مع روتخر وستارته، البالغة مئة متر مربع، للسكن مع ابنتها في لاهاي، التي لديها صالون تجميل مزدهر للطبقات الأرقى، فإنّ الرعاع سيظهرون عمّا قريب في كلاين ريخترن أيضاً ويُجهزون عليها. قال: «أنا رجلٌ بسيط من عامة الشعب. كانت جدّتي تعمل في دكان ماء وجمر في أوترخت، أرضه مفروشة بالرمّل، ولكن إذا كان عليّ الاختيار بين النبلاء والرعاع الأغنياء، فلن أحتاج إلى التفكير طويلاً. النبلاء رعاع أيضاً من دون شك، الجميع رعاع، لكنّهم على الأقل يتّسمون باللباقة».

قالت سلمى: «أنت تكبر في العمر يا تيو».

- لا شك في هذا. وإنه لأمرٌ حسن.

(*) pot-au-feu: طبق فرنسي مكوّن من الخضراوات ولحم العجل. [م]

نظر إليه كويتن. النحات جالسٌ في كرسيه مثل كوز صنوبر مغطى بالثلج مليء بالعقد؛ قدمه اليمنى الحافية مستقرّة على شلثة من الكتّان الأبيض، الكاحل متورّم والجلد ضارب إلى اللون البنفسجي، وكأنه نزل بها في وعاء من التوت الأسود. هل يتسم النبلاء باللباقة؟ لم يشعر كويتن بنفسه إلا وهو يفكر في قُبعة والد السيّد روسكام، التي أمره جدّ روتخر بدفنها. أجل، لعلّها لباقة - ولكن من نوع معيّن. من ناحية أخرى، ترك له البارون مالاً وفيراً لأنه قام برعاية قبر «ديب ثوت سان ستار» وعلم روتخر الحياكة. لعلّ الطبقة الأرستقراطية تفكر فعلاً أنّ هناك نوعين من البشر: هم أنفسهم، وعلى رأسهم الملكة، من جهة، والناس البرجوازيين العاديين من الجهة الأخرى - مثلما هو الحال مع الرجال والنساء. يودّ لو يتكلّم مع والده عن هذا الأمر، لكنّ والده مختفٍ.

سألت سلمى: «هل تتذكّر بيض الفصح، الذي كنت أنت وأرند تذهبان دوماً للبحث عنه تحت شجيرات الرندرة؟».

كيف يمكنه أن ينسى مثل هذا الشيء؟ أحسّ من فوره بالأغصان على ظهره وهو يزحف على الأرض، فوق الأوراق اليابسة الرطبة، التي يلمع بينها فجأة لونٌ زاهٍ، متشكّل في أكمل صورة، مثل الوقت الذي تواتيه فكرة مُخلّصة عندما يفكر بشيء. التوتّر من أنّ أرند سيعثر على بيوض أكثر منه...

قالت صوفيا: «كنت دائماً أحتفظ بأجمل البيوض. هل أذهب لإحضارها؟».

عندما خرجت من الغرفة، قال تيو لسلمى: «هل تعرفين ماذا قال لي ماكس في إحدى المرّات؟ "الدجاجة هي الوسيلة التي تنتج بها البيضة بيضة أخرى". لا أتذكّر في أيّ سياق، لكنني لم أنس ذلك إطلاقاً».

تنهّدت سلمى: «ماكس المسكين!».

بعد ذلك بوقتٍ قصير، وضعت صوفيا على الطاولة برطمان سكاكر من الطراز القديم، كبير الحجم، واسع العنق وحلزوني الغطاء. بينما تخبرهم بأنّ البرطمان من الميراث الذي تركته والدتها، نظر كيرن إلى المحتوى الملوّن وبدا وكأنه يكاد لا يستطيع التحكّم بعواطفه. قال: «هذه البيوض لُوّنت قطعةً قطعةً هنا في هذه الغرفة يا كوكو، بينما كُتِمتا ترقدان في السرير. لَوّنها جميع الساكنين هنا في القلعة».

بعد أن لملمت سلمى الأطباق، وضعت صوفيا البيوض واحدة واحدة على الطاولة

برفق. لم يعرف كويتن أنها كانت محتفظة بها، لكنّه مَيَّز البيوض التي عثر عليها من دون استثناء تقريباً. رتّبها ترتيباً دقيقاً بعضها تحت بعض، في أربعة صفوف من ثماني قطع. رفع كيرن قدمه عن الشلّة، وضع نظّارة قراءة بإطار فولاذي على عينيه وانحنى إلى الأمام.

- هل تستطيع أن ترى مَنْ لَوْنُ أيّامنها؟

بدأ كويتن يغيّر مكان البيوض مصنّفاً كلّ نوع على حدة بعناية. باغته شعور بأنّه يجب عليه وضعها في ثمانية صفوف عمودية من أربع بيوض، بدلاً من أربعة صفوف أفقية من ثماني بيوض. كان هناك كيرن، ماكس، بروكتور، ثيمات وسبير وزوجاتهم الخمس، فيصبح بذلك عشرة أشخاص؛ ولكنّ إليزيث ثيمات ويوديث سبير لم تشاركا في التلوين في أغلب الظن، فهما لم تكونا تصعدان إلى الطابق العلوي على الإطلاق. سيكون شيئاً جميلاً إذا كانت هناك أربع بيوض لكلّ منهم، ولكن ليست هناك سوى بيضة واحدة للسيد سبير: على قشرتها البيضاء غير الملوّنة، خُطٌّ بأناقة «أ؟» باللون الأحمر على طرف، و«ك؟» باللون الأزرق على الطرف الآخر. يشير حرف «أ» إلى أرندي بطبيعة الحال، لكنّه وجد نفسه فجأة يفكر في آدا. نسب ثلاث بيوض إلى ثيمات، بنماذج هندسية شاحبة: معيّنات، دوائر، مثلثات. أما تلك الملوّنة بالبنيّ الغامق الكثيب، حتى بالأسود في بعض الأحيان، بصواعق برق متعرجة الشكل، فهي لبروكتور بطبيعة الحال، بينما ماكس على الأرجح هو الذي اقتصر على الألوان الساطعة المتساوية، التي تتضمن موته أيضاً بطريقة أو بأخرى. لا يمكن أن يُخطئ في تمييز عمل كيرن: وجوه مهترجين، أزهار ورؤوس حيوانات مرسومة بمهارة حرفية. سهّلت عليه كلارا أيضاً من خلال رسمها لصور المظلات بأوضاعها المفتوحة كلّها. واجه صعوبة بتمييز عمل سلمى وصوفيا. البيوض المتبقية مزينة كلّها بشكل تجريدي، بنقاط، وخطوط وشرائط. قرّر أنّ البيوض الجميلة هي من عمل سلمى، وذات الألوان المتنافرة من عمل صوفيا.

كان الآخرون ينظرون بصمت إلى ما يفعل. بعد أن صنّف البيوض حسب الشخص في آخر الأمر، قال كيرن: «لست في حاجة إلى قول شيء آخر».

وأخذ ينظر إلى البيوض برهة من الزمن، ثم رفع عينيه وقال للمرأتين وهو يشير إلى الكوكبة على الطاولة: «هذا ما تبقى من جماعتنا».

في تلك اللحظة أدرك كويتن أنّ هذه هي الحقيقة. بعد موت ماكس لم يبق سوى هؤلاء الأشخاص المسنّين الثلاثة، وجدّته بسنواتها الاثنتين والستين هي أصغر شخص فيهم. في

الطابق العلوي يسكن نيدركورن، في الطابق السفلي كورفينوس، وسيصبح كل شيء عمّا قريب في عداد الماضي. ما الذي يبقيه هنا في الواقع؟ كلّ شيء حوله تدمّر، الجميع مات، رحل، أصبح بعيد المنال، حتى أقفاص الحمام الخاصة بكيرن خالية منذ ستة شهور. نهض عن مجلسه بصورة مفاجئة وذهب إلى غرفته دون أن يقول شيئاً.

وضع صندوقه البرونزي الصغير على الطاولة. كان مفتاح قفل المشبك قد اختفى ذات يوم بين أحجار القرميد المخلخلة وراء مدفأة البترول، لذلك سوى مشبك ورق متين الهيئة وحوّله إلى مفتاح هيكلي مثلما تعلّم من دروس بيت كيلر. فتح رسالة أبيه برفق ونظر إلى الجملة الأخيرة، رغم أنها لا تقول شيئاً غير الذي يعرفه: «سامحني ولا تبحث عني، لأنك لن تجدني». حقيقة أن يكتب ألا يبحث عنه، ليست شيئاً من مثيل أمنية أخيرة! الحقّ أنه لم يكتب إنه لا يريده أن يبحث عنه، فقط أنه يستطيع توفير عناء البحث على نفسه، لأنه لن يصل إلى نتيجة. نظر إلى الحقيبة المحتوية على تشيلو أمه. الآن يعلم علم اليقين. سيرحل. سيذهب للبحث عن أبيه.

*

سألته صوفيا في صباح اليوم التالي أثناء تناول الفطور: «ولكن أين ستبحث عنه؟ يمكنه أن يكون في كلّ مكان. هل تعرف كم العالم كبير؟».

- إنه على وجه الأرض على كلّ حال. هذا يستثني مسبقاً الكثير من الأماكن الأخرى. قالت صوفيا: «هذا صحيح». وظهرت ابتسامة على وجهها ونظرت إليه وهي تهزّ رأسها: «لقد أوشكت على إيجاداه، أليس كذلك؟».

أحنى كوينتن رأسه بالإيجاب وهو يبادلها النظر، لكن من دون ابتسامة: «نعم». كانا جالسين على الشرفة. كان صباحاً ربيعياً معتدلاً لأول مرة تلك السنة، والبطّ يحتفل بتغيّر الفصل بصخب في الخندق المائي في الأسفل.

- ولكن تصوّر لو وجدته ولم يُرد معرفة أيّ شيء عنك؟ هل تدرك جيّداً ما حدث له؟ لقد صار شخصاً آخر. في أول الأمر ظننت أنا أيضاً أنّ الأمور ستعود إلى نصابها وأنه سيعود إلى الظهور مرة أخرى، ولكن ها قد مضت أربع سنوات. هو يعرف كيف يستطيع الوصول إليك، ومع ذلك لم يفعل، أليس كذلك؟

- إذا رأيته وأصرّ على أنه لا يريد أن يمّت بأيّ صلة إليّ، فسأعرف على الأقل. سيكون قد

صار شخصاً آخر فعلاً، كما تقولين، وشخص آخر لا يهتمني في شيء. شخص آخر ليس أبي. سأُنهي الموضوع من جهتي أيضاً.

سألت صوفيا دون رفع عينيها عن التفاحة التي تقشرها: «ومدرستك، ماذا ستفعل بها؟».

- أنا أعرف ما يكفي. ثم إن أهم الأشياء التي أعرفها، لم أتعلمها في المدرسة.

- لكنك يا كويتن في الصف الحادي عشر، لقد أوشكت على الانتهاء، سنة أخرى وستحصل على شهادة الثانوية العامة. ألا تخشى أن تعض أصابعك ندماً إن لم تُنه دراستك الثانوية؟ إنها تحدّد حياتك كلها. أفترض أنك تريد الالتحاق بالجامعة، أليس كذلك؟

نظر كويتن إلى الأشجار العارية من الأوراق على الطرف المقابل. لا يزال بوسعه النظر عبر الغابة؛ عمّا قليل ستتحول مجدّداً إلى جدار كثيف لا يمكن اختراقه. في البعد، تسير سيارة على الطريق المؤدّي إلى فيستربورك. سأله والده أيضاً في إحدى المرات ماذا يريد أن «يصبح»، فأجاب عنه ماكس: «مهندساً معمارياً» - ولكن فكرة أن يفعل هذا أو ذاك ما تبقى من حياته، وليس شيئاً آخر، لا تزال تبدو له فكرة حمقاء. لم يولد من أجل اكتساب اليقين؛ يستطيع الآخرون فعل هذا الأمر. هناك شيء مختلف تماماً في انتظاره، وهذا هو اليقين الذي تجلّى له في المرج القريب من كلاين ريخترن قبل ستة شهور.

قال: «لا أظن ذلك».

حاولت صوفيا مرّة أخرى: «في الشهر القادم ستبلغ السابعة عشرة من عمرك. واصل سنة أخرى، حتى تبلغ الثامنة عشرة؛ بعد ذلك تستطيع فعل ما تريد، سنة كاملة، أو سنتين. عندئذ سيكون بوسعك دائماً أن تقرر ما إذا كنت تريد الالتحاق بالجامعة أم لا. ولكن إذا توقفت الآن، فسيكون قرارك نهائياً».

قال كويتن: «سأذهب للبحث عن أبي».

أشفق على جدّته. كي تحافظ على هدوئها، نهضت عن مجلسها، مسحت الفتات وبقايا الخبز بإحدى يديها في اليد الأخرى، ورمتها من فوق الدرابزين، ما أثار على الفور بطبقة محمومة في الأسفل. كانت وحيدة هي أيضاً. تعرّضت ابتها لحادث مروّع، قُتل رفيقها في السكن بنيزك، والآن سيهجرها حفيدها أيضاً. ماذا ستفعل؟ يضاف إلى ذلك أن المطاف سينتهي بها في الشارع بعد بضعة شهور - مع كلّ أغراضها، وأغراض ابتها، وأغراض ماكس. ذهب إليها، وضع يديه على كتفيها، وطبع قبلةً على جبينها، فنفضت رائحة حلوة حامضة غريبة

إلى أنفه. ما لبثت أن ضغطت قمة رأسها على عظمة صدره برهة قصيرة، الأمر الذي ذكره بخائس، تيس فيردونكسخت. عندما رفعت وجهها، كان مخضلاً بالدموع. هذه هي المرة الأولى التي يراها تبكي.

- جدتي!

- لا عليك. متى تريد الذهاب؟

- بأقصى سرعة ممكنة.

لم يصبح قراره نهائياً بالنسبة إليه إلا عندما قال هذه الجملة.

استعادت صوفيا رباطة جأشها: «ولكن إلى أين ستذهب يا كويتن؟ في أي اتجاه؟ لا يمكنك الصعود هكذا إلى أول قطار تصادفه، أليس كذلك؟!».

- لعل هذه طريقة أيضاً. لكنني غداً سأذهب أولاً إلى محامي أبي. إنه يعرف مكانه، أليس كذلك؟

- لكنّه لن يقول لك. إنه ملزم بالسّر المهنيّ.

- أستطيع المحاولة على كلّ حال. لعلّه يقول شيئاً مع ذلك، أو لعلّ لسانه يزّل شيء استفيد منه. أولاً يمكن أن تعرف عمّتي دول أيضاً أكثر مما نعتقد؟ على كلّ حال، أظن أنه من الأفضل لي الذهاب إليها أولاً.

بقيت صوفيا تنظر إليه بعينين محمّرتين. فجأة، لم تعد تستطيع كبح دموعها؛ تجمّعت وجهها، جلست على الكرسي، وضعت يديها على عينيها، وقالت بصوت مرتفع شبه غنائي: «كويتن.. سيحدث شيء فظيع إذا ذهبت!».

لم يسبق له رؤيتها في هذا الحال. جلس قبالتها وهو يشعر بالعجز: «ما الذي يجعلك تظنّين هذا؟».

همست بينما ترتجّ كففاها: «لا أعرف.. هكذا أشعر».

- يا له من هراء! لا أحد يعرف ما سيحدث. ربما سأغيب بضعة شهور، وسأطلعك على كلّ ما يحدث معي. بعد ذلك يمكنني دائماً العودة إلى المدرسة. وإن لم أعد إليها، سأقدّم امتحانات الثانوية العامة.

لم يكن هو نفسه يصدّق ذلك، ورأى على صوفيا أنها لا تصدّقه أيضاً. بقيت جالسة برهة

من الزمن بمندبل على عينيها، ثم نهضت بصورة مفاجئة وذهبت إلى الداخل مُشِحةً وجهها عنه.

نظر كويتن إلى قشرة التفاح في صحنها: لولب طويل واحد غير متقطع، مثلما تفعل على الدوام. ناجى نفسه: تستطيع أن تطوّلها كما يحلو لك، تطوّلها إلى ما لانهاية، إذا قشّرتها بشكل رفيع بما فيه الكفاية. استنشّق بعمق النسيم اللّيل. لقد انتهى الأمر، لم يعد يسكن هنا في الواقع؛ ولكن في الوقت نفسه بدا وكأنّ هذا الإدراك جعل كلّ شيء جلياً بصورة أقوى من أيّ وقت مضى، مثلما يحدث في أعياد الميلاد عندما تتقدّ الشموع المحترقة الذائبة على الشجرة مرّة أخرى في نهاية الأمر قبل أن تنطفئ، بينما الأرض مغطاة بالأغلفة الورقية الملونة للهدايا المفتوحة. في ليلة عيد الميلاد، كان ماكس يطلب منه على الدوام البقاء في غرفته إلى أن ينتهي من تزيين شجرة العيد وإشعال الشموع. «تعال!» من الضوء الكهربائي القاسي في غرفته إلى ضوء الشموع الدافئ - عالم مظلم من الماضي السحيق... نهض عن مجلسه وذهب إلى الدرايزين الحجري. هناك بومة تنعق في أعماق الغابة. على جزيرة اصطناعية على الطرف الآخر، بنت دجاجات الماء عديمة الرحمة عشاً جديداً، ما يجعل الآخرين جميعهم يسبحون باحترام من حوله. أما أن تبكي جدّته جامدة العواطف بهذا الشكل بصورة مفاجئة! ولكن أيجب عليه البقاء لهذا السبب؟ أيجب أن يشملها برعايته كما شملته هي برعايتها هذه السنوات كلّها؟ لقد حسم قراره، سيرحل. سيذهب للبحث عن أبيه. شعر في قرارة نفسه باليقين الذي لا يتزعزع بأن لا شيء ولا أحد يستطيع منعه من ذلك.

- كويتن!

ذهب إلى غرفة صوفيا عن طريق غرفة ماكس، التي كان سريره المرتّب قد تحوّل فيها إلى قطعة متحف لا يمكن المساس بها. كانت جاثية على ركبتها على الأرض، أمام درج الخزانة السفلي المفتوح، في يدها بوصلة متناهية الصغر، أصغر بكثير من البوصلة الموضوعة على حافة مكتب ماكس، قطرها أقل من سنتيمترين.

قالت: «خذها معك!».

وأعطته إيّاها وقد عادت إلى عينيها تلك النظرة المتحفظة الباردة: «كانت لجذّك. حملها معه على الدوام، عندما كنا نذهب إلى التّنزّه في المرج، في سنوات ما بعد الحرب. كان في ذلك الوقت لا يزال كبيراً».

كان المؤثر عالماً، ولكن بعد إزاحة إيزيم صغير على الجانب، بدأ يتحرك باهتزاز بسيط: لا يزال يعمل. هناك رباطٌ جلديّ أسود مضمومٌ عبر حلقتها الصغيرة، ووضعت صوفيا البوصلة في عنقه دون قول شيء. أدرك بارتياح أنها تقبلت رحيله. لم يعرف جدّه برونس إطلاقاً، يحسّ بأنه ينتمي إلى التاريخ أكثر مما ينتمي إليه، مثل معظم الأشياء الموجودة في هذا الدُّرج المكتظ. رغم أنه لم يكن مقفلاً، لم يحدث أن نبش فيه، فهو لم يكن يريد لأحد أيضاً أن يحشر أنفه في أغراضه الشخصية. انحنى بجذعه وأخذ بطاقة صفراء من بين فوضى الصور، الرسائل، الملفات، الدمى، كتب البنات، وأرنب من الصوف.

قرأ عليها:

«شهادة تسجيل، وفق المادة 9، البند الأول، من المرسوم رقم 6/ 1941 الصادر من المفوض الإمبراطوري في المنطقة الهولندية المحتلة، في ما يخصّ التسجيل الإجباري للأشخاص من ذوي الدم اليهودي جزئياً أو كلياً». أدارها على الطرف الآخر: «هاكن، بترونيلا. عدد الأسلاف اليهود بالمعنى المقصود في المادة 2 من المرسوم: واحد».

نظر إلى صوفيا متسائلاً، فقالت: «إنها أمي. كانت جدّتها من طرف أمّها يهودية».

بدأ كوينتن: «هذا يعني...».

- نعم، في عروقتك أيضاً يسري دمٌ يهوديّ.

- لم تخبريني قطّ بهذا الأمر.

- لم يكن يستحقّ الذكر. لك أن تحسب.

- جدّتي الكبرى ربيع، أنت ثمن، والدتي ستة عشر من الجزء، أنا اثنان وثلاثون من الجزء.

أعاد البطاقة إلى مكانها وقال: «لا، ليس بالكثير. هل كان ماكس يعرف هذا؟».

- لكي أكون صادقة، لم أكن أفكر في هذا الأمر إطلاقاً.

*

لم تستطع عمّته وزوجها إلا التكرار إنهما هما أيضاً لا يعرفان مكان أونو. دول هي الوحيدة في العائلة التي وصلتها رسالة منه في ذلك الوقت، بعد ذلك لم تسمع منه أيّ شيء آخر؛ لم يحاول كذلك أن يحصل بطريقة أو بأخرى على غرض من أغراضه المخزّنة في بيتها. فقط مرّة واحدة - قبل سنة ونصف - كتب لهما غيلتاي فيث رسالة مفادها أن أونو يريد أن تُعاد

شهادة الدكتوراه الفخرية الخاصة به إلى أوبسالا. لقد فعلا ذلك، مع أنهما لم يعرفا السبب، ولا عرف المحامي.

كان آخر يوم لهما في قرية القِيَلَات القريبة من روتردام، وكادا ألا يستطيعا استقباله وسط زحمة الانتقال. لقد تخلّى زوج عمّته كارل، الجراح، عن مشاركته نهائياً، وسينتقلان للعيش بشكل دائم في بيتهما الثاني في جزيرة مينوركا، حيث نزل كويتن ضيفاً بضع مرّات سابقاً في العطل الصيفية. بينما يجلسون على الصناديق المسوّرة في الغرفة الأمامية الخالية من الأثاث، بأكواب بلاستيكية من المياه المعدنية، تكرّرت المحادثة التي أجراها مع صوفيا: عن إيقاف دراسته، وهل هو موقنٌ من أنّ ما يريد هو الصواب، وأين سيبحث عنه. راوده شعور بأنّ أونو قد اختفى من حياتهما تقريباً. كانت أغراضه قد سلّمت إلى شركة تخزين الأثاث قبل بضعة أسابيع، وهي مخزّنة الآن في مستودع في منطقة الميناء. لقد علمت صوفيا هذا الأمر، لكنّها لم ترغب على ما يبدو إنقال كاهله بهذا الخبر. بينما يقف على رصيف المحطة في انتظار القطار المتجه إلى أمستردام، بقي التعبير الذي استخدمه زوج عمّته في وصف والده يتردّد في رأسه من دون انقطاع: «المُعْتَزَل».

في بهو مكتب المحامين القائم وراء متحف رايكز، كُتب اسم السيّد «ي. س. خ. ف. غيلتاي فيث» بين سلسلة طويلة من الأسماء الأخرى. جاء حامل الاسم بشخصه لاصطحابه: رجلٌ لطيف الطبع لحيم الجسم في أوائل الخمسينيات، بنظّارة قراءة صغيرة على أرنبة أنفه. أخبره في المصعد إلى الطابق الأخير بأنه يعرف أباه منذ أيام دراسته. رغم أنّ أونو كان صعب المراس إلى حدّ فظيع، قلّما ضحك المحامي مع شخص مثلما ضحك معه. غرفته تطلّ على مركز المدينة بأكمله. دلّ كويتن على القصر الملكي في ساحة الدام في البُعد، الذي يقوم فوقه تمثال الإله أطلس حاملاً الكرة الأرضية الذهبية على كاهله - مثل شخص، هكذا فكّر كويتن، ليس من هذا العالم.

عندما جاءت فتاة سوداء في معطف أبيض بالشاي، جلس أحدهما قبالة الآخر إلى طاولة طويلة، تحتلّ نصفها أكداًس من الملفات والمجلّدات.

قال غيلتاي: «تقبّل تعازيَّ بوفاة والدك بالتبني. قرأت الخبر في الجريدة. لا تصدّق أن يحدث مثل هذا الشيء». وأخذ يهزّ رأسه برهة قصيرة دون قول شيء: «طبعاً لا علاقة لي بالموضوع، ولكن هل رُتبت أمور الميراث بشكل جيّد، على حدّ علمك؟».

- ينبغي أن تسأل جدتي عن هذا. أعتقد أن هناك مشكلات، لأنه لم تكن له عائلة إطلاقاً.
- من فضلك أبلغ جدتك أنها تستطيع التواصل معي دائماً إذا احتاجت أيّ مساعدة. هذا لن يكلفها شيئاً. أعلم علم اليقين أنني أتصرّف على نهج والدك بهذه الطريقة.
- حملت فيه كويتن في جمود: «ألم تُطلع والدي على الخبر إذا؟».
- ثبّت غيلتاي قطعة مكعّبة من السكر في شايه وانتظر إلى أن تشرّبت به. ترك قطعة السكر: «لا، لا أستطيع الاتصال به إلا في الحالات القصوى».
- أيعني هذا أنه لا يعرف أن ماكس قد مات؟
- لا أستطيع الجزم. لعلّه هو أيضاً قرأ الخبر في الجريدة في مكانٍ ما.
- هو ليس في هولندا إذا؟

ظهرت ابتسامة على وجه غيلتاي لحظة، لكنّها اختفت فوراً؛ حرّك الملعقة في فنجان بهيئة جادة لبضع ثوانٍ: «أفهم ما تريد الوصول إليه يا كويتن. كي أكون صادقاً معك، توقّعت زيارتك قبل هذا الوقت بكثير. عرفت أنك ستجلس هنا أمامي ذات يوم؛ هذا ما قلته لأبيك أيضاً في ذلك الوقت. ولكن إذا كنت تريد معرفة مكانه مني، فلا أستطيع إخبارك به».

- أقسم إنني لن أخبر أحداً بأنني عرفته منك. أستطيع التظاهر بأنني التقيت به مصادفة في مكانٍ ما. مثل هذه المصادفات تحدث، أليس كذلك؟ والدي بالتبني أصابه نيزك، أليست هذه مصادفة أكبر بكثير؟

أحنى غيلتاي رأسه علامة الموافقة: «أكيد. لكنّ المسألة هي ليست أنني أعرف ولا أريد إخبارك، لكنني لا أعرف حقاً. ليست لديّ أيّ فكرة».

- كيف يُعقل هذا؟ في رسالة الوداع التي أرسلها أبي إلى ماكس، كتب إنه يمكنه في الحالات الاضطرارية الوصول إليه دائماً عن طريقك.

- هذا صحيح، ولكن بطريقة غير مباشرة. هناك عنوانان آخران بيني وبينه. الأول هو عنوان زميل لي - في الخارج، نعم، لقد فهمت هذا جيّداً. لكنّ هذا الزميل لا يعرف سوى صندوق بريد في دولة أخرى. هذه الدولة قد تكون هولندا، ولكن قد تكون باراغواي أيضاً. تصوّر لو دفعتني إلى فقدان صوابي فأخبرتكم باسم ذلك الزميل، الأمر الذي لن يحدث طبعاً، فلن يساعدك ذلك السيّد أيضاً، لأنه ليس له أيّ شأن بك. هذا بغضّ النظر عن حقيقة أنه لا يعرف سوى رقم صندوق البريد الذي هو في دولة غير دولته.

ووضع يديه إحداهما فوق الأخرى وتقرّس في كويتن: «انس الأمر يا بني! لقد أخفى والدك آثاره بشكل كامل. لقد حدث معه شيء فظيع؛ يجب عليك الافتراض أنه لم يعد على قيد الحياة. أنا على اطلاع كامل بوضعك. أعرف القدر المريع الذي ألمّ بوالدتك، أعرف ما الذي حدث مع والدك وما حدث في الآونة الأخيرة لوالدك بالتبني، ولكن يجب أن تقبل بالأمر الواقع. هناك أولاد قُتل أبائهم، أو ماتوا في حادث تحطّم طائرة، كلّ هذا فظيع بالقدر نفسه، ولكن هكذا هي الحياة على ما يبدو. حاول إبعاد هذا الأمر من رأسك، ولا تدعه يؤثر على حياتك».

أوماً كويتن إيماءة خرقاء وقال: «لو كنت أعرف أن أبي قد مات فعلاً، لما كانت هناك مشكلة. لكنّه ليس ميتاً، هو في مكانٍ ما على وجه الأرض ويفعل هذا أو ذلك في هذه اللحظة. لعلّه يقرأ الجريدة، أو يشرب هو أيضاً فنجاناً من الشاي».

توقف، ثم قال: «هذا يعني.. هل أنت متأكد من أنه لا يزال حيّاً يُرزق؟».

أحنى غيلتاي رأسه بالإيجاب: «لو كان الأمر غير ذلك، لعرفتُ ولعرفت أنت أيضاً».

- سأذهب للبحث عنه إذاً.

رنّ الهاتف، فقال المحامي دون أن ينتظر لمعرفة مَنْ على الخط: «لا أريد أيّ إزعاج». وضع السماعة على الجهاز، صالّب ذراعيه على صدره، واتكأ إلى ظهر الكرسي: «لا أحد يستطيع منعك. ولكن هل تساءلت أيضاً عما إذا كنت تتصرّف على نهج والدك؟».

إنه يتكلّم عن نهج والده طوال الوقت. أخرج كويتن رسالة أونو من جيبه، وقرأ عليه الجملة الأخيرة. عندما شرح تفسيره لهذه الجملة -إنها ليست منعاً من البحث عنه، بل مجرد إعلان عن عدم الجدوى من البحث- ظهرت ابتسامة على وجه غيلتاي: «ستكون محامياً جيّداً يا كويتن».

- إنه يقول ما يقول.

- لقد أفحمتني. لكنّه يقول أيضاً إنك لن تجده. كيف ستبدأ البحث عنه.

- لا أعرف بعد. كنت أمل أن ترشدني إلى طريقه، لكنني سأجد حلاً آخر.

رفع غيلتاي حاجبيه: «أهذا هو السبب في مجيئك إلى هنا؟».

- نعم، وإلا لماذا سأتي؟

- ظننتك في حاجة إلى المال من أجل رحلة البحث.

- لديّ وفرة في المال.

- حقاً؟!

- ورثتُ أربعين ألف فلوريناً.

ردّد غيلتاي وهو يخلع نظّارته: «أربعين ألف فلوريناً؟ ممّن؟».

بعد أن أخبره كويتن بما فعله ليستحقّ هذا الميراث، بقي غيلتاي ينظر إليه برهة من الزمن مستغرقاً في أفكاره: «لقد انحرمت من أشياء كثيرة، لكنك أيضاً حصلت على أشياء كثيرة. الربّ يعلم، لعلك تنجح في إيجاد والدك فعلاً، وإن كان يحيرني كيف ستجده».

قال كويتن: «لعلّ زمن المعجزات لم يُولِّ بعد!».

*

بلغ رذاذ المطر من النعومة أنّ القطرات تبدو وكأنها ساكنة في الهواء وتبلّل وجهه أكثر من مطر غزير حقيقي. كانت شجرتا النغت، والأحجار الثلاثة، وكلّ شيء في المرحج الواقع خلف كلاين ريخترن ينضج بالمياه، التي تبدو وكأنها آتية من العدم. لم تكن البقرة الحمراء موجودة. أهذه علامة جيّدة أم علامة سيّئة؟ علامة جيّدة بالطبع، وإلا لكانت موجودة. يجب أن يقرّر في أيّ اتجاه سيبحث عن والده. أخذ يدور حول محوره باتجاه عقارب الساعة، ببطء، وعينين مفتوحتين على اتساعهما، يحاول تسجيل ما إذا كان يشعر بشيء مميّز في لحظة معيّنة. لم يشعر بأيّ شيء، رغم ثقته مئة بالمئة من أنه نظر في وضعية معيّنة في اتجاه والده بالذات. بدا له أمراً غير مفهوم. حاول مرة أخرى، على نحو أبطأ، وبعينين مغمضتين، ولكن أيضاً من دون جدوى. والآن، ماذا عليه أن يفعل؟ فكّ أزرار قميصه وأخرج البوصلة الصغيرة من تحته. دار مرّة أخرى دورة بطيئة بثلاثمئة وستين درجة، بينما لا يحوّل عينيه عن إبرة البوصلة. إنها تدور باهتزاز على القرص من الشمال إلى الغرب وتعود إلى الشمال عن طريق الجنوب، دون أن تُظهر سلوكاً غير عادي بصورة مفاجئة.

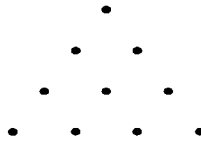
استسلم باستغراب. هذا شيء محيّر، لكنّه يعني أنه ليس بالأسلوب الصحيح. وضع البوصلة تحت قميصه وأجال عينيه في المرحج، بينما يشعر بيقينه الداخلي يترنّج بصورة مفاجئة. أهو شيء مستحيل إذا؟ لعلّه يجب أن يحاول بالطريقة المعاكسة. أيّ مكان لا يمكن أن يكون والده قد ذهب إليه بأيّ حالٍ من الأحوال؟ ليس إلى إفريقيا في أغلب الظن، وحتماً ليس إلى دول الكتلة الشرقية، ولا إلى الصين، ولا أيّ مكان آخر في آسيا. هذا يُحدث فرقاً كبيراً، ولكن

لا تزال هناك أوروبا بأسرها وأميركا الشمالية والجنوبية. إنه يتكلّم اللغات جميعها، فهذه إذاً ليست مشكلة بالنسبة إليه. لعلّه يسكن في دير، لا يخرج منه إطلاقاً - ألم يكتب إنه سيصبح ناسكاً؟ أو في كوخٍ بناه بنفسه في جزيرة غير مسكونة، ويتخذ من أوراق النخيل ملابس له، أو في كهف من الكهوف على الجبال. أيكون في جزيرة كريت التي ينحدر منها قرص فستوس؟ أيجب عليه إذاً الذهاب إلى جزيرة كريت؟ ولكن حتى إذا علم أنه في نيويورك، فليس بوسعه العثور عليه هناك. ليست هناك نقطة يبدأ منها. ولكن ماذا يجب أن يفعل إذا؟ غداً ستنتهي عطلة عيد الفصح - فهل يجب أن يعود إلى المدرسة ببساطة؟ هذا غير ممكن أيضاً، فقد حدث معه في هذه الأثناء ما يمنعه من العودة: لا تستطيع التوقع من حجر أفلته أن يعود إلى يدك، مثل يويو، في منتصف الطريق.

نظر إلى طرف الغابة مبلاً بالرداذ وكأنه متصبّب عرقاً، وبدأ يرتجف بصورة مفاجئة. لعلّ هناك طريقة يستطيع بها، بشكلٍ معاكس، استدراج والده إلى هولندا: من خلال التظاهر بطريقة أو بأخرى بأنه مُختطفٌ - من خلال التخفي وإرسال رسائل مرعبة بحروف ملصقة. لعلّ والده يظهر بمبلغ الفدية، في مكانٍ ما عند دعامة أسمتية تحت جسر...

خُيّل إليه وكأنّ الوهم، باستطاعته العثور على والده، قد تبدّد بصورة مفاجئة بفعل هذه الفكرة الشيطانية. التفت إلى وراء وبدأ يعود أدراجه بخطوات بطيئة إلى القلعة. من المستبعد طبعاً أن ينفذ مثل هذه الحيلة - لكنّه على كلّ حال سيذهب من هنا، سيسافر، ليس هناك حلٌّ آخر. لماذا لا يذهب إلى إيطاليا؟ لم يذهب إليها من قبل. إلى إقليم فينتو، ليشاهد مباني بالاديو أخيراً بأمّ عينه. المال وفير. يجب عليه طبعاً أن يأخذ معه رسوماته وخرائطه المتعلقة بالحصن، سامنيوم كويتي. مَنْ يدري أيّ شيء آخر يستطيع أن يضيفه إليها!

من الأعماق



الجزء الرابع

نهاية النهاية

الفصل الثالث

- ظننت أنها لن تصل إلى هنا.
- ألم أخبرك في البدء أن المهمة قد أُنجزت؟
- لا بد أن هذا متأث من أسلوبك الأخاذ في السرد. هكذا هي القصص الجيدة: لا تسمعها كتقرير استرجاعي لما حدث، بل تحدث إذا جاز التعبير في السرد نفسه.
- في حالتي ليس هناك اختلاف كبير بين هذين الأمرين.
- أجل، أنت قدر هؤلاء الناس، وكي أقول لك الحقيقة كنت أندهش فعلاً بين حين وآخر. يالها من مأساة! خذ مثلاً نهاية ماكس ديليوس - ألم يكن ذلك قراراً جائراً؟
- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ كان على وشك اكتشافنا!
- كان على العتبة، لا أستطيع نكران هذا، كان يتلصص من ثقب المفتاح إذا جاز التعبير - لكنه كان ثملاً، ولو صحا من ثمالة في صباح اليوم التالي، لأبعد كل ذلك من دون شك باعتبار هراء كبير أكبر الأهرامات. فهو خيرٌ مختصّ وليس مبدعاً لقصص الخيال العلمي!
- هذا هو السبب تحديداً. رأيت أننا لا ينبغي أن نعرض أنفسنا إلى أيّ مخاطر. تصوّر لو أخذ نفسه على محمل الجدّ وامتلأ ما يمتلكه ابنه من روح المثابرة. لم تكن لديه شهرة كبيرة ليخسرها في مجال علم الفلك، لعلّه كان مستعداً للمقاومة بكلّ ما يملك في نقطة التحوّل تلك من حياته. والقشة الأخيرة التي تتمسك بها هي إيمان الناس؛ في اللحظة التي يصبح فيها وجودنا مسألة علم، لن يعتمدوا علينا إطلاقاً، سيرفعون أكتافهم ويقولون: «وماذا يعني؟»، أضف إلى ذلك أنهم يصبحون دائماً على درجة كبيرة من الخطورة عندما يكتشفون أنواعاً أخرى من المخلوقات، أو ما يظنون أنها أنواعٌ أخرى من المخلوقات. عندما اكتشفوا الهنود

الحر، تحمّسوا لهم حماساً شديداً لفترة من الزمن، لكنّهم بعد ذلك لم يعودوا يكثرثون بهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم. أو فكّر في ما يفعلونه بالحيوانات حتى يومنا الحالي!

- توقف. لقد أوشكوا على الوصول إلى مرحلة «وماذا يعني؟» في كل الأحوال. وإنهم مشغولون أيضاً في إبادتنا منذ فترة طويلة، دون علم منهم - تقريباً منذ فترة إبادة الهنود الحمر. ألم تشبّه إطلاقاً بأن يضعك ديلوس أمام مفاجأة من هذا النوع ذات يوم؟

- طبعاً. ففي آخر الأمر كان يجب أن يكون هو تحديداً والد وكيلنا، وإذا أخذنا قوانين الوراثة بعين الاعتبار، فمن البديهي أنه هو أيضاً يملك مواهب استثنائية. إنه يدين بهذا لابنه بمعنى أو بآخر.

- انتصار «العلّة الغائية» على «العلّة الفاعلة».

- يمكنك التعبير بهذه الطريقة أيضاً، رغم أنه قد لا يكون بمقدور الجميع فهمها على الفور. يضاف إلى ذلك أنّ موته كان ضرورياً لإخراج رجلنا أخيراً من هولندا. ولذلك أيضاً كان لا بدّ من ذلك الدمار كلّّه.

- أجل، هولندا دولة استثنائية، ولكن هذا يكفي وفي في لحظة معينة، حتى بغض النظر عن مبعوثنا. أتساءل في بعض الأحيان هل هي فعلاً جزء من الواقع؟ في العام البشري 1580 نشر المدعو يوهانس غورويوس كتاباً يبيّن فيه أنّ آدم وحواء كانا يتحدثان الهولندية في جنة عدن - والحق أنّ هولندا مثال الفردوس على الأرض، كلّ دولة تتمنى أن تكون مثلها، مسالمة جداً، ديمقراطية جداً، متسامحة، مزدهرة ومنظمة، ولكن أيضاً متماثلة جداً، ريفية ومملّة - وإن بدا أنّ هذا يتغيّر بعض الشيء في السنوات الأخيرة.

- فكّر على سبيل المثال في ما حدث لأونو كويست.

- إنني أفكّر على الدوام في كلّ شيء في الوقت نفسه يا صديقي العزيز. أفكّر الآن على سبيل المثال في حقيقة أنك أنت الذي جعلت ذلك يحدث له بطبيعة الحال. حتى إنني أشبّه في أنك خلقت ذلك الجوّ الفاسد في أمستردام حيث صار من الممكن أن تتعرّض عزيزته هيلخا لما تعرّضت إليه.

- بعد قليل سترى الضرورة التي استدعت ذلك. لم أكن أتدخل إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحّة. إنني أتعامل مع مصادرٍ بأكبر قدر ممكن من التقشّف، ولكن يجب عليّ العمل مع ذلك المطّاط القاسي الذي صنّع منه البشر. لو كنا بقينا على عادتنا في توجيه الكلام إليهم،

لكان كل شيء أبسط قليلاً - لكنك تطرقت إلى هذا من قبل: منذ أن أقنع أولئك الحالمون أنفسهم بأن ما يسمعون لا يأتي من فوق بل من أعماق أنفسهم، توقفنا عن فعل ذلك.

- رغماً عن أنوفنا.

- لقد ذكرت «العلّة الغائية» للتوّ. نحن أيضاً انطلقنا بطبيعة الحال من أبسط طريقة من الناحية النظرية نستطيع بها بلوغ غايتنا. أي أن يذهب رجلنا إلى المكان الذي أردنا أن يكون فيه وأن يفعل ما أردنا أن يفعله. ولكن عند مراجعة الحسابات، كانت تظهر دائماً عوائق جديدة أكثر فأكثر، تجعل الوصول إلى تلك الغاية أصعب فأصعب - إلى أن وجدنا، بشكلٍ مرتجل، الطريق المعقّد للعلل الفاعلة، الذي تبيّن أنه الطريق الوحيد الممكن. لم يكن ذلك بالإجمال معقّداً تعقيد الجهود التي بذلناها من أجل إدخاله في الروح والجسد، ولكن مع ذلك كان معقّداً بما فيه الكفاية. في الفرع عندي نقارنه في بعض الأحيان بجريان النهر. أبسط طريقة بالنسبة إلى نهر الراين للسير من منبعه في جبال الألب إلى بلدة هوك فان هولاند، هي طبعاً خطّ مستقيم طوله نحو سبعمئة كيلومتر؛ لكنّه في الواقع أطول بمرّتين، لأنّ الطبيعة تجبره على أن يكون أطول. بهذه الطريقة نفسها كان طريق رجلنا عبر الطبيعة الإنسانية غرباً ومتعرّجاً، وقاسياً إلى حدّ بعيد بين حينٍ وآخر، مثلما هو الوضع تماماً في مدينة شافهاوزن على سبيل المثال؛ لكنك - بغية تغيير الصورة المجازية - لا تستطيع أن تعيّن شخصاً في النجارة وتمنع في الوقت نفسه قطع الأشجار. مهلاً، لن نعود إلى الخوض في المحادثة نفسها، على ما أمل؟

- ستُخاض المحادثة نفسها دائماً وأبداً عن ضرورة الشرّ في العالم - معضلة الثيوديسيا العويصة، التي تحاول البشرية حلّها منذ قرون دون طائل. ولكن نعم، القمع يجب أن يُدقّ بالمخباط، حتى يستطيع التحوّل إلى خبزٍ مقدّس.

- في الوقت الحالي يحدث هذا بالحصّادات أيضاً. إنها آلات عملاقة، يبلغ عرضها سبعة أمتار في بعض الأحيان، بمحرّكات ديزل سداسية الأسطوانات، تزحف عبر الحقول مثل جنادب ما قبل التاريخ. في الجهة الأمامية تبتلع هذه الآلات السنابل، ثم تُفصل الحبوب منها في أسطوانة الدرس الآخذة في الدوران؛ بعد ذلك يقوم مضغط بفصل الهشيم عن الحب باستخدام هواء مضغوط. بهذه الطريقة أيضاً تسير الأمور على خير ما يرام.

- ها أنت ذا تقول. ولكن هذه الآلة تحديداً تمثل أكبر الشرور وأشدّها تطرّفاً. هذا الشرّ التقنيّ اللوسيفري لا يُوضع في خدمة «الحاكم» المتفائلة في أفضل العوالم الممكنة، مثل

الدمار القدري الذي يجب أن تُحْدِثه أنت، لكنّه يتغذّى عليها، يلتهمها ويأخذ مكانها، مثل فيروس يستولي على حكم النواة في خلية: إطاحة مأكرة، انقلاب مشين. سرطان! قتل ملك! - لا تتفعل إلى هذا الحدّ طوال الوقت. هكذا هي الأمور. لقد قصّرنا من هذه الناحية، استهناً بالقدرات البشرية، بقوة عقل الإنسان وضعف جسمه على حدّ سواء، ومن ثم بسهولة تأثره بالوساوس الشيطانية - لكنّه في نهاية الأمر مخلوقنا، وما استهنا به هو إبداعنا في الواقع. لقد تبيّن أنّ ما صنعناه هو أكثر مما اعتقدنا أننا صنعناه. في آخر الأمر، ما يكمن في فشلنا هو إذاً إطرء لنا: إبداعنا أكبر منا نحن أنفسنا!

- يبدو أنّ نفاؤك أيضاً راسخٌ لا يتزعزع، شأنك في هذا شأن لايبنتز^(*). ما يبدو واضحاً في نهاية الأمر رغم مهارتك كلّها هو أنك بوهيميّ غير مسؤول، مستهتر مبدع، بفكر: فليبارك الربُّ الصيد! ولكن لعلّك تتساءل: أليس نور «الحاكم» المنعكس تحديداً هو الذي يجعل إبداعنا أكبر من أنفسنا؟!

- حقّاً! ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فيعني هذا أنّ فشلنا الناجح ليس مسؤوليتنا أيضاً، بل مسؤولية «الحاكم»، وبضمن ذلك قابلية الإنسان للتأثر بالشیطان ومن ثم زوال «الحاكم» نفسه، على النحو الذي وصفته لي بمتهى الفصاحة قبل قليل، سيكون إذاً قد حفر مع البشرية قبره بنفسه.

- هذ الحوار بدأ يأخذ منحىً لا يعجبني على الإطلاق. أمل بكلّ صدق ألا يكون قربك من الجنس البشري ومناوراتك في الشرّ قد جعلتك أقرب إلى الشيطان - لوسيفر.

- لو كان الأمر هكذا لما بذلت تلك الجهود كلّها. ولكن إذا أردت أن أكون في غاية الصدق: إنني متعاطف معه بعض الشيء. إنه في نهاية الأمر مسكين أيضاً، ليس بوسعه أن يكون غير نفسه. الحقيقة هي أننا نلعب بالأبيض، وليلعب هو بالأسود. لو أنّ هناك أحداً محكومٌ عليه بالجحيم إلى الأبد، فهو هو.

- لن يفضّل على هذا شيئاً آخر!

- أجل، هذا أيضاً. هذا جحيمه في الجحيم.

(*) Gottfried Wilhelm Leibniz (1646-1716): فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات من الجنسية الألمانية، يشغل موقعاَ هاماً في تاريخ الرياضيات وتاريخ الفلسفة، والإشارة هنا إلى فلسفته في التناؤل، إذ قال إنّ كوننا هذا هو "أفضل العوالم الممكنة"، وإنّ "الله يختار الأفضل دوماً". [م]

- هيا! كما لو أنّ أحداً على وجه الأرض سيّدعي بأنه، هو الذي لا أريد ذكر اسمه، مسكين أيضاً وأنه هو نفسه أدعى ضحاياه إلى الشفقة في واقع الأمر.
- ليس من حقّ الناس أن يدّعوا مثل هذه الادّعاءات، هم آخر من يحقّ لهم هذا.
- يسعدني أن تقول هذا، لأنّ منصبك تعلق فجأةً بشعرة رفيعة.
- شعرت بأنّ هناك شيئاً من هذا القبيل.
- دعنا نترك الموضوع عند هذا الحدّ، قبل أن يخرج عن نطاق السيطرة. إنه من المحزن بطبيعة الحال أن تبلغ الأحداث هذا المبلغ، لكنني في الوقت نفسه أتلهّف لسماع كيف استطعت تدبّر الأمر في النهاية. وإِصل، إنني أستمع!

51. الجدار الذهبي

من أجل جعل الحدث المقرّر ممكناً، كان من الضروري تهدئة خاطر أونو كويست بعض الشيء بعد تلك السنوات كلّها من الوحدة - لهذا السبب أيضاً أرسلت إليه غراباً صغيراً تائهاً من الهضاب. في نحو ساعة الظهر من يوم مشمس، حطّ في نافذة السطح المفتوحة بصورة مفاجئة، هزّ ريشه، ضمّ جناحيه، دار حول محوره دورة واحدة، وسار ببطء إلى الداخل وكأنه هو أيضاً يعيش هناك.

رفع أونو عينيه عن ملاحظاته بانشداه. سأله: «ماذا تفعل هنا؟».

لأنه لم يكن قد قال أيّ شيء طوال الصباح، فقد تنحج قليلاً.

ثبّت الغراب إحدى عينيه عليه ونعق.

فردّد أونو: «كراس؟ نعم، أنت تتحدّث اللاتينية طبعاً. غداً؟ ماذا هناك غداً؟».

وثب الطائر من حافة النافذة إلى فوق الطاولة، حرّك ريش ذيله بضع مرّات بين الأوراق المبعثرة، أسقط بعض الذرق، ثم شقّ طريقه صوب طبق محتوٍ على بعض من فتات الخبز. التهمها بنقرات صاخبة من منقاره، الأسود المائل إلى الزرقة مثل مداد الأقلام، وعاود النظر إلى أونو، كأنما يريد معرفة ما إن كان هذا كلّ شيء. بعد أن أكل حدّ التخمّة، وثب إلى حافة النافذة، بسط جناحيه واختفى عن الأنظار - لكنّه عاد في ظهر اليوم التالي، في الساعة نفسها.

هكذا بدأ شيء شبيه بالصدّاقة. لم يسبق أن كان أونو على أيّ صلة مع الحيوانات؛ لم تكن موجودة في عالم أفكاره، لطالما اعتقد بحكم تربيته أنها تفتقر إلى الروح، لكن ما إن مضت بضعة أيام حتى وجد نفسه يشعر بالقلق عندما يتأخّر الطائر في المجيء. مع أنه لم يعد يلبس ساعة يد منذ رحيله من هولندا، فإنّه يعرف الوقت دوماً بفضل أجراس الكنيسة. عندما لم يأت

الغراب ذات يوم، لم يعد يقدر على التركيز، أخذ ينظر بأسى إلى الطبق المحتوي على طعام الطيور المتروك على حاله، وينحني إلى الخارج كل عشر دقائق لبحث عنه في السماء.

قال له في اليوم التالي هازأً سبأته على سبيل العتاب: «هذا ليس بالأسلوب الذي تعامل به الناس يا إدغار، حتى وإن كنت طائراً. فأنت لا تترك مستضيفك ينتظر بك بالطعام من دون جدوى. أرجو ألا يحدث هذا مرةً أخرى!».

بينما يتجول ضيفه الأسود سواد الليل في الغرفة، فوق الكراسي، بين الكراكيب تحت السرير، لم يتوقف عن النعيق والنعيب، وحدث انطباع لدى أونو بأنه يبقى فترة أطول عندما يسهب هو نفسه بالكلام. منذ ذلك الحين جعل من عاداته التحدث في حضوره. في البدء وجد صعوبة في ذلك، فهو لم يقل أي شيء منذ أربع سنوات، باستثناء بضع كلمات في دكان، أو مطعم، أو في مصرفه. لكن الإنسان لا ينسى الكلام، مثلما لا ينسى قيادة الدراجة الهوائية أو السباحة، ويمكنه هو بالذات أن ينسى قيادة الدراجة أكثر منه من نسيان الكلام، أما السباحة فهو لا يعرفها.

- لا بد أنك تتساءل يا إدغار ما الذي أفعله هنا طوال الوقت. سأقول لك. إنني أعد رسالة إلى والدي، لكنّها رسالة من نوع غريب بعض الشيء، لأنني حتى ولو كتبتها على الورق، لن يكون بوسعي إرسالها. كتب كافكا رسالة إلى والده هو أيضاً، فقد قرأها لي ماكس ذات مرة في الماضي، في الأيام البريئة البعيدة. لكن المسكين الإمبراطوري الملكي فرانز جوزيف لم تتوفّر لديه الجرأة قطّ على إرسالها. مشكلتي على درجة أكبر من الجدية، إذ ما هو عنوان إنسان ميت؟ لعلّك تعرفه، باعتبارك طائراً أسود اللون؛ يؤسفني حقاً أنك لا تستطيع قوله لي. لكنني أريد فعل هذا، لا شيء إلا لأنه عبث. بما أنّ كل شيء عبث في نهاية الأمر، الحياة بأسرها والعالم بأسرها، فإنّ العبث وحده ينطوي بالمقابل على نوع من المعنى. هل تستطيع فهم هذا؟ إذا كان كلّ شيء عبثاً، فلا يعود العبث وحده عبثاً في ذلك العبث! صحيح أم لا؟ هل سمعت بكامو؟ كان فيلسوف العبث ولقي مصرعه في حادث سيارة عبثي. رأى العديد من الناس أنّ مصرعه برهان على أطروحته بأنّ كلّ شيء عبث. ولكن بالنسبة إلى فيلسوف العبث، فإنّ الموت العبثي كان نهاية زاخرة بالمعنى إلى أقصى الحدود! أمعن النظر في هذا! كل شيء أكثر عبثية مما كان يظن. والآن لا بد أنك متلهّف أيضاً لمعرفة ما أريد قوله على سبيل العبث لوالدي الميت. إنه عن طبيعة السلطة. فكّرت في السنوات الأخيرة في بضعة أشياء، أريد سماع حكمه المستحيل فيها. إنه أمر أعسر إلى حدّ كبير، ولكن في المجال السياسي يجب

ألا تترجم «أعسر» بـ«اليسار»، وإنما بـ«اليمن»، فتحصل بهذا على الأيمن. الاختلاف الآخر مع كافكا هو أنني غير قادر على تنظيم أفكارى. إنها ليست متسلسلة بعضها خلف بعض، بل مختلطة بعضها بجانب بعض. في الماضي كنت عندما أكتب مقالاً أو خطاباً، علمياً أو سياسياً، تبدو أفكارى وكأنها مرقمة بطريقة أو بأخرى على الدوام، فأعرف على الفور ترتيب الجمل. لكنني فقدت تلك القدرة النفيسة. الآن يراودني الشعور بأنني يجب أن أحلّ أحجية تركيب صورة مقطّعة يبلغ حجمها حجم الغرفة، بينما كلّ القطع بيضاء بالقدر نفسه - أو بالأحرى، سوداء مثل سوادك يا إدغار. انظر إلى تلك الأوراق هناك. آلاف الملاحظات. ملاحظات شخصية جداً عن كووس ودوروس وبارت بورك، ولكن أيضاً ملاحظات عامة جداً، عن مسألة كيف أنّ السلطة ممكنة وما أدراني أيّ أشياء أخرى. هذا الجبل يزداد في الارتفاع كلّ يوم، ولكن هل تظن أنني أقترّب بهذه الطريقة من هدفي؟ إنني أبتعد عنه مع كلّ ملاحظة! هذه الأشياء لها طابع شجرة، تتفرّع من دون توقّف، تُبرعم، تزداد في النمو، في حين يجب عليّ العثور تحديداً على الجذع وعلى المكان الذي تخرج منه من الأرض. كلّما أردت أن أبدأ رسالتي، اضطررت في أول الأمر إلى قراءة تلك الملاحظات كلّها من جديد، كي أستطيع الانطلاق، لكن ذلك لا يؤدّي إلى أول جملة قطّ، بل إلى ملاحظات جديدة. لقد صار الكثير منها غير مقروء بمرور الوقت - لأنها كانت موضوعة في الشمس، أو لأنّ القهوة أو الكولا اندلقت عليها، أو لأنها التصقت بعضها مع بعض بالمرتبى، أو لأنك ذرقت عليها فضلاتك المصفّاة، البالغة من البياض ما تبلغه أنت من السواد. لا وأخذك على ذلك، لا تخجل، هذه هي الطبيعة!

*

انقلب الحال بعد مضيّ بضعة أسابيع: لم يعد إدغار يأتي لزيارته مرّة في اليوم، لكنّه صار يغادر البيت بين حينٍ وآخر. تحوّل من ضيف إلى مقيم، ينام على العموم في أحد أركان الغرفة بين الملابس الموضوعة على الأرض. في المرّة الأولى التي قفز فيها الطائر الأليف مرفرفاً بجناحيه على كتف أونو، وتمسّك بصيوان أذنه بمنقاره، أراد في ردّ فعل أوّلّي أن يبعده عن نفسه، لكنّه سرّاً بأنه لم يفعل ذلك، لأنه لم يكن ليحدث مرّة ثانية بطبيعة الحال. صار إدغار يسمع كلّ يوم أجزاء من ملاحظاته، مرّة هذه، ومرّة تلك - وباغت أونو شعور بأنّ قراءتها بصوت عالٍ بدأت تقربه من حبكة، لذلك استطاع البدء في تصنيفها وتنظيمها.

قال وهو جالس إلى طاولته، واضعاً نظارة القراءة على أنفه: «أنصت إليّ! خذ هذا، إنه في غاية الأهمية. لعل أطروحتي الأبوية يجب أن تبدأ به:

الجدار الذهبي هو العنوان. أمام الجدار الذهبي يسود هرجٌ ومرجٌ ارتجاليّ، هناك يتزاحم الشعب في فوضى الحياة اليومية الصاخبة، وأما أنّ الأمور لا تخرج عن السيطرة فيعود الفضل فيه إلى العالم الموجود خلف الجدار الذهبي. هناك يقع عالم السلطة، مثل عين الإعصار، في صمت مكتنف بالألغاز، رابط الجأش، موضع الثقة، منظم تنظيم رقعة الشطرنج: نوعٌ من عالم مصفّى من الأفكار الأفلاطونية. على الأقل هذا ما يتصوره عديمو السلطة أمام الجدار الذهبي عن ذلك العالم. تؤكّده البدلات الداكنة، سيارات الليموزين منعدمة الضجيج، الحراسة، المراسم الرسمية، التنظيم المثالي، الراحة المخملية في القصور والوزارات. ولكنّ الشخص الذي كان في الواقع خلف الجدار الذهبي، مثلي ومثلك، يعرف أنّ هذا ليس سوى مظهر زائف، وأنه يسود في مركز القرار من الهرج والمرج المرتجلين ما يسود أمامه، في بيوت الناس، في الجامعة، في المستشفيات أو في الشركات. لم يحدث أن اتضحت لي هذه الصورة مثلاً اتضحت لي في متحف الآثار في القاهرة. عندما كنت الوزير المفوض، أخذني زميلي المصري في جولة سياحية إلى المتحف. شاهدنا الكنوز من مقبرة توت عنخ آمون، تلك الأشياء الرائعة كلّها المعروضة هناك على سبيل التوقير. ولكن كانت قد علّقت أيضاً بضع صور كبيرة عن الحالة التي اكتُشف فيها المدفن. الأشياء كلّها مكومة بعضها فوق بعض، مثل نفايات قديمة في علّة بيت، وتلك الفوضى لم يتسبّب فيها اللصوص فحسب. كذلك الأضرحة الخشبية، التي تضمّنت التابوت الحجري، كانت مرّجة بخشونة وبشكلٍ خاطئ؛ لم يكن الغطاء الغرائتي متطابقاً مع التابوت، وكان قد انكسر من النصف أثناء إنزاله. هذه الصورة نفسها كانت تُوضحها تلك البقايا البشرية البائسة، التي ظهرت من خلف قناع الفرعون الذهبي الرائع روعة لا توصف. يعلم السياسيون كلّهم، والعديد من الموظفين الحكوميين وبعض الصحفيين، أنّ ما يحدث خلف الجدار الذهبي يبلغ من الرثاثة الباعثة على الشفقة ما يبلغه أمام الجدار، ولكن لا أحد تقريباً من المواطنين عديمي السلطة يعرف هذا. لو حدث أن اكتشف شخص كيف تُصنع السياسة -وهو أمرٌ شبه مستحيل- للازمه شعورٌ أساسي بعدم الأمان طوال ما تبقى من حياته. حقيقة أنّ الأمور لا تخرج عن السيطرة خلف الجدار الذهبي أيضاً، هي معجزة في ذاتها: إنها تدلّ على سلطة أعلى بكثير. إنها ليست مشكلة بالنسبة إليك، إنها الربّ بالنسبة إليك. أما بالنسبة إليّ فمن المؤسف أنه حتى تأدية المجتمع لوظائفه ليست

دليلاً على وجود الرب. كيف أمكن إذاً أن يؤدّي وظيفته حتى الآن؟ لن تصدّق، لكنني أعرف. لقد أمكن ذلك بسبب وجود هذا الجدار الذهبي نفسه. إنه هو نفسه السلطة العليا. مهلاً. هنا المكان المناسب لذلك الاقتباس من شكسبير، الذي تبدأ به إحدى سونيتاته. أين وضعته؟ ها هو ذا هنا: من أيّ سلطة أتيت بهذه السلطة الجبّارة؟ إنه عن الحب، لكن الجدار الذهبي يمتّ بصلة إلى الحب أيضاً. انظر ماذا لدينا هنا: ما هي طبيعة الجدار الذهبي؟ عديمو السلطة يعتقدون أنه يتكوّن من الجلالة المجمّدة لأصحاب السلطة، الذين يكونون في بعض الحالات موضع التبجيل حتى: المخلّص، الملك، القائد. لكنّه في الواقع ليس نتاج أصحاب السلطة بل نتاج عديمي السلطة أنفسهم، فهو تبلور لتبجيلهم، ومهابتهم، وخوفهم. ولكن إذا كان عديمو السلطة لا ييجّلون في الحقيقة سوى تبجيلهم الخاص، لا يهابون سوى مهابتهم الخاصة، ولا يخافون سوى من خوفهم الخاص، فيُعدّون لهذا السبب في الوقت نفسه عن السلطة، فما الذي يتبقّى إذاً لأصحاب السلطة؟ ماذا يشكّلون إذاً؟ لو اخترق أحدُ الجدار الذهبي، فماذا سيري عندئذٍ؟ ليس شيئاً مميّزاً. أعمالاً يقوم بها أناس عاديون، ليست أكثر تشويقاً ولا تختلف في طبيعتها عن أعمال الناس عديمي السلطة. إنهم لا يمارسون السلطة بطريقة «جبّارة» قاهرة، رياضياتية إذا جاز التعبير، كما يظن عديمو السلطة، بل بطريقة فوضوية وارتجالية، مثل أيّ شخص عديم السلطة يتدبّر شؤونه. قام دوروس وفرانس بتشكيل الحكومة وهما يتناولان الطعام، قسّم تشرشل وستالين البلقان وهما يحتسيان الشراب. ومع ذلك.. لا بدّ أنهم يملكون شيئاً إضافياً، يراه عديمو السلطة فيهم، إذ لا يستطيع كلّ من حظي بالسلطة أن يخترق الجدار. هذا يعني يا إدغار أنّ تلك «السلطة الجبّارة» التي اتسمت بها سيّدة شكسبير السمراء لم تكن سميتها الشخصية بمعنى أو بآخر، لأنها لم تكن تمتلكها على كلّ الرجال. لذلك فإن جوابها عن سؤاله، من أين أتت بها، لا بدّ أن يكون: «منك أنت يا بيلي». لقد أعطاهها هذه السلطة لتمارسها عليه - رغم.. نعم، ها أنذا أقولها مرة أخرى: رغم.. ومع ذلك.. من أي شيء يتكوّن ذلك الشيء الإضافي؟ ليس من الذكاء، فقد كان هناك أغبياء غباء لا يُوصف في السلطة في الأزمنة والأمكنة كلّها؛ كذلك هناك دائماً أناسٌ فائقو الذكاء لا يصلون إلى السلطة إطلاقاً، حتى ولو كانوا يريدون، رغم ذكائهم، الوصول إليها. هذا الشيء الإضافي ليس «الرغبة في السلطة» أيضاً، لأنّ هناك أناساً لا حصر لهم يرغبون فيها ولن يستطيعوا الوصول إليها قطّ، مثلما هناك أناس يصلون إلى السلطة ولم يرغبوا فيها قطّ، لكنهم دُفعوا إليها دفعاً، ما أدهشهم هم أنفسهم دهشة عظيمة. لعلّك تقول إنها الغريزة السياسية: ولكنّ هناك الكثير من

الناس ممن يملكون الغريزة السياسية، ولا يبلغون أكثر من عضوية مجلس في بلدية في الريف. أهي «الكاريزما» إذًا؟ إنها مجرد كلمة يونانية تعني «هبة»، «نعمة»: إنك لا تجيب بها عن السؤال بل تطرح السؤال. لا، هناك شيء في الموضوع لا يعرفه أحد سواي. ولكن دعني أكتب هذا أولاً، قبل أن أنساه: المجتمع بأسره متشبع مثل الإسفنج بطبيعة الحال بأشكال متنوعة من السلطة، بين الرجل والمرأة، في التعليم، في مجالات العمل، حيال الحيوانات، ليس هناك مكان خالٍ من السلطة - ولكن ما هي السلطة السياسية؟ السلطة السياسية هي أن يستطيع شخصٌ تحقيق أشياء لا يعرف عنها شيئاً؛ إنه في وضع يستطيع فيه أن يقرر مصير الناس الذين لا يعرفهم، حتى في الأمور المتعلقة بالحياة والموت في بعض الأحيان، وليس نادراً بعد موته أيضاً. عديمو السلطة يرون صاحب السلطة، أما صاحب السلطة فلا يراهم. هذا لا يسري على القياصرة، نابليون، أو هتلر، أو ستالين فحسب، وإنما على حكامنا الهولنديين والمهذبين أيضاً، على كورس ودوروس، عليك بطبيعة الحال، وعليّ بعض الشيء أيضاً في وقت من الأوقات. لا أعرف كيف الوضع عند الغربان، ولكن هذا هو الوضع عند البشر على كلّ حال. السلطة السياسية شيء مجرد، لا يصبح ملموساً إلا عندما يخرج من نطاق رؤية صاحب السلطة. ولكن ما هو الشيء الإضافي الذي يجعلهم موجودين في السلطة؟ ما هو العامل المشترك بين دوروس وهتلر؟ بين كورس وستالين؟ سأفضي لك بسرّاً ستصاب منه بالذهول. في الأيام التي كنت فيها في السلطة، تناولت العشاء في إحدى المرات في قصر الإليزيه؛ كان يجلس قبالي بروفيسور فرنسي في علم الاجتماع. بعدما ألقى جيسكار ديستان خطبة على المائدة، أخبرني بأنّ بضعة من طلابه علّقوا أثناء الحملة الانتخابية ملصقات بصورتي جيسكار وميتران في قرية من القرى الزراعية المتخلّفة في تايلاند. لم يكن الناس قد سمعوا بهما إطلاقاً ولم يكن أحد يستطيع قراءة المكتوب على تلك اللافتات. في يوم الانتخابات الرئاسية جعلوهم يدلون بأصواتهم، وماذا تظن؟ كانت النتيجة متطابقة تمام التطابق مع النتيجة في فرنسا. ضحكنا حينذاك من هذا الأمر، اعتبره البروفيسور مزحة ظريفة ولا أعتقد أنّ الجرأة وافته ذات يوم على استنتاج عاقبته الفظيعة؛ لكنّه ورد إلى ذهني بصورة مفاجئة، عندما أدركت أنا نفسي كيف تعمل السلطة. استمع إلى هذا: عندما كنت صبيّاً، كنت أوحد بين السلطة والملكية. كانت كتيبي ملكي أنا، ولكن بدرجة أعلى ملكك، وبدرجة أعلى قليلاً ملك عمدة البلدية؛ بعد ذلك أصبح كلّ شيء ملكك للمرة الثانية، عندما صرت رئيس الوزراء، ولكن كل شيء في هولندا كان ملكاً للملكة في نهاية الأمر. عندما كنتُ عضواً في

المجلس البلدي ظننت أن السلطة السياسية لا تعدو أن تكون سلطة الكلمة. من كان لديه أفضل الأفكار ويستطيع أن يعبر عنها بأبلغ تعبير، كان يملك السلطة الكبرى. الآن أعلم أن الأمر لا يتعلق بالأفكار والكلمات إلا في المقام الثالث، ولا يتعلق بالشخص الذي يعبر عنها إلا في المقام الثاني. حتى هذا يجده معظم الناس شيئاً غير ديمقراطي حدّ الفظاعة، لكنه أسوأ بكثير. السلطة هي سلطة البدن. السلطة هي سلطة جسدية خالصة. لم يجرؤ أحد قط على مواجهة هذا الأمر. لا أحد يفوز بالسلطة بما يقوله، برنامجه السياسي شيء ثانوي، مثلما هو نفسه شيء ثانوي؛ يمكن لأحد آخر أن يأتي بالبرنامج نفسه ولا يحدث شيء. الشخص ينال السلطة لا لشيء إلا لأنه يملك البنية الجسدية لشخص ينال السلطة. عندما يقول شيئاً مختلفاً - شيئاً مناقضاً على سبيل المثال - في حزب آخر أو في حركة أخرى، سينال السلطة أيضاً. كنت ستكتسب السلطة على الدوام، يا والدي، حتى وإن كنت مع الكاثوليك أو مع الشيوعيين. صاحب السلطة شخصٌ يكتسب السلطة لأن جسمه ينطوي على سرٍّ يجعل الآخرين يقولون: «نعم، هذا رجلنا» - أو امرأتنا طبعاً. الشيء الإضافي ليس إلا هذا الشيء الوحيد: الجسد. أقصد أن السياسة ليست فرعاً من فروع الاقتصاد، مثلما ظنّ ماركس، أو من فروع اللاهوت، مثلما ظنّ والدي، أو من فروع علم الاجتماع، مثلما يظنّ أناس آخرون، بل فرع من فروع علم الأحياء. وهذا ما أثبتته علمياً أولئك الفلاحون الصغار في تايلاند. أكاد لا أقرأ الجرائد يا إدغار، لم أعد أعرف ماذا يحدث في العالم، ليس لديّ تلفزيون، ولا راديو ولا تلفون حتى - ولكن عندما أرى في كشك الصحف صورة مارغريت تاتشر، التي يبدو أنها مستلمة زمام الحكم في إنكلترا في الوقت الحاضر، أعرف في الحال: شهوانية داهية. كليبوترا برجوازية. إنها طبعاً ذكية وقوية وكل ما تريد، ولكن النساء الإنكليزيات الأخريات يتّسمن بهذه الصفات أيضاً، لكنهن لا يبلغن أبعد من رئاسة قسم المشتريات في متجر هارودز. كيف يحدث هذا؟ خذ هتلر مثلاً. وضح فرويد أنه لا ينبغي فهم المرض انطلاقاً من الصحة، وإنما الصحة انطلاقاً من المرض. وبهذه الطريقة نفسها لا ينبغي أن تحاول فهم سلطة هتلر الشمولية انطلاقاً من هياكل السلطة العادية على نحو أقل أو أكثر، لأنك عندئذ لن تستطيع فهمها إطلاقاً، ولكن يجب أن تحاول الطريقة المعاكسة. يمكنك تفسير مارغريت ودوروس عن طريق هتلر، ولكن لا يمكنك تفسير هتلر عن طريق مارغريت أو دوروس. تخيل لو أنّ هتلر لم يكن موجوداً ولكن شخصاً آخر قال وفعل، منذ ولادته في مدينة براوناو، ما قاله وفعله هتلر - وأناس من هذه الشاكلة كانوا موجودين - فهل تظن أن الأمور كانت ستسير مثلما سارت حتى النهاية المريعة؟

طبعاً لا! كم من الوقت كان ذلك الآخر سيقدر على الصمود؟ في أوائل العشرينيات كانت ستأتي لحظة معينة يوتّخه فيها روم أو شتراسر^(*): «أغلق فمك الكبير!»، لكنّه لم يكن شخصاً آخر، بل ذلك الرجل الداكن بذلك الوجه العظيم وتلك «النظرة الباسيليسكية»^(**) كما سمّاها توماس مان في إحدى المرات، بذلك الجبين الشاحب، الوجنتين المتطرفتين، الخدين الأملسين والشفّتين المزمومتين. كان لذلك المظهر أثرٌ بنسبة ثلاثٍ وثلاثين بالمئة، ولا يزال النازيون الجدد كلّهم مغرّمين به. قال سلفادور دالي أيضاً في إحدى المرات: «أحبّ ظهره». يمكنك طرح هذا على أنه ملاحظة سرّيالية من مجنون إسباني، لكنّه يدلّ أيضاً على إدراك بالمظهر الجسدي الذي يحدّد كلّ شيء. وما رأيك في ملاحظة هايدغر التي أبداها لياسبرس ذات مرّة، عندما تساءل الأخير كيف يمكن لشخص غير متحضّر مثل هتلر أن يحكم ألمانيا - فقال هايدغر: «الحضارة لا علاقة لها بالموضوع.. انظر إلى يديه الرائعتين!». إلى ذلك، كان له صوت ينفذ إلى أعماق كيائك، يجعل لكلّ ما يقوله وقعاً مختلفاً كل الاختلاف عمّا لو قاله شخص آخر. التأثير البلاغي لكلماته على الجماهير يمكنك نسبه بأريحية إلى ذلك الصوت بنسبة ثلاثٍ وثلاثين بالمئة الثانية. رأيت ذات مرّة في أحد الكتب صورة أشعة سينية مأخوذة لجمجمته، وقد كُتبت عنها ملاحظة بأنّ لديه جيوباً جبهية ضخمة ضخامة استثنائية، فيها رنينٌ غير عادي. أما نسبة الثلاث والثلاثين بالمئة الثالثة من سلطته فقد كانت متأتية من حركاته وسكناته منقطعة النظر؛ سوررات غضبه المروّعة خلف المنصّة من ناحية، وصمته الأشدّ ترويعاً ربما من ناحية أخرى. وجهه الشبيه بالقناع، الدقّة في وضعية وقوفه، الشدّة حتى في أصغر حركاته. الطريقة التي يلقي بها التحيّة العسكرية عند مرور استعراض عسكري، بذلك الانحناء البسيط في معصمه، ووضعية إبهامه، والطريقة التي يعيد بها يده إلى حزامه - كان لهذا كلّهُ قوّة ساحرة. كان قد تدربّ على كلّ شيء أمام المرأة طبعاً، إذ إنّ هناك صوراً تثبت ذلك. يتسم بعض قادة الفرق الموسيقية بهذه الصفة أيضاً، هذه السيطرة المطلقة، مثل الطائر الطنّان، الذي يحوم في سكون في الهواء ويبقي منقاره من دون حراك في مدقّة الزهرة. «زهرة الشرّ» في هذه الحالة. مهلاً، أنت لا تشعر بأنني أهملك عندما أذكر مثل هذا الطائر

(*) روم كان ضابطاً في الجيش الألماني الإمبراطوري ثم أصبح قائداً نازياً، وشراسر سياسي ألماني نازي بارز. [م]

(**) باسيليسك: زاحف أسطوري معروف بكونه ملك الثعابين، يتسبّب في موت مباشر لأولئك الذين ينظرون في عينيه. [م]

الصغير، أليس كذلك؟ على كل حال لديّ هنا شيء مناسب: استطاع هتلر من خلال انضباطه الجسدي الكامل إدخال أفكاره المتسمة بالفوضى الكاملة بالقدر نفسه إلى عقول الناس. وكان انضباطه الجسدي مستمراً في استعراضاته ومسيراته الفظيعة، التي يشرف عليها بنفسه والتي لم تكن سوى نُسخ من جسده. كان في الواقع فتان الحركة الإيقاعية، راقصاً، أستاذاً في باليه الموت. الحركات الإيقاعية في رقصات الموت الفاشية الكبيرة تلك، لم تنشأ من النزعة العسكرية البروسية بقدر ما نشأت من الحركة التعبيرية، من مسرح بيسكاتور، من باليه ماري ويغمان، معلّمة ليني ريفنستال التي وثقت المهرجان السنوي لحزبه النازي «رالي نورنبرغ» الساحر الفظيع في فيلمها الساحر الفظيع بالقدر نفسه «انتصار الإرادة». كان زواج الكلاسيكية والتعبيرية، زواج أبولو وديونيسوس: المأساة المحققة، حسب مفهوم نيتشه. لم يحدث قط، منذ وجود الجنس البشري، أن شهدت الفنون الجميلة سوء الاستخدام إلى هذا الحدّ ووضعت في خدمة الشرّ. كان هتلر نفسه هو «الفتان الخليع» الفعلي. ولم يكن تأثير هذه الإبداعات كلّها في نهاية الأمر تأثيراً جمالياً بل تأثيراً جنسياً، تماماً مثل تأثير هتلر نفسه. ما كان يريد قوله، ما كان يريد تحقيقه سياسياً، تلك الأشياء المخزية كلّها، لم تكن لها أهمية تزيد عن نسبة الواحد بالمئة المتبقية من سلطته. أما حقيقة أنّ ذلك كلّ قد حدث، أنّ ذلك كلّ قد نفّذه أناس ليسوا أسوأ من الناس الآخرين من حيث التربية، وأنّ ستة ملايين من اليهود ماتوا، وخمسين مليوناً من الآخرين، من بينهم ثمانية ملايين ممّن يهتفون له ويمشون في استعراض عسكري أمامه، فهي حقيقة متأتية من تلك النسبة الجسدية البالغة تسعاً وتسعين بالمئة. ذلك هو الشيء الإضافي المائل الذي امتلكه؛ جسده الفريد هو الذي جعل سلطته مطلقة. لهذا السبب أيضاً لا يمكن لأيّ ممثل أن يجسّد شخصه في فيلم؛ حتى إذا عُرض ظهره فقط، فسيكون شيئاً خاطئاً برمته. لعلّ هذا أفضل دليل على نظريتي. ولكنّ هذا المبعوث من العناية الإلهية أيضاً كان يجلس، وراء جداره الذهبي، غاطساً في مقعده الوثير المزهرّ، بالكعك والقهوة، ويمضي المساء وشطراً من الليل في ثرثرة لا حدود لها، كما نعرف من مذكرات مهندس المعماري، ألبرت شبير. وهذا كان بوسعه أن يعرف الوضع، لأنّ الجميع يعشق هتلر، أما هتلر فكان يعيش شبير - ربما أكثر مما يعشق إيفا براون. كان الشعب الألماني يعتقد أنّ هذا الإنسان الخارق العازم على الانتصار يعمل بلا كلل ولا ملل من أجل مصلحة الوطن، لكنّه لم يكن ينجز شيئاً تقريباً، ينام حتّى الظهر، ويتردّد إلى ما لا نهاية قبل أن يأخذ قراراً، الأمر الذي يزعج وزراءه وجنرالاته. ولكن في تلك الأثناء! يخبرنا شبير بأنّ هذا الرجل البوهيمي بدأ يكفهر في النصف

الثاني من سنوات الثلاثينيات؛ أثناء حفلات الاستقبال في منزله الريفي في جبال الألب، بدأ ينزل عن ضيوفه ويحدّق في الجبال من أحد أركان شرفته، فيناجي شبير نفسه: عسى ألا يتحوّل هذا إلى حرب. لك أن تتخيّل! اكفهرار مزاج فرد واحد يمكن أن يعني اندلاع حرب! والويل، لقد اندلعت الحرب. كيف يمكن أن يحدث هذا بحق السماء؟ السبب هو جسده يا إدغار، السبب هو ذلك الجسد الذي امتلكه مصادفة وليس أي شيء آخر. كان ظاهرة طبيعية. أصحاب السلطة كلّهم ظواهر طبيعية، وهم بهذا المعنى «أشخاص خارقون»، - ولكن هذا «الخارق» لا يكمن في أرواحهم بل في أجسادهم. ولا يمتّ بأي صلة إلى الجمال، يمكنك أن تكون قصير القامة وصاحب كرش مثل نابليون، أو نصف عاجز مثل كينيدي، أو ذا رأس مثل رأس دوروس؛ ولكن يجب أن يكون هذا «الخارق» موجوداً، رائحة الجسد تلك العصيّة على الوصف، وجميعهم كانوا يملكونه ولا يزالون يملكونه بدرجة أكثر أو أقل: ستالين أكثر من تروتسكي، ريغان أكثر من كارتر، ولك أن تحصيهم من كل البلدان والعصور، كلّ أولئك «السيدات السمرات» صاحبات السلطة. الناس يرغبون في لمسهم، في تحسّس جسدهم. أليس هذا شيئاً فظيعاً؟ تماماً مثلما يحدث مع زعماء الطوائف ومع الغاوين الآخرين كلّهم. والأفطع من هذا، هو أنه ليس هناك سبيلٌ آخر ويجب أن يكون على هذا النحو. لأنه، اسمع: السيادة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها محور الحياة نفسها. السلطة تُمارَس في كلّ خلية: يمارسها جزئيء الحمض النووي في النواة. إنه يحتوي على المادة الوراثية التي تمسك بزمام الأمور. منذ الخلية الحيّة الأولى، من خلال الجماعات الحيوانية إلى الدول الحالية، حافظت السلطة على طبيعتها الجسدية، لأنها لا تكون ممكنة إلا بهذه الطريقة: اللياقة الجسدية سلطة واللياقة السلطوية جسد. لهذا السبب كانت السلطة وراثية لفترة طويلة جداً. كان أول قائد في سلالة حاكمة يتسم بالحضور السلطوي الجسدي الذي اتسم به شخص مثل هتلر، أو ستالين، أو موسوليني، أو تشرشل، أو فيدل كاسترو أو نابليون؛ في ما بعد يكفي أن يكون لحماً من لحمه (هذا يسري على عائلتنا أيضاً على ذكر الحديث). في هولندا تُعلّق صورة الملكة في مكاتب الوزراء وعُمد البلديات وقاعات المحاكم كلّها، لكننا نعرف أنا وأنت صورة من معلقة في مكتب الملكة: صورة فيلم فان أورانيه. كان هؤلاء الأوائل كلّهم يُسمّون بـ «مولودين» قادة في العديد من اللغات. كانت الحروب على مرّ قرون عديدة حروب سلالات حاكمة، مثلما هو الحال عند المافيا، تُخاض من أجل مصالح العائلات الملكية، أي من أجل المظهر - تماماً مثلما تجد الحروب الجمهورية أصولها في مظهر الحكّام الجدد. في

الأماكن التي اختفت فيها العائلات الملكية، لم تحافظ على الاستمرارية سوى الخدمة المدنية، التي نشأت من البلاط الملكي والتي واصلت عملها دون انقطاع منذ بابل ومصر القديمة. الموظفون المدنيون خالدون، يقفون أطول من الفراعنة، والملوك، والرؤساء، ولكن الأمور لا تسير من دون قائد، فالموظفون من دون قيادة، مثل ملابس من دون إمبراطور. وهذا يمكن أن يكون مصير أوروبا الموحدة. وجود القائد في الساحة أهم من كفاءته، بوجود قائد يفتر إلى الكفاءة تسير الأمور على نحو سبي، ولكن من دون قائد يغرق كل شيء في عشوائية مجردة، سيخرج منها قائد جديد بحكم الضرورة - لأنّ هذا هو المبدأ الأساسي للحمض النووي، على الرغم من تفاؤل الفوضويين. على كلّ حال، لا يتحكّم هذا المبدأ بالحياة فحسب، وإنما بكلّ شيء موجود. فالخلية الحيّة الأولى تسبقها الذرة الأولى، التي تملك هي أيضاً نواة، تحتوي على كواركات وقوى نووية. كذلك النظام الشمسي يحتوي على نواة: الشمس المضيئة تمارس سيادتها على الكواكب الباهتة بقوتها الجاذبة. لا جدال في هذا يا إدغار. ولكن إذا كان هذا هو حالّ المادة الحية والجامدة على حدّ سواء، هذا ما يخطر في بالي الآن، حالّ كلّ شيء باختصار، فهل يجب أن نرى الانفجار العظيم على أنه «نواة» الكون يا تُرى؟ لقد تحدّثت مع ماكس عن هذا الموضوع في الماضي. ها أنذا أعود إلى الحديث عن ماكس - سأخبرك من يكون في وقت آخر. إنه غايو أيضاً على كلّ حال. والآن اسمع هذا: يسود «مبدأ الفوهرر» في كلّ مكان: يجب أن تكون هناك سلطة، حتى في المجتمعات الديمقراطية، وهذه السلطة لا يمكنها إلا أن تكون جسدية. هذا معروف في الدين منذ وقت طويل، وكان يوحنا أول من صاغه: «الكلمة صار جسداً». هل تعرف ما قاله يسوع المسيح؟ «خذوا، كُلوا. هذا هو جسدي». باللاتينية: «هوك إيسْت إنيْم كوربوس ميوم». إذا أكلته، فقد أكلت الربّ، وكان لك الخلاص: هذه القيادة العليا تذهب خطوة أبعد مما ذهبت إليه قيادة هتلر، ولكنّ المبدأ هو المبدأ نفسه. فكّر في جثامين القديسين التي يعبدها المؤمنون. ضرس مجوّفة للقديس بطرس في صندوق ذخائر مقدّسة ذهبيّ اللون! إظفر قدم للقديس بولس! جسد، جسد، جسد! ولكن السلطة لا تكون سلطة إلا بنعمة الجدار الذهبي. من أجل تعزيز الوكيل الممثل للمسيح العاري سلطته، كان عليه بصفته البابا، وهو متزيّن في حلّته الكاملة، أن ينسحب هو أيضاً في آخر الأمر إلى خلف الجدار الذهبي للفايتكان. وهنا تبدأ المشكلة، فالجدار الذهبي آيلٌ إلى السقوط لأول مرة في تاريخ البشرية. لقد أقامه عديمو السلطة ذات يوم، في بدء الأزمان، من مواد مكوّنة من تبجيلهم الخاص، ومهابتهم الخاصة، وخوفهم

الخاص، لكنّه ها هو ذا يُظهر تصدّعات مندرّة بالشّوم، مثل قلعة من قلاع القرون الوسطى، يستطيع الجميع من خلالها اختلاس النظر إلى الداخل. في زمانك كنت «معالي رئيس الوزراء، البروفيسور الدكتور هـ. ي. أ. كويست»، أما الآن فستكون هينك بالنسبة إلى الجميع - ما لم تكن بالنسبة إلينا حتى نحن أولادك، كتته بالنسبة إلى والدتنا فحسب. لأنّ عديمي السلطة يرون أنّ الفوضى تسود في صالات تلك القلعة مثلما تسود في كلّ مكان، فإنهم يفقدون ببالغ السرعة تبجيلهم لتبجيلهم الخاص، ومهابتهم من مهابتهم الخاصة، وخوفهم من خوفهم الخاص، فتتوّض في الوقت نفسه مهابة أصحاب السلطة وتدهور قوّة مظهرهم إلى المستوى الباعث على السخرية. وبهذا تضرب «فيوزات»^(٥) عديمي السلطة أنفسهم. ماذا يهّمنا بحقّ الجحيم؟! ما الذي يمنعنا من تحطيم ذلك الهاتف العمومي هناك؟ نعم، ولم لا؟ يمكنك الضحك. هل هناك شرطة في الجوار؟ لا، ولا في أيّ مكان. ولا في أنفسنا حتى. لذلك سوف ننسفه نفساً. هذا يروقنا. لماذا يروقنا؟ هكذا من دون سبب. ما السبب في حدوث هذا بصورة مفاجئة، بعد تلك الأيونات كلّها؟ لعلّه شيء يمتّ بصلة إلى التكنولوجيا، لا أدري؛ التكنولوجيا هي الشيء الوحيد الذي يتطوّر بالسرعة نفسها على كلّ حال. لا أفهم العلاقة بين هذين الأمرين، وما يحيرني هو أنّ ذلك الهاتف أيضاً جزءٌ من التكنولوجيا - ولكن إذا كان الوضع على هذا النحو، فيبدو المستقبل غير باعث على السرور. إذا استمرّ الوضع على هذا المنوال، فسوف يتهشم العقد الاجتماعي ويأخذ المجتمع بأسره بالتفتّت بصورة تدريجية، عندئذٍ سيبدأ كلّ شيء بالسقوط في فوضوية منعقدة النواة، ما يتعارض مع مبدأ الوجود النواتي. يضاف إلى ذلك أنه لم يعد هناك شخص تقريباً في الغرب يؤمن بإله منتقم، لن يطول الأمر في الشرق كذلك، وبعد خمسة وعشرين عاماً لن يكون هناك كلبٌ واحد يؤمن بالله أيضاً، عندما يصبح لدى الجميع هناك أيضاً ثلاثّة وسيّارة. كيف يمكن الحيلولة دون غزو الطغاة الفاشيين، الذين سيتعشّشون في النوى الفارغة مثل فيروسات سرطانية؟ لقد كتبت الجواب هنا يا إدغار. أكاد لا أجرؤ على قراءته بصوت عالٍ، وإنه لأمرٌ حسن ألا يراه والذي قطّ: عندما كنت صبيّاً - في الزمان الذي كان لا يزال زمانك - حدث في إحدى المرات أن تدحرجت كرسي فوق العشب في المنتزه. ولأنّ السير على العشب كان ممنوعاً، فقد انتظرت

(٥) الفيوز: سلك معدني ينصهر عندما يتجاوز التيار الكهربائي المارّ فيه القيمة المحدّدة، وتستخدم عبارة «ضربت فيوزات فلان» في العاميّة للقول بطريقة مجازية بأنّ الشخص المعني أصابه الخبل. [م]

على الأقل خمس دقائق إلى أن جاءت لحظةً معيّنة لم يعد يُلمح فيها أيّ شخص في الجوار؛ تجرأت عندئذٍ فحسب أن أضع قلب خافق من فوق السياج المنخفض، أمشي بضع خطوات على العشب وأقفز عائداً بِكرتي بأقصى ما أستطيع من سرعة. ذلك الحظر، ذلك القلب الخافق، هذا هو الموضوع. هل كنت أشعر بأنني مسلوب الحرية؟ لا، ولا في أدنى الحدود. ببساطة لم يكن من المسموح السير على العشب. لا أشعر في هذه اللحظة أيضاً بأنني مسلوب الحرية، لأنه لا يجوز لي أن أقتل أحداً. هذا غير جائز ببساطة. كيف يمكنك منع أن يقتل الجميع الجميع ذات يوم دون أن يخفق قلبه؟ كيف نجعل القلب يخفق من جديد؟ هذا لا يمكن أن يحدث إلا بفرض المهابة. أقول «المهابة» - ليس الخوف كنتاج من نتاجات نظام دكتاتوري أو آخر، المهابة لمجرد المهابة: جداراً ذهبياً جديداً إكراماً للجدار الذهبي. هذا لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة حكم استبدادي يمارسه طاغية متتور - بالتشديد على «متتور». شخص يعرف عنه الجميع أنه يضع مصلحة مواطنيه فوق كلّ اعتبار، ما يجعله في الوقت نفسه ديمقراطياً بصورة مطلقة. باختصار، شخص مثل بيريكليس^(*). ولكن كيف يمكنك إضفاء الطابع المؤسستاتي عليه؟ كيف يمكنك أن تعرف مسبقاً أنّ الطاغية متتور فعلاً؟ حتى أفلاطون كان يصارع مع هذه المشكلة، ولكن في غضون خمس وعشرين سنة يجب أن يكون انتقاؤه ممكناً بواسطة تحليل الحمض النووي - بطريقة مماثلة للطريقة التي يُبحث بها عن الدالاي لاما الجديد بين الأطفال المولودين حديثاً في القرى في التبت. السؤال هو: كيف نمضي هذه السنوات الخمس والعشرين الأخيرة دون حوادث؟ يخبرني حدسي بأنه ستكون هناك تغييرات جسيمة، تعقبها كوارث فظيعة. لن تكون تلك المؤسسة الديمقراطية في حاجة إلى تأدية وظيفتها لفترة طويلة على كلّ حال، ربما لقرن من الزمن؛ بعد ذلك، وعلى أساس الوصايا العشر، سوف يتجسّد الجميع وراثياً في إنسان معقول، وسوف يتكوّن نظام الحكم من شبكة كمبيوتر، يرأسه شخصٌ منغوليّ أو حجر بصفة «دومينوس موندي»^(**). كان الملك حاكماً بمباركة الربّ ذات مرّة، وستكون التكنولوجيا مجسّدة القدرة الإلهية المطلقة ذات مرّة. بحلول ذلك الوقت لن تُحطّم أيّ حجرة من حجرات الهاتف العمومي ولن يمشي أحدٌ على العشب، حتى ولو تدرجت كرتة هناك. في أغلب الظن، لن يلعب أحدٌ عندئذٍ بالكرة. أليس

(*) Pericles (429-495 ق. م): سياسيّ إغريقي وجنرال خلال العصر الذهبي لأثينا. [م]

(**) dominus mundi: عبارة لاتينية تعني سيّد العالم. [م]

هذا بالشيء الفظيع؟ إنه لأمرٌ حسن أن ابني لن يرى هذا أبداً. نعم يا إدغار، كان لي ابنٌ أيضاً. اسمه كويتن. يوسفني أنك لن تقابله إطلاقاً، سأخبرك عنه أيضاً ذات مرة. لكنني الآن أريد العمل على رسالتي. إنها ليست واضحة تماماً بعد، ولكن ما رأيك في أن أبدأ ببساطة: «والدي المبجل!».

قفز إدغار على كتفه بجناحين خافقين: «كراس. كراس».

52. الرحلة الإيطالية

بينما يسافر البابا بالطائرة إلى هولندا لأول مرة في 11 أيار عام 1985، كان القطار تحته، على الأرض، يسير بكوينتن صوب الجنوب. وكذلك تحت الأرض، عبر أنفاق جبال الألب، التي تكشفت وراءها إيطاليا مترامية الأطراف بصورة مفاجئة: زرقاء وخضراء ومنحدرة، مثل الوقت الذي كان يخرج فيه من الأقبية الباردة إلى الشمس الدافئة في الفناء الأمامي في خروت ريخترن. اصطحبته صوفيا إلى المحطة، وعانقته بوجه متحجر، لكنه لم يكذب يودعها حتى اختفت من باله؛ لم يقرأ في الطريق، لم ينم، لم يفعل شيئاً سوى النظر دون توقّف من النافذة، إلى تلك المدن والقرى التي لا تُعدّ ولا تُحصى في ألمانيا وسويسرا، التي يمكن أن يكون والده فيها. ولكن في ميلانو عندما أخذ يبحث وسط الازدحام على الأرصفة عن القطار التالي، اختفى هو أيضاً من ذهنه واستحوذ عليه تدريجياً شعورٌ محموم بالحرية، تحوّل إلى سعادة عارمة عندما سار فوق السكّة الحديدية المتصاعدة بالقرب من ميستري باتجاه البحر ورأى البندقية على المياه في البُعد - طيفاً أزرق غامضاً، كما لو أنّ السماء ارتفعت قليلاً عند خطّ الأفق وأظهرت لمحةً من عالم آخر من خلال ذلك الشقّ. أهو سراب؟ أيقوم الحصن هناك؟

عندما خرج من المحطة بحقيقته الظهر المصنوعة من النايلون الأزرق الرمادي، توقّف عن السير. هناك المئات من الشباب يجلسون في الشمس على الدرج العريض أمام المدخل وفي الساحة الأمامية، وتقوم كنيسةٌ بيضاء على الطرف الآخر، بينهما تبدو المياه في «القناة الكبرى» وكأنها تتحرّك بفعل ريشة طائر بيضاء، عملاقة، غير مرئية: كلّ شيء يتحرّك، كما لو أنّ الضوء نفسه يتماوج، يتطاير، ويتألق في الشمس، قوارب الغندول والقابوريثو والحافلات المائية تتمايل وتنادي في كلّ مكان، كلّ شيء يرغى مثل موجة متكسرة على الشاطئ. أحسّ في الوقت نفسه بأنّ العيون الموجهة إليه، وهو واقف هناك، تزيد عن تلك العيون التي كانت توجه إليه على الدوام في الوطن. ذهب إلى فندق بسيط في الجوار، في ضاحية الكاناريغيو الشعبية

الهامشية، حيث يذهب عددٌ قليل من السائحين. هناك حروفٌ عبرية منقوشة في القنطرة فوق باب المدخل، لم يعد بالإمكان تمييز معظمها. نافذته تطلّ على فناء صغير بمداخل وجصّ متقشّر، سريره يشغل الغرفة بأكملها تقريباً، والحمام يقوم في الممرّ، لكنّه ليس في حاجة إلى مزيد من المساحة: يستطيع الذهاب من أجلها إلى المدينة.

لم تكد تمضي بضعة أيام حتى بلغت هولندا من البُعد كما لو أنه لم يكن فيها على الإطلاق. جسد والدته في سريرها الأبيض، قبر ماكس الفارغ، والده المختفي، وكأنّ هذا كلّه لم يعد جزءاً من حياته. لم يختلط مع أحد، يتحدث مع الأشياء طوال اليوم، يتسكّع من الصباح حتى الليل في متاهة الحارات، القنوات، الجسور، البوابات المظلمة، الساحات الصامتة، يأكل تورتيليني هنا، وطبقاً من المعكرونة هناك، يدخل الكنائس والمتاحف ويخرج منها ويترك العنان لنفسه ليهيم على وجهه. عندما يستغرق به الأمر وقتاً طويلاً، يلقي نظرة على البوصلة الصغيرة المتدلّية من عنقه، وفي ذهنه خريطة البندقية: هاتان اليدان المضمومتان باسترخاء إحداهما في الأخرى، اللتان تفصل بينهما «القناة الكبرى». هذا الشكل الشبيه بالمتاهة يذكره بحلمه في بعض الأحيان، مثلما يذكره به غياب الأشجار والمزروعات والعجلات. كذلك اكتشف كنيسة وراء ساحة سان ماركو، سان مويسي^(٥)، غُطّيت واجهتها السوداء من الأسفل إلى الأعلى بطفح باروكي من التماثيل والزخارف؛ كان إذا ما وقف بالقرب منها وألقى رأسه إلى الورا، أمكنها أن تكون جزءاً من الحصن. يقوم في المذبح الرئيسي نصبٌ تذكاريّ خشن، يُدعى: «القديس موسى يستلم لوحي الشريعة على جبل سيناء».

ولكن ما عدا هذا كان حصنه، الذي لا يزال هو الشخص الوحيد الموجود فيه، أقرب إلى النقيض من البندقية. ليس بسبب تدفق الناس فحسب، الذين يتحرّكون على دروب النمل نفسها على الدوام والذين ينجح في تفاديهم على جناح السرعة، بل لأنها ليست جهةً داخلية دون جهة خارجية، بل جهة خارجية شبيهة بجهة داخلية. كان كلّما خرج من المتاهة عبر بوّابة أوزفاق ضيق إلى ساحة سان ماركو، أحسّ بوصوله مثل دقّة من دقّات الطبلّة. صالة الحفلات الضخمة تلك المكسوّة بالرخام، بالسما على السقف، التي رسمها تيبولو بالأزرق السماوي الحقيقي والسحب الشبيهة بالريش! كلّ ذلك الزخم من النور والحومان، سواء كان بيزنطياً أو

(٥) سان ماركو هو القديس مرقس، وسان مويسي هو النبي موسى. [م]

قوطياً أو من عصر النهضة، تلك الزخارف العربية المنقوشة في البازيليكا^(٥)، الخيول الأربعة التي سحبتها عبر القرون، قصر الدوجي^(٦) الوردى، الذي أكمل بناؤه للتوّ بالشرقة ذات المفاتيح، الدرازينات في هيئة لحي، الدعامات في هيئة قصبات، العيون المثقوبة القوطية البادية وكأنها حاملة المبنى الفعلي - عجب أن يوجد مثل هذا الشيء! وفي نهاية البيازيتا، الشبيهة ببوابة إلى الخارج العظيم، العالم الفسيح، ينتصب عمودان ضخمان من الغرانيت الأبيض والأحمر، على تاجيهما أسدٌ مجنّح وقديس شفيع على ظهر تمساح، بينهما كانت أحكام الإعدام تُنفَّذ على مدى قرون من الزمن. حتى المجرمون هنا كان يُسمح لهم أن يموتوا وسط الجمال: آخر ما يرونه المياه النابضة بالحياة في البحيرة - والكنيسة القائمة في الجزيرة الصغيرة على الطرف الآخر: كنيسة سان جورجيو ماجوري من تصميم بالاديو.

ها هي ذي تقوم هنا أخيراً، ليست في كتب السيّد ثيمات، ولكن في الشمس وهواء البحر الأدرياتيكي. الواجهة الرخامية البيضاء بالقوصرتين المتداخلتين إحداهما في الأخرى، بتناغم موسيقا الفوغا؛ وراءها صحن الكنيسة الخالي بحجر الآجر الأحمر، والقبة الرمادية عند نقطة التصلب. كذلك كان يستقلّ الفابوريتو ليشاهد كلّ شيء عن قرب ومن الداخل، يبحر عبر المكان الذي كان الدوجي يلقي فيه خاتماً في المياه كلّ سنة على مرّ قرون طويلة، ليختم بالبحر على زواجه. كيف يمكنه أن ينبهر إلى هذا الحدّ بالبندقية، مع أنّ هذه المدينة لا تمتّ بصلةٍ تُذكر إلى الحصن؟ عند إمعان النظر، فإنّ تصاميم بالاديو صارمة التماثل لا تنتمي إلى البندقية أيضاً على الإطلاق، لأنّ كلّ شيء فيها يتّسم تحديداً بعدم التماثل. الساحة ليست مستطيلة بل شبه منحرف، لا تقوم البازيليكا في المحور، النوافذ في قصر الدوجي لا تعكس بعضها بعضاً. أهو في الطريق إلى معرفة قانون؟ هل من الممكن أنّ الجمال كان يُحسب بشكل هندسي وموسيقى، ولكن هذا الكمال انحرف عنه بشكل أو بآخر؟ مثلما يكون الخط المستقيم المسحوب بالمسطرة أقلّ استقامة على الدوام من الخط المستقيم عندما يسحبه بيكاسو من دون مسطرة؟ هل هناك فرقٌ بين خطٍّ ميّت وخطٍّ حيّ؟ أيجب عليه دراسة تاريخ الفن يا تُرى؟ لكنّه لا يستطيع الالتحاق بالجامعة من دون شهادة الثانوية العامة؛ يضاف إلى ذلك أنه لا يهتمّ بالفن لمجرّد الفن، بل بما يكمن وراءه.

(٥) البازيليكا: طراز معماري قديم، وتشير عادة إلى كاتدرائية. [م]

(٦) قصر الدوجي: قصر دوق البندقية. [م]

في عيد الصعود قام برحلة إلى اليابسة، إلى مدينة فيتشنزا. زار ضمن مجموعة مكونة من الإنكليز بشكل أساسي «المسرح الأولمبي»، بجهته الداخلية الشبيهة بقصص الخيال من دون جهة خارجية، وتلك الكنائس والقصور الأخرى كلّها التي يعرفها جيداً من المكتبة في خروت ريشترن، عند باب حرف «ب» من بالاديو، التي لم تعد مؤطرة ببياض الصفحة الهادئ، بل يتبين أنها قائمة إلى جانب مبانٍ أخرى، في شوارع معيّنة ملأى بضوضاء السيارات والدراجات البخارية، في الساحات التي يقف فيها السادة الكبار في السن يتجاذبون الحديث باستياء، ثم يتابعون سيرهم وقد تأبط بعضهم ذراع بعض، في الأماكن التي تنادي فيها بائعات الفاكهة، ويلقي خبازو البيتزا أقراص العجين الدائرة في الهواء وهم يضحكون، ليتيحوا المجال لقوانين الطبيعة أن تعمل على نهج غاليليو ونيوتن. في طريق العودة توقّف الباص عند منزلين ريفيين آخرين من المنازل البالادية. كان الأول فيلاً روتوندا على مشارف فيتشنزا: تخيل حجري على قمة هضبة خضراء، يجعلها مبناها المركزي دائري الشكل من سلاله البانثيون الروماني، ولكن هذه مزودة بأربع بوابات بسلام وقوصرات إغريقية، تطلّ كلّ منها على جهة أساسية من الجهات الأربع - مثلما يحدث في العائلات أيضاً عندما تعود صفات شخصية معيّنة إلى الظهور فجأة في بعض الأحيان بشكل مضاعف أو بقدر أربعة أضعاف.

هناك، وهو يسير في هودة على الرخام، بين اللوحات الجدارية المرسومة على العضادات بتقنية الترمبليوي^(٥) وتماثيل الآلهة، ما يجعل الجهة الداخلية تبدو مثل الجهة الخارجية، لفت انتباهه لأول مرة وجود امرأة شقراء شقرة داكنة في المجموعة. بينما ينظر إلى صورة ديانا، في رحلة صيد بصدرٍ عارٍ مع كلبٍ أسود، شعر فجأة بعينيها مثبتتين عليه. كانت في فستان أبيض طويل، وشعر مرفوع بارتخاء، ورأس منحني إلى الأمام قليلاً، ما يضيف على ابتسامتها ونظرة عينيها البتّيتين النجلاوين مزيداً من الشهوانية، واقفة على الطرف الآخر من الروتوندا، بالقرب من صورة هرقل المتفاجر. لم يعجبه هذا الأمر فقد أفقده تركيزه فحاول تجاهله؛ ولكن عند العودة إلى الباص أيضاً، حيث جلس في المقعد الأمامي، لاحظ أنها تنظر إلى مؤخرة رأسه دون انقطاع. إنها تكبره بخمس عشرة أو عشرين سنة، ولكن حتى وإن كانت أصغر في العمر،

(٥) *Trompe-l'œil*: تعني حرفياً خداع البصر، وهي تقنية للرسم الفني تُستخدم لخداع العين كي تدرك التفاصيل المرسومة ثلاثية الأبعاد. [م]

فلن تناسبه أيضاً، فهذا النوع من الأشياء ليس موجوداً بالنسبة إليه. يعلم أنه لا يوجد شيء آخر بالنسبة إلى العديد من الصبيان والبنات، وأنه كان موجوداً بالنسبة إلى ماكس على وجه الخصوص، وبالنسبة إلى والده أيضاً في أغلب الظن؛ في ما يتعلق بجذته فهو على يقين أقل، ولا يريد التفكير في والدته في هذا السياق. الجنس مثل الرياضة لا يعني له الشيء الكثير - على الأقل حتى هذه اللحظة. يرى أن الجنس شيء للذين يرغبون في الإنجاب، أما هو فليس في حاجة إلى هذا الأمر. إنه مكتفٍ بنفسه.

بعد الظهر ساروا من مدينة بادوفا عبر الطريق الإقليمي السريع الموزاي لنهر بريتا، المحفوف بالاخضرار الشاعرى غير الحقيقي، الذي تخلقه الأنهار وحدها حول نفسها، ما يجعلها مقدسة في العيون البريئة. توقفوا كختام للرحلة في فيلا فوسكاري، الملقبة بلا مالكونتيتا، ليس بعيداً عن مصب النهر. لأنه شعر بالتخمة الفنية، ولأنه أراد أيضاً التهرب من المرأة، ألقى نظرة سريعة فقط على داخل الفيلا، ثم ذهب وركد على العشب تحت شجرة الصفصاف الحزين على حافة المياه.

وأما أن تأتي إليه، فهذا ما لم يتوقعه. فجأة تهاوت إلى جانبه بوجهها إليه، متربعة في جلستها، بطريقة استدعت إلى ذهنه الدمية المتحركة التي كانت لديه ذات يوم: عندما تسحب الخيط الموجود في ملتقى الساقين والجسم، تنطلق ذراعاها وساقاها إلى الأعلى. جلست قريبة منه إلى درجة أنه شم رائحتها: رائحة استدعت إلى ذهنه أوراق الخريف، ولعلها ليست آتية من زجاجة عطر. كانت متزينة على الأقل بعشرين سلسلة وإسواره من الذهب في عنقها ومعصمها.

سألت مبتسمة بالإنكليزية، ولكن بلكنة ألمانية من نوع معين: «هل تتحدث الإنكليزية؟». عندما جلس من رقوده وأحنى رأسه بالإيجاب، وضعت إحدى يديها ذات الأصابع النحيفة الطويلة، والأظافر الحمراء، على الجهة العلوية من فخذ، على مسافة لا تزيد عن سنتيمتر واحد من عضوه، انحنت إلى الأمام وممرت يدها الأخرى عبر شعره في مؤخرة الرأس: «هل تعرف كم هذه الخصلة البيضاء لائقة بك؟».

قبل تمكنه من إبعادها عن نفسه، لعلّه لم يكن ليجرؤ على إبعادها على كل حال، اختفت يداها الاثنتان عن ناظره. بعد ذلك جاءت يدها اليمنى إلى الأمام مرة أخرى. قالت: «مارلين. مارلين كير شليشنر».

- كويتن كويست.

صافحها وأراد سحب يده، لكنّها أبقتها في يدها. قالت وهي تواصل النظر إليه: «يدك متشنّجة. يبدو وكأنك لا تريد لمس يدي لمساً حقيقياً. حاول أن تُرخيها!».

أدرك في اللحظة نفسها أنها محقّة. أرخى عضلاته وشعر عندئذٍ فحسب براحة يدها الدافئة في راحة يده، ما تسبّب في الدفء ليس في يده فحسب وإنما في جسده بأكمله، الأمر الذي بعث الرعب في نفسه. بدا واضحاً أنها رأت ما حدث، فبينما ترك يده، أحتت رأسها إلى الأمام، ونظرت إليه بالنظرة نفسها التي كانت متجلّية في عينيها قبل قليل في فيلّا روتوندا. لقد نجحت في غضون دقيقة واحدة في تشويشه بشكلٍ كامل. أراد إمساك يدها مرة أخرى ولم يرد في الوقت نفسه أن يرغب في ذلك. ولكنّ اللمسات صارت وراء الظهر بصورة مفاجئة.

- كم عمرك يا كويتن؟

- بعد أسبوعين سأبلغ السابعة عشرة.

جفلت لحظة وبقيت تنظر إليه: «هل أنت مع والديك في البندقية؟».

أجاب بإيجاز: «لا، أنا وحدي».

قالت مارلين كيرشليشنر: «وأنا أيضاً».

كانت تعيش في فيينا، حسبما أخبرته؛ تأتي في شهر أيار من كلّ سنة إلى هنا، إلى المكان الذي أمضت فيه شهر العسل مع زوجها الميت - في جزيرة ليدو، في فندق إكسلسيور، ودائماً في الجناح نفسه المطلّ على البحر. بينما يجلسان جنباً إلى جنب في المقعد الأمامي في الباص السائر فوق الجسر صوب البندقية، صوب بيازال روما، الموقف الأخير لكلّ وسائل النقل، قالت: «ما الذي يمنعك؟ تعال معي! يوجد هناك حمام سباحة رائع؛ لن تجد حمام سباحة في البندقية كلّها. يمكنك البقاء أيضاً إذا أردت. أين تنزل الآن؟».

فهم كويتن أنّ مغامرات غير مسبوقة لاحت في الأفق بصورة مفاجئة، مثل المغامرات التي كانت كلارا بروكتور تقرؤها دوماً في نوع من الروايات. ها هي ذي امرأة ناضجة، جميلة، شهوانية، وفوق ذلك ثريّة ثراءً فاحشاً كما تبدو، تريد أن تأخذه تحت جناحها - لكنّه في الوقت نفسه يعلم أنّ هذا غير ممكن بالنسبة إليه. يشعر بأنه لا ينبغي الانسياق مع اللقاءات العابرة، رغم أنه لا يعرف عمّا ستلبيه، فهو ليس لديه شيء محدّد يفعله. إنه يفعل ما يصادفه، والأمر سيّان عندما يكون في مكان آخر.

عندما قال إنه يفضل الذهاب إلى غرفته، أصرت على المشي معه إلى هناك؛ لم يحدث أن ذهبت إلى الكاناريغيو، وتستطيع العودة بعد قليل بحافلة مائية إلى ليدو. في الطريق تكلمت عن نفسها دون توقف، عن كروم عنب النبيذ التي كان زوجها يملكها في واشاو على نهر الدانوب، التي تديرها هي الآن؛ لحسن الحظ لم تسأله عن ظروفه. عند باب الفندق المقيم فيه، تحت الغسيل المنشور مثل أكاليل الزهور من طرف الزقاق إلى طرفه الآخر، أراد أن يلقي عليها تحية الوداع؛ لكنها اقترحت أن يشربا شيئاً في مكان ما. نبيذ بروسيكو الحار من عنب كونيلىانو - فالدوبياديني على سبيل المثال، الذي يصعد إلى رأسك على الفور: عندما تكون في مكان ما، يجب عليك دائماً أن تشرب من نبيذ المنطقة. لم يكن كويتن يشرب النبيذ قط، لكنه يشعر هو أيضاً بالعطش. بينما يبحثان عن مصطبة مقهى، وهي نادرة في هذه الضاحية، انتهى بهما المطاف، عبر جسر خشبي و«سوتوبورتيجو»^(*) مظلم منخفض، في الفناء الداخلي لـ«غيتو»^(**) منحدر من القرن السادس عشر، تدين إليه كل الغيتوهات اللاحقة باسمها. هنا المنازل أعلى من بقية المنازل في المدينة، حتى توجد بضع أشجار، مثلما لم تكن في أي مكان آخر تقريباً من البندقية. جلسا على مقعد بالقرب من بئر دائرية الشكل رخامية الغطاء. معظم الشبابيك مغلقة؛ في العديد من أحواض المزروعات تقوم طواحين هوائية صغيرة من الورق أخذة في الدوران. لا يلمح أحد في أي مكان، ما عدا الحمام في المشكاوات وعلى حواف النوافذ المتأثرة بالعوامل الجوية - وفي ضوء الغسق الهابط أخذا ينظران بصمت، برهة من الزمن، إلى السكون السائد فوق الأحجار.

فجأة، وضعت السيدة كيرشليشنر خدّها على كتفه وبدأت تبكي.
سأل في ارتياح: «ما الأمر؟».

رفعت إليه عينيها النجلاوين المخضلتين بالدموع من شدة العجز، كما لو أنه والدها: «لا أعرف ماذا دهاني.. أنا أحبك يا كويتن. عندما رأيتك، أحسست على الفور وكأنني أرى قطعة من الذهب في الوحل. ظننت في أول الأمر أنها نزوة عابرة، فهذا يحدث معي في أغلب الأحيان؛ لكن الآن وأنا أدرك أنني لن أراك مرة أخرى بطبيعة الحال، ألاحظ أنه شيء مختلف تماماً. أنا لا أحب الشباب الصغار على الإطلاق، هذا إذا كنت تسيء الظن. لم يسبق أن حدث

(*) سوتوبورتيجو: ممر تحت مبنى. يساوي ارتفاعه عادة ارتفاع الطابق الأرضي، ويكون المدخل إلى ساحة صغيرة. [م]

(**) غيتو: حي شعبي يهودي. [م]

هذا الشيء معي. كان زوجي يكبرني بمرتين، لكنني الآن أكبرك بما يفوق المرّتين. لماذا لست في السادسة والعشرين، أو السادسة والثلاثين، من أجل خاطري؟ ستة عشر! هذا شيء غير ممكن إطلاقاً، يبدو أنني جُننت!».

نهضت بصورة مفاجئة، أخذت وجهه بين يديها، وطبعت قبلةً على كلٍّ من عينيه: «وداعاً أيها الملاك.. أتمنى لك التوفيق!».

قبل تمكّنه من قول شيء، رأى قامتها البيضاء ترفرف عبر المخيم، مثل ملاءة حرّرت نفسها من ملاقط الغسيل، واختفت في البوّابة المظلمة.

بقي ينظر إلى الفتحة السوداء باضطراب. ماذا اقترف؟ أيجب عليه اللحاق بها؟ وبعد ذلك؟ لا، هذا أفضل شيء بطبيعة الحال. النساء من هذا النوع موجودات في العالم الكبير؛ يجب أن تعتاد على هذا الأمر. بينما تنبعث في البُعد قرقعة واجهات إغلاق الدكاكين وهي تُسحب إلى الأسفل، عاد أدراجهِ إلى الفندق المقيم فيه. فتح فمه تحت الصنبور، ثم ألقى الماء بيديه الاثنتين على وجهه. في السرير أراد القراءة في دليله السياحي قليلاً، لكنّه ما لبث أن استغرق في النوم - الذي لم يَزُرْه فيه «سامنيوم كويتي»، بل حريق:

في أول الأمر يعيش في طابق العلّية في منزلٍ عالٍ، شبيه بالمنازل الموجودة في الغيتو، حيث ترتفع المداخل مربعة الشكل على طول الجدران الخارجية. يصبح من النافذة بأن يستدعوا فرقة الإطفاء، فينظرون جميعهم إلى الأعلى ويرفعون أكتافهم؛ ليست هناك مشكلة، كل شيء سيكون على ما يرام، مجرد إثارة رعب. عندما تضطرم النيران في المنزل وتحوّل كل الدعائم الخشبية إلى عوارض من النار، يتبيّن أنه يعيش في قبو في مكانٍ ما. هناك أيضاً يبدأ الدخان بالتصاعد بصورة مفاجئة على شكل حلقات بين البلاط، ومرة أخرى لا يستمع أحد إليه، فيتحوّل كلّ شيء إلى لهب...

استيقظ من شدة الجوع. كان الظلام قد حلّ في الخارج؛ إنها الساعة العاشرة. فرقع إبهاميه ونهض من السرير بألم في جسمه. في مطعم صغير بالقرب من «القناة الكبرى» أكل طبقاً من الرافيولي، وهو محاطٌ بسكّان الضاحية وسائقي الغندول في سترات مخطّطة، يتكلّمون جميعهم بأصوات عالية بلغة تذكّر بالإيطالية في بعض الأحيان. وأخذت مارلين من فيينا تتراءى لعينه بين حينٍ وآخر. إنها الآن في فندق إكسلسيور، محاطة بالشيوخ، والصناعيين اليابانيين، وبارونات النفط الأميركيين، جالسة طبعاً إلى مائدة الكركند والكافيار تحت ثريات

الكريستال؛ ولكن بدا وكأن حلمه قد أقام حاجزاً، جعلها تنتمي إلى الماضي بشكل نهائي. إنه هو أيضاً غني بفضل البارون من حسن الحظ. دُلِّلَ نفسه بشرب فنجان ثانٍ من الإسبريسو، وضع إكرامية بمقدار خمسمئة ليرة على مبلغ الفاتورة، وأخذ يهيم على وجهه في المدينة برهة قصيرة.

في تلك البندقية المقفرة في منتصف الليل، وقد أغلقت الشبابيك كلها، ولُمِمت مصاطب المقاهي وليست هناك حياة ليلية في أي مكان، توقّف على جسر فوق قناة مائية ضيقة. إلى اليمين وإلى اليسار ترتفع جدران المنازل المتأثرة بالعوامل الجوية مع مزاربها من مياه البحر الساكنة؛ هناك جسر ثانٍ فوق قناة جانبية على مسافة أبعد قليلاً؛ في آخره تحجب المنظر الجهة الخلفية المصقولة من قصر قوطي، التي تشكّل الجهة الأمامية في الواقع. نظر إلى الدرجات المكتسية بالطحلب الأخضر، التي تُفضي من القناطر المظلمة للبوابات ذات القضبان إلى المياه وتمتدّ تحتها. الصمت الشامل. هل جاءت والدته إلى هنا ذات مرّة يا تُرى؟ والده؟ وماكس؟ فجأة امتلأ الصمت بهفيف يكاد لا يُسمع، ما لبث أن ظهر قارب غندول من تحت الجسر الواقف عليه، بـ«المِطرْد»^(*) اللامع على مقدّمته. ظهرت ثلاث فتيات يابانيات صامتات، ثم سائق الغندول الذي استقام بقامته ووجّه الغندول بحركة طفيفة من المجداف إلى الجانب قليلاً، حيث وضع قدمه على جدار منزل برهة قصيرة بحركة مثالية لا سبيل إلى وصفها - متّحداً مع الغندول، والمياه، والصمت، والمدينة - وذلك للحفاظ على السرعة.

في تلك اللحظة رأى كويتن مارلين كيرشليشر في لمحة بيضاء على الجسر الآخر، اختفت من فورها عندما لاحظت أنه رآها. اتسعت عيناه. بينما كان نائماً، بقيت تنتظره طوال ذلك الوقت، تبعته إلى المطعم، انتظرت مرّة أخرى وتبعته مرّة أخرى! أصبح الأمر واضحاً: يجب أن يرحل من البندقية في الحال - من الأفضل هذه الليلة.

*

لعلّ نبرة اسمها، فلورنسا، هي التي جعلته يتوقّع أنّ هذه المدينة أكثر فضيّة وأشدّ هدوءاً. ولكن انتهى به المطاف في مرجل ساحرات تنن صاحب من حركة مرور، كان قد نسيه بعد خمسة أيام في البندقية. كما أنّ كل شيء هناك كان خفيفاً ومفتوحاً، أما هنا فكل شيء ثقيل ومغلق. وظيفة البحر، الذي يحمي البندقية بما يكفي، تؤذيها هنا الجدران السميكّة، والكتل

(*) المِطرْد: سلاح أبيض مكوّن من رمح وفأس. [م]

الحجرية العملاقة، والقضبان، والمباني الشبيهة بالقلاع؛ الجمال يكاد يكون منحصراً في داخل الأماكن، في القصور والمتاحف. ولكن ما يجعل فلورنسا تختلف عن البندقية هو شيء يمتّ بصلّة إلى الحصن: هذا الأمر صالحه مع خيبة أمله بعض الشيء.

لأنّ كل الفنادق ذات الأسعار المقبولة ممتلئة، فقد اضطرّ أن يرضى بزلٍ وضيع، حيث تقاسم غرفة مع سبعة أشخاص آخرين، معظمهم من الطّلاب ولكن بينهم بضعة رجال أكبر في السن أيضاً؛ ما عدا السرير وُضع كرسيّ فقط تحت تصرّفه، يستطيع من فوقه النظر إلى صورة المسيح المصلوب فوق الباب. بينما يحيط به الشخير الدولي، رجع بذكرته لأول مرّة إلى غرفته في خروت ريخترن. أم أنها لم تعد موجودة؟ هل استولى كورفينوس على كلّ شيء خلال الفترة الماضية؟ لا يستطيع بهذه السرعة بطبيعة الحال. راوده شعور بأنه بعيد عن البيت منذ شهور، مع أنه لم يكد يمضي أسبوع بعد. لم يرسل أيّ رسالة لجذّته من البندقية، فقرّر الكتابة لها في أسرع وقت ممكن. لكن ليس فقط أنه لم يكتب رسالة، بل أيضاً عندما يمرّ من جانب حامل بطاقات بريدية في الشارع -ساحة ديلا سينوريا، قصر بيتي، جسر بونتي فيكيو، معمودية سانت جون- يتملّكه اشمزأز لا سبيل إلى التغلّب عليه، يمنعه من شراء بطاقة من تلك البطاقات والكتابة عليها فقط «تحيّة من فلورنسا». مكتبة سرّ من قرأ

على أنه اشترى سلسلة من البطاقات في معرض أوفيزي، ليضعها على الكرسي القائم بجانب سريره. في شلال الكنوز الفنيّة، المتدفّق في شارع المتحف ذاك الذي لا يهدأ، صعقته لوحة البشارة بريشة ليوناردو دافينشي: ملاك يقترب بما يشبه التسلّل من مريم العذراء، برأسٍ منحني إلى الأمام، ونظرة مذبذبة لشخص يعرف أنّ ما ينوي فعله شيء غير لائق. لا عجب في أن يظهر على مريم أنها تفكّر: «مَن أنت؟ ماذا تفعل هنا؟». لقد تعلّم كويتن في المدرسة الثانوية أنّ الكلمة اللاتينية «أئونثيره» تعني «البشارة»: الملاك يريد تبشيرها بأنها ستحبل، في وقت لاحق، من الروح القدس؛ لكنّه رأى أنّ ما يحدث هنا أكثر بكثير من مجرد «بشارة» - إنه الحدث نفسه. هو يوشك أن يثب عليها، إذ ما السبب في أن لا يكون يوسف النجار حاضراً؟ ألم يكن من حقّه أن يعلم علم اليقين أنّ خطيئته لم تخنّه مع منظّف النوافذ مثلاً؟ فكلّ امرأة تستطيع الادّعاء أنها حبلت من الورع الخالص. كذلك في الصالات الأخرى بدأ ينتبه إلى لوحات البشارة، لكنّ يوسف لم يكن حاضراً في أيّ منها. يبدو أنّ ذلك البائس كان في ورشة النجارة، يكسب قوت يومه من عرق جبينه، ربما بصنع الصلبان للرومان، بينما في المنزل تستمع زوجته المستقبلية إلى ثرثرات إغواء ملائكية وتترك العنان لنفسها مع مبعوث الربّ.

فجأةً تذكّر نحنأ بارزاً يجسّد البشارة على الجهة الأمامية من جسر رياتو في البندقية. ترى الملاك جبرائيل على دعامته اليسرى، في بداية القنطرة، الحمامة التي أطلقها في السماء في أعلى نقطة من القنطرة، ومريم على الدعامة اليمنى وهي تنتظر باستسلام روح القدس. تلك الحمامة لم تكن إذاً سوى نطفة الملاك المقدسة!

كم يودّ لو يتحدّث مع والده عن هذا الأمر. هل سيتفق معه في الرأي يا ترى؟ لعلّه سيتفق معه ويسمّي تصاوير البشارة «صندوق الفرجة الدينية»؛ أو لعلّه سيهتف في ارتياح: «هذه الفكرة المشينة سوف تهشّم رأسك!». انفجر بالضحك. يُخيّل إليه أنه سيكون الرأي الأخير على الأرجح.

بينما يتجوّل بين التماثيل في متحف بارغيلو، في اليوم الثاني من إقامته، تذكّر فجأةً تيو كيرن، الذي لا شك أنه جاء هو أيضاً إلى هنا، ليتعلّم كيف أزال زملاؤه الحجر الزائد. بين حينٍ وآخر، كان يرى من نوافذ القصر القديم سكّان فلورنسا في الشارع وفي الباصات التي ينبعث الدخان منها، وتساءل كم شخصاً منهم شاهد هذه الأشياء الرائعة هنا. منّ منهم يعرف أنّ النهضة قد ابتكرت في مدينته. لعلّ ذاكرة معظم الناس في العالم لا تبلغ أبعد من حياتهم الخاصة؛ لعلّهم لا يدركون إطلاقاً أنهم يعيشون ألف سنة بعد ألف سنة ماضية. إنهم قابعون بين ولادتهم وموتهم في زنزانة منعومة النوافذ؛ كلّ شيء بالنسبة إليهم مثلما كان على الدوام. الأمر ليس على هذا النحو بطبيعة الحال - لكنّه على هذا النحو بمعنى أو بآخر، لأنه كان على هذا النحو بالنسبة إلى الجميع تقريباً قبل ألف سنة، وقبل ألفي سنة، وقبل عشرة آلاف سنة. الحقّ أنهم هم بالذات أصبحوا من خلال استمرارهم في العيش، العمل، الاستمتاع، الأكل، الإنجاب، أكثر خلوداً من هذه الروائع الخالدة التي أبدعها كل هؤلاء الأفراد منقطعي النظر! توقّف عند تماثال لا على التعيين وناجى نفسه: خذ مثلاً هذا الشيء هنا. ما هو؟ صبيٌّ عارٍ من الملابس، في منتهى الجمال، يده اليمنى على رأسه، ويده اليسرى على رأس نسر كبير، جاثم عند قدميه ورافع إليه عينيه بإخلاص. بنفينوتو سيليني، 1500-1571. «غانيميدس»^(٥). لا يعرف هذه الأسطورة، ولكن هذا ليس بالأمر المهمّ؛ يعرف على كلّ حال أنّ حكاية قديمة

(٥) غانيميدس في الأساطير الإغريقية هو أجمل ولد من جنس البشر، وقد قُتّن به زيوس وأراد أن يجعله الأثير لديه، فأمر نسرأ بجلبه إلى جبل الأولمب، وقيل أيضاً إنّ زيوس نفسه اتخذ شكل نسر لكي يحمل المراهق الجميل. [م]

تكمّن وراءها. هناك حكاية وراء كلّ شيء. فقط من يعرف الحكايات كلّها، يعرف العالم. ويكاد يكون من المستبعد ألا تكون هناك حكاية أخرى وراء العالم كلّ بحكاياته كلّها، وهي إذّا حكاية أقدم من العالم. يجب عليك اكتشاف هذه الحكاية!

- هل وقفت أمام النّحات من أجل هذا التمثال؟

انتفض من أفكاره. كان رجلاً طويل القامة، يبدو له مألوفاً بصورة غامضة، ينظر إليه بوجه مبتسم، لكنّ تلك الابتسامة لم تعجبه. إنه يبلغ نحو الخمسين من العمر، أصلع الرأس، باهت العينين، مدبّب الأنف ورفيع الشفتين؛ تبرز ذراعان شاحبتان من تحت كمّيه، المرفوعين في ثنيات إلى الداخل، تطوّق سلسلة ذهبية كلّاً من معصميه. تذكّر كويتن فجأة من يكون: إنه ينام معه في الغرفة نفسها، على الطرف الآخر من الممرّ الأوسط. أجاب بجفاء: «لا».

- رأيت دليلك السياحي على الكرسي، لذلك أعرف أنك هولندي أيضاً. اسمي مينه. أحنى كويتن رأسه، لكنّه لم يكن ينوي ذكر اسمه. ماذا يريد هذا الرجل؟ هل اقتضى أثره هو أيضاً؟ ردّد مينه ناظره بينه وبين التمثال: «إنكما متشابهان حدّ التطابق، هل تعرف هذا؟ من المؤكّد أنّ لك مثل هاتين الحلمتين المدبّبتين وهاتين الساقين الجميلتين. فقط عيناك أجمل بكثير من عينيه. وهذا العضو الصغير، أراهن أنّ عضوك أكبر بكثير. صحيح أم لا؟ قل لي بصدق!».

وانحنى نحوه وهو يلهث بعض الشيء: «هل نما الشعر عليه؟ هل تلعب به في بعض الأحيان؟ لا بدّ أنك تلعب به، أليس كذلك؟».

لم يصدّق كويتن أذنيه. يا له من سافل قذراً التفت عنه وخرج من الصالة دون قول شيء. صاح الرجل من ورائه: «لا تنزعج إلى هذا الحدّ! إنها مجرد دعاية. دعنا نذهب لشرب فنجان من الكابتشينو!».

ما إن وصل إلى السلم حتى أخذ ثلاث درجات في كلّ خطوة إلى الأسفل، إلى الخارج، وركض كيفما اتفق عبر بضعة حارات كي يتخلّص منه. تبين أنّ هذا لم يكن ضرورياً: طبعاً لأنّ المدعو مينه يعرف أنه سيصادفه مرة أخرى في النزل في آخر النهار. عندما ذهب إلى السرير في الساعة الحادية عشرة، لم يكن قد عاد من حسن الحظ. من يدري، لعلّه رحل من هنا. لكنّه استيقظ في منتصف الليل على يد تتجول بين ساقيه تحت البطّانية. كان الرجل

جالساً على حافة السرير، تفوح منه رائحة الكحول التنتنة وقد فتح أزرار بنطاله، يبرز من الفتحة عضوٌ سميك أبيض مُزرقٌ مثل مسحوق غسيل، يسحبه بيده الأخرى بحركة سريعة استدعت إلى ذهن كويتن ذراع التوصيل في قاطرة أرندي البخارية، عندما كان يجعلها تسير بطاقتها القصوى على السكّة. كان العضو منحنيّاً أيضاً بعض الشيء - طبعاً من ذلك الشدّ كلّه.

قال: «اغرب من هنا أيها الوغد القذر!».

همس مينه: «أوه، حبيبي، حبيبي. اتركني لحظة، اتركني لحظة، سأنتهي في الحال!». حاول ضغط شفّتيه على شفّتي كويتن، فكوّّر كويتن قبضته لأول مرة في حياته، هاجم، فضرب وجهه شبه المظلم بعظام قبضته بكلّ ما أوتي من قوّة. نهض عشيقه متأوهاً، وانكبّ على وجهه فوق سريره الخاص، حيث بقي منكبّاً على وجهه بظهر متنفّض. كان يبكي من دون شكّ.

لم يلاحظ أحدٌ أيّ شيء. بقي كويتن يستمع في ذهول إلى الشخير المنبعث من حوله على مدى بضع ثوانٍ. فهم أنّ هذه هي المرة الثانية التي يُبعد فيها عن مدينة. نهض غاضباً من السرير، ارتدى ملابسه، حزم أغراضه في حقيبته الظهر، ووضع البطاقات البريدية المجسّدة البشارة بين صفحات دليله السياحي. دفع الحساب للبواب، الذي كان جالساً على كنبه من الجلد الاصطناعي بتيّ اللون، يقرأ جريدة أوسيرفاتوره رومانو^(*)، وسار في الشوارع الليلية المائلة إلى البرودة صوب المحطة. في القاعة جلس على الأرض بين العشرات من الشباب الآخرين وحاول النوم قليلاً.

(*) L'Osservatore Romano: جريدة المراقب الروماني. [م]

53. الظلّ

اعتاد إدغار أن يجثم على كتف أونو عندما يذهب للتسوّق في الصباح. في الدكاكين لم يُعدّ الناس يولون هذا الأمر أيّ انتباه. في الشارع يبسط الطائر جناحيه بصورة مفاجئة في بعض الأحيان، ينطلق، ويطير بعد خبطة على رأس أونو إلى مزارب سطح، أو يختفي وراء البيوت، لكنّه يعود أدراجه على الدوام. كان أونو متعلّقاً به أكثر مما يريد الاعتراف لنفسه - ربما ليحمي نفسه من احتمال ألا يرجع إليه ذات يوم. تصوّر لو يطلق نذلّ من الأنذال رصاصة عليه! البشرية تحتوي في آخر الأمر على هذا النوع من الحثالة، التي يجب عليها الخجل مما تفعله بالحيوانات، التي لا يعرف أيّ منها الشرّ، ويجب أن تُقتل لهذا السبب.

قال لإدغار في الشارع، دون أن يولي انتباهاً للنظرات التي يلقيها العابرون عليه:

- طبعاً هناك أناس طيّبون، أقدر أنهم يشكّلون ثمانية بالمئة من البشر. ولكن هناك أيضاً ثمانية بالمئة تتكوّن في كلّ الأوقات والأماكن من أبشع حثالة يمكن أن تخطر على بال، بوسعها فعل أيّ شيء. لو أُتيحت لهم الفرصة، لأبادوا قبل كلّ شيء الثمانية بالمئة الطيّبين. الباقي ليس بالطيّب ولا بالشرير، إنه يهبّ مع كلّ ريح. يجب عليك أن تتبّه من الأول والثالث عشر من كلّ مئة شخص؛ الأحد عشر الآخرون ليسوا بالمهمّين. هذا يعني أنّ الأول يجب عليه إيجاد طريقة يجعلهم بها يقفون إلى جانبه، ليتغلّب على الثالث عشر، لأنهم يمكن أن يتبعوه هو أيضاً. في أحسن الأحوال سيقوم الثالث عشر ذاك بشنق نفسه في نهاية المطاف، مثل يهوذا الإسخريوطي، أو سوف يُشنق، كما حصل في نورنبيرغ، أو سوف يقف أمام فرقة الإعدام، مثلما حصل في سخيڤينينغن؛ ولكن دائماً بعد الانتهاء من فعلته، عندما لا يعود الأمر مهمّاً في الواقع. رأسي يدور مجدّداً يا إدغار. قبضة الأول تتراخى بتسامح، والثالث عشر يستكشف حدوده في كلّ مكان، يرى إلى أيّ حدّ يستطيع الذهاب، تارةً يشقّ المقعد في قطار هنا، وتارةً يحطّم حجرة هاتف عمومي هناك. هذا ما يحدث الآن يا إدغار، في عالم من دون

إله وبجدارٍ ذهبيٍّ على وشك الانهيار. لقد ساهمت أنا نفسي فيه. «إنها خطيئتي، خطيئتي، خطيئتي الكبرى»^(*). وإذا ما مثل أمام المحكمة، ظهر طبيبٌ نفسي في الحال بصفته محامي الشيطان، يفسّر تصرّفه انطلاقاً من الأسباب. طفولة باعثة على الشفقة، متعرّض للضرب المبرح، أبوان منفصلان. ولكنّ التفسيرات السببية لا يمكن أن تكون مبرّرات للتصرّف على الإطلاق. الإنسان ليس آلة، ولا مجرّد حيوان، مثلك - وحتى إنني لستُ على يقين من أنك حيوان. لذلك لا ينبغي الحكم على التصرّف انطلاقاً من الأسباب وإنما من النتائج. هل تسمح لي أن أتكلّم قليلاً بنبرة علمية؟ لقد اختفى الحكم الأخلاقي من الوصف السببي، والباقي يُعرض بصورة قانونية على أنه ظروف مخفّفة، ما ينتج عنه تخفيف العقوبة. ولكنّ هذا يعني إنكار الحرية الإنسانية بطبيعة الحال. فالإنسان يُجرّد من إنسانيته بحرمانه من المسؤولية. أتذكّر بغموض أنّ قرار المحكمة بشأن والد ماكس تضمّن شيئاً من هذا القبيل؛ لعلّ السيّد كان قد تعرّض هو أيضاً لخيانة من والدته في طفولته. الامتناع عن العقوبة عقوبة غير إنسانية. وإلى ذلك إهانة غير مقبولة للذين عاشوا طفولة صعبة أيضاً ولم يرتكبوا جرائم. إذاً، حسب المبدأ نفسه يجب على السلطات أن تُكافئ هؤلاء في الواقع. هذا سيكلّف الدولة غالباً. وإذا لم يدخل حيّز التنفيذ، فإنّ العدالة تتطلّب أن يُطرد الأطباء النفسيون من المحكمة، مثل الصيارفة من المعبد. لا، ما يحتاجه القاضي هو يدٌ من حديد، على غرار غوتز فون برليخينغن^(**). إذا لم يكن لك جسد المسيح فائق الحلاوة، فلن تستطيع محاربة الشرّ إلا بالشرّ. من أجل أن تضع نفسك في خدمة الخير يجب عليك، بالضرورة وبما لا يخلو من المأساة، أن تسمح للشرّ بالدخول إلى نفسك، ولكن هذا الثمن يجب عليك دفعه. «لا أحد يستطيع أن يحكم ببراءة»، حسبما قال سانت جاست، قبل أن يُقاد هو نفسه إلى المقصلة.

لم يكن يكثرث بالنظرات التي يلقيها العابرون على هذا الشخص العجيب، الذي يهتمهم بنبراتٍ غير مفهومة. لم يعد ينتمي إلى الناس، صار فقط يفكر فيهم، مثلما يفكر عالم طيور في الطيور. عندما عبر ساحة مربعة مزدحمة، بمصاطب مقاهٍ مكتظة عند قدم المنازل المخصّصة باللون البرتقالي، قفز إدغار على الأرض واختلط بالحمائم، التي أفسحت المجال بفرع لقوامه الأسود.

(*) يقولها باللاتينية وهي ترنيمة كاثوليكية بعنوان الاعتراف. [م]

(**) Götze von Berlichingen (1480-1562): مرتزق ومحارب وشاعر ألماني، اشتهر باليد الحديدية التي صار يرتديها بعد أن فقد يده اليمنى أثناء حصار مدينة لاندسوت. [م]

- فكرة جيّدة يا إدغار. دعنا نعين ثلاثة عشر شخصاً، على مهلنا، هنا في الشمس.

جلس على درجات نافورة ووضع حقيبة المشتريات البلاستيكية بجانبه على الأرض. ترتفع من الحوض قاعدة منحوتة بدلافين تلفظ المياه، فوقها تنتصب مسلة بارتفاع ستة أمتار على وجه التقريب، مغطاة بكتابة هيروغليفية، متوجة بنجمة ذهبية اللون، ينبثق منها صليب من البرونز.

- ثلاثة عشر رجلاً، هذا ما يجب عليك فهمه - سأترك النساء خارج الموضوع مثل رجل نبيل. أنت تعرف ما قاله فيننغر: «المرأة هي خطيئة الرجل». هتلر كان رجلاً، لكنّه لم يصل إلى السلطة إلا عن طريق انتخابات حرّة بفضل النساء الألمانيات المغرمات به؛ دعنا نغطّي ذلك بمعاطف الحب النسوية والديمقراطية.

وأشار برأسه إلى سيّد شائب أنيق المظهر، بجريدة تحت ذراعه ومعطف ملقى على كتفيه: «خذ هذا مثلاً. رجل محترم، وكيل لمصرف متوسط الحجم، مدير تنفيذي في إحدى الدوائر الحكومية. موضع ثقة، مغرور بعض الشيء، ليس الأول ولا الثالث عشر على كلّ حال».

وتتبع بعينه رجلاً في زيّ عمل، يتفحص أثناء سيره قطعة من آلة يجب أن تُصلح أو تُغيّر: «ولا الذي تراه هناك أيضاً. إنه منهمك في عمله. ليس لديه متسع من الوقت ليقتل أو يفعل معجزات. ولكن هناك يقف اثنان يتبادلان الحديث، لا يعجبني أحدهما على الإطلاق. تلك الابتسامة ليست بريئة. وذلك الوجه أيضاً شاحب وناعم أكثر من اللازم».

كان الرجل في أواخر العشرينيات ولاحظ من فوره أنّ أونو ينظر إليه. اختفت الابتسامة اختفاءً كاملاً على الفور، وكأنه أدار مفتاحاً، وثبتت نظرة مهذّدة باردة على أونو. حوّل أونو عينيه عنه: «الويل يا إدغار، أظنّه الثالث عشر! لا تنظر إليه، لأنه خطير. إنه خطير لأنه يستطيع التحكّم بعواطفه، مثلما يتحكّم شخص بسيارته؛ والشيء الذي يتحكّم به بعواطفه، ليس عاطفة في ذاتها. أمل أن تدعسه سيارة هذا اليوم. يحسن بنا أن نرى من هناك».

ونظر إلى صبيّ يعبر الساحة على نحوٍ مائل، يتوقّف عن السير، ويمعن بفمٍ مفتوح في المبنى القائم على الطرف الآخر.

في تلك اللحظة نفسها انبهرت أنفاس أونو. بدأ يرتعد ونهض ببطء عن مجلسه.

*

الباشيون! ها هو ذا يقوم هنا على أرض الواقع! خُيِّلَ إلى كويتن أنّ ما يراه ليس حقيقياً.

المعبد الروماني لكلّ الآلهة، البالغ عشرين قرناً من العمر: يقوم هنا رمادياً وعارياً، مجرداً من الأسفل إلى الأعلى على يد الهمج، والأباطرة، والباباوات، مثل شيء لا ينحدر من زمان آخر فحسب، وإنما من مكان آخر أيضاً - مثلما يحدث أحياناً بصورة مفاجئة في النهار، عندما تظهر صورةٌ مثيرة للقلق من حلم من الليلة السابقة.

M•AGRIPPA•L•F•COS•TERTIVM•FECIT

الكوادراتا! ها هي ذي هنا، هذه الحروف الرائعة، المُلهمة، مكتوبة على العارضة فوق الأعمدة الثمانية، تحت الطبلتين مثلثتي الشكل، التي كان بالاديو قد أمعن النظر فيها: «ماركوس أغريبا، ابن لوسيوس، شيد هذا في فترة تولّيه القنصلية للمرة الثالثة؛ ولكن مَنْ شيدَه في الحقيقة هو الإمبراطور هادريان، مثلما علّمه السيّد ثيمات. كيف حال السيّد سبير يا تُرى، هناك في قرية بونتريدفينديغيد؟ إلى اليمين وإلى اليسار من الردهة والمبنى الخلفي دائري الشكل، المزود بالقبة، حُفرت أخاديد بعمق أمتار إلى مستوى الشارع الروماني، فبدا المعبد وكأنه مرتفع من تحت الأرض، مثل الأحجار الضالّة في دربته. يعلم أنّ درجات المدخل في الجهة الأمامية لا تزال مطمورة تحت الإسفلت. سار بخطوات بطيئة من جانب صفّ الحناطير المنتظرة، صوب الظلّ الذي يلقيه الرواق العالي مستطيل الشكل، المدعوم أيضاً بثمانية أعمدة - ليضاهي مجموعها سنوات عمره. ثمة مجموعة من الزوّار تنتظر قبله. بعد برهة قصيرة فتح اثنان من الرجال باباً من الأبواب البرونزية، التي يزيد ارتفاعها عن سبعة أمتار، بشكلٍ موارب. كانا في حاجة إلى كامل قوّتهما لفعل ذلك.

عندما تخطّى العتبة، أبهرت المساحة الخالية الضخمة أنفاسه. كان الضوء منعدم الظلّ يلوح على الأرضية الرخامية الشقراء، وعلى الأعمدة والمشكاوات والمعابد، مثلما في قلب الكريستال العصيّ على الاختراق، وقد حلّ قديسون مسيحيون متواضعون محلّ الآلهة الرومانية الأبيّة. السماء الزرقاء محتلة أعلى نقطة في القبة بدلاً من حجر العقد، فتحة دائرية يقارب قطرها عشرة أمتار، يدخل منها شعاعٌ مائل من ضوء الشمس مثل مسلة، يشكّل بوضحة مبهرة للأبصار على لوحة جدارية متأدّية. ذكرته القبة التي تتوسطها الفتحة بالقزحية في الحديقة: المعبد عين يوجد هو في داخلها. من الخارج لا بدّ أنّ الفتحة سوداء اللون. المبنى مرصّدٌ فلكيّ. ماذا قال له السيّد ثيمات؟ صحيح أنّ البانثيون ليس المبنى، لأنّ المبنى غير موجود، لكنّه «الاحتمال الثاني الصحيح»، وبوسعك رؤيته على أنه صورة العالم. لعلّه

لم يكن يقصد الطبيعة، والأرض، والقمر، والشمس، والنجوم فحسب، وإنما كل العوالم الأخرى أيضاً، على سبيل المثال عالم الأرقام وعالم الأشكال الهندسية وعالم الموسيقى. المبنى ساعة أيضاً على كل حال - ساعة شمسية تشير إلى الوقت، ليس من خلال الظل بل من خلال الضوء نفسه. وقف في منتصف المساحة، تحت الفتحة مباشرة، وأخرج بوصلته الصغيرة. المدخل واقع بالضبط في الشمال.

نظر في الاتجاه الذي تشير إليه الإبرة، فلفت انتباهه شخصٌ رث الهيئة يحملق فيه من جانب الأبواب البرونزية. إنه طويل القامة، ضخم البنية، ويلبس نظارة داكنة؛ على كتفه يجثم غاقٌ أسود، لا، إنه أشبه بغراب. لحيته الرمادية المشعّنة تخفي باقي وجهه؛ شعره الطويل مربوط في ذيل في قفا رأسه. قميصه المتسخ نصف مفتوح ومتدلّ من بنطاله، ما يجعل سرّته بادية للعيان؛ قدماء العاريتان محشورتان في جذاء رياضي مهترئ. فزع كويتن. ليس من جديد؟ في البندقية كانت تلك المرأة من فيينا، في فلورنسا ذلك الوغد، وهذه المرأة متشرّد - هكذا لا تسير الأمور إلى الأفضل. همّ بالالتفات عنه منزعجاً شديد الانزعاج، ولكن في تلك اللحظة انطلق الطائر أبنوسيّ اللون من فوق كتف الرجل، رسم بجناحين خافقين خطّاً دائرياً في المعبد، حطّ برهةً قصيرة على الإفريز حيث تستند القبة على القاعة المستديرة، ثم طار في صعود وهو ينقو واختفى عبر الفتحة الزرقاء.

نظر إليه جميع من في البانيون، التقط اليابانيون صورة له على جناح السرعة، وعلم أونو في الحال أنه لن يعود مرّةً أخرى. لم يكن قصده التحدّث إلى كويتن، كان يريد فقط رؤيته برهة قصيرة، أراد مناداة الطائر بأن يعود أدراجه، لكنّه خاف أن يتعرّف كويتن صوته. لم يستطع توديع إدغار حتى بكلمة واحدة - وباغته شعور بأنه تُرك وحيداً مرةً أخرى إلى درجة أنه لم يعد يستطيع التحمّل.

عندما رأى كويتن الشخص المهلهل يقترب منه مرتعشاً، متكئاً على عصا، ودّ أن يمشي في خطّ مقوّس من حوله ويركض إلى الخارج؛ لكنّه قرّر القول له بوضوح إنه لا يريد أن يمّت بأيّ صلة إليه - على الأقل إذا كان يتحدّث الفرنسية، أو الألمانية، أو الإنكليزية - ثم يخرج من المعبد بكرامة وكبرياء. عندما وقف الرجل قبالة، خلع نظّارته الشمسية.

شعر كويتن بأنه يتحوّل إلى تمثال عن نفسه. توقّف تنفّسه، وقلبه، ودماغه وأحشاؤه؛ تحوّل لحظة إلى رخام وهو ينظر في عيني أونو، اللتين يعرفهما حقّ المعرفة، ويبدو في الوقت

نفسه أنّ شخصاً مختلفاً تماماً عن والده ينظر بهما إليه. ثم ارتضى أحدهما في حضن الآخر وبقيا متعانقين لبضع ثوانٍ دون حراك.

أجهش كويتن بالبكاء: «بابا!».

بحث أونو بعينه في ما حوله: «يجب أن أجلس».

سارا يداً في يد إلى مقعدٍ خشبيّ، يبعد بضعة أمتار من التابوت الحجري المحتوي على رفات رفائيل، حيث بقي أحدهما ينظر إلى الآخر عاجزاً عن الكلام. من ناحية شعر كويتن بأنّ جلوس والده هنا لا يمكن أن يكون شيئاً حقيقياً، ومن ناحية أخرى يبدو واضحاً أنه وجده، رغم أنه لم يكن يبحث عنه. كم يبدو مهلهل المظهر! لا يمكن أن يكون السبب هو نقص المال، لكنّه مع ذلك يبدو متدهور الحال كامل التدهور. كان العمّ كارل صائباً في رأيه: موت الخالة هيلخا جعلت منه معزلاً. هل ما يحدث الآن بالشيء الجيد حقاً؟

لقد تشوّشت أفكار أونو أيضاً بشكل كامل. أدرك أنه وضع حياته كلّها في مهبّ الريح من جديد باندفاعه. بالتحدّث إلى كويتن، أقدم على شيء لا رجوع فيه: من المستبعد طبعاً أن يودّعه بعد قليل إلى الأبد، لكن من المستحيل بالقدر نفسه أن يستأنف حياته السابقة. في الوقت نفسه شعر بشيء من الارتياح بأنّ كلّ شيء صار مختلفاً عما كان عليه خلال السنوات الأربع الماضية. عندما رحل من هولندا، كان كويتن صبيّاً في الثانية عشرة من العمر؛ والآن صار رجلاً تقريباً. خجل من نفسه لأول مرّة، أخفض عينيه ولم يعرف ماذا يجب عليه القول. رأى كويتن عليه هذا الأمر، فسأل: «هل أذهب؟».

هزّ أونو رأسه بلا، وقال بصوت خافت: «لقد حدث ما حدث. كويتن.. كيف حالك؟ كم تبدو جميل المظهر! أصبحت أطول قامّة».

- هذا صحيح، نعم.

- منذ متى أنت في روما؟

- منذ ظهر أمس.

- هل أنت مع الصفّ كلّهُ؟ أنا أيضاً أتيت إلى هنا لأول مرّة، عندما كنت في الصفّ الثاني عشر.

- لقد رسبت في الصفّ التاسع، لذلك أنا في الصفّ الحادي عشر. لكنني تركت المدرسة.

أدرك أونو، الذي تخلى عن أكثر من هذا بكثير، أنه لا يستطيع إبداء أي ملاحظة: لقد فقد حقّه في الكلام، لا لشيء إلا لأنه لم يكن على علم بالأمر. يضاف إلى ذلك أنه سمع في صوت كويتن نوعاً من التصميم، يرفض مسبقاً أي اعتراض. أراد الاستفسار عن حال آدا، لكن لعلّها لم تعد على قيد الحياة.

- لا أزال غير مصدّق أننا نجلس هنا يا كويتن.

- لعل الأمر ليس هكذا.

ظهرت ابتسامة على وجه أونو: «لعلنا نحلم. نرى نحن الاثنين الحلم نفسه».

ونظر إليه بتردد. يجب أن يستفسر عن آدا: «كيف حال ماما؟».

- لا تزال على حالها، حسبما أعلم. لم أرها أنا أيضاً منذ زمن بعيد.

لم يرغب في التكلّم عن والدته؛ كذلك باغته شعوراً بالانزعاج من حقيقة أنّ والده سأل عنها. كان يمكن أن تكون ميتة. أو لعلّها ماتت في الفترة الماضية؟ جدّته لا تعرف بعد كيف تستطيع الوصول إليه. بعد قليل سيُريد طبعاً معرفة كيف حال ماكس، ويجب عليه عندئذٍ إخباره بما حدث. سأل بغية تغيير مجرى الحديث: «لماذا تنكّي على عصا؟».

وضع أونو العصا على حضنه ونظر إليها. كانت غصناً مشدّباً بخشونة مليئاً بالعقد، تحوّلت نهايته غير المحميّة إلى فرشاة مهترئة؛ مقبضه المنحني مشغول ببراعة فنية على شكل رأس ثعبان.

أدار وجهه بهوادة إلى كويتن وقال: «جميلة، أليس كذلك؟ وجدتها في محلّ الأدوات المستعملة. لقد أصبت بتزيف دماغي خفيف قبل سنة ونصف».

وعندما رأى الفزع على كويتن، قال: «لا داعي للقلق، لقد صار ذلك وراء الظهر. لكنّه حدث في العمق، في مكان خطير، في الثلاموس^(٥) كما يُسمّى. لو حدث بضعة ستيمترات إلى الأمام، لكنت الآن في كرسي متحرّك - رأى طبيب الأمراض العصبية أنني يجب أن أعدّ نفسي محظوظاً. هل تعرف هذا الأمر؟ عندما يدعسك ترام وتفقّد ساقك، يجب أن تكون سعيداً بأنك لم تفقّد ساقيك الاثنين. عندما تتعرّض لشيء خطير، يجب أن تعدّ نفسك محظوظاً وتكون سعيداً».

- هل تألمت كثيراً؟

(٥) يُسمّى أيضاً: المهاد، وهو بنية مزدوجة من المادة الرمادية توجد في الدماغ الأمامي. [م]

- لا، بتاتاً. عادة تسير الأمور على أرض الواقع بشكلٍ مختلف عما كنت تتصوره. هل أخبرك عنه؟

رفع كويتن كتفيه. لم يُرد أن يعرف في الواقع، لكنه أراد تأجيل السؤال عن ماكس أطول فترة ممكنة.

في يوم شتويّ بارد، هكذا قال أونو، كان يمشي في شارع غير بعيد من هنا. شعر فجأةً بأنّ هناك شيئاً معلقاً فوق رأسه. خُيِّل إليه أنه لم يعد موجوداً تماماً في المكان الذي هو فيه. بدأت يده اليسرى تتخدر، وما لبثت أن تخدّرت قدمه اليسرى أيضاً. أحسّ وكأنّ هناك بضع حصوات صغيرة في حذائه، ولكن ما إن مضت دقيقة واحدة حتى امتلأ حذاؤه الأيسر بأكمله بالحصوات وشكّلت تلك الحصوات كلّها قدمه اليسرى. ما إن مضت دقيقةً أخرى حتى فهم أنّ هناك شيئاً خاطئاً برمّته. لقد فقد الإحساس في ساقه اليسرى، وجنبه الأيسر، والجانب الأيسر من وجهه. لأنه كان الجانب الأيسر، فقد فكّر في قلبه، لكنه لم يكن يشعر بألم في صدره، وإنما بألم طفيف في رأسه، لكنه طفيف إلى درجة أنك لا تحتاج إلى أخذ حبة أسبرين. اضطرّ إلى التوقّف عن السير بين حينٍ وآخر. عندما جسّ نبض معصمه، كان قلبه يدقّ بسرعة تبلغ من الشدّة أنه لم يستطع عدّ الدقات. حاول خلع قفازه الأيسر، لكنه لم يكن يرتدي قفازاً على الإطلاق، لاحظ أنّه يسحب أصابعه. حاول أن يقرأ على وجوه الناس القادمين باتجاهه ما إذا كانوا يرون شيئاً غريباً عليه؛ لكنه لم يرَ أيّ شيء استثنائي. عرف مع ذلك أنه موجود في عالم مختلف عن عالمهم، جلس على حافة رصيف، فسألته امرأة عمّا إذا كان يجب الاتصال بالإسعاف. قال لا حاجة إلى ذلك، لكنها اتصلت مع ذلك؛ بعد برهة قصيرة، نُقل إلى المستشفى بصفّارات إنذار مدوّة. هناك دفعوه في نوع من الأفران الدائرة العملاقة، ليأخذوا صوراً لدماعه. بعد ثلاثة أيام عاد إلى البيت.

- فقط مُنعت من التدخين والشراب. نعم، ثلاث كؤوس من النبيذ في اليوم، لكنك في الواقع ممتنع كلياً عن الشراب. لا يزال الجانب الأيسر من جسدي مخدراً بعض الشيء، وأصاب بالدوار بشكل شبه دائم عندما أمشي. لعلّ هذا سيمضي مع مرور الوقت؛ لكنك عندما تتقدّم في العمر، لا تمضي الأشياء على العموم. لذلك أتكى على عصا. أستطيع المشي من دونها أيضاً، لكنني أشعر بها بمزيد من الأمان.

- ما السبب في إصابتك المفاجئة بالنزيف الدماغي؟

- هذا يبقى في إطار التخمين. هل تتذكّر أنني كنت أعمل في الماضي على فك رموز

الكتابة القديمة؟ في إحدى المرات نشرت نظرية عن اللغة الإترورية، حصلت بها على دكتوراه فخرية في ذلك الوقت.

- نعم، عمّتي دول قالت لي مؤخراً إنك طلبت منها إعادتها إليهم.

ردّد أونو: «دول!». ولزم الصمت برهة قصيرة: «كيف حال دول؟».

- إنهما يعيشان الآن في مينوركا.

أجال أونو بصره بأسى في المكان الذي أخذ يمتلئ بالسائحين بوتيرة متزايدة: «لعلّك تعلم أيضاً أنني بعد تلك الكتابة الإترورية بدأت أعمل على قرص فستوس، لكنني لم أوفق في فك رموزه. انخرطت في السياسة لأتذرّع بذريعة أنني لم أعد أستطيع مواصلة العمل عليه. ولكن في السياسة أيضاً لم تسر الأمور على ما يرام، وعندما توفيت خالتك هيلخا لم أعد أستطيع التحمّل. هذا ما كتبته لكم جميعكم. أردت أن أرحل بلا عودة - ولكن إلى أين؟ قلت لنفسني حينذاك: لقد عدت إلى نقطة الصفر، لن أفعل أي شيء آخر في أغلب الظن، لكنك لا تعلم ذلك علم اليقين. ليس هناك شيء مؤكّد في الحياة باستثناء الموت - وهذا ما تراه الآن. لذلك قلت لنفسني: إذا فعلت شيئاً ذات يوم، فسأواصل العمل على ذلك القرص من حيث توقفت. لم تكن تلك الكتابة قد فُكّت رموزها حتى ذلك الوقت. كانت ملاحظاتي القديمة هي الشيء الوحيد الذي أحضرته معي من أمستردام، رغم أنني لم أكن أستطيع فهمها تقريباً. ولأنه كان عليّ الرحيل إلى مكان، فقد حدّدت هي وجهتي في الوقت نفسه. روما. لن تجد هذا الكمّ الهائل من المواد في هذا المجال في أي مكان آخر مثلما تجده هنا. لعلّك تجده في لندن أيضاً، لكن الجوّ هناك ماطرٌ على العموم».

هتف كويتن: «طبعاً! كان يمكنني التفكير في هذا أيضاً! لم أفكر إلّا في جزيرة كريت».

نظر إلى كويتن: «هل كنت ترغب في البحث عني؟».

- طبعاً، هل تراه عملاً جنونياً؟

نكّس أونو عينيه. لا بدّ أنه كان دائخاً من الضربة بطريقة أو بأخرى طوال تلك السنوات، مثل ملاكم عالق في حبال الحلبة ويتلقّى اللكمات من منافسه دون انقطاع، حتى وإن كان الحكم بربطة الفراشة في عنقه يتدخّل بينهما بين حين وآخر. لم يسمح لنفسه قطّ بأن يفكر فعلياً في كويتن. أقنع نفسه منذ ولادته بأن الصبي يمكن أن يكون ابنه الطبيعي وابن آدأ، لكنّه في الحقيقة ابن ماكس وصوفيا منذ اليوم الأول. يا له من تقدير خاطئ! يا لها من كذبة شنيعة!

بدا وكأنّ مزيداً من القشور تسقط عنه دقيقة بعد دقيقة، مثلما تسقط من فطيرة هشّة تخرج من الفرن. قال: «لا، لا أراه عملاً جنونياً».

ونظر إليه مجدّداً: «هل زرت غيلتاي فيث؟».

- طبعاً. لكنني لم أخرج بفائدة.

صمت أونو لحظة - لكنّه بعد ذلك أجبر نفسه على القول: «هل تسامحني يا كوينتن؟!».

حملق فيه كوينتن بعينه اللازورديتين: «ليس هناك خطأ لأسامحك عليه».

خُيِّلَ إلى أونو أنه جالس قبالة والده - وكأنّ ابنه يفوقه في المقام، ولا يستطيع معارضته في شيء. تابع: «كنت أخبرك بما قد يكون السبب في التزيف الدماغي الذي تعرّضت له. كانت تلك الأشياء اللغوية مثورة في غرفتي ولم أكن ألتفت إليها إطلاقاً. ولكن في أحد الصباحات، قبل نحو سنة ونصف أيضاً، ذهبت إلى السوق في الساحة القريبة من بيتي لآتي بشيء من الطعام. اشتريت قطعة من سان بييترو، إنها سمك الشمس، لا أزال أتذكر ذلك بدقة؛ أتذكر كيف لفّتها بائعة السمك في جريدة بيديها المتورّمتين الحمراءوين. لم أكن أقرأ الجرائد قطّ منذ غادرت هولندا، لكنني عندما أخرجت السمكة من الجريدة في البيت، رأيت اسمي فجأة - مهجّتي كيوست. عندما تصبح مشهوراً في المستقبل وتحدّث عنك الجرائد، سوف تلاحظ هذا أيضاً: حروف اسمك تبدو وكأنها تقفز من الورقة إلى عينيك. كان الخبر عن مناسبي السابق بيليغريني، الذي كان بروفيسوراً هنا في روما ولم يكن يوافقني على شيء في نظريتي الإترورية. حتى لقد كتب حينذاك رسائل إلى أوبسالا ليحول دون حصولي على الدكتوراه الفخرية، مثلما سمعت من عميدة الكلية هناك. في الخبر قرأت أنه كان في أيام شيخوخته في زيارة ابنه في منزله الريفي الجديد في توسكانا، في مكان قريب من مدينة أريتسو، وبينما يمشي الهويني في الحديقة هناك، سقط فجأة في حفرة تحت الأرض. وماذا تظن؟ لقد سقط في مدفن إتروري. لقد انكسر وركه، ولكن أوّل ما رآه منقوشاً على شاهدة قبر هو ثنائي لغوي جديد - إنه نصّ واحد مكتوب بلغتين، الإترورية والفينيقية في هذه الحالة. تبين من هذا أنّ البروفيسور الآيسلندي كيوست كان مخطئاً على كلّ حال. هكذا لم يتبقّ أيّ شيء من حياتي».

- ما عداي أنا، أليس كذلك؟

فقال أونو وهو يحوّل عينيه عنه: «نعم، ما عداك، طبعاً. ولكن لا شيء آخر. وعلمت أيضاً أن لا أحد في هذا المجال سيأخذني على محمل الجدّ إذا ما توصّلت إلى حلّ بشأن قرص

فستوس. لذلك رميت ملاحظاتي كلها في القمامة، مئات الصفحات، عمل سنوات. لعل أكثر ما صعقني هو ملاحظة بيليغريني. عندما سأله الصحافي كيف يمكن بحق الرب أن يسقط هو بالذات في ذلك المدفن، أجاب الوغد العجوز: «مسألة موهبة». إنه على حق. ليست لديّ موهبة. في اليوم التالي حدثت تلك الحادثة في غرفة نومي».

- في غرفة نومك؟ قلت للتو إنها حدثت في الشارع.

- هذا ما تعنيه «الثلاموس»: «غرفة نوم»، «مهاد»، «سرير زواج».

نظر كويتن إلى البيضة المبهرة للأبصار: لقد تركت اللوحة الجدارية، نزلت قليلاً وانزاحت إلى اليمين، إلى معبد فيه لوحة بشارة بلون ترابي. كان المكان قد ازدحم بالناس، لكنه لا يزال على الهدوء نفسه، كما لو أنّ فتحة الضوء في القبة تمتصّ الأصوات مثل الدخان. تنهد كويتن بعمق. لقد أَلَمّت بوالده مصائب كثيرة، لذلك يجب أن يُسامح في كثير من الأمور. أهذا هو حال الجميع؟ أهذه هي الحياة؟ إذا كان كلّ شيء ينتهي إلى اللاشيء، فأَيّ فائدة تجنيها منها إذا؟ هل يتنظّره هو أيضاً شيء من هذا القبيل؟ هذه الفكرة بدت له مثيرة للسخرية. طبعاً لا! إنه لا يعرف ماذا سيفعل، ولكن عندما يأخذ قراراً، سيبدل جهده في إيصاله إلى نتيجة مرضية، لن يسمح لأيّ شيء أو لأيّ شخص بأن يمنعه من ذلك، هذا أمر مؤكد مئة بالمئة!

- ألا تخشى حدوث ذلك مرة أخرى؟

رفع أونو كتفيه: «نزيف دماغي؟ إذا كان سيحدث فليحدث. لا أنشغل كثيراً بجسدي، كنت أشعر على الدوام بأنه أحد آخر. نوعٌ من حيوان منزلي».

ورفع عينيه لحظة إلى قرص الضوء الذي اختفى إدغار من خلاله.

- وماذا تفعل طوال اليوم؟

- لا شيء. أنام. أكتب ملاحظات. أفكر قليلاً، ولكن كلّ ما أفكر فيه فظيع بالقدر نفسه. ونظر إليه: «لم أعد موجوداً يا كويتن. في إحدى المرّات قرأت قصّة عن امرأة بلا ظلّ، لكنني ظلّ بلا رجل».

وهكذا كان. لم يكن بوسع كويتن تصوّر أنّ الرجل الجالس هنا هو الرجل الذي كان سيُجيب في الماضي عن هذا السؤال، بهزّ سبابته فوق رأسه مثل نبيّ، ويهتف: «إنني مكرّس نفسي للروح! لنداء الهاوية!». أراد سؤاله عن الغراب الذي طار قبل قليل عبر الحديقة الزرقاء، ولكن في تلك اللحظة نفسها فتح أونو فمه هو أيضاً. كبح كويتن نفسه وعلم ما سيأتي الآن.

- هل ماكس أيضاً في روما؟

لم يجب كويتن، بل بقي يحملق فيه.

- لماذا لا تقول شيئاً؟

رأى كويتن بينما ترتعد أوصاله أن موت ماكس ينفذ إلى كيان والده من دون كلمات أيضاً، مثل ماء يتسرب في صخرة.

تلعثم أخيراً: «متى؟».

- قبل بضعة شهور.

- كيف؟

- أصابه نيزك.

بقي أونو ينظر بصمت في القاعة الهامسة. هل هرب من هذا الخبر، من احتمال هذا الخبر، قبل أربع سنوات، لأنه لم يكن ليتحمّله هو أيضاً فوق كل ما تحمّل؟ أما الآن فقد نزل في أحشائه مثل وجبة طعام استساغها - ربما لأن كويتن رجع إليه مقابل ماكس؟ بعد دقيقة واحدة استنشق الهواء بعمق وقال: «هو أيضاً».

- ماذا تعني «هو أيضاً»؟

- حرمان من الموهبة.

*

في ذلك المساء، في نُزل الشباب، عندما لم يستطع كويتن الخلود إلى النوم، بقي يرى رسمةً من كتاب، أهدها إياه ماكس ذات مرّة في عيد ميلاده: في لحظة تظهر كمحيط مزهرية، وفي اللحظة التالية على شكل وجهين من الجانب، ينظر أحدهما إلى الآخر: يبقى الفضاء والمادة يتبادلان المكان على نحو متواصل، الفضاء يصبح مادة، المادة تصبح فضاء. عندما استغرق في النوم أخيراً، اختفى وجه والده، ووجهه أيضاً - لم يبق سوى ما كان بينهما: تلك المزهرية، ملأى بهواء سائل، ماء أزرق بجوار الصفر المطلق...

54. حجارة روما

في صباح اليوم التالي، ذهب كويتن إلى العنوان الذي أعطاه إيّاه أونو. فبدأ يلغرينو شارعاً مرتفع، وضيق، ومتعرج، يفضي إلى ساحة كامبو دي فيوري، وهي ساحة كبيرة تُقام فيها السوق. هناك كومةٌ من القمامة في الزاوية القريبة من مقهى، لكنّه مع ذلك ليس حياً شعبياً؛ واجهات مجصّصة بالأحمر والبرتقالي، محلات عديدة لبيع المفروشات المستعملة، تتناوب معها بسطات أدوات المطبخ البلاستيكية، ورشة تصليح بيانوهات، بقالة صغيرة. قبالة متجر ساعات، ثمة ممرٌ مسقوف، علّقت على جدرانهِ مرايا ذات إطارات ذهبية؛ البوابة التي يقوم على جانبيها عمودان أثريان متآكلان، حيث القسم الأكبر منهما لا بدّ أن يكون تحت الأرض، تفضي إلى فناء داخلي خاص، زُرعت على مدارهِ نباتات في أصص كبيرة وتقف فيه درّاجات كهربائية وبخارية. ثمة نجّار انهمك في العمل تحت الغسيل المنشور مثل زينة احتفالية، وتنبعث الأصوات والموسيقا من الشبايك المفتوحة. أمعن في كلّ شيء بعينين متّسعيتين. إذًا، هذا هو ذلك المكان من العالم الذي بحث عنه تلك السنوات كلّها والذي كان موجوداً هنا من دون انقطاع. الآن وقد وصل إليه، يبدو له غير مفهوم عدم علمه من قبل أنه كان يجب عليه المجيء إلى هذا المكان.

صعد الدرج الخارجي الذي وصفه له والده، ووصل إلى بئر سلّم تعصف بها تيارات هوائية عنيفة، وتضجّ بصخب أطفال يلعبون، تتخلّلها بين حينٍ وآخر أصوات أمّهات مناديات: «باولو!» أو «جيورجيو!». في الطابق العلوي كان الباب المفضي إلى غرفة والده نصف مفتوح. توقّف بتردد على العتبة: «بابا؟».

أجاب أونو: «أتري!».

(٥) بالفرنسية، وتعني: ادخل. [م]

كان منحنيًا إلى الأمام، بجسده العلوي العاري، على مغسلة صغيرة ينظف أسنانه بالفرشاة. شعره الطويل مسدل، لحيته شعشاء؛ الآن يتبين بصورة أوضح كم صار ثقيل الوزن. قال في مرآة حلاقة صغيرة، برغوة المعجون البيضاء على شفثيه: «صباح الخير. كنت أودّ القول إن البيت بيتك، ولكنّ هذا لن يكون ممكناً هنا».

لم يتفاجأ كويتن بانعدام الترتيب. كان السرير يقوم بوظيفة خزانة ملابس في الوقت نفسه؛ تبرز كراكيب لا سبيل إلى تعريفها من صناديق كرتون؛ الفوضى المحيطة بموقد غاز في ركن من أركان الغرفة تكاد لا تستدعي إلى الأذهان فكرة المطبخ. ليس هناك تلفون ولا راديو في أيّ مكان، فضلاً عن تلفزيون. ألقى نظرة من نافذة العلّية الموجودة فوق المكتب. بحيرة متموجة من سطوح آجرية بلون بنيّ صديّ، هوائيات استقبال، أبراج كنائس، بارزة أمام السماء ذات اللون الأزرق العميق. رأى في البُعد الملك العملاق فوق قلعة سانت أنجلو، على الطرف الآخر من نهر التير. حافة النافذة مغطّاة بطبقة سميكة من ذرق الطيور.

- يا لها من فوضى في كلّ مكان! هل أنظف؟

- لن تعرف من أين تبدأ. ولكن افعل ما تريد، ارم كلّ شيء!

لم يعودا إلى الحديث عن ماكس. بينما يخبره أونو عن إدغار الذي كان يلازمه في الآونة الأخيرة، ربّ كويتن الطاولة، ملأ كيسيّ قمامة بالنفايات، وجمع الملابس المتسخة الملقاة كيفما اتفق في كلّ مكان.

- لماذا سمّيته إدغار؟

- تيمناً بإدغار آلان بو طبعاً. لقد كتب قصيدة مشهورة بعنوان: الغراب.

استقام بقامته، نظر في المرآة دائرية الشكل المعلّقة بالمسمار على الحائط، وقال بالإنكليزية: «أصدقاء آخرون طاروا من قبل - سيفارقي في الغد، مثلما طارت آمالي من قبل - فقال الطائر: لا على الإطلاق». ثم تابع: «لكنّه تركني مع ذلك ويراودني شعور بأنه لن يعود. لعلّه ارتعب من البانثيون. لكنني تصالحت مع هذا الأمر، لأنك رجعت إليّ مقابله». وخطر في باله: ومقابل ماكس، لكنّه احتفظ بهذا لنفسه.

كان كلّ منهما يشعر باضطراب الآخر من الوضع الجديد، لكن لم يستطع أيّ منهما أن يجد الكلمات للتحدّث عنه. أخذوا الغسيل إلى المغسلة، التي تبعد بضعة منازل عنهما، وجلسا

على مصطبة المقهى في الزاوية. ثمّة تمثالٌ قائم لراهب تغطّي قلنسوة رأسه، قائمٌ في وسط الساحة مستطيلة الشكل المكتنّزة بالناس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأل كويتن: «من هذا؟».

- غوردانو برونو.

أحنى كويتن رأسه: «الذي جعل الكون لانهائياً».

- هل أخبرك ماكس بهذا؟

- لا، السيّد فيرلورن فان ثيمات.

- وحفظت ذلك عن ظهر قلب؟

- نعم، ولمَ لا؟ أنا لا أنسى أيّ شيء تقريباً.

نظر أونو إلى التمثال برهةً من الزمن مستغرقاً في التفكير، ثم أشار بعصاه إلى الزحام بين البسطات: «في ذلك المكان أحرقوه بتهمة الهرطقة. هل تعرف ما هذا كلّ؟ هذا كلّ هو الذي ليس موجوداً أيضاً».

- لم أفهم.

- العالم سيكون إلى الأبد هو العالم الخالي من ماكس أيضاً.

يعلم كويتن أنّ ماكس كان يعني له أكثر مما كان يعنيه له هو نفسه؛ وأنه في الماضي البعيد ربطتهما صداقة من نوع لم يربطه هو نفسه بأيّ شخص ولن يربطه أيضاً. نظر من زاوية عينه إلى والده. كان رأسه قد انحنى قليلاً إلى الأمام؛ قُربُ الوجه الملتحي بالنظّارة الشمسية ينطوي على شيء منيع، وكأنه يبلغ في الوقت نفسه من البُعد ما لا يمكن الوصول إليه.

خرج النادل من المقهى وألقى تحية على أونو وكأنه أحد معارفه القدماء، ودعاه «سينيور إنريكو». بينما يمسح الطاولة بمنديل مبلّل، ألقى نظرة على كويتن بحاجبين مرفوعين قليلاً.

قال أونو بالإيطالية: «هذا ابني يا ماورو. كويتيليو».

صافحه ماورو، دون أن يخفي ذلك التعبير الساخر من وجهه. بدا واضحاً أنه لم يصدّقه تماماً؛ لقد أقام العجوز الشاذّ علاقة مع صبيّ من صبيان الهوى، من فئا أيبا - لكنّه لم يعجب عليه هذا الأمر.

قال أونو عندما دخل ماورو المقهى: «الجميع يعرفني هنا باسم السيد إنريكو».

ثم بشيء من الخجل في صوته: «إنريكو ديليوس. يظنون أنني نمساوي من تيرول». أحنى كويتن رأسه كما لو أن هذا شيء بديهي: «المدعو ماورو نظر إليّ نظرة غريبة إلى حدّ ما». وأخبره عن محاولات الإغراء التي تعرّض لها في البندقية وفلورنسا. بعد ذلك سأله أونو: «ألم تترك حبّاً كبيراً وراءك في هولندا؟». أجاب كويتن بإيجاز: «لا».

هذا شيء غير موجود بالنسبة إليه ولا يريد التكلّم عنه أيضاً. أراد أونو القول له إنه من الأفضل ترك الأمر على هذا النحو، لأنّ كلّ علاقة حبّ هي بداية تؤدي بالضرورة إلى نهاية مأساوية، لكنّه قرّر ألاّ يثقل كاهل كويتن بهوموم. فهذا لا يتّمي إلى بداية الحياة بل إلى نهايتها. بقيا ينظران في صمت إلى زحام السوق. عندما وضع النادل الكافيّه لاتيّه والكرواسان أمامهما، قال أونو: «كم أرغب في أكل الكروكيت مرّة أخرى!!».

- أنا أحبّ الكرواسان أكثر. ليت جدّتي تستطيع رؤيتنا جالسين هكذا إلى مائدة الفطور.

- هل أبلغتها أننا التقينا؟

- لا. لم أرسل لها رسالة بعد.

- لعلّك يجب أن تحتفظ بهذا لنفسك في الوقت الحاضر.

- لماذا؟

- لا أعلم.. إذا أبلغتها، سيصل الخبر إلى أعمامك وعمّاتك أيضاً بطبيعة الحال، ولا أعرف ما إن كنت أريد هذا.

أحنى كويتن رأسه علامة الموافقة. راقه أيضاً أن يشارك سرّاً مع والده. استند أونو على ركبتيه وغمس خبزه في القهوة. كان لا يزال يشعر بالضيق، لكنّه سأل فجأة: «ما رأيك أن تسكن معي يا كويتن؟ لا أعرف كم تريد البقاء في روما، ولكن أليس من الهراء أن تنزل في فندق، في حين تستطيع السكن معي؟».

وعندما نظر إليه كويتن في اندهاش، قال: «دعنا نشتر سرير تخييم، بعد ذلك ستذهب لإحضار أغراضك، وستنحلّ هذه المشكلة أيضاً».

ظهرت ابتسامة عريضة على وجه كويتن. لقد حان الوقت أخيراً: سيسكن مع والده!

لم يسبق له أن لازم أونو مثل هذه الفترة الطويلة. صاروا يذهبان معاً إلى المدينة كل يوم. عندما وصل إلى ساحة القديس بطرس لأول مرة، صُعق من رؤية المسلة وسط صفوف الأعمدة المحتضنة من تصميم برنيني، حتى أكثر مما صُعق من واجهة البازيليكا المهيبة، التي تطيع هي أيضاً مبدأ البانثيون.

قال أونو: «نعم، ماذا يمكنك القول عن هذا؟ مسلة مصرية في قلب العالم المسيحي. هنا صلبوا بطرس رأساً على عقب، في ميدان نيرون. بوسعك إيجاد مسلة في كل مكان من روما». قال كويتن: «لعلّ هذا يمتّ بصلة إلى المنفى المصري، الذي حرّر موسى اليهود منه». فقال أونو ضاحكاً: «من يستطيع قول هذا؟ ولكنّ تلك الصلة لا يمكن فهمها إلا بطريقة تفكيرك التي لا سبيل إلى فهمها».

نظر كويتن إلى الظل الطويل الذي تلقيه المسلة، مثل ساعة شمسية، ثم إلى الدعائم الخالية من الكتابة: «ليس هناك أي شيء عليها. الحقّ أنك يجب أن تكتب عليها شيئاً ما». ثبتّ أونو عينيه على الغرائب الأملس، أشار بعصاه إلى القمة، ثم أخذ يُنزلها شيئاً فشيئاً مع كلّ كلمة يقولها بالهيوغليفية: «باوت نيتيرو هير ريش سيب سين إني أشار سا هيرو مين أب ما خيرو سا أست أو أشار - هذا يعني...».

- لا أريد أن أعرف. إنه يبلغ من الجمال ما لا يمكن التعبير عنه.

كان كل شيء جديداً بالنسبة إلى أونو أيضاً. لقد جاء في الماضي إلى روما مراراً وتكراراً، - المرة الأخيرة عندما كان وزيراً مفوضاً: حينذاك ذهبت به سيارة حكومية، يتقدّمها رجال شرطة على دراجات بخارية بصفّارات إنذار، من المطار إلى قصر كويرينالي، متجاهلة الإشارات الحمراء كلّها؛ لكنّه منذ أن سكن فيها، لم يغادر حيّه.

في البازيليكا الضخمة ساعد كويتن في ترجمة الكلمات اللاتينية العملاقة، المكتوبة في دائرة في القبة فوق المذبح الرئيسي:

TV ES PETRVS ET SVPER HANC PETRAM
AEDIFICABO ECCLESIAM MEAM

- يبدو من الوهلة الأولى أنه مكتوب: «أنت بطرس، وعلى هذا البطرس أبني كنيسة»^(٩).

(٩) إنجيل متى 16: 18. [م]

ولكن يجب عليك معرفة أن بطرس كلمة إغريقية تعني «صخرة». يُقال إن قبر بطرس تحت هذا المذبح، ولذلك بُنيت الكنيسة عليه - ليس هذا المبنى فحسب، وإنما الكنيسة الكاثوليكية على العموم. الباباوات يعتبرون أنفسهم خلفاء له.

زارا متاحف الفاتيكان وصندوق الذخائر المقدسة النفيس في كنيسة سيستينا، حيث لا يُسمح بالكلام إلا همساً، أما الكرادلة فيتصايحون طبعاً وراء جدارهم الذهبي ويتصارخون عندما يحين الوقت لانتخاب بابا جديد من بينهم، على الأقل عندما لا يكونون غارقين في النوم بلعاب سائل على ذقونهم. عندما رأى أونو لوحة «خلق آدم» بريشة مايكل أنجلو تظهر بألوان زاهية من دخان الشمع ذي اللون البني الغامق المتراكم على مدى قرون، باغتته ذكرى نسخة النيون الشيوعية على «الرامبا» في هافانا، قبل ثماني عشرة سنة، عندما بدأ كل شيء، لكنه لم يتحدث عنه.

سأله كويتن عندما خرجا من الكنيسة: «هل تعتقد أن آدم كان له سرّة؟ لم يكن له أم، أليس كذلك؟».

- إنه لأمر حسن ألا تكون قسيساً هولندياً. كانوا يكفرون بعضهم بعضاً بسبب هذا النوع من القضايا على مرّ قرون من الزمن.

اصطحبه كويتن أيضاً إلى أماكن متنوّعة لم يكن قد زارها قطّ، مثل هضبة أفيتين: «من أجل أن ينظر من ثقب المفتاح». في منطقة هادئة، على طرف الهضبة شديد الانحدار إلى نهر التير، هناك نتوء من الشارع مستطيل الشكل محاطٌ بجدران من ثلاث جهات، تظلل أشجار السرو والنخيل. من غير المناسب تقريباً إطلاق اسم ساحة على «دي كافاليري دي مالطا»^(٥)، فالمساحة تبدو أشبه بمعبد غير مكتمل البناء. لم يكن هناك أحدٌ، وتولّت كويتن قشعريرة في الحال، عرف مصدرها: الحصن. رأى أونو أنّ شيئاً قد حدث له، لكنه لم يسأل عنه؛ لم يقل كويتن شيئاً سوى أنه من تصميم بيراني. في حين جلس أونو على مقعد حجري من أجل تهدئة الدوار الذي أصابه، أخذ كويتن يسير بمحاذاة الجدار البالغ ارتفاعه أربعة أمتار أو خمسة، ملقياً نظرة خاطفة على بوصلته بين حين وآخر. توقفت الإبرة عند الطرف الجنوبي الطويل والطرف الغربي الأقصر بسبب مسلات، وشواهد، وألواح، وزخارف غامضة تبلغ من الغرابة في الأسلوب، أو في انعدام الأسلوب، أنه كاد لا يصدّق عينيه. قيثارات، كرات،

(٥) تعني: فرسان مالطا. [م]

نقاط، خُوذ، صلبان، سيوف، أجنحة، آلات نفخ. الجدار ينتهي على الطرف الشمالي في بَوَابة مفضية إلى دير فرسان مالطا: قطعة ديكور عريضة، ذكّرت من النظرة الأولى ببالاديو، ولكن من النظرة الثانية رآها غريبة غرابية الإنشاءات الأخرى، بزخارفها المتأنقة، ومشكاواتها المسدودة مثل النوافذ، والجِرار الكبيرة المصفوفة على السطح. الموقع المقدّس ينضح بجو «السجون المتخيّلة»، التي أطلعها عليها السيّد ثيمات، زنازين بيرانيزي اللانهائية، لكنّه ينضح في الوقت نفسه بجوّ حلمه - وهذا كلّ ملخّص باقتضاب في نموذج مستطيل الشكل. انحنى بجذعه ونظر عبر ثقب المفتاح الشهير في البَوَابة. على مسافة بعيدة، وتحديدًا في محور سياج طويل من شجر الغار مشدّب بعناية، تلوح قبة كاتدرائية القديس بطرس. نعم، طبعاً، إنها مركز العالم بالنسبة إلى العديد من الناس، ولكن ليس بالنسبة إليه.

أراد أن يلوّح لوالده، لكنّه عندما رآه جالساً وحده على الطرف الآخر مستنداً على عصاه، مثل مدمن كحول متشرّد يقات على حاويات القمامة، كبّح نفسه. كانت الساحة المقفرة دافئة في ضوء الشمس الربيعية الباهت. لقد لمّ القدر شملهما في نهاية المطاف، ولكن الآن وقد تحقّق المراد، يبدو وكأنه يتواصل مع حجارة روما أكثر مما يتواصل مع والده. كذلك في المساء في فيا دل بيليغرينو قلّما يتبادلان الحديث، ولا يتحدّثان عن الماضي إطلاقاً؛ هذا كلّ يقع بطريقة أو بأخرى على الطرف الآخر من عقبة، لا يريد أيّ منهما التغلّب عليها. لكنّه مع ذلك يعلم علم اليقين أنّ عليهما البقاء معاً، مثل رفيقين سلّم القدر أحدهما إلى الآخر.

نظر كلّ واحدٍ منهما إلى الآخر. ناجى أونو نفسه: هناك شيء لا يرحم في هذا الصبي، شيء غير إنساني. نفحة من برودة ما بين النجوم.

*

في ساحة فينيسيا، كان رجل شرطة بخوذة بيضاء ينظّم حركة المرور بحركات تبلغ من الدقّة المبهرة ما استدعى إلى ذهن أونو نظرية السلطة الجسدية. ولكن لكيلا يتيح له المجال بيتّ الرعب في كيانه، رفع هو نفسه عصاه المليئة بالعقد في الهواء، من حافة الرصيف، ثم أخذًا يشقّان طريقهما، ضاحكين، بين السيارات السائرة، إلى الجانب الآخر، مثلما عبّر قطيع من الفيلة الهاربة الضاحجة بالنهيم. ما إن مضت بضع دقائق حتى نزلا إلى هوة الماضي الصامتة.

المتدى الروماني، هذا القطّاع الممتدّ من الآثار ذات اللون الأبيض والبنيّ المائل إلى

الحمرة، الأجزاء والكسرات، الأعشاب الضارة، الأعمدة المتهالكة، الصخور، الحفر، بقايا الجدران، كل شيء مسحوق بيد الزمن الفتاكة، شكّل بالنسبة إلى أونو صورة كثيفة عن حياته - ولكن تأثيره على كويتن كان مختلفاً كل الاختلاف. أثارت المنطقة هياجاً غريباً في صدره، مثل الهياج الذي قد يثيره عرضٌ جويّ في صدور صبيان آخرين، عندما تعبر تشكيلات من طائرات حربية من فوقهم على ارتفاع منخفض. ذكرته بالحصن مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة بما يبقى في ذاكرته بعد الاستيقاظ. إنه يقترب من شيء ما، هناك شيء ينتظره في مكان ما! ولكن أين؟ وما هو؟ على طول حافة السرداب المفتوح تضعّ حركة المرور على طريق فيا دي فوري إمبريالي، وعلى الجانب الآخر ترتفع هضبة بالاتين الكثيفة الناضحة بالتهديد، التي قامت عليها ذات يوم قصور الإمبراطور؛ الشمس تدور حول عمود فوكاس وهما يتجولان بين الأطلال الرهيفة ساعةً بعد ساعة. بعد خفّة البندقية المزبدة، الطافية مثل فلين على المياه، وبعد كتمان فلورنسا الهائل، تبلغ الأشياء هنا من الثقل أنها تهبط أمتاراً في أعماق الأرض. بينما يستمع إلى أونو، الذي يحمل الدليل السياحي من «دار السكّ والطباعة الوطنية الإيطالية» في يده اليسرى، وسبابته اليمنى على الصفحة، نفذت الحجارة إلى عيني كويتن متزاحمة، متدافعة، ومنظّمة نفسها. كوميتيوم. ريغيا^(*). أما المبنى من حجر الآجر، غير متناسب الأبعاد، الذي يقوم قبيحاً في الطريق، بالقرب من قوس النصر «سيبتيموس سيفيروس»، ويجب أن يُزال في الواقع من هناك، فقد تبَيّن فجأة أنه الكوريا: مجلس الشيوخ الروماني؛ أبوابه البرونزية الأصلية موجودة الآن في بازيليك اللاتران، حسب الدليل السياحي.

سأل: «ما هو اللاتران؟».

- القصر الذي كان الباباوات يقيمون فيه في العصور الوسطى، قبل أن يتقلّوا إلى الفاتيكان.

- يجب علينا الذهاب إلى هناك أيضاً.

قال أونو: «طبعاً، ما عليك إلا أن تقول. إنه غير بعيد من هنا - هناك، خلف المدرج الروماني. لم يعد القصر الأصلي موجوداً على كلّ حال».

مع كلّ خطوة على الحجارة الكبيرة المرصوص بها الفيا ساكرا، الطريق المقدّس، أخذ المتندى يتّمي إلى قرنٍ مختلف. أخبره أونو بأنّ كلّ عمود متهالك، كلّ كسرة من البناء، كلّ

(*) كوميتيوم: كان مقر الاجتماعات الرسمي للجمهورية الرومانية. ريغيا: هو القصر الملكي. [م]

قطعة من الرخام على العشب الجاف في أشعة الشمس، بقيت تُزاح باستمرار جيئةً وذهاباً على مرّ الزمان في آلاف المنشورات، إلى أن حُدّد مكانها في التاريخ: بداية التقويم السنوي، القرن الثالث الميلادي، القرن السادس قبل الميلاد، عصر النهضة، العصور الوسطى. القطعة الأثرية الفظيعة، التي رآها كويتن على أنها شيء من الحرب العالمية الثانية، تبين فجأة أنها بازيليكا ماكسينتيوس. الأعمدة الثلاثة المتبقية من معبد فيسبازيانوس، التي لا تزال قطعة من العارضة موجودة فوقها: مدّ أونو يده باتجاهها وقال إنها شعار المثالي للعصور الغابرة. معبد فيستا دائري الشكل، المقطوع عمودياً من النصف، والذي محا الزمن نصفه. قوس النصر الخاص بتيوس، الذي يشكّل قبة «الفا ساكرا» في أعلى نقطة منها، قبالة المدرج الروماني.

لفت أونو انتباه كويتن إلى إفريز في نفق القوس، نُحتت عليه عودة قوات تيتوس الظافرة من القدس، بعد غزو المدينة عام 70 بعد الميلاد. كان تيتوس ابن الإمبراطور فيسبازيانوس، الذي خلفه بعد بضع سنوات من ذلك. رغم أنّ النحت البارز متعرّض للضرر، إلا أنه تصوير بارع للجنود وهم يسرون على الطريق نفسه، الذي يقفان هما فيه، صوب المتدّي، نابضين بالحياة والنشاط وكأنّ الموسيقى والهتافات لا تزال تُسمع حتى الآن، حاملين الغنائم من الهيكل اليهودي المدمّر على رؤوسهم: البوقين الفضيّين، مائدة خبز الوجوه الذهبية، الشمعدان السباعي الذهبي.

- ما هو «خبز الوجوه»؟

أجاب أونو: «قرايين. اثنا عشر رغيفاً مدوّر الشكل خالٍ من الخميرة، في صفّين من ستة أرغفة. كانت الأرغفة تُستبدل كلّ سبت فيأكل الكهنة الأرغفة القديمة. تجد هذا الشيء بطريقة مختلفة في المسيحية. قال المسيح إنه هو نفسه خبزٌ مقدّس».

- حقّاً؟ أقال إنه مصنوع من الخبز؟ معنى هذا أنه كان يجب أن يؤكل أيضاً؟

- صحيح. وهذا لا يزال ذروة القدّاس الكاثوليكي.

- ولكن الكاثوليك في هذه الحالة أكلوا لحوم البشر!

- هذا ما كان يقوله جدّك أيضاً على الدوام، ولكنّ آكلي لحوم البشر يأكلون البشر، بينما الكاثوليك يرون أنفسهم أنهم أكلوا الربّ.

- لعلّ آكلي لحوم البشر أيضاً يعتقدون شيئاً من هذا القبيل.

- جائز جداً. ولكن لأن الكاثوليك يأكلون الخبز فقط في نهاية الأمر، وليس البشر، فإنهم أقرب إلى آكلي لحوم بشر من مستوى رفيع - أو لعلّي يجب أن أقول: إنهم آكلو لحوم بشر «محولون»^(*). الغريب هو أنك لا تجد هذا الأكل السحري للرب في الديانة اليهودية. يبدو أنه ينحدر من مصر، من معتقد أوزيريس، الذي بالمناسبة انبعث من الموت أيضاً. في هيكل القدس كان يُضخّى بالحُمْلان فقط، وقال المسيح إنه هو نفسه حملٌ فداء. يضاف إلى ذلك أنه يقارن جسده بالهيكل نفسه.

- يبدو أن ذلك المبنى أثر فيه.

- تستطيع قول هذا.

ناجى كويتن نفسه: إذا كان الباشيون صورة من الكون، فإن هيكل القدس صورة من الإنسان على ما يبدو. ومعاً يكوّنان كل شيء.

- وذلك الشمعدان؟

- كان أقدس شيء عند اليهود. المينوراه. قال الرب بجلال قدره لموسى كيف يجب أن يُصنع.

- وأولئك الرومان أخذوه ببساطة؟

- ها أنت ذا تراه هنا. ثم إنه ليس مصوّراً بشكل صحيح تماماً، ولكن إسرائيل جعلت من هذه الصورة رمزاً لدولتها لسببٍ أو لآخر.

بقي كويتن ينظر إلى الشيء الذي يكاد يكون بطول إنسان: «وأين هو الآن؟».

- لا أحد يعلم. في أغلب الظن سرقة الفنداليون في القرن الخامس الميلادي. هؤلاء كانوا جرمانيين، أسسوا دولة خاصة بهم في شمال إفريقيا. تنحدر كلمتنا «فنداليون»^(**) منهم. بينما يقول هذا، شعر فجأةً بإرهاق شديد يتصاعد من قرارة نفسه.

تيجان أعمدة مخلخلة، بلاطات حجرية، درجات مضغضعة، نقوش، كهوف... قطع متوخشة متربّصة بعضها ببعض في كل مكان. ناجى كويتن نفسه: هنا كان مركز العالم ذات يوم، تقود إليه كل الطرق، ليس طريق تيتوس من القدس فحسب، وإنما طريقه هو نفسه من

(*) إشارة إلى الاعتقاد الكاثوليكي بأن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد المسيح ودمه أثناء القداس. [م]

(**) «فنداليون» تعني بالهولندية مخربّين. [م]

فيستربورك أيضاً - لكنه شيء يختلف عن مركز العالم. أم أنه غير مختلف؟ توقف عن المسير على الطرف الآخر من المنتدى، عند «الحجر الأسود»، لايس نيجر^(٥).

سرّاً! لا أحد يعلم معنى تلك الكتلة الرخامية مربعة الشكل هناك في العمق، مثل الموجودة في السّرة. وفق الدليل السياحي، لعلّها كانت تمتّ بصلّة إلى الإطاحة بالسيادة الإيتروسكانية، لعلّها تكون قبراً: قبر رومولوس، الملك الأول الأسطوري، من القرن الثامن قبل الميلاد. فقد كان هذا المكان مقدساً حتى في زمن يوليوس قيصر. نزل بضع درجات إلى الأسفل، موعلاً قرناً كاملاً في الماضي مع كلّ درجة، جلس على ركبتيه عند حجر مستطيل الشكل متأثر بالعوامل الجوية تحت الـ«لايس نيجر»، تظهر فيه بقايا من نقوش قديمة. أراد سؤال والده عمّا إذا كان يستطيع قراءتها، لكنّ أُونو كان قد بقي على سطح الأرض.

نادى: «بابا؟ تعال انظر! ماذا كُتب هنا؟!».

نظر إليه أُونو من العليا، ماسحاً جبينه بكمّ قميصه: «أظن أنه قانون طقسٍ من الطقس. إنه مكتوب بلاتينية قديمة جداً، لكنه غير مقروء تقريباً، باستثناء "من يدنس هذا المكان، يلعن". لذلك اصعد من هناك بسرعة!».

- لماذا لا تنزل لحظة؟

- أدرك أنني أثقلت عليك بجيناتي الوراثة يا كويتن، لكنني لا أريد أن أمت بأيّ صلة إلى الكتابة. عليك فهم هذا. دعنا نذهب. إنني دائخ.

*

في اليوم التالي، المصادف أحد العنصرة، تغيّر الطقس كلياً. كانت غيومٌ بنفسجية داكنة تعبر بسرعة فوق المدينة وينبعث في البُعد هزيمٌ خفيف بين حين وآخر. بعد تناول الفطور في مقهى ماورو، أراد كويتن الذهاب إلى كنيسة سان بيترو وإن فينكولي^(٥٥) في الحال، على جناح السرعة، وكأنّ لديه موعداً هناك لا ينبغي أن يتأخر عنه. تقوم الكنيسة المنحدرة من العصور الوسطى في مكان الولاية الرومانية، حيث قيّد بطرس وبولس بالأصفاد، في ساحة مسيجة هادئة، غير بعيدة عن المنتدى الروماني؛ استدعى المدخل أسود اللون وكرّ فئران إلى ذهنه.

(٥) باللاتينية في الأصل: *Lapis Niger*. [م]

(٥٥) *San Pietro in Vincoli* تعني: القديس بطرس في الأصفاد. [م]

رغم أنه لم تكن هناك خدمة إلهية، جلس الناس في المقاعد في كل الأرجاء مستغرقين في الصلاة. أجال بصره في ما حوله باحثاً في الضوء الخافت - فرأى في الجناح الجانبي الأيمن الشخص المتواعد معه منذ زمن بعيد. نظر في انشداؤه إلى البقية المتبقية بعد أن أزال مايكل أنجلو الرخام الزائد: موسى الأقرن؛ الذي يعرفه حق المعرفة من الصورة المغروزة بالدبوس على عارضة خشبية في استوديو تيو كيرن، ناضحاً بالقوة وأضحك بكثير مما تصوّره، التعبير المرتسم على وجهه أشد غضباً، يده المعروقة متخلّلة لحيته من شدة الانفعال. يقف صبيّ وصيّة بجانب منصّة عليها هاتف، وقد قرب أحدهما أذنه من أذن الآخر، والسّماع بينهما، وينظران إلى الشخصية الهائجة. قال كويتن بصوت خافت: «إنه غاضب جداً».

لم يتمالك أونو نفسه وضحك: «ساخط، هكذا يُسمّى، ولديه سبب لأن يكون ساخطاً».

- والسبب هو؟

نظر إليه أونو بشيء من القلق: «هل تعرف شيئاً من الكتاب المقدّس؟».

- شيئاً قليلاً. ولا شيء تقريباً من العهد القديم.

- ليست مشكلة. تستطيع الاعتماد في هذا على والدك، فهو يعرفه عن ظهر قلب - على الأقل، كان يعرفه في الماضي، لقد تكفّلت بذلك آلاف الساعات من قراءة الكتاب المقدّس بصوت والدي، وفي المدرسة، وفي دروس التعليم المسيحي. يبدو واضحاً أنك تعرف على كل حال أنّ موسى قاد الشعب اليهودي من المنفى المصري. بعد ذلك بقي أولئك اللاجئون يجوبون الصحراء أربعين سنة، بحثاً عن أرض الميعاد. في بداية تلك الفترة مباشرة، أعطاه يهوه تعليمات من شتى الأصناف على مدى أربعين يوماً وليلة على جبل حوريب - مثل تلك التعليمات على سبيل المثال عن الشمعدان السباعي الذي رأيته أمس على قوس النصر الخاص بتيتوس. أعطي في نهاية الأمر...

فجأة ومض برق في الكنيسة، أعقبه في الحال دويٌّ رعدٍ عنيف قاصف، تدرج فوق المدينة في دمدمة هائلة، مثل كرة حديدية بحجم قبة البائثيون. نظر أونو إلى كويتن في ذهول وقال: «هذا ملائم للغاية».

بدا على كويتن أنه لم يفهم قصده: «ماذا أعطي في نهاية الأمر؟».

- في نهاية الأمر أعطي الوصايا العشر، التي كان يهوه قد كتبها بإصبعه على لوحين من الحجر. مهلاً، لقد سمعت بالوصايا العشر على ما آمل، أليس كذلك؟ الكلمات العشر؟

- طبعاً. «لا تُثبت».

- هذه قبل كلّ شيء ترجمة مسيحية خاطئة. لقد كُتب «لا تقتل»: «Lo tirtsach». الإماتة جائزة، في ظروف معيّنة. ولكن حسناً، لقد غاب ما يزيد عن شهر، فظنّ اليهود أنّ شيئاً ما قد حدث له، فأخذوا يعبدون في تلك الأثناء العجل الذهبي بدلاً من يهوه. هذا الأمر أثار غضب موسى إلى درجة أنه ألقى اللوحين فانكسرا. هذه هي اللحظة التي صوّرها مايكل أنجلو. نظر كويتن إلى اللوحين تحت ذراع موسى، اللذين كان يراهما دائماً على أنهما ملفّان، مثل الملفّات التي يحتفظ فيها تيو كيرن برسوماته: «وبعد ذلك؟».

- نعم، بعد ذلك كان عليه الصعود مرّة أخرى إلى الجبل، بلوحيّين حجريّين جديدين، اضطرّ أن يدفع هو نفسه ثمنهما هذه المرّة. إن لم تخنّي الذاكرة، فإنه ليس واضحاً تماماً في الكتاب المقدّس ما إن كان الربّ قد كتب الوصايا العشر بنفسه في المرّة الثانية أم أنه أملاها عليه. دعنا نفترض أنه أملاها عليه. لو كنْتُ كاتباً، لما رغبت أنا أيضاً في كتابة الشيء نفسه مرّتين.

- وهذان القرنان الغريبان على رأسه؟ ماذا يعنيان؟

- ترجمة خاطئة أيضاً.

- ترجمة خاطئة أيضاً؟!

- عندما نزل من الجبل في المرّة الثانية، كان وجهه يبلغ من التألّق، لأنه تحدّث مع الربّ، حدّ أنه اضطرّ إلى ارتداء سجاف. ولكن الكلمة العبرية «متألّق» تستطيع ترجمتها أيضاً على أنها «أقرن»، لكن هذا ليس له أيّ معنى بطبيعة الحال.

أحنى كويتن رأسه مستغرقاً في أفكاره، ناظراً إلى التمثال: «هذا يعني أنه يجب علينا قطع هذين القرنين».

نظر إليه أونو بارتياح: «هناك نظرة في عينيك تقول إنك قادر على فعل هذا».

- نعم، ولم لا؟ هذا خطأ لغويّ، أليس كذلك؟

- لكنّه خطأ في الرخام.

راود كويتن شعوراً بأنّ كلّ شيء يجتمع تدريجياً بعضه مع بعض، ولكن ما هو؟ بينما يرفع عينيه إلى الشخص الرخامي الهائج، شعر بعينيّ والده مثبتتين عليه: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟».

- هل تؤمن بالربّ يا كوينتن؟

- لم أفكر في هذا الأمر إطلاقاً. وأنت؟

- منذ أن فكّرت في الأمر لم أعد أوّمن.

- كم كان عمرك عندما بدأت تفكّر؟

- كنت بعمرك تقريباً.

ترأى لعيني أونو مشهدٌ حدث قبل خمسة وثلاثين عاماً، في منزل والديه، في الغرفة الأمامية التي يقوم فيها الكتاب المقدّس الرسمي على المنصّة. بعد ارتدائه ملابسه الخاصة بيوم الأحد، أبلغ والده بنبرة رصينة بأنه مختار منذ زمن بعيد بين جملة «لا أوّمن أنّ الربّ موجود» وبين جملة «أوّمن أنّ الربّ غير موجود» - وبأنه تحوّل إلى الجملة الثانية كونه مؤمناً. عينا والده الوامضتان، والدته الباكية... لكنّه منذ اختياره الجملة الأولى لأنه غير مؤمن، لم يعد يريد التفكير في ذلك الماضي. سأل: «وماذا سنفعل حسب برنامجك؟».

يبدو أنّ الرعد الذي دوّى قبل قليل كان بداية العاصفة ونهايتها في الوقت نفسه، بدأت الشمس تطلع من وراء الغيوم، وأخذ ضوءٌ ساطع يومض عبر الكنيسة بين حينٍ وآخر.

- كنا سنذهب إلى قصر اللاتران، أليس كذلك؟

بقي أونو يحملق فيه بضع ثوانٍ: «عماذا تبحث يا بنيّ؟».

رفع كوينتن كتفيه: «لا شيء. أنا مجرد سائح».

55. المكان

عندما ترجل كوينتن من سيارة الأجرة في ساحة «سان جيوفاني إن لاتيرانو»^(*) بعد مضيّ عشر دقائق، لم يستطع تصديق عينيه. بينما يقف إلى جانب الكاتدرائية، بالقرب من معمودية قسطنطين ثمانية الأضلاع، أخذ يجيل نظريه في الساحة الفسيحة وشعره يتطاير في الهواء. ها هو ذا هنا! نقش بيرانيزي المؤطر، الذي كان يقوم على الأرض مستنداً إلى المكتبة في بيت السيّد ثيمات! كان عليه أن يعرف، لكنّه لم يخطر في باله لحظةً واحدة أنه سيجده هنا على أرض الواقع: المسألة العالية علو الأبراج، مثل صاروخ على وشك الإطلاق إلى سطح القمر؛ على بُعد مئة مترٍ يقوم ذلك المبنى المكوّن من طابقين المنحدر من عصر النهضة، الذي يتضمّن السانكتا سانكتورم، المعبد الخاص بالباباوات في العصور الوسطى، والدرج المقدّس من بلاط بيلاطس البنطي في القدس. لقد أفسح السهل الرملي المجال للإسفلت، الذي تعبر فوقه وسائل النقل ببالغ السرعة، ولكن حتى السماء بغيومها المتفرّقة الرمادية، المتناوبة مع البقع الزرقاء، تشبه السماء المرسومة على ذلك النقش.

رفع أونو عينيه إلى المسألة. لم يكن قد جاء هو أيضاً إلى هذا المكان من قبل؛ أمعن النظر في الكتابة الهيروغليفية، ملقياً رأسه إلى الوراء، ممسداً لحيته بتدبّر وتأمل.

- هل تستطيع قراءتها؟

- ألاحظ أنني نسيته بعض الشيء. إنها تبدو مثل ميثاق رسمي عن حياة الفرعون تحوتمس الثالث الأبدية.

- موسى آخر إذاً!

فقال أونو: «ولكن أقدم من موسى اليهودي بوضع مئات من السنين».

(*) *San Giovanni in Laterano* هو القديس يوحنا اللاتراني. [م]

وأشار بسببته: «إنها بالتأكيد أقدم نصب فني على الأراضي الأوروبية. عمرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة إلى أربعة آلاف سنة».

شرح له أونو أن موسى اسمٌ مصريّ معناه «طفل»، «ابن». لأنّ الفرعون أمر بقتل كلّ الصبيان اليهود المولودين حديثاً، أرقدت والدته موسى وليدها في سلّة قشّ ووضعت بين قصب النيل؛ كانت مصنوعة من سيقان البردي، لأنّ التماسيح تنفر من نبات البردي. رأت أخت موسى ابنة الفرعون تعثر عليه، فقالت للأميرة إنها تعرف مرضعةً جيّدة للطفل اللقيط، أي والدتها. وما قالته حدث. سمّت الأميرة الطفل «طفل»، وهكذا ترعرع موسى في كنف والدته دون أن يعرف ذلك أيّ شخص آخر. تابع أونو إنه بعد ما يزيد عن ألف عام من ذلك، ومثل صورة معاكسة لذلك الحدث، هربت مريم ويوسف بابنهما إلى مصر تحديداً للنجاة من قتل هيرودس للأطفال في بيت لحم - ومثلما كانت أمّ موسى الحاضنة هي أمّه الحقيقية في واقع الأمر، فإنّ أبا يسوع الشرعي لم يكن أباه الحقيقي: «في هذا النوع من الدوائر، غالباً ما تكون العلاقات الأسرية معقّدة بعض الشيء».

أحني كويتن رأسه: «البشارة».

- ها أنت ذا تقول. تحوتمس^(*) معناه «طفل الإله تحوت». إنه هو الذي اخترع الكتابة.

- وجهك يدلّ على أنك تؤمن بهذا حقاً.

رفع أونو كتفيه.

- ينبغي لمختصّ سابق في الكتابة الرمزية أن يكون لديه إله أيضاً، أليس كذلك؟ في هذا الصدد، ما معنى «يؤمن حقاً»؟ هل تعرف تلك القصة عن نيلز بور، العالم الفيزيائي الكبير؟ أخبرني ماكس بها في إحدى المرّات. لقد قام عالمٌ فيزيائي كبير آخر، فولفغانغ باولي أو شخص من هذا القبيل، بزيارة بور في بيته الريفي، فرأى أنه مُسمّر حدوة حصان فوق بابهِ الرئيسي. فقال له: «يا دكتور! أنت؟ حدوة حصان؟ هل تؤمن بها؟!»، فأجاب بور: «طبعاً لا. ولكن هل تعلم يا باولي أنهم يقولون إنها تعود عليك بالنفع، حتى وإن كنت لا تؤمن بها».

وضحك. ورأى عليه كويتن أنه ضحك لأنه استرجع في ذاكرته الطريقة التي أخبره بها ماكس هذه الحكاية: «على ذكر هذا الحديث، هل تعرف يا بنيّ أنّ كلمة «مسلة» كانت أول كلمة نطقت بها؟ هناك عند قبر ذلك الحصان، في خروت ريخترن».

(*) «تحوتمس» يُكتب بالهولندية *Thoetmozes* «تحوت-موسيز»، وموسى يُكتب *Mozes* «موسيز». [م]

قال كويتن وقد استغرق في أفكاره: «ديب ثوت سان ستار».

لم يستطع تذكّر هذا، ولكنّ ظهور القلعة المفاجئ هنا في هذه الساحة، من فم والده، منحه الشعور الذي كان يتابه عندما يشرب كأساً من الحليب الساخن في يومٍ شتويّ بارد. قال وهما يسيران صوب مدخل الكاتدرائية الجانبي: «أشعر أحياناً أنّ العالم في غاية التعقيد، ولكن في ما وراءه يكمن شيء في غاية البساطة وعصبيّ على الفهم في الوقت نفسه».

- مثل؟

- لا أعلم.. كرة. أو نقطة.

ألقي عليه أونو نظرة من الجانب: «هل تتحدّث عن قصص شبيهة بقصص موسى، أم عن الواقع؟».

- أهنأك فرقٌ كبير بينهما؟

ناجى أونو نفسه: لعلّ القصص بالذات هي النقيض المطلق للواقع؛ لكنّه شعر بأنه لا ينبغي أن يشوّش ذهن كويتن بهذا الأمر.

- وتلك الكرة، أو تلك النقطة، هل تضيفي معنىً على الواقع؟

- معنى؟ ماذا تقصد؟

لزم أونو الصمت. ففكرة أنّ أيّ شيء، مهما كان، يمكن أن يضيفي معنىً على العالم غريبة بالنسبة إليه. إنها موجودة، ولكن من العبث أن تكون موجودة. فهي من الممكن ألا تكون موجودة أيضاً. استدعت كرة كويتن إلى ذهنه تلك الكرة البرّاقة الأصلية، التي كان الجنود الشباب في لوس ألamos يلّمعونها، قبل أن يخرجوا في المساء للرقص مع فتياتهم. بأيّ علاقة كانت الفوضى المستشرية في هيروشيما ترتبط مع ذلك الجسم الأفلاطوني؟ لا يمكن فهم أحدهما عن طريق الآخر، رغم أنّ أحدهما كان ناتجاً عن الآخر. كيف يمكن أن يفهم الإنسان عن طريق بويضة ملقّحة؟ كيف يمكن أن يفهم أيّ شيء في الأصل؟ الواقع ليس قياساً منطقيّاً من قبيل «سقراط إنسان - الناس كلّهم فانون - لذلك فإن سقراط فانٍ»، بل شيء أقرب إلى: «هيلخا إنسان - حجرات الهواتف العمومية كلّها حُطّمت - لذلك يجب أن تموت هيلخا». أو أقرب إلى: «هتلر إنسان - اليهود كلّهم حيوانات - لذلك يجب أن يموت كلّ اليهود». هذا المنطق غير المفهوم، الذي يتحكّم بكلّ شيء، بالخير والشرّ والحياد على السواء، يجب على كويتن اكتشافه بنفسه. يرى أنه ليس من مهمّته تعكير نقاء الصبيّ.

فالشخص الذي لا يعرف حتى ماذا يُقصد بـ«معنى»، يجب أن يحتفظ بهذه الحالة العذرية أطول فترة ممكنة.

في البازيليكا الرئيسية المزدحمة - «أم الكنائس كلها ورئيسها في المدينة والعالم» - كان هناك قَدَّاس، برعاية كاردينال في عباءة بنفسجية؛ يسرون إلى الأمام على رؤوس أصابعهم. جهتها الداخلية من الطراز الباروكي البارد أصابت كويتن بخيبة أمل؛ لم يكن قد بقي سوى القليل من المبنى المنحدر من القرون الوسطى، من عصر الإمبراطور قسطنطين، شأنه في ذلك شأن قصر الباباوات القديم. وحده المذبح الرئيسي ذو السقيفة القوطية جميلٌ ومحاطٌ بالألغاز. فوق القفص الرفيع القائم على ركائز، خلف القضبان، يقوم تمثالاً بطرس وبولس؛ يُقال إنَّ رأسيهما مدفونان تحته. رفع عينيه من دليله السياحي. سأل هامساً: «هل كان هذان الاثنان صديقين؟».

- ليس على حدِّ علمي. عندما تكون منشغلاً بأشياء من هذا القبيل مثلهما، لا يكون هناك مجالٌ للصداقة حسب اعتقادي. الأمور في الشؤون الدينية تسير مثلما تسير في السياسة. ثبَّت كويتن عينيه مرة أخرى على الجزء المدهون المغلق من قبة المذبح، المحتوي على رفاتيهما. بدا وكأنه يرى المجمعتين راقدتين فيه.

- أريد إلقاء نظرة على الداخل.

- لن يحالفك التوفيق يا صديقي.

التمتع وميض جهاز تصوير: التقط أحد الأشخاص صورة لهذا الثنائي اللافت للنظر، هذا المتشرد مع هذا الصبي فائق الجمال. التفت أونو إلى الورااء بذعر في عينيه. فتاة يابانية بقبّعة سوداء واقية من المطر على رأسها؛ استأنفت سيرها، وكأنه من المسموح أن تستحوذ ببساطة على صورة شخص. ما لبث أن أوقفها شماس وأشار إلى جهازها وهو يهزّ رأسه.

- لماذا ارتعبت إلى هذا الحدّ، يا بابا؟!

أوما أونو إيماءة تنم عن العجز: «لا تؤاخذني، ردّة فعل غبية. أيّ مجلة هولندية من مجلّات الثروة ستعطيها ألف فلورين عن طيب خاطر للحصول على هذه الصورة. يحدث معك هذا النوع من ردود الفعل، عندما تختبئ لسنوات من الجميع».

- لكن هذا لم يعد حالك، أليس كذلك؟

- لا يا كويتن، هذا لم يعد حالي. ولكن لكي أكون صادقاً لا أعرف ما هو حالي. سنرى.

لم يُرد التفكير في هذا الأمر؛ يفضل قضاء أيامه مع كويتن بهذه الطريقة إلى الأبد في المدينة الخالدة.

- إلى أين سنذهب الآن؟

- إلى الطرف الآخر.

كانت أبواب الكوريا الرومانية البرونزية الضخمة، التي تشكّل الآن المدخل المركزي، مغلقة؛ خرجا من باب جانبي. التفت كويتن إلى الورا التفتاة قصيرة ونظر إلى الأعلى. كان صفٌّ من شخصيات ضخمة، بارزة بوضوح أمام السماء، على إفريز سطح البازيليكا، تقف مشيرة بحماس، وكأنّ شيئاً استثنائياً على وشك الحدوث.

عبرا الساحة المزدهمة، التي تعصف بها الريح، على نحوٍ مائل، وتوقّف كويتن على درج المدخل المفضي إلى المبنى المحتوي على السانكتا سانكتورم، ونظر إلى الداخل من خلال الباب المفتوح. رأى أمامه مباشرة، على الطرف الآخر من ردهة عالية السقف، الدرج المقدّس.

*

استحوذت قشعريرة على كيانه. بينما تضجّ حركة المرور وراء ظهره، أخذ ينظر إلى عالمٍ يسود فيه من الهدوء ما يسود في حوض سمك. على الدرجات المتصاعدة بشكلٍ طفيف، التي يقلّ عرضها عن ثلاثة أمتار، يجثو عشرة أو اثنا عشر من الرجال والنساء على ركبهم، يصلّون منحنى الرؤوس، ظهورهم ونعال أحذيتهم موجهة نحوه. إنهم ساكنون سكّون الناس الواقفين على سلّم كهربائي متحرّك، لكن السلّم لا يتحرّك، السلّم متوقّف عن الحركة؛ ينتقل أحدهم بصعوبة إلى الدرجة التالية بين حينٍ وآخر. الجدران والسقف نصف الدائري مغطّاة ببلوحات جدارية دينية؛ المهندس المعماري شيد بئر السلم بأسلوب منظوري بحيث تبدو وكأنها ممرّ طويل أفقي يمتدّ إلى الطرف الآخر، بسرّة المسيح المصلوب في نقطة التلاشي. الدرج مكسو بالخشب، ولكنّ الشقوق الرفيعة في خشب الدرجات تكشف الرخام، الذي يقال إنّ المتّهم مشى عليه.

عندما ذهب إلى الداخل، قال أونو بسخرية: «الآن أنت الذي تُحدث انطباعاً بأنك متأثر بالتسامي. لا تقل لي إنك تعتقد حقاً أنّ هذا الدرج قادم من بلاط بيلاطس في حصن أنطونيا».

أحدثت كلمة «حصن»، في هذه اللحظة، هزّة خفيفة في نفس كويتن.

قال: «مثل أولئك الناس هناك؟ لا إطلاقاً. أو بالأحرى، لا أتساءل أبداً عما إذا كان حقيقياً أم لا. لكنني لا أعلم...»، ونظر حوله: «يرادوني إحساسٌ بأنَّ قصَّةً تُحكى هنا».

اشترى منشوراً عن المبنى من كاهنٍ طاعن في السنّ جالس خلف طاولة. بينما يضع النقود أمامه، أخذ كاهنٌ عجوز ثابنٌ ينقر بعملة معدنية من مئة ليرة نقراتٍ قويّة على شبّاك تذاكر، ويومئ إيماءة صارمة لرجل يظن أنه يستطيع الدخول إلى المكان المقدّس بينطال قصير. كان هو أيضاً قد زيّن صدر رداثه الأسود بشعار من قلب أبيض مكتوب فيه باللاتينية «JESU XPI PASSIO»، ومتوجّ بصليب.

بينما يسيران بهوادة صوب الدرج ويتوقّfan على مسافة مناسبة منه، سأل أُونو بصوت خافت: «تقصّد قصة "ما هي الحقيقة؟"، "غسل اليدين في براءة"(*)، "هوذا الإنسان"(**)، وهذه الأمور كلّها؟».

لم يكن كويتن يعرف هذه القصة إلا بصورة غامضة. استنشّق الهواء ليقول شيئاً، لكنّه أحجم وهزّ رأسه - لا يعرف هو نفسه ما الذي يقصده. قال وهو يشير برأسه إلى الراكعين: «لا أعرف، دعك من هذا! إنها قصّة على كلّ حال، يشكّل هؤلاء الناس أيضاً جزءاً منها، هؤلاء الذين يزحفون مصليّين إلى أعلى الدرج، صوب الإيسيلون».

- الإيسيلون؟

- المسيح المصلوب في تلك اللوحة الجدارية في أعلى الدرج. إنه على شكل حرف «Y»، أليس كذلك؟

قال أُونو: «الويل، حرف فيثاغورس!».

ونظر إلى كويتن بعين التقدير: «رؤية صائبة. هل تعلم أنّ ذلك الصليب موجود أيضاً على الأردية التي يرتديها الأساقفة أثناء الطقوس؟ لعلّك توصّلت إلى اكتشاف».

لم يكن كويتن يستمع إليه: «أشعر بأنّ هذا المبنى نفسه يحكي قصة بطريقة أو بأخرى».

- أنت تتحدّث بالألغاز، لكنّها ربما مناسبة في هذا المكان.

- دعني أقرأ هذا أولاً!

(*) عندما أصرت الجموع على صلب المسيح، غسل بيلاطس يديه أمامهم قبل أن يسلمهم المسيح، وقال: «إني بريء من دم هذا البارّ!». [م]

(**) مكتوبة باللاتينية، قالها بيلاطس عندما أظهر المسيح على اليهود. [م]

جلس كويتن على الأرض الرخامية عند إحدى العضادات وفتح المنشور، ولكن في الحال صاح صوتٌ متهدّج بأن ينهض. إنه كاهنٌ ثانٍ، كبير السن ومتّشح بالسواد مثل الآخرين، جالس على كرسي خشبي مستقيم وسط الردهة، يحرك سبابته البيضاء جيئةً وذهاباً بحركة معاتبة. بينما يتعجّب أونو من الاضطراب المحموم الذي استولى على كويتن بصورة مفاجئة، ذهب ليشاهد التماثيل واللوحات في الردهة. قرأ كويتن في هذه الأثناء النص القصير، الذي يُختم بثمانٍ وعشرين صلاة، تُتلى أثناء صعود الدرجات.

رفع عينيه بعد بضع دقائق: «بابا؟!».

- نعم؟

- لقد عرفت كلّ شيء.

- هذا كثير.

- القصة على النحو التالي، تقول أسطورة من القرون الوسطى إنّ الإمبراطورة هيلينا أحضرت هذا الدرج من القدس إلى اللاتران في القرن الرابع. كانت والدّة قسطنطين.

- أعلم هذا. كان متزوّجاً بامرأة اسمها فاوستا - الإمبراطور المسيحي الورع أمر بقتلها في ما بعد.

ونظر إلى كويتن بابتسامة ساخرة.

أكمل كويتن: «عندما عاد الباباوات من المنفى في أفينيون في القرن الرابع عشر، كان الجزء الأكبر من القصر قد التهمته النيران، فاتخذوا حينذاك من الفاتيكان مسكناً رئيسياً لهم. في القرن السادس عشر، أمر البابا سيكستوس الخامس بهدم قصر اللاتران، ما عدا المعبد الباباوي، القائم هناك في الطابق العلوي. حينذاك قام المهندس المعماري...»، ونظر في المنشور: «دومينيكو فونتانا بنقل الدرج إلى هنا. حدث ذلك في الليل لسببٍ أو لآخر، على ضوء المشاعل».

- يبدو أنّ الأمر لم يستطع تحمّل ضوء النهار.

- رُكِّبت الدرجات من الأعلى إلى الأسفل، لأنّ العمال كانوا سيضطرون في الحالة المعاكسة إلى الوقوف عليها.

- يبدو لي صحيحاً.

نظر كويتن حوله بتلويحة من ذراعه: «تصوّر: لقد اختفى كلّ شيء، ذلك القصر الهائل،

الذي عاش فيه الباباوات كلهم على مدى ألف سنة - لم يبق سوى ذلك المعبد هناك وهذا الدرج هنا. لقد أقيم المبنى حولهما مثل غلاف».

- وما الغريب في هذا؟ روما كلها مبنية بهذه الطريقة.

- ولكن ماذا عن هؤلاء الناس الزاحفين إذا؟ هذا ليس مجرد نوع من المتاحف، مثل المتاحف الأخرى التي تجدها في كل مكان، أليس كذلك؟ لا يزال هناك شيء يحدث هنا، أليس كذلك؟ يبدو وكأنّ هناك خشبة مسرح في الأعلى، يجب أن تُقدّم عليها مسرحية غامضة. انظر إلى تلك النافذة المزودة بالقضبان، تحت تلك اللوحة التي يظهر فيها الصلب، التي يُيمّمون وجوههم صوبها. إنها تشبه نافذة زنزانة في السجن. تعال، دعنا نذهب لرؤيتها.

- مهلاً! أنت لا تتوقّع مني، على ما آمل، صعود ذلك الدرج على ركبتَي؟

- هنا في الجانب يوجد سلّمان عاديان. وعلى الجانب الآخر أيضاً.

بينما يصعدان الدرج في بئر السّلم الرخامي على الجانب الأيسر، ابتهج أونو من حماس كويتن. أيّ صبي يهتم في الوقت الحاضر بشيء غير الأشياء التقنية، واللّهُو، والمال؟ ذكّرهُ بنفسه عندما كان في عمره ويدفن نفسه في الدراسة، ما كان يثير استغراب أصدقائه. لا، لم يختلف الأمر على مرّ الأزمان. الصبيان على شاكلته وشاكلة كويتن من الاستثناءات على الدوام. ولكن عندما تكون استثناءً من هذا النوع، يستغرق بك الأمر خمساً وعشرين سنة لتدرك أن ليس كلّ الناس استثناء، فيصيبك هذا الإدراك عندئذٍ بخيبة أمل عظيمة - بينما يظن الناس غير الاستثنائيين أنّ الاستثنائيين على وعي متعجرف باستثنائيتهم على الدوام. العكس هو الصحيح. إنهم لا يحترقون الآخرين، بل يبالغون في تقديرهم. الأشخاص غير الاستثنائيين هم الذين على وعي دائم باستثنائية الاستثنائيين. إنه شيء أشبه بسوء التفاهم بين الكلب والقطّ. عندما يخاف الكلب يضع ذيله بين ساقيه، ولكن إذا ما فرح هزّ ذيله باعثاً إليك الرائحة الطيّبة من مؤخرته؛ أما القطّة فتَهزّ ذيلها عندما تكون خائفة، لأنّ رائحة برازها تنته. الكلب الذي يهزّ ذيله يقفز إلى الأمام ليلعب مع القطّة الهازّة ذيلها، التي تظن حينئذٍ أنها تتعرّض للهجوم، فيتلقّى هو خريشة دامية على خطمه - هذا الالتباس اللغوي يؤلّد عداوة لا مصالحة فيها بين هذين الاثنين. ألقي نظرة على كويتن من زاوية عينه. كان شعره يتماوج مثل ساتان أسود أثناء صعوده الدرجات.

في حين وقف أونو بتردد على بسطة السّلم، التي تفضي إليها الدرجات الخمس، تابع

كويتن سيره على الفور إلى النقطة التي يفضي إليها الدرج الأوسط، الدرج المقدّس. كان المؤمنون، الصاعدون إليها من العمق، يتمتمون بالصلاة منحني الرؤوس ولم يولوه أيّ انتباه. أدار لهم ظهره، انحنى بجذعه، ونظر عبر القضبان المؤطرة بالرخام التي يزيد سُمكها عن سُمك الإصبع.

*

إنها السانكتا سانكتورم. المسافة إليها تزيد عن المسافة من الساحة إلى الردهة الأمامية التي قطعها قبل قليل - في المعبد خافت الضوء يسود السكون مثلما في المرأة، وأول ما تبادر إلى ذهنه هو وجه والدته وهي راقدة في سريرها. بدأ قلبه يخفق بشدّة. الغرفة الصغيرة عالية السقف ومربعة الشكل تماماً، نحو سبعة أمتار في سبعة أمتار، تنضح نضوحاً باهراً بكلّ ما لم يعد موجوداً: الباباوات المئة والستين، الذين كانوا يصلّون هنا كلّ يوم على مدى عشرة قرون. يبدو وكأنّ الزمان قد اختفى من هنا. في وسط الأرضية المطعّمة بالرخام، مقابل المذبح، هناك كرسيّ صلاة. المذبح موجود تحت الجزء العلوي البارز من الجدار الخلفي، الذي يدعمه عمودان من الرخام السماقي. كُتب على عرض الإطار الذي يعلو التاجين المذهّبين:

NON•EST•IN•TOTO•SANCTOR•ORBE•LOCVS

أوماً لو والده وسأل هامساً: «كيف يمكنك ترجمة هذا؟».

فقال أونو بنبرة صارمة: «لقد درست إلى الصف الحادي عشر يا كويتن. ينبغي أن تترجمه بسهولة».

حاول كويتن: «ليس هناك.. في كلّ.. أقدس.. مكان العالم؟».

- نثر أتحاذ. يمكنك بالطبع أن تقول أيضاً: «ليس ثمة مكان في العالم أقدس من هنا». ليس لشيء إلا لأنّ أولئك الباباوات كانوا يعيشون هنا؟ يبدو لي شيئاً مبالغاً قليلاً.

لفت كويتن انتباهه إلى الأيقونة الكبيرة القائمة على المذبح: لوحة ثلاثية الدرفات درفتاها الجانبيتان مفتوحتان. المشهد يكاد لا يُرى في الضوء الخافت، لكنّه أخبر والده بما قرأه قبل قليل: صورة المخلّص الأقدس على الدرفة الوسطى، الأكبر وبيتا، التي لم ترسمها يدٌ بشرية بل رسمها ملاك. وحده الرأس المرسوم على الحرير لا تغطيه الفضة المذهّبة شديدة الزخرفة، ولكنّ هذا الرأس أيضاً ليس بالرأس الأصلي، فالأصلي يوجد تحته. الدرفة تُقبّىها ظلّة نصف دائرية، يتوجّها ملاكان مذهبّان.

قال أونو بابتسامة: «نعم يا كويتن، نحن لسنا في هولندا».

ووضع يده على القضبان: «تقول لي ذائقتي إنَّ هذا المكان أشبه بزنزانة تعذيب. انظر هناك، بين تلك الأعمدة المفتولة فوق المذبح: هناك أيضاً نافذتان مزودتان بالقضبان. كانوا بالطبع يراقبون منهما الباباوات القديسين عندما كانوا يؤدّون الصلاة. والجزء السفلي من المذبح نفسه مكوّن بأكمله من القضبان أيضاً. انظر إلى هذين القفلين!».

نظر كويتن إلى قفلي المشبك، اللذين لم يكونا قد لفتا انتباهه بعد. القفل العلوي شيء حديدي ضخّم؛ قفل مشبك سحّاب بحجم شريحة خبز - في اللحظة التي رآه فيها تولّاه فزعّاً شديداً. أين هو؟ أهو يحلم؟ أهو في حلمه؟ نظر بعينين متّسعيتين إلى والده. فسأل أونو بارتياح: «ماذا أصابك؟ إنك شاحب شحوب الأموات!».

تلعثم: «لا أعرف...».

هل قصر اللاتران المخفي من الوجود حصنُهُ؟ هل هو في الحصن؟ هذا الدرج، المكوّن من أربعة أقسام بسبع درجات في كلّ قسم، هذا المعبد، والدته... التفت عن القضبان مشوّش الذهن والتقت نظرتَه بنظرة امرأة عجوز، كانت قد صعدت الدرجات الثماني والعشرين، نهضت متأوّهة، رسمت إشارة الصليب، ابتسمت له ابتسامة خاطفة وذهبت وهي تمسّد فخذها إلى السّلم الآخر.

قال أونو: «دعنا نذهب من هنا! هذا ضارّ بالصحة. يجب أن تأكل شيئاً».

هزّ كويتن رأسه بلا: «هذا ليس...».

ليس من الوارد أن يخبر والده بما يدور في خلده، لأنه شيء سرّي للغاية: «لعلّ المعبد ليس وراء القضبان، بل نحن الذين وراء القضبان...».

نظر حوله بعينين متّسعيتين: «أعلم علم اليقين أنّ هناك شيئاً في منتهى الغرابة هنا، لا أستطيع قول السبب، لكنني يجب أن أكتشفه وسوف أكتشفه».

تفرّس فيه أونو بنظرة ثاقبة لبضع ثوانٍ. فجأةً ظهر لمعانٌ قويّ في عينيّ كويتن. أحنى أونو رأسه، اتكأ على عصاه، ونظر حوله كأنما يبحث عن شيء هو أيضاً. كان دوارُهُ أشدّ من المعتاد؛ ربما بسبب صعوده الدرجات.

- لا أعلم ما الذي ترمي إليه، لكنّ شيئاً غريباً لفت انتباهي أنا أيضاً في هذه الأثناء.

- ماذا؟

- هذا المعبد يُسمى «سانكتا سانكتورم»، أليس كذلك؟
- وعندما أحنى كويتن رأسه بالإيجاب، قال: «تماماً، وهذا ما لا أفهمه في الواقع».
- لمَ لا؟
- إنه يعني «قدسُ الأقداس».
- شيءٌ بديهي.
- ولكن هذا التعبير لا يُستعمل بهذه الطريقة في الديانة المسيحية إطلاقاً.
- في أيّ ديانةٍ إذاً؟
- في الديانة اليهودية فقط.

56. دراسة كتابيّة

- وكيف يُستعمل في الديانة اليهودية؟

قال أونو: «دعنا لا نبقي واقفين هنا، على مرأى من هؤلاء الناس!».

تراجعا إلى الجانب الأيسر من السانكتا سانكتورم، حيث يقوم معبدٌ من عصر النهضة يضمّ مذبحين صغيرين، مسمّى على اسم سان سيلفيسترو، جلسا على أحد مقاعد الكورال ذات اللون البنّي الغامق، التي تشغل ثلاثة جدران. رأى أونو أنّ كوينتن ينتظر بنافذ الصبر ما سيقوله؛ كان وجهه بالغ النعومة في الحالات العادية مشدوداً مثل شراع سفينة في وجه عاصفة. لم يفهم السبب فساوره القلق. لعلّه كان من الأفضل أن يحتفظ بملاحظته لنفسه.

- ماذا دهاك فجأةً يا كوينتن؟!

- أخبرني!

بينما يستغرب أونو كيف أنّ أحداً لا يعرف مثل هذا الشيء، شرح له أنّ قدس الأقداس في الديانة اليهودية كان مساحةً في هيكل القدس السابق. كان مجمّعاً مستطيل الشكل، مكوّنًا من ثلاثة أقسام - أو بالأحرى من أربعة أقسام. القسم الأول هو الفناء، الذي لا يُسمح للوثنيين بالدخول إليه، يُسمح لليهود وحدهم، أي الرجال اليهود. يقوم فيه مذبح المحرقة. على جانبي المدخل المُفضي إلى مبنى الهيكل الفعلي عمودان: جاشين وبواس.

مستطيل الشكل؟ مثل سرير والدته؟ ألم يتحدّث عن هذا الأمر مع السيّد ثيمات؟

سأل وهو يفكر برهة قصيرة في العمودين المتصبيين في البيازيتا في البندقية: «عمودان لهما اسمان؟ ما السبب في ذلك؟».

تنهّد أونو: «غالباً أندesh أنا نفسي من معرفتي، لكنني لا أعرف كلّ شيء بعد. ما أعرفه هو كيف تستطيع أن تبحث عن كلّ شيء، وهذا بديلٌ مفيدٌ جداً لمعرفة كلّ شيء».

تابع تاركاً موضوع العمودين على حاله: «كنت إذا ما ذهبت إلى الداخل، وصلت عبر ردهة إلى الحرم المضاء بضوء خافت. على الأقل إذا كنت كاهناً؛ وإلا فلا يُسمح لك بالدخول. في ذلك الحرم يقوم مذبح البخور والشمعدان السباعي ومائدة خبز الوجوه. المساحة الخلفية مكعبة الشكل، ينسدل أمامها ستارٌ كبير. يسود في داخلها ظلامٌ شامل على الدوام. تلك هي قدس الأقداس. رئيس الكهنة فقط يدخل إليه مرةً واحدة في السنة، في يوم الغفران».

مطّ كويتن ظهره بانفعال: «إنه يشبه الوضع هنا! في الساحة أمام المبنى تقوم مسألة تحوُّم، أي إنها هي الفناء، ثم تأتي الردهة، ثم الدرج المقدس، أي إنه هو الحرم، ثم السانكتا سانكتورم! إنها ليست مكعبة، بل مربعة الشكل».

قال أونو وهو يتجهّم بعض الشيء: «ولكن هذا هو الشيء الغريب بالذات. في المسيحية لا يتجسّد قدس الأقداس في شيء معماري إطلاقاً، مثلما هو الحال عند اليهود؛ المسيحيون يستخدمون هذا المفهوم بشكل رمزي فحسب. في الأناجيل على سبيل المثال يُذكر أنّ الحجاب الذي يفصل الحرم عن قدس الأقداس في الهيكل قد تمزّق في اللحظة التي مات فيها المسيح -«شقّ» في الواقع كما يُذكر باليونانية- وقد فُسرّ هذا بأنّ المسيح بموته على الصليب وقيامته جعل قدس الأقداس، أي السماء، متاحاً للجميع بصورة دائمة، مثل رئيس كهنة أعلى من نوعٍ معيّن. إنه ليس مبنى دنيوياً إطلاقاً عند المسيحيين».

- وقدس الأقداس اليهودي؟ ماذا كان يتضمّن؟

- تابوت العهد.

*

بينما يهدج كاهنٌ من جانبهما، ألقى نظرة عليهما، وضع إحدى أصابعه على شفّتيه، واختفى في بابٍ صغير بين مقاعد الكورال.

سأل كويتن بصوت خافت: «وما هو تابوت العهد؟».

نظر إليه أونو وهو يطلق تنهيدة وقال: «من ناحية أرى أنه شيء فظيع أنّ شباب اليوم يكادون لا يعرفون أيّ شيء، ومن ناحية أخرى أعتبركم محظوظين بأنكم لا تحتاجون إلى حمل هذا العبء الثقيل على كاهلكم. ولكن يبدو أنّ الطبع يغلب التّطبع. كان تابوت العهد صندوقاً ذهبياً، أقدس شيء لدى اليهود: يبلغ من القدسية ما يبلغه عرش يهوه. حتى إنه اليهود نفسه بمعنى معيّن».

- لكنك قلت أمس إن الشمعدان أقدس شيء عند اليهود.

- كان في عصر فيسبازيانوس وتيتوس أقدس شيء. هيا، دعني أشرح لك كل شيء حالاً
رفع أونو إصبعاً واحدة من أصابع يده اليمنى وثلاثاً من أصابع يده اليسرى وقال إن كويتن
يجب أن يميّز أربعة أشياء: خيمة الاجتماع، والهياكل الثلاثة المتعاقبة في مدينة القدس. عندما
حصل موسى على الوصايا العشر في الصحراء، كلّفه يهوه أيضاً بإقامة خيمة اجتماع، محدّداً
له قياساتها كلّها ببالغ الدقة. كانت حينذاك مجرد خيمة قابلة للطّي، يستطيعون أخذها معهم
في تيههم، لكنّها حتى في ذلك الوقت كانت تتكوّن من فناء، وحرّم، وقدس أقداس. كذلك
سمع موسى ببالغ الدقة كيف يجب أن يكون شكل التابوت؛ يمكن قراءة هذا كلّ في الكتاب
المقدّس. كان يقف على غطاءه الذهبي ملاكان ذهبيان بجناحين مبسوطين، وجه أحدهما
قبالة وجه الآخر. وعلى جانبيه حلقاتٌ ذهبية تُدخل فيها عصّوان، كي يستطيعوا حمل التابوت
معه. بعد مضيّ بضع مئات من السنوات، تقريباً سنة ألف قبل الميلاد، بنى الملك سليمان
هيكله حسب المبدأ نفسه في مدينة القدس. في قدس الأقداس في الهيكل أُحيط التابوت من
الجانبين بملاكين ضخمين طول كلّ منهما خمسة أمتار، بجناحين مبسوطين أيضاً.

- ماذا حدث للملاكين الأولين؟

قال أونو: «لا أعلم يا كويتن». وتنهّد مرّة أخرى: «استمع قليلاً. قام نبوخذ نصر بهدم
هيكل سليمان واختفى التابوت منذ تلك اللحظة. في زمنٍ لاحق، في القرن السادس قبل
الميلاد، بُني الهيكل الثاني في ذلك المكان نفسه، هيكل زربابل، ولكن من دون التابوت.
آل ذلك المبنى إلى التداعي، فهدمه هيرودس وبنى الهيكل الثالث. التقليد اليهودي لا يميّز
على كلّ حال بين الهيكلين الثاني والثالث، لأنّ الحاخامات لا يريدون أن ينسبوا الشرف
إلى هيرودس، لأنّه كان متعاوناً مع الرومان. إنهم يرون أنّ الهيكل الثالث لا يزال هو الهيكل
الثاني، أعاد هيرودس بناءه على شكل صرحٍ ضخم، في المكان نفسه أيضاً. ولكنّ ذلك
الهيكل لم يستمرّ في الوجود أكثر من بضع سنوات. لقد دمره تيتوس، كما تعلم. يتبيّن من
روايات شهود عيان أنّ قدس الأقداس كان فارغاً حينذاك أيضاً».

قال كويتن وهو يمدّ سبابته إلى المذبحين الصغيرين، اللذين توجد خلفهما السانكتا
سانكتورم: «هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنّ تابوت العهد يوجد هناك في الداخل».
حملق فيه أونو لبضع ثوانٍ عاجزاً عن الكلام، ثم قال ضاحكاً: «هذا ما أريد سماعه! لقد

أثبتت أجيالٌ من اللاهوتيين، والحاخامات، والمؤرخين، وعلماء الآثار أنَّ التابوت مخفّف منذ المنفى البابلي، ولكنّ البروفيسور الدكتور المهندس العبقرى كويتن كويست يعرف أفضل منهم. أصغ إليّ! أرى أنا أيضاً أنه شيء غريب تسمية هذا المعبد سانكتا سانكتورم، ولكن لعلّه لا ينبغي لنا فهمه بشكلٍ حرفي».

- ليس اسم المعبد فقط، بل كُتب عليه أيضاً أنه لا يوجد مكان أقدس منه في العالم كلّه. ليس هناك شيء مجازي في هذا.

- هذا كلّه صحيح. ولكن كيف تفسّر إذاً وجود الشمعدان ومائدة خبز الوجوه على قوس النصر الخاص بتيّوس، وعدم وجود التابوت؟ لو كان تيتوس قد أحضر التابوت أيضاً، لكان مصوّراً في المقام الأول على القوس، أليس كذلك؟

- ألا يمكن أن يكون هناك سببٌ لذلك؟

- مثل؟

رفع كويتن كتفيه: «لا أعلم.. لعلّ تيتوس وقيسبازيانوس كانا خائفين من إله اليهود بعض الشيء، فرأيا أنه من الأسلم ألاّ يثيرا ضجّة كبيرة بالتابوت».

قال أونو بحركة خفيفة من رأسه: «ليست فكرة غريبة في حدّ ذاتها. يصعب علينا تصوّر هذا، نحن ورثة الديانة اليهودية التوحيدية، التي لا تعترف سوى بإله واحد، وليس بإله غيره؛ حتى إنّ هذا هو مضمون الوصية الأولى. ولكنّ الرومان كانوا عندما يهزمون عدوّاً لهم، لا يأسرون جنوده فحسب، وإنما يضمّون آلهته في بعض الأحيان إلى بانثيون آلهتهم أيضاً. ولكن لنفترض أنّ ما تقوله صحيح، ما الذي حدث عندئذٍ؟».

قال كويتن: «حسناً، شيءٌ منطقي إلى حدّ ما. أخذ تيتوس التابوت معه، لكنّه لم يظهره للعيان في ذلك الموكب. عندئذٍ أخفاه قيسبازيانوس في القصر الإمبراطوري، وبعد ذلك أعطاه قسطنطين للباباوات في سرّيّة تامّة. فأخفاه الباباوات في مكانٍ ما خلف هذه القضبان. هذا هو السبب في الوقت نفسه في أنهم أبقوا على المعبد عندما هدموا اللاتران».

أحنى أونو رأسه: «ليس بالتحليل السيّء. ولكن هذا يعني أنّ ذلك المهندس المعماري، دومينيكو فونتانا، كان على اطلاع بهذا الأمر - وإلا لما اقتبس هذا المبنى، مع السكالاسانتا، من الهيكل. لا، لم يكن يعرف شيئاً عنه بالطبع، ولكن الذي كان يعرف هو البابا سيكستوس الخامس الذي كلّفه بالمهمّة».

- هذا واضح.

- ولكن ألم يكن في ذلك مخاطرة كبيرة، خاصة بالجمع بين اسم المعبد وتلك الكتابة؟
ألم يستدع هذا إلى ذهن أحد من قبل أن «تابوت الرب»^(*) موجودٌ هنا؟
- هل سمعت شيئاً عنه؟

أجاب أونو: «لا، لم أسمع». وصمت لحظة ثم أضاف: «صحيح، بعض الأفكار تبلغ من البدهية أنك تكاد لا تصدّق أنها لم تخطر في بال أحد من قبل. كان الجميع يعتقد لقرون طويلة أن الإلياذة أسطورة؛ ولكن هاينريش شليمان بدأ يحفر ببساطة، مسترشداً بهوميروس، فوجد على الفور طروادة هيلين. يبدو أنه كان شخصاً مثلك. لو كان لدينا منظارك التاريخي ذاك، لاستطعنا التأكد مما حدث في الماضي». ونظر إلى كويتن باستمتاع: «هل تستطيع تصوّر ماذا يمكن أن يعني هذا، إذا كان ما تقوله صحيحاً؟».

- ماذا تقصد؟

التفت أونو إليه: «التابوت يا كويتن! سينقلب العالم بأكمله رأساً على عقب، إذا تبين بصورة مفاجئة أنه لا يزال موجوداً وأنه هنا في روما. هذا يمكن أن يأتي بعواقب في منتهى الغرابة».

ولكنّ هذه النقطة لم تُثر اهتمام كويتن. أخذ يحدّق في الجدار الذي تقع وراءه السانكتا سانكتورم وقد استغرق في أفكاره وسأل: «ما حجم ذلك التابوت؟».

- آسف، لم أحفظ ذلك عن ظهر قلب. لقد حفظ موسى المئات من المقاييس والتشريعات على جبل حوريب من دون أن يكتبها، ولكن حتى أنا لا أملك مثل تلك الذاكرة.

- ولكن بوسعنا التحري عن ذلك.

- طبعاً، يمكن التحري عن كلّ شيء دوماً. أنا رهن إشارتك. كلّ شيء مذكور في التوراة.

- في ماذا؟

- في التوراة. القانون. «البيتاتوش»، باليونانية. الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدّس، التي يُقال إنّ موسى قد كتبها: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية. لا أزال أستطيع تلاوتها كلّها عن ظهر قلب، لكنك طبعاً لم تسمع بها إطلاقاً.

(*) اسم آخر لتابوت العهد. [م]

قال كويتن وهو ينهض واقفاً: «لقد سمعت بالتكوين. يجب أن نرى إذا أين نستطيع شراء نسخة من الكتاب المقدس».

- هذا سهل في روما.

- هل نرى ما إذا كنا نستطيع المشي حوله؟

كان المعبد المنحدر من القرون الوسطى يقع فعلاً في مركز المبنى المنحدر من عصر النهضة، مثل قلب المفاعل في مفاعل نووي. في الجانب الخلفي أيضاً، هناك غرفة مقدسة، وعلى الجانب الأيمن يقوم معبد سان لورينزو. عندما وصلا إلى هذا المعبد، توقف كويتن مصعوقاً ونظر إلى باب بدا وكأنه هو أيضاً ينظر إليه.

«مركز العالم»! باب برونزي ذو مصرعين من القرن الرابع، يفضي إلى السانكتا سانكتورم. في لوحه العلويين زخارف دائرية الشكل، مثل قزحيات تتوسطها حدقة. المصراعان مقفلان بقفلي مشبك سحاب ثقيلين، أحدهما أسفل الآخر، حجمهما بحجم القفل المعلق على المذبح، شبيهين بأنفٍ وفم. إطار الباب الرخامي العريض متوج بعمودين قصيرين، يحملان الطبلبة؛ في المساحة أسفلها مكتوب:

SIXTVS•V•
PONT•MAX•

يعرف كويتن طبعاً أنّ «بونت. ماكس»، اختزال من «بونتيفيكس ماكسيموس»، اللقب البابوي «باني الجسور العظيم»؛ نظر مع ذلك بارتياح إلى اسم ماكس، الذي ظهر بصورة مفاجئة هنا فوق هذا الوجه البرونزي، الذي يعرفه من حصنه. ردّ على نظرة الباب المألوفة ولم يشعر هذه المرّة بالخوف. التفت فجأة إلى أونو: «ماذا كان موجوداً فيه؟».

- في ماذا؟

- في تابوت العهد.

- لوحا موسى الحجريّان، مكتوبة عليهما الوصايا العشر.

*

في صباح اليوم التالي استقلّا الباص إلى شارع فيا أوميرو، الذي يقوم فيه «المعهد الهولندي للفنون التاريخية». في أول الأمر تردد أونو في الذهاب إليه، فقد يضطرّ إلى ذكر

اسمه فيعرفه العاملون فيه: كان المعهد من ضمن حقييته الوزارية في ذلك الوقت وخفّض عنه الدعم المالي، كي يتيح المال لمرآتي ماكس الثالثة عشرة والرابعة عشرة. من ناحية أخرى يعلم أنّ وزيراً مفوضاً لا على التعيين لا يُنسى بعد سنوات فحسب، بل وغالباً عندما يكون في منصبه أيضاً. مَنْ يكون وزيراً مفوضاً، أو وزيراً حتى، يظن أنه سينعم هو وعائلته بهذا المجد إلى الأبد، ولكن ما عداهم لا يعود أحد يتذكّر ذلك على العموم. ولعلّ هذا أمرٌ حسن؛ لأنّ كلّ شيء يتكرّر على الدوام، فإنّ السياسة لا تكون ممكنة إطلاقاً من دون ذاكرة الناس الضعيفة. يضاف إلى ذلك أنه لم يعد يهمّه ما إذا عرفه الناس.

في صالة القراءة الهادئة، حيث ينكبّ بضعة طلاب على أوراقهم، ذهب أونو إلى مديرية المكتبة، سيّدة شائبة الشعر، قصيرة القامة بشكل غير عادي، واقفة على رؤوس أصابعها، بقلم رصاص بين أسنانها، أمام درج مفتوح يتضمّن بطاقات فهرسة. أجبر نفسه على إبعاد صورة هيلخا عن مخيلته، قبل التمكن من سؤالها عمّا إذا كان لديها كتابٌ مقدّس هولندي للاطلاع عليه.

ألقت نظرة قصيرة على مظهره الرثّ وقالت: «لقد جئت إلى العنوان الخاطئ. ربما تجده في السفارة».

فسألها كويتتن: «هل أنت واثقة من هذا؟».

رفعت إليه عينيها، ورآها أونو تتغيّر في تلك اللحظة نفسها، مثلما يتغيّر منظرٌ طبيعيّ عندما تشرق الشمس عليه. قالت له بابتسامة: «يبدو من ملامح وجهك وكأنّ الأمر مستعجل».

- هذا صحيح.

- انتظر، لعلّي أستطيع مساعدتك!

عندما اختفت عن الأنظار، قال أونو: «ما الذي يجعل النساء ينجذبن إليك، وليس إليّ؟». نظر إليه كويتتن باستغراب شديد، فظنّ أونو أنه من الأفضل ترك الأمر عند هذه الملاحظة. ما إن مضت بضع دقائق حتى عادت معها كتابٌ مقدّس صغير، ناولته لكويتتن: «تفضّل، من أجلك! كان في الخزانة الصغيرة بجانب السرير في إحدى غرف الضيوف. أعتقد أن لا أحد ينظر فيه، لذلك سيكون أكثر فائدة بهذه الطريقة».

قال أونو وهو يرمقها بنظرة صارمة: «سيكون من غير المعقول أيضاً ألاّ تحتوي مؤسسة هولندية كتاباً مقدّساً بين جنباتها!».

ذهبا إلى الحديقة القريبة، القيلًا بورغيزي، وجلسا على أحد المقاعد. كان الصمت السائد بين الأشجار والمناطق العشبية، الذي تُعمِّقه الضوضاء الخافتة المنبعثة من حركة المرور في المنطقة المحيطة، يتسم بطابع سرمدى. الحجاب الأخضر الرقيق الذي ألقاه الربيع على كل شيء، مثل طفل أطلق أنفاسه على زجاج نافذة، استدعى خروت ريخترن إلى ذهن كويتن، - وتساءل باندهاش بأي صلة يمت أحد هذين الأمرين إلى الآخر: هذه الطبيعة وهذه الأشياء التي ينشغلان بها الآن؟!

سأل بينما يتصفّح أونو أوراق السجائر المطبوعة، وقد لفّ ساقاً على ساق: «ما نوع العهد الذي نتكلّم عنه؟».

- العهد بين الربّ وإسرائيل، المُسمّى بالعهد القديم. مع مجيء المسيح في ما بعد ظهر العهد الجديد، بين الربّ والذين آمنوا بالمسيح. رأى المسيحيون أنّ العهد الجديد قد أكمل العهد القديم ونسخه.

- وماذا كان رأي اليهود في هذا؟

قال أونو: «نعم، ماذا تظن؟ لم يعجبهم كثيراً. رأى الحاخامات أنّ يسوع الناصريّ حاخام يقول إنه المسيح، لكنّ حاخامات آخرين اعتبروا ما يقوله كفراً. أنت تعرف كيف يتعامل الحاخامات بعضهم مع بعض. كانوا يعتقدون أنّ المسيح الحقيقي سيأتي في ما بعد، ولا يزالون يعتقدون هذا».

ووضع يده على رأسه: «يا إلهي، لو يسمعني والذي أتحدّث بهذه الطريقة!».

وتجمّد بصورة مفاجئة وحدّق أمامه بنظرة لم يفهم كويتن معناها.

- ما الأمر؟

رمقه أونو بنظرة، ثم أعطاه الكتاب المقدّس وقال: «أمسك! يجب أن أرّتب شيئاً».

رأى كويتن والده باستغراب وهو يُخرج ظرفاً من جيبه الداخلي، وعلبة ثقاب من جيب بنطاله، ثم يشعل النار في إحدى زاويا الظرف.

- ماذا تفعل؟

- أرسل رسالة.

أخذ يدير الظرف المحترق بين أصابعه إلى أن صار غير قادر على إمساكه. أدار البقايا

المتفحمة، الساقطة على الأرض، بكعب حذائه في التراب ثم بعثرها بعصاه، حتى لم يعد يُرى أيُّ شيء منها. كان كويتن يراقبه في ذهول.

قال أونو: «لا تولِ الأمر اهتماماً ولا تطرح أيَّ سؤال».

استرجع منه الكتاب المقدس وأخذ يبحث في رسالة بولس إلى العبرانيين عن المقاطع التي يتذكّر وجودها: «لقد مضى زمنٌ طويل، يا بني، على الوقت الذي كنت أكرّس نفسي فيه لدراسة كتابية. حمداً للربّ أنها الترجمة الرسمية، بلغة الكنعانيين، وليست واحدة من تلك النسخ المعاصرة الصادرة عن المذهب اللاهوتي "موت الرب"».

بينما تعبر بين حين وآخر سيّدةً مع طفل، أو سيّد مع كلب، على الدرب الممتدّ بجانبهما، أو يهرول عداء، قرأ على مسمعيّ كويتن عن المسيح الذي لم يدخل «إلى أقداسٍ مصنوعة بيدِ أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها، ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا».

تلا بصوتٍ رصين: «وأما المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنةٍ للخيرات العتيدة، فبالمسكن^(٥) الأعظم والأكمل، غير المصنوع بيدٍ، أي الذي ليس من هذه الخليقة، وليس بدم تيوسٍ وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرّةً واحدةً إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً». ثم قال: «هنا مذكور أنه كرم الإنسان: «بالحجاب، أي جسده». هيّا، هيّا! وهنا عن «المسكن الحقيقي الذي نصبه الربّ لا إنساناً». أعتقد أنّ هذا كله يتضمن منعاً من بناء قدس أقداس دنيوي بأيدي البشر».

قال كويتن: «ولكن مع ذلك، يقوم هناك مبنى مسيحيّ يُسمّى سانكتا سانكتورم وهو أقدس مكان على وجه الأرض».

- هذا ما أقصده.

- إذاً لعلّه ليس مسيحياً إطلاقاً. بعبارة أخرى، إنه مسيحي، لكنّه في الوقت نفسه غير مسيحي.

أحنى أونو رأسه: «أفهم وجهة نظرك، ولكن ماذا تنوي أن تفعل؟».

أشار كويتن إلى الكتاب المقدس، وقال: «انظر إلى المقطع عن تابوت العهد. أريد معرفة حجمه».

فتح أونو الكتاب على سفر الخروج ولم يضطرّ إلى البحث طويلاً. خُيّل إليه وهو يرى

(٥) اسم آخر لخيمة الاجتماع. [م]

هذه الأسماء والآيات كلها أنه يشم رائحة منزل والديه مرة أخرى: «طوله ذراعان ونصف، عرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف».

- وما طول الذراع؟

- حسناً، من مرفقك إلى رأس إصبعك الوسطى، تستطيع القول خمسين سنتيمتراً.

- هذا يعني أن طوله مترٌ وخمسة وعشرون سنتيمتراً، عرضه خمسة وسبعون سنتيمتراً، وارتفاعه خمسة وسبعون سنتيمتراً.

- على وجه التقريب.

أجال كويتن ناظره في الحديقة الشبيهة بهضبة، لكنه لم يكن يرى سوى قفل المشبك الثقيل: «أعتقد أن هذا هو حجم المذبح في السانكتا سانكتورم».

قال أونو ضاحكاً: «دعنا نأمل أن يكون أكبر قليلاً، وإلا فلن يسع فيه تابوت العهد».

- لماذا تضحك؟

- لأن كل شيء يكون صحيحاً على الدوام - إذا أردت أن يكون صحيحاً. فكّر في بروكتور السخيف، الساكن في القلعة. هل تتذكره؟ انظر، في قميصي زرّ واحد، زرّان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة أزرار؛ الزرّ العلوي مفتوح. هذا يتوافق إذاً مع أيام الخلق الستة والسبت المقدّس.

- ولكن يمكن أن يكون فيه شيء صحيح حقاً، أليس كذلك؟

- طبعاً.

- وإلا لماذا وُضعت تلك القضبان السمكة أمام ذلك المذبح؟ وعلى تلك السقيفة فوقه هناك ملاكان بجناحين مبسوطين، أليس كذلك؟ نحن في الطريق لمعرفة شيء ما، يا أبي! «ليس ثمة مكان في العالم أقدس من هنا»^(٥) - هذا كان يمكن أن يكون في هيكل القدس أيضاً! أغلق أونو الكتاب المقدّس، حملق في كويتن بهيئة جادة، ونذت عنه إيماءة: «نعم».

- حسناً إذا! يجب أن أعرف ما الذي يحدث هنا.

- لماذا يا كويتن؟

أجاب كويتن بشيء من نفاذ الصبر في صوته، بينما يفكر في مركز العالم: «لا أعرف».

(٥) يقولها باللاتينية. [م]

57. اكتشافات

كان مصدر الاندفاع، الذي استحوذ على كويتن، لغزاً بالنسبة إلى أونو. لقد ربّى ماكس وصوفيا الصبي على مبدأ اللاأدرية، يكاد لا يعرف الكتاب المقدس، ولم يحدث أن أولى الأديان أيّ اهتمام، على حدّ علمه. لو كان نوعاً من هوسٍ دينيٍّ، لاستطاع فهمه؛ ولكن يبدو أنه لا يمتّ بأيّ صلة إلى هذا الأمر. وأما أن يكون تابوت العهد موجوداً في السانكتا سانكتورم، فهذا محض هراء بطبيعة الحال - استدلال كويتن ينطوي على حماس الشباب وجمال البساطة، لكنّه يعرف هو نفسه أحاييل هذا النوع من الاستنتاجات البسيطة حقّ المعرفة. من شبه المستحيل أن تكون الأمور على هذا النحو، فعلى الدوام يظهر شيء يحوّل البساطة الجميلة بصورة مفاجئة إلى فوضى مثيرة للإحباط، لا يمكن اكتشاف نظام فيها إلا ببالغ الجهد، نظام يتبيّن دائماً أنه على جانب أكبر بكثير من التعقيد. لكنّ وجهة نظره في أنّ نظرية كويتن مجرّد ترّهات لم تمنعه من التعمّق في البحث على مدى بضعة أيام - أو لعلّ عبثية المشروع الواضحة تحديداً هي التي جذبتّه: في عالم عبثيّ ينطوي العبث وحده على معنى، مثلما كتب في الرسالة إلى والده.

لأنّ معظم الكتب التي يجب عليه استشارتها ستكون بالإيطالية، واللاتينية، واليونانية والعبرية، فقد التفت كويتن إلى مشاريعه الخاصة، في حين بدأ هو نفسه بالبحث في «المكتبة الوطنية» في صباح اليوم التالي. لتمع حذاءه على نحو أقلّ أو أكثر بخرقه قديمة، حشر قميصه في بنطاله بصورة لا بأس بها، ولبس ربطة عنق لأول مرّة منذ سنوات طويلة.

في اليوم الأول مباشرة، بعد بضع ساعات، استوعب ما كان يفترضه: أنّ الكتابات عن هيكل القدس وتابوت العهد شكّلت على مرّ القرون نوعاً من صحخرة رسوبية هائلة، مثل روما نفسها، بُنيت إحداها فوق الأخرى ولا يزال معظمها تحت الأرض. لم يستطع تمالك

نفسه من التفتيش قليلاً في التعليقات الحاخامية التي لا حصر لها، ومن إلقاء نظرة سريعة على ما كتبه فيلو عن التابوت، وما كتبه توما الأكويني في العصور الوسطى، وبيكو ديلا ميراندولا، وفرانسيسكو جيورجي، وكامبانيلا في عصر النهضة، وفلود وكييلر وحتى نيوتن في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وصولاً إلى وجهات النظر الضعيفة للماسونيين المعاصرين وأتباع الصليب الوردي والأثروبوصوفيا. وجود هذه الافتراضات كلّها زاد من إدراكه بما يمكن أن يحدث من اضطراب إذا ظهر التابوت فعلاً - ولكن باستثناء هذا، كلّ شيء ممتع للغاية. يعلم من خبرته الخاصة أنه لن يصل إلى النهاية، إذا ما واصل التوغّل في الموضوع. يجب عليه أن يتقّفى الأثر بدقّة عن طريق المداخل في الموسوعات اليهودية، ليست الموسوعات العبرية فقط، أن يعبر بالهوامش، والمراجع، والفهارس، يهرول مثل كلب بوليسي بأنفه فوق الأرض، دون أن يرفع عينيه أو ينظر حوله، متجاهلاً كلّ ما لا يخدم الهدف في الحال. وهذا الهدف ليس هدفاً دينياً أو ميتافيزيقياً أو رمزياً بل هدفاً محدّداً جداً: هل لا يزال التابوت موجوداً - وإذا كان موجوداً، فأين هو؟

في صباح اليوم التالي، نقّب مستعيناً بفهرس الكتاب المقدّس، في كلّ المراجع عن التابوت، وكانت أقرب إلى متّين أكثر منه إلى مئة؛ وبعد الظهر نظر بعيني كويتن في تاريخ قصر اللاتران، والبازيليك، والسانكتا سانكتورم. عندما أغلقت المكتبة أبوابها في ذلك المساء، كان قد توصّل إلى بضعة اكتشافات لا بدّ أنها ستثير دهشة كويتن؛ لكنّه قرّر ألاّ يتحدّث معه بخصوصها إلا بعد أن ينهي المسألة بشكل أقلّ أو أكثر. في اللحظة الأخيرة عثر في السجّل النظامي على عنوان كتاب إيطالي واعد عن كنز السانكتا سانكتورم، ولأنه لم يكن يرغب كثيراً في العودة إلى المكتبة نفسها، اتصل أولاً بالمعهد الهولندي للفنون التاريخية، الكائن في شارع فيا أوميرو؛ تبين أنه متوفّر هناك، حتى بالنسخة الألمانية الأصلية. عندما كان في الطريق إليه، لاحظ عندئذٍ فحسب أنه قد لبس مجدّداً ربطة عنق.

عندما رآته مديرة المكتبة، مرّت ابتسامة على وجهها: «هل تركت رفيقك الورع في البيت، اليوم؟».

- إنه ابني. إنه يتجوّل في مكانٍ ما في المدينة، باحثاً عن أسرار العصور القديمة.
- تهانينا! لم يسبق لي رؤية صبيّ بهذا الجمال. إنه صورة طبق الأصل عن يوحنا المعمدان في تلك اللوحة التي رسمها ليوناردو دافنشي.

ومدّت يدها باتجاهه وقالت: «إلسا سخولته».

ارتعب أونو. وضع عصاه في يده الأخرى، وصافحها، وأراد القول «إنريكو ديليوس»، لكنه لم يشعر إلا وهو يقول: «أونو كويست».

أدرك أنه أحدث ثقباً في عزلته بصورة نهائية، ولكن لم تظهر على وجه إلسا سخولته أي علامة تدلّ على أنها عرفته. كان الكتاب الذي سأل عنه قد وُضع على طاولة القراءة، عنوانه بالألمانية: «المعبد الروماني سانكتا سانكتورم وكتره. اكتشافاتي ودراساتي عن مصلّى الباباوات في العصور الوسطى»، نشرها شخص اسمه غريسار عام 1908، وهو يسوعي نمساوي. استطاع معرفة كل شيء الآن - عرف أيضاً أنّ طول المذبح مئة وثمانية وأربعون سنتيمتراً، عرضه خمسة وتسعون سنتيمتراً، وارتفاعه ثمانية وتسعون سنتيمتراً، بحيث يمكن أن يكون التابوت قد وسع فيه بدقّة شبه تامة. لكنه ليس فيه. لا يرتاب هو نفسه في هذا الأمر لحظة واحدة بطبيعة الحال، ويصعب عليه إخبار كويستن بهذا عمّا قليل.

في وقت الغداء تناول شطيرتين من البانييني الإيطالي في المقصف، ثم عاد إلى مكانه لترتيب ملاحظاته. صار يشعر بنفسه مثل طالب يجب أن يجري بحثاً لبروفيسوره المجنون، وسوف يرسب من دون شك في امتحان الدكتوراه، لأنّ النتائج التي توصل إليها لا تتوافق مع التوقعات شديدة المبالغة. ولكن في الوقت نفسه أيقظ العمل الجنوني ذكرياته وملأه بالحنين إلى أيام قرص فستوس.

بعد مضيّ ساعة، أقبل عليه سيّد يبدو أنه ذو ثقافة عالية. ألقى نظرة على عصا أونو، الموضوعة على الكرسي بجانبه، ثم على شعره المربوط في ذيل في عنقه. قال بوجه خالٍ من التعبير: «مرحباً يا سيّد كويست. اسمي نوردهولت. أنا المدير هنا».

أحنى أونو رأسه ونظر إليه من فوق نظّارته الخاصة بالقراءة: «أعرف».

كان يعرفه لأنه هو الذي عيّنه بنفسه في ذلك الوقت.

- يسعدني أنك تكرّمت بالاسترشاد بمعهدنا. لقد خفّضت ميزانيتنا بشكل كبير، منذ عدّة سنوات، على يد الوزير المفوض السابق، فسُرّح عددٌ من الموظفين، لكنني مع ذلك أمل أن تجد ما تبحث عنه.

والتفت عنه بإحناء خفيفة من رأسه واختفى.

لقد صُفّي حسابٌ مرة أخرى. لم يُمنح أونو الفرصة ليقول شيئاً، ولكن ماذا يجب أن

يقول؟ هل يجب على المدير الذهب ليشاهد فيستربورك؟ هل ازداد حجم الكون مرتين عما كان عليه، بفضل ما أجراه من تخفيض في الدعم المالي على المعاهد الثقافية في خارج البلاد؟ هل كان ذلك خدمةً لصديق؟ على كل حال، سيصل خبر وجوده في روما إلى هولندا على جناح السرعة؛ لعلّ نوردهولت يجري مكالمته هاتفية في هذه اللحظة نفسها، ليبلغ أنّ كويست، تعرف، نعم، ذلك الذي طاش صوابه كلياً. رفع أونو كتفيه وانحنى مجدداً على كتابه، لكنّه لم يعد يستطيع التركيز. خلع نظّارته، نهض عن مجلسه، نظر عبر النافذة برهة من الزمن، ثم سار بخطوات بطيئة نحو طاولة قراءة مستديرة في الزاوية، تُعرض عليها المطبوعات الفنّية الدولية وكذلك بضع جرائد يومية وأسبوعية هولندية.

بينما يقف هناك، قرأ أنّ يوم الأمس بدأت محاكمة تركي في روما، حاول قتل البابا قبل أربع سنوات. لقد صاح من داخل قفصه ذي القضبان المتينة: «أنا يسوع المسيح. لقد اقتربت نهاية العالم!». ما يدعو للعجب هو أن يتلقّى هذه المعلومة من جريدة هولندية. واصل التصفّح برهة قصيرة، جلس في اندهاش، وأخذ لأول مرة منذ أربع سنوات يطّلع على الوضع في هولندا والعالم.

عندما رفع عينيه بعد ساعة من الزمن وأدرك أين هو، شعر وكأنه عائدٌ من الموت. لم يعد أيّ شيء على حاله. يتبيّن من التعليقات السياسية أنّ حكومة دوروس، التي كان سيصبح فيها وزير الدفاع، لم تستمرّ في الوجود أكثر من تسعة شهور؛ بعد ذلك انسحب كووس والديمقراطيون الاشتراكيون من الحكومة، أو أبعدوا، فأخذت تترنّح فترة من الزمن، فصار دولف في تلك الأثناء رئيس الوزراء. دولف! طبعاً! الذي كان دوروس يطلق عليه بتهكّم اسم «خادم السباق»^(٥)، مصطلح من رياضة سباق الدراجات الهوائية، حسبما فهمه حينذاك، وكان كووس أيضاً يستهين بقدراته على الدوام. تمنّى له هذا المنصب، فأناء تلك الرحلة الفظيعة بالقرب، في اليوم الأخير من حياته السابقة، كان هو الوحيد الذي واساه بوضع يده على كتفه. نعم، لقد سارت الأمور بهذه الطريقة - أخذوا يراقبون الباب الأمامي، السادة النبلاء، ولكن ليس الباب الخلفي: الخطأ التقليدي. ولكنّ الوضع السياسي لم يتغيّر في هولندا فحسب. لو صار وزير الدفاع حينذاك، لاضطرّ إلى التعامل مع المظاهرات الحاشدة ضد ترسيخ الصواريخ الأميركية الجوّالة؛ ولكن يتبيّن أنّ أميناً عاماً جديداً قد استلم زمام الحكم

(٥) هو من يعمل أثناء السباق لصالح فريقه، بدلاً من أن يحاول الفوز بنفسه. [م]

في الاتحاد السوفيتي منذ بضعة شهور - رجل من عمره، ليس بالوجه الإسمتي المعتاد، بل بوجه إنساني صافٍ ونظرة حازمة هادئة.

خامره شعورٌ مبالغت بأن العالم بدأ يتغيرَ تغيراً جذرياً. كيف عليه تصوّر هذا؟ أتقرب الحرب الباردة من نهايتها يا ترى؟ إنها فكرةٌ سخيّة بطبيعة الحال، ففي الشرق والغرب لا يزال التسليح جارياً على قدم وساق، لكن خُيِّلَ إليه وكأنه نظر إلى العالم قبل قليل، مثل لاعب شطرنج، يرى من النظرة الأولى إلى مباراة بين لاعبين آخرين نهاية محتملة، لم ينتبه إليها اللاعبان بعد. أغلق الجرائد والمجلاّت وأخذ يحدّق عبر النافذة. هل يُعقل أن يُحظر الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بحلول عام 2000؟ هذا غير معقول بطبيعة الحال، ولكن يمكن أن يكون اللامعقول على وشك الحدوث؟ هل يمكن أن يكون جانبه الأيسر منعدم الإحساس - نتيجة شريح في الجانب الأيمن من رأسه - تنبؤاً سياسياً؟ اندهش من هذه الفكرة؛ هل هو بصدد تبني طريقة كويتن في التفكير؟ في الوقت نفسه صالحته هذه الفكرة مع معاناته بعض الشيء. تذكر أن لينين أيضاً تعرض لتزييفٍ دماغيّ عندما كان في عمره تقريباً، ولكن جانبه الأيمن هو الذي أصيب بالشلل.

*

في ذلك اليوم نفسه، كان كويتن قد ذهب للمرّة الثالثة إلى المبنى المتضمّن السانكتا سانكتورم، الذي صار يعرفه تقريباً مثلما يعرف غرفته في خروت ريخترن. لم يلاحظ النظرات الرقيقة التي يلقاها عليه الكهنة من زوايا أعينهم - عندما يعاود التحديق عبر القضبان في المذبح البابوي المقفل، بعينه الزرقاوين الجميلتين، أو عندما يتصفّح كتابه المقدّس الصغير في ورع يديه الرهيفتين في معبد من المعابد الجانبية. كان قُربه المباشر من سرّ، يستطيع السير حوله في نصف دقيقة ويبلغ في الوقت نفسه من بُعد المنال ما يبلغه حلمه بالحصن أثناء النهار، قد عزله عزلةً كاملة عمّا يحدث حوله. صُعّب عليه التقدير من مسافة بعيدة، لكن بدا له أنّ المساحة الموجودة تحت سطح المذبح كبيرة بما يكفي لاحتواء التابوت. لاحظ أنه من الصعوبة بمكان أن ينظر بشكل جيّد إلى شيء محدّد؛ لكنّه في تلك الأثناء رأى باباً برونزياً وراء القضبان، مقفلاً هو أيضاً بقفل مشبك كبير الحجم. لم يسبق أن كان واثقاً من أيّ شيء مثلما هو واثق من هذا الشيء: هناك في الداخل يُحتفظ بشيء غير عادي - يشعر بهذا الأمر بكلّ كيانه، مثلما تشعر إبرة البوصلة بالقطب. بعد أن حثّ الكهنة الزوّار على الانصراف بإيماءات

وقورة، عند اقتراب الساعة الخامسة، سار في الساحة حول المجمع بضع مرّات وأمعن النظر في جدران المعبد الخارجية مربّعة الشكل، المحاطة بمبنى فونتانا الجديد الأقل انخفاضاً بعض الشيء. رأى في المنطقة العشبية الصغيرة الواقعة على الجانب أفراداً من شعب التاميل يشعلون ناراً؛ رجلٌ نصف عارٍ بذراع واحدة يغتسل، في حين يلتقط شخصٌ في سيارة مركونة صورة له بعدسة مقرّبة.

في طريقه إلى البيت عرّج مرة أخرى على قوس النصر الخاص بتيّتوس في المنتدى الروماني. حاول بعينين شبه مضمومتين اكتشاف ما إذا كان التابوت على النحت البارز ذات يوم وأزاله أحد الباباوات عن قصد. الظلال الحادة التي تلقيها الشمس في تلك اللحظة جعلت المشهد أكثر حيوية وإلهاماً مما كان عليه عندما رآه أول مرة. في القُرب تنبعث ضوءاء السيارات والباصات - ولكنّ الهيجان والضجيج اللذين رافقا الوصول المكثّل بالانتصار إلى هذا المكان، قبل ما يقارب عشرين قرناً من الزمان، يتردّد صداهما عبرها مرّة أخرى، مثل عاصفة رعديّة حقيقية في قاعة مسرح، يُعرض فيها مشهد رعويّ. الجنود بوجوههم الكظيمة، المكثّل كلّ منهم بإكليل من الغار، فوقهم رايات الأفواج المرفرفة في هياج، على أكتافهم غنائمهم من الشمعدان السباعي، والبوقين الفضيّين، ومائدة خبز الوجوه. كلّ يعمل شيئاً، يحمل شيئاً، وحده الشخص الأخير ضائع قليلاً؛ إنه الوحيد الذي اختفى رأسه اختفاءً شبه كامل. لقد تأثّر النحت البارز بعوامل جيّية، أمّحت بعض التفاصيل، وستعمل انبعاثات الغازات على محو المزيد، ولكن لا أثر لتابوت مُختلس.

عندما وصل إلى البيت، كان أونو راقداً على فراشه يقرأ جريدة إنترناشيونال هيرالد تريبيون. توقّف كويتن ويده ما تزال على مقبض الباب: «منذ متى تقرأ الجرائد؟».

أنزل أونو الجريدة، نظر إليه من فوق نظّارته الخاصة بالقراءة وقال: «لقد نزلتُ إلى الأرض يا كويتن». وأخبره بما حدث معه في المعهد، وبأنّ حياته المجهولة ستصبح عمّا قريب في عداد الماضي، لكنّه في المقابل اكتشف العالم من جديد.

- لم أكن أظن أنّ هذا سيحدث ذات يوم. ظننت أنني سأبقى في حداد إلى يوم مماتي، وهذا كان سيحدث لولا مجيئك إلى روما، ولكن يبدو أنه يجب أن يكون على هذا النحو.

قال كويتن وهو يمضي للجلوس على الكرسي خلف مكتب أونو: «إنه على هذا النحو على كلّ حال».

طوى أونو يديه إحداهما فوق الأخرى على الجريدة، ونظر برهة من الزمن إلى ريشة سوداء كبيرة من جناح إدغار، موضوعة في وعاء حبر فارغ على حافة النافذة.

- هل تعرف ما قد يكون أقطع قول من الأقوال المأثورة؟ «الزمن يداوي كل الجراح». لكنّه صحيح. تبقى ندبة دائمة قد تؤلم عندما يتغيّر الطقس؛ أما الجرح فيلتئم ذات يوم. عندما كنت صبيّاً في نحو الثامنة من العمر، تعرّث ذات يوم وفي يدي مقصّ أظافر من تلك المقصّات المدبّبة المقوّسة، فانغرز عميقاً في ركبتي، ولا أزال أتذكّر بدقّة كيف صرخت من الألم. مثلما هو حال الجميع، أصبحت لديّ ندبة على ركبتي، لكنني الآن لا أستطيع أن أقول لك على أيّ ركبة. لديك ندوب أيضاً من دون شكّ، لا تستطيع تذكر أيّ جراح خلّقتها. هذا ينطوي على شيء مروع. هذا يعني، وأنت تعود بذاكرتك إلى الوراء، أنّ تلك الجراح كان بإمكانها ألا تحدث أيضاً. ما تعرّضتُ له شيءٌ تافه مقارنة بما تعرّض له العديد من الناس الآخرين، في الحرب على سبيل المثال، وقد التأم ذلك الجرح على ما يبدو - ولكنّ أمك لا تزال في الغيبوبة وخالتك هيلخا لا تزال في عداد الأموات. هناك شيء غير صحيح.

تشوّش ذهن كوينتن من هذه الكلمات، وعندما رأى أونو تشوّشه، استقام بجذعه بعض الشيء وضحك: «لا تستمع إلى أبيك العجوز! لم تكن للبشرية أن توجد لو كان الحال غير هذا الحال، وليست هناك مشكلة على الإطلاق بالنسبة إلى الحيوانات. عندما نحلّ الألغاز جميعها في الأجل القريب، سيبقى لدينا لغز الزمن على الدوام. لأننا نحن أنفسنا نشكّل هذا اللغز. لهذا السبب أقرأ هذه الجريدة هنا. ليس لديّ انطباعٌ بأنك تولي السياسة العالمية أيّ اهتمام، ولكن هل أخبرك بما اكتشفته؟».

فقال كوينتن: «نعم، ولكن ليس ما اكتشفته في السياسة العالمية».

استنشق أونو الهواء بعمق، ألقي الجريدة على الأرض، ونهض من الفراش: «اسمح لي بالجلوس هنا!».

نهض كوينتن واستند إلى حافة النافذة، فجلس أونو إلى ملاحظاته: «لقد عرفت الكثير، لكنني أشكّ في أنك ستكون سعيداً به».

رتّب ملاحظاته في أربعة صفوف طويلة على الطاولة، مثل شخص يريد أن يلعب لعبة الورق بمفرده، صالب ذراعيه على صدره، وبقي ينظر إليها بضع ثوان: «من أين أبدأ؟».

- من البداية.

- أيمكنني أن أبدأ أيضاً من النهاية المحتملة؟

وأخذ ورقة صغيرة: «حسب سفر الملوك الثاني، الفصل الخامس والعشرون، الآية التاسعة، نهب البابليون هيكل سليمان وأضرمو النار فيه، مع القدس كلها. الرأي الشائع هو أن التابوت قد ضاع أيضاً أثناء الحريق. كنت تعرف هذا الشيء من قبل. لقد أعيد صنع الشمعدان السباعي وتلك الأشياء الأخرى كلها في وقت لاحق، باستثناء التابوت. إذا فتحت كتابك المقدس على سفر إرميا 3، الآية 16، فستقرأ أن يهوه قد أعلم النبي أنه لا يجوز لأحد التحدث عن تابوت العهد بعد الآن، لا يجوز لأحد التفكير فيه بعد الآن، لا يجوز لأحد البحث عنه، ولا يجوز أن يُصنع تابوت جديد. هذا آخر ذِكْرٍ للتابوت في العهد القديم».

قال كويتن: «ولكن إذا كان لا يجوز لأحد البحث عنه، فهذا يعني أنه لم يكن ضائعاً، حتى وإن لم يكن موجوداً في الهيكلين الثاني والثالث».

- يمكنك استنتاج هذا. وهذا الرأي تدعمه بضعة نصوص مشكوك في صحتها. على سبيل المثال، النصّ المُسمّى سفر الرؤيا السرياني لباروخ. يُذكر فيه أنه عند اقتراب البابليين من المدينة، نزل ملاكٌ من السماء إلى قدس الأقداس وأمر الأرض بابتلاع التابوت. هذا يعني أنه لا يزال تحت الأرض في مكان الهيكل في القدس. الأمر الوحيد المزعج هو أن تلك القصة لم تُكتب إلا بعد قرن من ظهور المسيح، أي حتى بعد تدمير هيكل هيرودس على يد الرومان. لعلّ أسطورةً وجدتها في الأدب الحاخامي تتوافق معه. تقول الأسطورة إن كاهناً رأى لوحين مرتفعين من الأرض بين الأتقاض، بعد تدمير هيكل سليمان؛ في اللحظة التي أخبر فيها أحد زملائه بما رأى، سقط ميتاً. كان هذا دليلاً على أن التابوت لم يُسرق أو يُحرق، بل كان مدفوناً في تلك الرقعة. هناك قصة جميلة أخرى في سفر المكابيين الثاني. تقرأ فيها أن إرميا نفسه، الذي تحدّث عنه للتوّ، أخذ التابوت وأخفاه بأمر من يهوه.

فسأل كويتن بأعصاب مشدودة: «حقاً؟ أين؟».

- في كهف من كهوف نيبو، الجبل الذي رأى موسى من فوقه أرض الميعاد على الطرف الآخر من نهر الأردن، الأرض التي منعه يهوه من الدخول إليها لسببٍ أو لآخر.

- ولم يبحثوا عنه هناك إطلاقاً؟

- طبعاً بحثوا. وفي الحال. أراد الأشخاص الذين كانوا معه أن يعلموا الطريق إلى الكهف ويرسموه، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه بعد ذلك. عندما سمع إرميا بما فعلوه، وبخهم

وقال لهم - دعني أنظر... أين هو؟ ليس هناك سوى نصّ إغريقي عن هذا، لكنك تلاحظ بوضوح أنه مترجم من العبرية. ها هو ذا هنا، سأترجمه بشكل ارتجالي: «هذا المكان لن يجده إنسان ولن يعرفه حتى يجمع يهوه شمل شعبه ويرحمه. عندئذ سيظهره للعيان».

ونظر باستمتاع إلى كويتن، الذي كان يتصفح كتابه المقدس، وتابع: «يمكنك القول إنّ تلك اللحظة قد حانت بنشوء دولة إسرائيل. من المؤسف أنّ تلك القصة أيضاً لم تُكتب إلا نحو سنة مئة وخمسين قبل الميلاد».

- لا أستطيع إيجاد سفر المكابيين في أيّ مكان.

- هذا صحيح، لأنه ليس موجوداً في الكتاب المقدس. إنه سفر مشكوك في صحته هو أيضاً، ولكن هذا لا يعني الكثير، فقد كان يمكنه أيضاً أن يكون معتمداً من المجامع الكنسية. كانت تلك المجامع تعتمد الأسفار بشيء من الاعتباطية. على النقيض، كان يمكن لرسالة بولس إلى العبرانيين، هل تذكرها، التي يُقارَن فيها المسيح بالهيكل، أن تكون موضع الشك أيضاً، لأنّ بولس لم يكتبها إطلاقاً، بل كتبها أحد أتباع فيلو الإسكندرانيين.

سأل كويتن شارد الذهن، لأنه يحاول أن يعي ماذا تعني له هذه الحقائق كلّها: «مَن هو هذا؟».

- كان عالماً يهودياً، فيلو جودايوس، معاصر المسيح، أراد الجمع بين الديانة اليهودية والفلسفة الإغريقية. رجل مثير للاهتمام. ولكن دعنا لا نستطرد، وإلا انغمسنا في الرمال المتحركة التاريخية بوتيرة متزايدة. حسناً. إذا كان هذا كلّ صحيحاً، وإذا كان التابوت حسبما تعتقد مُخبأً في هذه اللحظة في السانكتا سانكتورم، فكيف استطاع الرومان الحصول عليه؟ أليس من المستبعد قليلاً أن يكونوا قد وجدوه في ذلك الكهف على جبل نيبو؟

- نعم، هذا مستبعد. ولكن لماذا يُسمّى المعبد بـ«السانكتا سانكتورم»؟ لماذا يكون أقدس مكان في العالم؟ ألا تقول أنت نفسك إنّ هذا أمرٌ عجّاب؟

- تمهّل قليلاً، لأننا لم نصل بعد! على الأرجح لم يُنحت التابوت على قوس تيتوس، لأنه ببساطة لم يكن في أيدي الرومان. كان بومبيوس قد دخل قدس الأقداس في وقت سابق ولم ير فيه أيّ شيء. وهذا ما يؤكده فلاقيوس يوسيفوس - هذا كان كاتباً يهودياً في خدمة الرومان، نوعاً من المتعاونين في واقع الأمر. كتب تقارير ميدانية عن الحرب اليهودية بأكملها، من البدء حتى الموكب السائر عبر الممتدى، بمائدة خبز الوجوه والشمعدان السباعي وتلك الأشياء

كلّهما؛ يسمّيها بالترتيب نفسه الذي تراها به على قوس النصر. بهذه المناسبة، لقد خدم في أيام شبابه في هيكل هيرودس، وحسب رأيه هو أيضاً كان الدبير خالياً تماماً.

- الدبير؟

- هكذا يُسمّى قدس الأقداس بالعبرية. لكنّه لم ينظر هو نفسه إلى داخله بطبيعة الحال، إذ لم يكن يجوز سوى لرئيس الكهنة الدخول إليه. حسناً، هذا جانب من المسألة. لكن!

ورفع إحدى سبابتيه، ووضع السبابة الأخرى على ورقة فيها ملاحظات: «وليكن هذا عزاءك، لأنه هناك دائماً "لكن" في هذه الحياة يا كويتن. لكنّ الجانب الآخر من المسألة - وهذا سيعطيك أملاً كاذباً- هو نصّ من القرن الثاني عشر لشخص اسمه يوهانس ديكونوس. في هذا النص يظهر مصطلح "سانكتا سانكتورم" لأول مرّة، لكنّه لا يمتّ بعدُ بأيّ صلة إلى المعبد الباباوي، بل إلى كنز من الآثار الدينية قيل إنه كان موجوداً تحت المذبح الرئيسي في بازيليكاللاتران القديمة».

- ذلك المذبح الذي يحتوي سقفه على رأسي بطرس وبولس؟

- نعم، لكنّهما تحت السقف. وماذا كان يوجد هناك حسب زعم الشّمّاس؟ ليس فقط سلّة موسى المصنوعة من القشّ، قلّفة المسيح، وكلّ الأشياء النادرة الممكنة الأخرى، بل وأيضاً - انتبه: تابوت عهد الربّ. ما رأيك في هذا؟

واستند إلى ظهر الكرسي بارتياح مانح كريم: «تابوت الربّ المحتوي على العهد. نظر إليه كويتن مشدوهاً: «لماذا سيعطيني هذا أملاً كاذباً؟ لقد وصلنا، أليس كذلك؟!». ثم سأل بتلهّف: «منذ متى يطلق على المعبد الباباوي اسم السانكتا سانكتورم؟».

- أعرف هذا أيضاً. منذ نهاية القرن الرابع عشر.

- حسناً إذا! هذا يعني أنّ التابوت نُقل من البازيليكا إلى المعبد، بين عام ألف ومئة وألف وأربعمئة. لقد انتقل اسمه معه ببساطة.

- ما تقوله ليس غريباً في حدّ ذاته. في القرن الثالث عشر، رُمّم المعبد ترميماً كاملاً وخلال شهور الترميم تلك أُخرجت منه الآثار؛ بعد ذلك يمكن أن يكون التابوت أيضاً قد أُضيف إلى تلك الذخائر المقدّسة. الأمر الوحيد هو أنك تنسى نقطة بسيطة، وهي أنّ التابوت لا يزال في أحسن الأحوال موجوداً في كهف من كهوف الأردن. لم يحدث أن كان موجوداً في روما.

وأوماً يديه الاثنتين إيماءةً مَنْ يقبل بالواقع: «لقد حان الوقت لرؤية أنّ كلّ هذا مركّز على أسطورة من القرون الوسطى. ما رأيك في الأمر المتعلّق بتلك القُلْفَة وتلك السلّة المصنوعة من القش؟».

هزّ كويتن رأسه بحسم: «كلّ هذا ممكن، ولا أعرف أيضاً كيف حدث، لكنني متأكد من أنّ التابوت موجود في المذبح».

بينما يراود أونو شعور طيب جرّاح يضطرّ إلى وضع مشرطه في جسد مريضه دون تخدير، قال: «وأنا متأكد أكثر منك من أنه غير موجود فيه».

- كيف يمكنك أن تكون متأكّداً إلى هذا الحدّ؟

فأجاب أونو دون تحويل عينيه عن عيني كويتن: «لأنني أعرف ما في داخله».

بادله كويتن النظر بعدم تصديق: «ماذا في داخله؟».

- لا شيء.

ردّد كويتن بعد بضعة ثوان: «لا شيء؟!».

- خزانة فارغة.

- كيف تعرف؟

فقال أونو: «لأنّ المذبح فُتح في 1905 وأُفرغ من محتواه. هنا...»، وأمسك الكتاب الذي استعاره من المعهد - معطياً عنوانه، الذي لن يبقى سرّاً بعد الآن: «تجد وصفاً دقيقاً ومصوراً لكلّ ما كان موجوداً فيه. كانت هناك أشياء غير عادية، على سبيل المثال الحبل السريّ للمسيح، وقطعة من خشب الصليب، ولكن ليس التابوت. لقد نقل هذا البروفيسور غريسار، من مدينة إنسبروك، كلّ الأغراض بنفسه إلى مكتبة الفاتيكان، بتكليف من البابا، حيث بوسّعك الذهاب غداً لرؤيتها في معبد ييوس الخامس».

تصفّح كويتن الكتاب قليلاً، ألقي نظرة على صورة صندوق الذخائر المقدّسة المزخرف، ثم وضعه على الطاولة. لم يعد هذا يثير اهتمامه. قال: «ومع ذلك يُسمّى هذا المعبد سانكتا سانكتورم. ومع ذلك هناك ملاكان فوق المذبح. ومع ذلك كُتب فوق المذبح أنه لا مكان أقدس منه في العالم».

فضحك أونو: «أنت لا تترك هذا الأمر، أليس كذلك؟ إنك تتق في حدسك أكثر مما تتق

في الحقائق. اعتبرها ميزة بطولية، لكنّها قد تدفعك إلى التهور أيضاً. أمل أنك لا تريد القول إنّ هناك مؤامرة - مثلاً إنّ هذا الكتاب بأكمله كُتب بهدف التستر على وجود التابوت المؤكّد في المذبح».

فقال كويتن: «طبعاً لا، أنا لست بالمجنون».

- ولكن، أيّ شخص أنت إذا؟ أنت حالم يا تُرى؟ انس هذا الآن! لقد أخطأ حدسك في ما يتعلّق بهذا الأمر، ولكن في مرّة أخرى لم يطش سهمك كثيراً. أعربت في الآونة الأخيرة أنّ فيسبازيانوس ربما كان خائفاً من إله اليهود، ولذلك أخفى التابوت في قصره. لم يكن الأمر متعلّقاً بتابوت، لكنني أمس قرأت في كتابات فلافيوس يوسيفوس أنه عقب موكب النصر الكبير في المنتدى أمر بإحضار ستار قدس الأقداس إلى قصره.

قال كويتن بارتياح: «كم هو شيء غريب! وليس تلك الأشياء الذهبية النفيسة - ذلك الشمعدان ومائدة خبز الوجوه؟».

- لا، تلك الأشياء عُرضت في معبد. فقط الحجاب البنفسجي والشرعية اليهودية.

فرفع كويتن حاجبيه: «الشرعية اليهودية؟ ماذا كانت؟».

- إنها اسم التوراة، أسفار موسى الخمسة. لذلك يُسمّى أيضاً بالمُشرّع.

فكرّ كويتن لحظة، ثم سأل: «كيف يمكنك تصوّر تلك الشرعية؟».

- ألم يحدث أن رأيت صورة منها؟ إنها لفيفة كتاب كبيرة، مثل التي تراها حتى الآن في تابوت كلّ كنيسٍ يهوديّ.

- كم كان حجمها؟

- افترض أنّ لفيفة التوراة من هيكل هيرودس كانت كبيرة جداً. لعلّ طولها كان مترًا ونصف المتر.

أحنى كويتن رأسه بالإيجاب: «إذا كانوا يحملون تلك اللفيفة العملاقة أيضاً في ذلك الموكب عبر المنتدى».

- هذا واضح. يقول يوسيفوس إنّ الشرعية اليهودية كانت الغنيمة الأخيرة في الموكب.

- حقاً؟ وإذا كانت بتلك الأهمية بالنسبة إلى الإمبراطور إلى حدّ أنه أدرجها في قصره، حتى أعظم أهمية من المينوراه، فلماذا لا تُعرض على قوس تيتوس؟

- كيف تعلم علم اليقين أنها غير معروضة على القوس؟

قال كويتن باضطراب مفاجئ: «لأنني كنت هناك قبل قليل. لكن لفت انتباهي شيء آخر. الشخص الأخير، في أقصى اليسار، وهو رجل لا وجه له، يُفترض في هذه الحالة أنه يحمل لفيفة الشريعة، يقف هناك وكأن ليس لديه ما يفعله، بذراعين متدليين بشكل مستقيم على جنبه. هكذا...» -وقلّد وضعية الرجل - «لا تستطيع رؤية يده اليسرى؛ ولكن إذا أمعنت النظر، رأيت أنه يحمل شيئاً في يده اليمنى على كلّ حال، شيئاً ثقيلاً ومستطيل الشكل، يصل تقريباً إلى مرفقه».

وأخذ الكتاب من فوق الطاولة وأراحه على أصابعه المعقوفة فوق فخذه.

- هل أخبرك بما يحمله؟

- ليتك تفعل!

- لوحا موسى الحجريّان المكتوبة عليهما الوصايا العشر.

58. تحضيرات

حدّق فيه أونو مشدوهاً.

هتف كويتن متقدماً بالحماس: «كان ذلك ما يسمّى "الشريعة اليهودية". ما حجم اللوحين الحجريين؟».

انحنى أونو على إحدى الملاحظات: «حسبما يقول برخيا، وهو حاخام من القرن الرابع، إن طولهما ستّ تيفات وعرضهما تيفاتان».

- وكم طول التيفا؟

- مساوياً لعرض اليد.

فسأل كويتن وهو ينظر إلى عرض يده: «وكم عرض اليد؟ ثمانية سنتيمترات؟ هذا يعني أن طولهما ثمانية وأربعون سنتيمتراً وعرضهما ستة عشر سنتيمتراً! هذا صحيح تماماً!».

- ولكنّ السيّد برخيا لم يرهما إطلاقاً.

بدأ كويتن يذرع الغرفة بانفعال: «كلّ شيء واضح يا أبي!»، وتابع موجّهاً عينيه إلى الأرض: «أصغ إليّ! لقد أخذ إرميا التابوت وأخفاه في أحد الكهوف، لكنّ هذا لا يعني بالضرورة تركه للوحين الحجريين فيه. أم أنه يُذكر في سفر المكابيين أنهما كانا يجب أن يختفيا هما أيضاً؟».

- لا.

- حسناً، هذا يعني أنه أخرجهما من التابوت. ورآهما ذلك الكاهن من تلك الأسطورة الحاخامية، فخيّل إليه أنهما بلاطان مرتفعان من الأرض. لقد احتُفظ بهما ووُضعا في زمن لاحق في قدس الأقداس في الهيكلين الثاني والثالث. سيكون الأمر في منتهى الغرابة إذا بقي

قدس الأقداس خالياً تماماً على مدى قرون! رئيس الكهنة الذي يدخل بوقار عبر الحجاب إلى داخله في يوم الغفران من كل سنة - ولا يجد شيئاً؟ مكعباً فارغاً؟ كان حتماً سيقف هناك مثل المجنون، وكأنّ الربّ غير موجود. سيكون الهيكل عندئذٍ قد رقد في نوع من الغيبوبة طوال تلك القرون كلّها - تماماً مثل ماما.

فسأل أونو باستياء: «ما هذا الشيء الفظيع الذي تقوله يا كويتن؟».

- على سبيل المجاز طبعاً. دعني أكمل، وإلا تهتّ عن الموضوع. إذّا، كان هذان اللوحان المكتوبة عليهما الوصايا العشر موجودين في قدس الأقداس على الدوام. شأنهما في ذلك شأن العمودين القائمين أمام مدخل الفناء. أما فلاثيوس يوسيفوس فقد أقنعه رؤساء الكهنة بأنّ الدبير كان خالياً. لقد أخذوا مسبقاً اللوحين مع الحجاب من القدس. ثم تجد الموكب هنا في روما. هل هناك تقارير أخرى من شهود عيان عن ذلك؟

- لا.

- وإلى أيّ حدّ يمكن الوثوق بفلاثيوس يوسيفوس؟

- لا يمكن الوثوق به كثيراً.

- حسناً، أعتقد أنه لم يستطع رؤية كلّ شيء بدقّة في ذلك الهرج والمرج؛ لكن بعد ذلك عندما أخذ يكتب عن الموكب، اعتمد على ما سمعه من الآخرين أيضاً. وهؤلاء قالوا شيئاً غامضاً عن «شريعة يهودية» محمولة في آخر الموكب، فقد كانوا من الرومان، الذين ليست لديهم أيّ فكرة عن الديانة اليهودية. لكنّه لأنّه يهوديّ، فكّر في الحال في لفيفة التوراة من الهيكل. لم تخطر الوصايا العشر في باله بطبيعة الحال، لقناعته بأنّها قد اختفت مع التابوت. أما فيسبازيانوس فقد كان على اطلاع أفضل بالأمر. وبما أنه يملك وفرّة من الذهب، فإنّ الذهب لم يعد يعني له شيئاً منذ وقت طويل. الشيء الوحيد الذي أمر بإحضاره إلى قصره، كان يمتّ بصلة إلى الشيء الأقدس - والشيء الأقدس هو الحجاب وما قيل إنها «الشريعة اليهودية». أما لفيفة كتاب لا تُستعمل سوى في الهيكل المقدس فلا تشكّل جزءاً منهما؛ كانت بالطبع شيئاً استثنائياً في هذه الحالة، لكنّها ليست فريدة من نوعها - فأنت تقول بنفسك إنّ مثل تلك اللفيفة موجودة في كلّ كنيس يهودي. لا، إنها المخطوطة الأصلية للوصايا العشر، التي دوّنها موسى بنفسه على جبل حوريب في صحراء سيناء. من الواضح أنّ النحّات الذي أنجز ذلك النحت البارز كان على اطلاع أفضل بالأمر.

ألقى كويتن نظرة على والده، الذي يتبعه بعينه المتسعتين وهو يذرع الغرفة.

- وما عدا ذلك، فقد سارت الأمور المتعلقة بالتابوت بالطريقة التي ظننتُ أنها سارت بها. اعتنق قسطنطين الدين المسيحي وأهدى اللوحين الحجرين إلى البابا الذي في عصره، فأخفاهما هذا في الخزانة تحت المذبح الرئيسي في البازيليكا الخاصة به. هذا هو السبب في تسميته بـ«السانكتا سانكتورم»؛ ويوهانس ديكونوس كتب عن «تابوت عهد الرب»، لأنه سمع أطراف الحديث لكنّه لم يعرف التفاصيل. لم يكن التابوت موجوداً تحت المذبح الرئيسي في كنيسته، بل محتوى التابوت. لقد رُمّم المعبد البابوي في القرن الثالث عشر، وبعد الترميم نُقل إليه لوحا موسى الحجران أيضاً، ثم انتقل اسم «سانكتا سانكتورم» إلى ذلك المعبد. وعندما فتح غريसार المذبح في عام 1905، لم يرَ الحجرين المسطحين ببساطة، شأنه في ذلك شأن بومبيوس عندما دخل قدس الأقداس، وشأن فلافيوس يوسيفوس أثناء الموكب في روما، وشأن كلّ من نظر حتى هذه اللحظة إلى ذلك النحت البارز على قوس تيتوس. هذا يعني أنهما لا يزالان في ذلك المكان. مكتبة سُر من قرأ

وقفز كويتن قفزة مفاجئة في الهواء مطلقاً صرخة انتصار، وتهاوى على ظهره على فراشه، حيث أخذ يتخبط بساقيه في الهواء من شدة الابتهاج، نهض من رقوده بصورة مفاجئة، سار إلى النافذة بخطوات رقص حائمة، جلس بقفزة التفافية على حافتها، وأخذ ينظر إلى أونو ويداه بين ركبتيه.

لقد هبط الغسق. كانت النافذة مفتوحة فلم يرَ أونو من كويتن سوى خيال أسود مرسوم على السماء الليلية أرجوانية اللون، التي بدأت النجوم الأولى تظهر فيها. قال: «حجة مغرية. أحب هذا النوع من الاستنتاجات. نعم، يمكن أن تكون الأمور قد سارت على هذا النحو، لكن لعلّها لم تسر على هذا النحو».

- من المؤكّد أنها سارت على هذا النحو!

لم يكن فم كويتن مرثياً، فبدأ صوته وكأنه أعلى من المعتاد: «الناس الذين يصعدون السكالا سانتا على أيديهم وركبهم، هناك في السانكتا سانكتورم، منذ قرون من الزمن، يركعون أمام شيء مختلف كلّ الاختلاف عمّا يظنون أنهم يركعون أمامه».

أحنى أونو رأسه بأسى: «وكأنني أسمع نفسي يا كويتن. لكنني ذات مرة كنت أنا أيضاً على يقين تام من فرضية - إلى أن سقط شخص في حفرة في أريتسو في يوم من الأيام».

فقال كويتن ساخطاً: «إذا كانت فرضيتك غير صحيحة، فهذا لا يعني أن كل الفرضيات ستكون غير صحيحة، أليس كذلك؟!».

أوما أونو إيماءة رافضة: «طبعاً لا. لا تصغ إلى ما أقول!».

- جادل إذاً بشيء مقنع!

- أعتقد أنه ليس لدي ما أجادل به. لماذا لم يكن يجوز إلّا لرؤساء الكهنة، في فترتي الهيكلين الثاني والثالث، معرفة أن لوشي موسى الحجريين موجودان فيه؟ أما كان لهذه المعرفة تأثير محفّز على اليهود؟

فقال كويتن على الفور: «لأن إرميا قد خدعهم قليلاً في الواقع. لقد أمره الربّ بدفن التابوت، وقال له إنه لا يجوز لأحد التفكير فيه بعد الآن. لم يقل له الربّ أي شيء عن اللوحين، لقد أخرجهما إرميا من التابوت بمبادرة ذاتية، والسؤال هو عمّا إذا كان قد فعل ذلك في سبيل الربّ. من أجل البقاء على ضفة الأمان، جعل رؤساء الكهنة من هذا الأمر مسألة سرّية».

قال أونو باستمتاع: «حسناً، دعنا نلخص القصة إذاً! لقد وضعت نظرية على أساس عدد من النصوص اللاتينية واليونانية والعبرية، وسنفترض أن هذه النظرية متينة. ولكن السؤال الأهم لا يزال مطروحاً عمّا إذا كانت صحيحة. إنها خطوة كبيرة من الأدب إلى الواقع يا كويتن. ولا يمكن التحقق منها إلّا بالنظر إلى داخل ذلك المذبح. وهذا لا يمكن حدوثه إلّا بموافقة من البابا، كما أعرف من غريसार. ولن تحصل على هذه الموافقة إطلاقاً - ليس لأنّ من يطلبها هو أنت، بل لأن لا أحد سيحصل عليها على أساس نظريتك. تخيل لو أنك كتبت رسالة إلى البابا عمّا اكتشفته. هناك رسائل غريبة كثيرة تُكتب إليه بطبيعة الحال، لا تصل إليه إطلاقاً، فكلّ مجنون يكتب رسائل إلى البابا بصورة دائمة؛ ولكن عن طريق الكاردينال سيمونيس، رئيس أساقفة مدينة أوترخت، الذي جلست قبالة في إحدى مآدب العشاء في القصر الملكي نورداينده، والذي كنت على علاقة طيّبة معه، أستطيع التكلّف بأن تصل رسالتك فعلاً إلى طاولة مكتبه. حسناً. سيقرا البابا فوتيلاً قصّتك بعينيه الصغيرتين الذكيتين. الحقّ أنك تستطيع القول إنه يعرف منذ زمن بعيد أنّ اللوحين الحجريين موجودان في ذلك المذبح. لا بدّ أنّ الباباوات كانوا ينقلون هذا السرّ أحدهم إلى الآخر، عن طريق الكامرلينغو - حافظ الكنز الكاردينالي، الذي يمسك بزمام الأمور في الفترة الانتقالية بين باباوين - مثلما

كان رؤساء الكهنة اليهود يفعلون في الماضي. حسب نظريتك، فإن هذه الاستمرارية لا بدّ أنها كانت موجودة على كل حال حتى القرن الثالث عشر، عندما نُقل اللوحان الحجريان من البازيليكا إلى المعبد. لكنني أعلم علم اليقين أنّ البابا الحالي لا يعرف شيئاً، لأنّ البابا بيوس العاشر في بداية القرن العشرين لم يكن يعرف شيئاً، وإلا لم يكن ليوافق على أن يفتح غريसार ذلك المذبح، لأنه سيعرف ببساطة أنه لن يجد مفراً من مواجهة المطالبات اليهودية وكلّ الضجة التي ستثيرها. هذا الجهل في حدّ ذاته لا يتناقض بالضرورة مع نظريتك، لأنه منذ القرن الثالث عشر يمكن جداً على سبيل المثال أن يكون كامرلينغو قد توفي في فترة ما بين باباوين، أو اغتيل مع أبيه القديس، وبهذا انقطع الخيط. ثم إنّ هذا يمكن أن يكون قد كُتب أيضاً بشكل واضح وصريح، في صكّ الإهداء من قسطنطين، الذي ضاع عندئذٍ في أفينون، لأنه تعلّم مني أنّ الفوضى تسود في كلّ الأزمنة وكلّ الأمكنة. أما تلك المطالبات اليهودية، يا كويتن، فهي مسألة محفوفة بالمخاطر. إذ إنها بوجود دولة إسرائيل اكتسبت في هذه الأثناء بُعداً سياسياً، وأبونا يوحنا بولس لن يفكر طبعاً في الدخول إلى عشّ الدبابير. إنه منشغل بما يكفي لإحباط الشيوعية في أوروبا الشرقية، مثلما قرأت اليوم. حتى ولو وجد نظريتك سخيفة كلّ السخافة، فلن يرغب مع ذلك في أن يخاطر أدنى مخاطرة بأنك على صواب. ولماذا سيرغب في ذلك؟ فهو يعرف أنه سيخسر في كلّ الأحوال. تصوّر ما إذا ظهر اللوحان فعلاً، فماذا عليه أن يفعل؟ أيعيدهما إلى اليهود؟ هذان الأثران المقدّسان غاية القدسية؟ حتى إنّ الكرسي البابويّ لم يعترف بإسرائيل. لا يعيدهما؟ ليسمع بعد ذلك عن معاداة السامية المتأصّلة في المسيحية؟ عن الموقف الضعيف الذي اتخذه البابا بيوس الثاني عشر حيال النازية؟ عن مجرمي الحرب الألمان الذين وجدوا الملاذ الآمن في الأديرة الكاثوليكية بعد الحرب؟ اعتراضات اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأميركية؟ المشكلات الدبلوماسية مع واشنطن؟ اللعنة التي ينزلها الحاخام الأكبر على البابا؟ هبوط المظليّين الإسرائيليين في ساحة «سان جيوفاني إن لاتيرانو»، لاختطاف الوصايا العشر وإعادتها إلى القدس؟ وبالتالي انتصار اليهودية الأرثوذكسية المتشدّدة على الإسلام؟ إبعاد المسلمين عن «جبل الهيكل»^(٥)؟ إنشاء هيكل رابع من أجل اللوحين؟ إعلان الجهاد - الحرب المقدّسة؟ هجوم صاروخي من أصوليين إيرانيين على تل أبيب؟ اندلاع الحرب العالمية الثالثة؟ لا، يا بنيّ، تقبّل مني بأنّ حتى أشهر

(٥) جبل الهيكل: ساحات المسجد الأقصى. [م]

عالم آثار وأشدّهم كاثوليكية في العالم لن يحصل على هذه الموافقة. سيتلقّى رسالة مهذّبة يُبلّغ فيها نيابةً عن قداسة البابا بأنّ البروفيسور هارتمان غريسار سبق له فحص المذبح ببالغ الدقّة وأنه لا يوجد فيه الآن أيّ شيء. انس الأمر! لن يُفتح ذلك المذبح في ألف سنة قادمة». سكت أونو، على أمل أنه قد حمل كويتن أخيراً على تغيير رأيه: «بهذه المناسبة.. يذكر غريسار أنه حصل على موافقته في 29 أيار عام 1905 - ورأيت قبل قليل في جريدة هيرالد تريبيون أنّ ذلك حدث في مثل هذا اليوم قبل ثمانين سنة على وجه التحديد». ساد صمت.

قال كويتن باندهاش: «غداً سأبلغ السابعة عشرة». لم يكن هو أيضاً قد فكّر في عيد ميلاده لحظةً واحدة. منذ رحيله من هولندا، كان الوقت بالنسبة إليه قد اكتسب الطابع الأبدي للإجازات الصيفية السابقة. هتف أونو: «صحيح! هذا أيضاً! العلامات مبشرة بالخير - وسنذهب للاحتفال به بعد قليل، في تمام الساعة الثانية عشرة، في مقهى ماورو في الزاوية. قل لي ماذا تريد، ستحصل عليه في الحال!».

بعد بضع ثوانٍ، وصل صوت كويتن من فتحة الشباك السوداء، التي تكاد هيئته لا تُميّز فيها عن الليل المرصّع بالنجوم خلفه: «مساعدتك».

- مساعدتي؟ في ماذا؟!

- في إظهار الوصايا العشر.

*

قال أونو بعد عدة لحظات بهدوء مصطنع: «حبيبي كويتن، أعتقد أنّ هذا ليس بالموفق حتى ولو على سبيل المزاح. لن تخبرني بأنك تلعب بفكرة العنف فعلاً، أليس كذلك؟». - نعم. يعني.. إنني لا أَلعب. وعنف؟ كلّاً. على الأقل.. إذا كان كلّ ما يحدث من دون موافقة عنفاً، فنعم، نعم.

تلمّس أونو سطح الطاولة، وجد علبة ثقاب، وأشعل شمعة. عندما رأى وجه كويتن، وفي عينيه الدكناوين لهييان صغيران، أدرك أنه جادّ في ما ذهب إليه. هذا شيء غير معقول! لقد ترك نفسه إلى هذه اللحظة ينصاع لحماسه المُعدي والعنيد بالقدر نفسه، ولكن هذه هي اللحظة التي

يجب أن يوقفه عند حدّه. قال بحسم: «هذا يكفي يا كويتن! يجب عليك معرفة متى تتوقف. لقد بدأ هذا الأمر يُبدي علامات الهوس شيئاً فشيئاً. أصغِ إليّ، أعرف الإثارة واللهفة، اللتين ترافقان نظرية جديدة، حقّ المعرفة، ولا سيما إذا وضعتها بنفسك؛ لا أحتاج إلى مباريات كرة قدم ولا إلى حروب لمعرفة ذلك. لكنك توشك أن تتجاوز حدّاً، وهذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة - أي إلى السجن. وأظن أنني لا أستطيع نصحك بالسجون الإيطالية».

نزل كويتن من حافة النافذة وأغلق الشباك، لأنه بدأ يشعر بالبرد في ظهره: «ألا تستحقّ الوصايا العشر أن أجازف من أجلها بالسجن؟».

صاح أونو وهو يرفع ذراعيه الاثنتين في الهواء: «نعم! إذا طرحت السؤال على هذا النحو - طبعاً السجن المؤبد! الإعدام حرقاً!».

ضحك كويتن ضحكة قصيرة: «قل لي بصدق، يا أبي، هل تظنّها فكرة مجنونة؟!». تنهّد أونو: «الحقّ أنني لا أعرف. تحضرني الآن حكاية أخرى رواها لي ماكس عن نيلز بور. عندما جاء أحدٌ بنظرية جديدة في الفيزياء في إحدى المرّات، قال له بور: نظريتك مجنونة، لكنها لا تبلغ من الجنون ما يجعلها صحيحة». ونظر إلى كويتن بسخرية: «في ما يتعلّق بهذا الأمر، فإنّ نظريتك مجنونة بامتياز».

- إذا، فهي من شبه المؤكّد صحيحة.

فقال أونو: «إذا، فهي من شبه المؤكّد صحيحة». ثم باللاتينية: «أؤمن لأنه سخيف»^(*). شعر أونو بأنه خسر جولة أخرى. نهض عن مجلسه وأخذ يذرع الغرفة في خفّه البنيّ البالي، ذي الكعب المهرّئ، دون أن يتكئ على عصاه، يبحث عمّا يستند إليه عندما يلتفت إلى الورا. كيف عليه التعامل مع هذا الأمر بحقّ السماء؟ لو كان الأمر يتعلّق بذهب عائلة رومانوف أو بكنز البحيرة الفضية، لكان هيئاً - ولكن لوحا الشريعة الحجريّان! هل يعرف كويتن حقاً عمّا يتكلّم؟ الربّ غير موجود طبعاً، ولعلّ موسى لم يكن موجوداً أيضاً، ولكن الوصايا العشر موجودة: هذا لا شكّ فيه. من ناحية أخرى، يبدو وكأنّ وجود الوصايا العشر - أساس الأخلاق كلّها - متبلورٌ في الربّ من جهة، وفي موسى من جهة أخرى، وفي ما بينهما، في هذين اللوحين الحجريّين. هل يمكن أن يكون جوهر المسألة هو أنّ الأشياء غير

(*) من أقوال عالم اللاهوت تريليان. [م]

موجودة بل العلاقة بين الأشياء؟ هل الحبّ يخلق المحبّين وليس العكس؟ هل يمكن بالتالي أن يأخذ الحب نفسه هيئة لوحٍ حجريّ، أو لوحين حجريّين؟
- بماذا تفكّر؟

توقّف أونو وبحث عن الكلمات. نظر إليه كويتن؛ نصف وجهه في الظلّ الأسود الذي يلقيه ضوء الشمعة. أثار الهدوء، الذي ينضح به الصبي، حفيظته بصورة مفاجئة. انفجر: «اللعة يا كويتن، يبدو أنك فقدت صوابك! ما الذي تفكّر فيه؟ كيف تتخيّل أن تفعل هذا؟ كيف يمكنك دخول ذلك المعبد؟ ومن ثم ذلك المذبح؟ هل تريد قطع تلك القضبان كلّها بالمشار؟ اقرأ غريसार! في القرن السادس عشر حدث «احتلال روما»، حينئذٍ نهبت القوّات الفرنسية المعبد، لكنّها لم تستطع الدخول إليه إلا بإجبار الكهنة على فتح الباب. ولكن لم تكن لديهم مفاتيح المذبح، ولم تكن هناك طريقة أخرى للدخول إليه، وإلا لما وُجدت فيه تلك الكنوز كلّها من الذهب والفضة عام 1905. وأنت تظن أنك تستطيع الدخول إليه؟ دون أن يلاحظ أحد؟».

- نعم.

- كيف إذاً؟

- سأفتح تلك الأقفال.

- وتستطيع فتحها؟

- نعم.

- من دون مفاتيح؟

- نعم.

- بينما يسير الكهنة في كلّ مكان ويعبّ ذلك الدرج المقدّس بالناس؟

- ولكن ليس في الليل. ستركهم طبعاً يغلقون علينا الباب.

- ستركهم؟ هل تظن فعلاً أنني سأورّط نفسي في مثل هذا المشروع الجنوني؟

- أأمل ذلك.

- لكنّ المبنى خاضع لحراسة إلكترونية!

- ليست هناك حراسة.

- كيف تعرف؟

- تحققت من ذلك.

- وهل تعرف على سبيل المصادفة ماذا تقول الوصية الثامنة من الوصايا العشر؟
- لا.

- «لا تسرق».

- لا أعتبرها سرقة.

- ماذا تعتبرها إذا؟

- مصادرة.

- مصادرة! من أين تأتي بهذا بحق السماء!

استدار أونو نصف استدارة على محوره وهو في حيرة من أمره، وقال متوسلاً: «لا تسبّب لي الشقاء يا كويتن! إلى اللحظة التي صادفتك فيها بالقرب من البانثيون قبل نحو عشرة أيام، كنت أعيش هنا كنوع من لعازر^(٥) في قبر شخص آخر، إذا جاز التعبير. الوحيد الذي كنت أتحدّث إليه طوال ذلك الوقت، هو ذلك المهذّب إدغار. لقد أخرجتني من تلك الحفرة، وأنا مدينٌ لك بهذا الجميل. ولكن ما تريده الآن، يتجاوز كلّ الحدود! تريد أن يغلقوا الباب عليك في السانكتا سانكتورم لترى ما إذا كان لوحا موسى الحجريان موجودين فيه! بينما أقول هذا، لا أستطيع تصديق أذني. تصوّر لو باغتك قوّات الدرك الإيطالية مقتحمين المعبد بمسدّساتهم الملقمة: القبض على لصّ آثار شاب بالجرم المشهود في المعبد! أستطيع أن أراه الآن في جريدة لا ستامبا».

ردّد كويتن: «لصّ آثار؟ وأنت نفسك تقول إنه لا يوجد شيء في ذلك المذبح حسب رأي غريसार».

- حاول إقناع الشرطة بالأدبيات الأثرية! هل تدرك حقاً ما هي الشرطة؟ ثم إن هناك شيئاً فوق ذلك المذبح، وهذا ما تنساه بغية السهولة: «الأكير وبيتون» - صورة المسيح التي رسمتها يدُ ملاك وحملها الباباوات واحداً تلو الآخر في المواكب عبر شوارع روما على مدى ما يزيد عن ألف سنة - يمكنك أن تعدّ نفسك محظوظاً إذا لم يضربوك في الحال حتى الموت. هناك أشياء في العالم يحسّن بك ألا تقترب منها.

(٥) لعازر: الرجل الذي أنهضه السيّد المسيح من الموت. [م]

نظر إليه كويتن برهة قصيرة ثم قال: «حسناً! سأفعل ذلك وحدي».

وأشعل الضوء، ثم جلس على حافة الطاولة وفتح كتاب غريسار.

أدرك أونو يائساً أن لا شيء يستطيع منع كويتن من تنفيذ خطته الكارثية. ما نوع هذه القوة التي تدفعه؟ لقد حيرَه هذا العناد الحديدي، الذي يتعامل به مع الأشياء كلها، وأذهله بمعنى أو بآخر منذ اليوم الذي ولد فيه. ماذا عليه أن يفعل؟ إذا تركه يفعل هذا وحده، فسوف يخسره بطبيعة الحال - في حين، هذا ما أدركه فجأة، عثر أحدهما على الآخر بفضل هذه الهمة المحمومة. هل يمكنك رفض شيء تدين له بحياتك؟ يضاف إلى ذلك أنه جرَّ هذا كله على نفسه بملاحظته أن المسيحية لا تعرف قدس أقدس بشكل معماري. بدأ يتضح له أنه بصدد الخسارة. تهالك متأوهاً على الفراش ووضع ذقنه على يديه المطويتين. لا يستطيع الوقوف في وجه ابنه. وماذا سيخسر، إذا أمعن النظر في الأمر؟ ليس من المعقول طبعاً أن يستطيع كويتن أن يفتح ولو قفلاً واحداً من تلك الأقفال. ربما يُقبض عليهما أثناء محاولتهما العسبية وينتهي بهما المطاف فعلاً في السجن - ماذا سيحدث عندئذٍ؟ بعد أن يشرحا نظريتهما ويشاهدا هزّ الرؤوس المتعاطف، سيطلق سراحهما. سيُشر الخبر في الجرائد من دون شك. سيحيط البابا نفسه بالكتمان، سيرفع الحاخامات في كل أرجاء العالم حواجبهم في اندهاش من هذه الترهات كلها، ويعلن العجوز ماسيمو بيليغريني على شاشة التلفزيون أنه لطالما عرف أن «كيوست» أخرج منعهم المواهب، لكنّه لم يعرف أنه صار في هذه الأثناء مختلاً عقلياً، يورّط حتى ابنه القاصر في توهّماته الخطيرة والسخيفة بالقدر نفسه. بعد ذلك ستبدأ السفارة الهولندية بالعمل، ثم يضعهما زميله السابق في وزارة الثقافة على متن الطائرة المتجهة إلى هولندا من دون ضجّة، وبهذا يصبح الأمر في عداد الماضي - لكنّه سيكون قد احتفظ بكويتن. قرّر خوض اللعبة معه بحقّ الإله.

أدار إليه رأسه: «وإذا لم يكونا موجودين هناك يا كويتن؟ لأنه يوجد احتمالٌ ضئيل لهذا أيضاً».

فقال كويتن دون أن يرفع عينيه: «لن يحدث شيء. سأقفل المذبح من جديد وسنغادر. لكنهما موجودان فيه».

- وماذا ستفعل في هذه الحالة؟

- سأخذهما طبعاً، ماذا تظن؟ لن يعرف أحدٌ هذا إطلاقاً. قلت أنت نفسك إن ذلك

المذبح لن يُفتح في ألف سنة قادمة، ولكن حتى عندئذ لن يفتقداهما أحد، لأنه لا أحد يعرف أنهما كانا موجودين فيه.

نظر إليه أونو مشدوهاً: «لم أعد أفهم أي شيء. أنت تقوم باكتشاف يزلزل العالم، من شأنه أن يجعلك خالداً، ثم تحيطه بالسرية؟».

- ألا تقول أنت نفسك إنه قد يتسبب في اندلاع حرب إذا ظهر للعيان؟

- هذا صحيح. ولكن ماذا تنوي أن تفعل بهما إذا؟

تفاجأ كويتن بهذا السؤال. رفع عينيه باندهاش، لم يسبق أن فكّر لحظة واحدة في هذا الأمر. قال بنبرة عاجزة في صوته: «لا أعرف».

ورفع كتفيه بعد بضع ثوانٍ وانحنى مجدداً على الكتاب: «سأرى عندئذ».

*

في صباح اليوم التالي - في عيد ميلاد كويتن - قرأ تقرير غريسار المفصل وهما جالسان جنباً إلى جنب إلى الطاولة، أمعنا النظر في الصور والرسومات، وعبرا بسبابتيهما على المخططات. بإضافة ملاحظات كويتن عن المعبد، وضعا خطة لا يمكنها أن تُمنى بالفشل حسب رأي كويتن. رأى أونو في المقابل أن كل شيء يمكن دوماً أن يُمنى بالفشل، حتى الفشل نفسه. اتكأ عندئذ إلى الوراء وأخبر كويتن عن ظاهرة فشل الانتحار الفاشل: القصد من محاولة الانتحار الفاشلة هو جذب الانتباه، ولكن هذه المحاولة تُمنى بالفشل لأن الانتحار ينجح على غير المتوقع.

سأل ضاحكاً: «هل يمكنك تصوّر شيء أبعث على الحزن من هذا؟!».

لم يتحدثا بكلمات كثيرة عن أنه سيكون مساعداً في مشروع كويتن الجنوني، لكن بدا على كويتن أنه لا يشك في هذا في نهاية الأمر - ومنذ انغماسه في هذه المغامرة بعد أن أعيته كل الحيل، استحوذ عليه ما يشبه طيشاً أبوياً. وأما أن يكون اللوحان الحجريان موجودين في ذلك المذبح فهذا هراء هائل بطبيعة الحال، سيؤول المشروع برمته إلى خيبة أمل فظيعة، إذ لن يكون بوسعهما أن يفتحا حتى الباب الأول، وستكون هذه الضربة ضربة موجعة - ولكن من لديه ابنٌ يمثل هذه الطموحات الرائعة؟ ماذا يريد الأبناء الآخرون؟ أجهزة إلكترونية؟ مالا؟ لهواً؟ من لديه ابن يريد الوصايا العشر؟

لأن النحت البارز في قوس تيتوس كان عالياً جداً ولا يمكن إمعان النظر فيه، فقد ذهب

بعد الظهر إلى ساحة مونتي سيتوريو، حيث يقوم متجر كتب ضخمة قبالة مبنى البرلمان. بينما سيران من جانب البانثيون، توقف أونو بصورة مفاجئة وسأل: «ألا يجب عليك الاتصال بجذّتك؟».

فأجاب كويتن على الفور: «لا».

- ولكن يا كويتن! إنها تعيش وحدها تماماً في تلك القلعة وتعرف أيضاً أنّ اليوم عيد ميلادك. من ناحيتي تستطيع القول لها إنك تعيش معي. ألا يمكنك تصوّر أنها قلقة عليك؟ إنك غائب عن المنزل منذ ثلاثة أسابيع.

- كنت غائباً عن المنزل فترة أطول دون أن تتصل.

كمّمت هذه الملاحظة فم أونو؛ لم يعد ينطق بكلمة واحدة طوال ما تبقى من الطريق. لعلّ كويتن سامحه، لكنّه لا ينسى شيئاً إطلاقاً. كذلك حقيقة أنه تخلى عن كويتن طوال تلك الفترة، أجبرته طبعاً على مشاركته في نزوته.

في قسم الفنون التاريخية في متجر الكتب، وجدا عملاً نموذجياً ضخماً عن المعلم الأثري، أدرجت بين دفتيه سلسلة من الصور المفصلة للنحت البارز. أمعن أونو النظر في الرجل منعدم الوجه، في أقصى اليسار. قال في نهاية الأمر: «نعم، إذا كنت تريد أن ترى، فتستطيع رؤية أنه يحمل شيئاً مسطحاً».

- ألم أقل لك؟

- طبعاً، قلت.

استقلّ الباص في شارع فيا دل كورسو وذهب إلى السانكتا سانكتورم، لمعرفة الأوقات التي تفتح فيها أبوابها ولاختبار خطّتهما على أرض الواقع. بدا وكأنّ المؤمنين الراكعين على الدرج المقدّس لا يزالون هم أنفسهم؛ لم يكن قد تغيّر شيء في المعبد الهادئ أيضاً. نظر أونو برضاً إلى القضبان والأقفال المتينة: ما لم يستطع اللصوص الفرنسيون النجاح فيه قبل أربعمئة وخمسين سنة، لن ينجح فيه كويتن أيضاً. أما كويتن فلم يتنازل حتى بإلقاء نظرة أخرى على المذبح؛ يبدو أنه قد بلغ من الثقة بمشروعه أنه لم يعد يهتمّ إلا بالتفاصيل التقنية. تظاهر بأنه ينظر بإعجاب إلى لوحات السقف، فأرى أونو عدم وجود كاميرات في أيّ مكان. يبدو أنّ المعبد يعدّ مكاناً للحجّ حصراً وليس متحفاً؛ لوحة المُخلّص الخارقة للطبيعة المعلقة فوق المذبح قد تكون إعجازية، هكذا ناجى أونو نفسه، لكنّها طبعاً لا تساوي ستاً واحداً في

سوق التحف الفنية. عندما رأى الكهنة العجائز، النامية قاماتهم بانحناء مثل أشجار زيتون، كويتن مجدداً، ظهر بريقُ حنانٍ على وجوههم؛ لعلهم هم أنفسهم لا يعرفون بمن يذكّروهم. همس كويتن: «إنهم جميعهم صُمُّ».

- دعنا نأمل ذلك!

عندما خرجا من المبنى، اقترح أونو ألا يعودا إلى الحديث عن هذا الأمر.

- تماماً مثل وقت الامتحان: في اليوم الأخير يجب ألا تفعل أكثر مما فعلته، ويجب أن تضع كل شيء جانباً، كي يتمكن عقلك من استرجاع قواه. سنذهب الآن للاحتفال بعيد ميلادك؛ أعرف مطعماً لا بأس به وراء ساحة نافونا. غداً ستشتري عدّتك الإجرامية، أما أنا فسأنكبّ قليلاً على الوصايا العشر، ومن أجل قتل الوقت سنذهب لإحضارها بعد الغد. اتفقنا؟

طبعاً رأى كويتن العلامة الساخرة في زاويتي فم أبيه، لكنها لم تزعجه. قال: «اتفقنا!».

59. انتظار

في مساء اليوم التالي، يوم الجمعة، وجدا طاولةً شاغرة على مصطبة قبالة البانثيون، حيث ذهبا لتناول العشاء. كانت الساحة قد امتلأت بالرومانيين المنتزهين؛ كان السائحون الشباب في بناطيل الجينز يشكّلون باقات زهور زرقاء على درجات النافورة التي تقوم فيها المسلة، حيث ترك أونو حقيقته البلاستيكية المحتوية على المشتريات قبل عشرة أيام. عندما حلّ الغسق، وتعالق قرعة الدرفات الفولاذية، وهي تُنزل على واجهات المحلات، من كلّ الجهات، بدا المعبد -المسلّطة عليه الأضواء الكشافة بمهارة من السطوح المحيطة به- وكأنه أخذ يتلأل تدريجياً بالوميض الفوسفوري من رحلته عبر النهار، عبر مئات الآلاف من النهارات الزاخرة بنور الشمس. بعد برهة قصيرة أخذت بضعة خفافيش صغيرة ترفرف حول الجدران العتيقة، مثل قطع ورق متفحمة من نار بعيدة. رأى كوينتن فجأة ما لم يره قطّ في صور السيّد ثيمات ورسوماته: المبنى يشبه جمجمة متأثرة بعوامل جويّة، القبة مثل قمة القحف، الطبلبة مثل فتحة الأنف المثلثة، والأعمدة مثل صفّ من الأسنان.

رغم أنّ كوينتن لم يسأل عن الوصايا العشر ولا مرّة واحدة، افترض أونو أنه يريد معرفة المزيد عنها بطبيعة الحال، بعد أن هوسَ بها أشدّ الهوس بصورة مفاجئة، إذ يبدو عليه أنه لا يعرف أكثر من «لا تُمِتْ». أثناء تناول الطعام، وبينما تنقر الحمايم فتات الخبز بين أقدامهما، أبلغه بما عرفه في غضون ذلك اليوم. بادئ ذي بدء، لم تُذكر «الوصايا العشر» في الكتاب المقدّس العبري إطلاقاً، بل «الكلمات العشر»: أسيريث ها ديواريم - ما يتوافق مع الترجمة الإغريقية: ديكا لو غوي. كُتبت على كلّ من اللوحين الحجريين خمس «كلمات». الوصية الأولى حسب التقليد تقول: «أنا يهوه، إلهك، لن تكون لك آلهة غيري». ولكن «لن تكون» تلك ليست بالعبرية في واقع الأمر، فالكلمة الأولى تقول: «ليست لك آلهة غيري بطبيعة

الحال». أخبره أونو بأنه عندما أمعن النظر في النصّ مرّةً أخرى، اكتشف أنّ الوصايا العشر ليس لها طابع كتاب تشريع، بل هي أقرب إلى دليل عن آداب السلوك الحميدة: «أنت لا تفعل مثل هذا الشيء». الإنسان لا يأكل معكرونة السباغيتي بالملعقة، فضلاً عن السكّين. الجدير بالملاحظة أيضاً هو أنّ يهوه لم يقل إنه لا توجد آلهة غيره، لكنك فقط لا تعبدّها - وبهذا أكّد وجودها في الواقع. في هذا الصدد، كانت الكلمة الثانية أيضاً تنطوي على معنى مزدوج. حقيقة أنه من غير اللائق صنع التماثيل، كانت حكماً مناهضاً للفن في الظاهر فقط، لأنه صادرٌ من الذي صنع الإنسان على صورته - إنها ملاحظة نموذجية من فنّان، لا يريد أن يكون الأفضل فحسب، وإنما الوحيد أيضاً؛ وبالتالي قال على الفور إنه إله غيور. أما الكلمة الثالثة وهي أنك لا تنطق باسمه بشكل تلقائي، والكلمة الرابعة وهي أنك توقّر يوم الراحة بطبيعة الحال، فقد كانتا متعلّقتين بعلاقة الإنسان مع يهوه. أما الكلمة الخامسة، وهي أنك تكرم أباك وأمك بطبيعة الحال، فقد كانت تشكّل الانتقال إلى الكلمات الموجودة على اللوح الثاني، التي تنظّم العلاقات بين البشر - لكنّها في الوقت نفسه تنتمي إلى اللوح الأول أيضاً، لأنّ الأبوة تجسّد لقدرة يهوه على الخلق.

- هذه كانت على الأقل ملاحظة فيلو، وأنت تفهم، يا بنيّ، أنني اتفق معه كامل الاتفاق. لم تكن النبرة المستهترة من صميم القلب - فقد فكّر كلاهما في اللحظة نفسها في آدا، الراقدة في سريرها الأبيض هناك في الأفاصي البعيدة في الشمال. جاء النادل قصير القامة بالكعب العالي المسطح، الذي يشبه غوبلز بعض الشيء، وينظر إلى العالم وكأنه يفضّل تدميره اليوم قبل الغد، لملم الطاولة ووضع القهوة أمامهما. كانت الحناطير الواقفة أمام البانثيون قد اختفت، ورغوف الجرائد القائمة أمام الأكشاك قد نُقلت إلى الداخل؛ كانت ساعة الخفافيش قد ولّت أيضاً، أفسحت المجال لعصافير السنونو، التي تحوم سريعاً حول المعبد وعبر الساحة وهي تزقزق كما لو أنّ سكاكين صغيرة تُشحذ: إيتس.. إيتس.. استمع كويتن إلى شرح والده بصمت، لكنّه كان شارد الذهن. لقد أخطأ أونو في افتراضه أنّ الوصايا العشر تثير اهتمامه: ليست هي التي تشغل باله، بل اللوحان اللذان كُتبت عليهما، ذلكما الشيثان الحجريان الصلبان، الراقدان في انتظاره على بُعد بضعة كيلومترات - إلى اللقاء في ليلة الغد. تابع أونو بعد برهة قصيرة بأنّ ما «لا يُفعل» حسب الكلمة السادسة هو القتل، حسب الكلمة السابعة: الزّنا، حسب الكلمة الثامنة: السرقة، حسب الكلمة التاسعة: شهادة الزور، وحسب الكلمة العاشرة: محاولات الاستيلاء على أملاك الآخرين. الكلمات الخمس على

اللوح الثاني لا تمثّل في نهاية الأمر سوى «القاعدة الذهبية» الشاملة الموعلة في القدم: «عامل الآخرين كما تحبّ أن يعاملوك». استطاع أونو إفادته بأنه حسب رأي هيليل، وهو عالم يهودي أسطوري من زمن هيرودس، فإنّ التوراة كلّها ترمي إلى هذا القصد نفسه، أي أسفار موسى الخمسة جميعها، بوصاياها البالغ عددها 613 وصية. بالنسبة إلى اليهود، لم تكن هذه الوصايا العشر أكثر أهمية من الـ 603 الأخرى - هذه أصبحت أكثر أهمية بالنسبة إلى المسيحية فقط. حتى لقد مُنِع الكثير من تلك الوصايا الأخرى في ذلك الوقت، مثل الختان الذي استُبدِل به التعميد. انفجر أونو بالضحك، قال إنه تذكّر بصورة مفاجئة القسّيس الذي كان يدرّسه التعليم المسيحي في لاهاي قبل أربعين سنة. بينما كان القسّيس يخبرهم بأنّ الصبيان الصغار اليهود يدخلون في العهد مع الربّ بإحداث شقّ في قلفتهم، حرّك سبابته حركة عمودية قصيرة على عظمة صدره، فقد كان يعتقد أنّ تلك العظمة هي «القلبة» - قسّيس! تصوّر في أيّ عالم كان أولئك الكالفينيون الهولنديون يعيشون!

نقر رأس إصبعه البنصر على لسانه، رفع به فتات خبز من فوق الطاولة، ووضعه في فمه. لأنّ كويتن لم يتفاعل مع شرحه، فقد بدأ يدرك أنه يستمع بدافع الأدب فحسب، ولكنّ هذا لم يمنعه من الاستمرار. كانت مسألة شرف أن يكون مجرد مساعد فتّي لابنه من الآن فصاعداً؛ لعلّه أدّى واجبه حيال كويتن بصفة مستشار في التاريخ واللاهوت، ولكنّ هذا لم يمنعه من قول ما لا يزال يريد قوله.

تابع إنه عندما سأل أحد العلماء المسيح في إحدى المرّات، ما هي أعظم وصيّة في الشريعة في رأيه، أجاب المسيح بأنها حبّ الربّ؛ والوصية الثانية، شأنها شأن الأولى، هي أن تحبّ الآخر كما تحبّ نفسك. يبدو أنه انطلق من أنّ الناس جميعهم يحبّون أنفسهم، لم تكن معرفة الطبيعة البشرية من نقاط قوّته: في ما يخصّ هذا الأمر، كان يجب انتظار يهوديّ آخر، من فيينا. حسب الفرضية الثانية هذه، فإنّ مَنْ لا يحبّ نفسه، أو مَنْ يكره نفسه حتى، يجوز له أن يكره أخاه الإنسان بقدر كرهه لنفسه، لا يجوز لك أن تقتل إلا إذا انتحرت بعد ذلك، مثل يهوذا وهتلر. يبدو أنه لم يكن على علم بالجحيم، وهذا ما كان واضحاً في الواقع: كان في نهاية الأمر هو الكائن الذي يحبّ الربّ كما يحبّ نفسه. ولكن عمق إجابته يكمن في علامة التساوي التي وضعها بين الوصايا الخمس على اللوح الأول والوصايا الخمس على اللوح الثاني؛ حتى لقد صاغ ذات يوم النسخة الإيجابية من القاعدة الذهبية: «فكّل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأنّ هذا هو الناموس والأنبياء».

ردّد كويتن بينما يظهر شيء من السرور على وجهه: «هذا هو الناموس والأنبياء».

لقد أعجبه هذا التحوّل الغامض. نظر إلى والده. استدعت الطريقة التي يعمل بها عقله إلى ذهنه الانعطافات السريعة سرعة البرق، التي يتملّص بها لاعب هوكي الجليد من لاعبي فريق الخصم، يقذف القرص في المرمى، يتزحلق إلى خلف الشبكة بصريّ من حذائه الخاص بالتزلج، ويرفع عصاه بشراصة في الهواء. لقد عاد إلى طبيعته تقريباً. يضاف إلى ذلك أنّ الأيام العشرة الماضية بدت وكأنها محت السنوات الأربع السابقة على نحوٍ كامل؛ لم يستطع أيُّ منهما في الواقع أن يسترجع في ذهنه كيف كان الحال طوال ذلك الوقت. تساءل أونو ماذا كان المغزى منه. ردّد على نظرة كويتن برهة قصيرة، لكنّه أخفض عينيه في الحال. عاد بذكرته إلى المحادثة التي أجريهاها بالقرب من مسلة تحوتمس: عن الكرة والنقطة. ناجى نفسه: حتى إذا كان للحياة معنى، فأَيُّ معنى هو؟ وإذا كان هذا تلاعباً بالكلمات، أفلا ينطبق أيضاً على المسألة المتعلقة بمعنى الحياة؟ أهذا هو السبب يا ترى في أنّ كويتن لم يعرف ماذا يقصد بـ«معنى»؟

لم ينهضوا إلا عندما سحب غوبلز الكرسيّين من تحتهم، وأخذت عربتان مزمرتان من عربات البلدية تقتربان من ساحة ديا مينيرفا، مثل سرطانين، بمياه مرشوشة ومكانس دائرة. كانت الأضواء الكشافة قد أطفئت منذ برهة من الزمن، وأُرسِل البانثيون من جديد إلى الليل الرمادي. سارا بصمت صوب البيت عبر الشوارع المظلمة الضيقة، المتناوبة معها ساحات مهجورة، تحجّرت فيها شخصيات رخامية ملتحية في سعيها المستميت إلى التحرّر من الجاذبية الأرضية. ناجى كويتن نفسه: ربما لا أحد ينظر إلى البانثيون الآن - كيف يمكن أن يكون موجوداً إذا؟ ألا ينبغي لأحد أن ينظر إلى كلّ شيء طوال الوقت، كي يبقى العالم متماسكاً بعضه مع بعض؟

*

حسب الخطة، لم يستيقظ إلا عند اقتراب وقت الظهر، إذ لن يتسنى له النوم في الفترة القادمة؛ أما أونو فقد بقي يستيقظ بذعر على الدوام، يحدّق في كلّ مرة في الظلام بقلب خافق وعينين متّسعيتين، متسائلاً بيأس ما الذي ورّط نفسه فيه؟! لو تنبّأ له شخص ذات يوم بهذا الأمر، ألم يكن ليتجنّب هذا المجنون ما تبقى من حياته؟ في ذلك الظهر من يوم السبت لم يتبادلا الحديث كثيراً. كان الطقس رمادياً مملاً، حاول أونو قراءة الجريدة، ولكنّ قلقه أخذ

يزداد كلما تقدّم الوقت. كان يأمل أن يحدث ما يعرقل هذا الأمر؛ زلزال، حرب، آخر الزمان، ولكن الواقع قرّر ألا يلقي بالآ إلى مغامرتهما المقررة.

كان كويتن بالمقابل مندهشاً من هدوئه. يُخيّل إليه وكأنه سيقوم بمجرد عمل روتيني بعد قليل، مثل الخروج مع الكلب للتنزه، أو تخفيض حرارة التدفئة المركزية - بينما يشعر في الوقت نفسه بأن حياته بأسرها كانت تسير لبلوغ هذا اليوم. حقيقة أنه سيقوم في الليلة القادمة باقتحام مركز العالم، الذي ارتعب منه أشدّ الارتعاب في حلمه ذات يوم، لم تبعث الخوف في كيانه. هل مركز حصنه السريّ على جانب أخطر من الواقع يا ترى؟ بدأ عنوان كتاب -أم أنه عنوان مسرحية؟- يعوم في ذهنه، مثل خيط من طحلب بحري: الحياة حلم... تذكر أيضاً أن ماكس قال في إحدى المرات إنك لا تستطيع البرهنة على أنك لا تحلم إذا كنت مستيقظاً، لأنك عندما تكون في حلم، تعلم علم اليقين أيضاً في بعض الأحيان أنك مستيقظ ولست في حلم. إذا كان الواقع يمكن أن يكون حلماً، فهل يمكن للحلم أيضاً أن يصبح واقعاً يا ترى؟

عند اقتراب المساء، استند إلى حافة النافذة وقد صالّب ذراعيه على صدره، وأخذ ينظر إلى الملاك البرونزي على قلعة سانت أنجلو، الذي ما إن طلعت الشمس من وراء الغيوم مثل برتقالة مشعة حتى بدأ يتلألأ مثل طيف ذهبيّ.

قال وهو يلتفت إلى الورا: «يجب أن نذهب».

كان أونو قد راح في النوم، فقال وهو يعتدل على فراشه متأوهاً: «ماذا، ماذا؟ لا؟ لن نفعل هذا حقاً، أليس كذلك؟».

- طبعاً سنفعل. إنها الخامسة والنصف. ستغلق السانكتا سانكتورم أبوابها بعد ساعتين. أخذ كويتن حقيبة الظهر الصغيرة المصنوعة من قماش القنب فاقع الحمرة، التي اشتراها أمس ووضّبها قبل ساعات، من فوق سرير التخيم الخاصّ به: «هل ستأتي؟ أم أنك تفضّل مواصلة النوم؟».

قال أونو عابساً وهو يهدج نحو الصنبور: «طبعاً أفضل مواصلة النوم. كنت أحلم للتوّ بعالم مثاليّ خالٍ من الجرائم، خالٍ من الوصايا، خالٍ من صبيان مغامرين حدّ التهوّر».

بعد أن تناول كلّ منهما نصف رغيف من خبز الصامولي مع لحم الخنزير، في مقهى ماورزو، مع فنجان من الإسبريسو فقط، وذهبا إلى المرحاض للمرّة الأخيرة، اقترح أونو إيقاف سيارة أجرة، ولكنّ كويتن رأى أنه ليس من الحكمة فعل ذلك: إذا لم تسير الأمور على ما

يرام، فسيعرف السائق أوصافهما. استقلَّ الباص في شارع كورسو فيتوريو إيمانويل ونزلاً منه بالقرب من البازيليكا. بينما يسيران من جانب المسلة صوب المدخل، رفع أونو عصاه في الهواء وقال باللاتينية: «السلام عليك، أيها الفرعون، الذين على وشك الموت يحيونك»^(٩). كان يحمل في يده الأخرى حقيبة السفر، المتينة المسطحة رمادية اللون، التي سيوضع فيها لوحا موسى الحجريّان بعد قليل.

بدت السانكتا سانكتورم أكثر ازدحاماً من الأيام الماضية - ربما لأنّ غدأ يوم الأحد. أخذ وجه الكاهن العجوز المتجهّم، المستعدّ لأن ينقر بعلمته المعدنية على الشباك بغضب، يتألق بابتسامة، عندما رأى كويتن.

قال أونو: «وأنت ستسرق من هذا المدير العجوز الحنون».

- سأخذ شيئاً، لا يعرف حتى أنه في حوزته.

- وتظنّ أنّ هذه ليست سرقة؟ لعلّها أسوأ من السرقة. أنت لا تفعل مثل هذا الشيء. حتى إنها ليست مسألة «قانون الفسيفساء»^(١٠)، بل مسألة تربية.

قال كويتن قبل أن يشعر بنفسه: «كان عليك تربيّتي إذا!». وندم على الفور أنه أفلت هذا القول: «لا تؤاخذني، لم أقصد هكذا!».

أحنى أونو رأسه دون أن ينظر إليه: «لا عليك، إنك على حق!».

لا، ليس لصاً، هكذا فكّر كويتن، فهو لم يسرق أيّ شيء في حياته. حتى إنه لا يريد اللوحين الحجريين لنفسه! عندما يصبحان في حوزته، فلن يمتلكهما مثلما لا يمتلكهما هؤلاء الكهنة الآن. هؤلاء الكهنة أنفسهم سيفهمونه حتماً على نحو أفضل - أو لا، لقد انضّموا طبعاً إلى هذا المجمع لا شيء إلا ليصلوا إلى الجنة، فهم يتوقّعون مكافأة عظيمة. إنه هو نفسه لا يتوقّع شيئاً، أما والده فلا يتوقّف عن محاولاته حتى اللحظة الأخيرة في ثنيه عن قراره. ولكن إذا لم يكن لصاً، فماذا يكون إذا؟

(٩) عبارة من العصر الروماني أصلها «السلام عليك أيها الإمبراطور، الذين على وشك الموت يحيونك»، يُقال إنّ المصارعين حتى الموت كانوا يقولونها عند دخولهم حلبة المصارعة. ويُقال أيضاً إنّ المجرمين الذين حُكم عليهم بالإعدام وأُجبروا على القتال في «معارك البحر» سنة 52 بعد الميلاد قالوها تحية للإمبراطور الروماني كلوديوس. [م]

(١٠) قانون الفسيفساء: شريعة موسى. [م]

من أجل كسب ثقة الكهنة الكاملة، ومن أجل أن يكونا قادرين على التذرع بورعهما في حال حدوث فشل، أقنع كويتن أونو بالصعود عبر الدرج المقدس إلى الطابق العلوي. عبرا الردهة وأخذتا ينتظران دوريهما في أسفل الدرج، وكأنهما واقفان في الطابور أمام شبّك تذاكر. قال أونو بصوتٍ خافت: «بعد قليل سأجثو على ركبتيّ هنا، وسينظر والذي إليّ ساعطاً من السماء الكالفينية، وهو جالس إلى جانب اليد اليمنى للرب، ثم يقع من كرسيه مغشياً عليه. كلّ ذنبك!».

وعندما فرغ مكان وجثا على ركبتيه فعلاً، مستنداً على عصاه، أحنى رأسه وتمتم: «سامحني يا والذي، لأنني لا أعرف ما أفعله! حفيدك وحده يعرف».

بدت تتمته مثل صلاة، ووجد كويتن صعوبة في كبت ضحكه. كان ذلك المزيج القديم من الدعابات والجدّ، الذي يعرفه من الماضي حقّ المعرفة، يعود بوتيرة متزايدة. أو بالأحرى، إنه الآن بالذات ليس مزيجاً، فأحدهما هو الآخر في الوقت نفسه - الدعابات هي الجدّ، دون أن تصبح أقلّ دعابةً لهذا السبب. لعلّ أيّ شخص لم يفهم هذا الأمر، باستثناء ماكس؛ لعلّ صداقتهما كانت تركز عليه.

جثا هو أيضاً على ركبتيه فوق الدرجة الأولى وطوى يديه. لم يكن قد حفظ الصلوات الثماني والعشرين الرسمية عن ظهر قلب، ولكن بدا له من السخافة أن يحرك شفّتيه على مدى خمس عشرة دقيقة دون قول شيء؛ لذلك بدأ يتمتم بأسماء الإشارة اللاتينية: «هذا، هذه، هذان، هاتان، هؤلاء. هنا، هناك، هنالك. ذلك، تلك، ذلكما، تلكما، أولئك».

كانت الدرجات المكسوة بالخشب منخفضة وعريضة؛ الدرجتان التاليتان شاغرتان، وعلى الدرجة الرابعة تركع راهبةٌ ورجل ريفيّ الهيئة ضخّم البنية. نعل حذاءه، الذي أمام عينيّ كويتن، محزّزٌ بحزوز سمكة علقّت بينها أحجار صغيرة. ودّ لو يأخذ سكّيناً من حقيبتة الظهر ليطلق بها تلك الأحجار من بينها، فتطير مترين في الهواء. عندما صعدت الراهبة والرجل إلى الدرجة التالية بصعوبة، مثل شخصين معاقين، تسلّق هو وأونو درجة أيضاً. رأى أباه من زاوية عينه يجر جرّ عصاه وحقيبتة بشكلٍ أخرق.

بعد خمس درجاتٍ أو ستّ، حيث الراهبة تطيع قبله على كلّ منها، أنهى أسماء الإشارة، لذلك بدأ بتصرف فعل «أخذ» باللاتينية: «أخذ، تأخذ، يأخذ، نأخذ، تأخذون، يأخذون. لأخذ، لناخذ، ليأخذ، لناخذوا، ليأخذوا. كنت آخذ، كنت تأخذ، كان يأخذ، كنا نأخذ،

كنتم تأخذون، كانوا يأخذون. كنت سأخذ، كان سيأخذ، كنا سنأخذ، كنتم ستأخذون، كانوا سيأخذون. سأخذ، ستأخذ، سيأخذ، ستأخذون، سيأخذون».

كلّما تقدّم في الصعود، أصبحت الأفعال غير نظامية وبدأ ينتشي انتشاءً خفيفاً بصورة تدريجية. كيف كانت قواعد النحو اللاتينية؟ الفعل المبني للمجهول، الفعل شبه المبني للمجهول... المضارع المبني للمعلوم مع ضمائر المتكلّم، المضارع المبني للمعلوم مع ضمائر المخاطب، المضارع المبني للمجهول مع ضمائر المخاطب... نظر من خلال شبّاك زجاجي صغير في الخشب، فرأى بقعاً ذات لون بَنِّي باهت على الرخام الأبيض: إنها دم المسيح طبعاً. «استنزف، يستنزف، استنزاف...»^(٥).

عندما بلغا أعلى الدرج، بالقرب من نافذة المعبد ذات القضبان، قبالة المذبح، نهضوا واقفين. قال أونو: «إذا لم تسحقنا قوّة اليد اليمنى للربّ في هذه اللحظة، فسيكون البرهان الوجودي على عدم وجوده».

كانت الساعة تمام الساعة. في نصف الساعة الأخير أخذوا يتجولان بين السائحين والمؤمنين في المعابد، التي بدأت تخلو شيئاً فشيئاً من الناس؛ لقد رابط أحد الكهنة في أسفل الدرج المقدّس لمنع أناس آخرين من الصعود.

قال أونو دون أمل: «لا يزال بوسعنا المغادرة».

- لكنّا لن نغادر. دعنا نأخذ موقعنا.

ذهبوا إلى المعبد الجانبي على الطرف الأيمن، الذي لم يكن قد بقي فيه سوى زوجين كبيرين في السنّ، يبدو أنهما ألمانيان؛ يرتدي كلٌّ منهما معطفاً من الجوخ الأخضر وينظران إلى لوحة القديس لورينزو الجدارية فوق المذبح. كويتن يعرف أنّ كاهناً سيقوم بعد قليل بجولة لحثّ المتبقيين على المغادرة بإيماءات مدهانة. لن ينتظرهم الكاهن إلى أن يغادروا، لكنّه سيعود بعد برهة قصيرة من ذلك ليقوم بجولة تفقّد أخيرة. لو عاد قبل مغادرة الزوجين، فلن تكون هناك مشكلة أيضاً: سيستظران إلى أن يبقيا وحدهما، ثم يختبئان على جناح السرعة، - ليس هناك تواصلٌ بين الكاهن هنا في الطابق العلوي والكاهن الآخر في أسفل السلالم الأربعة الدنيوية. ولكن سُهِّلَت عليهما الأمور. بينما يقفان بالقرب من الجدار الخارجي، قبالة الباب البرونزي المُقفل بقُفْلَي مشبك، المفضي إلى السانكتا سانكتورم، نظر الرجل المرتدي

(٥) باللاتينية. [م]

معطف الجوخ إلى ساعته بصورة مفاجئة، قال بارتياح: «يا إلهي!»، وأمسك ذراع زوجته وأخذها معه في عجلة.

ما إن اختفيا عن الأنظار، حتى التفت كويتن وأونو إلى الورا، فتحا الستائر المخملية السوداء المحيطة بكرسيّ اعتراف وتسلاً إلى الداخل.

*

جاءت هسهسة خفيّ الكاهن المتناقلة وذهبت، عادت بعد خمس دقائق وذهبت مرّة أخرى، أغلقت الأبواب الخارجية بصفقاتٍ مدوّية، كان الضوء قد أطفئ، فأخذا يستمعان إلى الأصوات في ظلام مخبئهما الحالِك. بعد أن أبعد الزائرون الدنيويون إلى الشارع، أخذ شجارٌ صاحب بالإيطالية يحلّ بصورة تدريجية محلّ الجوّ المقدّس في الطابق السفلي عند المدخل. يبدو أنّ رجال الدين تحوّلوا إلى أشخاص آخرين. لم يستطع أونو فهم ما تقوله تلك الأصوات الهرمة المتشاحنة، لكنّه اعتبر حدوث هذا الشجار تأكيداً لنظريته عن الجدار الذهبي: خلف جدار الكنيسة الذهبي أيضاً تسير الأمور مثلما تسير في كلّ مكان، وهذا لا غبار عليه بمعنى أو بآخر، لأنّ هؤلاء الكهنة المسنّين في عباءاتهم السوداء يبرهنون بهذه الطريقة أنهم متديّنون محترفون وليسوا هواةً أتقياء. استتبّ الهدوء بعد نحو عشر دقائق. كانت هناك أصوات مهمهمة في البعد، من الواضح على السّلم الأبعد في الطرف الآخر، المؤدّي إلى معبد سان سيلفيسترو؛ ثم سُمع من هناك صفقة الباب، المُفضي إلى الدير. سكون.

كان أونو جالساً على مقعد الكاهن وعصاه بين ساقيه، طاوياً يديه على رأس الثعبان، فحِيلَ إليه وكأنه يلعب دوراً في مسرحية سخيّة. هذا لا يمكن أن يكون حقيقة. الحقيقة موضوعة تحت المقعد. لو أرسله شخصٌ لاصطياد بازيليكا بشبكة صيد فراشات وبرطمان مربّى فارغ، لما شعر بأنه أكثر حماقة مما يشعر الآن. إنها تلك الليلة الكويبة الحارة قبل ثماني عشرة سنة - عندما أغرته آدا- هي التي أوصلته في نهاية المطاف إلى هنا: في كرسي اعتراف روماني مع ابنه، محبوساً بجانب أقدس مكانٍ في العالم، نظراً لأنه يُحفظ فيه، حسب رأي هذا المستبدّ نفسه، لوحا شريعة موسى الحجريّان. إنهما ليسا في ذلك المذبح شأنهما شأن جريدة الأمس - أو لعلّهما فيه: لن يعرفا هذا على الإطلاق. التوتر الذي يشعر به متأثّ حصرّاً من عدم معرفته بما سيؤول إليه تسلّلهما العجيب.

كويتن أيضاً لم يكن يعلم ذلك علم اليقين؛ لكنّه لم يشك لحظة واحدة في استطاعته اقتحام ذلك المعبد، ومن ثم العثور على اللوحين فيه. إنهما ببساطة في انتظاره. الوضع غير مريح في جزئه النصفى من الخزانة الضيقة: ليس فيه سوى مقعد للركوع، وهو جالس عليه. يفصل بينهما حاجزٌ له فتحة معيّنة الشكل مزوّدة بالقضبان، يسمع أحدهما صوت أنفاس الآخر من خلالها.

همس أونو: «هل تستطيع سماعي يا بني؟».

التفت كويتن بحذر إلى الورا وأقرب بفمه من الشبكة: «نعم».

- أنت راضٍ، أنك فعلت أخيراً ما في رأسك؟

- نعم.

- ماذا يمكن أن يكون رأي... - «آدا» كانت على رأس لسان أونو- ماكس، لو رأنا جالسين

هنا على هذا النحو؟

- لا أعرف.

- هل تعرف ما أظنّه؟ كان سيضحك ملء رثتيه.

فكّر أونو في نوبة الضحك التي وافت ماكس في هافانا، عندما اكتشفا في أيّ نوع من المؤتمرات قد انتهى بهما المطاف. هناك في تلك الجزيرة، لم يُخلق كويتن في بطن أمه فحسب، بل وزُرعت بذرة سقوط أونو السياسي أيضاً. تذكّر وجه كوكوس، على متن القارب المبحر إلى إنكهاوسن: «إلى أيّ حدّ يبلغ بك الغباء يا أونو؟». موت هيلخا في اليوم نفسه.. آدا.. وكذلك فكّر كويتن في ماكس، الذي اختفى كلياً من العالم وكأنه لم يكن موجوداً على الإطلاق. تابوته الخالي الذي وُوري الثرى. والدته...

همس أونو: «لعلّ هذا متأتّ من الظلام الحالك والهدوء الشامل هنا، لكنني أفكّر في والدتك المسكينة طوال الوقت».

- وأنا أيضاً.

- هل تتذكّر عندما ذهبنا معاً لزيارتها؟

- طبعاً. عندما لاحقتنا الشرطة.

- نعم، أتذكّر بغموض شيئاً من هذا القبيل.

تردّد كويتن، لكنّه مع ذلك قال بعد برهة قصيرة: «في مساء ذلك اليوم، رأيت لأول مرة حلماً في منتهى الروعة».

- أما زلت تتذكّره؟ حدث ذلك قبل نحو عشر سنوات.

- قلت لك إنني لا أنسى أيّ شيء تقريباً.

- بمّ حلمت إذاً؟

فقال كويتن وهو يدير رأسه قليلاً: «لن أقول لك. شيء عن مبنّى».

مركز العالم. فكّر في الخوف الفظيع الذي تولّاه عندما استيقظ من النوم عقب سماعه ذلك الصوت الأجشّ الهادئ، وكيف أخذ بعد ذلك يتلمّس طريقه باضطراب في ما يشبه هذا الظلام والسكون اللذين يجد نفسه فيهما الآن - ولكن رغم أنه لا يحلم، ورغم أنّ وجوده هنا يمتّ بصلة وثيقة إلى ذلك الحلم، فهو لا يشعر بأيّ شيء من الخوف.

- لكنّه في آخر لحظة تحوّل إلى كابوس بصورة مفاجئة. لم أعد أعرف أين أنا إطلاقاً، اعتقدت أنني بدأت أصرخ، وعندما خرجت جدّتي من غرفة نوم ماكس وأشعلت الضوء، رأيت حينذاك فحسب أنني أقف على عتبة غرفتها.

انقطعت أنفاس أونو. هل خرجت صوفيا في الليل من غرفة نوم ماكس؟ ماذا يعني هذا؟ انتابه شعور بأنه لا ينبغي له طرح أسئلة عن هذا الأمر، لكنّه لم يستطع تمالك نفسه: «هل كان ماكس وجدّتك ينامان أحدهما مع الآخر؟».

- لم ألاحظ أيّ شيء من هذا. لعلّهما كانا جالسين يتكلّمان في أمر ما، لا يهتمني. اصمت قليلاً!

انبعث صوتٌ مترنّم خافت من مكانٍ بعيد: من قاعة الطعام في أغلب الظن، حيث يقرأ كاهنٌ نصّاً دينياً، بينما الآخرون يأكلون تفاعحة وبيضة بصمت ولا يستمعون إليه.

ودّ أونو لو يسأل ماذا كانت ترتدي صوفيا في تلك الليلة، لكنّه عرف ما يكفي. الوغد. طبعاً. لم يكن يتورّع عن أيّ شيء - ولا حتى عن صوفيا برونس الجامدة، التي تكبره بألف سنة. كيف أمكنه أن يحسن الظن فيه! ولكن هل أحسن الظن فيه ذات يوم؟ لم يُرد التفكير في هذا الأمر إطلاقاً، لأنه كان يرتاب بطبيعة الحال في أنّ هناك شيئاً بين هذين الاثنين في تلك القلعة الموحشة بلياليها الطويلة، لكنّه لم يكن يرغب في الاعتراف لنفسه بذلك. ولمّ لا؟ ما المانع؟ الآن عرض ماكس تربية ابنه كان عملاً بدافع الصداقة الخالصة والتضحية بالنفس؟

إلى أيّ حدّ كانت دوافعه هو نفسه نقيّة في هذا الصدد؟ كذلك أدرك بوخزة في صدره أنّ حماته قد ترملت في الآونة الأخيرة -دون أن يعرف أحد ذلك- للمرة الثانية وهي في الثانية والسيتين من العمر.

همس: «إذا خرجنا من هنا سالمين، يجب علينا الاتصال بجذّتك على الفور».

فقال كوينتن بعدم اكتراث: «لا أمانع أبداً».

كلّ ما سيأتي لاحقاً يقع أمامه وكأنه على الطرف الآخر من جبل، لا يستطيع أن يرى منه سوى القمّة: وراءه يمكن أن يكون البحر، أو مدينة، أو صحراء، أو هاوية ملأى بالضباب. يشعر بأنه فعل كلّ شيء بنفسه حتى هذه اللحظة، ويجب عليه فعل الشيء الأهمّ في الساعات القليلة القادمة - بعد ذلك، هذا ما يعلمه علم اليقين، ستسير الأمور من تلقاء نفسها وسيروى في أيّ مكان ينتهي به المطاف. غفا ببطء، في حين لم تغفل أذناه عن شيء، مثل كلب غاف.

- كوينتن؟

- نعم؟

ونظر إلى ساعة الأطفال المشعّة التي اشتراها أمس ببضعة آلاف من الليرات، التي لها عقرب ثوانٍ على شكل «ميكي ماوس» يتذبذب جيئةً وذهاباً. إنّها تقارب التاسعة.

- هل كنت نائماً؟

- غفوت قليلاً.

- إنك مطمئن كلّ الاطمئنان، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يحدث لك شيء.

- لا أظنّ.

- ليتني أستطيع أيضاً قول هذا، إنني أموت ألف ميتة وأشعر بأنني أختنق.

- لماذا أيقظتني؟

- لم أكن أعرف أنك نائم.

- ماذا كنت تريد أن تقول؟

فقال أونو: «أفكّر في ماكس طوال الوقت. هل كان لك صديقٌ حميم ذات يوم؟».

- صديق حميم؟

- إذاً، لم يكن. الصديق الحميم هو الشخص الذي تبوح له بما لا تبوح به لأيّ شخص آخر.

- أنقصد بسرّ؟

- لا أعرف ما الذي تقصده بسرّ، لكنني أقصد شيئاً مخزياً، تخجل منه إلى درجة أنك لا تريد أن يعرفه أحد.

- ليس لديّ شيء من هذا القبيل.

- حقّاً؟!

- ماذا يجب أن يكون إذا؟ طبعاً لديّ سرّ لن أبوح به لأحد قطّ، ولكن ليس لأنني أخجل منه.

سأل أونو بعد شيء من التردد: «ولا حتى لأمك؟».

- ولا لأيّ أحد.

سكت كوينتن. ألم يقل والده نفسه إنّ والدته هي «لا أحد» في واقع الأمر؟ لذلك عندما لا يبوح بسرّه لأحد، فإنه يبوح به لوالدته في الواقع. هل يجب أن يقول هذا لوالده؟ إنه سيفهم على الفور، لكنّه سيكون قد أفشى شيئاً من السرّ بطبيعة الحال. أتكون والدته هي السرّ في نهاية الأمر يا ترى؟

فجأة تخلخل السكون بفعل ضجّة خافتة في البعد.

همس كوينتن: «لقد بدؤوا».

كان كلّ شيء يسير حسب المتوقع. بدأ الكهنة يجتمعون لصلاة النوم في معبد سان سيلفيسترو، بعد ذلك سيذهبون إلى السرير. ما إن مضت بضع دقائق حتى صدحت أصوات الرجال المسنين بالترانيم.

استمع أونو وكوينتن، بعيون مغمضة، مغلقة بفعل الظلام، إلى التريمة الغريغورية الرقيقة، العالقة في المكان مثل شبكة عنكبوت فضيّة. كانت بالنسبة إلى أونو تنضح بوحدة يائسة، ببرودة صقيعية معدنية، تبدو وكأنّها تتدفّق عبر شقّ إلى الداخل من القرون الوسطى مباشرة - أما بالنسبة إلى كوينتن فقد استدعى توافقها المتناغم إلى ذهنه صورة عشرة رجال، أو خمسة عشر رجلاً، غارقين بعد تحطّم سفينتهم، لكنّهم متشبّثون بعضهم ببعض حتى آخر لحظة. كانت المزامير، التي تساعدهم في تمضية الليل، لا تقاطعها سوى صلاة إصحاح قصيرة بين الفينة والأخرى.

بعد مضيّ خمس عشرة دقيقة أغلق الباب المفضي إلى الدير من جديد.

همس كويتن: «إنها التاسعة والرّبع. سنبدأ في العاشرة وعشر دقائق».

بعد ربع ساعة سيرقد الكهنة في السرير، وفي نحو العاشرة إلا ربعاً سيكونون قد خلدوا إلى النوم. تذكّر أونو أنه قرأ شيئاً عن مراحل دورة النوم في إحدى المرّات، لذلك راجع دراسة عنها في إحدى المكتبات الجامعية، نزولاً عند طلب كويتن الملحّ. ما عدا فترات «النوم المتناقض» الرائعة - فترات الأحلام التي يمكن الاستيقاظ منها بسهولة - يتكوّن النوم من أربع درجات من العمق. الدرجة الأولى والأطول من النوم الأعمق تبدأ بعد خمس وعشرين دقيقة من الخلود إلى النوم وتدوم نحو خمس وعشرين دقيقة أيضاً. تأتي الفترة الثانية بعد سبعين دقيقة، ولا تدوم أطول من عشر دقائق، ولكن بعد أقلّ من نصف ساعة تتبعها الفترتان الثالثة والأخيرة اللتان تدومان حتى أقصر من عشر دقائق. كان ذلك كافياً بالنسبة إلى كويتن ليأخذ قراره بأن يعمل أثناء المرحلة الرابعة الأعمق، الخالية من الأحلام، التي لا يمكن إيقاظ النائمين فيها إلا ببالغ الصعوبة. سيكون لديه بالمجموع ثلاثة أرباع الساعة من أجل إنجاز مهمّته. يجب أن تكون كافية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

60. عملية المفاوير

- إنها العاشرة وعشر دقائق.

عندما أشار «ميكي ماوس» إلى الوقت المحدّد بالثانية، نهض كويتن وأزاح الستار إلى الجانب من دون ضجّة. كانت أضواء الشارع المتسلّلة من النوافذ الثلاث ذات الزجاج المعشّق قد تكفّلت بآلا يسود ظلام شامل. كان مصباح أحمر مشتعلًا فوق المذبح. سار بسرعة ومن دون ضجّة، في حذاء اللصوص المرن الذي يرتديه، من حول السانكتا سانكتورم صوب معبد الكورال على الطرف الآخر، ولكنّ الضوء كان مُطفأً هناك أيضاً؛ جلس القرفصاء عند باب غرفة المقدّسات واختلس النظر من الزاوية: لم يبقَ أحدٌ يصليّ بهدوء، رائحة حامضة وحدها تدلّ على أنّ رجالاً مسنّين كانوا موجودين هنا قبل قليل. عندما عاد إلى معبد سان لورينزو، رأى خيال أونو وهو يفرك ساقه اليسرى من شدّة الألم. أخذ كويتن حقيبته الظهر من كرسي الاعتراف، أعطى والده المصباح اليدوي، وسار بين مقاعد الصلاة صوب الباب ذي المصراعين، والعينين اللاتنتين، قبالة المعبد، المفضي إلى السانكتا سانكتورم.

مثلما يجسّ الطبيب نبض مريضه، وضع يده برهة قصيرة على قفل المشبك السحاب العلويّ، الذي يشكّل الأنف في الوجه البرونزي. بعد ذلك جلس على ركبتيه، فتح حقيبة الظهر، ومدّ قطعة من قماش الشامواه على الأرض بحذر، تتضمّن عشرة أسياخ، أو اثني عشر سيخاً، طويلة من الفولاذ، مختلفة الأحجام، متلاثلة بالزيت. أشعل له أونو المصباح اليدوي في أخفت درجاته. في البيت كان قد رأى كويتن منشغلاً في تحضيراته، فبدت له سخيفة بما يبعث على الألم للاستفسار عنها - ولكنّ ما يراه الآن يملؤه بالدهشة. غرز كويتن مطرقة برأس مطاطي في حزام بنطاله واختار، مثل لصّ محترف، سيخين من الأسياخ يلائمان ثقبَي المفتاح الآخذين شكل «H». بينما يدفع السيخين في القفل الضخم بهوادة، مستنداً بإحدى

أذنيه إلى الباب، حوّل عينيه عنه ليضع كامل تركيزه على ما تشعر يده بما يحدث في داخل القفل. فجأة، تذكر أونو شيئاً من طفولته المبكرة، من فترة ما قبل الحرب: المصوّر على ساحل سخييفينغن. بعد أن رفع الغطاء عن العدسة وهو واقف خلف الحامل ثلاثي القوائم، أدخل ذراعيه في الكمّين السوداوين المتدليّين من جهاز التصوير، وأدّى أعمالاً غامضة في الداخل، لا ينبغي لها أن ترى ضوء النهار، بينما يسرّ عينيه على الأفق بالطريقة العمياء نفسها التي يسرّ بها كويتن عينيه على لوحات السقف غير المرئية. بينما تزداد حركات كويتن دقة وإتقاناً، أغمض عينيه وافتّرت شفتاه بعض الشيء. سحب المطرقة من حزام بنطاله في آخر الأمر، نظر بدقّة متناهية إلى ما يفعله، وضرب بها ضربة مكتومة قصيرة على السيخين. انبعثت طقّة خشنة في داخل القفل. رفع عينيه إلى والده بابتسامة، وسحب برفق المشبك الثقيل من صندوق القفل ومن الحلقتين المعلقتين على الباب. همس: «هذا هو الأول».

نظر إليه أونو بفهم مفتوح. لقد أخبره كويتن عن بيت كيلر، صانع الأقفال في خروت ريخترن، الذي لطالما تردّد على ورشته، عندما كان صبيّاً صغيراً؛ ولكن خُيّل إليه أنه من المستحيل أن يؤدّي ذلك، بعد تلك السنوات كلّها، إلى ما يراه الآن: القفل المفتوح. في حين لم يُضَيّع كويتن أيّ وقت، وبدأ من فوره بالعمل على القفل السفلي، أدرك أونو أنّ كلّ شيء قد صار في طرفه عين على جانب أكبر من الخطورة. لو ضُبطا قبل فتح القفل أو بعده، لاستطاعا القول إنهما يرغبان في قضاء الليلة بالقرب من الأكبر وييتون بدافع الولاء والتعبّد؛ كان على قناعة بأنهما، بعد شيء من العبت غير المجدي بالقفل، لن يبلغا أبعد من معبد سان لورينزو. ولكن ها قد فُتح القفل الأول وأدخل السيخان في القفل الثاني أيضاً. لقد اختفى استخفافه الأولي في طرفه عين - ولكن في هذه المرحلة لم يعد بإمكانه إيقاف كويتن على الإطلاق. الطريقة الوحيدة لإنهاء الأمر هي أن يسير من فوره إلى باب الدير، يقرع عليه بعصاه، ويخرج الكهنة من سرداب نومهم الرابع. ولكن في هذه الحالة سيفقد ابنه إلى الأبد.

عندما اعترف القفل الثاني أيضاً بانتصار الطرف الآخر بإصدار طقّة، كانت الأمور قد سارت من دون أيّ مشكلة. نظر كويتن في ساعته: إنها العاشرة وثلاث وعشرون دقيقة. هناك بضعة ثقب مفاتيح في أماكن من برونز المصراع الأيمن لا سبيل إلى تفسيرها؛ لقد قرأ في كتاب غريسار أنّ الباب رومانيّ الأصل، فأمل أن تكون الثقب مجرد آثار متفرقة من ذلك الوقت. دفع المصراع الأيسر برفق، فاستسلم هذا على الفور...

مركز العالم!

أخذ حقيقته الظهر، وبينما يضيء له والده المصباح، خطأ من فوق العتبة. ودَّ لو يفعل ذلك بمزيد من الوقار، بخطوات وثيدة، مثل بونتيفيكس ماكسيموس - لكنّه الآن وقد بلغ هذه المرحلة صار في عجلة من أمره: بقيت اثنتا عشرة دقيقة لإنجاز القسم الأول من العملية. هل تسير الأمور هكذا على الدوام يا ترى؟ هل يكمن العمل الحقيقي في التحضيرات ولا يكون الإنجاز الفعلي أكثر من مكافأة؟ بينما يسير في ممَرٍّ من أربعة أمتار على وجه التقريب، يفضي إلى المعبد، حضرته حكاية من الحكايات الخرافية الصينية رواها له ماكس في إحدى المرات: كلّف الإمبراطور رسّاماً برسم ديك، فقال له الرسّام إنه في حاجة إلى عشر سنوات لإنجاز العمل؛ بعد أن عاش عشر سنوات على نفقة الإمبراطور ورسم ألف ديك كل يوم، رجع إلى القصر؛ عندما استفسر الإمبراطور عمّا إذا أحضر معه الرسمة، طلب الرسّام قلم رصاص وورقة ورسم ديكاً بخطّ واحد، عندئذٍ بلغ الإمبراطور الغيِّ من الغضب أنه مرَّق الرسمة وأمر بقطع رأس الرسّام.

كان الممرّ الضيّق ذو السقف المنخفض، صلة الوصل مع القصر البابوي السابق، البالغة من العمر ألفاً وخمسمئة سنة، يبدو في نهايته أنه يقفز إلى المساحة المربعة المرتفعة من المعبد القوطي. سار كويتن صوب المذبح دون أن ينظر فوقه أو حوله، وجلس على ركبتيه مع عدّته. تبعه أونو بالمصباح، ورغم أنه لم يكن قد شرب، أخذ يشعر تدريجياً بشيء من الثمالة. «ليس ثمة مكان في العالم أقدس من هنا»^(١). كلّ الأشياء التي تحدث الآن تتجاوز كلّ الحدود بحيث يكاد لا يستطيع استيعابها. إنه يحلم في أغلب الظنّ. إنه في مرحلة النوم المتناقض على عكس الكهنة: سوف يستيقظ بعد قليل، غارقاً في العرق، كما يُقال، سيكون إدغار جائماً على حافة النافذة، والشمس مشرقة على نهار دافئ جديد في روما، الملأى بالسياسة، والسياحة، وكلّ ما يمكن أن يُنسى بعد أربع وعشرين ساعة إلى الأبد. نظر إلى الورا برهة قصيرة، فرأى النافذة ذات القضبان من الداخل، في ضوء خافت باهت، قادم من النوافذ في الطابق الأرضي عبر الدرج المقدّس.

همس كويتن بنبرة آمرة: «لا تحرّك المصباح!».

في أغلب الظن لا يزال باب المدخل المفضي إلى المعبد يُستخدم بانتظام، أما أقفال الباب ذي القضبان القائم أمام المذبح فلم تُفتح منذ عام 1905. لا تزال هناك أكثر من عشر

(١) باللاتينية. [م]

دقائق لإنجاز المرحلة الأولى، لكنّه لا يحتاج لإجبار نفسه على التزام الهدوء، لأنّه هادئ. لقد رأى أنّ قلبي المشبك السفليين، اللذين لا يزيد حجمهما عن حجم اليد، لهما تركيبة مألوفة تقليدية ويستطيعان مقاومة العنف فقط، وليس التفكير المتروّي: اختار في الحال المفتاح الصحيح من المفاتيح الهيكلية البسيطة الخمسة، التي طلب من حدّاد خلف الباشيون صنعها له. فُتحت الأقفال دون بذل كثير من الجهد، يبدو أنّها رُمّمت في أيام غريسار؛ هذا يعني أنّ الشيء نفسه قد حدث لقفل المشبك السحّاب الضخم. وها هو ذا يراه عن قرب لأول مرّة. ابتسم وناجى نفسه: «يا له من ملاك!». إنه يقفل عارضة حديدية ثقيلة، تمنع الباب ذا القضبان من أن يُفتح على مصراعيه. بعد مضي بضع دقائق، وبعد طريقة خفيفة بالمطرقة المطاطية، استسلم هذا القفل أيضاً.

ما لبث أن رشّ قليلاً من الزيت في المفصّلات الأربع من بخّاخة صغيرة، حشر العدّة في حقييته الظهر، ووضعها بجانب المذبح. همس: «ساعدني!».

وضع أونو عصاه على مقعد الصلاة الباباوي - وسحب العارضة من الحلقتين، بحذر لكيلا يحدثا أيّ ضجة، ووضعها على الدرجة الرخامية المتهالكة، التي أحيا من فوقها منّة وستون بابا القديس يومياً على مدى ألف سنة.

نظر كويتن في ساعته: «إنّها العاشرة والنصف وخمس دقائق. لقد انتهى الوقت».

*

بعد أن علّق كويتن القفلين على باب المدخل بشكل مؤقت، ذهب إلى معبد سان لورينزو قبالة المذبح، رقد على مقعد صلاة وشعر بنفسه على الفور يروح في غفوة...

الجدار البنيّ الأحمر، القائم على مسافة القراءة من عينيه، مائل في المنتصف إلى الدكنة، فيبدو وكأنّه ينظر في نفق. بعد برهة قصيرة تدوّم في النفق شلّة بنفسجية صغيرة، شبيهة بكبة صوف دائرة، لا يزيد حجمها عن حجم الكُلة^(٥)؛ ما تلبث أن تتفتّح لحظة عن خطم فرد مرسوم بدقّة، متناوٍ في الصغر هو أيضاً، ويختفي في الحال، بينما تظهر دوّامة صغيرة جديدة أخرى، تتحوّل إلى فم وحشٍ صغير حادّ الأنياب، مرسوم أيضاً بدقّة... إنه بكامل وعيه حتى وهو في غفوته - ينظر بانبهار إلى المشهد الذي يتكشف أمام عينيه: كيف يتبخّر وتحلّ محله سمكة، وجه امرأة بشعر أشعث، خنزير غريب، قطعة، برطمان، رجل مقطّب الجبين ومرسل اللحية،

(٥) هي البلية في بعض الدول العربية، كرة زجاجية ملوّنة صغيرة يلعب بها الأطفال. [م]

كل شيء واضح وضوح الشمس في كل مرة، مثلما في صورة. من أين يأتي هذا كله؟ إنه لا يتخيله، لم يحدث أن رأى الأطياف من قبل ولا يعرف أي طيف سيكون التالي. هل كانت موجودة قبل أن يراها؟ وهل تكون موجودة عندما لا يراها؟ إنها تستدعي إلى ذهنه لوحات هير وني موس بوس، الذي لم يكن يأتي هو أيضاً بأي شيء من بنات خياله، بل يحفظ كل شيء جيداً. ولكن ها هو ذا شيء يبدأ بالتغير. الجدار، الذي يبعد عنه نحو خمسة وثلاثين سنتيمتراً، يصبح شفافاً بصورة تدريجية، على النحو الذي رآه مع ماكس وصوفيا في مهرجان هولندا، أثناء أوبرا لموزارت: الناي السحري - عندما سُلط الضوء بهودة من الخلف على الستارة المصنوعة من الكتان الرقيق، المضاءة من الأمام، الحاجبة خشبة المسرح بأكملها، تكشف تدريجياً مساحة هائلة بديكورات منظورية بأسلوب بيبسنا...

لم يذهب أونو أيضاً إلى كرسي الاعتراف مرة أخرى؛ بينما كويتن إلى جانبه وعصاه إلى جانبه الآخر، أخذ يحدّق في الظلام ويستمع إلى الأصوات، ساقاه ممدودتان، ويداه مطويتان خلف عنقه. تحيط بالمبنى همهمة خافتة، حركة مرور خاصة بليلة السبت؛ تناهت إلى سمعه من بعيد صفارة إنذار منبعثة من سيارة إسعاف، أو سيارة شرطة. لقد خرج أهل روما في مشاوير... امتلأت المطاعم والمقاهي والمسارح في كل الأرجاء، ازدهرت المدينة المحيطة بهما - أما هما فيجلسان هنا، في خضم عملية المغاوير الميتافيزيقية، مثل مفارقة تاريخية غير قابلة للتصديق، في بحث عن لوحي الشريعة، اللذين ليس فقط لم يعد أحدهما يكثر بهما، بل ولم يسمع بهما معظم الناس أيضاً. نظر جانباً إلى كويتن، الذي يتنفس بعمق وينزل بدوره إلى المرحلة الرابعة من مراحل نومه، في حين بدأ الكهنة يصعدون إلى العوالم الأغنى بالأحلام. تنهد أونو بعمق. لن ينسى طوال عمره طقطقة تلك الأفعال. لو حدث أن قال له أحد إن هذا أو ذاك مستحيل الحدوث، لسمع «طقة» وضحك في وجهه من دون تورّع.

كان يغفو لدقائق بين حين وآخر. تعالى صوت ماء المرحاض في الدير، لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، يبدو أن نظرية النوم صحيحة. فكّر في الطريقة الصارمة التي نظم بها كويتن برنامجه، بالدقيقة، وكان الأمر متعلق بالرياضيات عوضاً عن علم النفس. ممن ورث هذه العقلية العلمية؟ ليس منه. كان هو نفسه على قناعة بأن لا شيء صحيح، باستثناء الرياضيات؛ في هذا الصدد، يبدو أن هناك شيئاً غير صحيح تماماً حتى في قلب الرياضيات نفسها. كل شيء غارق في الفوضى على الدوام. لعل هذه النزعة المثيرة للإعجاب متأتية من آدا، من الموسيقى، التي هي من دون شك رياضيات مسموعة بمعنى معين. ولكن الانتصارات

التقنية، التي حققها كوينتن حتى الآن على تلك الأقفال كلها، جعلته يضخم من توقعاته بشكل مبالغ فيه بطبيعة الحال؛ بعد قليل سيكون وقع خيبة الأمل عليه أشد قسوة. لا شيء، لوحا الشريعة غير موجودين في المذبح. خواء. غبار. ربما رسالة قصيرة من غريسار، مع تحيات من 1905...

فتح كوينتن عينيه، فرقع إبهاميه، ونهض واقفاً. إنها الثانية عشرة إلا ثلثاً. في الخارج ينبعث القرع المتكرر لموسيقا صاخبة، من سيارة واقفة بباب مفتوح على ما يبدو. كان والده نائماً؛ مستنداً إلى الأمام على المقعد التالي، رأسه على ذراعيه المتصالبتين، يتنفس من فمه بحسرة عميقة. هزه كوينتن من كتفه: «استيقظ!». اعتدل أونو في جلوسه متأوهاً: «أما زلنا هنا؟!».

بعد برهة قصيرة أخذ يهدج وراء كوينتن، وقد راوده شعور بأنه بدأ يحلم الآن فحسب. بالقرب من الباب التفت إليه كوينتن وهمس: «هل الحقيقية معك؟».

الحقيقية! ذهب أونو دون أن يقول شيئاً إلى كرسي الاعتراف، حيث كانت لا تزال تحت المقعد. رفع كوينتن في هذه الأثناء القفل عن باب المدخل، وعندما عاد إلى المعبد تبين أن الزيت قد أعطى مفعوله: فُتح مصراعاً بوابة المذبح ذات القضبان من دون صرير.

هاهما مصراعاً الباب البرونزي يظهران، بصورتي بطرس وبولس على لوحيهما العلويين؛ هناك قفل بمشبك ثقيل على هذين المصراعين أيضاً. استطاع لأول مرة رؤيته بوضوح. بدا أنه من نوع مختلف، لكنه شعر بالارتياح عندما رأى أنه قفل تقليدي. عندما لم يدعن لأي من مفاتيحه الهيكلية، أخرج خطأً من حقيبة الظهر وأدخله في ثقب المفتاح. بعد شيء من التلمس، دفع به لب القفل، فضغط مسمار القفل على ألسنة العتلات؛ بعد ذلك أخذ يرفع العتلات بخطأ ثانٍ برفق شديد، إلى أن دخل المسمار في أخاديد التوصيل واستطاع اللب أن ينزاح. أدار المشبك إلى الأمام وأخرجه من داخل القفل، سحبه من الحلقات البرونزية الأربع، ووضعه على الدرجة، إلى جانب المشابك الثلاثة الموضوعة من قبل.

همس وهو ينظر إلى ساعته: «تمام! لا تزال هناك دقيقتان. نكاد نصل».

فتح مصراعي الباب بيديه الاثنتين.

بينما يتذكر أونو الصورة في كتاب غريسار، تعرّف في الحال صندوق الذخائر المقدسة المنحوت من خشب السرو. رغم أنه يبلغ من العمر ما يزيد عن ألف ومئة سنة، يبدو جديداً كل

الجدّة كما لو أنّ نجّار المفروشات سلّمه للتوّ. كُتِبَ باللاتينية على إطاره العلوي أنّ الصندوق منحدر من البابا ليون الثالث، الخادم الذليل للربّ؛ ولكنّ النصّ يقاطعه ترسٌ خشبيّ كُتِبَ عليه بحروف ذهبية:

SCA
SCO RV

اختزال في منتهى الجهل من عبارة سانكتا سانكتورم. يبدو واضحاً أنّ الصندوق زُوِّد بهذه الكتابة المنقوشة في زمنٍ لاحق: عندما أُحضرت الذخائر المقدّسة من بازيليك اللاتران إلى هنا وسُمّي المعبد بهذا الاسم.

لأنّ لوحَيّ شريعة موسى كانا موجودين فيه منذ ذلك الحين؟ نظر أونو إلى كويتن. نظر كويتن إلى الأبواب الصغيرة الأربعة المزخرفة، مربّعة الشكل، التي تبدو مثل خزانات الأمتعة في إحدى المحطّات. هناك حلقةٌ صغيرة على كلّ باب من أجل أن يُفتح بها. الأبواب كلّها محميّة بالأقفال هي أيضاً، لكنّه رأى من فوره أنها ليست مُقفلة. زَمَّ شفتيه وفتح الباب العلوي الأيسر. بينما الطبقة الفضية من الأكروبيتون تتألّق على المذبح، وجّه أونو شعاع الضوء إلى داخل الحجيرة. فارغة. فتح كويتن الباب العلوي الأيمن: فارغة. ثم الباب السفلي الأيسر، فالباب السفلي الأيمن: كلّ الحجيرات فارغة.

نظر كويتن في ساعته. إنّها الثانية عشرة إلا خمس دقائق. نهض واقفاً: «يجب أن نذهب». عندما همّ بمغادرة المعبد، همس أونو: «ألا يجب أن نلملم المكان؟ لا يمكننا تركه على هذا النحو، أليس كذلك؟».

- سنعود بعد نصف ساعة.

تجمّد أونو: «من أجل ماذا؟ إنهما غير موجودين هنا يا كويتن. لقد أخطأت التقدير. لقد سار كلّ شيء على ما يرام حتى هذه اللحظة، دعنا نُنهِ هذا الأمر!».

وضع كويتن إحدى أصابعه على شفتيه - وأدرك أونو للمرّة الألف أنه ليس هناك ما يستطيع قوله.

*

بعد عودتهما للمرّة الثانية إلى معبد سان لورينزو، وهما جالسان جنباً إلى جنب على مقعد في الظلام، فكّر أونو في الفوضى التي تسبّبها فيها: أقفال متتهكّة، أبواب مفتوحة، عدّة

منثورة في كل مكان. تصوّر لو يأخذ كاهنٌ ساهد كتاب الصلاة الخاص به، ويتجوّل في المبنى وهو يقرأ الصلوات، فيرى هذه الفوضى في المكان المقدّس! ولكن ما يؤلمه أكثر هو السؤال كيف استطاع مساعدة كويتن. لأسبابٍ غامضة عليه، استثمر الصبي الكثير في هذه المغامرة إلى درجة عدم استطاعته على ما يبدو تحمّل فكرة أنّ كلّ ما فعله كان من أجل لا شيء. كيف يستطيع إفهامه أنّ الأمور تسير بهذه الطريقة في الحياة؟ عندما تكون في السابعة عشرة من العمر، تظن أنّ العالم مكوّن من المادة نفسها التي تتكوّن منها نظرياتك، لذلك تستطيع السيطرة عليه وجعله رهن إشارتك. ولكن يأتي يومٌ على الجميع يستوعب فيه الحقيقة المرّة بأنّ الأمر ليس على هذا النحو؛ العالم حساء والتفكير شوكة على العموم: وهذا نادراً ما يؤدي إلى طعام لذيذ. اليوم حانت الساعة لأن يعرف كويتن هذه الحقيقة - بطريقة مختلفة عن معظم الصبيان الآخرين، هذا صحيح، ولكن النتيجة واحدة.

- كويتن؟

- نعم؟

- ماذا تريد أن تفعل؟

- أريد أن أنظر جيّداً مرّة أخرى.

- لكننا نظرنا جيّداً.

- لكننا لم ننظر بعد، أفضل من غريسار، أو فلافيوس يوسيفوس.

تنهّد أونو باستسلام. لقد اصطدم بهذا الغرائيت في الحال مرّة أخرى. كان يستطيع الاحتفاظ بمواعظه الحكيمة لنفسه؛ بدا كما لو أنّ والد فرويد حاول إقناع ابنه بعدم وجود العقل الباطن - والسؤال الذي يطرح نفسه بشدّة: أهو موجود؟ في الوقت نفسه منحه هذا الأمر شعوراً بالرضا: كويتن لا يزال يتمتع بنوع من الثقة بالنفس غير الملطّخة، التي فقدتها هو نفسه منذ زمن بعيد - إذا كان قد امتلكها أصلاً، فهو غير متيقّن من هذا أيضاً. يجب ألا يحاول إطلاقاً إقناعه بشيء آخر، يجب عليه شرب هذه الكأس إلى آخر قطرة فيها. يضاف إلى ذلك أنه لو أقنعه بغير ذلك، لسمع منه بقية حياته أنّ اللوحين ربما كانا موجودين في ذلك المذبح اللعين. في هذه الأثناء كان الكهنة الراقدون في الأسرة الزاهدة قد صعدوا لفترة قصيرة إلى المرحلة الثانية من مراحل نومهم، ليغطسوا بعد ذلك في المرحلة الرابعة مرّة أخرى. في الساعة الثانية عشرة والربع، أخذ كويتن المصباح اليدوي وقال: «سيحدث الآن».

لقد بدأ كلاهما يشعر بأنه في بيته في المعبد الذي يدخل إليه ويخرج منه مرةً بعد مرة. جلس كويتن القرفصاء، أسند المصباح اليدوي على الدرجة الرخامية، أراح مرفقيه على ركبتيه، وضع يديه على خديّه، وأمعن النظر في صندوق الذخائر المقدّسة. يجب أن ينتهي في غضون عشر دقائق.

لم يتفاجأ بأن الحجيرات الأربع فارغة، لأنه كان يعرف هذا الأمر. في أيّ مكان آخر يمكن أن يُخبأ حجران مسطحان؟ لا يمكن في الواقع إلا وراء صندوق الكنز الأثري. الجهة الخلفية من المذبح مبنية لصق الجدار، ولا يمكن الوصول إليها من هذه الجهة. ولكن يجب أن يكون بالإمكان إخراج الصندوق منه، فقد استطاعوا وضعه فيه في إحدى المرات. في تلك اللحظة لفتت انتباهه حلقةٌ موجودة في منتصف الإطار السفلي، يبدو أنّ الغاية منها هي سحب الإنشاء كلّ إلى الأمام؛ ولكن هذا شيء مستحيل، لأنّ عمودَي المذبح الرخاميين يحاصران طرفي الصندوق. هذا يعني أنّ الصندوق لم يُدفع إلى داخل المذبح، ولكنّ المذبح بُني حول الصندوق. وهذا حدث نحو سنة 800، بينما لوحا الشريعة لم يُحضرا من البازيليكا إلى هنا إلا بعد أربعة قرون من ذلك. بعبارة أخرى، لا يمكنهما أن يكونا وراء الصندوق. إذا؟ إذا لا بدّ أنهما تحته.

الصندوق غير مرتكز على الأرض، هناك شقٌ صغير تحته. من الواضح أنه مستند على قوائم، لكنّ القوائم أيضاً يخفيها العمودان عن الأنظار. انبطح كويتن على بطنه، وضع خدّه على الدرجة، وسلّط ضوء المصباح اليدوي إلى تحت الصندوق. هل فعل غريسار هذا أيضاً؟ ما السبب الذي جعله يفعل ذلك؟ هناك كراكيب من شتّى الأصناف يصعب تمييز بعضها عن بعض، شظايا، أجزاء، وكسرات، لعلّها بقايا من أعمال البناء. الضريح من الجانبين لا يستند على قوائم بل على حجرين مسطحين.

بقي كويتن ينظر إليهما في جمود وهو يشعر بالدم يهرب من وجهه. أخرج مفتاحاً هيكلياً طويلاً من حقيبتة الظهر، ووضع رأس المفتاح حول الجزء الخلفي من الحجر الأيمن؛ حاول أن يرى هل يستطيع تحريكه من مكانه، مستعيناً بيده المسطّحة، التي استطاعت دخول الشقّ بشيء من الصعوبة. انزاح الحجر في صرير إلى الأمام على الغبار. لم يكن يدعم أيّ شيء!

همس بصوت لا نبرة فيه: «بابا.. لقد وجدتهما!».

61. الرحلة

عندما رأى أونو الحجر المستطيل، الرمادي شبه الأسود، يظهر من الشقّ، تذكّر برهة قصيرة كيف كان في أيام طفولته يقف أحياناً خلف شقّ الرسائل في الباب، عند اقتراب ساعة قدوم ساعي البريد: يفتح الغطاء المسدل على الشقّ بصورة مفاجئة، وتسقط الرسائل على الأرض من العدم.
بدأ يرتعد.

همس، في حين بدا وكأنه يصرخ: «أنت مجنون! هذا شيء مستحيل! دعني أر!».
قال كوينتن بحسم: «ليس الآن. أعطني الحقيقة!».
- دعني أر ما إذا كان هناك شيء مكتوباً عليه!
- بعد قليل. أسرع!

أعطاه أونو الحقيقة بيدين مرتعشتين، وفتح كوينتن أفقال الحقيقة. كان الحجر أخفّ مما يظنّ، لكنّه مع ذلك يكاد يكون بثقل بلاط رصيف؛ وضعه بحذر بين الجرائد التي وضعها مسبقاً في الحقيقة في البيت - كوريري ديلا سيرا، لا ستامبا، هيرالد تريبيون. عندما رأى أونو الحجر الثاني يظهر أيضاً، بدأ رأسه يفتل. أليس شيئاً عصياً على التصوّر أن يكون هذان الحجران فعلاً لوحَيّ شريعة موسى! أليس هذا أدعى شيء إلى عدم التصوّر! إنهما طبعاً بلاطان قديمان من بلاطات الأرض، وكوينتن يرى ما يريد أن يراه؛ إنه منشغل حصراً في تضخيم حُماره أكثر فأكثر!

أغلق كوينتن أفقال حقيقة السفر، لملم عدّته ووضعها في حقيبه الظهر. بينما يقف بالحقيقة في يده، أجال عينيه على الصندوق برهة قصيرة، ثم فتح الباب الصغير العلوي الأيمن، ووضع حقيبه في الحُجيرة.

قال وهو يغلق الباب الصغير: «للمكتشف الصادق، بعد ألف سنة».

بعد ذلك أغلق مصراعي الباب البرونزي أيضاً، أخذ المشبك الكبير من فوق الدرجات، علّقه في الحلقتين، وأقفله مُحدثاً طَقَّةً صاخبة. ثم أغلقت البوّابة ذات القضبان - انبعثت طَقَّتَانِ من قفلي المشبك فأُقفلت هذه البوّابة أيضاً. دفع بمساعدة أونو العارضة الحديدية عبر الحلقات وعلّق عليها قفل المشبك السحاب الكبير. عندما ضغط الأجزاء بعضها في داخل بعض بكلّ ما أوتي من قوّة، أصدرت الأجزاء طَقَّةً حادّة نفاذة، وكأنّ شخصاً ضرب مطرقة على سندان.

أخذ أونو يرهف السمع ليرى ما إذا كان أحدٌ قد سمعها، لكنّ كويتن أعطاه الحقيية ودفعه من ظهره: «فلنغادر في الحال، قبل أن يأتي أحد!».

ذهبا في عجلة عبر الممرّ الضيّق إلى معبد سان لورينزو، حيث أغلق كويتن باب المدخل وراءه، وعلّق عليه القفلين، الأمر الذي صاحبه أيضاً طَقَقَاتٌ صاخبة.

قال وهو يرهف السمع: «تمام، الآن لا يمكن أن يحدث لنا شيء».

أشار أونو بيده اليسرى إلى الحقيية في يده اليمنى: «إذا كانت فيها الوصايا العشر فعلاً، لا سمح الربّ، فيمكن أن يحدث لنا أكثر مما تستطيع تخيّل في أشرس أحلامك، يا صديقي العزيز. ستكون ناسفة أكثر من قنبلة ذرية».

- لن يحدث شيء إذا أغلقت فمك. لن يعلم أحدٌ على الإطلاق.

ماذا يعرف والده عن أشرس أحلامه؟ فقط بفضل حلمه بالحصن، استطاع أخذ اللوحين من مركز العالم - هكذا أزال الإبرة من «سامنيوم كوينتي»، إذا جاز التعبير. تلك الإبرة موجودة الآن في هذه الحقيية.

عندما بقي كلّ شيء هادئاً في الدير، جلسا على مقعد قبالة المذبح. يجب عليهما انتظار الصباح التالي. سيكون عندئذٍ يوم الأحد، وسيزدحم المكان. الخطة هي أن يغادرا ببساطة بعد ربع ساعة أو نصف ساعة من فتح السانكتا سانكتورم: لن يتبّه أيّ كاهن أنهما يغادران من دون أن يكونا قد جاءا - لأنهما يغادران، فمن الواضح أنهما قد جاءا أيضاً. وأما أن يبقى أونو في شكٍّ من محتوى الحقيية طوال الليل، فهذه فكرة لم يستطع تحمّلها. قال هامساً: «يجب أن أراهما الآن يا كويتن، وإلا سأجنّ!».

- فلتُجنّ إذاً! تصوّر لو يأتي أحدٌ ويرانا نتفحص هذين اللوحين بمصباح يدوي. ألم

نتفق أننا هنا بدافع الورع؟ إذا جاء أحدٌ، جلسنا على رُكْبنا وتظاهرنا بالصلاة. ثم إننا يجب أن نتخلص من هذا المصباح أيضاً. أين نتركه؟ لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟

سأل أونو بشيء من التهكم في صوته: «وهل هناك شيء فعلاً لم تفكر فيه؟». لكنه أخذ على الفور ينظر حوله في الظلام بارتياح: «أنا أيضاً يلازمي شعور بأنني أفقد شيئاً».

- ماذا؟

قال أونو: «لا أعرف...»، وشعر بنفسه يتجمّد بصورة مفاجئة: «عصاي! كويتن! لقد تركت عصاي في المعبد، في تلك السرعة، عندما وضعنا تلك العارضة الحديدية!». نهض كويتن واقفاً، أمسك المصباح اليدوي، وركض دون ضجة إلى النافذة ذات القضبان في أعلى الدرج المقدّس. وجّه الضوء إلى الداخل. كانت عصا والده على كرسي الصلاة البابوي قبالة المذبح، وكأنها في وضعية صلاة: رأسها على مقعد الركوع، مقبضها على الوسادة الحريرية المحلّاة بالشراريب. أحنى رأسه. هذا شيء لا يمكن إصلاحه. لقد قدّم المصباح اليدوي خدماته أيضاً، فخبّأه في طريق العودة وراء كرسي اعتراف مسنداً إياه إلى الحائط.

قال عندما عاد إلى الجلوس بجانب أونو: «نعم. هذا هو الوضع. هذا يغيّر خطتنا بأسرها».

- كويتن...

- دعك من هذا، الذنب ذنبي، أنا استعجلتك، لا جدوى من الكلام عنها. يجب على كلّ حال أن نغادر من هنا، قبل أن يكتشفها أحد.

شعر أونو بقطرة عرق تسيل من تحت إبطه على جنبه: «وكيف تريد الخروج؟ نحن قابعان هنا مثل جردزين في مصيدة».

فكر كويتن برهة قصيرة، ثم قال: «لا توجد سوى طريقة واحدة. متى تبدأ الصلاة القادمة؟ ماذا كان اسمها؟».

- صلاة باكر. بحدود الساعة الرابعة على العموم.

- سنذهب ببساطة إلى المعبد الآخر ونقول لهم إنّ النوم قد غلبنا، ونسألهم ما إذا كانوا يأذنون لنا بالخروج.

- وإذا سألوا ماذا يوجد في هذه الحقيقة؟

- لماذا سيسألون؟ لا يوجد هنا شيء يُسرق، أليس كذلك؟ ثم ماذا يعني؟ حجران قدران.

فقال أونو هامساً: «دعنا نصلي أن يكونا مجرّد حجرين قدرين فعلاً. لكننا لم ننتهِ بعد. في صباح الغد، سيكتشف كاهنٌ عصاي في السانكتا سانكتورم - وعندئذٍ؟ ماذا سيحدث عندئذٍ؟ سترى الشرطة من الزيت على المفصّلات أننا دخلنا المذبح أيضاً. سيفتحونه ويرون حقيبتك. باستثناءها سيكون المذبح خالياً - ولكن من يتذكّر أنه كان خالياً منذ ثمانين سنة. لعلّ الكهنة يتذكّرون، ولكن ليس من مصلحتهم إعلان ذلك على الملأ، حرصاً على سمعة معبدهم. سيعطون أوصافنا، وسوف يُرسم وجهانا بصورة تقديرية ويُعرضان على تلفزيون الفاتيكان، مع لقطة مقرّبة من عصاي. أبّ وابن: متتهكا المقدّسات. عشرة ملايين ليرة إيطالية مكافأة. ماذا سيفعل ماورو عندئذٍ؟ سينيور إنريكو من تيرول! ونوردهولت؟ سيفهم لماذا استعرت ذلك الكتاب، وهو لديه عنواني في سجلّ المعهد. ما يزال لديه حساب يصفّيه معي، لكن للبقاء على ضفة الأمان سيتصل في أغلب الظنّ بالسفارة الهولندية أولاً لطلب النصيحة. بعد التشاور مع السلطات في لاهاي سوف ينصحونه بأخذ موقف الحياد في الوقت الحاضر».

- وسيعرفني ذلك الحدّاد الذي طلبت منه صنع تلك الأشياء لي. لقد نظر إليّ بشيء من الاستغراب عندما طلبت منه صنعها.

أدار أونو رأسه إليه: «لا أستطيع رؤية وجهك بوضوح، لكن يبدو أنك تضحك».

- هذا صحيح.

- ما الذي يجعلك تضحك بحق السماء؟!

- لا أعلم.. ربما الرحلة المتوقّعة.

- رحلة؟ أيّ رحلة؟

- رحلتنا طبعاً. ماذا تظنّ عن الغضب الشعبي الديني؟ كيف لنا أن نظهر في الشارع، هنا في عرين الأسد؟ قبل أن تُفتح السانكتا سانكتورم في صباح الغد، يجب أن نكون قد غادرنا البلاد - لا يهمّ إلى أين.

*

لأنّ القديس بنديكتوس النيرسي فهم أنّ تلك الأحلام كلّها، في فترة النوم المتناقض، يمكنها إيقاع الرهبان بسهولة في أحابيل الإغراء الجسدي، ولهذا السبب يجب أن تقاطعها أشواك الصلاة وإبرها بشكل جذري، على الأقلّ مرّة واحدة في الليل، بدأ الدير ينبض بالحياة في نحو الساعة الرابعة. تمتّات؛ أشعل الضوء في معبد سان سيلفيسترو، فخلخل انعكاسه

الظلام في جوارهما أيضاً. بينما يتنفسان الصعداء بأنّ الوقت قد حان أخيراً، اعتدلا في جلوسهما. طوال تلك الساعات كانا يتحدثان على فترات زمنية متباعدة، عمّا سيفعلانه بعد قليل، وإلى أيّ مكان يجب عليهما الفرار - ولكن حسب رأي كويتن سيتبين هذا من تلقاء نفسه، وقال أونو أيضاً في نهاية الأمر إنه من الأفضل التوقّف عن هذا الحديث، لأنّه يشبه لعبة الشطرنج: غالباً ما تطيل التفكير في الخطوة الصحيحة، ولكن عندما تعرفها أخيراً وتقوم بها، تعرف أنّها الخطوة الخاطئة. هذا هو الفرق الأساسي بين الفكر والفعل. عندئذٍ أمسك كويتن عن الكلام. كانت خبرته مختلفة. كان عندما يفكر في شيء ثم يفعله، لا يخطئ إطلاقاً بل يصيب دائماً؛ وجود الوصايا العشر، الآن في حقبة السفر، برهان على ذلك. وعمّا قليل ستسير الأمور كلّها على ما يرام. لم يعودا إلى الحديث عن اللوحين، وعمّا يجب أن يفعل بهما.

عندما توقفت الموسيقى في المدينة بصورة تدريجية، في آخر النوادي الليلية أيضاً، امتلأ المبنى بالتناغم الغريغوري القديم مرّة أخرى. بينما يستمع كويتن إليه، باغته الإدراك بأنّ الأعمال الفنّية القديمة هي أشياء قديمة على الدوام: حجر الآجر القديم، الرخام القديم، الطلاء القديم - أما الموسيقى القديمة فتشكّل في الوقت نفسه شيئاً جديداً كلّ الجدّة على الدوام، لأنها تنبعث من الحناجر النابضة بالحياة. ما عداها فإنّ القصص القديمة وحدها يمكنها أن تكون جديدة. طبعاً لأنّ الموسيقى والقصص ليست موجودة في المكان، بل في الزمان فحسب.

قال بصوتٍ غير هامس لأول مرّة: «لقد استيقظنا الآن». وتمطّى متأوّهاً: «إننا ننظر حولنا ونرى في اندهاش أين نحن. في السانكتا سانكتورم! أوه! كيف حدث هذا؟ يبدو أنّ النوم غلبنا. تعال، يجب علينا الذهاب!».

تنهّد أونو: «لا بدّ أنّ النوم غلبنا».

- أنت ستكلم. وأعطني الحقيقة، وإلا ستساها هي أيضاً!

بينما يسيران في المعبد الخلفي، الذي كان أكثر إضاءةً وصوت الترانيم أكثر ارتفاعاً، راود أونو شعور ممثّل مسرحي هاوٍ يجب عليه الصعود إلى «مسرح شكسبير الملكي» ليؤدّي دور الملك لير. انعطفا في الزاوية وتوقفا عن السير.

في مقاعد الكورال التفتت إليهما دزّينة من الوجوه الهرمة فوق الأردية السوداء، وقد ماتت النعمة الليلية عن قيامة المسيح فوق الشفاه. لم يُبد أحدٌ منهم علامة على الرعب، كانت هناك

دهشة بسيطة فحسب؛ عندما رأوا كويتن، ظهرت ابتسامة هنا وهناك. أدرك كويتن أنه يجب عليه إلقاء هذا السلاح في المعركة. أخذ يفرك عينيه بيده الفارغة وأراد التظاهر بالتأثر، لكنه تئب فعلاً على الفور: امتلاً الصمت بالتأثر الطويل المؤثر لصبي متألق.

قال أونو بالإيطالية: «سامحونا، أيها الآباء، على إزعاجكم في صلاتكم الليلية. لقد غلبنا النوم أنا وابني، هنا، يوم أمس. لقد تجولنا في مدينتكم الرائعة طوال النهار، وجلسنا مستترفي القوى لأخذ قسط من الراحة في كرسي الاعتراف. وقبل قليل فقط...».

تقدّم عجوز، يده مضمومتان إحداهما في الأخرى، مثلما يفعل الناس الآخرون فقط عندما يجلسون في كرسي ذي ذراعين، ظهره منحني، رأسه مائل على جذعه، عرّف بنفسه بصوت ضعيف بأنه بادري أغوستينو، رئيس الكهنة. أبعد يديه إحداهما عن الأخرى برهة قصيرة ثم ضمّهما من جديد وقال: «الضيف هو يسوع المسيح. لعلك تريد أكل شيء؟ فنجانا من القهوة؟».

نظر إليه أونو بارتباك. هذا القدر الهائل من البساطة الورعة وطيبة القلب أفقده كلّ حيلة. لقد سلب الآباء أملاً من حجرين عديمي القيمة فقط، ولن يعرفوا قطّ أنهم يفقدون شيئاً؛ لكنهم بعد بضع ساعات سيكتشفون أنهم تعرّضوا للكذب من قبل لصّين، دُسا معبدهم المقدّس. لم يكن يرغب في شيء أكثر مما يرغب في فنجان من القهوة، لكنه شعر بأنه إذا قبل العرض، سيرتكب حينئذٍ فحسب خطيئة مميتة فعلاً؛ يضاف إلى ذلك أنه يجب عليهما إطلاق سيقانهم للريح بأقصى سرعة ممكنة. أجاب إنهما لا يريدان إزعاجهم أكثر من ذلك، فأوماً رئيس الكهنة بإيماء استسلام، ترك يده اليسرى تحوم فوق رأس كويتن برهة قصيرة، وباركه بيده اليمنى. بعد ذلك مدّ أونو يده ليصافحه مصافحة الوداع، لكن في ردّ على هذه الإشارة تقهقر رئيس الكهنة إلى الوراء بفزع، ناظراً إلى اليد وكأنه تحت تهديد سكين. ما لبث أن شيعهما كاهنٌ آخر إلى باب الدير، بينما تتبعهما الرؤوس كلّها بابتسامات وإحناءات قصيرة.

في ممرّ الدير المطليّ بالجصّ الأبيض، المعلقة فيه صورة البابا، قال الكاهن بإيماء اعتذار: «لا تؤاخذ رئيس الكهنة! لا يجوز لك لمسه. يظنّ بادري أغوستينو منذ شهور أنه من الزبدة».

ما إن مضت برهة قصيرة حتى غادرا مكان الحجّ من مدخل مزوّدي البضائع.

سارا إلى الساحة وهما يستشقان هواء الليل بعمق. بالقرب من المسلة التفت كويتن إلى الوراء ونظر إلى المبنى برهة قصيرة، كأنما ليودّعه.
قال: «الآن لم يعد أقدس مكان في العالم».

إيحائه، بأنه صار هو نفسه أقدس مكان في العالم، صق أونو إلى درجة أنه لم يعرف ماذا يقول. رفع يده وأوقف سيارة أجرة؛ بهذا انضمّ السائق إلى الجماعة التي ستعرّف عليهما عمّا قليل، ولكن عندما يحين ذلك الوقت، سيكونان قد وصلا إلى برّ الأمان في الخارج. أعطاه أونو عنوانه، وضع كويتن الحقيبة في حضنه، وانطلقت بهما السيارة وهما يستمتعان بحرّيتهما بصمت، صوب المدرّج الروماني، وعبر طريق ثيا دي فوري إمبريالي العريض إلى ساحة فينيسيا. عندما أخذوا الانعطاف، صاح أونو فجأة: «من الزبدة! كيف يمكن أن يخطر هذا في بالك بحق السماء!».

- أتراه جنونا؟

- ألا تراه جنونا إذا؟

- لا أبداً. على العكس، شيء منطقي.

فقال أونو بحاجبين مرفوعين: «طبعاً، يبدو لي أنه شيء من الأشياء التي يمكنك فهمها. اشرح لي إذاً لماذا ليس خرفاً بل شيء منطقي».
- لأنّ المسيح قال إنه من الخبز.

لم يجب أونو. نظر إلى الخارج، إلى أرصفة شارع كورسو فيتوريو إيمانويل المهجورة. كيف يعمل دماغ هذا الصبي؟ هل هو إنسان فعلاً؟ رئيس الكهنة، الذي دهن نفسه على المسيح ليصبح شطيرة - في أيّ بال يمكن أن تخطر هذه الخاطرة؟ في أيّ عالم يعيش هذا الصبي؟ هل ما قاله صحيح يا ترى؟ هل يأخذ اللاهوت بُعداً نفسياً عند شخص مثل بادري العجوز، يعجز علم النفس عن معرفته؟

كانت النوافذ كلّها مظلمة في فناء ديل بيليغرينو. صعدا السلم بهدوء، وعندما وصلا إلى غرفته في الطابق العلوي، قال أونو: «والآن أريد رؤيتهما على الفور».

نظر كويتن في ساعته الميكانيكي ماوس: «ليس لدينا وقتٌ لفعل ذلك، يجب أن تجهّز أغراضك. ماذا ستأخذ معك؟».

- لا شيء، فقط جوازي السفر وبعض الملابس.

- وكل تلك الملاحظات الموضوعه هناك؟

- لقد أدت خدماتها. سأترك رسالة قصيرة لصاحب البيت أخبره فيها بأنني سافرت لبضعة أسابيع. لقد دفعت إيجار شهرين مسبقاً؛ إن لم أكن قد رجعت بحلول ذلك الوقت، سيتكفل هو بلملمة الأغراض.

- ليتك تستعجل، يجب أن نخرج من إيطاليا في غضون بضعة ساعات.

- خمس دقائق!

- إذاً، ساعدُ القهوة بسرعة.

فقال أونو: «ليس هناك شيء في العالم أحتاجه أكثر منها! وجهّز نفسك لأكبر خيبة أمل في حياتك يا كويتن!».

أخذ الحقيبة ووضعها على الطاولة تحت النافذة: «هل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر حماقة؟ بسبب غبائي، يجب أن نهرب من البلاد - ولماذا؟ من أجل لا شيء!». حاول فتح الأقفال دون جدوى: «كيف تعمل هذه الأشياء الحقيرة؟».

خرج كويتن من المطبخ المؤقت، بورق تصفية القهوة في يده، فتح الأقفال، وعاد من فوره إلى المطبخ. احتار أونو في أمره. لقد فعل هذا الصبي كل ما بوسعه ليملك هذين الشيئين - والآن وقد امتلكهما، فهو من ناحية مقتنع بأنهما لوحا الشريعة، ومن ناحية أخرى يبدو أنه لا يكثرث بهما. فتح الغطاء، سحب مصباح المكتب إلى الأسفل، وضع نظارته الخاصة بالقراءة وفتح الجرائد.

رأى من النظرة الأولى أنّ الأمر ليس بهذه البساطة. السطح يتكوّن من الجوانب كلّها من طبقة متراكمة رمادية، تبدو وكأنها مكوّنة من الزمن المتخثر نفسه. هل هناك شيء تحتها؟ حكّ الطبقة بإظفر إبهامه، فأطلقت شيئاً من مادة حَبِيْبِيَّة. يجب أن يُفحص هذان اللوحان الحجريان في مخبر خاص بالأثار، لكنّه فهم من كويتن أنهما لن ينتهي بهما المطاف فيه على الإطلاق. مقاساتهما تقارب تلك المقاسات التي ذكرها الحاخام برخيا دون أن يراهما إطلاقاً. اتكأ إلى الوراء بشفتين مضغوطتين إحداهما على الأخرى. هل يمكن حقاً أن يكون هذان الشيئان هما النسختين الأصليتين من الصورتين اللتين تُشاهدان فوق تابوت العهد في كلّ كنيس يهودي؟ لوحا الشريعة: رمز الديانة اليهودية، مثلما المينوراه هي رمز الدولة اليهودية ونجمة داود - «درع داود» - رمز الصهيونية؟ هل يمكن حقاً أنّ هذين الشيئين الموضوعين هنا على الطاولة

كانا موضوعين في تابوت العهد، وكانا يُحملان في تيه الصحراء على مدى سنوات، وبقيا محفوظين في قدس الأقداس في الهياكل الثلاثة على مدى قرون، وبعد ذلك قام تيتوس... هل يمكن أن يكون كويتن على صواب؟ هل يختبئ خط يد موسى تحت هذه القشرة؟ تلك الرموز، التي نُقشت في الحجر نتيجة وحي أو آخر قبل أربعة آلاف سنة؟ بدأ قلبه يخفق بشدة. أقدم الكتابات المنقوشة المعروفة باللغة الكنعانية تنحدر من نحو ألف سنة قبل الميلاد؛ هذا يعني أن كتابة موسى أقدم منها بما يزيد عن ألف سنة. لا شك في أنها قريبة من الهيروغليفية المصرية - أيمت قرص فستوس بصلية إليها يا تُرى؟ تلك الكتابة تنحدر من العصر نفسه! تذكر فجأة العلامة التي كانت تشبه محفة بعض الشيء - أهى تابوت العهد يا تُرى؟ مهما كان الاحتمال صغيراً أن يكون كويتن على صواب، يجب البرهنة برهاناً لا جدال فيه أنه ليس على صواب! ولكن كيف؟ ماذا ينوي أن يفعل؟

عندما سمع خشخشة في عنقه، التفت مذعوراً إلى الورا. لقد رفع كويتن شعره المربوط في ذيل حصان وهو يبتسم، وفي يده الأخرى مقصّ. لقد قرّرا إجراء هذا التحوّل، حتى لا يتمكن أحد من التعرف عليهما في المطار عند إعلان أوصافهما - فيبلغ بعد ذلك عن المكان الذي غادرا إليه. سحب كويتن الربطة عن الضفيرة، فبقيت بضع شعرات شائبة متشابكة عالقة فيها، لمّ شعره هو نفسه من الخلف وربطه بها. رأى أونو الصبيّ يتحوّل إلى رجل في تلك اللحظة نفسها، مثلما يحدث أحياناً أثناء تغيير مشهد في فيلم، حيث يأخذ ممثل شاب بصورة مفاجئة دور ممثل أصغر في السن. لم يستطع تذكر بأنه رأى أذني كويتن من قبل.

قال كويتن: «اشرب قهوتك، لكن لا تحرّك رأسك!».

كان يمسك المشط مقلوباً رأساً على عقب في يده اليسرى، مثل حلاق حقيقي، وقد أدخل إبهام يده اليمنى في إحدى حلقتي مقبض المقص، والبصر وليست الإصبع الوسطى في الحلقة الأخرى، ويقصّ بين حين وآخر قصّات صغيرة في الهواء. كلّما قصّ خصلة من شعره، ازداد والده شهاً بالقديم الذي يحتفظ به في ذاكرته: في غضون خمس دقائق أفسح المتشرّد المكان إلى حدّ كبير لصاحب السلطة، الذي كان يأتي إلى خروت ريخترن ويأخذه معه في السيارة بين حين وآخر. أثناء القصّ يلقي أحياناً نظرة من فوق كتفه إلى لوي الشريعة، مثلما يلقي الحلاق نظرة على المجلّة المصوّرة التي يضعها الزبون في حضنه.

قال وهو ينفض الشعر عن ملابسه: «يجب عليك حلاقة ذقنك بنفسك».

عندما ذهب أونو إلى المغسلة ليحلق ذقنه، انحنى كويتن على زاوية من زوايا أحد الحجرين، لقد لفتت انتباهه فيها رقعةً لامعة صغيرة. لعق رأس إصبعة الوسطى، وفرك به على الرقعة، فظهر وهجٌ أزرق عميق. استقام بجذعه. الحجران من الياقوت. إنهما حجران كريمان. لأنّ ثمن الغرام الواحد خمسة آلاف فلورين، فهو لديه هنا ما يساوي مئات الملايين، وربما مليار فلورين. بدا له من الأفضل ألا يخبر والده. فكّر برهةً قصيرة ثم أخرج من حقيبته الظهر الزرقاء، المصنوعة من النايلون، الظرف السمني المكتوب عليه «سامنيوم كويتني»، الذي لم يفتحه طوال تلك الأسابيع، إذ لم يعد يرى الحصن في منامه ولم يكن هناك ما يُضاف إلى الخرائط. وضعه عند الحجرين وأغلق الحقيبة.

*

عندما خرجا من المدينة في سيارة أجرة، عبر بوابة سان باولو وهرم سيستوس، في نحو الساعة السادسة، كان الضوء قد بدأ بالطلوع. ارتدى أونو بدلته الرمادية التي جاء بها من هولندا قبل أربع سنوات؛ راقه الهواء المنعش الذي يشعر به على خديّه وفي عنقه. كيف يمكن لإنسان ترك شعره ينمو بذلك الإفراط! حضرته مناقشة أجراها، في زمن بعيد أثناء ذلك المؤتمر في هافانا، مع رجل كان قد أمضى عشر سنوات في معسكر عمل ستاليني. كان موضوعها عن اللحي، بسبب فيدل كاسترو وأصدقائه، فقال هو نفسه إنه لن يرسل لحيته إلا إذا انتهى به المطاف في السجن ذات يوم. عندئذ تفرّس فيه الآخر بصمت برهة من الزمن ثم قال: «عندما ينتهي بك المطاف في السجن، ستحلق ذقنك أربع مرّات في اليوم».

أخذت السماء تصطبغ بالأحمر، وكأنّ غطاء فرن بدأ يُفتح في هودة وراء الأفق. كان يوم أحد، وحركة المرور قليلة.

سأل أونو: «وإذا كانت أول طائرة مغادرة ستذهب إلى زيمبابوي؟».

- سنذهب إذاً إلى زيمبابوي. لدينا وفرة في المال.

- إنها ليست مسألة مال، أنا سأدفع على كلّ حال. ولكن لدينا من الوقت ما يكفي لاختيار شيء آخر، أليس كذلك؟ أفضل الذهاب إلى سان فرانسيسكو على الذهاب إلى زيمبابوي. لماذا يجب أن نترك الأمر للمصادفة؟

قال كويتن بنفاد صبر: «لا أعرف. هذا رأيي».

- وعندما نصل إلى زيمبابوي - ماذا سيحدث؟

رفع كويتن كتفيه ونظر إلى الخارج. في البُعد كانت قبة بازيليكَا القديس بطرس تكاد تختفي عن الأنظار. ثمة مبانٍ كبيرة من عصر ما بعد الحداثة تقوم هنا وهناك في البلاد، مثل التي رآها في فهرس السيّد ثيمات. الحقّ أنه لا يعرف. كلّ ما يعرفه هو أنه يجب ألاّ يتدخّل في شيء من الآن فصاعداً. يجب ترك كلّ شيء يسير حسب الظروف من الآن فصاعداً، مثل متزلّج يتكيّف مع المساحة التي يتزلج فيها، يتفادى الأشجار والأودية ولا يحاول التزلج في صعود.

عندما نزلا من سيارة الأجرة في مطار ليوناردو دافنشي، أشرقت الشمس على الأرض وغمرت الطائرات على مدارج الإقلاع بذهبٍ باهر، ما لبث أن تحوّل إلى فضة. كان المطار مزدحماً. في صالة المغادرة الصاخبة، قال أونو وهو يسحب وراءه حقيبته المزوّدة بالعجلات: «انظر.. كلّهم لصوص، يهربون بمسروقاتهم».

كان كويتن يحمل الحقيبة المحتوية على اللوحين الحجريين، وقد وضع حقيبته الظهر على ظهره. توقفاً أمام اللوحة الكبيرة التي تُعرّض عليها أوقات المغادرة، ورفعَا عيونهما إلى الوجهات في الساعات القليلة القادمة: بوينس آيرس، فرانكفورت، سانتو دومينغو، لندن، القاهرة، فيينا، نيقوسيا، نيويورك، سنغافورة، سيدني، أمستردام...
سأل أونو: «وإذا صارت أمستردام؟».

- ستكون أمستردام إذا!

كانت فتاةٌ تجلس خلف مكتب الاستقبال، حيث تُباع بطاقات اللحظة الأخيرة، كُتب اسمها على الشارة المعلّقة على صدرها؛ أنجيولينا. يبدو أنها من أقصى الجنوب، شعرها أشدّ سواداً من السواد، وظلٌّ داكن مرتسم فوق شفتها العلوية. قال أونو إنهما أخذا قراراً، في نزوة، بالذهاب في رحلة استجمام لبضعة أسابيع ويرغبان في الحجز.

قالت وهي ترتّب وشاحها الحريري، الذي رأى كويتن أنه ملفوف بالمقلوب حول عنقها: «طبعاً».

أمسكت قلمها الحبر الناشف: «ما الوجهة؟».

- لك أن تختارها. نريد الرحيل على أول طائرة مغادرة، لا يزال فيها مقعدان شاغران.

قالت بوجه ينمّ عن أنه لم يعد شيء يفاجئها: «هكذا أريد أن أعيش أيضاً».

ألقت نظرة على الساعة ثم نظرت إلى الشاشة أمامها: «فيينا لم تعد ممكنة. ستكون

إما القاهرة أو سانتو دومينغو. لعلكما تستطيعان اللحاق في آخر لحظة بالطائرة المستأجرة الإنكليزية، التي ستُقلع في الثامنة وعشر دقائق إلى نيقوسيا».

فقال أونو سريعاً، قبل أن تصبح الوجهة سانتو دومينغو: «لتكن بطاقتي ذهاب إلى نيقوسيا».

ردّد كويتن: «نيقوسيا؟ أين تقع؟».

- في قبرص. جزيرة جميلة. فيها أشياء كثيرة تستحقّ الرؤية.

- جوازكما السفر، لو سمحتما!

عندما بدأت بترتيب البطاقتين سألت: «هل ترغبان في تأمين سفر؟».

فنظر أونو إلى جانبه بابتسامة: «هل نحن في حاجة إلى تأمين سفر يا كويتن؟».

- طبعاً لا.

- نحن متكلمان على نجمنا المحفوظ يا أنجيولينا.

أحنت رأسها: «سيكون هناك توقف قصير في الثانية عشرة وعشرين دقيقة بالتوقيت المحلي في تل أبيب».

نظر أونو مرة أخرى إلى كويتن، الذي بادله النظر بصمت. التفت إلى أنجيولينا وقال: «اجعلي منهما بطاقتين إلى تل أبيب!».

62. إلى هناك

قال كويتن بعد استلام بطاقة الصعود إلى الطائرة: «سنعيدهما إلى هناك إذا!». لم يُجب أونو. راوده شعور بأنه لم ينتهِ كل شيء بعد. كان مكتب مراجعة التذاكر والأمتعة في ركن من أركان القاعة، وُضع أمامه حواجز، وقوات الدرك الإيطالية بالمسدّسات الرشاشة والسترات المضادة للرصاص تتجول، كل اثنين معاً، على الأرضية الرخامية؛ يستند رجال آخرون أيضاً، باللباس المدني، إلى الأعمدة هنا وهناك. تقف سيارة شرطة مصفحة على الرصيف في الخارج، أمام النافذة العالية. المطار مزدحم، ولا سيما بكبار السن الذاهبين في رحلة استجمام إلى قبرص، يبدو أنهم ذاهبون بعضهم مع بعض، مثلما يتبيّن من ملابسهم الملونة الخاصة بأوقات الفراغ؛ يمكن تمييز المسافرين إلى تل أبيب بشيء من الشرود على وجوههم. بعد اجتياز الحواجز، يُستجوب الجميع، كلٌّ على حدة، على صفّ من طاولات حديدية.

قال أونو: «دعنا نجلس هنا إلى أن يأتي دورنا. لقد أخذ التعب مني كلّ مأخذ، وأشعر بالدوار من دون عصاي».

نظر إليه كويتن بقلق. أدرك الآن فقط أنه لم يأخذ حالة والده الصحية بعين الاعتبار لحظة واحدة: «لعلّه يجب عليك أخذ قسط من الراحة بضعة أيام بعد وصولنا».

- فكرة جيّدة يا كويتن. إسرائيل تبدو لي الدولة المناسبة لأخذ قسط من الراحة. هل فكّرت في ما سنقوله، إذا طلبوا منا فتح هذه الحقيبة؟

- لا.

- كلّ شيء سيسير على ما يرام من تلقاء نفسه، أليس كذلك؟!

- نعم.

- إذاً، لو سألونا ما نوع هذين الحجرين، أجبنا: «لوحا موسى».

- نعم، ولم لا؟ لن يصدق أحدٌ ولن نكون قد كذبنا.

قال أونو: «ولكن عندما يضحكون بما فيه الكفاية، سيسألوننا مرةً أخرى». ونظر إليه متنهداً:

«يبدو أننا أمام خيارين، إما السجن أو مستشفى المجانين».

فكرة أن يكون هناك أبسط احتمال أن هذين الحجرين هما فعلاً ما يفترضه كويتن، بدت

له مرةً أخرى في منتهى الحماسة.

سأل كويتن: «هل لديك فكرة أفضل؟».

- لدي فكرة أفضل على الدوام. هل تعرف ماذا سنقول؟ سنقول إنه فنّ. إبداعات فنية

لفنان معاصر. لن يجرؤ أحدٌ على الارتياح فيه، فالفنون المراثية نجحت في تحصين نفسها

مثل - دعنا نقل.. مثل سيخفريد^(*). حتى الشرطة لم تعد تستطيع فعل شيء حيال هذا الأمر.

نظر كويتن إلى دورية الشرطة: «انظر: الوضع هادئ عند مكاتب الاستقبال كلها، أما هنا

فيبدو وكأنهم في حرب. ما قصّة اليهود؟».

أحنى أونو رأسه: «بعد كلّ هذه الآلاف من السنوات، بدأ وجودهم يبدى علامات وجود

الربّ بوضوح متزايد».

استدعت هذه الملاحظة إلى ذهن كويتن ما ادّعته السيّد كورفينوس في إحدى المرّات.

أخبر والده بأنه، في اليوم التالي من وفاة ماكس، سمع نيدر كورن يقول للسيّد كورفينوس في

البهو إنه من ناحيته لا يمانع أن يُرجم كلّ اليهود بحجارة من الكون بهذه الطريقة - فأجاب

إنهم لا يزالون يُعاقبون لأنهم صلبوا المسيح.

قال أونو بوجه متجهّم: «لقد أحسنت عندما غادرت تلك القلعة».

ولأنه لم يكن موقناً من عدم ضرب هذه العبارة التافهة المعادية للسامية جذورها في

نفس كويتن، قرّر استئصالها في الحال: «اليهود لم يصلبوا المسيح على الإطلاق يا كويتن،

الرومان هم الذين صلبوا المسيح. كان الإعدام على الصليب عقوبة رومانية تُطبّق على

المجرمين الخطيرين. انظر هناك، إلى ذلك السيّد اليهودي الأرثوذكسي، مرسل اللحية ذي

(*) سيخفريد: بطل أسطوري في الأساطير الجرمانية. اشتهر بقتل التّين، ثم الاغتسال بدمه الذي حصّن

جسمه كلّّه، ما عدا بقعة صغيرة على ظهره. في نهاية الأمر قُتل بطعنة في تلك البقعة الصغيرة. [م]

القُبعة الصغيرة السوداء على مؤخرة رأسه - إذا قلتَ لي: «اقتله»، فقتلته، فهل ستكون أنت قاتله وليس أنا؟ أنا لست مجبراً على فعل ما تقوله، أليس كذلك؟ عندما أكون تحت سيطرتك بشكل كامل، يختلف الأمر بعض الشيء؛ لكنني لست تحت سيطرتك. يمكنك قول ما يحلو لك. أخذ اليهود يهتفون: «اصلبه»، ولكنّ بيلاطس هو الذي صلبه. كان بوسعه أخذ موقفٍ حاسم، في أعلى الدرج المقدّس ذاك والقول: «اغربوا عن وجهي، لن أفكر لحظة واحدة في صلبه، لأنه بريء!»، أليس كذلك؟ ألم يكن هو صاحب الأمر والنهي؟ ولكن حسناً، فقد كان مسؤولاً عن استتباب الأمن في المنطقة المحتلّة، ولم يكن يريد الدخول في مشكلات مع الإمبراطور هنا في روما، هذا كلّ مفهوم، هكذا تسير الأمور في السياسة - ولكن لماذا كان يجب في زمن لاحق أن يُضطهد أخلاف أولئك الهاتفين ويُبادوا عن بكرة أبيهم وليس أخلاف القتلة الحقيقيين، أي الإيطاليين؟ لقد صُلب بطرس وبولس هما أيضاً على يد الرومان، ومن دون أن يطلب منهم اليهود ذلك. ولكن ليس فقط لم يُزج بالشعب الإيطالي في غرف الغاز، بل وكان وكلاء المسيح على الأرض، حتى الماضي القريب، بشكل شبه حصري، من الإيطاليين أخلاف الرومان. والباباوات لا يزالون يتخذون من روما مقراً لهم، مثل الأباطرة الرومان. هذا كلّ غريب، أليس كذلك؟ فلنقل إنّ التدابير الإلهية تدابير ساخرة. في الماضي كنت أظن أنا أيضاً أنّ الكراهية حيال اليهود تمتّ بصلة وثيقة إلى المسيح، ولكنّ الأمر ليس على هذا النحو؛ كانت موجودة قبل المسيح بزمن طويل، لكنهم يواظبون على اختلاق أسباب جديدة لهذه الكراهية: إنهم أغنياء ومتفاخرون، إنهم فقراء وقذرون، إنهم يحركون خيوط الرأسمالية البلوتوقراطية العالمية، إنهم ثوريون ومسؤولون عن نشوء الشيوعية، إنهم لا يملكون وطناً، إنهم يعيدون بناء وطنهم - كل شيء يفي بالغرض، ما دام سيّئاً. وأمّا أن يناقض بعضه بعضاً، فليس بالأمر المهمّ، لأنّ الكراهية هي الشيء الأساسي. وحقيقة أنّ هذه الكراهية كانت موجودة على الدوام يستخدمها معادو السامية دليلاً على أنّ هذه الكراهية لا بدّ أنها تركز على شيء.

في الطريق إلى مدرج الإقلاع، أدارت طائرة دارجة مؤخرتها إليهما، وأخذت تلفظ ضجّة تصمّ الأذان على مدى بضع ثوان. انتظر كويتن برهة قصيرة ثم سأل: «وعلى أيّ شيء تركز؟». وضع أونو يده على الحقيبة، التي يحملها كويتن في حضنه: «على هذه. على الأقل إذا كان فيها ما تظنّه. على حقيقة أنّ إله اليهود قدّس شعبه من خلال إبرام ميثاق معهم، لا يمكن لأيّ شعب آخر التفاخر به. يبدو أنّ كثيراً من الناس لا يستطيعون تحمّل هذا الأمر. على ذكر

الحديث عنها، أعطني إياها. أنا سأتكلم إذا لزم الأمر». ونهض عن مجلسه: «تذكر، أنت لا تعرف أي شيء عنها. أنت ترافقني فقط».

استجوب موظف أمن كلاً منهما على حدة، على طاولتين، تبعد إحداهما بضعة أمتار عن الأخرى، كويتن بالإنكليزية، أونو بالإيطالية، عمّا إذا كانت الحقيقتان وحقية الظهر ممتلكاتهما، عمّا إذا كانا قد وضباها بنفسيهما، عمّا إذا كانت قد غابت عن أنظارهما منذ توضييهما، عمّا إذا كان أحد قد أعطاهما شيئاً ليأخذهما معهما. أما عن السؤال ماذا يريد أن يفعل في إسرائيل فقد أجاب كويتن بأنه يرافق والده وبأنه يريد زيارة الأماكن المقدسة، بينما أجاب أونو: «لدي أعمال».

- أي نوع من الأعمال؟

- أحاول بنجاح بسيط كسب لقمة العيش من التجارة بالتحف الفنية.

تفحص الموظف الحقيقتين من كل الجهات، ألصق ورقة لاصقة حمراء على كل منهما، أعاد إلى أونو بطاقته وجوازه السفر، وتركه يمرّ بتلوحة قصيرة من يده.

قال أونو بينما يقفان في آخر الصفّ أمام المكتب: «لو سلّمنا الحقية هنا، لربما انكسر اللوحان، فهم يقدفون الحقائق في صندوق الشحن. ولكن إذا أخذناها معنا على أنها حقية يد، فإنهم من شبه المؤكّد سيطلبون منا فتحها. ماذا نفعل؟».

- حقية يد.

أحنى أونو رأسه: «طبعاً». ولم يستطع منع نفسه من أن يضيف بابتسامة: «لقد هُشّم اللوحان الأولان أيضاً في نهاية الأمر».

كذلك وراء مكتب تفتيش الجوازات، بالقرب من قاعة الانتظار المزدحمة عند بوابة المغادرة، كان هناك رجال شرطة مدجّجين بالسلاح وأشخاص آخرون من شتى الأصناف لم تتضح وظيفتهم في الحال. كانت امرأة سمينية في بدلة رسمية زرقاء تجلس منحنية على شاشة جهاز الكشف، ووراءها تنظر معها فتاة شقراء بذراعين متصلبتين. وضع أونو الحقية على الشريط المتحرّك، مرّت بعد ذلك من تحت الغطاء المطاطي واختفت في الأعماق. ما إن مضت برهة قصيرة حتى توقّف الشريط عن الحركة. ناجى كويتن نفسه: ربما لن تخرج قطّ من هناك - بهتت صورة الأشعة السينية في هوادة واختفت من الشاشة؛ حتى ولو فكّك الآلة حتى آخر برغي فيها، فلن يرى أي شيء من الحقية.

عندما ظهرت بعد نصف دقيقة من تحت الغطاء المطاطي على الطرف الآخر، تقدّمت الفتاة إلى الأمام، وطلبت من أونو بابتسامة حادة حلّة السيف فتح الحقيبة. عرف من لكتتها على الفور أنها ليست إيطالية وإنما إسرائيلية. ساعده كويتن في فتح الأقفال، فاندھش أونو عندما رأى ظرفاً سمّي اللون عليه اسم «التلسكوب الراديوي التوليفي فيستربورك»، ومراة فلكية بصفتها شعاره.

وضعت الفتاة الظرف جانباً وفتحت الجرائد: «ما هذا بحق السماء؟». ورفعت يديها في الهواء بأصابع متباعدة، ناظرةً بوجه مشمئز إلى الحجرين الرماديين. رفعت أحدهما وسألت: «أي شيء هذا؟ إنه أخفّ مما يمكن أن تظن. حُمة بركانية؟». فأجابها أونو بأحسن ما يستطيع من العبرية القديمة: «لعله نوع من أنواع البلاستيك الاصطناعي. إنه فنّ حديث على كلّ حال، من إبداع شاب ألماني واعد، يُدعى أنسيلم بوخوالد. إنه استحضار جوّ أسطورة الكأس المقدسة». رفعت عينيها وقالت بالعبرية المعاصرة: «يبدو لي أنه أقرب إلى استحضار جوّ ألمانيا النازية».

- من يدري، لعله يفضي إلى النتيجة نفسها.
نظرت إليه متفحّصة بعينيها الخضراوين: «إنك تتحدّث العبرية مثل إرميا». فقال بأسى مصطنع: «يحسن بك أن تقولي مثل أيوب. "الربّ أعطى والربّ أخذ، فليكن اسم الربّ مباركاً!"». بعدما سُمح لهما بالعبور، سأل أونو كويتن ماذا يوجد في ذلك الظرف. فأجاب كويتن بجفاء: «سرّ». هزّ أونو رأسه: «يجب ألا تفعل مثل هذه الأشياء غير المتوقّعة. كما لو أننا ليس لدينا ما يكفي من المشكلات».

*

قال كويتن ضاحكاً عندما أقلعت الطائرة: «مرحى! لقد غادرنا». قال أونو بينما يتجهم وجهه: «إن لم يكونوا على الأقل في انتظارنا في تل أبيب. إنها الثامنة والرّبع. سيكون أولئك القساوسة قد اكتشفوا عصاي في أغلب الظن، أو سيكتشفونها في غضون ساعة. سيتحوّل بادري أغوستينو إلى جبهة غورغونزولا من شدّة الرعب، وستعطي

أنجيلولينا بعد ساعتين وصفاً دقيقاً لذلك الأب وابنه غربيي الأطوار، اللذين أرادا المغادرة على أول طائرة أياً كانت وجهتها؛ وسوف يسمعون من تلك الشرطة الإسرائيلية أنّ ذلك الثنائي كان معه شيء في منتهى الغرابة».

وأشار إلى خزانة الأمتعة فوقهما: «عندما نهبط بعد ثلاث ساعات، سيكون طلب ترحيلنا قد وصل إلى المطار، وسوف يعيدوننا تحت الحراسة على الطائرة نفسها عبر قبرص إلى روما، حيث سنذوي حتى الموت في زنزانة في قلعة سانت أنجلو، تجلجل أصفادنا وتلتهمنا الجرذان».

قال كويتن: «في هذه الحالة سيفقدون شيئاً استثنائياً للغاية في الأرض المقدسة. أضف إلى ذلك أنك تنسى فارق التوقيت».

نظر إليه أونو مستفسراً: «ماذا تقصد بأنني أنسى فارق التوقيت؟».

- الوقت في إسرائيل متأخر بساعة واحدة عما في إيطاليا، أليس كذلك؟

- وماذا يعني؟

- يعني أننا لم نكن موجودين في تلك الساعة. وإذا لم تكن موجوداً ساعة كاملة، فلن يعود بوسع أحد إيجادك، حسب رأيي.

بقي أونو يراقب كويتن بهدوء وهو يقدم ساعته الميكي ماوس ساعة واحدة، ثم صالبا ذارعيه على صدره وأخذ ينظر من أمامه إلى الخارج. جعلت الطائرة الأرض تميل ووصلت بانعطاف عريض فوق أوستيا إلى السماء فوق البحر، الذي يتلألأ في أشعة الشمس الصباحية مثل بشرة هرمة. أحسّ بنفسه أمام قوّة كويتن، مثل طائر يحاول كسر خزانة حديدية بمنقاره. يجب عليه الرضوخ لكويتن، مثلما رضخ كويتن نفسه لـ... نعم، رضخ لماذا؟ لشيء لا يعرفه هو نفسه في أغلب الظن.

- وهل عرفت في هذه الأثناء ما الذي تنوي فعله في إسرائيل؟

- سنرى.

لم يكن كويتن يعرف في الواقع. يعرف فقط أنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام من تلقاء نفسه.

حاول أونو محاولة أخيرة، دون كثير أمل: «أعرف زميلاً هناك من مرحلة سابقة من مراحل حياتي، لعلّه يستطيع تقديم شيء من المساعدة لنا - على الأقل إذا كان لا يزال حياً يُرزق».

لديهم مختبرات رائعة هناك، يستطيعون فيها تنظيف الحجرين؛ في ما يتعلق بهذا الأمر، ليس هناك مكانٌ مزوّد بتجهيزات أفضل من إسرائيل. الإسرائيليون جميعهم علماء آثار، كل كسرة فخار يجدونها هي حجة سياسية لتبرير دولتهم».

- وماذا عن الحرب العالمية الثالثة؟

- طبعاً يجب أن يحدث هذا في أقصى درجات السريّة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- وزميلك.. ما اسمه؟

- لا أتذكر. نعم، تذكرت: لانداو. مردخاي لانداو.

- وإذا رأى هذا الزميل الوصايا العشر الأصلية أمامه، فهل سيلزم الصمت؟

- تنهّد أونو بعمق: «سيتصل من فوره برئيس الوزراء».

- وعندئذ؟!

سكت أونو. استسلم. من الواضح أنه لن يعلم علم اليقين أنّ هذين الحجرين ليسا حجري موسى. لعلّ كويتن سيخفيهما في أحد الكهوف الواقعة على البحر الميت، بالقرب من خربة قمران، التي نُقبت بأكملها عشرات المرات ولن يعود أحدٌ إلى التنقيب فيها مرّةً أخرى؛ أو سيطرهما في مكانٍ ما، في صحراء النقب، في مكان لن يستطيع هو نفسه العثور عليه مرّةً أخرى. إسرائيل صغيرة، تستطيع الوصول بالباص إلى أيّ مكان خلال بضع ساعات - حتى إلى صحراء سيناء في الوقت الحاضر. هناك يستطيع إعادتهما إلى جبل حوريب ومواصلة طريقة على الفور إلى مصر، لتكتمل بذلك الحلقة التوراتية. عندئذ سيكون بوسعه أخيراً حبس نفسه في حجرة الملك في هرم خوفو، التي شقّ طريقه إليها هو نفسه أثناء زيارته الرسمية في إحدى المرات، عبر الممرّات الحارة العطنة، واستلقى في التابوت الحجري الأسود الفارغ؛ يجزم المولعون بالأهرامات أنّ هناك قوى خارقة للطبيعة تمسك بزمام الأمور هناك، يمكنها أخذه من الأرض مثل أخنوخ. فكّ أونو حزام الأمان عن نفسه وأمال مسند ظهره إلى الوراء بعض الشيء. يجب عليه القبول بأنّ هذه الواقعة بأسرها ستأخذ طابع حلم، لن يستطيع حتى التكلّم عنها باحترام، دون أن يوصم بالجنون.

بدا الفطور، الذي وُضع أمامهما، مكوّنًا من المادة نفسها المصنوعة منها لوازم المائدة البلاستيكية التي يجب أن يأكلا بها. ساعد كويتن أباه في فتح الأغلفة الشفّافة - لا لأنه لم يستطع فعل ذلك بنفسه، ولكن لأنه من الواضح لم يرغب في معرفة كيف يفعل ذلك، وأوشك

أن يسيطر عليه نوعٌ من السخط، يدفعه إلى غرس حتى أسنانه في البلاستيك، الأمر الذي لا يمكن أن يؤدي إلّا إلى هزيمة أسنانه.

زمجرج وهو يلتفت بجسمه الضخم خلف الطاولة الصغيرة المخفضة: «هذا النوع من الطعام هو نهاية الحضارة الإنسانية».

قال كويتن بفم مملوء: «لكننا الآن في الطائرة».

عندما تحوّلت الصينيتان المرتبتان بعناية إلى كومتين مقرّبتين من القمامة، دفعت المضيفة بهما في عربة فولاذية صغيرة بابتسامة، ضغط كويتن جبينه على النافذة الصغيرة. الفضاء. العالم. أخذت الجزر اليونانية الأولى تطفو في البحر، مثل بقع غير منتظمة من الدهن بلون بني رمادي، بينما الوصايا العشر موضوعة فوق رأسه، في طريق عودتها: خُيّل إليه وكأنه عاش منذ ولادته من أجل الوصول إلى هذه الحالة. أيمن أن يحدث شيء آخر؟ طبعاً سيحدث شيء آخر - ولكن ماذا سيفعل بعدئذٍ؟ أواصل حياته بصورة طبيعية؟ أعود إلى هولندا ويعيش إلى حد بلوغه الثمانين من العمر؟ يعيش على ذكرى هذه الواقعة وكأنها واقعة من الزمن البعيد، حدثٌ غير معروف من القرن الماضي؟ انتابه شعورٌ مفاجئ بأن هذه الأيام قد تكون أيامه الأخيرة على الأرض؛ لكنه لم يضق ذرعاً بهذا الأمر. لعلّ كلّ إنسان لديه شيء محدّد يفعله في وجوده يؤدي به رسالته في الحياة. هذا الشيء يمكن أن يكون عديم الأهمية، أو عديم الأهمية في الظاهر، على سبيل المثال مساعدة شخص دون أن يطلب ودون أن يعرف بهذه المساعدة. يجب على الجميع في الواقع أن ينبش في ماضيه ليرى ما إذا كان قد فعل شيئاً من هذا القبيل؛ إن لم يكن قد فعله، فيجدر به التفكير في فعله.

رأى نجماً مذنباً أبيض اللون رهيف الهيئة، في الأسفل، في المياه الزرقاء: سفينة، هي نفسها أصغر من أن تُرى، تبحر في الاتجاه المعاكس. هل جاء تيتوس باللوحين والمينوراه وتلك الأشياء كلّها من الهيكل إلى روما بهذه الطريقة، أم أنها أحضرت برّاً؟ عندما طرح هذا السؤال على أونو، رأى عندئذٍ فحسب أنه أيقظه من النوم.

- لا تؤاخذني!

قال أونو بأسى وهو يفكّ ربطة عنقه: «أنت لا تتركني أرتاح دقيقة واحدة. كيف نُقلت الغنائم! لا أعلم. لو كنت مكانه، لفعلت ذلك برّاً للأمان. أعتقد في الواقع أنك أنت الذي يجب أن يعرف هذا النوع من الأشياء. لكنك لا تدرس، إنك تفعل فقط».

- ألا يكفي هذا؟

- يكفي ويزيد! لكنك محقّ، الجميع يستطيع أن يدرس، بوسعك الاعتماد في هذا على أناس آخرين، من أمثالي. عندما كنت منخرطاً في السياسة بطريقتي المتواضعة، كنت أعرف عنها أقلّ من علماء السياسة، الذين كانوا يعرفون أكثر مما يعرفه هتلر وستالين مجتمعين، لكنهم لم يكونوا يملكون ذرة من السلطة ولن يملكوها على الإطلاق. أما أنت فتذهب خطوة أبعد. إنك على قناعة لا تتزعزع بأنك تعيد لوحي الشريعة الحجرين إلى إسرائيل في هذه اللحظة - لا أزال غير قادر تقريباً على النطق بها - لكنني أعتقد أنك لا تعرف حتى كيف تلقى مؤلفك الوحي هناك على ذلك الجبل في سيناء. فأنت لم تقرأ عن ذلك في الكتاب المقدس إطلاقاً.

ناجي كويتن نفسه: إنهما ليسا لوحين حجرين بل لوحان من الياقوت، ثم قال: «لا. وكيف حدث ذلك؟».

- مثلما يجب أن يحدث. في مشهد بركاني من رعد وبرق، ودخان، وزلازل، وأبواق صاخبة، صوت يهوه المرئي في غيمة داكنة.

- مرئي؟ صوت مرئي؟!

- نعم، حسب رأي فيلو، كان ذلك هو المعجزة الحقيقية. تحدّث يهوه بكلمات مرئية، بحروف من النور، لم تكن مكتوبة على أيّ شيء. هذا ما كان يجب أن يفعله موسى. قال موسى بعد ذلك إنّ الصوت المرئي للربّ كان أعظم معجزة منذ خلق الإنسان.

حتى عندما أنهى أونو حديثه، شعر كويتن بأنه لا يزال ينظر إليه من الجانب. يريد في أغلب الظن أن يسأله هل لا يزال يعتقد أنّ ما في حوزته هما لوحا موسى الحجران؛ لكنّه من الواضح لا يستطيع استجماع شجاعته. بادله كويتن النظر وقال: «الآن، فرانسيس سيكون هو السانكتا سانكتورم».

- فرانسيس سيكون؟

- ألم ترّ ذلك عندما ركبنا الطائرة؟ إنه اسم هذه الطائرة.

عندما كانوا يعبرون أجواء بيلوبونيز، شعر كويتن هو أيضاً بالنعاس. أخذ ينظر بجفنين مثقلين بالنوم إلى الذبابة السوداء الكبيرة الجاثمة على النافذة الصغيرة. لم يسبق لها أن طارت بهذه السرعة من دون أن تطير - كيف لها أن تعود إلى بيتها؟ لأنّ الحشرة أثارت اشمئزازه،

أبعدها بإيماءة من يده، فطارت فوق بضعة صفوف من المقاعد، وحطّت على كتف السيّد الأرثوذكسي، المحتفظ بقبّعته على رأسه. انغلقت عيناه في هوادة، بينما تتحوّل ضوءاء المحرّكات إلى ألحان متناغمة بارعة تعزفها فرق موسيقية عملاقة.

أيقظه صوت الرّبّان من نومه. كان يقول بالإنكليزية إنّ جزيرة كريت صارت مرثية على الجانب الأيمن. نظر من أمام أونو إلى الجبال البنفسجية الكثيبة في البعد، لكنّ أونو لم يفتح عينيه.

- بابا. جزيرة كريت!

فقال أونو برأس مُدار إلى جانب وعينين لا تزالان مغمضتين: «لا أريد رؤيتها. إنني أكره كريت».

بعد مضيّ بضع دقائق، ضَعُف صوت المحرّكات بصورة مفاجئة، وأحسّ كويبتن من أذنيه أنّ الطائرة قد بدأت بالهبوط. فتح والده إحدى عينيه برهة قصيرة جداً، ثمّ أغمضهما مجدّداً وقال: «لوهوت هايدوت يشمّان رائحة الوطن».

- ماذا تقول؟

- «لوحا الشهادة». اسم آخر للعهد.

أدار كويبتن رأسه بحركة سريعة ونظر بعينين متسعيتين في الطائرة، دون أن يرى شيئاً. خُيِّل إليه وكأنّ هذه الكلمة، الشهادة، كامنة في أعماق نفسه هو أيضاً، مثل ألماس متألّق مصقول في الأرض الزرقاء.

*

كان مطار بن غوريون، في مدينة اللدّ، يعجّ برجال الشرطة وقوّات الأمن المسلّحة، الذين ذكّروا أونو بهافانا قبل ثماني عشرة سنة، عندما كان هؤلاء الرجال كلّهم ما يزالون في المهد يلعبون بالخشاخيش؛ ولكن لم يلتفت أحدٌ إليهما. كان الذاهبون للاستجمام في قبرص، الذين أخذوا يصقّقون عقب الهبوط، قد بقوا في الطائرة. فُتشت أمتعتهما على طاوولات طويلة مرّة أخرى، أُلقيت عليهما نظرات للمرة الثالثة لرؤية ما إذا كانا يشبهان صورتيهما في جوازي السفر، يجب عليهما فتح الحقيبة مرّة أخرى وكان على «برسيغال»^(*) تقديم يد العون

(*) برسيغال: أحد فرسان المائدة المستديرة في أسطورة الملك آرثر، اشتهر بكونه البطل الأصلي في البحث عن الكأس المقدّسة. [م]

مرةً أخرى. كان يقف إلى جانبيهما الرجل الأرثوذكسي، فألقى هو أيضاً نظرة لامبالية على الحجرين.

قال كويتن: «لو كان يعلم».

فقال أونو بصوتٍ خافت: «كن حذراً! في الخارج أيضاً، يجب عليك دائماً الأخذ بعين الاعتبار أن هناك شخصاً يفهمك، ولا سيما في إسرائيل».

عندما حصل أخيراً على الإذن بالمغادرة، وسحب أونو بعضاً من المال من ماكينة الصراف الآلي -الشيكل، العملة التي قال إنها كانت متداولة في عصور العهد القديم أيضاً- سأل: «والآن ماذا سنفعل؟».

- الشيء المنطقي. سنخرج من هنا.

كانت الساعة تقارب الواحدة، والحرارة قاتطة في الساحة أمام صالة الوصول، تكاد ظلال الناس لا تتجاوز أقدامهم. سارا وسط زحام السيارات والباصات صوب مكتب أبيض منخفض لتقديم المعلومات للسائحين وحجز الفنادق.

قال أونو: «إذا كنت في حاجة إلى شيء واحد، فهو حمام متحضر. هل تدرك أننا لم نخلع ملابسنا منذ أربع وعشرين ساعة؟ ألا تشعر بأنك متسخ؟».

- ليس إلى هذه الدرجة.

كان رجل بكياه^(٥) على قمة رأسه، يحمل حقائب في باص صغير على الرصيف في عجلة ويصيح بالعبرية: «سرفيس؟ أورشليم؟».

لا يزال هناك مقعدان شاغران في باصه المكوّكي إلى القدس، فأدرك أونو أنهما يستطيعان الصعود إليه ببساطة. جلسا في المقعد الخلفي إلى جانب سيّدة شائبة تقرأ مجلة «ليكسبريس»؛ يبدو من مظهر الآخرين كلهم أنهم رجال مثقفون، أميركيّون، في قمصان ذات أكمام قصيرة، بعضهم بربطة فراشة في عنقه.

عندما شغل السائق المحرّك، التفت إلى الوراء وسأل إلى أيّ فندق يريدون الذهاب. كانت السيّدة ستذهب إلى فندق الملك داود، والأميركيّون إلى الهيلتون. عندما لم يجب أونو على الفور، سأله السائق بنفاد صبر: «أيضاً إلى الهيلتون؟».

(٥) الكياه: غطاء رأس صغير ومستدير الشكل، يرتديه الذكور من اليهود للوفاء بالمتطلبات الدينية التي تقضي بتغطية الرأس. [م]

أولاً أونو إيماء بأن يذهب بهما إلى هناك، وبعد برهة قصيرة سار بهما الباص في الهضاب القاحلة المثورة بالحجارة.

لم يتبادلا الحديث أثناء الرحلة التي دامت ثلاثة أرباع الساعة. لم يكن أونو أيضاً قد زار إسرائيل من قبل، لكن خيّل إليه أنه يستطيع رؤية العنف الميتافيزيقي، الذي استعر وما يزال يستعرُ هنا منذ أربعة آلاف سنة، واضحاً على الطبيعة. كانت هذه خاطرة شاعرية بطبيعة الحال، نابعة مما يعرفه من التاريخ، مما قرأه والده والقسيس من الكتاب المقدس على مسمعيه، ومن صور كتب التعليم المسيحي الحلوة من طفولته المبكرة، التي كانت الغيوم فيها تنشق عن مراوح من هالات مقدسة؛ كانت إسرائيل «أرض الميعاد» بالنسبة إليه هو أيضاً على الدوام، وأما أن يراها في ظل هذه الظروف، فهذا ادعى شيء إلى عدم التصديق: في صحبة ابنه، الذي يضع في حضنه حقيبة يقول إنها محتوية على لوعي الشريعة. في هذا الضوء الحارق، الذي لا تشوشه أي غيمة هولندية، يبدو الوقت ذاته وكأنه يتلوى على نفسه مثل حشرة في لهب. صارت الهضاب أكثر تفاوتاً بصورة تدريجية، تتخللها هنا وهناك رقع مزدهرة، وعلى جانب الطريق السريع المكوّن من أربعة مسارات يقف بين حين وآخر حطام شاحنات وعربات مصفحة دمرها القصف، محفوظة في أوكسيد الرصاص البنيّ الصدئ. أبلغهم السائق أنها من مخلفات حربي 1948 و1967؛ لكن يمكنها أيضاً أن تكون من مخلفات الصليبيين، الرومانيين، البابليين...

يقوم برج فندق هيلتون القدس، المشدود علم إسرائيل إلى كلّ سياج من أسيجة شرفاته، في الجزء الغربي من المدينة، في منطقة جديدة منعدمة الملامح - تثبت الحفريات الجارية إلى جانبها أنها كانت في وضع مختلف في أحد الأيام. في البهو الفسيح المنعش، المحاط بمحلات تجارية صغيرة، سجّل الأميركيون حضورهم عند سيّدات بشوشات وراء طاولة عليها أعلام صغيرة وأوراق؛ هناك لوحة على حامل ترحب ترحيباً حارّاً بالفوفود المشاركة في المؤتمر الدولي عن الرّي في النقب. وضع أونو جوازيهما السفر على مكتب الاستقبال وطلب غرفتين. ربما لأنّ موظّف الاستقبال رأى أنّ جوازيهما هولنديان، أشار عليه بالإنكليزية بالتوجّه إلى طاولة المهندسين في الطاقة المائية.

- لا، نحن لسنا معهم.

سأل كويتن: «ولم لا؟».

فقال أونو وهو يرفع ذراعيه في الهواء: «بحق السماء! ليس مجدداً! إنك مثل ماكس!».

- كيف؟

- سأخبرك في وقت لاحق.

ولكن لم تكن هناك غرفٌ شاغرة في أيّ مكان، الفنادق كلّها محجوزة؛ هناك أربعة مؤتمرات أو خمسة في القدس في الوقت الحالي. لا يمكن إيجاد شيء سوى في البلدة القديمة، لكنّ الأمان هناك ليس مضموناً بطبيعة الحال. عندما قال أونو إنهما ليسا خوّافين إلى هذا الحد وإنهما مضطّران لإيجاد مسكن في مكانٍ ما على كلّ حال، أجرى موظّف الاستقبال بضع مكالمات هاتفية وسجّل اسم فندق وعنوانه.

بعد تناولهما شيئاً من الطعام في البار - حيث مُنِع كويتن من شرب كأس من الحليب مع شطيرته من لحم الخنزير - أخذتهم سيارة أجرة إلى الجزء الشرقي من المدينة. عندما بلغت نهاية شارع تسوّق عريض تغصّ بحركة المرور، انحدر الطريق بصورة تدريجية، وما لبثت أن ظهرت في العلواء، على الطرف الآخر من وادٍ مكسوٍّ بالخضار، أقرب إلى أخذود في الواقع، أسوار القدس القديمة الضخمة. تنتصب وراءها، في أشعة الشمس الوفيرة، أبراجٌ لا حصر لها، في وسطها قبة ذهبية وأخرى فضية.

انحنى كويتن انحناءً عميقاً على حقيقته ليتمكّن من الرؤية بشكلٍ أفضل من خلال الشبّاك الأمامي. قال بصوتٍ خافت: «انظروا ها هي ذي هناك. إنها موجودة حقّاً».

*

رغم أنّ العربيّ الممتطي ظهر جملة كان على الهيئة نفسها التي كانت عليها الحجارة الثقيلة، الصفراء صفرة الرمال، المبنيّ بها سور البلدة، الذي يسير بمحاذاته، زمّر له السائق بأن يتنحّى جانباً، اجتاز بوابة يافا وتوقّف في ساحة صغيرة. ما إن مضت برهةً قصيرة حتى كانا يقفان وسط حشودٍ من سائحين، تجار فلسطينيين معتمرين كوفيات، رهبان وراهبات من الروم الكاثوليك، قساوسة من اليونان الأرثوذكس والأرمن والأقباط في جِباب غريبة، يهود متدينين في قفّاطين، دوريات عسكرية من شباب وشابات مسلّحين بمسدّسات عوزي الرشّاشة وكلاشينكوفات. كانت جلجلة أجراس الكنيسة تمتزج مع صيحات البائعين مشكّلةً ضوضاء امتصّت، دون مشقّة، الدويّن الباهتين اللذين اخترقت بهما طائرة حربية حاجز الصوت في البعد.

كان فندق رافائيل، الذي لا يرد ذكره في أغلب الظن في أي دليل سياحي، محصوراً دون أهمية بين مكتب صرافة ومحلّ بقالة، يعرض صناديقه وأكياسه من التوابل في الشارع مثل لوحة ألوان كارباتشو^(*): قرمزي، بنّي صدئ، طيني محروق، أزرق زرقة زهرة الذرة، أخضر زيتوني، أصفر زعفراني. كان مكتب الاستقبال مكوّناً من طاولة من الخشب المضلّع قائمة في ممرّ ضيق، يتحوّل في نهايته إلى بضع درجات حجرية تفضي إلى ما يبدو أنها صالة جلوس ملحقة بها قاعة فطور؛ كان رجلٌ في الستينيات من العمر غاطساً في كرسي، تمزّق بلاستيك مسنده، يشاهد التلفزيون، الذي يغذّيه هوائي استقبال داخلي له شكل «V». وضع سيجارته في منفضة ونهض عن مجلسه. سأل بابتسامة حزينة: «كويست؟ شالوم؟»، ثم بالإنكليزية: «أبلغني زميلي بقدمكم». صافحهما وعرف نفسه باسم ميناخيم أرون.

لم يكن قد سهّل الأمور على نفسه. كان يلبس شعراً مستعاراً كستنائي اللون، بالغ الكثافة، شديد السبط، يخرج من تحته عند الصدغين شعره الحقيقي الشائب الضارب إلى الحمرة؛ إلى ذلك ثبت كيابه فاتح الزرقة بحبسات على قمة رأسه، الأمر الذي قد لا يكون ضرورياً جداً من الناحية الشعائرية في هذه الحالة - إلا إذا كان يأخذ بعين الاعتبار، هكذا ناجي أونو نفسه، أن الرب ربما لا يرى أنه يلبس شعراً مستعاراً. وضع أرون استثمارتين على مكتب الاستقبال، وسأل كم ليلة يريدان البقاء. نظر أونو بصمت إلى كويتن. فسأل كويتن: «ليلتين؟ ثلاثاً؟».

- لن أقول أي شيء. إنه مشروعك، وأنت الذي يجب أن تعرف.

- ليلتين إذاً. يجب أن تكونا كافيتين.

قال أرون وهو يضع مفتاحي الغرفتين أمامهما على الطاولة: «الحمام في الممر».

قال أونو: «لا أعرف ماذا ستفعل، لكنني سأذهب إلى السرير على الفور، لم أعد أستطيع التحمّل». وأشار إلى الحقيبة: «ما رأيك.. هل نسأله إذا كانت لديه خزنة؟».

اختفى أرون في باب خلف مكتب الاستقبال، وما لبث أن عاد بدرج حديدي ضيق، يتسع لمحفظه. عندما سُرح له الموضوع، طلب من كويتن اللحاق به. في غرفة مكتب صغيرة غير مرتّبة، تُستعمل أيضاً لتخزين صناديق الزجاجات الفارغة، رفعت فتاةً عينيها عن الآلة الكاتبة، وأومات لكويتن بنظرة أصابته بشيء من الارتباك. كانت قصّة شعرها الأسود قصيرة

(*) Vittore Carpaccio (1465-1525): رسّام إيطالي، تميّز عن غيره من فنّاني عصر النهضة الإيطاليين

باهتمامه الدقيق بالتفاصيل المعمارية وموضوعات الموت واستخدام الألوان الجريئة. [م]

للغاية، مثل قصّة شعر والدته. في الزاوية تقوم خزانة حديدية خضراء بطول رجل من اليهود الغابرة؛ يتوسّط بابها شعارٌ تجاريٌّ ثقيل من النحاس مكتوب عليه «كرومر». رأى من فوره أنّ الخزانة العملاقة مزوّدة بقفل مشفّر بالحروف من الطراز القديم، واحد من تلك الأقفال التي لم تعد تُستعمل منذ زمن بعيد. استند أرون بإحدى ركبتيه على الأرض المبلّطة، وأدار الزرّ أربع مرّات جيئةً وذهاباً، متكفّلاً بأن تبقى توليفة الحروف في منأى عن عيني ضيفه. عندما فتح يهوادة الباب الفولاذي الضخم، البالغ سُمكه خمسةً وعشرين سنتيمتراً من دون شكّ، رأى كويتن أنّ فيها مكاناً يكفي مئة وصيّة.

قال صاحب الفندق وهو يضع الحقيبة على الرفّ السفلي: «إنها ثقيلة». لكنّه لم يطرح أسئلة عنها. بعد إغلاقه الباب بصفقة مدوّية، حرّك الزرّ مرّتين بطرف يده وسأل: «تمام؟».

- نعم.

التفت الفتاة إلى الورا وسألت شيئاً بالعبرية الحديثة، ربما لا لشيء إلا لتتمكّن من رؤية كويتن مرة أخرى، بالخصلة البيضاء في ذيل شعره الأسود. لكنّ أرون كان حريصاً على ابنته، فأشار إلى كويتن بأنه يستطيع العودة إلى مكتب الاستقبال.

لقد حدث شيء هناك في تلك الأثناء. أونو يقف بقم مفتوح على عتبة صالة الجلوس، عيناه موجّهتان بشكل واضح إلى التلفزيون. أوماً لكويتن إيماءة أمرة على مستوى وركه بأن يلزم الصمت. ذهب كويتن إليه ونظر هو أيضاً إلى الشاشة: مشاهد لحشد يصلّي ويرتل بمهابة في ساحة، معظمهم جاثون على ركبهم، باسطون أذرعهم، رافعون وجوههم بانتشاء إلى السماء؛ بينهم عربات بائعي البيتزا. لم يفهم ما يقوله المُعلّق بالعبرية. عندما انعطفت الكاميرا، رأى فجأة في أيّ مكان هم: بالقرب من السانكتا سانكتورم! الدرج المقدّس المكتظّ، المعبد، لقطة مقربة عبر القضبان من عصا والده على كرسي الصلاة البابوي قبالة المذبح! بعد برهة قصيرة ظهرت على الشاشة امرأةٌ عجوز، تومئ بانفعال وتكلّم بصوت متهدّج بالإيطالية، لم يفهم منها سوى كلمة «معجزة»، أعقبها قسيس يصيغ عبارات بأناة ورويّة، مترجمة بالعبرية على الشاشة، لكنّه لم يكن القسيس المصنوع من الزبدة. بعد عرض العصا التي لها رأس الثعبان مرّة أخرى، أنهى المذيع الإسرائيلي الخبر بنظرة ساخرة إلى المشاهدين.

تهالك أونو على كرسيّ عاجزاً عن الكلام.

قال كويتن: «أخبرني! ماذا حدث؟».

- إنني في طريقي إلى الجنون. في الصباح اكتشفت عصاي - اكتشفتها تلك المرأة العجوز. كانت أول من صعد الدرج المقدس مثل كل يوم أحد، وأبلغت الكهنة. عندما رأت ذهولهم أخذت تصرخ بأن معجزة قد حدثت، إذ لا يمكن لأحد دخول ذلك المعبد. في غضون ساعة واحدة، شاع الخبر في المدينة وبدأ الناس يتوافدون من كل الجهات. ما رأيك؟ إنهم يعتقدون أن عصاي هي عصا موسى، التي ضرب بها الصخرة فانبثق منها الماء. الدليل هو المقبض الذي له شكل رأس الثعبان: في بلاط الفرعون، ألقي موسى عصاه على الأرض في إحدى المرات فتحوّلت إلى ثعبان. يقولون في الوقت نفسه إن أفعى الجنة تعبد الآن الأكيروبيتون في قدس الأقداس البابوي، وهذا يدلّ على نهاية الخطيئة الأصلية وعودة المسيح. في هذه اللحظة يبدو أن هناك ازدحاماً شديداً على كل الطرقات المؤدية إلى روما. استغرق الأمر بكويتن بعضاً من الوقت ليتمكن من القول: «ولكن أولئك الكهنة يعلمون أنها عصاك، أليس كذلك؟».

أحنى أونو رأسه بنعم: «يبدو أنهم يريدون ترك الأمر هكذا. لم يتوخوا الحذر بما فيه الكفاية، وليس من مصلحتهم أن يُعلن ذلك على الملأ. أضف إلى ذلك أنهم يرون هذا التقدير المتزايد لمعبدهم شيئاً رائعاً بطبيعة الحال».

- وإذا تعرّف ماورو عصاك؟

- لن يجرؤ على قول شيء. لعلّه يطلب المال مقابل الصمت. لم يعد لدى أحد طريق للعودة.

- ولماذا لم يتحدّث رئيس الكهنة قبل قليل؟ ألا يمكن أن يكون هناك شيء آخر؟

- لعلّ بادري أغوستينو سيحصل قريباً على لقب القديس. القديس الشفيع لمصانع الألبان.

- من كان ذلك القسيس الذي ظهر في نهاية الخبر؟

- الكاردينال سارتولي، أسقف كاتدرائية سان جيوفاني إن لاتيرانو. تحدّث بلغة

دبلوماسية سطحية. قال إن الكنيسة سعيدة بورع الشعب بطبيعة الحال، لكن يجب انتظار ردّ رسمي من الفاتيكان.

ورفع عينيه إليه: «كويتن! ماذا اقترفنا؟».

نظر إليه كويتن برهة قصيرة - وفجأة، سقط على الأرض من شدّة الضحك، وكأنّ البرق أصابه.

63. مركز المركز

- لم تسبق لي رؤيتك تضحك هكذا.

هذا ما قاله أونو لكويتن في صباح اليوم التالي، أثناء تناول الفطور، بعد أن قرأ له آخر الأخبار المنشورة في جريدة هاآرتز عن الوضع في روما: لقد بدأ الحجاج يتوافدون من أرجاء العالم كافة إلى السانكتا سانكتورم، أغلقت ساحة سان جيوفاني إن لايرانو أمام حركة المرور كلها، ولم تدل الحاخامية الكبرى في القدس بأي تعليق، شأنها في ذلك شأن الكرسي البابوي. - ألا يجعلك هذا تضحك ضحكاً جنونياً؟ أولئك الناس المصلّون كلهم، في حين لم يعد يوجد أي شيء يُعبد هناك؟ لا شيء سوى عصاك البليدة تلك.

طوى أونو الجريدة: «حسناً. لقد استعضنا عن الوصايا العشر بعصاي، وأنت ستعيدها إلى مكانها». ونظر إلى كويتن من فوق نظارته الخاصة بالقراءة: «أم أنّ هذين الحجرين من مثل عصا موسى المعبودة تلك؟».

فقال كويتن باستياء: «كيف لك أن تقول هذا؟ عصاك ليست عصا موسى، أليس كذلك؟». أحنى أونو رأسه وأخذ يأكل البيضة المسلوقة بصمت، ثم قال: «لكنني أفترض أن خزنة فندق رافائيل ليست وجهتهما الأخيرة».

- طبعاً لا.

- لم أستطع النوم جيداً، كما يمكنك أن تفهم، وحاولت مرة أخرى وضع نفسي مكانك.. أعلم أنّ هذا شيءٌ مستحيل، ولكن لماذا لا ينبغي للإنسان أن يحاول المستحيل.. وأظنك تريد إعادتهما إلى المكان نفسه الذي أخذهما منه تيتوس. أم أنني مخطئ؟

قال كويتن: «لا أعرف».

لم يكن قد فكّر في الأمر بعد -سيتبيّن هذا من تلقاء نفسه- لكن لعلّها فكرة جيّدة.

- أي إلى المكان الذي كان يقوم فيه هيكل هيرودس.

فأضاف كويتن: «ولكن إلى المكان الذي قام فيه قدس الأقداس».

مسح أونوفمه وهو يتنهد: «طبعاً. لا تستطيع أن تكون دقيقاً بما فيه الكفاية. هذا يعني شيئاً من الدراسة مرّة أخرى. لم يخطر في بالي أنني بفضلك سأصبح على هذا الإلمام كلّهُ».

ودفع كرسيّه إلى الوراء مُحدثاً صريراً لا يُطاق ونهض واقفاً: «هل نذهب إذاً لإمعان النظر في الوضع؟».

اندهش كويتن قليلاً من المبادرة التي أبدأها والده بصورة مفاجئة. بدا وكأنه أصبح في عجلة من أمره؛ لعلّه يرى أنّ الوقت قد حان لوضع نقطة وراء هذه القضية برمتها، بعد كل ما يجري في روما. لكنّه يتطلّع هو أيضاً إلى معرفة المكان الذي قامت فيه تلك الهياكل كلّها. دلهما أرون، في فتحة الباب، على الشارع الضيّق الذي يجب أن يسلكاه: إذا بقيا يسيران في خطّ مستقيم، وصلا بشكل تلقائي إلى جبل الهيكل موريا، مسيرٌ من عشر دقائق.

بدأت الحرارة ترتفع مجدداً بعد الليلة المنعشة. كان الشارع المزدحم، المزين بالغسيل المنشور، مثل كل الشوارع في المنطقة المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، يشكّل بداية السوق: سلسلة متواصلة من دكاكين صغيرة تبيع هدايا تذكارية، خرفيات، أقمشة ملوّنة، حلوى لامعة، ورشات عصيّة على التعريف، صناعة النحاس، مصقّف شعر، ولكن خاصة باعة صائحين يحاولون بيع بضاعتهم للسائحين. وعند كلّ عشرة أمتار يلحّ رجالٌ بكوفيات على أن يكونوا أدلاء سياحيين؛ عندما يسمعون من أيّ بلد قادمان، يهتفون بالهولندية من دون استثناء، مشدّدين على حرف الخاء: «ألماختخ أختنتختخ!».

توقّف أونو عند بسطة تبع عصياً ذات مقابض خشبية، مشغولة بطريقة بدائية. قال وهو يشير إلى رأس ثعبان: «إذا أخذت هذه، ستكون فعلاً غواية الشيطان».

- يحسن بك الحذر من هذا في القدس.

قال البائع وهو يخرج العصا: «أربعين شيكلاً».

لأنّ أُنُو رأى العِصِيّ كلّها قبيحة بالقدر نفسه، هزّ رأسه علامة الرفض وتابع سيره. لكنّ الرجل بقي يلحق بهما وانخفض السعر بعد بضع خطوات إلى ثلاثين شيكلاً، ثم إلى خمسة وعشرين، فعشرين.

قال أونو: «بعد قليل سنحصل عليها مجاناً».

فأضاف كويتن، بينما يفكر برهة قصيرة في صاحب الفندق المتنكر بالشعر المستعار، الذي لا يعلم أن خزنه قد تحولت إلى تابوت العهد بشكل مؤقت وتحتوي على ياقوت بمليار فلورين: «لو واصلنا السير، لأصبحنا تلقائياً من أصحاب الملايين».

اشترى أونو عصا ثقيلة بعشرة شيكلات، مقبضها غير مشغول، أقرب إلى هراوة، أحضرها له البائع من ورشته عن طيب خاطر. واصل السير في ارتياح بأنه صار لديه ما يتكئ عليه. لقد استمر سيرهما ما يزيد عن الخمس عشرة دقيقة، ولكن لم يظهر أثر لجبل الهيكل في أي مكان. الشارع أمامهما مسقوف بالقطار، وما لبث أن انتهى بهما المطاف في ظلال بازار شبيه بمناهة مكتظ بالناس، حيث لم يعد السير في خط مستقيم ممكناً. عندما نظر كويتن في زاوية شارع ليعرف أين هما، قرأ: «طريق الآلام».

قال أونو: «نعم. هكذا تسير الأمور هنا. طريق الصلب الذي سلكه ربنا ومخلصنا». وأشار بعصاه إلى نحت بارز فوق باب كنيسة: «هذا هو مكان المحطة الرابعة، حيث التقى يسوع بوالدته. ولكن هذا يعني...» - ونظر ذات اليمين وذات الشمال - «... أن هذا الطريق يفضي إلى الجلجلة، التي بُنيت عليها كنيسة القيامة؛ ويجب أن يكون في بدايته حصن أنطونيا العائد لبيلاطس، الذي يأتي منه الدرج المقدس. يجب علينا إذاً السير في هذا الاتجاه، لأن ذلك الحصن كان يقوم أيضاً على جبل الهيكل حسب اعتقادي».

في تلك اللحظة سحبه كويتن من ذراعه بصورة مفاجئة إلى داخل محلّ مجوهرات.

- ما الأمر؟

- عمّتي تريس هنا!

كانت تمشي، خلف رجل يحمل مظلة شمسية حمراء مطوية فوق رأسه، وسط مجموعة من السيدات ذوات الشعر الأبيض، اللاتي يشبهن بعضهن بعضاً مثل فساتينهن المزهرة. بينما يختبئ أونو منحنياً بجذعه، تتبّعها بعينه. شعر بشيء من التأثير. قال بخفوت: «كم كبرت في العمر، سليطة اللسان، لكنّها لا تزال على القدر نفسه من الورع. بعد قليل ستضع يدها في الحفرة التي قام فيها صليب يسوع المسيح».

سأله كويتن: «أم أنك كنت تريد لقاءها؟ لقد رأتك هي أيضاً بطبيعة الحال».

اعتدل أونو في وقوفه متأوهاً: «الحق أنني لا أعرف. لم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل

بحياتي، لكنني لا أستطيع طبعاً الاستمرار في العيش وكأنّ كل شيء باقٍ على ما كان عليه في الماضي. لقد تكفّلت أنت بهذا الأمر».

رفع صاحب المحلّ، بهيئة متزوّفة، سلسلةً من الفضة بنجمة داود - أو ما يُفترض أن تكون سلسلة من الفضة. نظر أونو في عيني العربي، المعتمر قبعة صغيرة من الدانتيل الأبيض الرقيق. قال: «يجب أن نشترىها».

دفع الثمن البخس الذي طُلب منه، ووضع السلسلة في عنق كويتن.
تلمّسها كويتن برهة قصيرة وسأل: «هل يجوز أن تلبسها إن لم تكن يهودياً؟».
- لا يجوز إلا إذا تلقّيتها هدية من والدك. لا بدّ أنّ هذا مذكور في التلمود.

بعد بضعة منازل، اشترى خريطةً من كشك جرائد، سرعان ما دلّتهم على الطريق إلى الحي اليهودي. كانت نقطة العبور واضحة بنوع من الحدود، يشكّله الجنود الضجرون الواقفون على جانبي الشارع الضيق. بعد نزول درج عريض، عبرا بعد برهة قصيرة بمجموعة أخرى من العساكر؛ يجلسون باسترخاء على الكراسي، في الظلّ، إلى جانبهم أجهزة الإرسال ذات الهوائيات الطويلة، في أحضانهم الرشاشات الآلية في وضعية التلقيم.
قال أونو: «الرّب والعنف. هذا هو الحال هنا منذ أربعة آلاف سنة».
استدار الدرج بمقدار تسعين درجة - وفي تلك اللحظة توقّفا عن السير.



استدعى المشهد مدينة البندقية إلى ذهن كويتن برهة قصيرة، عندما كان يخرج من متاهة الحارات إلى ساحة سان ماركو، ولكن هناك كان يسود الفنّ والجمال، المفعمان بالهواء والبحر والخفة الحائمة - أما هنا فيحدث شيء مختلف كلّ الاختلاف: شيء ليس جميلاً، بل ساحقاً. راوده شعور بأنّ المنظر الذي يشاهده ليس أمامه فحسب وإنما في داخل كيانه أيضاً، مثل بذرة في فاكهة - مثلما راوده الشعور بكلمة «الشهادة» على متن الطائرة يوم أمس. تمتدّ أمامه ساحة كبيرة، حارّة حرارة الفرن، ممتلئة بهمهمة الناس، وقرع الطبول، والزغاريد المججلة الغريبة المنطلقة من حناجر النساء، يحدها على الطرف الآخر حائط المبكى الأصفر الضخم. الحائط لا يشكّل فاصلاً بين مساحتين، مثل سور مدينة، بل له هيئة جدارٍ صخري. في المساحة الواقعة فوقه تلمع القبتان الذهبية والفضية، اللتان رآهما من سيارة

الأجرة؛ يتناهى من هناك نحيب المؤذن المضخم إلكترونياً. الأديان في هذه المدينة ليست بعضها بجانب بعض فحسب، بل ومكدسة بعضها فوق بعض أيضاً.

قال أونو: «ذلك الحائط هو الشيء الوحيد المتبقي من مجمّع هيكل هيرودس، الذي كان يقوم على قمة تلك الهضبة المنبسطة. إنه على حدّ علمي لا يُدعى «حائط المبكى» لأنّ الناس سيكون على اضطهاد اليهود منذ قرون، على النحو الذي حدث في أوشفيتز وغرف الغاز، وإنما على تدمير الهيكل على يد الرومان. هذا سيستهويك». وألقى نظرة مضطربة على كويتن: «إنهم يصلّون من أجل إعادة بنائه ومن أجل مجيء المسيح».

نظر كويتن إلى الأعلى. هنا وهناك على الحائط يرباط جنديّ ببنديّة: «كيف يمكننا الصعود إلى هناك؟».

بدأ أونو ينزل الدرجات الأخيرة وهو يشعر بالدوار: «الآن وأنا في القدس، أريد أولاً أن أُجبل النظر قليلاً هنا في الأسفل. هل تدرك ماذا تعني لي هذه الأشياء كلّها؟ هذه الجبلية كانت تُحشر في رأسي بقوة المطرقة طوال فترة طفولتي. ليست مصادفة أن تتجول أختي هنا هي أيضاً».

كان المزاج العام عند قدم الحائط أقرب إلى الاحتفال منه إلى الرثاء. الساحة مجرّاة بأسيجة إلى جزء مخصّص للرجال، وجزء أصغر للنساء؛ عند المدخل حصل كلّ منهما على كياه ورقية -ربما طُويت بيد الفلسطينيين في السجون- واختلطاً على مدى نصف ساعة بالحشد المتديّن. على عرض الجدار بأكمله، النامية عليه حزمٌ من أعشاب ضارة، يقف المؤمنون بوجوههم إلى الحجارة الضخمة، التي اصطبغ الصّفّان السفليان منها باللون البنّي من أثر الأيدي والشفاة التي ضُغِطت عليهما على مدى عشرين قرناً من الزمن. كان اليهود الأرثوذكس في السراويل القصيرة، بالقبعات المستديرة والصفائر المسدلة على خدودهم، يتمادون في حركات ارتجاجية غريبة من نوعها، مثل دمي متحرّكة، بينما يقرؤون في الكتب؛ رجالٌ مسنّون بلحى شائبة جالسون على كراسي بوجوههم إلى الحائط، يقرؤون هم أيضاً. عندما بدأ كويتن ينتبه لهذا الأمر، رأى أنّ كلّ شيء يمتّ بصلّة إلى القراءة. كانت شقوق ما بين الحجارة مملوطة بأوراق صغيرة مطوية لا حصر لها، مكتوبة عليها أمنيات بطبيعة الحال. قال أونو: «صحيح. إنك هنا في عالم الكتاب. أنا نفسي أنحدر منه. لعلّك يجب أن تُسرَّ بأنك بقيت مصوناً منه، ولكن لعلّك يجب ألا تُسرَّ أيضاً».

هنا وهناك تقوم طاولات عليها كتب، يتصفّحها الناس أحياناً برهة قصيرة؛ بين حين وآخر يأخذ أحدهم نسخة معه إلى الحائط. في الركن الأيسر من الساحة، خطا كويتن بضع خطوات من تحت قنطرة حجرية إلى مساحة مظلمة، ذكّرت به رهة قصيرة بالحصن، وفيها مزيد من الكتب على الرفوف. فجأة ظهر موكبٌ صغير غير منظم من الكهوف: رجال في ملابس الصلاة، بأغطية على رؤوسهم، يخرجون بصندوق خشبي مفتوح إلى الضوء. يتضمن الصندوق ليفيتين كبيرتين بكتابة عليهما.

قال أونو بنبرة ساخرة وهو ينظر إلى كويتن من الجانب: «ها هي ذي الشريعة اليهودية. إنها التوراة».

طبعاً سمع كويتن النبرة الخفية في صوته، لكنّه تجاهلها. أخذوا الليفيتين وهم يلمسونهما ويقبلونهما أثناء السير صوب السياج الذي يفصل الجزء الخاص بالنساء، حيث تعالت تلك الزغاريد المجلجلة مرةً أخرى. كان نوعاً من إدخال صبي في نحو الثانية عشرة في العهد؛ لفّ رجال بكياهاات بيضاء ولحى سوداء شريطاً غامضاً حول ذراعه اليسرى العارية وثبّت على جبينه مكعب صغير غريب، شبيه بقصص الخيال العلمي، بينما يقرأ حاخام أبويّ في رداء ذهبي اللون، التوراة التي جلبوها معهم. ألقت النساء والفتيات المهلّلات قطع السكاكر من فوق السياج.

- ماذا يوجد في ذلك المكعب؟

- النصّ. الوصايا.

شعر كويتن بالغيرة. لم يحدث أن حظي بهذا القدر من الاهتمام. لماذا هذا الصبي وليس هو؟ لأنه فقط يهوديّ وهو لا؟ لكنّه بالمقابل اكتشف شيئاً بمبادرة ذاتية لا يحلم به هذا الصبي ولا هؤلاء الناس كلّهم!

- هل نصعد إلى فوق؟

على الجانب الأيمن من الحائط، هناك درب أسفلتي يؤدّي إلى فوق بانعطاف طفيف؛ مرّاً من جانب صفّ متواصل من السائحين المنشغلين بالتقاط صور وتصوير أفلام، وبلغا بوابة يفتش أمامها رجال الشرطة بمسدّسات رشّاشة على أكتافهم الحقائق كلّها. يجب ترك الأمتعة الأكبر حجماً عند البوابة.

سأل أونو بصوت خافت، بينما ينتظران دورهما: «هل ترى كيف تسير الأمور هنا؟

جدران شاهقة من كل الجوانب ببوابات خاضعة لحراسة شديدة. هناك في الأسفل أقدس مكان بالنسبة إلى اليهود، وهنا في الأعلى ثالث مكان مقدس بالنسبة إلى المسلمين منذ ما يزيد عن ألف سنة، إن لم أكن مخطئاً - بعد مكة والمدينة. هذا الوضع قبله ذرية دينية من نوع معين؛ لو حدث تصادم، لتجاوز الكتلة الحرجة وانفجر العالم بأسره. لقد فهم الإسرائيليون هذا حقّ الفهم، ولن تستطيع النفاذ من خلالها إلى الداخل بلوحيك الحجريين على الإطلاق، رغم أن لا أحد يعرف في أي صورة تراها بتفاؤلك اللانهائي. يمكنك نسيان ما تسميه أنت «إعادتهما»، لأنك هنا لا تتعامل مع جماعة من الكهنة المستئين الناعسين المصنوعين من الزبدة. إن لم يكن اسمك نبوخذ نصر أو تيتوس، فعليك أن تأتي بشيء آخر».

هزّ كويتن كتفيه بنفاد صبر: «سأرى».

كان يشعر بالتوتر. في البوابة هناك طاولة، حيث يجب على النساء ذوات السيقان العارية ارتداء تنانير رمادية طويلة إلى الكاحلين؛ عندما خرج من ظلّ البوابة إلى جانبها الآخر، توقف في ذهول وأجال النظر في ساحة الهيكل الهادئة المترامية. استدعى جو الغياب إلى ذهنه مرجح القريب من خروت ريخترن، حيث البقرة الحمراء، وشجرتا النغت، والأحجار الضالّة الثلاثة. ليس هناك أناس أقلّ بكثير من الموجودين في الساحة في الأسفل فحسب، بل يتسم الصمت أيضاً بطابع مترقّب غريب، مثل الثواني التي تنقضي بين وميض البرق وهزيم الرعد... أم أنه مجرد استنزاف من الماضي - من كلّ ما حدث على هذه الهضبة المسطّحة من دين، وقتل، ودمار، على مرّ القرون؟ هناك على بُعد مئة متر، إلى اليسار قليلاً من الوسط، على مصطبة معلّاة، حرّم عريض باللونين الأزرق والأخضر البديعين: قاعدة ثمانية الأضلاع، تتوجّها قبة ذهبية، تطوّفها السماء منعدمة الغيوم مثل شمس ثانية. ينتصب هلالٌ على قمّتها. تتناهى زرقعة العصفافير من بين أشجار السرو والزيتون، المنبعثة من ظلالها في كلّ مكان في الجوار؛ أحد الجوانب يقدّم إطلالة فسيحة على هضبة خضراء مغطّاة بالكناثس، والأديرة، والمعابد، والمقابر.

ألقي كويتن نظرةً على الخريطة وأشار إلى الانحدار الشاعري: «هذا جبل الزيتون».

قال أونو: «يا إلهي! هذا أيضاً. كنتَ على صواب: كلّ شيء موجود فعلاً».

تقدّم منهما سيّد نحيف مسنّ بهيئة متردّدة، يرتدي حسب التقليد بدلةً رمادية مع قميص أبيض وربطة عنق؛ هناك ندفة قطن متناهية الصغر على خدّه. كحّ كحةً بسيطة خلف يده، وكأنه

لم يتحدث منذ وقت طويل، ثم قال بالإنكليزية بصوت مبحوح: «اسمي إبراهيم، أنا شاعر وأعيش في القدس منذ ثلاث وستين سنة. ستعرفان معي في غضون ساعة إلى أكثر مما ستعرفان إليه في غضون أسبوع من دوني».

انفجر أونو بالضحك: «بما أننا لسنا سائحين، فأنت الشخص الذي نحتاجه بالذات». باشر إبراهيم العمل على الفور. استدار نصف استدارة وأشار إلى المسجد الكبير ذي القبة الفضية، الذي يقفون على مقربة منه ولم يلفت انتباه كويتن بعد. تقف أمامه مجموعة من الطالبات العربيات المحجبات بمناديل بيضاء ويرتدين صداري فوق بناطيل طويلة. قال: «الأقصى».

أحنى أونو رأسه علامة الموافقة: «أبعد نقطة». فنظر إليه إبراهيم باندهاش: «تعرف هذا؟». - لكنني لا أعرف لماذا يُسمّى بهذا الاسم. أبعد نقطة من ماذا؟ من الجانب الآخر من الأرض؟

- أبعد نقطة وصل إليها الرسول. في ليلة من الليالي كان نائماً بجوار الكعبة في مكة... فسأل كويتن أونو بشكل تلقائي: «ما هي؟». - أقدس مكان في الإسلام، لكنّه أقدم من الإسلام بكثير. مكعب كبير فيه حجرٌ أسود: لعله نيزك.

- ... عندما جاء به حصان بوجه امرأة وذيل طاووس إلى القدس بسرعة البرق. ربط حصانه إلى حائط المبكى هناك في الأسفل، وصعد في الطريق الذي صعدتما فيه قبل قليل، ثم قام برحلته الليلية إلى السماء. فسأل أونو بحذر: «نفترض أنه كان يحلم؟».

أحنى إبراهيم رأسه: «هناك علماء يفترضون ذلك. هناك أيضاً علماء يفترضون أنه جاء بشخصه إلى هنا، ولكن رحلته إلى السماء كانت رؤيا». - وأنت ماذا تفترض بصفتك شاعراً؟

قال إبراهيم بابتسامة: «أفترض أنه لا فرق بين الحلم والحقيقة بطبيعة الحال. أحلام الشاعر هي أفعاله».

- مرحى يا سيّد إبراهيم!

سأل كويتن وهو يشير برأسه إلى المسجد: «هل صعد محمّد من ذلك المكان تحديداً؟». أشار إبراهيم إلى المبنى ذي القبة الذهبية: «من ذلك المكان. ثم إنه لم يصعد، بل عرج إلى السماء على سلّم من النور. في هذا الصدد، لقد نزل هناك أيضاً بالطريقة نفسها، وقبل طلوع النهار كان البراق قد عاد به إلى مكّة».

فسأل أونو: «البرق؟ هل جاء على صهوة حصان وعاد على شعاع برق؟». أجاب إبراهيم: «هذا اسم الحصان: البراق». وأوماً إيماءة داعية: «هل نقوم أولاً بجولة في المسجد؟ هذه البوابة القوطية بناها الصليبيون بمحاذاة قبل تسعمئة سنة؛ لقد حولوه إلى كنيسة بشكل مؤقت، أطلقوا عليها اسم تَمبلوم سالو مونيس^(*)». ألقى كويتن نظرة لا مبالية على القناطر المديّبة: «والهياكل اليهودية الحقيقية - أين كانت قائمة؟».

أشار إبراهيم مجدداً إلى القبة الذهبية: «هناك».

سأل كويتن بحاجبين مرفوعين: «هناك أيضاً؟».

نظر إليه إبراهيم بعينين دكناوين وتنحنح مجدداً: «كل شيء هناك».

قال أونو: «هذا كثير يا سيّد إبراهيم!».

- أنت تعلم ما يقوله اليهود عادة: «اليهود يبالغون دائماً، والعرب يكذبون دائماً» - فاحكم أنت بنفسك. يبدو أنّ المسجد لا يثير اهتمامكما.

ساروا من جانب حوض وضوء معمّق، محاط بكراسي حجرية ذات ذراعين، في خطّ مستقيم صوب السلّم العريض، المفضي بعد نحو أربعة أمتار من الصعود إلى المصطبة؛ في أعلى الدرجات هناك ممرّ مقنطر قائم بذاته، مكّون من أربع قناطر متأثرة بالعوامل الجوية. رأى كويتن أنّ المبنى المقبّب يزداد إغراضاً كلّما اقتربوا منه، شأنه في ذلك شأن المنارة، التي لا تريد أن تُرى أيضاً إلا من مسافة بعيدة. النصف السفلي من القاعدة، المكسوّ بالرخام الأبيض، ينساب في زخارف في البلاط وافرة التلوين، تتوجّها عند الأفاريز العلوية آيات من القرآن بخطّ عربيّ منمّق. أخبرهما إبراهيم بأنّ قبة الصخرة يُنظر إليها على العموم

(*) باللاتينية وتعني: هيكل سليمان. [م]

على أنها مسجد، لكنّها ليست مسجداً، إنما هي ضريح، بناه الخليفة عبد الملك في القرن السابع - فناجى كويتن نفسه وهو يخلع حذاءه في المدخل: ولكن حسب تصميم مهندس معماري مسيحي، إذ لم يبدُ له أنّ هذا الشكل ثمانيّ الأضلاع من التصميم الإسلامية حقاً. ثمانيّ الأضلاع هو شكل معابد التعميد، مثل تلك المعابد التي رآها في فلورنسا وروما؛ تذكر أنّ السيّد ثيمات قال له إنها تمتّ بصلة إلى «اليوم الثامن»: قيامة المسيح - التي حدثت هي أيضاً هنا في مكانٍ ما في الجوار. ولكنّ السيّد ثيمات لم يخبره أيّ شيء عن هذا المبنى.

ساروا على السجّاد إلى الداخل بأقدام مغمدة بالجوارب. توقّف كويتن بعد بضع خطوات. انبهرت أنفاسه. هل ما يراه يمكن أن يكون صحيحاً؟

*

صخرة. في مركز المساحة خافّة الضياء، داخل حلقة الأعمدة التي تحمل القبة، مطوّقة بدرابزين من الخشب، ليست هناك سوى صخرة عملاقة، بطول إنسان، غير منتظمة السطح. بينما ينظر إليها، أحسّ بعيني والده مسمرتين عليه، لكنّه لم يبادلّه النظر. الصخرة التي لها شكل شبه المنحرف إلى حدّ ما، صفراء صفرة الذهب، مثل مدينة القدس بأسرها؛ يبدو أنّها قمّة جبل الهيكل. كم يبلغ ثقل هذا الشيء يا تُرى؟ خلال الأسابيع الثلاثة الماضية أخذ كلّ شيء يزداد في الثقل: بعد خفّة البندقية، كانت واجهات البيوت الكثيرة القائمة في فلورنسا، ثم الآثار الرومانية الغائرة، قبل قليل حجارة حائط المبكى الهائلة، وما هو ذا الآن يقف وجهاً لوجه أمام أثقل الأشياء: الأرض نفسها - لكنّها في الوقت نفسه عديمة الوزن في الواقع، عندما تدور في مدارها حول الشمس، حسبما أخبره ماكس في إحدى المرّات. إنه مكان مقدّس - أم يتأتّى هذا الشعور فقط من الطريقة التي يُعرض بها هذا المكان، مثل حجر كريم في إطارٍ ذهبيّ؟ هل تستطيع أن تجعل من كلّ شيء شيئاً مقدّساً بهذه الطريقة؟ لماذا لا يوجد هنا أكثر من سائحين أو ثلاثة؟ في الشرفة العريضة على الجانب الآخر من دائرة القناطر تجلس نساءٌ عربيّات على الأرض هنا وهناك، مشيحّات بوجوههن، مرتديات عباءات بيضاء طويلة تغطّي حتى رؤوسهن.

في ركنٍ من أركان الدرابزين ينتصب بناءٌ مرتفع على شكل برج، تُحفظ فيه، حسبما قال إبراهيم، ثلاث شعرات من لحية الرسول. ثم أشار إلى تجويف في الصخرة وقال: «هذا أثر قدمه، عندما انطلق في رحلته الليلية».

تابع وهو يشير إلى عدد من الخطوط العريضة في الطرف الجانبي من الصخرة: «وهنا ترى آثار أصابع الملك الأكبر، الذي ثبتَّ الصخرة، لأنها أرادت مرافقته إلى السماء. كان الملك هو غابريل^(*)»، كما تسمّونه، الذي أملى القرآن على الرسول». أجال كويتن عينية على الصخرة، ثم سأل: «وهل كانت هياكل سليمان وزربابل وهيرودس قائمة هنا أيضاً؟».

- هذا ما يفترضونه.

- ولكن ألا يمكن التحقق بسهولة؟ لماذا لا يقوم اليهود بشيء من أعمال التنقيب هنا في الجوار؟

رسم إبراهيم تجاعيد ساخرة على جبينه: «لأنّ سلطانتا الدينية لا ترغب في رؤية اليهود يقومون بشيء من أعمال التنقيب هنا في الجوار».

- ولذلك لا يفعلون؟

- حتى الآن لم يفعلوا.

قال أونو بالهولندية: «يمكنك إثبات ذلك إلى حدٍّ معيّن انطلاقاً من العهد الجديد. هل تتذكّر ذلك النص في قبة بازيليك القديس بطرس: "أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة؟" المسيح قال ذلك في أغلب الظنّ بنبوة خاصة جداً: "أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني هيكلي"» - وأشار إلى الصخرة - «هذا يعني تمييز الهيكل على هذه الصخرة».

انتظر إبراهيم بأدب حتى أنهى أونو حديثه. رأى عليه كويتن أنه لم يرّقه عدم إشراكه في الحديث، وبينما يواصلون سيرهم بهوادة، في اتجاه عقارب الساعة، سأله: «هل كان قدس الأقداس يقوم هنا؟».

أجاب إبراهيم: «حسب رأي البعض. وحسب رأي البعض الآخر كان هذا هو المكان الذي قام فيه مذبح المحرقة».

وأشار إلى شعاع من الضوء يتصاعد من الصخرة على الجانب الآخر: «هناك توجد فتحة في الصخرة، نفّذي إلى كهف؛ لعلّ دماء الأضاحي كانت تسيل عبرها وتختفي فيه. في تلك الحالة، فإن قدس الأقداس كان يقع إلى الغرب قليلاً».

(*) غابريل: هو جبريل. [م]

تلمس كويتن تحت قميصه باحثاً عن البوصلة، فتحسّس في أول الأمر نجمة داود الجديدة في عنقه. كان المدخل الذي دخلوا منه يطلّ على الجنوب على وجه التحديد، في خطّ مستقيم مع المسجد الأقصى، الموجّه إلى مكّة بطبيعة الحال. هذا يعني أنّ الغرب في اتجاه حائط المبكى، والشرق في اتجاه جبل الزيتون. في هذه الجهة أيضاً هناك أبواب للمعبد. قال بينما يستأنفون السير: «ولكن حتماً لم يأت محمّد إلى هذا المكان بالذات ليقوم برحلته إلى السماء، لأنّ الهياكل اليهودية كانت موجودة فيه، أليس كذلك؟».

قال إبراهيم بابتسامة: «لا. العلاقات إلى الآن ليست على هذا النحو».

- لماذا إذاً؟

- لسبب يمتّ أيضاً بصلة إلى بناء المعابد اليهودية في هذا المكان.

سأل أونو: «والسبب هو؟».

بدا وكأنّ الطريقة الاستجوابية، التي يريد كويتن الوصول بها إلى الحقيقة مرة أخرى، قد انتقلت إليه بالعدوى هو أيضاً.

نظر إبراهيم من أحدهما إلى الآخر بشيء من الاندهاش: «هذا يبدو مثل تحقيق صليبيّ». فقال كويتن بحسم: «وهو كذلك».

قال إبراهيم بنبرة رسمية: «هناك اعتقادات متوارثة من شتى الأصناف مرتبطة بهذا المكان. هل ترضيان بأربعة اعتقادات؟ الأول هو أنّ الملك داود رأى الملاك الذي كان يوشك على تدمير القدس واقفاً على هذه الصخرة. عندما زال ذلك الخطر بنى مذبحاً هنا. أقام ابنه، سليمان، الهيكل الأول هنا بعد ذلك».

- والاعتقاد الثاني؟

- يقول الاعتقاد إنه قبل ألف سنة من ذلك، كان الأب يعقوب قد حلم هنا بسلم صاعد إلى السماء، كانت الملائكة تنزل وتصعد عليه.

رفع أونو إحدى ذراعيه وأخذ يتلو: «وخاف وقال: ما أُرهب هذا المكان! ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء!». وأضاف بالإنكليزية: «هذه كانت بالهولندية».

قال إبراهيم: «لغة جميلة. تشبه العربية قليلاً. حروفها حلقية أيضاً».

- هذا صحيح. زملاؤك لا يكلّون ولا يملّون من قول: «ألماختخ أختتختاخ».

نظر إليه إبراهيم معاتباً، وقال بصوت بدا أكثر بحة بصورة مفاجئة: «إنهم ليسوا زملائي». ندم أونو في اللحظة نفسها على إبداء هذه الملاحظة. لعل إبراهيم شاعرٌ حقيقي يكسب قوت يومه من عمله دليلاً سياحياً، وليس دليلاً سياحياً يكتب أشعاراً بغیضة في أوقات فراغه. كانوا في تلك الأثناء قد ساروا حول الجزء الضيق الشمالي من الصخرة، حيث تجلس النساء باللباس الأبيض أيضاً في كل مكان. أخذ شك كويتن يتضاءل مع كل خطوة وكل كلمة بأنّ قدس الأقداس كان قائماً هنا. سأل: «ولماذا نام يعقوب هنا بالذات؟».

مرّر إبراهيم راحة يده على شعره الشائب الخفيف: «لأنه كان قد حدث هنا شيء آخر في زمن سابق. فهذا هو المكان الذي كان جدّه إبراهيم سيضحي فيه بأبيه إسحاق». قال أونو بالهولندية مجدّداً: «صحيح، ولكن الملاك الأكبر حال دون ذلك في اللحظة الأخيرة».

سأل كويتن: «غابرييل؟».

أوما إبراهيم إيماءة ارتياب: «ميكائيل، إن لم تخنّي الذاكرة. في ذلك الوقت كانت الصخرة مذبحاً أيضاً بمعنى معيّن: للقرابين البشرية. هذا هو السبب الذي جعل الرسول يأتي إلى هنا بالذات - أو بالأحرى: الذي جعل غابرييل يأتي به على حصانه إلى هنا بالذات. عندما وصل، رحّب به إبراهيم، وموسى، ويسوع في هذا المكان».

قال أونو: «نعم، نقبل كل ما تقوله من دون أيّ تدقيق، لأنّ هذه هي طبيعتنا. لكنني بدأت أتطلّع فعلاً إلى سماع الاعتقاد الرابع، لأنني أستشفّ خطأً تصاعدياً في الأحداث، على النحو الذي تسرده يا سيد إبراهيم».

وتوقّف لحظة: «ما الذي تسمعه أذني من فمي؟ إبراهيم؟ هل سُميت على اسم إبراهيم؟».

انحنى إبراهيم انحناء خفيفاً: «لقد أسبغ عليّ والدي هذا الشرف».

توقّف عن السير في الجانب الشرقي، حيث تنخفض الصخرة وتجلس امرأة مصلية في اللباس الأبيض، متكّومة على نفسها في كوة، مثل فراشة ليل، بظهرها إليهم، قال وهو يمدّ إحدى ذراعيه: «القدس مركز العالم اليهودي طبعاً، ولكن بالنسبة إلى اليهود كانت هذه الصخرة منذ غابر الأزمان مركز المركز».

ردّد كويتن بعينين متّسعيتين: «مركز المركز؟».

قال إبراهيم بوقار: «هذه الصخرة لم تحمل الهياكل فحسب، لكنّها حجر الأساس لبناء العالم بأكمله حسب رأي اليهود. لقد بدأ خلق السماء والأرض هنا - انبعث النور الأول من هذه النقطة».

ناجى أونو نفسه: إنه الانفجار العظيم إذّا؛ من المؤسف، لم يعد بمقدور ماكس معايشة هذا البرهان الملموس لتلك النظرية - الدين بصفته الإشعاع الأولي الديني...
نظر إلى كويتن بقلق. ثمّة شيء يختمر في رأسه مرة أخرى؛ ولكن أياً كان هذا الشيء، فلن يشارك هو نفسه فيه.

توجّه إبراهيم بالحديث إلى كويتن حصراً، ربما لأنه رأى التعبير الشكوكي على وجه أونو: «في هذه الصخرة تجتمع السماء والأرض والعالم السفلي. ما دام الرب يُعبد هنا، فسوف يكبح مياه العالم السفلي المدمرة، التي تفجّرت في أيام نوح».

- ولكن هذا يعني أنه لم يعد يُعبد هنا.

- ليس بالطريقة اليهودية.

تنهّد كويتن بعمق. لقد أيقن تمام اليقين أنّ هذا هو المكان الذي قام فيه قدس الأقداس. فجأةً بلغ خطوة أبعد من مركز العالم - وصل أبعد من حلمه. هنا في مركز المركز قام تابوت العهد، وفي ما بعد رقد لوحا الشريعة على هذه الصخرة. اعترته رغبةٌ شديدة في التسلّق عليها ليرى ما إذا كان هناك تجويف، حفرة أرميا، يمكن أن يكونا قد رقدّا فيه. في تلك اللحظة نفسها رأى تلك الرقعة، على مسافة قريبة منه، على حافة الصخرة، في المكان الذي تصلّي فيه المرأة باللباس الأبيض: فجوة مستطيلة عرضها عشرون سنتيمتراً وطولها خمسون سنتيمتراً، يمكن للوحي الشريعة أن يتّسعا فيها على وجه الدقة.

رأه إبراهيم ينظر إليها فقال: «هذا أثر قدم إدريس، المعروف بأخنوخ في الكتاب المقدّس».

«بابا...»، قال كويتن وهو يشير إليها دون أن يضيف شيئاً.

فهم أونو قصده على الفور فأدار عينيه بيأس في محجريهما: «متى ستوقّف أخيراً عن هذا الهراء المزعج يا كويتن؟ ألم نورّط نفسيينا بما فيه الكفاية؟».

وثارت ثائرته بصورة مفاجئة: «ألم يحن الوقت لأن تدرك أنّ ما أحضرته من روما ليس

سوى قمامة لا تُوصف، ليس سوى زوج قرميد سطح قديم، وهذه الفجوة هي أقرب إلى أثر قدم أخنوخ منها إلى ما تعتقده أنت. قياس الحذاء ثمانية وثمانون!». - ربما كلاهما.

فقال أونو: «هراء، هراء ما بعده هراء! والآن أريد الذهاب من هنا على الفور، لم أعد أتحمّل». ثم لإبراهيم: «سندهب». - ألا تريدان رؤية الكهف، بثر الأرواح... - سندهب.

لم تؤثر سورة غضب أونو في كويتن. لوحا الشريعة في حوزته وقد كانا موضوعين في هذه الفجوة على مدى قرون، في ظلام الدبير الشامل، لا يلفتان الأنظار إطلاقاً، على الجهة الجانبية تماماً.

عندما خرجوا من البوابة الشرقية، إلى الحرّ والضوء المبهر على البلاطات الرخامية البيضاء المرصوفة بها مصطبة الهيكل، قال: «لا أنوي حقاً إعادتهما إلى هناك». - ولن تنجح في ذلك أيضاً.

- لست متأكداً من هذا، لكنني إذا وضعتهما هناك، سيجدهما العرب في اليوم التالي، ولعلها ستكون كارثة أكبر مما لو وقعا في أيدي اليهود.

- افعل ما يحلو لك! لا أريد بأيّ حال من الأحوال سماع كلمة أخرى عن هذا الأمر. وسأتوخى الحذر لو أنني مكانك. إذا كنت ترغب في أن يقتلك الرجال المسلمون وهم يرغون ويزبدون، فافعل شيئاً هنا. أنت تلعب بالنار.

استأنف إبراهيم، الذي كان قد بقي جانباً بشكل مهذب، مهمته، فأشار إلى قبة فضية صغيرة، قريبة من البوابة، محاطة بسقالات، مطوّقة بسياج. هذه هي «قبة السلسلة» - يرجع تسميتها إلى سلسلة فضية علّقها فيها الملك داود، هدية من الملاك جبريل: إذا كذب شخصٌ وهو يحملها، سقطت حلقةٌ منها. لم يعد أونو يصغي السمع، فهو لم يعد يكثر، أما كويتن فأخذ ينظر من خلال شقٍّ إلى الداخل. جهاز كشف الكذب الخارق للطبيعة نسخة مصغرة من قبة الصخرة، لكنّه مفتوح من كلّ الأطراف؛ الأرض منثورة بشظايا، أحجار مكسورة، قطع وأجزاء، أدوات عمل، علب معدنية متهاكة، خرق وزجاجات بلاستيكية؛ في وسطها يقوم منشار حجر كهربائي. ليس هناك أحدٌ من العمّال. في الجهة الشمالية من قبة الصخرة هناك

مبانٍ صغيرة أخرى، لكنّه هو أيضاً شعر بأنه رأى ما يكفي. ذهب إلى أونو؛ كان يقف في ظلّ القناطر في أعلى الدرج الشرقي في مصطبة الهيكل ينظر إلى جبل الزيتون.

كان إبراهيم لا يعرف التعب. قال بنبرة مالكٍ فخور وهو يشير إلى قدم الهضبة: «هناك بستان جنسيماني، الذي قام فيه يسوع المسيح...».

- أعرف، أعرف.

- هناك قبر والدته، وهناك في قمّة.. هل ترى تلك القبة الصغيرة؟ صعد من هناك إلى السماء.

بدأ أونو يشعر بالدوار، فاتكأ على عصاه بكلّ ثقله، وقال لكويتن: «آمل أن يكون لديهم هنا في القدس موظف ينظّم حركة المرور العمودية لتجنّب الازدحام».

انفجر كويتن بالضحك؛ لقد سُرَّ بأن نوبة الغضب قد ولّت. رغم شعوره بأنّ والده قد ينزعج مرة أخرى، سأل إبراهيم: «هل تعلم أيضاً أين كان معسكر تيتوس؟».

أشار إبراهيم إلى الجناح الشمالي من جبل الزيتون: «في مكانٍ ما من تلك البقعة. كان غزاة القدس يأتون دائماً من الشمال».

نظر كويتن حوله وفتح الخريطة. هذا يعني أنّ لוחي الشريعة والمينوراه وتلك الأشياء كلّها نُقلت من الهيكل عبر هذا الطريق نفسه، من المصطبة إلى الأسفل، ثم عبر وادي قدرون إلى الطرف الآخر. لفتت انتباهه بوابة حراسة غريبة، قبالة على نحو مائل، في الجدار الشرقي من الهضبة المنبسطة، محاطة بالأعشاب والأشجار: غائصة بعمق في الأرض، لها صحنٌ مزدوج، يتوجّها برجان منخفضان لكلّ منهما قبة مسطّحة؛ مدخلاها الاثنان مسدودان بالحجر والأسمنت. فوق واجهتها المزوّدة بفتحات مراقبة، يربط جنود إسرائيليون بقبعات خضراء.

- ما نوع تلك البوابة؟

فأجاب إبراهيم وهو يرفع يديه: «آه! البوابة الذهبية! حسب رأي اليهود، إنها البوابة التي دخل منها الربّ إلى هيكلهم ليعتلي عرشه هناك. يجب أن تبقى مغلقة حتى مجيء المسيح، في آخر الزمان. لهذا السبب يريد كلّ يهوديّ متديّن أن يُدفن هناك على انحدار جبل الزيتون».

أشار أونو بعصاه إلى الجنود المرابطين على السطح: «سيطلقون الرصاص على المسيح في الحال».

ظهرت ابتسامة ساخرة على وجه إبراهيم: «وليس هذا فحسب، المسيح يواجه مشكلة

ثانية. على الطرف الآخر من السور، هناك قبور المسلمين، لا يجوز له السير عليها، لأنّ هذا شيء غير طاهر».

قال كويتن: «يا له من لؤم أن يتخذوا مقبرة من ذلك المكان».

ضحك أونو: «ها أنت ذا ترى، إنهم يمشون فوق الجثث هنا - أو لا؛ كيف يجب أن تقولها؟».

أضاف إبراهيم: «المسيحيون يرون أنّ البوابة الذهبية ترمز إلى مريم، التي جاء من خلالها المسيح إلى الدنيا وبقيت عذراء قبل ولادته وأثناءها وبعدها؛ بقيت مغلقة، إذا جاز التعبير». هذه الكلمات أصابت كويتن بشيء من الإرباك. ألقى نظرة خجولة إلى البوابة المحاطة بالأسرار، وفكر برهة قصيرة في والدته؛ من أجل إخفاء إرباكه أخذ ينظر في الخريطة، التي كانت لا تزال مفتوحة بين يديه. لفت انتباهه بصورة مفاجئة أنّ ساحة الهيكل بأكملها لها شكل شبه المنحرف، شأنها في ذلك شأن المصطبة المعلّاة في قبة الصخرة. أراها لوالده.

- ما الشيء المميّز في هذا؟

- حسناً، الصخرة التي رأيناها قبل قليل كان لها شكل شبه المنحرف أيضاً.

-نعم، هذا صحيح.

لم يعرف كويتن أيضاً ما السبب في هذا الشيء. هل الصخرة نموذج عن المصطبة والساحة؟ ساحة سان ماركو في البندقية كان لها أيضاً شكل شبه المنحرف - لقد رآها في غاية الجمال. هل كلّ الأشياء التي لها شكل شبه المنحرف تمتّ بصلّة بعضها إلى بعض من خلال هذا الشكل؟ أو كل الأشياء الكروية؟ هل العين تمتّ بصلّة إلى الشمس؟ نعم، طبعاً، بكلّ الصلة. وإلى كرة القدم؟ الكرة، الدائرة، ثمانيّ الأضلاع، المربع، القطع الناقص، المستطيل، المثلث، المكعب، الهرم - هذه الأشكال كلّها التي عرّفه بها السيّد ثيمات في أول الأمر، ما رسالتها الحقيقية؟ وما هي في حدّ ذاتها؟ هل هي موجودة في مكانٍ ما في الحقيقة؟ أهي موجودة في المكان الذي تأتي منه الموسيقى؟ عاود النظر في الخريطة ورأى أنه ليست قبة الصخرة وإنما قبة السلسلة هي التي تقوم بالضبط في مركز ساحة الهيكل.

قال أونو بينما يجيل عينيه على جبل الزيتون، وجبل سكوبس^(*)، وجبل صهيون: «لأقول

(*) يدعى أيضاً جبل المشارف. [م]

لك الحقيقة، بدأت أشعر بالإعياء من هذه الميتافيزيقيا كلّها، هنا. صار الطقس شديد الحرارة أيضاً. ما رأيك في أن نستقلّ الباص ونذهب لشرب شيء في الجزء الغربي، في البلدة الجديدة؟ لا يمكن أن يحدث لنا شيء هناك، على ما أعتقد».

والتفت إلى الورااء: «أين ذهب شاعرنا؟ لا يزال علينا أن ندفع له».

- إنه يذهب هناك.

ورأيا إبراهيم في اللحظة التي كان ينزل فيها الدرج الشمالي في مصطبة الهيكل، واضعاً يديه على ظهره، مائلاً رأسه إلى الجانب بعض الشيء، مثل سيّد نبيل حقيقيّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

64. شاوان لاوان؟

نزلا من الباص عند تقاطع طرق مزدحم، وقطعا الشارع إلى مسار مشاة بمحلات تجارية، حيث أصبحت إحدى الطااولات شاغرة في تلك اللحظة على مصطبة مظلة.

قال أونو وهو يفرك فخذة اليسرى: «رائع! هنا نستطيع أخيراً الخوض في حديث عادي». كان القساوسة واليهود الأرثوذكس قد اختفوا من الشارع، حتى لقد أفسح السائحون المجال إلى حد كبير للنساء المتسوقات، والعمّال، ومجموعات من طلاب المدرسة. رغم أنه لم يكن يُرى أيّ عربي في الجوار، كان الجنود والجنديات يجلسون بكامل عدّتهم وعتادهم على حافة حوض كبير من أحواض المزروعات.

سأل كويتن: «ما السبب في أن يكون إبراهيم على هذه المعرفة كلّها بشخصيات الكتاب المقدّس؟ المسلمون لديهم القرآن، أليس كذلك؟».

تفرّس فيه أونو بضع ثوانٍ: «هل هذا ما تفهمه من حديث عادي؟».

- وما الشيء غير العادي فيه؟ أليس سؤالاً طبيعياً؟ أليست هذه الأشياء كلّها موجودة؟

قال أونو بإذعان: «حسناً، سأجيب عن سؤالك. الكتاب المقدّس والقرآن يتوافقان إلى حدّ كبير. حسب الإسلام، يملك الله في السماء النسخة الأصلية من النص المقدّس؛ التوراة والأنجيل طبعات محرّفة ومزوّرة عنه؛ القرآن وحده نسخة سليمة».

وأخذ يحدّق في كويتن وهو يحني رأسه إحناءات متتابعة: «نعم، يجب أن تتوفّر لديك الجرأة لتعلن أنّ جدّك وأباك هما ابنك وحفيدك... هذا صحيح. وهل يمكننا الآن تغيير الموضوع؟ أم لم يعد لديك أيّ إحساس بالواقع اليومي؟».

- هذا هو الواقع اليومي بالنسبة إليّ.

- هذا ما كنت أخشاه. ولكن ألا تشعر بأنّ هذا يمكن أن يُرهق الناس الآخرين غاية الإرهاق على المدى البعيد؟

- لكنّ الإنسان لا يتعب من التفكير وتعلّم الأشياء، أليس كذلك؟ أنا لا أتعب إلا عندما أشعر بالملل.

قال أونو: «أعترف بأن الملل لا يحظى بفرص كثيرة في جوارك» - ونظر حوله - «إنك محقّ طبعاً، هذه الأشياء كلّها موجودة، لكنّها ليست موجودة بالطريقة نفسها. هل استمعت ذات يوم إلى أحاديث الناس الآخرين؟ هنا على هذه المصطبة لن يكون بوسعك فهمهم، ولكنّ الناس يتحدّثون على العموم عن الناس - عن عائلاتهم ومعارفهم، أو عن زملائهم في العمل، أو عن السياسيين والرياضيين، وعن أنفسهم عموماً».

- وإذا أخذ التعب مني كلّ مأخذ من هذا النوع من الثرثرة؟ عندما يتحدّثون عن الأشياء، يكون حديثهم طوال الوقت تقريباً عن الأشياء التي يمكنك الحصول عليها، مثل السيارات والنقود. أنا لا أتكلّم إطلاقاً عن الناس، ولا عن نفسي، ولا عمّا أملكه.

- لا، أنت تتكلّم عن أشباه المنحرفات، أو عن الأحجار المقدّسة - وعندئذٍ لا تهتمّ تلك الأحجار، بل قدسيّتها، وما تعنيه. لا يهتمّ سوى المعاني والارتباطات. أعترف بأنني ربما حملتك هذا العبء، صحيح أنّ الأشياء المحسوسة ليست من نقاط القوّة لديّ؛ لكنني مع ذلك أفنقد طبيعتك التجريدية. هل دققت النظر في تلك الصخرة قبل قليل؟ هل تعرف أيّ نوع من الحجارة هي؟ غرانيت؟ حجر كلسي؟

- لماذا يجب عليّ تدقيق النظر فيها إذا كانت لا تعني شيئاً؟ هناك كثير من الصخور.

- هل تسمع ما تقول؟ إذا كانت إحدى الصخور تعني شيئاً، فلا تحتاج لأن تدقّ النظر فيها، وإذا لم تكن تعني شيئاً، فلا حاجة أيضاً. إذا فأنت لا تحتاج لتدقّ النظر في أيّ شيء في الواقع. هل أنت حقّاً من هذا العالم؟

لم يُجب كوينتن. لا أحد يعرف من هو - ولا حتى هو نفسه. ماذا يعني «هذا العالم»؟ الصبيان الذين يلعبون كرة القدم في فيستربورك، من هذا العالم - ولكنّ الشعور الذي كان يتأبهم عندما يحرزون هدفاً، يتأبهم هو عندما يخطر في باله شيء مثير للاهتمام. كلّ هؤلاء الناس الجالسين هنا، يثرثرون عن الناس الآخرين أو عن الأشياء التي تستطيع امتلاكها، مثل هاتين السيّدتين ذواتي الشعر الأبيض الجالستين إلى الطاولة التالية: لا شأن له بهذا

كله. أبحسن به إذا الترهّب في دير؟ أن يصبح واحداً من الكهنة؟ أطلب منهم ربط شريط أسود حول ذراعه عند حائط المبكى؟ عندئذٍ فكّر في ما يملكه، في اللوحين المكتوبة عليهما الوصايا العشر، اللذين رأى في وقت سابق أنهما من الياقوت - الشهادة، التي ليست ملكه في الوقت نفسه، والتي يجب عليه تسليمها اليوم أو غداً على أقصى تقدير بطريقة أو بأخرى. بعد ذلك لن يعود لديه ما يفعله هنا، ولا في دير أيضاً. أمس، في فرانسييس سيكون...

انقطعت سلسلة أفكاره، عندما جاءت فتاة لتسجيل الطلب. أشار إلى الطاولة المجاورة، الجالسة إليها سيّدة عجوز، بظهرها إليهما، وأمامها شراب برتقالي اللون: «ما هذا؟».

- عصير الجزر.

- عصير الجزر؟ لم أشربه قط.

قال أونو: «اطلبه إذاً! ألا تريد أكل شيء؟ كم الساعة؟».

- الثانية عشرة إلا ربعاً. لستُ جائعاً.

بعد أن طلب أونو فنجاناً من القهوة لنفسه، سأله: «هل نذهب إلى مكتب البريد بعد قليل، لتتصل بجذتك صوفيا؟ لقد نويّا فعل ذلك عندما كنا في السانكتا سانكتورم».

- وهل تريد إخبارها بكل شيء؟

- تصوّر لو أخبرها! في أغلب الظنّ سيتسبّب ذلك بحدوث ماسّ كهربائي في مقسم الهاتف. أريد طمأننتها فقط. لا أدري ماذا تنوي أن تفعل أيضاً، لكنّه سيعني على كلّ حال أن نعود إلى هولندا في نهاية المطاف.

فسأل كويتن: «نعم؟ وبعد؟!».

تنهّد أونو: «هذا لغزٌ بالنسبة إليّ أيضاً. عندما رأيت عمّتك ترييس في طريق الآلام قبل قليل، أحسست بأنّ ذلك علامة على أنّ ذلك العالم يُقبل عليّ مرّةً أخرى. ولكن ماذا سأفعل هناك؟ إنها ليست مشكلة بالنسبة إليك، فأنت في السابعة عشرة من العمر، وتستطيع سلك أيّ اتجاه تريد؛ أما أنا فلم يعد لديّ ما أنطلق منه. الحقّ أنني لم أعد سوى نوع من برج بابل سائر على قدمين. ماذا يجب أن يفعل شخصٌ كهذا؟ في عائلتنا يعمّر الجميع، ولا أستطيع البقاء هائماً على وجهي في العالم أربعين سنة أخرى».

كان قد وضع عصاه بين ساقيه المتباعدتين ويديه على مقبضها، فأسند ذقنه على يديه،

وأخذ ينظر إلى عابري السبيل. رأى كويتن أن هذه وضعية طاعن في السن، سأل: «ألا تستطيع بدء شيء جديد جدّاً؟».

- شيء جديد جدّاً.. قل لي شيئاً جديداً واحداً.

فقال كويتن: «أو شيئاً قديماً جدّاً. ماذا كنت تريد أن تصبح عندما كنت صغيراً؟».

وضع أونو خذّه على يديه ونظر إلى كويتن مستغرقاً في الأفكار: «ماذا كنت أريد أن أصبح عندما كنت صغيراً...».

- نعم، أول شيء كنت تريد أن تصبحه.

ردّد أونو، بشيء من النغم في صوته، مثلما في صلاة ابتهاال: «أول شيء كنت أريد أن أصبح...» - ورفع رأسه - «طبيب دُمي».

فردّد كويتن: «طبيب دُمي؟ وما هذا؟».

- شخصٌ يصلح دُمي معطوبة.

لم يفكر في هذا الأمر منذ ما يقارب نصف قرن، لكنّه الآن وقد قاله، فهم بصورة مفاجئة أنّ رغبته تلك كانت تمتّ بصلة إلى والدته، التي بقيت تُلبسه لباس الفتيات سنوات طويلة.

قال كويتن: «حسناً، فلتصبح إذاً طبيب دُمي!».

تراءى لأونو في تلك اللحظة نفسها أنه جالسٌ في محلّ صغير في مركز أمستردام، في شارع فرعيّ ضيق، تحيط به رفوف عليها مئات الدمى اللامعة الوردية، يصلح الجفون المتذبذبة، يركّب أصواتاً جديدة تصيح: ماما... قال: «سأفكر في الموضوع. ماذا فعل القديس لعازر يا ترى، بعد إحيائه من الموت؟».

- ألم يُذكر ذلك في الكتاب المقدّس؟

- لا أعتقد. أتذكر بغموض أسطورة تقول إنه ذهب إلى مارسيليا وصار فيها الأسقف الأول.

- لعلّه بقي يصدّع رؤوس الجميع بتجاربه في عالم الموت.

- لو كان الأمر كذلك، لعرفنا شيئاً عنه. أعتقد أنه لم يتحدّث عن ذلك قطّ.

وأدار رأسه إلى كويتن: «مثلما لن يكون بوسعي قطّ أن أتحدّث عن تجربة معيّنة».

عندما لم يردّ كويتن، قال: «سنحتاج إلى مسكن في أمستردام على كلّ حال. نستطيع

التزول في فندق في الأسابيع القليلة الأولى، ولكن بعد ذلك يجب عليّ استئجار بيت أو شراؤه. سأتصل بهانس غيلتاي في الحال. لا بدّ أنه سيندهش».

كان كويتن يعلم أنه لن يذهب معه، لكنّه لم يستطع قول هذا الشيء له. بمّ سيحب إذا سأله والده عن السبب؟ إنه هو نفسه لا يعرف. لا لأنه لا يرغب في الذهاب معه، بل لأنّ ذلك لن يحدث.

- قالت عمّتي دول إنّ أغراضك مخزّنة في روتردام، في منطقة الميناء.

قال أونو على الفور: «لا أريد أيّ شيء منها».

وفي اللحظة نفسها تراءى لعينه صندوق الكافور الصيني ذو اللون البنّي الغامق، المزّين بنقوش ثقيلة على مداره، المحتوي على ملابس آدا منذ سبع عشرة سنة.

قال كويتن: «تشيلو ماما موجود الآن في غرفتي في خروت ريخترن».

أحنى أونو رأسه ولزم الصمت.

وضعت الفتاة طلب كلّ منهما أمامه. أخذ كويتن رشفةً من عصير الجزر، فأدهشه أنه بطعم الجزر - أو بالأحرى، أدهشه تذوّق طعم الجزر دون أن يقرض ويقضم بصخب. أراد قول هذا لوالده، لكنّه رأى أنّ الدهشة قد تولّته هو أيضاً.

قال أونو مشدوهاً: «انظرا!»، وأشار إلى البسكويت البنّي الغامق المصنوع من السكر والفسقن المحمّصين، الموضوع على الطبق بجانب قهوته: «بسكويت الفستق! هل تذكره؟ الذي كانوا يقدّمونه لنا في بيت جدّتك تو. البسكويت الذي كان يقرمش بصخب في فمك».

وأخذ البسكويت بنّي اللون مدوّر الشكل بين أصابعه برفق، رفعه بيديه الاثنتين مثلما يرفع قسّيس الخبز المقدّس، وأوشك أن يقول باللاتينية: «أمي! هذا هو جسدك!»، لكنّه هتف فقط بتلهّف: «بسكويت الفستق!».

عندئذٍ وسّعت الدهشة من نطاقها. كانت السيّدتان المستّان الجالستان إلى الطاولة التالية تهتمّان بالمغادرة؛ إحداهما تنتظر في الشارع، بينما الأخرى -المرتدية فستاناً أبيض كريميّ اللون، بكمّين يصلان إلى ما تحت الكوعين بقليل - لا تزال تدفع الحساب للفتاة، فأدارت رأسها إلى أونو برهة قصيرة وهي تبسّم. قالت بالهولندية بلكنة عبرية قوية: «بسكويت الفستق، لم أسمع هذا الاسم منذ زمن بعيد».

لم ينظر كويتن إليها، كان انتباهه قد انجذب إلى الرقم الأزرق على ساعدها المغضن: 31415. عندما غادرتا، فتح أونو فمه ليقول شيئاً، لكنّ كويتن سأله: «هل رأيت ذلك الرقم على ذراعها؟ كنت أظن أنّ الرعاع وحدهم يتزيّنون بالوشم».

حملق أونو في عيني كويتن بجمود لبضع ثوان، ثم سأل وكأنه لم يستطع تصديق ما سمعه: «أكان هناك رقم على ذراعها؟».

- ثلاثة واحد أربعة واحد خمسة. ما الأمر؟ لماذا تنظر باستغراب؟

بدأ أونو يرتجف، وراوده شعور بأن الارتجاف قادمٌ من كرسيه، من الأرض، مثلما يحدث في بداية زلزال. لم يحوّل عينيه عن عيني كويتن.

سأل كويتن بقلق: «ما الأمر يا أبي؟ لماذا لا تقول شيئاً؟».

ما رآه، وما لم يره كويتن، كان لون عينيه - ذلك الأزرق اللازوردي العصبي على الوصف، الذي لم يره طوال حياته سوى عند شخص واحد: عند كويتن. أراد أن يقول له إنّ عينيهما مثل عينيه تماماً، ولكن عندما أخبره كويتن عن وشمها، عن ذلك الرقم، الذي كان الشخص يحصل عليه في أوشفيتز، تسبّب ذلك بماس كهربائي فوري في رأسه. هل رأى أشباحاً؟ لم يرغب في التفكير في ما يفكر فيه، فقد كان في غاية الفظاعة، مستحيل التصوّر. حاول إبعاده عن رأسه، إمساكه وسحقه تحت قدمه، مثل دبّور؛ لكنّه عالق به ولا يتزحزح من مكانه. يجب عليه التفكير في هذا الأمر، التفكير حدّ الهلاك، الآن وعلى الفور، ولكن ليس بحضور كويتن - يجب أن يفرد بنفسه. لا ينبغي لكويتن قطّ معرفة ما يفكر فيه. نهض مترنحاً، مستنداً على كرسيه: «أريد الذهاب، سأذهب إلى الفندق. ابتّ هنا، سأراك بعد قليل».

نهض كويتن أيضاً: «ليست هناك مشكلة في دماغك، أليس كذلك؟ هل يجب أن أتصل بطبيب؟».

- ليست هناك مشكلة في دماغي، أي... لا تطرح أيّ سؤال آخر لو سمحت!

- سأذهب معك.

دفع كويتن الحساب للنادلة، التي كانت تلملم طاولة السيّدتين، وأمسك أونو من ذراعه. عندما بلغا نهاية منطقة المشاة، أوقف سيارة أجرة وساعده في الركوب. لم يتحدّثا أثناء الرحلة القصيرة؛ راوده شعور بأنّ والده خائضٌ في صراع، لا يفهمه هو نفسه. هل أصيب بسكتة دماغية خفيفة مرّة أخرى، لكنّه لا يريد الاعتراف بها؟ لا ينبغي تركه وحده على كلّ حال.

سارت بهما السيارة من جانب سور البلدة القديمة صوب بوابة يافا ونزلا منها في الساحة، التي صارت مألوفة إلى حدٍّ كبير وكأنهما يعيشان في هذا المكان منذ أسابيع.

- بحاجة إلى دليل؟ بحاجة إلى دليل؟ من أين أنتما؟

ظهر أرون من غرفة المكتب الصغيرة ووضع المفتاحين على مكتب الاستقبال، بوجه ينمّ عن أنه لم يعد شيء في العالم يثير استغرابه، نظراً لأنّ كلّ شيء على ما هو عليه وسيكون دائماً على ما سيكون عليه. صعدا السلالم المتعرجة، التي تقاطعها ممّرات مهملة ذات درجات صاعدة ودرجات هابطة، ووصلا إلى غرفتيهما في الطابق الثالث، في الجهة الخلفية من الفندق. فتح كويتن باب غرفة أونو وأعطاه المفتاح، وقال: «إنني في الغرفة المجاورة. إذا احتجت إليّ، نادني!».

- ليست هناك حاجة لأن تبقى في الفندق من أجلي. اذهب بأريحية إلى المدينة، هناك الكثير مما يستحقّ المشاهدة. سأراك بعد قليل.

- حاول أن ترتاح قليلاً.

عندما خطا أونو من فوق العتبة، التفت إلى الوراء ونظر أحدهما إلى الآخر برهة قصيرة، وكأنّ كلّاً منهما يتوقّع أن يقول الآخر شيئاً؛ لكن لم ينبس أيّ منهما بكلمة.

*

في داخل الغرفة، استلقى أونو من فوره على السرير، وضع عصاه بجانبه على الأرض، أغمض عينيه، وطوى يديه على صدره. وهو راقد على هذا النحو، عاودته أفكاره على الفور. تراءت لعينيه وهي واقفة على المصطبة، مديرة رأسها إليه. «بسكويّ الفستق»، لم أسمع هذا الاسم منذ زمن بعيد. تلكما العينين الفريديتين من نوعهما.. 31415.. كم كان عمرها؟ في أواخر السبعينيات؟ قرابة الثمانين؟ هل المستحيل ممكن فعلاً؟ هل رأى والده ماكس؟ إيفا فايس؟ هل يُعقل أنها لا تزال على قيد الحياة؟ حاول أن يستحضر في ذهنه صورة زفافها، التي وضعها ماكس على «رفّ الشرف» في خروت ريخترن، فوق رفّ الموقد. تلك الصورة من سنوات العشرينيات كانت بالأبيض والأسود بطبيعة الحال؛ لا يتذكّر سوى أنّ ماكس قد ورث عينيه عن والده وأنفه وفمه عن والدته. كان أنف 31415 لافتاً للنظر أيضاً، ولكنّ هذا ليس بالشيء الغريب في هذه المنطقة، لا عند اليهود ولا عند العرب؛ لعلّ فمها أيضاً قد احتفظ بشيء من الشهوانية. ولكن إذا كان هذا صحيحاً، فعليه مواجهة العاقبة العصيّة على التصرّو،

وهي أنّ كويتن ليس ابنه، بل ابن ماكس. هذا يعني خيانة آدا له مع ماكس. هذا يعني خيانة ماكس لصداقتهما. قرف من نفسه. ما هذه التوهّمات؟ تصوّر لو أنّ والدّة ماكس قد نجت من أوشفيتز، كانت ستعود على الفور إلى هولندا لتبحث عن ابنها، وكانت ستعثر عليه عن طريق الصليب الأحمر خلال زمن قصير عند تلك العائلة المتبنّية. ولكنّ تلك العائلة كانت كاثوليكية - هل يمكن أن تكون قد نجحت في إخفاء ماكس في أيام الفوضى تلك، خوفاً من أن يتلقّى تربية يهودية وتضيق بذلك روحه إلى الأبد؟ لقد حدث مثل ذلك بضع مرّات؛ حتى في إحدى المرّات باختطاف الطفل إلى دير. كلّاً، يتذكّر أنّ ماكس أخبره بأنّه لم يكن يُجبر حتى على رسم الصليب قبل تناول الطعام. هناك احتمالٌ آخر وهو أنّ الألمان أخبروها في ذلك الوقت بأنّ ابنها أيضاً قد سيق إلى معسكر إبادة، مثل والديها. عندما عادت إلى هولندا، استفسرت عمّا إذا رجع أحدٌ منهم من المعسكر. لم يكن أحد قد رجع. ولكن ابنها لم يرجع، لأنّه لم يكن قد رُحِّل أصلاً. لعلّها كانت تستطيع التوصل إلى معرفة هذا الأمر من المعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب، فقد كان المجلس اليهودي في زمن الحرب يسجّل كلّ شيء بدقة متناهية؛ ولكن لأنها عاشت سنوات في يقين من أنّه نُقل هو أيضاً إلى بولندا، لم يخطر في بالها السؤال هناك. بعد ذلك لم يبقَ لديها ما تفعله في هولندا، التي ليس فيها سوى ذكريات مروّعة، فهاجرت إلى إسرائيل. ولكن مهلاً، والدا ماكس بالتبنيّ أيضاً قد استفسرا من ناحيتهما عمّا إذا رجعت والدته من المعسكر، ويبدو أنّه قيل لهما إنّها لم ترجع. كيف كان ذلك ممكناً إذا؟ كلّ شيء ممكن على الدوام. لعلّهما استفسرا عن إيفا ديليوس، في حين سجّلت والدّة ماكس نفسها باسم إيفا فايس، لأنّها لم تعد قادرة على لفظ اسم ديليوس. إذا كان الأمر قد سار على هذا النحو، فيجب أن يكون بمقدوره معرفة هذا من المعهد الوطني لتوثيق وقائع الحرب. ويمكن أن يكون كلّ شيء قد سار بطريقة مغايرة تماماً، إذ إنه بالتفكير لا يستطيع إعادة بناء أحداث الواقع؛ يجب عليه ببساطة التحرّي عمّا إذا كانت السيّدّة التي رآها قبل قليل هي إيفا فايس. يجب أن يكون هذا ممكناً، فإسرائيل ليست كبيرة إلى هذا الحد. ولكن إذا كانت فعلاً هي، ستكون في أغلب الظنّ قد عبرت اسمها، وتدعى الآن شاوان لاوان. يضاف إلى ذلك أنّها لم تكن قد بلغت الأربعين من العمر بعد، في عام 1945؛ امرأة بهذه الجاذبية وبمثل هاتين العينين الجميلتين ستكون من دون شك قد تزوّجت مرة أخرى، ولعلّها صارت الآن أرملة بنسبة مختلفة. يجب عليه إذاً النهوض في الحال والذهاب إلى السجّل المدني، وإلى متحف المحرقة اليهودية ذاك، ياد فاشيم، حيث توجد سجّلات كلّ الملايين من القتلى؛

لعلّ لديهم أيضاً أرقام التسجيل الألمانية من أوشفيتز. لكنّه لم ينهض، بقي راقداً في غرفته الصغيرة الحارّة المفتقرة إلى مكيف هواء. هل أنجبت طفلاً آخر؟ لعلّها لم تنجب. لقد صار ابنها الوحيد في عداد الأموات - هل كانت تجلس في جوار حفيدها الوحيد قبل قليل؟ هل كان كويتن يجلس في جوار جدّته؟ وجد نفسه يتمسّك بهذه التخمينات لا لشيء إلا ليتفادى أهمّ الأشياء. قطّب ما بين حاجبيه برهة قصيرة وهو مغمض العينين. هل كان ماكس قادراً على فعل هذا الشيء؟ طبعاً، كان قادراً على فعل أيّ شيء؛ حتى لقد كان بوسعه أن يغدر بالربّ إذا تعلق الأمر بالنساء. ولكن آدا؟ استرجع في ذاكرته تلك الليلة في هافانا، قبل ما يقارب الثمانية عشر عاماً، عندما حبلت بكويتن حسب حساباتهما. طيفها في فتحة باب غرفته في الفندق في وقت متأخر من المساء... من أين كانت قادمة؟ فتح عينيه. الويل، هذا ما حدث! لقد ذهبت إلى الشاطئ مع ماكس، من دونه هو نفسه، لأنه كان يخونها مع ماريّا، تلك الأرملة الثورية - أي أنه سمح لها بإغرائه، تماماً مثلما أغرته آدا في تلك الليلة نفسها، متصرّفة عكس طبيعتها السلبية تماماً! جلس من رقوده، بينما يرد إلى ذهنه مقطعٌ من «آلام القديس ماثيو»، التي شاركت آدا في عزفها: «ماذا يمكننا أن نشهد أيضاً؟». هل قامت مع ماكس بنوع من تدريب مكرّر، بشيء من حنين تحوّل إلى ممارسة فعلية، ثم جاءت تطهّر نفسها عنده - لكنّها في الواقع لوّثت نفسها بماريا؟ كان ماكس في هذه الحالة هو الأقوى: لم يكن بوسعه أن تحبل، فقد كانت تأخذ حبوب منع الحمل، لكنّ نطفته بلغت من الوقاحة ما كان يبلغه هو نفسه وضربت بالحبوب عرض الحائط. هذا يفسّر كلّ شيء في الواقع! لا بدّ أنه عاش في خوف لشهور طويلة من أن يشبهه الطفل، وعرضه بأن يتولّى تربيته لم يكن ببساطة بدافع من الصداقة، بل للتكفير عن ذنبه - وبهذا المعنى بدافع من الصداقة أيضاً. في الوقت نفسه أثقل كاهله بالشعور بالذنب لأنه لم يقم على تربية ابنه، الذي ربما لم يكن ابنه، والذي تخلّى عنه كليّاً فوق ذلك في زمن لاحق! بينما رأسه مُدار إلى جانب، نظر من النافذة إلى السماء الزرقاء، التي يتردّد فيها الصوت غير المرئي لأجراس الكنائس والحمام الهادل. والآن؟ إذا كان كلّ ما يفكر فيه صحيحاً، فهذا يعني أنّ السيّدة العجوز هي إيفا فايس بلحمها وشحمها؛ ولكن لعلّه ليس صحيحاً. هل كان ماكس يعلم أنّ كويتن ابنه؟ كويتن لا يشبه أيّاً منهما، ولكن لعلّ ماكس اكتشف مع ذلك شيئاً مشتركاً بينه وبين كويتن. هل كانت صوفيا تعرف أيضاً يا تُرى؟ من الواضح أنّ ثمة شيئاً كان يحدث بين هذين الاثنين! أو لعلّ صوفيا اكتشفت شيئاً مشتركاً بين ماكس وكويتن، شيئاً غير لافتٍ للانتباه، نادراً ضئيل الأهمية، لكنّها لم تخبره

به. وبما أنها لم تخبره هو أيضاً، أي أونو، في ذلك الوقت، فلن تخبره الآن أيضاً. وعلى كل حال من سيستفيد من هذه المعرفة؟ أقلهم سيكون كويتن. لقد بحث عن والده لسنوات طويلة، بينما كان والده ربما يجلس قبالة إلى الطاولة كل مساء، والذي أدى مهمة والده في الواقع طوال ذلك الوقت. الشخص الوحيد الذي سيكون سعيداً بهذا هي شاوان لاوان. الخبر الذي مفاده أن ابنها لم يُعدم بالغاز في التاسعة من عمره، بل أصبح عالماً فلكياً بارزاً، وتوفي للتو في الحادية والخمسين من عمره، سيزجّ بها طبعاً في مزيج مستحيل من الفرح والحزن؛ لعلها قرأت التقرير الرائع عن موته حتى هنا في الجريدة، مشيراً إلى «عالم فلكي هولندي في فيسٲربورك»، دون ذكر اسمه، لأنه لم يكن ذائع الصيت إلى ذلك الحد. ولكن إذا نجت من هذا الخبر، فسيكون بوسعها النظر في عيني حفيدها، وكأنها تنظر إلى نفسها في المرأة. لن يستطيع اكتشاف الحقيقة إلا من خلال تحديد هوية السيدة 31415 - ولعلّ تحديدها ممكن أيضاً باللجوء إلى الوسائل الطبية في الوقت الحاضر. لم يقرأ الجرائد لسنوات طويلة، لكنّه لن يتفاجأ إذا كانت تلك الأبحاث كلّها عن الحمض النووي قد أدّت في تلك الأثناء إلى نتائج مضمونة في تحديد صلة القرابة. ولكن في هذه الحالة يجب على كويتن أيضاً إعطاء عيّنة من الدم أو اللعاب - وهذا في حدّ ذاته سيعود عليه بتأثير سامّ بطبيعة الحال، حتى ولو تبين من هذا الفحص أنه هو نفسه والده. وإلى ذلك، هل يريد أن يعرف حقاً؟ بعد فاجعة آدا، وموت هيلخا، ومصائبه العلمية والسياسية، يمكن أن يتبين أيضاً أنه لم يعد له ابنٌ في آخر الأمر. ألا يحسّن به إذا إبعاد عيني تلك السيدة المقدسية عن ذاكرته؟ وما هي الحقيقة؟ إذا لم يفعل شيئاً، لن يخطر في بال أيّ شخص مثل هذه الأفكار المزرية وسيبقى كلّ شيء على حاله: سيحتفظ كويتن بالأب الذي بحث عنه وعثر عليه، وسيكون هو نفسه له ابن، مثلما كان لماكس ابن طوال ذلك الوقت، ابنه وليس...

أدار ساقيه عن السرير، أخذ عصاه، ونهض واقفاً. ذهب إلى كويتن، الذي لا يزال قلقاً من دون شك. سيقول له إنه ربما تعرّض إلى ضربة شمس خفيفة على جبل الهيكل، ولكن الأمور كلّها عادت إلى خير ما يرام.

65. آخذ الشريعة

بعد أن أوصل كويتن أونو إلى غرفته، ذهب إلى غرفته الخاصة. على إطار بابه أيضاً هناك علبة صغيرة مستطيلة الشكل بيضاء اللون، ميزوزا، تحتوي حسبما أخبره والده على لفيفة رَق صغيرة مكتوبة عليها الوصايا من التوراة. لمسها بيده برهة قصيرة، أغلق الباب وراءه، وأقفله تلقائياً بالففل السحاب ذي السلسلة القصيرة.

كان الجو حاراً. خلع ملابسه كلها، ألقاها على السرير، وضع ساعته وبوصلته على المغسلة واغتسل. رغم أن النافذة مفتوحة، إلا أنه لا يمكن لأحد اختلاس النظر إليه؛ هناك فناء في الجزء الخلفي من الفندق، تحيط به بيوت أقل انخفاضاً بكثير من ثلاث جهات. ربط المنشقة حول خاصرته دون أن يجفّف نفسه، جلس على ركبتيه أمام النافذة وصالب ذراعيه على حافتها. أجال عينيه بخمول على البلدة القديمة، التي يتصاعد منها الصوت البرونزي لأجراس الكنائس؛ جبل الهيكل يقع على الطرف الآخر. ينبعث هديل الحمام فوق السطح. علم من نظرة على عقرب بوصلته المتذبذب أن الشمال الغربي يقع أمامه مباشرة. أدرك أن سرير والدته قائم هناك، على الطرف الآخر من الهضاب طفيفة الانحدار في البُعد - وراء البحر، تركيا، البلقان، النمسا، ألمانيا. لم يتغيّر شيء هناك بطبيعة الحال، إنه بعيد عن المتزل منذ ما يقارب أربعة أسابيع. حقاً؟ أليست أربع سنوات؟ أربعين سنة؟ كيف حال الجدّة صوفيا يا تُرى؟ لا بدّ أنها تظنّ أنه لا يزال يتسكّع في روما بين الكنائس والمتاحف. هل السيّد ثيمات، الذي تعلّم منه الشيء الكثير، لا يزال على قيد الحياة؟ لو عرف ماذا فعل في هذه الأثناء، ماذا كان سيقول؟ «مرحى يا كوكو، لقد فعلتها مرة أخرى!»^(٥). وبيت كيلر؟ لولاه لما استطاع فعل هذا كله. هل السيّد سبير لا يزال يعيش في ويلز، في ذلك المكان المتضمّن اسمه تلك

(٥) بالإنكليزية في الأصل. [م]

الحروف الغريبة كلّها؟ وكلاهما وماريوس بروكتور، وفيردونكسخت مع صديقه إتيان، وروتخر مع ستارته الكبيرة جداً - أين هم جميعهم؟ هل لا تزال خروت ريخترن موجودة، أم امتلأت القلعة بالأوباش المرتدين الأحذية طويلة الساق سوداء اللون؟ من المؤكد أنّ تيو كيرن لا يزال يسكن فيها، يتجول بقدميه الحافيتين الأرجوانيتين. فكّر أيضاً في ماكس برهة قصيرة، ولكن بطريقة مختلفة. رغم أنه عاش معه تحت سقف واحد طوال حياته، لم يستطع استحضاره في ذاكرته بوضوح لسببٍ أو لآخر. لم ينسَ أيّ شيء - أقدم ذكرى من ذكرياته هي أنّ ماكس أجلسه في حضنه أمام البيانو الكبير وأسمعه أنواع النغمات كلّها - لكن خيّل إليه وكأنّ كلّ شيء يحدث تحت المياه: مرثي وقريب، ولكن مع ذلك في محيط مختلف. لعلّ هذه المياه هي الحرب، التي كانت تحيط به على الدوام. هو يعرف ما حدث لماكس في خطوطه العريضة: عالم مختلف لا يمكن تصوّره، ليس له أيّ صلة به؛ لا تربطه علاقة وثيقة بعائلة والده أيضاً، لكنّها عائلته في آخر الأمر. اليهود وقتلة اليهود - هذا القران الفظيع غريب بالنسبة إليه غرابة تاريخ شعب الأزتيك، مع أنه يحتفظ بالشرعية اليهودية في الخزانة في الطابق السفلي. هذا لا يمتّ بصلة إلى حقيقة أنه هو نفسه يهودي بنسبة اثنين وثلاثين من الجزء، كما اكتشف في الآونة الأخيرة، فهذا تكثيف ضئيل للغاية، يكاد لا يزيد عن ثلاثة بالمئة - وإنما يمتّ بصلة إلى حلمه بالحصن. من ناحية أخرى كان ماكس يهودياً بنسبة خمسين بالمئة؛ هل حدث أن زار إسرائيل يا ترى؟ هل مشى في شوارع القدس؟ كان يحزم حقائبه مرّة أو مرّتين في السنة لحضور مؤتمر خارج البلاد، حتى في أميركا، واليابان، وأستراليا، لكنّ كويتن لا يستطيع تذكّر أنه سمع شيئاً عن إسرائيل ذات يوم. لعلّهم لا يفعلون الشيء الكثير هنا في علم الفلك.

ماكس، صوفيا، والدته، والده... خيّل إليه أنه يودّعهم كلّهم. أراح ذقنه على ذراعيه وهو يشعر بالنعاس، ونظر إلى المنحدرات الجافة المغمورة بالشمس، المترامية في سكون حتى الأفق خلف البلدة الجديدة الواقعة في أسفلها. يبدو وكأنّ الخطوط المتماوجة التي تبرز بها الأرض المخضلة بالدماء أمام السماء الزرقاء، لم تكونها أحداث جيولوجية، بل رسمتها يدٌ ملهّمة. كان جسمه قد جفّ، وطوّقه مجدداً الحرّ القائظ الذي يخيم على البلدة والريف... وإذا به يرفع رأسه في اندهاش. لم يعد يسمع أيّ صوت. لقد سكّنت أجراس الكنائس، ربما لأنّ ساعة مقدّسة قد مضت أو حلّت؛ ولكن لم تعد الأصوات تتناهى أيضاً من النوافذ الموجودة على مدار الفناء، حتى لقد اختفى هديل الحمام. يبدو وكأنّ العالم قد غطّ في نوم عميق -

المنازل، الطبيعة، السماء... ما الذي يحدث فجأة لكل شيء؟ هل ينام والده أيضاً في الغرفة المجاورة؟ لا شيء يتحرك في أيّ مكان، حتى لقد اختفت ارتعاشات الحرّ فوق السطوح. يراوده شعور بأنه لا ينظر إلى عالم الحقيقة، بل إلى منظر مرسوم من الطراز القديم، مثل بانوراما مسدّخ في لاهاي، التي ذهب إليها في إحدى المرات مع عمته دول؛ كان يخيم على ذلك المنظر المكوّن من التلال الرملية صمّت ساكن مثل الذي يخيم هنا. كلّ ما يراه موجود، وغير موجود في الوقت نفسه... هو وحده لم يتغيّر فيه أيّ شيء، يسمع دقات قلبه وهفيف الدم في أذنيه.

ولكن عندئذٍ يحدث شيء مع ذلك. في قبة السماء الزرقاء تظهر نقطة سوداء صغيرة بصورة مفاجئة، وكأنّ ثقباً يحدث فيها - ليس فوق الأفق بكثير، في اتجاه تل أبيب. تتحرّك قليلاً في صعود وهبوط وتكبّر بهوادة. لكنّها فجأة تبدو قريبة جداً، وكأنّها شيء يقترب: تأخذ شكلاً بصورة تدريجية، تمتدّ بالعرض فتأخذ شكل خطّ أسود، تتحرّك نهايته بوقار في صعود وهبوط. أهو طائر؟ لو أنه طائر، فهو طائر كبير. ينهض بحركة سريعة ويفتح عينيه على اتساعهما. إدغار! إنه إدغار! لقد بلغ فوق الوادي شديد الانحدار ويقبل على الفندق في خطّ مستقيم. هل يُعقل حقاً أنه تفقّى أثر أونو تلك المسافة كلّها من إيطاليا إلى هنا؟ هذا شيء غير ممكن على الإطلاق! ولكن لا أحد يفهم الطيور؛ لا أحد يعرف كيف تجد طريقها وهي تقطع نصف العالم في بعض الأحيان. عندما يصل إدغار فوق سور البلدة، يتوقّف عن الخفقان ويغوص مبسوط الجناحين بأناقة في الهواء. ما يلبث أن يحطّ على حافة النافذة بساقيه الممدودتين، يهزّ ريشه، يطوي جناحيه، يدور حول محوره دورة واحدة، يرفع ذيله، يُسقط قليلاً من الذرق، وينظر إليه بعين واحدة.

يقول كويتن وقد خطا خطوة إلى الوراء: «عليك الذهاب إلى الغرفة المجاورة». ويشير إلى الجانب: «إلى النافذة المحاذية».

يندهش من صوته في الحال. عادةً يسمع صوته من جانبيين على الدوام: من خلال أذنيه ومن داخل نفسه، أما الآن فتبقى كلماته مكتومة في أعماق صدره، وكأنّ أذنيه مسدودتان. وصول إدغار حدث أيضاً في صمّت شامل. حتى ولو سمع الطائر كلماته، لما كان له أن يفهمها؛ لا يلقي إليها بالاً على كلّ حال. يقفز قفزة مرفرفة على الأرض ويحجل باعتزاز لا شكّ فيه صوب الباب.

يقول كويتن: «طبعاً، مثلما تريد. تستطيع الذهاب عبر الممرّ أيضاً. كم ستكون مفاجأة بالنسبة إلى أبي!».

ولكن عندما يخطو من فوق العتبة، يتوقف. لم يعد هناك ممرّ. الجدار المقابل أفسح مكانه لدرابزين بقضبان على شكل جرار، تتراعى خلفه مساحة شاسعة ملأى بالسلاسل والشرفات. يلتفت إلى الورا. لم يخفِ باب غرفة والده فحسب، بل وباب غرفته أيضاً، لقد اختفى الجدار بأكمله: على هذا الجانب أيضاً، في البُعد، وفي الأعالي وفي الأعماق، أعدادٌ لانهائية من ممرّات معمّدة، مشكاوات، بوابات، قناطر... هل هذا حلم؟ إنه واقف على جسر مشاة ضيق، ينحدر من إطار نافذة منحوت ذي طيلة معمارية؛ يمتدّ مدعوماً بأعمدة من تماثيل العذارى ويختفي بعد مسافة قصيرة في ظلّ رواق معمّد عالي السقف. ينظر حوله بتنهيذة عميقة. يطوّقه الحصن مجدّداً في نهاية الأمر، بنعيمه الحلو كلّّه، دافئاً دفء جسده. لقد فكّر فيه مرّة تلو المرّة، في البندقية، في فلورنسا، في روما، في القدس، لكنّه الآن وهو موجود بذاته، لا يُذكره بأيّ شيء آخر: إنه على النحو الذي هو عليه، شأنه شأن الشمس التي ليست في حاجة إلى أيّ شيء آخر كي تصبح مرئية. لكنّ أشعة الشمس لا تحيط به، ولا ضوء القمر ببساطة، بل شيء أقرب إلى «ضوء رماديّ أشهب»، يُرى عادةً على سطح القمر، بجوار الهلال الرفيع قبل المُحاق وبعده مباشرة، ولا يكون رمادياً أشهب في بعض الأحيان، بل رماديّ بلون الرخام - ناجم عن ضوء الشمس المنعكس من الأرض، ويزداد سطوعاً كلّما تكاثفت الغيوم في هذا الجانب من الأرض، كما شرح له ماكس في مساء من المساءات الشتوية على شرفة غرفة نومه.

يذرّع إدغار جيئةً وذهاباً على الدرابزين بنفاد صبر، ينظر إلى الأسفل برأس مائل، أو إلى الأعلى، أو إلى الأسفل والأعلى في الوقت نفسه؛ ييسط جناحيه ويغوص إلى الأسفل، يحلّق إلى الأعلى، يحوم فوق صفّ من الركائز الضخمة، يختفي في البُعد خلف دعائم قنطرة من حجر الآجر، يدور في العمق حول عمود هائل ذي تاج مفرط الزخارف؛ على الدعامة البيضاء بياض الحليب تلوح الحروف «XDX»، بعضها أسفل بعض. يبدو وكأنّ أثر طيرانه الاستكشافي الأنيق يرتسم وراءه مثل شريط أسود في الفضاء. عندما يرى ما يكفي، يحطّ على الأرض في نهاية جسر المشاة، يدير رأسه إلى الورا مئةً وثمانين درجة، وينقب بمنقاره بين ريشه، بينما يمدّ أحد جناحيه بأرياش مبسوطة. يحدث انطباعٌ لدى كويتن أنه يفعل هذا لا شيء إلا لقتل الوقت - الطائر في انتظاره. عندما يصل إليه، يحجل إدغار ويرفرف أمامه مثل

دليل سياحي. ينتهي صف الركائز عند سلّم رخاميّ عريض، محفوف بالتماثيل من الجانبين، يؤدي في نزول إلى تركيبة معقدة من قناطر مغلقة وحارات ضيقة، مسقوفة أحياناً، تفضي إلى سلسلة من قاعات بابوية. عندما تنساب القاعات في حارة فرعية تقوم على يمينها ويسارها واجهاتٌ جبّارة طافحة بالزخارف، مفصولة بعضها عن بعض بالعضادات، يفقد كويتن كلّ إحساس بالوقت والاتجاه. لكنّه ليس في حاجة إلى الوقت والاتجاه. يفضّل السير وراء إدغار إلى الأبد، هنا في هذا العالم الفردوسي الصامت صمت القبور، المشيد له هو وحده. عند سلّم حلزوني حول دعامة مبنية بأحجار ضخمة سميكة سُمك أمتار، يكتشف إدغار حيلةً بصورة مفاجئة: يضع مخالفه ومنقاره حول الحاجز المقتول، يتزحلق عليه في خطّ لولبيّ بهيج إلى الأسفل، محافظاً بجناحيه على توازنه. يحاول كويتن أن يضاهيه في السرعة، فيقفز ضاحكاً على درجتين في كلّ خطوة. عندما يبلغ أسفل السلّم بعد خمس دورات، يتوقّف مصاباً بالدوار ويبحث حوله بعينه. أين إدغار؟ هل صار مُلاعباً؟ هل اختبأ في مكانٍ ما؟

يرى كويتن بهزة شديدة أين هو، لكنّه لا يشعر بالخوف. لا، هذا ليس حتماً. الأشياء الأخرى كلّها حلم، إسرائيل، إيطاليا، هولندا - الحصن هو الوحيد الموجود فعلاً. قبالة، على بُعد نحو سبعة أمتار، الباب ذو القضبان الحديدية، المزين بنماذج معيّنة الشكل، المفضي إلى مركز العالم، مفتوح على مصراعيه؛ قفل المشبك السحاب الصديّ الثقيل واقع على الأرض. إدغار الأسود سواد الجهة الخلفية من المرأة، جاثمٌ على العتبة، مثل حارس، يحملق فيه بطريقة لا تمتّ بأيّ صلة إلى الملاعبة. عندما يقترب منه بهوادة، يرى وراءه الخزنة الخضراء الخاصة بالفندق.

يلتفت إدغار إلى الورا، يحطّ ببضع خفقات قصيرة من جناحيه على الخزنة، ويبدأ بشحذ منقاره على حافتها - ولكن حتى من دون فعل هذا، يفهم كويتن ما يجب أن يفعله. يخطو من فوق العتبة بارتعاشٍ طفيف. الغرفة مكعبة الشكل طولها وعرضها وارتفاعها نحو عشرة أمتار؛ رغم أنّ الجدران تفتقر إلى فتحات، يخيم ضوء الغبش نفسه الذي يخيم في كلّ مكان. ليس هناك شيء آخر سوى الخزنة في وسط الغرفة. يجلس على ركبتيه أمام زرّ القفل المشفّر بالحروف ويأخذه بين أصابعه. لا يحتاج إلى التفكير في التوليفة - ليست هناك سوى توليفة واحدة: «ي. هـ. و. هـ». يفتح الباب الهائل ويأخذ الحقيبة من الرف السفلي. عندما يفتح أقفالها، يرى قبل كلّ شيء الظرف السمنيّ المكتوب عليه «ساميوم كويتي». يأخذه بشيء من الرقة. هنا المكان المناسب لتحديث خرائطه، ولكن هذا سيكون في الوقت نفسه أشبه

بحال عالم رياضيات يعدّ أصابعه ويدوّن النتيجة. يفتح الجرائد، يُخرج اللوحين الرماديين من بينها، ويضع أحدهما إلى جانب الآخر برفق على الأرضية الحجرية. بعد ذلك يعيد الطرف إلى الحقيقة، يدفع الحقيقة إلى مكانها، ويغلق باب الخزانة، هذه المرة من دون ضجّة. يحرك الزرّ مرتين بطرف يده في آخر الأمر، مثلما رأى أرون يفعل. دون أن يعرف ماذا يجب أن يحدث بعد ذلك، يأخذ اللوحين الثقيلين في يديه بذراعيه الممدودتين، وينهض من قرفصائه، ما يكون علامة لإدغار لأن يقفز على كتفه.

لكنّه عندما يتخطّى العتبة، يحدث تغير آخر. يتوقّف مذعوراً، إدغار إلى جانب أذنه، قدماه الجلديتان بالمخالب القاسية على جلده. الكتل الحجرية المحيطة به تفقد ماهيتها: تبدو وكأنّها تتحوّل إلى خشب.. ثم إلى أقمشة مصبوغة.. ثم إلى دانتيل بروكسل، يستطيع أن ينظر من خلاله.. يتفتّت كلّ شيء ويتبخّر، يبدأ ضوء النهار بالنفاذ، بعد برهة قصيرة لا يبقى من الحصن سوى صورة مبهمّة ترتعش على مدى لحظة واحدة - ولكنّ هذه الصورة المبهمة تحديداً تمنحه إحساساً مفاجئاً بمقاساته: كتلة من ألف كيلومتر إلى الشرق، حتى بغداد، وألف كيلومتر إلى الغرب، حتى ليبيا، وألف كيلومتر إلى الشمال، حتى البحر الأسود، وألف كيلومتر إلى الجنوب، حتى المدينة، وألفي كيلومتر إلى الأعلى، حتى أحزمة الإشعاع الأولى.. فجأةً يقف في الخارج في الشمس مع إدغار واللوحين، ويرى من فوره أين هو: في وادي قدرون.

قبالته، في العلياء، تلمع القبة الذهبية لقبة الصخرة، بارزة فوق جدار الهيكل؛ وراءها جبل الزيتون؛ لا بدّ أنّ المسافة التي اجتازها في الحصن تقارب المسافة التي قطعها من الفندق إلى هنا. يشعر بعدم ارتياح لوجود المنشقة وحدها حول الجزء السفلي من جسمه، ولكنّ العالم لا يزال ساكناً وهاثلاً مثلما كان قبل قليل. هل الشمس أيضاً ساكنة في القبة الزرقاء؟ هذا لا يمكن بطبيعة الحال، فلو سكنت لاحترق كلّ شيء - ليس في حاجة إلى ماكس ليفهم هذا الأمر. ألم يمضِ الوقت بين اللحظة قبل قليل وهذه اللحظة يا تُرى؟ ولكن إذا لم يكن هذا حلمًا، فماذا تكون «هذه اللحظة» إذا؟ تقع عينه على البوابة الذهبية، التي تبرز هنا من السور إلى الأمام بعض الشيء. لقد اختفى الجنود من فوق السطح؛ المدخلان العاليان مفتوحان. أيجب أن يذهب عبرها ويضع الوصايا العشر في مكانها فوق الصخرة؟ لكنّه قال لوالده إنه لا ينوي فعل ذلك، إذ لا ينبغي لأحد الحصول عليهما. البوابة على جهة جبل الهيكل مسدودة بالحجارة والإسمنت على كلّ حال. ومع ذلك لا يستطيع إلا أن يسير في صعود في ذلك

الاتجاه: سيرى ما يحدث. يتوقّف بعد بضع خطوات. الأرض الوعرة مثورة بالحجارة، تؤلم قدميه الحافيتين، لا سيما أنه صار أثقل بكثير باللوحين تحت ذراعيه. يبحث بعينه في ما حوله عمّا إذا كان هناك زوجٌ من خرق قديمة أو سعف نخيل في الجوار - سيكون من الأفضل طبعاً لو يعثر على زوجٍ من الأحذية. عندئذ يرى شيئاً يتحرّك في زاوية عينه بصورة مفاجئة. من اليمين من جهة الشمال، في البُعد، يقترب حصان أبيض في خيب عبر الخندق المحاذي لل سور، بعُرف يتمايل وذيل يتماوج. ينظر كويتن بضمٍ مفتوح إلى الطيف المقرب في الطبيعة الجامدة. يشبُّ الحصان على قائمتيه الخلفيتين أمامه، ويحرّك رأسه في صعود وهبوط بينما يتطاير اللعاب حوله، وكأنه يريد تأكيد شيء. وفي اللحظة نفسها يعرف كويتن ما الذي يؤكّده الحصان.

- «ديب ثوت سان ستار!».

ينفطر شيء في داخله. يريد وهو يجهد بالبكاء أن يلفّ ذراعيه حول عنقه، لكنّ اللوحين الحجريين يحولان دون ذلك؛ عندما يطبع قبة على خطم الحيوان، يركّ أمامه مثل جمل. بينما يتشبّث إدغار بشعر كويتن المربوط في ذيل في مؤخرة رأسه، يمتطي ظهره المتعرق؛ ينهض «ديب ثوت سان ستار» بحركات قصيرة سريعة ويسير بخطوات هادئة صوب البوابة الذهبية. في حين يتصب كويتن بجسده العلوي العاري، الغراب على كتفه، اللوحان الحجريان في يديه، ينظر حوله بابتسامة إلى الهضاب الشبيهة بقصص الخيال ودار الهيكل المقرب. ليت تبتوس يستطيع رؤيته الآن، والبابا، والحاخام الأكبر! بعد برهة قصيرة يسير «ديب ثوت سان ستار» من بين القبور بحذرٍ شديد وبركٍ مجدّداً بالقرب من البوابة. عندما يترجّل كويتن، ينهض الحصان في الحال ويعود في خيب إلى الوادي؛ كذلك إدغار يسط جناحيه، يضرب بهما قمة رأسه، ويطيّر في أعقاب الحصان. يشعر كويتن بالحزن وهو يراهما يتضاءلان في الحجم: الحصان في خيب، الغراب فوقه، بياض أحدهما الناصع يبلغ سواد الآخر الحالِك... عندما يختفيان، يسود السكون مجدّداً في كل الأرجاء.

يلتفت إلى الورا بتنهيدة ويدخل بوابة الحراسة. الجانب الآخر أيضاً مفتوح الآن. يقطع بشعور مهيب المساحة نصف المعتمة، التي تنتصب فيها بضعة أعمدة هنا وهناك؛ يبدو وكأنّ هناك هسهسة خفيفة، مثل صوت البحر في قوقعة. في الخارج تستقبله الشمس مجدّداً، ويصعد ببطء الدرجات المؤدية إلى مستوى الساحة. يتوقّف هناك وينظر حوله. المساحة تقارب مساحة معسكر فيستربورك. لا تُرى روحٌ حيّة. كلّ شيء له وحده، العالم بأسره له وحده وفي

انتظاره. يسير على العشب صوب السلم العريض في مصطبة الهيكل. الممرّ المقنطر، الذي يعزلها في أعلى السلم، مكوّن هنا من خمس قناطر؛ يتوقّف عن السير مجدّداً تحت القنطرة الوسطى. أمامه بشكل مستقيم قبة السلسلة الصغيرة بقبّتها الفضية، وراها مباشرة قبة الصخرة الذهبية: طفل مع والده. لقد انتهت أعمال الترميم في الحرم الصغير: يستطيع النظر عبر الحيز المفتوح المحيط بالحرم إلى الجزء الداخلي المظلم من قبة الصخرة. يأخذ نفساً عميقاً من الهواء ويبدأ بالسير صوب الثقب الأسود ذاك، دون أن يحوّل عنه عينيه.

ولكن عندما يجتاز مركز قبة السلسلة، ويحيط به الصفّ المزدوج من الأعمدة، تحين اللحظة أخيراً: - أخذ المهمة عنه. يسمع خشخشة خفيفة بصورة مفاجئة فيتوقّف عن السير. ينظر حوله باستغراب، لكنّ الصوت قريب. يبدو وكأنه قادم من اللوحين الحجريين. يسندهما على الجانب الأيمن والأيسر من خاصرته وينظر في دھول إلى ما يحدث. يبدو وكأنّ القشرة الرمادية تنبض بالحياة، تتحرّك، تذوب، هناك شيء يصارع من أجل الخروج من تحتها، من أجل التحرر منها؛ بعد برهة قصيرة يرى كائنات صغيرة، شقّافة مثل الزجاج، تظهر على السطح بأكمله؛ تتحرّر من قشرة آلاف السنين، تقفز منها وتحوم حوله في أسراب. حروف! إنها حروف! حروف من النور! في اللحظة نفسها يبلغ لوحا الياقوت من الثقل أنه لا يستطيع إبقاءهما في يديه - بينما تنفلت المنشفة أيضاً عن خاصرته، ينزلقان ويتهشّمان دون ضجة على البلاط الرخامي. لكنّه لا يكثرث بهذا الأمر، يجب أن يمسك الحروف، فهي لا ينبغي أن تهرب! الكلمات العشر! لا تسرق! لا تقتل! يحاول إمساكها بيديه الاثنتين، ولكنّ السرب يصعد إلى القبة، صوب ورقة البرسيم خماسية الوريقات، خضراء اللون، في أعلى نقطة منها، يحوم هناك مثل الفراشات، يغوص إلى الأسفل، يرفرف صوب قبة الصخرة، ويختفي في المدخل الأسود. يركض وراه بيأس.

في الداخل، في الضوء نصف المظلم، ترقص الحروف متلاثلة في صعود وهبوط فوق الصخرة المقدّسة. ماذا يجب أن يفعل بحقّ السماء؟ فجأة، يشعر بعينين مستقرّتين عليه. المرأة في اللباس الأبيض، التي كانت جالسة تصلّي في الكوة، ملتفتة إلى الوراء وتنظر إليه بعينين لامعتين، مثل أيل. المنديل منزلق عن رأسها، وجهها مُوطّر بمربّع من الشعر الأسود. يتجمّد. هل هذا حلم رغم كلّ شيء؟

يصيح: «ماما!» - ولكن لا يخرج صوت من فمه.

في المكان الواقف فيه، لا تزال النساء الأخريات جالسات أيضاً في الشرفة وينظرن إليه

بعيون أياثل - بقفزة واحدة يقف على الصخرة: الأدابات حوله! النساء كلهن والدته! يسط ذراعيه بهوادة، يحني رأسه إلى الوراء، ويرى الزخارف العربية على الجهة الداخلية من القبة: شبكة من أعداد «8» متصافرة بعضها في بعض، لا حصر لها - وفي هذه اللحظة يطوق السرب المتشكّل من حروف موسى جسده العاري بنور لا متناهٍ، باهر، إلى درجة أنّ جسمه يختفي فيه، مثل ضوء شمعة في ضوء الشمس.

*

في الممرّ، طرق أونو الباب. عندما لم يسمع جواباً بعد أن طرق مرّة ثانية، فتح الباب برفق؛ ولكن بعد عشرة ستيترات حالت سلسلة القفل دون فتحه. لم يستطع أن يرى من خلال الشق سوى جزء من المغسلة، الموضوع عليها ساعة كويتن وبوصلته.

نادى: «كويتن؟ هل أنت نائم؟».

لم يسمع جواباً أيضاً. انحنى بجذعه وحاول النظر من خلال ثقب المفتاح، لكنّه لم يتمكّن من رؤية شيء، فنادى بصوت عالٍ: «كويتن!».

وطرق الباب بعصاه ثلاث مرّات.

لم يحدث شيء. ما الأمر؟ لا بدّ أنه في غرفته، فالقفل المزوّد بالسلسلة لا يمكن أن يُقفل من الخارج. هناك شيء ليس على ما يرام! بينما يشعر أونو بالدم يصعد إلى رأسه، وضع عصاه مثل عتلة في الشقّ، وضغط عليها بكلّ ما أوتي من قوّة، فطارت السلسلة من الإطار وانخبط الباب بالحائط. لا أحد. الملابس التي كان يرتديها في الصباح موضوعة على السرير؛ سرواله الداخلي أيضاً. نظر أونو بارتياح إلى النافذة المفتوحة. هل حدث شيء كارثي؟ هل خطرت لكويتن تلك الأفكار نفسها التي خطرت له هو نفسه عن تلك السيّدة 31415 وقام في نوبة من فقدان الصواب... ولكن لو حدث ذلك، لكان سمع من دون شك! وصل ببيض خطوات إلى حافة النافذة، الملوّثة بقليل من ذرق الطيور ونظر إلى الأسفل. في الفناء ثمة امرأة مسنة تحشر كومة من الشراشف في أكياس غسيل كبيرة؛ امرأة نحيفة ذات شعر مائل إلى الحمرة مستلقية على مقعد حجري، تقرأ في كتاب وتورجج عربية طفل بحركة آلية بيدها الأخرى. نظر ذات اليمين وذات الشمال وإلى الأعلى على طول الجدار الخارجي - ليس هناك سلّم أو مزارب في أيّ مكان، يمكن أن يكون قد تسلّق عليه إلى الخارج. لماذا يجب أن يتسلّق إلى الخارج وهو عارٍ من الملابس على كلّ حال؟ نظر في خزانة الحائط وتحت السرير، ثم وقف مترنحاً

في وسط الغرفة. يجب عليه مواجهة الأمر بأناة وروية. إذا كان كويتن غير موجود هنا، وإذا كان من غير الممكن أن يكون قد غادر من الباب، ولا من النافذة، فلا يؤدي هذا إلا إلى استنتاج واحد: لقد حدث شيء مستحيل.

هو يعلم منذ اليوم الذي وُلد فيه كويتن أن المال سيؤول به إلى فعل شيء مستحيل ذات يوم. حقيقة أنه أخذ لוחي الشريعة من السانكتا سانكتورم كانت شبه مستحيلة - أما اختفاؤه من هذه الغرفة فهو المستحيل بعينه. مع أن المستحيل مستحيل! فكّر أونو في اللوحين الحجريين اللذين وضعهما كويتن في الخزنة يوم أمس: هل يموت أحد هذين الأمرين بصلة إلى الآخر؟ هل يبرهن المستحيل على شبه المستحيل؟

نظر حوله مرة أخرى، كما لو أن كويتن يمكن أن يكون قد عاد إلى الظهور بصورة مفاجئة، ثم نزل إلى الطابق السفلي. كان مكتب الاستقبال وصالة الجلوس مهجورين؛ ضغط على زرّ جرس من طراز قديم موضوع على طاولة الاستقبال. ما لبثت أن ظهرت فتاة ذات شعر أسود قصير من الباب خلف المكتب: «شالوم».

قال أونو: «ابني...» - واندش في اللحظة نفسها من هذه الكلمة - «... وضع حقيبة في الخزنة يوم أمس. هل أخرجها منها في الساعة الماضية يا تُرى؟».

- يؤسفني أنني لم أر ابنك بعد، اليوم.

- والسيد أرون؟

- غادر والدي في الصباح الباكر إلى بيت لحم، لعيادة جدّتي المريضة. الخزنة لم تُفتح منذ أمس. تستطيع التأكد بنفسك، إذا أردت.

تبعها إلى غرفة المكتب الصغيرة، حيث جلست على ركبتيها أمام الخزنة وأدارت القفل المشقّر بالحروف. فتحت الباب وأشارت إلى الحقيبة، الموضوعّة على الرفّ السفلي. نظر أونو إليها لبضع ثوان، ثم قال: «هل يمكنني أخذها لحظة؟».

ناولته إياها - ولكن في اللحظة التي أمسك فيها الحقيبة، بدت وكأنها تريد أن تطير في الهواء، وكأنه قذفها باتجاه السقف، كانت خفيفة إلى هذا الحدّ. لقد اختفى اللوحان الحجريان منها!

سألت الفتاة بابتسامة: «ماذا تفعل؟».

قال أونو وهو يتلمّس حوله: «أشعر بالدوار».

جاءته بكرسي على جناح السرعة، فجلس بالحقيبة في حضنه. هذا أيضاً شيء مستحيل. اختفاء اللوحين من هذه الخزانة لا يقلّ استحالةً عن اختفاء كويتن من غرفته. سأل رغم معرفته أنّ سؤاله لا جدوى فيه: «هل يعرف شخص آخر توليفة الحروف في هذا القفل؟».

نظرت إليه بارتياح: «لا أحد سوانا أنا والدي. هل تظن أنك تفتقد شيئاً؟».

هزّ أونو رأسه بلا. رغم معرفته بأنه شيء غير جائز، بدأ يعث بأقفال الحقيبة بأصابع مرتجفة، فانحنت إلى الأمام وفتحت له الأقفال. قرأ المكتوب على الظرف، الذي كان قد رآه أثناء التفتيش يوم أمس في مطار روما: «سامنيوم كويتي». حلم كويتن؟ أيمن أن تكون رسالة وداع، كتبها في وقت سابق؟ أخرج الأوراق من الظرف، لكنها لم تكن سوى رسومات معمارية وخرائط أشبه بالمتاهات، مزودة بتعليقات هنا وهناك، مثل جسر مشاة، مركز العالم، سلّم حلزوني. التفسير الوحيد لما لا يمكن تفسيره هو... أمسك رأسه بيديه الاثنتين بصورة مفاجئة. لم يعد يستطيع التفكير! لعلّ كويتن ليس ابنه، أو لعلّه ابنه، لكنّه رحل، رحل إلى الأبد، اختفى من وجه الأرض، لا أحد يعرف إلى أين. لقد تخلى عنه كويتن، مثلما تخلى هو نفسه عنه في إحدى المرات - لكنّه هو لن يجده مرة أخرى، مثلما وجده كويتن. لقد صار فعلاً في الحال الذي وضع نفسه فيه بشكلٍ اصطناعي قبل أربع سنوات: لم يعد له أحد...

- هل أنت بخير؟

قال وهو يبحث باضطراب في جيبه الداخلي: «لا، لست بخير إطلاقاً.. يجب عليّ...». وأخذ يقلب صفحات مفكرة صغيرة بيدين مرتعشتين: «هل أستطيع إجراء مكالمة هاتفية هنا؟». - طبعاً.

أخذت الفتاة الحقيبة من حضنه، ودلّته على الهاتف الموضوع على المكتب الصغير، إلى جانب الآلة الكاتبة: «اتصال محلي؟».

- اتصال دولي.

- سأشغل العدّاد إذاً.

ضغطت على زرّ صندوق أسود معلق على الحائط، أغلقت الخزانة، وقالت: «سأتركك وحدك».

- صوفيا برونس.
- معك أونو.
- مَنْ معي؟
- معك أونو. أونو كويست.
- أونو؟ هل أسمع جيّداً؟ هل أنت أونو؟
- نعم.
- لا أستطيع أن أصدّق. قلّها مرّة أخرى!
- أنت تتحدّثين مع أونو، مع صهرك.
- أونو! كيف يمكن هذا! كنت أعلم أنك ستظهر مرة أخرى ذات يوم! من أين تتصل؟
- هل أنت في هولندا؟
- أتصل من القدس.
- القدس! هل كنت هناك طوال هذه السنوات؟
- لا. أعلم أنه يجب عليّ توضيح الكثير، وسأفعل، لكنني الآن أتصل لأنّ...
- شيء لا يُصدّق أن تتصل الآن بالذات.. كما لو أنك شعرت...
- بماذا شعرت؟
- أونو...
- ما الأمر؟
- جهّز نفسك لتلقّي صدمة يا أونو. لقد عدت من حرق جثة آدا للتوّ. لم أخلع معطفي بعد.. أونو؟ أما زلت معي؟
- لا تؤاخذيني، رأسي يدور، هذا كلّهُ.. هل أحرقت جثة آدا للتوّ؟!
- أظنّ أنهم الآن يضعون رمادها في الجرة. لا داعي للحزن، كان يجب أن يحدث هذا منذ زمن بعيد جداً.
- نعم.
- البنت المسكينة.. لقد انتهى كل شيء. بعد أكثر من سبع عشرة سنة - شيء فظيع.
- نعم.

- تريد طبعاً التحدّث مع كويتن، لكنّه غير موجود. كنتُ وحدي هناك قبل قليل. إنه في إيطاليا منذ بضعة أسابيع، ولم أسمع منه أيّ شيء بعد. كان عيد ميلاده في الآونة الأخيرة، لكنني لا أعرف أين يتسكّع. لا يعرف أيّ شيء بعد.
- أمي.. لهذا السبب أتصل بك. بشأن كويتن.
- بشأن كويتن؟ ماذا تقصد؟
- التقينا، مصادفةً، في روما.
- التقيتما؟ أنت لا تعني ما تقول! متى؟ لماذا لم تخبرني؟ ألم يكن في منتهى السعادة؟ وماذا تفعّلان في القدس؟
- لقد حدثت أشياء كثيرة في هذه الأثناء، لا أستطيع شرح كل شيء الآن، لا يمكن شرحه على كل حال، ولكن...
- ولكن؟ لماذا لم تعد تقول شيئاً؟ هل حدث شيء لكويتن؟
- نعم.
- ماذا؟ أونو! بحقّ السماء! لم يمت هو أيضاً، أليس كذلك؟
- لا أعرف. لقد ذهب.
- ذهب؟ ألم تبلغ الشرطة؟
- لا جدوى من ذلك.
- كيف تعرف؟ كم مضى على ذهابه؟
- ساعة.
- ساعة؟ هل تقول «ساعة»؟ ألسنت مرهقاً بعض الشيء يا أونو؟
- هذا أيضاً. أعلم أنها تبدو حماقة، ولكن...
- توقّف من فضلك! إذا كان قد ذهب قبل ساعة، فسيعود بعد ساعة أيضاً. أعرف جولات التسكّع التي يقوم بها هذا الصبي، كان يضيّع طوال الوقت عندما كان طفلاً صغيراً. خذ شيئاً مهدّثاً أو حاول النوم قليلاً. سامحني، ذهني مشغول بأشياء أخرى. سأخبرك بشيء يجب أن تعرفه ولكن لا ينبغي لأحدٍ آخر معرفته.
- أكاد لا أسمعك.

- يجب أن أتكلّم بصوت منخفض، لأنّ هذه الحثالة هنا في القلعة يمكن أن تتصّت عليّ في الوقت الحاضر. سأنتقل قريباً للسكن مع شخص في فيستربورك لحسن الحظ، مع صديقة ماكس السابقة. لقد سمعت بالطبع ما حدث.

- نعم.

- اسمعني جيّداً يا أونو! ألا تتساءل كيف ماتت آدا بصورة مفاجئة؟

- تقصدين...

- نعم. هذا ما أقصده. كتبت في رسالة الوداع أنّ لحم آدا من لحمي وأنّ لي القرار الأخير بشأنها. كانت في وضع فظيع في الفترة الأخيرة، لم أعد أتحمل النظر إليها. لم تعد كليتها تعملان، كانت مصابة بسرطان رحم منتشر، سأوفّر عليك التفاصيل. لقد أصبحت بيضاء تماماً. ولكنّ المستشفى لم يكن من النوع الذي تؤخذ فيه القرارات الأخيرة، لذلك كان يجب عليّ فعل ذلك بنفسِي.

- كيف؟

- بجرعة زائدة من الأنسولين. أعطيتها الجرعة مساء السبت الماضي، أثناء ساعة الزيارة، في نحو السابعة والنصف، تحت الملاءة، في فخذها الأيسر. لم يرني أحد. لم يكتشفوا أنها ميتة إلا صباح الأمس. لا بدّ أنها ماتت تقريباً الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، مثلما سمعت منهم عندما اتصلوا بي. هذا إذا لم تكن قد ماتت منذ زمن بعيد. بعد ظهر الأمس استطعت رؤيتها في مركز حفظ الجثث. ذكّرني بصغير أيل، لقد ضمرت إلى هذا الحدّ.

- وأحرقت جثّتها اليوم؟ اليوم هو الاثنين. ألم يحدث هذا ببالغ السرعة؟

- هذا الشيء لفت انتباه الجميع بطبيعة الحال. اتصلت بمحاميك غيلتاي، فقال إنّ أقلّ مدة هي ستّ وثلاثون ساعة حسب قانون الجنازة. والتمزموا بتطبيق القانون بحذافيره في المستشفى. أظنّ أنهم اشتبهوا بالأمر، مثلما اشتبه غيلتاي أيضاً. لعلّهم اكتشفوا الثقب في فخذها أثناء فحص الجثة وأرادوا التخلص من الدليل، على أنّ مثل هذه الأشياء الغريبة يمكن أن تحدث في مستشفاهم، بأسرع وقت ممكن. اليوم نُشر خبر قصير في الجريدة بأنّ السيّد «ك.» قد ماتت ميتة طبيعية بعد سبع عشرة سنة.

- مهلاً.. هذا.. هذا غير ممكن.. يجب أن أكتب. لقد أعطيتها تلك الحقنة مساء السبت. كانت الساعة عندئذٍ السابعة والنصف. لقد ماتت في الثانية عشرة والنصف من تلك الليلة. في

صباح أمس نُقلت إلى مركز حفظ الجثث، وبقيت هناك طوال اليوم. في الصباح وُضعت في التابوت ونُقلت إلى محرقة الجثث. أُحرقت هناك قبل ساعة.

- نعم. ما الشيء المهم في هذه التواقيت؟

- ماذا.. كيف يمكن.. أنا...

- أونو؟ ألو! أونو؟ هل تسمعني؟ ألا تزال معي؟

- هناك مشكلة في رأسي يا صوفيا، أشعر.. لم أعد أستطيع الكتابة.. جانبي الأيسر بأكمله.. قبل سنة ونصف تعرّضت أيضاً...

- يا إلهي! أونو! أين أنت؟

- فندق رافائيل...

- دعهم يستدعون طبيباً على الفور. سأخذ أول طائرة. أنا قادمة لأخذكما أنتما الاثنين.

خاتمة

- هذا يكفي! يجب أن تعرف متى تتوقف. فكّر في كلمة غوته: «الإيجاز يدلّ على البراعة».
- ولكن للبقاء على ضفّة الأمان قال أيضاً: «حقيقة أنك لا تستطيع أن تختتم هي التي تجعلك عظيماً»^(*).

- نعم، هذا هو حال الكتّاب. يلعبون دائماً على الحبلين. لقد أنجزت مهمتك ولديّ ستمئة وستة وستون سؤالاً عن مكائذك، لكنني لن أطرح أيّاً منها. الشيء الأهمّ هو أننا استرجعنا الشهادة في الوقت المناسب. أين رجلنا الآن؟
- عاد إلى النور.

- بوسعك القول بأريحية: عاد إلى الغسق. وماذا حدث لشظايا اللوحين؟
- أخذها عاملو النظافة في بلدية القدس. نقلوها مع تلك الكراكيب الأخرى كلّها، التي كانت موجودة في قبة السلسلة، إلى مكبّ النفايات.
- بهذا الصدد، أصبحت الشهادة نفسها في حالة من الفوضى. تبدو مثل حروف تنضيد مبعثرة.

- عندما تستخدم صورة مجازية دنيوية، يحسن بك اختيار شيء أكثر حداثة: مثل برنامج كمبيوتر محذوف.

- هذه لغة عالم لم يعد يهتمنا في شيء. أعني هذا أنّ لוחي الشريعة المصنوعين من الياقوت كانا جهاز الكمبيوتر؟
- إذا جاز التعبير.

(*) جملتا غوته الأولى والثانية كتبنا بالألمانية في النصّ. [م]

- نعم، منذ زمن سيكون يتحدث الشيطان الإنكليزية. إنها تصبح لغة العالم. لذلك دعنا نبقى على اللاتينية: كونسو ماتوم إست. لقد أنجزت. استنزفت قواي. لقد أنهكنا. أنهك العالم. أنهكت البشرية. أنهك كل شيء - باستثناء لوسيفر. لقد حدث ما ظنناه مستحيل الحدوث: استولى علينا الزمن. الزمن الذي كان سلاح لوسيفر الخفي. الشيء الوحيد الذي تبقى لنا بعد ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة هو استعادة هذه الكلمات العشر. إشارة عاجزة بطبيعة الحال: مثل فتاة مخدوعة تسترجع خاتم خطبتها. موااساة هزيلة، عمل رمزي، وداع شجي. كانت الوصايا العشر هي الشيء الجوهري على وجه الأرض: ميثاق الحاكم مع البشرية، مبرماً مع المفوض عنها، الشعب اليهودي، ممثلاً بقائده موسى في دور كاتب عدل. يستطيع لوسيفر أن يتصرف كما يحلو له من الآن فصاعداً. دعه يحصل على الأشياء الإنسانية. لم أعد أولي الأمر أي اهتمام.

- لعل شخصاً يظهر على وجه الأرض يستطيع إعادة الأمور إلى نصابها.

- في هذه الحالة يجب أن يأتي هذا الشخص من هنا، ولكن لم يعد أي شيء يستطيع أن يأتي من هنا. في موسكو استلمت شخصية متتورة زمام الأمور في الآونة الأخيرة - أعظم رجل في القرن العشرين البشري بالمعنى الإيجابي، مثلما كان الذي لا أريد ذكر اسمه بالمعنى السلبي - في غضون خمس سنوات سيهدم جدار برلين، ستخسر روسيا مستعمراتها، ويهتل العالم بأسره لبزوغ عصر جديد... عندئذ ستعود الطغمة المتخلفة المتعطشة للدماء إلى الحكم في المناطق المحررة، ستبدأ الهجرات الجماعية، ستدوي طلقات الرصاص مرة أخرى في سرايفو، وعندما تقترب الألفية الثالثة سيتكرر القرن العشرون المثير للاشمئزاز بسبب نجاحه الساحق.

- لا أستطيع تصديق هذا.

- ستتعلم كيف تصدق. وهذا كله لا يزال على حاله القديم، السياسة لا تعني شيئاً. كان صعود الإمبراطوريات العالمية وسقوطها موجوداً على الدوام. السياسة تموج في الأمواج في العاصفة، ليس له أي تأثير على الأمواج، لأنها تأتي من مكان مختلف كل الاختلاف - تأتي من القمر. إضافة إلى الكوارث القديمة تظهر الآن الموجات العارمة المدمرة للكوارث الجديدة أيضاً: بسيطرة الناس البيكونية على الطبيعة، سيضرمون النار في أنفسهم بالطاقة النووية في نهاية المطاف، سيحترقون عن طريق الثقب الذي أحدثوه في طبقة الأوزون، يذوبون في الأمطار الحمضية، يُشوون في الاحتباس الحراري، يسحقون بعضهم بعضاً بسبب

أعدادهم، يشقون أنفسهم بلولب الحمض النووي المزدوج، ويختنقون في فضلاتهم: في براز الشيطان، لأنّ ذلك الوضع لم يرم ميثاقه بدافع الحبّ للإنسان، وإنما بدافع كراهيته لنا. ستندلع نيران الجحيم على وجه الأرض، وسيأتي يوم يتحسّر فيه الناس على الزمن الماضي الجميل، عندما كانوا لا يزالون يستمعون إلينا - وفي أغلب الظنّ لن يفعلوا حتى ذلك مرة أخرى. لن يكون الوضع مأساوياً حتى، بل باعثاً على الشفقة. ليس هناك أمل. انس!

- وإذا صاروا على اطلاع بما فعلناه، ألن يجعلهم هذا يشعرون بالندم؟ يمكنني التكفل بهذا الأمر. هناك في هذه اللحظة شخص واحد على وجه الأرض يعرف ما حدث.

- لقد اقترحت هذا من قبل. لا توقع نفسك في الأوهام. إذا اكتشفوا ما فعلناه، لن يصدّق ذلك كلب واحد. سيذكر الخبر هنا وهناك؛ لعل بضعة آلاف من العادليين، وبضع مئات من علماء اللاهوت، وعشرة علماء آثار، سيؤخذون بالحماس الشديد، ولكن بعد ذلك سيجرّفه سيل الأخبار الأخرى المتدفّق من دون انقطاع، ويصبح طيّ النسيان بعد بضعة شهور. لا، كُفّ عن هذا. لقد قُضي الأمر! نهاية الكوميديا^(*).

- لكننا على الأقل نستطيع المحاولة!

- لا، لم أعد أريد أن يصبح هذا النسل الخائن لنا حتى على اطلاع بالأمر.

- هل أسمعك جيّداً؟ أيعرّض أونو كويست نفسه للخطر إذا أخبر أيّ شخص؟

- يجب منع حدوث هذا الأمر. لو أخبر أيّ شخص، اقفذه بحجر على رأسه هو أيضاً، مثلما فعلت مع ماكس ديلوس. اصمت لحظة... إنهم ينادونني. يجب أن أقدم تقريراً عمّا قصصته عليّ.

- دعنا نجد حلّاً آخر، يجب أن نقاتل حتى الرmq الأخير - لا يزال بوسعنا فعل هذا! الفشل أفضل من الاستسلام! ألا نستطيع فعل شيء حيال ذلك الميثاق الذي أبرمه لوسيفر مع ييكون؟ كلّفني بمهمّة جديدة على الفور!

- لقد ولّى ذلك الزمن. ستُحال إلى التقاعد. أشكرك على كلّ شيء، نيابةً عن الحاكم أيضاً. وداعاً!

- سأفعل ذلك من تلقاء نفسي إذا! هل تسمعني؟ لن أرفع الراية البيضاء! ماذا يتصوّرون أنفسهم! من يظنّون أنهم يكونون، حديثو النعمة هؤلاء! أجِبنِي!

(*) هذه الجملة باللاتينية. [م]

فهرس المحتويات

7	الجزء الأول: بداية البداية
9	مدخل
19	1. الحفلة العائلية
29	2. لقاءهما
37	3. الإيصال إلى البيت
49	4. الصداقة
60	5. اللعب في الشارع
67	6. لقاء آخر
79	7. المرصد الفلكي
91	8. حالة شاعرية
98	9. العفاريث
108	10. الغجر
117	11. المحاكمة
130	12. المثلث
139	13. ترتيب
149	14. تعويض
162	15. الدعوة
171	16. المؤتمر

185	17. أيام حارّة
198	18. نقطة التلاشي
209	19. في البحر
217	المهمّة
221	الجزء الثاني: نهاية البداية
223	الفصل الأول
233	20. هوبلاي
242	21. الخبر
254	22. والآن؟
264	23. طرّة أم نقش؟
271	24. حفلة الزفاف
282	25. المرأة
293	26. فانسلي
304	27. مواساة
315	28. الجنازة
328	29. اللارجعة
340	30. المشنقة
357	31. الطلب
370	32. انتحال شخصية
381	33. العملية القيصريّة
391	من الأعماق
393	الجزء الثالث: بداية النهاية
395	الفصل الثاني
401	34. الهبة

408	35. الانتقال
420	36. النصب التذكاري
428	37. رحلات استكشاف
439	38. القبر
449	39. رحلات استكشافية أخرى
462	40. عالم الكلمات
479	41. الغيابات
491	42. الحصن
504	43. ابتكارات
520	44. الـ «لا»
533	45. تغيُّرات
545	46. اقتصاد السوق الحرّ
554	47. الموسيقى
563	48. سرعات
574	49. ده فيستربورك
589	50. القرار
602	من الأعماق
603	الجزء الرابع: نهاية النهاية
605	الفصل الثالث
611	51. الجدار الذهبي
625	52. الرحلة الإيطالية
638	53. الظلّ
650	54. حجارة روما
664	55. المكان
675	56. دراسة كتابيّة

685	57. اكتشافات
698	58. تحضيرات
711	59. انتظار
725	60. عملية المغاوير
734	61. الرحلة
746	62. إلى هناك
762	63. مركز المركز
780	64. شاوان لاوان؟
790	65. آخذ الشريعة
805	خاتمة

هارى موليش (1927-2010):

روائي وكاتب مسرحي وشاعر هولندي، كتب العديد من الروايات والمسرحيات والقصائد والمقالات، وعمل في التحرير في عددٍ من المجلات الأدبية. يُعدّ من أهمّ كتّاب هولندا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. تُرجمت أعماله إلى أكثر من تسع وثلاثين لغة، وحُوّلت إلى مسرحيات وأفلام سينمائية.

حاز على جوائز أدبية مرموقة، من أهمّها جائزة الآداب الهولندية عام 1995 على كامل أعماله. نال أوسمة شرف هولندية وأوروبية، من ضمنها وسام أورنيه ناساو، ووسام أسد هولندا، ووسام استحقاق جمهورية ألمانيا الاتحادية، ووسام الفنون والآداب الفرنسي. حصل على دكتوراه فخرية من جامعة أمستردام. أُطلق اسمه على كويكب يقع بين المريخ والمشتري، وسُمّي شارعٌ باسمه في مدينة هارلم، مسقط رأسه. بعد سنة من وفاته حُوّل منزله في أمستردام إلى متحف.

نالت رواية «اكتشاف السماء» جائزة مولتاتولي عام 1993، وحُوّلت إلى فيلم سينمائي باللغة الإنكليزية في عام 2001، واعتبرها القراء الهولنديون في عام 2007 أفضل رواية مكتوبة بالهولندية على الإطلاق.

من أبرز أعماله: الاعتداء، سرير العروس الحجري، المرأتان، الضوء الأسود، الراوي، سيخفريد.

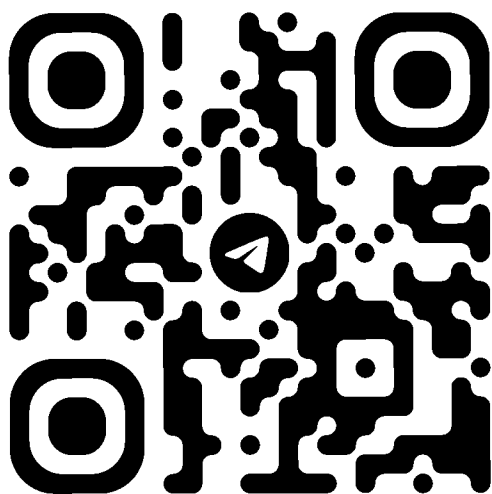
أمينة عابد:

من مواليد مدينة عفرين في سورية. مقيمة في هولندا منذ عام 1994. درست في كلية الاقتصاد في حلب، وإدارة أعمال في لايدن، عملت في تدريس اللغة العربية والترجمة الشفوية، وتعمل الآن في الترجمة الأدبية.

من ترجماتها عن الهولندية: «الاعتداء» لهارى موليش، «البحيرة السوداء» لهيلا هاسه،

«الحرب والتربتين» لستيفان هيرتمانس، «الأعيب العقل» لبرنلف، «الإوز يأكل خبز البط»
لأنّا روت فيرتهايم، «مكعبات الثلج» لبول ماراينيس، والعديد من النصوص الأدبية وقصص
الأطفال.

مكتبة
t.me/soramnqraa



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

اعتبر القراء في استفتاء جرى عام 2007 رواية "اكتشاف السماء"
أعظم رواية هولندية على الإطلاق.

telegram @soramnqraa

في ليلة باردة من ليالي هولندا، يلتقي مصادفةً "ماكس ديليوس"، وهو عالم
فلك ومن محبي المتعة، و"أونو كويست"، وهو لغويّ فوضوي لا يستطيع
تحمل تفاهات الحياة اليومية. ومن هذا اللقاء تنشأ بينهما صداقة كبيرة رغم
اختلافهما الشديد، وبعد وقت قصير يكتشفان أنهما ولدا في اليوم نفسه من
العام نفسه، وأن حياتيهما قد تقاطعت في لحظة استثنائية مع عازفة التشيلو
"آدا"، فتنشأ من هذه اللحظة أبوة جسدية وروحية لطفل بمواهب مذهلة،
سيكون مكلفاً من قبل السماء بإنجاز مهمة شديدة الغرابة.
في هذه الرواية الفأوسية، المليئة بالمفاجآت، نشعر أننا إزاء لوحة فسيفساء
كبرى، تزخر بنقاشات ثرية عن علم الفلك، والعمارة، والفلسفة، والفن،
والدين، واللغة، والذاكرة، والتاريخ... وهي رواية ملحمية تبقى في ذهن القارئ
لفترة طويلة بعد قراءتها، مانحة إياه فرصة تأويلها بأكثر من طريقة، وتتركه
منبهراً بالثقافة الموسوعية لكاتبها، وخياله الخصب... كيف لا، وهو واحد من
أعظم الروائيين والمفكرين الهولنديين؟!



دار مسدوح مدوان للنشر والتوزيع

الدار

ISBN 978-9933-701-21-5



9 789933 701215 >

مكتبة

t.me/soramnqraa